(٣/٣٩) صفحات من تاريخ مصر

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

المعروف

بالخطط المقريزية

الجزء الثالث

تأليف

تقي الدين أحمد بن علي المقريزي

تحقيق

محمد زينهم - مديحة الشرقاوي

مكتبة مدبولي

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

المعروف

بالخطط المقريزية

الكتاب : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
الكاتب : تقى الدين أحمد بن على المقريزى
تحقيق : د. محمد زينهم - مديحة الشرقاوى
راجعه وضبط هوامشه : أحمد أحمد زيادة
الناشر : مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة
تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ - فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤
الطبعة الأولى لمكتبة مدبولى
رقم الإيداع : ١٠٣٦٥ لسنة ١٩٩٧
ISBN: 977-208-228-4
الجمع التصويرى : مكتب زهران للتجهيزات الفنية
تليفون : ٣٤١٧٣٣٧ - ٤٣٢٠١٧٧
فاكس : ٣٤١٧٣٣٧
تم الطبع بمطابع دار الأمين - القاهرة
تليفون : ٥٩٣٢٧٠٦ - ٣٤٧٣٦٩١

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

المعروف

بالخطط المقريزية

الجزء الثالث والأخير

تأليف

تقي الدين أحمد بن علي المقريزي

تحقيق

د. محمد زينهم - مديحة الشرقاوي

مكتبة مدبولي
١٩٩٨

ذكر المواضع المعروفة بالصناعة

لفظ الصناعة ـ بكسر الصاد ـ مأخوذ من قولك : صنعه يصنعه صنعاً ، فهو مصنوع وصنيع ، عمله . واصطنعه اتخذه . والصناعة ما يستصنع من أمر . . . هذا أصل الكلمة من حيث اللغة .

وأما فى العرف فالصناعة اسم لمكان قد أعد لإنشاء المراكب البحرية التى يقال لها السفن ، واحدتها سفينة ، وهى بمصر على قسمين : نيلية ، وحربية .

فالحربية هى التى تنشأ لغزو العدو ، وتشحن بالسلاح وآلات الحرب والمقاتلة ، فتمر من ثغر الإسكندرية وثغر دمياط وتنيس ، والفرما إلى جهاد أعداء الله من الروم والفرنج . وكانت هذه المراكب الحربية يقال لها الأسطول ، ولا أحسب هذا اللفظ عربياً .

وأما المراكب النيلية فإنها تنشأ لتمر فى النيل ، صاعدة إلى أعلى الصعيد ، ومنحدرة إلى أسفل الأرض ، لحمل الغلال وغيرها .

ولما جاء الله تعالى بالإسلام لم يكن البحر يركب للغزو فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . وأول من ركب البحر فى الإسلام للغزو العلاء بن الحضرمي[1] رضى الله عنه ، وكان على البحرين من قبل أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فأحب أن يؤثر فى الأعاجم أثراً يعز الله به الإسلام على يديه .

فندب أهل البحرين إلى فارس فبادروا إلى ذلك ، وفرقهم أجناداً على أحدها الجارود بن المعلى رضى الله عنه ، وعلى الثانى سوار بن همام رضى الله عنه ، وعلى الثالث خليد بن المنذر بن ساوى رضى الله عنه ، وجعل خليدا على عامة الناس . فحملهم فى البحر إلى فارس بغير إذن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان عمر رضى الله عنه لا يأذن لأحد فى ركوب البحر غازيا كراهة للتغرير بجنده ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وخليفته أبى بكر رضى الله عنه .

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٥ / ١١٦ ـ ١١٩ .

فعبرت تلك الجنود من البحرين إلى فارس. فخرجوا فى إصطخر وبإزائهم أهل فارس عليهم الهربد، فحالوا بين المسلمين وبين سفنهم. فقام خليد فى الناس فقال: أما بعد، فإن الله تعالى إذا فضى أمراً جرت المقادير على مطيته، وإن هؤلاء القوم لم يزيدوا بما صنعوا على أن دعوكم إلى حربهم، وإنما جئتم لمحاربتهم، والسفن والأرض بعد الآن لمن غلب فاستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين.

فأجابوه إلى القتال، وصلوا الظهر ثم ناهزوهم. فاقتتلوا قتالا شديداً فى موضع يدعى طاووس، فقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها قبلها. وخرج المسلمون يريدون البصرة - إذ غرقت سفنهم ولم يجدوا فى الرجوع إلى البحر سبيلاً - فإذا بهم وقد أخذت عليهم الطرق، فعسكروا وامتنعوا.

وبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فاشتد غضبه على العلاء رضى الله عنه، وكتب إليه بعزله وتوعده، وأمره بأثقل الأشياء عليه وأبغض الوجوه إليه. بتأمير سعد بن أبى وقاص عليه، وقال: الحق بسعد بن أبى وقاص بمن معك.

فخرج رضى الله عنه من البحرين بمن معه نحو سعد رضى الله عنه، وهو يومئذ على الكوفة، وكان بينهما تباين وتباعد.

وكتب عمر رضى الله عنه إلى عتبة بن غزوان: «بأن العلاء بن الحضرمى حمل جنداً من المسلمين فى البحر فأقطعهم إلى فارس وعصاني، وأظنه لم يرد الله عز وجل بذلك، فخشيت عليهم ألا ينصروا وأن يغلبوا، فاندب لهم الناس، وضمهم إليك من قبل أن يجتاحوا».

فندب عتبة رضى الله عنه الناس، وأخبرهم بكتاب عمر رضى الله عنه. فانتدب عاصم ابن عمرو، وعرفجة بن هرثمة، وحذيفة بن محصن، ومجرأة بن ثور، ونهار بن الحارث، والترجمان بن فلان، والحصين بن أبى الحر، والأحنف بن قيس، وسعد بن أبى العرجاء، وعبد الرحمن بن سهل، وصعصعة بن معاوية رضى الله تعالى عنهم.

فساروا من البصرة فى اثنى عشر ألفا على البغال يجنبون الخيل، وعليهم أبو سبرة بن أبى رهم رضى الله عنهم. فساحل بهم حتى التقى أبو سبرة وخليد حيث أخذت عليهم الطرق، وقد استصرخ أهل إصطخر أهل فارس كلهم، فأتوهم من كل وجه وكورة. فالتقوا هم وأبو

سبرة، فاقتتلوا، ففتح الله على المسلمين، وقتل المشركون، وعاد المسلمون بالغنائم إلى البصرة، ورجع أهل البحرين إلى منازلهم.

فلما فتح الله تعالى الشام، ألح معاوية بن أبى سفيان ـ وهو يومئذ على جند دمشق والأردن ـ على عمر رضى الله عنه فى غزو البحر، وقرب الروم من حمص، وقال: إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم... حتى إذا كاد ذلك يأخذ بقلب عمر رضى الله عنه، اتهم معاوية لأنه المشير، وأحب عمر رضى الله عنه أن يردعه فكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر «أن صف لى البحر وراكبه، فإن نفسى تنازعنى إليه وأنا أشتهى خلافها».

فكتب إليه: «ياأمير المؤمنين إنى رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء. إن ركد حزن القلوب، وإن زل أزاغ العقول. يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة. هم فيه كدود على عود. إن مال غرق، وإن نجا برق».

فلما جاءه كتاب عمرو، كتب رضى الله عنه إلى معاوية: «لا ـ والذى بعث محمداً بالحق ـ لا أحمل فيه مسلماً أبداً. إنا قد سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطول شىء فى الأرض يستأذن الله تعالى فى كل يوم وليلة أن يفيض على الأرض فيغرقها. فكيف أحمل الجنود فى هذا البحر الكافر المستصعب؟ وتا الله لمسلم واحد أحب إلى مما حوته الروم فإياك أن تعرض لى ـ وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما لقى العلاء منى ولم أتقدم إليه ـ فى مثل ذلك».

وعن عمر رضى الله عنه أنه قال: لا يسألنى الله عز وجل عن ركوب المسلمين البحر أبدا. وروى عنه ابنه عبد الله، رضى عنهما، أنه قال: لولا آية فى كتاب الله تعالى لعلوت راكب البحر بالدرة.

ثم لما كانت خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه، غزا المسلمون فى البحر. وكان أول من غزا فيه معاوية بن أبى سفيان، وذلك أنه لم يزل بعثمان رضى الله عنه حتى عزم على ذلك فأخره، وقال: تنتخب الناس ولا تقرع بينهم. خيِّرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه. ففعل. واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الحاسى خليفة بنى فزارة، فغزا خمسين غزوة من بين شاتية وصائفة فى البر والبحر، ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب.

وكان يدعو الله تعالى أن يرزقه العافية فى جنده، ولا يبتليه بمصاب أحد منهم . . . حتى إذا أراد الله عز وجل أن يصيبه فى جنده، خرج فى قارب طليعته، فانتهى الى المرفاء من أرض الروم، فثار به الروم وهجموا عليه، فقاتلهم فأصيب وحده، ثم قاتل الروم أصحابه فأصيبوا .

وغزا عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى البحر لما أتاه قسطنطين بن هرقل سنة أربع وثلاثين فى ألف مركب يريد الإسكندرية، فسار عبد الله فى مائتى مركب أو تزيد شيئا وحاربه . فكانت وقعة ذات الصوارى التى نصر الله تعالى فيها جنده، وهزم قسطنطين وقتل جنده .

وأغزى معاوية أيضا عقبة بن عامر الجهنى رضى الله عنه فى البحر، وأمره أن يتوجه إلى رودس، فسار إليها .

ونزل الروم على البرلس فى سنة ثلاث وخمسين، فى إمارة مسلمة بن مخلد الأنصارى رضى الله عنه على مصر، فخرج إليهم المسلمون فى البر والبحر . فاستشهد وردان، مولى عمرو بن العاص، فى جمع كثير من المسلمين .

وبعث عبد الملك بن مروان، لما ولى الخلافة، الى عاملة على أفريقية حسان بن النعمان يأمره باتخاذ صناعة بنونس لإنشاء الآلات البحرية . ومنها كانت غزوة صقلية فى أيام زيادة الله الأول ابن إبراهيم بن الأغلب على شيخ الفتيا أسد بن الفرات .

ونزل الروم تنيس فى سنة احدى ومائة، فى إمارة بشر بن صفوان الكلبى على مصر من قبل يزيد بن عبد الملك، فاستشهد جماعة من المسلمين .

وقد ذكر فى أخبار الإسكندرية ودمياط وتنيس والفرما، من هذا الكتاب، جملة من نزلات الروم والفرنج عليها، وما كان فى زمن الإنشاء . فانظره تجده أن شاء الله تعالى .

وقد ذكر شيخنا العالم العلامة الأستاذ قاضى القضاء ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، الحضرمى الإشبيلي، تعليل امتناع المسلمين من ركوب البحر للغزو فى أول الأمر فقال :

«والسبب فى ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافته وركوبه .

والرووم والفرنجة لممارستهم أحواله، ومرباهم فى التقلب على أعواد، مرنوا عليه وأحكموا الدربة بثقافته . . .

«فلما استقر الملك للعرب، وشمخ سلطانهم، وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته. . استحدثوا بصرا بها. فتاقت أنفسهم الى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن والشواني، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر. واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب الى هذا البحر وعلى ضفته، مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس».

وأول ما أنشىء الأسطول بمصر فى خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله أبى الفضل جعفر بن المعتصم، عندما نزل الروم دمياط فى يوم عرفة سنة ثمان وثلاثين ومائتين ـ وأمير مصر يومئذ عنبسة بن إسحاق فملكوها، وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين، وسبوا النساء والأطفال، ومضوا إلى تنيس فأقاموا بأشتومها.

فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول، وصار من أهم ما يعمل بمصر، وأنشئت الشوانى برسم الأسطول، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر، وانتدب الأمراء له الرماة، فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو. وكان لاينزل فى رجال الأسطول غشيم، ولا جاهل بأمور الحرب.

هذا. وللناس إذ ذاك رغبة فى جهاد أعداء الله وإقامة دينه. . . لا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة، ولكل أحد من الناس رغبة فى أنه يعد من جملتهم، فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه.

وكان من غزو الأسطول بلاد العدو ما قد شحنت به كتب التواريخ. فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالا : ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم، ويأسر بعضهم بعضا لكثرة هجوم أساطيل الإسلام بلاد العدو، فإنها كانت تسير من مصر ومن الشام ومن أفريقية. فلذلك احتاج خلفاء الإسلام الى الفداء.

وكان أول فداء وقع بمال فى الإسلام أيام بنى العباس، ولم يقع فى أيام بنى أمية فداء مشهور، إنما ان يفادى بالنفر بعد النفر فى سواحل الشام ومصر والإسكندرية وبلاد ملطية وبقية الثغور الخزرية، الى أن كانت خلافة أمير المؤمنين هارون الرشيد.

«الفداء الأول»: باللامش من سواحل البحر الرومي، قريبا من طرسوس، فى سنة تسع وثمانين ومائة، وملك الروم يومئذ تقفور بن إشبراق. وكان ذلك على يد القاسم ابن الرشيد، وهو معسكر بمرج دابق من بلاد قنسرين في أعمال حلب، ففودى بكل أسير كان ببلاد الروم من ذكر أو أنثى.

وحضر هذا الفداء من أهل الثغور وغيرهم من أهل الأمصار، نحو من خمسمائة ألف إنسان، بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلام والقوة، قد أخذوا السهل والجبل، وضاف بهم الفضاء، وحضرت مراكب الروم الحربية، بأحسن ما يكون من الزي، معهم أسارى المسلمين. فكان عدة من فودى به من المسلمين، فى اثنى عشر يوما، ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير. وأقام ابن الرشيد باللامش أربعين يوما قبل الأيام التى وقع فيها الفداء وبعدها.

وقال مروان بن أبى حفصة فى هذا الفداء يخاطب الرشيد من أبيات:

وفكت بك الأسرى التى شيدت بها
محابس ما فيها حميم يزورها
على حين أعيي المسلمين فكاكها
وقالوا سجون المشركين قبورها

«الفداء الثاني»: كان فى خلافة الرشيد أيضا باللامش فى سنة اثنتين وتسعين ومائة، وملك الروم تقفور، وكان القائم بن ثابت بن نصر بن مالك الخزاعى أمير الثغور الشامية، وحضره ألوف من الناس. وكانت عدة من فودى به من المسلمين فى سبعة أيام ألفين وخمسمائة من ذكر وأنثى.

«الفداء الثالث»: وقع فى خلافة الواثق باللامش فى المحرم سنة أحدى وثلاثين ومائتين، وملك الروم ميخائيل بن نوفيل.

وكان القائم به خاقان التركى. وعدة من فودى به من المسلمين فى عشرة أيام أربعة آلاف وثلاثمائة واثنان وستون من ذكر وأنثى.

وحضر من خاقان أبو رملة، من قبل قاضى القضاة أحمد بن أبى داود، يمتحن الأسرى وقت المفاداة، فمن قال منهم بخلق القرآن فودى به وأحسن اليه، ومن أبى ترك بأرض الروم. فاختار جماعة من الأسرى الرجوع الى أرض النصرانية على القول بذلك.

وخرج من الأسرى مسلم بن أبى مسلم الحرمى - وكان له محل فى الثغور - وكتب مصنفه فى أخبار الرم وملوكهم وبلادهم، فنالته محن على القول بخلق القرآن ثم تخلص.

«الفداء الربع»: فى خلافة المتوكل على الله باللامش أيضا فى شوال سنة إحدى وأربعين ومائتين، والملك ميخائيل، وكان القائم به سيف خادم المتوكل، وحضر معه جعفر بن عبد الواحد الهاشمى القاضي، وعلى ابن يحيى الأرمنى أمير الثغور الشامية - وكانت عدة من فودى به من المسلمين فى سبعة أيام ألفى رجل ومائة امرأة، وكان مع الروم من النصارى المأسورين من أرض الإسلام مائة رجل ونيف، فعوضوا مكانهم عدة أعلاج... إذ كان الفداء لا يقع على نصرانى ولا ينعقد.

«الفداء الخامس»: فى خلافة المتوكل وملك الروم ميخائيل أيضا، باللامش مستهل صفر سنة ست وأربعين ومائتين. وكان القائم به على بن يحيي الأرمنى أمير الثغور، ومعه نصر بن الأزهر الشيعى - من شيعة بنى العباس - المرسل الى الملك فى أمر الفداء من قبل المتوكل. وكان عدة من فودى به من المسلمين فى سبعة أيام ألفين وثلاثمائة وسبعة وستين من ذكر وأنثى.

«الفداء السادس»: كان فى أيام المعتز، والملك على الروم بسيل، على يد شفيع الخادم فى سنة ثلاث وخمسين ومائتين.

«الفداء السابع»: فى خلافة المعتضد باللامش فى شوال سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وملك الروم اليون بن بسيل، وكان القائم به أحمد بن طغان، أمير الثغور الشامية وأنطاكية من قبل الأمير أبى الجيش خماروية بن أحمد بن طولون.

وكانت الهدنة لهذا الفداء وقعت فى سنة اثنتين وثمانين ومائتين، فقتل أبو الجيش بدمشق فى ذى القعدة من هذه السنة، وتم الفداء فى إمارة ولده جيش بن خمارويه. أيام ألفين وأربعمائة وخمسة وتسعين من ذكر وأنثي، وقيل ثلاثة آلاف.

«الفداء الثامن»: فى خلافة المكتفى باللامش فى ذى القعدة سنة اثنتين وتسعين ومائتين، وملك الروم اليون أيضا، وكان القائم به رستم بن نزدوى أمير الثغور الشامية. وكانت عدة من فودى به من المسلمين فى أربعة أيام ألفا ومائة وخمسة وخمسين من ذكر وأنثى. وعرف بفداء الغدر، وذلك أن الروم غدروا وانصرفوا ببقية الأسارى.

«الفداء التاسع»: فى خلافة المكتفي، وملك الروم إليون، باللامش أيضا فى شوال سنة خمس وتسعين ومائتين، والقائم به رستم. وكانت عدة من فودى به من المسلمين ألفين وثمانمائة واثنين وأربعين من ذكر وأنثى.

«الفداء العاشر»: فى خلافة المقتدر باللامش فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وثلاثمائة، وملك الروم قسطنطين بن إليون بن بسيل، وهو صغير فى حجر أرمانوس. وكان القائم بهذا الفداء مؤنس الخادم، وبشير الخادم الأفشينى أمير الثغور الشامية وأنطاكية، والمتوسط له والمعاون عليه أبو عمير عدى بن أحمد بن عبد الباقى التميمى الأدنى من أهل أدنة، وعدة من فودى به من المسلمين فى ثمانية أيام ثلاثة آلاف وثلاثمائة وستة وثلاثون من ذكر وأنثى.

«الفداء الحادى عشر»: فى خلافة المتقدر، وملك أرمانوس وقسطنطين على الروم، وكان باللامش فى شهر رجب سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة، والقائم به مفلح الخادم الأسود المقتدري، وبشير خليفة شمل الخادم على الثغور الشامية. وعدة من فودى به من المسلمين فى تسعة عشر يوما ثلاثة آلاف وتسعمائة وثلاثة وثلاثون من ذكر وأنثى.

«الفداء الثانى عشر»: فى خلافة الراضى باللامش، فى سلخ ذى القعدة وأيام من ذى الحجة سنة ست وعشرين وثلاثمائة، والملكان على الروم قسطنطين وأرمانوس. والقائم به ابن ورقاء الشيبانى من قبل الوزير أبى الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات، وبشير الشملى أمير الثغور الشامية.

وعدة من فودى به من المسلمين فى ستة عشر يوما ستة آلاف وثلاثمائة ونيف من ذكر وأنثى. وبقى فى أيدى الروم من المسلمين الأسرى ثمانمائة رجل ردوا، ففودى بهم فى عدة مرارا، وزيدوا فى الهدنة بعد انقضاء الفداء مدة ستة أشهر، لأجل من تخلف فى أيدى الروم من المسلمين، حيث جمع الأسارى منهم.

«الفداء الثالث عشر»: فى خلافة المطيع باللامش فى شهر ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة. والملك على الروم قسطنطين. والقائم به نصر الشملى من قبل سيف الدولة أبى الحسن على بن حمدان، صاحب جند حمص وجند قنسرين وديار بكر وديار مصر والثغور الشامية والخزرية.

وكانت عدة من فودى به من المسلمين ألفين وأربعمائة واثنين وثمانين من ذكر وأنثي، وفضل للروم على المسلمين قرضا مائتان وثلاثون لكثرة من كان فى أيديهم. فوفاهم سيف الدولة ذلك، وحمله إليهم.

وكان الذى شرع فى هذا الفداء الأمير أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد، أمير مصر والشام والثغور الشامية. وكان أبو عمير عدى بن أحمد بن عبد الباقى الأدنى شيخ الثغور، قدم إليه - وهو بدمشق فى ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة - ومعه رسول ملك الروم فى إتمام هذا الفداء، والإخشيد شديد العلة، فتوفى يوم الجمعة لثمان خلون من ذى الحجة منهـا.

وسار أبو المسك كافور الإخشيدى بالجيش راجعا الى مصر، وحمل معه أبا عمير ورسول ملك الروم إلى فلسطين، فدفع اليهما ثلاثين ألف دينار من مال الفداء، فسارا الى مدينة صور، وركبا البحر إلى طرسوس. فلما وصلا كاتب نصر الشملى أمير الثغور سيف الدولة ابن حمدان، ودعا له على منابر الثغور، فجد فى إتمام هذا الفداء، فنسب إليه.

ووقعت أفدية أخرى ليس لها شهرة:

فمنها فداء فى خلافة المهدى محمد، على يد النقاش الأنطاكى.

وفداء فى أيام الرشيد، فى شوال سنة إحدى وثمانين ومائة، على يد عياض بن سنان أمير الثغور الشامية.

وفداء فى أيام الأمين، على يد ثابت بن نصر، فى ذى القعدة سنة أربع وتسعين ومائة.

وفداء فى أيام الأمين، على يد ثابت بن نصر أيضا، فى ذى القعدة سنة إحدى ومائتين.

وفداء فى أيام المتوكل سنة سبع وأربعين ومائتين، على يد محمد بن على.

وفداء فى أيام المعتمد على يد شفيع، فى شهر رمضان سنة ثمان وخمسين ومائتين.

وفداء كان فى الإسكندرية، فى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة، خرج فيه أبو بكر محمد بن على الماردانى من مصر، ومعه الشريف أبو القاسم الرئيس والقاضى أبو حفص عمر بن الحسين العباسى وحمزة ابن محمد الكتاني، فى جمع كبير. وكانت عدة من فودى به من المسلمين ستين نفسا بين ذكر وأنثى.

فلما سار الروم إلى البلاد الشامية بعد سنة خمسين وثلاثمائة اشتد أمرهم بأخذهم البلاد.

وقويت العناية بالأسطول فى مصر منذ قدم المعز لدين الله، وأنشأ المراكب الحربية، واقتدى به بنوه - وكان لهم اهتمام بأمور الجهاد، واعتناء بالأسطول - وواصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر وإسكندرية ودمياط، من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات وتسييرها إلى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان.

وكانت جريدة قواد الأسطول فى آخر أمرهم تزيد على خمسة آلاف مدونة، منهم عشرة أعيان يقال لهم القواد - واحدهم قائد - وتصل جامكية كل واحد منهم إلى عشرين دينارا، ثم إلى خمسة عشر دينارا، ثم إلى عشرة دنانير، ثم إلى ثمانية، ثم إلى دينارين وهى أقلها. ولهم اقطاعات تعرف بأبواب الغزاة بما فيها من النطرون، فيصل دينارهم بالمناسبة إلى نصف دينار.

وكان يعين من القواد العشرة واحد، فيصير رئيس الأسطول، ويكون معه المقدم والقاوش. فإذا ساروا إلى الغزو كان هو الذى يقلع بهم، وبه يقتدى الجميع، فيرسون بإرسائه، ويقلعون بإقلاعه. ولابد أن يقدم على الأسطول أمير كبير من أعيان أمراء الدولة وأقواهم نفسا، ويتولى النفقة فى غزاة الأسطول الخليفة بنفسه بحضور الوزير.

فإذا أراد النفقة فيما تعين من عدة المراكب السائرة - وكانت فى أيام المعز لدين الله تزيد على ستمائة قطعة، وآخر ما صارت إليه فى آخر الدولة نحو الثمانين شونة، وعشر مسطحات، وعشر حمالة فما تقصر عن مائة قطعة - فيتقدم الى النقباء بإحضار الرجال - وفيهم من كان يتمعش بمصر والقاهرة، وفيهم من هو خارج عنهما - فيجتمعون.

وكانت لهم المشاهرة والجرايات فى مدة أيام سفرهم، وهم معروفون عند عشرين عريفا يقال لهم النقباء - واحدهم نقيب - ولا يكره أحد على السفر.

فإذا اجتمعوا أعلم النقباء المقدم، فأعلم بذلك الوزير، فطالع الوزير الخليفة بالحال، فقرر يوما للنفقة، فحضر الوزير بالاستدعاء من ديوان الإنشاء على العادة. فيجلس الخليفة على هيئته فى مجلسه، ويجلس الوزير فى مكانه، ويحضر صاحبا ديوان الجيش وهما المستوفى والكاتب، والمستوفى هو أميرهما، فيجلس من داخل عتبة المجلس، وهذه رتبة له يتميز بها، ويجلس بجانبه من وراء العتبة كاتب الجيش فى قاعة الدار على حصر مفروشة.

وشرط هذا المستوفى أن يكون عدلا ومن أعيان الكتاب - ويسمى اليوم فى زمننا ناظر الجيش - وأما كاتب الجيش فإنه كان فى غالب الأمر يهوديا. وللمجلس الذى فيه الخليفة والوزير أنطاع تصب عليها الدراهم، ويحضر الوزانون بيت المال لذلك.

فإذا تهيأ الإنفاق أدخل الغزاة مائة مائة، فيقفون فى أخريات من هو واقف فى الخدمة من جانب واحد نقابة نقابة، وتكون أسماؤهم قد رتبت فى أوراق لاستدعائهم بين يدى الخليفة. فيستدعى مستوفى الجيش من تلك الأوراق المنفق عليها واحدا واحدا، فإذا خرج اسمه عبر من الجانب الذى هم فيه إلى الجانب الآخر، فإذا تكملت عشرة وزن الوزانون لهم النفقة.

وكانت مقرر لكل واحد خمسة دنانير، صرف ستة وثلاثين درهما بدينار، فيسلمها لهم النقيب، وتكتب باسمه وبيده. وتمضى النفقة هكذا الى آخرها.

فاذا تم ذلك ركب الوزير من بين يدى الخليفة، وانفض ذلك الجمع. فيحمل إلى الوزير من القصر مائدة يقال لها غداء الوزير، وهى سبع مجنقات أوساط: إحداها بلحم الدجاج

وفستق معمولة بصناعة محكمة، والبقية شواء، وهى مكمورة بالأزهار. فتكون النفقة على ذلك مدة أيام، متوالية مرة، ومتفرقة مرة.

فاذا تكاملت النفقة، وتجهزت المراكب وتهيأت للسفر، ركب الخليفة والوزير إلى ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة. وكان هناك على شاطئ النيل بالجامع منظرة يجلس فيها الخليفة برسم وداع الأسطول ولقائه إذا عاد. فإذا جلس للوداع، جاءت القواد بالمراكب من مصر إلى هناك للحركات فى البحر بين يديه، وهى مزينة بأسلحتها ولبودها وما فيها من المنجنيقات، فيرمى بها وتنحدر المراكب وتقلع، وتفعل سائر ما تفعله عند لقاء العدو.

ثم يحضر المقدم والرئيس إلى بين يدى الخليفة فيودعهما، ويدعو للجماعة بالنصرة والسلامة، ويعطى للمقدم مائة دينار وللرئيس عشرين دينارا، وينحدر الأسطول إلى دمياط، ومن هناك يخرج إلى بحر الملح، فيكون له ببلاد العدو صيت عظيم ومهابة قوية.

والعادة أنه إذا غنم الأسطول ما عسى أن يغنم، لايتعرض السلطان منه إلى شئ ألبته. . . إلا ما كان من الأسرى والسلاح فإنه للسلطان، وما عداهما من المال والثياب ونحوهما فإنه لغزاة الأسطول لا يشاركهم فيه أحد. فإذا قدام الأسطول خرج الخليفة أيضا إلى منظرة المقس وجلس فيها للقائه.

وقدم الأسطول مرة بألف وخمسمائة أسير، وكانت العادة أن الأسرى ينزل بهم فى المناخ، وتضاف الرجال إلى من فيه من الأسري، ويمضى بالنساء والأطفال إلى القصر بعدما يعطى منهم الوزير طائفة. ويفرق ما بقى من النساء على الجهات والأقارب فيستخدمونهن، ويربونهن حتى يتقن الصنائع. ويدفع الصغار من الأسرى إلى الأستاذين فيربونهم ويتعلمون الكتابة والرماية، ويقال لهم الترابي، وفيهم من صار أميرا من صبيان خاص الخليفة.

ومن الأسرى من كان يستراب به فيقتل. ومن كان منهم شيخا لا ينتفع به ضربت عنقه، وألقى فى بئر كانت فى خرائب مصر تعرف ببئر المنامة. ولم يعرف قط عن الدولة الفاطمية أنها فادت أسيرا من الفرنج بمال ولا بأسير مثله. وكان المنفق فى الأسطول كل سنة خارجا عن العدد والآلات.

ولم يزل الأسطول على ذلك إلى أن كانت وزارة شاور، ونزل مرى ملك الفرنج على بركة الحبش، فأمر شاور بتحريق مصر وتحريق مراكب الزسوط، فحرقت ونهبها العبيد فيما نهبـــوا.

فلما كان زوال الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، اعتنى أيضا بأمر الأسطول، وأفرد له ديوانا عرف بديوان الأسطول، وعين لهذا الديوان الفيوم بأعمالها، والحبس الجيوشى فى البرين الشرقى والغربى. وهو من البر الشرقى تهتين والأميرية والمنية، ومن البر الغربى ناحية سفط ونهيا ووسيم والبساتين خارج القاهرة.

وعين له أيضا الخراج، وهو أشجار من سنط لا تحصى كثرة، فى البهنساوية وسفط ريشين والأشمونين والأسيوطية والأخميمية والقوصية... لم تزل بهذه النواحى لا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه، وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار - وقد ذكر خبر هذا الخراج فى ذكر أقسام مال مصر من هذا الكتاب - وعين له أيضا النطرون، وكان قد بلغ ضمانه ثمانية آلاف دينار.

ثم أفرد لديوان الأسطول، مع ما ذكر، الزكاة التى كانت تجبى بمصر، وبلغت فى سنة زيادة على خمسين ألف دينار، وأفرد له المراكب الديوانية وناحية أشناى وطنبدى. وسلم هذا الديوان لأخيه الملك العادل أبى بكر محمد بن أيوب، فأقام فى مباشرته وعمالته صفى الدين عبد الله بن على بن شكر. وتقرر ديوان الأسطول الذى ينفق فى رجاله نصف وربع دينار، بعد ما كان نصف وثمن دينار.

فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، استمر الحال فى الأسطول قليلا، ثم قل الاهتمام به، وصار لا يفكر فى أمره إلا عند الحاجة إليه.

فإذا دعت الضرورة إلى تجهيزه، طلب له الرجال، وقبض عليهم من الطرقات، وقيدوا فى السلاسل نهارا، وسجنوا فى الليل حتى لا يهربوا، ولا يصرف لهم إلا شئ قليل من الخبز ونحوه، وربما أقاموا الأيام بغير شئ كما يفعل بالأسرى من العدو.

فصارت خدمة الأسطول عارا يسب به الرجال، وإذا قيل لرجل فى مصر «يا أسطولي»

غضب غضبا شديدا، بعد ما كان خدام الأسطول يقال لهم «المجاهدون فى سبيل الله، والغزاة فى أعداء الله»، ويتبرك بدعائهم الناس.

ثم لما انقرضت دولة بنى أيوب، وتملك الأتراك المماليك مصر، أهملوا أمر الأسطول. إلى أن كانت أيام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، فنظر فى أمر الشوانى الحربية، واستدعى برجال الأسطول ـ وكان الأمراء قد استعملوهم فى الحراريق وغيرها ـ وندبهم للسفر، وأمر بمد الشوانى وقطع الأخشاب لعمارتها، وإقامتها على ما كانت عليه فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، واحترز على الخراج، ومنع الناس من التصرف فى أعواد العمل، وتقدم بعمارة الشوانى فى ثغرى الإسكندرية ودمياط.

وصار ينزل بنفسه إلى الصناعة بمصر، ويرتب ما يجب ترتيبه من عمل الشوانى ومصالحها، واستدعى بشوانى الثغور إلى مصر، فبلغت زيادة على أربعين قطعة، سوى الحراريق والطرائد فإنها كانت عدة كثيرة، وذلك فى شوال سنة تسع وستين وستمائة.

ثم سارت تريد قبرس، وقد عمل ابن حسون رئيس الشوانى فى أعلامها الصلبان، يريد بذلك أنها تخفى إذا عبرت البحر على الفرنج حتى تطرقهم على غفلة، فكره الناس منه ذلك. فلما قاربت قبرس، تقدم ابن حسون فى الليل ليهجم المينا، فصدم الشونة المقدمة شعبا فانكسرت، وتبعتها بقية الشوانى فتكسرت الشوانى كلها. وعلم بذلك متملك قبرس، فأسر كل من فيها، وأحاط بما معهم، وكتب إلى السلطان يقرعه ويوبخه، وأن شوانية قد تكسرت، وأخذ ما فيها ـ وعدتها إحدى عشرة شونة ـ وأسر رجالها.

فحمد السلطان الله تعالي، وقال: الحمد لله منذ ملكنى الله تعالى ما خذل لى عسكر ولا ذلت لى رأية، ومازلت أخشى العين، فالحمد لله تعالى بهذا ولا بغيره. وأمر بإنشاء عشرين شونة، وأحضر خمس شوانى كانت على مدينة قوص من صعيد مصر، ولازم الركوب إلى صناعة العمارة بمصر كل يوم، فى مدة شهر المحرم سنة سبعين وستمائة إلى أن تنجزت، فلم كان فى نصف المحرم سنة احدى وسبعين وستمائة زاد النيل حتى لعبت الشوانى بين يديه فكان يوما مشهودا.

وفى سنة اثنتين وتسعين وستمائة، تقدم السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن قلاوون إلى الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس، بتجهيز أمر الشوانى. فنزل إلى الصناعة، واستدعى الرئيس، وهيأ جميع ما تحتاج إليه الشوانى حتى كملت عدتها نحو ستين شونة، وشحنها بالعدد وآلات الحرب، ورتب بها عدة من المماليك السلطانية وألبسهم السلاح.

فأقبل الناس لمشاهدتهم من كل أوب قبل ركوب السلطان بثلاثة أيام، وصنعوا لهم قصورا من خشب وأخصاص القش على شاطئ النيل خارج مدينة مصر وبالروضة، وأكثروا الساحات التى قدام الدور والزرابى بالمائتى درهم كل زربية فما دونها. . . بحيث لم يبق بيت بالقاهرة ومصر إلا وخرج أهله أو بعضهم لرؤية ذلك، فصار جمعا عظيما.

وركب السلطان من قلعة الجبل بكرة، والناس قد ملأوا ما بين المقياس إلى بستان الخشاب إلى بولاق، ووقف السلطان ونائبه الأمير بيدر وبقية الأمراء قدم دار النحاس، ومنع الحجاب من التعرض لطرد العامة.

فبرزت الشوانى واحدة بعد واحدة، وقد عمل فى كل شونة برج وقلعة تحاصر، والقتال عليها ملح، والنفط يرمى عليها، وعدة من النقابين فى إعمال الحيلة فى النقب، وما منهم إلا من أظهر فى شونته عملا معجبا وصناعة غريبة يفوق بها على صاحبه.

وتقدم ابن موسى الراعي، وهو فى مركب نيلية، فقرأ قوله تعالى ﴿**بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم**﴾، ثم تلاها بقراءة قوله تعالى ﴿**قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء**﴾ إلى آخر الآية. . . هذا والشوانى تتواصل بمحاربة بضعها بعضا إلى أن أذن لصلاة الظهر، فمضى السلطان بعسكره عائدا إلى القلعة. فأقام الناس بقية يومهم وتلك الليلة على ما هم عليه من اللهو فى اجتماعهم.

وكان شيئا يجل وصفه، وأنفق فيه مال لا يعد. . بحيث بلغت أجرة المركب فى هذا اليوم ستمائة درهم فما دونها. وكان الرجل الواحد يؤخذ منه أجره ركوبه فى المركب خمسة دراهم، وحصل لعدة من النواتية أجرة مراكبهم عن سنة فى هذا اليوم. وكان الخبز يباع اثنا عشر رطلا بدرهم، فلكثرة اجتماع الناس بمصر بيع سبعة أرطال بدرهم.

فبلغ خبر الشوانى إلى بلاد الفرنج، فبعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون الصلح.

فلما كان المحرم سنة اثنتين وسبعمائة، فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون، جهزت الشوانى بالعدد والسلاح والنفطية والأزودة، وعين لها جماعة من أجناد الحلقة، وألزم كل أمير مائة بإرسال رجلين من عدته، وألزم أمراء الطبلخاناة والعشروات بإخراج كل أمير من عدته رجلا، وندب الأمير سيف الدين كهرداش المنصورى الزراق إلى السفر بهم، ومعه جماعة من مماليك السلطان الزراقين، وزينت الشوانى أحسن زينة.

فخرج معظم الناس لرؤيتها، وأقاموا يومين بلياليهما على الساحل بالبرين. وكان جمعا عظيما إلى الغاية، وبلغت أجرة المركب الصغير مائة درهم لأجل الفرجة.

ثم ركب السلطان بكرة يوم السبت ثانى عشر المحرم، ومعه الأمير سلار النائب والأمير بيبرس الجاشنكير وسائر الأمراء والعسكر، فوقفت المماليك على البر نحو بستان الخشاب، وعدى الأمراء فى الحراريق إلى الروضة.

وخرجت الشوانى واحدة بعد واحدة فلعبت منها ثلاثة، وخرجت الرابعة وفيها الأمير أقوش القاري، من مينا الصناعة حتى توسط البحر، فلعب بها الريح إلى أن مالت، وانقلبت فصار أعلاها أسفلها. فتداركها الناس، ورفعوا ما قدروا عليه من العدد والسلاح، وسلمت الرجال فلم يعدم منهم سوى أقوش وحده. فتنكد الناس، وعادة الأمراء إلى القلعة بالسلطان، وجهز شونة عوضا عن التى غرقت.

وساروا إلى ميناء طرابلس، ثم ساروا - ومعهم عدة من طرابلس - فأشرفوا من الغد على جزيرة أرواد من أعمال قبرس، وقاتلوا أهلها وقتلوا أكثرهم، وملكوها فى يوم الجمعة ثامن عشرى صفر، واستولوا على ما فيها، وهدموا أسوارها، وعادوا إلى طرابلس، واقتسموا ما بقى منها، وكان معهم مائتان وثمانون أسيرا. فسر السلطان بذلك سرورا كثيرا.

«**صناعة المقس**»: قال ابن أبى طى فى تاريخه عند ذكر وفاة المعز لدين الله: إنه أنشأ دار الصناعة التى بالمقس، وأنشأ بها ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر على مينا.

وقال المسبحي: إن العزيز بالله بن المعز هو الذى بنى دار الصناعة التى بالمقس، وعمل المراكب التى لم ير مثلها فيما تقدم كبرا ووثاقة وحسنا.

وقال فى حوادث سنة ست وثمانين وثلاثمائة : ووقعت نار فى الأسطول وقت صلاة الجمعة لست بقين من شهر ربيع الآخر فأحرقت خمس عشاريات ، وأتت على جميع ما فى الأسطول من العدة والسلاح حتى لم يبق منه غير ستة مراكب فارغة لا شئ فيها . فحمل البحريون السلاح ، واتهموا الروم النصارى ـ وكانوا مقيمين بدار ماتك بجوار الصناعة التى بالمقس ـ وحملوا على الروم هم وجموع من العامة معهم ، فنهبوا أمتعة الروم ، وقتلوا منهم مائة رجل وسبعة رجال ، وطرحوا جثثهم فى الطرقات ، وأخذ من بقى فحبس بصناعة المقس .

ثم حضر عيسى بن نسطورس ، خليفة أمير المؤمنين العزيز بالله فى الأموال ووجوهها بديار مصر والشام والحجاز ، ومعه يانس الصقلبى وهو يومئذ خليفة العزيز بالله على القاهرة عند مسيره إلى الشام ، ومعهما مسعود الصقلبى متولى الشرطة . وأحضروا الروم من الصناعة ، فاعترفوا بأنهم الذين أحرقوا الأسطول .

فكتب بذلك إلى العزيز بالله ـ وهو مبرز يريد السفر إلى الشام ـ وذكر له فى الكتاب خبر من قتل من الروم وما نهب ، وأنه ذهب فى النهب ما يبلغ تسعين ألف دينار .

فطاف أصحاب الشرط فى الأسواق بسجل فيه الأمر برد ما نهب من دار ماتك وغيرها ، والتوعد لمن ظهر عنده منه شئ ، وحفظ أبو الحسن يانس البلد ، وضبط الناس .

وأمر عيسى بن نسطورس أن يمد للوقت عشرون مركبا ، وطرح الخشب ، وطلب الصناع ، وبات فى الصناعة ، وجد الصناع فى العمل . وأغلب أحداث الناس وعامتهم يلعبون برؤوس القتلي ، ويجرون بأرجلهم فى الأسواق والشوارع ، ثم قرنوا بعضهم إلى بعض على ساحل النيل بالمقس ، وأحرقوا يوم السبت .

وضرب بالحرس على البلد ألا يتخلف أحد ممن نهب شيئا حتى يحضر ما نهبه ويرده ، ومن علم عليه بشئ أو كتم شيئا أو جحده أو أخره ، حلت به العقوبة الشديدة . وتتبع من نهب ، فقبض على عدة قتل منهم عشرون رجلا ضربت أعناقهم ، وضرب ثلاثة وعشرون رجلا بالسياط ، وطيف بهم وفى عنق كل واحد رأس رجل ممن قتل من الروم ، وحبس عدة

أناس، وأمر بضرب من ضربت أعناقهم فصلبوا عند كوم دينار، ورد المضروبون إلى المطبق.

واشتد الطلب على النهاية، فكان الناس يدل بعضهم على بعض، فاذا أخذ أحد ممن اتهم بالنهب حلف بالأيمان المغلظة أنه ما بقى عنده شئ.

وجد عيسى بن نسطورس فى عمل الأسطول وطلب الخشب، فلم يدع عند أحد خشبا علم به إلا أخذه منه، وتزايد إخراج النهاية لما نهبوه، فكانوا يطرحونه فى الأزقة والشوارع خوفا من أن يعرفوا به، وحبس كثير ممن أحضر شيئا أو عرف عليه من النهب.

فلما كان يوم الخميس ثامن جمادى الأولى ضربت أعناقهم كلهم على يد أبى أحمد جعفر، صاحب يانس، فإنه قدم فى عسكر كثير من إليانسية، حتى ضربت أعناق الجماعة، وأغلقت الأسواق يومئذ.

وطاف متولى الشرطة، وبين يديه أرباب النفط بعددهم، والنار مشتعلة، وإليانسية ركاب بالسلاح، وقد ضرب جماعة، وشهرهم بين يديه وهم ينادى عليهم: هذا جزاء من أثار الفتن، ونهب حريم أمير المؤمنين، فمن نظر فليعتبر، فما تقال لهم عثرة، ولا ترحم لهم عبرة... فى كلام كثير من هذا الجنس. فأشتد خوف الناس، وعظم فزعهم.

فلما كان من الغد نودي: معاشر الناس. قد آمن الله من أخذ شيئا أو نهب شيئا على نفسه وماله، فليرد من بقى عنده شئ من النهب، وقد أجناكم من إليوم إلى مثله.

وفى سابع جمادى الآخرة نزل ابن نسطورس إلى الصناعة، وطرح مركبين فى غاية الكبر من التى استعملها بعد حريق الأسطول. وفى غرة شعبان نزل أيضا، وطرح بين يديه أربعة مراكب كبارا من المنشأة بعد الحريق.

واتفق موت العزيز بالله، وهو سائر إلى الشام، فى مدينة بلبيس. فلما قام من بعد ابنه الحاكم بأمر الله فى الخلافه، أمر فى خامس شوال بحط الذين صلبهم ابن نسطورس، فتسلمهم أهلهم، وأعطى لأهل كل مصلوب عشرة دنانير برسم كفنه ودفنه.

وخلع على عيسى بن نسطورس، وأقره فى ديوان الخاص، ثم قبض عليه فى ليلة الأربعاء سابع المحرم سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، واعتقله إلى ليلة الأثنين سابع عشريه.

فأخرجه الأستاذ برجوان - وهو يومئذ يتولى تدبير الدولة - إلى المقس، وضرب عنقه.

فقال وهو ماض إلى المقس: كل شئ قد كنت أحسبه إلا موت العزيز بالله، ولكن الله لا يظلم أحدا. والله إني لأذكر. وقد ألقيت السهام للقوم المأخوذين في نهب دار ماتك - وفي بعضها مكتوب «يقتل» وفي أخرى «يضرب» - فأخذ شاب ممن قبض عليه رقعة منها فجاء فيها «يقتل»، فأمرت به إلى القتل.

فصاحت أمه ولطمت وجهها، وحلفت أنها وهو ما كانا ليلة النهب في شئ من أعمال مصر، وإنما وردا مصر بعد النهب بثلاثة أيام. وناشدتني الله تعالى أن أجعله من جملة من يضرب بالسوط، وأن يعفى من القتل، فلم ألتفت إليها، وأمرت بضرب عنقه.

فقالت أمه: إن كنت لابد قائله، فاجعله آخر من يقتل لا تمتع به ساعة.

فأمرت به فجعل أول من ضرب عنقه.

فلطخت بدمه وجهه، وسبقتني - وهي منبوشة الشعر ذاهلة العقل - إلى القصر. فلما وافيت، قالت لي: أقتلته! كذلك يقتلك الله.

فأمرت بها، فضربت حتى سقطت إلى الأرض. ثم كان من الأمر ما ترون مما أنا صائر إليه.

وكان خبره عبرة لمن أعتبر.

وفي نصف شعبان سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، ركب الحاكم بأمر الله إلى صناعة المقس لتطرح المراكب بين يديه.

«**صناعة الجزيرة**»: هذه الصناعة كانت بجزيرة مصر، التي تعرف إليوم بالروضة، وهي أول صناعة عملت بفسطاط مصر. بنيت في سنة أربع وخمسين من الهجرة، وكان قبل بنائها هناك خمسمائة فاعل تكون مقيمة أبدا، معدة لحريق يكون في البلاد أو هدم. ثم اعتنى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون بإنشاء المراكب الحربية في هذه الصناعة وأطافها بالحزيرة.

ولم تزل هذه الصناعة إلى أيام الملك الأمير أبى بكر محمد بن طغج الأخشيد، فأنشأ صناعة بساحل فسطاط مصر، وجعل موضع هذه الصناعة البستان المختار، كما قد ذكر فى موضعه من هذا الكتاب.

«صناعة مصر»: هذه الصناعة كانت بساحل مصر القديم. يعرف موضعها بدار خديجة بنت الفتح بن خاقان، امرأة الأمير أحمد بن طولون. . إلى أن قدم الأمير أبو بكر محمد بن طغج الأخشيد أميرا على مصرت من قبل الخليفة الراضي، عوضا عن أحمد بن كيغلغ، فى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وقد كثرت الفتن. فلم يدخل عيسى بن أحمد السلمى أبو مالك، كبير المغاربة فى طاعته، ومضى ومعه بحكم وعلى بن بدر ونظيف النوشرى وعلى المغربى إلى الفيوم. فبعث إليهم الإخشيد صاعد بن الكلكم بمراكبه، فقاتلوه وقتلوه وأخذوا مراكبه، وركب فيها على بن بدر وبحكم، وقدموا مدينة مصر أول يوم من ذى القعدة، فأرسوا بجزيرة الصناعة.

وركب الإخشيد فى جيشه، ووقف حيالهم والنيل بينهم وبينه، فكره ذلك وقال: صناعة يحول بينها وبين صاحبها الماء ليست بشئ. فأقام بحكم وعلى بن بدر إلى آخر النهار، ومضوا إلى جهة الإسكندرية.

وعاد الإخشيد إلى داره، فأخذ فى تحويل الصناعة من موضعها بالجزيرة إلى دار خديجة بنت الفتح فى شعبان سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، وكان إذ ذاك عندها سلم ينزل منه إلى الماء. وعندما ابتدأ فى إنشاء المراكب بها صاحت به امرأة، فأمر بأخذها إليه، فسألته أن يبعث معها من يحمل المال، فسير معها طائفة، فأتت بهم إلى دار خديجة هذه ودلتهم على موضع منها. فأخرجوا منه عينا وورقا وحليا وغيره، وطلبت المرأة فلم توجد ولا عرف لها خبر.

وكانت مراكب الأسطول مع ذلك تنشأ فى الجزيرة وفى صناعتها إلى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله تعالي. فلما ولى المأمون بن البطائحى أنكر ذلك، وأمر أن يكون إنشاء الشوانى والمراكب النيلية الديوانية بصناعة مصر هذه، وأضاف إليها دار الزبيب، وأنشأ بها منظرة لجلوس الخلفية يوم تقدمة الأسطول ورميه، فأقر إنشاء الحربيات والشلنديات بصناعة الجزيرة. وكان لهذه الصناعة دهليز ماد بمساطب مفروشة بالحصر العبدانية بسطا وتأزيرا، وفيها محل ديوان الجهاد.

وكـان يعرف فى الدولـة الفـاطمية ألا يدخل من باب هذه الصناعة أحد راكبا إلا الخليفة والوزير إذا ركبـا فى يوم فتح الخليج عند وفـاء النيل . فإن الخليفـة كـان يدخل من بابهـا ، ويشقـهـا راكبا والوزير مـعه حتى يركب النيل إلى المقياس ـ كما قد ذكر فى موضعه من هذا الكتاب ـ ولم تزل هذه الصناعة عامرة إلى ما قبل سنة سبعمائة ، ثم صارت بستانا عرف ببستان ابن كيسان ، ثم عرف فى زمننا ببستان الطواشي .

وكـان فيمـا بين هذه الصناعة والروضة بحر ، ثم تربى جرف عرف موضعه بالجرف ، وأنشئ هناك بستان عرف ببستان الجرف ، وصار فى جملة أوقاف خانقاه المواصلة ، وقيل لهذا الجرف بين الزقاقين ، وكان فيه عدة دور وحمام وطواحين وغير ذلك . ثم خرب من بعد سنة ست وثمانمائة ، وخرب بستان الجرف أيضا .

وإلى إليوم بستـان الطواشى فيه بقيـة ، وهو على يسرة من يريد مصر من طريق المراغة ، وبظاهرة حوض ماء ترده الدواب ، ومن وراء البستان كيمان فيها كنيسة للنصاري .

قال ابن المتوج : وكان مكان بستان ابن كيسان صناعة العمارة ، وأدركت فيه بابها وبستان الجرف المقابل لبستان ابن كيسان كان مكانه بحر النيل ، وإن الجرف تربى فيه .

ذكر الميادين

«**ميدان ابن طولون**» : كان قد بناه وتأنق فيه تأنقا زائدا ، وعمل فيه المناخ وبركة الزئبق والقبة الذهبية . وقد ذكر خبر هذا الميدان عند ذكر القطائع من هذا الكتاب .

«**ميدان الإخشيد**» : هذا الميدان أنشأة الأمير أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد أمير مصر بجوار بستانه الذى يعرف إليوم فى القاهرة بالكافوري ، ويشبه أن يكون موضع هذا الميدان إليوم حيث المكان المعروف بالبندقانيين وحارة الوزيرية وما جاور ذلك .

وكان لهذا البستان بابان من حديد . قلعهما القائد جوهر عندما قدم القرمطى إلى مصر يريد أخذها ، وجعلهما على باب الخندق الذى حفره بظاهر القاهرة قريبا من مدينة عين شمس ، وذلك فى سنة ستين وثلاثمائة .

وكـان هذا الميـدان من أعظم أمـاكن مـصـر، وكـان فـيـه الخـيـول السلطانيـة فى الدولة الإخشيدية.

«ميدان القصر»: هذا الميدان مـوضعـه الآن فى القـاهرة يعـرف بالخرنشـف. عمل عند بناء القاهرة بجوار البستان الكافوري، ولم يزل ميدانا للخلفاء الفاطميين يدخل إليه من باب التبانين الذى موضعه الآن يعرف بقبو الخرنشف.

فلما زالت الدولة الفاطمية تعطل، وبقى إلى أن بنى به الغز اصطبلات بالخرنشف، ثم حكر وبنى فيه، فصار من أخطاط القاهرة.

«ميدان قراقوش»: هذا الميدان خارج باب الفتوح.

«ميدان الملك العزيز»: هذا الميدان كان بجوار خليج الذكر، وكان موضعه بستانا.

قـال القـاضـى الفـاضل فى مـتـجـددات ثالث عـشرى شـهـر رمـضـان سنة أربع وتسـعين وخمسمائة: خرج أمر الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بقطع النخل المثمر المستغل تحت اللؤلؤة بالبستان المعروف بالبغدادية.

وهذا البستان كان من بساتين القاهرة الموصوفة، وكان منظرة من المناظر المستحسنة وكان له مستغل، وكان قد عنى الأولون به لمجاورته اللؤلؤة وإطلال جميع مناظرها عليه. وجعل هذا البستـان ميدانا، وحرث أرضه، وقطع ما فيه من الأصول. ثم حكر الناس أرض هذا البستان، وبنوا عليها، وهو الآن دائر فيه كيمان وأتربة. انتهي.

«الميدان الصالحى»: هذا الميدان كان بأراضى اللوق من بر الخليلج الغربي، وموضعه الآن من جامع الطباخ بباب اللوق إلى قنطرة قـدادار التى على الخليج الناصـري، ومن جـملتـه الطريق المسلوكة الآن من باب اللوق إلى القنطرة المذكورة.

وكان أولا بستانا يعرف ببستان الشريف بن ثعلب. فاشتراه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، بثلاثة آلاف دينار مـصـرية، من الأمـيـر حـصن الدين ثعلب الجـعـفـري، فى شـهـر رجب سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وجعله ميدانا، وأنشأ فيه مناظر جليلة تشرف على النيل الأعظم، وصار يركب إليه ويلعب فيه بالكرة.

وكان عمل هذا الميدان سببا لبناء القنطرة ـ التى يقال لها إليوم قنطرة الخرق ـ على الخليج الكبير لجوازه عليها ، وكان قبل بنائها موضعها موردة سقائى القاهرة . وما برح هذا الميدان تلعب فيه الملوكَ بالكرة من بعد الملك الصالح إلى أن انحسر ماء النيل من تجاهه وبعد عنه ، فأنشأ الملك الظاهر ميدانا على النيل .

وفى سلطنة الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى الصالح النجمي ، قال له منجمه : إن امرأة تكون سببا فى قتله . فأمر أن تخرب الدور والحوانيت التى من قلعه الجبل بالتبانة إلى باب زويلة وإلى باب الخرق وإلى باب اللوق إلى الميدان الصالحي ، وأمر ألا يترك باب مفتوح بالأماكن التى يمر عليها يوم ركوبه إلى الميدان ، ولا تفتح أيضا طاقة .

وما زال باب هذا الميدان باقيا ، وعليه طوارق مدهونة ، إلى ما بعد سنة أربعين وسبعمائة ، فأدخله صلاح الدين بن المغربى فى قيسارية الغزل التى أنشأها هناك . ولأجل هذا الباب قيل لذلك الخط «باب اللوق» .

ولما خرب هذا الميدان حكر ، وبنى موضعه ما هنالك من المساكن . ومن جملته حر مرادي ، وهو على يمنة من سلك من جامع الطباخ إلى قنطرة قدادار ، وهو فى أوقاف خانقاه قوصون وجامع قوصون بالقرافة . وهذا الحكر إليوم قد صار كيمانا بعد كثرة العمارة به .

«**الميدان الظاهري**» : هذا الميدان كان بطرف أراضى اللوق يشرف على النيل الأعظم ، وموضعه الآن تجاه قنطرة قدادار من جهة باب اللوق . أنشأه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالح لما انحسر ماء النيل ، وبعد ميدان أستاذه الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وما زال يلعب فيه بالكرة هو ومن بعده من ملوك مصر . . . إلى أن كانت سنة أربع عشرة وسبعمائة . فنزل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إليه ، وخرب مناظرة ، وعمله بستانا من أجل بعد البحر عنه ، وأرسل إلى دمشق فحمل إليه منها سائر أصناف الشجر ، وأحضر معها خولة الشام والمطعمين ، فغرسوها فيه وطعموها .

وما زال بستانا عظيما ، ومنه تعلم الناس بمصر تطعيم الأشجار فى بساتين جزيرة الفيل . وجعل السلطان فواكه هذا البستان ، مع فواكة البستان الذى أنشأه بسرياقوس ، تحمل بأسرها إلى الشراب خاناه السلطانية بقلعه الجبل ، ولا يباع منها شئ ألبته ، وتصرف كلفهما

من الأموال الديوانية. فجادت فواكه هذين البستانين، وكثرت حتى حاكت بحسنها فواكة الشام، لشدة العناية والخدمة بهما.

ثم إن السلطان لما اختص بالأمير قوصون، أنعم بهذا البستان عليه. فعمر تجاهه الزريبة - التى عرفت بزريبة قوصون - على النيل، وبنى الناس الدور الكثيرة هناك... سيما لما حفر الخليج الناصري. فإن العمارة عظمت فيما بين هذا البستان والبحر، وفيما بينه وبين القاهرة ومصر.

ثم إن هذا البستان خرب لتلاشى أحواله بعد قوصون، وحكرت أرضه، وبنى الناس فوقها الدور التى على يسرة من صعد القنطرة من جهة باب اللوق يريد الزريبة. ثم لما خرب خط الزريبة، خرب ما عمر بأرض هذا البستان من الدور منذ سنة ست* ثمانمائة. والله تعالى أعلم.

«**ميدان بركة الفيل**»: هذا الميدان كان مشرفا على بركة الفيل قبالة الكبش، وكان أولا اصطبل الجوق برسم خيول المماليك السلطانية... إلى أن جلس الأمير زين الدين كتبغا على تخت الملك، وتلقب بالملك العادل بعد خلعه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة.

فلما دخلت سنة خمس وتسعين، كان الناس فى أشد ما يكون من غلاء الأسعار وكثرة الموتان، والسلطان خائف على نفسه، ومتحرز من وقوع فتنة، وهو مع ذلك ينزل من قلعة الجبل إلى الميدان الظاهرى بطرف اللوق. فحسن بخاطره أن يعمل اصطبل الجوق المذكور ميدانا عوضا عن ميدان اللوق، وذكر ذلك للأمراء فأعجبهم ذلك، فأمر بإخراج الخيل منه، وشرع فى عمله ميدانا.

وبادر الناس من حينئذ إلى بناء الدور بجانبه. وكان أول من أنشأ هناك الأمير علم الدين سنجر الخازن، فى الموضع الذى عرف إليوم بحكر الخازن، وتلاه الناس فى العمارة والأمراء. وصار السلطان ينزل إلى هذا الميدان من القلعة، فلا يجد فى طريقه أحدا من الناس سوى أصحاب الدكاكين من الباعة، لقلة الناس وشغلهم مما هم فيه من الغلاء والوباء.

ولقد رآه شخص من الناس، وقد نزل إلى الميدان والطرقات خالية، فأنشد ما قيل فى الطبيب ابن زهر:

قل للغلا أنت وابن زهر
بلغتما الحـــد والنهاية
ترفقا بالورى قليــــــلا
فى واحد منكما كفاية

وما برح هذا الميدان باقيا إلى أن عمر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قصر الأمير بكتمر الساقى على بركة الفيل، فأدخل فيه جميع أرض هذا الميدان، وجعله اصطبل قصر الأمير بكتمر الساقى فى سنة عشرة وسبعمائة. وهو باق إلى وقتنا هذا.

«ميدان المهارى»: هذا الميدان بالقرب من قناطر السباع، فى برالخليج الغربي، كان من جملة جنان الزهري. أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة عشرين وسبعمائة.

ومن وراء هذا الميدان بركة ماء كان موضعها كرم القاضى الفاضل رحمة الله عليه.

قال جامع السيرة الناصرية: وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون له شغف عظيم بالخيل. فعمل ديوانا ينزل فيه كل فرس بشأنه، واسم صاحبه، وتاريخ الوقت الذى حضر فيه. فإذا حملت فرس من خيول السلطان أعلم به، وترقب الوقت الذى تلد فيه، واستكثر من الخيل حتى احتاج إلى مكان برسم نتاجها. فركب من قلعة الجبل فى سنة عشرين وسبعمائة، وعين موضعا يعمله ميدانا برسم المهاري، فوقع اختياره على أرض بالقرب من قناطر السباع. وما زال واقفا بفرسه حتى حدد الموضع، وشرع فى نقل الطين البليز إليه، وزرعه من النخل وغيره، وركب على الآبار التى فيه السواقي.

فلم يمض سوى أيام حتى ركب إليه، ولعب فيه بالكرة مع الخاصكية، ورتب فيه عدة حجور للنتاج، وأعد لها سواسا وأميراخورية وسائر ما يحتاج إليه. وبنى فيه أماكن، ولازم الدخول إليه فى ممره إلى الميدان الذى أنشأة على النيل بموردة الملح.

فلما كان بعد أيام وأشهر، حسن فى نفسه أن يبنى تجاه هذا الميدان-على النيل الأعظم بجوار جامع الطيبرسى-زربية، ويبرز بالمناظر التى ينشئها فى الميدان إلى قرب البحر. فنزل

بنفسه، وتحدث فى ذلك، فكثر المهندسون المصروف فى عينه، وصعبوا الأمر من جهة قلة الطين هناك. وكان قد أدركه السفر للصعيد فترك ذلك.

وما برحت الخيول فى هذا الميدان إلى أن مات الملك الظاهر برقوق فى سنة إحدى وثمانمائة. واستمر بعده فى أيام ابنه الملك الناصر فرج. إلا أنه تلاشى أمره عما كان قبل ذلك، ثم انقطعت منه الخيول وصار براحا خاليا.

«ميدان سرياقوس»: كان هذا الميدان شرقى ناحية سرياقوس بالقرب من الخانقاه. أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، وبنى فيه قصورا جليلة وعدة منازل للأمراء، وغرس فيه بستانا كبيرا نقل إليه من دمشق سائر الأشجار التى تحمل الفواكة، وأحضر معها خولة بلاد الشام حتى غرسوها وطعموا الأشجار. فأفلح فيه الكرم والسفرجل وسائر الفواكة.

فلما كمل فى سنة خمس وعشرين، خرج ومعه الأمراء والأعيان، ونزل القصور التى هناك، ونزل الأمراء والأعيان على منازلهم فى الأماكن التى بنيت لهم. واستمر يتوجه إليه فى كل سنة، ويقيم به الأيام، يلعب فيه بالكرة إلى أن مات. فعمل ذلك أولاده الذين ملكوا من بعده.

فكان السلطان يخرج فى كل سنة من قلعة الجبل بعدما تنقضى أيام الركوب، إلى الميدان الكبير الناصرى على النيل، ومعه جميع أهل الدولة من الأمراء والكتاب وقاضى العسكر وسائر أرباب الرتب، ويسير إلى السرحة بناحية سرياقوس، ينزل بالقصور، ويركب إلى الميدان هناك للعب الكرة، ويخلع على الأمراء وسائر أهل الدولة، ويقيم فى هذه السرحة أياما. فيمر للناس فى إقامتهم بهذه السرحة أوقات لا يمكن وصف ما فيها من المسرات، ولا حصر ما ينفق فيها من المآكل والهبات من الأموال.

ولم يزل هذا الرسم مستمرا إلى سنة تسع وتسعين وسبعمائة، وهى آخر سرحة سار إليها السلطان بسرياقوس. ومن هذه السنة انقطع السلطان الملك الظاهر برقوق عن الحركة لسرياقوس، فإنه اشتغل فى سنة ثمانمائة بتحرك المماليك عليه من وقت قيام الأمير على باى إلى أن مات.

وقام من بعده ابنه الملك الناصر فرج. فما صفا الوقت فى أيامه من كثرة الفتن وتواتر الغلوات والمحن. . . إلى أن نسى ذلك، وأهمل أمر الميدان والقصور وخرب، وفيه إلى اليوم بقية قائمة. ثم بيعت هذه القصور، فى صفر سنة خمس وعشرين وثمانمائة، بمائة دينار لينقض خشبها وشبابيكها وغيرها، فنقضت كلها.

وكان من عادته إذا مر فى متصيداته بإقطاع الصيد لسرياقوس أو شبرا أو البحيرة، أنه ينعم على أكابر أمراء الدولة قدرا وسنا: كل واحد بألف مثقال ذهبا، وبرذون خاص مسرج ملجم، وكنبوش مذهب.

وكان من عادة السلطان، إذا خرج إلى أمير كبير، قدم له من الغنم والاوز والدجاج وقصب السكر والشعير ما تسمو همة مثلة إليه. فيقبله السلطان منه، وينعم عليه بخلعة كاملة، وربما أمر لبعضهم بمبلغ مال.

وكانت عادة الأمراء أن يركب الأمير منهم حيث يركب فى المدينة وخلفه جنيب، وأما أكابرهم فيركب بجنيبين. . . هذا فى المدينة والحاضرة. وهكذا يكون إذا خرج إلى سرياقوس وغيرها من نواحى الصيد، ويكون فى الخروج إلى سرياقوس وغيرها من الأسفار لكل أمير طلب يشتمل على أكثر مماليكه، وقدامهم خزانة محمولة على جمل واحد يجره راكب آخر على جمل والمال على جملين، وربما زاد بعضهم على ذلك.

وأمام الخزانة عدة جنائب تجر على أيدى مماليك ركاب خيل وهجن، وركاب من العرب على هجن، وأمامها الهجن بأكوارها مجنوبة، وللطبلخانات قطار واحد وهو أربعة، ومركوب الهجان والمال قطاران، وربما زاد بعضهم.

وعدد الجنائب فى كثرتها وقلتها إلى رأى الأمير وسعة نفسه. والجنائب منها ما هو مسرج ملجم، ومنها ما هو بعباءة لاغير. وكان يضاهى بعضهم بعضا فى الملابس الفاخرة والسروج المحلاة والعدد المليحة.

وكان من رسوم السلطان، فى خروجه إلى سرياقوس وغيرها من الأسفار، ألا يتكلف إظهار كل شعار السلطنة، بل يكون الشعار فى موكبه السائر فيه جمهور مماليكه مع المقدم

عليهم وأستاداره، وأمامهم الخزائن والجنائب والهجن. وأما هو نفسه فإنه يركب معه عدة كبيرة من الأمراء الكبار والصغار من الغرباء والخواص، وجملة من خواص مماليكه.

ولا يركب فى السير برقبة ولا بعصائب، بل يتبعه جنائب خلفه، ويقصد فى الغالب تأخير النزول إلى الليل. فإذا جاد الليل حملت قدامه فوانيس كثيرة ومشاعل، فإذا قارب مخيمه تلقى بشموع موكبية فى شمعدانات كفت، وصاحت الجاويشية بين يديه، ونزل الناس كافة. إلا حملة السلاح فإنهم وراءه، والوشاقية أيضا وراءه، وتمشى الطبردارية حوله.

حتى إذا وصل القصور بسرياقوس أو الدهليز من المخيم، نزل عن فرسه ودخل إلى الشقة - وهى خيمة مستديرة متسعة - ثم منها إلى شقة مختصرة، ثم منها إلى اللاجوق. وبدائر كل خيمة من جميع جوانبها من داخل سور خركاه، وفى صدر اللاجوق قصر صغير من خشب برسم المبيت فيه. وينصب بإزاء الشقة الحمام بقدور الرصاص والحوض، على هيئة الحمام المبنى فى المدن إلا أنه مختصر.

فإذا نام السلطان طافت به المماليك دائرة بعد دائرة، وطاف بالجميع الحرس، وتدور الزفة حول الدهاليز فى كل ليلة، وتدور بسرياقوس حول القصر فى كل ليلة مرتين: الأولى منذ يأوى إلى النوم، والثانية عند قعوده من النوم.

وكل زفة يدور بها أمير جاندار - وهو من أكابر الأمراء - وحوله الفوانيس والمشاعل والطبول والبياتة. وينام على باب الدهليز النقباء وأرباب النوب من الخدم.

ويصحب السلطان فى السفر غالب ما تدعو الحاجة إليه حتى يكاد يكون معه مارستان، لكثرة من معه من الأطباء وأرباب الكحل والجراح والأشربة والعقاقير، وما يجرى مجرى ذلك. وكل من عاده طبيب، ووصف له ما يناسبه، يصرف له من الشراب خاناه أو الدواء خاناه المحمولين فى الصحبة. والله أعلم.

«**الميدان الناصرى**»: هذا الميدان من جملة أراضى بستان الخشاب فيما بين مدينة مصر والقاهرة. وكان موضعه قديما غامرا بماء النيل، ثم عرف ببستان الخشاب.

فلما كانت سنة أربع عشرة وسبعمائة، هدم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون

الميدان الظاهري، وغرس فيه أشجارا كما تقدم، وأنشأ هذا الميدان من أراضى بستان الخشاب. فإنه كان حينئذ مطلا على النيل.

وتجهز فى سنة ثمان عشرة وسبعمائة للركوب إليه، وفرق الخيول على جميع الأمراء، واستجد ركوب الأوجاقية بكوافى الزركش على صفة الطاسات فوق رؤوسهم، وسماهم الجفتاوات.

فيركب منهم اثنان بثوبى حرير أطلس أصفر، وعلى رأس كل منهما كوفية الذهب، وتحت كل واحد فرس أبيض بحلية ذهب. ويسيران معا بين يدى السلطان فى ركوبه من قلعة الجبل إلى الميدان، وفى عودته منه إلى القلعة.

وكان السلطان اذا ركب إلى هذا الميدان للعب الأكرة، يفرق حوائص ذهب على الأمراء المقدمين. وركوبه إلى هذا الميدان دائما يوم السبت، فى قوة الحر بعد وفاء النيل، مدة شهرين من السنة. فيفرق فى كل ميدان على اثنين بالنوبة، فمنهم من تجئ نوبته بعد ثلاث سنين أو أربع سنين.

وكان من مصطلح الملوك أن تكون تفرقة السلطان الخيول على الأمراء فى وقتين: أحدهما عندما يخرج إلى مرابط خيله فى الربيع عند اكتمال تربيعها، وفى هذا الوقت يعطى أمراء المئين الخيول مسرجة ملجمة بكنابيش مذهبة، ويعطى أمراء الطبلخانات خيلا عريا. والوقت الثانى يعطى الجميع خيولا مسرجة ملجمة بلا كنابيش بفضة خفيفة. وليس لأمراء العشراوات حظ فى ذلك إلا ما يتفقدهم به على سبيل الإنعام ولخاصكية السلطان المقربين، من أمراء المئين وأمراء الطبلخانات، زيادة كثيرة من ذلك، بحيث يصل إلى بعضهم المائة فرس فى السنة.

وكان من شعار السلطان أن يركب إلى الميدان وفى عنق الفرس رقبة حرير أطلس أصفر بزركش ذهب، فتستر من تحت أذنى الفرس إلى حيث السرج. ويكون قدامه اثنان من الأوشاقية راكبين على حصانين أشهبين برقبتين نظير ما هو راكب به، كأنهما معدان لأن يركبهما. وعلى الأوشاقيين المذكورين قباءان أصفران من حرير بطراز مزركش بالذهب،

وعلى رأسهما قبعان مزركشان. وغاشية السرج محمولة أمام السلطان، وهى أديم مزركش مذهب يحملها بعض الركابدارية قدامه، وهو ماش فى وسط الموكب. ويكون قدامه فارس يشبب بشبابة لا يقصد بنغمها الإطراب، بل ما يقرع بالمهابة سامعة. ومن خلف السلطان الجنائب، وعلى رأسه العصائب السلطانية، وهى صفر مطرزة بذهب بألقابه واسمه.

وهذا لا يختص بالركوب إلى الميدان، بل يعمل هذا الشعار أيضا إذا ركب يوم العيد، أو دخل إلى القاهرة أو إلى مدينة من مدن الشام. ويزداد هذا الشعار فى يوم العيدين ودخول المدينة، برفع المظلة على رأسه ـ ويقال لها الجبر ـ وهو أطلس أصفر مزركش من أعلاه قبة وطائر من فضة مذهبة. . . يحملها يومئذ بعض أمراء المئين الأكابر وهو راكب فرسه إلى جانب السلطان. ويكون أرباب الوظائف والسلاحدارية كلهم خلف السلطان، ويكون حوله وأمامه الطبردارية ـ وهم طائفة من الأكراد ذوى الإقطاعات والإمرة ـ ويكونون مشاة وبأيديهم الأطبار المشهورة.

ذكر قلعة الجبل

قال ابن سيده فى كتاب «المحكم»: القلعة ـ بتحريك القاف واللام والعين وفتحها ـ الحصن الممتنع فى جبل، وجمعها قلاع وقلع، وأقلعوا بهذه البلاد بنوها فجعلوها كالقلعة، وقيل القلعة ـ بسكون اللام ـ حصن مشرف، وجمعه قلوع.

وهذه القلعة على قطعة من الجبل، وهى تتصل بجبل المقطم، وتشرف على القاهرة ومصر والنيل والقرافة. فتصير القاهرة فى الجهة البحرية منها، ومدينة مصر والقرافة الكبرى وبركة الحبش فى الجهة القبلية الغربية، والنيل الأعظم فى غربيها، وجبل المقطم من ورائها فى الجهة الشرقية.

وكان موضعها أولا يعرف بقبة الهواء، ثم صار من تحته ميدان أحمد بن طولون، ثم صار موضعها مقبرة فيها عدة مساجد. . . إلى أن أنشأها السلطان الملك الناصر صلاح الدين

يوسف بن أيوب ـ أول الملوك بديار مصر ـ على يد الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدى فى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وصارت من بعده دار الملك بديار مصر إلى يومنا هذا.

وهى ثامن موضع صار دار المملكة بديار مصر. وذلك أن دار الملك كانت أولا قبل الطوفان مدينة أمسوس، ثم صار تخت الملك بعد الطوفان بمدينة منف إلى أن خربها بخت نصر. ثم لما ملك الاسكندر بن فيليبش صار إلى مصر، وجدد بناء الإسكندرية. فصارت دار المملكة من حينئذ، بعد مدينة منف، الإسكندرية إلى أن جاء الله تعالى بالإسلام، وقدم عمرو بن العاص رضى الله عنه بجيوش المسلمين إلى مصر وفتح الحصن، واختط مدينة فسطاط مصر. فصارت دار الإمارة من حينئذ بالفسطاط إلى أن زالت دولة بنى أمية وقدمت عساكر بنى العباس إلى مصر، وبنوا فى ظاهر الفسطاط العسكر. فصار الأمراء من حينئذ تارة ينزلون فى العسكر، وتارة فى الفسطاط. . إلى أن بنى أحمد بن طولون القصر والميدان، وأنشأ القطائع بجانب العسكر. فصارت القطائع منازل الطولونية التى أن زالت دولتهم.

فسكن الأمراء بعد زوال دولة بنى طولون بالعسكر إلى أن قدم جوهر القائد من بلاد المغرب بعساكر المعز لدين الله، وبنى القاهرة المعزية. فصارت القاهرة من حينئذ دار الخلافة، ومقر الإمامة، ومنزل الملك إلى أن انقضت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب.

فلما استبد بعدهم بأمر سلطنة مصر، بنى قلعة الجبل هذه ومات. فسكنها من بعده الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، واقتدى به من ملك مصر من بعده من أولاده إلى أن انقرضوا على يد مماليكهم البحرية، وملكوا مصر من بعدهم، فاستقروا بقلعة الجبل إلى يومنا هذا.

وسأجمع إن شاء الله تعالى من أخبار قلعة الجبل هذه، وذكر من ملكها ما فيه الكفاية، والله أعلم.

ذكر ما كان عليه موضع قلعة الجبل قبل بنائها

اعلم أن أول ما عرف من خبر موضع قلعة الجبل أنه كان فيه قبة تعرف بقبة الهواء .

قال أبو عمرو الكندى فى كتاب «أمراء مصر» : وابتنى حاتم بن هرثمة القبة التى تعرف بقبة الهواء ، وهو أول من ابتناها ، وولى مصر إلى أن صرف عنها فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين ومائة . . . قال : ثم مات عيسى بن منصور ، أمير مصر ، فى قبة الهواء بعد عزله لإحدى عشرة خلت من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين ومائتين .

ولما قدم أمير المؤمنين المأمون إلى مصر فى سنة سبع عشرة ومائتين ، جلس بقبة الهواء هذه . وكان بحضرته سعيد بن عفير ، فقال المأمون : لعن الله فرعون حيث يقول : «أليس لى ملك مصر»؟ فلو رأى العراق وخصبها! . فقال سعيد بن عفير : يا أمير المؤمنين لا تقل هذا ، فإن الله عز وجل قال : **﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾**(*) فما ظنك يا أمير المؤمنين بشئ دمره الله هذا بقيته! .

ثم قال سعيد : لقد بلغنا أن أرضا لم تكن أعظم من مصر ، وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها ، وكانت الأنهار بقناطر وجسور بتقدير ، حتى أن الماء يجرى تحت منازلهم وأفنيتهم يرسلونه متى شاءوا ويحبسونه متى شاءوا ، وكانت البساتين متصلة لا تنقطع . ولقد كانت الأمة تضع المكتل على رأسها فيمتلئ مما يسقط من الشجر ، وكانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج إلى خمار لكثرة الشجر .

وفى قبة الهواء حبس المأمون الحارث بن مسكين .

قال الكندى فى كتاب «الموالي» : قدم المأمون مصر ـ وكان بها رجل يقال له الحضرمى يتظلم من ابن أسباط وابن تميم ـ فجلس الفضل بن مروان فى المسجد الجامع ، وحضر مجلسه يحيي بن أكثم وابن أبى داود ، وحضر إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد ـ وكان على مظالم مصر ـ وحضر جماعة من فقهاء مصر وأصحاب الحديث .

وأحضر الحارث بن مسكين ليولى قضاء مصر ، فدعاه الفضل بن مروان . فبينا هو يكلمه ، إذ قال الحضرمى للفضل : سل ـ أصلحك الله ـ الحارث عن ابن أسباط وابن تميم .

(*) سورة الأعراف آية ١٣٧ ك ٧ .

قال : ليس لهذا أحضرناه

قال : أصلحك الله ، سله .

فقال الفضل للحارث : ما تقول فى هذين الرجلين؟ .

فقال : ظالمين غاشمين .

قال : ليس لهذا أحضرناك .

فاضطرب المسجد ، وكان الناس متوافرين فقام الفضل وصار إلى المأمون بالخبر ، وقال : خفت على نفسى من ثوران الناس مع الحارث فأرسل المأمون إلى الحارث فدعاه ، فابتدأه بالمسألة ، فقال : ما تقول فى هذين الرجلين؟ .

فقال : ظالمين غاشمين .

قال : هل ظلماك بشئ؟ .

قال : لا .

قال : فعاملتهما؟ .

قال : لا .

قال : فكيف شهدت عليهما؟ .

قال : كما شهدت أنك أمير المؤمنين ولم أرك قط إلا الساعة ، وكما شهدت أنك غزوت ولم أحضر غزوك .

قال : اخرج من هذه البلاد فليست لك ببلاد ، وبع قليلك وكثيرك فأنك لا تعاينها أبدا ، وحبسه فى رأس الجبل فى قبة ابن هرثمة .

ثم انحدر المأمون إلى البشرود وأحضره معه . فلما فتح البشرود أحضر الحارث . فلما دخل عليه سأله عن المسألة التى سأله عنها بمصر ، فرد عليه الجواب بعينه ، فقال : فأى شئ تقول فى خروجنا هذا؟ .

قال: أخبرني عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك، أن الرشيد كتب إليه في أهل دهلك يسأله عن قتالهم، فقال: إن كانوا خرجوا عن ظلم من السلطان فلا يحل قتالهم، وإن كانوا إنما شقوا العصا فقتالهم حلال.

فقال المأمون: أنت تيس، ومالك أتيس منك. ارحل عن مصر.

قال: يا أمير المؤمنين إلى الثغور؟.

قال: الحق بمدينة السلام.

فقال له أبو صالح الحراني: يا أمير المؤمنين تغفر زلته.

قال: يا شيخ تشفعت، فارتفع.

ولما بنى أحمد بن طولون القصر والميدان تحت قبة الهواء هذه، كان كثيرا ما يقيم فيها، فإنها كانت تشرف على قصره. واعتنى بها الأمير أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، وجعل لها الستور الجليلة والفرش العظيمة... في كل فصل ما يناسبه.

فلما زالت دولة بني طولون، وخرب القصر والميدان، كانت قبة الهواء مما خرب - كما تقدم ذكره عند ذكر القطائع من هذا الكتاب - ثم عمل موضع قبة الهواء مقبرة، وبنى فيها عدة مساجد.

قال الشريف محمد بن أسعد الجواني النسابة في كتاب «النقط في الخطط»: والمساجد المبنية على الجبل المتصلة بإليحاميم المطلة على القاهرة المعزية، التي فيها المسجد المعروف بسعد الدولة، والترب التي هناك... تحتوي القلعة التي بناها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على الجميع، وهي التي نعتها بالقاهرة. وبنيت هذه القلعة في مدة يسيرة.

وهذه المساجد هي: مسجد سعد الدولة، ومسجد معز الدولة وإلى مصر، ومسجد مقدم بن عليان من بني بويه الديلمي، ومسجد العدة، بناء أحد الأستاذين الكبار المستنصرية - وهو عدة الدولة - وكان بعد مسجد معز الدولة، ومسجد عبد الجبار بن عبد الرحمن بن شبل بن علي، رئيس الرؤساء وكافي الكفاة، أبي يعقوب بن يوسف الوزير بهمدان ابن علي. بناه

وانتقل بالإرث إلى ابن عبد الجبار بن شبل، وكان من أعيان السادة. ومسجد قسطة، وكان غلاما أرمنيا من غلمان المظفر بن أمير الجيوش. مات مسموما من أكلة هريسة.

وقال الحافظ أبو الطاهر السلفي: سمعت أبا منصور قسطة الأرمنى وإلى الإسكندرية يقول: كان عبد الرحمن خطيب ثغر عسقلان يخطب بظاهر البلد فى عيد من الأعياد، فقيل له قد قرب منا العدو. فنزل عن المنبر، وقطع الخطبة.

فبلغه أن قوما من العسكرية عابوا عليه فعله. فخطب فى الجمعة الأخري، داخل البلد فى الجامع، خطبة بليغة قال فيها: قد زعم قوم أن الخطيب فزع، وعن المنبر نزع. وليس ذلك عارا على الخطيب، فإنما ترسه الطيلسان، وحسامه اللسان، وفرسه خشب لا تجرى مع الفرسان. وإنما العار على من تقلد الحسام، وسن السنان، وركب الجياد الحسان، وعند اللقاء يصيح: إلى عسقلان.

وكان قسطة هذا من عقلاء الأمراء المائلين إلى العدل، المثابرين على مطالعة الكتب، وأكثر ميله إلى التواريخ وسير المتقدمين، وكان مسجده بعد مسجد شقيق الملك. ومسجد الديلمى كان على قرنة الجبل المقابل للقلعة من شرقيها إلى البحري، وقبره قدام الباب. وتربة ولخشى المنعوت بالأفضل، كان من الأعيان الفضلاء الأدباء، ضرب على طريقة ابن البواب وأبى على بن مقلة، وكتب عدة ختمات، وكان كريما شجاعا يلقب فحل الأمراء. وكانت هذه التربة آخر الصف.

ومسجد شقيق الملك الأستاذ خسروان، صاحب بيت المال، أضيف إلى سور القلعة البحرى إلى المغرب قليل. ومسجد أمين الملك صارم الدولة مفلح صاحب المجلس الحافظي، كان بعد مسجد القاضى أبى الحجاج المعروف بمسجد عبد الجبار، وهو فى وسط القلعة، وبعده تربة لاون أخي يانس. ومسجد القاضى النبيه كان لهمام الدولة غنام، ومات رسولا ببلاد الشام، وشراه منه وأنشأه القاضى النبيه، وقبره به، وكان القاضى من الأعيان.

وقال ابن عبد الظاهر: أخبرنى والدى قال: كنا نطلع إليها (يعنى إلى المساجد التى كانت موضع قلعة الجبل) قبل أن تسكن فى ليالى الجمع، نبيت متفرجين، كما نبيت فى جواسق الجبل والقرافة.

قال مؤلفه رحمه الله : وبالقلعة الآن مسجد الرديني . وهو أبو الحسن على بن مرزوق بن عبد الله الرديني ، الفقيه المحدث المفسر . كان معاصرا لأبى عمرو عثمان بن مرزوق الحوفي ، وكان ينكر على أصحابه ، وكانت كلمته مقبولة عند الملوك ، وكان يأوى بمسجد سعد الدولة ، ثم تحول منه إلى مسجد عرف بالرديني ، وهو الموجود الآن بداخل قلعة الجبل ، وعليه وقف بالإسكندرية ، وفى هذا المسجد قبر يزعمون أنه قبره ، وفى كتب المزارات بالقرافة أنه توفي ، ودفن بها فى سنة أربعين وخمسمائة بخط سارية شرقى تربة الكيرواني ، واشتهر قبره باجابة الدعاء عنده .

ذكر بناء قلعة الجبل

وكان سبب بنائها أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لما أزال الدولة الفاطمية من مصر ، واستبد بالأمر ، لم يتحول من دار الوزارة بالقاهرة ، ولم يزل يخاف على نفسه من شيعة الخلفاء الفاطميين بمصر ، ومن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى سلطان الشام رحمة الله عليه . فامتنع أولا من نور الدين بأن سير أخاه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب ، فى سنة تسع وستين وخمسمائة ، إلى بلاد إليمن لتصير له مملكة تعصمه من نور الدين ، فاستولى شمس الدولة على ممالك إليمن .

وكفى الله تعالى صلاح الدين أمر نور الدين ، ومات فى تلك السنة ، فخلا له الجو وأمن جانبه . وأحب أن يجعل لنفسه معقلا بمصر ، فإنه كان قد قسم القصرين بين أمرائه ، وأنزلهم فيهما . فيقال إن السبب الذى دعاه إلى اختيار مكان قلعة الجبل ، أنه علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة ، فعلق لحم حيوان آخر فى موضع القلعة فلم يتغير إلا بعد يومين وليلتين ، فأمر حينئذ بإنشاء قلعة هناك ، وأقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي . فشرع فى بنائها ، وبنى سور القاهرة الذى زاده فى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وهدم ما هنالك من المساجد ، وأزال القبور ، وهدم الأهرام الصغار التى

كانت بالجيزة تجاه مصر ـ وكانت كثيرة العدد ـ ونقل ما وجد بها من الحجارة، وبنى به السور والقلعة وقناطر الجيزة، وقصد أن يجعل السور يحيط بالقاهرة والقلعة ومصر. فمات السلطان قبل أن يتم الغرض من السور والقلعة.

فأهمل العمل إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى قلعة الجبل، واستنابته فى مملكة مصر وجعله ولى عهد. فأتم بناء القلعة، وأنشأ بها الآدر السلطانية، وذلك فى سنة أربع وستمائة. وما برح يسكنها حتى مات، فاستمرت من بعده دار مملكة مصر إلى يومنا هذا.

وقد كان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يقيم بها أياما، وسكنها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين فى أيام أبيه مدة، ثم انتقل منها إلى دار الوزارة.

قال ابن عبد الظاهر: وسمعت حكاية تحكى عن صلاح الدين أنه طلعها ومعه أخوه الملك العادل، فلما رآها التفت إلى أخيه وقال: يا سيف الدين قد بنيت هذه القلعة لأولادك.

فقال: ياخوند من الله عليك أنت وأولادك وأولاد أولادك بالدنيا.

فقال: ما فهمت ما قلت لك. أنا نجيب ما يأتى لى أولاد نجباء، وأنت غير نجيب فأولادك يكونون نجباء. فسكت.

قال مؤلفه رحمه الله: وهذا الذى ذكره صلاح الدين يوسف، من انتقال الملك عنه إلى أخيه وأولاد أخيه، ليس هو خاصا بدولته، بل اعتبر ذلك فى الدول. تجد الأمر ينتقل عن أولاد القائم بالدولة إلى بعض أقاربه. . . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، هو القائم بالملة الاسلامية. ولما توفى صلى الله عليه وسلم، انتقل أمر القيام بالملة الإسلامية بعده إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه، واسمه عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تميم بن مرة بن كعب بن لؤي. فهو رضى الله عنه يجتمع مع النبى صلى الله عليه وسلم فى مرة بن كعب.

لم لما انتقل الأمر بعد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم إلى بنى أمية، كان القائم بالدولة الأموية معاوية بن أبى سفيان صخر ابن حرب بن أمية، فلم تفلح أولاده، وصارت الخلافة

إلى مروان بن الحكم بن العاص بن أمية ، فتوارثها بنو مروان حتى انقضت دولتهم بقيام بنى العباس رضى الله عنه .

فكان أول من قام من بنى العباس عبد الله ابن محمد السفاح . ولما مات انتقلت الخلافة من بعده إلى أخيه أبى جعفر عبد الله بن محمد المنصور ، واستقرت فى بنيه إلى أن أنقرضت الدولة العباسية من بغداد .

وكذا وقع فى دول العجم أيضا . فأول ملوك بنى بويه عماد الدين أبو على الحسن بن بويه ، والقائم من بعده فى السلطنة أخوه حسن بن بويه . وأول ملوك بنى سلجوق طغريل ، والقاذم من بعده فى السلطنة ابن أخيه البارسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق .

وأول قائم بدولة بنى أيوب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . ولما مات اختلف أولاده ، فانتقل ملك مصر والشام وديار بكر والحجاز وإليمن إلى أخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، واستمر فيهم إلى أن انقرضت الدولة الأيوبية ، فقام بمملكة مصر المماليك الأتراك .

وأول من قام منهم بمصر الملك المعز أيبك ، فلما مات لم يفلح ابنه علي ، فصارت المملكة إلى قطز .

وأول من قام بالدولة الجركسية الملك الظاهر برقوق ، وانتقلت المملكة من بعد ابنه الملك الناصر فرج إلى الملك المؤيد شيخ المحمودى الظاهري .

وقد جمعت فى هذا فصلا كبيرا ، وقلما تجد الأمر بخلاف ما قلته لك . ولله عاقبة الأمور .

قال ابن عبد الظاهر : والملك الكامل هو الذى اهتم بعمارتها وعمارة أبراجها ، البرج الأحمر وغيره ، فكملت فى سنة أربع وستمائة ، وتحول إليها من دار الوزارة ، ونقل إليه أولاد العاضد وأقاربه ، وسجنهم فى بيت فيها . فلم يزالوا فيه إلى أن حولوا منه فى سنة أحدى وسبعين وستمائة .

قال : وفى آخر سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، شرع السلطان الملك المنصور قلاوون فى عمارة برج عظيم على جانب باب السر الكبير ، وبنى علوه مشترفات وقاعات مرخمة لم ير

مثلها، وسكنها فى صفر سنة ثلاث وثمانين وستمائة. ويقال ان قراقوش كان يستعمل فى بناء القلعة والسور خمسين ألف أسير.

«البئر التي بالقلعة»: هذه البئر من العجائب. استنبطها قراقوش.

قال ابن عبد الظاهر: وهذه البئر من عجائب الأبنية: تدور البقر من أعلاها فتنقل الماء من نقالة فى وسطها، وتدور أبقار فى وسطها وتنقل الماء من أسفلها، ولها طريق إلى الماء ينزل البقر إلى معينها فى مجاز، وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء.

وقيل ان أرضها مسامتة أرض بركة الفيل، وماؤها عذب. سمعت من يحكى من المشايخ أنها لما نقرت جاء ماؤها حلوا، فأراد قراقوش أو نوابة الزيادة فى مائها، فوسع نقر الجبل، فخرجت منه عين مالحة غيرت حلاوتها.

وذكر القاضى ناصر الدين شافع بن على فى كتاب «عجائب البنيان» أنه ينزل إلى هذه البئر بدرح نحو ثلاثمائة درجة.

ذكر صفة القلعة

وصفة قلعة الجبل أنها بناء على نشز عال يدور بها سور من حجر بأبراج وبدنات حتى تنتهى إلى القصر الأبلق، ثم من هناك تتصل بالدور السلطانية على غير أوضاع أبراج الغلال.

ويدخل إلى القلعة من بابين: أحدهما بابها الأعظم المواجه للقاهرة - ويقال له الباب المدرج - وبداخله يجلس وإلى القلعة، ومن خارجه تدق الخليلية قبل المغرب. والباب الثانى باب القرافة. وبين البابين ساحة فسيحة فى جانبها بيوت، وبجانبها القبلى سوق للمآكل.

ويتوصل من هذه الساحة إلى دركاه جليلة كان يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول، وفى وسط الدركاه باب القلعة، ويدخل منه فى دهليز فسيح إلى ديار وبيوت،

وإلى الجامع الذى تقام به الجمعة . ويمشى من دهليز باب القلعة ، فى مداخل أبواب ، إلى رحبة فسيحة فى صدرها الإيوان الكبير المعد لجلوس السلطان فى يوم المواكب وإقامة دار العدل ، وبجانب هذه الرحبة ديار جليلة ، ويمر منها إلى باب القصر الأبلق .

وبين يدى باب القصر رحبة دون الأولى يجلس بها خواص الأمراء قبل دخولهم إلى الخدمة الدائمة بالقصر . وكان بجانب هذه الرحبة ، محاذيا لباب القصر ، خزانة القصر ، ويدخل من باب القصر فى دهاليز خمسة إلى قصر عظيم ، يتوصل منه إلى الإيوان الكبير بباب خاص ، ويدخل منه أيضا إلى قصور ثلاثة ، ثم إلى دور الحرم السلطانية وإلى البستان والحمام والحوش .

وباقى القلعة فيه دور ومساكن للمماليك السطانية ، وخواص الأمراء بنسائهم وأولادهم ومماليكهم ودواوينهم وطشتخاناتهم وفرشخاناتهم وشربخاناتهم ومطابخهم وسائر وظائفهم .

وكانت أكابر أمراء الألوف ، وأعيان أمراء الطبلخاناه والعشراوات ، تسكن بالقلعة إلى آخر أيام الناصر محمد بن قلاوون .

وكان بها أيضا طباق المماليك السلطانية ودار الوزارة ـ وتعرف بقاعة الصاحب ـ وبها قاعة الإنشاء وديوان الجيش وبيت المال وخزانة الخاص ، وبها الدور السلطانية من الطشتخاناه والركابخاناه والحوائجخاناه والزردخاناه .

وكان بها الجب الشنيع لسجن الأمراء ، وبها دار النيابة ، وبها عدة أبراج يحبس بها الأمراء والمماليك ، وبها المساجد والحوانيت والأسواق ، وبها مساكن تعرف بخرائب التتر كانت قدر حارة . . . خربها الملك الأشرف برسباى فى ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وثمانمائة .

ومن حقوق القلعة الاصطبل السلطاني ، وكان ينزل إليه السلطان من جانب إيوان القصر . ومن حقوقها أيضا الميدان ، وهو فاصل بين الاصطبلات وسوق الخيل من غربية ، وهو فسيح المدي ، وفيه يصلى السلطان صلاة العيدين ، وفيه يلعب بالأكرة مع خواصه ، وفيه تعمل المدات أوقات المهمات أحيانا .

ومن رأى القصور والإيوان الكبير والميدان الأخضر والجامع، يقر لملوك مصر بعلو الهمم وسعة الانفاق والكرم.

«**باب الدرفيل**»: هذا الباب بجانب خندق القلعة، ويعرف أيضاً بباب المدرج، وكان يعرف قديما بباب سارية، ويتوصل إليه من تحت دار الضيافة، وينتهى منه إلى القرافة، وهو فيما بين سور القلعة والجبل.

والدرفيل هو الأمير حسام الدين لاجين الأيدمري، المعروف بالدرفيل، دوادار الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري. مات فى سنة اثنتين وسبعين ستمائة.

«**دار العدل القديمة**»: هذه الدار موضعها الأن تحت القلعة يعرف بالطبلخاناه، والذى بنى دار العدل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى فى سنة إحدى وستين وستمائة، وصار يجلس بها لعرض العساكر فى كل اثنين وخميس.

وابتدأ بالحضور فى أول سنة اثنتين وستين وستمائة. فوقف إليه نصار الدين محمد بن أبى نصر، وشكا أنه أخذ له بستان فى أيام المعز أيبك، وهو بأيدى المقطعين، وأخرج كتاباً مثبتاً، وأخرج من ديوان الجيش مايشهد بأن البستان ليس من حقوق الديوان. فأمر برده عليه، فتسلمه.

وأحضرت مرافعة فى ورقة مختومة. رفعها خادم أسود فى مولاه القاضى شمس الدين شيخ الحنابلة، تضمنت أنه يبغض السلطان ويتمنى زوال دولته، فإنه لم يجعل للحنابلة مدرساً فى المدرسة التى انشأها بخط بين القصرين، ولم يول قاضيا حنبليا، وذكر عنه أمورا قادحة. فبعث السلطان الورقة إلى الشيخ، فحضر إليه وحلف أنه ما جرى منه شيء، وأن هذا الخادم طردته فاختلق عإلى ماقال. فقبل السلطان عذره، وقال: ولو شتمتنى أنت فى حل، وأمر بضرب الخادم مائة عصا.

وغلت الأسعار بمصر حتى بلغ إردب القمح نحو مائة درهم وعدم الخبز. فنادى السلطان فى الفقراء أن يجتمعوا تحت القلعة، ونزل فى يوم الخميس سابع ربيع الآخر منها، وجلس بدار العدل هذه، ونظر فى أمر السعر، وأبطل التسعير، وكتب مرسوماً إلى الأمراء ببيع خمسمائة أردب، فى كل يوم مابين مائتين إلى مادونهما، حتى لايشترى الخزان شيئا، وأن يكون البيع للضعفاء والأرامل فقط دون من عداهم.

وأمر الحجاب فنزلوا تحت القلعة، وكتبوا أسماءالفقراء الذين تجمعوا بالرميلة، وبعث إلى كل جهة من جهات القاهرة ومصر، وضواحيهما حاجبا لكتابة أسماء الفقراء، وقال: والله لو كان عندى غلة تكفى هؤلاء لفرقتها.

لما انتهى إحضار الفقراء أخذ منهم لنفسه ألوفا، وجعل باسم ابنه الملك السعيد ألوفا، وأمر ديوان الجيش فوزع باقيهم على كل أمير من الفقراء بعدد رجاله، ثم فرق مابقى على الأجناد ومفاردة الحلقة والمقدمين والبحرية، وجعل طائفة التركمان ناحية، وطائفة الأكراد ناحية، وقرر لكل واحد من الفقراء كفايته لمدة ثلاثة أشهر.

فلما تسلم الأمراء والأجناد ماخصهم من الفقراء، فرق من بقى منهم على الأكابر والتجار والشهود، وعين لأرباب الزوايا مائة أردب قمح فى كل يوم، تخرج من الشون السلطانية إلى جامع أحمد بن طولون، وتفرق على من هناك.

ثم قال: هؤلاء المساكين الذين جمعناهم إليوم ومضى النهار لابد لهم من شيء، وأمر ففرق فى كل منهم نصف درهم ليقوت به في يومه، ويستمر له من الغد ماتقرر. فأنفق فيهم «جملة مال، وأعطى للصاحب بهاء الدين على بن محمد بن حنا طائفة كبيرة من العميان، وأخذ الأتابك سيف الدين أقطاى طائفة التركمان.

ولم يبق أحد من الخواص والأمراء الحواشي، ولا من الحجاب والولاة وأرباب المنصب وذوى المراتب وصحاب الأموال حتى أخذ جماعة من الفقراء على قدر حاله. وقال السلطان للأمير صارم الدين المسعودى وإلى القاهرة: خذ مائة فقير وأطعمهم لله تعالي.

فقال: نعم قد أخذتهم دائما.

فقال له السلطان: هذا شيء فعلته ابتداء من نفسك، وهذه المائة خذها لأجلي.

فقال للسلطان: السمع والطاعة، وأخذ مائة فقير زياة على المائة التى عينت له.

وانقضى النهار فى هذا العمل، وشرع الناس فى فتح الشون والمخازن وتفرقة الصدقات على الفقراء. فنزل سعر القمح، ونقص الأردب عشرين درهما، وقل وجود الفقراء.. إلى أن جاء شهر رمضان، وجاء المغل الجديد، فأول يوم من بيع الجديد نقص سعر أردب القمح أربعين درهماً ورقاً.

وفى اليوم الذى جلس فيه السلطان بدار العدل للنظر فى أمور الأسعار، قرئت عليه قصة ضمان دار الضرب، وفيها أنه قد توقفت الدراهم، وسألوا إبطال الناصرية فإن ضمانهم بمبلغ مائتى ألف وخمسين ألف درهم. فوقع عليها يحط عنهم منها مبلغ خمسين ألف درهم، وقال: نحط هذا، ولا تؤذى الناس فى أموالهم.

وفى مستهل شهر رجب منها جلس أيضاً بدار العدل، فوقف له بعض الأجناد بصغير يتيم ذكر أنه وصيه، وشكا من قضيته.

فقال السلطان لقاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب أبن بنت الأعز: إن الأجناد إذا مات أحد منهم استولى خجداشه على موجوده، فيموت الوصى ويكبر إليتيم فلا يجد له مالا.

وتقدم إليه ألا يمكن وصيا من الانفراد بتركة ميت، ولكن يكون نظر القاضى شاملا له، وتصير أموال الأيتام مضبوطة بأمناء الحكم، ثم إنه استدعى نقباء العساكر وأمرهم بذلك. فاستمر الحال فيه على ماذكر.

وفى خامس عشرى شعبان سنة ثلاث وستين وستمائة. جلس بدار العدل، واستدعى تاج الدين أبن القرطبي، وقال له: قد أضجرتنى مما تقول عندى مصالح لبيت المال، فتحدث الآن بما عندك. فتكلم فى حق قاضى القضاة تاج الدين، وفى حق متولى جزيرة سواكن، وفى حق الأمراد وإنهم إذا مات منهم أحد أخذ ورثته أكثر من استحقاقهم. فأنكر عليه وأمر بحبسه.

وتحدث السلطان فى أمر الأجناد، وإنه إذا مات أحدهم فى مواطن الجهاد لايصل إليه شاهد حتى يشهد عليه بوصيته، وأنه يشهد بعض أصحابه، فإذا حضر إلى القاهرة لاتقبل شهادته وكان الجندى فى ذلك الوقت لا تقبل شهادته فرأى السلطان أن كل أمير يعين من جماعته عدة ممن يعرف خيره ودينه ليسمع قولهم، وألزم مقدمى الأجناد بذلك.

فشرع قاضى القضاة فى اختيار رجال جياد من الأجناد، وعينهم لقبول شهادتهم. ففرحت العساكر بذلك.

وجلس أيضاً فى تاسع عشريه بدار العدل. فوقف له شخص، وشكا أن الأملاك الديوانية لايمكن أحد من سكانها أن ينتقل منها. فأنكر السلطان ذلك، وأمر أن من

انقضت، مدة إجارته وأراد الخلو، فلا يمنع من ذلك. وله فى ذلك عدة أخبار كلها صالحة، رحمه الله تعالى.

وما برحت دار العدل هذه باقية إلى أن استجد السلطان الملك المنصور قلاوون الإيوان، فهجرت دار العدل هذه.. إلى أن كانت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة. فهدمها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وعمل موضعها الطبلخاناه، فاستمرت طبلخاناه إلى يومنا.

إلا أنه كان فى أيام عمارتها إنما يجلس بها دائماً فى أيام الجلوس نائب دار العدل، ومعه القضاة وموقع دار العدل فى أمور المتظلمين، وتقرأ عليه القصص. وكان الأمر على ذلك فى أيام الظاهر بيبرس، وأيام ابنه الملك السعيد بركة، ثم أيام الملك المنصور قلاوون.

«الأيوان» المعروف بدار العدل: هذا الإيوان أنشأه السلطان الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى النجمي، ثم جدده ابنه السلطان الملك الأشرف خليل، واستمر جلوس نائب دار العدل به.

فلما عمل الملك الناصر محمد بن قلاوون الروك، أمر بهدم هذا الإيوان فهدم، وأعاد بناءه على ماهو عليه الآن وزاد فيه، وأنشأ به قبة جليلة، وأقام به عمداً عظيمة نقلها إليه من بلاد الصعيد ورخمه، ونصب فى صدره سرير الملك، وعمله من العاج والآبنوس، ورفع سمك هذا الإيوان، وعمل أمامه رحبة فسيحة مستطيلة.

وجعل بالإيوان باب سر من داخل القصر، وعمل باب الإيوان مسبوكاً من حديد بصناعة بديعة تمنع الداخل إليه، وله منه باب يغلق، فإذا أراد أن يجلس فتح حتى ينظر منه ومن تخاريم الحديد بقية العسكر الواقفين بساحة الإيوان. وقرر للجلوس فيه بنفسه يوم الإثنين ويوم الخميس، فاستمر الأمر على ذلك.

وكان أولا دون ماهو إليوم. فوسع فى قبته، وزاد فى ارتفاعه، وجعل قدامه دركاه كبيرة، فجاء من أعظم المبانى الملوكية.

وأول ماجلس فيه عند انتهاء علم الروك، بعد مارسم لنقيب الجيش أن يستدعى سائر الأجناد. فلما تكامل حضورهم جلس، وعين أن يحضر فى كل يوم مقدما ألوف

بمضافيهما . فكان المقدم يقف بمضافيه ، ويستدعى بمضافيه من تقدمته على قدر منازلهم . فيتقدم الجندى إلى السلطان فيسأله : أنت ابن من ومملوك من؟ ثم يعطيه مثالا . واستمر على ذلك من مستهل المحرم سنة خمس عشرة وسبعمائة إلى مستهل صفر منها .

وما برح بعد ذلك يواظب على الجلوس به فى يومى الإثنين والخميس ، وعنده أمراء الدولة والقضاة والوزير وكاتب السر وناظر الجيش وناظر الخاص وكتاب الدست ، وتقف الأجناد بين يديه على قدر أقدارهم .

فلما مات الملك الناصر ، اقتدى به فى ذلك أولاده من بعده ، واستمروا على الجلوس بالإيوان . إلى أن استبد بمملكة مصر الملك الظاهر برقوق ، فالتزم ذلك أيضاً إلا أنه صار يجلس فيه إذا طلعت الشمس جلوساً يسيراً يقرأ عليه فيه بعض قصص لا لمعنى سوى إقامة رسوم المملكة فقط .

وكان من قبله من ملوك بنى قلاوون إنما يجلسون بالإيوان سحراً على الشمع ، وكان موضع جلوس السلطان فى الإيوان للنظر فى المظالم . فأعرض الملك الظاهر عن ذلك ، وجعل لنفسه يومين يجلس فيهما بالاصطبل السلطانى للحكم بين الناس كما سيأتى ذكره عن قريب إن شاء الله تعالى وصار الإيوان فى أيام الظاهر برقوق ، وأيام ابنه الملك الناصر فرج وأيام الملك المؤيد شيخ ، إنما هو شئ من بقايا الرسوم المملوكية لاغير .

ذكر النظر فى المظالم

أعلم أن النظر فى المظالم عبارة عن قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة ، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة .

وكان من شروط الناظر فى المظالم أن يكون جليل القدر ، نافذ الأمر ، عظيم الهيبة ، ظاهر العفة ، قليل الطمع ، كثير الورع . لأنه يحتاج فى نظره إلى سطوة الحماة وتثبت القضاة ، فيحتاج إلى الجمع بين صفتى الفريقين ، وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر فى الجهتين .

وهى خطة حدثت لفساد الناس، وهى كل حكم يعجز عنه القاضى فينظر فيه من هو أقوى منه يدا.

وأول من نظر فى المظالم من الخلفاء أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه. وأول من أفرد للظلامات يوما يتصفح فيه قصص المتظلمين، ومن غير مباشرة النظر، عبدالملك بن مروان. فكان إذا وقف منها على مشكل، واحتاج فيه إلى حكم، ينفذ رده إلى قاضيه بن إدريس الأزدى فينفذ فيه أحكامه. وكان ابن إدريس هو المباشر، وعبد الملك الآمر. ثم زاد الجور فكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله أول من ندب نفسه للنظر فى المظالم فردها.

ثم جلس لها خلفاء بنى العباس. وأول من جلس منهم المهدى محمد، ثم الهادى موسي، ثم الرشيد هارون، ثم المأمون عبد الله، وآخر من جلس منهم المهتدى بالله محمد بن الواثق.

وأول من أعلم أنه جلس بمصر من الأمراء للنظر فى المظالم الأمير أبو العباس أحمد بن طولون، فكان يجلس لذلك يومين فى الأسبوع. فلما مات، وقام من بعده ابنه أبو الجيش خمارويه، جعل على المظالم بمصر محمد بن عبيدة بن حرب فى شعبان سنة ثلاث وسبعين ومائتين.

ثم جلس لذلك الأستاذ أبو المسك كافور الإخشيدي، وابتدأ ذلك فى سنة أربعين وثلاثمائة وهو يومئذ خليفة الأمير أبى القاسم أونوجور بن الإخشيد. فعقد مجلسا صار يجلس فيه كل يوم سبت، ويحضر عنده الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات وسائر القضاة والفقهاء والشهود ووجوه البلد. وما برح على ذلك مدة أيامه بمصر إلى أن مات، فلم ينتظم أمر مصر بعده.

إلى أن قدم القائد أبو الحسين جوهر بجيوش المعز لدين الله أبى تميم معد، فكان يجلس للنظر فى المظالم، ويوقع على رقاع المتظلمين.

فمن توقيعاته بخطه على قصة رفعت إليه: «سوء الإجترام أوقع بكم طول الإنتقام، وكفر الأنعام، أخرجكم من حفظ الذمام، فالواجب فيكم ترك الإيجاب، واللازم لكم

مـلازمـة الاجـتناب، لأنكـم بدأتم فـأسـأتم، وعـدتم فـتـعـديتم، فـابتداؤكـم ملوم، وعـودكـم مـذموم، ولـيس بينهـمـا فـرجـة تقـتـضـى إلا الذم لكـم، والإعـراض عنكـم، ليرى أمـيـر المؤمنين رأيه فيكم».

ولما قدم المعز لدين الله إلى مصر، وصارت دار خلافة، استقر النظر فى المظالم مدة يضاف إلى قاضى القضاة، وتارة ينفرد بالنظر فيه أحد عظماء الدولة. فملا ضعف جانب المستنصر بالله ابى تميم معد بن الظاهر، وكانت الشدة العظمى بمصر، قدم أمير الجيوش بدر الجمالى إلى القـاهرة وولى الوزارة. فـصـار أمـر الدولة كله راجـعـاً إليـه، واقـتـدى به من بعـده من الوزراء.

وكـان الرسـم فى ذلك أن الوزير صـاحب السيـف يجلس للـمظالم بنفسـه، ويجلس قبالته قـاضـى القضـاة وبجانبه شـاهدان معـتبـران، ويجلس بجـانب الوزير الموقع بالقلم الدقيق، ويليـه صـاحب ديوان المال، ويقف بين يدى الوزير صـاحب البـاب واسفـهسـلار العسـاكـر، وبين أيديهما الحجاب والنواب على طبقاتهم، ويكون هذاالجلوس يومين فى الأسبوع.

وآخر من تقلد المظالم فى الدولة الفاطمية، زريك ابن الوزير الأجل الملك الصالح طلائع ابن رزيك فى وزارة أبيـه، وكتب له سجل عن الخليفة منه: «وقـد قلدك أمير المؤمنين النظر فى المظالم، وإنصاف المظلوم من الظالم».

وكـانت الدولة إذا خلت من وزير صـاحـب سيف، جلس للنظر فى المظالم صاحب الباب فى باب الذهـب من القـصـر، وبين يديه الحـجاب والـنقباء، وينادى مناد بحضـرته: ياأرباب الظلامات. فيحضـرون إليه: فمن كانت ظلامته مشافهة أرسلت إلى الولاة أو القضاة رسالة بكشـفـهـا. ومن تظلـم من أهل النواحى التى خـارج القاهرة ومصـر، فإنه يحضـر قصة فيـهـا شرح ظلامته، فيتسلمها الحـاجب منه حتى تجتمع القصص، فـيدفعـهـا إلى الموقع بالقلم الدقيق فيوقع عليها. ثم تحمل بعد توقعية عليها إلى الموقع بالقلم الجليل، فيبسط ما أشار إليه الموقع بالقلم الدقيق. ثم تحمل التواقيع فى خريطة إلى مابين يدى الخليفة فيوقع عليها. ثم تخرج فى خريطتها إلى الحاجب، فيقف على باب القصر، ويسلم كل توقيع إلى صاحبه.

وأول من بنـى دار العـدل من الملوك السلطان الملك العـادل نور الدين مـحـمـود بن زنكي، رحـمـة الله تـعـالى عليه بدمشـق، عندمـا بلغـة تعـدى ظلـم نـواب أسد الدين شيركوه بن

شادى إلى الرعية، وظلمهم الناس، وكثرة شكواهم إلى القاضى كمال الدين الشهرزورى وعجزه عن مقاومتهم.

فلما بنيت دار العدل أحضر شيركوه نوابه وقال: إن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي، والله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحد منكم لأصلبنه، فامضوا إلى كل من كان بينكم وبينه منازعة فى ملك أو غيره فافصلوا الحال معه، وأرضوه بكل طريق أمكن ولو أتى على جميع مابيدي.

فقالوا: إن الناس إذا علموا بذلك اشتطوا فى الطلب.

فقال: لخروج أملاكى عن يدى أسهل علي من أن يرانى نور الدين بعين أنى ظالم، أو يساوى بينى وبين أحد من العامة فى الحكومة.

فخرج أصحابه وعملوا ما أمرهم به من إرضاء أخصامهم، وأشهدوا عليهم.

فلما جلس نور الدين بدار العدل فى يومين من الأسبوع، وحضر عنده القاضى والفقهاء، أقام مدة لم يحضر أحد يشكو شيركوه. فسأل عن ذلك فعرف بما جرى منه ومن نوابه فقال: الحمد لله الذى جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا.

وجلس أيضاً السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فى يومى الإثنين والخميس، لإظهار العدل. ولما تسلطن الملك المعز أيبك التركماني، أقام الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى فى نيابة السلطنة بديار مصر. فواظب الجلوس فى المدارس الصالحية بين القصرين، ومعه تواب دار العدل، ليرتب الأمور، وينظر فى المظالم. فنادى بإراقة الخمور، وإبطال ما عليها من المقرر.

وكان قد كثر الإرجاف بمسير الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الشام، لأخذ مصر. فلما انهزم الملك الناصر، واستبد الملك المعز أيبك، أحدث وزيره من المكوس شيئا كثيراً.

ثم إن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى بنى دار العدل، وجلس بها للنظر في

المظالم كما تقدم. فلما بنى الإيوان الملك الناصر محمد بن قلاوون، واظب الجلوس يوم الإثنين والخميس فيه، وصار يفصل فيه الحكومات فى الأحايين إذا أعيى من دونه فصلها.

فلما استبد الملك الظاهر برقوق بالسلطنة، عقد لنفسه مجلساً بالاصطبل السلطانى من قلعة الجبل، وجلس فيه يوم الأحد ثامن عشرى شهر رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة، وواظب ذلك فى يومى الأحد والأربعاء، ونظر فى الجليل والحقير. ثم حول ذلك إلى يومى الثلاثاء والسبت، وأضاف إليهما يوم الجمعة بعد العصر، وما زال على ذلك حتى مات.

فلما ولى ابنه الملك الناصر فرج بعده، واستبد بأمره جلس للنظر فى المظالم بالاصطبل اقتداء بأبيه، وصار كاتب السر فتح الله الدين فتح الله يقرأ القصص عليه، كما كان يقرأها على أبيه. فانتفع أناس، وتضرر آخرون بذلك، وكان الضرر أضعاف النفع.

ثم لما استبد الملك المؤيد شيخ بالمملكة، جلس أيضاً للنظر فى المظالم كما جلسا، والأمر على ذلك مستمر إلى وقتنا هذا، وهو سنة تسع عشرة وثمانمائة.

وقد عرف النظر فى المظالم منذ عهد الدولة التركية بديار مصر والشام بحكم السياسة، وهو يرجع إلى نائب السلطنة وحاجب الحجاب ووالى البلد ومتولى الحرب بالأعمال. وسيرد إن شاء الله تعالى الكلام فى حكم السياسة عن قريب.

ذكر خدمة الإيوان المعروف بدار العدل

كانت العادة أن السلطان يجلس بهذا الإيوان بكرة الإثنين والخميس طول السنة، خلا شهر رمضان فإنه لايجلس فيه هذا المجلس. وجلوسه هذا إنما هو للمظالم، وفيه تكون الخدمة العامة واستحضار رسل الملوك غالباً. فإذا جلس للمظالم، كان جلوسه على كرسى إذا قعد عليه يكاد تلحق الأرض رجله، وهو منصوب إلى جانب المنبر الذى هو تخت الملك وسرير السلطنة.

وكانت العادة أولا أن يجلس قضاة القضاة من المذاهب الأربعة، عن يمينه، وأكبرهم الشافعي وهو الذى يلى السلطان، ثم الحنبلي. وإلى جانب الحنبلى الوكيل عن بيت المال، ثم الناظر فى الحسبة بالقاهرة.

ويجلس على يسار السلطان كاتب السر، وقدامه ناظر الجيش. وجماعة الموقعين المعروفين بكتاب الدست، وموقعى الدست. . تكملة حلقة دائرة. فإن كان الوزير من أرباب الأقلام كان بين السلطان وكاتب السر، وإن كان الوزير من أرباب السيوف كان واقفا على بعد مع بقية أرباب الوظائف، وإن كان نائب السلطنة فإنه يقف مع أرباب الوظائف.

ويقف من وراء السلطان صفان، عن يمينه ويساره، من السلاحدارية والجمدارية والخاصكية. ويجلس على بعد بقدر خمسة عشر ذراعاً، عن يمنته ويسرته، ذوو السن والقدر من أكابر أمراء المئين ويقال لهم أمراء المشورة ويليهم من أسفل منهم أكابر الأمراء وأرباب الوظائف، وهم وقوف، وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة. ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب والدوادارية، لإعطاء قصص الناس، وإحضار الرسل وغيرهم من الشكاة وأصحاب الحوائج والضرورات.

فيقرأ كات السر وموقعو الدست القصص على السلطان. فإن احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيما يتعلق بالأمور الشرعية والقضايا الدينية. وما كان متعلقا بالعسكر: فإن كانت القصص فى أمراء الإقطاعات قرأها ناظر الجيش، فإن احتاج إلى مراجعة فى أمر العسكر تحدث مع الحاجب وكاتب الجيش فيها، وما عدا ذلك يأمر فيه السلطان بما يراه.

وكانت العادة الناصرية أن تكون الخدمة فى هذا الإيوان على ماتقدم ذكره فى بكرة يوم الإثنين. وأما بكرة يوم الخميس فإن الخدمة على مثل ذلك. . إلا أنه لايتصدى السلطان فيه لسماع القصص، ولا يحضره أحد من القضاة ولا الموقعين ولا كاتب الجيش، إلا أن عرضت حاجة إلى طلب أحد منهم. وهذا القعود عادته طول السنة ماعدا رمضان.

وقد تغير بعد الأيام الناصرية هذا الترتيب، فصارت قضاة القضاة تجلس عن يمنة السلطان ويسرته. فيجلس الشافعى عن يمينه، ويليه المالكي، ويليه قاضى العسكر، ثم محتسب القاهرة، ثم مفتى دار العدل الشافعي. ويجلس الحنفى عن يسرة السلطان، ويليه الحنبلي. وصارت القصص تقرأ، والقضاة وناظر الجيش يحضرون فى يوم الخميس أيضاً.

وكانت العادة أيضا إذا ولى أحد المملكة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون فإنه عند ولايته يحضر الأمراء إلى داره بالقلعة وتفاض عليه الخلعة الخليفية السوداء ومن تحتها فرجية خضراء وعمامة سوداء مدورة ويقلد بالسيف العربى المذهب.

ويركب فرس النوبة، ويسير والأمراء بين يديه والغاشية قدامه، والجاويشية تصيح، والشبابة السلطانية ينفخ بها والطبردارية حواليه إلا أن يعبر من باب النحاس إلى درج هذان الإيوان. فينزل عن الفرس، ويصعد إلى التخت فيجلس عليه، ويقبل الأمراء الأرض بين يديه، ثم يتقدمون إليه ويقبلون يده على قدر رتبهم، ثم مقدمو الحلقة.

فإذا فرغوا حضر القضاة والخليفة، فتفاض التشاريف على الخليفة، ويجلس مع السلطان على التخت، ويقلد السلطان المملكة بحضور القضاة والأمراء ويشهد عليه بذلك، ثم ينصرف ومعه القضاة، فيمد السماط للأمراء فإذا انقضى أكلهم قام السلطان ودخل المقصورة وانصرف الأمراء.

ومما قيل فى هذا الإيوان لما بناه السلطان الملك الناصر:

شرفت إيوانا جلست بصدره
فشرحت بالإحسان منه صدورا
قد كان يستعلى الفراقد رفعة
إذ حاز منك الناصر المنصورا
ملك الزمان ومن رعية ملكه
من عـــدالة لا يظلمون نقيرا
لازال منصـــور اللواء مؤيدا
أبــــد الزمان وضده مقهورا

وقيل أيضا:

يا ملكا اطلع من وجهـــــه
إيوانه لمـــــــــا بدا بدرا
أنسيتنا بالعـــدل كسرى ولن
نرضى لنـــا جبرا به كسرا

«**القصر الأبلق**» : هذا القصر يشرف على الاصطبل . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى شعبان سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، وانتهت عمارته فى سنة أربع عشرة ، وانشأ بجواره جنينة . ولما كمل عمل فيه سماطا حضره الأمراء وأهل الدولة ، ثم أفيضت عليهم الخلع ، وحمل إلى كل أمير من أمراء المئين ومقدمى الألوف ألف دينار ، ولكل من مقدمى الحلقة خمسمائة درهم ، ولكل من أمراء الطبلخاناه عشرة آلاف درهم فضة : عنها خمسمائة دينار . فبلغت النفقة على هذا المهم خمسمائة ألف درهم .

وكان العادة أن يجلس السلطان بهذا القصر كل يوم للخدمة ، ما عدا يومى الإثنين والخميس فإنه يجلس للخدمة بدار العدل ، كما تقدم ذكره . وكان يخرج إلى هذا القصر من القصور الجوانية ، فيجلس تارة على تخت الملك المنصوب بصدر إيوان هذا القصر المطلب على الاصطبل ، وتارة يقعد دونه على الأرض والأمراء وقوف على ما تقدم خلا أمراء المشورة والقرباء من السلطان فإنه ليس لهم عادة بحضور هذا المجلس ، ولا يحضر هذا المجلس من الأمراء الكبار إلا من دعت الحاجة إلى حضورة .

ولايزال السلطان جالسا إلى الثالثة من النهار ، فيقوم ويدخل إلى قصوره الجوانية ، ثم إلى دار حريمه ونسائه . ثم يخرج فى أخريات النهار إلى قصوره الجوانية ، فينظر فى مصالح ملكه . ويعبر إليه إلى قصوره الجوانية خاصته من أرباب الوظائف فى الاشغال المتعلقة به على ما تدعو الحاجة إليه ، ويقال لها خدمة القصر .

وهذا القصر تجاه بابه رحبة يسلك إليها من الرحبة التى تجاه الإيوان . فيجلس بالرحبة التى على باب القصر خواص الأمراء قبل دخولهم إلى خدمة القصر . ويمشى من باب القصر فى دهاليز مفروشة بالرخام ، قد فرش فوقه أنواع البسط ، إلى قصر عظيم البناء شاهق فى الهواء بإيوانين : أعظمها الشمالى ، يطل منه على الاصطبلات السلطانية ، ويمتد النظر إلى سوق الخيل والقاهرة وظواهرها إلى نحو النيل ، وما يليه من بلاد الجيزة وقراها . وفى الإيوان الثانى القبلى باب خاص لخروج السلطان وخواصه منه إلى الإيوان الكبير أيام الموكب .

ويدخل من هذا القصر إلى ثلاثة قصور جوانية : منها واحد مسامت لأرض هذا القصر ، واثنان يصعد إليهما بدرج ، فى جميعها شبابيك حديد تشرف على مثل منظرة القصر الكبير .

وفى هذه القصور كلها مجارى الماء مرفوعا من النيل بدواليب تديرها الأبقار من مقره إلى موضع ثم إلى آخر، حتى ينتهى الماء إلى القلعة، ويدخل إلى القصور السلطانية وإلى دور الأمراء الخواص المجاورين للسلطان، فيجرى الماء فى دورهم، وتدور به حماماتهم، وهو من عجائب الأعمال لرفعته من الأرض إلى السماء قريبا من خمسمائة ذراع من مكان إلى مكان، ويدخل من هذه القصور إلى دور الحريم.

وهذه القصور جميعها من ظاهرها مبنية بالحجر الأسود والحجر الأصفر، موزرة من داخلها بالرخام والفصوص المذهبة المشجرة بالصدف والمعجون وأنواع الملونات، وسقوفها كلها مذهبة قد موهت باللازورد، والنور يخرق فى جدرانها بطاقات من الزجاج القبرسى الملون كقطع الجوهر المؤلفة فى العقود. وجميع الأراضى قد فرشت بالرخام المنقول إليها من أقطار الأرض، مما لا يوجد مثله.

وتشرف الدور السلطانية من بعضها على بساتين وأشجار، وساحات للحيوانات البديعة والأبقار والأغنام والطيور الدواجن. وسيأتى إن شاء الله تعالى ذكر هذه القصور والبساتين والأحواش مفصلا.

وكان بهذا القصر الأبلق رسوم وعوايد، تغير كثير منها وبطل معظمها، وبقيت إلى الآن بقايا من شعار المملكة، ورسوم السلطنة.

وسأقص من أنباء ذلك إن شاء الله تعالى مالا تراه بغير هذا الكتاب مجموعا، والله يؤتى فضله من يشاء.

«الأسمطة السلطانية»: وكانت العادة أن يمد بالقصر، فى طرفى النهار من كل يوم، أسمطة جليلة لعامة الأمراء خلا البرانيين - وقليل ما هم - فبكرة يمد سماط أول لا يأكل منه السلطان، ثم ثان بعده - يسمى الخاص - قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل، ثم ثالث بعده - ويسمى الطارى - ومنه مأكول السلطان.

وأما فى آخر النهار فيمتد سماطان. الأول والثانى المسمى بالخاص، ثم إن استدعى بطار حضر وإلا فلا، ما عدا المشوى فإنه ليس له عادة محفوظة النظام، بل هو على حسب ما يرسم به.

وفى كل هذه الأسمطة يؤكل ما عليها، ويفرق نوالات، ثم يسقى بعدها الأقسماء المعمولة من السكر والأفاويه المطيبة بماء الورد المبردة.

وكانت العادة أن يبيت فى كل ليلة، بالقرب من السلطان، أطباق فيها أنواع من المطجنات والبوادر والقطر والقشطة والجبن المقلى والموز والسكباج، وأطباق فيها من الأقسماء والماء البارد، برسم أرباب النوبة فى السهر حول السلطان، ليتشاغلوا بالمأكول والمشروب عن النوم. ويكون الليل مقسوما بينهم بساعات الرمل، فإذا انتهت نوبة نبهت التى تليها، ثم ذهبت هى فنامت إلى الصباح.. هكذا أبدا سفرا وحضرا.

وكانت العادة أيضا أن يبيت فى المبيت السلطانى من القصر، أو المخيم إن كان فى السرحة، المصاحف الكريمة لقراءة من يقرأ من أرباب النوبة، ويبيت أيضا الشطرنج ليتشاغل به عن النوم.

وبلغ مصروف السماط، فى كل يوم عيد الفطر من كل سنة، خمسين ألف درهم: عنها نحو ألفين وخمسمائة دينار.. تنهبه الغلمان والعامة، وكان يعمل فى سماط الملك الظاهر برقوق فى كل يوم خمسة آلاف رطل من اللحم، سوى الأوز والدجاج. وكان راتب المؤيد شيخ فى كل يوم لسماطه وداره ثمانمائة رطل من اللحم.

فلما كان فى المحرم سنة ست وعشرين وثمانمائة، سأل الملك الأشرف برسباى عن مقدار ما يطبخ له فى كل يوم بكرة وعشيا، فقيل له ستمائة رطل فى الوجبتين، فأمر أن يطبخ بين يديه لأنه بلغه أنه يؤخذ مما ذكر لشاد الشرابخاناه ونحوه مائة وعشرون رطلا، فجعل راتب اللحم فى كل يوم - بزيادة أيام الخدمة ونقصان أيام عدم الخدمة - خمسمائة رطل وستة أرطال عن وجبتى الغداء والعشاء، ومن الدجاج ستة وعشرين طائرا، ولعمل المامونية رطلين ونصفا من السكر، وما يعمل برسم الجمدارية فإنه بعسل النحل.

ذكر العلامة السلطانية

قد جرت العادة أن السلطان يكتب خطه على كل ما يأمر به . فأما مناشير الأمراء والجند وكل من له إقطاع ، فإنه يكتب عليه علامته ، وكتبها الملك الناصر محمد بن قلاوون «الله أملى» ، وعمل ذلك الملوك بعده إلى اليوم . وأما تقاليد النواب ، وتواقيع أرباب المناصب من القضاة والوزراء والكتاب وبقية أرباب الوظائف ، وتواقيع أرباب الرواتب والإطلاقات . . فإنه يكتب عليها اسمه واسم أبيه إن كان أبوه ملكا . فيكتب مثلا «محمد بن قلاوون» ، أو «شعبان بن حسين» ، أو «فرج بن برقوق» وإن لم يكن أبوه ممن تسلطن - كبرقوق أو شيخ - فإنه يكتب اسمه فقط ، ومثاله «برقوق» أو «شيخ» .

وأما كتب البريد ، وخلاص الحقوق والظلامات ، فإنه يكتب أيضا عليها اسمه ، وربما كرم المكتوب إليه فكتب إليه «أخوه فلان» أو «والده فلان» ، و«أخوه» يكتب للأكابر من أرباب الرتب .

والذى يعلم عليه السلطان : أما إقطاع ، فالرسم فيه أن يقال «خرج الأمر الشريف» .

وأما وظائف ورواتب وإطلاقات ، فالرسم فى ذلك أن يقال «رسم بالأمر الشريف» . وأعلى ما يعلم عليه ما افتتح بخطبة أولها «الحمد لله» ثم ما افتتح بخطبة أولها «أما بعد حمدا لله» ، حتى يأتى على «خرج الأمر» فى المناشير أو «رسم بالأمر» فى التواقيع ، ثم بعد هذا أنزل الرتب ، وهو أن يفتتح فى المناشير «خرج الأمر» وفى التواقيع «رسم بالأمر» .

وتمتاز المناشير المفتتح فيها بالحمد لله أول الخطبة أن تطغر بالسواد ، وتتضمن اسم السلطان وألقابه . وقد بطلت الطغرا فى وقتنا هذا .

وكانت العادة أن يطالع نواب المملكة السلطان بما يتجدد عندهم : تارة على أيدى البريدية ، وتارة على أجنحة الحمام ، فتعود إليهم الأجوبة السلطانية وعليها العلامة .

فإذا ورد البريدى ، أحضره أمير جاندار - وهو من أمراء الألوف - والدوادار وكاتب السر بين يدى السلطان . فيقبل البريدى الأرض ، ويأخذ الدوادار الكتاب فيمسحه بوجه

البريدى، ثم يناوله للسلطان فيفتحه. ويجلس حينئذ كاتب السر ويقرأه على السلطان سرا، فإن كان أحد من الأمراء حاضرا تنحى حتى يفرغ من القراءة، ويأمر السلطان فيه بأمر، وإن كان الخبر على أجنحة الحمام، فإنه يكتب فى ورق صغير خفيف، ويحمل على الحمام الأزرق.

وكان لحمام الرسائل مراكز كما كان للبريد مراكز، وكان بين كل مركزين من البريد أميال، وفى كل مركز عدة خيول - كما بيناه فى ذكر الطريق فيما بين مصر والشام - وكانت مراكز الحمام كل مركز منها ثلاثة مراكز من مراكز البريد، فلا يتعدى الحمام ذلك المركز، وينقل عند نزوله المركز ما على جناحه إلى طائر آخر، حتى يسقط بقلعة الجبل، فيحضره البراج، ويقرأ كاتب السر البطاقة. وكل هذا مما يعلم عليه بالقصر.

ومما كان يحضر إلى القصر بالقلعة فى كل يوم ورقة الصباح يرفعها وإلى القاهرة ووالى مصر، وتشتمل على إنهاء ما تجدد فى كل يوم وليلة بحارات البلدين وأخطاطهما، من حريق أو قتل قتيل أو سرقة سارق ونحو ذلك، ليأمر السلطان فيه بأمره.

«الأشرفية» : هذا القصر، المعروف بالأشرفية، انشأه الملك الأشرف خليل بن قلاوون فى سنة اثنتين وتسعين وستمائة، ولما فرغ صنع به مهما عظيما لم يعمل مثله فى الدولة التركية، وختن أخاه الملك الناصر محمد بن قلاوون وابن أخيه الأمير موسى بن الصالح على بن قلاوون، وجمع سائر أرباب الملاهى وجميع الأمراء، ووقف الخازندارية بأكياس الذهب.

فلما قام الأمراء من الخاصكية للرقص، نثر الخازندارية على كل من قام للرقص حتى فرغ حتى فرغ الختان. فأنعم على كل أمير من الأمراء بفرس كامل القماش، وألبس خلعه عظيمة، وأنعم على عدة منهم كل واحد بألف دينار وفرس، وأنعم على ثلاثين من الأمراء الخاصكية لكل واحد مبلغ خمسة آلاف دينار، وأنعم على البلبيل المغنى بألف دينار.

وكان الذى عمل فى هذا المهم من الغنم ثلاثة آلاف رأس، ومن البقر ستمائة رأس، ومن الخيل خمسمائة أكديش، ومن السكر برسم المشروب ألف قنطار وثمانمائة قنطار، وبرسم الحلوى مائة وستون قنطارا، وبلغت النفقة على هذا المهم، فى عمل السماط والمشروب والأقبية والطراز والسروج وثياب النساء، مبلغ ثلاثمائة ألف دينار عينا.

«البيسرية» : ومن جملة دور القلعة قاعة البيسرية، أنشأها السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، وكان ابتداء بنائها في أول يوم من شعبان سنة إحدى وستين وسبعمائة، ونهاية عمارتها فى ثامن عشرى ذى الحجة من السنة المذكورة. فجاءت من الحسن فى غاية لم ير مثلها، وعمل لهذه القاعة من الفرش والبسط مالا تدخل قيمته تحت حصر. فمن ذلك تسعة وأربعون ثريا برسم وقود القناديل، جملة ما دخل فيها من الفضة البيضاء الخالصة المضروبة مائتا ألف وعشرون ألف درهم، وكلها مطلية بالذهب. وجاء ارتفاع بناء هذه القاعة طولا فى السماء ثمانية وثمانين ذراعا.

وعمل السلطان بها برجا يبيت فيه من العاج والأبنوس مطعم يجلس بين يديه، وأكنافا وبابا يدخل منه إلى أرض كذلك، وفيه مقرنص قطعة واحدة يكاد يذهل الناظر إليه: بشبابيك ذهب خالص، وطرازات ذهب مصوغ، وشرافات ذهب مصوغ، وقبة مصوغة من ذهب.. صرف فيه ثمانية وثلاثون ألف مثقال من الذهب، وصرف فى مئونه وأجره تتمة ألف ألف درهم فضة: عنها خمسون ألف دينار ذهبا. وبصدر إيوان هذه القاعة شباك حديد، يقارب باب زويلة، يطل على جنينة بديعة الشكل.

«الدهيشة» : عمرها السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة. وذلك. أنه بلغه عن الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماة، أنه عمر بحماة دهيشة لم يبن مثلها، فقصد مضاهاته، وبعث الأمير أقجبا وأبجيج المهندس لكشف دهيشة حماة، وكتب لنائب حلب ونائب دمشق بحمل ألفى حجر بيض وألفى حجر حمر من حلب ودمشق وحشرت الجمال لحلمها حتى وصلت إلى قلعة الجبل وصرف فى حمولة كل حجر من حلب اثنا عشر درهما، ومن دمشق ثمانية دراهم.

واستدعى الرخام من سائر الأمراء وجميع الكتاب ورسم بإحضار الصناع للعمل، ووقع الشروع فيها حتى تمت فى شهر رمضان منها، وقد بلغ مصروفها خمسمائة ألف درهم، سوى ما قدم من دمشق وحلب وغيرما، وعمل لها من الفرش والبسط والآلات ما يجل وصفه، وحضر بها سائر الأغانى، وكان مهما عظيما.

«**السبع قاعات**» : هذه القاعات تشرف على الميدان وباب القرافة . عمرها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأسكنها سراريه ، ومات عن ألف ومائتى وصيفة مولدة ، سوى من عداهن من بقية الأجناس .

«**الجامع بالقلعة**» : هذا الجامع أنشأه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ثمان عشرة وسبعمائة . وكان قبل ذلك هناك جامع دون هذا ، فهدمه السلطان ، وهدم المطبخ والحوائجخاناه والفراشخاناه ، وعمله جامعا . ثم أخربه فى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ، وبناه هذا البناء .

فلما تم بناؤه جلس فيه ، واستدعى جميع مؤذنى القاهرة ومصر ، وجميع القراء والخطباء ، وعرضوا بين يديه ، وسمع تأذينهم وخطابتهم وقراءتهم . فاختار منهم عشرين مؤذنا رتبهم فيه ، وقرر فيه درس فقه وقارئا يقرأ فى المصحف ، وجعل عليه أوقافا تكفيه وتفيض .

وصار من بعده من الملوك يخرجون أيام الجمع إلى هذا الجامع ، ويحضر خاصة الأمراء معه من القصر ويجىء باقيهم من باب الجامع ، فيصلى السلطان عن يمين المحراب فى مقصورة خاصة به ويجلس عنده أكابر خاصته ، ويصلى معه الأمراء خاصتهم وعامتهم خارج المقصورة ، عن يمنتها ويسرتها ، على مراتبهم . فإذا انقضت الصلاة دخل إلى قصوره ودور حرمه ، وتفرق كل أحد إلى مكانه .

وهذا الجامع متسع الأرجاء ، مرتفع البناء ، مفروش الأرض بالرخام ، مبطن السقوف بالذهب ، وبصدره قبة عالية يليها مقصورة ، مستورة هى والرواقات بشبابيك الحديد المحكمة الصنع ، ويحف صحته رواقات من جهاته .

«**الدار الجديدة**» : هذه الدار عند باب سر القلعة المطل على سوق الخيل . عمرها الملك الظاهر بيبرس البندقدارى فى سنة أربع وستين وستمائة ، وعمل بها فى جمادى الأولى منها دعوة للأمراء عند فراغها .

«**خزانة الكتب**» : وقع بها الحريق يوم الجمعة رابع صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة . فتلف بها من الكتب، فى الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم، شىء كثير جدا كان من ذخائر الملوك . فانتهبها الغلمان وبيعت أوراقا محرقة ظفر الناس منها بنفائس غريبة ما بين ملاحم وغيرها، وأخذوها بأبخس الأثمان .

«**القاعة الصالحية**» : عمرها الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكانت سكن الملوك إلى أن احترقت فى سادس ذى الحجة سنة أربع وثمانين وستمائة، واحترق معها الخزانة السلطانية .

«**باب النحاس**» : هذا الباب من داخل الستارة، وهو أجل أبواب الدور السلطانية، عمره الناصر محمد بن قلاوون، وزاد فى سعة دهليزه .

«**باب القلة**» : عرف بذلك من أجل أنه كان هناك قلة بناها الملك الظاهر بيبرس، وهدمها الملك المنصور قلاوون فى يوم الأحد عاشر شهر رجب سنة خمس وثمانين وستمائة، وبنى مكانها قبة فرغت عمارتها فى شوال منها ثم هدمها الملك الناصر محمد بن قلاوون وجدد باب القلة على ما هو عليه الآن، وعمل له بابا ثانيا .

«**الرفرف**» : عمره الملك الأشرف خليل بن قلاوون وجعله عاليا يشرف على الجيزة كلها وبيضه، وصور فيه أمراء الدولة وخواصها، وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها . وكان مجلسا يجلس فيه السلطان، واستمر جلوس الملوك به، حتى هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة، وعمل بجواره برجا بجوار الاصطبل نقل إليه المماليك .

«**الجب**» : كان بالقلعة جب يحبس فيه الأمراء، وكان مهولا مظلما كثير الوطاويط كريه الرائحة، يقاسى المسجون فيه ما هو كالموت أو أشد منه، عمره الملك المنصور قلاوون فى سنة احدى وثمانين وستمائة، فلم يزل إلى أن قام الأمير بكتمر الساقى فى أمره، مع الملك الناصر محمد بن قلاوون، حتى أخرج من كان فيه من المحابيس ونقلهم إلى الأبراج، وردمه ، وعمر فوق الردم طباقا فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة .

«**الطبلخاناه تحت القلعة**» : ذكر هشام بن الكلبى أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، لما قدم الشام، تلقاه المقلسون من أهل الأديان بالسيوف والريحان. فكره عمر رضى الله عنه النظر إليهم، وقال: ردوهم.

فقال له أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه: إنها سنة الأعاجم، فإن منعتهم ظنوا أنه نقض لعهدهم.

فقال عمر رضى الله عنه: دعوهم.

والتقليس الضرب بالطبل أو الدف.

وهذه الطبلخاناه الموجودة الآن تحت القلعة فيما بين باب السلسلة وباب المدرج، كانت دار العدل القديمة التى عمرها الملك الظاهر بيبرس وتقدم خبرها.

فلما كانت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة، هدمها الناصر محمد بن قلاوون، وبناها . . هذه الطبلخاناه الموجودة الآن تحت قلعة الجبل، فيما بين باب السلسلة وباب المدرج، وصار ينزل إلى عمارتها كل قليل.

وتولى شد العمارة بها آق سنقر، شاد العمائر، ووجد فى أساسها أربعة قبور كبار المقدار، عليها قطع رخام منقوش عليها اسماء المقبورين وتاريخ وفاتهم. فنبشوا ونقلوا قريبا من القلعة، فكانوا خلقا كبيرا عظيما فى الطول والعرض، على بعضهم ملاءة ديبيقية ملونة ساعة مستها الأيدى تمزقت وتطايرت هباء، وفيهم اثنان عليهما آلة الحرب وعدة الجهاد، وبهما آثار الدماء والجراحات وفى وجه أحدهما ضربة سيف بين عينيه، والجرح مسدود بقطنة. فلما أمسكت القطنة ورفعت عن الجرح فوق الحاجب، نبع من تحتها دم يظن أنه جرح طرى فكان فى ذلك موعظة وذكرى.

وكانت الطبلخانة ساحة بغير سقف فلما ولى الأمير سودون طاز أميراخور، وسكن الاصطبل السلطانى، عمر هذه الطباق فوق الطباق. وكان الغرض من عمارتها صحيحا، فان المدرسة الأشرفية كانت حينئذ قائمة تجاه الطبلخاناه. ولما كان زمان الفتن بين أمراء الدولة، تحصن فوقها طائفة ليرموا على الاصطبل والقلعة، فأراد ببناء هذه الطباق فوق

الطباق أن يجعل بهارماة حتى لا يقدر أحد يقيم فوق المدرسة الأشرفية. وقد بطل ذلك، فإن الملك الناصر فرج بن برقوق هدم المدرسة الأشرفية، كما ذكر في هذا الكتاب عند ذكر المدارس.

«**الطباق بساحة الإيوان**»: عمرها الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأسكنها المماليك السلطانية، وعمر حارة تختص بهم.

وكانت الملوك تعنى بها غاية العناية. حتى أن الملك المنصور قلاوون كان يخرج فى غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ويأمر بعرضه عليه، ويتفقد لحمهم، ويختبر طعامهم فى جودته ورداءته. فمتى رأى فيه عيبا، اشتد على المشرف والأستادار، ونهرهما، وحل بهما منه أى مكروه.

وكان يقول: كل الملوك عملوا شيئا يذكرون به ما بين مال وعقار، وأنا عمرت أسوارا، وعملت حصونا مانعة لى ولأولادى وللمسلمين وهم المماليك.

وكانت المماليك أبدا تقيم بهذه الطباق لا تبرح فيها. فلما تسلطن الملك الأشرف خليل بن قلاوون، سمح للمماليك أن ينزلوا من القلعة فى النهار ولا يبيتوا إلا بها، فكان لا يقدر أحد منهم أن يبيت بغيرها. ثم إن الملك الناصر محمد بن قلاوون سمح لهم بالنزول إلى الحمام يوما فى الاسبوع، فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدام، ثم يعودون آخر نهارهم ولم يزل هذا حالهم إلى أن انقرضت إيام بنى قلاوون.

وكانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة: أولها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان، ونزله فى طبقة جنسه، وسلمه لطواشى برسم الكتابة، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم. وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر اليها كل يوم، ويأخذ فى تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط، والتمرن بآداب الشريعة، وملازمة الصلوات والأذكار.

وكان الرسم إذ ذاك ألا تجلب التجار إلا المماليك الصغار. فإذا شب الواحد من المماليك، علمه الفقيه شيئا من الفقه، وأقرأه فيه مقدمة. فإذا صار إلى سن البلوغ، أخذ فى تعليمه أنواع الحرب من رمى السهام، ولعب الرمح، ونحو ذلك. فيتسلم كل طائفة معلم حتى

يبلغ الغاية فى معرفة ما يحتاج إليه. وإذا ركبوا إلى لعب الرمح، أو رمى النشاب، لا يجسر جندى ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم.

فينقل إذن إلى الخدمة ويتنقل فى أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء. فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه، وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتد ساعده فى رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح، ومرن على ركوب الخيل. ومنهم من يصير فى رتبة فقيه عارف، أو أديب شاعر، أو حاسب ماهر.

هذا، ولهم أزمة من الخدام، وأكابر من رؤوس النوب: يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافى، ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه على حركاته وسكناته.

فإن عثر أحد من مؤدبيه الذى يعلمه القرآن، أو الطواشى الذى هو مسلم إليه، أو رأس النوبة الذى هو حاكم عليه، على أنه اقترف ذنبا أو أخل برسم، أو ترك أدبا من آداب الدين أو الدنيا.. قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه.

وبلغ من تأديبهم أن مقدم المماليك كان إذا أتاه بعض مقدمى الطباق فى السحر يشاور على مملوك أنه يغتسل من جنابة، فيبعث من يكشف عن سبب جنابته: إن كان من احتلام، فينظر فى سراويله هل فيه جنابة أم لا، فإن لم يجد به جنابة جاءه الموت من كل مكان.

فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك، وقادة يجاهدون فى سبيل الله، وأهل سياسة يبالغون فى إظهار الجميل، ويردعون من جار أو تعدى. وكانت لهم الادرارات الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلاوات والفواكه والكسوات الفاخرة، والمعاليم من الذهب والفضة.. بحيث تتسع أحوال غلمانهم، ويفيض عطاؤهم على من قصدهم.

ثم لما كانت أيام الظاهر برقوق راعى الحال فى ذلك بعض الشىء إلى أن زالت دولته فى سنة احدى وتسعين وسبعمائة. فلما عاد إلى المملكة رخص للمماليك فى سكنى القاهرة وفى التزوج، فنزلوا من الطباق من القلعة ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا إلى البطالة ونسوا تلك العوايد.

ثم تلاشت الاحوال فى أيام الناصر فرج بن برقوق، وانقطعت الرواتب من اللحوم وغيرها حتى عن مماليك الطباق مع قلة عددهم، ورتب لكل واحد منهم فى اليوم مبلغ

عشرة دراهم من الفلوس فصار غذاؤهم فى الغالب الفول المصلوق عجزا عن شراء اللحم وغيره.

هذا وبقى الجلب من المماليك إنما هم الرجال الذين كانوا فى بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد فى تنور خباز، ومحول ماء فى غيط أشجار ونحو ذلك. واستقر رأى الناصر على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم، بل يتركون وشئونهم.

فبدلت الأرض غير الأرض، وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم، وأخسهم قدرا وأشحهم نفسا، وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم أعراضا عن الدين. ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد، وألص من فأرة، وأفسد من ذئب. . لا جرم أن خربت أرض مصر والشام - من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات - بسوء إيالة الحكام، وشدة عبث الولاة، وسوء تصرف أولى الأمر، حتى انه ما من شهر إلا ويظهر من الخلل العام مالا يتدارك فرطه.

وبلغت عدة المماليك السلطانية فى أيام الملك المنصور قلاوون ستة آلاف وسبعمائة.

فأراد ابنه الأشرف خليل تكميل عدتها عشرة آلاف مملوك، وجعلهم طوائف: فأفرد طائفتى الأرمن والجركس، وسماها البرجية. لأنه أسكنها فى أبراج بالقلعة فبلغت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة، وأفرد جنس الخطا والقبجاق، وأنزلهم بقاعة عرفت بالذهبية والزمرذية، وجعل منهم جمدارية وسقاة وسماهم خاصكية، وعمل البرجية سلاحدارية وجمقدارية وجاشنكيرية وأوشاقية.

ثم شغف الملك الناصر محمد بن قلاوون بجلب المماليك من بلاد أزبك وبلاد توريز وبلاد الروم وبغداد، وبعث فى طلبهم، وبذل الرغائب للتجار فى حملهم إليه، ودفع فيهم الأموال العظيمة، ثم افاض على من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامة الاصناف دفعة واحدة فى يوم واحد، ولم يراع عادة أبيه ومن كان قبله من الملوك فى تنقل المماليك فى أطوار الخدم حتى يتدرب ويتمرن كما تقدم، وفى تدريجه من ثلاثة دنانير فى الشهر إلى عشرة دنانير، ثم نقله من الجامكية إلى وظيفة من وظائف الخدمة. . بل اقتضى رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة.

فأتاه من المماليك شيء كثير رغبة فيما لديه حتى كان الأب يبيع ابنه للتاجر الذى يجلبه إلى مصر. وبلغ ثمن المملوك فى أيامه إلى مائة ألف درهم فما دونها، وبلغت نفقات المماليك فى كل شهر إلى سبعين ألف درهم، ثم تزايدت حتى صارت فى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة مائتين وعشرين ألف درهم.

«دار النيابة»: كان بقلعة الجبل دار نيابة بناها الملك المنصور قلاوون فى سنة سبع وثمانين وستمائة، سكنها الأمير حسام الدين طرنطاى ومن بعده من نواب السلطنة.

وكانت النواب تجلس بشباكها، حتى هدمها الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، وأبطل النيابة، وأبطل الوزارة أيضا فصار موضع دار النيابة ساحة.

فلما مات الملك الناصر، أعاد الأمير قوصون دار النيابة عند استقراره فى نيابة السلطنة، فلم تكمل حتى قبض عليه. فولى نيابة السلطنة الأمير طشتمر حمص أخضر، وقبض عليه، فتولى بعده نيابة السلطنة الأمير شمس الدين آق سنقر، فى أيام الملك الصالح إسماعيل ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، فجلس بها فى يوم السبت أول صفر سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فى شباك دار النيابة. وهوأول من جلس بها من النواب بعد تجديدها، وتوارثها النواب بعده.

وكانت العادة أن يركب جيوش مصر يومى الاثنين والخميس فى الموكب تحت القلعة، فيسيرون هناك من رأس الصوة إلى باب القرافة، ثم تقف العسكر مع نائب السلطنة، وينادى على الخيل بينهم، وربما نودى على كثير من آلات الجند والخيم والجراكاوات والأسلحة، وربما نودى على كثير من العقار، ثم يطلعون إلى الخدمة السلطانية بالإيوان بالقلعة على ما تقدم ذكره.

فإذا مثل النائب فى حضرة السلطان، وقف فى ركن الإيوان إلى أن تنقضى الخدمة فيخرج إلى دار النيابة والأمراء معه، ويمد السماط بين يديه كما يمد سماط السلطان، ويجلس جلوسا عاما للناس، وتحضره أرباب الوظائف، وتقف قدامه الحجاب، وتقرأ القصص، وتقدم إليه الشكاة، ويفصل أمورهم. فكان السلطان يكتفى بالنائب، ولا يتصدى لقراءة القصص عليه وسماع الشكوى تعويلا منه على قيام النائب بهذا الأمر.

وإذا قرئت القصص على النائب نظر : فإن كان مرسومه يكفى فيها أصدره عنه، ومالا يكفى فيه إلا مرسوم السلطان، أمر بكتابته عن السلطان وأصدره فيكتب ذلك، وينبه فيه على أنه بإشارة النائب ، ويميز عن نواب السلطان بالممالك الشامية بأن يعبر عنه «بكافل المملكة الشريفة الإسلامية».

وما كان من الأمور التى لابد من إحاطة علم السلطان بها، فإنه إما أن يعلمه بذلك منه إليه وقت الاجتماع به، أو يرسل إلى السلطان من يعلمه به ويأخذ رأيه فيه.

وكان ديوان الإقطاع – وهو الجيش – فى زمان النيابة ليس لهم خدمة إلا عند النائب، ولا اجتماع إلا به، ولا يجتمع ناظر الجيش بالسلطان فى أمر من الأمور .

فلما أبطل الملك الناصر محمد بن قلاوون النيابة ، صار ناظر الجيش يجتمع بالسلطان، واستمر ذلك بعد إعادة النيابة. وكان الوزير وكاتب السر يراجعان النائب فى بعض الأمور دون بعض، ثم اضمحلت نيابة السلطنة فى أيام الناصر محمد بن قلاوون وتلاشت أوضاعها.

فلما مات أعيدت بعده، ولم تزل إلى أثناء أيام الظاهر برقوق. وآخر من وليها على أكثر قوانينها الأمير سودون الشيخى، وبعده لم يل النيابة أحد فى الأيام الظاهرية، ثم أن الناصر فرج بن برقوق أقام الأمير تمراز فى نيابة السلطنة، فلم يسكن دار النيابة فى القلعة، ولا خرج عما يعرفه من حال حاجب الحجاب، ولم يل النيابة بعد تمراز أحد إلى يومنا هذا.

وكانت حقيقة النائب أنه السلطان الثانى، وكانت سائر نواب الممالك الشامية وغيرها تكاتبه فى غالب ما تكاتب فيه السلطان، ويراجعونه فيما كان يراجع السلطان، وكان يستخدم الجند ويخرج الاقطاعات من غير مشاورة، ويعين الإمرة لكن بمشاورة السلطان.

وكان النائب هو المتصرف المطلق التصرف فى كل أمر : فيراجع فى الجيش والمال والخبر، وهو البريد، وكل ذى وظيفة لا يتصرف إلا بأمره، ولا يفصل أمرا معضلا إلا بمراجعته، وهو الذى يستخدم الجند ، ويترتب فى الوظائف، إلا ما كان منها جليلا - كالوزارة ، والقضاء، وكتابة السر ، والجيش - فإنه يعرض على السلطان من يصلح، وكان قل ألا يجاب فى شىء يعينه.

وكان من عدا نائب السلطنة بديار مصر يليه فى رتبة النيابة، وكل نواب الممالك تخاطب بملك الأمراء، إلا نائب السلطنة بمصر فإنه يسمى «كامل الممالك» تمييزا له وإبانة عن عظيم محله. وبالحقيقة ما كان يستحق اسم نيابة السلطنة، بعد النائب بمصر، سوى نائب الشام بدمشق فقط، وإنما كانت النيابة تطلق أيضا على أكابر نواب الشام، وليس لأحد منهم من التصرف ما كان لنائب دمشق. إلا أن نيابة السلطنة بحلب تلى رتبة نيابة السلطنة بدمشق.

وقد اختلت الآن الرسوم، واتضعت الرتب، وتلاشت الأحوال، وعادت أسماء لا معنى لها، وخيالات حاصلها عدم. والله يفعل ما يشاء.

ذكر جيوش الدولة التركية وزيها وعوايدها

اعلم أنه قد كان بقلعة الجبل مكان معد لديوان الجيش، وأدركت منه بقية إلى أثناء دولة الظاهر برقوق. وكان ناظر الجيش وسائر كتاب الجيش لا يبرحون فى أيام الخدمة نهارهم مقيمين بديوان الجيش، وكانت لهذا الديوان عوايد قد تغير أكثرها، ونسى غالب رسومه.

وكانت جيوش الدولة التركية بديار مصر على قسمين: منهم من هو بحضرة السلطان، ومنهم من هو فى أقطار المملكة وبلادها، وسكان بادية كالعرب والتركمان. وجندها مختلط من أتراك وجركس وروم وأكراد وتركمان، وغالبهم من المماليك المبتاعين.

وهم طبقات: أكابرهم من له أمرة مائة فارس وتقدمة ألف فارس، ومن هذا القبيل تكون أكابر النواب، وربما زاد بعضهم بالعشرة فوارس والعشرين.

ثم أمراء الطبلخاناه، ومعظمهم من تكون له أمرة أربعين فارسا، وقد يوجد فيهم من له أزيد من ذلك إلى السبعين، ولا تكون الطبلخاناه لأقل من أربعين.

ثم أمراء العشراوات ممن تكون له إمرة عشرة، وربما كان فيهم من له عشرون فارسا، ولا يعدون فى أمراء العشراوات.

ثم جند الحلقة ، وهؤلاء تكون مناشيرهم من السلطان ، كما أن مناشير الأمراء من السلطان ، وأما أجناد الأمراء فمناشيرهم من أمرائهم .

وكان منشور الأمير يعين فيه للأمير ثلث الإقطاع ولأجناده الثلثان ، فلا يمكن الأمير ولامباشروه أن يشاركوا أحدا من الأجناد فيما يخصهم إلا برضاهم .

وكان الأمير لايخرج أحدا من أجناده حتى يتبين للنائب موجب يقتضى إخراجه . . فحينئذ يخرجه نائب السلطان ، ويقيم عند الأمير عوضه . . وكان لكل أربعين جندياً من جند الحلقة مقدم عليهم ، ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر للقتال ، فكانت مواقف الأربعين مع مقدمهم ، وترتيبهم فى موقفهم إليه .

ويبلغ بمصر أقطاع بعض أكابر أمراء المئين ، المقدمين من السلطان ، مائتى ألف دينار جيشية ، وربما زاد على ذلك ، وأما غيرهم فدون ذلك يعبر أقلها إلى ثمانين ألف دينار وماحولها .

وأما الطبلخاناه فمن ثلاثين ألف دينار إلى ثلاثة وعشرين ألف دينار .

وأما العشراوات فأعلاها سبعة آلاف دينار إلى مادونها .

وأما إقطاعات أجناد الحلقة فأعلاها ألف وخمسمائة دينار ، وهذا القدر وماحوله إقطاعات أعيان مقدمى الحلقة ، ثم بعد ذلك الأجناد بابات ، حتى يكون أدناهم مائتين وخمسين دينارا ، وسيرد تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى .

وأما إقطاعات جند الأمراء فإنها على مايراه الأمير من زيادة بينهم ونقص .

وأما إقطاعات الشام فإنها لاتقارب هذا ، بل تكون على الثلثين مما ذكرنا ، ماخلا نائب السلطنة بدمشق ، فإنه يقارب اقطاعه على اقطاعات أكابر أمراء مصر المقربين . . وجميع جند الأمراء تعرض بديوان الجيش ، ويثبت اسم الجندى وحليته ، ولايستبدل أميره به غيره إلا بتنزيل من عوض به وعرضه .

وكانت للأمراء على السلطان فى كل سنة ملابس ينعم بها عليهم ، ولهم فى ذلك حظ وافر . . وينعم على أمراء المئين بخيول مسرجة ملجمة ، ومن عداهم بخيول عرى ، ويميز

خاصتهم على عامتهم، وكان لجميع الأمراء- من المثين، والطبلخاناه، والعشراوات- على السلطان الرواتب الجارية فى كل يوم من اللحم وتوابله كلها، والخبر، والشعير لعليق الخيل، والزيت. . ولبعضهم الشمع والسكر والكسوة فى كل سنة. . وكذلك لجميع مماليك السلطان، وذوى الوظائف من الجند.

وكانت العادة إذا نشأ لأحد الأمراء ولد أطلق له دنانير ولحم وخبز وعليق حتى يتأهل للإقطاع فى جملة الحلقة، ثم منهم من ينتقل إلى إمرة عشرة، أو إلى إمرة طبلخاناه بحسب الحظ.

واتفق للأميرين طرنطاى وكتبغا أن كلا منهما زوج ولده بابنة الآخر، وعمل لذلك المهم العظيم. ثم سأل الأمير طرنطاى- وهو إذ ذاك نائب السلطان- الأمير بيلبك الأيدمرى والأمير طيبرس، أن يسألا السلطان الملك المنصور قلاوون فى الإنعام على ولده وولد الأمير كتبغا بإقطاعين فى الحلقة.

فقال لهما: والله لو رأيتهما فى مصاف القتال يضربان بالسيف، أو كانا فى زحف قدامى، أستقبح أن أعطى لهما أخبازا فى الحلقة، خشية أن يقال أعطى الصبيان الأخباز. . ولم يجب سؤالهماهذا، وهم من قد عرفت.

لكن كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله إذا مات الجندى أعطى إقطاعه لولده، فإن كان صغيرا رتب معه من يلى أمره حتى يكبر. فكان أجناده يقولون: الإقطاعات أملاكنا، يرثها أولادنا الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها، وبه اقتدى كثير من ملوك مصر فى ذلك.

وللأمراء المقدمين حوائص ذهب فى وقت الركوب إلى الميدان، ولكل أمير من الخواص على السلطان مرتب من السكر والحلوى فى شهر رمضان، ولسائرهم الأضحية فى عيد الأضحى على مقادير رتبهم، ولهم البرسيم لتربيع دوابهم، ويكون فى تلك المدة بدل العليق المرتب لهم.

وكانت الخيول السلطانية تفرق على الأمراء مرتين فى كل سنة: مرة عندما يخرج السلطان إلى مرابط خيوله فى الربيع عند اكتمال تربيعها، ومرة عند لعبه بالأكرة فى الميدان.

ولخاصة السلطان المقربين زيادة كثيرة من ذلك، بحيث يصل إلى بعضهم فى السنة مائة فرس، ويفرق السلطان أيضا الخيول على المماليك السلطانية فى أوقات أخر، وربما يعطى بعض مقدمى الحلقة، ومن نفق له فرس من المماليك، يحضر من لحمه والشهادة بأنه نفق، فيعطى بدله.

ولخاصة السلطان المقربين إنعام من الانعامات، كالعقارات، والأبنية الضخمة التى ربما أنفق على بعضها زيادة على مائة ألف دينار، ووقع هذا فى الأيام الناصرية مرارا، كما ذكر عند ذكر الدور من هذا الكتاب.

ولهم أيضا كساوى القماش المنوع، ولهم عند سفرهم إلى الصيد وغيره العلوفات والأنزال، وكانت لهم آداب لايخلون بها: منها أنهم إذا دخلوا إلى الخدمة بالإيوان أو القصر وقف كل أمير فى مكانه المعروف به، ولايجسر أحد منهم ولامن المماليك أن يحدث رفيقه فى الخدمة ولابكلمة واحدة، ولايلتفت إلى نحوه أيضا، ولايجسر أحد منهم، ولامن المماليك، أن يجتمع بصاحبه فى نزهة ولافى رمى النشاب ولاغير ذلك، ومن بلغ السلطان عنه أنه اجتمع بآخر نفاه أو قبض عليه.

واختلف زى الأمراء والعساكر فى الدولة التركية. وقد بينا ماكان عليهم زيهم حتى غيره الملك المنصور قلاوون، عند ذكر سوق الشرابشيين، وصار زيهم إذا دخلوا إلى الخدمة بالأقبية التترية والكلاوات فوقها، ثم القباء الإسلامى فوقها، وعليه تشد المنطقة والسيف.

ويتميز الأمراء والمقدمون وأعيان الجند بلبس أقبية قصيرة الأكمام فوق ذلك، وتكون أكمامها أقصر من القباء التحتانى، بلا تفاوت كبير فى قصر الكم والطول، وعلى رؤوسهم كلهم كلوتات صغار غالبها من الصوف الملطى الأحمر، وتضرب وتلف فوقها عمائم صغار.

ثم زادوا فى قدر الكلوتات ومايلف فوقها فى أيام الأمير يلبغا الخاصكي، القائم بدولة الأشرف شعبان بن حسين، وعرفت بالكلوتات الطرخانية، وصاروا يسمون تلك الصغيرة ناصرية.

فلما كانت أيام الظاهر برقوق، بالغوا فى كبر الكلوتات، وعملوا فى شدتها عوجا، وقيل لها كلوتات جركسية، وهم على ذلك إلى اليوم.

ومن زيهم لبس المهماز على الأخفاف، ويعمل المنديل فى الحياصة على الصولق من الجانب الأيمن، ومعظم حوائص المماليك فضة، وفيهم من كان يعملها من الذهب، وربما عملت باليشم.

وكانت حوائص أمراء المئين الأكابر، التى تخرج إليهم مع الخلع السلطانية من خزانة الخاصة، يرصع ذهبها بالجواهر.

وكان معظم العسكر يلبس الطرز، ولايكفت مهمازه بالذهب، ولايلبس الطراز إلا من له إقطاع فى الحلقة، وأما من هو بالجامكية أو من أجناد الأمراء، فلا يكفت مهمازه بالذهب، ولايلبس طرازا.

وكانت العساكر من الأمراء وغيرهم تلبس المنوع من الكمخا والخطاى والكبخى والمخمل والاسكندرانى والشرب، ومن النصافى والأصواف الملونة. ثم بطل لبس الحرير فى أيام الظاهر برقوق، واقتصروا اليوم على لبس الصوف الملون فى الشتاء، ولبس النصافى المصقول فى الصيف.

وكانت العادة أن السلطان يتولى بنفسه استخدام الجند. فإذا وقف قدامه من يطلب الإقطاع المحلول، ووقع اختياره على أحد، أمر ناظر الجيش بالكتابة له، فيكتب ورقة مختصرة، تسمى «المثال»، مضمونها حيز فلان كذا، ثم يكتب فوقه اسم المستقر له، ويناولها السلطان، فيكتب عليها بخطه «يكتب»، ويعطيها الحاجب لمن رسم له، فيقبل الأرض، ثم يعاد المثال إلى ديوان الجيش، فيحفظ شاهدا عندهم.

ثم تكتب مربعة مكملة بخطوط جميع مباشرى ديوان الإقطاع، وهم كتاب ديوان الجيش، فيرسمون علاماتهم عليها، ثم تحمل إلى ديوان الإنشاء والمكاتبات، فيكتب المنشور، ويعلم عليه السلطان كما تقدم ذكره.

ثم يكمل المنشور بخطوط كتاب ديوان الجيش، بعد المقابلة على حجة أصله.

واستجد السلطان الملك المنصور قلاوون طائفة سماها البحرية . . وهى أن البحرية الصالحية لما تشتتوا عند قتل الفارس أقطاى فى أيام المعز أيبك ، بقيت أولادهم بمصر فى حالة رذيلة ، فعندما أفضت السلطنة إلى قلاوون ، جمعهم ورتب لهم الجوامك والعليق واللحم والكسوة ، ورسم أن يكونوا جالسين على باب القلعة وسماهم البحرية ، وإلى اليوم طائفة من الأجناد تعرف بالبحرية .

وأما البلاد الشامية فليس للنائب بالمملكة مدخل فى تأمير أمير عوض أمير مات ، بل إذا مات أمير – سواء كان كبيرا أو صغيرا – طولع السلطان بموته ، فأمر عوضه : أما ممن فى حضرته ، ويخرجه إلى مكان الخدمة ، أو ممن هو فى مكان الخدمة ، أو ينقل من بلد آخر من يقع اختياره عليه .

وأما جند الحلقة فإنهم إذا مات أحدهم استخدم النائب عوضه ، وكتب المثال على نحو من ترتيب السلطان ، ثم كتب المربعة وجهزها مع البريد إلى حضرة السلطان ، فيقابل عليها فى ديوان الإقطاع ، ثم إن أمضاها السلطان كتب عليها «يكتب» ، فتكتب المربعة من ديوان الإقطاع ، ثم يكتب عليها المنشور كما تقدم فى الجند الذين بالحضرة ، وإن لم يمضها السلطان أخرج الإقطاع لمن يريد .

ومن مات من الأمراء والجند قبل استكمال مدة الخدمة ، حوسب ورثته على حكم الاستحقاق ، ثم إما يرتجع منهم أو يطلق لهم ، على قدر حصول العناية بهم .

وإقطاعات الأمراءوالجند منها ماهو بلاد يستغلها مقطعها كيف يشاء ، ومنها ماهو نقد على جهات يتناولها منها .

ولم يزل الحال على ذلك حتى راك الملك الناصر محمد بن قلاوون البلاد – كما تقدم فى أول هذا الكتاب ، عند الكلام على الخراج ومبلغه – فأبطل عدة جهات من المكوس ، وصارت الإقطاعات كلها بلادا .

والذى استقر عليه الحال فى إقطاعات الديار المصرية – مما رتبه الملك الناصر محمد ابن قلاوون فى الروك الناصري ، وهو عدة الجيوش المنصورة فى الديار المصرية – أربعة وعشرون ألف فارس . . تفصيل ذلك :

- أمراء الألوف ومماليكهم : ألفان وأربعمائة وأربعة وعشرون فارسا . . تفصيل ذلك : نائب ووزير وألوف خاصكية ثمانية أمراء ، وألوف خرجية أربعة عشر أميرا ، ومماليكهم ألفان وأربعمائة فارس .

- أمراء طبلخاناه ومماليكهم : ثمانية آلاف ومائتا فارس . تفصيل ذلك : خاصكية أربعة وخمسون أميرا ، وخرجية مائة وستة وأربعون أميرا ، ومماليكهم ثمانية آلاف فارس كشاف .

- وولاة بالأقاليم : خمسمائة وأربعة وسبعون . تفصيل ذلك : ثغر الإسكندرية واحد ، والبحيرة واحد ، والغربية واحد ، والشرقية واحد ، والمنوفية واحد ، وقطيا واحد ، وكاشف الجيزة واحد ، والفيوم واحد ، والبهنسا واحد ، والأشمونين واحد ، وقوص واحد ، وأسوان واحد ، وكاشف الوجه البحرى واحد ، وكاشف الوجه القبلى واحد ، ومماليكهم خمسمائة وستون .

- أمراء العشراوات ومماليكهم : ألفان ومائتا فارس . تفصيل ذلك : خاصكية ثلاثون ، وخرجية مائة وسبعون أميرا ، ومماليكهم ألفان .

- ولاة الأقاليم : سبعة وسبعون أميرا . تفصيلهم : أشمون الرمان واحد ، وقليوب واحد ، والجيزة واحد ، وتروجا واحد ، وحاجب الإسكندرية واحد ، وأطفيح واحد ، ومنفلوط واحد ، ومماليكهم سبعون فارسا .

- مقدمو الحلقة والأجناد : أحد عشر ألفا ومائة وستة وسبعون فارسا . تفصيل ذلك : مقدمو المماليك السلطانية أربعون . مقدمو الحلقة مائة وثمانون .

نقباء الألوف : أربعة وعشرون نقيبا .

مماليك السلطان وأجناد الحلقة : عشرة آلاف وتسعمائة واثنان وثلاثون فارسا . تفصيل ذلك : مماليك السلطان ألفا مملوك . . أجناد الحلقة ثمانية آلاف وتسعمائة واثنان وثلاثون فارسا .

عبرة ذلك : الخاصكية الألوف والنائب والوزير : كل منهم مائة ألف دينار ، وكل دينار عشرة دراهم .

الارتفاع : ألف ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال : كل أردب واحد من القمح بعشرين درهما ، والحبوب كل أردب منها بعشرة دراهم . من ذلك : الكلف مائة ألف درهم ، والخالص تسعمائة ألف درهم .

الألوف الخرجية : كل منهم خمسة وثلاثون ألف دينار ، كل دينار عشرة دراهم .

الارتفاع : ثمانمائة ألف وخمسون ألفا ، بما فيه من ثمن الغلال على ماشرح فيه ، من ذلك : الكلف سبعون ألف درهم ، والخالص لكل منهم سبعمائة وثمانون ألف درهم .

الطبلخاناه الخاصكية : كل منهم أربعون ألف دينار ، كل دينار عشرة دراهم ، الارتفاع : أربعمائة ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ماشرح فيه ، من ذلك : الكلف خمسة وثلاثون ألف درهم ، والخالص لكل منهم ثلاثمائة وخمسة وستون ألف درهم .

الطبلخاناه الخرجية : ثلاثون ألف دينار ، كل دينار ثمانية دراهم ، الارتفاع : مائتا ألف وأربعون ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ماشرح . . من ذلك : الكلف أربعة وعشرون ألف درهم ، والخالص مائتا ألف وستة عشر ألف درهم .

العشراوات الخاصكية : كل منهم عشرة آلاف دينار ، كل دينار عشرة دراهم ، الارتفاع : مائتا ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ماشرح . من ذلك : الكلف سبعة آلاف درهم ، والخالص لكل منهم ثلاثة وتسعون ألف درهم .

العشراوات الخرجية : كل منهم سبعة آلاف دينار ، كل دينار بعشرة دراهم . الارتفاع : سبعون ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ماشرح . من ذلك : الكلف خمسة آلاف درهم ، والخالص لكل منهم خمسة وستون ألف دراهم .

الكشاف : لكل منهم عشرون ألف دينار ، كل دينار ثمانية دراهم ، الارتفاع : مائة ألف وستون ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ماشرح . من ذلك : الكلف خمسة عشر ألف درهم ، والخالص مائة ألف وخمسة وأربعون ألف درهم .

الولاة والطبلخاناه : كل منهم خمسة عشر ألف دينار ، كل دينار ثمانية دراهم . الارتفاع : مائة وعشرون ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ماشرح . من ذلك : الكلف عشرة آلاف درهم ، والخالص لكل منهم مائة ألف وعشرة آلاف درهم .

الولاة العشراوات : لكل منهم خمسة آلاف دينار ، كل دينار سبعة دراهم ، الارتفاع : خمسة وثلاثون ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ماشرح . من ذلك : الكلف ثلاثة آلاف درهم ، والخالص لكل منهم اثنان وثلاثون ألف درهم .

مقدمو مماليك السلطان : كل منهم ألف ومائتا دينار ، كل دينار عشرة دراهم ، الارتفاع : إثنا عشر ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ماشرح ، من ذلك : الكلف ألف درهم ، والخالص لكل منهم أحد عشر ألف درهم .

مقدمو الحلقة : كل منهم ألف دينار ، كل دينار تسعة دراهم ، الارتفاع : تسعة آلاف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ماشرح . من ذلك : الكلف تسعمائة درهم ، والخالص لكل منهم ثمانية آلاف درهم ومائة درهم .

نقباء الألوف : لكل منهم أربعمائة دينار ، كل دينار تسعة دراهم ، الارتفاع : ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ماشرح . من ذلك : الكلف أربعمائة درهم ، والخالص لكل منهم ثلاثة آلاف ومائتا درهم .

مماليك السلطان : ألفان .

بابة أربعمائة مملوك : لكل منهم ألف وخمسمائة دينار ، كل دينار عشرة دراهم ، عنها خمسة عشر ألف درهم .

بابة خمسمائة مملوك : كل واحد ألف وثلاثمائة دينار ، سعره عشرة دراهم ، عنها ثلاثة عشر ألف درهم .

بابة خمسمائة مملوك : لكل منهم ألف دينار ومائتا دينار ، عنها اثنا عشر ألف درهم .

بابة ستمائة مملوك : لكل واحد ألف دينار ، عنها عشرة آلاف درهم .

أجناد الحلقة : ثمانية آلاف وتسعمائة واثنان وثلاثون فارسا .

بابة ألف وخمسمائة فارس : لكل منهم تسعمائة دينار بتسعة آلاف درهم .

بابة ألف وثلاثمائة وخمسين جنديا : كل منهم سبعمائة دينار ، عنها سبعة آلاف درهم .

بابة ألف وثلاثمائة جندي : لكل منهم ستمائة دينار بستة آلاف درهم .

بابة ألف وثلاثمائة : كل منهم بخمسمائة دينار بخمسة آلاف درهم .

بابة ألف ومائة جندى : لكل منهم أربعمائة دينار بأربعة آلاف درهم .

بابة ألف واثنين وثلاثين جنديا : لكل منهم ثلاثمائة دينار ، سعر عشرة دراهم ، عنها ثلاثة آلاف درهم .

وأرباب الوظائف من الأمراء بعد النيابة والوزراة : أمير سلاح ، والدوادار ، والحجبة وأمير جاندار ، والأستادار ، والمهمندار ، ونقيب الجيوش ، والولاة .

فلما مات الملك الناصر محمد بن قلاوون حدث بين أجناد الحلقة نزول الواحد منهم عن إقطاع لآخر ، بمال أو مقايضة الإقطاعات بغيرها ، فكثر الدخيل فى الأجناد بذلك ، واشترت السوقة والأراذل الإقطاعات ، حتى صار فى زمننا أجناد الحلقة أكثرهم أصحاب حرف وصناعات ، وخربت منهم أراضى إقطاعاتهم .

وأول ماحدث ذلك أن السلطان الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون ، لما تسلطن فى شهر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة ، تمكن منه الأمير شجاع الدين أغرلو شاد الدواوين ، واستجد أشياء : منها المقايضة بالإقطاعات فى الحلقة ، والنزول عنها .

فكان من أراد مقايضة أحد بإقطاعه حمل كل منهما مالا لبيت المال يقرر عليهما ، ومن اختار حيزا بالحلقة يزن على قدر عبرته فى السنة دنانير يحملها لبيت المال . فإن كانت عبرة الحيز الذى يريده خمسمائة دينار فى السنة ، حمل خمسمائة دينار .

ومن أراد النزول عن إقطاعه ، حمل مالا لبيت المال بحسب مايقرر عليه اغرلو ، وأفرد لذلك ، ولما يؤخذ من طالبى الوظائف والولايات ديوانا ، سماه ديوان البدل ، وكان يعين فى المنشور الذى يخرج بالمقايضة المبلغ الذى يقدم به كل من الجنديين .

وكان ابتداء هذا فى جمادى الأولى من السنة المذكورة ، فقام الأمراء فى ذلك مع السلطان حتى رسم بإبطاله .

فلمـ ولى الأمير مجك اليوسفى الوزارة، وسيره فى المال، فتح فى سنة تسع وأربعين باب النزول والمقايضات، فكان الجندى يبيع إقطاعه لكل من بذل له فيه مالا، فأخذ كثير من العامة والإقطاعات، فكان يبذل فى الإقطاع مبلغ عشرين ألف درهم، وأقل منه على قدر متحصله، وللوزير رسم معلوم. ثم منع من ذلك.

فلما كانت نيابة الأمير سيف الدين قيلاي، فى سنة ثلاث وخمسين، مشى أحوال الأجناد فى المقايضات والنزولات، فاشترى الإقطاعات الباعة وأصحاب الصنائع، وبيعت تقادم الحلقة وانتدب لذلك جماعة عرفت بالمهيسين، بلغت عدتهم نحو الثلاثمائة مهيس، وصاروا يطوفون على الأجناد، ويرغبونهم فى النزول عن إقطاعاتهم أو المقايضة بها، وجعلوا لهم على كل ألف درهم مائة درهم.

فلما فحش الأمر، أبطل الأمير شيخون العمرى النزولات والمقايضات، عندما استقر رأس نوبة واستقل بتدبير أمور الدولة، وتقدم لمباشرى ديوان الجيش ألا يأخذوا رسم المنشور والمحاسبة سوى ثلاثة دراهم، بعدما كانوا يأخذون عشرين درهما.

ذكر الحجبة

وكانت رتبة الحجبة فى الدولة التركية جليلة، وكانت تلى رتبة نيابة السلطنة، ويقال لأكبر الحجبة حاجب الحجاب.

وموضوع الحجبة أن متوليها ينصف من الأمراء والجند: تاره بنفسه، وتارة بمشاورة السلطان، وتارة بمشاورة النائب، وكان إليه تقديم من يعرض ومن يرد، وعرض الجند، فإن لم يكن نائب السلطنة فإنه هو المشار إليه فى الباب، والقائم مقام النواب فى كثير من الأمور.

وكان حكم الحاجب لايتعدى النظر فى مخاصمات الأجناد، واختلافهم فى أمور الإقطاعات، ونحو ذلك.

ولم يكن أحد من الحجاب فيما سلف يتعرض للحكم فى شىء من الأمور الشرعية، كتداعى الزوجين وأرباب الديون، وإنما يرجع ذلك إلى قضاة الشرع.

ولقد عهدنا دائما أن الواحد من الكتاب أو الضمان ونحوهم يفر من باب الحاجب، ويصير إلى باب أحد القضاة ويستجير بحكم الشرع، فلا يطمع أحد بعد ذلك فى أخذه من باب القاضي.

وكان فيهم من يقيم الأشهر والأعوام فى ترسيم القاضى، حماية له من أيدى الحجاب. ثم تغير ماهنالك، وصار الحاجب اليوم اسما لعدة جماعة من الأمراء يتتصبون للحكم بين الناس، لا لغرض إلا لتضمين أبوابهم بمال مقرر فى كل يوم على رأس نوبة النقباء، وفيهم غير واحد ليس لهم على الإمرة إقطاع، وإنما يرتزقون من مظالم العباد.

وصار الحاجب اليوم يحكم فى كل جليل وحقير من الناس، سواء كان الحكم شرعيا أو سياسيا بزعمهم.. وإن تعرض قاض من قضاة الشرع لأخذ غريم من باب الحاجب لم يمكن من ذلك.

ونقيب الحاجب اليوم، مع رذالة الحاجب وسفالته، وتظاهره من المنكر بما لم يكن يعهد مثله، يتظاهر به أطراف السوقة، فإنه يأخذ الغريم من باب القاضى، ويتحكم فيه من الضرب وأخذ المال بما يختار، فلا ينكر ذلك أحد ألبتة.

وكانت أحكام الحجاب أولا يقال لها حكم السياسة، وهى لفظة شيطانية لايعرف أكثر أهل زمننا اليوم أصلها، ويتساهلون فى التلفظ بها، ويقولون هذا الأمر مما لايمشى فى الأحكام الشرعية، وإنما هو من حكم السياسة.. ويحسبونه هينا، وهو عند الله عظيم.. وسأبين معنى ذلك، وهو فصل عزيز.

ذكر أحكام السياسة

اعلم أن الناس فى زمننا، بل ومنذ عهد الدولة التركية بديار مصر والشام، يرون أن الأحكام على قسمين: حكم الشرع، وحكم السياسة.

ولهذه الجملة شرح: فالشريعة هى ماشرع الله تعالى من الدين وأمر به، كالصلاة والصيام والحج وسائر أعمال البر.

واشتق الشرع من شاطىء البحر. وذلك أن الموضع الذى على شاطىء البحر تشرع فيه الدواب، وتسميه العرب: «الشريعة». فيقولون للإبل، إذا وردت شريعة الماء، وشربت: قد شرع فلان إبله، وشرعها- بتشديد الراء- إذا أوردها شريعة الماء.

والشريعة، والشراع، والشرعة: المواضع التى ينحدر الماء فيها. ويقال شرع الدين يشرعه شرعا، بمعنى سنه. قال الله تعالى: ﴿**شرع لكم من الدين ماوصي به نوحا**﴾(*).

ويقال ساس الأمر سياسة، بمعنى قام به، وهو سائس، من قوم ساسة وسوس. وسوسه القوم: جعلوه يسوسهم. والسوس: الطبع والخلق، فيقال الفصاحة من سوسه، والكرم من سوسه، أى من طبعه.

فهذا أصل وضع السياسة فى اللغة، ثم رسمت بأنها القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح، وانتظام الأحوال.

والسياسة نوعان: سياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهى من الأحكام الشرعية، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، وقد صنف الناس فى السياسة الشرعية كتبا متعددة.

والنوع الآخر: سياسة ظالمة، فالشريعة تحرمها. وليس مايقوله أهل زماننا فى شيء من هذا، وإنما هى كلمة مغلية أصلها «ياسة»، فحرفها أحل مصر، وزادوا بأولها سينا فقالوا:

(*)سورة الشورى آية ١٣ ك ٤٢.

«سياسة»، وأدخلوا عليها الألف واللام، فظن من لاعلم عنده أنها كلمة عربية، وما الأمر فيها إلا ماقلت لك.

واسمع الآن كيف نشأت هذه الكلمة، حتى انتشرت بمصر والشام، وذلك أن جنكز خان، القائم بدولة التتر فى بلاد الشرق، لما غلب الملك أونك خان، وصارت له دولة.. قرر قواعد وعقوبات أثبتها فى كتاب «ياسة»، ومن الناس من يسميه «يسق»، والأصل فى اسمه ياسة.

ولما تتم وضعه، كتب ذلك نقشا فى صفائح الفولاذ، وجعله شريعة لقومه، فالتزموه بعد حتى قطع الله دابرهم.

وكان جنكز خان لايتدين بشيء من أديان أهل الأرض- كما تعرف هذا إن كنت أشرفت على أخباره- فصار الياسة حكما بتا، بقى فى أعقابه لايخرجون عن شيء من حكمه.

وأخبرنى العبد الصالح، الداعى إلى الله تعالي، أبو هاشم أحمد بن البرهان رحمه الله، أنه رأى نسخة من الياسة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد.

ومن جملة ماشرعه جنكز خان فى الياسة أن من زنى قتل، ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن، ومن لاط قتل، ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر قتل، ومن بال فى الماء أو على الرماد قتل، ومن أعطى بضاعة فخسر فيها فإنه يقتل بعد الثالثة، ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل، ومن وجد عبدا هاربا أو أسيرا قد هرب ولم يرده على من كان فى يده قتل.

وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه، وأن من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح، ومن وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه، وهو يكر أو يفر فى حال القتال، وكان وراءه أحد، فإنه ينزل ويناول صاحبه ماسقط منه، فإن لم ينزل ولم يناوله قتل.

وشرط ألا يكون على أحد من ولد على بن أبى طالب رضى الله عنه مئونة ولاكلفة، وألا يكون على أحد من الفقراء، ولاالقراء، ولاالفقهاء، ولاالأطباء، ولامن عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلى الأموات كلفة ولامئونة.

وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى ، وجعل ذلك كله قربة إلى الله تعالى .

وألزم قومه ألا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولا ، ولو أنه أمير ومن يناوله أسير . وألزمهم ألا يتخصص أحد بأكل شيء وغيره يراه ، بل يشركه معه فى أكله . وألزمهم ألا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه ، ولا يتخطى أحد نارا ولا مائدة ، ولا الطبق الذى يؤكل عليه ، وأن من مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحد منعه .

وألزمهم ألا يدخل أحد منهم يده فى الماء ولكنه يتناول الماء بشيء يغترفه به ، ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى ، ومنع أن يقال لشيء إنه نجس ، وقال جميع الأشياء طاهرة ، ولم يفرق بين طاهر ونجس .

وألزمهم ألا يتعصبوا لشيء من المذاهب ، ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب ، وإنما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط .

وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أرادوا الخروج إلى القتال ، وأنه يعرض كل ماسافر به عسكره ، وينظر حتى الإبرة والخيط ، فمن وجده قد قصر فى شيء مما يحتاج إليه عند عرضه إياه عاقبه ، وألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلف ، فى مدة غيبتهم فى القتال ، وجعل على العساكر إذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للسلطان ويؤدونها إليه .

وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده . ورتب لعساكره أمراء ، وجعلهم أمراء ألوف ، وأمراء مئين ، وأمراء عشراوات . وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنب وبعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه ، فإنه يلقى نفسه إلى الأرض بين يدى الرسول وهو ذليل خاضع ، حتى يمضى فيه ماأمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه .

وألزمهم ألا يتردد الأمراء لغير الملك ، فمن تردد منهم لغير الملك قتل ، ومن تغير عن موضعه الذى يرسم له بغير إذن قتل ، وألزم السلطان بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة .

وجعل حكم الياسة لولده جقتاى بن جنكز خان. فلما مات التزم من بعده من أولاده وأتباعهم حكم الياسة كالتزام أول المسلمين حكم القرآن، وجعلوا ذلك دينا لم يعرف عن أحد منهم مخالفته بوجه.

فلما كثرت وقائع التتر فى بلاد الشرق والشمال وبلاد القبجاق، وأسروا كثيرا منهم وباعوهم، تنقلوا فى الأقطار. واشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم البحرية، ومنهم من ملك ديار مصر، وأولهم المعز أيبك. ثم كانت لقطز معهم الواقعة المشهورة على عين جالوت، وهزم التتار وأسر منهم خلقا كثيرا صاروا بمصر والشام.

ثم كثرت الوافدية فى أيام الملك الظاهرة بيبرس وملأوا مصر والشام، وخطب الملك بركة بن يوشى بن جنكز خان على منابر مصر والشام والحرمين. فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغل، وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم. هذا وملوك مصر وأمراؤها وعساكرها قد ملئت قلوبهم رعبا من جنكز خان وبنيه، وامتزج بلحمهم ودمهم مهابتهم وتعظيمهم.

وكانوا إنما ربوا بدار الاسلام، ولقنوا القرآن، وعرفوا أحكام الملة المحمدية. . . فجمعوا بين الحق والباطل، وضموا الجيد الى الردئ، وفوضوا لقاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام، وجعلوا إليه النظر فى الأقضية الشرعية، كتداعى الزوجين وأرباب الديون ونحو ذلك.

واحتاجوا فى ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكز خان، والاقتداء بحكم إلياسة. فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم، والأخذ على يد قويهم وإنصاف الضعيف منه، على مقتضى ما فى إلياسة. وجعلوا إليه مع ذلك النظر فى قضايا الدواوين السلطانية، عند الاختلاف فى أمور الإقطاعات، لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديوان وقواعد الحساب، وكان من أجل القواعد وأفضلها. حتى تحكم القبط فى الأموال وخراج الأراضي، فشرعوا فى الديوان ما لم يأذن به الله تعالى، ليصير لهم ذلك سبيلا إلى أكل مال الله تعالى بغير حقه. وكان مع ذلك يحتاج الحاجب إلى مراجعة النائب أو السلطان فى معظم الأمور.

هذا وستر الحياء يومئذ مسدول، وظل العدل صاف، وجناب الشريعة محترم، وناموس الحشمة مهاب. فلا يكاد أحد أن يزيغ عن الحق، ولا يخرج عن قضية الحياء، إن لم يكن له وازع من دين، كان له ناه من عقل ثم تقلص ظل العدل، وسفرت أوجه الفجور، وكشر الجور أنيابه، وقلت المبالاة وذهب الحياء والحشمة من الناس، حتى فعل من شاء ما شاء. وتعدت منذ عهد المحن التى كانت فى سنة ست وثمانمائة الحجاب، وهتكوا الحرمة وتحكموا بالجور تحكما خفى معه نور الهدي، وتسلطوا على الناس مقتا من الله لأهل مصر وعقوبة لهم بما كسبت أيديهم. . . ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون.

وكان أول ما حكم الحجاب، فى الدولة التركية بين الناس بمصر، أن السلطان الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون.

استدعى الأمير شمس الدين آق سنقر الناصرى نائب طرابلس ليوليه نيابة السلطنة بديار مصر، عوضا عن الأمير سيف الدين بيغوا، أميرا حاجبا كبيرا يحكم بين الناس، فخلع عليه فى جمادى الأولى سنة ست وأربعين وسبعمائة. فحكم بين الناس كما كان نائب السلطنة يحكم، وجلس بين يديه موقعان من موقعى السلطان لمكاتبة الولاة بالأعمال ونحوهم. فاستمر ذلك. ثم رسم فى جمادى الآخرة منها أن يكون الأمير رسلان بصل حاجبا مع بيغوا يحكم القاهرة على عادة الحجاب.

فلما انقضت دولة الكامل بأخيه الملك المظفر حاجى بن محمد، استقر الأمير سيف الدين أرقطاى نائب السلطنة، فعاد أمر الحجاب إلى العادة القديمة. إلى أن كانت ولاية الأمير سيف الدين جرجى الحجابة، فى أيام السلطان الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون، فرسم له أن يتحدث فى أرباب الديون ويفصلهم من غرمائهم بأحكام السياسة. ولم تكن عادة الحجاب فيما تقدم أن يحكموا فى الأمور الشرعية.

وكان سبب ذلك وقوف تجار العجم للسلطان بدار العدل فى أثناء سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، وذكروا أنهم ما خرجوا من بلادهم إلا لكثرة ما ظلمهم التتار وجاروا عليهم، وأن التجار بالقاهرة اشتروا منهم عدة بضائع وأكلوا أثمانها، ثم هم يثبتون على يد القاضى الحنفى اعسارهم وهم فى سجنه، وقد أفلس بعضهم.

فرسم للأمير جرجى بإخراج غرمائهم من السجن، وخلاص ما فى قبلهم للتجار، وأنكر على قاضى القضاة جمال الدين عبد الله التركمانى الحنفى ما عمله، ومنع من التحدث فى أمر التجار والمدينين. فأخرج جرجى غرماء التجار من السجن، وعاقبهم، حتى أخذ للتجار أموالهم منهم شيئا بعد شئ. وتمكن الحجاب من حينئذ من التحكم على الناس بما شاءوا.

«أمير جاندار»: موضوع أمير جاندار التسلم لباب السطان، ولرتبة البرددارية، وطوائف الركابية، والحرامانية، والجندارية، وهو الذى يقدم البريد إذا قدم مع الدوادار وكاتب السر، وإذا أراد السلطان تقرير أحد من الأمراء على شئ أو قتله بذنب كان ذلك على يد أمير جاندار. وهو أيضا المتسلم للزردخاناه، وكانت أرفع السجون قدرا، ومن اعتقل بها لا تطول مدته بها، بل يقتل أو يخلى سبيله. وهو الذى يدور بالزفة حول السلطان فى سفره مساء وصباحا.

«الأستادار»: إليه أمر البيوت السلطانية كلها، من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان، وهو الذى كان يمشى بطلب السلطان فى السرحات والأسفار، وله الحكم على غلمان السلطان وباب داره، وإليه أمور الجاشنكيرية - وإن كان كبيرهم نظيره فى الإمرة من ذوى المئين - وله أيضا الحديث المطلق والتصرف التام فى استدعاد ما يحتاجه كل من فى بيت من بيوت السلطان من النفقات والكساوى وما يجرى مجرى ذلك.

ولم تزل رتبة الأستادار على ذلك. حتى كانت أيام الظاهر برقوق، فأقام الأمير جمال الدين محمود بن على بن أصفر عينه أستادارا، وناط به تدبير أموال المملكة. فتصرف فى جميع مايرجع إلى أمر الوزير وناظر الخاص، وصارا يترددان إلى بابه، ويمضيان الأمور برأيه.

فجلت من حينئذ رتبة الأستادار بحيث إنه صار فى معنى ما كان فيه الوزير فى أيام الخلفاء. . سيما إذا اعتبرت حال الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فى أيام الناصر فرج ابن برقوق، كما ذكرناه عند ذكر المدارس من هذا الكتاب، فإنك تجده إنما كان كالوزير العظيم لعموم تصرفه، ونفوذ أمره فى سائر أحوال المملكة. واستقر ذلك لمن ولى الأستادارية من بعده، والأمر على هذا إلى اليوم.

«أمير سلاح» : هذا الأمير هو مقدم السلاحدارية ، والمتولى لحمل سلاح السلطان فى المجامع الجامعة بها وما يقدم إليها ويطلق منها ، وهو أبدا من أمراء المئين .

«الدوادار» : ومن عادة الدولة أن يكون بها من أمرائها من يقال له الدوادار . وموضوعة لتبليغ الرسائل عن السلطان ، وإبلاغ عامة الأمور ، وتقديم القصص إلى السلطان ، والمشاورة على من يحضر إلى الباب وتقديم البريد هو وأمير جاندار وكاتب السر . وهو الذى يقدم إلى السلطان كل ما تؤخذ عليه العلامة السلطانية فى المناشير والتواقيع والكتب ، وكان يخرج عن السلطان بمرسوم مما يكتب ، فيعين رسالته فى المرسوم .

واختلفت آراء ملوك الترك فى الدوادار : فتارة كان من أمراء العشراوات والطبلخاناه ، وتارة كان من أمراء الألوف .

فلما كانت أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، ولى الأمير أقتمر الحنبلى وظيفة الدوادارية - وكان عظيما فى الدولة - فصار يخرج المراسيم السلطانية بغير مشاورة كما يخرج نائب السلطنة ، ويعين فى المرسوم إذ ذاك أنه كتب برسالته . ثم نقل إلى نيابة السلطنة ، وأقام الأشرف عوضه الأمير طاش تمر الدوادار ، وجعله من أكبر أمراء الألوف . فاقتدى به الملك الظاهر برقوق ، وجعل الأمير يونس الدوادار من أكبر أمراء الألوف . فعظمت منزلته ، وقويت مهابته .

ثم لما عادت الدولة الظاهرية بعد زوالها ، ولى الدوادارية الأمير بوطا ، فتحكم تحكما زائدا عن المعهود فى الدوادارية ، وتصرف كتصرف النواب ، وولى وعزل ، وحكم فى القضايا المعضلة . فصار ذلك من بعده عادة لمن ولى الدوادارية . . . سيما لما ولى الأمير يشبك والأمير حكم الدوادارية فى أيام الناصر فرج ، فإنهما تحكما فى جليل أمور الدولة وحقيرها من المال والبريد والأحكام والعزل والولاية . وما برح الحال على هذا فى الأيام الناصرية ، وكذلك الحال فى الأيام المؤيدية يقارب ذلك .

«نقابة الجيوش» : هذه الرتبة كانت فى الدولة التركية من الرتب الجليلة ، ويكون متوليها كأحد الحجاب الصغار ، وله تحلية الجند فى عرضهم ، ومعه يمشى النقباء . فإذا طلب السلطان أو النائب أو حاجب الحجاب أميرا أو جنديا ، كان من المخاطب فى الإرسال إليه ،

وهو الملزوم باحضاره. واذا أمر أحد منهم بالترسيم على أمير أو جندي، كان نقيب الجيش هو الذى يرسم عليه. وكان من رسمه أنه هو الذى يمشى بالحراسة السلطانية فى الموكب حالة السرحة وفى مدة السفر، ثم انحطت إليوم هذه الرتبة، وصار نقيب الجيش عبارة عن كبير من النقباء المعدين لترويع خلق الله تعإلي، وأخذ أموالهم بالباطل على سبيل القهر عند طلب أحد إلى باب الحاجب. ويضيفون إلى أكلهم أموال الناس بالباطل افتراءهم على الله تعإلى بالكذب، فيقولون على المال الذى يأخذونه باطلا: هذا حق الطريق. . . والويل لمن نازعهم فى ذلك. وهم أحد أسباب خراب الإقليم، كما بين فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر الأسباب التى أوجبت خراب الإقليم.

«**الولاية**»: وهى التى يسميها السلف الشرطة، وبعضهم يقول صاحب العسس. والعسس: الطواف بالليل لتتبع أهل الريب، يقول: عس يعس عسا وعسسا. وأول من عس بالليل عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، أمره أبو بكر الصديق رضى الله عنه بعس المدينة.

خرج أبو داود، عن الأعمش، عن زيد قال: أتى عبد الله بن مسعود فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرا، فقال عبد الله رضى الله عنه: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن أن يظهر لنا شئ نأخذ به.

وذكر الثعلبى عن زيد بن وهب أنه قال: قيل لابن مسعود رضى الله عنه: هل لك فى الوليد بن عتبة تقطر لحيته خمرا؟

فقال: إنا قد نهينا عن التجسس، فإن ظهر لنا شئ نأخذ به.

وكان عمر رضى الله عنه يتولى فى خلافته العسس بنفسه، ومعه مولاه أسلم رضى الله عنه، وكان ربما استصحب معه عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه.

«**قاعة الصاحب**»: وكانت وظيفة الوزارة أجل رتب أرباب الأقلام، ولأن متوليها ثانى السلطان إذا أنصف وعرف حقه. إلا أن ملوك الدولة التركية قدموا رتبة النيابة على الوزارة، فتأخرت الوزارة حتى قعد بها مكانها، ووليها فى الدولة التركية أناس من أرباب السيوف وأناس من أرباب الأقلام، فصار الوزير إذا كان من أرباب الأقلام يطلق عليه اسم الصاحب، بخلاف ما إذا كان من أرباب السيوف فإنه لاى يقال له الصاحب.

وأصل هذه الكلمة فى إطلاقها على الوزير أن الوزير إسماعيل بن عباد كان يصحب مؤيد الدولة أبا منصور بويه بن ركن الدولة الحسن ابن بويه الديلمى صاحب بلاد الري. وكان مؤيد الدولة شديد الميل إليه والمحبة له فسماه الصاحب، وكان الوزير حينئذ أبو الفتح على بن العميد يعاديه لشدة تمكنه من مؤيد الدولة، فتلقب الوزراء بعد ابن عباد بالصاحب. ولا أعلم أحدا من وزراء خلفاء بنى العباس، ولا وزراء الخلفاء الفاطميين، قيل له الصاحب.

وقد جمعت فى وزراء الإسلام كتابا جليل القدر، وأفردت وزراء مصر فى تصنيف بديع. والذى أعرف أن الوزير صفى الدين عبد الله بن شكر، وزير العادل والكامل من ملوك مصر من بنى أيوب، كان يقال له الصاحب، وكذلك من بعده من وزراء مصر إلى إليوم.

وكان وضع الوزير أنه أقيم لنفاذ كلمة السلطان وتمام تصرفه. غير أنها انحطت عن ذلك بنيابة السلطنة، ثم انقسم ما كان للوزير إلى ثلاثة: هم الناظر فى المال، وناظر الخاص، وكاتب السر. فإنه يوقع فى دار العدل ما كان يوقع فيه الوزير بمشاورة واستقلال.

ثم تلاشت الوزارة فى أيام الظاهر برقوق بما أحدثه من الديوان المنفرد. وذلك أنه لما ولى السلطنة أفرد إقطاعه لما كان أميرا قبل سلطنته، وجعل له ديوانا سماه الديوان المفرد، وأقام فيه ناظرا وشاهدين وكتابا، وجعل مرجع هذا الديوان إلى الأستادار، وصرف ما يتحصل منه فى جوامك مماليك استجدها شيئا بعد شئ حتى بلغت خمسة آلاف مملوك، وأضاف إلى هذا الديوان كثيرا من أعمال الديار المصرية.

وبذلك قوى جانب الأستادار، وضعفت الوزارة، حتى صار الوزير قصارى نظره التحدث فى أمر المكوس، فيستخرجها من جهاتها، ويصرفها فى ثمن اللحم وحوائج المطبخ وغير ذلك.

ولقد كان الوزير الصاحب سعد الدين نصر الله بن البقرى يقول: الوزارة إليوم عبارة عن حوايج كاش عفش يشترى اللحم والحطب وحوايج الطعام، وناظر الخاص غلال صلف يشترى الحرير والصوف والنصافى والسنجاب، وأما ما كان للوزراء ونظار الخاص فى القديم فقد بطل.

ولقد صدق فيما قال، فإن الأمر على هذا وما رأينا الوزارة من بعد انخطاط رتبتها يرتفع قدر متوليها إلا إذا أضيفت إلى الأستادارية. كما وقع للأمير جمال الدين يوسف الأستادار والأمير فخر الدين عبد الغنى بن أبى الفرج. وأما من ولى الوزارة بمفردها، سيما من أرباب الأقلام، فإنما هو كاتب كبير يتردد ليلا ونهارا إلى باب الأستادار، ويتصرف بأمره ونهيه.

وحقيقة الوزارة إليوم أنها انقسمت بين أربعة، وهم: كاتب السر، والأستادار، وناظر الخاص، والوزير.

فأخذ كاتب السر من الوزارة التوقيع على القصص بالولايات، والعزل ونحو ذلك فى دار العدل وفى داره.

وأخذ الأستادار التصرف فى نواحى أرض مصر، والتحدث عن الدواوين السلطانية، وفى كشف الأقاليم وولاة النواحي، وفى كثير من أمور أرباب الوظائف.

وأخذ ناظر الخاص جانبا كبيرا من الأموال الديوانية السلطانية ليصرفها فى تعلقات الخزانة السلطانية.

وبقى للوزير شئ يسير جدا من النواحي، والتحدث فى المكوس وبعض الدواوين، ومصارف المطبخ السلطانى والسواقي، وأشياء أخري. وإليه مرجع ناظر الدولة، وشاد الدواوين، وناظر بيت المال، وناظر الأهراء، ومستوفى الدولة، وناظر الجهات. وأما ناظر البيوت وناظر الاصطبلات فإن أمرهما يرجع إلى غيره. والله أعلم.

«نظر الدولة»: هذه الوظيفة يقال لمتوليها ناظر النظام، ويقال له ناظر المال، وهو يعرف إليوم بناظر الدولة، وتلى رتبته رتبه الوزارة. فإذا غاب الوزير، أو تعطلت الوزارة من وزير، قام ناظر الدولة بتدبير الدولة، وتقدم إلى شاد الدواوين بتحصيل الأموال وصرفها فى النفقات والكلف.

واقتصر الملك الناصر محمد بن قلاوون على ناظر الدولة مدة أعوام من غير تولية وزير، ومشى أمور الدولة على ذلك حتى مات.

ولابد أن يكون من ناظر الدولة مستوفون يضبطون كليات المملكة وجزئياتها. ورأس المستوفين مستوفى الصحبة، وهو يتحدث فى سائر المملكة مصرا وشاما، ويكتب مراسيم يعلم عليها السلطان: فتكون تارة بما يعلم فى البلاد، ، وتارة بالإطلاقات، وتارة باستخدام كتاب فى صغار الأعمال، ومن هذا النحو وما يجرى مجراه، وهى وظيفة جليلة تلى نظر الدولة. وبقية المستوفين كل منهم حديثه مقيد لا يتعدى حديثه قطرا من أقطار المملكة.

وهذا الديوان ـ أعنى ديوان النظر ـ هو أرفع دواوين المال، وفيه تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية، وكل ديوان من دواوين المال إنما هو فرع هذا الديوان، وإليه يرفع حسابه وتتناهى أسبابه، وإليه يرجع أمر الاستيمار الذى يشتمل على أرزاق ذوى الأقلام وغيرهم مياومة ومشاهرة ومسانهة من الرواتب.

وكانت أرزاق ذوى الأقلام مشاهرة من مبلغ عين وغلة، وكان لأعيانهم الرواتب الجارية فى إليوم من اللحم بتوابله أو غير توابله، والخبز والعليق لدوابهم، وكان لأكابرهم السكر والشمع والزيت والكسوة فى كل سنة والأضحية، وفى شهر رمضان السكر والحلوي.

وأكثرهم نصيبا الوزير، وكان معلومه فى الشهر مائتين وخمسين دينارا جيشية، مع الأصناف المذكورة والغلة وتبلغ نظير المعلوم، ثم ما دون ذلك من المعلوم لمن عدا الوزير، وما دون دونه. وكان معلوم القضاة والعلماد أكثره خمسون دينارا فى كل شهر، مضافا لما بيدهم من المدارس التى يستدرون من أوقافها.

وكان أيضا يصرف على سبيل الصدقات الجارية والرواتب الدارة على جهات ما بين مبلغ وغلة وخبز ولحم وزيت وكسوة وشعير. . . هذا سوى الأرض من النواحى التى يعرف المرتب عليها بالأرزاق الأحباسية.

وكانوا يتوارثون هذه المرتبات ابنا عن أب، ويرثها الأخ عن أخيه، وابن العم عن ابن العم. . . بحيث إن كثيرا ممن مات، وخرج إدراره من مرتبه لأجنبي، لما جاء قريبه وقدم قصته يذكر فيها أولويته بما كان لقريبه، أعيد إليه ذلك المرتب ممن كان خرج باسمه.

«نظر البيوت»: كان من الوظائف الجليلة، وهى وظيفة متوليها منوط بالأستادار فكل ما يتحدث فيه أستادار السلطان فإنه يشاركه فى التحدث، وهذا كان أيام كون الأستادار،

ونظره لا يتعدى بيوت السلطان وما تقدم ذكره . فأما منذ عظم قدر الأستادار ونفذت كلمته فى جمهور أموال الدولة ، فإن نظر البيوت إليوم شئ لا معنى له .

«**نظر بيت المال**» : كان وظيفة جليلة معتبرة . وموضوع متوليها التحدث فى حمول المملكة مصرا وشاما إلى بيت المال بقلعة الجبل ، وفى صرف ما ينصرف منه تارة بالوزن وتارة بالتسبيب بالأقلام .

وكان أبدا يصعد ناظر بيت المال ، ومعه شهود بيت المال وصيرفى بيت المال وكاتب المال ، إلى قلعة الجبل . ويجلس فى بيت المال ، فيكون له هناك أمر ونهى وحال جليلة ، لكثرة الحمول الواردة ، وخروج الأموال المصروفة فى الرواتب لأهل الدولة . وكان أمرا عظيما بحيث أنها بلغت فى السنة نحو أربعمائة ألف دينار .

وكان لا يلى نظر بيت المال إلا من هو من ذوى العدالات المبرزة . ثم تلاشى المال وبيت المال ، وذهب الاسم والمسمي ، ولا يعرف إليوم بيت المال من القلعة ، ولا يدرى ناظر بيت المال من هو .

«**نظر الاصطبلات**» : هذه الوظيفة جليلة القدر إلى إليوم . وموضوعها الحديث فى أموال الاصطبلات والمناخات وعليقها ، وأرزاق من فيها من المستخدمين ، وما بها من الاستعمالات والإطلاق ، وكل ما يبتاع لها أو يبتاع بها . وأول من استجدها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وهو أول من زاد فى رتبة أميراخور ، واعتنى بالأوجاقية والعرب الركابة .

وكان أبوه المنصور قلاوون يرغب فى خيل برقة أكثر من خيل العرب ، ولا يعرف عنه أنه اشترى فرسا بأكثر من خمسة آلاف درهم ، وكان يقول : خيل برقة نافعة ، وخيل العرب زينة . . . بخلاف الناصر محمد ، فإنه شغف باستدعاد الخيول من عرب آل مهنا وآل فضل وغيرهم ، ويسببها كان يبالغ فى إكرام العرب ، ويرغبهم فى أثمان خيولهم حتى خرج عن الحد فى ذلك .

فكثرت رغبة آل مهنا وغيرهم فى طلب خيول من عداهم من العربان ، وتتبعوا عتاق الخيل من مظانها ، وسمحوا بدفع الأثمان الزائدة على قيمتها ، حتى أتتهم طوائف العرب بكرائم

خيولهم. فتمكنت آل مهنا من السلطان، وبلغوا فى أيامه الرتب العليا. وكان لا يحب خيول برقة، وإذا أخذ منها شيئا أعده للتفرقة على الأمراء البرانيين، ولا يسمح بخيول آل مهنا إلا لأعز الأمراء وأقرب الخاصكية منها.

وكان جيد المعرفة بالخيل شياتها وأنسابها لا يزال يذكر أسماء من أحضرها إليه ومبلغ ثمنها. فلما اشتهر عنه ذلك، جلب إليه أهل البحرين والحساء والقطيف وأهل الحجاز والعراق كرائم خيولهم، فدفع لهم فى الفرس من عشرة آلاف درهم إلى عشرين إلى ثلاثين ألف درهم: عنها ألف وخمسمائة مثقال من الذهب. . . سوى ما ينعم به على مالكه من الثياب الفاخرة له ولنسائه، ومن السكر ونحوه، فلم تبق طائفة من العرب حتى قادت إليه عتقا خيلها.

وبلغ من رغبة السلطان فيها أنه صرف فى أثمانها دفعة واحدة، من جهة كريم الدين ناظر الخاص، ألف ألف درهم فى يوم واحد، وتكرر هذا منه غير مرة، وبلغ ثمن الفرس الواحد من خيول آل مهنا الستين ألف درهم والسبعين ألف درهم، واشترى كثيرا من الحجور بالثمانين ألفا والتسعين ألفا، واشترى بنت الكرشاء بمائة ألف درهم: عنها خمسة آلاف مثقال من الذهب. . . هذا سوى الإنعامات بالضياع من بلاد الشام.

وكان من عنايته بالخيل لا يزال يتفقدها بنفسه. فإذا أصيب منها فرس أوكبر سنه بعث به إلى الجشار. وتنزى الفحول المعروفة عنده على الحجور بين يديه، وكتاب الاصطبل تؤرخ تاريخ نزوها، واسم الحصان والحجرة. فتوالدت عنده خيول كثيرة أغتنى بها عن الجلب، ومع ذلك فلم تكن عنده فى منزلة ما يجلب منها. وبهذا ضخمت سعادة آل مهنا، وكثرت أموالهم وضياعهم، فعز جانبهم، وكثر عددهم، وهابهم من سواهم من العرب.

وبلغت عدة خيول الجشارات فى أيامه نحو ثلاثة آلاف فرس، وكان يعرضها فى كل سنة ويدوغ أولادها بين يديه، ويسلمها للعربان الركابة، وينعم على الأمراء الخاصكية بأكثرها، ويتبجح بها، يقول: هذه فلانة بنت فلانة، وهذا فلان بن فلانة، وعمره كذا، وشراء أم هذا كذا وكذا.

كان لايزال يؤكد على الأمراء فى تضمير الخيول، ويلزم كل أمير أن يضمر أربعة أفراس، ويتقدم لأميراخور أن يضمر للسلطان عدة منها، ويوصيه بكتمان خبرها، ثم يشيع أنها لأيدغمش أميراخور، ويرسلها مع الخيل فى حلبة السباق خشية أن يسبقها فرس أحد من الأمراء فلا يحتمل ذلك، فإنه ممن لا يطيق شيئا ينقص ملكه. وكان السباق فى كل سنة بميدان القبق ينزل بنفسه، وتحضر الأمراء بخيولها المضمرة، فيجريها وهو على فرسه حتى تنقضى نوبها. وكان عدتها مائة وخمسين فرسا فما فوقها.

فاتفق أنه كان عند الأمير قطلوبغا الفخرى حصان أدهم سبق خيل مصر كلها فى ثلاث سنين متوالية أيام السباق، وبعث إليه الأمير مهنا فرسا شهباء على أنها إن سبقت خيل مصر فهى للسلطان، وإن سبقها فرس ردت إليه، ولا يركبها عند السباق إلا بدوى قادها.

فركب السلطان للسباق فى أمرائه على عادته، ووقف معه سليمان وموسى ابنا مهنا، وأرسلت الخيول من بركة الحاج على عادتها، وفيها فرس مهنا، وقد ركبها البدوى عريا بغير سرج. فأقبلت سائر الخيول تتبعها حتى وصلت المدي، وهى عرى بغير سرج، والبدوى عليها بقميص وطاقية. فلما وقفت بين يدى السلطان، صاح البدوي: السعادة لك إليوم يا مهنا، لا شقيت.

فشق على السلطان أن خيله سبقت، وأبطل التضمير من خيله. وصارت الأمراء تضمر على عادتها.

ومات الناصر محمد عن أربعة آلاف وثمانمائة فرس، وترك زيادة على خمسة آلاف من الهجن الأصائل والنوق المهريات والقرشيات سوى أتباعها، وبطل بعده السباق.

فلما كانت أيام الظاهر برقوق، عنى بالخيل أيضا. ومات عن سبعة آلاف فرس، وخمسة عشر ألف جمل.

«ديوان الإنشاء»: وكان بجوار قاعة الصاحب بقلعة الجبل ديوان الإنشاء. يجلس فيه كاتب السر، وعنده موقعو الدرج وموقعو الدست، وفى أيام المواكب طول النهار، ويحمل إليهم من المطبخ السلطانى المطاعم.

وكانت الكتب الواردة، وتعليق ما يكتب من الباب السطاني، موضوعة بهذه القاعة. وأنا جلست بها عند القاضى بدر الدين محمد بن فضل الله العمري، أيام مباشرتى التوقيع السلطاني، إلى نحو السبعين والسبعمائة.

فلما زالت دولة الظاهر برقوق ثم عادت، اختلت أمور كثيرة، منها أمر قاعة الإنشاء بالقلعة، وهجرت، وأخذ ما كان فيها من الأوراق وبيعت بالقنطار، ونسى رسمها.

وكتابة السر رتبة قديمة، ولها أصل فى السنة. فقد خرج أبو بكر عبد الله بن أبى داود سليمان بن الأشعث السجستاني، فى كتاب «المصاحف»، من حديث الأعمش، عن ثابت بن عبيد، عن زيد بن ثابت رضى الله عنه، قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إنها تأتيني كتب لا أحب أن يقرأ كل أحد، فهل تستطيع أن تعلم كتاب العبرانية (أو قال السريانية)**.

فقلت: نعم

قال: فتعلمتها في سبع عشرة ليلة».

ولم يزل خلفاء الاسلام يختارون لكتابة سرهم الواحد بعد الواحد. وكان موضوع كتابة السر فى الدولة التركية، على ما استقر عليه الأمر فى أيام الناصر محمد بن قلاوون، أن لمتوليها ـ المسمى بكاتب السر، وبصاحب ديوان الإنشاء، ومن الناس من يقول ناظر ديوان الإنشاء ـ قراءة الكتاب الواردة على السلطان، وكتاب أجوبتها إما بخطه، أو بخط كتاب الدست أو كتاب الدرج، بحسب الحال.

وله تسفير الأجوبة بعد أخذ علامة السلطان عليها، وله تصريف المراسيم ورودا وصدورا، وله الجلوس بين يدى السلطان بدار العدل لقراءة القصص، والتوقيع عليها بخطه فى المجلس. فصار يوقع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة، وصار إليه التحدث فى مجلس السلطان عند عقد المشورة، وعند اجتماع الحكام لفصل أمر مهم، وله التوسط بين الأمراء والسلطان فيما يندب إليه عند الاختلاف أو التدبير، وإليه ترجع أمور القضاة ومشايخ العلم ونحوهم فى سائر المملكة مصرا وشاما، فيمضى من أمورهم ما أحب، ويشاور السلطان فيما لابد من مشاورته فيه.

وكانت العادة أن يجلس تحت الوزير. فلما عظم تمكن القاضى فتح الدين فتح الله كاتب السر من الدولة، جلس فوق الوزير الصاحب سعد الدين إبراهيم البشيري. فاستمر ذلك لمن بعده.

ورتبة كاتب السر أجل الرتب، وذلك أنها منتزعة من الملك. فإن الدولة العباسية صار خلفاؤها فى أول أمرهم، منذ عهد أبى العباس السفاح إلى أيام هارون الرشيد، يستبدون بأمورهم.

فلما صارت الخلافة إلى هارون، ألقى مقاليد الأمور إلى يحيي بن جعفر البرمكي، فصار يحيي يوقع على رقاع الرافعين بخطه فى الولايات، وإزالة الظلامات، وإطلاق الأرزاق والعطيات. فجلت لذلك رتبته، وعظمت من الدولة مكانته.

وكان هو أول من وقع من وزراء خلفاء بنى العباس، وصار من بعده من الوزراء يوقعون على القصص كما كان يوقع.

وربما انفرد رجل بديوان السر وديوان الترسل. ثم أفردت فى أخريات دولة بنى العباس، واستقل بها كتاب لم يبلغوا مبلغ الوزراء. وكانوا ببغداد يقال لهم كتاب الإنشاء، وكبيرهم يدعى رئيس ديوان الإنشاء ويطلق عليه تارة صاحب ديوان الإنشاء، وتارة كاتب السر. ومرجع هذا الديوان إلى الوزير وكان يقال له الديوان العزيز، وهو الذى يخاطبه الملوك فى مكاتبات الخلفاء.

وكان فى الدولة السلجوقية يسمى ديوان الإنشاء بديوان الطغرا، وإليه ينسب مؤيد الدين الطغرائي. والطغرا هى طرة المكتوب، فيكتب أعلى من البسملة بقلم غليظ ألقاب الملك. وكانت تقوم عندهم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب، ويستغنى بها عن علامة السلطان، وهى لفظة فارسية.

وفى بلاد المغرب يقال لرئيس ديوان الإنشاء صاحب القلم الأعلي. وأما مصر فإنه كان بها فى القديم ـ لما كانت دار إمارة ـ ديوان البريد. ويقال لمتوليه صاحب البريد، وإليه مرجع ما يرد من دار الخلافة على أيدى أصحاب البريد من الكتب، وهو الذى يطالع بأخبار مصر. وكان لأمراء مصر كتاب ينشئون عنهم الكتب والرسائل إلى الخليفة وغيره.

فلما صارت مصر دار خلافة، كان القائد جرهر يوقع على قصص الرافعين. إلى أن قدم المعز لدين الله فوقع، وجعل أمر الأموال وما يتعلق بها إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن، فوليا أموال الدولة.

ثم فوض العزيز بالله أمر الوزارة ليعقوب بن كلس. فاستبد بجميع أحوال المملكة، وجرى مجرى يحيي بن جعفر البرمكي، وكان يوقع، ومع ذلك ففى أمراء الدولة من يلى البريد. وجرى الأمر فيما بعد على أن الوزراء يوقعون، وقد يوقع الخليفة بيده.

فلما كانت أيام المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر، وصرف أبا جعفر محمد بن جعفر بن المغربى عن وزارته، أفرد له ديوان الإنشاء، فوليه مدة طويلة، وأدرك أيام أمير الجيوش بدر الجمالي. وصار يلى ديوان الإنشاء بعده الأكابر، إلى أن انقرضت الدولة وهو بيد القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيساني. فاقتدت بهم الدولة الأيوبية، ثم الدولة التركية فى ذلك. وصار الأمر على هذا إلى اليوم.

وصار متولى رتبة كتابة السر أعظم أهل الدولة، إلا أنه فى الدولة التركية يكون معه من الأمراء واحد يقال له الدوادار، منزلته منزلة صاحب البريد فى الزمن الأول. ومنزلة كاتب السر فى منزلة صاحب ديوان الإنشاء، إلا أنه يتميز بالتوقيع على القصص. تارة بمراجعة السلطان، وتارة بغير مراجعة. فلذلك يحتاج إليه سائر أهل الدولة من أرباب السيوف والأقلام، ولا يستغنى عن حسن سفارته نائب الشام فمن دونه. ولله الأمر كله.

وأما فى الدولة الأيوبية، فإن كتاب الدرج كانوا فى الدولة الكاملية قليلين جدا، وكانوا فى غاية الصيانة والنزاهة وقلة الخلطة بالناس. واتفق أن الصاحب زين الدين يعقوب ابن الزبير كان من جملتهم، فسمع الملك الصالح نجم الدين أيوب عن أنه يحضر فى السماعات، فصرفه من ديوان الإنشاء، وقال: هذا الديوان لا يحتمل مثل هذا.

وكانت العادة ألا يحضر كتاب الإنشاء الديوان يوم الجمعة. فعرض للملك الصالح فى بعض أيام الجمع شغل مهم، فطلب بعض الموقعين فلم يجد أحدا منهم، فقيل له إنهم لايحضرون يوم الجمعة، فقال: استخدموا فى الديوان كاتبا نصرانيا يقعد يوم الجمعة لمهم يطرأ. فاستخدم الأمجد بن العسال كاتب الدرج لهذا المعني.

«**نظر الجيش**» : قد تقدم أنه كان يجلس ، بالقلعة دواوين الجيش فى أيام الموكب ، وتقدم فى ذكر الإقطاعات وذكر النيابة ما يدل على حال متولى نظر الجيش . ولابد مع ناظر الجيش أن يكون من المستوفين من يضبط كليات المملكة وجزئياتها فى الإقطاعات وغيرها .

«**نظر الخاص**» : هذه الوظيفة وإن كان لها ذكر قديم من عهد الخلفاء الفاطميين ، فإن متوليها لم يبلغ من جلالة القدر ما بلغ إليه فى الدولة التركية . وذلك أن الملك الناصر محمد بن قلاوون لما أبطل الوزارة ، وأقام القاضى كريم الدين الكبير فى وظيفة نظر الخاص ، صار متحدثا فيما هو خاص بمال السلطان . . . يتحدث فى مجموع الأمر الخاص بنفسه ، وفى القيام بأخذ رأيه فيه . فبقى تحدثه فيه وبسببه كأنه هو الوزير لقربه من السلطان وزيادة تصرفه .

وإلى ناظر الخاص التحدث فى الخزانة السلطانية ، وكانت بقلعة الجبل ، وكانت كبيرة الوضع لأنها مستودع أموال المملكة . وكان نظر الخزانة منصبا جليلا . . . إلى أن استحدثت وظيفة نظر الخاص . فضعف أمر نظر الخزانة وأمر الخزانة أيضا ، وصارت تسمى الخزانة الكبري ، وهو اسم أكبر من مسماه ، ولم يبق بها إلا خلع يخلع منها أو ما يحضر إليها ويصرف أولا فأولا ، وصار نظر الخزانة مضافا إلى ناظر الخاص .

وكان الرسم ألا يلى الخزانة إلا القضاة أو من يلحق بهم . وما برحت الخزانة بقلعة الجبل حتى عملها الأمير منطاش سجنا لمماليك الظاهر برقوق فى سنة تسعين وسبعمائة ، فتلاشت من حينئذ ، ونسى أمرها ، وصارت الخلع ونحوها عند ناظر الخاص فى داره .

وكانت لأهل الدولة فى الخلع عوايد ، وهم على ثلاثة أنواع : أرباب السيوف ، والأقلام ، والعلماء . فأما أرباب السيوف فكانت خلع أكابر أمراء المئين الأطلس الأحمر الرومي ، وتحته الأطلس الأصفر الرومي ، وعلى الفوقانى طرز زركش ذهب وتحته سنجاب ، وله سجف من ظاهرة مع الغشاء قندس ، وكلوتة زركش بذهب وكلاليب ذهب ، وشاش لانس رفيع موصول به فى طرفيه حرير أبيض مرقوم بألقاب السلطان ، مع نقوش باهرة من الحرير الملون ، مع منطقة ذهب .

ثم تختلف أحوال المنطقة بحسب مقاديرهم، فأعلاها ما عمل بين عمدها بواكر وسطي، وجنبتان بالبلخش والزمرد واللؤلؤ، ثم ما كان ببيكارية واحدة غير مرصعة. وأما من تقلد ولاية كبيرة منهم فإنه يزاد سيفا محلى بذهب يحضر من السلاح خاناه، ويحليه ناظر الخاص، ويزاد فرسا مسرجا ملجما بكنبوش ذهب، والفرس من الاصطبل، وقماشه من الركاب خاناه. ومرجع العمل فى سروج الذهب والكنابيش إلى ناظر الخاص.

وكان رسم حماة من أعلى هذه الخلع، ويعطى بدل الشاش اللانس شاش من عمل الإسكندرية حرير شبيه بالطول، وينسج بالذهب، ويعرف بالمثمر، ويعطى فرسين أحدهما كما ذكر، والآخر يكون عوض كنبوشه زنارى أطلس أحمر.

وكانت لنائب الشام - على ما استقر فى أيام الناصر محمد بن قلاوون - مثل هذا، وزيد لتنكز تركيبة زركش ذهب دائرة بالقباء الفوقاني.

ودون هذه الرتبة فى الخلع نوع يسمى طرز وحش، يعمل بدار الطراز التى كانت بالإسكندرية وبمصر وبدمشق، وهو مجوخ جاخات كتابة بألقاب السلطان، وجاخات طرزوحش، وجاخات ألوان ممتزجة بقصب مذهب. يفصل بين هذه الجاخات نقوش، وطراز هذا يكون من القصب، وربما كبر بعضهم فركب عليه طرازا مزركشا بالذهب، وعليه فرو سنجاب وقندس كما تقدم، وتحت القباء الطرزوحش قباء من المقترح الإسكندرانى الطرح، وكلوتة زركش بكلاليب وشاش على ما تقدم، وحياصة ذهب، فتارة تكون ببيكارية، وتارة لا يكون بها بيكارية، وهذه لأصاغر أمراء المئين ومن يلحق بهم.

ودون هذه الرتبة فى الخلع كمخا عليه نقش من لون آخر غير لونه، وقد يكون من نوع لونه بتفاوت بينهما، وتحت سنجاب بقندس، والبقية كما تقدم، إلا أن الحياصة والشاش لا يكونان بأطراف رقم، بل تكون مجوخة بأخضر وأصفر مذهب، والحياصة لا تكون ببيكارية.

ودون هذه المرتبة كمخا تكون واحدة بسنجاب مقندس، والبقية على ما ذكر، وتكون الكلوتة خفيفة الذهب، وجانباها يكادان يكونان خاليين بالجملة، ولا حياصة له. ودون هذه الرتبة مجوم لون واحد، والبقية على ما ذكر، خلا الكلوتة والكلاليب. ودون هذه

الرتبة مجوم مقندس، وهو قباد ملون بجاخات من أحمر وأخضر وأزرق، وغير ذلك من الألوان، بسنجاب وقندس، وتحته قباء إما أزرق أو أخضر، وشاش أبيض بأطراف من نسبة ما تقدم ذكره. ثم دون هذا من هذا النوع.

وأما الوزراء والكتاب فأجل ما كانت خلعهم الكمخا الأبيض المطرز برقم حرير ساذج، وسنجاب مقندس وتحته كمخا أخضر، وبقيار كان من عمل دمياط مرقوم وطرحة.

ثم دون هذه الرتبة عدم السنجاب، بل يكون القندس بدائر الكمين وطول الفرج، ودونها ترك الطرحة، ودونها أن يكون التحتانى مجوما، ودون هذا أن يكون الفوقانى من الكمخا لكنه غير أبيض، ودونه أن يكون الفوقانى مجوما أبيض، ودونه أن يكون تحته عنابي.

وأما القضاة والعلماء فإن خلعهم من الصوف بغير طراز، ولهم الطرحة، وأجلهم أن يكون أبيض، وتحته أخضر، ثم ما دون ذلك.

وكانت العادة أن أهبة الخطباء - وهى السواد - تحمل إلى الجوامع من الخزانة، وهى دلق مدور، وشاش أسود، وطرحة سوداء، وعلمان أسودان مكتوبان بأبيض أو بذهب، وثياب المبلغ قدام الخطيب مثل ذلك خلا الطرحة.

وكانت العادة إذا خلقت الأهبة المذكورة، أعيدت إلى الخزانة، وصرف عوضها.

وكانت للسلطان عادات بالخلع: تارة فى ابتداء سلطنته، وتشمل حينئذ الخلع سائر أرباب المملكة. بحيث خلع فى يوم واحد عند قمة الأشرف كجك بن الناصر محمد بن قلاوون، ألفا ومائتا تشريف، فى وقت لعبه بالكرة، على أناس جرت عوايدهم بالخلع فى ذلك الوقت، كالجوكندارية والولاة ومن له خدمة فى ذلك. وتارة فى أوقات الصيد عندما يسرح، فإذا حصل أحد شيئا مما يصيده خلع عليه، وإذا أحضر أحد إليه غزالا أو نعما خلع عليه قباء مسجفا مما يناسب خلعة مثله على قدره، وكذلك يخلع على البزدارية وجملة الجوارح ومن يجرى مجراهم عند كل صيد.

وكانت العادة أيضا أن ينعم على غلمان الطشت خاناه والشراب خاناه والفراش خاناه، ومن يجرى مجراهم، فى كل سنة عند أوان الصيد. وكان العادة أن من يصل إلى الباب من

البلاد، أو يرد عليه أو يهاجر من مملكة أخرى إليه، أن ينعم عليه من الخلع بأنواع الادرارات والأرزاق والإنعامات.

وكذلك التجار الذين يصلون إلى السلطان، ويبيعون عليه، لهم من الخلع الرواتب الدائمة، من الخبز واللحم والتوابل والحلوى والعليق والمسامحات، بنظير كل ما يباع من الرقيق المماليك والجواري، مع ما يسامحون به أيضا من حقوق أخرى تطلق.

وكل واحد من التجار إذا باع على السلطان، ولو رأسا واحدا من الرقيق، فله خلعة مكملة بحسبه - خارجا عن الثمن وعما ينعم به عليه أو يسفر به - من مال السبيل، على سبيل القرض ليتاجر به.

وأما جلابة الخيل من عرب الحجاز والشام والبحرين وبرقة وبلاد المغرب، فإن لهم الخلع والرواتب والعلوفات والأنزال ورسوم الإقامات، خارجا عن مساحات تكتب لهم بالمقررات عن تجارة يتجرون بها مما أخذوه من أثمان الخيول.

وكان يثمن الفرس بأزيد من قيمته. حتى ربما بلغ ثمنه على السلطان - الذى يأخذه محضره - نظير قيمته عليه عشر مرات، غير الخلع وسائر ما ذكر. ولم يبق إليوم سوى ما يخلع على أرباب الدولة.

وقد استجد فى الأيام الظاهرية، وكثر فى أيام الناصر فرج نوع من الخلع - يقال له الجبة - يلبسة الوزير ونحوه من أرباب الرتب العليا . . . جعلوا ذلك ترفعا عن لبس الخلعة.

ولم تكن الملوك تلبس من الثياب إلا المتوسط، وتجعل حوائصها بغير ذهب. فلم تزد حياصة الناصر محمد على مائة درهم فضة، ولم يزد أيضا سقط سرجه على مائة درهم فضة، على عباءة صوف تدمرى أو شامي.

فلما كانت دولة أولاده بالغوا فى الترف، وخالفوا فيه عوايد أسلافهم. ثم سلك الظاهر برقوق فى ملابسه بعض ما كان عليه الملوك الأكابر لا كله، وترك لبس الحرير.

«الميدان بالقلعة»: هذا الميدان من بقايا ميدان أحمد بن طولون الذى تقدم ذكره عند ذكر القطائع من هذا الكتاب، ثم بناه الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى سنة

إحدى عشرة وستمائة، وعمر إلى جانبه بركا ثلاثا لسقيه، وأجرى الماء إليه، ثم تعطل هذا الميدان مدة.

فلما قام من بعده ابنه الملك العادل أبو بكر محمد بن الكامل محمد اهتم به. ثم اهتم به الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل اهتماما زائدا، وجدد له ساقية أخري، وأنشأ حوله الأشجار، فجاء من أحسن شئ يكون إلى أن مات. فتلاشى أمر الميدان بعده، وهدمه الملك المعز أيبك سنة أحدى وخمسين وستمائة، وعفت آثارة.

فلما كانت سنة اثنتى عشرة وسبعمائة، ابتدأ الملك الناصر محمد بن قلاوون عمارته، فاقتطع من باب الاصطبل إلى قريب باب القرافة، وأحضر جميع جمال الأمراء، فنقلت إليه الطين حتى كساه كله وزرعه، وحفر به الآبار وركب عليها السواقي، وغرس فيه النخل الفاخر والأشجار المثمرة، وأدار عليه هذا السور الحجر الموجود الآن، وبنى حوضا للسبيل من خارجه.

فلما كمل ذلك نزل إليه ولعب فيه الكرة مع أمرائه، وخلع عليهم، واستمر يلعب فيه يومى الثلاثاء والسبت، وصار القصر الأبلق يشرف على هذا الميدان، فجاء ميدانا فسيح المدى يسافر النظر فى أرجائه.

وإذا ركب السلطان إليه نزل من درج تلى قصره الجواني. فينزل السلطان إلى الاصطبل الخاص، ثم إلى هذا الميدان، وهو راكب، وخواص الأمراء فى خدمته. فيعرض الخيول فى أوقات الإطلاقات، ويلعب فيه الكرة. وكان فيه عدة من أنواع الوحوش المستحسنة المنظر، وكانت تربط به أيضا الخيول الخاصة للتفسح.

وفى هذا الميدان يصلى السلطان أيضا صلاة العيدين، ويكون نزوله إليه فى يوم العيد وصعوده من باب خاص من دهليز القصر، غير المعتاد النزول منه. فإذا ركب من باب قصره، ونزل إلى منفذه من الاصطبل إلى هذا الميدان، ينزل فى دهليز سلطانى قد ضرب له على أكمل ما يكون من الأبهة، فيصلى ويسمع الخطبة. ثم يركب ويعود إلى الإيوان الكبير، ويمد به السماط، ويخلع على حامل القبة والطير، وعلى حامل السلاح والأستادار والجاشنكير وكثير من أرباب الوظائف.

وكانت العادة أن تعد للسلطان أيضا خلعة العيد، على أنه يلبسها كما كانت العادة فى أيام الخلفاء، فينعم بها على بعض أكابر أمراء المئين. ولم يزل الحال على هذا إلى أن كانت سنة ثمانمائة، فصلى الملك الظاهر برقوق صلاة عيد النحر بجامع القلعة لتخوفه بعد وقعة الأمير على باي، فهجر الميدان. واستمرت صلاة العيد بجامع القلعة من عامئذ طول الأيام الناصرية والمؤيدية.

«الحوش»

ابتدئ العمل فيه، على أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة. وكان قياسه أربعة فدادين، وكان موضعه بركة عظيمة قد قطع ما فيها من الحجر لعمارة قاعات القلعة حتى صارت غورا كبيرا.

ولما شرع فى العمل رتب على كل أمير من أمراء المئين مائة رجل ومائة بهيمة لنقل التراب برسم الردم، وعلى كل أمير من أمراء الطبلخاناه بحسبه، وندب الأمير أقبغا عبد الواحد شاد العمل. فحضر من عند كل من الأمراء أستاداره ومعه جنده ودوابه للعمل، وأحضر الأساري، وسخر وإلى القاهرة ووإلى مصر الناس، وأحضرت رجال النواحي، وجلس أستادار كل أمير فى خيمة، ووزع العمل عليهم بالأقصاب.

ووقف الأمير أقبغا يستحث الناس فى سرعة العمل، وصار الملك الناصر يحضر فى كل يوم بنفسه. فنال الناس من العمل ضرر زائد، وأخرق أقبغا بجماعة من أماثل الناس، ومات كثير من الرجال فى العمل، لشدة العسف وقوة الحر، وكان والوقت صيفا. فانتهى عمله فى ستة وثلاثين يوما.

وأحضر إليه من بلاد الصعيد ومن الوجه البحرى ألفى رأس غنم، وكثيرا من الأبقار البلق لتوقف فى هذا الحوش، فصار مراح غنم ومربط بقر. وأجرى الماء إلى هذا الحوش من القلعة، وأقام الأغنام حوله.

وتتبع فى كل سنة المراحات، من عيذاب وقوص إلى ما دونهما من البلاد، حتى يؤخذ ما بهما من الأغنام المختارة، وجلبها من بلاد النوبة ومن اليمن. فبلغت عدتها بعد موته ثلاثين ألف رأس سوى أتباعها، وبلغ البقل الأخضر الذى يشترى لفراخ الأوز فى كل يوم خمسين درهما: عنها زيادة على مثقالين من الذهب.

فلما كانت أيام الظاهر برقوق، عمل المولد النبوى بهذا الحوش فى أول ليلة جمعة من شهر ربيع الأول فى كل عام. فإذا كان وقت ذلك ضربت خيمة عظيمة بهذا الحوش، وجلس السلطان وعن يمينه شيخ الإسلام سراج الدين بن رسلان بن نصير البقليني، ويليه ولد شيخ الإسلام ومن دونه، وعن يسار السلطان الشيخ أبو عبد الله محمد بن سلامة التوزرى المغربي، ويليه قضاة القضاة الأربعة وشيوخ العلم، ويجلس الأمراء على بعد من السلطان.

فإذا فرغ القراء من قراءة القرآن الكريم، قام المنشدون واحدا بعد واحد ـ وهم يزيدون على عشرين منشدا ـ فيدفع لكل واحد منهم صرة فيها أربعمائة درهم فضة، ومن كل أمير من أمراء الدولة شقة حرير. فإذا انقضت صلاة المغرب، مدت أسمطة الأطعمة الفائقة فأكلت وحمل ما فيها، ثم مدت أسمطة الحلوى السكرية من الجوارشات والعقائد ونحوها فتؤكل ويتخطفها الفقهاء. ثم يكون تكميل إنشاد المنشدين ووعظهم إلى نحو ثلث الليل. فإذا فرغ المنشدون، قام القضاة وانصرفوا، وأقيم السماع بقية الليل. واستمر ذلك مدة أيامه، ثم أيام ابنه الملك الناصر فرج.

ذكر المياه التى بقلعة الجبل

وجميع مياه القلعة من ماء النيل، تنقل من موضع إلى موضع حتى تمر فى جميع ما يحتاج إليه بالقلعة، وقد اعتنى الملوك بعمل السواقى التى تنقل الماء من بحر النيل إلى القلعة عناية عظيمة. فأنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون، فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة، أربع سواق على بحر النيل تنقل الماء إلى السور، ثم من السور إلى القلعة. وعمل نقالة من المصنع الذى عمله الظاهر بيبرس، بجوار زاوية تقى الدين رجب، التى بالرميلة تحت القلعة، إلى بئر الاصطبل.

فلما كانت سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، عزم الملك الناصر على حفر خليج من ناحية حلوان إلى الجبل الأحمر المطل على القاهرة، ليسوق الماء إلى الميدان الذى عمله بالقلعة، ويكون حفر الخليج فى الجبل.

فنزل لكشف ذلك ومعه المهندسون، فجاء قياس الخليج طولا اثنان وأربعون ألف قصبة، فيمر الماء فيه من حلوان حتى يحاذى القلعة، فإذا حاذاها بنى هناك خبايا تحمل الماء إلى القلعة ليصير الماء بها غزيرا كثيرا، دائما صيفا وشتاء لا ينقطع ولا يتكلف لحمله ونقله، ثم يمر من محاذاة القلعة حتى ينتهى إلى الجبل الأحمر، فيصب من أعلاه إلى تلك الأرض حتى تزرع.

وعندما أراد الشروع فى ذلك، طلب الأمير سيف الدين قطلوبك بن قراسنقر الجاشنكير، أحد أمراد الطبلخاناة بدمشق، بعدما فرغ من بناء القناة، وساق العين إلى القدس. فحضر ومعه الصناع الذين عملوا قناة عين بيت المقدس، على خيل البريد، إلى قلعة الجبل فأنزلوا. ثم أقيمت لهم الجرايات والرواتب، وتوجهوا إلى حلوان، ووزنوا مجرى الماء، وعادوا إلى السلطان، وصوبوا رأيه فيما قصد، والتزموا بعمله.

فقال: كم تريدون؟.

قالوا: ثمانين ألف دينار.

فقال: ليس هذا بكثير . . . فقال: كم تكون مدة العمل فيه حتى يفرغ؟.

قالوا: عشر سنين. فاستكثر طول المدة.

ويقال إن الفخر، ناظر الجيش، هو الذى حسن لهم أن يقولوا هذه المدة، فإنه لم يكن من رأيه عمل هذا الخليج. وما زال يخيل للسلطان، من كثرة المصروف عليه ومن خراب القرافة، ما حمله على صرف رأيه عن العمل، وأعاد قطلوبك والصناع إلى دمشق. فمات قطلوبك عقيب ذلك فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة فى ربيع الأول.

فلما كانت سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، اهتم الملك الناصر بسوق الماء إلى القلعة وتكثيره بها، لأجل سقى الأشجار وملء الفساقي، ولأجل مراحات الغنم والأبقار.

فطلب المهندسين والبنائين، ونزل معهم، وسار فى طول القناطر التى تحمل الماء من النيل إلى القلعة حتى انتهى إلى الساحل، فأمر بحفر بئر أخرى ليركب عليها القناطر حتى تتصل بالقناطر العتيقة، فيجتمع الماء من بئرين، ويصير ماء واحدا يجرى إلى القلعة فيسقى الميدان وغيره. فعمل ذلك.

ثم أحب الزيادة فى الماء أيضا، فركب ومعه المهندسون إلى بركة الحبش، وأمر بحفر خليج صغير يخرج من البحر، ويمر إلى حائط الرصد، وينقر فى الحجر تحت الرصد عشر آبار يصب فيها الخليج المذكور، ويركب على الآبار السواقى لتنقل الماء إلى القناطر العتيقة التى تحمل الماء إلى القلعة زيادة لمائها.

وكان فيما بين أول هذا المكان الذى عين لحفر الخيلج، وبين آخره تحت الرصد، أملاك كثيرة وعدة بساتين. فندب الأمير أقبغا عبد الواحد لحفر هذا الخليج، وشراء الأملاك من أربابها. فحفر الخليج، وأجراه فى وسط بستان الصاحب بهاء الدين بن حنا، وقطع أنشابه، وهدم الدور، وجمع عامة الحجارين لقطع الحجر ونقر الآبار.

وصار السلطان يتعاهد النزول للعمل كل قليل، فعمل عمق الخليج من فم البحر أربع قصبات، وعمق كل بئر فى الحجر أربعين ذراعا. فقدر الله تعالى موت الملك الناصر قبل تمام هذا العمل، فبطل ذلك، وانطم الخليج بعد ذلك، وبقيت منه إلى إليوم قطعة بجوار رباط الآثار.

وما زالت الحائط قائمة من الحجر فى غاية الإتقان من أحكام الصنعة وجودة البناء، عند سطح الجرف الذى يعرف إليوم بالرصد، قائما من الأرض فى طول الجرف إلى أعلاه. حتى هدمه الأمير يلبغا السالمى فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة، وأخذ ما كان به من الحجر، فرم به القناطر التى تحمل إلى إليوم الماء حتى يصل إلى القلعة. وكانت تعرف بسواقى السلطان، فلما هدمت جهل أكثر الناس أمرها، ونسوا ذكرها.

«المطبخ»: كان أولا موضعه فى مكان الجامع، فأدخله السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فيما زاده فى الجامع، وبنى هذا المطبخ الموجود الآن، وعمل عقوده بالحجارة خوفا من الحريق.

وكانت أحوال المطبخ متسعة جدا . . . سيما فى سلطنة الأشرف خليل بن قلاوون ، فإنه تبسط فى المآكل وغيرها . حتى لقد ذكر جماعة من الأعيان أنهم أقاموا مدة سفرهم معه يرسلون كل يوم عشرين درهما ، فيشترى لهم بها مما يأخذه الغلمان أربع خوافق صيني ، مملوءة طعاما مفتخرا بالقلوبات ونحوها ، فى كل خافقية ما ينيف عن خمسة عشر رطل لحم ، أو عشرة أطيار دجاج سمان .

وبلغ راتب الحوايج خاناه ، فى أيام الملك العادل كتبغا ، كل يوم عشرين ألف رطل لحم ، وراتب البيوت والجرايات غير أرباب الرواتب فى كل يوم سبعمائة اردب قمحا .

واعتبر القاضى شرف الدين عبد الوهاب النشو ، ناظر الخاص ، أمر المطبخ السلطانى فى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة فوجد عدة الدجاج الذى يذبح فى كل يوم للسماط ، والمخاصى التى تخص السلطان ويبعث بها إلى الأمراء سبعمائة طائر ، وبلغ مصروف الحوايج خاناه فى كل يوم ثلاثة عشر ألف درهم .

فأكثر أولاد الناصر من مصروفها حتى توقفت أحوال الدولة فى أيام الصالح إسماعيل .

وكتب أوراق بكلف الدولة فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، فبلغت فى السنة ثلاثين ألف ألف درهم ، منها مصروف الحوايج خاناه فى كل يوم اثنان وعشرون ألف درهم . وبلغ فى أيام الناصر محمد بن قلاوون راتب السكر ، فى شهر رمضان خاصة ، ألف قنطار . ثم تزايد حتى بلغ فى شهر رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة ثلاثة آلاف قنطار ، عنها ستمائة ألف درهم ، عنها ثلاثون ألف دينار مصرية .

وكان راتب الدور السلطانية ، فى كل يوم من أيام شهر رمضان ، ستين قنطارا من الحلوى برسم التفرقة للدور وغيرها . وكانت الدولة قد توقفت أحوالها ، فوفر من المصروف فى كل يوم أربعة آلاف رطل لحم ، وستمائة كماجة سميذ ، وثلاثمائة اردب من الشعير ، ومبلغ ألفى درهم فى كل شهر . وأضيف إلى ديوان الوزارة سوق الخيل والدواب والجمال ، وكانت بيد عدة أجناد عوضوا عنها إقطاعات بالنواحي .

واعتبر فى سنة ست وأربعين وسبعمائة متحصل الحاج على الطباخ ، فوجد له على المعاملين فى كل يوم خمسمائة درهم ، ولابنه أحمد فى كل يوم ثلاثمائة درهم . . . سوى

الأطعمة المفتخرة وغيرها، وسوى ما كان يتحصل له فى عمل المهمات مع كثرتها. ولقد تحصل له من ثمن الرؤوس والأكارع وسقط الدجاج والأوز، فى مهم عمله للأمير بكتمر الساقي، ثلاثة وعشرون ألف درهم، عنها نحو ألفين ومائتى دينار. فأوقعت الحوطة عليه، وصودر، فوجد له خمسة وعشرون دارا على البحر وفى عدة أماكن.

واعتبر مصروف الحوايج خاناه، فى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، فكان فى كل يوم اثنين وعشرين ألف رطل من اللحم.

«أبراج الحمام»

كان بالقلعة أبراج برسم الحمام التى تحمل البطائق، وبلغت عدتها ـ على ما ذكره ابن عبد الظاهر فى كتاب تمائم الحمائم ـ إلى آخر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وستمائة ألف طائر وتسعمائة طائر. وكان بها عدة من المقدمين لكل مقدم منهم جزء معلوم.

وكانت الطيور المذكورة لاتبرح فى الأبراج بالقلعة، ما عدا طائفة منها فإنها فى برج بالبرقية خارج القاهرة، يعرف ببرج الفيوم، رتبه الأمير فخر الدين عثمان بن قزل، أستادار الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب، وقيل له برج الفيوم، فإن جميع الفيوم كانت فى إقطاع ابن قزل، وكنت البطائق ترد إليه من الفيوم، ويبعثها من القاهرة إلى الفيوم من هذا البرج، فاستمر هذا البرج يعرف بذلك.

وكان بكل مركز حمام فى سائر نواحى المملكة، مصرا وشاما، وما بين أسوان إلى الفرات. فلا تحصى عدة ما كان منها فى الثغور والطرقات الشامية والمصرية، وجميعها تدرج وتنقل من القلعة إلى سائر الجهات.

وكان لها بغال الحمل من الاصطبلات السلطانية، وجامكيات البراجين والعلوفات تصرف من الأهراء السلطانية، فتبلغ النفقة عليها من الأموال ما لايحصى كثرة. وكانت ضريبة العلف لكل مائة طائر ربع ويبة فول فى كل يوم.

وكانت العادة ألا تحمل البطاقة إلا فى جناح الطائر لأمور : منها حفظ البطاقة من المطر، وقوة الجناح . ثم إنهم عملوا البطاقة فى الذنب .

وكانت العادة إذا بطق من قلعة الجبل إلى الإسكندرية فلا يسرح الطائر إلا من منية عقبة بالجيزة وهى أول المراكز، وإذا سرح إلى الشرقية لايطلق إلا من مسجد تبر خارج القاهرة، وإذا سرح إلى دمياط لايسرح إلا من ناحية بيسوس . وكان يسير مع البراجين من يوصلهم إلى هذه الأماكن من الجاندارية .

وكذلك كانت العادة فى كل مملكة يتوخى الابعاد فى التسريح عن مستقر الحمام . والقصد بذلك أنها لاترجع إلى أبراجها من قريب . وكان يعمل فى الطيور السلطانية علائم، وهى داغات فى أرجلها أو على مناقيرها ويسميها أرباب الملعوب «الاصطلاح» .

وكان الحمام إذا سقط بالبطاقة لايقطع البطاقة من الحمام إلا السلطان بيده من غير واسطة . وكانت لهم عناية شديدة بالطائر، حتى ان السلطان إذا كان يأكل، وسقط الطائر، لايمهل حتى يفرغ من الأكل، بل يحل البطاقة ويترك الأكل، وهكذا إذا كان نائما لايمهل بل ينبه .

قال ابن عبد الظاهر : وهذا الذى رأينا عليه ملوكنا، وكذلك فى الموكب وفى لعب الأكرة، لأنه بلمحة يفوت، ولا يستدرك المهم العظيم، إما من واصل أو هارب، وإما من متجدد فى الثغور .

قال : وينبغى أن تكتب البطائق فى ورق الطير المعروف بذلك، ورأيت الأوائل لايكتبون فى أولها بسملة، وتؤرخ بالساعة واليوم لا بالسنين، وأنا أؤرخها بالسنة، ولا يكثر فى نعوت المخاطب فيها، ولايذكر حشو فى الألفاظ، ولا يكتب إلا لب الكلام وزبدته . ولابد وإن يكتب «سرح الطائر ورفيقه» حتى إن تأخر الواحد ترقب حضوره أو تطلب .

ولا يعمل للبطائق هامش ولا تجمل، ويكتب آخرها حسبلة، ولا تعنون إلا إذا كانت منقولة . مثل : أن تسرح إلى السلطان من مكان بعيد، فيكتب لها عنوان لطيف حتى لا يفتحها أحد . وكل وال تصل إليه يكتب فى ظهرها إنها وصلت إليه ونقلها، حتى تصل مختومة .

قال : ومما شاهدته وتوليت أمره أنه فى شهور سنة ثمان وثمانين وستمائة، حضر من جهة نائب الصبيبة نيف وأربعون طائرا صحبة البراجين، ووصل كتابة أنه درجها إلى مصر. فأقامت مدة لم يكن شغل تبطق فيه، فقال براجوها : قد أزف الوقت عليها فى القرنصة.

وجرى الحديث مع الأمير بيدار نائب السلطنة، فتقرر كتب بطائق على عشرة منها بوصولها لاغير، وسرحت يوم أربعاء جميعها فاتفق وقوع طائرين منها، فأحضرت بطائقهما وحصل الاستهزاء بها.

فلما كان بعد مدة وصل كتاب السلطان أنها وصلت إلى الصبيبة فى ذلك اليوم بعينه، وبطق بذلك فى ذلك إليوم بعينه إلى دمشق، ووصل الخبر إلى دمشق فى يوم واحد. وهذا مما أنا مصرفه وحاضره والمشير به.

قال مؤلفه رحمه الله : قد بطل الحمام من سائر المملكة إلا ما ينقل من قطيا إلى بلبيس، ومن بلبيس إلى قلعة الجبل، ولا تسل بعد ذلك عن شئ، وكأنى بهذا القدر وقد ذهب. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ذكر ملوك مصر منذ بنيت قلعة الجبل

أعلم أن الذين ولوا أرض مصر فى الملة الإسلامية على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : من ولى بفسطاط مصر منذ فتح الله تعالى أرض مصر على أيدى العرب، أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم وتابعيهم، فصارت دار إسلام، إلى أن قدم القائد أبو الحسين جوهر من بلاد إفريقية بعساكر مولاه المعز لدين الله أبى تميم معد، وبنى القاهرة. وهؤلاء يقال لهم أمراء مصر، ومدتهم ثلاثمائة وسبع وثلاثون سنة وسبعة أشهر وستة عشر يوما : أولها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة، وآخرها يوم الإثنين سادس عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. وعدة هؤلاء الأمراء مائة واثنا عشر أميرا.

والقسم الثاني : من ولي بالقاهرة منذ بنيت إلى أن مات الإمام العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله رحمه الله . وهؤلاء يقال لهم الخلفاء الفاطميون . ومدتهم بمصر مائتا سنة وثماني سنين وأربعة أشهر واثنان وعشرون يوما : أولها يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وآخرها يوم الأحد عاشر المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة . وعدة هؤلاء الخلفاء أحد عشر خليفة .

والقسم الثالث : من ملك مصر بعد موت العاضد إلى وقتنا هذا الذى نحن فيه . ويقال لهم الملوك والسلاطين ، وهم ثلاثة أقسام :

القسم الأول ملوك بنى أيوب ، وهم أكراد . والقسم الثانى البحرية وأولادهم ، وهم مماليك أتراك لبنى أيوب . والقسم الثالث مماليك أولاد البحرية ، وهم جراكسة .

وقد تقدم فى هذا الكتاب ذكر الأمراء والخلفاء . وستقف ان شاء الله تعالى على ذكر من ملك من الأكراد والأتراك والجراكسة وتعرف أخبارهم على ما شرطنا من الاختصار .

إذ قد وضعت لبسط ذلك كتابا سميته كتاب «السلوك لمعرف دول الملوك» ، وجردت تراجمهم فى كتاب «التاريخ الكبير المقفي» . فتطلبهما تجد فيهما ما لاتحتاج بعد إلى سواهما فى معناهما .

ذكر من ملك مصر من الأكراد

أعلم أن الناس قد اختلفوا فى الأكراد . فذكر العجم أن الأكراد فضل طعم الملك بيوراسف . وذلك أنه كان يأمر أن يذبح له كل يوم إنسانان ، ويتخذ طعامه من لحومهما . وكان له وزير يسمى أرمايبل ، وكان يذبح واحدا ، ويستحيي واحدا ويبعث به إلى جبال فارس . فتوالدوا فى الجبال وكثروا .

ومن الناس من ألحقهم بإماء سليمان بن داود عليهما السلام حين سلب ملكه ، ووقع على نسائه المنافقات الشيطان الذى يقال له الجسد ، وعصم الله تعالى منه المؤمنات ، فعلق منه المنافقات .

فلما رد الله تعالى على سليمان عليه السلام ملكه، ووضع هؤلاء الإماء الحوامل من الشيطان قال: اكردوهم إلى الجبال والأودية. فربتهم أمهاتهم، وتناكحوا وتناسوا. فذلك بدء نسب الأكراد.

والأكراد عند الفرس من ولد كرب به اسفندام بن منوشهر. وقيل هم ينسبون إلى كرد بن مرد بن عمرو بن صعصعة بن معاوية ابن بكر، وقيل هم من ولد عمرو مزيقيا بن عامر بن ماء السماء، وقيل من بنى حامد بن طارق من بقية أولاد حميد بن زهير بن الحارث ابن أسد بن عبد العزى بن قصي. وهذه أقوال الفقهاء لهم ممن أراد الحظوة لديهم لما صار الملك إليهم.

وإنما هم قبيل من قبائل العجم، وهم قبائل عديدة: كورانية بنو كوران، وهذبانية، وبشتوية وشاصنجانية وسرنجية وبزولية ومهرانية وزردارية وكيكانية وجاك وكرودنيلية وروادية ودسنية وهكارية وحميدية وورجكية ومروانية وجلانية وسنيكية وجوني.

وتزعم المروانية أنها من بنى مروان بن الحكم، ويزعم بعض الهكارية أنها من ولد عبتة بن أبى سفيان بن حرب.

وأول من ملك مصر من الأكراد الأيوبية «**السلطان الملك الناصر صلاح الدين**» أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أبى الشكر أيوب ابن شادى بن مروان الكردي، من قبيل الروادية أحد بطون الهذبانية.

نشأ أبوه أيوب وعمه أسد الدين شيركوه ببلد دوين من أرض أذربيجان، من جهة أران وبلاد الكرج، ودخلا بغداد، وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد. فبعث أيوب إلى قلعة تكريت، وأقامة بها مستحفظا لها ومعه أخوه شيركوه - وهو أصغر منه سنا - فخدم أيوب الشهيد زنكى لما انهزم، فشكر له خدمته.

واتفق بعد ذلك أن شيركوه قتل رجلا بتكريت، فطرد هو وأخوه أيوب من قلعتها، فمضيا إلى زنكى بالموصل، فآواهما وأقطعهما إقطاعا عنده، ثم رتب أيوب بلقلعة بعلبك مستحفظا، ثم أنعم عليه بإمرة.

واتصل شيركوه بنور الدين محمود بن زنكى فى أيام أبيه وخدمه. فلما ملك حلب بعد أبيه، كان لنجم الدين أيوب عمل كثير فى أخذ دمشق لنور الدين. فتمكنا فى دولته حتى

بعث شيركوه مع الوزير شاور بن مجير السعدى إلى مصر، فسار صلاح الدين فى خدمته من جملة أجناده.

وكان من أمر شيركوه ما كان حتى مات فأقيم بعده، فى وزارة العاضد، ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب فى يوم الثلاثاء خامس عشرى جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة، ولقبه بالملك الناصر، وأنزله بدار الوزارة من القاهرة.

فاستمال قلوب الناس، وأقبل على الجد، وترك اللهو، وتعاضد هو القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى رحمه الله على إزالة الدولةالفاطمية وولى صدر الدين بن درباس قضاء القضاة، وعزل الشيعة وبنى بمدينة مصر مدرسة للفقهاء المالكية ومدرسة للفقهاء الشافعية، وقبض على أمراء الدولة، وأقام أصحابه عوضهم، وأبطل المكوس بأسرها من أرض مصر، ولم يزل يدأب فى ازالة الدولة حتى تم له ذلك، وخطب لخليفة بغداد المستنصر بأمر الله أبى محمد الحسن العباسى.

وكان العاضد مريضا فتوفى بعد ذلك بثلاثة أيام واستبد صلاح الدين بالسلطنة من أول سنة سبع وستين وخمسمائة واستدعى أباه نجم الدين أيوب وإخوته من بلاد الشام فقدموا عليه بأهإليهم، وتأهب لغزو الفرنج وسار إلى الشوبك، وهى بيد الفرنج فواقعهم، وعاد إلى أيلة فجبى الزكوات من أهل مصر وفرقها على أصنافها، ورفع إلى بيت المال سهم العاملين وسهم المؤلفة وسهم المقاتلة وسهم المكاتبين.

وأنزل الغز بالقصر الغربى وأحاط بأموال القصر وبعث بها إلى الخليفة ببغداد وإلى السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بالشام. فأتته الخلع الخليفية فلبسها، ورتب نوب الطبلخاناة فى كل يوم ثلاث مرات، ثم سار إلى الإسكندرية وبعث ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب على عسكر إلى برقة وعاد إلى القاهرة.

ثم سار فى سنة ثمان وخمسين إلى الكرك - وهى بيد الفرنج - فحصرها وعاد بغير طائل فبعث أخاه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب إلى بلاد النوبة فأخذ قلعة أبريم وعاد بغنائم وسبى كثير، ثم سار لأخذ بلاد اليمن فملك زبيد وغيرها.

فلما مات نور الدين محمود بن زنكى توجه السلطان صلاح الدين فى أول صفر سنة سبعين إلى الشام، وملك دمشق بغير مانع، وأبطل ما كان يؤخذ بها من المكوس، كما أبطلها من ديار مصر، وأخذ حمص وحماة، وحاصر حلب وبها الملك الصالح مجير الدين إسماعيل بن العادل نور الدين محمود بن زنكى فقاتله أهلها قتالا شديدا. فرحل عنها إلى حمص، وأخذ بعلبك بغير حصار.

ثم عاد إلى حلب فوقع الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام مع المعرة وكفر طاب، ولهم ما بأيديهم. وعاد فأخذ بغزاس بعد حصار، وأقام بدمشق وندب قراقوش التقوى لأخذ بلاد المغرب، فأخذ أيجلن وعاد إلى القاهرة، وكانت بين السلطان وبين الحلبيين وقعة هزمهم فيها، وحصرهم بحلب أياما، وأخذ بزاعة ومنبج وعزاز، ثم عاد إلى دمشق.

وقدم القاهرة فى سادس عشر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين، بعدما كانت لعساكره حروب كثيرة مع الفرنج فأمر ببناء سور يحيط بالقاهرة ومصر وقلعة الجبل، وأقام على بنائه الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى. فشرع فى بناء قلعة الجبل، وعمل السور وحفر الخندق حوله وبدأ السلطان بعمل مدرسة بجوار قبر الإمام الشافعى رضى الله عنه فى القرافة وعمل مارستانا بالقاهرة.

وتوجه إلى الإسكندرية فصام بها شهر رمضان، وسمع الحديث على الحافظ أبى طاهر أحمد السلفى وعمر الأسطول، وعاد إلى القاهرة، وأخرج قراقوش التقوى إلى بلاد المغرب، وأمر بقطع ما كان يؤخذ من الحجاج، وعوض أمير مكة عنه فى كل سنة ألفى دينار وألف إردب غلة سوى إقطاعة بصعيد مصر، وباليمن، ومبلغه ثمانية آلاف إردب.

ثم سار من القاهرة فى جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين إلى عسقلان ـ وهى بيد الفرنج ـ وقتل وأسر وسبى وغنم، ومضى يريدهم بالرملة، فقاتل البرنس أرياط متملك الكرك قتالا شديدا، ثم عاد إلى القاهرة.

ثم سار منها فى شعبان يريد الفرنج، وقد نزلوا على حماة حتى قدم دمشق وقد رحلوا عنها فواصل الغارات على بلاد الفرنج وعساكره تغزو بلاد المغرب ثم فتح بيت الأحزاب من عمل صفد، وأخذه من الفرنج عنوة.

وسار فى سنة ست وسبعين لحرب فتح الدين فليح أرسلان صاحب قونية من بلاد الروم وعاد ثم توجه إلى بلاد الأرمن، وعاد فخرب حصن بهنسا ومضى إلى القاهرة، فقدمها فى ثالث عشر شعبان ثم خرج إلى الإسكندرية وسمع بها موطأ الإمام مالك على الفقيه أبى طاهر بن عوف وانشأ بها مارستانا ودارا للمغاربة ومدرسة وجدد حفر الخليج ونقل فوهته ثم مضى إلى دمياط وعاد إلى القاهرة.

ثم سار فى خامس المحرم سنة ثمان وسبعين على أيلة فأغار على بلاد الفرنج ومضى - إلى الكرك فعاثت عساكره ببلاد طبرية وعكا وأخذ الشقيف من الفرنج، ونزل السلطان بدمشق وركب إلى طبرية فواقع الفرنج، وعاد فتوجه إلى حلب ونازلها ثم مضى إلى إلبيرة على الفرات، وعدى إلى الرها فأخذها وملك حران والرقة ونصيبين وحاصر الموصل فلم ينل منها غرضا فنازل سنجار حتى أخذها.

ثم مضى على حران إلى آمد فأخذها، وسار على عين تاب إلى حلب فملكها فى ثامن عشر صفر سنة تسع وسبعين وعاد إلى دمشق وعبر الأران وحرب بيسان على الفرنج وخرب لهم عدة حصون وعاد إلى دمشق ثم سار إلى الكرك فلم ينل منها غرضا وعاد.

ثم خرج فى سنة ثمانين من دمشق فنازل الكرك ثم رحل عنها إلى نابلس فحرقها وأكثر من الغارات حتى دمشق، ثم سار منها إلى حماة ومضى حتى بلغ حران، ونزل على الموصل وحصرها، ثم سار عنها إلى خلاط فلم يملكها فمضى حتى أخذ ميافارقين، وعاد إلى الموصل، ثم رحل عنها وقد مرض إلى حران فتقرر الصلح مع المواصلة على أن خطبوا لها بها وبديار بكر وجميع البلاد الأرتقية، وضرب السكة فيها باسمه.

ثم سار إلى دمشق فقدمها فى ثانى ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وخرج منها فى أول سنة ثلاث وثمانين ونازل الكرك والشوبك وطبرية، فملك طبرية فى ثالث عشرى ربيع الآخر من الفرنج ثم واقعهم على حطين وهم فى خمسين ألفا فهزمهم بعد وقائع عديدة وأسر منهم عدة ملوك.

ونازل عكا حتى تسلمها فى ثانى جمادى الأولى وأنقذ منها أربعة آلاف أسير مسلم من الأسر ، وأخذ مجدل يافا وعدة حصون منها الناصرية وقيسارية وحيفا وصفورية والشقيف والنولة والطور وسبسطية ونابلس وتبنين وصرخد وصيدا وبيروت وجبيل ، وأنقذ من هذه البلاد زيادة على عشرين ألف أسير مسلم كانوا فى أسر الفرنج وأسر من الفرنج، مائة ألف إنسان، ثم ملك منهم الرملة ربلد الخليل عليه السلام وبيت لحم من القدس ومدينة عسقلان ومدينة غزة وبيت جبريل .

ثم فتح بيت المقدس فى يوم الجمعة سابع عشرى رجب وأخرج منه ستين ألفا من الفرنج بعدما أسر ستة عشر ألفا ما بين ذكر وأنثى ، وقبض من مال المفاداة ثلاثمائة ألف دينار مصرية وأقام الجمعة بالأقصى ، وبنى بالقدس مدرسة للشافعية ، وقرر على من يرد كنيسة قمامة من الفرنج قطيعة يؤديها ثم نازل عكا وصور ، ونازل فى سنة أربع وثمانين حصن كوكب وندب العساكر إلى صفد والكرك والشوبك .

وعاد إلى دمشق فدخلها سادس ربيع الأول، وقد غاب عنها فى هذه الغزوة أربعة عشر شهرا وخمسة أيام، ثم خرج منها بعد خمسة أيام، فشن الغارات على الفرنج وأخذ منهم أنطرسوس وخرب سورها وحرقها وأخذ جبلة واللاذقية وصهيون والشغر وبكاس وبقراص ثم عاد إلى دمشق آخر شعبان بعدما دخل حلب فملكت عساكره الكرك والشوبك والسلع فى شهر رمضان .

وخرج بنفسه إلى صفد وملكها من الفرنج فى رابع عشر شوال وملك كوكب فى نصف ذى القعدة وسار إلى القدس ومضى بعد النحر إلى عسقلان ونزل بعكا ، وعاد إلى دمشق أول صفر سنة خمس وثمانين ثم سار منها فى ثالث ربيع الأول ونازل شقيف أرنون وحارب الفرنج حروبا كثيرة، ومضى إلى عكا وقد نزل الفرنج عليها وحصروا من بها من المسلمين فنزل بمرج عكا وقاتل الفرنج من أول شعبان حتى انقضت السنة .

وقد خرج الألمان من قسطنطينية فى زيادة على ألف ألف يريد بلاد الاسلام، فاشتد الأمر.

ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان بالخروبة على حصار الفرنج والامداد تصل إليه وقدم الألمان طرطوس يريد بيت المقدس فخرب السلطان سور طبرية ويافا وأرسوف وقيسارية وصيدا وجبيل، وقوى الفرنج بقدوم ابن الألمان إليهم تقوية لهم وقد مات أبوه بطرسوس، وملك بعده فقدر الله تعالى موته أيضا على عكا.

ودخلت سنة سبع وثمانين فملك الفرنج عكا فى سابع عشر جمادى الآخرة وأسروا من بها من المسلمين، وحاربوا السلطان وقتلوا جميع من أسروه من المسلمين، وساروا إلى عسقلان فرحل السلطان فى أثرهم وواقعهم بأرسوف فانهزم من معه وهو ثابت حتى عادوا إليه فقاتل الفرنج وسبقهم إلى عسقلان وخربها، ثم مضى إلى الرملة وخرب حصنها وخرب كنيسة له.

ودخل القدس فأقام بها إلى عاشر رجب سنة ثمان وثمانين ثم سار إلى يافا فأخذها بعد حروب وعاد إلى القدس وعقد الهدنة بينه وبين الفرنج مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها حادى عشر شعبان. على أن للفرنج من يافا إلى عكا إلى صور وطرابلس وإنطاكية، ونودى بذلك فكان يوما مشهودا.

وعاد السلطان إلى دمشق فدخلها خامس عشرى شوال ـ وقد غاب عنها أربع سنين ـ فمات بها فى يوم الأربعاء سابع عشر صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة عن سبع وخمسين سنة منها مدة ملكه بعد موت العاضد اثنتان وعشرون سنة وستة عشر يوما.

فقام من بعده بمصر ولده «**السلطان الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان**» وقد كان يومئذ ينوب عنه بمصر وهو مقيم بدار الوزارة من القاهرة وعنده جل عساكر أبيه من الأسدية والسلاحية والأكراد فأتاه ممن كان عند أخيه الملك الأفضل على الأمير فخر الدين جهاركس والأمير فارس الدين ميمون القصرى والأمير شمس الدين سنقر الكبير ـ وهم عظماء الدولة ـ فأكرمهم وقدم عليه القاضى الفاضل فبالغ فى كرامته.

وتنكر ما بينه وبين أخيه الأفضل فسار من مصر لمحاربته وحصره بدمشق فدخل بينهما العادل أبو بكر حتى عاد العزيز إلى مصر على صلح فيه دخل. فلم يتم ذلك وتوحش ما

بينهما وخرج العزيز ثانيا إلى دمشق فدبر عليه عمه العادل حتى كاد أن يزول ملكه وعاد خائفا فسار إليه الأفضل والعادل حتى نزلا ببلبيس فجرت أمور آلت إلى الصلح وأقام العادل مع العزيز بمصر وعادل الافضل إلى مملكته بدمشق.

فقام العادل بتدبير أمور الدولة وخرج بالعزيز لمحاربة الأفضل فحصراه بدمشق حتى أخذاها منه بعد حروب وبعثاه إلى صرخد.

وعاد العزيز إلى مصر وأقام العادل بدمشق حتى مات العزيز فى ليلة العشرين من محرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة عن سبع وعشرين سنة وأشهر منها مدة سلطنته بعد أبيه ست سنتين تنقص شهرا واحدا.

فأقيم بعده ابنه «**السلطان الملك المنصور ناصر الدين محمد**» وعمره تسع سنين وأشهر بعهد من أبيه وقام بأمور الدولة بهاء الدين قراقوش الأسدى الأتابك، فاختلف عليه أمراء الدولة وكاتبوا الملك الأفضل على بن صلاح الدين فقدم من صرخد فى خامس ربيع الأول فاستولى على الأمور، ولم يبق للمنصور معه سوى الاسم.

ثم سار به إلى القاهرة فى ثالث رجب يريد أخذ دمشق من عمه العادل بعدما قبض على عدة من الامراء، وقد توجه العادل إلى ماردين فحصر الأفضل دمشق وقد بلغ العادل خبره، فعاد وسار يريده حتى دخل دمشق فجرت حروب كثيرة آلت إلى عود الأفضل إلى مصر بمكيدة دبرها عليه العادل.

وخرج العادل فى أثره، وواقعه على بلبيس، فكسره فى سادس ربيع الآخر سنة ست وتسعين والتجأ إلى القاهرة وطلب الصلح، فعوضه العادل صرخد ودخل إلى القاهرة فى يوم السبت ثامن عشرة وأقام بأتابكية المنصور، ثم خلعه فى يوم الجمعة حادى عشر شوال وكانت سلطنته سنة وثمانية أشهر وعشرين يوما.

واستبد بالسلطنة بعده عم أبيه «**السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب**» فخطب له بديار مصر وبلاد الشام وحران والرها وميافارقين، وأخرج المنصور وإخوته من القاهرة إلى الرها واستناب ابنه الملك الكامل محمدا عنه، وعهد إليه بعده بالسلطنة وحلف له الأمراء فسكن قلعة الجبل واستمر أبوه فى دار الوزارة.

وفى أيامه توقفت زيادة النيل، ولم يبلغ سوى ثلاثة عشر ذراعا تنقص ثلاثة أصابع وشرقت أراضى مصر إلا الاقل، وغلت الاسعار وتعذر وجود الأقوات حتى أكلت الجيف وحتى أكل الناس بعضهم بعضا، وتبع ذلك فناء كبير، وامتد ذلك ثلاث سنين فبلغت عدة من كفنة العادل وحده من الأموات فى مدة يسيرة نحو مائتى ألف وعشرين ألف إنسان فكان بلاء شنيعاء.

وعقب ذلك تحرك الفرنج على بلاد المسلمين فى سنة تسع وتسعين. فكانت معهم عدة حروب على بلاد الشام آلت إلى أن عقد العادل معهم الهدنة. فعاودوا الحرب فى سنة ستمائة وعزموا على أخذ القدس وكثر عيثهم وفسادهم، وكانت لهم وللمسلمين شئون آلت إلى نزولهم على مدينة دمياط فى رابع ربيع الأول سنة خمس عشرة وستمائة.. والعادل يومئذ بالشام فخرج الملك الكامل لمحاربتهم. فمات العادل بمرج الصفر فى يوم الخميس سابع جمادى الآخرة منها، وحمل إلى دمشق. فكانت مدة سلطنته بديار مصر تسع عشرة سنة وشهرا واحدا وتسعة عشر يوما.

وقام من بعده ابنه «**السلطان الكامل ناصر الدين أبو المعالي محمد**» بعهد أبيه فأقام فى السلطنة عشرين سنة وخمسة وأربعين يوما، ومات بدمشق يوم الأربعاء حادى عشرى رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة.

وأقيم بعده ابنه «**السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر**» فاشتغل باللهو عن التدبير وخرجت عنه حلب، واستوحش منه الأمراء لتقريبه الشباب وسار أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب من بلاد الشرق إلى دمشق وأخذها فى أول جمادى الأولى سنة ست وثلاثين، وجرت له أمور آخرها أنه سار إلى مصر فقبض الأمراء على العادل وخلعوه يوم الجمعة ثامن ذى القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة. فكانت سلطنته سنتين وثلاثة أشهر وتسعة أيام.

وقام بعده بالسلطنة أخوه «**السلطان الملك الصالح نجم الدين أبو الفتوح أيوب**» فاستولى على قلعة الجبل فى يوم الأحد رابع عشرى ذى القعدة، وجلس على سرير الملك بها ـ وكان قد خطب له قبل قدومه ـ فضبط الأمور وقام بأعباء المملكة أتم قيام وجمع الأموال التى أتلفها أخوه.

وقبض على الأمراء ونظر فى عمارة أرض مصر، وحارب عربان الصعيد وقدم مماليكه وأقامهم أمراء، وبنى قلعة الروضة وتحول من قلعة الجبل إليها وسكنها، وملك مكة وبعث لغزو اليمن وعمر المدارس الصالحية بين القصرين من القاهرة وقرر بها دروسا أربعة للشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة.

وفى أيامه نزل الفرنج على دمياط فى ثالث عشرى صفر سنة سبع وأربعين وعليهم الملك رواد فرنس وملكوها وكان السلطان بدمشق فقدم عندما بلغه حركة الفرنج ونزل أشموم طناح وهو مريض فمات بناحية المنصورة مقابل الفرنج فى يوم الأحد رابع عشر شعبان منها وكانت مدة سلطنته بعد أخيه تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما.

فقامت أم ولده خليل - واسمها شجرة الدر - بالأمر وكتمت موته واستدعت ابنه توران شاه من حصن كيفا وسلمت إليه مقاليد الأمور.

فقام من بعده ابنه «**السلطان الملك المعظم غياث الدين توران شاه**» وقد سار من حصن كيفا فى نصف شهر رمضان فمر على دمشق وتسلطن بقلعتها فى يوم الاثنين لليلتين بقيتا منه، وركب إلى مصر فنزل الصالحية طرف الرمل لأربع عشرة بقيت من ذى القعدة.

فأعلن حينئذ بموت الصالح، ولم يكن أحد قبل ذلك يتفوه بموت السلطان بل كانت الأمور على حالها والخدمة تعمل بالدهليز والسماط يمد، وشجرة الدر تدبر أمور الدولة، وتوهم الكافة أن السلطان مريض ما لأحد عليه سبيل ولا وصول.

ثم سار المعظم من الصالحية إلى المنصورة فقدمها يوم الخميس حادى عشريه فأساء تدبير نفسه وتهدد البحرية حتى خافوه - وهم يومئذ جمرة العسكر - فتقلوه بعد سبعين يوما فى يوم الاثنين تاسع عشرى المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة، وبموته انقضت دولة بنى أيوب من ديار مصر بعدما أقامت إحدى وثمانين سنة وسبعة عشر يوما، وملك منهم ثمانية ملوك.

ذكر دولة المماليك البحرية

وهم الملوك الأتراك، وكان ابتداء أمر هذه الطائفة أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب كان قد أقره أبوه السلطان الملك الكامل محمد ببلاد الشرق وجعل ابنه العادل أبا بكر ولى عهده فى السلطنة بمصر.

فلما مات قام من بعده العادل فى السلطنة وتنكر ما بينه وبين ابن عمه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل أبى بكر بن أيوب وهو نائب دمشق. فاستدعى الصالح نجم الدين أيوب من بلاد الشرق، ورتب ابنه المعظم توران شاه على بلاد الشرق وأقره بحصن كيفا وقدم دمشق وملكها.

فكاتبه أمراء مصر تحثه على أخذها من أخيه العادل، وخامر عليه بعضهم. فسار من دمشق فى رمضان سنة ست وثلاثين فانزعج العادل انزعاجا كبيرا، وكتب إلى الناصر داود صاحب الكرك فسار اليه ليعاونه على أخيه الصالح فاتفق مسير الملك الصالح إسماعيل ابن العادل أبى بكر بن أيوب من حماة وأخذه دمشق للملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل محمد فى سابع عشرى صفر سنة سبع وثلاثين.

والملك الصالح نجم الدين أيوب يومئذ على نابلس. فانحل أمره، وفارقه من معه حتى لم يبق معه إلا مماليكه وهم نحو الثمانين وطائفة من خواصه نحو العشرين، وأما الجميع فإنهم مضوا إلى دمشق، وكان الناصر داود قد فارق العادل، وسار من القاهرة مغاضبا له إلى الكرك ومضى إلى الصالح نجم الدين أيوب، وقبضه بنابلس فى ثانى عشر ربيع الأول منها وسجنه بالكرك.

فأقام مماليك الصالح بالكرك حتى خلص من سجنه فى سابع عشرى شهر رمضان منها.

فاجتمع عليه مماليكه وقد عظمت مكانتهم عنده، وكان من أمره ما كان حتى ملك مصر فرعى لهم ثباتهم معه حين تفرق عنه الأكراد، وأكثر من شرائهم وجعلهم أمراء دولته وخاصته وبطانته والمحيطين بدهليزه إذا سافر، وأسكنهم معه فى قلعة الروضة وسماهم البحرية وكانوا دون الألف مملوك ـ قيل ثمانمائة وقيل سبعمائة وخمسون ـ كلهم أتراك.

فلما مات الملك الصالح بالمنصورة، أحس الفرنج بشئ من ذلك فركبوا من مدينة دمياط، وساروا على فارسكور، وواقعوا العسكر فى يوم الثلاثاء أول شهر رمضان سنة سبع وأربعين، ونزلوا بقرية شرمشاح ثم بالبرمون، ونزلوا تجاه المنصورة.

فكانت الحروب بين الفريقين إلى خامس ذى القعدة، فلم يشعر المسلون إلا والفرنج معهم فى المعسكر، فقتل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وانهزم الناس، ووصل رواد فرنس ملك الفرنج إلى باب قصر السلطان. فبرزت البحرية، وحملوا على الفرنج حملة منكرة حتى أزاحوهم، وولوا فأخذتهم السيوف والدبابيس، وقتل من أعيانهم ألف وخمسمائة. فظهرت البحرية من يومئذ واشتهرت.

ثم لما قدم الملك المعظم توران شاه، أخذ فى تهديد شجرة الدر ومطالبتها بمال أبيه، فكاتبت البحرية تذكرهم بما فعلته من ضبط المملكة حتى قدم المعظم، وما هى فيه من الخوف منه، فشق ذلك عليهم.

وكان قد وعد الفارس أقطاى المتوجه إليه من المنصورة لاستدعائه من حصن كيفا بإمرة، فلم يف له، فتنكر له - وهو من أكابر البحرية - وأعرض مع ذلك عن البحرية، واطرح جانب الأمراء وغيرهم حتى قتلوه.

وأجمعوا على أن يقيموا بعده فى السلطنة سرية أستاذهم «**الملكة عصمة الدين أم خليل شجرة الدر الصالحية**». فأقاموها فى السلطنة، وحلفوا لها فى عاشر صفر، ورتبوا الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى أحد البحرية مقدم العسكر. وسار عز الدين أيبك الرومى من العسكر إلى قلعة الجبل، وأنهى ذلك إلى شجرة الدر.

فقامت بتدبير المملكة، وعلمت على التواقيع بما مثاله «والدة خليل»، ونقش على السكة اسمها، ومثاله «المستعصمة الصالحية، ملكة المسلمين، والدة المنصور خليل خليفة أمير المؤمنين».

وكانت البحرية قد تسلمت مدينة دمياط من الملك روا د فرنس بعدما قرر على نفسه أربعمائة ألف دينار، وعاد العسكر من المنصورة إلى القاهرة فى تاسع صفر، وحلفوا لشجرة الدر فى ثالث عشرة. فخلعت عليهم، وأنفقت فيهم الأموال.

ولم يوافق أهل الشام على سلطنتها، وطلبوا الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب حلب، فسار إليهم بدمشق، وملكها. فانزعج العسكر بالقاهرة، وتزوج الأمير عز الدين أيبك التركماني بالملكة شجرة الدر، ونزلت له عن السلطنة. وكانت مدتها ثمانين يوما.

وملك بعدها «**السلطان الملك المعز عز الدين أيبك الجاشنكير التركماني الصالحي**» أحد المماليك الأتراك البحرية. وكان قد انتقل إلى الملك الصالح من أولاد ابن التركماني، فعرف بالتركماني، ورقاه في خدمة حتى صار من جملة الأمراء، ورتبه جاشنكير. فلما مات الصالح، وقدمته البحرية عليهم في سلطنة شجرة الدر، كتب إليهم الخليفة المستعصم من بغداد يذمهم على أقامة امرأة، ووافق مع ذلك أخذ الناصر لدمشق وحركتهم لمحاربته.

فوقع الاتفاق على اقامة أيبك في السلطنة، فأركبوه بشعار السلطنة في يوم السبت آخر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة، ولقبوه بالملك المعز، وجلس على تخت الملك بقلعة الجبل. فورد الخبر من الغد بأخذ الملك المغيث عمر بن العادل الصغير الكرك والشوبك، وأخذ الملك السعيد قلعة الصبيبة.

فاجتمع رأي الأمراء على إقامة الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر - ويقال المسعود يوسف ابن الملك المسعود يوسف، ويقال طسز، ويقال أيضا أقسيس ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب - شريكا للمعز في السلطنة. فأقاموه معه - وعمره نحو ست سنين - في خامس جمادى الأولي، وصارت المراسم تبرز عن الملكين. إلا أن الأمر والنهي للمعز، وليس للأشرف سوى مجرد الأسم.

وولى المعز الوزارة لشرف الدين أبي سعيد هبة الله بن صاعد الفائزي - وهو أول قبطي ولي وزارة مصر - وخرج المعز بالعساكر وعربان مصر لمحاربة الناصر يوسف في ثالث ذي القعدة، وخيم بمنزلة الصالحية، وترك الأشرف بقلعة الجبل، واقتتل مع الناصر في عاشره. فكانت النصرة له على الناصر، وعاد في ثاني عشره.

فنزل بالناس من البحرية بلاء لايوصف، ما بين قتل ونهب وسبي، بحيث لو ملك الفرنج بلاد مصر مازادوا في الفساد على ما فعلة البحرية. وكان كبراؤهم ثلاثة: الأمير فارس الدين أقطاي، وركن الدين بيبرس البندقداري، وبليان الرشيدي.

ثم فى محرم سنة تسع وأربعين، خرج المعز بالأشرف والعساكر، فنزل بالصالحية وأقام بها نحو سنتين، والرسل تتردد بينه وبين الناصر، وأحدث الوزير الأسعد هبة الله الفائزى مظالم لم تعهد بمصر قبله. فورد الخبر فى سنة خمسين بحركة التتر على بغداد، فقطع المعز من الخطبة اسم الأشرف، وانفرد بالسلطنة، وقبض على الأشرف وسجنه، وكان الأشرف موسى آخر ملوك بنى أيوب بمصر.

ثم إن المعز جمع الأموال، فأحدث الوزير مكوسا كثيرة سماها الحقوق السلطانية. وعاد المعز إلى قلعة الجبل فى سنة إحدى وخمسين، وأوقع بعرب الصعيد، وقبض على الشريف حصن الدين ثعلب بن ثعلب، وأذل سائر عرب الوجهين القبلى والبحري، وأفناهم قتلا وأسرا وسبيا، وزاد فى القطيعة على من بقى منهم حتى ذلوا وقلوا، ثم قتل الفارس أقطاى ففر منه معظم البحرية بيبرس وقلاوون فى عدد كثير منهم إلى الشام وغيرها.

ولم يزل إلى أن قتلته شجرة الدر فى الحمام ليلة الأربعاء رابع عشرى ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة. فكانت مدته سبع سنين تنقص ثلاثة وثلاثين يوما. وكان ظلوما غشوما، سفاكا للدماء، أفنى عوالم كثيرة بغير ذنب.

وقام من بعده ابنه «**السلطان الملك المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك**» فى يوم الخميس خامس عشرى ربيع الأول، وعمره خمس عشرة سنة. فدبر أمره نائب أبيه الأمير سيف الدين قطز، ثم خلعه فى يوم السبت رابع عشرى ذى القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة. فكانت مدته سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام.

وقام من بعده «**السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز**» فى يوم السبت، وأخرج المنصور بن المعز منفيا هو وأمه إلى بلاد الأشكري، وقبض على عدة من الأمراء.

وسار فأوقع بجمع هولاكو على عين جالوت، وهزمهم فى يوم الجمعة خامس عشرى رمضان سنة ثمان وخمسين، وقتل منهم وأسر كثيرا. . . بعدما ملكوا بغداد، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله عبد الله، وأزالوا دولة بنى العباس، وخربوا بغداد وديار بكر وحلب، ونازلوا دمشق فملكوها.

فكانت هذه الوقعة أول هزيمة عرفت للتتر منذ قاموا. ودخل المظفر قطز إلى دمشق، وعاد منها يريد مصر. فقتله الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، قريبا من المنزلة الصالحية، فى يوم السبت نصف ذى القعدة منها. فكانت مدته سنة تنقص ثلاثة عشر يوما.

وقام من بعده «**السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقداري الصالحى**» التركى الجنس، أحد المماليك البحرية، وجلس على تخت السلطنة بقلعة الجبل فى سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين، فلم يزل حتى مات بدمشق فى يوم الخميس سابع عشرى المحرم سنة ست وسبعين وستمائة. فكانت مدته سبع عشرة سنة وشهرين واثنى عشر يوما.

وقام من بعده ابنه «**السلطان الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالي محمد بركه قان**» وهو يومئذ بقلعة الجبل ينوب عن أبيه، وقد عهد إليه بالسلطنة، وزوجه بابنة الأمير سيف الدين قلاوون الألفي. فجلس على التخت فى يوم الخميس سادس عشرى صفر سنة ست وسبعين، إلى أن خلعه الأمراء فى سابع ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين. وكانت مدته سنتين وشهرين وثمانية أيام لم يحسن فيها تدبير ملكه، وأوحش ما بينه وبين الأمراء.

فأقيم بعد أخوه «**السلطان الملك العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس**» وعمرة سبع سنين وأشهر، وقام بتدبيرة الأمير قلاوون أتابك العساكر، ثم خلعه بعد مائة يوم، وبعث به إلى الكرك فسجن مع أخيه بركه بها.

وقام من بعده «**السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي العلائي الصالحى**» أحد المماليك الأتراك البحرية. كان قبجاقى الجنس من قبيلة مرج أغلي، فجلب صغيرا، واشتراه الأمير علاء الدين آق سنقر الساقى العادلى بألف دينار، وصار بعد موته إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة سبع وأربعين وستمائة، فجعله من جملة البحرية.

فتنقلت به الأحوال حتى صار أتابك العساكر فى أيام العادل سلامش، وذكر اسمه مع العادل على المنابر. ثم جلس على التخت بقلعة الجبل فى يوم الأحد العشرين من شهر رجب سنة ثمان وسبعين، وتلقب بالملك المنصور، وأبطل عدة مكوس. فثار عليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر بدمشق، وتسلطن ولقب نفسه بالملك الكامل فى يوم الجمعة رابع عشرى ذى الحجة. فبعث إليه وهزمه، واستعاد دمشق.

ثم قدمت التتر إلى بلاد حلب وعاثوا بها. فتوجه إليهم السلطان بعساكره، وأوقع بهم على حمص فى يوم الخميس رابع عشرى رجب سنة ثمانين وستمائة، وهزمهم بعد مقتلة عظيمة. وعاد إلى قلعة الجبل.

وتوجه فى سنة أربع وثمانين حتى نازل حصن المرقب ثمانية وثلاثين يوما، وأخذه عنوة من الفرنج، وعاد إلى القلعة. ثم بعث العسكر فغزا بلاد النوبة فى سنة سبع وثمانين وعاد بغنائم كثيرة.

ثم سار فى سنة ثمان وثمانين لغزو الفرنج بطرابلس، فنازلها أربعة وثلاثين يوما حتى فتحها عنوة فى رابع ربيع الآخر، وهدمها جميعها، وأنشأ قريبا منها مدينة طرابلس الموجودة الآن، وعاد إلى قلعة الجبل. وبعث لغزو النوبة ثانيا عسكرا، فقتلوا وأسروا وعادوا.

ثم خرج لغزو الفرنج بعكا وهو مريض، فمات خارج القاهرة ليلة السبت سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة. فكانت مدته إحدى عشرة سنة وشهرين وأربعة وعشرين يوما، وقام من بعده ابنه «**السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل**» فى يوم الأحد سابع ذى القعدة المذكور، وسار لفتح عكا فى ثالث ربيع الأول سنة تسعين وستمائة، ونصب عليها اثنين وتسعين منجنيقا، وقاتل من بها من الفرنج أربعة وأربعين يوما حتى فتحها عنوة فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولي، وهدمها كلها بما فيها وحرقها، وأخذ صور وحيفا وعتليت وأنطرسوس وصيدا وهدمها، وأجلى الفرنج من الساحل، فلم يبق منهم أحد، ولله الحمد، وتوجه إلى دمشق.

وعاد إلى مصر، فدخل قلعة الجبل يوم الاثنين تاسع شعبان. ثم خرج فى ثامن ربيع الآخر سنة احدى وتسعين وستمائة، بعدما نادى بالنفير للجهاد، فدخل دمشق وعرض العساكر، ومضى منها فمر على حلب، ونازل قلعة الروم، ونصب عليها عشرين منجنيقا حتى فتحها بعد ثلاثة وثلاثين يوما عنوة، وقتل من بها من النصارى الأرمن، وسبى نساءهم وأولادهم، وسماها قلعة المسلمين، فعرفت بذلك.

وعاد إلى مصر فدخل قلعة الجبل فى يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة، وسار فى رابع المحرم سنة اثنتين وتسعين حتى بلغ مدينة قوص من صعيد مصر، ونادى فيها بالتجهز لغزو اليمن وعاد.

ثم سار مخفا على الهجن فى البرية إلى الكرك، ومضى إلى دمشق، فقدمها فى تاسع جمادى الآخرة، وقصد غزو بهنسا وأخذها من الأرمن، فقدموا إليه وسلموها من تلقاء أنفسهم، وسلموا أيضا مرعش وتل حمدون.

ومضى من دمشق فى ثانى رجب، وعبر من حمص إلى سليمه، وهجم على الأمير مهنا بن عيس وقبضة وإخوته، وحملهم فى الحديد إلى قلعة الجبل، وعاد إلى دمشق.

ثم رجع إلى مصر، فقدم قلعة الجبل فى ثامن عشرى رجب، ثم توجه للصيد فبلغ الطرانة، وانفرد فى نفر يسير ليصطاد. فاقتحم عليه الأمير بيدار فى عدة معه، وقتلوه فى يوم السبت ثانى عشر المحرم سنة ثلاثة وتسعين وستمائة. فكانت مدته ثلاث سنين وشهرين وأربعة أيام. ثم حمل ودفن بمدرسة الأشرفية.

وأقيم من بعده أخوه «**السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون**»، وعمره سبع سنين، وقام الأمير زين الدين كتبغا بتدبيره، ثم خلعه بعد سنة تنقص ثلاثة أيام.

وقام من بعده «**السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى**»، أحد مماليك الملك المنصور قلاوون، وجلس على التخت بقلعة الجبل فى يوم الأربعاء حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين، وتلقب بالملك العادل.

فكانت أيامه شر أيام لما فيها من قصور مد النيل، وغلاء الأسعار، وكثرة الوباء فى الناس، وقدوم الأويراتية. فقام عليه نائبه الأمير حسام الدين لاجين، وهو عائد من دمشق بمنزلة العرجاء، فى يوم الاثنين ثامن عشرى المحرم سنة ست وتسعين، ففر إلى دمشق، واستولى لاجين على الأمر. فكانت مدته سنتين وسبعة عشر يوما. وقدم لاجين بالعسكر إلى مصر.

وقام فى السلنطة «**السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى**»، أحد مماليك المنصور قلاوون، وجلس على التخت بقلعة الجبل، وتلقب بالملك المنصور فى يوم الإثنين ثامن عشرى المحرم المذكور، واستناب مملوكه منكوتمر. فنفرت القلوب عنه، حتى قتل فى ليلة الجمعة حادى عشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وستمائة. فكانت مدته سنتين وشهرين وثلاثة عشر يوما.

ودبر الأمراء بعده أمور الدولة، حتى قدم من الكرك «**السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون**»، وأعيد إلى السلطنة مرة ثانية فى يوم الاثنين سادس جمادى الأولي، وقام بتدبير الأمور الأميران سلار نائب السلطنة، وبيبرس الجاشنكير أستادار... حتى صار كأنه يريد الحج، فمضى إلى الكرك، وانخلع من السلطنة. فكانت مدته تسع سنين وستة أشهر وثلاثة عشر يوما.

فقام من بعده «**السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير**»، أحد مماليك المنصور قلاوون، في يوم السبت ثالث عشرى ذى الحجة سنة ثمان وسبعمائة، حتى فر من قلعة الجبل فى يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان سنة تسع وسبعمائة، فكانت مدته عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما.

ثم قدم من الشام فى العساكر «**السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون**»، وأعيد إلى السلطنة مرة ثالثة فى يوم الخميس ثانى شوال منها، فاستبد بالأمر حتى مات فى ليلة الخميس حادى عشرى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة. وكانت مدته الثالثة اثنتين وثلاثين سنة وشهرين وخمسة وعشرين يوما، ودفن بالقبة المنصورية على أبيه.

وأقيم بعده ابنه «**السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو بكر**» بعهد أبيه، فى يوم الخميس حادى عشرى ذى الحجة، وقام الأمير قوصون بتدبير الدولة، ثم خلعه بعد تسعة وخمسين يوما فى يوم الأحد لعشرين من صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة.

وأقام بعده أخاه «**السلطان الملك الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد بن قلاوون**» ولم يكمل له من العمر ثمان سنين. فتنكرت قلوب الأمراء على قوصون، وحاربوه وقبضوا عليه كما ذكر فى ترجمته، وخلعوا الأشرف فى يوم الخميس أول شعبان. فكانت مدته خمسه أشهر وعشرة أيام.

وقام الأمير أيدغمش بأمر الدولة، وبعث يستدعى من بلاد الكرك «**السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون**» ـ وكان مقيما بقلعة الكرك من أيام أبيه ـ فقدم على البريد فى عشرة من أهل الكرك ليلة الخميس ثامن عشرى شهر رمضان، وعبر الدور من قلعة الجبل بمن قدم معه، واحتجب عن الأمراء، ولم يخرج لصلاة العيد، ولا حضر السماط على العادة. . . إلى أن لبس شعار السلطنة، وجلس على التخت فى يوم الإثنين عاشر شوال، وقلوب الأمراء نافرة منه لإعراضه عنهم، فساءت سيرته.

ثم خرج إلى الكرك فى يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة، واستخلف الأمير آق سنقر السلارى نائب الغيبة. فلما وصل قبة النصر نزل عن فرسه، ولبس ثياب العرب، ومضى معى خواصه أهل الكرك على البريد، وترك الأطلاب فسارت على البر حتى وافته بالكرك،

فرد العسكر إلى بلد الخليل، وأقام بقلعة الكرك، وتصرف أقبح تصرف. فخلعه الأمراء فى يوم الأربعاء حادى عشرى المحرم سنة ثلاث وأربعين. فكانت مدتة ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوما.

وأقاموا بعده أخاه «**السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل**» فى يوم الخميس ثانى عشرى المحرم المذكور، وقام الأمير أرغون زوج أمه بتدبير المملكة مع مشاركة عدة من الأمراء، وسارت الأمراء والعساكر لقتال الناصر أحمد فى الكرك حتى أخذ وقتل. فلما أحضرت رأسه إلى السلطان الصالح ورآها فزع، ولم يزل يعتاده المرض حتى مات ليلة الخميس رابع عشر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة. فكانت مدته ثلاث سنين وشهرين وأحد عشر يوما.

وقام بعده أخوه «**السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان**» بعهد أخيه، وجلس على التخت من غد. فأوحش ما بينه وبين الأمراء حتى راكبوا عليه، فركب لقتالهم فلم يثبت من معه، وعاد إلى القلعة منهزما، فتبعه الأمراء وخلعوه، وذلك فى يوم الإثنين مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة. فكانت مدته سنة وثمانية وخمسين يوما.

فأقيم بعده أخوه «**السلطان الملك المظفر زين الدين حاجى**» من يومه. . . فساءت سيرته، وانهمك فى اللعب. فركب الأمراء عليه، فركب إليهم وحاربهم، فخانه من معه، وتركوه حتى أخذ، وذبح فى يوم الأحد ثانى عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة. وكانت مدته سنة وثلاثة أشهر واثنى عشر يوما.

وأقيم من بعده أخوة «**السلطان الملك الناصر بدر الدين أبو المعالي حسن بن محمد**» فى يوم الثلاثاء رابع عشرة، وعمره إحدى عشرة سنة، فلم يكن له من الأمر شئ، والقائم بالأمر الأمير شيخو العمري. فلما أخذ فى الاستبداد بالتصرف خلع، وسجن فى يوم الإثنين ثامن عشرى جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين. فكانت مدته أربع سنين تنقص خمسة عشر يوما، منها تحت الحجر ثلاث سنين ونيف، ومدة استبداده نحو من تسعة أشهر.

وأقيم من بعده أخوه «**السلطان الملك الصالح صلاح الدين صالح**» فى يوم الإثنين المذكور، فكثر لهوه، وخرج عن الحد فى التبذل واللعب، فثار عليه الأميران شيخو وطاز، وقبضا

عليه، وسجناه بالقلعة فى يوم الإثنين ثانى شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة. فكانت مدته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام.

وأعيد «**السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن ثلاوون**» فى يوم الإثنين المذكور. فأقام حتى قام عليه مملوكه الأمير يلبغا الخاصكي، وقتله فى ليلة الأربعاء تاسع جمادى الأولى سنة اثنتين وستين. فكانت مدته هذه ست سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام.

وأقيم من بعده ابن أخيه «**السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجي ابن محمد بن قلاوون**»، وعمره أربع عشرة سنة، فى يوم الأربعاء المذكور. وقام بالأمر الأمير يلبغا، ثم خلعه وسجنه بالقلعة فى يوم الإثنين رابع عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة.

وأقام بعده «**السلطان الملك الأشرف زين الدين أبا المعالي شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون**»، وعمره عشر سنين، فى يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان المذكور، ولم يل من بنى قلاوون من أبوه لم يتسلطن سواه.

فأقام تحت حجر يلبغا حتى قتل يلبغا فى ليلة الأربعاء عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وسبعمائة. فأخذ يستبد بملكه حتى انفرد بتدبيره... إلى أن قتل فى يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، بعدما أقيم بدله ابنه فى السلطنة. فكانت مدته أربع عشرة سنة وشهرين وخمسة عشر يوما.

فقام بالأمر ابنه «**السلطان الملك المنصور علاء الدين علي بن شعبان بن حسين**» وعمره سبع سنين، فى يوم السبت ثالث ذى القعدة المذكور، وأبوه حي. فلم يكن حظه من السلطنة سوى الاسم، حتى مات فى يوم الأحد ثالث عشرى صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة. فكانت مدته خمس سنين وثلاثة أشهر وعشرين يوما.

فأقيم بعده أخوه «**السلطان الملك الصالح زين الدين حاجى**» فى يوم الإثنين رابع عشرى صفر المذكور. فقام بأمر الملك وتدبير الأمور الأمير الكبير برقوق، حتى خلعه فى يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة. فكانت مدته سنة وشهرين ينقصان أربعة أيام.

وبه انقضت دولة المماليك البحرية الأتراك وأولادهم. ومدتهم مائة وست وثلاثون سنة وسبعة أشهر وتسعة أيام: أولها يوم الخميس عاشر صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة، وآخرها يوم الثلاثاء ثامن عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة. وعدتهم أربعة وعشرون ذكرا ما بين رجل وصبي، وامرأة واحدة، وأولهم امرأة، وأخرهم صبي.

ولما أقيم الناصر حسن بعد أخيه المظفر حاجي، طلب المماليك الجراكسة، الذين قربهم المظفر، بسفارة الأمير أغرلو، فانه كان يدعى أنه كان جركسى الجنس، وجلبهم من أماكن حتى ظهروا فى الدولة، وكبرت عمائمهم وكلوتاتهم، فأخرجوا منفيين أنحس خروج، وقدموا على البلاد الشامية. والله تعالى أعلم.

ذكر دولة المماليك الجراكسة

وهم واللاض والروس أهل مدائن عامرة، وجبال ذات أشجار، ولهم أغنام وزروع، وكلهم فى مملكة صاحب مدينة سراى قاعدة خوارزم. وملوك هذه الطوائف لملك سراى كالرعية، فإن داروه وهادوه كف عنهم، والإ غزاهم وحصرهم، وكم مرة قتلت عساكره منهم خلائق، وسبت نساءهم وأولادهم، وجلبتهم رقيقا إلى الأقطار.

فأكثر المنصور قلاوون من شرائهم، وجعلهم وطائفه اللاض جميعا فى أبراج القلعة، وسماهم البرجية، فبلغت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة، وعمل منهم أوشاقية وجمقدارية وجاشنكيرية وسلاحدارية.

وأولهم «**السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق بن آنص**». أخذ من بلاد الجركس، وبيع ببلاد القرم، فجلبه خواجا فخر الدين عثمان بن مسافر إلى القاهرة، فاشتراه منه الأمير الكبير يلبغا الخاصكى وأعتقه، وجعله من جملة مماليكه الأجلاب، فعرف ببرقوق العثماني.

فلما قتل يلبغا أخرج الملك الأشرف الأجلاب من مصر. فسار منهم برقوق إلى الكرك، فأقام فى عدة منهم مسجونا بها عدة سنين، ثم أفرج عنه وعمن كان معه. فمضوا إلى دمشق، وخدموا عند الأمير منجك نائب الشام. حتى طلب الأشرف إليلبغاوية، فقدم برقوق فى جملتهم، واستقر فى خدمة ولدى السلطان على وحاجى مع من استقر من خشداشيته، فعرفوا بإليلبغاوية... إلى أن خرج السلطان إلى الحج. فثاروا بعد سفره، وسلطنوا ابنه عليا.

وحكم فى الدولة منهم الأمير قرطاى الشهابي. فثار عليه خشداشيته أينبك البدري، فأخرجه إلى الشام، وقام بعده بتدبير الدولة، وخرج إلى الشام، فثارت عليه إيلبغاوية- وفيهم برقوق، وقد صار من جملة الأمراء- فعاد قبل وصوله بلبيس، ثم قبض عليه، وقام بتدبير الدولة غير واحد فى أيام يسيرة.

فركب برقوق فى يوم الأحد ثالث عشرى ربيع الآخر سنة تسع وسبعين وسبعمائة وقت الظهيرة، فى طائفه من خشداشيته، وهجم على باب السلسلة، وقبض على الأمير يلبغا الناصرى- وهو القائم بتدبير الدولة- وملك الاصطبل، وما زال به حتى خلع الصالح حاجي.

وتسلطن فى يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة، وقت الظهر، فغير العوايد وأفنى رجال الدولة واستكثر من جلب الجراكسة.. إلى أن ثار عليه الأمير يلبغا الناصرى- وهو يومئذ نائب حلب- وسار إليه ففر من قلعة الجبل فى ليلة الثلاثاء خامس جمادى الأولى سنة احدى وتسعين وملك الناصرى القلعة، وأعاد الصالح حاجى ولقبه بالملك المنصور وقبض على برقوق وبعثه إلى الكرك فسجنه بها.

فثار الأمير منطاش على الناصرى وقبض عليه وسجنه بالإسكندرية، وخرج يريد محاربة برقوق وقد خرج من سجن الكرك وسار إلى دمشق فى عسكر- فحاربه برقوق على شقحب ظاهر دمشق، وملك ما معه من الخزائر وأخذ الخليفة والسلطان حاجى والقضاة وسار إلى مصر.

فقدمها فى يوم الثلاثاء رابع عشر صفر سنة اثنتين وتسعين واستبد بالسلطنة حتى مات ليلة الجمعة للنصف من شوال سنة إحدى وثمانمائة فكانت مدته أتابكا وسلطانا إحدى وعشرين سنة وعشرة أشهر وستة عشر يوما خلع فيها ثمانية أشهر وتسعة أيام.

وقام من بعده ابنه «**السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج**» فى يوم الجمعة المذكور وعمره نحو العشر سنين فدبر أمر الدولة الأمير الكبير أيتمش ثم ثار به الأمير يشبك وغيره ففر إلى الشام وقتل بها.

ولم تزل أيام الناصر كلها كثيرة الفتن والشرور والغلاء والوباء وطرق بلاد الشام فيها الأمير تيمور لنك، فخربها كلها وحرقها، وعمها بالقتل والنهب والأسر، حتى فقد منها جميع أنواع الحيوانات، وتمزق أهلها فى جميع أقطار الأرض، ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء فاشتد بها الغلاء على من تراجع عليها من أهلا وشنع موتهم.

واستمرت بها مع ذلك الفتن، وقصر مد النيل بمصر حتى شرقت الأراضى إلا قليلا وعظم الغلاء والفناء فباع أهل الصعيد أولادهم من الجوع، وصاروا أرقاء مملوكين وشمل الخراب الشنيع عامة أرض مصر وبلاد الشام، من حيث مصب النيل من الجنادل، إلى حيث مجرى الفرات.

وابتلى مع ذلك بكثرة فتن الأميرين نوروز الحافظى وشيخ المحمودى وخروجهما ببلاد الشام عن طاعته فتردد لمحاربتهما مرارا حتى هزماه ثم قتلاه بدمشق فى ليلة السبت سادس عشر صفر سنة خمس عشرة وثمانمائة.

فكانت مدته - منذ مات أبوه إلى أن فر فى يوم الأحد خامس عشرى ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة، واختفى وأقيم بعده أخوه عبد العزيز ولقب الملك المنصور - ست سنين وخمسة أشهر وأحد عشر يوما.

وأقام الناصر فى الاختفاء سبعين يوما، ثم ظهر فى يوم السبت خامس عشر جمادى الآخرة، واستولى على قلعة الجبل، واستبد بملكه أقبح استبداد. . إلى أن توجه لحرب نوروز وشيخ، وقاتلهما على اللجون فى يوم الإثنين ثالث عشر المحرم سنة خمس عشرة، فانهزم إلى دمشق وهما فى أثره - وقد صار الخليفة المستعين بالله فى قبضتهما ومعه مباشرو

الدولة ـ فنزل على دمشق وحصراه، ثم ألزما الخليفة لخلعه من السلطنة ، فلم يجد بدا من ذلك، وخلعه فى يوم السبت خامس عشريه، ونودى بذلك فى الناس، فكانت مدته الثانية ست سنين وعشرة أشهر سواء.

وأقيم من بعده «**الخليفة المستعين بالله أمير المؤمنين أبو الفضل العباس بن محمد العباسي**» وأصل هؤلاء الخلفاء بمصر أن أمير المؤمنين المستعصم بالله عبد الله آخر خلفاء بنى العباس لما قتله هولاكو بن تولى ابن جنكز خان فى صفر سن ست وخمسين وستمائة ببغداد وخلت الدنيا من خليفة وصار الناس بغير إمام قرشى إلى سنة تسع وخمسين.

فقدم الأمير أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبى نصر محمد ابن الخليفة الناصر العباسى من بغداد إلى مصر فى يوم الخمس تاسع رجب منها. فركب السلطان الملك الظاهر بيبرس إلى لقائه وصعد به قلعة الجبل، وقام بما يجب من حقه وبايعه بالخلافة، وبايعه الناس وتلقب بالمستنصر ثم توجه لقتال التتر ببغداد. فقتل فى محاربتهم لأيام خلت من المحرم سنة ستين وستمائة فكانت خلافته قريبا من سنة.

ثم قدم من بعده الأمير أبو العباس أحمد ابن أبى على الحسن بن أبى بكر من ذرية الخليفة الراشد بالله أبى جعفر منصور بن المسترشد فى سابع عشرى ربيع الأول.

فأنزله السلطان فى برج بقلعة الجبل، وأجرى عليه ما يحتاج إليه ثم بايعه فى يوم الخميس ثامن المحرم سنة إحدى وستين بعدما أثبت نسبه على قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، ولقبه بالحاكم بأمر الله، وبايعه الناس كافة.

ثم خطب من الغد، وصلى بالناس الجمعة فى جامع القلعة، ودعى له من يومئذ على منابر أراضى مصر كلها قبل الدعاء للسلطان، ثم خطب له على منابر الشام، واستمر الحال على الدعاء له ولمن جاء من بعده من الخلفاء.

ومازال بالبرج إلى أن منعه السلطان من الاجتماع بالناس فى المحرم سنة ثلاث وستين، فاحتجب وصار كالمسجون زيادة على سبع وعشرين سنة.. بقية أيام الظاهر بيبرس وأيام ولديه محمد بركة وسلامش وأيام قلاوون.

فلما صارت السلطنة إلى الأشرف خليل بن قلاوون، أخرجه من سجنه مكرما فى يوم الجمعة العشرين من شهر رمضان سنة تسعين وستمائة، وأمره. فصعد منبر الجامع بالقلعة، وخطب وعليه سواده، وقد تقلد سيفا محلى، ثم نزل فصلى بالناس صلاة الجمعة قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة، وخطب أيضا خطبة ثالثة فى يوم الجمعة تاسع عشرى ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وحج سنة أربع وتسعين.

ثم منع من الاجتماع بالناس فامتنع. حتى أفرج عنه المنصور لاجين، فى سنة ست وتسعين، وأسكنه بمناظر الكبش، وأنعم عليه بكسوة له ولعياله، وأجرى عليه ما يقوم به، وخطب بجامع القلعة خطبة رابعة، وصلى بالناس الجمعة، ثم حج سنة سبع وتسعين، وتوفى ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة فكانت خلافته مدة أربعين سنة ليس له فيها أمر ولا نهى إنما حظه أن يقال أمير المؤمنين.

وكان قد عهد إلى ابنه الأمير أبى عبد الله محمد المستمسك ثم من بعده لأخيه أبى الربيع سليمان المستكفى فمات المستمسك فى حياته واشتد جزعه عليه، فعهد لابنه إبراهيم بن محمد المستمسك فلما مات الحاكم أقيم من بعده ابنه المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بعهده له، فشهد وقعة شقحب مع الملك الناصر محمد بن قلاوون وعليه سواده، وقد أرخى له عذبة طويلة، وتقلد سيفا عربيا محلى.

ثم تنكر عليه، وسجنه فى برج بالقلعة نحو خمسة أشهر، وأفرج عنه وأنزله إلى داره قريبا من المشهد النفيسى بتربة شجرة الدر، فأقام نحو ستة أشهر، وأخرجه إلى قوص فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، وقطع راتبه وأجرى له بقوص ما تقوت به فمات بها فى خامس شعبان سنة أربعين.

وعهد إلى ولده فلم يمض الملك الناصر محمد عهده وبويع ابن أخيه أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المستمسك بن أحمد الحاكم بيعة خفية لم تظهر فى يوم الاثنين خامس عشرى شعبان المذكور، وأقام الخطباء أربعة أشهر لا يذكرون فى خطبهم الخليفة، ثم خطب له فى يوم الجمعة سابع ذى القعدة منها، ولقب بالواثق بالله.

فلما مات الناصر محمد وأقيم بعده ابنه المنصور أبو بكر، استدعى أبو القاسم أحمد ابن أبى الربيع سليمان وأقيم فى الخلافة ولقب بالحاكم بعدما كان يلقب بالمستنصر، وكنى بأبى العباس فى يوم السبت سلخ ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة.

فاستمر حتى مات فى يوم الجمعة رابع شعبان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

فأقيم بعده أخوه المعتضد بالله أبو بكر وكنيته أبو الفتح، ابن أبى الربيع سليمان فى يوم الخميس سابع عشره، واستقر مع ذلك فى نظر مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها، ليستعين بما يرد إلى ضريحها من نذر العامة على قيام أوده. فإن مرتب الخلفاء كان على مكس الصاغة، وحسبه أن يقوم بما لابد منه فى قوتهم، فكانوا أبدا فى عيش غير موسع. فحسنت حال المعتضد بما يبيعه من الشمع المحمول إلى المشهد النفيسى ونحوه، إلى أن توفى يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستين، وكان يلثغ بالكاف، وحج مرتين: إحداهما سنة أربع وخمسين، والثانية سنة ستين.

فأقيم بعده ابنه المتوكل على الله أبو عبد الله محمد، بعهده إليه فى يوم الخميس ثانى عشرة، وخلع عليه بين يدى السلطان الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر حاجى، وفوض إليه نظر المشهد، ونزل إلى داره فلم يزل حتى تنكر له الأمير أينبك فى أول ذى القعدة سنة ثمان وسبعين، بعد قتل الملك الأشرف شعبان بن حسين وأخرجه ليسير إلى قوص وأقام عوضه فى الخلافة ابن عمه زكريا بن إبراهيم بن محمد فى ثالث عشرى صفر سنة تسع وسبعين.

وكان قد أمر برد المتوكل من نفيه، فرد إلى منزله من يومه، فأقام به حتى رضى عنه أينبك، وأعاده فى العشرين من ربيع الأول منها إلى خلافته ثم سخط عليه الظاهر برقوق وسجنه مقيدا فى يوم الإثنين أول رجب سنة خمس وثمانين، وقد وشى به أنه يريد الثورة وأخذ الملك.

وأقيم بعده فى الخلافة الواثق بالله أبو حفص عمر بن المعتصم أبى إسحاق إبراهيم بن محمد ابن الحاكم فى يوم الإثنين المذكور.

فما زال خليفة حتى مات يوم السبت تاسع شوال سنة ثمان وثمانين فأقام الظاهر بعده فى الخلافة أخاه زكريا بن إبراهيم فى يوم الخميس ثامن عشريه، ولقب بالمستعصم، وركب بالخلعة وبين يده القضاة من القلعة إلى منزله.

فلما أشرف الظاهر برقوق على زوال ملكه، وقرب الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب بالعساكر، استدعى المتوكل على الله من محبسه، وأعاده إلى الخلافة، وخلع عليه فى يوم الأربعاء أول جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وبالغ فى تعظيمه وأنعم عليه. فلم يزل على خلافته حتى توفى ليلة الثلاثاء ثامن عشرى رجب سنة ثمان وثمانمائة، وهو أول من اتسعت أحواله من الخلفاء بمصر، وصار له إقطاعات ومال.

فأقيم فى الخلافة بعده ابنه المستعين بالله أبو الفضل العباس وخلع عليه فى يوم الإثنين رابع شعبان بالقلعة بين يدى الناصر فرج بن برقوق، ونزل إلى داره، ثم سار مع الناصر إلى الشام وحضر معه وقعة اللجون حتى انهزم فدعاه الأميران شيخ ونوروز، فمضى من موقفه إليهما ومعه مباشرو الدولة، فأنزلاه ووكلا به، وسارا به لحصار الناصر ثم ألزماه حتى خلعه من السلطنة، وأقامه شيخ فى السلطنة، وبايعه ومن معه فى يوم السبت خامس عشرى المحرم سنة خمس عشرة وثمانمائة وبعث إلى نوروز وهو بشمالى دمشق حتى بايعه فنالوا بإقامته أغراضهم من قتل الناصر وانتظام أمرهم، ثم سار به شيخ إلى مصر، وأقام نوروز بدمشق فلما قدم به أسكنه القلعة، ونزل هو بالحراقة من باب السلسلة، وقام بجميع الأمور، وترك الخليفة فى غاية الحصر حتى استبد بالسلطنة، فكانت مدة الخليفة منذ أقاموه سلطانا سبعة أشهر وخمسة أيام ونقل الخليفة إلى بعض دور القلعة، ووكل به من يحفظه وأهله.

وقام من بعده بالسلطنة «**السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي**» أحد مماليك الظاهر برقوق فى يوم الإثنين أول شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة فسجن الخليفة فى برج بالقلعة، ثم حمله إلى الإسكندرية فسجنه بها، ولم يزل سلطانا حتى مات فى يوم الإثنين ثامن المحرم سنة أربع وعشرين، فكانت مدته ثمان سنين وخمسة أشهر وستة أيام.

فأقيم بعده ابنه «**السلطان الملك المظفر شهاب الدين أبو السعادات أحمد**» وعمره سنة واحدة ونصف. فقام بأمره الأمير ططر، وفرق ما جمعه المؤيد من الأموال، وخرج بالمظفر يريد محاربة الأمراء بالشام، فظفر بهم وخلع المظفر، وكانت مدته ثمانية أشهر تنقص سبعة أيام.

وقام بعده «**السلطان الملك الظاهر أبو الفتح ططر**» أحد مماليك الظاهر برقوق، وجلس على التخت بقلعة دمشق فى يوم الجمعة تاسع عشرى شعبان سنة أربع وعشرين، وقدم إلى قلعة

الجبل، وهو موعوك البدن فى يوم الخميس رابع شوال، فثقل فى مرضه من يوم الإثنين ثانى عشريه حتى مات فى يوم الأحد رابع عشرى ذى الحجة فكانت مدته ثلاثة أشهر ويومين.

فأقيم بعده ابنه «**السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد**» وعمره نحو عشر سنين فقام بأمره الأمير برسباى الدقماقى، ثم خلعه بعد أربعة أشهر وأربعة أيام.

وقام من بعده «**السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي**» أحد مماليك الظاهر برقوق، وجلس على تخت الملك فى يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة.

هذا آخر الجزء الثالث من أصل مصنفه الإمام المقريزى رحمه الله تعالى ورضى عنه.

(ووجد على هامش بعض النسخ ما صورته):

وتوفى الأشرف برسباى ثالث عشر ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة فكانت مدته ست عشرة سنة وتسعة شهور.

ثم قام من بعده ولده «**الملك العزيز يوسف**» وسنه نحو خمس عشرة سنة، ثم خلع فى تاسع عشر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة فكانت مدته نحو ثلاثة أشهر.

وقام من بعده «**الملك الظاهر جقمق**» فى تاسع عشر ربيع المذكور، وخلع نفسه من الملك فى مرض موته.

وتولى بعده بعهده ولده «**الملك المنصور عثمان**» فى حادى عشرى المحرم سنة سبع وخمسين وثمانمائة، فكانت مدة الظاهر جقمق أربع عشرة سنة ونحو عشرة شهور ثم خلع ولده المنصور عثمان فى سابع ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة، فأقام فى الملك أحدا وأربعين يوما.

وتولى عوضه «الملك الأشرف إينال» فى ثامن ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وخلع نفسه فى مرض موته فى جمادى الأولى سنة خمس وستين وثمانمائة فكانت مدته ثمان سنين وشهرين.

وتولى ولده «**الملك المؤيد أحمد**» ثم خلع فى ثامن عشر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة فكانت مدته أربعة أشهر.

وتولى «**الملك الظاهر خشقدم**» تاسع عشر رمضان سن خمس وستين وثمانمائة، ومات عاشر شهر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين فكانت مدته نحو ست سنين ونصف.

ثم تولى «**الملك الظاهر بلباي**» فى حادى عشر الشهر المذكور، ثم خلع فى سابع جمادى الأولى من السنة المذكورة، فكانت مدته ستة وخمسين يوما.

ثم تولى «**الملك الظاهر تمربغا**» فى ثامن جمادى الأولى المذكور، ثم خلع فى العشر الأول من شهر رجب الفرد سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة وكانت مدته نحو تسعة وخمسين يوما.

وتولى «**الملك الأشرف قايتباي**» فى ثانى عشر رجب من السنة المذكورة، وتوفى فى ثانى عشرى ذى القعدة سنة إحدى وتسعمائة فكانت مدته تسعا وعشرين سنة وأربعة شهور وأياما.

وتولى بعده ولده «**الملك الناصر محمد**» فى التاريخ المذكور، ثم قتل بالجيزة فى آخر يوم الأربعاء النصف من ربيع الأول سنة أربع وتسعمائة فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وأياما.

ثم تولى خاله «**الملك الظاهر قانصوه الأشرفي قايتباي**» فى ضحوة يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول المذكور، ثم خلع فى سابع ذى الحجة سنة خمس وتسعمائة فكانت مدته نحو عشرين شهرا.

وتولى عوضه «**الملك الأشرف جان بلاط الأشرفي قايتباي**» وأتانا خبره بمنزله الجديد فى العود من المدينة الشريفة فى يوم الجمعة سادس عشرى ذى الحجة سنة خمس وتسعمائة فكانت مدته ستة شهور وأياما، ثم خلع فى يوم السبت ثامن عشر جمادى الآخرة سنة ست وتسعمائة.

وتولى «**الملك العادل طومان باي الأشرفي قايتباي**» ثم خلع سلخ رمضان من السنة المذكورة فكانت مدته نحو مائة يوم.

وتولى بعده «**الملك الأشرف قانصوه الغوري الأشرفي قايتباي**» مستهل شوال من السنة المذكورة.

انتهى. والله تعالى أعلم بالصواب.

ذكر المساجد الجامعة

اعلم أن أرض مصر لما فتحت فى سنة عشرين من الهجرة، واختط الصحابة رضى الله عنهم فسطاط مصر كما تقدم، لم يكن بالفسطاط غير مسجد واحد، وهو الجامع الذى يقال له فى مدينة مصر «الجامع العتيق» و «جامع عمرو بن العاص».

وما برح الأمر على هذا إلى أن قدم عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، من العراق فى طلب مروان بن محمد فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة فنزل عسكره فى شمالى الفسطاط، وبنوا هناك الأبنية، فسمى ذلك الموضع بالعسكر، وأقيمت هناك الجمعة فى مسجد، فصارت الجمعة تقام بمسجد عمرو بن العاص، وبجامع العسكر.

إلى أن بنى الأمير أحمد بن طولون جامعه على جبل يشكر، فى سنة تسع وخمسين ومائتين حين بنى القطائع، فتلاشى من حينئذ جامع العسكر، وصارت الجمعة تقام بجامع عمرو وبجامع ابن طولون. . إلى أن قدم جوهر القائد من بلاد القيروان بالمغرب ومعه عساكر مولاه المعز لدين الله أبى تميم معد، فبنى القاهرة، وبنى الجامع الذى يعرف بالجامع الأزهر فى سنة ستين وثلاثمائة، فكانت الجمعة تقام فى جامع عمرو، وجامع ابن طولون، والجامع الأزهر، وجامع القرافة الذى يعرف اليوم بجامع الأولياء.

ثم ان العزيز بالله أبا منصور نزار بن المعز لدين الله، بنى فى ظاهر القاهرة من جهة باب الفتوح الجامع، الذى يعرف اليوم بجامع الحاكم، فى سنة ثمانين وثلاثمائة، وأكمله ابنه الحاكم بأمر الله أبو على منصور، وبنى جامع المقس وجامع راشدة فكانت الجمعة تقام فى هذه الجوامع كلها إلى أن انقرضت دولة الخلفاء الفاطميين فى سنة سبع وستين وخمسمائة فبطلت الخطبة من الجامع الأزهر واستمرت فيما عداه.

فلما كانت الدولة التركية، حدث بالقاهرة والقرافة ومصر وما بين ذلك عدة جوامع أقيمت فيها الجمعة، وما برح الأمر يزداد حتى بلغ عدد المواضع التى تقام بها الجمعة، فيما بين مسجد تبر خارج القاهرة من بحريها إلى دير الطين قبلى مدينة مصر، زيادة على مائة موضع، وسيأتى من ذكر ذلك ما فيه كفاية إن شاء الله تعالى.

وقد بلغت عدة المساجد التى تقام بها الجمعة مائة وثلاثين مسجدا :

منها بمدينة مصر : جامع عمرو بن العاص ، والجامع الجديد ، والمدرسة المعزية ، وجامع ابن اللبان ، وجامع القراء ، وجامع تقى الثمار ، وجامع راشدة ، وجامع الفيلة ، وجامع دير الطين ، وجامع بساتين الوزير .

ومنها بالقرافة : جامع الأولياء ، وجامع الأفرم ، وخانكاه بكتمر ، وجامع ابن عبد الظاهر ، وجامع الجوانى ، وجامع الضراب ، وجامع قوصون وجامع الشافعى وجامع الديلمى وجامع محمود وجامع بقرب تربة الست .

ومنها بالروضة : جامع المقياس ، وجامع عين ، وجامع الرئيس ، وجامع الأباريقى ، وجامع المقسى .

ومنها بالحسينية خارج القاهرة : جامع أحمد الزاهد ، وجامع آل ملك ، وجامع كراى ، وجامع الكافورى بالقرب من السميساطية ، وجامع الخندق وجامع نائب الكرك وجامع سويقة الجميزة ، وجامع قيدار ، وجامع ابن شرف الدين ، وجامع الظاهر ، وجامع الحاج كمال التاجر . . تجدد هو وجامع سويقة الجميزة فى أيام الظاهر برقوق .

ومنها خارج القاهرة ما يلى النيل : جامع كوم الريش ، جامع جزيرة الفيل ، جامع أمين الدين بن تاج الدين موسى . جامع الفخر على النيل ، جامع الأسيوطى ، جامع الواسطى ، جامع ابن بدر ، جامع الخطيرى ، جامع ابن غازى ، جامع المقس ، جامع ابن التركمانى ، جامع بنت التركمانى ، جامع الطواشى ، جامع باب الرخاء ، جامع الزاهد ، جامع ميدان القمح ، جامع صاروجا ، جامع ابن زيد ، جامع بركة الرطلى ، جامع الكيمختى .

جامع باب الشعرية ، جامع ابن ميالة ، جامع ابن المغربى ، جامع العجمى بقنطرة الموسكى ، الجامع المعلق بقنطرة الموسكى أيضا ، جامع الجاكى بسويقة الريش ، جامع السروجى بسويقة الريش أيضا ، جامع البكجرى ، جامع ابن حسون بالدكة ، جامع ابن المغربى على الخليج ، جامع الطباخ بخط اللوق .

جامع الست نصيرة بخط باب اللوق ـ حيث كان الكوم فحفر ، فاذا بقبر عرف بالست نصيرة ، وعمل عليه مسجد وأقيمت به الجمعة فى أيام الظاهر برقوق ـ جامع شاكر بجوار

قنطرة قدادار عمر سنة ست وعشرين وثمانمائة ، جامع غيط القاصد خلف قنطرة قدادار ، جامع الجزيرة الوسطى .

جامع كريم الدين بخط الزربية ، جامع ابن غلاميا بخط الزربية أيضا ، الجامع الأخضر ، جامع سويقة الموفق ، جامع سلطان شاه بباب الخرق ، جامع زين الدين الخشاب خارج باب اللوق ، كان زاوية للفقراء ، فأقيمت به الجمعة بعد سنة ثمانمائة ، جامع منكلى بسويقة القيمرى .

ومنها فيما بين القاهرة ومصر : جامع بشتاك ، جامع الإسماعيلى على البركة الناصرية ، جامع الست مسكة ، جامع آق سنقر بمجرى السقائين ، جامع الشيخ محمد ابن حسن الحنفى ، جامع ست حدق بالمريس ، جامع الطيبرسى ، جامع الرحمة عمارة الصاحب أمين الدين عبد الله بن غنام ، جامع منشأة المهرانى ، جامع يونس بالسبع سقايات على البركة ، جامع بركة الأستادار بحدرة ابن قميحة ، جامع ابن طولون ، جامع المشهد النفيسى ، جامع البقلى بالقبيبات ، جامع شيخو ، جامع قانباى برأس سويقة منعم ، جامع ألماس ، جامع قوصون ، جامع الصالح ، مدرسة الناصر حسن بسوق الخيل ، جامع الجاى ، جامع الماردينى ، جامع أصلم .

ومنها بقلعة الجبل : جامع الناصرى ، جامع التوبة ، جامع الاصطبل ، الجامع المؤيدى .

ومنها خارج القاهرة بالترب وما قرب من القلعة : تربة جوشن ، وتربة الظاهر برقوق ، وتربة طشتمر حمص أخضر بالصحراء ، جامع الخضرى ، جامع التوبة ، الجامع المؤيدى .

ومنها بالقاهرة : الجامع الأزهر ، والجامع الحاكمى ، والجامع الأقمر ، ومدرسة الظاهر برقوق ، والمدرسة الصالحية والحجازية ، والمشهد الحسيني ، وجامع الفاكهانى ، والزمامية ، والصاحبية ، البوبكرية ، والجامع المؤيدى ، والأشرفية ، وجامع الدوادارى قريبا من البرقية ، وجامع التوبة بالبرقية ، مدرسة ابن البقرى والباسطية .

ذكر الجوامع

اعلم أنه لما اتصلت مبانى القاهرة المعزية بمبانى مدينة فسطاط مصر بحيث صارتا كأنهما مدينة واحدة، واتخذ أهل القاهرة وأهل مصر القرافتين لدفن أمواتهم، ذكرت ما فى هذه المواضع الأربعة من المساجد الجامعة وأضفت إليها ما فى جزيرة فسطاط مصر ـ التى يقال لها جزيرة الروضة ـ من الجوامع أيضا، فإنها متنزه أهل البلدين، وجمعت إلى ذلك ما فى ظواهر القاهرة ومصر من الجوامع مع التعريف بحال من أسسها وبالله التوفيق.

الجامع العتيق

هذا الجامع بمدينة فسطاط مصر ـ ويقال له تاج الجوامع ، وجامع عمرو بن العاص ـ وهو أول مسجد أسس بديار مصر فى الملة الإسلامية بعد الفتح.

خرج الحافظ أبو القاسم بن عساكر، من حديث معاوية بن قرة، قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: من صلى صلاة مكتوبة فى مسجد مصر من الأمصار كانت له كحجة متقبلة، فإن صلى تطوعا كانت له كعمرة مبرورة.

وعن كعب: من صلى فى مسجد مصر من الأمصار صلاة فريضة عدلت حجة متقبلة، ومن صلى تطوعا عدلت عمرة متقبلة، فإن أصيب فى وجهه ذلك حرم لحمه ودمه على النار أن تطعمه، وذنبه على من قتله.

وأول مسجد بنى فى الاسلام مسجد قباء، ثم مسجد رسول الله ﷺ.

قال هشام بن عمار: حدثنا المغيرة بن المغيرة، حدثنا يحيى بن عطاء الخراسانى عن أبية فقال: لما افتتح عمر البلدان كتب إلى أبى موسي، وهو على البصرة، يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ويتخذ للقبائل مساجد، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة. وكتب

إلى سعد بن أبى وقاص وهو على الكوفة، بمثل ذلك وكتب إلى عمرو بن العاص، وهو على مصر، بمثل ذلك. وكتب إلى أمراء أجناد الشام ألا يتبددوا إلى القرى، وأن ينزلوا المدائن وأن يتخذوا فى كل مدينة مسجدا واحدا، ولا تتخذ القبائل مساجد. فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده.

وقال أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب ابن حفص الكندى فى كتاب «أخبار مسجد أهل الراية الأعظم» وأول أمره وبنائه وزيادة الأمراء فيه وغيرهم ومجالس الحكام والفقهاء منه، وغير ذلك.

قال هبيرة بن أبيض عن شيخه تجيب: ان قيسبة بن كلثوم التجيبى، أحد بنى سوم، سار من الشام إلى مصر مع عمرو بن العاص، فدخلها فى مائة راحلة وخمسين عبدا وثلاثين فرسا.

فلما أجمع المسلمون وعمرو بن العاص على حصار الحصن نظر قيسبة بن كلثوم فرأى جنانا تقرب من الحصن، فعرج اليها فى أهله وعبيده فنزل، وضرب فيها فسطاطه، وأقام فيها طول حصارهم الحصن حتى فتحه الله عليهم.

ثم خرج قيسبة مع عمرو إلى الإسكندرية وخلف أهله فيها، ثم فتح الله عليهم الإسكندرية وعاد قيسبة إلى منزله هذا فنزله، واختط عمرو بن العاص داره مقابل تلك الجنان التى نزلها قيسبة، وتشاور المسلمون أين يكون المسجد الجامع، فرأوا أن يكون منزل قيسبة، فسأله عمرو فيه وقال: أنا أختط لك يا أبا عبد الرحمن حيث أحببت.

فقال قيسبة: لقد علمتم يا معاشر المسلمين أنى حزت هذا المنزل وملكته، وإنى اتصدق به على المسلمين. وارتحل فنزل مع قومه بنى سوم واختط فيهم.

فبنى مسجدا فى سنة إحدى وعشرين من الهجرة. وفى ذلك يقول أبو قبان بن نعيم بن بدر التجيبى:

وبابليون قد سعدنا بفتحها

وحزنا لعمر الله فيئا ومغنما

وقيسبة الخير بن كلثوم داره

أباح حماها للصلاة وسلما

فكل مصل فى فنانا صلاته

تعارف أهل المصر ما قلت فاعلما

وقال أبو مصعب قيس بن سلمة الشاعر فى قصيدته التى امتدح فيها عبد الرحمن بن قيسبة :

وأبوك سلم داره وأباحها

لجباه قوم ركع وسجود

وقال الليث بن سعد : كان مسجدنا هذا حدائق وأعنابا .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى :

ومن جملة مزارعها جامع مصر ، وقد بقى إلى الآن من جملة الأنشاب التى كانت فى البستان فى موضع الجامع شجرة زنزلخت ، وهى باقية إلى الآن خلف المحراب الكبير والحائط الذى به المنبر .

ومن العلماء من قال : إن هذه الشجرة باقية من عهد موسى عليه السلام ، وكان لها نظير شجرة أخرى فى الوراقين احترقت فى حريق مصر سنة أربع وستين وخمسمائة .

وظهر بالجامع العتيق بئر البستان التى كانت به ، وهى اليوم يستقى منها الناس الماء بموضع حلقة الفقيه ابن الجيزى المالكى .

قال الكندى : وقال يزيد بن أبى حبيب : سمعت أشياخنا ممن حضر مسجد الفتح يقولون : وقف على إقامة قبلة المسجد الجامع ثمانون رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم الزبير بن العوام ، والمقداد ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، وفضالة بن عبيد ، وعقبة بن عامر ، رضى الله عنهم .

وفى رواية : أسس مسجدنا هذا أربعة من الصحابة : أبو ذر ، وأبو بصيرة ، ومحمئة بن جزء الزبيدى ، ونبيه بن صواب .

وقال عبدالله بن أبى جعفر : أقام محرابنا هذا عبادة بن الصامت ، ورافع بن مالك ، وهما نقيبان .

وقال داود بن عقبة : إن عمرو بن العاص بعث ربيعة بن شرحبيل بن حسنة وعمرو بن علقمة القرشى - ثم العدوى - يقيمان القبلة ، وقال لهما قوماً : إذا زالت الشمس - أو قال : انتصفت الشمس - فاجعلاها على حاجبيكما . ففعلا .

وقال الليث : إن عمرو بن العاص ، كان يعد الحبال حتى أقيمت قبلة المسجد . وقال عمرو بن العاص : شرقوا القبلة تصيبوا الحرم . . قال : فشرفت جداً فلما كان قرة بن شريك تيامن بها قليلاً . وكان عمرو بن العاص إذا صلى فى مسجد الجامع يصلى ناحية الشرق إلا الشئ اليسير .

وقال رجل من تجيب : رأيت عمرو بن العاص دخل كنيسة فصلى فيها ، ولم ينصرف عن قبلتهم إلا قليلا . وكان الليث وابن لهيعة إذا صليا تيامنا . وكان عمر بن مروان - عم الخلفاء - إذا صلى فى المسجد الجامع تيامن .

وقال يزيد بن حبيب فى قوله تعالى **﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها﴾**(1) هى قبلة رسول الله ﷺ التى نصبها الله عز وجل مقابل الميزاب ، وهى قبلة أهل مصر وأهل الغرب . وكان يقرأها **﴿فلنولينك قبلة نرضاها﴾** بالنون . . وقال : هكذا أقرأناها أبو الخير .

وقال الخليل بن عبدالله الأزدى : حدثنى رجل من الأنصار أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل فقال : «ضع القبلة وأنت تنظر إلى الكعبة» ، ثم مال بيده فأماط كل جبل بينه وبين الكعبة . فوضع المسجد وهو ينظر إلى الكعبة ، وصارت قبلته إلى الميزاب .

---

(1) البقرة آية ١٤٤ م - ٢ .

وقال ابن ليعهة : سمعت أشياخنا يقولون : لم يكن لمسجد عمرو بن العاص محراب مجوف. ولا أدرى بناه مسلمة، أو بناه عبدالعزيز. وأول من جعل المحراب قرة بن شريك.

وقال الواقدى : حدثنا محمد بن هلال قال : أول من أحدث المحراب المجوف عمر بن عبدالعزيز ليالى بنى مسجد النبى ﷺ.

وذكر عمر بن شيبة أن عثمان بن مظعون تفل فى القبلة، فأصبح مكتئباً. فقالت له امرأته : ما لى أراك مكتئبا ؟

قال : لاشيء إلا أنى تفلت فى القبلة وأنا أصلي. فعمدت إلى القبلة فغسلتها، ثم عملت خلوقاً فخلقتها، فكان أول من خلّق القبلة.

وقال أبو سعيد سلف الحميري : أدركت مسجد عمرو بن العاص طوله خمسون ذراعاً فى عرض ثلاثين ذراعاً، وجعل الطريق يطيف به من كل جهة، وجعل له بابان يقابلان دار عمرو بن العاص، وجعل له بابان فى بحريه وبابان فى غربيه.

وكان الخارج إذا خرج من زقاق القناديل وجد ركن المسجد الشرقى محاذياً لركن دار عمرو ابن العاص الغربي، وذلك قبل أن أخذ من دار عمرو بن العاص ما أخذ، وكان طوله من القبلة إلى البحرى مثل طول دار عمرو بن العاص، وكان سقفه مطاطاً جداً ولا صحن له، فإذا كان الصيف جلس الناس بفنائه من كل ناحية، وبينه وبين دار عمرو سبع أذرع.

قلت : وأول من جلس على منبر أو سرير ذى أعواد ربيعة بن محاسن.

وقال القضاعى فى كتاب «الخطط» : وكان عمرو بن العاص قد أتخذ منبراً. فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعزم عليه فى كسره، ويقول : أما يحسبك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك. فكسره.

قال مؤلفه رحمه الله : وفى سنة إحدى وستين ومائة، أمر المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور بتقصير المنابر، وجعلها بقدر منبر النبى ﷺ.

قال القضاعى : وأول من صلى عليه من الموتي، داخل الجامع، أبو الحسن سعيد بن عثمان، صاحب الشرط، فى النصف من صفر. وكانت وفاته فجأة، فأخرج ضحوة يوم

الأحد السادس عشر من صفر، وصلى عليه خلف المقصورة، وكبر عليه خمسا. ولم يعلم أحد قبله صلى عليه فى الجامع.

وذكر عمر بن شيبه فى «تاريخ المدينة» أن أول من عمل مقصورة بلبن عثمان بن عفان وكانت فيها كوى تنظر الناس منها إلى الإمام، وأن عمر بن عبدالعزيز عملها بالساج.

قال القضاعى: ولم تكن الجمعة فى زمن عمرو بن العاص بشئ من أرض مصر إلا فى هذا الجامع.. قال أبو سعيد عبدالرحمن بن يونس: جاء نفر من حافق إلى عمرو بن العاص، فقالوا: إنا نكون فى الريف. أفنجمع فى العيدين الفطر والأضحي، ويؤمنا رجل منا؟.

قال: نعم.

قالوا: فالجمعة؟

قال لا، ولا يصلى الجمعة بالناس إلا من أقام الحدود، وآخذ بالذنوب، وأعطى الحقوق.

وأول من زاد فى هذا الجامع مسلمة بن مخلد الأنصارى سنة ثلاث وخمسين، وهو يومئذ أمير مصر من قبل معاوية.

قال الكندى فى «كتاب أخبار مسجد أهل الراية»: ولما ضاق المسجد بأهله، شكى ذلك إلى مسلمة بن مخلد ـ وهو الأمير يومئذ ـ فكتب فيه إلى معاوية بن أبى سفيان، فكتب إليه يأمره بالزيادة فيه.

فزاد فيه من شرقيه مما يلى دار عمرو بن العاص، وزاد فيه من بحريه، ولم يحدث فيه حدثاً من القبلى ولا من الغربي، وذلك فى سنة ثلاث وخمسين، وجعل له رحبه فى البحرى منه كان الناس يصيفون فيها، ولاطه بالنورة، وزخرف جدرانه وسقوفه ـ ولم يكن المسجد الذى لعمرو جعل فيه نورة ولا زخرف ـ وأمر بابتناء منار المسجد الذى فى الفسطاط، وأمر أن يؤذنوا فى وقت واحد، وأمر مؤذنى الجامع أن يؤذنوا للفجر إذا مضى نصف الليل، فإذا فرغوا من آذانهم أذن كل مؤذن فى الفسطاط فى وقت واحد... قال ابن لهيعة: فكان لآذانهم دوى شديد.

فقال عابد بن هشام الأزدى - ثم السلامانى - لمسلمة بن مخلد :

لقد مـدت لمسلمة الليالي
على رغم العداة مع الأمان
وساعده الزمان بكل سعد
وبلغــه البعيد من الأماني
أمسلم فارتقى لازلت تعلو
على الأيام مسلم والزمان
لقد أحكمت مسجدناً فأضحي
كأحسن ما يكون من المباني
فتاه به البلاد وســـاكنوها
كما تاهت بزينتها الغواني
وكم لك من مناقب صالحات
وأجدل بالصوامع للآذان
كأن تجاوب الأصوات فيها
إذا ما لليل ألقى بالجران
كصوت الرعد خالطه دوي
وأرعب كل مختطف الجنان

وقيل أن معاوية أمره ببناء الصوامع للآذان . .

قال : وجعل مسلمة للمسجد الجامع أربع صوامع فى أركانه الأربع ، وهو أول من جعلها فيه ، ولم تكن قبل ذلك . . . قال : وهو أول من جعل فيه الحصر ، وإنما كان قبل ذلك مفروشاً بالحصباء ، وأمر ألا يضرب بناقوس عند الأذان (يعنى الفجر) . وكان السلم الذى يصعد منه المؤذنون فى الطريق . . . حتى كان خالد بن سعيد ، فحوله داخل المسجد .

قال القاضى القضاعى : ثم إن عبدالعزيز بن مروان هدمه فى سنة تسع وسبعين الهجرة ـ وهو يومئذ أمير مصر من قبل أخيه أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان ـ وزاد فيه من ناحية الغرب، وأدخل فيه الرحبة التى كانت فى بحريه، ولم يجد فى شرقيه موضعاً يوسعه به.

وذكر أبو عمر الكندى فى كتاب «الأمراء» أنه زاد فيه من جوانبه كلها.

ويقال إن عبدالعزيز بن مروان لما أكمل بناء المسجد، خرج من دار الذهب عند طلوع الفجر، فدخل المسجد فرأى فى أهله خفه، فأمر بأخذ الأبواب على من فيه، ثم دعا بهم رجلاً رجلاً، فيقول للرجل: ألك زوجة؟ فيقول: لا، فيقول: زوجوه.. ألك خادم؟ فيقول: لا، فيقول: أخدموه.. أحججت؟ فيقول: لا، فيقول: أحجوه... أعليك دين؟ فيقول: نعم، فيقول: أقضوا دينه. فأقام المسجد بعد ذلك دهراً عامراً، ولم يزل إلى اليوم.

وذكر أن عبدالله بن عبدالملك بن مروان ـ فى ولايته على مصر من قبل أخيه الوليد ـ أمر برفع سقف المسجد الجامع ـ وكان مطاطأ ـ وذلك فى سنة تسع وثمانين. ثم أن قره بن شريك العبسى هدمه مستهل سنة اثنتين وتسعين بأمر الوليد بن عبدالملك ـ وهو يومئذ أمير مصر من قبله ـ وابتدأ فى بنيانه فى شعبان من السنة المذكورة، وجعل على بنائه يحيي بن حنظلة مولى بنى عمار بن لؤي، وكانوا يجمعون الجمعة فى قيسارية العسل حتى فرغ من بنائه، وذلك فى شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين، ونصب المنبر الجديد فى سنة أربع وتسعين، ونزع المنبر الذى كان فى المسجد.

وذكر أن عمرو بن العاص كان جعله فيه، فلعله بعد وفاة عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وقيل هو منبر عبدالعزيز بن مروان، وذكر أنه حمل إليه من بعض كنائس مصر. وقيل إن زكريا بن برقنى ملك النوبة أهداه إلى عبدالله أبن سعد بن أبى سرح، وبعث معه نجاره حتى ركبه... واسم هذا النجار بقطر من أهل دندرة. ولم يزل هذا المنبر فى المسجد حتى زاد قرة بن شريك فى الجامع، فنصب منبرا سواه على ما تقدم شرحه.

ولم يكن يخطب فى القرى إلا على العصا. إلى أن ولى عبدالملك بن موسى بن نصير اللخمى مصر، من قبل مروان بن محمد، فأمر باتخاذ المنابر فى القري، وذلك فى سنة

اثنتين وثلاثين ومائة. وذكر أنه لايعرف منبرا أقدم منه (يعنى من منبر قرة بن شريك) بعد منبر رسول الله ﷺ.

فلم يزل كذلك إلى أن قلع وكسر فى أيام العزيز بالله، بنظر الوزير يعقوب بن كلس، فى يوم الخميس لعشر بقين من شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، وجعل مكانه منبر مذهب. ثم أخرج هذا المنبر إلى الإسكندرية، وجعل فى جامع عمرو بها، وأنزل إلى الجامع المنبر الكبير الذى هو به الآن، وذلك فى أيام الحاكم بأمر الله فى شهر ربيع الأول سنة خمس وأربعمائة.

وصرف بنو عبدالسميع عن الخطابة، وجعلت خطابة الجامع العتيق لجعفر بن الحسن بن خداع الحسيني، وجعل إلى أخيه الخطابة بالجامع الأزهر. وصرف بنو عبدالسميع بن عمر بن الحسين بن عبدالعزيز ابن عبدالله بن عبيدالله بن العباس من جميع المنابر، بعد أن أقاموا هم وسلفهم فيها ستين سنة.

وفى شهر ربيع الأول من هذه السنة، وجد المنبر الجديد الذى نصب فى الجامع قد لطخ بعذرة، فوكل به من يحفظه، وعمل له غشاء من أدم مذهب فى شعبان من هذه السنة، وخطب عليه ابن خداع وهو مغشي.

وزاده قره من القبلى والشرقي، وأخذ بعض دار عمرو وابنه عبدالله بن عمرو فأدخله فى المسجد، وأخذ منهما الطريق الذى بين المسجد وبينهما، وعوض ولد عمرو ما هو فى أيديهم اليوم من الرباع، وأمر قره بعمل المحراب المجوف على ما تقدم شرحه. وهو المحراب المعروف بعمرو، لأنه فى سمت محراب المسجد القديم الذى بناه عمرو.

وكانت قبلة المسجد القديم عند العمد المذهبة فى صف التوابيت اليوم، وهى أربعة عمد اثنان فى مقابلة اثنين، وكان قرة أذهب رؤوسها، وكانت مجالس قيس، ولم يكن فى المسجد عمد مذهبة غيرها، وكانت قديماً حلقة أهل المدينة، ثم زوق أكثر العمد وطوق فى أيام الإخشيد سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

ولم يكن للجامع أيام قرة بن شريك غير هذا المحراب. فأما المحراب الأوسط الموجود اليوم، فعرف بمحراب عمر بن مروان عم الخلفاء، وهو أخو عبدالملك وعبدالعزيز، ولعله أحدثه فى الجدار بعد قره. وقد ذكر قوم أن قرة عمل هذين المحرابين.

وصـار للجـامع أربعـة أبواب، وهى الأبواب الموجـودة فى شـرقيـه الآن، آخـرها باب إسـرائيل وهو باب النحاسين. وفى غربيه أربعة أبواب شارعه فى زقـاق كان يعرف بزقـاق البلاط، وفى بحريه ثلاثة أبواب.

وبيت المال الذى فى علو الفـوارة بالجـامع بناه أسـامـة بن زيد التنوخي، متـولى الخراج بمصر، سنة سبع وتسعين فى أيام سليمـان بن عبـدالملك، وأميـر مصر يومئذ عبـدالملك بن رفاعة الفهمي، وكان مال المسلمين فيه.

وطرق المسـجـد فى ليلة سنة خمـس وأربعـين ومـائة فى ولاية يزيد بن حاتم المهلبى من قبل المنصور.. طرقه قوم ممن كان بايع على بن محـمـد بن عبدالله بن حسن بن حسن بن على أبن أبى طالب رضى الله عنه ـ وكـان أول علوى قـدم مـصـر ـ فنهـبـوا بيت المـال، ثم تضـاربوا عليـه بسيـوفهم، فلم يصل إليـهم منه إلا اليسيـر، فأنفـذ إليـهم يزيد من قتل منهم جماعة، وانهزموا.

وذكر أن هذا المكان تسور عليه لص فى إمارة أحمد بن طولون، وسرق منه بدرتى دنانير. فظفر به أحمد بن طولون، وأصطنعه وعفا عنه.

وفى سنة ثمـان وسـبعين وثلاثمـائة، أمـر العزيز بالله بعـمـل الفـوارة تحت قبة بيت المال، فعملت وفرغ منها فى شهر رجب سنة تسع وسبعين وثلاثمائة.

ثم زاد فيه صالح بن على بن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما ـ وهو يومئذ أمير مصر من قـبل أبى العـبـاس السـفـاح ـ فى مـؤخـره أربع أسـاطين، وذلك فى سنة ثلاث وثلاثين ومـائة، وهو أول من ولى مـصـر لبنى العـبـاس، فـيـقـال إنه أدخل فى الجـامع دار الزبيـر ابن العـوام، رضى الله عنه، وكانت غربى دار النحاس.

وكـان الزبيـر تخلى عنهـا، ووهبهـا لمواليه لخصومة جرت بين غلمانه وغلمـان عـمرو بن العـاص، واختط الزبير فيما يلى الدار المعروفة به الآن. ثم أشترى عبدالعزيز بن مروان دار الزبير من مواليه، فقسمها بين ابنه الأصبغ وأبى بكر.

فلمـا قدم صالح بن علي، أخذها عن أم عـاصم بنت عـاصم بن أبى بكر، وعن طفل يتيم وهو حـسـان بن الأصـبغ، فـأدخلهـا فى المسجـد. وباب الكحل من هذه الزيادة ـ وهو البـاب

الخامس من أبواب الجامع الشرقية الآن - وعمر صالح بن على أيضاً مقدم المسجد الجامع عند الباب الأول موضع البلاطة الحمراء .

ثم زاد فيه موسى بن عيسى الهاشمي - وهو يومئذ أمير مصر من قبل الرشيد - في شعبان سنة خمس وسبعين ومائة الرحبة التى فى مؤخره ، وهى نصف الرحبة المعروفة بأبى أيوب . ولما ضاق الطريق بهذه الزيادة أخذ موسى بن عيسى دار الربيع بن سليمان الزهري ، شركة بنى مسكين ، بغير عوض للربيع ، ووسع بها الطريق ، وعوض بنى مسكين .

ووصل عبدالله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ، مولى خزاعة ، أميرا من قبل المأمون ، فى شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة ومائتين ، وتوجه إلى الإسكندرية مستهل صفر سنة اثنتى عشرة ومائتين ، ورجع إلى الفسطاط فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وأمر بالزيادة فى المسجد الجامع ، فزيد فيه مثله من غربيه . وعاد ابن طاهر إلى بغداد لخمس بقين من رجب من السنة المذكورة .

وكانت زيادة ابن طاهر المحراب الكبير وما فى غربيه إلى حد زيادة الخازن . فأدخل فيه الزقاق المعروف أولاً بزقاق البلاط ، وقطعة كبيرة من دار الرمل ، ورحبة كانت بين يدى دار الرمل ، ودورا ذكرها القضاعي .

وذكر بعضهم أن موضع فسطاط عمرو بن العاص حيث المحراب والمنبر . . . قال : وكان الذى تمم زيادة عبدالله بن طاهر ، بعد مسيره إلى بغداد ، عيسى بن يزيد الجلودي . وتكامل ذرع الجامع ، سوى الزيادتين ، مائة وتسعين ذراعاً بذراع العمل طولاً ، فى مائة وخمسين ذراعاً عرضاً . . ويقال إن ذرع جامع ابن طولون مثل ذلك ، سوى الرواق المحيط بجوانبه الثلاثة .

ونصب عبدالله بن طاهر اللوح الأخضر ، فلما احترق الجامع احترق ذلك اللوح . فجعل أحمد بن محمد العجيفى هذا اللوح مكان ذلك ، وهو هذا اللوح الأخضر الباقى إلى إليوم . ورحبه الحارث هى الرحبة البحرية من زيادة الخازن ، وكانت رحبة يتبايع الناس فيها يوم الجمعة .

وذكر أبو عمر الكندى فى كتاب «الموالي» أن أبا عمرو الحارث بن مسكين بن محمد ابن يوسف - مولى محمد بن ريان بن عبدالعزيز بن مروان - لما ولى القضاء من قبل المتوكل على الله فى سنة سبع وثلاثين ومائتين أمر ببناء هذه الرحبة ليتسع الناس بها، وحول سلم المؤذنين إلى غربى المسجد وكان عند باب إسرائيل، وبلط زيادة ابن طاهر، وأصلح بنيان السقف، وبنى سقاية فى الحذائين، وأمر ببناء الرحبة الملاصقة لدار الضرب ليتسع الناس بها.

وزيادة أبى أيوب أحمد بن محمد بن شجاع ابن أخت أبى الوزير أحمد بن خالد صاحب الخراج فى أيام المعتصم. كان أبو أيوب هذا احد عمال الخراج زمن أحمد بن طولون، وزيادته فى بقية الرحبة المعروفة برحبة أبى أيوب، والمحراب المنسوب إلى أبى أيوب هو الغربى من هذه الزيادة عند شباك الحذائين، وكان بناؤها فى سنة ثمان وخمسين ومائتين. ويقال إن أبا أيوب مات فى سجن أحمد بن طولون بعد أن نكبه وأصطفى أمواله، وذلك فى سنة ست وستين ومائتين. وأدخل أبو أيوب فى هذه الزيادة أماكن ذكرها.

قال: وكان قد وقع فى مؤخر المسجد الجامع حريق، فعمر وزيدت هذه الزيادة فى أيام أحمد بن طولون. ووقع فى الجامع، فى ليلة الجمعة لتسع خلون من صفر سنة خمس وسبعين ومائيين، حريق أخذ من بعد ثلاث حنايا من باب إسرائيل إلى رحبة الحارث بن مسكين، فهلك فيه أكثر زيادة عبدالله بن طاهر، والرواق الذى عليه اللوح الأخضر.

فأمر خمارويه بن أحمد بن طولون بعمارته، على يد أحمد بن محمد العجيفي، فأعيد على ما كان عليه، وأنفق فيه ستة آلاف وأربعمائة دينار، وكتب اسم خمارويه فى دائر الرواق الذى عليه اللوح الأخضر، وهى موجودة الآن، وكانت عمارته فى السنة المذكورة.

وأمر عيسى النوشزي، فى ولايته الثانية على مصر فى سنة أربع وتسعين ومائتين، بإغلاق المسجد الجامع فيما بين الصلوات. فكان يفتح للصلاة فقط، وأقام على ذلك أياماً، فضج أهل المسجد ففتح لهم.

وزاد أبو حفص العباسي، فى أيام نظره فى قضاء مصر خلافه لأخيه محمد، الغرفة التى يؤذن فيها المؤذنون فى السطح. وكانت ولايته فى رجب من سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، وكان إمام مصر والحرمين، وإلية إقامة الحج. ولم يزل قاضياً بمصر خلافه لأخيه، إلى أن

صرف من القضاء بالخصيبى فى ذى الحجة سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، وتوفى فى سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة بعد قدومه من الحج.

ثم زاد فيه أبو بكر محمد بن عبدالله الخازن رواقاً واحداً من دار الضرب - وهو الرواق ذو المحراب والشباكين، المتصل برحبه الحارث، ومقداره تسع أذرع - وكان ابتداء ذلك فى رجب سنة سبع وخمسين وثلاثمائة. ومات قبل تمام هذه الزيادة، وتممها ابنه على بن محمد، وفرغت فى العشر الأخر من شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.

وزاد فيه الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس، بأمر العزيز بالله، الفواره التى تحت قبة بيت المال - وهو أول من عمل فيه فوارة - وزاد فيه أيضاً مساقف الخشب المحيطة بها، على يد المعروف بالمقدسى الأطروش متولى مسجد بيت المقدس، وذلك فى سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة، ونصب فيها حباب الرخام التى للماء.

وفى سنة سبع وثمانين وثلاثمائة جدد بياض المسجد الجامع، وقلع شئ كثير من الفسيفساء الذى كان فى أروقته، وبيض مواضعه، ونقشت خمسة ألواح وذهبت، ونصبت على أبوابه الخمسة الشرقية، وهى التى عليها الآن. وكان ذلك على يد برجوان الخادم، وكان اسمه ثابتاً فى الألواح، فقلع بعد قتله.

وقال المسبحى فى تاريخه : وفى سنة ثلاث وأربعمائة أنزل من القصر إلى الجامع العتيق بألف ومائتين وثمانية وتسعين مصحفاً ما بين ختمات وربعات، فيها ما هو مكتوب كله بالذهب، ومكن الناس من القراءة فيها - وأنزل إليه أيضاً بتور من فضة، عمله الحاكم بأمر الله برسم الجامع، فيه مائة ألف درهم فضة. فاجتمع الناس، وعلق بالجامع بعد أن قلعت عتبتا الباب حتى أدخل به. وكان من اجتماع الناس لذلك ما يتجاوز الوصف.

قال القضاعي : وأمر الحاكم بأمر الله بعمل الرواقين اللذين فى صحن المسجد الجامع، وقلع عمد الخشب وجسر الخشب التى كانت هناك، وذلك فى شعبان سنة ست وأربعمائة.

وكانت العمد والجسر قد نصبها أبو أيوب أحمد بن محمد بن شجاع، فى سنة سبع وخمسين ومائتين، زمن أحمد بن طولون.

لأن الحر اشتد على الناس فشكوا ذلك إلى ابن طولون، فأمر بنصف عمد الخشب، وجعل عليها الستائر فى السنة المذكورة.

وكان الحاكم قد أمر بأن تدهن هذه العمد الخشب بدهن أحمر وأخضر فلم يثبت عليها، ثم أمر بقلعها، وجعلها بين الرواقين.

وأول ما عملت المقاصير فى الجوامع فى أيام معاوية بن أبى سفيان سنة أربع وأربعين. ولعل قرة بن شريك لما بنى الجامع بمصر عمل المقصورة.

وفى سنة إحدى وستين ومائة، أمر المهدى بنزع المقاصير من مساجد الأمصار وبتقصير المنابر، فجعلت على مقدار منبر رسول الله ﷺ، ثم أعيدت بعد ذلك.

ولما ولى مصر موسى بن أبى العباس من أهل الشاش من قبل أبى جعفر أشناس، أمر المعتصم أن يخرج المؤذنون إلى خارج المقصورة - وهو أول من أخرجهم - وكانوا قبل ذلك يؤذنون داخلها.

ثم أمر الإمام المستنصر بالله بن الظاهر بعمل الحجر المقابل للمحراب، وبالزيادة فى المقصورة من شرقيها وغربيها حتى اتصلت بالحذائين من جانبيها، وبعمل منطقة فضة فى صدر المحراب الكبير أثبت عليها اسم أمير المؤمنين، وجعل لعمودى المحراب أطواق فضة. وجرى ذلك على يد عبدالله بن محمد ابن عبدون فى شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة.

قال مؤلفه رحمه الله: ولم تزل هذه المنطقة الفضة إلى أن استبد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر - بعد موت الخليفة العاضد لدين الله - فى محرم سنة سبع وستين وخمسمائة. فقلع مناطق الفضة من الجوامع بالقاهرة ومن جامع عمرو بن العاص بمصر، وذلك فى حادى عشر شهر ربيع الأول من السنة المذكورة.

قال القضاعى: وفى شهر رمضان من سنة أربعين وأربعمائة، جددت الخزانة التى فى ظهر دار الضرب فى طريق الشرطة مقابلة لظهر المحراب الكبير. وفى شعبان من سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، أذهب بقية الجدار القبلى حتى اتصل الإذهاب من جدار زيادة الخازن إلى المنبر، وجرى ذلك على يد القاضى أبى عبدالله أحمد بن محمد بن يحيي بن أبى زكريا.

وفى شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة، عملت لموقف الإمام فى زمن الصيف مقصورة خشب، ومحراب ساج منقوش بعمودى صندل. وتقلع هذه المقصورة فى الشتاء إذا صلى الأمام فى المقصورة الكبيرة.

وفى شعبان سنة أربع وأربعين وأربعمائة، زيد فى الخزانة مجلس من دار الضرب وطريق المستحم، وزخرف هذا المجلس وحسن، وجعل فيه محراب، ورخم بالرخام الذى قلع من المحراب الكبير حين نصب عبدالله بن محمد بن عبدون منطقة الفضة فى صدر المحراب الكبير. وجرت هذه الزيادة على يد القاضى أبى عبدالله أحمد بن محمد بن يحيي.

وفى ذى الحجة من سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة، عمر القاضى أبو عبدالله أحمد بن محمد بن أبى زكريا غرفة المؤذنين بالسطح وحسنها، وجعل لها روشنا على صحن الجامع وجعل بعدها ممرقاً ينزل منه إلى بيت المال، وجعل للسطح مطلعاً من الخزانة المستجدة فى ظهر المحراب الكبير، وجعل له مطلعا آخر من الديوان الذى فى رحبة أبى أيوب.

وفى شعبان من سنة خمس وأربعين وأربعمائة، بنيت المئذنة التى فيما بين مئذنة عرفه والمئذنة الكبيرة، على يد القاضى أبى عبدالله أحمد بن أبى زكريا. انتهى ما ذكره القضاعي.

وفى سنة أربع وستين وخمسمائة، تمكن الفرنج من ديار مصر، وحكموا فى القاهرة حكماً جائراً، وركبوا المسلمين بالأذى العظيم، وتيقنوا أنه لاحامى للبلاد من أجل ضعف الدولة، وانكشف لهم عورات الناس. فجمع مرى ملك الفرنج بالساحل جموعه، واستجد قوماً قوى بهم عساكره، وسار إلى القاهرة من بلبيس بعد أن أخذها، وقتل كثيراً من أهلها.

فأمر شاور بن مجير السعدى ـ وهو يومئذ مستول على ديار مصر فى وزارة للعاضد ـ بإحراق مدينة مصر. فخرج إليها فى اليوم التاسع من صفر من السنة المذكورة عشرون ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل مضرمة بالنيران، وفرقت فيها. ونزل مرى بجموع الفرنج على بركة الحبش، فلما رأى دخان الحريق تحول من بركة الحبش، ونزل على القاهرة مما يلى باب البرقية، وقاتل أهل القاهرة وقد انحشر الناس فيها.

واستمرت النار فى مصر أربعة وخمسين يوماً، والنهاية تهدم ما بها من المباني، وتحفز لأخذ الخبايا . . إلى أن بلغ مرى قدوم أسد الدين شيركوه بعسكر من جهة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام، فرحل فى سابع شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، وتراجع المصريون شيئاً بعد شئ إلى مصر، وتشعث الجامع .

فلما استبد السلطان صلاح الدين بمملكة مصر، بعد موت العاضد، جدد الجامع العتيق بمصر فى سنة ثمان وستين وخمسمائة، وأعاد صدر الجامع والمحراب الكبير، ورخمه ورسم عليه اسمه، وجعل فى سقاية قاعة الخطابة قصبة إلى السطح يرتفق بها أهل السطح، وعمر المنظرة التى تحت المئذنة الكبيرة وجعل لها سقاية، وعمر فى كتف دار عمرو الصغرى البحرى مما يلى الغربى قصبة أخرى إلى محاذاة السطح، وجعل لها ممشاة من السطح إليها يرتفق بها أهل السطح، وعمر غرفة الساعات وحررت .

فلم تزل مستمرةإلى أثناه أيام الملك المعز عز الدين أيبك التركماني، أول من ملك من المماليك، وجدد بياض الجامع، وأزال شعثه، وجلى عمده، وأصلح رخامه حتى صار جميعه مفروشاً بالرخام، وليس فى سائر أرضه شئ بغير رخام حتى تحت الحصر .

ولما تقلد قاضى القضاة تاج الدين عبدالوهاب بن الأعز أبى القاسم خلف بن رشيد الدين محمود بن بدر، المعروف بأبن بنت الأعز العلائى الشافعي، قضاء القضاة بالديار المصرية، ونظر الأحباس فى ولايته الثانية أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، كشف الجامع بنفسه، فوجد مؤخره قد مال إلى بحريه، ووجد سوره البحرى قد مال، وانقلب علوه عن سمت سفله، ورأى فى سطح الجامع غرفاً كثيرة محدثة، وبعضها مزخرف .

فهدم الجميع، ولم يدع بالسطح سوى غرفة المؤذنين القديمة وثلاث خزائن لرؤساء المؤذنين لاغير . وجمع أرباب الخبرة، فاتفق الرأى على أبطال جريان الماء إلى فوارة الفسقية -وكان الماء يصل إليها من بحر النيل- فأمر بإبطاله لما كان فيه من الضرر على جدر الجامع، وعمر بغلات بالزيادة البحرية تشد جدار الجامع البحري، وزاد فى عمد الزيادة ما قوى به البغلات المذكورة، وسد شباكين كانا فى الجدار المذكور ليتقوى بذلك، وأنفق المصروف على ذلك من مال الأحباس .

وخشى أن يتداعى الجامع كله إلى السقوط، فحدث الصاحب الوزير بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن حنا فى مفاوضة السلطان فى عمارة ذلك من بيت المال. فاجتمعا معا بالسطان الملك الظاهر بيبرس، وسألاه فى ذلك. فرسم بعمارة الجامع.

فهدم الجدار البحرى من مقدم الجامع - وهو الجدار الذى فيه اللوح الأخضر - وحط اللوح، وأزيلت العمد والقواصر العشر، وعمر الجدار المذكور، وأعيدت العمد والقواصر كما كانت، وزيد فى العمد أربعة قرن بها أربعة مما هو تحت اللوح الأخضر والصف الثانى منه، وفصل اللوح الأخضر أجزاء، وجدد غيره وأذهب، وكتب عليه اسم السلطان الملك الظاهر، وجليت العمد كلها، وبيض الجامع بأسره - وذلك فى شهر رجب سنة ست وستين وستمائة - وصلى فيه شهر رمضان بعد فراغه، ولم تتعطل الصلاة فيه لأجل العمارة.

ولما كان فى شهور سنة سبع وثمانين وستمائة، شكا قاضى القضاة تقى الدين أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالوهاب بن بنت الأعز، للسلطان الملك المنصور قلاوون، سوء حال جامع عمرو بمصر، وسوء حال الجامع الأزهر بالقاهرة، وأن الأحباس على أسوأ الأحوال.

وأن مجد الدين بن الحباب أخرب هذه الجهة لما كان يتحدث فيها، وتقرب بجزيرة الفيل - الوقف الصلاحى على مدرسة الشافعية - إلى الأمير علم الدين الشجاعي، وذكر له بأن فى أطيانها زيادة، فقاسوا ما تجدد بها من الرمال وجعلوه للوقف، وأقطعوا الأطيان القديمة الجارية فى الوقف. وتقرب أيضاً إليه بأن فى الأحباس زيادة، من جملتها بالأعمال الغربية ما مبلغه فى السنة ثلاثون ألف درهم، وأن ذلك لجهة عمارة الجامعين. وسأل السلطان فى إعادة ذلك، وإبطال ما أقطع منه.

فلم يجب إلى ذلك، وأمر الأمير حسام الدين طرنطاى بعمارة الجامع الأزهر، والأمير عزالدين الأفرم بعمارة جامع عمرو. فحضر الأفرم إلى الجامع بمصر، ورسم على مباشرى الأحباس، وكشف المساجد لغرض كان فى نفسه، وبيض الجامع، وجرد نصف العمد التى فيه، فصار العمود نصفه الأسفل أبيض وباقيه بحاله، ودهن واجهة غرفة الساعات بالسيلقون، وأجرى الماء من البئر التى بزقاق الأقفال إلى فسقية الجامع، ورمى ما كان بالزيادات من الأتربة.

وبطر العوام به فيما فعله بالجامع، فصاروا يقولون : «نقل الديماس من البحر إلى الجامع» لكونه دهن الغرفة بالسيلقون، «وألبس العواميد للشيخ العريان» لكونه جرد نصفها التحتاني، فصار أبيض الأسفل أسمر الأعلي، كما كان الشيخ العريان، فان نصفه الأسفل كان مستوراً بمئزر أبيض أعلاه عريان، ولم يفعل بالجامع سوى ما ذكر.

ولما حدثت الزلزلة فى سنة اثنتين وسبعمائة تشعث الجامع. فاتفق الأميران بيبرس الجاشنكير وهو يومئذ أستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون، والأمير سلار وهو نائب السلطنة ـ وإليهما تدبير الدولة ـ على عمارة الجامعين بمصر والقاهرة. فتولى الأمير ركن الدين بيبرس عمارة الجامع الحاكمى بالقاهرة، وتولى الأمير سلار عمارة جامع عمرو بمصر.

فاعتمد سلار على كاتبه بدر الدين بن خطاب. فهدم الحد البحرى من سلم السطح إلى باب الزيادة البحرية والشرقية، وأعاده على ما كان عليه، وعمل بابين جديدين للزيادة البحرية والغربية، وأضاف إلى كل عمود من الصف الأخير المقابل للجدار الذى هدمه عموداً آخر تقوية له، وجرد عمد الجامع كلها، وبيض الجامع بأسره، وزاد فى سقف الزيادة الغربية رواقين، وبلط سفل ما أسقف منها.

وخرب بظاهر مصر وبالقرافتين عدة مساجد، وأخذ عمدها ليرخم بها صحن الجامع، وقلع من رخام الجامع الذى كان تحت الحصر كثيراً من الألواح الطوال، ورص الجميع عند باب الجامع المعروف بباب الشرابيين، فنقل من هناك إلى حيث شاء، ولم يعمل منه فى صحن الجامع شئ ألبته، وكان فيما نقل من ألواح الرخام ما طوله أربعة أذرع فى عرض ذراع وسدس.. ذهب بجميع ذلك.

ولما ولى علاء الدين بن مروانة نيابة دار العدل، قسم جامعى مصر والقاهرة، فجعل جامع القاهرة مع نبيه الدين بن السعرتي. وجامع عمرو مع بهاء الدين بن السكري، فسقفت الزيادة البحرية الشرقية ـ وكانت قد جعلت حاصلا للحصر ـ وجعل لها درابزين بين البابين يمنع الجانبين من المار من باب الجامع إلى باب الزيادة المسلوك منه إلى سوق النحاسين، وبلط أرضها، ورقع بعض رخام صحن الجامع، وبلط بعض المجازات، وعمل عضائد أعتاب تحوز الصحن عن مواضع الصلاة.

ولما كان فى شهور سنة ست وتسعين وستمائة، اشترى الصاحب تاج الدين دارا بسوق الأكفانيين وهدمها، وجعل مكانها سقاية كبيرة، ورفعها إلى محاذاة سطح الجامع، وجعل لها ممشى يتوصل إليها من سطح الجامع، وعمل فى أعلاها أربعة بيوت يرتفق بهم فى الخلاء، ومكاناً برسم أزيار الماء العذب، وهدم سقاية الغرفة التى تحت المئذنة المعروفة بالمنظرة، وبناها برجاً كبيراً من الأرض إلى العلو حيث كان أولاً، وجعل بأعلى هذا البرج بيتاً مرتفعاً يختص بالغرفة المذكورة كما كان أولاً، وبيتاً ثانياً من خارج الغرفة يرتفق به من هو خارج الغرفة ممن يقرب منها.

وعمر القاضى صدر الدين أبو عبدالله محمد ابن البارنبارى سقاية فى ركن دار عمرو البحرى الغربى من داره الصغرى بعدما كانت قد تهدمت، فأعادها كأحسن ما كانت. ثم إن الجامع تشعث ومالت قواصره، ولم يبق إلا أن يسقط. وأهل الدولة، بعد موت الملك الظاهر برقوق، فى شغل من اللهو عن عمل ذلك.

فانتدب الرئيس برهان الدين إبراهيم بن عمر بن على المحلي، رئيس التجار يومئذ بديار مصر، لعمارة الجامع بنفسه وذويه، وهدم صدر الجامع بأسره فيما بين المحراب الكبير إلى الصحن طولاً وعرضاً، وأزال اللوح الأخضر، وأعاد البناء كما كان أولاً، وجدد لوحاً أخضر بدل الأول ونصبه كما كان - وهو الموجود الآن - وجرد العمد كلها، وتتبع جدر الجامع فرم شعثها كله، وأصلح من رخام الصحن ما كان قد فسد، ومن السقوف ما كان قد وهي، وبيض الجامع كله.

فجاء كما كان، وعاد جديداً بعدما كاد أن يسقط. . لولا أقام الله عز وجل هذا الرجل - مع ما عرف من شحه وكثرة ضنه بالمال - حتى عمره. فشكر الله سعيه، وبيض محياه. وكان انتهاء هذا العمل فى سنة أربع وثمانمائة ولم يتعطل منه صلاة جمعه ولا جماعة فى مدة عمارته.

قال ابن المتوج : إن ذرع هذا الجامع اثنان وأربعون ألف ذراع بذرع البز المصرى القديم - وهو ذراع الحصر المستمر إلى الآن - فمن ذلك مقدمه ثلاثة عشر ألف ذراع وأربعمائة وخمسة

وعشرون ذراعاً، ومؤخره مثل ذلك، وصحنه سبعة آلاف وخمسمائة ذراع، وكل من جانبيه الشرقي والغربي ثلاثة آلاف وثمانمائة وخمسة وعشرون ذراعاً. وذرعه كله بذراع العمل ثمانية وعشرون ألف ذراع.

وعدد أبوابه ثلاثة عشر بابا: منها في القبلي باب الزيزلختة الذي يدخل منه الخطيب. كان به شجرة زيزلخت عظيمة قطعت في سنة ست وستين وسبعمائة. وفي البحري ثلاثة أبواب، وفي الشرقي خمسة، وفي الغربي أربعة. وعدد عمده ثلاثمائة وثمانية وسبعون عموداً، فالبحرية الشرقية كانت لجلوس قاضي القضاة بها في كل أسبوع يومين.

وكان بهذا الجامع القصص... قال القضاعي: روى نافع، عن أبن عمر رضي الله عنهما، قال: لم يقص في زمن رسول الله ﷺ، ولا أبي بكر ولا عمر ولا عثمان رضي الله عنهم، وإنما كان القصص في زمن معاوية رضي الله عنه.

وذكر عمر بن شيبة قال: قيل للحسن: متى أحدث القصص؟ قال: في خلافة عثمان بن عفان. قيل: من أول من قص؟

قال: تميم الداري.

وذكر عن ابن شهاب قال: أول من قص في مسجد رصول الله ﷺ تميم الداري.. استأذن عمر أن يذكر الناس فأبى عليه، حتى كان آخر ولايته فأذن له أن يذكر الناس فأبى عليه، حتى كان آخر ولايته فأذن له أن يذكر في يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر. فأستأذن تميم عثمان بن عفان رضي الله عنه في ذلك، فأذن له أن يذكر يومين في الجمعة. فكان تميم يفعل ذلك.

وروى ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، أن عليا رضي الله عنه قنت فدعا على قوم من أهل حربه. فبلغ ذلك معاوية، فأمر رجلاً يقص بعد الصبح، وبعد المغرب يدعو له ولأهل الشام.. قال يزيد: وكان ذلك أول القصص.

وروى عن عبدالله بن مغفل قال : أمنا على رضى الله عنه فى المغرب . فلما رفع رأسه من الركعة الثالثة ذكر معاوية أولاً ، وعمرو بن العاص ثانياً وأبا الأعور - يعنى السلمى - ثالثاً ، وكان أبو موسى الرابع .

وقال الليث بن سعد : هما قصصان : قصص العامة وقصص الخاصة . فأما قصص العامة فهو الذى يجتمع إليه النفر من الناس يعظمهم ويذكرهم ، فذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه . وأما قصص الخاصة فهو الذى جعله معاوية . . . ولى رجلا على القصص . فإذا سلم من صلاة الصبح ، جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده ، وصلى على النبى ﷺ ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته ولحشمه وجنوده ، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة .

ويقال إن أول من قص بمصر سليمان بن عتر التجيبى فى سنة ثمان وثلاثين ، وجمع له القضاء إلى القصص ، ثم عزل عن القضاء وأفرد بالقصص . وكانت ولايته على القصص والقضاء سبعاً وثلاثين سنة : منها سنتان قبل القضاء . ويقال إنه كان يختم القرآن فى كل ليلة ثلاث مرات ، وكان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ، ويسجد فى المفصل ، ويسلم تسليمة واحدة ، ويقرأ فى الركعة الأولى بالبقرة ، وفى الثانية بقل هو الله أحد ، ويرفع يديه فى القصص إذا دعا .

وكان عبدالملك بن مروان شكا إلى العلماء ما انتشر عليه من أمور رعيته ، وتخوفه من كل وجه . فأفشار عليه أبو حبيب الحمصى القاضى بأن يستنصر عليهم برفع يديه إلى الله تعالى . فكان عبدالملك يدعو ، ويرفع يديه ، وكتب بذلك إلى القصاص . فكانوا يرفعون أيديهم بالغداة والعشى .

وفى هذا الجامع مصحف أسماء ، وهو الذى تجاه المحراب الكبير . قال القضاعى : كان السبب فى كتب هذا الصحف أن الحجاج بن يوسف الثقفى كتب مصاحف ، وبعث بها إلى الأمصار ، ووجه إلى مصر بمصحف منها . فغضب عبدالعزيز بن مروان من ذلك - وكان الوالى يومئذ من قبل أخيه عبدالملك - وقال : يبعث إلى جند أنا فيه بمصحف ! فأمر فكتب له هذا المصحف الذى فى المسجد الجامع اليوم .

فلما فرغ منه قال: من وجد فيه حرفاً خطأ فله رأس أحمر وثلاثون ديناراً. فتداوله القراء، فأتى رجل من قراء الكوفة، اسمه زرعة بن سهل الثقفي، فقرأه تهجياً، ثم جاء إلى عبدالعزيز بن مروان فقال له: إنى قد وجدت فى المصحف حرفاً خطأ.

فقال: مصحفى؟

قال: نعم.

فنظر فإذا فيه «إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة»، فإذا هى مكتوبة «نجعة» قد قدمت الجيم قبل العين. فأمر بالمصحف فأصلح ما كان فيه، وأبدلت الورقة، ثم أمر له بثلاثين ديناراً وبرأس أحمر.

ولما فرغ من هذا المصحف، كان يحمل إلى المسجد الجامع غداة كل جمعة من دار عبدالعزيز، فيقرأ فيه ثم يقص، ثم يرد إلى موضعه. فكان أول من قرأ فيه عبدالرحمن ابن حجيرة الخولاني، لأنه كان يتولى القصص والقضاء يومئذ، وذلك فى سنة ست وسبعين. ثم تولى بعده القصص أبو الخير مرثد بن عبدالله اليزني، وكان قاضياً بالإسكندرية قبل ذلك.

ثم توفى عبدالعزيز فى سنة ست وثمانين، فبيع هذا المصحف فى ميراثه. فاشتراه ابنه أبو بكر بألف دينار، ثم توفى أبو بكر. فاشترته أسماء ابنه أبى بكر بن عبدالعزيز بسبعمائة دينار، فأمكنت الناس منه، وشهرته فنسب إليها. فلما توفيت أسماء، اشتراه أخوها الحكم بن عبدالعزيز بن مروان من ميراثها بخمسمائة دينار.

فأشار عليه توبة بن نمر الحضرمى القاضى - وهو متولى القصص يومئذ بالمسجد الجامع بعد عقبة بن مسلم الهمداني، وإليه القضاء، وذلك فى سنة ثمان عشرة ومائة - فجعله فى المسجد الجامع، وأجرى على الذى يقرأ فيه ثلاثة دنانير فى كل شهر من غلة الاصطبل. فكان توبة أول من قرأ فيه بعد أن أقر فى الجامع.

وتولى القصص بعد توبة أبو اسماعيل خير ابن نعيم الحضرمى القاضى فى سنة عشرين ومائة، وجمع له القضاء والقصص. فكان يقرأ فى المصحف قائماً، ثم يقص وهو جالس،

فهو أول من قرأ فى المصحف قائماً. ولم تزل الأئمة يقرأون فى المسجد الجامع فى هذا المصحف فى كل يوم جمعة. إلى أن ولى القصص أبو رجب العلاء بن عاصم الخولانى فى سنة اثنتين وثمانين ومائة، فقرأ فيه يوم الأثنين.

وكان قد جعل المطلب الخزاعي، أمير مصر من قبل المأمون، رزق أبى رجب العلاء عشرة دنانير على القصص. وهو أول من سلم فى الجامع تسليمتين، بكتاب ورد من المأمون يأمر فيه بذلك. وصلى خلفه محمد بن إدريس الشافعى حين قدم إلى مصر، فقال: هكذا تكون الصلاة، ما صليت خلف أحد أتم صلاة من أبى رجب، ولا أحسن.

ولما ولى القصص حسن بن الربيع بن سليمان من قبل عنبسة بن إسحاق - أمير مصر من قبل المتوكل - فى سنة أربعين ومائتين، أمر أن تترك قراءة «بسم الله الرحمن الرحيم» فى الصلاة فتركها الناس، وأمر أن تصلى التراويح خمس تراويح، وكانت تصلى قبل ذلك ست تراويح، وزاد فى قراءة المصحف يوماً. فكان يقرأ يوم الأثنين ويوم الخميس ويوم الجمعة.

ولما ولى حمزة بن أيوب بن إبراهيم الهاشمى القصص - بكتاب من المكتفى - فى سنة اثنتين وتسعين ومائتين، وصلى فى مؤخر المسجد حين نكس، وأمر أن يحمل إليه المصحف ليقرأ فيه. فقيل له: إنه لم يحمل المصحف إلى أحد قبلك، فلو قمت وقرأت فيه فى مكانه؟

فقال: لا أفعل، ولكن أئتونى به، فإن القرآن علينا أنزل، وإلينا أتى. فأتى به فقرأ فيه فى المؤخر.

وهو أول من قرأ فى المصحف فى المؤخر، ولم يقرأ فى المصحف بعد ذلك فى المؤخر. إلى أن تولى أبو بكر محمد بن الحسن السوسى الصلاة والقصص فى اليوم العشرين من شعبان سنة ثلاث وأربعمائة، فنصب المصحف فى مؤخر الجامع حيال الفوارة، وقرأ فيه أيام نكس الجامع. فاستمر الأمر على ذلك إلى الآن.

ولما تولى القصص أبو بكر محمد بن عبدالله بن مسلم الملطى فى سنة إحدى وثلاثمائة، عزم على القراءة فى المصحف فى كل يوم. فتكلم على بن قديد فى ذلك ومنع منه، وقال: أعزم على أن يخلق المصحف ويقطعه؟ أيرى عبدالعزيز بن مروان حياً فيكتب له مثله؟ فرجع إلى القراءة ثلاثة أيام.

وكان قد حضر إلى مصر رجل من أهل العراق، وأحضر مصحفاً ذكر أنه محصف عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأنه الذى كان بين يديه يوم الدار - وكان فيه أثر الدم - وذكر أنه استخرج من خزائن المقتدر. ودفع المصحف إلى عبدالله بن شعيب المعروف بابن بنت وليد القاضي، فأخذه أبو بكر الخازن، وجعله فى الجامع وشهره، وجعل عليه خشباً منقوشاً. وكان الإمام يقرأ فيه يوماً، وفى مصحف أسماء يوما. ولم يزل على ذلك إلى أن رفع هذا المحصف، واقتصر على القراءة فى مصحف أسماء، وذلك فى أيام العزيز بالله لخمس خلون من المحرم سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة.

وقد أنكر قوم أن يكون هذا المصحف مصحف عثمان رضى الله عنه، لأن نقله لم يصح، ولم يثبت بحكاية رجل واحد.

ورأيت أنا هذا المصحف، وعلى ظهره ما نسخته: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين. هذا المصحف الجامع بكتاب الله، جل ثناؤه وتقدست أسماؤه، حمله المبارك مسعود بن سعد الهيتى لجماعة المسلمين القراء للقرآن التالين له، المتقربين إلى الله جل ذكره بقراءته والمتعلمين له، ليكون محفوظاً أبداً ما بقى ورقة ولم يذهب اسمه. . . أبتغاء ثواب الله عز وجل، ورجاء غفرانه. وجعله عدة ليوم فقره وفاقته وحاجته إليه. أناله الله ذلك برأفته، وجعل ثوابه بينه وبين جماعة من نظر فيه».

وقد درس مابعد هذا الكلام من ظهر المصحف. والمندرس يشبه أن يكون: «وتبصر فى ورقة، وقصد بإيداعه فسطاط مصر فى المسجد الجامع، جامع المسلمين العتيق، ليحفظ حفظ مثله مع سائر مصاحف المسلمين، فرحم الله من حفظه ومن قرأ فيه ومن عنى به، وكان ذلك فى يوم الثلاثاء مستهل ذى القعدة سنة سبع وأربعين وثلاثمائة وصلى الله على محمد سيد المرسلين وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً وحسبنا الله ونعم الوكيل».

قال ابن المتوج: ودليل بطلان ما قاله هذا المعترض - ظهور التعصب على عثمان رضى الله عنه من تجيب وخلفائهم - أن الناس قد جربوا هذا المصحف، وهو الذى على الكرسى الغربى من مصحف أسماء، أنه ما فتح قط إلا وحدث حادث فى الوجود لتحقيق ما حدث أولا. والله أعلم.

قال القضاعى : «ذكر المواضع المعروفة بالبركة من الجامع يستحب الصلاة والدعاء عندها» : منها البلاطة التى خلف الباب الأول فى مجلس ابن عبدالحكم .

ومنها باب البرادع . . . روى عن رجل من صلحاء المصريين ـ يقال له أبو هارون الخرقى ـ قال : رأيت الله عز وجل فى منامي ، فقلت له : يارب أنت ترانى وتسمع كلامي؟ قال : نعم . ثم قال : أتريد أن أريك بابا من أبواب الجنة؟ قلت : نعم يارب . فأشار إلى باب أصحاب البرادع ، أو الباب الأقصى مما يلى رحبة حارث . وكان أبو هارون هذا يصلى الظهر والعصر فيما بينهما .

وقال ابن المتوج : وعند المحراب الصغير ، الذى فى جدار الجامع الغربى ظاهر المقصورة فيما بين بابى الزيادة الغربية ، الدعاء عنده مستجاب .

قال : ومن ذلك مقصورة عرفه ، ومنها عند خرزة البئر التى بالجامع ، ومنها قبال اللوح الأخضر ، ومنها زاوية فاطمة . ويقال انها فاطمة ابنة عفان لما وصى والدها أن تترك لله فى الجامع ، فتركت فى هذا المكان فعرف بها .

ومنها سطح الجامع ، والطواف به سبع مرات : يبدأ بالأولى من باب الخزانة الأولى التى يستقبلها الداخل من باب السطح وهو يتلو إلى أن يصل إلى زاوية السطح ، التى عند المئذنة المعروفة بعرفة ، يقف عندها ثم يدعو بما أراد ، ثم يمر وهو يتلو إلى أن يصل إلى الركن الشرقى ـ عند المئذنة المشهور بالكبيرة ـ ثم يدعو بما أراد . ويمر إلى الركن البحرى الشرقي ، فيقف محاذياً لغرفة المؤذنين ويدعو . ثم يمر وهو يتلو إلى المكان الذى ابتدأ منه . . يفعل ذلك سبع مرات فإن حاجته تقضى .

قال القضاعى : ولم يكن الناس يصلون بالجامع بمصر صلاة العيد . حتى كانت سنة ست ـ ويقال سنة ثمان ـ وثلاثمائة ، فصلى فيه رجل يعرف بعلى بن أحمد بن عبدالملك الفهمى ـ يعرف بابن أبى شيخة ـ صلاة الفطر . ويقال إنه خطب من دفتر نظرا ، وحفظ عنه اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم «مشركون» ! ! فقال بعض الشعراء :

وقام فى العيد لنا خاطب

فحرض الناس على الكفر

وتوفى سنة تسع وثلاثمائة.

وبالجامع زوايا يدرس فيها الفقه : منها زاوية الإمام الشافعى به، يقال إنه درس بها فعرفت به، وعليها أرض بناحية سندبيس، وقفها السلطان الملك العزيز عثمان بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولم يزل يتولى تدريسها أعيان الفقهاء وجلة العلماء.

ومنها الزاوية المجدية بصدر الجامع، فيما بين المحراب الكبير ومحراب الخمس، داخل المقصورة الوسطي، بجوار المحراب الكبير. رتبها مجد الدى أبو الأشبال الحارث بن مهذب الدين أبى المحاسن مهلب بن حسن بن بركات بن على بن غياث المهلبى الأزدى البهنسى الشافعي، وزير الملك الأشرف موسى ابن العادل أبى بكر بن أيوب بحران، وقرر فى تدريسها قريبه قاضى القضاه وجيه الدين عبدالوهاب البهنسي، وعمل على هذه الزاوية عدة أوقاف بمصر والقاهرة. ويعد تدريسها من المناصب الجليلة، وتوفى المجد فى صفر سنة ثمان وعشرين وستمائة بدمشق عن ثلاث وستين سنة.

ومنها الزاوية الصاحبية حول عرفة. رتبها الصاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين محمد ابن بهاء الدين بن حنا، وجعل لها مدرسين : أحدهما مالكي، والآخر شافعي، وجعل عليها وقفاً لظاهر القاهرة بخط البرادعيين.

ومنها الزاوية الكمالية بالمقصورة المجاورة لباب الجامع الذى يدخل إليه من سوق الغزل. رتبها كمال الدين السمنودي، وعليها فندق بمصر موقوف عليها.

ومنها الزاوية التاجية أمام المحراب الخشب. رتبها تاج الدين السطحي، وجعل عليها دوراً بمصر موقوفة عليها.

ومنها الزاوية المعينية فى الجانب الشرقى من الجامع. رتبها معين الدين الدهروطي، وعليها وقف بمصر.

ومنها الزاوية العلائية ـ تنسب لعلاء الدين الضرير ـ وهى فى صحن الجامع، وهى لقراءة ميعاد.

ومنها الزاوية الزينية. رتبها الصاحب زين الدين لقراءة ميعاد أيضاً.

ذكر ذلك أبن المتوج.

وأخبرني المقرى الأديب المؤرخ الضابط شهاب الدين أحمد بن عبدالله بن الحسن الأوحدى رحمه الله، قال: أخبرني المؤرخ ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن الفرات، قال: أخبرني العلامة شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن الصائغ الحنفى أنه أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر، قبل الوباء الكائن فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة، بضعا وأربعين حلقة لإقراء العلم لاتكاد تبرح منه.

قال أبن المأمون: حدثنى القاضى المكين ابن حيدرة - وهو من أعيان الشهود بمصر - أن من جملة الخدم التى كانت بيد والده مشارفة الجامع العتيق، وأن القومة بأجمعهم كانوا يجتمعون قبل ليلة الوقود عنده إلى أن يعملوا ثمانية عشر ألف فتيلة، وأن المطلق برسمه خاصة فى كل ليلة برسم وقوده أحد عشر قنطاراً ونصف زيتاً طيباً.

ذكر المحاريب التى بديار مصر وسبب اختلافها وتعيين الصواب فيها وتبيين الخطأ منها

اعلم أن محاريب ديار مصر التى يستقبلها المسلمون فى صلواتهم أربعة محاريب:

أحدها محراب الصحابة رضى الله عنهم، الذى أسسوه فى البلاد التى استوطنوها والبلاد التى كثر مرهم بها من إقليم مصر. وهو محراب المسجد الجامع بمصر - المعروف بجامع عمرو - ومحراب المسجد الجامع بالجيزة، وبمدينة بلبيس، وبالإسكندرية، وقوص، وأسوان، وهذه المحاريب المذكورة على سمت واحد، غير أن محاريب ثغر أسوان أشد تشريقًا من غيرها. . وذلك أن أسوان مع مكة، شرفها الله تعالي، فى الإقليم الثاني، وهو الحد الغربى من مكة بغير ميل إلى الشمال - ومحراب بلبيس مغرب قليلاً.

والمحراب الثانى محراب مسجد أحمد بن طولون، وهو منحرف عن سمت محراب الصحابة. وقد ذكر فى سبب انحرافه أقوال :

منها أن أحمد بن طولون، لما عزم على بناء هذا المسجد، بعث إلى محراب مدينة رسول الله ﷺ من أخذ سمته، فإذا هو مائل عن خط سمت القبلة المستخرج بالصناعة نحو العشر درج إلى جهة الجنوب. فوضع حينئذ محراب مسجده هذا مائلاً عن خط سمت القبلة إلى جهة الجنوب بنحو ذلك، اقتداء منه بمحراب مسجد رسول الله ﷺ.

وقيل إنه رأى رسول الله ﷺ فى منامه، وخط له المحراب. فلما أصبح وجد النمل قد أطاف بالمكان الذى خطه له رسول الله ﷺ فى المنام. وقيل غير ذلك.

وأنت أن صعدت إلى سطح جامع ابن طولون، رأيت محرابه مائلاً عن محراب جامع عمرو بن العاص إلى الجنوب، ورأيت محراب المدارس التى حدثت إلى جانبه قد انحرفت عن محرابه إلى جهة الشرق، وصار محراب جامع عمرو فيها بين محراب ابن طولون والمحاريب الأخر.

وقد عقد مجلس بجامع ابن طولون، فى ولاية قاضى القضاة عز الدين عبدالعزيز بن محمد بن جماعة، حضره علماء الميقات ـ منهم الشيخ تقى الدين محمد بن محمد بن موسى الغزولي، والشيخ أبو الطاهر محمد بن محمد ـ ونظروا فى محرابه، فأجمعوا على أنه منحرف عن خط سمت القبلة إلى جهة الجنوب، مغرباً بقدر أربع عشرة درجة. وكتب بذلك محضر، وأثبت على ابن جماعة.

والمحراب الثالث محراب جامع القاهرة ـ المعروف بالجامع الأزهر ـ وما فى سمته من بقية محاريب القاهرة. وهى محاريب يشهد الامتحان بتقدم واضعها فى معرفة استخراج القبلة من غير ميل عنه ولا انحراف ألبته.

والمحراب الرابع محاريب المسجد التى فى قرى بلاد الساحل، فإنها تخالف محاريب الصحابة. إلا أن محراب جامع منيه غمر قريب من سمت محاريب الصحابة. فإن الوزير أبا عبدالله محمد بن فاتك، المنعوت بالمأمون البطائحى ـ وزير الخليفة الآمر بأحكام الله أبى

على منصور بن المستعلى بالله - أنشأ جامعاً بمنية زفتا فى سنة ست عشرة وخمسمائة فجعل محرابه على سمت المحاريب الصحيحة.

وفى قرافه مصر بجوار مسجد الفتح عدة مساجد تخالف محاريب الصحابة مخالفة فاحشة. وكذلك بمدينة مصر الفسطاط غير مسجد على هذا الحكم.

فأما محاريب الصحابة التى بفسطاط مصر والإسكندرية فإن سمتها يقابل مشرق الشتاء - وهو مطالع برج العقرب - مع ميل قليل إلى ناحية الجنوب. ومحاريب مساجد القري، وما حول مسجد الفتح بالقرافة، فإنها تستقبل خط نصف النهار - الذى يقال له خط الزوال - وتميل عنه إلى جهة المغرب. وهذا الاختلاف بين هذين المحرابين اختلاف فاحش يفضى إلى أبطال الصلاة.

وقد قال ابن عبدالحكم: قبلة أهل مصر أن يكون القطب الشمالى على الكتف الأيسر. وهذا سمت محاريب الصحابة. قال: وإذا طلعت منازل العقرب، وتكملت صورته، فمحاذاته سمت القبلة لديار مصر وبرقة وإفريقية وما والاها.

وفى الفرقدين والقطب الشمالى كفاية للمستدلين: فإنهم أن كانوا مستقبلين فى مسيرهم من الجنوب جهة الشمال استقبلوا القطب والفرقدين، وإن كانوا سائرين إلى الجنوب من الشمال استدبروها، وإن كانوا سائرين إلى الشرق من المغرب جعلوها على الأذن اليسري، وإن كانوا سائرين من الشرق الى المغرب جعلوها على الأذن اليمني، وإن كان مسيرهم إلى النكباء التى بين الجنوب والصبا جعلوها على الكتف الأيسر، وإ كان مسيرهم إلى النكباء التى بين الجنوب والدبور جعلوها على الكتف الأيمن، وإن كان ميرهم إلى النكباء التى بين الشمال والدبور جعلوها على الحاجب الأيمن، وإن كان مسيرهم إلى النكباء التى بين الشمال والصبا جعلوها على الحاجب الأيسر.

وإذا عرف ذلك، فإنه يستحيل تصويب محرابين مختلفين فى قطر واحد إذا زاد اختلافهما على مقدار ما يتسامح به فى التيامن والتياسر. وبيان ذلك أن كل قطر من أقطار الأرض، كبلاد الشام وديار مصر ونحوهما من الأقطار، قطعة من الأرض واقعة فى مقابلة

جزء من الكعبة ، والكعبة تكون فى جهة من جهات ذلك القطر . فإذا اختلف محرابان فى قطر واحد ، فإنا نتيقن أن أحدهما صواب والآخر خطأ . إلا أن يكون القطر قريباً من مكة وخطته التى هو محدود بها متسعة اتساعاً كثيراً يزيد على الجزء الذى يخصه لو وزعت الكعبة أجزاء متماثلة ، فإنه حينئذ يجوز التيامن والتياسر فى محاريبه . وذلك مثل بلاد البجة ، فإنها على الساحل الغربى من بحر القلزم ، ومكة واقعة فى شرقيها ، ليس بينهما إلا مسافة البحر فقط وما بين جدة ومكة من البر .

وخطة بلاد البجة مع ذلك واسعة مستطيلة على الساحل : أولها عيذاب ، وهى محاذية لمدينة رسول الله ﷺ ، وتميل عنها فى الجنوب ميلاً قليلاً ، والمدينة شامية عن مكة بنحو عشرة أيام . وآخر بلاد البجة من ناحية الجنوب سواكن ، وهى مائلة فى ناحية الجنوب عن مكة ميلاً كثيراً .

وهذا المقدار من طول بلاد البجة يزيد على الجزء الذى يخص هذه الخطة من الأرض ، لو وزعت الأرض أجزاء متساوية إلى الكعبة ، فيتعين - والحالة هذه - التيامن أو التياسر فى طرفى هذه البلاد لطلب جهة الكعبة .

وأما إذا بعد القطر عن الكعبة بعداً كثيراً ، فإنه لايضر اتساع خطته ، ولايحتاج فيه إلى تيامن ولاتياسر لاتساع الجزء الذى يخصه من الأرض . فإن كل قطر منها له جزء يخصه من الكعبة ، من أجل أن الكعبة من البلاد المعمورة كالكرة من الدائرة ، فالأقطار كلها فى استقبال الكعبة محيطة بها كإحاطة الدائرة بمركزها .

وكل قطر فإنه يتوجه إلى الكعبة فى جزء يخصه . والأجزاء المنقسمة - إذا قدرت الأرض كالدائرة - فإنها تتسع عند المحيط ، وتتضايق عند المركز . فإذا كان القطر بعيداً عن الكعبة ، فإنه يقع فى متسع الحد ، ولا يحتاج فيه إلى تيامن ولاتياسر ، بخلاف ما إذا قرب القطر من الكعبة فإنه يقع فى متضايق الجزء ، ويحتاج عند ذلك إلى تيامن أو تياسر .

فإن فرضنا أن الواجب أصابة عين الكعبة فى استقبال الصلاة لمن بعد عن مكة - وقد علمت ما فى هذه المسألة من الاختلاف بين العلماء - فإنه لايتسامح فى اختلاف المحاريب بأكثر من قدر التيامن والتياسر الذى لايخرج عند حد الجهة ، فلو زاد الاختلاف حكم

ببطلان أحد المحرابين ولابد. اللهم إلا أن يكونا فى قطرين بعيدين بعضهما من بعض، وليسا على خط واحد من مسامته الكعبة، وذلك كبلاد الشام وديار مصر. فإن البلاد الشامية لها جانبان، وخطتها متسعة مستطيلة فى شمال مكة، وتمتد أكثر من الجزء الخاص بها بالنسبة إلى مقدار بعدها عن الكعبة.

وفى هذين القطرين يجرى ما تقدم ذكره فى أرض البجة. إلا أن التيامن والتياسر ظهوره فى البلاد الشامية أقل من ظهوره فى أرض البجة، من أجل بعد البلاد الشامية عن الكعبة وقرب أرض البجة. وذلك أن البلاد الشامية وقعت فى متسع الجزء الخاص بها، فلم يظهر أثر التيامن والتياسر ظهوراً كثيراً كظهوره فى أرض البجة، لأن البلاد الشامية لها جانب شرقى وجانب غربى ووسط.

فجانبها الغربى هو أرض بيت المقدس وفلسطين إلى العريش أول حد مصر، وهذا الجانب من البلاد الشامية يقابل الكعبة على حد مهب النكباء التى بين الجنوب والصبا.

وأما جانب البلاد الشامية الشرقى فإنه ما كان مشرقاً من مدينة دمشق إلى حلب والفرات، وما يسامت ذلك من بلاد الساحل، وهذه الجهة تقابل الكعبة مشرقاً عن أوسط مهب الجنوب قليلاً. وأما وسط بلاد الشام فإنها دمشق وما قاربها، وتقابل الكعبة على وسط مهب الجنوب، وهذا هو سمت مدينة رسول الله ﷺ مع ميل يسير عنه إلى ناحية المشرق.

وأما مصر فإنها تقابل الكعبة فيما بين الصبا ومهب النكباء التى بين الصبا والجنوب. ولذلك لما اختلف هذان القطران - أعنى مصر والشام - فى محاذاة الكعبة، اختلفت محاريبهما. وعلى ذلك وضع الصحابة رضى الله عنهم محاريب الشام ومصر على اختلاف السمتين. فأما مصر بعينها وضواحيها، وما هو فى حدها أو على سمتها، أو فى البلاد الشامية، وما فى حدها أو على سمتها . . . فإنه لايجوز فيها تصويب محرابين مختلفين اختلافاً بينا.

فإن تباعد القطر عن القطر بمسافة قريبة أو بعيدة، وكان القطران على سمت واحد فى محاذاة الكعبة، لم يضر حينئذ تباعدهما، ولا تختلف محاريبهما، بل تكون محاريب كل

قطر منهما على حد واحد وسمت واحد. . . وذلك كمصر وبرقة وإفريقية وصقلية والأندلس. فإن هذه البلاد وأن تباعد بعضها عن بعض، فإنها كلها تقابل الكعبة على حد واحد وسمتها جميعها سمت مصر من غير اختلاف ألبته. وقد تبين بما تقرر حال الأقطار المختلفة من الكعبة في وقوعها منها.

وأما اختلاف محاريب مصر فإن له أسباباً: أحدها حمل كثير من الناس قوله ﷺ ـ الذى رواه الحافظ أبو عيسى الرمذي، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ـ «ما بين المشرق والمغرب قبلة» على العموم. وهذا الحديث قد روى موقوفاً على عمر وعثمان وعلى وابن عباس ومحمد ابن الحنفية رضى الله عنهم، وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً.

قال أحمد بن حنبل: هذا فى كل البلدان. . . قال: هذا المشرق وهذا المغرب وما بينهما قبلة.

قيل له: فصلاة من صلى بينهما جائزة؟

قال: نعم، وينبغى أن يتحرى الوسط.

وقال أحمد بن خالد: قول عمر «ما بين المشرق والمغرب قبلة» قال بالمدينة. فمن كانت قبلته مثل قبلة المدينة، فهو فى سعة مما بين المشرق والمغرب. ولسائر البلدان من السعة فى القبلة مثل ذلك بين الجنوب والشمال.

وقال أبو عمر بن عبدالبر: لاخلاف بين أهل العلم فيه.

قال مؤلفه رحمه الله: إذا تأملت وجدت هذا الحديث يختص بأهل الشام والمدينة، وما على سمت تلك البلاد شمالاً وجنوباً فقط. والدليل على ذلك أنه يلزم من حمله على العموم إبطال التوجه إلى الكعبة فى بعض الأقطار، والله سبحانه قد أفترض على الكافة أن يتوجهوا إلى الكعبة فى الصلاة حيثما كانوا بقوله تعالى: ﴿**ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره**﴾. (١)

(١) سورة البقرة ـ آية ١٥٠ ـ ٢م.

وقد عرفت - إن كنت تمهرت فى معرفة البلدان وحدود الأقاليم - أن الناس فى توجههم إلى الكعبة كالدائرة حول المركز : فمن كان فى الجهة الغربية من الكعبة ، فإن جهة قبلة صلاته إلى المشرق . ومن كان فى الجهة الشرقية من الكعبة ، فإنه يستقبل فى صلاته جهة المغرب . ومن كان فى الجهة الشمالية من الكعبة ، فإنه يتوجه فى صلاته إلى جهة الجنوب . ومن كان فى الجهة الجنوبية من الكعبة ، كانت صلاته إلى جهة الشمال .

ومن كان من الكعبة فيما بين المشرق والجنوب ، فإن قبلته فيما بين الشمال والمغرب . ومن كان من الكعبة فيما بين الجنوب والمغرب ، فإن قبلته فيما بين الشمال والمشرق . ومن كان من الكعبة فيما بين المشرق والشمال ، فقبلته فيما بين الجنوب والمغرب . ومن كان من الكعبة فيما بين الشمال والمغرب ، فقبلته فيما بين الجنوب والمشرق .

فقد ظهر ما يلزم ، من القول بعموم هذا الحديث ، من خروج أهل المشرق الساكنين به وأهل المغرب أيضاً ، عن التوجه عن الكعبة فى الصلاة عيناً وجهة . لأن من كان مسكنه من البلاد ما هو فى أقصى المشرق من الكعبة ، لو جعل المشرق عن يساره والمغرب عن يمينه ، لكان إنما يستقبل حينئذ جنوب أرضه ، ولم يستقبل قط عين الكعبة ولا جهتها .

فوجب ولابد حمل الحديث على أنه خاص بأهل المدينة والشام وما على سمت ذلك من البلاد . بدليل أن المدينة النبوية واقعة بين مكة وبين أوسط الشام على خط مستقيم ، والجانب الغربى من بلاد الشام - التى هى أرض المقدس وفلسطين - يكون عن يمين من يستقبل بالمدينة الكعبة ، والجانب الشرقى - الذى هو حمص وحلب وما إلى ذلك - واقع عن يسار من استقبل الكعبة بالمدينة .

والمدينة واقعة فى أوسط جهة الشام على جهة مستقيمة . بحيث لو خرج خط من الكعبة ومر على استقامة إلى المدينة النبوية ، لنفذ منها إلى أوسط جهة الشام سواء . وكذلك لو خرج خط من مصلى رسول الله ﷺ ، وتوجه على استقامة ، لوقع فيما بين الميزاب من الكعبة وبين الركن الشامى .

فلو فرضنا أن هذا الخط خرق الموضع الذى وقع فيه من الكعبة ومر ، لنفذ إلى بيت المقدس على استواء من غير ميل ولا انحراف ألبته . وصار موقع هذا الخط فيما بين نكباء

الشمال والدبور وبين القطب الشمالي ، وهو إلى القطب الشمالى أقرب وأميل ، ومقابلته ما بين أوسط الجنوب ، وهو إلى الجنوب أقرب .

والمدينة النبوية مشرقة عن هذا السمت ، ومغربة عن سمت الجانب الآخر من بلاد الشام - وهو الجانب الغربى - تغريباً يسيراً . فمن يستقبل مكة بالمدينة يصير المشرق عن يساره ، والمغرب عن يمينه ، وما بينهما فهو قبلته ، وتكون حينئذ الشام بأسرها وجملة بلادها خلفه . فالمدينة على هذا فى أوسط جهات البلاد الشامية .

ويشهد بصدق ذلك ما رويناه من طريق مسلم رحمه الله ، عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما ، قال : رقيت على بيت أختى حفصه ، فرأيت رسول الله ﷺ قاعداً لحاجته ، مستقبل الشام مستدير القبلة . وله أيضاً من حديث أبن عمر : بينا الناس فى صلاة الصبح ، إذ جاءهم آت فقال : إن سول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة ، فاستدار إلى الكعبة .

فهذا - أعزك الله - أوضح دليل أن المدينة بين مكة والشام على حد واحد ، وأنها فى أوسط جهة بلاد الشام . فمن استقبل بالمدينة الكعبة ، فقد استدير الشام . ومن استدبر بالمدينة الكعبة ، فقد استقبل الشام .

ويكون حينئذ الجانب الغربى من بلاد الشام ، وما على سمته من بلاد الشام ، وما على سمته من البلاد ، جهة القبلة عندهم أن يجعل الواقف مشرق الصيف عن يساره ، ومغرب الشتاء عن يمينه ، فيكون ما بين ذلك قبلته .

وتكون قبلة الجانب الشرقى من بلاد الشام وما على سمت ذلك من البلدان ، أن يجعل المصلى مغرب الصيف عن يمينة ، ومشرق الشتاء عن يساره ، وما بينهما قبلته .

ويكون أوسط البلاد الشامية - التى هى حد المدينة النبوية - قبلة المصلى بها أن يجعل مشرق الاعتدال عن يساره ، ومغرب الاعتدال عن يمينه ، وما بينهما قبلة له .

فهذا أوضح استدلال على أن الحديث خاص بأهل المدينة ، وما على سمتها من البلاد الشامية ، وما وراءها من البلدان المسامته لها .

وهكذا أهل اليمن وما على سمت اليمن من البلاد. فإن القبلة واقعة فيما هناك بين المشرق والمغرب، لكن على عكس وقوعها فى البلاد الشامية. فإنه تصير مشارق الكواكب فى البلاد الشامية، التى على يسار المصلي، واقعة عن يمين المصلى فى بلاد اليمن. وكذلك كل ما كان من المغارب عن يمين المصلى بالشام، فإنه ينقلب عن يسار المصلى باليمن. وكل من قام ببلاد اليمن مستقبلاً الكعبة، فإنه يتوجه إلى بلاد الشام فيما بين المشرق والمغرب.

وهذه الأقطار سكانها هم المخاطبون بهذا الحديث، وحكمه لازم لهم، وهو خاص بهم دون من سواهم من أهل الأقطار الأخر. ومن أجل حمل هذا الحديث على العموم، كان السبب فى اختلاف محاريب مصر.

السبب الثانى فى اختلاف محاريب مصر: أن الديار المصرية لما افتتحها المسلمون، كانت خاصة بالقبط والروم مشحونة بهم، ونزل الصحابة رضى الله عنهم من أرض مصر فى موضع الفسطاط - الذى يعرف اليوم بمدينة مصر - وبالإسكندرية، وتركوا سائر قرى مصر بأيدى القبط.. كما تقدم فى موضعه من هذا الكتاب.

ولم يسكن أحد من المسلمين بالقري، وإنما كانت رابطة تخرج إلى الصعيد، حتى إذا جاء أوان الربيع انتشر الأتباع فى القرى لرعى الدواب ومعهم طوائف من السادات. ومع ذلك فكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينهى الجند عن الزرع، ويبعث إلى أمراء الأجناد بإعطاء الرعية أعطياتهم وأرزاق عيالهم، وينهاهم عن الزرع.

روى الإمام أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم فى كتاب «فتوح مصر» من طريق ابن وهب، عن حيوة بن شريح، عن بكر بن عمرو، عن عبدالله بن هبيرة: أن عمر بن الخطاب أمر بنادره أن يخرج إلى أمراء الأجناد يتقدمون إلى الرعية: أن عطاءهم قائم، وأن أرزاق عيالهم سابل، فلايزرعون ولا يزارعون.

قال ابن وهب: وأخبرنى شريك بن عبدالرحمن المرادي، قال: بلغنا أن شريك بن سمى الغطفاني، أتى إلى عمرو بن العاص، فقال: إنكم لاتعطونا ما يحسبنا أفتأذن لى بالزرع؟

فقال له عمرو: ما أقدر على ذلك.

فزرع شريك من غير إذن عمرو. فلما بلغ ذلك عمراً، كتب إلى عمر بن الخطاب يخبره أن شريك بن سمى الغطفانى حرث بأرض مصر. فكتب إليه عمر «أن أبعث إلى به».

فلما انتهى كتاب عمر إلى عمرو أقرأه شريكاً فقال شريك لعمرو: قتلتنى يا عمرو.

فقال عمرو: ما أنا بالذى قتلتك، أنت صنعت هذا بنفسك.

فقال له: إذا كان هذا من رأيك فائذن لى بالخروج من غير كتاب، ولك على عهد الله أن أجعل يدى فى يده.

فأذن له بالخروج. فلما وقف على عمر.

قال: تؤمننى يا أمير المؤمنين؟

قال: ومن أى الأجناد أنت؟

قال: من جند مصر.

قال: فلعلك شريك بن سمى الغطفانى.

قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: لأجعلنك نكالا لمن خلفك.

قال: أوتقبل منى ما قبل الله تعالى من العباد؟

قال: وتفعل؟

قال: نعم.

فكتب إلى عمرو بن العاص أن شريك بن سمى جاءنى تائباً فقبلت منه.

قال: وحدثنا عبدالله بن صالح بن عبد الرحمن بن شريح، عن أبى قبيل، قال: كان الناس يجتمعون بالفسطاط إذا قفلوا، فإذا حضر مرافق الريف خطب عمرو بن العاص الناس فقال: قد حضر مرافق الريف ربيعكم فانصرفوا. فإذا حمض اللبن، واشتد العود، وكثر الذباب، فحى على فسطاطكم، ولا أعلمن ما جاء أحد قد أسمن نفسه وأهزل جواده.

وقال ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، قال: كان عمرو يقول للناس إذا قفلوا من غزوهم: إنه قد حضر الربيع، فمن أحب منكم أن يخرج بفرسه يربعه فليفعل، ولا أعلمن ما جاء أحد قد أسمن نفسه وأهزل فرسه. فإذا حمض اللبن، وكثر الذباب، ولوى العود، فارجعوا إلى قيروانكم.

وعن أبن لهيعة، عن الأسود بن مالك الحميري، عن بحير بن ذاخر المعافري، قال: رحت أنا ووالدى إلى صلاة الجمعة تهجيراً - وذلك بعد حميم النصاير بأيام يسيرة - فأطلنا الركوع، إذ أقيل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس، فذعرت فقلت: يا أبت من هؤلاء؟ فقال: يا بنى هؤلاء الشرط.

فأقام المؤذنون الصلاة، فقام عمرو بن العاص على المنبر. فرأيت رجلاً ربعة، قصير القامة، وافر الهامة، أدعج أبلج، عليه ثياب موشاة كأن به العقبان تأتلق، عليه حلة وعمامة وجبة.. فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً، وصلى على النبى ﷺ، ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم.

فسمعته يحض على الزكاة وصلة الأرحام، ويأمر بالاقتصاد، وينهى عن الفضول، وكثرة العيال، وإخفاض الحال فى ذلك... فقال: «يامعشر الناس أياكم وخلالا أربعا، فإنها تدعو إلى النصب بعد الراحة، وإلى الضيق بعد السعة، وإلى الذلة بعد العزة. أياكم وكثرة العيال، وإخفاض الحال، وتضييع المال، والقيل بعد القال، فى غير درك ولا نوال...

«ثم إنه لابد من فراغ يؤول إليه المرء فى توديع جسمه، والتدبير لشأنه، وتخليته بين نفسه وبين شهواتها. ومن صار إلى ذلك، فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل، ولا يضيع المرء فى فراغه نصيب العلم من نفسه، فيجوز من الخير عاطلاً، وعن حلال الله وحرامه غافلاً...

«يامعشر الناس إنه قد تدلت الجوزاء، وذلت الشعري، وأقلعت السماء، وارتفع الوباء، وقل الندي، وطاب المرعي، ووضعت الحوامل، ودرجت السخائل، وعلى الراعى بحسن رعيته حسن النظر. فحى لكم - على بركة الله تعالى - إلى ريفكم، فنالوا من خيره ولبنه

وخرافه وصيده، واربعوا خيلكم وأسمنوها، وصونوها وأكرموها، فإنها جنتكم من عدوكم، وبها مغانمكم وأنفالكم، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً. . .

«واياكم والمومسات المعسولات، فانهن يفسدن الدين، ويقصون الهمم. . . حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيرا، فإن لهم فيكم صهرا وذمة». فكفوا أيديكم، وعفوا فروجكم، وغضوا أبصاركم. ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمة وأهزل فرسه، وأعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال، فمن أهزل نفسه من غير علة، حططته من فريضته قدر ذلك. . .

«وأعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة، لكثرة الأعداء حولكم، وتشوف قلوبهم إليكم، وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية. وحدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا فتح الله عليكم مصر، فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً، فذلك الجند خير أجناد الأرض». فقال له أبو بكر رضى الله عنه: ولم يا رسول الله؟ قال: «لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة». . .

«فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم، فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم. فإذا يبس العود، وسخن الماء، وكثر الذباب، وحمض اللبن، وصوح البقل، وانقطع الورد من الشجر. . . فحى إلى فسطاطكم على بركة الله، ولايقدمن أحد منكم ذو عيال إلا ومعه تحفه لعياله، على ما أطاق من سعته أو عسرته. أقول قولى هذا، وأستحفظ الله عليكم».

قال فحفظت ذلك عنه. فقال والدي، بعد انصرافنا إلى المنزل، لما حكيت له خطبته: أنه يابنى يحذر الناس إذا أنصرفوا إليه على الرباط كما حذرهم على الريف والدعة.

قال: وكان إذا جاء وقت الربيع كتب لكل قوم بربيعهم ولبنهم إلى حيث أحبوا. وكانت القرى التى يأخذ فيها معظمهم منوف وسمنود وأهناس وطحا. وكان أهل الراية متفرقين: فكان آل عمرو بن العاص وآل عبدالله بن سعد يأخذون فى منوف ووسيم، وكانت هذيل تأخذ فى ببا وبوصير، وكانت عدوان تأخذ فى بوصير وقرى عك. والذى يأخذ فيه معظمهم بوصير ومنوف وسندبيس وأتريب.

وكانت بلى تأخذ فى منف وطرَّانية ، وكانت فهم تأخذ فى أتريب وعين شمس ومنوف ، وكانت مهرة تأخذ فى منا ونمى وبسطة ووسيم ، وكانت لخم تأخذ فى الفيوم وطرانية وقربيط ، وكانت جذام تأخذ فى قربيط وطرانية ، وكانت حضر موت تأخذ فى ببا وعين شمس وأتريب ، وكانت مراد تأخذ فى منف والفيوم ومعهم عبس بن زوف ، وكانت حمير تأخذ فى بوصير وقرى أهناس ، وكانت خولان تأخذ فى قرى أهناس والقيس والبهنسا .

وآل وعلة يأخذون فى سفط من بوصير ، وآل أبرهة يأخذون فى منف ، وغفار وأسلم يأخذون مع وائل من جذام وسعد فى بسطة وقربيط وطرانية ، وآل يسار بن ضبة فى أتريب . وكانت المعافر تأخذ فى أتريب وسخا ومنوف ، وكانت طائفة من تجيب ومراد يأخذون باليدقون .

وكان بعض هذه القبائل ربما جاور بعضا فى الربيع ، ولايوقف فى معرفة ذلك على أحد . . . إلا أن معظم القبائل كانوا يأخذون حيث وصفنا . . وكان يكتب لهم بالربيع فيربعون ما أقاموا وباللبن ، وكان لغفار وليث أيضاً مربع بأتريب .

قال : وأقامت مدلج بخربتا فاتخذوها منزلاً ، وكان معهم نفر من حمير حالفوهم فيها . فهى منازلهم ، ورجعت خشين وطائفة من لخم وجذام فنزلوا أكناف صان وابليل وطرانية . ولم تكن قيس بالحوف الشرقى قديماً ، وإنما أنزلهم به ابن الحبحاب . وذلك أنه وفد إلى هشام بن عبدالملك ، فأمر له بفريضة خمسة آلاف رجل ، فجعل ابن الحبحاب الفريضة فى قيس ، وقدم بهم فأنزلهم الحوف الشرقى بمصر .

فأنظر - أعزك الله - ما كان عليه الصحابة وتابعوهم عند فتح مصر من قلة السكنى بالريف . ومع ذلك فكانت القرى كلها فى جميع الإقليم ، أعلاه وأسفله ، مملوءة بالقبط والروم . ولم ينتشر الإسلام فى قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة ، عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب - مولى سلول - قيسا بالحوف الشرقي . فلما كان فى المائة الثانية من سنى الهجرة ، كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها . وما برحت القبط تنقض وتحارب المسلمين إلى ما بعد المائتين من سنى الهجرة .

قال أبو عمرو محمد بن يوسف الكندى فى كتاب «أمراء مصر» : وفى إمرة الحر بن يوسف أمير مصر، كتب عبيدالله بن الحبحاب - صاحب خراج مصر - إلى هشام بن عبدالملك بأن أرض مصر تحتمل الزيادة. فزاد على كل دينار قيراطاً، فنقضت كورة تنمو ونمى وقربيط وطرانية وعامة الحوف الشرقي. فبعث إليهم الحر بأهل الديوان فحاربوهم، فقتل منهم خلق كثير. وذلك أول نقض القبط بمصر، وكان نقضهم فى سنة تسع ومائة، ورابط الحر بن يوسف بدمياط ثلاثة أشهر.

ثم نقض أهل الصعيد، وحارب القبط عمالهم فى سنة إحدى وعشرين ومائة. فبعث إليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر، أهل الديوان، فقتلوا من القبط ناساً كثيراً فظفر بهم. وخرج بحنس - وهو رجل من القبط - من سمنود، فبعث إليه عبدالملك ابن مروان موسى بن نصير أمير مصر، فقتل بحنس فى كثير من أصحابه، وذلك فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة. وخالفت القبط أيضاً برشيد، فبعث إليهم مروان بن محمد الحمار - لما دخل مصر فارا من بنى العباس - عثمان ابن أبى سبعة فهزمهم.

وخرج القبط على يزيد بن حاتم بن قبيصة ابن المهلب بن أبى صفرة أمير مصر بناحية سخا، ونابذوا العمال، وأخرجوهم فى سنة خمسين ومائة، وصاروا إلى شبرا سنباط، وانضم إليهم أهل البشرود والأوسية والتخوم. فأتى الخبر يزيد بن حاتم، فعقد لنصر بن حبيب المهلبى على أهل الديوان ووجوه أهل مصر، فخرجوا إليهم، ولقيهم القبط وقتلوا من المسلمين، فألقى المسلمون النار فى عسكر القبط، وأنصرف العسكر إلى مصر منهزماً.

وفى ولاية موسى بن على بن رباح على مصر، خرج القبط ببلهيت فى سنة ست وخمسين ومائة، فخرج إليهم عسكر فهزمهم. ثم نقضت القبط فى جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين، مع من نقض من أهل أسفل الأرض من العرب، وأخرجوا العمال، وخلعوا الطاعة لسوء سيرة العمال فيهم.

فكانت بينهم وبين الجيوش حروب امتدت إلى أن قدم الخليفة عبدالله أمير المؤمنين المأمون إلى مصر، لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين، فعقد على جيش بعث به إلى الصعيد، وارتحل هو إلى سخا.

وأوقع الأفشين بالقبط فى ناحية البشرود حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين، فحكم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال، فبيعوا وسبى أكثرهم.

وتتبع كل من يوماً إليه بخلاف، فقتل ناساً كثيراً، ورجع إلى الفسطاط فى صفر، ومضى إلى حلوان، وعاد لثمان عشرة خلت من صفر. فكان مقامه بالفسطاط وسخا وحلوان تسعة وأربعين يوماً.

فانظر - أعزك الله - كيف كانت إقامة الصحابة إنما هى بالفسطاط والإسكندرية، وأنه لم يكن لهم كثير إقامة بالقري، وأن النصارى كانوا متمكنين من القرى والمسلمون بها قليل، و أنهم لم ينتشروا بالنواحى إلا بعد عصر الصحابة والتابعين. . يتبين لك أنهم لم يؤسسوا فى القرى والنواحى مساجد.

وتفطن لشئ آخر. وهو أن القبط ما برحوا، كما تقدم، يثبتون لمحاربة المسلمين دالة منهم بما هم عليه من القوة والكثرة. فلما أوقع بهم المأمون الوقعة التى قلنا، غلب المسلمون على أماكنهم من القرى لما قتلوا منهم وسبوا، وجعلوا عدة من كنائس النصارى مساجد.

وكنائس النصارى مؤسسة على استقبال المشرق واستدبار المغرب، زعما منهم أنهم أمروا باستقبال مشرق الاعتدال، وأنه الجنة لطلوع الشمس منه. فجعل المسلمون أبواب الكنائس محاريب عندما غلبوا عليها وصيروها مساجد، فجاءت موازية لخط نصف النهار، وصارت منحرفة عن محاريب الصحابة انحرافاً كثيراً يحكم بخطئها وبعدها عن الصواب كما تقدم.

السبب الثانى : تساهل كثير من الناس فى معرفة أدلة القبلة. حتى أنك لتجد كثيراً من الفقهاء لايعرفون منازل القمر صورة وحساباً، وقد علم من له ممارسة بالرياضيات أن بمنازل القمر يعرف وقت السحر وانتقال الفجر فى المنازل، وناهيك بما يترتب على معرفة ذلك من أحكام الصلاة والصيام. وهذه المنازل التى للقمر من بعض مايستدل به على القبلة والطرقات، وهى من مبادئ العلم وقد جهلوه، فمن أعوزه الأدنى فحريه أن يجهل ما هو أعلى منه وأدق.

السبب الثالث : الاعتذار بنجم سهيل . فإن كثيراً ما يقع الاعتدار عن مخالفة محاريب المتأخرين بأنها بنيت على مقابلة سهيل ، ومن هنا يقع الخطأ . فإن هذا أمر يحتاج فيه إلى تحرير ، وهو أن دائرة سهيل مطلعها جنوب مشرق الشتاء قليلاً ، وتوسطها فى أوسط الجنوب ، وغروبها يميل عن أوسط الجنوب قليلاً .

فلعل من تقدم من السلف أمر ببناء المساجد فى القرى على مقابلة مطالع سهيل - ومطلعه فى سمت قبلة مصر تقريباً - فجهل من قام بأمر البنيان فرق ما بين مطالع سهيل وتوسطه وغروبه ، وتساهل فوضع المحراب على مقابلة توسط سهيل - وهو أوسط الجنوب - فجاء المحراب حينئذ منحرفاً عن السمت الصحيح انحرافاً لايسوغ التوجه إليه ألبته .

السبب الرابع : أن المحاريب الفاسدة بديار مصر أكثرها فى البلاد الشمالية التى تعرف بالوجه البحري . والذى يظهر أن الغلط دخل على من وضعها من جهة ظنه أن هذه البلاد لها حكم بلاد الشام . وذلك أن بلاد مصر التى فى الساحل كثيرة الشبه ببلاد الشام فى كثرة أمطارها وشدة بردها وحسن فواكهها ، فاستطرد الشبه حتى فى المحاريب ووضعها على سمت المحاريب الشامية ، فجاء شيئاً خطأ .

وبيان ذلك أن هذه البلاد ليست بشمالية عن الشام ، حتى يكون حكمها فى استقبال الكعبة كالحكم فى البلاد الشامية ، بل هى مغربة عن الجانب الغربى من الشام بعدة أيام ، وسمتاهما مختلفان فى استقبال الكعبة لاختلاف القطرين . فإن الجانب الغربى من الشام كما تقدم مقابل ميزاب الكعبة على خط مستقيم ، وهو حيث مهب النكباء التى بين الشمال والدبور ، ووسط الشام كدمشق وما والاها شمال مكة من غير ميل ، وهم يستقبلون أوسط الجنوب فى صلاتهم بحيث يكون القطب الشمإلى المسمى بالجدى وراء ظهورهم .

والمدينة النبوية بين هذا الحد من الشام وبين مكة مشرقة عن هذا الحد قليلاً . فإذا كانت مصر مغربة عن الجانب الغربى من الشام بأيام عديدة ، تعين ووجب أن تكون محاريبها ولا بد مائلة إلى جهة المشرق بقدر بعد مصر وتغريبها عن أوسط الشام . . وهذا أمر يدركة الحس ، ويشهد لصحته العيان . وعلى ذلك أسس الصحابة ، رضى الله عنهم ، المحاريب بدمشق وبيت المقدس مستقبلة ناحية الجنوب ، وأسسوا المحاريب بمصر مستقبلة المشرق مع ميل يسير عنه إلى ناحية الجنوب .

فرض ـ رحمك الله ـ نفسك فى التمييز، وعود نظرك التأمل، واربأ بنفسك أن تقاد، كما تقاد البهيمة، بتقليدك من لا يؤمن عليه الخطأ. فقد نهجت لك السبيل فى هذه المسألة وألنت لك من القول، وقربت لك حتى كأنك تعاين الأقطار وكيف موقعها من مكة.

ولى هنا مزيد بيان فيه الفرق بين إصابة العين وإصابة الجهة. وهو أن المكلف لو وقف، وفرضنا أنه خرج خط مستقيم من بين عينيه، ومر حتى اتصل بجدار الكعبة من غير ميل عنها إلى جهة من الجهات.. فإنه لابد أن ينكشف لبصره مدى عن يمينه وشماله لاينتهى بصره إلى غيره إن كان لاينحرف عن مقابلته.

فلو فرضنا امتداد خطين من كلا عينى الوقف ـ بحيث يلتقيان فى باطن الرأس على زاوية مثلثة، ويتصلان بما انتهى إليه البصر من كلا الجانبين ـ لكان ذلك شكلاً مثلثاً، بقسمة الخط الخارج من بين العينين إلى الكعبة بنصفين، حتى يصير ذلك الشكل بين مثلثين متساويين.

فالخط الخارج من بين عينى مستقبل الكعبة، الذى فرق بين الزاويتين، هو مقابلة العين التى اشترط الشافعى رحمه الله وجوب استقباله من الكعبة عند الصلاة. ومنتهى ما يكشف بصر المستقبل من الجانبين، هو حد مقابلة الجهة التى قال جماعة من علماء الشريعة بصحة استقباله فى الصلاة.

والخطان الخارجان من العينين إلى طرفيه هما آخر الجهة من اليمين والشمال. فمهما وقعت صلاة المستقبل على الخط الفاصل بين الزاويتين كان قد استقبل عين الكعبة، ومهما وقعت صلاته منحرفه عن يمين الخط أو يساره ـ بحيث لايخرج استقباله عن منتهى حد الزاويتين المحدودتين بما يكشف بصره من الجانبين ـ فإنه مستقبل جهة الكعبة. وإن خرج استقباله عن حد الزاويتين من أحد الجانبين، فإنه يخرج فى استقباله عن حد جهة الكعبة.

وهذا الحد فى الجهة يتسع ببعد المدى ويضيق بقربه، فأقصى ما ينتهى إليه اتساعه ربع دائرة الأفق.. وذلك أن الجهات المعتبرة فى الاستقبال أربع: المشرق، والمغرب، والجنوب، والشمال. فمن استقبل جهة من هذه الجهات، كان أقصى ما ينتهى إليه سعة تلك الجهة ربع دائرة الأفق. وإن انكشف لبصره أكثر من ذلك، فلا عبرة به من أجل ضرورة تساوى الجهات. فإنا لو فرضنا إنساناً وقف فى مركز دائرة، واستقبل جزءاً من محيط

الدائرة، لكانت كل جهة من جهاته الأربع - التى هى وراءه وأمامه ويمينه وشمالية - تقابل ربعا من أرباع الدائرة.

فتبين بما قلنا أ أقصى ما ينتهى إليه اتساع الجهة قدر ربع دائرة الأفق. فأى جزء من أجزاء دائرة الأفق قصده الواقف بالاستقبال فى بلدا من البلدان، كانت جهة ذلك الجزء المستقبل ربع دائرة الأفق، وكان الخط الخارج من بين عينى الواقف إلى وسط تلك الجهة هو مقابلة العين، ومنتهى الربع من جانبيه يمنة ويسرة هو الجهة التى قد استقبلها.

فما خرج من محاريب بلد من البدان عن حد جهة الكعبة، لاتصح الصلاة لذلك المحراب بوجه من الوجوه. وما وقع فى جهة الكعبة، صحت الصلاة إليه عند من يرى أن الفرض فى استقبال الكعبة أصابة جهتها. وما وقع فى مقابلة عين الكعبة، فهو الأسد الأفضل الأولى عند الجمهور.

وإن أنصفت علمت أنه مهما وقع الأستقبال فى مقابلة جهة الكعبة، فإنه يكون سديداً وأقرب منه إلى الصواب ما وقع قريباً من مقابلة العين يمنه أو يسره، بخلاف ما وقع بعيداً عن مقابلة العين فإنه بعيد من الصواب، ولعله هو الذى يجرب فيه الخلاف بين علماء الشريعة. والله أعلم.

وحيث تقرر الحكم الشرعى بالأدلة السمعية والبراهين العقلية فى هذه المسألة. فاعلم أن المحاريب المخالفة لمحاريب الصحابة، التى بقرافة مصر وبالوجه البحرى من ديار مصر، واقعة فى آخر جهة الكعبة من مصر، وخارجه عن حد الجهة. وهى مع ذلك فى مقابلة ما بين البجة والنوبة، لا فى مقابلة الكعبة، فإنها منصوبة على موازاة خط نصف النهار.

ومحاريب الصحابة على موازاة مشرق الشتاء تجاه مطالع العقرب، مع ميل يسير عنها إلى ناحية الجنوب. فإذا جعلنا مشرق الشتاء المذكور مقابلة عين الكعبة لأهل مصر، وفرضنا جهة ذلك الجزء ربع دائرة الأفق، صار سمت المحاريب التى هى موازية لخط نصف النهار خارجاً عن جهة الكعبة، والذى يستقبلها فى الصلاة يصلى إلى غير شطر المسجد الحرام. وهو خطر عظيم، فاحذره.

وأعلم أن صعيد مصر واقع فى جنوب مدينة مصر، وقوص واقعة فى شرقى الصعيد وفيما بين مهب ريح الجنوب والصبا من ديار مصر. فالمتوجه من مدينة قوص إلى عيذاب يستقبل مشرق الشتاء سواء إلى أن يصل إلى عيذاب حتى ينتهى فى البحر إلى جدة، فإذا سار من جدة فى البر استقبل المشرق كذلك حتى يحل بمكة، فإذا عاد من مكة استقبل المغرب.

فاعرف من هذا أن مكة واقعة فى النصف الشرقى من الربع الجنوبى بالنسبة إلى أرض مصر، وهذا هو سمت محاريب الصحابة التى بديار مصر والإسكندرية، وهو الذى يجب أن يكون سمت جميع محاريب إقليم مصر.

برهان آخر: وهو أن من سار من مكة يريد مصر على الجادة، فإنه يستقبل ما بين القطب الشمإلى ـ الذى هو الجدى ـ وبين مغرب الصيف مدة يومين وبعض إليوم الثالث، وفى هذه المدة يكون مهب النكباء التى بين الشمال والمغرب تلقاء وجهه. ثم يستقبل بعد ذلك فى مدة ثلاثة أيام أوسط الشمال، بحيث يبقى الجدى تلقاء وجهه، إلى أن يصل إلى بدر.

فإذا سار من بدر إلى المدينة النبوية، صار مشرق الصيف تلقاء وجهه تارة، ومشرق الاعتدال تارة إلى أن ينتهى إلى المدينة.

فإذا رجع من المدينة إلى الصفراء، استقبل مغرب الشتاء إلى أن يعدل إلى ينبع، فيصير تارة يسير شمالاً وتارة يسير مغرباً، ويكون ينبع من مكة على حد النكباء التى بين الشمال ومغرب الصيف.

فإذا سار من ينبع استقبل ما بين الجدى ومغرب الثريا ـ وهو مغرب الصيف ـ وهبت النكباء تلقاء وجهه إلى أن يصل إلى مدين. فإذا سار من مدين، استقبل تارة الشمال وأخرى مغرب الصيف حتى يدخل أيلة. ومن أيلة لايزال يستقبل مغرب الاعتدال تارة، ويميل عنه إلى جهة الجنوب مع استقبال مغرب الشتاء أخري، إلى أن يصل إلى القاهرة ومصر.

فلو فرضنا خطا خرج من محاريب مصر الصحيحة التى وضعها الصحابة، ومر على استقامة من غير ميل ولا انحراف، لاتصل بالكعبة ولصق بها.

واعلم أن أهل مصر والإسكندرية وبلاد الصعيد وأسفل الأرض وبرقة وإفريقية وطرابلس المغرب وصقلية والأندلس وسواحل المغرب إلى السوس الأقصى والبحر المحيط، وما على سمت هذه البلاد، يستقبلون فى صلاتهم من الكعبة ما بين الركن الغربى إلى الميزاب.

فمن أراد أن يستقبل الكعبة فى شئ من هذه البلاد، فليجعل بنات نعش إذا غربت خلف كتفه الأيسر، وإذا طلعت على صدغه الأيسر، ويكون الجدى على أذنه إليسري، ومشرق الشمس تلقاء وجهه، أو ريح الشمال خلف أذنه إليسري، أو ريح الدبور خلف كتفه الأيمن، أو ريح الجنوب التى تهب من ناحية الصعيد على عينه إليمني. فإنه حينئذ يستقبل من الكعبة سمت محاريب الصحابة الذين أمرنا الله باتباع سبيلهم، ونهانا عن مخالفتهم بقوله عز وجل ﴿**ومن يشافق الرسول من بعد ما تبين له الهدى، ويتبع غير سبيل المؤمنين، نوله ماتولى، ونصله جهنم وساءت مصيرا**﴾.[1] ألهمنا الله بمنه اتباع طريقهم، وصيرنا بكرمه من حزبهم وفريقهم. إنه على كل شئ قدير.

جامع العسكر

هذا الجامع بظاهر مصر، وهو حيث الفضاء الذى هو إليوم فيما بين جامع أحمد بن طولون وكوم الجارح بظاهر مدينة مصر، وكان إلى جانب الشرطة والدار التى يسكنها أمراء مصر، ومن هذه الدار إلى الجامع باب، وكان يجمع فيه الجمعة، وفيه منبر ومقصورة.

وهذا الجامع بناه الفضل بن صالح بن على بن عبدالله بن عباس، فى ولايته إمارة مصر، ملاصقاً لشرطة العسكر - التى كان يقال لها الشرطة العليا - فى سنة تسع وستين ومائة فكانوا يجمعون فيه.

وكانت ولاية الفضل إمارة مصر، من قبل المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور، على الصلاة والخراج. فدخلها سلخ المحرم سنة تسع وستين ومائة فى عسكر من الجند عظيم أتى بهم من الشام، ومصر تضطرم لما كان فى الحوف، ولخروج دحية بن مصعب بن الأصبغ بن

(١) سورة النساء - آية ١١٤ - ٤م.

عبدالعزيز بن مروان. فقام فى ذلك، وجهز الجنود حتى أسر دحية، وضرب عنقه فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة. وكان يقول: أنا أولى الناس بولاية مصر لقيامى فى أمر دحية، وقد عجز عنه غيرى حتى كفيت أهل مصر أمره. فعزله موسى الهادى لما استخلف بعد موت أبيه المهدى بعد ما أقره. فندم الفضل على قتل دحية، وأظهر توبة، وسار إلى بغداد. فمات عن خمسين سنة فى سنة اثنتين وسبعين ومائة.

ولم يزل الجامع بالعسكر إلى أن ولى عبدالله بن طاهر بن الحسين بن مصعب مولى خزاعة، على صلاة مصر وخراجها، من قبل عبدالله أمير المؤمنين المأمون، فى ربيع الأول سنة إحدى عشر ومائتين، فزاد فى عمارته، وكان الناس يصلون فيه الجمعة قبل بناء جامع أحمد بن طولون. ولم يزل هذا الجامع إلى ما بعد الخمسمائة من سنى الهجرة.

قال ابن المأمون فى تاريخه من حوادث سنة سبع عشرة وخمسمائة: وكان يطلق فى الأربع ليإل الوقود - وهى مستهل رجب، ونصفه، ومستهل شعبان، ونصفه - برسم الجوامع الستة: الأزهر، والأنور، والأقمر بالقاهرة، والطولوني، والعتيق بمصر، وجامع القرافة، والمشاهد التى تتضمن الأعضاء الشريفة، وبعض المساجد التى يكون لأربابها وجاهة... جملة كثيرة من الزيت الطيب، ويختص بجامع راشدة وجامع ساحل الغلة بمصر والجامع بالمقس يسير.

ويعنى بجامع ساحل الغلة جامع العسكر، فإن العسكر حينئذ كان قد خرب وحملت أنقاضه، وصار الجامع بساحل مصر، وهو الساحل القديم المذكور فى موضعه من هذا الكتاب.

ذكر العسكر

كان مكان العسكر فى صدر الإسلام يعرف بعد الفتح بالحمراء القصوي. وهى كما تقدم خطة بنى الأزرق، وخطة بنى روبيل، وخطة بنى يشكر بن جزيلة من لخم. ثم دثرت هذه الحمراء وصارت صحراء.

فلما زالت دولة بنى أمية، ودخلت المسودة إلى مصر فى طلب مروان بن محمد الجعدى فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة - وهى خراب فضاء يعرف بعضه بجبل يشكر - نزل صالح بن على بن عبدالله بن عباس، وأبو عون عبدالملك بن يزيد، بعسكرهما فى هذا الفضاء، وأمر عبدالملك أبو عون أصحابه بالبناء فيه فبنوا، وسمى من يومئذ بالعسكر.

وصار أمراء مصر إذا قدموا ينزلون فيه من بعد أبى عون، وقال الناس من عهده: كنا بالعسكر، وخرجنا إلى العسكر، وكنت فى العسكر. فصارت مدينة الفسطاط والعسكر، ونزل الأمراء من عهد أبى عون بالعسكر.

فلما ولى يزيد بن حاتم إمارة مصر، وقام على بن محمد بن عبدالله بن حسن وطرق المسجد، كتب أبو جعفر المنصور إلى يزيد بن حاتم يأمره أن يتحول من العسكر إلى الفسطاط، وأن يجعل الديوان فى كنائس القصر، وذلك فى سنة ست وأربعين ومائة.

إلى أن قدم الأمير أبو العباس أحمد بن طولون من العراق، أميراً على مصر، فنزل بالعسكر بدار الإمارة التى بناها صالح بن على بعد هزيمة مروان وقتله، وكان لها باب إلى الجامع الذى بالعسكر.

وكان الأمراء ينزلون بهذه الدار إلى أن نزلها أحمد بن طولون، ثم تحول منها إلى القطائع. وجعلها أبو الجيش خمارويه بن أحمد ابن طولون، عند إمارته على مصر، ديواناً للخراج. ثم فرقت حجراً حجراً بعد دخول محمد بن سليمان الكاتب إلى مصر وزوال دولة بنى طولون. وسكن محمد بن سليمان أيضاً بدار فى العسكر عند المصلى القديم، ونزلها الأمراء من بعده... إلى أن ولى الإخشيد محمد بن طغج، فنزل بالعسكر أيضاً.

ولما بنى أحمد بن طولون القطائع اتصلت مبانيها بالعسكر، وبنى الجامع على جبل يشكر، فعمر ما هناك عمارة عظيمة.. بحيث كانت هناك دار على بركة قارون أنفق عليها كافور الإخشيدى مائة ألف دينار وسكنها، وكان هناك مارستان أحمد بن طولون أنفق عليه وعلى مستغله ستين ألف دينار.

وقدمت عساكر المعز لدين الله مع كاتبه وغلامه جوهر القائد، فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، والعسكر عامر. غير أنه منذ بنى أحمد بن طولون القطائع هجر اسم العسكر،

وصار يقال مدينة الفسطاط والقطائع . فلما خرب محمد بن سليمان الكاتب قصر ابن طولون وميدانه - كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب - صارت القطائع فيها المساكن الجليلة حيث كان العسكر .

وأنزل المعز لدين الله عمه أبا على فى دار الإمارة ، فلم يزل أهله بها إلى أن خربت القطائع فى الغلاء الكائن بمصر فى خلافه المستنصر أعوام بضع وخمسين وأربعمائة . فيقال إنه كان هنالك ما ينيف على مائة ألف دار .

ولاينكر ذلك . فانظر ما بين سفح الجبل - حيث القلعة الآن - وبين ساحل مصر القديم الذى يعرف إليوم بالكبارة ، وما بين كوم الجارح من مصر وقناطر السباع . . فهناك كانت القطائع والعسكر . ويخص العسكر من ذلك ما بين قناطر السباع وحدرة ابن قميحة إلى كوم الجارح ، حيث الفضاء الذى يتوسط فيما بين قنطرة السد وباب المخدم من جهة القرافة . . . هناك كان العسكر .

ولما استولى الخراب فى المحنة زمن المستنصر ، أمر الوزير الناصر للدين عبدالرحمن البازورى ببناء حائط يستر الخراب إذا توجه الخليفة إلى مصر فيما بين العسكر والقطائع وبين الطريق ، وأمر فبنى حائط آخر عند جامع ابن طولون .

فلما كان فى خلافه الآمر بأحكام الله أبى على منصور بن المستعلى بالله ، أمر وزيره أبو عبدالله محمد بن فاتك - المنعوت بالمأمون البطائحى - فنودى مدة ثلاثة أيام فى القاهرة ومصر : بأن من كان له دار فى الخراب أو مكان يعمره ، ومن عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره من غير نقل شئ من أنقاضه ، ومن تأخر بعد ذلك فلاحق له ولاحكر يلزمه . وأباح تعمير جميع ذلك بغير طلب حق .

فعمر الناس ما كان منه مما يلى القاهرة ، من حيث مشهد السيدة نفيسة إلى ظاهرة باب زويلة ، ونقلت أنقاض العسكر ، فصار الفضاء الذى يوصل إليه من مشهد السيدة نفيسة ومن الجامع الطولون ومن قنطرة السد ، ويسلك فيه إلى حيث كوم الجارح . والعامر الآن من العسكر جبل يشكر الذى فيه جامع ابن طولون ، وما حوله إلى قناطر السباع ، كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى .

جامع ابن طولون

هذا الجامع موضعه يعرف بجبل يشكر . . . قال ابن عبدالظاهر : وهو مكان مشهور بإجابة الدعاء ، وقيل إن موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات .

وابتدأ فى بناء هذا الجامع الأمير أبو العباس أحمد بن طولون ، بعد بناء القطائع ، فى سنة ثلاث وستين ومائتين .

قال جامع السيرة الطولونية : كان أحمد بن طولون يصلى الجمعة فى المسجد القديم الملاصق للشرطة ، فلما ضاق عليه بنى الجامع الجديد مما أفاء الله عليه من المال الذى وجده فوق الجبل ، فى الموضع المعروف بتنور فرعون ، ومنه بنى العين . فلما أراد بناء الجامع قدر له ثلاثمائة عمود ، فقيل له ما تجدها ، أو تنفذ إلى الكنائس فى الأرياف والضياع الخراب فتحمل ذلك . فأنكر ذلك ولم يختره ، وتعذب قلبه بالفكر فى أمره .

وبلغ النصرانى الذى تولى له بناء العين ـ وكان قد غضب عليه وضربه ، ورماه فى المطبق ـ الخبر . فكتب إليه يقول : أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد إلا عمودى القبلة .

فأحضره ، وقد طال شعره حتى نزل على وجهه ، فقال له : ويحك ، ما تقول فى بناء الجامع ! !

فقال : أنا أصوره للأمير حتى يراه عيانا بلا عمد إلا عمودى القبلة .

فأمر بأن تحضر له الجلود ، فأحضرت ، وصوره له ، فأعجبه واستحسنه ، وأطلقه وخلع عليه ، وأطلق له للنفقة عليه مائة ألف دينار ، فقال له : انفق وما احتجت إليه بعد ذلك أطلقناه لك .

فوضع النصرانى يده فى البناء فى الموضع الذى هو فيه ، وهو جبل يشكر ، فكان ينشر منه ويعمل الجير ، ويبنى إلى أن فرغ من جميعه ، وبيضه وخلقه ، وعلق فيه بالقناديل بالسلاسل الحسان الطوال ، وفرش فيه الحصر ، وحمل إليه صناديق المصاحف ، ونقل إليه القراء والفقهاء ، وصلى فيه بدار بن قتيبة القاضي ، وعمل الربيع بن سليمان بابا . . فيما روى عن النبى ﷺ أنه قال : « **من بنى لله مسجداً، ولو كمفحص قطاه، بنى الله له بيتاً في الجنة** » .

فلما كان فى أول جمعة صلاها فيه أحمد بن طولون، وفرغت الصلاة، جلس محمد ابن الربيع خارج المقصورة، وقام المستملى وفتح باب المقصورة، وجلس أحمد بن طولون ولم ينصرف. والغلمان قيام وسائر الحجاب، حتى فرغ المجلس.

فلما فرغ المجلس، خرج إليه غلام بكيس فيه ألف دينار، وقال: يقول لك الأمير نفعك الله بما علمك، وهذه لأبى طاهر (يعنى ابنه). وتصدق أحمد بن طولون بصدقات عظيمة فيه، وعمل طعاماً عظيماً للفقراء والمساكين. وكان يوماً عظيماً حسناً.

وراح أحمد بن طولون، ونزل فى الدار التى عملها فيه للإمارة. وقد فرشت وعلقت، وحملت إليها الآلات والأوانى وصناديق الأشربة وما شاكلها. فنزل بها أحمد، وجدد طهره، وغير ثيابه، وخرج من بابها إلى المقصورة، فركع وسجد شكراً لله تعالى على ما أعانه عليه من ذلك ويسره له.

فلما أراد الانصراف، خرج من المقصورة حتى أشرف على الفوارة، وخرج إلى باب الريح. فصعد النصرانى الذى بنى الجامع، ووقف إلى جانب المركب النحاس وصاح: يا أحمد بن طولون يا أمير الأمان، عبدك يريد الجائزة، ويسأل الأمان ألا يجرى عليه مثل ما جرى فى المرة الأولي.

فقال له أحمد بن طولون: أنزل فقد أمنك الله، ولك الجائزة.

فنزل وخلع عليه، وأمر له بعشرة آلاف دينار، وأجرى عليه الرزق الواسع إلى أن مات.

وراح أحمد بن طولون فى يوم الجمعة إلى الجامع. فلما رقى الخطيب المنير، وخطب - وهو أبو يعقوب البلخى - دعا للمعتمد ولولده، ونسى أن يدعو لأحمد بن طولون، ونزل عن المنبر. فأشار أحمد إلى نسيم الخادم أن اضربه خمسمائة سوط.

فذكر الخطيب سهوه، وهو على مراقى المنبر، فعاد وقال: الحمد لله وصلى الله على محمد **﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما﴾**،[1] اللهم وأصلح الأمير أبا

---

(١) سورة طه - آية ١١٥ - ٢٠ك.

العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين. وزاد فى الشكر والدعاء له بقدر الخطية، ثم نزل. فنظر أحمد إلى نسيم أن أجعلها دنانير. ووقف الخطيب على ما كان منه، فحمد الله تعالى على سلامته، وهنأه الناس بالسلامة.

ورأى أحمد بن طولون الصناع يبنون فى الجامع عند العشاء ـ وكان فى شهر رمضان ـ فقال: متى يشترى هؤلاء الضعفاء إفطارا لعيالهم وأولادهم؟ أصرفوهم العصر. فصارت سنه إلى اليوم بمصر.

فلما فرغ شهر رمضان قيل له: قد انقضى شهر رمضان، فيعودون إلى رسمهم. فقال: قد بلغنى دعاؤهم وقد تبركت به، وليس هذا مما يوفر العمل علينا.

وفرغ منه فى شهر رمضان سنة خمس وستين ومائين، وتقرب الناس إلى ابن طولون بالصلاة فيه، وألزم أولادهم كلهم صلاة الجمعة فى فوارة الجامع، ثم يخرجون بعد الصلاة إلى مجلس الربيع بن سليمان ليكتبوا العلم مع كل واحد منهم وراق وعدة غلمان. وبلغت النفقة على هذا الجامع فى بنائه مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار.

ويقال إن أحمد بن طولون رأى فى منامه: كأن الله تعالى قد تجلى ووقع نوره على المدينة التى حول الجامع، إلا الجامع فإنه لم يقع عليه من النور شئ. فتألم وقال: والله ما بنيته إلا لله خالصاً ومن المال الحلال الذى لا شبهة فيه.

فقال له معبر حاذق: هذا الجامع يبقى ويخرب كل ما حوله، لأن الله تعالى قال: «فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً»، فكل شئ يقع عليه جلال الله عز وجل لا يثبت.

وقد صح تعبير هذه الرؤيا. فإن جميع ما حوله خرب دهراً طويلاً ـ كما تقدم فى موضعه من هذا الكتاب ـ وبقى الجامع عامراً، ثم عادت العمارة لما حوله كما هى الآن.

قال القضاعى رحمه الله: وذكر أن السبب فى بنائه أن أهل مصر شكوا إليه ضيق الجامع يوم الجمعة من جنده وسودانه، فأمر بإنشاء المسجد الجامع بجبل يشكر بن جديلة من لخم. فابتدأ بنيانه فى سنة ثلاث وستين ومائتين، وفرغ منه سنة خمس وستين ومائتين.

وقيل إن أحمد بن طولون قال: أريد أن أبنى بناء إن احترقت مصر بقي، وأن غرقت بقي. فقيل له: يبنى بالجير والرماد، والآجر الأحمر القوى النار إلى السقف، ولا يجعل فيه أساطين رخام، فإنه لاصبر لها على النار.

فبناه هذا البناء، وعمل فى مؤخره ميضأة، وخزانة شراب فيها جميع الشرابات والأدوية، وعليها خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة. وبناه على بناء جامع سامرا، وكذلك المنارة، وعلق فيه سلاسل النحاس المفرغة والقناديل المحكمة، وفرشه بالحصر العبدانية والسامانية.

«حديث الكنز»

قال جامع السيرة: لما ورد على أحمد بن طولون كتاب المعتمد بما استدعاه من رد الخراج بمصر إليه، وزاده المعتمد مع ما طلب الثغور الشامية، رغب بنفسه عن المعادن ومرافقها، فأمر بتركها، وكتب باسقاطها فى سائر الأعمال، ومنع المتقبلين من الفسخ على المزارعين، وحظر الإتفاق على العمال.

وكان قبل إسقاط المرافق بمصر قد شاور عبدالله بن دسومة فى ذلك ـ وهو يومئذ أمين على أبى أيوب متولى الخراج ـ فقال: إن أمننى الأمير تكلمت بما عندي.

فقال له : قد أمنك الله عز وجل.

فقال : أيها الأمير إن الدنيا والآخرة ضرتان، والحازم من لم يخلط إحداهما مع الأخري، والمفرط من خلط بينهما فيتلف أعماله ويبطل سعيه. وأفعال الأمير ـ أيده الله ـ الخير، وتوكله توكل الزهاد، وليس مثله من ركب خطة لم يحكمها. ولو كنا نثق بالنصر دائماً طول العمر، لما كان شئ عندنا آثر من التضييق على أنفسنا فى العاجل بعمارة الآجل، ولكن الإنسان قصير العمر، كثير المصائب، مدفوع إلى الآفات. وترك الإنسان ما قد أمكنه وصار فى يده تضييع، ولعل الذى حماه نفسه يكون سعادة لمن يأتى من بعده، فيعود ذلك توسعة لغيره بما حرمه هو..

ويجتمع للأمير ـ أيده الله ـ بما قد عزم على إسقاطه من المرافق فى السنة بمصر دون غيرها مائة ألف دينار. وإن فسخ ضياع الأمراء والمتقبلين فى هذه السنة، لأنها سنة ظمأ توجب الفسخ، زاد مال البلد، وتوفر توفراً عظيماً ينضاف إلى مال المرافق، فيضبط به الأمير ـ أيده الله ـ أمر دنياه. وهذه طريقة أمور الدنيا، وأحكام أمور الرياسة والسياسة، وكل ما عدل الأمير ـ أيده الله ـ إليه من أمر غير هذا فهو مفسد لدنياه. وهذا رأيي، والأمير ـ أيده الله ـ على ما عساه يراه.

فقال له: ننظر فى هذا أن شاء الله.

وشغل قلبه كلامه، فبات تلك الليلة بعد أن مضى أكثر الليل يفكر فى كلام ابن دسومة، فرأى فى منامه رجلاً من إخوانه الزهاد بطرسوس وهو يقول له: ليس ما أشار به عليك من استشرته فى أمر الارتفاق والفسخ برأى تحمد عاقبته فلا تقبله، ومن ترك شيئاً لله عز وجل عوضه الله عنه، فأمض ما كنت عزمت عليه.

فلما أصبح أنفذ الكتب إلى سائر الأعمال بذلك، وتقدم به فى سائر الدواوين بإمضائه، ودعى بابن دسومة فعرفه بذلك. فقال له: قد أشار عليك رجلان، والواحد فى اليقظة والآخر ميت فى النوم، وأنت إلى الحى أقرب وبضمانه أوثق.

فقال: دعنا من هذا، فلست أقبل منك.

وركب فى غد ذلك اليوم إلى نحو الصعيد. فلما أمعن فى الصحراء ساخت فى الأرض يد فرس بعض غلمانه ـ وهو رمل ـ فسقط الغلام فى الرمل، فإذا ينفق ففتح، فأصيب فيه من المال ما كان مقداره ألف ألف دينار.

وهو الكنز الذى شاع خبره.

وكتب به إلى العراق أحمد بن طولون يخبر المعتمد به، ويستأذنه فيما يصرفه فيه من وجوه البر وغيرها، فبنى منه المارستان. ثم أصاب بعده فى الجبل مالا عظيماً، فبنى منه الجامع، ووقف جميع ما بقى من المال فى الصدقات. وكانت صدقاته ومعروفه لاتحصى كثرة.

ولما انصرف من الصحراء، وحمل المال، أحضر ابن دسومة وأراه المال، وقال له : بئس الصاحب والمستشار أنت. هذا أول بركة مشورة الميت فى النوم، ولولا أننى أمنتك لضربت عنقك.

وتغير عليه وسقط محله عنده. ورفع إليه بعد ذلك أنه قد أجحف بالناس، وألزمهم أشياء ضجوا منها. فقبض عليه وأخذ ماله وحبسه، فمات فى حبسه.

وكان ابن دسومة واسع الحيلة، بخيل الكف، زاهداً فى شكر الشاكرين، لا يهش إلى شئ من أعمال البر، وكان أحمد بن طولون من أهل القرآن، إذا جرت منه إساءة استغفر وتضرع.

وقال ابن عبدالظاهر : سمعت غير واحد يقول : إنه لما فرغ أحمد بن طولون من بناء هذا الجامع، أسر للناس بسماع ما يقوله الناس فيه من العيوب. فقال رجل : محرابه صغير، وقال آخر : ما فيه عمود، وقال آخر : ليست له ميضأة.

فجمع الناس وقال : أما المحراب فإنى رأيت رسول الله ﷺ وقد خطه لي، فأصبحت فرأيت النمل قد أطافت بالمكان الذى خطه لي. وأما العمد فإنى بنيت هذا الجامع من مال حلال وهو الكنز، وما كنت لأشوبه بغيره، وهذه العمد إما أن تكون من مسجد أو كنيسة فنزهته عنها. وأما الميضأة فإنى نظرت، فوجدت ما يكون بها من النجاسات فطهرته منها، وها أنا أبنيها خلفه. ثم أمر ببنائها.

وقيل إنه لما فرغ من بنائه رأى فى منامه : كأن ناراً نزلت من السماء فأخذت الجامع دون ما حوله. فلما أصبح قص رؤياه فقيل له : أبشر بقبول الجامع، لأن النار كانت فى الزمان الماضى إذا قبل الله قرباناً نزلت نار من السماء أخذته، ودليله قصة قابيل وهابيل.

قال : ورأيت من يقول إنه عمل به منطقة دائرة بجميعه من عنبر. ولم أر مصنفاً ذكره، إلا أنه مستفاض من الأفواه والنقلة.

وسمعت من يقول : إنه عمر ما حوله حتى كان خلفه مصطبة ذراع فى ذراع : أجرتها فى كل يوم اثنا عشر درهماً فى بكرة النهار لشخص يبيع الغزل ويشتريه، والظهر لخباز، والعصر لشيخ يبيع الحمص والفول.

وقيل عن أحمد بن طولون : إنه كان لا يعبث بشئ قط . فاتفق أنه أخذ درجاً أبيض بيده وأخرجه ومده ، واستيقظ لنفسه وعلم أنه قد فطن به ، وأخذ عليه لكونه لم تكن تلك عادته . فطلب المعمار على الجامع ، وقال : تبنى المنارة التى للتأذين هكذا . فبنيت على تلك الصورة .

والعامة يقولون : إن العشارى الذى على المنارة المذكورة يدور مع الشمس . وليس صحيحاً ، وإنما يدور مع دوران الرياح . وكان الملك الكامل قد اعتنى بوقودها ليلة النصف من شعبان ثم أبطلها .

وقال المسبحي : إن الحاكم أنزل إلى جامع ابن طولون ثمانمائة مصحف وأربعة عشر مصحفاً .

وفى سنة ست وسبعين وثلاثمائة ، فى ليلة الخميس لعشر خلون من جمادى الأولي ، احترقت الفوارة التى كانت بجامع ابن طولون فلم يبق منها شئ . وكانت فى وسط صحنه قبة مشبكة من جميع جوانبها وهى مذهبة ، على عشر عمد رخام ، وستة عشر عمود رخام من جوانبها ، مفروشة كلها بالرخام . وتحت القبة قصعة رخام فسحتها أربعة أذرع ، فى وسطها فوارة تفور بالماء ، وفى وسطها قبة مزوقة يؤذن فيها وفى أخرى على سلمها ، وفى السطح علامات الزوال ، والسطح بدرابزين ساج . . فاحترق جميع هذا فى ساعة واحدة .

وفى المحرم سنة خمس وثمانين وثلاثمائة ، أمر العزيز بالله بن المعز ببناء فوارة عوضاً عن التى احترقت . فعمل ذلك على يد راشد الحنفي ، وتولى عمارتها ابن الرومية وابن البناء . وماتت أم العزيز فى سلخ ذى القعدة من السنة . والله أعلم .

«تجديد الجامع»

وكان من خبر جامع ابن طولون أنه لما كان غلاء مصر فى زمان المستنصر ، وخربت القطائع والعسكر ، عدم الساكن هناك ، وصار ما حول الجامع خراباً . وتوالت الأيام على ذلك ، وتشعث الجامع ، وخرب أكثره ، وصار أخيراً ينزل فيه المغاربة بأباعرها ومتاعها عندما تمر بمصر أيام الحج .

فهيأ الله جل جلاله لعمارة هذا الجامع أن كان بين الملك الأشرف خليل بن قلاوون وبين الأمير بيدر أمور موحشة تزايدت وتأكدت إلى أن جمع بيدر من يثق به، وقتل الأشرف بناحية تروجة فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة - كما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى عند ذكر مدرسته - وكان ممن وافق الأمير بيدرا على قتل الأشرف الأمير حسام الدين لاجين المنصوري، والأمير قرانسقر.

فلما قتل بيدر فى محاربة مماليك الأشرف له، فر لاجين وقراسنقر من المعركة، فاختفى لاجين بالجامع الطولوني، وقرأسنقر فى داره بالقاهرة. وصار لاجين يتردد بمفرده من غير أحد معه فى الجامع - وهو حينئذ خراب لا ساكن فيه - وأعطى الله عهداً، إن سلمه الله من هذه المحننة ومكنه من الأرض، أن يجدد عمارة هذا الجامع، ويجعل له ما يقوم به.

ثم إنه خرج منه فى خفية إلى القرافة، فأقام بها مدة وراسل قرانسقر، فتحيل فى لحاقه به. وعملا أعمالاً إلى أن اجتمعا بالأمير زين الدين كتبغا المنصور - وهو إذ ذاك نائب السلطنة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، والقائم بأمور الدولة كلها - فأحضرهما إلى مجلس السلطان بقلعة الجبل، بعد أن أتقن أمرهما مع الأمراء ومماليك السلطان، فخلع عليهما، وصار كل منهما إلى داره وهو آمن. فلم تطل أيام الملك الناصر فى هذه الولاية حتى خلعه الأمير كتبغا، وجلس على تخت الملك، وتلقب بالملك العادل، فجعل لاجين نائب السلطنة بديار مصر.

وجرت أمور أقتضت قيام لاجين على كتبغا وهم بطريق الشام، ففر كتبغا إلى دمشق، واستولى لاجين على دست المملكة، وصار إلى مصر وجلس على سرير الملك بقلعة الجبل، وتلقب بالملك المنصور فى المحرم من سنة ست وتسعين وستمائة. فأقام قرانسقر فى نيابة السلطنة بديار مصر، وأخرج الناصر محمد بن قلاوون من قلعة الجبل إلى كرك الشوبك فجعله فى قلعتها. وأعانه أهل الشام على كتبغا حتى قبض عليه، وجعله نائب حماة، فأقام بها مدة سنين بعد سلطنة مصر والشام.

وخلع على الأمير علم الدين سنجر الدواداري، وأقامه فى نيابة دار العدل، وجعل إليه شراء الأوقاف على الجامع الطولوني، وصرف إليه كل ما يحتاج إليه فى العمارة، وأكد عليه

فى ألا يسخر فيه فاعلا ولاصانعاً، وألا يقيم مستحثاً إليه من سائر الأصناف إلا بالقيمة التامة، وأن يكون ما ينفق على ذلك من ماله. وأشهد عليه بوكالته.

فابتاع منية أندونة من أراضى الجيزة ـ وعرفت هذه القرية بأندونة. . . كاتب بمصر كان نصرانياً فى زمن أحمد بن طولون، وممن نكبه وأخذ منه خمسين ألف دينار ـ وأشترى أيضاً مساحة بجوار جامع أحمد بن طولون ـ مما كان فى القديم عامراً ثم خرب ـ وحكرها.

وعمر الجامع، وأزال كل ما كان فيه من تخريب، وبلطه، وبيضه، ورتب فيه دروساً لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة التى عمل أهل مصر عليها الآن، ودرساً يلقى فيه تفسير القرآن الكريم، ودرساً لحديث النبى ﷺ، ودرساً للطب. وقرر للخطيب معلوماً، وجعل له إماماً راتباً ومؤذنين وفراشين وقومة، وعمل بجواره مكتباً لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل، وغير ذلك من أنواع القربات ووجوه البر. فبلغت النفقة على عمارة الجامع وثمن مستغلاته عشرين ألف دينار.

فلما شاء الله سبحانه أن يهلك لاجين، زين له سوء عمله عزل الأمير قرانسقر من نيابة السلطنة، فعزله، وولى مملوكه منكوتمر ـ وكان عسوفاً عجولاً حاداً، ولاجين مع ذلك يركن إليه، ويعول فى جميع أموره عليه، ولايخالف قوله ولاينقض فعله ـ فشرع منكوتمر فى تأخير أمراء الدولة من الصالحية والمنصورية، وأعجل فى إظهار التهجم لهم، والإعلان بما يريده من القبض عليهم وإقامة أمراء غيرهم.

فتوحشت القلوب منه، وتمالأت على بغضه، ومشى القوم بعضهم إلى بعض، وكاتبوا إخوانهم من أهل البلاد الشامية حتى تم لهم ما يريدون. فواعد جماعة منهم إخوانهم على قتل السلطان لاجين ونائبه منكوتمر. . . فما هو إلا أن صلى السلطان العشاء الآخرة من ليلة الجمعة العاشر من ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وستمائة، وإذا بالأمير كرجى ـ وكان ممن هو قائم بين يديه ـ تقدم ليصلح الشمعة، فضربه بسيف قد أخفاه معه أطار به زنده، وأنقض عليه البقية ممن وأعدوهم بالسيوف والخناجر، فقطعوه قطعاً وهو يقول: الله الله.

وخرجوا من فورهم إلى باب القلة من قلعة الجبل، فإذا بالأمير طفج قد جلس فى انتظارهم ومعه عدة من الأمراء ـ وكانوا إذ ذاك يبيتون بالقلعة دائماً ـ فأمروا باحضار منكوتمر

من دار النيابة بالقلعة ، وقتلوه بعد مضى نصف ساعة من قتل استاذه الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري . . . رحمه الله ، فلقد كان مشكور السيرة .

وفى سنة سبع وستين وسبعمائة ، جدد الأمير يلبغا العمرى الخاصكى درساً بجامع ابن طولون فيه سبعة مدرسين للحنفية ، وقرر لكل فقيه من الطلبة فى الشهر أربعين درهماً وأردب قمح . فانتقل جماعة من الشافعية إلى مذهب الحنفية .

وأول من ولى نظره بعد تجديده الأمير علم الدين سنجر الجاولي ، وهو إذ ذاك دوادار السلطان الملك المنصور لاجين . ثم ولى نظره قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة ، ثم من بعده الأمير مكين فى أيام الناصر محمد ابن قلاوون ، فجدد فى أوقافه طاحوناً وفرنا وحوانيت ، فلما مات وليه قاضى القضاه عز الدين بن جماعة ، ثم ولاه الناصر للقاضى كريم الدين الكبير ، فجدد فيه مئذنتين .

فلما نكبه السلطان عاد نظره إلى قاضى القضاة الشافعي . وما برح إلى أيام الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، فولاه للأمير صرغتمش ، وتوفر فى مدة نظره من مال الوقف مائة ألف درهم فضة ، وقبض عليه وهى حاصلة . فباشره قاضى القضاة إلى أيام الأشرف شعبان بن حسين ، ففوض نظره إلى الأمير الجاى اليوسفى إلى أن غرق .

فتحدث فيه قاضى القضاه الشافعي . إلى أن فوض الملك الظاهر برقوق نظره إلى الأمير قطلوبغا الصفوى فى العشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة . وكان الأمير منطاش مدة تحكمة فى الدولة فوضه إلى المذكور فى أواخر شوال سنة إحدى وتسعين وسبعمائة . ثم عاد نظره إلى القضاة بعد الصفوي ، وهو بأيديهم إلى اليوم .

وفى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، جدد الرواق البحرى الملاصق للمئذنة الحاج عبيد بن محمد بن عبدالهادى الهويدى البازدار مقدم الدولة ، وجدد ميضأة بجانب الميضأة القديمة . وكان عبيد هذا بازدارا ، ثم ترقى حتى صار مقدم الدولة فى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، ثم ترك زى المقدمين وتزيا بزى الأمراء ، وحاز نعمة جليلة وسعادة طائلة ، حتى مات يوم السبت رابع عشر صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة .

ذكر دار الإمارة

وكان بجوار الجامع الطولونى دار أنشأها الأمير أحمد بن طولون عندما بنى الجامع، وجعلها فى الجهة القبلية، ولها باب من جدار الجامع يخرج منه إلى المقصورة بجوار المحراب والمنبر، وجعل فى هذه الدار جميع ما يحتاج إليه من الفرش والستور والآلات. فكان ينزل بها إذا راح إلى صلاح الجمعة، فإنها كانت تجاه القصر والميدان، فيجلس فيها ويجدد وضوءه ويغير ثيابه، وكان يقال لها دار الإمارة. وموضعها الآن سوق الجامع، حيث البزازين وغيرهم، ولم تزل هذه الدار باقية إلى أن قدم الإمام المعز لدين الله أبو تميم معد من بلاد المغرب، فكان يستخرج فيها أموال الخراج.

قال الفقيه الحسن بن إبراهيم بن زولاق فى كتاب «سيرة المعز»: ولست عشرة بقيت من المحرم (يعنى من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة) قلد المعز لدين الله الخراج وجميع وجوه الأعمال والحسبة والسواحل والأعشار والجوالى والأحباس والمواريث والشرطيين، وجميع ما ينضاف إلى ذلك وما يطرأ فى مصر وسائر الأعمال، أبا الفرج يعقوب بن يوسف ابن كلس وعسلوج بن الحسن، وكتب لهما سجلاً بذلك قرئ يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون، وجلسا غد هذا اليوم فى دار الإمارة فى جامع أحمد بن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الأعمال.

ثم خربت هذه الدار فيما خرب من القطائع والعسكر، وصار موضعها ساحة. . إلى أن حكرها الدويدارى عند تجديد عمارة الجامع كما تقدم. وقد ذكر بناء القيسارية فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر الأسواق.

ذكر الأذان بمصر
وما كان فيه من الاختلاف

أعلم أن أول من أذن لرسول الله ﷺ بلال بن رباح، مولى أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، بالمدينة الشريفة وفى الأسفار. وكان ابن أم مكتوم - واسمه عمرو ابن قيس بن شريح من بنى عامر بن لؤي، وقيل اسمه عبدالله وأمه أم مكتوم، واسمها عاتكة بنت عبدالله بن عنكثة من بنى مخزوم - ربما أذن بالمدينة.

وأذن أبو محذورة، وأسمه أوس - وقيل سمرة - أبن معير بن لوذان بن ربيعة بن معير بن عريج بن سعد بن جمح. وكان استأذن رسول الله ﷺ فى أن يؤذن مع بلال، فأذن له، وكان يؤذن فى المسجد الحرام، وأقام بمكة ومات بها، ولم يأت المدينة.

قال ابن الكلبي: كان أبو محذورة لايؤذن للنبى ﷺ بمكة إلا فى الفجر، ولم يهاجر، وأقام بمكة.

وقال ابن جريج: علم النبى ﷺ أبا محذورة الأذان بالجعرانة حين قسم غنائم حنين، ثم جعله مؤذناً فى المسجد الحرام.

وقال الشعبي: أذن لرسول الله ﷺ بلال وأبو محذورة وابن أم مكتوم. وقد جاء أن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان يؤذن بين يدى رسول الله ﷺ عند المنبر.

وقال محمد بن سعد عن الشعبي: كان لرسول الله ﷺ ثلاثة مؤذنين: بلال، وأبو محذورة، وعمرو بن أم مكتوم. فإذا غاب بلال أذن أبو محذورة، وإذا غاب أبو محذورة أذن ابن أم مكتوم.. قلت: لعل هذا كان بمكة.

وذكر ابن سعد أن بلالاً أذن بعد رسول الله ﷺ لأبى بكر رضى الله عنه، وأن عمر رضى الله عنه أراده أن يؤذن له فأبى عليه، فقال له: إلى من ترى أن أجعل النداء ؟

فقال: إلى سعد القرظ، فإنه قد أذن لرسول ﷺ.

فدعاه عمر رضى الله عنه، فجعل النداء إليه وإلى عقبة من بعده.

وقد ذكر أن سعد القرظ كان يؤذن لرسول الله ﷺ بقباء.

وذكر أبو داود فى مراسيله، والدار قطنى فى سننه، قال بكير بن عبدالله الأشج: كانت مساجد المدينة تسعة، سوى مسجد رسول الله ﷺ، كلهم يصلون بأذان بلال رضى الله عنه.

وقد كان عند فتح مصر الأذان إنما هو بالمسجد الجامع، المعروف بجامع عمرو، وبه صلاة الناس بأسرهم. وكان من هدى الصحابة والتابعين، رضى الله عنهم، المحافظة على الجماعة، وتشديد النكير على من تخلف عن صلاة الجماعة.

قال أبو عمرو الكندى فى ذكر من عرف على المؤذنين بجامع عمرو بن العاص بفسطاط مصر: وكان أول من عرف على المؤذين أبو مسلم سالم بن عامر بن عبدالمرادى - وهو من أصحاب رسول الله ﷺ، وقد أذن لعمر بن الخطاب - سار إلى مصر مع عمرو بن العاص يؤذن له حتى افتتحت مصر، فأقام على الأذان، وضم إليه عمرو بن العاص تسعة رجال يؤذنون هو عاشرهم. وكان الآذان فى ولده حتى انقرضوا.

قال أبو الخير: حدثنى أبو مسلم - وكان مؤذناً لعمرو بن العاص - أن الأذان كان أوله لا إله إلا الله وآخره لا إله إلا الله، وكان أبو مسلم يوصى بذلك حتى مات، ويقول: هكذا كان الآذان.

ثم عرف عليهم أخوه شرحبيل بن عامر - وكانت له صحبة - وفى عرافته زاد مسلمة بن مخلد فى المسجد الجامع، وجعل له المنار ولم يكن قبل ذلك. وكان شرحبيل أول من رقى منارة مصر للأذان.

وإن مسلمة بن مخلد اعتكف فى منارة الجامع، فسمع أصوات النواقيس عالية بالفسطاط، فدعا شرحبيل بن عامر فأخبره بما ساءه من ذلك.

فقال شرحبيل، فإنى أمدد بالأذان منتصف الليل إلى قرب الفجر، فإنهم أيها الأمير لن ينقسوا إذا أذنت.

فنهاهم مسلمة عن ضرب النواقيس وقت الأذان. ومدد شرحبيل ومطط أكثر الليل، إلى أن مات شرحبيل سنة خمس وستين.

وذكر عن عثمان رضى الله عنه أنه أول من رزق المؤذنين. فلما كثرت مساجد الخطبة، أمر مسلمة بن مخلد الأنصار، فى إمارته على مصر، ببناء المنار فى جميع المساجد. . خلا مساجد تجيب وخولان. فكانوا يؤذنون فى الجامع أولاً، فإذا فرغوا أذن كل مؤذن فى الفسطاط فى وقت واحد، فكان لأذانهم دوى شديد.

وكان الأذان أولاً بمصر كأذان أهل المدينة، وهو: الله أكبر، الله أكبر. . وباقيه كما هو اليوم. فلم يزل الأمر بمصر على ذلك فى جامع عمرو بالفسطاط، وفى جامع العسكر، وفى جامع أحمد بن طولون وبقية المساجد. . . إلى أن قدم القائد جوهر بجيوش المعز لدين الله، وبنى القاهرة.

فلما كان فى يوم الجمعة الثامن من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، صلى القائد جوهر الجمعة فى جامع أحمد بن طولون، وخطب به عبدالسميع بن عمر العباسى بقلنسوه وسبنى وطيلسان دبسي، وأذن المؤذنون: حى على خير العمل. وهو أول ما أذن به بمصر.

وصلى به عبدالسميع الجمعة، فقرأ سورة الجمعة و«إذا جاءك المنافقون»، وقنت فى الركعة الثانية، وانحط إلى السجود ونسى الركوع. فصاح به على بن الوليد قاضى عسكر جوهر: بطلت الصلاة أعد ظهراً أربع ركعات.

ثم أذن بحى على خير العمل فى سائر مساجد العسكر، إلى حدود مسجد عبدالله.

وأنكر جوهر على عبدالسميع أنه لم يقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم» فى كل سورة، ولا قرأها فى الخطبة. فأنكره جوهر، ومنعه من ذلك.

ولأربع بقين من جمادى الأولى المذكور، أذن فى الجامع العتيق بحى على خير العمل، وجهروا فى الجامع بالبسملة فى الصلاة. فلم يزل الأمر على ذلك طول مدة الخلفاء الفاطميين.

إلا أن الحاكم بأمر الله فى سنة أربعمائة، أمر بجمع مؤذنى القصر وسائر الجوامع، وحضر قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى وقرأ أبو على العباسى سجلاً فيه الأمر بترك «حى على خير العمل» فى الأذان، وأن يقال فى صلاة الصبح «الصلاة خير من النوم»، وأن يكون ذلك من مؤذنى القصر عند قولهم «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله». فامتثل ذلك.

ثم عاد المؤذنون إلى قول: «حى على خير العمل» فى ربيع الآخر سنة إحدى وأربعمائة. ومنع فى سنة خمس وأربعمائة مؤذنو جامع القاهرة ومؤذنو القصر من قولهم بعد الأذان «السلام على أمير المؤمنين»، وأمرهم أن يقولوا بعد الأذان: «الصلاة رحمك الله».

ولهذا الفعل أصل.. قال الواقدي: كان بلال رضى الله عنه يقف على باب رسول الله ﷺ، فيقول: «السلام عليك يا رسول الله»، وربما قال: «السلام عليك بأبى أنت وأمى يا رسول الله، حى على الصلاة، حى على الصلاة، السلام عليك يا رسول الله».

قال البلاذري، وقال غيره: كان يقول: «السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، حى على الصلاة، حى على الفلاح، الصلاة يا رسول الله».

فلما ولى أبو بكر رضى الله عن الخلافة، كان سعد القرظ يقف على بابه فيقول: «السلام عليك ياخليفة رسول الله ورحمة الله وبركاته، حى على الصلاة، حى على الفلاح، الصلاة يا خليفة رسول الله».

فلما استخلف عمر رضى الله عنه، كان سعد يقف على بابه فيقول: «السلام عليك يا خليفة خليفة رسول الله ورحمه الله، حى على الصلاة حى على الفلاح، الصلاة يا خليفة خليفة رسول الله».

فلما قال عمر رضى الله عنه للناس: أنتم المؤمنون وأنا أميركم. فدعى أمير المؤمنين.. استطالة لقول القائل يا خليفة خليفة رسول الله، ولمن بعده خليفة خليفة خليفة رسول الله، كان المؤذن يقول: السلام عليك أمير المؤمنين، ورحمه الله وبركاته، حى على الصلاة، حى على الفلاح، الصلاة يا أمير المؤمنين». ثم إن عمر رضى الله عنه أمر المؤذن فزاد فيها «رحمك الله». ويقال إن عثمان رضى الله عنه زادها.

وما زال المؤذنون إذا أذنوا سلموا على الخلفاء وأمراء الأعمال، ثم يقيمون الصلاة بعد السلام. فيخرج الخليفة أو الأمير فيصلى بالناس . . . هكذا كان العمل مدة أيام بنى أميه، ثم مدة خلافة بنى العباس، أيام كانت الخلفاء وأمراء الأعمال تصلى بالناس.

فلما استولى العجم، وترك خلفاء بنى العباس الصلاة بالناس، ترك ذلك كما ترك غيره من سنن الإسلام. ولم يكن أحد من الخلفاء الفاطميين يصلى بالناس الصلوات الخمس فى كل يوم، فسلم المؤذنون فى أيامهم على الخليفة بعد الأذان للفجر فوق المنارات.

فلما أنقضت أيامهم، وغير السلطان صلاح الدين رسومهم، لم يتجاسر المؤذنون على السلام عليه، احتراماً للخليفة العباسى ببغداد. فجعلوا عوض السلام على الخليفة السلام على رسول الله ﷺ، واستمر ذلك قبل الأذان للفجر فى كل ليلة بمصر والشام والحجاز، وزيد فيه بأمر المحتسب صلاح الدين عبدالله البرلسى «الصلاة والسلام عليك يا رسول الله». وكان ذلك بعد سنة ستين وسبعمائة، فاستمر ذلك.

ولما تغلب أبو على بن كتيفات بن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي، على رتبة الوزارة فى أيام الحافظ لدين الله أبى الميمون عبدالمجيد بن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله، فى سادس عشر ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وسجن الحافظ لدين الله أبى الميمون عبدالمجيد بن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله، فى سادس عشر ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وسجن الحافظ وقيده، واستولى على سائر ما فى القصر من الأموال والذخائر وحملها إلى دار الوزارة - وكان إمامياً متشدداً فى ذلك - خالف ما عليه الدولة من مذهب الإسماعيلية، وأظهر الدعاء للأمام المنتصر، وأزال من الأذان «حى على خير العمل»، وقولهم «محمد وعلى خير البشر»، وأسقط ذكر إسماعيل ابن جعفر الذى تنتسب إليه الإسماعيلية.

فلما قتل فى سادس عشر المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة، عاد الأمر إلى الخليفة الحافظ، وأعيد إلى الأذان ما كان أسقط منه.

وأول من قال فى الأذان بالليل «محمد وعلى خير البشر» الحسين المعروف بأمر كابن شكنبه - ويقال اشكنبه، وهو اسم أعجمى معناه الكرش - وهو على بن محمد بن على بن

إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب، وكان أول تأذينه بذلك فى أيام سيف الدولة بن حمدان بحلب فى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة. . . قاله الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابه.

ولم يزل الأذان بحلب يزاد فيه «حى على خير العمل، ومحمد وعلى خير البشر» إلى أيام نور الدين محمود. فلما فتح المدرسة الكبيرة، المعروفة بالحلاوية، استدعى أبا الحسن على بن الحسن بن محمد البلخى الحنفى إليها، فجاء ومعه جماعة من الفقهاء، وألقى بها الدروس. فلما سمع الأذان أمر الفقهاء فصعدوا المنارة وقت الأذان، وقال لهم: مروهم يؤذنوا الأذان المشروع، ومن امتنع كبوه على رأسه. فصعدوا وفعلوا ما أمرهم به. واستمر الأمر على ذلك.

وأما مصر فلم يزل بها على مذهب القوم. إلى أن استبد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بسلطنة ديار مصر، وأزال الدولة الفاطمية فى سنة سبع وستين وخمسمائة - وكان ينتحل مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه، وعقيدة الشيخ أبى الحسن الأشعرى رحمه الله - فأبطل من الأذان قول «حى على خير العمل»، وصار يؤذن فى سائر إقليم مصر والشام بأذان أهل مكة، وفيه تربيع التكبير وترجيع الشهادتين.

فاستمر الأمر على ذلك إلى أن بنت الأتراك المدارس بديار مصر، وانتشر مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه فى مصر، فصار يؤذن فى بعض المدارس التى للحنفية بأذان أهل الكوفة، وتقام الصلاة أيضاً على رأيهم، وما عدا ذلك فعلى ما قلنا. إلا أنه فى ليلة الجمعة إذا فرغ المؤذنون من التأذين، سلموا على رسول الله ﷺ. وهو شئ أحدثه محتسب القاهرة صلاح الدين عبدالله بن عبدالله البرلسى بعد سنة ستين وسبعمائة.

فاستمر إلى أن كان فى شعبان سنة إحدى وتسعين وسبعمائة - ومتولى الأمر بديار مصر الأمير منطاش القائم بدولة الملك الصالح المنصور أمير حاج، المعروف بحاجى بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون - فسمع بعض الفقراء الخلاطين سلام المؤذنين على رسول الله ﷺ فى ليلة جمعة، وقد استحسن ذلك طائفة من إخوانه، فقال لهم: أتحبون أن يكون هذا السلام كل أذان؟ قالوا: نعم. فبات تلك الليلة، وأصبح متواجداً يزعم أنه رأى رسول الله

ﷺ فى منامه، وأنه أمره أن يذهب إلى المتحسب، ويبلغه عنه أن يأمر المؤذنين بالسلام على رسول الله ﷺ فى كل أذان.

فمضى إلى محتسب القاهرة، وهو يومئذ نجم الدين محمد الطنبدى. وكان شيخاً جهولاً، وبلهاناً مهولاً، سيئ السيرة فى الحسبة والقضاء، متهافتا على الدرهم ولو قاده إلى البلاء، لايحتشم من أخذ البرطيل والرشوة، ولا يراعى فى مؤمن إلا ولا ذمة، وقد ضرى على الآثام، وتجسد من أكل الحرام . . . يرى أن العلم إرخاء العذبة ولبس الجبة، ويحسب أن رضا الله سبحانه فى ضرب العباد بالدرة وولاية الحسبة. لم تحمد الناس قط أياديه، ولا شكرت أبداً مساعيه، بل جهالاته شائعة، وقبائح أفعاله ذائعة. أشخص غير مرة إلى مجلس المظالم، وأوقف مع من أوقف للمحاكمة بين يدى السلطان من أجل عيوب فوادح، حقق فيها شكاته عليه القوادح. ومازال فى السيرة مذوماً، ومن العامة والخاصة ملوماً. وقال له: رسول الله يأمرك أن تتقدم لسائر المؤذنين بأن يزيدوا فى كل أذان قولهم «الصلاة والسلام عليك يارسول الله ﷺ»، كما يفغل فى ليالى الجمع.

فأعجب الجاهل هذا القول، وجهل أن رسو الله ﷺ لا يأمر بعد وفاته إلا بما يوافق ما شرعه الله على لسانه فى حياته. وقد نهى الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز عن الزيادة فيما شرعه حيث يقول: ﴿**أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله**﴾. (١) وقال رسول الله ﷺ: «**أياكم ومحدثات الأمور**» . . . فأمر بذلك فى شعبان من السنة المذكورة.

وتمت هذه البدعة، واستمرت إلى يومنا هذا فى جميع ديار مصر وبلاد الشام، وصارت العامة وأهل الجهالة ترى أن ذلك من جملة الأذان الذى لايحل تركه، وأدى ذلك إلى أن زاد بعض أهل الإلحاد فى الأذان ببعض القرى السلام بعد الأذان على شخص من المعتقدين الذين ماتوا. فلا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وأما التسبيح فى الليل على المآذن، فإنه لم يكن من فعل سلف الأمة. وأول ما عرف من ذلك أن موسى بن عمران صلوات الله عليه، لما كان ببنى إسرائيل فى التيه بعد غرق فرعون وقومه، اتخذ بوقين من فضة مع رجلين من بنى اسرائيل. ينفخان فيهما وقت الرحيل،

---

(١) سورة الشورى - آية ٢١ - ك ٤٢.

ووقت النزول، وفى أيام الأعياد، وعند ثلث الليل الأخير من كل ليلة. فتقوم عند ذلك طائفة من بنى لاوى - سبط موسى عليه السلام - ويقولون نشيداً منزلاً بالوحي، فيه تخويف وتحذير وتعظيم لله تعالى وتنزيه له تعالي، إلى وقت طلوع الفجر.

واستمر الحال على هذا كل ليلة مدة حياه موسى عليه السلام، وبعد أيام يوشع بن نون ومن قام فى بنى اسرائيل من القضاة. إلى أن قام بأمرهم داود عليه السلام، وشرع فى عمارة بيت المقدس، فرتب فى كل ليلة عدة من بنى لاوى يقومون عند ثلث الليل الأخير: فمنهم من يضرب بالآلات، كالعود والسنطير والبربط والدف والمزمار، ونحو ذلك. ومنهم من يرفع عقيرته بالنشائد المنزلة بالوحى على نبى الله موسى عليه السلام، والنشائد المنزلة بالوحى على داود عليه السلام.

ويقال إن عدد بنى لاوى هذا كان ثمانية وثلاثين ألف رجل... قد ذكر تفصيلهم فى كتاب الزبور. فإذا قام هؤلاء ببيت المقدس، قام فى كل محلة من محال بيت المقدس رجال يرفعون أصواتهم بذكر الله سبحانه من غير آلات - فإن الآلات كانت مما يختص ببيت المقدس فقط، وقد نهوا عن ضربها فى غير البيت - فيتسامع من قرية بيت المقدس، فيقوم فى كل قرية رجال يرفعون أصواتهم بذكر الله تعالى حتى يعم الصوت بالذكر جميع قرى بنى إسرائيل ومدنهم.

وما زال الأمر على ذلك فى كل ليلة إلى أن خرب بخت نصر بيت المقدس، وجلا بنى إسرائيل إلى بابل، فبطل هذا العمل وغيره من بلاد بنى إسرائيل مدة جلائهم فى بابل سبعين سنة. فما عاد بنو إسرائيل من بابل، وعمروا البيت العمارة الثانية، أقاموا شرائعهم، وعاد قيام بنى لاوى بالبيت فى الليل، وقيام أهل محال القدس وأهل القرى والمدن على ما كان العمل عليه أيام عمارة البيت الأولي.

واستمر ذلك إلى أن خرب القدس بعد قتل نبى الله يحيي بن زكريا، وقيام اليهود على روح الله ورسوله عيسى بن مريم صلوات الله عليهم على يد طيطش، فبطلت شرائع بنى إسرائيل من حينئذ، وبطل هذا القيام فيما بطل من بلاد بنى اسرائيل.

وأما فى الملة الإسلامية، فكان ابتداء هذا العمل بمصر، وسببه أن مسلمة بن مخلد أمير مصر بنى مناراً لجامع عمرو بن العاص واعتكف ليه، فسمع أصوات النواقيس عالية، فشكا ذلك إلى شرحبيل بن عامر عريف المؤذنين. فقال: إنى أمدد الأذان من نصف الليل إلى قرب الفجر، فانههم أيها الأمير أن ينقسوا إذا أذنت. فنهاهم مسلمة عن ضرب النواقيس وقت الأذان، ومدد شرحبيل ومطط أكثر الليل.

ثم إن الأمير أبا العباس أحمد بن طولون كان قد جعل، فى حجرة تقرب منه، رجالاً تعرف بالمكبرين عدتهم اثنا عشر رجلاً. . . يبيت فى هذه الحجرة كل ليلة أربعون يجعلون الليل بينهم عقبا. فكانوا يكبرون ويسبحون ويحمدون الله سبحانه فى كل وقت، ويقرأون القرآن بألحان، ويتوسلون ويقولون قصائد زهدية، ويؤذنون فى أوقات الأذان. وجعل لهم أرزاقاً واسعة تجرى عليهم.

فلما مات أحمد بن طولون، وقام من بعده ابنه أبو الجيش خمارويه، أقرهم بحالهم، وأجراهم على رسمهم مع أبيه. ومن حينئذ اتخذ الناس قيام المؤذنين فى الليل على المآذن، وصار يعرف ذلك بالتسبيح.

فلما ولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سلطنة مصر، وولى القضاء صدر الدين عبدالملك بن درباس الهدبانى المارانى الشافعى - كان من رأيه ورأى السلطان اعتقاد مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى فى الأصول. فحمل الناس إلى اليوم على اعتقاده حتى يكفر من خالفه، وتقدم الأمر إلى المؤذنين أن يعلنوا - وفى وقت التسبيح على المآذن بالليل - بذكر العقيدة التى تعرف بالمرشدة. فواظب المؤذنون على ذكرها فى كل ليلة بسائر جوامع مصر والقاهرة إلى وقتنا هذا.

ومما أحدث أيضاً: التذكير فى يوم الجمعة من أثناء النهار بأنواع من الذكر على المآذن، ليتهيأ الناس لصلاة الجمعة. وكان ذلك بعد السبعمائة من سنى الهجرة. . . قال ابن كثير رحمه الله: فى يوم الجمعة سادس ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وسبعمائة، رسم بأن يذكر بالصلاة يوم الجمعة فى سائر مآذن دمشق، كما يذكر فى مآذن الجامع الأموي، ففعل ذلك.

الجامع الأزهر

هذا الجامع أول مسجد أسس بالقاهرة. والذى أنشأه القائد جوهر الكاتب الصقلي، مولى الإمام أبى تميم معد الخليفة أمير المؤمنين المعز لدين الله، لما اختط القاهرة. وشرع فى بناء هذا الجامع فى يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، وكمل بناؤه لتسع خلون من شهر رمضان سنة إحدى وستين وثلاثمائة، وجمع فيه.

وكتب بدائر القبة التى فى الرواق الأول - وهى على يمنه المحراب والمنبر - ما نصه بعد البسملة :

«مما أمر ببنائه عبدالله ووليه أبو تميم معد الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي، وذلك فى سنة ستين وثلاثمائة». وأول جمعة جمعت فيه فى شهر رمضان لسبع خلون منه سنة أحدى وستين وثلاثمائة.

ثم إن العزيز بالله أبا منصور نزار بن المعز لدين الله جدد فيه أشياء. وفى سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة، سأل الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس، الخليفة العزيز بالله، فى صلة رزق جماعة من الفقهاء. فأطلق لهم ما يكفى كل واحد منهم من الرزق الناض، وأمر لهم بشراء دار وبنائها، فبنيت بجانب الجامع الأزهر. فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع، وتحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن صلى العصر. وكان لهم أيضاً من مال الوزير صلة فى كل سنة، وكانت عدتهم خمسة وثلاثين رجلاً. وخلع عليهم العزيز يوم عيدالفطر، وحملهم على بغلات.

ويقال أن بهذا الجامع طلسما. فلا يسكنه عصفور ولا يفرخ به، وكذا سائر الطيور من الحمام واليمام وغيره. وهو صورة ثلاثة طيور، منقوشة كل صورة على رأس عمود، فمنها صورتان فى مقدم الجامع بالرواق الخامس: منها صورة فى الجهة الغربية فى العمود، وصورة فى أحد العمودين اللذين على يسار من استقبل سدة المؤذنين. والصورة الأخرى فى الصحن فى الأعمدة القبلية مما يلى الشرقية.

ثم إن الحاكم بأمر الله جدده، ووقف على الجامع الأزهر وجامع المقس والجامع الحاكمى ودار العلم بالقاهرة رباعاً بمصر، وضمن ذلك كتاباً نسخته :

«هذا الكتاب أشهد قاضى القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقي، على جميع ما نسب إليه مما ذكر ووصف فيه، من حضر من الشهود فى مجلس حكمه وقضائه بفسطاط مصر فى شهر رمضان سنة أربعمائة . . .

«أشهدهم - وهو يومئذ قاضى عبدالله ووليه المنصور أبى على الإمام الحاكم بأمرالله أمير المؤمنين ابن الإمام العزيز بالله، صلوات الله عليهما، على القاهرة المعزية ومصر والإسكندرية والحرمين حرسهما الله، وأجناد الشام والرقة والرحبة ونواحى المغرب وسائر أعمالهن، وما فتحه الله ويفتحه لأمير المؤمنين من بلاد الشرق والغرب - بمحضر رجل متكلم.

«أنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والحصص الشائعة، التى يذكر جميع ذلك ويحدد فى هذا الكتاب، وأنها كانت من أملاك الحاكم إلى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة، والجامع براشده والجامع بالمقس اللذين أمر بإنشائهما وتأسيس بنائهما، وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التى وقفها والكتب التى فيها قبل تاريخ هذا الكتاب.

«منها ما يخص الجامع الأزهر والجامع براشده ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة، مشاعاً جميع ذلك غير مقسوم. ومنها ما يخص الجامع بالمقس على شرائط يجرى ذكرها . . .

«فمن ذلك ما تصدق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة، والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة : جميع الدار المعروفة بدار الضرب، وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف، وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة، الذى كله بفسطاط مصر.

«ومن ذلك ما تصدق به على جامع المقس : جميع أربعة الحوانيت والمنازل التى علوها والمخزنين، الذى ذلك كله بفسطاط مصر بالراية فى جانب الغرب من الدار المعروفة كانت بدار الخرق. وهاتان الداران المعروفتان بدار الخرق فى الموضع المعروف بحمام الفار . . .

«ومن ذلك : جميع الحصص الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التى بفسطاط مصر بالراية أيضاً، بالموضع المعروف بحمام الفار، وتعرف هذه الحوانيت بحصص القيسي . .

بحدود ذلك كله وأرضه وبنائه وسفله وعلوه وغرفه ومرتفقاته وحوانيته وساحاته وطرقه وممراته ومجارى مياهه، وكل حق هو له داخل فيه وخارج عنه . .

«وجعل ذلك كله صدقه موقوفة محرمة محبسة بتة بتلة، لايجوز بيعها ولا هبتها ولاتمليكها، باقية على شروطها جارية على سبلها المعروفة فى هذا الكتاب. لايوهنها تقادم السنين، ولاتغير بحدوث حدث، ولا يستثنى فيها ولايتأول، ولايستفتى بتجدد تحبيسها مدى الأوقاف، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث الله الأرض والسموات.

«على أن يؤجر ذلك فى كل عصر من ينتهى إليه ولايتها، ويرجع إليه أمرها ـ بعد مراقبة الله واجتلاب ما يوفر منفعتها من إشهارها ـ عند ذوى الرغبة فى إجارة أمثالها. فيبتدأ من ذلك بعمارة ذلك، على حسب المصلحة وبقاء العين ومرمته، من غير اجحاف بما حبس ذلك عليه. وما فضل مقسوماً على ستين سهماً.

«فمن ذلك للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة، المذكور فى هذا الإشهاد، الخمس والثمن ونصف السدس ونصف التسع . . . يصرف ذلك فيما فيه عمارة له ومصلحة. وهو من العين المعزى الوازن ألف دينار واحدة وسبعة وستون ديناراً ونصف دينار وثمن دينار.

«من ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة وثمانون ديناراً. ومن ذلك لثمن ألف ذراع حصر عبدانية تكون عدة له بحيث لاينقطع من حصره عند الحاجة إلى ذلك، ومن ذلك لثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة لكسوة هذا الجامع فى كل سنة عند الحاجة إليها، مائة دينار واحدة وثمانية دنانير. ومن ذلك لثمن ثلاثة قناطير زجاج وفراخها أثنا عشر ديناراً ونصف وربع دينار. ومن ذلك لثمن عود هندى للبخور فى شهر رمضان وأيام الجمع، مع ثمن الكافور والمسك وأجره الصانع، خمسة عشر ديناراً. ومن ذلك لنصف قنطار شمع بالفلفلى سبعة دنانير . .

«ومن ذلك لكنس هذا الجامع ونقل التراب، وخياطه الحصر وثمن الخيط وأجره الخياطة، خمسة دنانير. ومن ذلك لثمن مشاقة لسرج القناديل، عن خمسة وعشرين رطلاً بالرطل الفلفلي، دينار واحد. ومن ذلك لثمن فحم للبخور، عن قنطار واحد بالفلفلي،

نصف دينار. ومن ذلك لثمن أردبين سلحاً للقناديل ربع دينار. ومن ذلك ما قدر لمئونه النحاس والسلاسل والتنانير والقباب التى فوق سطح الجامع أربعة وعشرون ديناراً.

«ومن ذلك لثمن سلب ليف وأربعة أحبل وست دلاء أدم نصف دينار. ومن ذلك لثمن قنطارين خرقا لمسح القناديل نصف دينار. ومن ذلك لثمن عشر قفاف للخدمة وعشرة أرطال قنب لتعليق القناديل، ولثمن مائتى مكنسة لكنس هذا الجامع، دينار واحد وربع دينار. ومن ذلك لثمن أزيار فخار تنصب على المصنع ويصب فيها الماء، مع أجرة حملها، ثلاثة دنانير. ومن ذلك لثمن زيت وقود هذا الجامع، راتب السنة ألف رطل ومائتا رطل مع أجرة الحمل، سبعة وثلاثون ديناراً ونصف.

«ومن ذلك لأرزاق المصلين (يعنى الأئمة) وهم ثلاثة، وأربعة قومة وخمسة عشر مؤذناً، خمسمائة دينار وستة وخمسون ديناراً ونصف: منها للمصلين لكل رجل منهم ديناران وثلثا دينار وثمن دينار فى كل شهر من شهور السنة، والمؤذنون والقومة لكل رجل منهم ديناران فى كل شهر. ومن ذلك للمشرف على هذا الجامع فى كل سنة أربعة وعشرون ديناراً ومن ذلك لكنس المصنع بهذا الجامع، ونقل ما يخرج منه من الطين والوسخ دينار واحد، ومن ذلك لمرمة ما يحتاج إليه فى هذا الجامع فى سطحه وأترابه وحياطته وغير ذلك مما قدر لكل سنة ستون ديناراً. . .

«ومن ذلك لثمن مائة وثمانين حمل تبن ونصف حمل جارية، لعلف رأسى بقر للمصنع الذى لهذا الجامع، ثمانية دنانير ونصف وثلث دينار. ومن ذلك للتبن لمخزن يوضع فيه بالقاهرة أربعة دنانير. . .

«ومن ذلك لثمن فدانين قرط، لتربيع رأسى البقر المذكورين فى السنة، سبعة دنانير. ومن ذلك لأجر متولى العلف، وأجره السقاء والحبال والقواديس وما يجرى مجرى ذلك، خمسة عشر ديناراً ونصف. ومن ذلك لأجرة قيم الميضأة إن عملت بهذا الجامع اثنا عشر ديناراً».

وإلى هنا أنقضى حديث الجامع الأزهر، وأخذ فى ذكر جامع راشدة ودار العلم وجامع المقس. ثم ذكر أن تنانير الفضة ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثون وعشرون قنديلاً، ومنها الجامع

راشـدة تنور واثنا عشر قنديلاً . وشرط أن تعلق فى شـهر رمضـان، وتعـاد إلى مكان جرت عادتها أن تحفظ به .

وشرط شروطاً كثيرة فى الأوقاف : منها أنه إذا فضل شئ واجتمع يشترى به ملك ، فإن عاز شيئاً واستهدم ولم يف الريع بعمارته بيع وعمر به ، وأشياء كثيرة . وحبس فيه أيضاً عدة آدر وقياسر لافائدة فى ذكرها ، فإنها مما خربت بمصر .

قال ابن عبدالظاهر عن هذا الكتاب : ورأيت منه نسخة ، وانتقلت إلى قاضى القضاة تقى الدين بن رزين . وكان بصدر هذا الجامع فى محرابه منطقة فضة ، كما كان فى محراب جامع عمرو بن العاص بمصر . . قلع ذلك صلاح الدين يوسف بن أيوب فى حادى عشر ربيع الأول سنة تسع وستين وخمسمائة ، لأنه كان فيها انتهاء خلفاء الفاطميين ، فجاء وزنها خمسة آلاف درهم نقرة ، وقلع أيضاً المناطق من بقية الجوامع .

ثم إن المستنصر جدد هذا الجامع أيضاً . وجدده الحافظ لدين الله ، وأنشأ فيه مقصورة لطيفة تجاور الباب الغربى الذى فى مقدم الجامع بداخل الرواقات - عرفت بمقصورة فاطمة من أجل أن فاطمة الزهراء رضى الله عنها رؤيت بها فى المنام ، ثم إنه جدد فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقداري .

قال القاضى محيي الدين بن عبدالظاهر فى كتاب «سيرة الملك الظاهر» : لما كان يوم الجمعة الثامن عشر من ربيع الأول سنة خمس وستين وستمائة ، أقيمت الجمعة بالجامع الأزهر بالقاهرة . وسبب ذلك أن الأمير عزالدين أيدمر الحلى كان جار هذا الجامع من مدة سنين ، فرعى - وفقه الله - حرمه الجار ، ورأى أن يكون كما هو جاره فى دار الدنيا أنه غداً يكون ثوابه جاره فى تلك الدار ، ورسم النظرة فى أمره ، وأنتزع له أشياء مغصوبة كان شئ منها فى أيدى جماعة وحاط أموره حتى جمع له شيئاً صالحاً .

وجرى الحديث فى ذلك . فتبرع الأمير عز الدين له بجملة مستكثرة من المال الجزيل ، وأطلق له من السلطان جملة من المال ، وشرع فى عمارته . فعمر الواهى من أركانه وجدرانه وبيضه وأصلح سقوفه ، وبلطه وفرشه وكساه حتى عاد حرماً فى وسط المدينة ، واستجد به مقصورة حسنة ، وأثر فيه آثاراً صالحة يثيبة الله عليها .

وعمل الأمير بيلبك الخازندار فيه مقصورة كبيرة، رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقة على مذهب الإمام الشافعي رحمه الله، ورتب فى هذه المقصورة محدثاً يسمع الحديث النبوى والرقائق، ووقف على ذلك الأوقاف الدارة، ورتب به سبعة لقراءة القرآن، ورتب به مدرساً. أثابه الله على ذلك.

ولما تكمل تجديده تحدث فى إقامة جمعة فيه. فنودى فى المدينة بذلك، واستخدم له الفقيه زين الدين خطيبا، وأقيمت الجمعة فيه فى اليوم المذكور. وحضر الأتابك فارس الدين، والصاحب بهاء الدين على بن حنا، وولده الصاحب فخر الدين محمد، وجماعة من الأمراء والكبراء وأصناف العالم على اختلافهم، وكان يوم جمعة مشهوداً.

ولما فرغ من الجمعة، جلس الأمير عزالدين الحلى والأتابك والصاحب، وقرئ القرآن، ودعى للسلطان. وقام الأمير عزالدين ودخل إلى داره، ودخل معه الأمراء، فقدم لهم كل ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين، وانفضوا.

وكان قد جرى الحديث فى أمر جواز الجمعة فى الجامع، وما ورد من أقاويل العلماء، وكتب فيها فيما أخذ فيها خطوط العلماء بجواز الجمعة فى هذا الجامع وإقامتها، فكتب جماعة خطوطهم فيها. وأقيمت صلاة الجمعة به واستمرت، ووجد الناس به رفقا وراحة لقربه من الحالات البعيدة من الجامع الحاكمي.

قال: وكان سقف هذا الجامع قد بنى قصيراً، فزيد فيه بعد ذلك من على ذراعاً واستمرت الخطبة فيه حتى بن الجامع الحاكمى فانتقلت الخطبة إليه، فإن الخليفة كان يخطب فيه خطبة، وفى الجامع الأزهر خطبة، وفى جامع ابن طولون خطبة، وفى جامع مصر خطبة.

وانقطت الخطبة من الجامع الأزهر لما استبد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالسلطة. فإنه قلد وظيفة القضاء لقاضى القضاة صدر الدين عبدالملك بن درياس، فعمل بمقتضى مذهبه ـ وهو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة فى بلد واحد، كما هو مذهب الإمام الشافعى ـ فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر، وأقر الخطبة بالجامع الحاكمى من أجل أنه أوسع.

فلم يزل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الجمعة فيه مائة عام، من حين آستولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، إلى أن أعيدت الخطبة فى أيام الملك الظاهر بيبرس كما تقدم ذكره.

ثم لما كانت الزلزلة بديار مصر، فى ذى الحجة سنة اثنتين وسبعمائة، سقط الجامع الأزهر والجامع الحاكمى وجامع مصر وغيره، فتقاسم أمراء الدولة عمارة الجوامع، فتولى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير عمارة الجامع الحاكمي، وتولى الأمير سلار عمارة الجامع الأزهر، وتولى الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار عمارة جامع الصلاح. فجددوا مبانيها، وأعادوا ما تهدم منها.

ثم جددت عمارة الجامع الأزهر على يد القاضى نجم الدين محمد بن حسين بن على الأسعردي، محتسب القاهرة، فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة.

ثم جددت عمارته فى سنة إحدى وستين وسبعمائة عندما سكن الأمير الطواشى سعد الدين بشير الجامدار الناصرى فى دار الأمير فخر الدين أبان الزاهدى الصالحى النجمي، بخط الأبارين بجوار الجامع الأزهر، بعدما هدمها وعمرها داره التى تعرف هناك إلى يوم بدار بشير الجامدار.

فأحب لقربة من الجامع أن يؤثر فيه أثراً صالحاً، فاستأذن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى عمارة الجامع - وكان أثيراً عنده خصيصاً به - فأذن له فى ذلك.

وكان قد استجد بالجامع عدة مقاصير، ووضعت فيه صناديق وخزائن حتى ضيقته. فأخرج الخزائن والصناديق، ونزع تلك المقاصير، وتتبع جدرانه وسقوفه بالإصلاح حتى عادت كأنها جديدة، وبيض الجامع كله وبلطه، ومنع الناس من المرور فيه، ورتب فيه مصحفاً، وجعل له قارئاً.

وأنشأ على باب الجامع القبلى حانوتاً لتسبيل الماء العذب فى كل يوم، وعمل فوقه مكتب سبيل لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز.

ورتب للفقراء المجاورين طعاماً يطبخ كل يوم، وأنزل إليه قدوراً من نحاس جعلها فيه. ورتب فيه درساً للفقهاء من الحنفية، يجلس مدرسهم لإلقاء الفقه فى المحراب الكبير، ووقف على هذه أوقافاً جليلة باقية إلى يومنا هذا. ومؤذنو الجامع يدعون فى كل جمعة، وبعد كل صلاة للسلطان حسن إلى هذا الوقت الذى نحن فيه.

وفى سنة أربع وثمانين وسبعمائة، ولى الأمير الطواشى بهادر، المقدم على المماليك السلطانية، نظر الجامع الأزهر. فتنجز مرسوم السلطان الملك الظاهر برقوق: بأن من مات من مجاورى الجامع الأزهر عن غير وارث شرعى وترك موجوداً، فإنه يأخذه المجاورون بالجامع. ونقش ذلك على حجر عند الباب الكبير البحري.

وفى سنة ثمانية هدمت منارة الجامع، وكانت قصيرة، وعمرت أطول منها، فبلغت النفقة عليها من مال السلطان خمسة عشر ألف درهم نقرة، وكملت فى ربيع الآخر من السنة المذكورة. فعلقت القناديل فيها ليلة الجمعة من هذا الشهر، وأوقدت حتى اشتعل الضوء من أعلاها إلى أسفلها. واجتمع القراء والوعاظ بالجامع، وتلوا ختمة شريفة، ودعوا للسلطان.

فلم تزل هذه المئذنة إلى شوال سنة سبع عشرة وثمانمائة. فهدمت لميل ظهر فيها، وعمل بدلها منارة من حجر على باب الجامع البحرى بعدما هدم الباب وأعيد بناؤه بالحجر، وركبت المنارة فوق عقده، وأخذ الحجر لها من مدرسة الملك الأشرف خليل التى كانت تجاه قلعة الجبل.

وهدمها الملك الناصر فرج بن برقوق، وقام بعمارة ذلك الأمير تاج الدين التاج الشوبكي، وإلى القاهرة ومحتسبها، إلى أن تمت فى جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة وثمانمائة. فلم تقم غير قليل، ومالت حتى كادت تسقط، فهدمت فى صفر سنة سبع وعشرين وأعيدت.

وفى شوال منها ابتدئ بعمل الصهريج الذى بوسط الجامع. فوجد هناك آثار فسقية ماء، ووجد أيضاً رمم أموات. وتم بناؤها فى ربيع الأول، وعمل بأعلاه مكان مرتبع له قبة يسبل فيه الماء، وغرس بصحن الجامع أربع شجرات، فلم تفلح وماتت.

ولم يكن لهذا الجامع ميضأة عندما بني، ثم عملت ميضأته حيث المدرسة الأقبغاوية، إلى أن بنى الأمير أقبغا عبدالواحد مدرسته المعروفة بالمدرسة الأقبغاوية هناك. وأما هذه الميضأة التى بالجامع الآن، فإن الأمير بدر الدين جنكل بن البابا بناها، ثم زيد فيها بعد سنة عشر وثمانمائة ميضأة المدرسة الأقبغاوية.

وفى سنة ثمان عشرة وثمانمائة، ولى نظر هذا الجامع الأمير سودوب القاضى حاجب الحجاب، فجرت فى أيام نظرة حوادث لم يتفق مثلها. وذلك أنه لم يزل فى هذا الجامع منذ

بنى عدة من الفقراء يلازمون الإقامة فيه ، وبلغت عدتهم فى هذه الأيام سبعمائة وخمسين رجلاً، ما بين عجم وزيالعة ومن أهل ريف مصر ومغاربة ، ولكل طائفه رواق يعرف بهم .

فلايزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه ، والاشتغال بأنواع العلوم الفقه والحديث والتفير والنحو ، ومجالس الوعظ وحلق الذكر . فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله ، والارتياح وترويح النفس ، مالا يجده فى غيره ، وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالي ، وكل قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلاوات لاسيما فى المواسم .

فأمر فى جمادى الأولى من هذه السنة بإخراج المجاورين من الجامع ، ومنعهم من الإقامة فيه ، وإخراج ما كان لهم فيه من صناديق وخزائن وكراسى المصاحف . . زعما منه أن هذا العمل مما يثاب عليه ، وما كان إلا من أعظم الذنوب وأكثرها ضرراً . فإنه حل بالفقراء بلاء كبير من تشتت شملهم وتعذر الأماكن عليهم ، فساروا فى القرى ، وتبذلوا بعد الصيانة ، وفقد من الجامع أكثر ما كان فيه من تلاوة القرآن ودراسة العلم وذكر الله .

ثم لم يرضه ذلك حتى زاد فى التعدي ، وأشاع أن أناساً يبيتون بالجامع ويفعلون فيه منكرات . وكانت العادة قد جرت بمبيت كثير من الناس فى الجامع ما بين تاجر وفقيه وجندى وغيرهم ، منهم من يقصد بمبيته البركة ، ومنهم من لايجد مكاناً يأويه ، ومنهم من يستروح بمبيته هناك . . خصوصاً فى ليالى شهر رمضان ، فإنه يمتلئ صحنة وأكثر رواقاته .

فلما كانت ليلة الأحد الحادى عشر من جمادى الآخرة ، طرق الأمير سودوب الجامع بعد العشاء الآخرة والوقت صيفا ، وقبض على جماعة وضربهم فى الجامع ، وكان قد جاء معه من الأعوان والغلمان وغوغاء العامة ومن يريد النهب جماعة ، فحل بمن كان فى الجامع أنواع البلاء ، ووقع فيه النهب ، فأخذت فرشهم وعمائمهم ، وفتشت أوساطهم ، وسلبوا ما كان مربوطاً عليها من ذهب وفضة .

وعمل ثوباً أسود للمنبر وعلمين مزوقين ، بلغت النفقة على ذلك خمسة عشر ألف درهم على ما بلغني . فعاجل الله الأمير سودوب ، وقبض عليه السلطان فى شهر رمضان ، وسجنه بدمشق .

جامع الحاكم

هذا الجامع بنى خارج باب الفتوح ، أحد أبواب القاهرة ، وأول من أسسه أمير المؤمنين العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد ، وخطب فيه وصلى بالناس الجمعة ، ثم أكمله ابنه الحاكم بأمر الله . فلما وسع أمير الجيوش بدر الجمالى القاهرة ، وجعل أبوابها حيث هى إليوم ، صار جامع الحاكم داخل القاهرة ، وكان يعرف أولاً بجامع الخطبة ، ويعرف إليوم بجامع الحاكم ، ويقال له الجامع الأنور .

قال الأمير مختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد المسبحى فى «تاريخ مصر» . وفيه (يعنى شهر رمضان سنة ثمانين وثلاثمائة) خط أساس الجامع الجديد بالقاهرة مما يلى باب الفتوح من خارجه ، وبدئ بالبناء فيه وتحلق فيه الفقهاء الذى يتحلقون فى جامع القاهرة (يعنى الجامع الأزهر) ، وخطب فيه العزيز بالله .

وقال فى حوادث سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة : لأربع خلون من شهر رمضان ، صلى العزيز بالله فى جامعه صلاة الجمعة وخطب ، وكان فى مسيره بين يديه أكثر من ثلاثة آلاف ، وعليه طيلسان ، وبيده القضيب ، وفى رجله الحذاء ، وركب لصلاة الجمعة فى رمضان سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة إلى جامعة ومعه ابنه منصور ، فجعلت المظلة على منصور ، وسار العزيز بغير مظلة .

وقال فى حوادث سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة : وأمر الحاكم بأمر الله أن يتم بناء الجامع الذى كان الوزير يعقوب بن كلس بدأ فى بنيانه عند باب الفتوح ، فقدر للنفقة عليه أربعون ألف دينار ، فابتدئ فى العمل فيه . وفى صفر سنة إحدى وأربعمائة زيد فى منارة جامع باب الفتوح ، وعمل لها أركان . طول كل ركن مائة ذراع .

وفى سنة ثلاث وأربعمائة ، أمر الحاكم بأمر الله بعمل تقدير ما يحتاج إليه جامع باب الفتوح من الحصر والقناديل والسلاسل ، فكان تكسير ماذرع للحصر ستة وثلاثين ألف ذراع ، فبلغت النفقة على ذلك خمسة آلاف دينار .

قال : وتم بناء الجامع الجديد لباب الفتوح ، وعلق على سائر أبوابه ستور ديبقبه عملت

له، وعلق فيه تنانير فضة عدتها أربع وكثير من قناديل فضة، ورش جميعه بالحصر التى عملت له، ونصب فيه المنبر، وتكامل فرشه وتعليقه.

وأذن فى ليلة الجمعة سادس شهر رمضان سنة ثلاث وأربعمائة لمن بات فى الجامع الأزهر أن يمضوا إليه. فمضوا، وصار الناس طول ليلتهم يمشون من كل واحد من الجامعين إلى الآخر - بغير مانع لهم، ولااعتراض من أحد من عسس القصر ولا أصحاب الطوف - إلى الصبح وصلى فيه الحاكم بأمر الله بالناس صلاة الجمعة، وهى أول صلاة أقيمت فيه بعد فراغه.

وفى ذى القعدة سنة أربع وأربعمائة، حبس الحاكم عدة قياسر وأملاك على الجامع الحاكمى بباب الفتوح.

قال ابن عبدالظاهر: وعلى باب الجامع الحاكمى مكتوب «إنه أمر بعمله الحاكم أبو على المنصور فى سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة» وعلى منبره مكتوب «إنه أمر بعمل هذا المنبر للجامع الحاكمى المنشأ بظاهر باب الفتوح فى سنة ثلاث وأربعمائة».

ورأيت فى سيرة الحاكم «وفى يوم الجمعة أقيمت الجمعة فى الجامع الذى كان الوزير أنشأه بباب الفتوح».

ورأيت فى سيرة الوزير المذكور «فى يوم الأحد عاشر رمضان سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، خط أساس الجامع الجديد بالقاهرة، خارج الطابية مما يلى باب الفتوح».

قال: وكان هذا الجامع خارج القاهرة، فجدد بعد ذلك باب الفتوح. وعلى البدنة التى تجاور باب الفتوح وبعض البرج مكتوب «إن ذلك بنى سنة ثلاثين وأربعمائة فى زمن المستنصر بالله ووزارة أمير الجيوش». فيكون بينهما سبع وثمانون سنة.

قال: والفسقية وسط الجامع بناها الصاحب عبدالله بن على بن يشكر، وأجرى الماء إليها، وأزالها القاضى تاج الدين بن شكر وهو قاضى القضاة فى سنة ستين وستمائة. والزيادة التى إلى جانبه قيل إنها بناء ولده الظاهر على ولم يكملها. وكان قد حبس فيها الفرنج، فعملوا فيها كنائس هدمها الملك الناصر صلاح الدين، وكان قد تغلب عليها، وبنيت أصطبلات.

وبلغنى أنهـا كـانت فى الأيام المتـقـدمـة قـد جـعلت أهراء للغـلال . فلمـا كـان فى الأيام الصالحية ، ووزارة معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ للملك الصالح أيوب ولد الكامل ، ثبت عند الحاكم أنها من الجامع ، وأن بها محراباً ، فانتزعت وأخرج الخيل منها ، وبنى فيها ما هو الآن فى الأيام المعزية على يد الركن الصيرفي ، ولم يسقف .

ثم جدد هذا الجامع فى سنة ثلاث وسبعمائة ، وذلك أنه لما كان يوم الخميس ثالث عشرى ذى الحجة سنة اثنتين وسبعمائة ، تزلزلت أرض مصر والقاهرة وأعمالهما ، ورجف كل ماعليهما واهتز ، وسمع للحيطان قعقعة وللسقوف قرقعة ، ومارت الأرض بما عليها وخرجت من مكانها .

وتخيل الناس أن السماء قد انطبقت على الأرض ، فهربوا من أماكنهم ، وخرجوا عن مساكنهم ، وبرزت النساء حاسرات ، وكثر الصراخ والعويل ، وانتشرت الخلائق ، فلم يقدر أحد على السكون والقرار ، لكثرة ما سقط من الحيطان ، وخر من السقوف والمآذن وغير ذلك من الأبنية . وفاض ماء النيل فيضا غير المعتاد ، وألقى ما كان عليه من المراكب التى بالساحل قدر رمية سهم ، وانحسر عنها فصارت على الأرض بغير ماء .

واجتمع العالم فى الصحراء خارج القاهرة ، وباتوا ظاهر باب البحر بحرمهم وأولادهم فى الخيم ، وخلت المدينة ، وتشعثت جميع البيوت حتى لم يسلم ولا بيت من سقوط أو تسقط أو ميل . وقام الناس فى الجوامع يبتهلون ، ويسألون الله سبحانه طول يوم الخميس وليلة الجمعة ويوم الجمعة . فكان مما تهدم فى هذه الزلزلة الجامع الحاكمي . فإنه سقط كثير من البدنات التى فيه ، وخرب أعإلى المئذنتين ، وتشعثت سقوفه وجدرانه .

فانتدب لذلك الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير . ونزل إليه ومعه القضاة والأمراء فكشفه بنفسه ، وأمر برم ما تهدم منه وإعادة ماسقط من البدنات ، فأعيدت وفى كل بدنة منها طاق ، وأقام سقوف الجامع وبيضه حتى عاد جديداً ، وجعل له عدة أوقاف بناحية الجيزة وفى الصعيد وفى الاسكندرية ، تغل كل سنة شيئاً كثيراً ، ورتب فيه دروساً أربعة لإقراء الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة ، ودرساً لإقراء الحديث النبوي ، وجعل لكل درس مدرساً وعدة كثيرة من الطلبة .

فرتب فى تدريس الشافعية قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي، وفى تدريس الحنفية قاضى القضاة شمس الدين أحمد السروجى الحنفي، وفى تدريس المالكية قاضى القضاه زين الدين على بن مخلوف المالكي، وفى تدريس الحنابلة قاضى القضاة شرف الدين الجواني، وفى درس الحديث الشيخ سعد الدين مسعوداً الحارثي، وفى درس النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان، وفى درس القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفي، وفى التصدير لإفادة العلوم علاء الدين على بن إسماعيل القونوي، وفى مشيخة الميعاد المجد عيسى بن الخشاب.

وعمل فيه خزانة كتب جليلة، وجعل فيه عدة متصدرين لتلقين القرآن الكريم، وعدة قراء يتناوبون قراءة القرآن، ومعلما يقرئ أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل. وحفر فيه صهريجاً بصحن الجامع ليملأ فى كل سنة من ماء النيل، ويسيل منه الماء فى كل يوم، ويستقى منه الناس يوم الجمعة، وأجرى على جميع من قرره فيه معاليم داره. وهذه الأوقاف باقية إلى إليوم، إلا أن أحوالها اختلت كما اختل غيرها. فكان ما أنفق عليه زيادة على أربعين ألف دينار.

وجرى فى بنائه لهذا الجامع أمر يتعجب منه. وهو ما حدثنى به شيخنا الشيخ المعروف المسند المعمر، أبو عبدالله محمد بن ضرغام ابن شكر المقرى بمكة فى سنة سبع وثمانين وسبعمائة... قال: أخبرنى من حضر عمارة الأمير بيبرس للجامع الحاكمى عند سقوطه فى سنة الزلزلة أنه لما شرع البناة فى ترميم ما وهى من المئذنة التى هى من جهة باب الفتوح، ظهر لهم صندوق فى تضاعيف البنيان. فأخرجه الموكل بالعمارة وفتحه، فإذا فيه قطن ملفوف على كف انسان بزنده، وعليه أسطر مكتوبة لم يدر ما هي، والكف طرية كأنها قريبة عهد بالقطع ثم رأيت هذه الحكاية بخط مؤلف السيرة الناصرية موسى بن محمد بن يحيي أحد مقدمى الحلقة.

ثم جدد هذا الجامع، وبلط جميعه فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى ولايته الثانية، على يد الشيخ قطب الدين محمد الهرماس فى سنة ستين وسبعمائة. ووقف قطعة أرض على الهرماس وأولاده، وعلى زيادة فى معلوم الأمام بالجامع، وعلى ما يحتاج إليه فى زيت ومرمة فى سقفه وجدرانة.

وجرى فى عمارة الجامع على يد الهرماس ما حدثنى به الشيخ المعمر شمس الدين محمد ابن علي، أمام الجامع الطيبرسى بشاطئ النيل قال : أخبرنى محمد بن عمر البوصيري، قال : حدثنا قطب الدين محمد الهرماس أنه رأى بالجامع الحاكمى حجراً ظهر من مكان قد سقط، منقوشه عليه هذه الأبيات الخمسة :

ان الذى أسررت مكنون اسمه
وكتمته كيما أفوز بوصله
مال له جذر تساوى فى الهجا
طرفاه يضرب بعضه فى مثله
فيصير ذاك المال إلا أنه
فى النصف منه تصاب أحرف كله
وإذا نطقت بربعه متكلماً
من بعد أوله نطقت بكله
لانقط فيه إذا تكامل عده
فيصير منقوطاً بجملة شكله

قال : وهذه الأبيات لغز فى الحجر المكرم.

وقال العلامة شمس الدين محمد بن النقاش فى كتاب «العبر فى أخبار من مضى وغبر» : وفى هذه السنة (يعنى سنة إحدى وستين وسبعمائة) صودر الهرماس، وهدمت داره التى بناها أمام الجامع الحاكمي، وضرب ونفى هو وولده. فلما كان يوم الثلاثاء التاسع والعشرون من ذى القعدة، استفتى السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى وقف حصة طندتا.

وهى الأرض التى كان قد سأله الهرماس أن يقفها على مصالح الجامع الحاكمي. فعين له خمسمائة وستين فداناًمن طين طندتا، وطلب الموقعين وأمرهم أن يكتبوا صورة وقفها، ويحضروه ليشهدوا عليه به.وكان قد تقرر من شروطه فى أوقافه ما قيل أنه رواية عن أبى حنفية، رحمه الله تعالى عليه، من أن للواقف أن يشترط فى وقفه التغيير والزيادة والنقص

وغير ذلك - فأحضر الكركى الموقع إليه الكتاب مطوياً، فقرأ منه طرته وخطبته وأوله، ثم طواه وأعاده إليه مطوياً، وقال : اشهدوا بما فيه - دون قراءة وتأمل - فشهدوا هم بالتفصيل الذى كتبوه وقرروه مع الهرماس.

ولما اطلع السلطان على ذلك بعد نفى الهرماس، طلب الكركى وسأله عن هذه الواقعة. فأجاب بما قد ذكرنا، والله أعلم بصحة ذلك، غير أن المعلوم المقرر أن السلطان ما قصد إلا مصالح الجامع . . . نعم سأله أزدمر الخازندار: هل وقفت حصة لطيفة على أولاد الهرماس، فإنه قد ذكر ذلك؟

فقال : نعم أنا وقفت عليه جزءاً يسيراً لم أعلم مقداره. وأما التفصيل المذكور فى كتاب الموقف فلم أتحققه ولم أطلع عليه.

فاستفتى المفتين فى هذه الواقعة. فأما المفتون - كابن عقيل، وابن السبكي، والبلقينى والبسطامي، والهندي، وابن شيخ الجبل، والبغدادى ونحوهم - فأجابوا ببطلان الحكم المترتب على هذه الشهادة الباطلة وبطلان التنفيد. . وكان الحنفى حكم والبقية نفذوا. وأما الحنفى فقال: إن الوقف إذا صدر صحيحاً على الأوضاع الشرعية. فإنه لايبطل بما قاله الشاهد، وهو جواب عن نفس الواقعة وأما الشافعى فكتب ما مضمونه. إن الحنفى إن اقتضى مذهبه بطلان ما صححه أولاً، نفذ بطلانه، وحاصل ذلك أن القضاة أجابوا بالصحة، والمفتين أجابوا بالبطلان.

فطلب السلطان المفتين والقضاة. فلم يحضر من الحكام غير نائب الشافعي، وهو تاج الدين محمد بن اسحاق بن المناوي، والقضاة الثلاثة الشافعى والحنفى والحنبلى وجدوا مرضى لم يمكنهم الحضور إلى سرياقوس - فإن السلطان كان قد سرح إليها على العادة فى كل سنة - فجمعهم السلطان فى برج من القصر الذى بميدان سرياقوس عشاء الآخرة، وذكر لهم القضية، وسألهم عن حكم الله تعالى فى الواقعة. ، فأجاب الجميع بالبطلان. . . غير المناوى فإنه قال: مذهب أبى حنيفة أن الشهادة الباطلة إذا اتصل بها الحكم صح ولزم.

فصرخت عليه المفتون شافعيهم وحنفيهم، أما شافعيهم فإنه قال: ليس هذا مذهبك ولامذهب الجمهور، ولا هو الراجح فى الدليل والنظر. وقال له ابن عقيل: هذا مما ينقض

به الحكم لو حكم به حاكم، وادعى قيام الإجماع على ذلك. وقال له سراج الدين البلقيني: ليس هذا مذهب أبى حنيفة، ومذهبه فى العقود والفسوخ ما ذكرت من أن حكم الحاكم يكون هو المعتمد فى التحليل والتحريم. وأما الأوقاف ونحوها فحكم الحاكم فيها لا أثر له كمذهب الشافعي.

وادعو أن الإجماع قائم على ذلك، وقاموا على المناوى فى ذلك قومه عظيمة، فقال: نحن نحكم بالظاهر.

فقالوا له: مالم يظهر الباطن بخلافه.

فقال: قال النبى ﷺ: «نحن نحكم بالظاهر»

قالوا: هذا الحديث كذب على النبى ﷺ، وإنما الحديث الصحيح حديث «إنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض. . .» الحديث.

قال المناوي: الأحكام ما هى بالفتاوي.

قالوا له: فبماذا تكون؟ أفى الوجود حكم شرعى بغير فتوى من الله ورسوله؟

وكان قد قال فى مجلس ابن الدريهم القائم على نفيس اليهودى-المدعو برأس الجالوت بين اليهود- لايلتفت لقول المفتين.

فقيل له فى هذا المجلس: ها أنت قد قلت مرتين أن المفتين لايعتبر قولهم، وإن الفتاوى لايعتد بها. وقد أخطأت فى ذلك أشد الخطأ، وأنبأت عن غاية الجهل، فإن منصب الفتوى أول من قام به رب العالمين، إذ قال فى كتابة المبين: ﴿**يستفتونك، قل الله يفتيكم فى الكلالة**﴾(١)، وقال يوسف عليه السلام: ﴿**قضى الأمر الذى فيه تستفتيان**﴾(٢)، وقال النبى ﷺ لعائشة رضى الله عنها: «**قد أفتانى الله ربى فيما استفتيته**».

وكل حكم جاء على سؤال سائل تكفل ببيانه قرآن أو سنة فهو فتوي، والقائم به مفت، فكيف تقول: لا يلتفت إلى الفتوى أو إلى المفتين؟ فقال سراج الدين الهندى وغيره: هذا كفر، ومذهب أبى حنيفة أن من استخف بالفتوى أو المفتين فهو كافر.

(١) سورة النساء-آية ١٧٦-٤م.
(٢) سورة يوسف-آية ٤١-١٢ك.

فاستدرك نفسه بعد ذلك وقال: لم أرد إلا أن الفتوى إذا خالفت المذهب فهى باطلة.

قالوا له: وأخطأت فى ذلك أيضاً، لأن الفتوى قد تخالف المذهب المعين، ولا تخالف الحق فى نفس الأمر.

قال: فأردت بالفتوى التى تخالف الحق.

قالوا: فأطلقت فى موضع التقييد، وذلك خطأ.

فقال السلطان حينئذ: فإذا قدر هذا، وادعيت أن الفتوى لا أثر لها، فنبطل المفتين والفتوى من الوجود.

فتلكأ وحار وقال: كيف أعمل فى هذا؟

فتبين لبعض الحاضرين أنه استشكل المسألة، ولم يتبين له وجهها، فقال: لاشك أن مولانا السلطان لم ينكر صدور الوقف، وإنما أنكر المصارف، وأن تكون الجهة التى عينها هى هرماس وشهوده وقضاته، وللسلطان أن يحكم فيها بعلمه، ويبطل ما قرره من عند أنفسهم.

قال: كيف يحكم لنفسه؟ قيل له: ليس هذا حكماً لنفسه لأنه مقر بأصل الوقف، وهو للمستحقين ليس له فيه شىء، وإنما بطل وصف الوقف، وهو المصرف الذى قرر على غير جهة الوقف. وله أن يوقع الشهادة على نفسه، يحكم أن مصرف هذا الوقف الجهة الفلانية دون الفلانية.

ولم يزالوا يذكرون له أوجها تبين بطلان الوقف إما بأصله أبو بوصفه، إلى أن قال: يبطل بوصفه دون أصله. وأذعن لذلك بعد إتعاب من العلماء، وإزعاج شديد من السلطان فى بيان وجوه ذكروها تبين وجه الحق، وأنه إنما وقفه على مصالح الجامع المذكور. وهذا مما لايشك فيه عاقل ولا يرتاب.

فالتفت بعد ذلك وقال للحاضرين: كيف نعمل فى إبطاله؟

فقالوا: بما قررناه من إشهاد السلطان على نفسه بتفصيل صحيح، وأنه لم يزل كذلك منذ صدر منه الوقف.... إلى هذا الحد وغير ذلك من الوجوه.

فجعل يوهم السلطان أن الشهود الذين شهدوا فى هذا الوقف، متى بطل هذا الوقف ثبت عليهم بالتساهل، وجرحوا بذلك، وقدح ذلك فى عدالتهم، ومتى جرحوا الآن، لزم بطلان شهادتهم فى الأوقاف المتقدمة على هذا التاريخ.

وخيل بذلك للسلطان حتى ذكر له إجماع المسلمين على أن جرح الشاهد لاينعطف على ما مضى من شهاداته السالفة، ولو كفر ـ والعياذ بالله ـ وهذا مما لاخلاف فيه. ثم استقر رأيه على أن يبطله بشاهدين يشهدان أن السلطان لما صدر منه هذا الوقف كان قد اشترط لنفسه التغيير والتبديل والزيادة والنقص، وقام على ذلك.

قال مؤلفه رحمه الله: أنظر تثبت القضاة، وقايس بين هذه الواقعة وما كان من تثبت القاضى تاج الدين المناوى ـ وهو يومئذ خليفة الحكم ـ ومصادمته الجبال، وبين ما ستقف عليه من التساهل والتناقض فى خبر أوقاف مدرسة جمال الدين يوسف الأستادار، وميز بعقلك فرق ما بين القضيتين. وهذه الأرض التى ذكرت، هى الآن بيد أولاد الهرماس، بحكم الكتاب الذى حاول السلطان نقضه فلم يوافق المناوي. والجامع الآن متهدم، وسقوفه كلها ما من زمن إلا ويسقط منها الشئ بعد الشئ فلا يعاد.

وكانت ميضأة هذا الجامع صغيرة بجوار ميضأته الآن فيما بينها وبين باب الجامع، وموضعها الآن مخزن تعلوه طبقة عمرها شخص من الباعة يعرف بابن كرسون المراحلي. وهذه الميضأة الموجودة الآن أحدثت، وأنشأ الفسقية التى فيها ابن كرسون فى أعوام بضع وثمانين وسبعمائة، وبيض مئذنتى الجامع. واستجد المئذنة التى بأعلى الباب المجاور للمنبر رجل من الباعة، وكملت فى جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وثمانمائة، وخرق سقف الجامع حتى صار المؤذنون ينزلون من السطح إلى الدكة التى يكبرون فوقها وراء الإمام.

هيئة صلاة الجمعة فى أيام الخلفاء الفاطميين

قال المسبحي . وفى يوم الجمعة غرة رمضان سنة ثمانين وثلاثمائة ، ركب العزيز بالله إلى جامع القاهرة بالمظلة المذهبة ، وبين يديه نحو خمسة آلاف ماش ، وبيده القضيب وعليه الطيلسان والسيف ، فخطب وصلى صلاة الجمعة ، وانصرف فأخذ رقاع المتظلمين بيده ، وقرأ منها عدة فى الطريق . وكان يوماً عظيماً ذكرته الشعراء .

قال ابن الطوير : إذا انقضى ركوب أول شهر رمضان استراح فى أول جمعة . فإذا كانت الثانية ركب الخليفة إلى الجامع الأنور الكبير ، فى هيئة المواسم ، بالمظلة وما تقدم ذكره من الآلات ، ولباسه فيه ثياب الحرير البيض ، توقيراً للصلاة ، من الذهب والمنديل والطيلسان المقور الشعري .

فيدخل من باب الخطابة والوزير معه ، بعد أن يتقدمه فى أوائل النهار صاحب بيت المال ـ وهو المقدم ذكره فى الأستاذين ـ وبين يديه الفرش المختصة بالخليفة إذا صار إليه فى هذا اليوم ، وهو محمول بأيدى الفراشين المميزين ، وهو ملفوف فى العراصى الديبقية .

فيفرش فى المحراب ثلاث طراحات ، إما سامان أو ديبقى أبيض ، أحسن ما يكون من صنفهما ، كل منهما منقوش بالحمرة . فتجعل الطراحات متطابقات ، ويعلق ستران يمنه ويسره . وفى الستر الأيمن كتابه مرقومة بالحرير الأحمر واضحة منقوطة ، أولها البسملة والفاتحة وسورة الجمعة ، وفى الستر الأيسر مثل ذلك وسورة إذا جاءك المنافقون . . قد أسبلا وفرشا فى التعليق بجانبى المحراب لاصقين بجسمه .

ثم يصعد قاضى القضاة المنبر وفى يده مدخنه لطيفة خيزران . يحضرها إليه صاحب بيت المال فيها جمرات ، ويجعل فيها ند مثلث لايشم مثله إلا هناك ، فيبخر الذروة التى عليها الغشاء كالقبة لجلوس الخليفة للخطابة ، ويكرر ذلك ثلاث دفعات .

فيأتى الخليفة فى هيئة موقرة من الطبل والبوق ، وحوالى ركابه ـ خارج أصحاب الركاب ـ القراء وهم قراء الحضرة ، من الجانبين ، يطربون بالقراءة نوبة بعد نوبة . . يستفتحون بذلك

من ركوبه من الكرسى على ما تقدم طول طريقه إلى قاعه الخطابة من الجامع . ثم تحفظ المقصورة من خارجها بترتيب أصحاب الباب واستفهسلار العساكر ، ومن داخلها إلى آخرها صبيان الخاص وغيرهم ممن يجرى مجراهم ، ومن داخلها من باب خروجه إلى المنبر واحد فواحد .

فيجلس فى القاعة ، وإن احتاج إلى تجديد وضوء فعل ، والوزير فى مكان آخر . فإذا أذن بالجمعة دخل إليه قاضى القضاة فقال له : السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله .

فيخرج ماشياً وحواليه الأستاذون المحنكون والوزير وراءه ، ومن يليهم من الحواص وبأيديهم الأسلحة من صبيان الخاص ، وهم أمراء وعليهم هذا الاسم .

فيصعد المنبر إلى أن يصل إلى الذروة تحت تلك القبة المبخرة فإذا استوى جالساً والوزير على باب المنبر ووجهه إليه ، فيشير إليه بالصعود فيصعد إلى أن يصل إليه ، فيقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يزرر عليه تلك القبة لأنها كالهودج ، ثم ينزل مستقبلاً فيقف ضابطاً لباب المنبر . فإن لم يكن ثم ورير صاحب سيف ، زرر عليه قاضى القضاة كذلك ، ووقف صاحب الباب ضابطاً للمنبر .

فيخطب خطبة قصيرة من مسطور يحضر اليه من ديوان الإنشاء ، يقرأ فيها آية من القرآن الكريم - ولقد سمعته مرة فى خطابته بالجامع الأزهر وقد قرأ فى خطبته **﴿رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى﴾** (١) الآية - ثم يصلى على أبيه وجده (يعنى بهما محمداً ﷺ وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه) ، ويعظ الناس وعظاً بليغاً قليل اللفظ .

وتشتمل الخطبة على ألفاظ جزلة ، ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل إلى نفسه ، فقال وأنا أسمعه : «اللهم وأنا عبدك وابن عبدك ، لا أملك لنفس ضراً ولا نفعا» ويتوسل بدعوات فخمة - تليق بمثله ، ويدعو للوزير إن كان ، وللجيوش بالنصر والتأليف ، وللعساكر بالظفر ، وعلى الكافرين والمخالفين بالهلاك والقهر ، ثم يختم بقوله «أذكروا الله يذكركم» ، فيطلع

---

(١) سورة النمل - آية ١٩ - ٢٧ ك .

إليه من زرر عليه، ويفك ذلك التزرير وينزل القهقري. وسبب التزرير عليهم قراءتهم من مسطور لا كعادة الخطباء.

فينزل الخليفة، ويصير على تلك الطراحات الثلاث فى المحراب وحده أماماً، ويقف الوزير وقاضى القضاة صفاً، ومن ورائهما الأستاذون المحنكون والأمراء المطوقون، وأرباب الرتب من أصحاب السيوف والأقلام، والمؤذنون وقوف وظهورهم إلى المقصورة لحفظه. فإذا سمع الوزير الخليفة أسمع القاضي، فاسمع القاضى المؤذنين، وأسمع المؤذنون الناس.

هذا والجامع مشحون بالعالم للصلاة وراءه، فيقرأ ما هو مكتوب فى الستر الأيمن فى الركعة الأولي، وفى الركعة الثانية ما هو مكتوب فى الستر الأيسر، وذلك على طريق التذكار خيفة الارتجاع. فإذا فرغ خرج الناس وركبوا أولاً فأولاً، وعاد طالباً القصر والوزير وراءه، وضربت البوقات والطبول فى العود.

فإذا أتت الجمعة الثانية ركب إلى الجامع الأزهر من القشاشين، على المنوال الذى ذكرناه والقالب الذى وصفناه. فإذا كانت الجمعة الثالثة أعلم بركوبه إلى مصر للخطابة فى جامعها، فيزين له من باب القصر أهل القاهرة إلى جامع ابن طولون، ويزين له أهل مصر من جامع ابن طولون إلى الجامع بمصر. . يرتب ذلك والى مصر: كل أهل معيشة فى مكان. فيظهر المختار من الآلات والستور المثمنات، ويهتمون بذلك ثلاثة أيام بلياليهن، والوالى مار وعائد بينهم، وقد ندب من يحفظ الناس ومتاعهم.

فيركب يوم الجمعة المذكور شاقاً لذلك كله على الشارع الأعظم، إلى مسجد عبدالله الخراب اليوم، إلى دار الأنماط، إلى الجامع بمصر. فيدخل إليه من المعونة - ومنها باب متصل بقاعة الخطيب - بالزى الذى تقدم ذكره فى خطبة الجامعين بالقاهرة وعلى ترتيبهما. فإذا قضى الصلاة عاد إلى القاهرة من طريقه بعينها، شاقاً بالزينة إلى أن يصل إلى القصر، ويعطى أرباب المساجد التى يمر عليها كل واحد ديناراً.

وقال ابن المأمون: ووصل من الطراز الكسوة المختصة بغرة شهر رمضان وجمعتيه: برسم الخليفة للغرة بدلة كبيرة موكبية مكملة مذهبة، وبرسم الجامع الأزهر للجمعة الأولى

من الشهر بدلة موكبيه حرير مكملة منديلها وطيلسانها بياض، وبرسم الجامع الأنور للجمعة الثانية بدلة منديلها وطيلسانها شعري، وما هو برسم أخي الخليفة للغرة خاصة بدلة مذهبة، وبرسم أربع جهات للخليفة أربع حلل مذهبات، وبرسم الوزير للغرة خلعة مذهبة مكملة موكبية، وبرسم الجمعتين بدلتان حريريتان. ولم يكن لغير الخليفه وأخيه الوزير في ذلك شئ فنذكره.

جامع راشدة

هذا الجامع عرف بجامع راشدة، لأنه في خطة راشدة. قال القضاعي: خطة راشدة بن أدوب بن جديلة من لخم، هي متاخمة للخطة التي قبلها إلى الدير المعروف كان بأبي تكموس ثم هدم، وهو الجامع الكبير الذي براشده. وقد دثرت هذه الخطة، ومنها المقبرة المعروفة بمقبرة راشدة، والجنان التي كانت تعرف بكهمس بن معر، ثم عرفت بالمارداني، وهي اليوم تعرف بالأمير تميم.

وقال المسبحي في حوادث سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة: وابتدئ بناء جامع راشدة في سابع عشر ربيع الآخر، وكان مكانه كنيسة حولها مقابر لليهود والنصاري، فبني بالطوب، ثم هدم وزيد فيه وبني بالحجر، وأقيمت به الجمعة.

وقال في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة: وفيه (يعني شهر رمضان) فرش جامع راشدة، وتكامل فرشه وتعليق قناديله وما يحتاج إليه. وركب الحاكم بأمر الله عشية يوم الجمعة الخامس عشر منه، وأشرف عليه.

وقال في سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة: وفيه (يعني شهر رمضان) صلى الحاكم بجامعه الذي أنشأه براشده صلاة الجمعة وخطب. وفي شهر رمضان سنة أربعمائة، أنزل بقناديل وتنور من فضة زنتها ألوف كثيرة، فعلقت بجامع راشدة. وفي سنة إحدى وأربعمائة هدم، وابتدئ في عمارته من صفر.

وفى شهر رمضان سنة ثلاث وأربعمائة : صلى الحاكم فى جامع راشدة صلاة الجمعة، وعليه عمامة بغير جوهر وسيف محلى بفضة بيضاء دقيقة، والناس يمشون بركابه من غير أن يمنع أحد منه. وكان يأخذ قصصهم، ويقف وقوفاً طويلاً لكل منهم.

واتفق يوم الجمعة حادى عشر جمادى الآخره سنة أربع عشرة وأربعمائة أن خطب فيه خطبتان معاً على المنبر. وذلك أن أبا طالب على بن عبدالسميع العباسى استقر فى خطابته بإذن قاضى القضاة أبى العباس أحمد بن محمد بن العوام، بعد سفر العفيف البخارى إلى الشام. فتوصل ابن عصفور إلى أن خرج له أمر أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله، أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله، أن يخطب. فصعدا جميعاً المنبر، ووقف أحدهما دون الآخر وخطبا معا. ثم بعد ذلك استقر أبو طالب خطيباً، وأن يكون ابن عصفور يخلفه.

وقال ابن المتوج : هذا الجامع فيما بين دير الطين والفسطاط. وهو مشهور الآن بجامع راشدة، وليس بصحيح، وإنما جامع راشدة كان جامعاً قديم البناء بجوار هذا الجامع عمر فى زمن الفتح. . عمرته راشدة. وهى قبيلة من القبائل، كقبيلة تجيب ومهرة، نزلت فى هذا المكان، وعمروا فيه جامعاً كبيراً أدركت أنا بعضه ومحرابه. وكان فيه نخل كثير من نخل المقل، ومن جملة ما رأيت فيه نخلة من المقل عددت لها سبعة رؤوس مفرعة منها. . فذاك الجامع هو المعروف بجامع راشدة.

وأما هذا الموجود الآن فمن عمارة الحاكم، ولم يكن فى بناء الجوامع أحسن من بنائه. وقيل عمرته حظية الخليفة وكان اسمها راشدة، وليس بصحيح ، والأول هو الصحيح. وفيه الآن نخل وسدر وساقية رجل، وهو مكان خلوة وانقطاع، ومحل عبادة وفراغ من تعلقات الدنيا.

قال مؤلفه : هذا وهم من أبن المتوج فى موضعين :

«أولهما» : أن راشدة عمرت هذا الجامع فى زمن فتح مصر، وهذا قول لم يقله أحد من مؤرخى مصر. فهذا الكندى ثم القضاعى - وعليهما يعول فى معرفة خطط مصر - ومن قبلهما ابن عبدالحكم. . لم يقل أحد منهم أن راشدة عمرت زمن الفتح مسجداً، ولا يعرف من هذا السلف رحمهم الله، فى جند من أجناد الأمصار التى فتحتها الصحابة رضى الله عنهم، أنهم أقاموا خطبتين فى مسجد واحد.

وقد حكينا ما تقدم عن المسيحي ـ وهو مشاهد ـ ما نقله من بناء الجامع المذكور في موضع الكنيسة بأمر الحاكم بأمر الله، وتغييره لبنائه غير مرة، وتبعه القضاعي على ذلك. وقد وعد القضاعي والكندي في كتابيهما، المذكور فيهما خطط مصر، ما كان بمصر من مساجد الخطبة القديمة والمحدثة، وذكرا مساجد راشدة، ولم يذكرا فيها جامعاً اختطته راشدة، وذكرا هذا الدير، وعين القضاعي اسمه، هدم وبنى في مكانه جامع راشدة. وناهيك بهما معرفة لآثار مصر وخططها.

و «**الوهم الثاني**»: الاستدلال على الوهم الأول بمشاهدة بقايا مسجد قديم. ولا أدري كيف يستدل لذلك؟ فمن أنكر أن يكون قد كان هناك مسجد؟ بل المدعى أنه كان لراشدة مساجد، لكن كونها اختطت جامعاً هذا غير صحيح.

قال ابن أبي طي في أخبار سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة في كتابة «تاريخ حلب»: كانت النصارى اليعقوبية قد شرعوا في إنشاء كنيسة كانت قد اندرست لهم بظاهر مصر، في الموضع المعروف براشدة، فثار قوم من المسلمين، وهدموا ما بنى النصاري. وأنهى إلى الحاكم ذلك، وقيل له: إن النصارى ابتدأوا بناءها، وقال النصاري: إنها كانت قبل الإسلام.

فأمر الحاكم حسين بن جوهر بالنظر في حال الفريقين، فمال في الحكم مع النصاري، وتبين للحاكم ذلك، فأمر أن تبنى تلك الكنيسة مسجداً جامعاً، فبنى في أسرع وقت، وهو جامع راشدة، وراشدة اسم للكنيسة، وكان بجواره كنيستان: إحداهما لليعقوبية، والأخرى للنسطورية، فهدمتا أيضاً، وبنيتا مسجدين.

وكان في حارة الروم بالقاهرة آدر للروم وكنيستان لهم، فهدمتا وجعلتا مسجدين أيضاً، وحول الروم إلى الموضع المعروف بالحمراء، وأسس الروم ثلاث كنائس عوضاً عما هدم لهم. وهذا أيضاً مصرح بأن جامع راشدة أسسه الحاكم، وفيه وهم لكونه جعل راشدة اسماً للكنيسة، وإنما راشدة اسم لقبيلة من العرب نزلوا عند الفتح هناك، فعرفت تلك البقاع بخطة راشدة.

وقد جد جامع راشدة مراراً، وأدركته عامراً تقام فيه الجمعة، ويمتلئ بالناس لكثرة من حوله من السكان، وإنما تعطل من إقامة الجمعة بعد حوادث سنة ست وثمانمائة.

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة : راشدة بطن من لخم، وهم ولد رشادة بن الحارث بن أد بن جديلة، من لخم ابن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد - وقيل راشدة بن أدوب - ويقال لراشدة خالفة، ولهم خطة بمصر بالجبل المعروف بالرصد المطل على بركة الحبش، وقد دثرت الخطة، ولم يبق فى موضعها إلا الجامع الحاكمى المعروف بجامع راشدة .

جامع المقس

هذا الجامع أنشأه الحاكم بأمر الله على شاطئ النيل بالمقس فى . . . . لأن المقس كان خطة كبيرة، وهى بلد قديم من قبل الفتح كما تقدم ذكر ذلك فى هذا الكتاب .

وقال فى الكتاب الذى تضمن وقف الحاكم بأمر الله الأماكن بمصر على الجوامع - كما ذكر فى خبر الجامع الأزهر ما نصه : «ويكون جميع ما بقي، مما تصدق به على هذه المواضع، يصرف فى جميع ما يحتاج إليه فى جامع المقس المذكور من عمارته، ومن ثمن الحصر العبدانية والمظفورة، وثمن العود للبخور وغيره، على ما شرح من الوظائف فى الذى تقدم» .

وكان لهذا الجامع نخل كثير فى الدولة الفاطمية، ويركب الخليفة إلى منظرة كانت بجانبه عند عرض الأسطول، فيجلس بها لمشاهدة ذلك، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر المناظر .

وفى سنة سبع وثمانين وخمسمائة انشقت زربية من هذا الجامع من شهر رمضان لكثرة زيادة ماء النيل، وخيف على الجامع السقوط فأمر بعمارتها .

ولما بنى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب هذا السورر الذى على القاهرة، وأراد أن يوصله بسور مصر من خارج باب البحر إلى الكوم الأحمر - حيث منشأة المهرانى اليوم - وكان المتولى لعمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، أنشأ بجوار جامع المقس برجا كبيراً عرف بقلعة المقس فى مكان المنظرة التى كانت للخلفاء .

فلما كان فى سنة سبعين وسبعمائة، جدد بناء هذا الجامع الوزير الصاحب شمس الدين عبدالله المقسي، وهدم القلعة وجعل مكانها جنينة، واتهمه الناس بأنه وجد هنالك مالاً كثيراً، وأنه عمر منه الجامع المذكور، فصار العامة اليوم يقولون: جامع المقسي. ويظن من لاعلم عنده أن هذا الجامع من إنشائه، وليس كذلك بل إنما جدده وبيضه.

وقد انحسر ماء النيل عن تجاه هذا الجامع كما ذكر فى خبر بولاق والمقس، وصار هذا الجامع اليوم على حافة الخليج الناصري. وأدركنا ما حوله فى غاية العمارة، وقد تلاشت المساكن التى هناك، وبها إلى اليوم بقية يسيرة.

ونظر هذا الجامع اليوم بيد أولاد الوزير المقسي. فإنه جدده، وجعل عليه أوقافاً لمدرس وخطيب وقومة ومؤذنين وغير ذلك.

وقال جامع السيرة الصلاحية: وهذا المقسم على شاطئ النيل يزار، وهناك مسجد يتبرك به الأبرار، وهو المكان الذى قسمت فيه الغنيمة عند استيلاء الصحابة رضى الله عنهم على مصر. فلما أمر السلطان صلاح الدين بإدارة السور على مصر والقاهرة، تولى ذلك بهاء الدين قراقوش، وجعل نهايته التى تلك القاهرة عند المقس، وبنى فيه برجاً يشرف على النيل، وبنى مسجده جامعاً، واتصلت العمارة منه إلى البلد، وصار تقام فيه الجمع والجماعات.

«العزيز بالله»

أبو النصر نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد. ولد بالمهدية من بلاد أفريقية فى يوم الخميس الرابع عشر من المحرم سنة أربع وأربعين وثلاثمائة، وقدم مع أبيه إلى القاهرة وولى العهد. فلما مات المعز لدين الله أقيم من بعده فى الخلافة يوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة، فأذعن له سائر عساكر أبيه، واجتمعوا عليه، وسير بذهب إلى بلاد المغرب فرق فى الناس، وأقر يوسف بن ملكين على ولاية أفريقية، وخطب له بمكة.

ووافى الشام عسكر القرامطة، فصاروا مع أفتكين التركى وقوى بهم، وساروا إلى الرملة وقاتلوا عساكر العزيز بيافا. فبعث العزيز جوهراً القائد بعساكر كثيرة، وملك الرملة، وحاصر دمشق مدة، ثم رحل عنها بغير طائل. فأدركه القرامطة، وقاتلوه بالرملة وعسقلان نحو سبعة عشر شهراً. ثم خلص من تحت سيوف أفتكين وسار إلى العزيز، فوافاه وقد برز من القاهرة فسار معه. ودخل العزيز إلى الرملة، وأسر أفتكين فى المحرم سنة ثمان وستين وثلاثمائة، فأحسن إليه وأكرمه إكراماً زائداً.

فكتب إليه الشريف إبو اسماعيل إبراهيم الرئيس يقول: يا مولانا لقد استحق هذا الكافر كل عذاب، والعجب من الإحسان إليه. فلما لقيه قال: يا إبراهيم قرأت كتابك فى أمر أفتكين، وأنا أخبرك. أعلم أنا قد وعدناه الإحسان والولاية، فلما قبل وجاء إلينا نصب فازاته وخيامه حذاءنا، وأردنا منه الانصراف، فلج وقاتل. فلما ولى منهزماً، وسرت إلى فازاته ودخلتها، سجدت لله شكراً، وسألته أن يفتح لى بالظفر به، فجئ به بعد ساعة أسيراً، أترى يليق بى غير الوفاء؟

ولما وصل العزيز إلى القاهرة، اصطنع أفتكين، وواصله بالعطايا والخلع . . . حتى قال: لقد احتشمت من ركوبى مع الخليفة مولانا العزيز بالله ونظرى إليه بما غمرنى من فضله وإحسانه.

فلما بلغ العزيز ذلك قال لعمه حيدرة: يا عم أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة، وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار، وأن يكون ذلك كله من عندي.

ومات بمدينة بلبيس من مرض طويل بالقولنج والحصاة، فى اليوم الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة، فحمل إلى القاهرة، ودفن بتربة القصر مع آبائه. وكانت مدة خلافته بعد أبيه المعز أحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً، ومات وعمره أثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً، وكان نقش خاتمه «بنصر العزيز الجبار، ينتصر الإمام نزار».

ولما مات وحضر الناس إلى القصر للتعزية، أفحموا عن أن يوردوا فى ذلك المقام شيئاً، ومكثوا مطرقين لاينبسون. فقام صبى من أولاد الأمراء الكنانيين، وفتح باب التعزية وأنشد:

أنظر إلى العلياء كيف تضام

ومآتم الأحساب كيف تقام

خبرنني ركب الركاب ولم يدع

للسفر وجه ترحل فأقاموا

فاستحسن الناس إيراده، وكأنه طرق لهم كيف يوردون المراثي. فنهض الشعراء والخطباء حينئذ وعزوا، وأنشد كل واحد ما عمل فى التعزية.

وخلف من الأولاد ابنه المنصور، وولى الخلافة من بعده، وابنه تدعى «سيدة الملك». وكان أسمر طوالاً، أصهب الشعر، أعين أشهل، عريض المنكبين، شجاعاً كريماً، حسن العفو والقدرة، لايعرف سفك الدماء ألبته، مع حسن الخلق والقرب من الناس، والمعرفة بالخيل وجوارح الطير. وكان محباً للصيد مغرى به، حريصاً على صيد السباع.

ووزر له يعقوب بن كلس اثنتى عشرة سنة وشهرين وتسعة عشر يوماً، ثم من بعده على أبن عمر العداس سنة واحدة، ثم أبو الفضل جعفر بن الفرات سنة، ثم أبو عبدالله الحسين ابن الحسن البازيار سنة وثلاثة أشهر، ثم أبو محمد بن عمار شهرين، ثم الفضل بن صالح الوزيرى أياماً، ثم عيسى بن نسطورس سنة وعشرة أشهر. وكانت قضاته أبو طاهر محمد ابن أحمد، ثم أبو الحسن على بن النعمان، ثم أبو عبدالله محمد بن النعمان.

وخرج إلى السفر أولاً فى صفر سنة سبع وستين وعاد من العباسية، وخرج ثانياً وظفر بأفتكين، وخرج ثالثاً فى صفر سنة اثنتين وسبعين ورجع بعد شهر إلى قصره بالقاهرة، وخرج رابعاً فى ربيع الأول سنة أربع وستين فنزل منية الأصبغ وعاد بعد ثمانية أشهر واثنى عشر يوماً، وخرج خامساً فى عاشر ربيع الآخر سنة خمس وثمانين فأقام مبرزاً أربعة عشر شهراً وعشرين يوماً، ومات فى هذه الخرجة ببلبيس.

وهو أول من أتخذ من أهل بيته وزيراً أثبت اسمه على الطرز، وقرن اسمه بأسمه، وأول من لبس منهم الخفين والمنطقة، وأول من اتخذ منهم الأتراك واصطنعهم وجعل منهم القواد، وأول من رمى منهم بالنشاب، وأول من ركب مهم بالذؤابة الطويلة والحنك، وضرب بالصوالجة ولعب بالرمح، وأول من عمل مائدة فى الشرطة السفلى فى شهر رمضان يفطر عليها أهل الجامع العتيق، وأقام طعاماً فى جامع القاهرة لمن يحضر فى رجب وشعبان ورمضان، واتخذ الحمير لركوبه إياها.

وكانت أمه أم ولد اسمها «درزارة». وكان يضرب بأيامه المثل فى الحسن، فأنها كانت كلها أعياداً وأعراساً لكثرة كرمه ومحبته للعفو واستعماله لذلك. ولا أعلم له بمصر من الآثار غير تأسيس الجامع الحاكمي، وما عدا ذلك فذهب اسمه ومحى رسميه.

«الحاكم بأمر الله»

أبو على منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد ولد بالقصر من القاهرة المعزية ليلة الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلاثمائة، فى الساعة التاسعة، والطالع من برج السرطان سبع وعشرين درجة، وسلم عليه بالخلافة فى مدينة بلبيس بعد الظهر من يوم الثلاثاء عشرى شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة.

وسار إلى القاهرة فى يوم الأربعاء بسائر أهل الدولة، والعزيز فى قبة على ناقة بين يديه، وعلى الحاكم دراعة مصمت وعمامة فيها الجوهر، وبيده رمح وقد تقلد السيف، ولم يفقد من جميع ما كان مع العساكر شئ. ودخل القصر قبل صلاة المغرب، وأخذ فى جهاز أبيه العزيز بالله ودفنه.

ثم بكر سائر أهل الدولة إلى القصر يوم الخميس، وقد نصب للحاكم سرير من ذهب عليه مرتبة مذهبة فى الإيوان الكبير. وخرج من قصره راكباً وعليه معممة الجوهر، والناس وقوف فى صحن الأبوان، فقبلوا له الأرض، ومشوا بين يديه حتى جلس على السرير.

فوقف من رسمه الوقوف، وجلس من له عادة أن يجلس، وسلم الجميع عليه بالإمامة واللقب الذى اختير له وهو «**الحاكم بأمر الله**». وكان سنه يومئذ إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وستة أيام.

فجعل أبا محمد الحسن بن عمار الكندى واسطة ولقب بأمين الدولة، وأسقط مكوساً كانت بالساحل، ورد إلى الحسين بن جوهر القائد البرية والإنشاء فكان يخلفه ابن سورين، وأقر عيسى بن نسطورس على ديوان الخاص، وقلد سليمان بن جعفر بن فلاح الشام. فخرج ينجوتكين من دمشق، وصسار منها لمدافعة سليمان بن جعفر بن فلاح. فبلغ الرملة، وانضم إليه ابن الجراح الطائى فى كثير من العرب، وواقع ابن فلاح، فانهزم وفر، ثم أسر فحمل إلى القاهرة وأكرم.

واختلف أهل الدولة على ابن عمار، ووقعت حروب آلت إلى صرفه عن الوساطة وله فى النظر أحد عشر شهراً غير خمسة أيام، فلزم داره وأطلقت له رسوم وجرايات.

وأقيم الطواشى برجوان الصقلى مكانه فى الوساطة لثلاث بقين من رمضان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، فجعل كاتبه فهد بن إبراهيم يوقع عنه ولقبه بالرئيس، وصرف سليمان بن فلاح عن الشام بجيش بن الصمصامة.

وقلد فحل بن إسماعيل الكتامى مدينة صور، وقلد يانس الخادم برقة، وميسوراً الخادم طرابلس، ويمنا الخادم غزة وعسقلان. فواقع جيش الروم على فاهية، وقتل منهم خمسة آلاف رجل، وغزا إلى أن دخل مرعش. وقلد وظيفة قضاء القضاة أبا عبدالله الحسين بن على بن النعمان فى صفر سنة تسع وثمانين وثلاثمائة بعد موت قاضى القضاة محمد بن النعمان.

وقتل الأستاذ برجوان لأربع بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، وله فى النظر سنتان وثمانية أشهر غير يوم واحد، ورد النظر فى أمور الناس وتدبير المملكة والتوقيعات إلى الحسين بن جوهر، ولقب بقائد القواد، فخلفه الرئيس بن فهد، واتخذ الحاكم مجلساً فى الليل يحضر فيه عدة من أعيان الدولة ثم أبطله.

ومات جيش بن الصمصامة فى ربيع الآخر سنة تسعين وثلاثمائة. فوصل ابنه بتركته إلى

القاهرة، ومعه درج بخط أبيه فيه وصية وثبت بما خلفه مفصلاً، وأن ذلك جميعه لأمير المؤمنين الحاكم بأمر الله، لا يستحق أحد من أولاده منه درهماً. وكان مبلغ ذلك نحو المائتى ألف دينار ما بين عين ومتاع ودواب.. قد أوقف جميع ذلك تحت القصر.

فأخذ الحاكم الدرج ونظره، ثم أعاده إلى أولاد جيش، وخلع عليهم، وقال لهم بحضرة وجوه الدولة: قد وقفت على وصية أبيكم رحمه الله، وما وصى به من عين ومتاع، فخذوه هنيئاً مباركاً لكم فيه. فانصرفوا بجميع التركة.

وولى دمشق فحل بن تميم ومات بعد شهور، فولى على بن فلاح، ورد النظر فى المظالم لعبد العزيز بن محمد بن النعمان، ومنع الناس كافة من مخاطبة أحد أو مكاتبته بسيدنا ومولانا إلا أمير المؤمنين وحده، وأبيح دم من خالف ذلك، وفى شوال قتل ابن عمار.

وفى سنة إحدى وتسعين واصل الحاكم الركوب فى الليل، كل ليلة، فكان يشق الشوارع والأزقة. وبالغ الناس فى الوقود والزينة، وانفقوا الأموال الكثيرة فى المآكل والمشارب والغناء واللهو، وكثر تفرجهم على ذلك حتى خرجوا فيه عن الحد، فمنع النساء من الخروج فى الليل، ثم منع الرجال من الجلوس فى الحوانيت.

وفى رمضان سنة اثنتين وتسعين، قلد تموصلت بن بكار دمشق عوضا عن ابن فلاح، وابتدأ فى عمارة جامع راشدة فى سنة ثلاث وتسعين، وقتل فهر بن إبراهيم وله منذ نظر فى الرياسة خمس سنين وسبعة أشهر واثنا عشر يوماً، فى ثامن جمادى الآخرة منها، وأقيم فى مكانه على بن عمر العداس، وسار الأمير ماروح لإمارة طبرية، ووقع الشروع فى إتمام الجامع خارج باب الفتوح، وقطع الحاكم الركوب فى الليل، ومات تموصلت فولى دمشق بعده مفلح اللحيانى الخادم.

وقتل على بن عمر العداس والأستاذ زيدان الصقلى وعدة كثيرة من الناس وقلد إمارة برقة صندل الأسود فى المحرم سنة أربع وتسعين وصرف الحسين بن النعمان عن القضاء فى رمضان منها، وكانت مدة نظره فى القضاء خمس سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، وإليه كانت الدعوة أيضاً، فيقال له قاضى القضاة وداعى الدعاة. وقلد عبدالعزيز بن محمد ابن النعمان وظيفة القضاء والدعوة، مع ما بيده من النظر فى المظالم.

وفى سنة خمس وتسعين، أمر النصارى واليهود بشد الزنار ولبس العيار، ومنع الناس من أكل الملخوية والجرجير والتوكلية والدليبس، وذبح الأبقار السليمة من العاهة إلا فى أيام الأضحية، ومنع من بيع الفقاع وعمله ألبته، وألا يدخل أحد الحمام إلا بمئزر، وألا تكشف أمرأة وجهها فى طريق ولا خلف جنازة ولاتتبرج، ولايباع شئ من السمك بغير قشر، ولايصطاد أحد من الصيادين وتتبع الناس فى ذلك كله، وشدد فيه، وضرب جماعة بسبب مخالفتهم ما أمروا به ونهوا عنه مما ذكر.

وخرجت العساكر لقتال بنى قره أهل البحيرة. وكتب على أبواب المساجد وعلى الجوامع بمصر، وعلى أبوب الحوانيت والحجر والمقابر، سب السلف ولعنهم، وأكره الناس على نقش ذلك كتابة بالأصباغ فى سائر المواضع. وأقبل الناس من سائر النواحى فدخلوا فى الدعوة، وجعل لهم يومان فى الأسبوع، وكثر الازدحام ومات فيه جماعة، ومنع الناس من الخروج بعد المغرب فى الطرقات، ولا يظهر أحد بها لبيع ولا شراء فخلت الطرق من المارة، وكسرت أوانى الخمور، وأريقت من سائر الأماكن، واشتد خوف الناس بأسرهم، وقويت الشناعات وزاد الاضطراب.

فاجتمع كثير من الكتاب وغيرهم تحت القصر، وضجوا يسألون العفو. فكتب عدة أمانات لجميع الطوائف من أهل الدولة وغيرهم من الباعة والرعية، وأمر بقتل الكلاب فقتل منها مالا ينحصر حتى فقدت، وفتحت دار الحكمة بالقاهرة وحمل إليها الكتب، ودخل إليها الناس. فاشتد الطلب على الركابية المستخدمين فى الركاب، وقتل منهم كثيراً، ثم عفى عنهم وكتب لهم أمان. ومنع الناس كافة من الدخول من باب القاهرة، ومنع الناس من المشى ملاصق القصر، وقتل قاضى القضاة حسين بن النعمان وأحرق بالنار، وقتل عدداً كثيراً من الناس ضربت أعناقهم.

وفى سنة ست وتسعين خرج أبو ركوة يدعو إلى نفسه، وأدعى أنه من بنى أمية. فقام بأمره بنو قرة لكثرة ما أوقع بهم الحاكم وبايعوه، وأستجاب له لواته ومزانة وزنادة، وأخذ برقة، وهزم جيوش الحاكم غير مرة وغنم ما معهم، فخرج لقتاله القائد فضل بن صالح فى ربيع الأول وواقعة، فانهزم منه فضل، واشتد الاضطراب بمصر، وتزايدت الأسعار.

واشتد الاستعداد لمحاربة أبى ركوة، ونزلت العساكر بالجيزة، وسار أبو ركوة، فواقعه القائد فضل، وقتل عدة ممن معه. فعظم الأمر، وأشتد الخوف، وخرج الناس فباتوا بالشوارع خوفاً من هجوم عساكر أبى ركوة. واستمرت الحروب، فانهزم أبو ركوة فى ثالث ذى الحجة إلى الفيوم، وتبعه القائد فضل - بعد أن بعث إلى القاهرة بستة آلاف رأس ومائة أسير - إلى أن قبض عليه ببلاد النوبة، وأحضر إلى القاهرة فقتل بها، وخلع على القائد فضل، وسيرت البشائر بقتله فى الأعمال.

وفى سنة سبع وتسعين أمر بمحو سب السلف، فمحى سائر ما كتب من ذلك، وغلت الأسعار لنقص ماء النيل، فإنه بلغ ستة عشر أصبعا من سبعة عشر ذراعاً ثم نقص، ومات ينجوتكين فى ذى الحجة، واشتد الغلاء فى سنة ثمان وتسعين وولى على بن فلاح دمشق، وقبض جميع ما هو محبس على الكنائس وجعل فى الديوان، وأحرق عدة صلبان على باب الجامع بمصر، وكتب إلى سائر الأعمال بذلك.

وفى سادس عشر رجب قرر مالك بن سعيد الفارقى فى وظيفة قضاء القضاة، وتسلم كتب الدعوة التى تقرأ بالقصر على الأولياء، وصرب عبدالعزيز بن النعمان عن ذلك، وصرف قائد القواد الحسين بن جوهر عما كان يليه من النظر فى سابع شعبان، وقرر مكانه صالح بن على الروذبادي، وقرر فى ديوان الشام مكانه أبو عبدالله الموصلى الكاتب، وأمر حسين بن جوهر وعبدالعزيز بلزوم دورهما، ومنعا من الركوب وسائر أولادهما، ثم عفا عنهما بعد أيام وأمرا بالركوب.

وتوقفت زيادة النيل، فاستسقى الناس مرتين، وأمر بإبطال عدة مكوس، وتعذر وجود الخبز لغلائه وقلته، وفتح الخليج فى رابع توت والماء على خمسة عشرة ذراعاً، فاشتد الغلاء.

وفى تاسع المحرم - وهو نصف توت - نقص ماء النيل ولم يوف ستة عشر ذراعاً، فمنع الناس من التظاهر بالغناء، ومن ركوب البحر للتفرج، ومنع من بيع المسكرات، ومنع الناس كافة من الخروج قبل الفجر وبعد العشاء إلى الطرقات واشتد الأمر على الكافة لشدة ما داخلهم من الخوف، مع شدة الغلاء وتزايد الأمراض فى الناس والموت.

فلما كان فى رجب انحلت الأسعار، وقرئ سجل فيه: يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون صلاة الخمسين للذى جاءهم فيها يصلون، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها، ولا هم عنها يدفعون، ويخمس فى التكبير على الجنائز المخمسون، ولا يمنع من التربيع عليها المربعون. يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون، ولا يؤذن من بها لا يؤذنون. لا يسب أحد من السلف، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف والحالف منهم بما حلف. لكل مسلم مجتهد فى دينة اجتهاده.

ولقب صالح بن على الروذبادى بثقة ثقات السيف والقلم، وأعيد القاصى عبدالعزيز بن النعمان إلى النظر فى المظالم. وتزايدت الأمراض، وكثر الموت، وعزت الأدوية، وأعيدت المكوس التى رفعت، وهدمت كنائس كانت بطريق المقس، وهدمت كنيسة كانت بحارة الروم من القاهرة ونهب ما فيها وقتل كثير من الخدام ومن الكتاب ومن الصقالبة، بعدها قطعت أيدى بعضهم من الكتاب بالشطور على الخشبة من وسط الذراع، وقتل القائد فضل بن صالح فى ذى القعدة.

وفى حادى عشر صفر صرف صالح بن على الروذبادي، وقرر مكانه ابن عبدون النصرانى الكاتب، فوقع عن الحاكم ونظر، وكتب بهدم كنيسة قمامة، وجدد ديوان - يقال له الديوان المفرد - برسم من يقبض ماله من المقتولين وغيرهم، وكثرت الأمراض، وعزت الأدوية، وشهر جماعة وجد عندهم فقاع وملوخية ودلينس وضربوا، وهدم دائر القضر.

واشتد الأمر على النصارى واليهود فى إلزامهم لبس الغيار، وكتب إبطال أخذ الخمس والنجارى والفطرة، وفر الحسين بن جوهر وأولاده وعبدالعزيز بن النعمان، وفر أبو القاسم الحسين بن المغربي، وكتب عدة أمانات لعدة طوائف من شدة خوفهم، وقطعت قراءة مجالس الحكمة بالقصر، ووقع التشديد فى المنع من المسكرات، وقتل كثير من الكتاب الخدام والفراشين، وقتل صالح بن على الروذبادى فى شوال.

وفى رابع المحرم سنة إحدى وأربعمائة، صرف الكافى بن عبدون عن النظر والتوقيع، وقرر بدله أحمد بن محمد القشورى الكاتب فى الوساطة والسفارة، وحضر الحسين بن جوهر وعبدالعزيز بن النعمان إلى القاهرة فأكرما، ثم صرف ابن القشورى بعد عشرة أيام من

استقراره وضربت عنقه، وقرر بدله زرعة بن عيسى بن نسطورس الكاتب النصراني، ولقب بالشافي.

ومنع الناس من الركوب فى المراكب فى الخليج، وسدت أبواب الدور التى على الخليج والطاقات المطلة عليه، وأضيف إلى قاضى القضاه مالك بن سعيد النظر فى المظالم، وأعيدت مجالس الحكمة وأخذ مال النجوي، وقتل ابن عبدون وأخذ ماله، وضرب جماعة وشهروا من أجل بيعهم الملوخية والسمك الذى لاقشر له، وبسبب بيع النبيذ.

وقتل الحسين بن جوهر وعبدالعزيز بن النعمان فى ثانى عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعمائة وأحيط بأموالهما، وأبطلت عدة مكوس، ومنع الناس من الغناء واللهو ومن بيع المغنيات ومن الاجتماع بالصحراء.

ومن هذه السنة خلع حسان بن مفرج بن دغفل بن الجراح طاعة الحاكم، وأقام أبا الفتوح حسين بن جعفر الحسنى أمير مكة خليفة، وبايعه ودعا الناس إلى طاعته ومبايعته، وقاتل عساكر الحاكم.

وفى سنة اثنتين وأربعمائة، منع من بيع الزبيب وكوتب بالمنع من حمله وألقى فى بحر النيل منه شئ وأحرق شئ كثير. ومنع النساء من زيادة القبور، فلم ير فى الأعياد بالمقابر امرأة واحدة، ومنع من الاجتماع على شاطئ النيل للتفرج، ومنع من بيع العنب إلى أربعة أرطال فما دونها، ومنع من عصره، وطرح كثير منه وديس فى الطرقات، وغرق كثير منه فى النيل، ومنع من حمله، وقطعت كروم الجيزة كلها، وسير إلى الجهات بذلك.

وفى سنة ثلاث وأربعمائة نزع السعر، وأزدحم الناس على الخبر. وفى ثانى ربيع الأول منها هلك عيسى بن نسطورس، فأمر النصارى بلبس السواد وتعليق صلبان الخشب فى أعناقهم، وأن يكون الصليب ذراعاً فى مثله، وزنته خمسة أرطال، وأن يكون مكشوفاً بحيث يراه الناس، ومنعوا من ركوب الخيل، وأن يكون ركوبهم البغال والحمير بسروج الخشب والسيور السود بغير حلية، وأن يشدوا الزنانير، ولايستخدموا مسلماً ولا يشتروا عبداً ولا أمة، وتتبعت آثارهم فى ذلك فأسلم منهم عدة.

وقرر حسين بن طاهر الوزان فى الوساطة والتوقيع عن الحاكم فى تاسع عشرى ربيع الأول منها، ولقب أمين الأمناء، ونقش الحاكم على خاتمة «بنصر ا ا ه العظيم الولى ينتصر

الإمام أبو علي»، وضرب جماعة بسبب اللعب بالشطرنج وهدمت الكنائس، وأخذ جميع ما فيها وما لها من الرباع، وكتب بذلك إلى الأعمال فهدمت بها.

وفيها لحق أبو الفتح بمكة، ودعا للحاكم وضرب السكة باسمه، وأمر الحاكم ألا يقبل أحد له الأرض، ولايقبل ركابه ولايده عند السلام عليه فى المواكب، فإن الانحناء إلى الأرض لمخلوق من صنيع الروم، وألا يزاد على قولهم: السلام على أمير المؤمنين ورحمه الله وبركاته، ولا يصلى أحد عليه فى مكاتبة ولا مخاطبة، ويقتصر فى مكاتبته على سلام الله وتحياته ونوامى بركاته عيل أمير المؤمنين، ويدعى له بما يتفق من الدعاء لاغير. فلم يقل الخطباء يوم الجمعة سوى اللهم صل على محمد المصطفي، وسلم على أمير المؤمنين على المرتضي، اللهم وسلم على أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين، اللهم أجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك.

ومنع من ضرب الطبول والأبواق حول القصر، فصاروا يطوفون بغير طبل ولابوق. وكثرت إنعامات الحاكم، فتوقف أمين الأمناء حسين بن طاهر الوزان فى أمضائها. فكتب إليه الحاكم بخطه بعد البسملة: «الحمد لله كما هو أهله :

أصبحت لا أرجو ولا أتقي
إلا إلهى وله الفضـــــل
جدى نبيي وأمـــامى أبي
ودينى الإخلاص والعدل

المال مال الله عز وجل، والخلق عباد الله، ونحن أمناؤه فى الأرض. أطلق أرزاق الناس ولاتقطعها والسلام».

وركب الحاكم يوم عيدالفطر إلى المصلى بغير زينة ولا جنائب ولا أبهة، سوى عشرة أفراس تقاد بسروج ولجم محلاة بفض بيضاء خفيفة، وبنود ساذجة، ومظلة بيضاء بغير ذهب، عليه بياض بغير طرز ولاذهب ولا جوهر فى عمامته، ولم يفرش المنبر، ومنع الناس من سب السلف، وضرب فى ذلك وشهر، وصلى صلاة عيد النحر كما صلى صلاة عيد

الفطر من غير أبهة، ونحر عنه عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهدي، وأكثر الحاكم من الركوب إلى الصحراء بحذاء فى رجله وفوطة على رأسه.

وفى سنة أربع وأربعمائة ألزم اليهود أن يكون فى أعناقهم جرس إذا دخلوا الحمام، وأن يكون فى أعناق النصارى صلبان، ومنع الناس من الكلام فى النجوم، وأقيم المنجمون من الطرقات، وطلبوا فتغيبوا ونفوا. وكثرت هبات الحاكم وصدقاته وعتقه، وأمر اليهود والنصارى بالخروج من مصر إلى بلاد الروم وغيرها.

وأقيم عبدالرحيم بن إلياس ولى العهد، وأمر أن يقال فى السلام عليه «السلام على بن عم أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين»، وصار يجلس بمكان فى القصر، وصار الحاكم يركب بدراعة صوف بيضاء، ويتعمم بفوطه وفى رجله حذاء عربى بقبالين، وعبدالرحيم يتولى النظر فى أمور الدولة كلها. وأفرط الحاكم فى العطاء، ورد ما كان أخذ من الضياع والأملاك إلى أربابها.

وفى ربيع الآخر أمر بقطع يدى أبى القاسم الجرجاني، وكان يكتب للقائد غين، ثم قطع يد غين فصار مقطوع اليدين، وبعث إليه الحاكم بعد قطع يديه بألف من الذهب والثياب ثم بعد ذلك أمر بقطع لسانه فقطع، وأبطل عدة مكوس، وقتل الكلاب كلها، وأكثر من الركوب فى الليل.

ومنع النساء من المشى فى الطرقات، فلم تر امرأة فى طريق ألبته، وأغلقت حماماتهن، ومنع الأساكفة من عمل خفافهن، وتعطلت حوانيتهم. واشتدت الإشاعة بوقوع السيف فى الناس فتهاربوا، وغلقت الأسواق فلم يبع شئ. ودعى لعبدالرحيم بن إلياس على المنابر، وضربت السكة باسمه بولاية العهد.

وفى سنة خمس وأربعمائة قتل مالك بن سعيد الفارقى فى ربيع الآخر. وكانت مدة نظره فى قضاء القضاة ست سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام، وبلغ إقطاعه فى السنة خمسة عشر ألف دينار. وتزايد ركوب الحاكم حتى كان يركب فى كل يوم عدة مرات، واشترى الحمير وركبها بدل الخيل.

وفى جمادى الآخرة منها قتل الحسين بن طاهر الوزان، فكانت مدة نظره فى الوساطة سنتين وشهرين وعشرين يوماً، فأمر أصحاب الدواوين بلزوم دواوينهم. وصار الحاكم

يركب حماراً بشاشية مكشوفة بغير عمامة، ثم أقام عبدالرحيم بن أبى السيد الكاتب وأخاه أبا عبدالله الحسين فى الوساطة والسفارة، وأقر فى وظيفة قضاء القضاة أحمد بن محمد أبن أبى العوام.

وخرج الحاكم عن الحد فى العطاء حتى أقطع نواتية المراكب والمشاعلية وبنى قرة، فمما أقطع الإسكندرية والبحيرة ونواحيهما. وقتل ابنى أبى السيد، فكانت مدة نظرهما اثنتين وستين يوماً. وقلد الوساطة فضل بن جعفر بن الفرات، ثم قتله فى اليوم الخامس من ولايته. وغلب بنو قرة على الإسكندرية وأعمالها.

وأكثر الحاكم من الركوب، فركب فى يوم ست مرات: مرة على فرس، ومرة على حمار، ومرة فى محفة تحمل على الأعناق، ومرة فى عشارى فى النيل بغير عمامة. وأكثر من اقطاع الجند والعبيد الإقطاعات، وأقام ذا الرياستين قطب الدولة أبا الحسن على بن جعفر بن فلاح فى الوساطة والسفارة.

وولى عبد الرحيم بن إلياس دمشق فسار إليها في جمادى الآخرة سنة تسع وأربعمائة، فأقام فيها شهرين، ثم هجم عليه قوم فقتلوا جماعة ممن عنده، وأخذوه فى صندوق وحملوه إلى مصر، ثم أعيد إلى دمشق، فأقام بها إلى ليلة عيد الفطر وأخرج منها.

فلما كان لليلتين بقيتا من شوال سنة عشر وأربعمائة، فقد الحاكم - وقيل أن أخته قتلته، وليس بصحيح - وكان عمره ستا وثلاثين سنة وسبعة أشهر، وكانت مدة خلافته خمسا وعشرين سنة وشهرا، وكان جوادا، سفاكاً للدماء، قتل عدداً لايحصي، وكانت سيرته من أعجب السير، وخطب له على منابر مصر والشام وأفريقية والحجاز.

وكان يشتغل بعلوم الأوائل، وينظر فى النجوم، وعمل رصداً، واتخذ بيتاً فى المقطم ينقطع فيه عن الناس لذلك. ويقال إنه كان يعتريه جفاف فى دماغه، فلذلك كثر تناقضه وما أحسن ما قال فيه بعضهم: كانت أفعاله لاتعلل، وأحلام وساوسه لاتأول.

وقال المسبحى: وفى محرم سنة خمس عشرة وأربعمائة، قبض على رجل من بنى حسين ثار بالصعيد الأعلي، فأقر بأنه قتل الحاكم بأمر الله فى جملة أربعة أنفس تفرقوا فى البلاد، وأظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم، وقطعة من الفوطة التى كانت عليه. فقيل له: لـم قتلته؟

فقال : غيره لله وللإسلام .

فقيل له : كيف قتلته ؟

فأخرج سكيناً ضرب بها فؤاده فقتل نفسه ، وقال : هكذا قتلته . فقطع رأسه ، وأنفذ به إلى الحضرة مع ما وجد معه .

وهذا هو الصحيح فى خبر قتل الحاكم ، لا ما تحكيه المشارقة فى كتبهم من أن أخته قتلته .

جامع الفيلة

هذا الجامع بسطح الجرف المطل على بركة الحبش - المعروف الآن بالرصد - بناه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى فى شعبان سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، وبلغت النفقة على بنائه ست آلاف دينار ،

وإنما قيل له جامع الفيلة لأن فى قبلته تسع قباب فى أعلاه ذات قناطر ، إذا رآها الإنسان من بعيد شبهها بمدرعين على فيلة ، كالتى كانت تعمل فى المواكب أيام الأعياد ، وعليها السرير وفوقها المدرعون ، أيام الخلفاء .

ولما كمل أقام فى خطابته الشريف الزكى أمين الدولة أبا جعفر محمد بن محمد بن هبه الله بن على الحسينى الأفطسى النسابة الكاتب الشاعر الطرابلسى بعد صرفه من قضاء الغربية .

فلما رقى المنبر أول خطبة أقيمت فى هذا الجامع ، قال : بسم الله الحمد الله ، وارتج عليه فلم يدر ما يقول . وكان هناك الشيخ أبو القاسم على بن منجب بن الصيرفى الكاتب وولده مختص الدولة أبو المجد ، وأبو عبدالله ابن بركات النحوى ووجوه الدولة . فلما أضجر من حضر ، نزل عن المنبر وقد حم ، فتقدم قيم الجامع وصلي ، ومضى الشريف إلى داره فاعتل ومات .

وكان قد ولى قضاء عسقلان وغيرها، ثم قدم إلى مصر فولى الحكم بالمحلة، وولى ديوان الأحباس. وكان أحد الأعيان الأدباء العارفين بالنسب، ومن الشعراء المجيدين والنحاة اللغويين. ولد بطرابلس الشام فى سنة اثنتين وستين وأربعمائة، وقدم إلى القاهرة فى سنة إحدى وخمسمائة ومدح الأفضل، ومات فى سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة وخمسمائة.

وقد ترشح للنقابة بمصر ولم ينلها مع تطلعه إليها، وذيل كتاب أبى الغنائم الزيدى النسابة. ومن شعره بديها، وقد نام مع جاريته على سطوح، فطلع القمر عليهما فارتاعا من كشف الجيران عليهما

ولما تلاقينا وغاب رقيبنا

ورمت التشكى فى خلو وفى سر

بدا ضوء بدر فافترقنا لضوئه

فيامن رأى بدرا ينم على بدر

وأهل المطالب يذكرون أن الأفضل وجد بموضع الصهريج مطلبا، فختم عليه أشهرا إلى أن نقله، وعمله صهريجاً وبنى عليه هذا المسجد.

وهذا الشرف الذى عليه جامع الفيلة منظرة فى غاية الحسن لأن فى قبلية بركة الحبش، وبستان الوزير المغربي، والعدوية ودير النسطورية، وبئر أبى سلامة وهى بئر مدورة برسم الغنم، وبئر النعش كان يستقى منها أصحاب الزوايا، وهى بجوار عفصة الصغري، وهى بئر أبى موسى بن أبى خليد. وسميت بئر النعش لأنها على هيئة النعش، وماؤها يهضم الطعام وهو أصح الأمواه.

وشرقى هذا الجبل جبل المقطم، والجبانة والمغافر والقرافة، وآخر الأكحول، وريحان ورعين والكلاع والأكسوع.

وغربى هذا الجبل المعشوق والنيل، وبستان اليهودى إلى القبلة، وطموه والأهرام وراشدة.

وبحرى هذا الجبل بستان الأمير تميم، وقنطرة خليج بنى وائل، ودير المعدلين، وعقبة يحصب، ومحرس قسطنطين، والشرف وغير ذلك.

وهذا الجامع لاتقام فيه اليوم جمعة ولاجماعة، لخراب ما حوله من القرافة وراشدة، وينزل فيه أحياناً طائفه من العرب بإبلهم يقال لهم المسلمية. وعما قليل يدثر كما دثر غيره.

جامع المقياس

هذا الجامع بجوار مقياس النيل من جزيرة الفسطاط أنشاة . . . .

جامع الأقمر

قال ابن عبدالظاهر : كان مكانه علافون والحوض مكان المنظرة، فتحدث الخليفة الآمر مع الوزير المأمون بن البطايحى فى إنشائه جامعاً. فلم يترك قدام القصر دكاناً، وبنى تحت الجامع المذكور فى أيامه دكاكين ومخازن من جهة باب الفتوح لامن صوب القصر وكمل الجامع المذكور فى أيامه، وذلك فى سنة تسع عشرة وخمسمائة، وذكر أن اسم الآمر والمأمون عليه.

وقال غيره: واشترى له حمام شمول ودار النحاس بمصر، وحبسهما على سدنته ووقود مصابيحه ومن يتولى أمره ويؤذن فيه. ومازال اسم المأمون والآمر على لوح فوق المحراب، وفيه تجديد الملك الظاهر بيبرس للجامع المذكور. ولم تكن فيه خطبة، لكنه يعرف بالجامع الأقمر.

فلما كان فى شهر رجب سنة تسع وتسعين وسبعمائة، جدده الأمير الوزير المشير الأستادار يلبغا بن عبدالله السالمي، أحد المماليك الظاهرية، وأنشأ بظاهر بابه البحرى حوانيت يعلوها طباق، وجدد فى صحن الجامع بركة لطيفة يصل إليها الماء من ساقيه، وجعلها مرتفعة ينزل منها الماء إلى من يتوضأ من بزابيز نحاس، ونصب فيه منبراً.

فكانت أول جمعة جمعت فيه رابع شهر رمضان من السنة المذكورة. وخطب فيه شهاب الدين أحمد بن موسى الحلبي - أحد نواب القضاة الحنفية - وارتج عليه، واستمر إلى أن مات في سابع عشري شهر ربيع الأول سنة إحدى وثمانمائة. ، وبنى على يمنة المحراب البحرى مئذنة، وبيض الجامع كله، ودهن صدره بلازورد وذهب.

قلت له: قد أعجبنى ما صنعت بهذا الجامع، ما خلا تجديد الخطبة فيه وعمل بركة الماء. فإن الخطبة غير محتاج إليها هاهنا لقرب الخطب من هذا الجامع، وبركة الماء تضيق الصحن، وقد أنشأت ميضأة بجوار بابه الذى من جهة الركن المخلق.

فاحتج لعمل المنبر بأن ابن الطوير قال فى كتابة «نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين» عند ذكر جلوس الخليفة فى المواليد الستة: ويقدم خطيب الجامع الأزهر فيخطب كذلك، ثم يحضر خطيب الجامع الأقمر ويخطب كذلك.

قال: فهذا أمر قد كان فى الدولة الفاطمية، وما أنا بالذى أحدثته، وأما البركة ففيها عون على الصلاة لقربها من المصلين. وجعل فوق المحراب لوحاً مكتوباً فيه ما كان فيه أولاً، وذكر فيه تجديده لهذا الجامع، ورسم فيه نعوته وألقابه، وجدد أيضاً حوض هذا الجامع الذى تشرب منه الدواب، وهو فى ظهر الجامع تجاه الركن المخلق.

وبئر هذا الجامع قديمة قبل الملة الإسلامية، كانت فى دير من ديارات النصارى بهذا الموضع. فلما قدم القائد جوهر بجيوش المعز لدين الله، فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، أدخل هذا الدير فى القصر - وهو موضع الركن المخلق تجاه الحوض المذكور - وجعل هذه البئر مما ينتفع به فى القصر.

وهى تعرف ببئر العظام، وذلك أن جوهراً نقل من الدير المذكور عظاماً كانت فيه من رمم قوم يقال انهم من الحواريين، فسميت بئر العظام، والعامة تقول إلى اليوم بئر المعظمة، وهى بئر كبيرة فى غاية السعة. وأول ما أعرف من إضافتها إلى الجامع الأقمر أن العماد الدمياطى ركب على فوهتها هذه المحال التى بها الآن، وهى من جيد المحال، وكان تركيبها بعد السبعمائة فى أيام قاضى القضاة عزالدين عبدالعزيز بن جماعة الشافعي.

وبهذا الجامع درس من قديم الزمان. ولم تزل مئذنته التى جددها السالمى والبركة إلى سنة خمس عشرة وثمانمائة. فولى نظر الجامع بعض الفقهاء، فرأى هدم المئذنة من أجل ميل

حدث بها فهدمها، وأبطل الماء من البركة لإفساد الماء بمروره جدار الجامع القبلي. والخطبة قائمة به إلى الآن.

«الآمر بأحكام الله»

أبو على المنصور ابن المستعلى بالله أبى القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله أبى على منصور. ولد يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرم سنة تسعين وأربعمائة، وبويع له بالخلافة يوم مات أبوه، وهو طفل له من العمر خمس سنين وأشهر وأيام، فى يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة خمس وتسعين. أحضره الأفضل بن أمير الجيوش، وبايع له ونصبه مكان أبيه، ونعته بالآمر بأحكام الله.

وركب الأفضل فرساً، وجعل فى السرج شيئاً وأركبه عليه لينمو شخص الآمر، وصار ظهره فى حجر الأفضل، فلم يزل تحت حجره حتى قتل الأفضل ليلة عيد الفطر سنة خمس عشرة وخمسمائة. فاستوزر بعده القائد أبا عبدالله محمد بن فاتك البطايحي، ولقبه بالمأمون. فقام بأمر دولته إلى أن قبض عليه فى ليلة السبت رابع شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة.

فتفرغ الآمر لنفسه، ولم يبق له ضد ولا مزاحم، وبقى بغير وزير، وأقام صاحبى ديوان: أحدهما جعفر بن عبدالمنعم، والآخر سامرى يقال له أبو يعقوب إبراهيم، ومعهما مستوف يعرف بابن أبى نجاح كان راهباً.

ثم تحكم هذا الراهب فى الناس، وتمكن من الدواوين، فابتدأ فى مطالبة النصاري، وحقق فى جهاتهم الأموال، وحملها أولاً. فأول. ثم أخذ فى مصادرة بقية المباشرين والمعاملين والضمناء والعمال، وزاد إلى أن عم ضرره جميع الرؤساء والقضاة والكتاب والسوقة، بحيث لم يخل أحد من ضرره. فلما تفاقم أمره قبض عليه الآمر، وضرب

بالنعال حتى مات بالشرطة، فجر إلى كرسى الجسر، وسمر على لوح وطرح فى النيل، وحذف حتى خرج إلى البحر المالح.

فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وثب جماعة على الآمر وقتلوه كما ذكر عند خبر الهودج. وكان كريماً سمحاً إلى الغاية، كثير النزهة، محباً للمال والزينة، وكانت أيامه كلها لهواً وعيشة راضية، لكثرة عطائه وعطاء حواشيه، بحيث لم يوجد بمصر والقاهرة إذ ذاك من يشكو زمانة ألبته. . . إلى أن نكد بالراهب على الناس، فقبحت سيرته، وكثر ظلمه وأغتصابه للأموال.

وفى أيامه ملك الفرنج كثيراً من المعاقل والحصون بسواحل الشام. فملكت عكا فى شعبان سنة سبع وتسعين، وغزة فى رجب سنة اثنتين وخمسمائة، وطرابلس فى ذى الحجة منها، وبانياس وجبيل وقلعة تبنين فيها أضاً، وملكوا صور فى سنة ثمان عشرة وخمسمائة.

وكثرت المرافعات فى أيامه، وأحدثت رسوم لم تكن، وعمر الهودج بالروضة ودكة ببركة الحبش، وعمرتنيس ودمياط، وجدد قصر القرافة. وكانت نفسه تحدثه بالسفر والغارة إلى بغداد، ومن شعره فى ذلك :

دع اللوم عنى لست منى بموثق

فلا بد لى من صدمه المتحقق

واسقى جيادى من فرات ودجلة

وأجمع شمل الدين بعد التفرق

وقال :

أما والذى حجت إلى ركن بيته

جراثيم ركبان مقلدة شهبا

لأقتحمن الحرب حتى يقال لى

ملكت زمام الحرب فاعتزل الحربا

وينزل روح الله عيسى بن مريم

فيرضى بنا صحبا ونرضى به صحبا

وكان أسمر شديد السمرة، يحفظ القرآن ويكتب خطاً ضعيفاً. وهو الذى جدد رسوم الدولة، وأعاد إليها بهجتها بعدما كان الأفضل أبطل ذلك، ونقل الدواوين والأسمطة من القصر بالقاهرة إلى دار الملك بمصر كما ذكر هناك.

وقضاته ابن ذكا النابلسي، ثم نعمة الله بن بشير، ثم الرشيد محمد بن قاسم الصقلي، ثم الجليس بن نعمة الله بن بشير النابلسي، ثم صرفه ثانياً بمسلم بن الرسغي، وعزله بأبى الحجاج يوسف بن أيوب المغربي، ثم مات، فولى محمد بن هبة الله بن ميسر. وكتاب إنشائه سنا الملك أبو محمد الزبيدى الحسني، والشيخ أبو الحسن بن أبى أسامة، وتاج الرياسة أبو القاسم بن الصيرفي، وابن أبى الدم اليهودي. وكان نقش خاتمة «الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين»، ووقع فى آخر أيامة غلاء قلق الناس منه.

وكان جريئاً على سفك الدماء، وارتكاب المحظورات واستحسان القبائح. وقتل وعمره أربع وثلاثون سنة وتسعة أشهر وعشرون يوماً: منها مدة خلافته تسع وعشرون سنة وثمانية أشهر ونصف، ومازال محجوراً عليه حتى قتل الأفضل. وكان يركب للنزهة دائماً عندما استبد فى يومى السبت والثلاثاء، ويتحول فى أيام النيل بحرمه إلى اللؤلؤة على الخليج، واختص بغلاميه برغش وهزار الملوك.

«يلبغا السالمي»

أبو المعالى عبدالله الأمير سيف الدين الحنفى الصوفى الظاهري. كان اسمه فى بلاده يوسف، وهو حر الأصل، وآباؤه مسلمون. فلما جلب من بلاد المشرق سمى يلبغا، وقيل له السالمى نسبة إلى سالم تاجره الذى جلبه. فترقى فى خدم السلطان الملك الظاهر برقوق، إلى أن ولاه نظر خانقاه الصلاح سعيد السعداء، فى ثامن عشر جمادى الآخرة سنة سبع

وتسعين وسبعمائة ، فأخرج كتاب الوقف ، وقصد أن يعمل بشرط الواقف وأخرج منها جماعة من بياض الناس . فجرت أمور ذكرت فى خبر الخانقاه .

وفي سابع عشرى صفر سنة ثمانمائة ، أنعم عليه الملك الظاهر بإمرة عشرة عوضاً عن الأمير بهادر فطيلس ، ثم نقله إلى إمره طبلخاناة ، ثم جعله ناظراً على الخانقاه الشيخونية بالصليبة فى تاسع شعبان سنة إحدى وثمانمائة . فعسف بمباشريها ، وأراد حملهم على مر الحق فنفرت منه القلوب .

ولما مرض الظاهر جعله أحد الأوصياء على تركته . فقام بتحليف المماليك السلطانية للملك الناصر فرج بن برقوق ، والانفاق عليهم بحضره الناصر ، فأنفق عليهم كل دينار من حساب أربعة وعشرين درهماً . ولما أنقضت النفقة نودى فى البلد أن صرف كل دينار ثلاثون درهما ، ومن امتنع نهب ماله وعوقب ، فحصل للناس من ذلك شدة .

وكان قد كثر القبض على الأمراء بعد موت الظاهر . فتحدث مع الأمير الكبير أيتمش ، القائم بتدبير دولة الناصر فرج بعد موت أبيه ، فى أن يكون على كل أمير من المقدمين الطبلخاناه عشرون ألف درهم ، وعلى كل أمير عشرة خمسة آلاف درهم ، وعلى كل أمير خمسة آلاف درهم وخمسمائة درهم . فرسم بذلك ، وعمل به مدة أيام الناصر ، وحصل به رفق للأمراء ومباشريهم .

ثم خلع عليه وأستقر أستادار السلطان ، عوضاً عن الأمير الوزير تاج الدين عبدالرزاق ابن أبى الفرج الملكى فى يوم الأثنين ثالث عشرى ذى القعدة من السنة المذكورة . فأبطل تعريف منيه بنى خصيب ، وضمان العرصه وأخصاص الكيالين ، وكتب بذلك مرسوماً سلطانياً ، وبعث به إلى والى الأشمونين ، وأبطل وقر الشون السلطانية ، وما كان مقرراً على البرد دار وهو فى الشهر سبعة آلاف درهم ، وما كان مقرراً على مقدم المستحرج وهو فى الشهر ثلاثة آلاف درهم .

وكانت سماسرة الغلال تأخذ ممن يشترى شيئاً من الغلة ، على كل إردب درهمين سمسرة وكيالة ولواحة وأمانة ، فألزمهم ألا يأخذوا عن كل أردب سوى نصف درهم ، وهدد على ذلك بالغرامة والعقوبة ، ثم ركب فى صفر سنة ثلاث وثمانمائة إلى ناحية المنية وشبرا الخيمة من الضواحى بالقاهرة وكسر منها ما ينيف على أربعين ألف جرة خمر ، وخرب بها كنيسة

كانت للنصاري، وحمل عدة جرار فكسرها تحت قلعة الجبل وعلى باب زويلة، وشدد على النصاري، فلم يمكنه أمراء الدولة من حملهم على الصغار والمذلة فى ملبسهم.

وأمر فضرب الذهب كل دينار زنته مثقال واحد، وأراد بذلك أبطال ما حدث من المعاملة بالذهب الأفرنجى فضرب ذلك، وتعامل الناس به مدة، وصار يقال دينار سالمى إلى أن ضرب الناصر فرج دنانير وسماها الناصرية، وصار يحكم فى الأحكام الشرعية. فقلق منه أمراء الدولة وقاموا فى ذلك، فمنع من الحكم إلا فيما يتعلق بالديوان المفرد وغيره مما هو من لوازم الأستادار.

وأخذ فى مخاشنة الأمراء عندما عاد الناصر فرج وقد انهزم من تيمورلنك، وشرع فى اقامة شعار المملكة والنفقة على العساكر التى رجعت منهزمة. فأخذ من بلاد الأمراء وبلاد السلطان عن كل ألف دينار فرساً أو خمسمائة درهم ثمنها، وجبى من أملاك القاهرة ومصر وظواهرهما أجرة شهر، وأخذ من الرزق عن كل فدان عشرة دراهم، وعن الفدان من القصب المزروع والقلقاس والنيلة نحو مائة درهم، وجبى من البساتين عن كل فدان مائة درهم.

وقام بنفسه وكبس الحواصل ليلاً ونهاراً ومعه جماعة من الفقهاء وغيرهم، وأخذ مما فيها من الذهب والفضة والفلوس نصف ما يجد - سواء كان صاحب المال غائباً أو حاضراً - فعم ذلك أموال التجار والأيتام وغيرهم من سائر من وجد له مال، وأخذ ما كان فى الجوامع والمدارس وغيرها من الحواصل. فشمل الناس من ذلك ضرر عظيم، وصار يؤخذ من كل مائة درهم ثلاثة دراهم عن أجرة صرف، وستة دراهم عن أجرة الرسول، وعشرة دراهم عن أجرة نقيب. فنفرت منه القلوب، وأنطلقت الألسن بذمه والدعاء عليه.

وعرض مع ذلك الجند، وألزم من له قدرة على السفر بالتجهز للسفر إلى الشام لقتال تيمورلنك، ومن وجده عاجزاً عن السفر ألزمه بحمل نصف متحصل إقطاعه. فقبض عليه فى يوم الإثنين رابع عشر رجب سنة ثلاث وثمانمائة، وسلم للقاضى سعد الدين إبراهيم ابن غراب، وقرر مكانه فى الأستادارية. فلم يزال إلى يوم عيد الفطر من السنة المذكورة، فأمر بإطلاقه بعد أن حصر وأهين إهانة كبيرة، ثم قبض عليه وضرب ضرباً مبرحاً حتى أشفى على الموت.

وأطلق فى نصف ذى القعدة وهو مريض، فأخرج إلى دمياط وأقام بها مدة، ثم أحضر إلى القاهرة، وقلد وظيفة الوزارة فى سنة خمس وثمانمائة وجعل مشيراً. فأبطل مكوس البحيرة - وهو ما يؤخذ على ما يذبح من البقر والغنم - واستعمل فى أموره العسف، وترك مداراة الأمراء واستعجل. فقبض عليه وعوقب، وسجن إلى أن أخرج فى رمضان سنة سبع وثمانمائة، وقلد وظيفة الإشارة - وكانت للأمير جمال الدين يوسف الأستادار - فلم يترك عادته فى الإعجاب برأيه، والأستبداد بالأمور، واستعجال الأشياء قبل أوانها.

فقبض عليه فى ذى الحجة منها، وسلم للأمير جمال الدين يوسف، فعاقبه وبعث به إلى الإسكندرية، فسجن بها إلى أن سعى جمال الدين فى قتله، بمال بذله للناصر فيه حتى أذن له فى ذلك، فقتل خنقاً عصر يوم الجمعة وهو صائم السابع عشر من جمادى الآخرة سنة أحدى عشرة وثمانمائة، رحمه الله.

وكان كثير النسك من الصلاة والصوم والصدقة. لايخل بشئ من نوافل العبادات، ولايترك قيام الليل سفراً ولا حضراً، ولا يصلى قط إلا بوضوء جديد، وكلما أحدث توضأ، وإذا توضأ صلى ركعتين. وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ويخرج فى كثرة الصدقات عن الحد، ويقرأ فى كل ثلاثة أيام ختمة، ولايترك أوراده فى حال من الأحوال مع المروءة والهمة.

وسمع كثيراً من الحديث، وقرأ بنفسه على المشايخ، وكتب الخط المليح، وقرأ القراءات السبع، وعرف التصوف والفقه والحساب والنجوم... إلا أنه كان متهوراً فى أخذ الأموال، عسوفاً لجوجا مصمما، لاينقاد إلى أحد، ويستبد برأيه فيغلط غلطات لاتحتمل، ويستخف بغيره، ويعجب بنفسه، ويريد أن يجعل غاية الأمور بدايتها. فلذلك لم يتم له أمر.

جامع الظافر

هذا الجامع بالقاهرة فى وسط السوق الذى كان يعرف قديماً بسوق السراجين، ويعرف اليوم بسوق الشوايين. كان يقال له الجامع الأفخر، ويقال له اليوم جامع الفاكهيين، وهو من المساجد الفاطمية. عمَّرة الخليفة الظافر بنصر الله أبو المنصور إسماعيل ابن الحافظ لدين الله أبى الميمون عبدالمجيد أبن الآمر بأحكام الله منصور، ووقف حوانيته على سدنته ومن يقرأ فيه.

قال أبن عبدالظاهر : بناه الظافر، وكان قبل ذلك زريبه تعرف بدار الكباش، وبناه فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. وسبب بنائه أن خادماً رأى من مشرف عال ذباحاً وقد أخذ رأسين من الغنم، فذبح أحدهما ورمى سكينته، ومضى ليقضى حاجته، فأتى رأس الغنم الآخر وأخذ السكين بفمه ورماها فى البالوعة، فجاء الجزار يطوف على السكين فلم يجدها، وأما الخادم فإنه استصرخ وخلصه منه. وطولع بهذه القضية أهل القصر، فأمروا بعمله جامعاً، ويسمى الجامع الأفخر، وبه حلقة تدريس وفقهاء ومتصدرون للقرآن. وأول ما أقيمت به الجمعة فى . . .

جامع الصالح

هذا الجامع من المواضع التى عمرت فى زمن الخلفاء الفاطميين، وهو خارج باب زويلة.

قال ابن عبدالظاهر : كان الصالح طلائع ابن رزيك ـ لما خيف على مشهد الإمام الحسين رضى الله عنه إذ كان بعسقلان من هجمة الفرنج، وعزم على نقله ـ قد بنى هذا الجامع ليدفنه به. فلما فرغ منه لم يمكنه الخليفة من ذلك، وقال : لا يكون إلا داخل القصور الزاهرة. وبنى المشهد الموجود الآن ودفن به.

وتم الجامع المذكور، واستمر جلوس زين الدين الواعظ به وحضور الصالح إليه. فيقال إن الصالح لما حضرته الوفاة جمع أهله وأولاده، وقال لهم فى جملة وصيته : ما

ندمت قط فى شئ عملته إلا فى ثلاثة : الأول بنائى هذا الجامع على باب القاهرة فإنه صار عوناً لها، و، الثانى توليتى لشاور الصعيد الأعلي، والثالث خروجى إلى بلبيس بالعساكر وإنفاقى الأموال الجمة، ولم أتم بهم إلى الشام وأفتح بيت المقدس، وأستأصل شأفة الفرنج. وكان قد أنفق فى العساكر فى تلك الدفعة مائة ألف دينار.

وبنى فى الجامع المذكور صهريجاً عظيماً، وجعل ساقية على الخليج قريب باب الخرق تملأ الصهريج المذكور أيام النيل، وجعل المجارى إليه. وأقيمت الجمعة فيه فى الأيام المعزية، فى سنة بضع وخمسين وستمائة، بحضور رسول بغداد الشيخ نجم الدين عبدالله البادراني، وخطب به أصيل الدين أبو بكر الأسعردى وهى إلى الآن. ولما حدثت الزلزلة سنة اثنتين وسبعمائة تهدم، فعمر على يد الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار.

«طلائع بن رزيك»

أبو الغارات الملك الصالح، فارس المسلمين، نصير الدين. قدم فى أول أمره إلى زيارة مشهد الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه، بأرض النجف من العراق، فى جماعة من الفقراء، وكان من الشيعة الإمامية، وإمام مشهد على رضى الله عنه يومئذ السيد بن معصوم. فزار طلائع وأصحابه، وباتوا هنالك.

فرأى ابن معصوم فى منامه على بن أبى طالب رضى الله عنه، وهو يقول له: قد ورد عليك الليلة أربعون فقيراً من جملتهم رجل يقال له طلائع بن رزيك من أكبر محبينا، قل له أذهب فقد وليناك مصر.

فلما أصبح أمر أن ينادي: من فيكم طلائع بن رزيك فليقم إلى السيد ابن معصوم فجاء طلائع وسلم عليه، فقص عليه ما رأي.

فسار حينئذ إلى مصر، وترقى فى الخدم حتى ولى منية بن خصيب. فلما قتل نصر بن عباس الخليفة الظافر، بعث نساء القصر إلى طلائع يستغثن به فى الأخذ بثأر الظافر، وجعلن فى طى الكتب شعور النساء.

فجمع طلائع عندما وردت عليه الكتب الناس، وسار يريد القاهرة لمحاربة الوزير عباس. فعندما قرب من البلد فر عباس، ودخل طلائع إلى القاهرة، فخلع عليه خلع الوزارة، ونعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين. فباشر البلاد أحسن مباشرة، واستبد بالأمر لصغر سن الخليفة الفائز بنصر الله إلى أن مات.

فأقام من بعده عبدالله بن محمد، ولقبه بالعاضد لدين الله، وبايع له، وكان صغيراً لم يبلغ الحلم، فقويت حرمة طلائع، وازداد تمكنه من الدولة. فثقل على أهل القصر لكثرة تضييقه عليهم، واستبداده بالأمر دونهم، فوقف له رجال بدهاليز القصر، وضربوه حتى سقط على الأرض على وجهه، وحمل جريحاً لايعى إلى داره، فمات يوم الإثنين تاسع عشر شهر رمضان سنة ست وخمسين وخمسمائة.

وكان شجاعاً كريماً، وجواداً فاضلاً، محباً لأهل الأدب جيد الشعر، رجل وقته فضلاً وعقلاً وسياسة وتدبيراً. وكان مهاباً فى شكله عظيماً فى سطوته، وجمع أموالاً عظيمة، وكان محافظاً على الصلوات فرائضها ونوافلها شديد المغالاة فى التشيع.

صنف كتابا سماه «الاعتماد فى الرد على أهل العناد» جمع له الفقهاء وناظرهم عليه، وهو يتضمن إمامة على بن أبى طالب رضى الله عنه، والكلام على الأحاديث الواردة فى ذلك. وله شعر كثير يشتمل على مجلدين فى كل فن، فمنه فى اعتقاده:

يا أمة سلكت ضلالا بينا
حتى استوى إقرارها وجحودها
ملتم إلى أن المعاصى لم يكن
إلا بتقدير الإله وجودها
لو صح ذا كان الإله بزعمكم
منع الشريعة أن تقام حدودها
حاشا وكلا أن يكون إلهنا
ينهى عن الفحشاء ثم يريدها

وله قصيدة سماها «الجوهرية فى الرد على القدرية». وجدد الجامع الذى بالقرافة الكبري، ووقف ناحية بلقس: على أن يكون ثلثاها على الأشراف من بنى حسن وبنى حسين ابنى على بن أبى طالب رضى الله عنهم، وسبع قراريط منها على أشراف المدينة النبوية، وجعل فيها قيراطاً على بنى معصوم إمام مشهد على رضى الله عنه.

ولما ولى الوزارة مال على المستخدمين بالدولة وعلى الأمراء، وأظهر مذهب الإمامية. وهو مخالف لمذهب القوم، وباع ولايات الأعمال للأمراء بأسعار مقررة، وجعل مدة كل متول ستة أشهر. فتضرر الناس من كثرة تردد الولاة على البلاد، وتعبوا من ذلك. وكان له مجلس فى الليل يحضره أهل العلم ويدونون شعره، ولم يترك مدة أيامه غزو الفرنج وتسيير الجيوش لقتالهم فى البر والبحر، وكان يخرج البعوث فى كل سنة مرارا.

وكان يحمل فى كل عام إلى أهل الحرمين مكة والمدينة من الأشراف سائر ما يحتاجون إليه من الكسوة وغيرها. حتى يحمل إليهم ألواح الصبيان التى يكتب فيها، والأقلام والمداد وآلات النساء، ويحمل كل سنة إلى العلويين الذين بالمشاهد جملاً كبيرة. وكان أهل العلم يغدون إليه من سائر البلاد، فلا يخيب أمل قاصد منهم.

ولما كان فى الليلة التى قتل صبيحتها قال: فى هذه الليلة ضرب فى مثلها أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه. وأمر بقربة ممتلئة، فاغتسل وصلى على رأى الإمامية مائة وعشرين ركعة أحيا بها ليله، وخرج ليركب، فعثر وسقطت عمامته عن رأسه وتشوشت.

فقعد فى دهليز دار الوزارة، وأمر بإحضار ابن الضيف ـ وكان يتعمم للخفاء والوزراء وله على ذلك الجارى الثقيل ـ فلما أخذ فى إصلاح العمامة، قال رجل للصالح: نعيذ بالله مولانا، ويكفيه هذا الذى جرى أمراً يتطير منه، فإن رأى مولانا أن يؤخر الركوب فعل.

فقال: الطيرة من الشيطان، ليس إلى تأخير الركوب سبيل.

وركب فكان من ضربه ما كان، وعاد محمولاً، فمات منها كما تقدم.

ذكر الأحباس وما كان يعمل فيها

اعلم أن الأحباس فى القديم لم تكن تعرف إلا فى الرباع وما يجرى مجراها من المباني، وكلها كانت على جهات بر. فأما المسجد الجامع العتيق بمصر، فكان يلى إمامته فى الصلوات الخمس، والخطابة فيه يوم الجمعة والصلاة بالناس صلاة الجمعة، أمير البلد: فتارة يجمع للأمير بين الصلاة والخراج، وتارة يفرد الخراج عن الأمير، فيكون الأمير إليه أمر الصلاة بالناس والحرب، ولآخر أمر الخراج وهو دون مرتبة أمير الصلاة والحرب. وكان الأمير يستخلف عنه فى الصلاة صاحب الشرطة إذا شغله أمر.

ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن ولى مصر عنبسة بن إسحاق بن شمر، من قبل المستنصر ابن المتوكل، على الصلاة والخراج. فقدمها لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين، وأقام إلى مستهل رجب سنة اثنتين وأربعين ومائتين وصرف. فكان آخر من ولى مصر من العرب، وآخر أمير صلى بالناس فى المسجد الجامع، وصار يصلى بالناس رجل يرزق من بيت المال، وكذلك المؤذنون ونحوهم.

وأما الأراضى فلم يكن سلف الأمة من الصحابة والتابعين يتعرضون لها، وإنما حدث ذلك بعد عصرهم. حتى أن أحمد بن طولون لما بنى الجامع والمارستان والسقاية، وحبس على ذلك الأجباس الكثيرة، لم يكن فيها سوى الرباع ونحوها بمصر، ولم يتعرض إلى شئ من أراضٍ.

وحبس أبو بكر محمد بن على المردانى بركة الحبش وسيوط وغيرهما على الحرمين وعلى جهات بر، وحبس غيره أيضاً.

فلما قدمت الدولة الفاطمية من الغرب إلى مصر، بطل تحبيس البلاد، وصار قاضى القضاة يتولى أمر الأحباس من الرباع، وإليه أمر الجوامع والمشاهد، وصار للأحباس ديوان مفرد. وأول ما قدم المعز أمر فى ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وثلاثمائة بحمل مال الأحباس من المودع إلى بيت المال الذى لوجوه البر، وطولب أصحاب الأحباس

بالشرائط ليحملوا عليها وما يجب لهم فيها. وللنصف من شعبان ضمن الأحباس محمد بن القاضى أبى الطاهر محمد بن أحمد، بألف ألف وخمسمائة ألف درهم فى كل سنة، يدفع إلى المستحقين حقوقهم، ويحمل ما بقى إلى بيت المال.

وقال ابن الطوير «الخدمة فى ديوان الأحباس»: وهو أوفر الدواوين مباشرة، ولايخدم فيه إلا أعيان كتاب المسلمين من الشهود المعدلين بحكم أنها معاملة دينية، وفيها عدة مدبرين ينوبون عن أرباب هذه الخدم فى إيجاب أرزاقهم من ديوان الرواتب، وينجزون لهم الخروج بإطلاق أرزاقهم.

ولايوجد لأحد من هؤلاء خرج إلا بعد حضور ورقة التعريف من جهة مشارف الجوامع والمساجد باستمرار خدمته ذلك الشهر جميعه، ومن تأخر تعريفه تأخر الإيجاب له، وإن تمادى ذلك أستبدل به أو توفر ما باسمه لمصحلة أخرى خلا جوارى المشاهد فإنها لا توفر، لكنها تنقل من مقصر إلى ملازم.

وكان يطلق لكل مشهد خمسون درهماً فى الشهر برسم الماء لزوارها، ويجرى من معاملة سواقى السبيل بالقرافة والنفقة عليها من ارتفاعه، فلا تخلو المصانع ولا الأحواض من الماء أبداً، ولايعترض أحد من الانتفاع به. وكان فيه كاتبان ومعينان.

وقال المسبحى فى حوادث سنة ثلاث وأربعمائة: وأمر الحاكم بأمر الله بإثبات المساجد التى لاغلة لها ولا أحد يقوم بها، وماله منها غلة لاتقوم بما يحتاج إليه... فأثبت فى عمل ورفع إلى الحاكم بأمر الله. فكانت عدة المساجد على الشرح المذكور ثمانمائة وثلاثين مسجداً، ومبلغ ما تحتاج إليه من النفقة فى كل شهر تسعة آلاف ومائتان وعشرون درهماً، على أن لكل مسجد فى كل شهر اثنى عشر درهماً.

وقال فى حوادث سنة خمس وأربعمائة: وقرئ يوم الجمعة ثامن عشرى صفر سجل بتحبيس عدة ضياع - وهى أطفيح وصول وطوخ، وست ضياع أخر، وعدة قياسر وغيرها - على القراء والفقهاء والمؤذنين بالجوامع، وعلى المصانع والقوام بها، ونفقة المارستانات وأرزاق المستخدمين فيها، وثمن الأكفان.

وقال الشريف بن أسعد الجواني : كان القضاة بمصر إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام، طافوا يوماً على المساجد والمشاهد بمصر والقاهرة : يبدأون بجامع المقس، ثم القاهرة، ثم المشاهد، ثم القرافة، ثم جامع مصر، ثم مشهد الرأس . . . لنظر حصر ذلك وقناديله وعمارته وما تشعث منه، ومازال الأمر على ذلك إلى أن زالت الدولة الفاطمية .

فلما استقرت دولة بنى أيوب، أضيفت الأحباس أيضاً إلى القاضي. ثم تفرقت جهات الأحباس فى الدولة التركية، و صارت إلى يومنا هذا ثلاث جهات :

الأولى تعرف بالأحباس : ويلى هذه الجهة دوادار السلطان وهو أحد الأمراء، ومعه ناظر الأحباس، ولا يكون إلا من أعيان الرؤساء، وبهذه الجهة ديوان فيه عدة كتاب ومدبر. وأكثر ما فى ديوان الأحباس الرزق الأحباسية ـ وهى أراض من أعمال مصر ـ على المساجد والزوايا للقيام بمصالحها، وعلى غير ذلك من جهات البر .

وبلغت الرزق الأحباسية فى سنة أربعين وسبعمائة، عندما حررها النشو ناظر الخاص فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، مائة ألف وثلاثين ألف فدان. عمل النشو بها أوراقاً، وحدث السلطان فى إخراجها عمن هى باسمه، وقال : جميع هذه الرزق أخرجها الدواوين بالبراطيل، والتقرب إلى الأمراء والحكام، وأكثرها بأيدى أناس من فقهاء الأرياف لايدرون الفقه، يسمون أنفسهم الخطباء ولايعرفون كيف يخطبون، ولا يقرأون القرآن، وكثير منها بأسماء مساجد وزوايا معطلة وخراب. وحسّن له أن يقيم شادا وديواناً يسير فى النواحي، وينظر فى المساجد التى هى عامرة، ويصرف لها من رزقها النصف، وما عدا ذلك يجرى فى ديوان السلطان. فعاجله الله، وقبض عليه قبل عمل شئ من ذلك .

الجهة الثانية تعرف بالأوقاف الحكمية بمصر والقاهرة : ويلى هذه الجهة قاضى القضاة الشافعي، وفيها ما حبس من الرباع على الحرمين وعلى الصدقات والأسرى وأنواع القرب. ويقال لمن يتولى هذه الجهة ناظر الأوقاف : فتارة ينفرد بنظر أوقاف مصر والقاهرة رجل واحد من أعيان نواب القاضي، وتارة ينفرد بأوقاف القاهرة ناظر من الأعيان ويلى نظر أوقاف مصر آخر، ولكل من أوقاف البلدين ديوان فيه كتاب وجباة .

وكانت جهة عامرة يتحصل منها أموال جمة، فيصرف منها لأهل الحرمين أموال عظيمة فى كل سنة، تحمل من مصر إليهم مع من يثق به قاضى القضاة، وتفرض هناك صرراً، ويصرف منها أيضاً بمصر والقاهرة لطلبة العلم ولأهل الستر وللفقراء شئ كثير. إلا أنها اختلت وتلاشت فى زمننا هذا، وعما قليل إن دام ما نحن فيه لم يبق لها أثر ألبته:

وسبب ذلك أنه ولى قضاء الحنفية كمال الدين عمر بن العديم فى أيام الملك الناصر فرج، وولاية الأمير جمال الدين يوسف تدبير الأمور والمملكة، فتظاهرا معاً على إتلاف الأوقاف. فكان جمال الدين إذا أراد أخذ وقف من الأوقاف، أقام شاهدين يشهدان بأن هذا المكان يضر بالجار والمار، وأن الحظ فيه أن يستبدل به غيره فيحكم له قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم باستبدال ذلك.

وشره جمال الدين فى هذا الفعل كما شره فى غيره، فحكم له المذكور باستبدال القصور العامرة والدور الجليلة بهذه الطريقة.

والناس على دين ملكهم. فصار كل من يريد بيع وقف أو شراء وقف، سعى عند القاضى المذكور بجاه أو مال، فيحكم له بما يريد من ذلك. واستدرج غيره من القضاة إلى نوع آخر، وهو أن تقام شهود القيمة فيشهدون بأن هذا الوقف ضار بالجار والمار، وأن الحظ والمصلحة فى بيعه أنقاضاً. فيحكم قاضى شافعى المذهب ببيع تلك الأنقاض.

واستمر الأمر على هذا إلى وقتنا هذا الذى نحن فيه، ثم زاد بعض سفهاء قضاة زمننا فى المعني، وحكم ببيع المساجد الجامعة إذا خرب ما حولها، وأخذ ذرية واقفها ثمن أنقاضها، وحكم آخر منهم ببيع الوقف ودفع الثمن لمستحقه من غير شراء بدل.

فامتدت الأيدى لبيع الأوقاف حتى تلف بذلك سائر ما كان فى قرافتى مصر من الترب، وجميع ما كان من الدور الجليلة والمساكن الأنيقة بمصر الفسطاط، ومنشأة المهرانى ومنشأة الكتاب، وزربية قوصون، وحكر ابن الأثير، وسويقة الموفق، وما كان

فى الحكورة من ذلك، وما كان بالجوانية والعطوفية وغيرها من حارات القاهرة وغيرها. فكان ما ذكر أحد أسباب الخراب كما هو مذكور فى موضعه من هذا الكتاب.

الجهة الثالثة الأوقاف الأهلية : وهى التى لها ناظر خاص إما من أولاد الواقف أو من ولاة السلطان أو القاضي. وفى هذه الجهة الخوانك والمدارس والجوامع والترب، وكان متحصلها قد خرج عن الحد فى الكثرة لما حدث فى الدولة التركية من بناء المدارس والجوامع والترب وغيرها، وصاروا يفردون أراضى من أعمال مصر والشامات وفيها بلاد مقررة، ويقيمون صورة يتملكونها بها، ويجعلونها وقفاً على مصارف كما يريدون.

فلما استبد الأمير برقوق بأمر بلاد مصر، قبل أن يتقلب باسم السلطنة، هم بارتجاع هذه البلاد، وعقد مجلساً فيه شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني، وقاضى القضاة بدر الدين محمد بن أبى البقاء وغيره، فلم يتهيأ له ذلك. فلما جلس على تخت الملك صار أمراؤه يستأجرون هذه النواحى من جهات الأوقاف، ويؤجرونها للفلاحين بأزيد مما استأجروا.

فلما مات الظاهر فحش الأمر فى ذلك، واستولى أهل الدولة على جميع الأراضى الموقوفة بمصر والشامات، وصار أجودهم من يدفع فيها لمن يستحق ريعها عشر ما يحصل له، وإلا فكثير منهم لايدفع شيئاً ألبته . . . لاسيما ما كان من ذلك فى بلاد الشام، فإنه استهلك وأخذ. ولذلك كان أسوأ الناس حالاً فى هذه المحن التى حدثت منذ سنة ست وثمانمائة الفقهاء، لخراب الموقوف عليهم وبيعه، واستيلاء أهل الدولة على الأراضي.

الجامع بجوار تربة الشافعى بالقرافة

هذا الجامع كان مسجداً صغيراً. فلما كثر الناس بالقرافة الصغري، عندما عمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب المدرسة بجوار قبر الإمام الشافعى رضى الله عنه، وجعل لها مدرساً وطلبة.. زاد الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى المسجد المذكور، ونصب به منبراً، وخطب فيه، وصليت الجمعة به فى سنة سبع وستمائة.

جامع محمد بالقرافة

هذا المسجد قديم، والخطبة فيه متجددة، وينسب لمحمود بن سالم بن مالك الطويل، من أجناد السرى بن الحكم أمير مصر بعد سنة مائتين من الهجرة.

قال القضاعى: المسجد المعروف بمحمود يقال إن محموداً هذا كان رجلاً جندياً من جند السرى بن الحكم أمير مصر، وأنه هو الذى بنى هذا المسجد. وذلك أن السرى بن الحكم ركب يوماً، فعارضه رجل فى طريقه فكلمه ووعظه بما غاظه، فالتفت عن يمينه فرأى محموداً، فأمره بضرب عنق الرجل، ففعل.

فلما رجع محمود إلى منزله تفكر وندم، وقال: رجل يتكلم بموعظة بحق، فيقتل بيدى وأنا طائع غير مكره على ذلك! فهلا امتنعت. وكثر أسفه وبكاؤه، وآلى على نفسه أن يخرج من الجندية ولايعود فيها، ولم ينم ليلته من الغم والندم.

فلما أصبح غدا إلى السرى فقال له: إنى لم أنم فى هذه الليلة على قتل الرجل، وأنا أشهد الله عز وجل وأشهدك أنى لا أعود فى الجندية، فأسقط اسمى منهم، وإن أردت نعمتى فهى بين يديك. وخرج من بين يديه، وحسنت توبته، وأقبل على العبادة، واتخذ المسجد المعروف بمسجد محمود وأقام فيه.

وقال ابن المتوج «المسجد الجامع المشهور بسفح المقطم» : هذا الجامع من مساجد الخطبة، وهو بسفح الجبل المقطم بالقرافة الصغري. وأول من خطب فيه السيد الشريف شهاب الدين الحسين بن محمد قاضى العسكر والمدرس بالمدرسة الناصرية الصلاحية بجوار جامع عمرو ـ وبه عرفت بالشريفية ـ وسفير الخلافة المعظمة، وتوفى فى شوال سنة خمس وخمسين وستمائة، وكان أيضاً نقيب الأشراف.

جامع الروضة بقلعة جزيرة الفسطاط

قال ابن المتوج: هذا الجامع عمره السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. وكان أمام بابه كنيسة تعرف بابن لقلق بترك اليعاقبه، وكان بها بئر مالحة، وذلك مما عد من عجائب مصر أن فى وسط النيل جزيرة بوسطها بئر مالحة. وهذه البئر التى رأيتها كانت قبالة باب المسجد الجامع، وإنما ردمت بعد ذلك.

وهذا الجامع لم يزل بيد بنى الرداد، ولهم نواب عنهم فيه. ثم لما كانت أيام السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودي، هدم هذا الجامع فى شهر رجب سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة، ووسعه بدور كانت إلى جانبه، وشرع فى عمارته فمات قبل الفراغ منه.

جامع غين بالروضة

قال ابن المتوج: المسجد الجامع بروضة مصر يعرف بجامع غين، وهو القديم، ولم تزل الخطبة قائمة فيه إلى أن عمر جامع المقياس، فبطلت الخطبة منه، ولم تزل الخطبة بطالة منه إلى الدولة الظاهرية. فكثرت عمائر الناس حوله فى الروضة، وقل الناس فى القلعة، وصاروا يجدون مشقة فى مشيهم من أوائل الروضة.

وعمر الصاحب محيي الدين أحمد، ولد الصاحب بهاء الدين على بن حنا، داره على خوخه الفقيه نصر قبالة هذا الجامع، فحسن له إقامة الجمعة فى هذا الجامع لقربة منه ومن الناس، فتحدث مع والده، فشاور السلطان الملك الظاهر بيبرس، فوقع منه بموقع - لكثرة ركوبة بحر النيل، واعتنائه بعمارة الشوانى ولعبها فى البحر، ونظره إلى كثرة الخلائق بالروضة - ورسم بإقامة الخطبة فيه مع بقاء الخطبة بجامع القلعة لقوة نيته فى عمارتها على ما كانت عليه.

فأقيمت الخطبة به فى سنة ستين وستمائة. وولى خطابته أقضى القضاة جمال الدين بن الغفاري، وكان ينوب بالجيزة فى الحكم، ثم ناب فى الحكم بمصر عن قاضى القضاة وجيه الدين البهنسي، وكان إمامه فى حال عطلته من الخطبة، فلما أقيمت فيه الخطبة، أضيفت إليه الخطابة فيه مع الأمانة.

غبن

أحد خدام الخليفة الحاكم بأمر الله. خلع عليه فى تاسع ربيع الآخر سنة أثنتين وأربعمائة، وقلده سيفا، وأعطاه سجلاً قريء فإذا فيه أنه لقب بقائد القواد، وأمر أن يكتب بذلك ويكاتب به، وركب وبين يديه عشرة أفراس بسروجها ولجمها.

وفى ذى القعدة من السنة المذكورة، أنفذ اليه الحاكم خمسة آلاف دينار وخمسة وعشرين فرساً بسروجها ولجمها، وقلده الشرطتين والحسبة بالقاهرة ومصر والجيزة، والنظر فى أمور الجميع وأموالهم وأحوالهم كلها، وكتب له سجلاً بذلك قرئ بالجامع العتيق. فنزل إلى الجامع معه سائر العسكر والخلع عليه، وحمل على فرسين.

وكان فى سجله مراعاة أمر النبيذ وغيره من المسكرات، وتتبع ذلك والتشديد فيه، وفى المنع من عمل الفقاع وبيعه، ومن أكل الملوخيا والسمك الذى لاقشر له، والمنع من الملاهى كلها، والتقدم بمنع النساء من حضور الجنائز والمنع من بيع العسل، وألا يتجاوز

فى بيعه أكثر من ثلاثة أرطال لمن لايسبق إليه ظنه أن يتخذ منه مسكراً فاستمر ذلك إلى غرة صفر سنة أربع وأربعمائة، فصرف عن الشرطتين والحسبة بمظفر الصقلي.

فلما كان يوم الإثنين ثامن عشر ربيع الآخر منها، أمر بقطع يدى كاتبه أبى القاسم على ابن أحمد الجرجانى فقطعتا جميعاً. وذلك أنه كان يكتب عند السيدة الشريفة أخت الحاكم، فانتقل من خدمتها إلى خدمة غين خوفاً على نفسه من خدمتها، فسخطت لذلك، فبعث إليها يستعطفها، ويذكر فى رقعته شيئاً وقفت عليه، فارتابت منه، فظنت أن ذلك حيلة عليها، وأنقذت الرقعة فى طى رقعتها إلى الحاكم. فلما وقف عليها أشتد غضبه، وأمر بقطع يديه جميعاً فقطعتا.

وقيل بل كان غين هو الذى يوصل رقاع عقيل، صاحب الخبر، إلى الحاكم فى كل يوم. فيأخذها من عقيل وهى مختومة بخاتمه، ويدفعها لكاتبه أبى القاسم الجرجانى حتى يخلو له وجه الحاكم، فيأخذها حينئذ من كاتبه ويوقفه عليها.

وكان الجرجانى يفك الختم ويقرأ الرقاع. فلما كان فى يوم من الأيام فك رقعة، فوجد فيها طعناً على غين أستاذه وقد ذكر فيها بسوء، فقطع ذلك الموضع وأصلحه وأعاد ختم الرقعة.

فبلغ ذلك عقيلاً صاحب الخبر، فبعث إلى الحاكم يستأذنه فى الاجتماع به خلو فى أمر مهم، فأذن له، وحدثه بالخبر فأمر حينئذ بقطع يدى الجرجانى فقطعتا ثم بعد قطع يديه بخمسة عشر يوماً، فى ثالث جمادى الأولي، فطعت يد غين الأخرى كان قد أمر بقطع يده قبل ذلك بثلاث سنين وشهر، فصار مقطوع اليدين معاً.

ولما قطعت يده حملت فى طبق إلى الحاكم فبعث إليه بالأطباء، ووصله بألوف من الذهب وعدة من أسفاط ثياب، وعاده جميع أهل الدولة. فلما كان ثالث عشره أمر بقطع لسانه، فقطع وحمل إلى الحاكم، فسير إليه الأطباء، ومات بعد ذلك.

جامع الأفرم

قال ابن المتوج : هذا الجامع بفسخ الرصد . عمره الأمير عزالدين أيبك بن عبدالله ـ المعروف بالأفرم ـ أمير جاندار الملكى الصالحى النجمي ، فى شهور سنة ثلاث وستين وستمائة ، لما عمر المنظرة هناك ، وعمر بجوارها رباطاً للفقراء ، وقررهم عدة تنعقد بهم الجمعة ، وقرر إقامتهم فيه ليلاً ونهاراً ، وقرر كفايتهم وإعانتهم على الإقامة ، وعمر لهم هذا الجامع يستغنون به عن السعى إلى غيره . وذكر أن الأفرم أيضاً عمر مسجداً بجسر الشعيبة ، فى شعبان سنة ثلاث وتسعين وستمائة . جامعاً هدم فيه عدة مساجد .

الجامع بمنشأة المهراني

قال ابن المتوج ، والسبب فى عمارة هذا الجامع أن القاضى الفاضل كان له بستان عظيم فيما بين ميدان اللوق وبستان الخشاب الذى أكله البحر ، وكان يمير مصر والقاهرة من ثماره وأعنابه ، ولم تزل الباعة ينادون على العنب «رحم الله الفاضل ياعنب» إلى مدة سنين عديدة بعد أن أكله البحر .

وكان قد عمر إلى جانبه جامعاً وبنى حوله ، فسميت بمنشأة الفاضل ، وكان خطيبه أخا الفقيه موفق الدين بن المهدوى الديباجى العثماني ، وكان قد عمر بجواره دارا وبستاناً وغرس فيه أشجاراً حسنة ودفع إليه فيه ألف دينار مصرية فى أول الدولة الظاهرية ، وكان الصرف قد بلغ فى ذلك الوقت كل دينار ثمانية وعشرين درهماً ونصف درهم نقرة . فاستولى البحر على الجامع والدار والمنشأة ، وقطع جميع ذلك حتى لم يبق له أثر .

وكان خطبيه موفق الدين يسكن بجوار الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن حنا، ويتردد إليه وإلى والده محيي الدين، فوقف وضرع إليهما وقال. أكون غلام هذا الباب ويخرب جامعي. فرحمه الصاحب وقال : السمع والطاعة، يدبر الله. ثم فكر فى هذه البقعة التى فيها هذا الجامع الآن، وكانت تعرف بالكوم الأحمر، مرصدة لعمل أقمنة الطوب الآجرية، سميت بالكوم الأحمر.

وكان الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن حنا قد عمر منظرة قبالة هذا الكوم - وهى التى صارت دار ابن صاحب الموصل - وكان فخر الدنى كثير الإقامة فيها مدة الأيام المعزية، فقلق من دخان الأقمنة التى على الكوم الأحمر، وشكا ذلك لوالده ولصهر الوزير شرف الدين هبه الله بن صاعد الفائزي. فأمرا بتقويمه، فتقوم ما بين بستان الحلى وبحر النيل، وابتاعه الصاحب بهاء الدين.

فلما مات ولده فخر الدين، وتحدث مع الملك الظاهر بيبرس فى عمارة جامع هناك، ملكه هذه القطعة من الأرض، فعمر السلطان بها هذا الجامع، ووقف عليه بقية هذه الأرض المذكورة فى شهر رمضان سنة إحدى وسبعين وستمائة، وجعل النظر فيه لأولاده وذريته، ثم من بعدهم لقاضى القضاة الحنفي.

وأول من خطب فيه الفقيه موفق الدين محمد بن أبى بكر المهدوى العثمانى الديباجى إلى أن توفى يوم الأربعاء ثالث عشر شوال سنة خمس وثمانين وستمائة. وقد تعطلت إقامة الجمعة من هذا الجامع لخراب ما حوله وقلة الساكنين هناك، بعد أن كانت تلك الخطة فى غاية العمارة. وكان صاحبنا شمس الدين محمد بن الصاحب قد عزم على نقل هذا الجامع من مكانه، فأخترمته المنية قبل ذلك.

جامع دير الطين

قال ابن المتوج : هذا الجامع بدير الطين فى الجانب الشرقى عمره الصاحب تاج الدين بن الصاحب فخر الدين، ولد الصاحب بهاء الدين المشهور بابن حنا، فى المحرم سنة اثنتين وسبعين وستمائة، وذلك أنه لما عمر بستان المعشوق ومناظره، كثرت إقامته بها، وبعد عليه الجامع - وكان جامع دير الطين ضيقاً لايسع الناس - فعمر هذا الجامع، وعمر فوقه طبقة يصلى فيها، ويعتكف إذا شاء ويخلو بنفسه فيها. وكان ماء النيل فى زمنه يصل إلى جدار هذا الجامع.

وولى خطابته للفقيه جامع الدين محمد ابن الماشطة، ومنعه من لبس السواد لأداء الخطبة فاستمر إلى حين وفاته فى عاشر رجب سنة تسع وسبعمائة. وأول خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة سابع صفر سنة اثنتين وسبعين وستمائة. وقد ذكرت ترجمة الصاحب تاج الدين عند ذكر رباط الآثار من هذا الكتاب.

«محمد بن على بن محمد بن سليم بن حنا». أبو عبدالله الوزير الصاحب فخر الدين أبن الوزير الصاحب بهاء الدين. ولد فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وتزوج بابنه الوزير الصاحب شرف الدين هبه الله بن صاعد الفائزي، وناب عن والده فى الوزارة، وولى ديوان الأحباس ووزارة الصحبة فى أيام الظاهر بيبرس.

وسمع الحديث بالقاهرة ودمشق وحدث، وله شعر جيد، ودرس بمدرسة أبيه الصاحب بهاء الدين التى كانت فى زقاق القناديل بمصر. وكان محباً لأهل الخير والصلاح، مؤثراً لهم، متفقداً لأحوالهم. وعمر رباطاً حسناً بالقرافة الكبري، رتب فيه جماعة من الفقراء.

ومن غريب ما يتعظ به الأريب أن الوزير الصاحب زين الدين يعقوب بن عبدالرفيع بن الزبير، الذى كان بنو حنا يعادونه وعنه أخذوا الوزارة، مات فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وستمائة بالسجن. فأخرج كما تخرج الأموات الطرحاء على الطرقات من الغرباء، ولم يشيع جنازته أحد من الناس مراعاة للصاحب بن حنا.

وكان فخر الدين هذا يتنزه فى أيام الربيع بمنية القائد ـ وقد نصبت له الخيام، وأقيمت المطابخ، وبين يديه المطربون ـ فدخل عليه البشير بموت الوزير يعقوب بن الزبير، وأنه أخرج إلى المقابر من غير أن يشيع جنازته أحد من الناس. فسر بذلك ولم يتمالك نفسه، وأمر المطربين فغنوه، ثم قام على رجليه ورقص هو وسائر من حضره، وأظهر من الفرج والخلاعة ما خرج به عن الحد، وخلع على البشير بموت المذكور خلعاً سنية.

فلم يمض على ذلك سوى أقل من أربعة أشهر، ومات فى حادى عشرى شعبان من السنة المذكورة، ففجع به أبوه، وكان له جنازة عظيمة. ولما دلى فى لحده، قام شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى ـ صاحب البردة ـ فى ذلك الجمع الموقور بتربة أبن حنا من القرافة، وأنشد:

نم هنيئا محمــــــد بن علي
بجميـــل قدمت بين يديكا
لم تزل عوننا على الدهر حتي
غلبتنا يد المنـــــون عليكا
أنت أحسنت فى الحيـاة إلينا
أحسن الله فى الممات إليكا

فتباكى الناس، وكان لها محل كبير ممن حضر. رحمة الله عليهم أجمعين.

وفى هذا الجامع يقول السراج الوراق:

بنيتم على تقوى من الله مجسداً
وخــــير مبانى العابدين المساجد
فقل فى طراز معـــلم فوق بركة
على حسنها الزاهى لها البحر حاسد
لها حلل حســـنى ولكن طرازها
من الجــــامع المعمور بالله واحد

هو الجامع الإحسان والحسن الذي
أقر له زيد وعمـــرو وخالد
وقد صافحت شهب الدجى شرفاته
فما هى بين الشهب إلا فراقد
وقد أرشد الضلال عالى منــــاره
فلا حـائر عنه ولا عنه حائد
ونالت نواقيس الديارات وجمـة
وخوف فلم يمدد إليهن ساعد
فتبكى عليهن البطاريق فى الدجي
وهن لديهم ملقيات كواسد
بذاقضـــــت الأيام ما بين أهلها
مصائب قوم عند قوم فوائد

جامع الظاهر

هذا الجامع خارج القاهرة. وكان موضعه ميداناً، فأنشأه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى جامعاً.

قال جامع السيرة الظاهرية : وفى ربيع الآخر (يعنى سنة خمس وستين وستمائة) اهتم السلطان بعمارة جامع بالحسينية، وسير الأتابك فارس الدين أقطاى المستعرب والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن حنا وجماعة من المهندسين، لكشف مكان يليق أن يعمل جامعاً، فتوجهوا لذلك، واتفقوا على مناخ الجمال السلطانية. فقال السلطان. لا والله لاجعلت الجامع مكان الجمال، وأولى جعلته ميدانى الذى ألعب فيه بالكرة وهو نزهتي.

فلما كان يوم الخميس ثامن شهر ربيع الآخر ركب السلطان، وصحبته خواصه والوزير الصاحب بهاء الدين على بن حنا والقضاة، ونزل إلى ميدان قراقوش، وتحدث فى أمره، وقاسه ورتب أموره وأمور بنائه، ورسم بأن يكون بقية الميدان وقفا على الجامع بحكر، ورسم بين يديه هيئة الجامع، وأشار أن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية، وأن يكون على محرابه قبة على قدر قبة الشافعى رحمة الله عليه.

وكتب فى وقته الكتب إلى البلاد بإحضار عمد رخام من سائر البلاد، وكتب بإحضار الجمال والجواميس والأبقار والدواب من سائر الولايات، وكتب بإحضار الآلات من الحديد والأخشاب النقية برسم الأبواب والسقوف وغيرها.

ثم توجه لزيارة الشيخ الصالح خضر بالمكان الذى أنشأه له، وصلى الظهر هناك، ثم توجه إلى المدرسة بالقاهرة فدخلها، والفقهاء والقراء على حالهم وجلس بينهم. ثم تحدث وقال: هذا مكان قد جعلته لله عز وجل، وخرجت عنه وقفا لله فإذا مت لا تدفنونى هنا، ولاتغيروا معالم هذا المكان، فقد خرجت عنه لله تعالي. ثم قام من إيوان الحنفية، وجلس بالمحراب فى إيوان الشافعية وتحدث وسمع القرآن والدعاء ورأى جميع الأماكن ودخل إلى قاعة ولده الملك السعيد المبنية قريباً منها، ثم ركب إلى قلعة الجبل، وولى عدة مشدين على عمارة الجامع.

وكان إلى جانب الميدان قاعة منظرة عظيمة بناها السلطان الملك الظاهر. فلما رسم ببناء الجامع، طلبها الأمير سيف الدين قشتمر العجمى من السلطان فقال الأرض قد خرجت عنها لهذا الجامع فاستأجرها من ديرانه والبناء والأصناف وهبتك أياها، فشرع فى العمارة فى منتصف جمادى الآخرة منها.

وفى أول جمادى الآخرة سنة ست وستين وستمائة، سار السلطان من ديار مصر يريد بلاد الشام، فنزل على مدنية يافا، وتسملها من الفرنج بأمان، فى يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة المذكور، وسير أهلها فتفرقوا فى البلاد، وشرع فى هدمها، وقسم أبراجها على الأمراء، فابتدأ فى ذلك من ثانى عشريه، وقاسوا شدة فى هدمها لحصانتها وقوة بنائها، لاسيما القلعة فإنها كانت حصينة عالية الارتفاع، ولها أساسات إلى الأرض الحقيقية.

وباشر السلطان الهدم بنفسه وبخواصه ومماليكه، حتى غلمان البيونات التى له. وكان ابتداء هدم القلعة فى سابع عشريه، ونقضت من أعلاها ونظفت زلاقتها واستمر الأجناد فى ذلك ليلاً ونهاراً، وأخذ من أخشابها جملة ومن ألواح الرخام التى وجدت فيها، ووسق منها مركباً من المراكب التى وجدت فى يافا، وسيرها إلى القاهرة، ورسم بأن يعمل من ذلك الخشب مقصورة فى الجامع الظاهرى بالميدان من الحسينية، والرخام يعمل بالمحراب، فاستعمل كذلك.

ولما عاد السلطان إلى مصر فى حادى عشرى ذى الحجة منها ـ وقد فتح فى هذه السفرة يافا وطرابلس وأنطاكية وغيرها ـ أقام إلى أن أهلت سنة سبع وستين وستمائة فلما كملت عمارة الجامع فى شوال منها ركب السلطان، ونزل إلى الجامع وشاهده، فرآه فى غاية ما يكون من الحسن، وأعجبه نجازة فى أقرب وقت ومدة مع علو الهمة فخلع على مباشريه ـ وكان الذى تولى بناءه الصاحب بهاء الدين بن حنا، والأمير علم الدين سنجر السرورى متولى القاهرة ـ وزار الشيخ خضر، وعاد إلى قلعته.

وفى شوال منها تمت عمارة الجامع الظاهري، ورتب به خطيباً حنفى المذهب، ووقف عليه حكر ما بقى من أرض الميدان، ونزل السلطان إليه، ورتب أوقافه، ونظر فى أموره.

«بيبرس»

الملك الظاهر ركن الدين البندقداري: أحد المماليك البحرية الذين أختص بهم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، وأسكنهم قلعة الروضة.

كان أولاً من مماليك الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري. فلما سخط عليه الملك الصالح أخذ مماليكه ـ ومنهم الأمير بيبرس هذا ـ وذلك فى سنة أربع وأربعين وستمائة وقدمه على طائفة من الجمدارية.

ومازال يترقى فى الخدم إلى أن قتل المعز أيبك التركماني، الفارس أقطاى الجمدار، فى

شعبان سنة اثنتين وخمسين وستمائة وكانت البحرية قد انحازت إليه، فركبوا فى نحو السبعمائة، فلما ألقيت إليهم رأس أقطاى تفرقوا، واتفقوا على الخروج إلى الشام - وكانت أعيانهم يومئذ بيبرس البندقداري، وقلاوون الألفي، وسنقر الأشقر، وبيسري، ونرامق، وتنكز - فساروا إلى الملك الناصر صاحب الشام.

ولم يزل بيبرس ببلاد الشام إلى أن قتل المعز أيبك، وقام من بعده ابنه المنصور علي، وقبض عليه نائبه الأمير سيف الدين قطز، وجلس على تخت المملكة، وتلقب بالملك المظفر، فقدم عليه بيبرس، فأمره المظفر قطز، ولما خرج قطز إلى ملاقاه التتار، وكان من نصرته عليهم ما كان، رحل إلى دمشق. فوشى إليه بأن الأمير بيبرس قد تنكر له وتغير عليه، وأنه عازم على القيام بالحرب.

فأسرع قطز بالخروج من دمشق إلى جهة مصر وهو مضمر ببيبرس السوء، وعلم بذلك خواصه. فبلغ ذلك بيبرس، فاستحوش من قطز، وأخذ كل منهما يحترس من الآخر على نفسه، وينتظر الفرصة فبادر بيبرس وواعد الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، والأمير سيف الدين بيدغان الركنى - المعروف بسم الموت - والأمير سيف الدين بلبان الهارونى والأمير بدر الدين آنص الأصبهاني.

فلما قربوا فى مسيرهم من القصر بين الصالحية والسعدية عند القرين، وانحرف قطز عن الدرب للصيد فلما قضى منه وطرده وعاد - والأمير بيبرس يسايره هو وأصحابه - طلب بيبرس منه امرأة من سى التتار، فأنعم عليه بها فتقدم ليقبل يده - وكانت إشارة بينه وبين أصحابه - فعندما رأوا بيبرس قد قبض على يد السلطان المظفر فطز، بادر الأمير مكتوب الجوكندار وضربه بسيف على عاتقه أبانه، واختطفه الأمير آنص وألقاه عن فرسه إلى الأرض، ورماه بهادر المعزى بسهم فقتله، وذلك يوم السبت خامس عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة.

ومضوا إلى الدهليز للمشورة، فوقع الاتفاق على الأمير بيبرس، فتقدم إليه أقطاى المستعرب الجمدار - المعروف بالأتابك - وبايعه وحلف له، ثم بقية الأمراء، وتلقب بالملك الظاهر وذلك بمنزلة القصير. فلما تمت البيعة، وحلف الأمراء كلهم، قال له الأمير أقطاى المستعرب: يا خوند لايتم لك أمر إلا بعد دخولك إلى القاهرة وطلوعك إلى القلعة.

فركب من وقته ومعه الأمير قلاوون، والأمير بلبان الرشيدي، والأمير بيلبك الخازندار وجماعة. . يريدون قلعة الجبل. فلقيهم فى طريقهم الأمير عز الدين أيدمر الحلبي، نائب الغيبة عن المظفر قطز، وقد خرج لتلقيه. فأخبروه بما جرى وحلفوه، فتقدمهم إلى القلعة، ووقف على بابها حتى وصلوا فى الليل، فدخلوا إليها.

وكانت القاهرة قد زينت لقدوم السلطان الملك المظفر قطز، وفرح الناس بكسر التتار وعود السلطان. فما راعهم، وقد طلع النهار، إلا والمشاعلى ينادى : معاشر الناس ترحموا على الملك المظفر. فدخل على الناس من ذلك غم شديد ووجل عظيم، خوفاً من عود البحرية إلى ما كانوا عليه من الجور والفساد وظلم الناس.

فأول ما بدأ به الظاهر أنه أبطل ما كان قطز أحدثه من المظالم عند سفره - وهو تصقيع الأملاك وتقويمها، وأخذ زكاة ثمنها فى كل سنة، وجباية دينار من كل إنسان، وأخذ ثلث الترك الأهلية - فبلغ ذلك فى السنة ستمائة ألف دينار. وكتب بذلك مسموحاً قرئ على المنابر فى صبيحة دخوله إلى القلعة، وهو يوم الأحد سادس عشر ذى القعدة المذكور.

وجلس بالإيوان وحلف العساكر، واستناب الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار بالديار المصرية. واستقر الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب أتابكاً على عادته، والأمير جمال الدين أقوش التجيبى أستادارا، والأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى أمير جاندار، والأمير لاجين الدرفيل وبلبان الرومى دوادارية، والأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزورى أميراخور على عادته، وبهاء الدين على بن حنا وزيراً، والأمير ركن الدين التاجى الركنى والأمير سيف الدين بكجرى حجاباً. ورسم باحضار البحرية الذين تفرقوا فى البلاد بطالين، وسير الكتب إلى الأقطار بما تجدد له من النعم، ودعاهم إلى الطاعة. فأذعنوا له، وانقادوا إليه.

وكان الأمير علم الدين سنجر الحلبى نائب دمشق، لما قتل قطز، جمع الناس وحلفهم، وتلقب بالملك المجاهد. وثار علاء الدين - الملقب بالملك السعيد - ابن صاحب الموصل فى حلب، وظلم أهلها وأخذ منهم خمسين ألف دينار. فقام عليه جماعة - ومقدمهم الأمير حسام الدين لاجين العزيزى - وقبضوا عليه. فسير الظاهر إلى لاجين بنيابة حلب.

فلما دخلت سنة تسع وخمسين قبض الظاهر على جماعة من الأمراء المعزية: منهم الأمير سنجر الغتمي، والأمير بهادر المعزي، والشجاع بكتوت.

ووصل إلى السلطان الإمام أبو العباس أحمد ابن الخليفة الظار العباسى من بغداد فى تاسع رجب، فتلقاه السلطان فى عساكره، وبالغ فى إكرامه، وأنزله بالقلعة. وحضر سائر الأمراء والمقدمين، والقضاة وأهل العلم والمشايخ، بقاعة الأعمدة من القلعة بين يدى أبى العباس. فتأدب السلطان الظاهر، ولم يجلس على مرتبه ولا فوق كرسي.

وحضر العربان الذين قدموا من العراق وخادم من طواشية بغداد، وشهدوا بأن العباس أحمد ولد الخليفة الظاهر أبن الخليفة الناصر. وشهد معهم بالاستفاضة الأمير جمال الدين يحيي نائب الحكم بمصر، وعلم الدين ابن رشيق، وصدر الدين موهوب الجزري، ونجيب الدين الحراني، وسديد الزمنتى نائب الحكم بالقاهرة.. عند قاضى القضاة تاج الدين عبدالوهاب ابن بنت الأعز الشافعي، وأسجل على نفسه بثبوت نسب أبى العباس أحمد وهو قائم على قدميه، ولقب بالإمام المستنصر بالله.

وبايعه الظاهر على كتاب الله وسنة نبيه، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد فى سبيل الله، وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها. فلما تمت البيعة، قلد المستنصر بالله السلطان الملك الظاهر أمر البلاد الإسلامية وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار. وبايع الناس المستنصر على طبقاتهم، وكتب إلى الأطراف بأخذ البيعة له وإقامة الخطبة باسمه على المنابر، ونقشت السكة فى ديار مصر باسمه واسم الملك الظاهر معاً.

فلما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب، خطب الخليفة بالناس فى جامع القلعة.

وركب السلطان فى يوم الاثنين رابع شعبان إلى خيمة ضربت له بالبستان الكبير ظاهر القاهرة، وأفيضت عليه الخلع الخليفية ـ وهى جبة سوداء، وعمامة بنفسجية، وطوق من ذهب ـ وقلد بسيف عربي، وجلس مجلساً عاماً حضره الخليفة والوزير وسائر القضاة والأمراء والشهود، وصعد القاضى فخر الدين بن لقمان كاتب السر منبراً نصب له، وقرأ تقليد السلطان المملكة وهو بخطه من إنشائه. ثم ركب السلطان بالخلعة والطوق، ودخل من باب النصر، وشق القاهرة وقد زينت له، وحمل الصاحب بهاء الدين بن حنا التقليد على رأسه قدام السلطان والأمراء مشاة بين يديه. وكان يوماً مشهوداً.

وأخذ السلطان فى تجهيز الخليفة ليسير إلى بغداد. فرتب له الطواشى بهاء الدين صندلاً الصالحى شرابياً، والأمير سابق الدين بوزيا الصريفى أتابكاً، والأمير جعفرا أستادارا، والأمير فتح الدين بن الشهاب أحمد أمير جاندار، والأمير ناصر الدين بن صيرم خازندار، والأمير سيف الدين بلبان الشمسى وفارس الدين أحمد بن أزدمر اليعمورى دواداريه، والقاضى كمال الدين محمد السنجارى وزيرا، وشرف الدين أبا حامد كاتباً.

وعين له خزانة وسلاحخاناه، ومماليك عدتهم نحو الأربعين منهم سلاحدارية وجمدارية وزردكاشية ورمحدارية، وجعل له طشتخاناه وفراشخاناه وشرابخاناه وإماما ومؤذنا وسائر أرباب الوظائف، واستخدم له خمسمائة فارس، وكتب لمن قدم معه من العراق بإقطاعات، وأذن له فى الركوب والحركة حيث اختار.

وحضر الملك الصالح إسماعيل بن بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل، وأخوه الملك المجاهد سيف الدين إسحاق صاحب الجزيرة، وأخوهما المظفر. فأكرمهم السلطان، وأقرهم على ما بأيديهم، وكتب لهم تقاليد، وجهزهم فى خدمة الخليفة.

وسار الخليفة فى سادس شوال، والسلطان فى خدمته، إلى دمشق. فنزل السلطان فى القلعة، ونزل الخليفة فى التربة الناصرية بجبل الصالحية، وبلغت نفقة السلطان على الخليفة ألف ألف وستين ألف دينار.

وخرج من دمشق فى ثالث ذى القعدة، ومعه الأمير بلبان الرشيدى والأمير سنقر الرومى وطائفة من العسكر، وأوصاهما السلطان أن يكونا فى خدمة الخليفة حتى يصل إلى الفرات، فإذا عبر الفرات أقاما بمن معهما من العسكر بالبر الغربى من جهات حلب لانتظار ما يتجدد من أمر الخليفة بحيث إن احتاج إليهم ساروا إليه.

فسار إلى الرحبة، وتركه أولاد صاحب الموصل وانصرفوا إلى بلادهم. وسار إلى مشهد علي، فوجد الإمام الحاكم بأمر الله قد جمع سبعمائة فارس من التركمان وهو على عانة، ففارقه التركمان، وصار الحاكم إلى المستنصر طائعاً له. فأكرمه وأنزله معه، وساروا إلى عانة، ورحلا إلى الحديثة، وخرجا منها إلى هيت.

وكانت له حروب مع التتار فى ثالث محرم سنة ستين وستمائة، قتل فيها أكثر أصحابة، وفر الحاكم وجماعة من الأجناد، وفقد المستنصر فلم يوقف له على خبر، فحضر الحاكم إلى قلعة الجبل، وبايعه السلطان والناس، واستمر بديار مصر فى مناظر الكبش وهو جد الخلفاء الموجودين اليوم.

وفى سنة ست وستين قرر الظاهر بديار مصر أربعة قضاة، وهم شافعى ومالكى وحنفى وحنلي، فاستمر الأمر على دلك إلى اليوم. وحدث غلاء شديد بمصر، وعدمت الغلة. فجمع السلطان الفقراء وعدهم، وأخذ لنفسه خمسمائة فقير، وللنائب بيلبك الخازندار ثلثمائة فقير، وفرق الباقى على سائر الأمراء، ورسم لكل إنسان فى اليوم برطلى خبز. فلم ير بعد ذلك فى البلد أحد من الفقراء يسأل.

وفى ثالث شوال سنة اثنتين وستين، أركب السلطان ابنه السعيد بركة بشعار السلطنة ومشى قدامه، وشق القاهرة والكل مشاة بين يديه من باب النصر إلى قلعة الجبل، وزينت البلد.

وفيها رتب السلطان لعب القبق بميدان العيد خارج باب النصر، وختن الملك السعيد ومعه ألف وستمائة وأربعون صبياً من أولاد الناس سوى أولاد الأمراء والأجناد، وأمر لكل صغير منهم بكسوة على قدره ومائة درهم ورأس من الغنم، فكان مهماً عظيماً، وأبطل ضمان المزر وجهاته، وأمر بحرق النصارى فى سنة ثلاث وستين، فتشفع فيهم على أن يحملوا خمسين ألف دينار، فتركوا.

وفى سنة أربع وستين أفتتح قلعة صفد، وجهز العساكر إلى سيس ومقدمهم الأمير قلاوون الألفي، فحصر مدينة أبناس وعدة قلاع.

وفى سنة خمس وستين، أبطل ضمان الحشيش من ديار مصر، وفتح يافا والسقيف وأنطاكية.

وفى سنة سبع وستين حج، فسار على غزة إلى الكرك ومنها المدينة النبوية، وغسل الكعبة بماء الورد بيده، ورجع إلى دمشق، فأراق جميع الخمور، وقدم إلى مصر فى سنة ثمان وستين.

وفى سنة سبعين خرج إلى دمشق.

وفى سنة إحدى وسبعين خرج من دمشق سائقاً إلى مصر - ومعه بيسري، وأقوش الرومي، وجرسك الخازندار، وسنقر الألفي - فوصل إلى قلعة الجبل، وعاد إلى دمشق. فكانت مدة غيبته أحد عشر يوماً، ولم يعلم بغيبته من فى دمشق حتى حضر.

ثم خرج سائقاً من دمشق يريد كبس التتار، فخاض الفرات وقدامه قلاوون وبيسري، وأوقع بالتتار على حين غفله، وقتل منهم شيئاً كثيرا، وساق خلفهم بيسرى إلى سروج، وتسلم السلطان إلبيرة.

ووقع بمصر فى سنة اثنتين وسبعين وباء هلك به خلق كثير.

وفى سنة ثلاث وسبعين، غزا السلطان سيس، وافتتح قلاعاً عديدة.

وفى سنة أربع وسبعين، تزوج السعيد بن السلطان بابنة الأمير قلاوون، وخرج العسكر إلى بلاد النوبة فواقع ملكهم، وقتل منهم كثيراً وفر باقيهم.

وفى سنة خمس وسبعين، سار السلطان لحرب التتار، فواقعهم على الأبلستين وقد انضم إليهم الروم، فانهزموا وقتل منهم كثير، وتسلم السلطان قيساريه ونزل فيها بدار السلطان.

ثم خرج إلى دمشق، فوعك بها من أسهال وحمى مات منها يوم الخميس تاسع عشرى محرم سنة ست وسبعين وستمائة، وعمره نحو من سبع وخمسين سنة، ومدة ملكه سبع عشرة سنة وشهران.

وكان ملكاً جليلاً، عسوفاً عجولاً، كثير المصادرات لرعيته ودواوينه، سريع الحركة، فارساً مقداماً. وترك من الذكور ثلاثة: السعيد محمد بركة خان وملك بعده، وسلامش وملك أيضاً، والمسعود خضر، ومن البنات سبع بنات، وكان طويلاً مليح الشكل.

وفتح الله على يده مما كان مع الفرنج: قيسارية وأرسوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف وأنطاكية وبقراص والقصير وحصن الأكراد والقرين وحصن عكا وصافيتا ومرقية وحلبا، وناصف الفرنج على المرقب وبانياس وأنطرسوس، وأخذ من صاحب سيس درباك ودركوس وتلميش وكفردين ورعبان ومرزبان وكينوك وأدنة والمصيصة.

وصار إليه من البلاد التى كانت مع المسلمين دمشق وبعلبك وعجلون وبصرى وصرخد والصلت وحمص وتدمر والرحبة وتل ناشر وصهيون وبلاطيس وقلعة الكهف والقدموس والعليقة والخوانى والرصافة ومصياف والقليعة والكرك والشوبك، وفتح بلاد النوبة وبرقة.

وعمر الحرم النبوى وقبة الصخرة ببيت المقدس، وزاد فى أوقاف الخليل عليه السلام، وعمر قناطر شبرامنت بالجيزية وسور الإسكندرية ومنار رشيد، وردم فم بحر دمياط، ووعر طريقه، وعمر الشواني، وعمر قلعة دمشق وقلعة الصبيبة وقلعة بعلبك وقلعة الصلت وقلعة صرخد وقلعة عجلون وقلعة بصرى وقلعة شيزر وقلعة حمص.

وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة، والجامع الكبير بالحسينية خارج القاهرة، وحفر خليج الإسكندرية القديم وباشره بنفسه، وعمر هناك قرية سماها الظاهرية، وحفر بحر أشموم طناح علبى يد الأمير بلبان الرشيدي، وجدد الجامع الأزهر بالقاهرة، وأعاد إليه الخطبة، وعمر بلد السعيدية من الشرقية بديار مصر، وعمر القصر الأبلق بدمشق وغير ذلك.

ولما مات كتم موته الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار عن العسكر، وجعله فى تابوت وعلقه ببيت من قلعة دمشق، وأظهر أنه مريض، ورتب الأطباء يحضرون على العادة، وأخذ العساكر والخزائن ومعه محفة محمولة فى الموكب محترمة، وأوهم الناس أن السلطان فيها وهو مريض، فلم يجسر أحد أن يتفوه بموت السلطان، وسار إلى أن وصل إلى قلعة الجبل بمصر وأشيع بموته. رحمه الله تعالى.

جامع ابن اللبان

هذا الجامع بجسر الشعيبية - المعروف بجسر الأفرم - عمره الأمير عز الدين أيبك الأفرم، فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة.

قال ابن المتوج: وكان سبب عمارته أنه لما كثرت الخلائق فى خطة هذا الجامع، قصد الأفرم أن يجعل خطبة فى المسجد، المعروف بمسجد الجلالة، الذى ببركة الشقاف ظاهر سور الفسطاط المستجد، وأن يزيد فيه ويعمره كما يختار. فمنعه الفقيه مؤتمن الدين الحارث أبن مسكين، ورده عن غرضه.

فحسن له الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن حنا عمارة هذا الجامع فى هذه البقعة لقربه منه. فعمره فى شعبان سنة ثلاث وتسعين وستمائة، لكنه هدم بسببه عدة مساجد.

وعرف هذا الجامع فى زمننا هذا بالشيخ محمد بن اللبان الشافعى لإقامته فيه. وأدركناه عامراً، وقد انقطعت منه فى هذه المحن إقامة الجمعة والجماعة، لخراب ما حوله وبعد البحر عنه.

الجامع الطيبرسي

هذا الجامع عمره الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار، نقيب الجيوش، بشاطئ النيل فى أرض بستان الخشباب، وعمر بجواره خانقاه فى جمادى الأولى سنة سبع وسبعمائة. وكان من أحسن متنزهات مصر وأعمرها.

وقد خرب ما حوله من الحوادث والمحن التى بعد سنة ست وثمانمائة، بعد ما كانت العمارة منه متصلة إلى الجامع الجديد بمصر، ومنه إلى الجامع الخطيرى ببولاق، ويركب الناس المراكب للفرجة من هذا الجامع إلى الجامعين المذكورين مصعدين ومنحدرين فى النيل، ويجتمع بهذا الجامع الناس للنزهة، فتمر به أوقات ومسرات لايمكن وصفها. وقد

خرب هذا الجامع وأقفر من المساكن، وصار مخوفاً بعدما كان ملهى وملعباً . . . سنة الله فى الذين خلوا من قبل .

ولطيبرس هذا المدرسة الطيبرسية بجوار الجامع الأزهر من القاهرة .

الجامع الجديد الناصري

هذا الجامع بشاطئ النيل من ساحل مصر الجديد . عمره القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله، ناظر الجيش، باسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون . وكان الشروع فيه يوم التاسع من المحرم سنة إحدى عشرة وسبعمائة، وانتهت عمارته فى ثامن صفر سنة اثنتى عشرة وسبعمائة .

وأقيم فى خطابته قاضى القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الشافعي، ورتب فى امامته الفقيه تاج الدين بن مرهف . فأول ما صلى فيه صلاة الظهر من يوم الخميس ثامن صفر المذكور، وأقيمت فيه الجمعة يوم الجمعة تاسع صفر، وخطب عن قاضى القضاة بدر الدين ابنه جمال الدين .

ولهذا الجامع أربعة أبواب، وفيه مائة وسبعة وثلاثون عموداً، منها عشرة من صوان فى غاية السمك والطول، وجملة ذرعه أحد عشر ألف ذراع وخمسمائة ذراع بذراع العمل : من ذلك طوله من قبليه إلى بحريه مائة وعشرون ذراعاً، وعرضه من شرقيه إلى غربية مائة ذراع، وفيه ستة عشر شباكاً من حديد، وهو يشرف من قبليه على بستان العالمة، وينظر من بحريه بحر النيل .

وكان موضع هذا الجامع فى القديم غامراً بماء النيل، ثم انحسر عنه النيل وصار رملة، فى زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب، يمرغ الناس فيها دوابهم أيام احتراق النيل . فلما عمر الملك الصالح قلعة الروضة وحفر البحر، طرح الرمل فى هذا الموضع، فشرع الناس فى العمارة على الساحل .

وكان موضع هذا الجامع شونة . وقد ذكر خبر ذلك عند ذكر الساحل الجديد بمصر ، فانظره . وما برح هذا الجامع من أحسن متنزهات مصر إلى أن خرب ما حوله . وفيه إلى الآن بقية ، وهو عامر .

«محمد بن قلاوون»

السلطان الملك الناصر أبو الفتح ناصر الدين ابن الملك المنصور - كان يلقب بحرفوش ، وأمه أشلون ابنه شنكاى - ولد يوم السبت النصف من المحرم سنة أربع وثمانين وستمائة ، بقلعة الجبل من ديار مصر ، وولى الملك ثلاث مرات :

الأولى بعد مقتل أخيه الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، فى رابع عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، وعمره تسع سنين تنقص يوماً واحداً . فأقام فى الملك سنة إلا ثلاثة أيام ، وخلع بمملوك أبيه كتبغا المنصورى يوم الأربعاء حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة .

وأعيد إلى المملكة ثانياً بعد قتل الملك المنصور لاجين يوم الإثنين سادس جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وستمائة . فأقام عشر سنين وخمسة أشهر وستة عشر يوماً ، وعزل نفسه وسار إلى الكرك . فولى الملك من بعده الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وتلقب بالملك المظفر ، فى يوم السبت ثالث عشرى شوال سنة ثمان وسبعمائة .

ثم حضر من الكرك إلى الشام وجمع العساكر . فخامر على بيبرس معظم جيش مصر وانحل أمره ، فترك الملك فى يوم الثلاثاء سادس عشر شهر رمضان سنة تسع وسبعمائة . وطلع الملك الناصر إلى قلعة الجبل يوم عيد الفطر من السنة المذكورة ، واستولى على ممالك مصر والشام والحجاز .

فأقام فى الملك من غير منازع له فيه إلى أن مات بقلعة الجبل فى ليلة الخميس الحادى والعشرين من ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، وعمره سبع وخمسون سنة وأحد عشر شهراً وخمسة أيام . وله فى ولايته الثالثة مدة اثنتين وثلاثين سنة وشهرين وعشرين

يوما. وجملة إقامته فى الملك عن المدد الثلاث ثلاث وأربعون سنة وثمانية أشهر وتسعة أيام.

ولما مات ترك ليلته ومن الغد حتى تم الأمر لابنه أبى بكر المنصور فى يوم الخميس المذكور. ثم أخذ فى جهازه، فوضع فى محفة بعد العشاء الآخرة بساعة، وحمل على بغلين، وأنزل من القلعة إلى الاصطبل السلطاني.

وسار به الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدى أمير جاندار، والأمير نجم الدين أيوب والى القاهرة، والأمير قطلوبغا الذهبي، وعلم دار خوطا جار الدوادار. وعبروا به إلى القاهرة من باب النصر، وقد غلقت الحوانيت كلها، ومنع الناس من الوقوف للنظر إليه، وقدام المحفة شمعة واحدة فى يد علمدار. فلما دخلوا به من باب النصر، كان قدامه مسرجة فى يد شاب وشمعة واحدة، وعبروا به المدرسة المنصورية بين القصرين ليدفن عند أبيه الملك المنصور قلاوون.

وكان الأمير علم الدين سنجر الجاولي، ناظر المارستان، قد جلس ومعه القضاة الأربعة وشيخ الشيوخ ركن الدين شيخ خانقاه سرياقوس، والشيخ ركن الدين عمر ابن الشيخ إبراهيم الجعبري. فحطت المحفة وأخرج منها، فوضع بجانب الفسقية التى بالقبة، وأمر ابن أبى الظاهر مغسل الأموات بتغسيله، فقال: هذا ملك، ولا أنفرد بتغسيله إلا أن يقوم أحد منكم ويجرده على الدكة، فإنى أخشى أن يقال كان معه فص أو خاتم أو فى عنقه خرزة.

فقام قطلوبغا الذهبى وعلمدار، وجرداه مع الغاسل من ثيابة. فكان على رأسه قبع أبيض من قطن ثيابة، وعلى بدنه بغلطاق صدر أبيض وسراويل فنزعا، وترك القميص عليه وغسل به، ووجد فى رجله الموجوعة بخشان مفتوحان. فغسل من فوق القميص، وكفن فى نصفيه، وعملت له أخرى طراحة ومخدة، ووضع فى تابوت من خشب، وصلى عليه قاضى القضاة، عز الدين عبدالعزيز بن محمد ابن جماعة الشافعى بمن حضر.

وأنزل إلى قبر أبيه فى سحليه من خشب قد ربطت بحبل، ونزل معه إلى القبر الغاسل والأمير سنجر الجاولي، ودفع إلى الغاسل ثلاثمائة درهم، فباع ما نابه من الثياب بثلاثة عشر درهماً سوى القبع فإنه فقده، وذكر الغاسل أنه كان محنكاً بخرقة معقدة بثلاث عقد.

فسبحان من لايحول ولايزول . . . هذا ملك أعظم المعمور من الأرض مات غريباً، وغسل طريحا، ودفن وحيدا. إن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب.

وفى ليلة السبت قرأ القراء عند القبر بالقبة القرآن، وحضر بعض الأمراء.

وترك من الأولاد اثنى عشر ولداً ذكراً، وهم: أحمد وهو أسنهم، وكان بالكرك، وأبو بكر وتسلطن من بعده، وشقيقه رمضان، ويوسف وإسماعيل وتسلطن أيضا، وشعبان وتسلطن، وحسين، وكجك تسلطن، وأمير حاج، وحسن - ويدعى قمارى - وتسلطن، وصالح وتسلطن، ومحمد. وترك من البنات ثمانياً متزوجات، سوى من خلف من الصغار وخلف من الزوجات جاريته طغاي، وابنة الأمير تنكز نائب الشام.

ومات وليس له نائب بديار مصر، ولا وزير، ولا حاجب متصرف سوى أن يرسبغا الحاجب تحكم فى متعلقات أمور الإقطاعات وليس معه عصا الحجوبية، وبدر الدين بكتاش نقيب الجيوش، وأقبغا عند الواحد أستادار السلطان مقدم المماليك، وبيبرس الأحمدى أمير جاندار، ونجم الدين أيوب والى القاهرة، وجمال الدين حمال الكفاة ناظر الجيوش، والموفق ناظر الدولة، وصارم الدين أزبك شاد الدواوين، وعز الدين عبدالعزيز بن جماعة قاضى القضاة بديار مصر.

ونائب دمشق الأمير ألطنبغا، ونائب مصر الأمير طشتمر حمص أخضر ونائب طرابلس الحاج أرقطاي، ونائب صفد الأمير أصلم، ونائب غزة الأمير آق سنقر السلاري، وصاحب حماه الملك الأفضل ناصر الدين محمد بن المؤيد إسماعيل.

والأمراء مقدمو الألوف بديار مصر يوم وفاته خمسة وعشرون أميراً وهم. بدر الدين جنكلى ابن البابا، والحاج آل ملك، وبيبرس الأحمدي، وعلم الدين سنجر الجاولي، وسيف الدين كوكاي، ونجم الدين محمود وزير بغداد. . . هؤلاء برانية كبار.

والباقى مماليكه وخواصه، وهم: ولده الأمير أبو بكر، والأمير قوصون، والأمير بشتاك، وطقزدمر، وأقبغا عبدالواحد الأستادار، وأيدغمش أميراخور، وقطلوبغا الفخري، ويلبغا اليحياوي، وملكتمر الحجازي، وألطنبغا المارداني، وبهادر الناصري،

وآق سنقر الناصري، وقماری الكبير، وقماری أمير شكار، وطرغاي، وأرتبغا أمير جاندار، وبرسبغا الحاجب، وبلدغی ابن العجوز أمير سلاح، وبيغرا.

وكان السلطان أبيض اللون، قد وخطه الشيب، وفی عينه حول، برجلة اليمنى ريح شوكة تمغص عليه أحياناً وتؤلمه، وكان لايكاد يمس بها الأرض، ولا يمشى إلا متكئاً على أحد أو متوكئاً على شيء، ولا يصل إلى الأرض إلى أطراف أصابعة. وكان شديد البأس، جيد الرأي، يتولى الأمور بنفسه، ويجود لخواصه.

وكان مهاباً عند أهل مملكته، بحيث إن الأمراء إذا كانوا عنده بالخدمه لايجسر أحد أن يكلم آخر كلمة واحدة، ولا يلتفت بعضهم إلى بعض خوفاً منه. ولا يمكن واحداً منهم أن يذهب إلى بيت أحد ألبته، لا فی وليمة ولا غيرها، فإن فعل أحد منهم شيئاً من ذلك قبض عليه، وأخرجه من يومه منفياً.

وكان مسدداً عارفاً بأمور رعيته وأحوال مملكته، وأبطل نيابة السلطنة من ديار مصر من سنة سبع وعشرين وسبعمائة، وأبطل الوزارة، وصار يتحدث بنفسه فی الجليل من الأمور والحقير، ويستجلب خاطر كل أحد من صغير وكبيَر. لاسيما حواشيه. فلذلك عظمت حاشية المملكة وأتباع السلطنة، وتخولوا فی النعم الجزيلة، حتى الحولة والكلابزية والأسرى من الأرمن والفرنج، وأعطى البازدارية الأخباز فی الحلقة: فمنهم من كان إقطاعه الألف دينار فی السنة، وزوج عدة منهم بجواريه، وأفنى خلقاً كثيراً من الأمراء بلغ عددهم نحو المائتی أمير.

وكان إذا كبر أحد من أمرائه، قبض عليه وسلبه نعمته، وأقام بدله صغيراً من مماليكه إلى أن يكبر، فيمسكه ويقيم غيره... ليأمن بذلك شرهم. وكان كثير التخيل حازماً، حتى أنه إذا تخيل من ابنه قتله.

وفی آخر أيامه شره فی جمع المال، فصادر كثيراً من الدواوين والولاة وغيرهم، ورمى البضائع على التجار حتى خالف كل من له مال. وكان مخادعاً كثير الحيل، لايقف عند قول، ولا يوف بعهد، ولا يبر فی يمين.

وكان محباً للعمارة . عمر عدة أماكن ، منها جامع قلعة الجبل وهدمه مرتين ، وعمر القصر الأبلق بالقلعة ومعظم الأماكن التى بالقلعة ، وعمرى المجرى الذى ينقل الماء عليه من بحر النيل إلى القلعة على السور ، وعمر الميدان تحت القلعة ، ومناظر الميدان على النيل .

وعمر قناطر السباع على الخليج ، ومناظر سرياقوس والخانقاه بسرياقوس ، وحفر الخليج الناصرى بظاهر القاهرة ، وعمر الجامع الجديد على شاطئ النيل بظاهر مصر ، وجدد جامع الفيلة الذى بالرصد ، والمدرسة الناصرية بين القصرين من القاهرة ، وغير ذلك مما يرد فى موضعه من هذا الكتاب .

ومازال يعمر منذ عاد إلى ولاية الملك فى المرة الثالثة إلى أن مات . وبلغ مصروف العمارة فى كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة : عنها ثلاثمائة وخمسون ديناراً . . . سوى من يسخره من المقيدين وغيرهم فى عمل ما يعمره .

وحفر عدة من الخلجانات والترع ، وأقام الجسور بالبلاد . . حتى أنه كان ينصرف من الأخباز على ذلك ربع متحصل الإقطاعات . وحفر خليج الإسكندرية ، وبحر المحلة مرتين ، وبحر اللبينى بالجيزة ، وعمل جسر شيبين ، وعمل جسر أحباس بالشرقية والقليوبية مدة ثلاث سنين متوالية فلم ينجع ، فأنشأه بنيانا بالطوب والجير ، وأنفق فيه أموالاً عظيمة .

وراك ديار مصر وبلاد الشام .

وعرض الجيش بعد حضوره فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، وقطع ثمانمائة من الجند ، ثم قطع فى مرة أخرى ثلاثة وأربعين جندياً فى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، ثم قطع خمسة وستين أيضاً فى رمضان سنة إحدى وأربعين وسبعمائة قبل وفاته بشهرين .

وفتح من البلاد جزيرة أرواد فى سنة اثنتين وسبعمائة ، وفتح ملطية فى سنة خمس عشرة وسبعمائة ، وفتح أناس فى ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة وخربها ، ثم عمرها الأرمن . فأرسل إليها جيشاً فأخذها ، ومعها عدة بلاد من بلاد الأرمن ، فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، وأقام بها نائباً من أمراء حلب .

وعمر قلعة جعبر بعد أن دثرت ، وضربت السكة باسمه فى شوال سنة إحدى وأربعين وسبعمائة قبل موته . . . تولى ذلك الشيخ حسن بن حسين ، بحضور الأمير شهاب الدين أحمد قريب السلطان ، وقد توجه من مصر بهذا السبب . وخطب له أيضاً فى أرتنا ببلاد

الروم، وضربت السكة باسمه، وكذلك بلاد ابن قرمان وجبال الأكراد وكثير من بلاد الشرق.

وكان من الذكاء المفرط على جانب عظيم. يعرف مماليك أبيه ومماليك الأمراء بأسمائهم ووقائعهم، وله معرفة تامة بالخيل وقيمها، مع الحشمة والسيادة. . . لم يعرف عنه قط أنه شتم أحداً من خلق الله، ولا سفه عليه، ولا كلمة بكلمة سيئة، وكان يدعو الأمراء أرباب الأشغال بألقابهم.

وكانت همته علية، وسياسته جيدة، وحرمته عظيمة إلى الغاية، ومعرفته بمهادنة الملوك لامرمى وراءها. . يبذل في ذلك من الأموال مالايوصف كثرة، فكان كتابه ينفذ أمره في سائر أقطار الأرض كلها. وهو مع ما ذكرنا مؤيد في كل أموره، مظفر في جميع أحواله، مسعود في سائر حركاته، ما عانده أحد أو أضمر له سوءاً إلا وندم على ذلك أو هلك.

وأشتهر في حياته بديار مصر أنه إن وقعت قطرة من دمه على الأرض لايطلع نيل مصر مدة سبع سنين. فمتعه الله من الدنيا بالسعادة العظيمة في المدة الطويلة، مع كثرة الطمأنينة والأمن، وسعة الأموال، وأقتنى كل حسن ومستحسن من الخيل والغلمان والجواري، وساعده الوقت في كل ما يحب ويختار إلى أن أتاه الموت.

الجامع بالمشهد النفيسي

قال ابن المتوج: هذا الجامع أمر بإنشائه الملك الناصر محمد بن قلاوون، فعمر في شهور سنة أربع عشرة وسبعمائة، وولى خطابته علاء الدين محمد بن نصر الله بن الجوهري شاهد الخزانة السلطانية، وأول خطبته فيه يوم الجمعة ثامن صفر من السنة المذكورة، وحضر أمير المؤمنين المستكفي بالله أبو الربيع سليمان وولده وابن عمه، والأمير كهرداش متولى شد العمائر السلطانية وعمارة هذا الجامع ورواقاته والفسقية المستجدة.

وقيل إن جميع المصروف على هذا الجامع من حاصل المشهد النفيسي، وما يدخل إليه من النذور ومن الفتوح.

جامع الأمير حسين

هذا الجامع كان موضعه بستاناً بجوار غيط العدة، أنشأة الأمير حسين بن أبى بكر بن إسماعيل بن حيدر بك مشرف الرومي. قدم مع أبيه من بلاد الروم إلى ديار مصر فى سنة خمس وسبعين وستمائة، وتخصص بالأمير حسام الدين لاجين المنصورى قبل سلطنته، فكانت له منه مكانه مكينة، وصار أمير شكار، وكان فيه بر، وله صدقة، وعنده تفقد لأصحابه.

وأنشأ أيضاً القنطرة المعروفة بقنطرة الأمير حسين على خليج القاهرة، وفتح الخوخة فى سور القاهرة بجوار الوزيرية، وجرى عليه من أجل فتحها ما قد ذكر عند ذكرها فى الخوخ من هذا الكتاب، وتوفى سابع المحرم سنة تسع وعشرين وسبعمائة، ودفن بهذا الجامع.

جامع الماس

هذا الجامع بالشارع خارج باب زويلة بناه الأمير سيف الدين ألماس الحاجب، وكمل فى سنة ثلاثين وسبعمائة.

وكان ألماس هذا أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون، فرقاه إلى أن صار من أكبر الأمراء ولما أخرج الأمير أغون إلى نيابة حلب، وبقى منصب النيابة شاغراً، عظمت منزلة ألماس، وصار فى منزلة النيابة إلا أنه لم يسم بالنائب، ويركب الأمراء الأكابر والأصاغر فى خدمته، ويجلس فى باب القلة من قلعة الجبل فى منزلة النائب، والحجاب وقوف بين يديه.

وما برح على ذلك حتى توجه السلطان إلى الحجاز فى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة. فتركه فى القلعة هو والأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك، والأمير أقبغا عبدالواحد، والأمير طشتمر حمص أخضر.. هؤلاء الأربعة لاغير، وبقية الأمراء إما معه فى الحجاز وأما فى إقطاعاتهم، وأمرهم ألا يدخلوا القاهرة حتى يحضر من الحجاز.

فلما قدم من الحجاز نقم عليه، وأمسكه فى صفر سنة أربع وثلاثين وسبعمائة وكان لغضب السلطان عليه أسباب: منها أنه لما أقام فى غيبة السلطان بالقلعة كان يراسل الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك ويوادده، وبدت منه فى مدة الغيبة أمور فاحشة من معاشرة الشباب ومن كلام فى حق السلطان، فوشى به أقبغا.

وكان مع ذلك قد كثر ماله وزادت سعادته، فهوى شاباً من أبناء الحسينية يعرف بعمير، وكان ينزل إليه ويجمع الأويراتية، ويحضر الشباب ويشرب. . . فحرك ذلك عليه ما كان ساكناً ويقال إن السلطان لما مات الأمير بكتمر الساقي، وجد فى تركته جزدان فيه جواب ألماس إلى بكتمر الساقى «أننى حافظ القلعة إلى أن يرد على منك ما أعتمده».

فلما وقف السلطان على ذلك أمر النشو بن هلال الدولة، وشاهد الخزانة، بإيقاع الحوطة على موجوده فوجدا له ستمائة ألف درهم فضة، ومائة ألف درهم فلوساً، وأربعة آلاف دينار ذهباً، وثلاثين حياصة ذهباً كاملة بكفتياتها وخلعها وجواهر وتحفاً.

وأقام ألماس عند أقبغا عبدالواحد ثلاثة أيام، وقتل خنقا بمحبسه فى الثانى عشر من صفر سنة أربع وثلاثين وسبعمائة، وحمل من القلعة إلى جامعه فدفن به، وأخذ جميع ما كان فى داره من الرخام فقلع منها، وكان رخاماً فاخراً إلى الغاية وكان أسمر طوالاً، غتيما لايفهم شيئاً بالعربي، ساذجاً يجلس فى بيته فوق لباد على ما اعتاده.

وبهذا الجامع رخام كثير نقله من جزائر البحر وبلاد الشام والروم.

جامع قوصون

هذا الجامع بالشارع خارج باب زويلة. ابتدأ عمارته الأمير قوصون فى سنة ثلاثين وسبعمائة. وكان موضعه دارا بجوار حارة المصامدة من جانبها الغربى تعرف بدار أقوش نميلة، ثم عرفت بدار الأمير جمال الدين قتال السبع الموصلي، فأخذها من ولده وهدمها.

وتولى بناءه شاد العمائر، واستعمل فيه الأسري. وكان قد حضر من بلاد توريز بنَّاء، فبنى مئذنتى هذا الجامع على مثال المئذنة التى عملها خواجا على شار وزير السلطان أبى سعيد، فى جامعه بمدينة توريز.

وأول خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ثلاثين وسبعمائة، وخطب يومئذ قاضى القضاة جلال الدين القزوينى بحضور السلطان ولما انقضت صلاة الجمعة أركبه الملك الناصر بغلة بخلعه سنية، ثم منعه السلطان الملك الناصر أن يستقر فى خطابته، فولى فخر الدين شكر.

«قوصون» الأمير الكبير سيف الدين حضر من بلاد بركة إلى مصر صحبة خوند ابنة أزبك، امرأة الملك الناصر محمد بن قلاوون، فى ثالث عشرى ربيع الآخر سنة عشرين وسبعمائة، ومعه قليل عصى وطسما ونحو ذلك مما قيمته خمسمائة درهم، ليتجر فيه. فطاف بذلك فى أسواق القاهرة وتحت القلعة، وفى داخل قلعة الجبل.

فاتفق فى بعض الأيام أنه دخل إلى الاصطبل السلطانى ليبيع ما معه فأحبه بعض الأوشاقية - وكان صبياً جميلاً طويلاً، له من العمر ما يقارب الثمانى عشرة سنة - فصار يتردد إلى الأوشاقى إلى أن رآه السلطان فوقع منه بموقع، فسأل عنه، فعرف بأنه يحضر ليبيع ما معه، وأن بعض الأوشاقية تولع به فأمر بإحضاره إليه، وابتاع منه نفسه ليصير من جملة المماليك السلطانية، فنزله من جملة السقاة، وشغف به وأحبه حباً كثيراً.

فأسلمه للأمير بكتمر الساقي، وجعله أمير عشرة، ثم أعطاه أمرة طبلخاناه، ثم جعله أمير مائة مقدم ألف، ورقاه حتى بلّغه أعلى المراتب. فأرسل إلى البلاد، وأحضر إخوته سوسون وغيره من أقاربه، وأمَّر الجميع واختص به السلطان بحيث لم ينل أحد عنده ما ناله، وزوجه بابنته، وتزوج السلطان أخته. فلما احتضر السلطان جعله وصيا على أولاده، وعهد لابنه أبى بكر، فأقيم فى الملك من بعده.

وأخذ قوصون فى أسباب السلطنة، وخلع أبا بكر المنصور بعد شهرين، وأخرجه إلى مدينة قوص ببلاد الصعيد ثم قتله، وأقام كجك ابن السلطان وله من العمر خمس سنين، ولقبه بالملك الأشرف، وتقلد نيابة السلطنة بديار مصر، فأمر من حاشيته وأقاربه ستين أميراً، وأكثر من العطاء وبذل الأموال والإنعام، فصار أمر الدولة كله بيده.

هذا وأحمد ابن السلطان الملك الناصر مقيم بمدينة الكرك. فخافه قوصون، وأخذ فى التدبير عليه، فلم يتم له ما أراد من ذلك، وحرك على نفسه ما كان ساكناً فطلب أحمد الملك لنفسه، وكاتب الأمراء والنواب بالمملكة الشامية والمصرية، فأذعنوا له.

وكان بمصر من الأمراء الأمير أيدغمش، والأمير آل ملك، وقماري، والماردانى وغيرهم فتخيل قوصون منهم، وأخذ فى أسباب القبض عليهم فعلموا بذلك وخافوا الفوت، فركبوا الحربه وحصروه بقلعة الجبل حتى قبضوا عليه فى ليلة الأربعاء آخر شهر رجب سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة، ونهبت داره وسائر دور حواشيه وأسبابه. وحمل إلى الإسكندرية صحبة الأمير قبلاى فقتل بها.

وكان كريماً: يفرق فى كل سنة للأضحية ألف رأس غنماً وثلاثمائة بقرة، ويفرق ثلاثين حياصة ذهباً، ويفرق كل سنة عدة أملاك فيها ما يبلغ ثمنه ثلاثين ألف درهم. وله من الآثار بديار مصر - سوى هذا الجامع - الخانقاه بباب القرافة، والجامع تجاهها، وداره التى بالرميلة تحت القلعة تجاه باب السلسلة، وحكر قوصون.

جامع الماردانى

هذا الجامع بجوار خط التبانة خارج باب زويلة، كان مكانه أولاً مقابر أهل القاهرة، ثم عمر أماكن. فلما كان فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، أخذت الأماكن من أربابها، وتولى شراءها النشو فلم ينصف فى أثمانها وهدمت، وبنى مكانها هذا الجامع.

فبلغ مصروفه زيادة على ثلاثمائة ألف درهم عنها نحو خمسة عشر ألف دينار سوى ما حمل إليه من الأخشاب والرخام وغيره من جهة السلطنة، وأخذ ما كان فى جامع راشدة من العمد فعملت فيه، وجاء من أحسن الجوامع.

وأول خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة رابع عشرى رمضان سنة أربعين وسبعمائة، وخطب فيه الشيخ ركن الدين عمر بن إبراهيم الجعبرى ولم يتناول معلوماً.

«ألطنبغا الماردانى الساقي»

أمَّره الملك الناصر محمد بن قلاوون، وقدمه وزوجه ابنته فلما مات السلطان، تولى بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر، وذكر أنه وشى بأمره إلى الأمير قوصون وقال: قد عزم على امساكك. فتخيل قوصون وخلع أبا بكر وقتله بقوص.. هذا مع أن ألطنبغا كان قد عظم عند المنصور أكثر مما كان عند أبيه.

فلما أقيم الأشرف كجك، ومات الناس، وحضر الأمير قطلوبغا من الشام، وشغب الأمراء على قوصون. كان ألطنبغا أصل ذلك كله. ثم نزل إلى الأمير أيدغمش أميراخور، واتفق معه على أن يقبض على قوصون، وطلع إلى قوصون وشاغله وخذله عن الحركة طول الليل والأمراء والكبار والمشايخ عنده، ومازال يساهره حتى نام، وكان من قيام الأمراء، وركوبهم عليه ما كان إلى أن أمسك، وأخرج إلى الإسكندرية.

ولما قدم ألطنبغا نائب الشام وأقام، تقدم الماردانى وقبض على سيفه، ولم يجسر غيره على ذلك، فقويت بهذه الحركات نفسه، وصار يقف فوق ألتمر تاشى وهو أغاته. فشق ذلك عليه، وكتم فى نفسه إلى أن ملك الصالح إسماعيل، فتمكن حينئذ ألتمر تاشي، وصار الأمر له، وعمل على الماردانى، فلم يشعر بنفسه إلا وقد أخرج على خمس أرؤس من خيل البريد إلى نيابة حماة فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين.

فسار إليها وبقى فيها نحو شهرين إلى أن مات أيدغمش نائب الشام، ونقل طقزدمر من نيابة حلب إلى نيابة دمشق. فنقل الماردانى من نيابة حماة إلى نيابة حلب، وسار إليها فى أول رجب من السنة المذكورة، وجاء الأمير يلبغا اليحياوى إلى نيابة حماه. فأقام الماردانى يسيراً فى حلب ومرض، ومات مستهل صفر سنة أربع وأربعين وسبعمائة.

وكان شاباً طويلاً رقيقاً، حلو الصورة لطيفاً، معشق الخطرة كريماً، صائب الحدس عاقلاً.

جامع أصلم

هذا الجامع داخل الباب المحروق. أنشأه الأمير بهاء الدين أصلم السلاحدار فى سنة ست وأربعين وسبعمائة.

«أصلم»: أحد مماليك الملك المنصور قلاوون الألفي. فلما فرقت المماليك السطانية فى نيابة كتبغا، بعد قتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون وسلطنة الناصر محمد بن قلاوون، كان أصلم من نصيب الأمير سيف الدين أقوش المنصور، ثم انتقل إلى الأمير سلار.

فلما حضر الملك الناصر محمد من الكرك، بعد سلطنة بيبرس الجاشنكير، خرج إليه أصلم بمنجا الملك، وبشره بهروب بيبرس. فأنعم عليه بإمره عشرة، ثم تنقل إلى أن صار أمير مائة مقدم ألف، وخرج فى التجريدة إلى اليمن، فلما عاد اعتقله السلطان خمس سنين لكلام نقل عنه، ثم أخرجه وأعاده إلى منزلته، ثم جهزه لنيابة صفد.

ومات الناصر وأصلم بصفد. فخرج الأمير قوصون مع ألطنبغا نائب الشام إلى حلب لإمساك طشتمر، فسار إلى قاري، ثم رجع وانضم إلى الفخري، وأقام عنده على خان لاجين، وتوجه معه صحبة عساكر الشام إلى مصر، فرسم له الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون بإمرة مائة فى مصر على عادته.

وكان أحد المشايخ، ويجلس رأس الحلقة، ويجيد رمى النشاب، مع سلامة صدر وخير، إلى أن مات فى يوم السبت عاشر شعبان سنة سبع وأربعين وسبعمائة.

وأنشأ بجوار هذا الجامع دارا سنية وحوض ماء للسبيل. وبهذا الجامع درس، وله أوقاف، وهو من أحسن الجوامع.

جامع بشتاك

هذا الجامع خارج القاهرة بخط قبو الكرمانى على بركة الفيل. عمرة الأمير بشتاك فكمل فى شعبان سنة ست وثلاثين وسبعمائة، وخطب فيه تاج الدين عبدالرحيم ابن قاضى القضاة جلال الدين القزوينى فى يوم الجمعة سابع عشره. وعمر تجاهه خانقاه على الخليج الكبير، ونصب بينهما ساباطا يتوصل به من أحدهما إلى الآخر.

وكان هذا الخط يسكنه جماعة من الفرنج والأقباط، ويرتكبون من القبائح ما يليق بهم. فلما عمر هذا الجامع، وأعلن فيه بالأذان وأقامة الصلوات، اشمأزت قلوبهم لذلك، وتحولوا من هذا الخط وهو من أبهج الجوامع وأحسنها رخاماً وأنزهها، وأدركناه إذا قويت زيادة ماء النيل فاضت بركة الفيل وغرقته، فيصير لجة ماء، لكن منذ انحسر ماء النيل عن البلد إلى جهة الغرب بطل ذلك.

وله من الآثار سوى ذلك قصر بشتاك بن القصرين. وقد تقدم ذكره.

جامع آق سنقر

هذا الجامع بسويقة السباعين على البركة الناصرية. عمره الأمير آق سنقر شاد العمائر السلطانية، وإليه تنسب قنطرة آق سنقر التى على الخليج الكبير بخط قبو الكرمانى قبالة الحبانية، وأنشأ أيضاً دارا جليلة وحمامين بخط البركة الناصرية.

وكان من جملة الأوشاقية فى أول أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، ثم عمله أميراخور، ونقله منها فجعله شاد العمائر السلطانية. وأقام فيها مدة فأثرى ثراء كبيراً، وعمر ما ذكر، وجعل على الجامع عدة أوقاف. فعزل وصودر وأخرج من مصر إلى حلب، ثم نقل منها إلى دمشق، فمات بها فى سنة أربعين وسبعمائة.

جامع آق سنقر

هذا الجامع قريب من قلعة الجبل، فيما بين باب الوزير والتبانة، كان موضعه فى القديم مقابر أهل القاهرة، وأنشأه الأمير آق سنقر الناصري، وبناه بالحجر، وجعل صفوفه عقوداً من حجارة ورخمه، واهتم فى بنائه اهتماماً زائداً حتى كان يقعد على عمارته بنفسه، ويشيل التراب مع الفعلة بيده، ويتأخر عن غدائه اشتغالاً بذلك، وأنشأ بجانبه مكتباً لإقراء أيتام المسلمين القرآن، وسبيلا لسقى الناس الماء العذب.

ووجد عند حفر أساس هذا الجامع كثيراً من الأموات، وجعل عليه ضيعة من قرى حلب تغل فى السنة مائة وخمسين ألف درهم فضة: عنها نحو سبعة آلاف دينار، وقرر فيه درساً فيه عدة من الفقهاء، وولى الشيخ شمس الدين محمد بن اللبان الشافعى خطابته، وأقام له سائر ما يحتاج إليه من أرباب الوظائف، وبنى بجواره مكاناً ليدفن فيه، ونقل إليه ابنه فدفنه هناك.

وهذا الجامع من أجل جوامع مصر. إلا أنه لما حدثت الفتن ببلاد الشام، وخرجت النواب عن طاعة سلطان مصر منذ مات الملك الظاهر برقوق، امتنع حضور مغل وقف هذا الجامع لكونه فى بلاد حلب، فتعطل الجامع من أرباب وظائفه إلا الأذان والصلاة وإقامة الخطبة فى الجمع والأعياد.

ولما كانت سنة خمس عشرة وثمانمائة، أنشأ فى وسطه الأمير طوغان الدوادار بركة ماء وسقفها، ونصب عليها عمداً من رخام لحمل السقف أخذها من جامع الخندق، فهدم الجامع بالخندق من أجل ذلك، وصار الماء ينقل إلى هذه البركة من ساقية الجامع التى كانت للميضأة.

فلما قبض الملك المؤيد شيخ الظاهرى على طوغان، فى يوم الخميس تاسع عشر جمادى الأولى سنة ست عشرة وثمانمائة، وأخرجه إلى الإسكندرية واعتقله بها، أخذ شخص التور الذى كان يدير الساقية - فإن طوغان كان أخذه منه بغير ثمن، كما هى عادة أمرائنا - فبطل الماء من البركة.

« آق سنقر »

السلاوى الأمير شمس الدين : أحد مماليك السلطان الملك المنصور قلاوون . ولما فرقت المماليك فى نيابة كتبغا على الأمراء ، صار الأمير آق سنقر إلى الأمير سلار ، فقيل له السلارى لذلك ، ولما عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك ، اختص به ، ورقاه فى الخدم حتى صار أحد الأمراء المقدمين ، وزوجه بابنته ، وأخرجه لنيابة صفد ، فباشرها بعفة إلى الغاية ، ثم نقله من نيابة صفد إلى نيابة غزة .

فلما مات الناصر ، وأقيم من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر ، وخلع بالأشرف كجك ، وجاء الفخرى لحصار الكرك . . فام آق سنقر بنصرة أحمد بن السلطان فى الباطن . وتوجه الفخرى إلى دمشق لما توجه الطنبغا إلى حلب ليطرد طشتمر نائب حلب ، فاجتمع به وقوى عزمه ، وقال له : توجه أنت إلى دمشق واملكها ، وأنا أحفظ لك غزة .

وقام فى هذه الواقعة قياماً عظيماً ، وأمسك الدروب . فلم يحضر أحد من الشام أو مصر ، من البريد وغيره ، إلا وقبض عليه وحمل إلى الكرك ، وحلف الناس للناصر أحمد ، وقام بأمره ظاهراً وباطناً ثم جاء إلى الفخرى وهو على خان لاجين ، وقوى عزمه وعضده ، ومازال عنده بدمشق إلى أن جاء ألطنبغا من حلب والتقوا ، وهرب ألطنبغا ، فاتبعه آق سنقر إلى غزة وأقام بها ، ووصلت العساكر الشامية إلى مصر .

فلما أمسك الناصر أحمد طشتمر النائب ، وتوجه به إلى الكرك ، أعطى نيابة ديار مصر لآق سنقر ، فباشر النيابة وأحمد فى الكرك . إلى أن ملك الملك الصالح إسماعيل بن محمد ، فأقره على النيابة ، وسار فيها سيرة مشكورة . فكان لايمنع أحداً شيئاً طلبه كائنا من كان ، ولا يرد سائلا يسأل ولو كان ذلك غير ممكن . فارتزق الناس فى أيامه ، واتسعت أحوالهم ، وتقدم من كان متأخراً حتى كان الناس يطلبون مالا حاجة لهم به .

ثم إن الصالح أمسكه هو وبيغرا أمير جاندار وأولاجا الحاجب، وقراجا الحاجب، من أجل أنهم نسبوا إلى الممالأة والمداجاة مع الناصر أحمد، وذلك يوم الخميس رابع المحرم سنة أربع وأربعين وسبعمائة، وكان ذلك آخر العهد به، واستقر بعده فى النيابة الحاج آل ملك. ثم أفرج عن بيغرا وأولاجا وقراجا فى شهر رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة.

جامع آل ملك

هذا الجامع فى الحسينية خارج باب النصر، أنشأه الأمير سيف الدين الحاج آل ملك، وكمل، وأقيمت فيه الخطبة يوم الجمعة تاسع جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، وهو من الجوامع المليحة، وكانت خطته عامرة بالمساكن وقد خربت.

«آل ملك»

الأمير سيف الدين: أصله مما أخذ فى أيام الملك الظاهر من كسب الأبلستين، لما دخل إلى بلاد الروم فى سنة ست وسبعين وستمائة، وصار إلى الأمير سيف الدين قلاوون وهو أمير قبل سلطنته، فأعطاه لابنه الأمير علي. ومازال يترقى فى الخدم إلى أن صار من كبار الأمراء المشايخ رؤوس المشورة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون.

وكان لما خلع الناصر وتسلطن بيبرس يتردد بينهما من مصر إلى الكرك، فأعجب الناصر عقله وتأنيه، وسير من الكرم يقول للمظفر: لايعود يجئ إلى رسولاً غير هذا. فلما قدم الناصر إلى مصر عظمه، ولم يزل كبيراً موقراً مبجلاً.

فلما ولى الناصر أحمد السلطنة أخرجه إلى نيابة حماة، فأقام بها إلى أن تولى الصالح إسماعيل فأقدمه إلى مصر، وأقام بها على حاله إلى أن أمسك الأمير آق سنقر السلارى نائب السلطنة بديار مصر، فولاه النيابة مكانه فشدد فى الخمر إلى الغاية وحد شاربها، وهدم خزانة البنود وأراق خمورها، وبنى بها مسجداً وحكرها للناس، فسكنت إلى اليوم كما تقدم ذكره، وأمسك الزمام زماناً.

وكان يجلس للحكم فى الشباك بدار النيابة فى قلعة الجبل طول نهاره، لايمل ولا يسأم، وتروح أرباب الوظائف ولايبقى عنده إلا النقباء البطالة، وكان له فى قلوب الناس مهابة وحرمة. إلى أن تولى الكامل شعبان، فأخرجه أول سلطنته إلى دمشق نائباً بها عوضاً عن الأمير طقزدمر.

فلما كان فى أول الطريق حضر إليه من أخذه، وتوجه به إلى صفد نائباً بها، فدخلها آخر ربيع الآخر سنة سبع وأربعين وسبعمائة. ثم سأل الحضور إلى مصر، فرسم له بذلك، فلما توجه ووصل إلى غزة أمسكه نائبها، ووجهه إلى الإسكندرية فى سنة سبع وأربعين فخنق بها.

وكان خيراً فيه دين وعبادة، يميل إلى أهل الخير والصلاح وتعتقد بركته، وخرج له أحمد بن أيبك الدمياطى مشيخة، وحدث بها، وقرئت عليه مرات وهو جالس فى شباك النيابة بقلعة الجبل. وعمر هذا الجامع ودارا مليحة عند المشهد الحسينى من القاهرة، ومدرسته بالقرب منها.

وكان بركه من أحسن ما يكون، وخيله مشهورة موصوفة، وكان يقول: كل أمير لايقوم رمحه، ويسكب الذهب إلى أن يساوى السنان، ما هو أمير. . . . رحمة الله عليه.

جامع الفخر

فى ثلاثة مواضع . فى بولاق خارج القاهرة، وفى الروضة تجاه مدينة مصر، وفى جزيرة الفيل على النيل ما بين بولاق ومنية السيرج .

أما جامع الفخر بناحية بولاق فإنه موجود تقام فيه الجمعة إلى اليوم، وكان أولاً عند ابتداء بنائه يعرف موضعه بخط خص الكيالة، وهو مكان كان يؤخذ فيه مكس الغلال المبتاعة، وقد ذكر ذلك عند ذكر أقسام مال مصر من هذا الكتاب .

وجامع الروضة باق تقام فيه الجمعة .

وأما الجامع بجزيرة الفيل فإنه كان باقياً إلى نحو سنة تسعين وسبعمائة . وصليت فيه الجمعة غير مرة ثم خرب، وموضعه باق بجوار دار تشرف على النيل، تعرف بدار الأمير شهاب الدين أحمد بن عمر بن قطية قريباً من الدار الحجازية .

و «**الفخر**» هذا هو محمد بن فضل الله القاضى فخر الدين، ناظر الجيش المعروف بالفخر . كان فى نصرانيته متألها ثم أكره على الإسلام، فامتنع وهم بقتل نفسه وتغيب أياماً ثم أسلم وحسن إسلامه، وأبعد النصاري، ولم يقرب أحداً منهم، وحج غير مرة، تصدق فى آخر عمره مدة فى كل شهر بثلاثة آلاف درهم نقرة .

وبنى عدة مساجد بديار مصر، وأنشأ عدة أحواض ماء للسبيل فى الطرقات وبنى مارستانا بمدينة الرملة، ومارستانا بمدينة بلبيس، وفعل أنواعاً من الخير، وكان حنفى المذهب، وزار القدس عدة مرار، وأحرم مرة من القدس بالحج، وسار إلى مكة محرماً، وكان إذا خدمه أحد مرة واحدة صار صاحبه طول عمر .

وكان كثير الأحسان، لايزال فى قضاء حوائج الناس، مع عصبية شديدة لأصحابة، وانتفع به خلق كثير لوجاهته عند السلطان وإقدامه عليه . بحيث لم يكن لأحد من أمراء الدولة عند الملك الناصر محمد بن قلاوون ما له من الإقدام، ولقد قال السلطان مرة لجندى

طلب منه إقطاعاً لاتطول، والله لو أنك ابن قلاوون ما أعطاك القاصى فخر الدين حيزاً يغل أكثر من ثلاثة آلاف درهم.

وقال له السلطان فى يوم من الأيام وهو بدار العدل: يا فخر الدين تلك القضية طلعت فاشوش فقال له ماقلت لك: إنها عجوز نحس. يريد بذلك بنت كوكاى أمرأة السلطان عندما ادعت أنها حبلي.

وله من الأخبار كثير، وكان أولاً كاتب المماليك السلطانية، ثم صار من كتابة المماليك إلى وظيفة نظر الجيش، ونال من الوجاهة مالم ينله غير من زمانه.

وكان الأمير أرغون، نائب السلطنة بديار مصر، يكرهه، وإذا جلس للحكم يعرض عنه ويدير كتفه إلى وجه الفخر. فعمل عليه الفخر حتى سار للحج، فقال للسلطان يا خوند، ما يقتل الملوك إلا النواب.. بيدرا قتل أخاك الملك الأشرف، ولاجين قتل بسبب نائبه منكوتمر وخيل للسلطان إلى أن أمر بسير الأمير أرغون من طريق الحجاز إلى نيابة حلب.

وحسن للسلطان ألا يستوزر أحداً بعد الأمير بدر الجمالى فلم يول أحداً بعده الوزارة، وصارت المملكة كلها ـ من أحوال الجيوش، وأمور الأموال وغيرها ـ متعلقة بالفخر. إلى أن غضب عليه السلطان ونكبه، وصادره على أربعمائة ألف درهم نقرة، وولى وظيفة نظر الجيش الشيخ قطب الدين موسى ابن شيخ السلامية.

ثم رضى عن الفخر، وأمر بإعادة ما أخذ منه من المال إليه ـ وهو أربعمائة ألف درهم نقره ـ فامتنع وقال: أنا خرجت عنها للسلطان فليبن بها جامعاً، بنى بها الجامع الناصرى ـ المعروف الآن بالجامع الجديد ـ خارج مدينة مصر بموردة الحلفاء.

وزار مرة القدس وعبر كنيسة قمامة، فسمع وهو يقول عندما رأى الضوء بها: ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وباشر آخر عمره بغير معلوم، وكان لا يأخذ من ديوان السلطان معلوماً سوى كماجة، ويقول: أتبرك بها.

ولما مات فى رابع عشر رجب سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، وله من العمر ما ينيف على سبعين سنة، وترك موجوداً عظيماً إلى الغاية.. قال السلطان لعنة الله، خمس عشرة سنة ما

يدعنى أعمل ما أريد. وأوصى للسلطان بمبلغ أربعمائة ألف درهم نقرة، فأخذ من تركته أكثر من ألف ألف درهم نقرة.

ومن حين مات الفخر كثر تسلط السلطان الملك الناصر وأخذه أموال الناس. وإلى الفخر تنسب قنطرة الفخر التى على فم الخليج الناصرى المجاور لميدان السلطان بموردة الجبس، وقنطرة الفخر التى على الخليج المجاور للخليج الناصري، وأدركت ولده فقيراً يتكفف الناس بعد مال لايحد كثرة.

جامع نائب الكرك

هذا الجامع بظاهر الحسينية، مما يلى الخليج، كان عامراً، وعمر ما حوله عمارة كبيرة، ثم خرب بخراب ما حوله من عهد الحوادث فى سنة ست وثمانمائة. عمر الأمير جمال الدين أقوش، والمعروف بنائب الكرك، وقد تقدم ذكره عند ذكر الدور من هذا الكتاب.

جامع الخطيرى ببولاق

هذا الجامع موضعه الآن بناحية بولاق خارج القاهرة. كان موضعه قديماً مغموراً بماء النيل إلى نحو سنة سبعمائة. فلما انحسر ماء النيل عن ساحل المقس، صار ما قدام المقس رمالاً لايعلوها ماء النيل إلا أيام الزيادة ثم صارت بحيث لايعلوها الماء ألبته. فزرع موضع هذا الجامع بعد سنة سبعمائة، وصار متنزهاً يجتمع عنده الناس.

ثم بنى هناك شرف الدين بن زنبور ساقية، وعمر بجوارها رجل يعرف بالحاج محمد ابن عز الفراش دارا تشرف على النيل، وتردد إليها، فلما مات أخذها شخص يقال له تاج الدين بن الأزرق ناظر الجهات، وسكنها، فعرفت بدار الفاسقين لكثرة ما يجرى فيها من أنواع المحرمات.

فاتفق أن النشو ناظر الخاص قبض على ابن الأزرق وصادره، فباع هذه الدار فى جملة ما باعه من موجوده. فاشتراها منه الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى وهدمها، وبنى مكانها هذا الجامع، وسماه جامع التوبة، وبالغ فى عمارته، وتأنق فى رخامه، فجاء من أجل جوامع مصر وأحسنها.

وعمل له منبراً من رخام فى غاية الحسن، وركب فيه عدة شبابيك من حديد تشرف على النيل الأعظم، وجعل فيه خزانة كتب جليلة نفيسة، ورتب فيه درساً للفقهاء الشافعية، ووقف عليه عدة أوقاف منها داره العظيمة التى هى فى الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس.

وكان جملة ما أنفق فى هذا الجامع أربعمائة ألف درهم نقرة، وكملت عمارته فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، وأقيمت به الجمعة فى يوم الجمعة عشرى جمادى الآخرة فلما خلص بن الأزرق من المصادرة حضر إلى الأمير الخطيرى وأدعى أنه باع داره وهو مكره، فدفع إليه ثمنها مرة ثانية.

ثم إن البحر قوى على هذا الجامع وهدمه، فأعاد بناءه بجملة كثيرة من المال، ورمى قدام زريبته ألف مركب مملوءة بالحجارة. ثم انهدم بعد موته، وأعيدت زريبته.

«أيدمر الخطيري»

الأمير عز الدين مملوك شرف الدين أوحد بن الخطيرى الأمير مسعود بن خطير انتقل إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون، فرقاه حتى صار أحد أمراء الألوف، بعدما حبسه بعد مجيئه من الكرك إلى مصر مدة ثم أطلقه، وعظم مقداره إلى أن بقى يجلس رأس الميسرة ومعه إمرة مائة وعشرين فارساً.

كان لا يمكنه السلطان من المبيت فى داره بالقاهرة، فينزل إليها بكرة ويطلع إلى القلعة بعد العصر. كذا أبدا، فكانوا يرون ذلك تعظيماً له، وكان منور الشيبة كريماً، يحب التزوج

الكثير والفخر، بحيث أنه لما زوج السلطان ابنته بالأمير قوصون، ضرب دينارين وزنهما أربعمائة مثقال ذهباً، وعشرة آلاف درهم فضة، برسم نقوط أمرأته فى العرس إذا طلعت إلى زفاف ابنة السلطان على قوصون.

وقيل له مرة هذا السكر الذى يعمل فى الطعام ما يضر أن يعمل غير مكرر، فقال: لايعمل مكرراً، فإنه يبقى فى نفسى أنه غير مكرر.

وكان لايلبس قباء مطرزاً ولا مصقولاً، ولايدع أحداً عنده يلبس ذلك، وكان يخرج الزكاة، وأنشأ بجانب هذا الجامع ربعا كبيراً تنافس الناس فى سكناه. ولم يزل على حاله حتى مات يوم الثلاثاء مستهل شهر رجب سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، ودفن بتربته خارج باب النصر.

ولم يزل هذا الجامع مجمعاً يقصده سائر الناس للتنزه فيه على النيل، ويرغب كل أحد فى السكنى بجواره، وبلغت الأماكن التى بجواره من الأسواق والدور الغاية فى العمارة حتى صار ذلك الخط أعمر أخطاط مصر وأحسنها.

فلما كانت سنة ست وثمانمائة، انحسر ماء النيل عما تجاه جامع الخطيري، وصار رملة لايعلوها الماء إلا فى أيام الزيادة، وتكاثر الرمل تحت شبابيك الجامع، وقربت من الأرض بعدما كان الماء تحته لايكاد يدرك قراره. وهو الآن عامر، إلا أن الاجتماعات التى كانت فيه قبل انحسار النيل عما قبالته قلت، واتضع حال ما يجاوره من السوق والدور. ولله عاقبة الأمور.

جامع قيدان

هذا الجامع خارج القاهرة، على جانب الخليج الشرقي، ظاهر باب الفتوح مما يلى قناطر الأوز تجاه أرض البعل. كان مسجداً قديم البناء، فجدده الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى فى محرم سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وجدد حوض السبيل الذى فيه، ثمّ إن

الأمير مظفر الدين قيدان الرومى عمل به منبراً لإقامة الخطبة يوم الجمعة، وكان عامراً بعمارة ما حوله.

فلما حدث الغلاء فى سنة ست وسبعين وسبعمائة، أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين، خرب كثير من تلك النواحى وبيعت أنقاضها، وكانت الغرقة أيضاً، فصار ما بين القنطرة الجديدة المجاورة لسوق جامع الظاهر، وبين قناطر الأوز المقابلة لأرض البعل، يبابا لاعامر له ولا ساكن فيه.

وخرب أيضاً ما وراء ذلك من شرقيه إلى جامع نائب الكرك، وتعطل هذا الجامع، ولم يبق منه غير جدر آيلة إلى العدم، ثم جدده مقدم بعض المماليك السلطانية فى حدود الثلاثين والثمانمائة، ثم وسع فيه الشيخ أحمد بن محمد الأنصارى العقاد - الشهير بالأزرارى - ومات فى ثانى عشر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة.

جامع الست حدق

هذا الجامع بخط المريس، فى جانب الخليج الكبير مما يلى الغرب، بالقرب من قنطرة السد التى خارج مدينة مصر. أنشأته الست حدق، دادة الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأقيمت يه الخطبة يوم الجمعة لعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين وسبعمائة. وإلى حدق هذه ينسب حكر الست حدق الذى ذكر عند ذكر الأحكار من هذا الكتاب.

جامع ابن غازي

هذا الجامع خارج باب البحر من القاهرة بطريق بولاق. أنشأة نجم الدين بن غازى دلال المماليك، وأقيمت فيه الخطبة فى يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وإلى اليوم تقام فيه الجمعة، وبقية الأيام لايزال مغلق الأبواب لقلة السكان حوله.

جامع التركماني

هذا الجامع فى المقس، وهو من الجوامع المليحة البناء. أنشأه الأمير بدر الدين محمد التركماني، وكان ما حوله عامراً عمارة زائدة، ثم تلاشى من الوقت الذى كان فيه الغلاء زمن الملك الأشرف شعبان بن حسين، وما برح حاله يختل إلى أن كانت الحوادث والمحن من سنة ست وثمانمائة، فخرب معظم ما هنالك، وفيه إلى اليوم بقايا عامرة لاسيما بجوار هذا الجامع.

«التركماني»

محمد، وينعت بالأمير بدر الدين محمد ابن الأمير فخر الدين عيسى التركماني: كان أولاً شاداً، ثم ترقى فى الخدم حتى ولى الجيزة، وتقدم فى الدولة الناصرية. فولاه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون شاد الدواوين، والدولة حينئذ ليس فيها وزير، فاستقل بتدبير الدولة مدة أعوام. وكان يلى نظر الدولة تلك الأيام كريم الدين الصغير، فغض به، ومازال يدبر عليه حتى أخرجه السلطان من ديار مصر، وعمله شاد الدواوين بطرابلس.

فأقام هناك مدة سنتين، ثم عاد إلى القاهرة بشفاعة الأمير تنكز نائب الشام، وولى كشف الوجه البحرى مدة، ثم أعطى إمرة طبلخاناه، وأعطى أخوه على إمرة عشرة، وولده إبراهيم أيضاً إمرة عشرة.

وكان مهاباً صاحب حرمة باسطة وكلمة نافذة. ومات عن سعادة طائلة بالمقس، فى ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، وهو أمير.

جامع شيخو

هذا الجامع بسويقه منعم، فيما بين الصليبة والرميلة، تحت قلعة الجبل. أنشأه الأمير الكبير سيف الدين شيخو الناصري، رأس نوبة الأمراء، فى سنة ست وخمسين وسبعمائة، ورفق بالناس فى العمل فيه وأعطاهم أجورهم، وجعل فيه خطبة، وعشرين صوفيا، وأقام الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود الرومى الحنفى شيخهم. ثم لما عمر الخانقاه تجاه الجامع، نقل حضور الأكمل والصوفية إليها، وزاد عدتهم. وهذا الجامع من أجل جوامع ديار مصر.

«شيخو»

الأمير الكبير سيف الدين، أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون. حظى عند الملك المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون، وزادت وجاهته حتى شفع فى الأمراء، وأخرجهم من سجن الإسكندرية. ثم إنه استقر فى أول دولة الملك الناصر حسن أحد أمراء المشورة.

وفى آخر الأمر كانت القصص تقرأ عليه بحضرة السلطان فى أيام الخدمة، وصار زمام الدولة بيده، فساسها أحسن سياسة بسكون وعدم شر، وكان يمنع كل حزب من الوثوب على الآخر، فعظم شأنه إلى أن رسم السلطان بإمساك الأمير يلبغا روس نائب السلطان بديار مصر وهو مسافر بالحجاز، وكان شيخو قدر خرج متصيداً إلى ناحية طمان بالغربية.

فلما كان يوم السبت رابع عشرى شوال سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، أمسك السلطان الأمير منجك الوزير، وحلف الأمراء لنفسه وكتب تقليد شيخو بنيابة طرابلس، وجهزه إليه مع الأمير سيف الدين طيال الجاشنكير، فسار إليه وسفره، من فوصل إلى دمشق ليلة الثلاثاء رابع ذى القعدة، فظهر مرسوم السلطان بإقامة شيخو فى دمشق على إقطاع الأمير بيلبك السالمي، وبتجهيز بيلبك إلى القاهرة فخرج بيلك من دمشق، وأقام شيخو على إقطاعه بها.

فما وصل بيلبك إلى القاهرة إلا وقد وصل إلى دمشق مرسوم بإمساك شيخو، وتجهيزه إلى السلطان، وتقييد مماليكه واعتقالهم بقلعة دمشق، فأمسك وجهر مقيداً، فلما صل إلى قطيا توجهوا به إلى الإسكندرية. فلم يزل معتقلاً بها إلى أن خلع السلطان الملك الناصر حسن، وتولى أخوه الملك الصالح صالح، فأفرج عن شيخو ومنجك الوزير وعدة من الأمراء، فوصلوا إلى القاهرة فى رابع شهر رجب سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، وأنزل فى الأشرفية بقلعة الجبل واستمر على عادته.

وخرج مع الملك الصالح إلى الشام فى واقعة يلبغا روس، وتوجه إلى حلب هو والأمير طاز وأرغون الكاملى خلف يلبغا روس، وعاد مع السلطان إلى القاهرة، وصمم حتى أمسك يلبغا روس ومن معه من الأمراء بعدما وصلوا إلى بلاد الروم، وحزت رؤوسهم. وأمسك أيضاً بن دلغار، وأحضر إلى القاهرة، ووسط وعلق على باب زويلة.

ثم خرج بنفسه فى طلب الأحدب الذى خرج بالصعيد، وتجاوز فى سفره قوص، وأمسك عدة كثيرة ووسطهم حتى سكنت الفتن بأرض مصر، وذلك فى آخر سنة أربع وخمسين وأول سنة خمس وخمسين، ثم خلع الملك الصالح، وأقام بدله الملك الناصر حسناً فى ثانى شوال، وأخرج الأمير طاز من مصر إلى حلب نائباً بها ومعه أخوته، وصارت الأمور كلها راجعة إليه، وزادت عظمته، وكثرت أمواله وأملاكه ومستأجراته حتى كاد يكاثر أمواج البحر بما ملك، وقيل له قارون عصره وعزيز مصره.

وأنشأ خلقاً كثيراً، فتقوى بذلك حزبة، وجعل فى كل مملكة من جهته عدة أمراء، وصارت نوابه بالشام وفى كل مدينة أمراء كبار، وخدموه حتى قيل كان يدخل كل يوم ديوانه - ومن أقطاعه أملاكه ومستأجراته بالشام وديار مصر - مبلغ مائتى ألف درهم نقرة وأكثر، وهذا شئ لم يسمع مثله فى الدولة التركية، وذلك سوى الإنعامات السلطانية، والتقادم التى ترد إليه من الشام ومصر، وما كان يأخذ من البراطيل على ولاية الأعمال.

وجامعه هذا وخانقاهه التى بخط الصليبة لم يعمر مثلهما قبلهما، ولا عمل فى الدولة التركية مثل أوقافهما، وحسن ترتيب المعاليم بهما.

ولم يزل على حاله إلى أن كان يوم الخميس ثامن شعبان سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، فخرج عليه شخص من المماليك السلطانية المرتجعة عن الأمير منجك الوزير يقال له باي، فجاء وهو جالس بدار العدل، وضربه بالسيف فى وجهه وفى يده. فارتجت القلعة كلها، وكثر هرج الناس حتى مات من الناس جماعة من الزحمة، وركب من الأمراء الكبار عشرة وهم بالسلاح عليهم إلى قبة النصر خارج القاهرة.

ثم أمسك باي، فجاء وقرر، فلم يعترف بشئ على أحد، وقال: أنا قدمت إليه قصة لينقلنى من الجامكية إلى الإقطاع، فما قضى شغلي، فأخذت فى نفسى من ذلك. فسجن مدة، ثم سمر وطيف به الشوارع. وبقى شيخو عليلاً من تلك الجراحة لم يركب، إلى أن مات ليلة الجمعة سادس عشرى ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، ودفن بالخانقاه الشيخونية، وقبره بها يقرأ عنده القرآن دائماً.

جامع الجاكي

هذا الجامع كان بدرب الجاكي، عند سويقة الريش من الحكر، فى بر الخليج الغربي. أصله مسجد من مساجد الحكر، ثم زاد فيه الأمير بدر الدين محمد بن إبراهيم المهمندار، وجعله جامعه، وأقام فيه منبراً فى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة. فصار أهل الحكر يصلون فيه الجمعة إلى أن حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة، فخرب الحكر، وبيعت أنقاض معظم الدور التى هناك.

وتعطل هذا الجامع من ذكر الله وإقامة الصلاة لخراب ما حوله، فحكم بعض قضاة الحنفية ببيع هذا الجامع. فاشتراه شخص من الوعاظ يعرف بالشيخ أحمد الواعظ الزاهد - صاحب جامع الزاهد بخط المقس - وهدمه، وأخذ أنقاضه فعملها فى جامعه الذى بالمقس فى أول سنة سبع عشرة وثمانمائة.

جامع التوبة

هذا الجامع بجوار باب البرقية فى خط بين السورين. كان موضعه مساكن أهل الفساد وأصحاب الرأي. فلما أنشأ الأمير الوزير علاء الدين مغلطاى الجمالى خانقاهه، المعروفة بالجمالية، قريباً من خزانة البنود بالقاهرة، كره مجاورة هذه الأماكن لداره وخانقاهه، فأخذها وهدمها، وبنى هذا الجامع فى مكانها، وسماه جامع التوبة، فعرف بذلك إلى اليوم. وهو الآن تقام فى الجمعة، غير أنه لايزال طول الأيام مغلق الأبواب لخلوه من ساكن، وقد خرب كثير مما يجاوره، وهناك بقايا من أماكن.

جامع صاروجا

هذا الجامع مطل على الخليج الناصرى بالقرب من بركة الحاجب، التى تعرف ببركة الرطلي، كان خطة تعرف بجامع العرب. فأنشأ بها هذا الجامع ناصر الدين محمد، أخو الأمير صاروجا نقيب الجيش، بعد سنة ثلاثين وسبعمائة. وكانت تلك الخطة قد عمرت عمارة زائدة، وأدركت منها بقية جيدة إلى أن دثرت فصارت كيمانا. وتقام الجمعة إلى اليوم فى هذا الجامع أيام النيل.

جامع الطباخ

هذا الجامع خارج القاهرة، بخط باب اللوق بجوار بركة الشقاف، كان موضعه وموضع بركة الشقاف من جملة الزهري. أنشأه الأمير جمال الدين أقوش، وجدده الحاج على الطباخ فى المطبخ السلطانى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، ولم يكن له وقف، فقام بمصالحه من ماله مدة. ثم إنه صودر فى سنة ست وأربعين وسبعمائة، فتعطل مدة نزول الشدة بالطباخ، ولم تقم فيه تلك المدة الصلاة.

«على بن الطباخ»

نشأ بمصر، وخدم الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو بمدينة الكرك. فلما قدم إلى مصر جعله خوان سلار، وسلمه المطبخ السلطاني، فكثر ماله لطول مدته وكثرة تمكنه، ولم يتفق لأحد من نظرائه ما اتفق له من السعادة الطائلة. وذلك أن الأفراح وما كان يصنع من المهمات والأعراس ونحوها، مما كان يعمل فى الدور السلطانية وعند الأمراء والمماليك والحواشي، مع كثرة ذلك فى طول تلك الأعوام.. كانت كلها إنما يتولى أمرها هو بمفرده.

فمما اتفق له فى عمل مهم ابن بكتمر الساقي، على ابنه الأمير تنكز نائب الشام، أن السلطان الملك الناصر استدعاه آخر النهار الذى عمل فيه المهم المذكور، وقال له: يا حاج على اعمل لى الساعة لونا من طعام الفلاحين، وهو خروف رميس يكون ملهوج.

فولى ووجهه معبس، فصاح به السلطان: ويلك. مالك معبس الوجه؟!

فقال: كيف ما أعبس وقد حرمتنى الساعة عشرين ألف درهم نقرة!!

فقال: كيف حرمتك؟

قال: قد تجمع عندى رؤوس غنم وبقر وأكارع وكروش وأعضاد وسقط دجاج وأوز وغير ذلك مما سرقته من المهم، وأريد أقعد وأبيعه، وقد قلت لى أطبخ، وبينا أفرغ من الطبيخ تلف الجميع.

فتبسم السلطان وقال له: رح أطبخ وضمان الذى ذكرت علي.

وأمر بإحضار والى القاهرة ومصر، فلما حضرا ألزمهما بطلب أرباب الزفر إلى القلعة، وتفرقة ما ناب الطباخ من المهم عليهم واستخراج ثمنه. فللحال حضر المذكورون، وبيع عليهم ذلك، فبلغ ثمنه ثلاثة وعشرون ألف درهم نقرة. وهذا مهم واحد من ألوف، مع الذى كان له من المعاليم والجرايات ومنافع المطابخ.

ويقال إنه كان يتحصل له من المطبخ السلطانى فى كل يوم - على الدوام والاستمرار - مبلغ خمسمائة درهم نقرة، ولولده أحمد مبلغ ثلاثمائة درهم نقرة. فلما تحدث النشو فى الدولة خرج عليه تخاريج، وأغرى به السلطان، فلم يسمع فيه كلاماً.

ومازال على حاله إلى أن مات الملك الناصر وقام من بعده أولاده الملك المنصور أبو بكر، والملك الأشرف كجك، والملك الناصر أحمد، والملك الصالح إسماعيل، والملك الكامل شعبان . . . فصادره فى سنة ست وأربعين وسبعمائة، وأخذ منه مالاً كثيراً.

ومما وجد له خمس وعشرون دارا مشرفة على النيل وغيره، فتفرقت حواشى الملك الكامل أملاكه، فأخذت أم السلطان ملكه الذى كان على البحر - وكانت دارا عظيمة جداً - وأخذت أنقاض داره التى بالمحمودية من القاهرة، وأقيم عوضه بالمطبخ السلطاني، وضرب أبنه أحمد.

جامع الأسيوطي

هذا الجامع بطرف جزيرة الفيل، مما يلى ناحية بولاق، كان موضعه فى القديم غامراً بماء النيل. فلما انحسر عن جزيرة الفيل، وعمرت ناحية بولاق، أنشأ هذا الجامع القاضى شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عمر السيوطى ناظر بيت المال، ومات فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة.

ثم جدد عمارته بعدما تهدم وزاد فيه ناصر الدين محمد بن محمد بن عثمان بن محمد - المعروف بابن البارزى - الحموى كاتب السر، وأجرى فيه الماء، وأقام فيه الخطبة يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة. فجاء فى أحسن هندام وأبدع زي، وصلى فيه السلطان الملك المؤيد شيخ الجمعة فى أول جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة.

جامع الملك الناصر حسن

هذا الجامع يعرف بمدرسة السلطان حسن. وهو تجاه قلعة الجبل فيما بين القلعة وبركة الفيل، وكان موضعه بيت الأمير يلبغا اليحياوى الذى تقدم ذكره عند ذكر الدور.

وابتدأ السلطان عمارته فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة، وأوسع دوره، وعمله فى أكبر قالب وأحسن هندام وأضخم شكل. فلا يعرف فى بلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع. أقامت العمارة فيه مدة ثلاث سنين لاتبطل يوماً واحداً، وأرصد لمصروفها فى كل يوم عشرون ألف درهم: عنها نحو ألف مثقال ذهباً.

ولقد أخبرنى الطواشى مقبل الشامى أنه سمع السلطان حسنا يقول: انصرف على القالب الذى بنى عليه عقد الإيوان الكبير مائة ألف درهم نقرة. وهذا القالب مما رمى على الكيمان بعد فراغ العقد المذكور.

قال: وسمعت السلطان يقول: لولا أن يقال ملك مصر عجز عن إتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه.

وفى هذا الجامع عجائب من البنيان: منها أن ذراع أيوانه الكبير خمسة وستون ذراعاً فى مثلها - ويقال إنه أكبر من إيوان كسرى الذى بالمدائن من العراق بخمسة أذرع - ومنها القبة العظيمة التى لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها، ومنها المنبر الرخام الذى لانظير له، ومنها البوابة العظيمة، ومنها المدارس الأربع التى بدور قاعة الجامع... إلى غير ذلك.

وكان السلطان قد عزم على أن يبنى أربع منابر يؤذن عليها، فتمت ثلاث منابر. إلى أن كان يوم السبت سادس شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وستين وسبعمائة، فسقطت المنارة التى على الباب، فهلك تحتها نحو ثلاثمائة نفس من الأيتام الذين كانوا قد رتبوا بمكتب السبيل الذى هناك ومن غير الأيتام، وسلم من الأيتام ستة أطفال. فأبطل السلطان بناء هذه المنارة وبناء نظيرتها، وتأخر هناك منارتان هما قائمتان إلى اليوم.

ولما سقطت المنارة المذكورة، لهجت عامة مصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة، فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد أحمد بن علي بن محمد السبكي في سقوطها :

أبشر فسعدك ياسلطان مصر أتي
بشـــيره بمقال سار كالمثل
إن المنـــارة لم تســـقط لمنقصه
لكن لسر خفى قد تبين لي
من تحتها قرئ القرآن فاستمعت
فالوجد في الحال أداها إلى الميل
لو أنزل الله قرآنا على جبـــل
تصدعت رأسه من شدة الوجل
تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت
من خشية الله لا للضعف والخلل
وغاب سلطانها فاستوحشت ورمت
بنفسها لجوى في القلب مشتعل
فالحمد لله حظ العين زال بما
قد كان قدره الرحمن في الأزل
لايعترى البؤس بعد اليوم مدرسة
شيدت بنيانها بالعلم والعمل
ودمت حتى ترى الدنيا بها امتلأت
علماً فليس بمصر غير مشتغل

فاتفق قتل السلطان بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوماً. ومات السلطان قبل أن يتم رخام هذا الجامع، فأتمه من بعده الطواشى بشير الجمدار. وكان قد جعل السلطان على هذا الجامع أوقافاً عظيمة جداً، فلم يترك منها إلا شئ يسير، وأقطع أكثر البلاد التى وقفت عليها بديار مصر والشام لجماعة من الأمراء وغيرهم.

وصار هذا الجامع ضد القلعة الجبل. . قلما تكون فتنة بين أهل الدولة ألا ويصعد عدة من الأمراء وغيرهم إلى أعلاه، ويصير الرمى منه على القلعة. فلم يحتمل ذلك الملك الظاهر برقوق، وأمر فهدمت الدرج التى كان يصعد منها إلى المنارتين والبيوت التى كان يسكنها الفقهاء، ويتوصل من هذه الدرج إلى السطح الذى كان يرمى منه على القلعة، وهدمت البسطة العظيمة والدرج التى كانت بجانبى هذه البسطة التى كانت قدام باب الجامع حتى لايمكن الصعود إلى الجامع.

وسد من وراء الباب النحاس الذى لم يعمل فيما عهد باب مثله، وفتح شباك من شبابيك أحد مدارس هذا الجامع، ليتوصل منه إلى داخل الجامع عوضاً عن الباب المسدود. فصار هذا الجامع تجاه باب القلعة المعروف بباب السلسلة، وامتنع صعود المؤذنين إلى المنارتين، وبقى الأذان على درج هذا الباب. وكان ابتداء هدم ما ذكر فى يوم الأحد ثامن صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة.

ثم لما شرع السلطان الملك المؤيد شيخ فى عمارة الجامع بجوار باب زويلة، اشترى هذا الباب النحاس والتنور النحاس الذى كان معلقاً هناك بخمسمائة دينار، ونقلاً فى يوم الخميس سابع عشرى شوال سنة تسع عشرة وثمانمائة، فركب الباب على البوابة، وعلق التنور تجاه المحراب. فلما كان فى يوم الخميس تاسع شهر رمضان سنة خمس وعشرين وثمانمائة، أعيد الأذان فى المئذنتين كما كان، وأعيد بناء الدرج والبسطة، وركب باب بدل الباب الذى أخذه المؤيد، واستمر الأمر على ذلك.

«الملك الناصر أبو المعالى الحسن بن محمد بن قلاوون»

جلس على تخت الملك وعمره ثلاث عشرة سنة، فى يوم الثلاثاء رابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، بعد أخيه الملك المظفر حاجي، وأركب من باب الستارة بقلعة الجبل، وعليه شعار السلطنة، وفى ركابه الأمراء، إلى أن نزل بالإيوان السلطاني. ومدبرو الدولة يومئذ: الأمير يلبغا روس، والأمير أجيبغا المظفري، والأمير شيحو، والأمير طاز، وأحمد شاد الشرابخاناه، وأرغون الإسماعيلي.

فخلع على يلبغاروس، واستقر فى نيابة السلطنة بديار مصر عوضاً عن الحاج أرقطاي، وقرر أرقطاى فى نيابة السلطنة بحلب، وخلع على الأمير سيف الدين منجك اليوسفى واستقر فى الوزارة والأستادارية، وقرر الأمير أرغون شاه فى نيابة السلطنة بدمشق.

فلما دخلت سنة تسع وأربعين كثر انكشاف الأراضى من ماء النيل بالبر الشرقي، فيما يلى بولاق إلى مصر، فاهتم الأمراء بسد البحر مما يلى الجيزة، وفوض ذلك للأمير منجك، فجمع مالاً كثيراً وأنفقه على ذلك فلم يفد، فقبض على منجك فى ربيع الأول.

وحدث الوباء العظيم فى هذه السنة، وأخرج أحمد شاد الشرابخاناه لنيابة صفد، وأجيبغا لنيابة طرابلس. فاستمر أجيبغا بها إلى شهر ربيع الأول سنة خمسين، فركب إلى دمشق، وقتل أرغون شاه بغير مرسوم، فأنكر عليه وأمسك، وقتل بدمشق.

وفى سنة إحدى وخمسين سار من دمشق عسكر عدته أربعة آلاف فارس، ومن حلب ألفاً فارس إلى مدينة سنجار، ومعهم عدة كثيرة من التركمان، فحصروها مدة حتى طلب أهلها الأمان ثم عادوا. وترشد السلطان، واستبد بأمره، وقبض على منجك ويلبغا روس، وقبض بمكة على الملك المجاهد صاحب اليمن وقيد، وحمل إلى القاهرة فأطلق، ثم سجن بقلعة الكرك.

فلما كان يوم الأحد سابع عشر جمادى الآخرة، ركب الأمراء على السلطان ـ وهم طاز واخوته، ويلبغا الشمسي، وبيغرا ـ ووقفوا تحت القلعة، وصعد الأمير طاز وهو لابس إلى القلعة فى عدة وافرة، وقبض على السلطان وسجنه بالدور، فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر. وأقيم بدله أخوه الملك الصالح صالح.

فأقام السلطان حسن مجمعا على الاشتغال بالعلم، وكتب بخطه نسخة من كتاب «دلائل النبوة» للبيهقي، إلى يوم الأثنين ثانى شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة، فأقامة الأمير شيخو العمرى فى السلطنة، وقبض على الصالح - وكانت مدة سجنه ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً - فرسم بإمساك الأمير طاز وإخراجه لنيابة حلب.

وفى ربيع الأول سنة سبع وخمسين، هبت ريح عاصفة من ناحية الغرب - من أول النهار إلى آخر الليل - أصفر عنها الجو ثم أحمر ثم أسود، فتلف منها شئ كثير.

وفى شعبان سنة تسع وخمسين ضرب الأمير شيخو بعض المماليك بسيف، فلم يزل عليلاً حت مات.

وفى سنة تسع وخمسين، كان ضرب الفلوس الجدد، فعمل كل فلس زنة مثقال. وقبض على الأمير طاز نائب حلب، وسجن بالإسكندرية، وقرر مكانه فى نيابة حلب الأمير منجلك اليوسفي، وأمسك الأمير صرغتمش فى شهر رمضان منها، وكانت حرب بين مماليكه ومماليك السلطان انتصر فيها المماليك السطانية، وقبض على عدة أمراء، فأنعم السلطان على مملوكه يلبغا العمرى الخاصكى بتقدمه ألف، عوضاً عن تنكز بغا الماردانى أمير مجلس بحكم وفاته.

وفى سنة ستين فر منجك من حلب فلم يوقف به على خبر. فأقر على نيابة حلب الأمير بيدمر الخوارزمي، وسار لغزو سيس، فأخذ أدنه بأمان، وأخذ طرسوس والمصيصة وعدة بلاد، وأقام بها نوابا وعاد. فلما كانت سنة اثنتين وستين عدى السلطان إلى بر الجيزة، وأقام بناحية كوم برا مدة طويلة لوباء كان بالقاهرة. فتنكر الحال بينه وبين الأمير يلبغا إلى ليلة الأربعاء تاسع جمادى الأولي، فركب السلطان فى جماعة ليكبس على الأمير يلبغا - وكان قد أحس بذلك وخرج عن الخيام، وكمن بمكان وهو لابس فى جماعته - فلم يظفر السلطان به ورجع.

فثار به يلبغا فانكسر بمن معه، وفر يريد قلعة الجبل، فتبعه يلبغا، وقد انضم إليه جمع كثير، ودخل السلطان إلى القلعة فلم يثبت، وركب معه أيدمر الدوادار ليتوجه إلى بلاد الشام، ونزل إلى بيت الأمير شرف الدين موسى بن الأركشى أمير حاجب، فبعث فى الحال

إلى الأمير يعلمه بمجئ السلطان اليه، فبعث من قبضه هو والأمير أيدمر. ومن حينئذ لم يوقف له على خبر ألبته، مع كثرة فحص أتباعة، وحواشيه عن قبره وما آل إليه أمره. فكانت مدة ولايته هذه الثانية ست سنين وسبعة أشهر وأياماً.

وكان ملكاً حازماً مهاباً شجاعاً، صاحب حرمه وافرة، وكلمة نافذة ودين متين، حلف غير مرة أنه ما لاط ولا شرب خمراً ولازني. إلا أنه كان يبخل، ويعجب بالنساء ولايكاد يصبر عنهن، ويبالغ فى إعطائهن المال.

وعادى فى دولته أقباط مصر، وقصد اجتثاث أصلهم، وكره المماليك، وشرع فى إقامة أولاد الناس أمراء، وترك عشرة بنين وست بنات. وكان أشقر أنمش، وقتل وله من العمر بضع وعشرون سنة، ولم يكن قبله ولا بعده فى الدولة التركية مثله.

جامع القرافة

هذا الجامع يعرف الآن بجامع الأولياء، وهو بالقرافة الكبري، وكان موضعه يعرف فى القديم عند فتح مصر بخطة المغافر، وهو مسجد بنى عبدالله بن مانع بن مورع، يعرف بمسجد القبة.

قال القضاعي: كان القراء يحضرون فيه، ثم بنى عليه المسجد الجامع الجديد.. بنته السيدة المعزية فى سنة ست وستين وثلاثمائة - وهى أم العزيز بالله نزار ولد المعز لدين الله: أم ولد من العرب يقال له تغريد، وتدعى درزان - وبنته على يد الحسن بن عبدالعزيز الفارسى المحتسب فى شهر رمضان من السنة المذكورة. وهو على نحو بناء الجامع الأزهر بالقاهرة.

وكان بهذا الجامع بستان لطيف فى غربيه وصهريج. وبابه الذى يدخل منه ذو المصاطب الكبير الأوسط، تحت المنار العالى الذى عليه، مصفح بالحديد إلى حضرة المحراب. والمقصورة من عدة أبواب، وعدتها أربعة عشر بابا مربعة مطوبة الأبواب، قدام كل باب

قنطرة قوس على عمودى رخام ثلاثة صفوف. وهو مكندج مزوق باللازورد والزنجفر والزنجار وأنواع الأصباغ، وفيه مواضع مدهونة، والسقوف مزوقة ملونة كلها، والحنايا والعقود التى على العمد مزوقة بأنواع الأصباغ. . . من صنعة البصريين، وبنى المعلم المزوقين شيوخ الكتامى والنازوك.

وكان قبالة الباب السابع من هذه الأبواب قنطرة قوس مزوقة، فى منحنى حافتيها شاذروان مدرج بدرج، وآلات سود وبيض وحمر وخضر وزرق وصفر. إذا تطلع إليها من وقف فى سهم قوسها، شائلاً رأسه إليها، ظن أن المدرج المزوق كأنه خشب كالمفرنص. وإذا أتى إلى أحد قطرى القوس نصف الدائرة، ووقف عند أول القوس منها ورفع رأسه، رأى ذلك الذى توهمه مسطحاً لاتتوفيه. . وهذه من أفخر الصنائع عند المزوقين. وكانت هذه القنطرة من صنعة بنى المعلن، وكان الصناع يأتون إليها ليعملوا مثلها فما يقدرون.

وقد جرى مثل ذلك للقصير وابن عزيز فى أيام البازوري، سيد الوزراء، الحسن بن على بن عبدالرحمن، وكان كثيراً ما يحرض بينهما، ويغرى بعضهما على بعض، لأنه كان أحب ما إليه كتاب مصور أو النظر إلى صورة أو تزويق. ولما استدعى أبن عزيز من العراق فأفسده، وكان قد أتى به فى محاربة القصير، لأن القصير كان يشتط فى أجرته ويلحقه عجب فى صنعته، وهو حقيق بذلك، لأنه فى عمل الصورة كابن مقلة فى الخط، وابن عزيز كابن البواب.

وقد أمعن شرح ذلك فى الكتاب المؤلف فيه، وهو طبقات المصورين المنعوت بـ «ضوء النبراس وأنس الجلاس فى أخبار المزوقين من الناس».

وكان البازورى قد أحضر بمجلسه القصير وابن عزيز، فقال ابن عزيز: أنا أصور صورة إذا رآها الناظر ظن أنها خارجة من الحائط.

فقال القصير: لكن أنا أصورها فإذا نظرها الناظر ظن أنها داخلة فى الحائط.

فقالوا: هذا أعجب.

فأمرهما أن يصنعا ما وعدا به.

فصورا صورة راقصتين فى صورة حنيتين مدهونتين متقابلتين . هذه ترى كأنها داخلة فى الحائط ، وتلك ترى كأنها خارجة من الحائط . فصور القصير راقصة بثياب بيض فى صورة حنية دهنها أسود ، كأنها داخلة فى صورة الحنية ، وصور ابن عزيز راقصة بثياب حمر فى صورة حنية صفرا كأنها بارز من الحنية ، فاستحسن البازورى ذلك ، وخلع عليهما ، ووهبهما كثيراً من الذهب .

وكان بدار النعمان بالقرافة ، من عمل الكتامي ، صورة يوسف عليه السلام فى الجب وهو عريان والجب كله أسود ، إذا نظره الإنسان ظن أن جسمه باب من دهن لون الجب .

وكان هذا الجامع من محاسن البناء ، كان بنو الجوهرى يعظون بهذا الجامع على كرسى فى الثلاثة أشهر ، فتمر لهم مجالس مبجلة تروق وتشوق ، ويقوم خادمهم زهر البان - وهو شيخ كبير - ومعه رنجله ، إذا توسط أحدهم فى الوعظ ، ويقول :

وتصدقى لا تأمنى أن تأسلي

فإذا سألت عرفت ذل السائل

ويدور على الرجال والنساء ، فيلقى له فى الزنجلة ما يسره الله تعالي ، فإذا فرغ من التطواف ، وضع الزنجلة أمام الشيخ ، فإذا فرغ من وعظه فرق على الفقراء ما قسم لهم ، وأخذ الشيخ ما قسم له وهو الباقي ، ونزل عن الكرسي .

وكان جماعة من الرؤساء يلزمون النوم بهذا الجامع ، ويجلسون فى ليالى الصيف للحديث فى القمر فى صحنه ، وفى الشتاء ينامون عند المنبر ، وكان يحصل لقيمه القاضى أبى حفص الأشربة والحلوى وغير ذلك .

قال الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة : حدثنى الأمير أبو على تاج الملك جوهر - المعروف بالشمس - الجيوشي ، قال : اجتمعنا ليلة جمعة وجماعة من الأمراء بنو معز الدولة وصالح وحاتم وراجح وأولادهم غلمانهم ، وجماعة ممن يلوذ بنا كابن الموفق القاضى وابن داود وأبى المجد بن الصيرفى أبى الفضل روزبة ، وأبى الحسن الرضيع . فعملنا سماطا وجلسنا ، واستدعينا بمن فى الجامع وأبى حفص فأكلنا ، ورفعنا الباقى إلى بيت الشيخ أبى حفص قيم الجامع ، ثم تحدثنا ونمنا .

وكانت ليلة باردة، فنمنا عند المنبر. وإذا إنسان نصف الليل، ممن نام فى هذا الجامع من عابرى السبيل، قد قام قائماً وهو يلطم على رأسه، ويصيح: وامالاه، وامالاه !!

فقلنا له: ويلك ما شأنك، وما الذى دهاك، ومن سرقك، وما سرق لك؟

فقال ؟ يا سيدى أنا رجل من أهل طرا، يقال لى أبو كريت الحاوي، أمسى على الليل ونمت عندكم، وأكلت من خيركم - وسع الله عليكم - ولى جمعه أجمع فى سلتى من نواحى طرا، والحى الكبيبر والجبل، كل غريبة من الحيات والأفاعي، لم يقدر عليه قط حاوى غيري، وقد أنفرجت الساعة السلة، وخرجت الأفاعى وأنا نائم لم أشعر :

فقلت له : ايش تقول ؟

فقال : أى والله ، يا للنجدات !!

فقلنا : يا عدو الله أهلكتنا ومعنا صبيان وأطفال.

ثم إنا نبهنا الناس، وهربنا إلى المسير وطلعنا وازدحمنا فيه، ومنا من طلع على قواعد العمد فتسلق وبقى واقفا.

وأخذ ذلك الحاوى يحسس، وفى يده كنف الحيات، ويقول قبضت الرقطاء ثم يفتح السلة ويضع فيها، ثم يقول قبضت أم قرنين ويفتح ويضع فيها، ويقول قبضت الفلانى والفلانية من الشعابين والحيات - وهى معه بأسماء - ويقول: أبو تليس وأبو زعير، ونحن نقول : أيه . . . إلى أن قال: بس انزلوا ما بقى يهمكم كبير شئ.

قلنا : كيف ؟

قال : ما بقى إلا البتراء وأم رأسين، انزلوا فما عليكم منهما.

قلنا : كذا، عليك لعنة الله يا عدو الله، لا نزلنا للصبح، فالمغرور من تغر.

وصحنا بالقاضى أبى حفص القيم، فأوقد الشمعة، ولبس صباغات الخطيب خوفا على رجليه وجاءنا فتنزلنا فى الضوء، وطلعنا المئذنة فنمنا إلى بكرة، وتفرق شملنا بعد تلك الليلة.

وجمع القاضى القيم عياله ثانى يوم، وأدخلوا عصيا تحت المنبر وسعفا، وشالوا الحصر، فلم يظهر لهم شئ، وبلغ الحديث والى القرافة ابن شعلة الكتامي، فأخذ الحاوي، فلم يزل به حتى جمع ما قدر عليه، وقال: ما أخليه إلا إلى السلطان، وكان الوزير إذ ذاك يانس الأرمني.

وهذه القضية تشبه قضية جرت لجعفر بن الفضل بن الفرات وزير مصر - المعروف بابن حزابة - وذلك أنه أنه كان يهوى النظر إلى الحيات والأفاعي والعقارب وأم أربعة وأربعين وما يجرى هذا المجرى من الحشرات، وكان فى داره قاعة لطيفة مرخمة فيها سلل الحيات، ولها قيم فراش حاو من الحواة، ومعه مستخدمون برسم الخدمة ونقل السلال وحطها.

وكان كل حاو فى مصر وأعمالها يصيد ما يقدر عليه من الحيات، ويتباهون فى ذوات العجب من أجناسها وفى الكبار وفى الغريبة المنظر. وكان الوزير يثيبهم على ذلك أوفى ثواب، ويبذل لهم الجمل حتى يجهتدوا فى تحصيلها، وكان له وقت يجلس فيه على دكة مرتفعة، ويدخل المستخدمون والحواة، فيخرجون ما فى السلل ويطرحونه على ذلك الرخام ويحرشون بين الهواء، وهو يتعجب من ذلك ويستحسنه.

فلما كان ذات يوم أنفذ رقعة إلى الشيخ الجليل ابن المدبر الكاتب - وكان من أعيان كتاب أيامه وديوانه، وكان عزيزا عنده، وكان يسكن إلى جوار دار أبن الفرات ويقول له فيها «نشعر الشيخ الجليل - أدام الله سلامته - أنه لما كان البارحة عرض علينا الحواة الحشرات الجارى بها العادات. انساب إلى دارة منها الحية السوداء وذات الفرنين والعقربان الكسر وأبو صوفه، وما حصلوا لنا إلا بعد عناء ومشقة، وبجملة بذلتاها للحواة، ونحن نأمر الشيخ - وفقه الله - بالتقدم إلى حاشيته وصبيته بصون ما وجد منها، إلى أن تنفذ الحواة لأخذها وردها إلى سللها».

فلما وقف أن المدبر على الرقعة قلبها، وكتب فى ذيلها «أتانى أمر سيدنا الوزير - خلد الله نعمته وحرس مدته - بما أشار إليه فى أمر الحشرات، والذى يعتمد عليه فى ذلك، أن الطلاق يلزمه ثلاثاً إن بات هو وأحد من أهله فى الدار، والسلام».

وفى سنة ست عشرة خمسمائة أمر الوزير أبو عبدالله محمد بن فاتك ـ المنعوت ـ بالأجل المأمون البطائحى ـ وكيلة أبا البركات محمد ابن عثمان برم شعث هذا الجامع، وأن يعمر بجانبه طاحوناً للسبيل، ويبتاع لها الدواب، ويتخير من الصالحين الساكنين بالقرافة من يجعله أمينا عليها، ويطلق له ما يكفيه مع علف الدواب وجميع المؤن، ويشترط عليه أن يواسى بين الضعفاء، ويحمل عنهم كلفة طحن أقواتهم، ويؤدى الأمانة فيها.

ولم يزل هذا الجامع على عمارته إلى أن احترق فى السنة التى أحرق فيها جامع عمرو بن العاص سنة أربع وستين وخمسمائة، بنزول مرى ملك الفرنج على القاهرة وحصارها، كما تقدم ذكره عند ذكر خراب الفسطاط من هذا الكتاب، وكان الذى تولى إحراق هذا الجامع، ابن سماقة بإشارة الأستاذ مؤتمن الخلافة جوهر، وهو الذى أمر المذكور بحريق جامع عمرو بمصر، وسئل عند لك فقال: لئلا يخطب فيه لبنى العباس.

ولم يبق من هذا الجامع بعد حريقة سوى المحراب الأخضر، وكان مؤذن هذا الجامع فى أيام المستنصر ابن بقاء المحدث ابن بنت عبدالغنى بن سعيد الحافظ، ثم جددت عمارة هذا الجامع فى أيام المستنصر بعد حريقه وأدركته لما كانت القرافة الكبرى عامرة بسكنى السودان التكاررة، وهو مقصود للبركة. فلما كانت الحوادث والمحن فى سنة ست وثمانمائة قل الساكن بالقرافة، وصار هذا الجامع طول الأيام مغلوقاً، وربما أقيمت فيه الجمعة.

جامع الجيزة

بناه محمد بن عبدالله الخازن، فى المحرم سنة خمسين وثلاثمائة، بأمر الأمير على بن عبدالله بن الإخشيد. فتقدم كافور إلى الخازن ببنائه، فإنه كان قد هدمه النيل، وسقط فى سنة أربعين وثلاثمائة، وعمل له مستغلاً. وكان الناس قبل ذلك بالجيزة يصلون الجمعة فى مسجد جامع همدان، وهو مسجد مزاحف بن عامر بن بكتل، وقيل إن عقبة بن عامر فى إمرته على مصر أمرهم أن يجمعوا فيه.

قال التميمى: وشارف بناء جامع الجيزة مع أبى بكر الخازن أبو الحسن بن جعفر الطحاوي، واحتاجوا إلى عمد للجامع، فمضى الخازن فى الليل إلى كنيسة بأعمال الجيزة،

فقطع عمدها ونصب بدلها أركاناً، وحمل العمد إلى الجامع. فترك أبو الحسن بن الطحاوى الصلاة فيه مذ ذاك تورعاً.

قال التميمى: وقد كان (يعنى ابن الطحاوي) يصلى فى جامع الفسطاط القديم، وبعض عمده أو أكثرها ورخامه من كنائس الإسكندرية وأرياف مصر، وبعضه بناء قرة بن شريك عامل الوليد بن عبدالملك.

جامع منجك

هذا الجامع يعرف موضعه بالثغرة تحت قلعة الجبل خارج باب الوزير. أنشأه الأمير سيف الدين منجك اليوسفي، فى مدة وزارته بديار مصر، فى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، وصنع فيه صهريجاً فصار يعرف إلى اليوم بصهريج منجك، ورتب فيه صوفية، وقرر لهم فى كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً، وفى كل شهر معلوماً، وجعل فيه منبراً، ورتب فيه خطيباً يصلى بالناس فيه صلاة الجمعة.

وجعل على هذا الموضع عدة أوقاف. منها ناحية بلقينة بالغربية، وكانت مرصدة برسم الحاشية، فقومت بخمسة وعشرين ألف دينار، فاشتراها من بيت المال، وجعلها وقفاً على هذا المكان.

«منجك»

الأمير سيف الدين اليوسفى: لما امتنع أحمد ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون بالكرك، وقام فى مملكة مصر بعده أخوه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، وكان من محاصرته بالكرك ما كان إلى أن أخذ... فتوجه إليه وقطع رأسه، وأحضرها إلى مصر - وكان حينئذ أحد السلاحدارية - فأعطى إمرة بديار مصر، وتنقل فى الدول.

إلى أن كانت سلطنة الملك المظفر حاجى ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، فأخرجه من مصر إلى دمشق، وجعله حاجباً بها موضع أبن طغريل. فلما قتل الملك المظفر، وأقيم بعده أخوه الملك الناصر حسن، أقيم الأمير سيف الدين يلبغا روس فى نيابة السلطنة بديار مصر - وكان أخا منجك - فاستدعاه من دمشق، وحضر إلى القاهرة فى ثامن شوال سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، فرسم له بإمرة تقدمة ألف، وخلع عليه خلع الوزارة.

فاستقر وزيراً وأستادارا، وخرج فى دست الوزارة والأمراء فى خدمته من القصر إلى قاعة الصاحب بالقلعة، فجلس بالشباك، ونفذ أمور الدولة. ثم اجتمع الأمراء، وقرأ عليهم أوراقاً تتضمن ما على الدولة من المصروف، ووفر من جامكية المماليك مبلغ ستين ألف درهم فى الشهر، وقطع كثيراً من جوامك الخدم والجوارى والبيوتات السلطانية، ونقص رواتب الدور من زوجات السلطان وجواريه، وقطع رواتب الأغاني.

وعرض الأصطبل السلطاني، وقطع منه عدة أميراخورية وسراخورية وسواس وغلمان، ووفر من راتب الشعير نحو الخمسين أردباً فى كل يوم، وقطع جميع الكلابزية وكانوا خمسين جوقة، وأبقى منهم جوقتين، ووفر جماعة من الأسرى والعتالين والمستخدمين فى العمائر، وأبطل العمارة من بيت السلطان. وكانت الحوائجخاناه تحتاج فى كل يوم إلى أحد وعشرين ألف درهم نقرة، فاقتطع منها مبلغ ثلاثة آلاف درهم، وبقى مصروفها فى اليوم ثمانية عشر ألف درهم نقرة.

وشرع ينكث على الدواوين، ويحط على القاضى موفق الدين ناظر الدولة، وعلى القاضى علم الدين بن زنبور ناظر الخواص، ورسم ألا يستقر فى المعاملات سوى شاهد واحد وعامل وشاد بغير معلوم، وأغلظ على الكتاب والدواوين وهددهم وتوعدهم فخافوه واجتمع بعضهم ببعض، واشتوروا فى أمرهم، واتفقوا على مال يتوزعونه بينهم على قدر حال كل منهم، وحملوه إلى منجك سرا. فلم يمض من استقراره فى الوزارة شهر حتى صار الكتاب وأرباب الدواوين أحباءه وأخلاءه، وتمكنوا منه أعظم ما كانوا قبل وزاراته، وحسنوا له أخذ الأموال.

فطلب ولاة الأقاليم، وقبض على أقبغا والى العربية، وألزمه بحمل خمسمائة ألف درهم نقرة، وولى عوضه الأمير أستدمر القلنجي، ثم صرفه وولى بدله قطليجا مملوك

بكتمر، واستقر بأستدمر القلنجي فى ولاية القاهرة، وأضاف له التحدث فى الجهات، وولى البحرية لرجل من جهته، وولى قوص لآخر، وأوقع الحوطة على موجود إسماعيل الواقدى متولى قوص، وأخذ جميع خواصه، وولى طغاى كشف الوجه القبلى عوضاً عن علاء الدين على بن الكوراني، وولى أبن المزوق قوص وأعمالها، وولى مجد الدين موسى الهدبانى الأشمونين عوضاً عن ابن الأزكشي.

وتسامعت الولاة وأرباب الأعمال بأن الوزير فتح باب الأخذ على الولايات فهرع الناس إليه من جهات مصر والشام وحلب وقصدوا بابه. ورتب عنده جماعة برسم قضاء الأشغال، فأتاهم أصحاب الأشغال والحوائج.

وكان السلطان صغيراً حظه من السلطنة أن يجلس بالإيوان يومين فى الأسبوع، ويجتمع أهل الحدو العقد مع سائر الأمراء فيه. فإذا انقضت خدمة الإيوان خرج الأمير منكليبغا الفحرى والأمير بيغرا والأمير يلبغا تتر والمجدى أرلان وغيرهم من الأمراء، ويدخل إلى القصر الأمير يلبغا روس نائب السلطنة والأمير سيف الدين منحك الوزير والأمير سيف الدين شيخو العمرى والأمير ألجيبغا المظفرى والأمير طيبرق، ويتفق الحال بينهم على ما يرونه.

هذا والوزير أخو النائب متمكن تمكناً زائداً. وقدم من دمشق جماعة للسعى عند الوزير فى وظائف - منهم أبن السلعوس، وصلاح الدين بن المؤيد، وابن الأجل، وابن عبدالحق - وتحدثوا مع أبن الأطروش محتسب القاهرة فى أغراضهم، فسعى لهم حتى تقرروا فيما عينوا.

ولما دخلت سنة تسع وأربعين، عرف الوزير السلطان والأمراء أنه لما ولى الوزارة لم يجد فى الأهراء ولا فى بيت المال شيئاً، وسأل أن يكون هذا بمحضر من الحكام. فرسم للقضاة بكشف ذلك، فركبوا إلى الأهراء بمصر وإلى بيت المال بقلعة الجبل، وقد حضر الدواوين وسائر المباشرين، وأشهدوا عليهم أن الأمير منجك لما باشر الوزارة لم يكن بالأهراء ولا ببيت المال قدح غلة ولا دينار ولا درهم، وقرئت المحاضر على السلطان والأمراء.

فلما كان بعد ذلك توقف أمر الدولة على الوزير، فشكا إلى الأمراء من كثرة الرواتب. فاتفق الرأى على قطع نحو ستين سواقا، فقطعهم، ووفر لحومهم وعليقهم وسائر ما

باسمهم من الكساوى وغيرها. وقطع من العرب الركابة والنجابة، ومن أرباب الوظائف فى بيت السلطان ومن الكتاب والمباشرين، ما جملته فى اليوم أحد عشر ألف درهم.

وفتح باب المقايضات بإقطاعات الأجناد، وباب النزول عن الإقطاعات بالمال، فحصل من ذلك مالاً كثيراً، وحكم على أخيه نائب السلطنة بسبب ذلك، وصار الجندى يبيع إقطاعه لكل من أراد. سواء كان المنزول له جندياً أو عاميا، وبلغ ثمن الإقطاع من عشرين ألف درهم إلى ما دونها.

وأخذ يسعى أن تضاف وظيفة نظر الخاص إلى الوزارة، وأكثر من الحط على ناصر الخاص، فاحترس ابن زنبور منه، وشرع فى إبعاده مرة بعد مرة مع الأمير شيخو. فمنع شيخو منجك من التحدث فى الخاص وخرج عليه، فشق ذلك على منجك، وافترقا عن غير رضا.

فتغير يلبغا روس النائب على شيخو رعاية لأخيه، وسأل أن يعفى من النيابة، ويعفى منجك من الوزارة، واستقراره فى الأستادارية والتحدث فى عمل حفر البحر، وأن يستقر أستدمر العمرى - المعروف برسلان بصل - فى الوزارة. فطلب، وكان قد حضر من الكشف، وألبس خلع الوزارة فى يوم الإثنين الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول.

وكان منجك قد عزل من الوزارة فى ثالث ربيع الأول المذكور، وتولى أمر شد البحر. فجبى من الأجناد من كل مائة دينار درهماً، ومن التجار والمتعيشين فى مصر والقاهرة من كل واحد عشرة دراهم إلى خمسة دراهم إلى درهم، ومن أصحاب الأملاك والدور فى مصر والقاهرة: على كل قاعة ثلاثة دراهم، وعلى كل طبقة درهمين، وعلى كل مخزن أو اصطبل درهماً. وجعل المستخرج فى خان مسرور بالقاهرة، والمشد على المستخرج الأمير بيلك، فجبى مالا كبيرا.

وأما أستدمر فإن أحوال الدولة توقفت فى أيامه، فسأل فى الإعفاء فأعفي، وأعيد منجك إلى الوزارة بعد أربعين يوماً وقد تمنع تمنعاً كبيراً. ولما عاد إلى الوزارة فتح باب الولايات بالمال، فقصده الناس وسعوا عنده، فولى وعزل، وأخذ فى ذلك مالاً كثيراً. فيقال إنه أخذ من الأمير مازان لما نقله من المنوفية إلى الغربية، ومن ابن الغسانى لما نقله من

الأشموبين إلى البهنساوية، ومن ابن سلمان لما ولاه منوف، ستة آلاف دينار ووفر إقطاع شاد الدواوين، وجعله باسم المماليك السلطانية، ووفر جوامكهم ورواتبهم.

وشرع أوباش الناس فى السعى عنده فى الوظائف والمباشرات بمال، وأتوه من البلاد، فقضى أشغالهم، ولم يرد أحداً طلب شيئاً. ووقع فى أيامه الفناء العظيم، فانحلت إقطاعات كثيرة، فاقتضى رأى الوزير أن يوفر الجوامك والرواتب التى للحاشية، وكتب لسائر أرباب الوظائف وأصحاب الأشغال والمماليك السلطانية مثالات بقدر جوامك كل منهم، وكذلك لأرباب الصدقات. فأخذ جماعة من الأقباط ومن الكتاب ومن الموقعين إقطاعات فى نظير جوامكهم، وتوفر فى الدولة مال كبير عن الجوامك والرواتب.

ولما دخلت سنة خمسين رسم الأمير منجك الوزير لمتولى القاهرة بطلب أصحاب الأرباع، وكتابة جميع أملاك الحارات والأزقة وسائر أخطاط مصر والقاهرة، ومعرفة أسماء سكانها، والفحص عن أربابها. . ليعرف من توفر عنه ملك بموته فى الفناء. فطلبوا الجميع وأمعنوا فى النظر، فكان يوجد فى الحارة الواحدة والزقاق الواحد ما يزيد على عشرين داراً خالية لايعرف أربابها، فختموا على ما وجدوه من ذلك، ومن الفنادق والخانات والمخازن حتى يحضر أربابها.

وفى شعبان عزل ولاة الأعمال، وأحضرهم إلى القاهرة وولى غيرهم، وأضاف إلى كل وال كشف الجسور التى فى عمله، وضمن الناس سائر جهات القاهرة ومصر بحيث إنه لايتحدث أحد معه من المقدمين والدواوين والشادين، وزاد فى المعاملات ثلاثمائة ألف درهم، وخلع عليه ونودى له بمصر والقاهرة، فاشتد ظلمه وعسفه، وكثرت حوادثه.

فلما كانت ليالى عيد الفطر، عرف الوزير الأمراء أن سماط العيد ينصرف عليه جملة ولا ينتفع به أحد، فأبطله ولم يعمل تلك السنة.

وفى ذى القعدة توقف حال الدولة، ووقف مماليك السلطان وسائر المعاملين والحوائجكاشية، وانزعج السلطان والأمراء بسبب ذلك على الوزير فاحتج بكثرة الكلف وطلب الموفق ناظر الدولة فقال أن الإنعامات قد كثرت، والكلف تزايدت، وقد كانت الحوائجخاناه فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون فى اليوم ينصرف فيها مبلغ ثلاثة عشر ألف درهم، واليوم يصرف فيها اثنان وعشرون ألف درهم.

فكتبت أوراق بمتحصل الدولة ومصروفها وبمتحصل الخاص ومصروفة . فجاءت أوراق الدولة ومتحصلها عشرة آلاف ألف درهم ، وكلفها أربعة عشر ألف ألف درهم وستمائة ألف درهم . ووجد الإنعام من الخاص والجيش ، بما خرج من البلاد زيادة على إقطاعات الأمراء ، فكان زيادة على عشرين ألف دينار ، سوى جملة من الغلال ، وأن الذى استجد على الدولة من حين وفاة الملك الناصر فى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين إلى مستهل المحرم سنة خمسين وسبعمائة .

وكانت جملة الإنعامات والإقطاعات بنواحى الصعيد والفيوم وبلاد الملك والوجه البحرى وما أعطى من الرزق للخدام والجواري ، سبعمائة ألف ألف وألف ألف وستمائة ألف . . . معينة بأسماء أربابها من أمير وخادم وجارية .

وكانت النساء قد أسرفن فى عمل القمصان والبغالطيق ، حتى كان يفضل من القميص كثير على الأرض ، وسعة الكم ثلاثة أذرع - ويسمينه البهطلة - وكان يغرم على القميص ألف درهم وأكثر ، وبلغ أزار المرأة إلى ألف درهم ، وبلغ الخف والسرموزة إلى خمسمائة درهم وما دونها إلى مائة درهم . . . فأمر الوزير منجك بقطع أكمام النساء ، وأخرق بهن ، وأمر الوالى بتتبع ذلك ، ونودى بمنع النساء من عمل ذلك ، وقبض على جماعة منهن ، وركب على سور القاهرة صور نساء عليهن تلك القمصان بهيئة نساء قد قتلن عقوبة على ذلك . فانكففن عن لبسها .

ومنع الأساكفة من عمل الأخفاف المثمنة ، ونودى فى القياسر من باع أزار حرير ماله للسلطان ، فنودى على أزار ثمنه سبعمائة وعشرون درهماً فبلغ ثمانين درهماً ولم يجسر أحد أن يشتريه . وبالغ الوزير فى الفحص عن ذلك حتى كشف دكاكين غسالى الثياب ، وقطع ما وجد من ذلك . فامتنع النساء من لبس ما أحدثنه من تلك المنكرات .

ولما عظم ضرر الفار أيضاً من كثرة شكاية الناس فيه ، فلم يسمع فيه الوزير قولاً ، وقام فى أمره الأمير مغلطاى أميراخور ، فاستوحش منه الوزير .

وأتفق أنه كان قد حج محمد بن يوسف مقدم الدولة فى محمل كبير بلغ عليق جماله فى اليوم مائتى عليقة . ولما قدم فى المحرم مع الحاج ، أهدى للنائب وللوزير وللأمير طاز وللأمير

صرغتمش هدايا جليلة، ولم يهد للأمير شيخو ولا للأمير ملغطاى شيئاً. ثم لما عاب عليه الناس ذلك أهدى بعد عدة أيام للأمير شيخو هدية، فردها عليه.

ثم إنه أنكر على الوزير فى مجلس السلطان ما يفعله ولاة البر، وما عليه مقدم الدولة من كثرة المال، وأغلظ فى القول. فرسم بعزل الولاة، والقبض على المقدم محمد بن يوسف وابن عمه المقدم أحمد بن زيد. فلم يسع الوزير غير السكوت.

فلما كان فى رابع عشرى شوال سنة إحدى وخمسين، قبض على الوزير منجك وقيد، ووقعت الحوطة على سائر حواصلة، فوجدت له زردخاناه حمل خمسين جملاً، ولم يظهر من النقد كثير مال فأمر بعقوبته. فلما خوف أقر بصندوق فيه جوهر، وقال: سائر ما كان يتحصل لى من النقد كنت أشترى به أملاكاً وضياعاً وأصناف المتاجر. فأحيط بسائر أمواله وحمل إلى الإسكندرية مقيداً، واستقر الأمير بلبان السنانى نائب البيرة أستادارا عوض منجك بعد حضوره منها، وأضيفت الوزارة إلى القاضى علم الدين بن زنبور ناظر الخاص.

فلم يزل منجك مسجوناً بالإسكندرية إلى أن خلع الملك الناصر حسن. وأقيم بدله فى المملكة أخوه الملك الصالح صالح، فأمر بالإفراج عن الأمير شيخو والأمير منجك، فحضرا إلى القاهرة فى رجب سنة اثنتين وخمسين. ولما استقر الأمير منجك بالقاهرة، بعث إليه الأمير شيخو خمس رؤوس خيل وألفى دينار، وبعث إليه جميع الأمراء بالتقادم.

وأقام بطالا يجلس على حصير فوقه ثوب سرج عتيق، وكلما أتاه أحد من الأمراء يبكى ويتوجع ويقول: أخذ جميع مالى حتى صرت على الحصير. ثم كتب فتوى تتضمن أن رجلاً مسجوناً فى قيد، هدد بالقتل إن لم يبع أملاكه، وأنه خشى على نفسه القتل فوكل فى بيعها. فكتب له الفقهاء «لايصح بيع المكره». ودار على الأمراء، ومازال بهم حتى تحدثوا له مع السلطان فى رد أملاكه عليه.

فعارضهم الأمير صرغتمش، ثم رضى أن يرد على من أملاكه ما أنعم به السلطان على مماليكه. فاسترد عدة أملاك، وأقام إلى أن قام يلبغا روس بحلب، فاختفى منجك وطلب فلم يوجد، وأطلق النداء عليه بالقاهرة ومصر، وهدد من أخفاه، وألزم عربان العائد باقتفاه أثره، فلم يتوقف له على خبر، وكبس عليه عدة أماكن بالقاهرة ومصر، وفتش عليه حتى فى داخل الصهريج الذى بجامعه فأعيي أمره.

وأدرك السلطان السفر لحرب يلبغا روس، فشرع فى ذلك إلى يوم الخميس رابع شعبان، فخرج الأمير طاز بمن معه.

وفى يوم الإثنين سابعه عرض الأمير شيخو والأمير صرغتمش أطلابهما، وقد وصل الأمير طاز إلى بلبيس، فحضر إليه من أخبره أنه رأى بعض أصحاب منجك، فسير إليه وأحضره وفتشه، فوجد معه كتاب منجك إلى أخيه يلبغا روس، وفيه أنه مختف عند الحسام الصفدى أستاداره. فبعث الكتاب إلى الأمير شيخو، فوافاه والأطلاب خارجه، فاستدعى بالحسام وسأله فأنكره، فعاقبه الأمير صرغتمش فلم يعترف.

فركب إلى بيت الحسام بجوار الجامع الأزهر وهجمه، فإذا بمنجك ومعه مملوك، فكتفه وسار به مشهوراً بين الناس - وقد هرعوا من كل مكان - إلى القلعة، فسجن بالإسكندرية إلى أن شفع فيه الأمير شيخو، فأفرج عنه فى ربيع الأول سنة خمس وخمسين ورسم أن يتوجه إلى صفد بطالاً. فسار إليها من غير أن يعبر إلى القاهرة.

فلما خلع الملك الصالح صالح، وأعيد السلطان حسن فى شوال منها، نقل منجك من صفد، وأنعم عليه بنيابة طرابلس عوضاً عن أيتمش الناصري، فسار إليها، وأقام بها إلى أن قبض على الأمير طاز نائب حلب فى سنة تسع وخمسين، فولى منجك عوضاً عنه.

ولم يزل بحلب الى أن فر منها فى سنة ستين فلم يعرف له خبر، وعوقب بسببه خلق كثير. ثم قبض عليه بدمشق فى سنة إحدى وستين، فحمل إلى مصر، وعليه بشت صوت عسلى وعلى رأسه مئزر صوف، فلم يؤاخذه السلطان، وأعطاه إمرة طبلخاناه ببلاد الشام، وجعله طرخاناه يقيم حيث شاء من البلاد الإسلامية، وكتب له بذلك.

فلما قتل السلطان حسن، وأقيم من بعده فى المملكة الملك المنصور محمد بن المظفر حاجى فى جمادى الأولى سنة اثنتين وستين، خامر الأمير بيدمر نائب الشام على الأمير يلبغا العمرى القائم بتدبير دولة الملك المنصور، ووافقه جماعة من الأمراء منهم الأمير منجك، فخرج الأمير يلبغا بالمنصور والعساكر من قلعة الجبل إلى البلاد الشامية، فوافى دمشق.

ومشى الناس بينه وبين الأمير بيدمر حتى تم الصلح ، وحلف الأمير يلبغا أنه لايؤذى بيدمر ولا منجك ، فنزلا من قلعة دمشق ، وقيدهما وبعث بهما إلى الإسكندرية فسجنا بها . إلى أن خلع الأمير يلبغا المنصور ، وأقام بدله الملك الأشرف شعبان بن حسين ، وقتل الأمير يلبغا ، فأفرج الملك الأشرف عن منجك ، وولاه نيابة السلطنة بدمشق عوضاً عن الأمير على الماردانى فى جمادى الأولى سنة تسع وستين .

فلم يزل فى نيابة دمشق إلى أن حضر إلى السلطان زائراً فى سنة سبعين بتقادم كثيرة جليلة ، وعاد إلى دمشق ، وأقام بها إلى أن استدعاه السلطان فى سنة خمس وسبعين إلى مصر ، وفوض إليه نيابة السلطنة بديار مصر ، وعمله أتابك العساكر ، وجعل تدبير المملكة إليه ، وأن يخرج الأمهات للبلاد الشامية ، وأن يولى ولاة أقاليم مصر والكشاف ، ويخرج الإقطاعات بمصر من عبرة ستمائة دينار إلى ما دونها .

وكانت عادة النواب قبله ألا يخرج من الإقطاعات إلا ما عبرته أربعمائه دينار فما دونها . فعمل النيابة على قال جائر وحرمة وافرة إلى أن مات حتف أنفه فى يوم الخميس التاسع والعشرين من ذى الحجة سنة ست وسبعين وسبعمائة ، وله من العمر نيف وستون سنة ، وشهد جنازته سائر الأعيان ، ودفن بتربته المجاورة لجامعه هذا .

وله سوى الجامع المذكور من الآثار بديار مصر خان منجك فى القاهرة ، ودار منجك برأس سويقة العزى بالقرب من مدرسة السلطان حسن ، وله بالبلاد الشامية عدة آثار من خانات وغيرها . رحمه الله .

الجامع الأخضر

هذا الجامع خارج القاهرة بخط فم الخور . عرف بذلك لأن بابه وقبته فيهما نقوش وكتابات خضر . والذى أنشأه خازندار الأمير شيخو واسمه . . . .

جامع البكجري

هذا الجامع بحكر البكجرى قريباً من الدكة تعطلت الصلاة فيه منذ خربت تلك الجهات .

جامع السروجي

هذا الجامع بحكر . . . . . .

جامع كرجي

هذا الجامع بحكر أقوش .

جامع الفاخري

هذا الجامع بسويقه الخادم الطواشى شهاب الدين فاخر المنصور، مقدم المماليك السلطانية، ومات فى سابع ذى الحجة سنة سبع وثمانمائة . وكان ذا مهابة وأخلاق حسنة، مع سطوة شديدة .

«ولهم بلبان الفاخري» : الأمير سيف الدين، نقيب الجيوش، مات فى سنة سبع وتسعين وستمائة، وولى نقابة الجيش بعد طيبرس الوزيري، وكان جواداً عارفاً بأمر الأجناد، خيراً كثير الترف .

جامع ابن عبدالظاهر

هذا الجامع بالقرافة الصغري، قبلى قبر الليث بن سعد، كان موضعه يعرف بالخندق. أنشأه القاضى فتح الدين محمد بن عبدالله بن عبدالظاهر بن نشوان بن عبدالظاهر الجذامى السعدى الروحي، من ولد روح بن زنباع الجذامي، بجوار قبر أبيه. وأول ما أقيمت به الخطبة فى يوم الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وكان يوماً مشهوداً لكثرة من حضر من الأعيان، ولد بالقاهرة فى ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وسمع من أبن الجميزى وغيره، وحدث وكتب فى الإنشاء، وساد فى دولة المنصور قلاوون بعقله ورأيه وهمته، وتقدم على والده القاضى محيي الدين - وهو ماهر فى الإنشاء والكتابة - بحيث كان من جملة من يصرفهم بأمره ونهيه، وكان الملك المنصور يعتمد عليه ويثق به.

ولما ولى القاضى فخر الدين بن لقمان الوزارة، قال له الملك المنصور: من يلى عوضك كتابة السر؟؟

فقال: القاضى فتح الدين ابن عبدالظاهر.

فولاه كتابة السر عوضاً عن ابن لقمان، وتمكن من السلطان وحظى عنده... حتى أن الوزير فخر الدين بن لقمان ناول السلطان كتاباً، فأحضر ابن عبدالظاهر لقراءته على عادته، فلما أخذ الكتاب من السلطان، أمر الوزير أن يتأخر حتى نقرأه، فتأخر الوزير. ثم أن ابن لقمان صرف عن الوزارة، وأعيد إلى ديوان الإنشاء، فتأدب معه.

فلما ولى وزارة الملك الأشرف خليل بن قلاوون شمس الدين بن السلعوس، قال لفتح الدين: اعرض على كل يوم ما تكتبه.

فقال: لاسبيل لك إلى ذلك، ولا يطلع على أسرار السلطان إلا هو، فإن اخترتم وإلا عينوا عوضي.

فلما بلغ السلطان ذلك قال. صدق.

ولم يزل على حاله إلى أن مات - وأبوه حي - بدمشق فى النصف من شهر رمضان سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. فوجد فى تركته قصيدة مرثية قد عملها فى رفيقة تاج الدين أحمد بن سعيد بن محمد بن الأثير، لما مرض وطال مرضه، فاتفق أن عوفى ابن الأثيز، ولم يتأخر ابن عبدالظاهر بعد عافيته سوى ليال يسيرة ومرض ومات. فرثاه أبن الأثير بعد موته، وولى وظيفة كتابة السر عوضاً عنه.

ولم يكن ابن عبدالظاهر مجيداً فى صناعة الإنشاء، إلا أنه دبر الديوان وباشره أحسن مباشرة. ومن شعره :

أن شئت تنظرنى وتنظر حالتي

فانظـــر إلى هب النسيم قبولاً

فتراه مثلى رقة ولطـــــافة

ولأجـــل قلبك لا أقول عليلا

فهو الرســـول إليك منى ليتني

كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

ولم يزل هذا الجامع عامراً إلى أن حدثت المحن فى سنة ست وثمانمائة، واختلت القرافة لخراب ما حوله، وهو اليوم قائم على أصوله.

جامع بساتين الوزير التى على بركة الحبش

....

جامع الخندق

هذا الجامع بناحية الخندق خارج القاهرة، ولم يزل عامراً بعمارة الخندق. فلما خربت مساكن الخندق تلاشى أمره، ونقلت منه الجمعه، وبقى معطلاً إلى شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة.

فأخذ الأمير طوغان الحسنى الدوادار عمده الرخام وسقوفه، وترك جدرانه ومنارته وهى باقية، وعما قليل تدثر كما دثر غيرها مما حولها.

جامع جزيرة الفيل

....

جامع الطواشي

هذا الجامع خارج القاهرة فيما بين باب الشعرية وباب البحر. أنشأه الطواشى جوهر السحرتى اللالا، وهو من خدام الملك الناصر محمد بن قلاوون، ثم أنه تآمر فى تاسع عشرى شهر رجب سنة خمس وأربعين وسبعمائة.

جامع كراي

هذا الجامع بالريدانية خارج القاهرة. عمره الأمير سيف الدين كراى المنصوري، فى سنة إحدى وسبعمائة، لكثرة ما كان هناك من السكان. فلما خربت تلك الأماكن تعطل هذا الجامع، وهو الآن قائم، وجميع ما حوله داثر، وعما قليل يدثر.

جامع القلعة

هذا الجامع بقلعة الجبل . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ثمان عشرة وسبعمائة . وكان أولاً مكانه جامع قديم ، وبجواره المطبخ السلطانى والحوائجخاناه والطشتخاناه والفراشخاناه ، فهدم الجميع وأدخلها فى هذا الجامع ، وعمره أحسن عمارة ، وعمل فيه الرخام الفاخر الملون شيئاً كثيراً ، وعمر فيه قبة جليلة ، وجعل عليه مقصورة من حديد بديعة الصنعة ، وفى صدر الجامع مقصورة من حديد أيضاً برسم صلاة السلطان .

فلما تم بناؤه جلس فيه السلطان بنفسه ، واستدعى جميع المؤذنين بالقاهرة ومصر ، وسائر الخطباء والقراء ، وأمر الخطباء فخطب كل منهم بين يديه ، وقام المؤذنون فأذنوا ، وقرأ القراء . فاختار الخطيب جمال الدين محمد بن محمد بن الحسن القسطلاني ، خطيب جامع عمرو ، وجعله خطيباً بهذا الجامع ، واختار عشرين مؤذناً رتبهم فيه ، وجعل به قراء ودرسا وقارئ مصحف ، وجعل له من الأوقاف ما يفضل عن مصارفه .

فجاء من أجل جوامع مصر وأعظمها ، وبه إلى اليوم يصلى سلطان مصر صلاة الجمعة ، والذى يخطب فيه ويصلى بالناس الجمعة قاضى القضاة الشافعي .

جامع قوصون

هذا الجامع داخل باب القرافة تجاه خانقاه قوصون . أنشأه الأمير سيف الدين قوصون . وعمر بجانبه حماما ، فعمرت تلك الجهة من القرافة بجماعة الخانقاه والجامع ، وهو باق إلى يومنا .

جامع كوم الريش

هذا الجامع مع عمارة دولات شاه .

جامع الجزيرة الوسطي

أنشأه الطواشى مثقال، خادم تذكار ابنة الملك الظاهر بيبرس، وهو عامر إلى يومنا هذا .

جامع ابن صارم

هذا الجامع بخط برلاق خارج القاهرة . أنشأه محمد بن صارم شيخ بولاق فيما بين بولاق وباب البحر .

جامع الكيمختي

هذا الجامع يعرف اليوم بجامع الجنينة، وهو بجانب موضع الكيمخت على شاطئ الخليج من جملة أرض الطبالة . كان موضعه دارا اشتراها معلم الكيمخت، وكان يعرف بالحموي، وعملها جامعاً .

فضمن المعلم بعده رجل يعرف بالرومي، فوقف عليه مواضع، وجدد له مئذنة فى جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانمائة، ووسع فى الجامع قطعة كانت منشرا، وكان قبل ذلك قد جدد عمارته شخص يعرف بالفقيه زين الدين ريحان بعد سنة تسعين وسبعمائة، وعمر بجانبه مساكن، وهو الآن عامر بعمارة ما حوله .

جامع الست مسكة

هذا الجامع بالقرب من قنطرة آق سنقر التى على الخليج الكبير خارج القاهرة. أنشأته الست مسكة، جارية الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأقيمت فيه الجمعة عاشر جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وقد ذكرت مسكة هذه عند ذكر الأحكار.

جامع ابن الفلك

هذا الجامع يسويقة الجميزة من الحسينية خارج القاهرة، أنشأه مظفر الدين بن الفلك.

جامع التكروري

هذا الجامع فى ناحية بولاق التكروري. وهذه الناحية من جملة قرى الجيزة، كانت تعرف بمنيه بولاق، ثم عرفت ببولاق التكروري. فإنه كان نزل بها الشيخ أبو محمد يوسف بن عبدالله التكروري، وكان يعتقد فيه الخير، وجربت بركة دعائه، وحكيت عنه كرامات كثيرة.

منها أن امرأه خرجت من مدينة مصر تريد البحر، فأخذ السودان ابنها، وساروا به فى مركب، وفتحوا القلع، فجرت السفينة. وتعلقت المرأة بالشيخ تستغيث به، فخرج من مكانه حتى وقف على شاطئ النيل، ودعا الله سبحانه وتعالي، فسكن الريح ووقفت السفينة عن السير، فنادى من فى المركب يطلب منهم الصبي، فدفعوه إليه وناوله لأمه.

وكان بمصر رجل دباغ أتاه عفص، فأخذه منه أصحاب السلطان، فأتى إلى الشيخ وشكا إليه ضرورته، فدعا ربه، فرد الله عليه عفصه بسؤال أصحاب السلطان له فى ذلك.

وكان يقال له : لم لا تسكن المدينة؟ فيقول : إنى أشم رائحة كريهة إذا دخلتها . ويقال إنه كان فى خلافة العزيز بن المعز ، وأن الشريف محمد بن أسعد الجوانى جمع له جزءاً من مناقبه . ولما مات بنى عليه قبة ، وعمل بجانبه جامعا جدده ووسعه الأمير محسن الشهابى مقدم المماليك ، وولى تقدمة المماليك عوضاً عن الطواشى عنبر السحرتى أول صفر سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، ومات فى . . . .

ثم إن النيل مال على ناحية بولاق هذه فيما بعد سنة تسعين وسبعمائة ، وأخذ منها قطعة عظيمة كانت كلها مساكن . فخاف أهل البلد أن يأخذ ضريح الشيخ والجامع لقربهما منه ، فنقلوا الضريح والجامع إلى داخل البلد ، وهو باق إلى يومنا هذا .

جامع البرقية

هذا الجامع بالقرب من باب البرقية بالقاهرة عمره الأمير مغلطاى الفخرى أخو الأمير ألماس الحاجب ، وكمل فى المحرم سنة ثلاثين وسبعمائة . وكان ظالماً عسوفاً متكبراً جباراً ، قبض عليه مع أخيث ألماس فى سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ، وقتل معه .

جامع الحراني

هذا الجامع بالقرافة الصغرى فى بحرى الشافعي . عمره ناصر الدين بن الحرانى الشرابيشى فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة .

جامع بركة

هذا الجامع بالقرب من جامع ابن طولون، يعرف خطة بحدرة ابن قميحة. عمره شخص من الجند يعرف ببركة، كان يباشر أستادارية الأمراء، ومات بعد سنة إحدى وثمانمائة.

جامع بركة الرطل

هذا الجامع كان يعرف موضعه ببركة الفيل من جملة أرض الطبالة. فلما عمرت بركة الرطلي، كما تقدم ذكره، أنشئ هذا الجامع. وكان ضيقاً قصير السقف، وفيه قبة تحتها قبر يزار، وهو قبر الشيخ خليل بن عبدربه، خادم الشيخ عبدالعال، وتوفى فى المحرم سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة. فلما سكن الوزير الصاحب سعد الدين إبراهيم بن بركة البشيرى بجوار هذا الجامع، هدمه ووسع فيه، وبناه هذا البناء فى سنة أربع عشرة وثمانمائة.

وولد البشيرى فى سابع ذى القعدة سنة ست وستين وسبعمائة، وتنقل فى الخدم الديوانية حتى ولى نظر الدولة إلى أن قتل الأمير جمال الدين يوسف الأستادار، فاستقر بعده فى الوزارة، بسفارة فتح الدين فتح الله ابن كاتب السر، فى يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة.

فباشر الوزارة بضبط جيد لمعرفته الحساب والكتابة. إلا أنها كانت أيام محن احتاج فيها إلى وضع يده، وأخذ الأموال بأنواع الظلم. فلما قتل الملك الناصر فرج، واستبد الملك المؤيد شيخ، صرفه عن الوزارة فى يوم الخميس خامس جمادى الأولى سنة ست عشرة وثمانمائة، ودفن بالقرافة.

وهذا الجامع عامر بعمارة ما حوله.

جامع الضوة

هذا الجامع فيما بين الطبلخاناة السلطانية وباب القلعة، المعروف بباب المدرج، على رأس الضوء. أنشأه الأمير الكبير شيخ المحمودي، لما قدم من دمشق بعد قتل الملك الناصر فرج، وإقامة الخليفة أمير المؤمنين المستعين بالله العباسى ابن محمد فى سنة خمس عشرة وثمانمائة، وسكن بالأصطبل السلطاني، فشرع فى بناء دار يسكنها. فلما استبد بسلطنة مصر، وتلقب بالملك المؤيد، استغنى عن هذه الدار وكانت لم تكمل، فعملها جامعاً وخانقاه، وصارت الجمعه تقام به.

جامع الحوش

هذا الجامع فى داخل قلعة الجبل بالحوش السلطاني. أنشأه السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة، فصار يصلى فيه الخدام وأولاد الملوك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى أن قتل الناصر فرج.

جامع الاصطبل

هذا الجامع فى الاصطبل السلطانى من قلعة الجبل. عمره . . . .

جامع ابن التركمان

هذا الجامع بالمقس خارج القاهرة.

جامــــــع ...

هذا الجامع بخط السبع سقايات، فيما بين القاهرة ومصر، يطل على بركة قارون. أنشأه . . .

جامع الباسطي

هذا الجامع فى بولاق خارج القاهرة. أدركت موضعه، وهو مطل على النيل طول السنة. أنشأه شخص من عرض الفقهاء يعرف . . . . . . في سنة سبع عشرة وثمانمائة.

جامع الحنفي

هذا الجامع خارج القاهرة. أنشأة الشيخ شمس الدين محمد بن حسن بن على الحنفى فى سنة سبع عشرة وثمانمائة.

جامع ابن الرفعة

هذا الجامع خارج القاهرة بحكر الزهري. أنشأه الشيخ فخر الدين عبدالمحسن بن الرفعة ابن أبى المجد العدوي.

جامع الإسماعيلي

أنشأه الأمير أرغون الإسماعيلي، على البركة الناصرية، فى شعبان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

جامع الزاهد

هذا الجامع بخط المقس خارج القاهرة، كان موضعه كوم تراب، فنقله الشيخ المعتقد أحمد أبن . . . . . المعروف بالزاهد، وأنشأ موضعه هذا الجامع، فكمل فى شهر رمضان سنة ثمان عشرة وثمانمائة، وهدم بسببه عدة مساجد قد خرب ما حولها، وبنى بأنقاضها هذا الجامع.

وكان ساكناً مشهوراً بالخير، يعظ الناس بالجامع الأزهر وغيره، ولطائفة من الناس فيه عقيدة حسنة، ولم يسمع عنه إلا خير. مات يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة وثمانمائة أيام الطاعون، ودفن بجامعه.

جامع ابن المغربي

هذا الجامع بالقرب من بركة قرموط، مطل على الخليج الناصري. أنشأه صلاح الدين يوسف بن المغربى رئيس الأطباء بديار مصر، وبنى بجانبه قبه دفن فيها، وعمل به درساً وقراء ومنبرا يخطب عليه فى يوم الجمعة. وكان عامراً بعمارة ما حوله، فلما خرب خط بركة قرموط تعطل، وهو آيل إلى أن ينقض ويباع كما بيعت أنقاض غيره.

جامع الفخري

هذا الجامع بجوار دار الذهب - التى عرفت بدار بهادر الأعسر - المجاورة لقبو الذهب من خط بين السورين فيما بين الخوخة وباب سعادة، ويتوصل إليه أيضاً من درب العداس المجاور لحارة الوزيرية.

أنشأه الأمير فخر الدين عبدالغني، ابن الأمير تاج الدين عبدالرزاق بن أبى الفرج الأستادار، فى سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، وخطب فيه يوم الجمعة ثامن عشرى شعبان من السنة المذكورة، وعمل فيه عدة دروس.

وأول من خطب فيه الشيخ ناصر الدين محمد بن عبدالوهاب بن محمد البارنبارى الشافعي، ثم تركه تنزهاً عنه.

وفى يوم الأحد ثامن شهر رمضان، جلس فيه الشيخ شمس الدين محمد بن عبدالدائم البرماوى الشافعى للتدريس، وأضيف إليه مشيخة التصوف، وقرر قاضى القضاة شمس الدين محمد الديري، المقدسى الحنفي، فى تدريس الحنفية، وفى تدريس المالكية قاضى القضاة جمال الدين عبدالله بن مقداد المالكي، وحضر البرماوى وظيفة التصوف بعد عصر يومه. فمات الأمير فخر الدين فى نصف شوال منها ولم يكمل، فدفن هناك.

الجامع المؤيدي

هذا الجامع بجوار باب زويلة من داخله. كان موضعه خزانة شمائل حيث يسجن أرباب الجرائم، وقيسارية سنقر الأشقر، ودرب الصغيرة، وقيسارية بهاء الدين أرسلان. أنشأه السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى الظاهري.

فهو الجامع الجامع لمحاسن البنيان، الشاهد - بفخامة أركانه وضخامة بنيانه - أن منشئه سيد ملوك الزمان. يحتقر الناظر له عند مشاهدته عرش بلقيس وإيوان كسرى أنو شروان،

ويستصغر من تأمل بديع أسطوانه الخورنق وقصر غمدان، ويعجب من عرف أوليته من تبديل الأبدال، وتنقل الأمور من حال إلى حال. . . بينا هو سجن تزهق فيه النفوس، ويضام المجهود، إذ صار مدارس آيات، وموضع عبادات، ومحل سجود!! فالله يعمره ببقاء منشية، ويعلى كلمة الإيمان بدوام ملك بانيه.

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم
ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم قدره
أضحى يدل على عظيم الشأن

وأول ما ابتدئ به فى أمر هذا الجامع: أن رسم، فى رابع شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة وثمانمائة، بانتقال سكان قيسارية سنقر الأشقر التى كانت تجاه قيسارية الفضائل. ثم نزل جماعة من أرباب الدولة فى خامسه من قلعة الجبل، وابتدئ فى الهدم فى القيسارية المذكورة وما يجاورها، فهدمت الدور التى كانت هناك فى درب الصغيرة، وهدمت خزانة شمائل. فوجد بها من رمم القتلى ورؤوسهم شئ كثير، وأفرد لنقل ما خرج من التراب عدة من الجمال والحمير بلغت علائقهم فى كل يوم خمسمائة عليقة.

وكان السبب فى اختيار هذا المكان دون غيره، أن السلطان حبس فى خزانة شمائل هذه، أيام تغلب الأمير منطاش وقبضه على المماليك الظاهرية، فقاسى فى ليلة من البق والبراغيث شدائد، فنذر الله تعالى إن تيسر له ملك مصر أن يجعل هذه البقعة مسجداً لله عز وجل، ومدرسة لأهل العلم، فأختار لذلك هذه البقعة وفاء لنذره.

وفى رابع جمادى الآخرة كان ابتداء حفر الأساس، وفى خامس صفر سنة تسع عشرة وثمانمائة وقع الشروع فى البناء. واستقر فيه بضع وثلاثون بناء ومائة فاعل، ووفيت لهم ولمباشريهم أجورهم من غير أن يكلف أحد فى العمل فوق طاقته، ولا سخر فيه أحد بالقهر.

فاستمر العمل إلى يوم الخميس سابع عشر ربيع الأول . فأشهد عليه السلطان أنه وقف هذا مسجداً لله تعالي ، ووقف عليه عدة مواضع بديار مصر وبلاد الشام . وتردد ركوب السلطان إلى هذه العمارة عدة مرار .

وفى شعبان طلبت عمد الرخام وألواح الرخام لهذا الجامع ، فأخذت من الدور والمساجد وغيرها ، وفى يوم الخميس سابع عشرى شوال ، نقل باب مدرسة السلطان حسن بن محمد بن قلاوون ، والتنور النحاس المكفت ، إلى هذه العمارة ، وقد اشتراهما السلطان بخمسمائة دينار . وهذا الباب هو الذى عمل لهذا الجامع ، وهذا التنور هو التنور المعلق تجاه المحراب .

وكان الملك الظاهر برقوق قد سد باب مدرسة السلطان حسن ، وقطع البسطة التى كانت قدامه كما تقدم ، فبقى مصراعا الباب والسد من ورائهما حتى نقلا مع التنور الذى كان معلقاً هناك .

وفى ثامن عشريه دفنت ابنة صغيرة للسلطان فى موضع القبة الغربية من هذا الجامع ، وهى ثانى ميت دفن بها .

وانعقدت جملة ما صرف فى هذه العمارة ، إلى سلخ ذى الحجة سنة تسع عشرة ، على أربعين ألف دينار .

ثم نزل السلطان فى عشرى المحرم إلى هذه العمارة ، ودخل خزانة الكتب التى عملت هناك ، وقد حمل إليها كتباً كثيرة فى أنواع العلوم كانت بقلعة الجبل . وقدم له ناصر الدين محمد البارزي ، كاتب السر ، خمسمائة مجلد قيمتها ألف دينار ، فأقر ذلك بالخزانة ، وأنعم على ابن البارزى بأن يكون خطيباً وخازن الكتب هو ومن بعده من ذريته .

وفى سابع عشر شهر ربيع الآخر منها سقط عشرة من الفعلة : مات منهم أربعة ، وحمل ستة بأسوأ حال . وفى يوم الجمعة ثانى جمادى الأولى أقيمت الجمعة به ، ولم يكمل منه سوى الإيوان القبلي ، وخطب وصلى بالناس عز الدين عبدالسلام المقدسى - أحد نواب القضاة الشافعية - نيابة عن أبن البارزى كاتب السر .

وفى يوم السبت خامس شهر رمضان منها ابتدئ بهدم ملك بجوار ربع الملك الظاهر بيبرس ، مما اشتراه الأمير فخر الدين عبدالغنى بن أبى الفرج الأستادار ، ليعمل ميضأة ، وأستمر العمل هناك .

ولازم الأمير فخر الدين الإقامة بنفسة ، واستعمل مماليكه وألزامه فيه ، وجد فى العمل كل يوم ، فكملت فى سلخه بعد خمسة وعشرين يوماً . ووقع الشروع فى بناء حوانيت على بابها من جهة تحت الربع ، ويعلوها طباق .

وبلغت النفقة على الجامع إلى أخريات شهر رمضان هذا ، سوى عمارة الأمير فخر الدين المذكور ، زيادة على سبعين ألف دينار . وتردد السلطان إلى النظر فى هذا الجامع غير مرة .

فلما كان فى أثناء شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين ، ظهر بالمئذنة التى أنشئت على بدنة باب زويلة التى تلى الجامع اعوجاج إلى جهة دار التفاح ، فكتب محضر بجماعة المهندسين أنها مستحقة الهدم ، وعرض على السلطان ، فرسم بهدمها .

فوقع الشروع فى الهدم يوم الثلاثاء رابع عشريه ، واستمر فى كل يوم ، فسقط يوم الخميس سادس عشريه منها حجر هدم ملكاً تجاه باب زويلة هلك تحته رجل ، فغلق باب زويلة خوفاً على المارة من يوم السبت إلى آخر يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الأولى مدة ثلاثين يوماً ، ولم يعهد وقوع مثل هذا قط منذ بنيت القاهرة .

وقال أدباء العصر فى سقوط المنارة المذكورة شعراً كثيراً . منه ما قاله حافظ الوقت شهاب الدين أحمد بن على بن حجر الشافعى رحمه الله :

لجـــــامع مولانا المؤيد رونق
منارته تزهو من الحسن والزين
تقول وقد مالت عليهم تمهلوا
فليس على جسمى أضر من العين

فتحدث الناس أنه فى قوله بالعين قصد التورية لتخدم فى العين التى تصيب الأشياء فتتلفها ، وفى الشيخ بدر الدين محمود العينتابي ، فإنه يقال له العينى أيضاً .

فقال المذكور يعارضه :

منارة كعروس الحسن إذ جليت
وهدمها بقضاء الله والقدر

قالوا أصيبت بعين، قلت ذا غلط

ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر

يعرض بالشهاب ابن حجر. وكل منهما لم يصب الغرض، فإنه العينى بدر الدين محموداً ناظر الأحباس، والشيخ شهاب الدين أحمد ابن حجر، كل منهما ليس له فى المئذنة تعلق حتى تخدم التورية، وأقعد منهما بالتورية من قال:

على البرج من باب زويلة أسست

منــــارة بيت الله والمعهد المنجي

فأخلى بهـــا البرج اللعين أمالهـــا

ألا فاصرخوا يا قوم باللعن للبرج

وذلك أن الذى ولى تدبير أمر الجامع المؤيدى هذا، وولى نظر عمارته، بهاء الدين محمد بن البرجي، فخدمت التورية فى البرجى كما تري.

وتداول هذا الناس، فقال آخر:

عتبنا على ميل المنـــار زويلة

وقلنا تركت الناس بالميل فى هرج

فقال قرينى برج نحس أمالني

فلا بارك الرحمن فى ذلك البرج

وقال الأديب شمس الدين محمد بن أحمد بن كمال الجوجرى أحد الشهود:

منارة لثـــــواب الله قـــد بنيت

فكيف هدت فقالوا نوضح الخبرا

أصابت العين أحجاراً بها أنفلقت

ونظـــره العين قالوا تفلق الحجرا

وقال آخر :

منارة قد هدمت بالقضـــــا

والنـــاس فى هرج وفى رهج

أمالهـــا البرج فمـــالت به

فلعنـــــــة الله على الـــبرج

وفى ثالث جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين، استقر الشيخ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن حجر فى تدريس الشافعية، والشيخ يحيي بن محمد بن أحمد العجيسى السحاتى المغربى فى تدريس المالكية، وعز الدين عبدالعزيز بن على بن الفخر البغدادى فى تدريس الحنابلة، وخلع عليهم بحضرة السلطان. فدرس ابن حجر بالمحراب فى يوم الخميس ثالث عشر، ونزل السلطان، وأقبل ليحضر عنده وهو فى إلقاء الدرس، ومنعه من القيام له فلم يقم، واستمر فيما هو بصدده، وجلس السلطان عنده مليا. ثم درس يحيي المغربى فى يوم الخميس خامس عشره، ودرس فيه أيضاً الفخر البغدادي، وحضر معهما قضاة القضاة والمشايخ.

وفى سابع عشره استقر بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد العينتابى ناظر الأحباس فى تدريس الحديث النبوي، واستقر شمس الدين محمد بن يحيي فى تدريس القراءات السبع.

وفى يوم الجمعة حادى عشرى شوال منها، نزل السلطان إلى هذا الجامع، وقد تقدم إلى المباشرين من أمسه بتهيئة السماط العظيم للمدة فيه، والسكر الكثير لتملأ البركة التى بالصحن من السكر المذاب، والحلوى الكثيرة. . فهيئ ذلك كله. وجلس السلطان بكرة النهار بالقرب من البركة فى الصحن على تخت، واستعرض الفقهاء، فقرر من وقع اختياره عليه فى الدروس. ومد السماط العظيم بأنواع المطاعم، وملئت البركة بالسكر المذاب، فأكل الناس ونهبوا، وأرتووا من السكر المذاب، وحملوا منه ومن الحلوى ما قدروا عليه.

ثم طلب قاضى القضاة شمس الدين محمد بن سعد الديرى الحنفي، وخلع عليه كاملية صوف بفرو سمور، واستقر فى مشيخة التصوف وتدريس الحنفية، وجلس بالمحراب والسطان عن يمينه، ويليه ابنه المقام الصارمى إبراهيم، وعن يساره قضاة القضاة ومشايخ العلم، وحضر أمراء الدولة ومباشروها. فألقى درساً مفيداً إلى أن قرب وقت الصلاة، فصعد ناصر الدين محمد بن البارزى كاتب السر المنبر، فخطب وصلي، ثم خلع عليه واستقر خطيباً وخازن الكتب، وخلع على شهاب الدين أحمد الأذرعى الإمام، واستقر فى أمامة الخمس. وركب السلطان، وكان يوماً مشهوداً.

ولما مات المقام الصارمى إبراهيم ابن السلطان دفن بالقبة الشرقية، ونزل السلطان حتى شهد دفنه فى يوم الجمعة ثانى عشرى جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين، وأقام حتى صلى به الخطيب محمد البارزى كاتب السر صلاة الجمعة، بعدما خطب خطبة بليغة، ثم عاد إلى القلعة. وأقام القراء على قبره يقرأون القرآن أسبوعاً، والأمراء وسائر أهل الدولة يترددون إليه، وكانت ليالى مشهودة.

وفى يوم السبت آخره، استقر فى نظر الجامع المذكور: الأمير مقبل الدوادار، وكاتب السر ابن البارزي. فنزلا إليه جميعاً، وتفقدا أحواله، ونظرا فى أموره. فلما مات ابن البارزى فى ثامن شوال منها، انفرد الأمير مقبل بالتحدث.

إلى أن مات السلطان فى يوم الاثنين ثامن المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة، فدفن بالقبة الشرقية، ولم تكن عمرت، فشرع فى عمارتها حتى كملت فى شهر ذى القعدة منها. وكذلك الدرج التى يصعد منها إلى باب هذا الجامع من داخل باب زويلة لم تعمل إلا فى شهر رمضان منها، وبقيت بقايا كثيرة من حقوق هذا الجامع لم تعمل: منها القبة التى تقابل القبة المدفون تحتها السلطان، والبيوت المعدة لسكن الصوفية وغير ذلك، فأفرد لعمارتها نحو من عشرين ألف دينار. واستقر نظر هذا الجامع بعد موت السلطان بيد كاتب السر.

الجامع الأشرفي

هذا الجامع فيما بين المدرسة السيوفية وقيسارية العنبر . . . كان موضعه حوانيت تعلوها رباع، ومن ورائها ساحات كانت قياسر : بعضها وقف على المدرسة القطبية. فابتدأ الهدم فيها، بعدما استبدلت بغيرها، أول شهر رجب سنة ست وعشرين وثمانمائة، وبنى مكانها. فلما عمر الإيوان القبلي، أقيمت به الجمعة فى سابع جمادى الأولى سنة سبع وعشرين، وخطب به الحموى الواعظ وقد ولى الخطابة المذكورة.

الجامع الباسطي

هذا الجامع بخط الكافورى من القاهرة. كان موضعه من جملة أراضى البستان، ثم صار مما أختط كما تقدم ذكره. فأنشأه القاضى زين الدين عبدالباسط بن خليل بن إبراهيم الدمشقي، ناظر الجيوش، فى سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة، ولم يسخر أحداً فى عمله، بل وفى لهم أجورهم. حتى كمل فى أحسن هندام، وأكيس قالب، وأبدع زي، ترتاح النفوس لرؤيته، وتبتهج عند مشاهدته، فهو الجامع الزاهر، والمعبد الباهى الباهر.

ابتدئ فيه بإقامة الجمعة فى يوم الجمعة الثانى من صفر سنة ثلاث وعشرين، ورتب فى خطابته فتح الدين أحمد بن محمد بن النقاش، أحد شهود الحوانيت وموقعى القضاة، ثم رتب به صوفية، وولى مشيخة التصوف عز الدين عبدالسلام بن داود بن عثمان المقدسى الشافعى أحد نواب الحكم. . . فكان ابتداء حضورهم بعد عصر يوم السبت أول شهر رجب منها. وأجرى للفقراء الصوفية الخبز فى كل يوم، والمعلوم فى كل شهر، وبنى لهم مساكن، وحفر صهريجاً يملأ من ماء النيل، ويسبل فى كل يوم. فعم نفعه، وكثر خيره.

ثم تجـدد فى بولاق جـامع ابن الجـابى وجـامع أبن السنيـتي، وتجـدد فى مـصـر جـامع الحسنات بخط دار النحاس، وفى حكر الصبان الجامع المعروف بالمستجد، وبجامع الفتح، وفى حارة الفقراء جامع عبداللطيف الطواشى الساقي.

وتجدد فى خارج القاهرة بسويقة صفية جامع ابن درهم ونصف، وفى خطة معدية فريج جامع كزل بغا، وفى رأس درب النيدى جامع حارس الطير. وفى سويقة عصفور جامع القاضى أمين الدين، بجانب زاوية الفقيه المعتقد أبى عبدالله محمد الفارقاني، بنى فى سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة، وبخط البراذعيين ورأس حارة الحرمين جامع الحاج محمد - المعروف بالمسكين مهتار - ناظر الخاص.

وتجدد فى المراغة جامع الشيخ أبى بكر المعروف، بناه الحاج أحمد القماح. وأقيمت خطبة بخانكاه الأمير جانى بك الأشرفى خارج باب زويلة، وتوفى يوم الخميس سابع عشرى ربيع الأول سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة. وبخط باب اللوق جامع مقدم السقائين قريباً من جامع الست نصرة، وبخط تحت الربع خارج باب زويلة جامع، وتجدد بالصحراء، قريباً من تربة الظاهر برقوق، خطبة فى تربة السلطان الملك الأشرف برساى الدقماقي.

وتجدد فى آخر سويقة أمير الجيوش بالقاهرة جامع أنشأه الفقير المعتقد محمد الغمري، وأقيم به الجمعة فى يوم الجمعة رابع ذى الحجة سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة قبل أن يكمل وتجدد فى زاوية الشيخ أبى العباس البصير، التى عند قنطرة الخرق، خطبة. وتجدد فى حدود الكماجيين، من أراضى اللوق، خطبة بزاوية مطلة على غيط العدة.

وتجدد بالصحراء خطبة فى تربة الأمير مشير الدولة كافور الزمام، وتوفى فى خامس عشر ربيع الآخر سنة ثلاثين وثمانمائة. وتجدد بخط الكافورى خطبة. . أحدثها بنو وفاء فى جامع لطيف جداً. وتجدد بمدرسة ابن البقري، من القاهرة أيضاً، خطبة فى أيام المؤيد شيخ.

وتجدد بحارة الديلم خطبة فى مدرسة أنشأها الطواشى مشير الدولة المذكور. وتجدد عند قنطرة قدادار خطبة أنشأها شاكر البناء. وخطبة بالقرب منها فى جامع أنشأه الحاج إبراهيم البرددار الشهير بالحمصاني، أحد الفقراء الأحمدية السطوحية، فى حدود الثلاثين والثمانمائة.

ذكر مذاهب أهل مصر ونحلهم
منذ افتتح عمرو بن العاص رضى الله عنه أرض مصر
إلى أن صاروا إلى اعتقاد مذاهب الأئمة رحمهم الله تعالى
وما كان من الأحداث فى ذلك

أعلم أن الله عز وجل لما بعث نبينا محمداً، ﷺ، رسولاً إلى كافة الناس جميعاً ـ عربهم وعجمهم ـ وهو كلهم أهل شرك وعبادة لغير الله تعالى إلا بقايا من أهل الكتاب . . . كان من أمره، ﷺ، مع قريش ما كان حتى هاجر من مكة إلى المدينة. فكانت الصحابة رضوان الله عليهم حوله، ﷺ، يجتمعون اليه فى كل وقت مع ما كانوا فيه من ضنك المعيشة وقلة القوت.

فمنهم من كان يحترف فى الأسواق، ومنهم من كان يقوم على نخله، ويحضر رسول الله ﷺ فى كل وقت، ومنهم طائفة عندما تجد أدنى فراغ مما هم بسبيله من طلب القوت.

فإذا سئل رسول الله ﷺ عن مسأله، أو حكم بحكم، أو أمر بشئ أو فعل شيئاً. . وعاه من حضر عنده من الصحابة، وفات من غاب عنه علم ذلك. ألا ترى أن عمر بن الخطاب رى الله عنه قد خفى عليه ما عمله حمل بن مالك بن النابغة ـ رجل من الأعراب من هذيل ـ فى دية الجنين، وخفى عليه؟

وكان يفتى فى زمن النبي، ﷺ، من الصحابة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعبدالرحمن بن عوف وعبدالله بن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعرى وسلمان الفارسي، رضى الله عنهم.

فلما مات رسول اله ﷺ، واستخلف أبو بكر الصديق رضى الله عنه، تفرقت الصحابة رضى الله عنهم : فمنهم من خرج لقتال مسيلمة وأهل الردة، ومنهم من خرج لقتال أهل الشام، ومنهم من خرج لقتال أهل العراق. . وبقى من الصحابة بالمدينة مع أبى بكر رضى الله عنه عدة.

فكانت القضية إذا نزلت بأبى بكر رضى الله عنه، قضى فيها بما عنده من العلم بكتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ، فإن لم يكن عنده فيها علم من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله ﷺ، سأل من بحضرته من الصحابة رضى الله عنهم عن ذلك، فإن وجد عندهم علماً من ذلك رجع إليه، وإلا اجتهد فى الحكم.

ولما مات أبو بكر، وولى أمر الأمة من بعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فتحت الأمصار وزاد تفرق الصحابة، رضى الله عنهم، فيما افتتحوه من الأقطار. فكانت الحكومة تنزل بالمدينة أو غيرها من البلاد، فإن كان عند الصحابة الحاضرين لها فى ذلك أثر عن رسول الله ﷺ حكم به، وإلا اجتهد أمير تلك البلدة فى ذلك، وقد يكون فى تلك القضية حكم عن النبي، ﷺ، موجود عند صاحب آخر.

وقد حضر المدنى مالم يحضر المصري، وحضر المصرى مالم يحضر الشامي، وحضر الشامى مالم يحضر البصري، وحضر البصرى مالم يحضر الكوفي، وحضر الكوفى مالم يحضر المدني . . . كل هذا موجود فى الآثار، وفيما علم من مغيب بعض الصحابة عن مجلس النبى ﷺ فى بعض الأوقات وحضور غيره، ثم مغيب الذى حضر أمس وحضورة الذى غاب، فيدرى كل واحد منهم ما حضر، ويفوته ما غاب عنه. فمضى الصحابة رضى الله عنهم على ما ذكرنا، ثم خلف بعدهم التابعون الآخذون عنهم.

وكل طبقة من التابعين فى البلاد التى تقدم ذكرها، فإنما تفقهوا مع من كان عندهم من الصحابة، فكانوا لايتعدون فتاويهم إلا اليسير مما بلغهم عن غير من كان فى بلادهم من الصحابة رضى الله عنهم: كاتباع أهل المدينة فى الأكثر فتاوى عبدالله بن عمر رضى الله عنهما، وإتباع أهل الكوفة فى الأكثر فتاوى عبدالله بن مسعود رضى الله عنه، وأتباع أهل مكة فى الأكثر فتاوى عبدالله بن عباس رضى الله عنهما، وإتباع أهل مصر فى الأكثر فتاوى عبدالله بن عمر بن العاص رضى الله عنهما.

ثم أفتى من بعد التابعين رضى الله عنهم فقهاء الأمصار ـ كأبى حنيفة، وسفيان، وابن أبى ليلى بالكوفة، وابن جريج بمكة، ومالك وابن الماجشون بالمدينة، وعثمان السنى وسوار بالبصرة، والأوزاعى بالشام، والليث بن سعد بمصر ـ فجروا على تلك الطريق من أخذ كل

واحد منهم عن التابعين من أهل بلد فيما كان عندهم، واجتهادهم فيما لم يجدوا عندهم وهو موجود عند غيرهم.

وأما مذاهب أهل مصر، فقال أبو سعيد بن يونس: إن عبيد بن مخمر المغافرى - يكنى أبا أمية: رجل من أصحاب النبى ﷺ، شهد فتح مصر، روى عنه أبو قبيل - يقال إنه كان أول من أقرأ القرآن بمصر.

وذكر أبو عمرو الكندي، أن أبا ميسرة عبدالرحمن بن ميسرة، مولى الملامس الحضرمي، كان فقيهاً عفيفاً شريفا، ولد سنة عشر ومائة، وكان أول الناس. أقرأ بمصر بحرف نافع قبل الخمسين ومائة، وتوفى سنة ثمان وثمانين ومائة.

وذكر عن أبى قبيل وغيره أن يزيد بن أبى حبيب أول من نشر العلم بمصر فى الحلال والحرام - وفى رواية ابن يونس: ومسائل الفقه - وكانوا قبل ذلك إنما يتحدثون فى الفتن والترغيب.

وعن عون بن سليمان الحضرمي، قال: كان عمر بن عبدالعزيز قد جعل الفتيا بمصر إلى ثلاثة رجال. رجلان من الموالي، ورجل من العرب. فأما العربى فجعفر بن ربيعة، وأما المولیان فيزيد ابن أبى حسب، وعبد الله بن أبى جعفر. فكأن العرب أنكروا ذلك، فقال عمر بن عبدالعزيز ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعداً وأنتم لاتسمون.

وعن ابن أبى قديد: كانت البيعة إذا جاءت للخليفة، أول من يبايع عبدالله بن أبى جعفر، ويزيد بن أبى حبيب، ثم الناس بعد.

وقال أبو سعيد بن يونس فى «تاريخ مصر» عن حيوة بن شريح، قال: دخلت على حسين بن شفى بن مانع الأصبحى وهو يقول: فعل الله بفلان، فقلت: ماله؟ فقال: عمد إلى كتابين كان شفى سمعهما من عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما: أحدهما قضى رسول الله ﷺ فى كذا، وقال رسول الله ﷺ وسلم كذا، والآخر ما يكون من الأحداث إلى يوم القيامة، فأخذهما فرمى بهما بين الخولة والرباب. قال أبو سعيد بن يونس: يعنى بقوله «الخولة والرباب» مركبين كبيرين من سفن الجسر، كانا يكونان عند رأس الجسر، مما يلى الفسطاط، يجوز من تحتها - لكبرهما - المراكب.

وذكر أبو عمرو الكندى أن أبا سعيد عثمان بن عتيق، مولى غافق، أول من رحل من أهل مصر إلى العراق فى طلب الحديث، توفى سنة أربع وثمانين ومائة. انتهي.

وكان حال أهل الإسلام من أهل مصر وغيرها من الأمصار، فى أحكام الشريعة، على ما تقدم ذكره. ثم كثر الترحل إلى الآفاق، وتداخل الناس والتقوا، وانتدب أقوام لجمع الحديث النبوى وتقييده.

فكان أول من دون العلم محمد بن شهاب الزهري، وكان أول من صنف وبوب سعيد بن عروبة والربيع بن صبيح بالبصرة، ومعمر بن راشد باليمن، وابن جريج بمكة، ثم سفيان الثورى بالكوفة، وحماد بن سلمة بالبصرة، والوليد بن مسلم بالشام، وجرير بن عبدالحميد بالري، وعبدالله بن المبارك بمرو وخراسان، وهشيم بن بشير بواسط. وتفرد بالكوفة أبو بكر بن أبى شيبة بتكثير الأبواب، وجودة التصنيف، وحسن التأليف.

فوصلت أحاديث رسول الله ﷺ من البلاد العبيدة الى من لم تكن عنده، وقامت الحجة على من بلغه شئ منها، وجمعت الأحاديث المبينة لصحة أحد التأويلات المتأولة من الأحاديث، وعرف الصحيح من السقيم، وزيف الاجتهاد المؤدى إلى خلاف كلام رسول الله ﷺ وإلى ترك عمله، وسقط العذر عمن خالف ما بلغه من السنن ببلوغه إليه وقيام الحجة عليه.

وعلى هذا الطريق كان الصحابة رضى الله عنهم، وكثير من التابعين، يرحلون فى طلب الحديث الواحد الأيام الكثيرة. . يعرف ذلك من نظر فى كتب الحديث، وعرف سير الصحابة والتابعين.

فلما قام هارون الرشيد فى الخلافة، وولى القضاء أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم - أحد أصحاب أبى حنيفة رحمه الله تعالى - بعد سنة سبعين ومائة. فلم يقلد ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلا من أشار به القاضى أبو يوسف، رحمه الله، واعتنى به.

وكذلك لما قام بالأندلس الحكم المرتضى بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان بن الحكم، بعد أبيه، وتلقب بالمنتصر فى سنة ثمانين ومائة، اختص

بيحيي بن يحيي بن كثير الأندلسي ـ وكان حج وسمع الموطأ من مالك إلا أبواباً، وحمل عن ابن وهب وعن ابن القاسم وغيره علماً كثيراً، وعاد إلى الأندلس، فنال من الرياسة والحرمة مالم ينله غيره، وعادت الفتيا إليه، وانتهى السلطان والعامة إلى بابه ـ فلم يقلد، فى سائر أعمال الأندلس، قاض إلا بإشارته واعتنائه. فصاروا على رأى مالك، بعدما كانوا على رأى الأوزاعي.

وقد كان مذهب الإمام مالك أدخله إلى الأندلس زياد بن عبدالرحمن ـ الذى يقال له بسطور ـ قبل يحيي بن يحي، وهو أول من أدخل مذهب مالك الأندلس. وكانت أفريقية الغالب عليها السنن والآثار. . إلى أن قدم عبدالله بن فروج، أبو محمد الفارسي، بمذهب أبى حنيفة، ثم غلب أسد بن الفرات ابن سنان، قاضى أفريقية، بمذهب أبى حنيفة.

ثم لما ولى سحنون بن سعيد التنوخى قضاء أفريقية بعد ذلك، نشر فيهم مذهب مالك، وصار القضاء فى أصحاب سحنون دولا. يتصاولون على الدنيا تصاول الفحول على الشول. إلى أن تولى القضاء بها بنو هاشم ـ وكانوا مالكية ـ فتوارثوا القضاء كما تتوارث الضياع. ثم إن المعز بن باديس حمل جميع أهل أفريقية على التمسك بمذهب مالك وترك ماعداه من المذاهب، فرجع أهل أفريقية وأهل الأندلس كلهم إلى مذهب مالك إلى اليوم، رغبة فيما عند السلطان، وحرصاً على طلب الدنيا، إذ كان القضاء والإفتاء فى جميع تلك المدن وسائر القري، لايكون إلا لمن تسمى بالفقه على مذهب مالك، فاضطرب العامة إلى أحكامهم وفتاواهم، ففشا هذا هناك فشوا طبق تلك الأقطار.

كما فشا مذهب أبى حنيفة ببلاد المشرق. حيث إن أبا حامد الاسفرايني، لما تمكن من الدولة فى أيام الخليفة القادر بالله أبى العباس أحمد، قرر معه استخلاف أبى العباس أحمد بن محمد البارزى الشافعي، عن أبى محمد ابن الأكفانى الحنفى قاضى بغداد، فأجيب إليه بغير رضا الأكفاني.

وكتب أبو حامد إلى السلطان محمود بن سبكتكين وأهل خراسان أن الخليفة نقل القضاة عن الحنفية إلى الشافعية. فاشتهر ذلك بخراسان، وصار أهل بغداد حزبين.

وقدم بعد ذلك أبو العلاء صاعد بن محمد، قاضى نيسابور ورئيس الحنفية بخراسان، فأتاه الحنفية، فثارت بينهم وبين أصحاب أبى حامد فتنة ارتفع أمرها إلى السلطان.

فجمع الخليفة الفائز الأشراف والقضاة، وأخرج إليهم رسالة تتضمن: أن الأسفرايني أدخل على أمير المؤمنين مداخل أوهمة فيها النصح والشفقه والأمانة، وكانت على أصول الدخل والخيانة. فلما تبين له أمره، ووضح عنده خبث اعتقاده، فيما سأل فيه من تقليد البارزى الحكم بالحضرة، من الفساد والفتنة والعدول بأمير المؤمنين عما كان عليه أسلافه من إيثار الحنفية وتقليدهم واستعمالهم... صرف البارزي، وأعاد الأمر إلى حقه، وأجراه على قديم رسمه، وحمل الحنفيين على ما كانوا عليه من العناية والكرامة والحرمة والإعزاز، وتقدم إليهم بألا يلقوا أبا حامد، ولا يقضوا له حقاً، ولا يردوا عليه سلاماً.

وخلع على أبى محمد الأكفاني، وانقطع أبو حامد عن دار الخلافة، وظهر التسخط عليه والانحراف عنه، وذلك فى سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، واتصل ببلاد الشام ومصر،

أول من قدم بعلم مالك إلى مصر عبدالرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيي، مولى جمح، وكان فقيها.. روى عنه الليث وابن وهيب ورشيد بن سعد، وتوفى بالإسكندرية سنة ثلاث وستين ومائة. ثم نشره بمصر عبدالرحمن بن القاسم، فاشتهر مذهب مالك بمصر، أكثر من مذهب أبى حنيفة، لتوفر أصحابه مالك بمصر. ولم يكن مذهب أبى حنيفة، رحمه الله، يعرف بمصر.

قال ابن يونس: وقدم إسماعيل بن اليسع الكوفى قاضياً بعد أن لهيعة، وكان من خير قضاتنا، غير أنه كان يذهب إلى قول أبى حنيفة، ولم يكن أهل مصر يعرفون مذهب أبى حنيفة، وكان مذهبة إبطال الأحباس، فثقل أمره على أهل مصر، وسئموه.

ولم يزل مذهب مالك مشتهراً بمصر حتى قدم الشافعى محمد بن إدريس إلى مصر، مع عبدالله بن العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس، فى سنة ثمان وتسعين ومائة. فصحبه من أهل مصر جماعة من أعيانها ـ كبنى عبدالحكم، والربيع بن سليمان، وأبى إبراهيم إسماعيل بنى يحيي المزني، وأبى يعقوب يوسف بن يحيي البويطى ـ وكتبوا عن الشافعى ما ألفه، وعلموا بما ذهب إليه. ولم يذل أمر مذهبه يقوى بمصر، وذكره ينتشر.

قال أبو عمرو الكندى فى كتاب «أمراء مصر» : ولم يزل أهل مصر على الجهر بالبسلمة فى الجامع العتيق إلى سنة ثلاث وخمسين ومائتين . . قال : ومنع أرجون، صاحب شرطة مزاحم بن خاقان أمير مصر، من الجهر بالبسملة فى الصلوات بالمسجد الجامع، وأمر الحسين بن الربيع إمام المسجد الجامع بتركها، وذلك فى رجب سنة ثلاث وستين ومائتين، ولم يزل أهل مصر على الجهر بما فى المسجد الجامع منذ الإسلام إلى أن منع منها أرجون.

قال : وأمر أن تصلى التراويح فى شهر رمضان خمس تراويح، ولم يزل أهل مصر يصلون ست تراويح، حتى جعلها أرجون خمساً فى شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين ومائتين، ومنع من التثويب، وأمر بالأذان يوم الجمعة فى مؤخر المسجد، وأمر بالتغليس بصلاة الصبح، وذلك أنهم أسفروا بها.

وما زال مذهب مالك ومذهب الشافعي، وحمهما الله تعالي، يعمل بهما أهل مصر، ويولى القضاء من كان يذهب إليهما، أو إلى مذهب أبى حنيفة رحمه الله إلى أن قدم القائد جوهر من بلاد أفريقية، فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، بجيوش مولاه المعز لدين الله أبى تميم معد، وبنى مدينة القاهرة. فمن حينئذ فشار بديار مصر مذهب الشيعة، وعمل به فى القضاء والفتيا، وأنكر ما خالفه، ولم يبق مذهب سواه.

وقد كان التشيع بأرض مصر معروفاً قبل ذلك . . قال أبو عمرو الكندى فى «كتاب الموالي» عن عبدالله بن لهيعة أنه قال : قال يزيد بن أبى حبيب . نشأت بمصر وهى علوية، فقلبتها عثمانية .

وكان ابتداء التشيع فى الإسلام أن رجلاً من اليهود، فى خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه، أسلم فقيل له عبدالله بن سبأ، وعرف بابن السوداء، وصار ينتقل من الحجاز إلى أمصار المسلمين يريد إضلالهم . فلم يطق ذلك .

فرجع إلى كيد الإسلام وأهله، ونزل البصرة فى سنة ثلاث وثلاثين، فجعل يطرح على أهلها مسائل ولا يصرح . فأقبل عليه جماعة، ومالوا إليه، وأعجبوا بقول . فبلغ ذلك عبدالله بن عامر ـ وهو يومئذ على البصرة ـ فأرسل إليه، فلما حضر عنده سأله : ما أنت؟

فقال : رجل من أهل الكتاب، رغبت فى الإسلام وفى جوارك.

فقال : ما شئ بلغنى عنك؟ أخرج عني.

فخرج حتى نزل الكوفة، فأخرج منها، فسار إلى مصر واستقر بها، وقال : فى الناس العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع، ويكذب أن محمداً يرجع.

وتحدث فى الرجعة حتى قبلت منه. فقال بعد ذلك : إنه كان لكل نبى وصي، وعلى بن أبى طالب وصى محمد ﷺ، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رصول الله ﷺ فى أن على بن أبى طالب وصيه فى الخلافة على أمته. واعلموا أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، فانهضوا فى هذا الأمر، وأبدأوا بالطعن على أمرائكم، فأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا به الناس.

وبث دعاته، وكاتب من مال إليه من أهل الأمصار وكاتبوه، ودعوا فى السر إلى ما عليه رأيهم، وصاروا يكتبون إلى الأمصار كتباً يضعونها فى عيب ولاتهم، فكتب أهل كل مصر منهم إلى أهل المصر الآخر بما يضعون حتى ملأوا بذلك الأرض إذاعة.

وجاء إلى أهل المدينة من جميع الأمصار. فأتوا عثمان رضى الله عنه فى سنة خمس وثلاثين، وأعلموه ما أرسل به أهل الأمصار من شكوى عمالهم. فبعث محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعمار بن ياسر إلى مصر، وعبدالله بن عمر إلى الشام. . . لكشف سير العمال. فرجعوا إلى عثمان، إلا عمارا، وقالوا : ما أنكرنا شيئاً.

وتأخر عمار، فورد الخبر إلى المدينة بأنه قد استماله عبدالله ابن السوداء فى جماعة. فأمر عثمان عماله أن يوافوه بالمواسم، فقدموا عليه واستشاروه، فكل أشار برأي. ثم قدم المدينة بعد الموسم، فقكان بينه وبين على بن أبى طالب كلام فيه بعض الجفاء بسبب إعطائه أقاربه، ورفعه لهم على من سواهم.

وكان المنحرفون عن عثمان قد تواعدوا يوماً يخرجون فيه بأمصارهم إذا سار عنها الأمراء، فلم يتهيأ لهم الوثوب. وعندما رجع الأمراء من الموسم، تكاتب المخالفون فى القدوم إلى المدينة لينظروا فيما يريدون.

وكان أمير مصر من قبل عثمان رضى الله عنه عبدالله بن سعد بن أبى سرح العامري. فلما خرج فى شهر رجب من مصر فى سنة خمس وثلاثين، استخلف بعده عقبة بن عامر الجهني. . فى قول الليث بن سعد. وقال يزيد بن أبى حبيب: بل استخلف على مصر السائب بن هشام العامري، وجعل على الخراج سليم بن عنز التجيبي.

فانتزى محمد بن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، فى شوال من السنة المذكورة، وأخرج عقبة بن عامر من الفسطاط، ودعا إلى خلع عثمان رضى الله عنه، وأسعر البلاد، وحرض على عثمان بكل شئ يقدر عليه.

فكان يكتب الكتاب على لسان أزواج رسول الله، ﷺ، ويأخذ الرواحل فيضمرها، ويجعل رجالاً على ظهور البيوت ووجوههم إلى وجه الشمس لتلوح وجههم تلويح المسافر، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر، ثم يرسلون رسلاً يخبرون بهم الناس ليلقوهم. وقد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا: ليس عندنا خبر، الخبر فى الكتب.

فيجئ رسول أولئك الذين دس فيذكر مكانهم، فيتلقاهم ابن أبى حذيفة ـ والناس يقولون تتلقى رسل أزواج رسول الله ﷺ ـ فإذا لقوهم قالوا لهم ما الخبر؟ قالوا لا خبر عندنا، عليكم بالمسجد ليقرأ عليكم كتاب أزواج النبى ﷺ.

فيجتمع الناس فى المسجد اجتماعاً ليس فيه تقصير، ثم يقوم القارئ بالكتاب فيقول: إنا نشكو إلى الله وإليكم ما عمل فى الإسلام، وما صنع فى الإسلام. فيقوم أولئك الشيوخ من نواحى المسجد بالبكاء فيبكون، ثم ينزل عن المنبر، ويتفرق الناس بما قرأ عليهم.

فلما رأت ذلك شيعة عثمان رضى الله عنه، اعتزلوا محمد بن أبى حذيفة، ونابذوه ـ وهم. معاوية بن خديج، وخارجة بن حذافة، وبسر بن أرطاة، ومسلمة بن مخلد، وعمرو بن قحزم الخولاني، ومقسم بن بجرة، وحمزة بن سرح بن كلال، وأبو الكنود سعد بن مالك الأزدي، وخالد بن ثابت الفهمى ـ فى جمع كثير، وبعثوا سلمة بن مخرمة التجيبى إلى عثمان ليخبره بأمرهم، وبصنيع ابن أبى حذيفة.

فبعث عثمان، رضى الله عنه، سعد بن أبى وقاص ليصلح أمرهم. فبلغ ذلك ابن أبى حذيفة، فخطب الناس وقال: ألا إن الكذا والكذا قد بعث اليكم سعد بن مالك ليفل جماعتكم، ويشتت كلمتكم، ويوقع التجادل بينكم. . فانفروا إليه.

فخرج منهم مائة أو نحوها، وقد ضرب فسطاطه وهو قائل، فقلبوا عليه فسطاطه، وشجوه وسبوه. فركب راحلته، وعاد راجعاً من حيث جاء، وقال: ضربكم الله بالذل والفرقة، وشتت أمركم، وجعل بأسكم بينكم، ولا أرضاكم بأمير، ولا أرضاه عنكم.

وأقبل عبدالله بن سعد حتى بلغ جسر القلزم. فإذا بخيل لأبن أبى حذيفة، فمنعوه أن يدخل، فقال: ويلكم دعونى أدخل على جندى فأعلمهم بما جئت به، فإنى قد جئتهم بخير فأبوا أن يدعوه فقال: والله لوددت أنى دخلت عليهم، وأعلمهم بما جئت به، ثم مت. فانصرف إلى عسقلان.

وأجمع محمد بن أبى حذيفة على بعث جيش إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، فقال من يتشرط فى هذا البعث. فكثر عليه من يتشرط، فقال: إنما يكفينا منكم ستمائة رجل.

فتشرط من أهل مصر ستمائة رجل. على كل مائة منهم رئيس، وعلى جماعتهم عبدالرحمن أبن عديس البلوي، وهم: كنانة بن بشر بن سليمان التجيبي، وعروة بن سليم الليثي، وأبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وسودان بن ريان الأصبحي، وذرع بن يشكر النافعي.

وسجن رجال من أهل مصر فى دورهم، منهم بسر بن أرطأة ومعاوية بن خديج. فبعث ابن أبى حذيفة إلى معاوية بن خديج ـ وهو أرمد ـ ليكرهه على البيعة. فلما بلغ ذلك كنانة بن بشر ـ وكان رأس الشيعة الأولى ـ دفع عن معاوية ما كره.

ثم قتل عثمان رضى الله عنه فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين، فدخل الركب إلى مصر وهم يرتجزون:

خذها إليك واحذرن أبا الحسن
أنا نمر الحرب امرار الوسن
بالسيف كى تخمد نيران الفتن

فلما دخلوا المسجد صاحوا : إنا لسنا قتله عثمان، ولكن الله قتله.

قلما رأى ذلك شيعة عثمان، قاموا وعقدوا لمعاوية بن خديج عليهم، وبايعوه على الطلب بدم عثمان. فسار بهم معاوية إلى الصعيد، فبعث إليهم ابن أبى حذيفة، فالتقوا بدقناس من كورة البهنسا، فهزم أصحاب ابن أبى حذيفة، ومضى معاوية حتى بلغ برقة، ثم رجع إلى الإسكندرية. فبعث ابن أبى حذيفة بجيش آخر عليهم قيس بن حرمل، فاقتتلوا بخربتا أول شهر رمضان سنة ست وثلاثين، فقتل قيس.

وسار معاوية بن أبى سفيان إلى مصر، فنزل سلمنت من كورة عين شمس فى شوال. فخرج إليه ابن أبى حذيفة فى أهل مصر، فمنعوه أن يدخلها. فبعث إليه معاوية: إنا لا نريد قتال أحد، إنما جئنا نسأل القود لعثمان، أدفعوا الينا قاتليه عبدالرحمن بن عديس وكنانة بن بشر، وهما رأس القوم.

فامتنع ابن أبى حذيفة وقال: لو طلبت منا جدياً أرطب السرة بعثمان ما دفعناه إليك!

فقال معاوية بن أبى سفيان لابن أبى حذيفة: أجعل بيننا وبينكم رهنا، فلا يكون بيننا وبينكم حرب.

فقال ابن أبى حذيفة: فإنى أرضى بذلك.

فاستخلف ابن أبى حذيفة على مصر الحكم ابن الصلت بن مخرمة، وخرج فى الرهن هو وأبن عيسى وكنانة بن بشر وأبو شمر بن أبرهة وغيرهم من قتلة عثمان. فلما بلغوا لد سجنهم بها معاوية، وسار إلى دمشق. فهربوا من السجن، غير أبى شمر بن أبرهه فإنه قال: لا أدخله أسيراً وأخرج منه آبقاً، وتبعهم صاحب فلسطين فقتلهم.

واتبع عبدالرحمن بن عديس رجل من الفرس، فقال له عبدالرحمن بن عديس: اتق الله فى دمي، فإنى بايعت النبى ﷺ تحت الشجرة.

فقال له : الشجر فى الصحراء كثير. فقتله.

وقال محمد بن أبى حذيفة فى الليلة التى قتل فى صباحها عثمان: فإن يكن القصاص لعثمان فسنقتل من الغد.. فقتل من الغد.

وكان قتل ابن أبى حذيفة، وعبدالرحمن بن عديس، وكنانة بن بشر، ومن كان معهم من الرهن، فى ذى الحجة سنة ست وثلاثين.

فلما بلغ على بن أبى طالب رضى الله عنه مصاب ابن أبى حذيفة، بعث قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى على مصر، وجمع له الخراج والصلاة. فدخلها مستهل شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين، واستمال الخارجية بخربتا، ودفع إليهم أعطياتهم، ووفد عليه وفدهم. فأكرمهم وأحسن إليهم، ومصر يومئذ من جيش على رضى الله عنه إلا أهل خربتا الخارجين بها.

فلما ولى على رضى الله عنه قيس بن سعد - وكان من ذرى الرأى - جهد معاوية ابن أبى سفيان وعمرو بن العاص، على أن يخرجاه من مصر ليغلبا على أمرها، فامتنع عليهما بالدهاء والمكايدة، فلم يقدرا على أن يلجا مصر حتى كاد معاوية قيسا من قبل على رضى الله عنه.

فكان معاوية يحدث رجالاً من ذوى رأى قريش فيقول. ما ابتدعت من مكايدة قط أعجب إليَّ من مكايدة كدت بها قيس بن سعد حين امتنع مني. قلت لأهل الشام لاتسبوا قيساً، ولا تدعوا إلى غزوة، فإن قيسا لنا شيعة تأتينا كتبه ونصيحته سرا. ألا ترون ماذا يفعل بإخوانكم النازلين عنده بخربتا؟ يجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم، ويؤمن سربهم، ويحسن إلى كل راكب يأتيه منهم.

قال معاوية: وطفقت أكتب بذلك إلى شيعتى من أهل العراق. فسمع بذلك جواسيس على بالعراق، فأنهاه إليه محمد بن أبى بكر وعبدالله بن جعفر فأتهم قيسا، فكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتا، وبخربتا يومئذ عشرة آلاف.

فأبى قيس أن يقاتلهم، وكتب إلى على رضى الله عنه: «إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم، وأهل الحفاظ منهم، وقد رضوا منى أن أؤمن سربهم، وأجرى عليهم أعطايتهم وأرزاقهم وقد علمت أن هواهم مع معاوية، فلست بكائدهم بأمر أهون على وعليك من الذى أفعل بهم، وهم أسود العرب منهم: بسر بن أرطأة، ومسلمه بن مخلد، ومعاوية بن خديج».

فأبى عليه إلا قتالهم فأبى قيس أن يقاتلهم، وكتب إلى على رضى الله عنه: «أن كنت تتهمنى فاعزلنى وأبعث غيري».

وكتب معاوية رضى الله عنه إلى بعض بنى أمية بالمدينة: «أن جزى الله قيس بن سعد خيراً، فإنه قد كف عن إخواتنا من أهل مصر الذين قاتلوا فى دم عثمان، واكتموا ذلك فإنى أخاف أن يعزله على إن بلغه ما بينه وبين شيعتنا».

حتى بلغ عليا رضى الله عنه ذلك، فقال من معه من رؤساء أهل العراق وأهل المدينة: بّدل قيس وتحول.

فقال علي: ويحكم إنه لم يفعل فدعوني.

قالوا: لتعزلنه فإنه قد بدل.

فلم يزالوا حتى كتب إليه: «إنى قد احتجت إلى قربك، فاسخلف على عملك وأقدم».

فلما قرأ الكتاب قال: هذا من مكر معاوية، ولولا الكذب لمكرت به مكرا يدخل عليه بيته.

فوليها قيس بن سعد إلى أن عزل عنها أربعة أشهر وخمسة أيام، وصرف لخمس خلون من رجب سنة سبع وثلاثين. ثم وليها الأشتر مالك بن الحارث بن عبديغوث النخعى من قبل أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه. وذلك أن عبدالله بن جعفر كان إذا أراد ألا يمنعه على شيئاً قال له بحق جعفر، فقال له: أسألك بحق جعفر ألا بعثت الأشتر إلى مصر، فإن ظهر فهو الذى تحب، وإلا استرحت منه.

ويقال كان الأشتر قد ثقل على على رضى الله عنه وأبغضه وقلاه، فولاه وبعثه. فلما قدم قلزم مصر، لقى بما يلقى العمال به هناك، فشرب شربه عسل فمات. فلما أخبر على بذلك قال: لليدين وللفم. وسمع عمرو بن العاص بموت الأشتر فقال: أن لله جنوداً من عسل، أو قال: إن الله جنوداً من العسل.

ثم وليها محمد بن أبى بكر الصديق من قبل على رضى الله عنهم، وجمع له صلاتها وخراجها. فدخلها للنصف من شهر رمضان سنة سبع وثلاثين، فلقيه قيس بن سعد فقال

له: «إنه لايمنعنى نصحى لك عزله أياي، ولقد عزلنى من غير وهن ولاعجز، فاحفظ ما أوصيك به يدم صلاح حالك: دع معاوية بن خديج ومسلمة بن مخلد وبسر بن أرطأة ومن ضوى إليهم على ما هم عليه، لا تكفهم عن رأيهم، فإن أتوك ولم يفعلوا فأقبلهم، وإن تخلفوا عنك فلا تطلبهم. . .

«وانظر هذا الحى من مضر. فأنت أولى بهم مني: فألن لهم جناحك، وقرب عليهم مكانك، وارفع عنهم حجابك، وانظر هذا الحى من مدلج، فدعهم وما غلبوا عليه يكفوا عنك شأنهم، وأنزل الناس من بعد على قدر منازلهم، فإن استطعت أن تعود المرضي، وتشهد الجنائز، فافعل فإن هذا لاينقصك، ولن تفعل، إنك والله ما علمت لتظهر الخيلاء وتحب الرياسة، وتسارع إلى ما هو ساقط عنك. والله موفقك».

فعمل محمد بخلاف ما أوصاه به قيس، فبعث إلى ابن خديج والخارجة معه يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه، فبعث إلى دور الخارجة فهدمها، ونهب أموالهم، وسجن ذراريهم، فنصبوا له الحرب، وهموا بالنهوض إليه، فلما علم أنه لاقوة له بهم أمسك عنهم، ثم صالحهم على أن يسيرهم إلى معاوية، وأن ينصب لهم جسر أنتقيوس يجوزون عليه، ولا يدخلون الفسطاط. ففعلوا ولحقوا بمعاوية.

فلما أجمع على رضى الله عنه ومعاوية على الحكمين، أغفل على أن يشترط على معاوية ألا يقاتل أهل مصر. فلما انصرف على إلى العراق، بعث معاوية رضى الله عنه عمرو بن العاص رضى الله عنه فى جيوش أهل الشام إلى مصر فاقتتلوا قتالاً شديداً انهزم فيه أهل مصر، ودخل عمرو بأهل الشام الفسطاط.

وتغيب محمد بن أبى بكر، فأقبل معاوية ابن خديج فى رهط ممن يعينه على كل من كان يمشى فى قتل عثمان، وطلب ابن أبى بكر، فدلتهم عليه أمرأة، فقال: أحفظونى فى أبى بكر.

فقال معاوية بن خديج: قتلت ثمانين رجلاً من قومى فى عثمان، وأتركك وأنت صاحبه. فقتله ثم جعله فى جيفة حمار ميت فأحرقه بالنار.

فكانت ولاية محمد بن أبى بكر خمسة أشهر، ومقتله لأربع عشرة خلت من صفر سنة ثمان وثلاثين.

ثم ولى عمرو بن العاص مصر من بعده، فاستقبل بولايته هذه الثانية عشر ربيع الأول، وجعل إليه الصلات والخراج - كانت مصر قد جعلها معاوية له طعمة بعد عطاء جندها والنفقة على مصلحتها - ثم خرج إلى الحكومة، واستخلف على مصر ابنه عبدالله بن عمرو، وقتل خارجة بن حذافة، ورجع عمرو إلى مصر فأقام بها.

وتعاقد بنو ملجم - عبدالرحمن وقيس ويزيد - على قتل على رضى الله عنه وعمرو ومعاوية رضى الله عنهما، وتواعدوا على ليلة من رمضان سنة أربعين، فمضى كل منهم إلى صاحبه.

فلما قتل على بن أبى طالب رضى الله عنه، واستقر الأمر لمعاوية، كانت مصر - جندها وأهل شوكتها - عثمانية، وكثير من أهلها علوية.

فلمات مات معاوية، ومات ابنه يزيد بن معاوية، كان على مصر سعيد بن يزيد الأزدى على صلاتها. فلم يزل أهل مصر على الشنآن له، والإعراض عنه والتكبر عليه، منذ ولاه يزيد بن معاوية، حتى مات يزيد فى سنة أربع وستين.

ودعا عبدالله بن الزبير إلى نفسه. فقامت الخوارج بمصر فى أمره، وأظهروا دعوته - وكانوا يحسبونه على مذهبهم - وأوفدوا منهم وفداً إليه، فسار منهم نحو الألفين من مصر، وسألوه أن يبعث إليهم بأمير يقومون معه ويؤازرونه، وكان كريب بن أبرهة الصباح، وغيره من أشراف مصر يقولون: ماذا نرى من العجب. أن هذه الطائفة المكتتمة تأمر فينا وتنهي، ونحن لانستطيع أن نرد أمرهم. ولحق بابن الزبير ناس كثير من أهل مصر.

وكان أول من قدم مصر برأى الخوارج حجر بن الحارث بن قيس المذحجى - وقيل حجر بن عمرو - وبكنى بأبى الورد، وشهد مع على صفين، ثم صار من الخوارج، وحضر مع الحرورية النهروان. فخرج وصار إلى مصر برأى الخوارج، أقام بها حتى خرج منها إلى ابن الزبير فى إمارة مسلمة بن مخلد الأنصارى على مصر.

فلما مات يزيد بن معاوية، وبويع ابن الزبير بعده بالخلافة، بعث إلى مصر بعبد الرحمن بن جحدم الفهري. فقدمها فى طائفة من الخوارج، فوثبوا على سعيد بن يزيد، فاعتزلهم. واستمر ابن جحدم، وكثرت الخوارج بمصر منها وممن قدم من مكة، فأظهروا فى مصر التحكيم، ودعوا إليه، فاستعظم الجند ذلك. وبايعه الناس على غل فى قلوب ناس من شيعة بنى أمية: منهم كريب بن أبرهة، ومقسم بن بجرة، وزياد بن حناطة التجيبي، وعابس بن سعيد وغيرهم. فصار أهل مصر حينئذ ثلاث طوائف: علوية، وعثمانية، وخوارج.

فلما بويع مروان بن الحكم بالشام فى ذى القعدة سنة أربع وستين، كانت شيعته من أهل مصر مع ابن جحدم، فكاتبوه سراً حتى أتى مصر فى أشراف كثيرة، وبعث ابنه عبدالعزيز بن مروان فى جيش إلى أيلة ليدخل من هناك مصر.

وأجمع ابن جحدم على حرية ومتعه، فحفر الخندق فى شهر - وهو الخندق الذى بالقرافة - وبعث بمراكب فى البحر ليخالف إلى عيالات أهل الشام، وقطع بعثا فى البر، وجهز جيشاً آخر إلى أيلة لمنع عبدالعزيز من المسير منها. فغرقت المراكب، ونجا بعضها، وانهزمت الجيوش، ونزل مروان عين شمس، فخرج إليه ابن جحدم فى أهل مصر، فتحاربوا واستحر القتل، فقتل من الفريقين خلق كثير.

ثم إن كريب بن أبرهة وعابس بن سعيد وزياد بن حناطة وعبدالرحمن بن موهب المغافري، دخلوا فى الصلح بن أهل مصر وبين مروان فتم، ودخل مروان إلى الفسطاط لغرة جمادى الأولى سنة خمس وستين. فكانت ولاية ابن جحدم تسعة أشهر.

ووضع العطاء فبايعه الناس، إلا نفرا من المغافر قالوا: لا نخلع بيعة ابن الزبير. فقتل منهم ثمانين رجلاً. قدمهم رجلاً رجلاً فضرب أعناقهم وهم يقولون: إنا قد بايعنا ابن الزبير طائعين، فلم نكن لننكث بيعته. وضرب عنق الأكدر بن حسام بن عامر، سيد لخم وشيخها، وحضر هو وأبوه فتح مصر، وكانا ممن ثار إلى عثمان رضى الله عنه، فتنادى الجند: قتل الأكدر. فلم يبق أحد حتى لبس سلاحه، فحضر باب مروان منهم زيادة على ثلاثين ألفاً.

وخشى مروان، وأغلق بابه حتى أتاه كريب ابن أبرهة، وألقى عليه داءه، وقال للجند: انصرفوا، أنا له جار. فما عطف أحد منهم، وانصرفوا إلى منازلهم، وكان للنصف من

جمادى الآخرة. ويومئذ مات عبدالله بن عمرو ابن العاص، فلم يستطع أحد أن يخرج بجنازته إلى المقبرة لشغل الجند على مروان. ومن حينئذ غلبت العثمانية على مصر، فتظاهروا فيها بسب على رضى الله عنه، وانكفت ألسنة العلوية والخوارج.

فلما كانت ولاية قرة بن شريك العبسى على مصر، من قبل الوليد بن عبدالملك فى سنة تسعين، خرج إلى الإسكندرية فى سنة إحدى وتسعين. فتعاقدت السراة من الخوارج بالإسكندرية على الفتك به - وكانت عدتهم نحوا من مائة - فعقدوا لرئيسهم المهاجر بن أبى المثنى التجيبي، أحد بنى فهم عليهم عند منارة الإسكندرية.

وبالقرب منهم رجل يكنى أبا سليمان، فبلغ قره ما عزموا عليه، فأتى لهم قبل أن يتفرقوا، فأمر بحبسهم فى أصل منارة الإسكندرية، وأحضر قرة وجوه الجند فسألهم فأقروا فقتلهم، ومضى رجل ممن كان يرى رأيهم إلى أبى سليمان فقتله. فكان يزيد بن أبى حبيب إذا أراد أن يتكلم بشئ فيه تقية من السلطان تلفت وقال: أحذروا أبا سليمان. ثم قال الناس كلهم من ذلك اليوم: أبو سليمان.

فلما قام عبدالله بن يحيي - الملقب بطالب الحق - فى الحجاز على مروان بن محمد الجعدي، قدم إلى مصر داعيته ودعا الناس، فبايع له ناس من تجيب وغيرهم. فبلغ ذلك حسان بن عتاهية، صاحب الشرطة، فاستخرجهم، فقتلهم حوثرة بن سهيل الباهلى أمير مصر من قبل مروان بن محمد.

فلما قتل مروان، وانقضت أيام بنى أمية ببنى العباس فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة، خمدت جمرة أصحاب المذهب المروانى - وهم الذين كانوا يسبون على بن أبى طالب ويتبرأون منه - وصاروا منذ ظهر بنو العباس يخافون القتل، ويخشون أن يطلع عليهم أحد. إلا طائفة كانت بناحية الواحات وغيرها، فإنهم أقاموا على مذهب المروانية دهراً حتى فنوا، ولم يبق لهم الآن بديار مصر وجود ألبتة.

فلما كان فى إمارة حميد بن قحطبة على مصر، من قبل أبى جعفر المنصور، قدم إلى مصر على بن محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب داعية لأبية

وعمه، فذكر لحميد فقال : هذا كذب . ودس إليه أن تغيب، ثم بعث إليه من الغد فلم يجده، فكتب بذلك إلى أبى جعفر المنصور، فعزل حميداً، وسخط عليه فى ذى القعدة سنة أربع وأربعين ومائة .

وولى يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة . فظهرت دعوة بنى حسن بن على بمصر، وتكلم الناس بها، وبايع كثير منهم لعلى بن محمد بن عبدالله ـ وهو أول علوى قدم مصر ـ وقام بأمر دعوته خالد بن سعيد ابن ربيعة بن حبيش الصدفي . وكان جده ربيعة بن حبيش من خاصة على بن أبى طالب وشيعته، وحضر الدار فى قتل عثمان رض الله عنه .

فاستشار خالد أصحابه الذين بايعوا له . فأشار عليه بعضهم أن يبيت يزيد بن حاتم فى العسكر ـ وكان الأمراء قد صاروا، منذ قدمت عساكر بنى العباس، ينزلون فى العسكر الذى بنى خارج الفسطاط من شماليه . . كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب ـ وأشار عليه آخرون أن يحوز بيت المال، وأن يكون خروجهم فى الجامع . فكره خالد أن يبيت يزيد بن حاتم، وخشى على اليمانية .

وخرج منهم رجل قد شهد أمرهم حتى أتى إلى عبدالله بن عبدالرحمن بن معاوية بن خديج ـ وهو يومئذ على الفسطاط ـ فخبره أنهم الليلة يخرجون . فمضى عبدالله بن يزيد ابن حاتم وهو بالعسكر، فكان من أمرهم ما كان لعشر من شوال سنة خمس وأربعين ومائة، فانهزموا .

ثم قدمت الخطباء برأس ابراهيم بن عبدالله ابن الحسن بن الحسين، فى ذى الحجة من السنة المذكورة، إلى مصر ونصبوه فى المسجد الجامع، وقامت الخطباء فذكروا أمره . وحمل على بن محمد إلى أبى جعفر المنصور، وقيل إنه اختفى عند عسامة بن عمرو بقرية طره، فمرض بها ومات فقير هناك . وحمل عسامة إلى العراق، فجس إلى أن رده المهدى محمد بن أبى جعفر إلى مصر .

ومازالت شيعة على بمصر إلى أن ورد كتاب المتوكل على الله إلى مصر، يأمر فيه بإخراج آل أبى طالب من مصر إلى العراق . فأخرجهم إسحاق بن يحيي الختلى أمير مصر،

فأخرجهم اسحاق بن يحيي الختلى أمير مصر، وفرق فيهم الأموال يتجملوا بها، وأعطى كل رجل ثلاثين ديناراً، والمرأة خمسة عشر ديناراً. فخرجوا لعشر خلون من رجب سنة ست وثلاثين ومائتين، وقدموا العراق، فأخرجوا إلى المدينة فى شوال منها.

واستتر من كان بمصر على رأى العلوية. حتى أن يزيد بن عبدالله أمير مصر ضرب رجلاً من الجند فى شئ وجب عليه، فأقسم عليه بحق الحسن والحسين إلا عفا عنه، فزاده ثلاثين درة. ورفع ذلك صاحب البريد إلى المتوكل، فورد الكتاب على يزيد بضرب ذلك الجندى مائة سوط فضربها، وحمل بعد ذلك إلى العراق فى شوال سنة ثلاث وأربعين ومائتين.

وتتبع يزيد الروافض فحملهم إلى العراق، ودل فى شعبان على رجل، يقال له محمد بن على بن الحسن بن على بن الحسن بن على ابن أبى طالب، أنه بويع له. فأحرق الموضع الذى كان به، وأخذ فأقر على جميع من الناس بايعوه، فضرت بعضهم بالسياط، وأخرج العلوى هو وجمع من آل أبى طالب إلى العراق فى شهر رمضان.

ومات المتوكل فى شوال. فقام من بعده ابنه محمد المستنصر، فورد كتابه إلى مصر: بألا يقبل علوى ضيعة، ولايركب فرسا، ولايسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد. ومن كان بينه وبين أحد من الطالبيين خصومة من سائر الناس، قبل قول خصمة فيه، ولم يطالب ببينه، وكتب إلى العمال بذلك. ومات المستنصر فى ربيع الآخر، وقام المستعين، فأخرج يزيد ستة رجال من الطالبيين إلى العراق فى رمضان سنة خمسين ومائتين، ثم أخرج ثمانية منهم فى رجب سنة إحدى وخمسين.

وخرج جابر بن الوليد المدلجى بأرض الإسكندرية فى ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين، واجتمع إليه كثير من بنى مدلج، فبعث إليه محمد بن عبيد الله بن يزيد بجيش من الإسكندرية، فهزمهم وظفر بما معهم، وقوى أمره، وأتاه الناس من كل ناحية، وضوى إليه كل من يومى إليه بشده ونجدة، فكان ممن أتاه عبدالله المريسى - وكان لصا خبيثاً - ولحق به جريج النصراني، وكان من شرار النصارى وأولى بأسهم.

ولحق به أبو حرملة فرج النوبى - وكان فاتكا - فعقد له جابر على سنهور، وسخا، وشرقيون، وبنا. فمضى أبو حرملة فى جيش عظيم، فأخرج العمال، وجبى الخراج.

ولحق به عبدالله بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن عبدالله بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ـ الذى يقال له ابن الأرقط ـ فقوده أبو حرملة، وضم إليه الأعراب، وولاه بنا وبوصير وسمنود.

فبعث يزيد أمير مصر بجمع من الأتراك فى جمادى الآخرة، فقاتلهم ابن الأرقط، وقتل منهم. ثم ثبتوا له، فانهزم وقتل من أصحابه كثير، وأسر منهم كثير. ولحق ابن الأرقط بأبى حرملة فى شرقيون، فصار إلى عسكر يزيد، فانهزم أبو حرملة، وقدم مزاحم بن خاقان من العراق فى جيش، فحارب أبا حرملة حتى أسر فى رمضان.

وأستأمن ابن الأرقط، فأخذ وأخرج إلى العراق فى ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين ومائتين، ففر منهم، ثم ظفر به وحبس، ثم حمل إلى العراق فى صفر سنة خمس وخمسين ومائتين بكتاب ورد على أحمد بن طولون. ومات أبو حرملة فى السجن لأربع بقين من ربيع الآخر سنة أربع وخمسين.

وخرج فى أمرة أروجون التركى رجل من العلويين يقال له بغا الأكبر ـ وهو أحمد بن إبراهيم بن عبدالله بن طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن حسن بن حسين بن على ـ بالصعيد، فحاربه أصحاب أرجون، وفر منهم فمات. ثم خرج بغا الأصغر ـ وهو أحمد بن محمد بن عبدالله بن طباطا ـ فيما بين الإسكندرية وبرقة فى جمادى الأولى سنة خمس وخمسين ومائتين ـ والأمير يومئذ أحمد بن طولون ـ وسار فى جمع إلى الصعيد. فقتل فى الحرب، وأتى برأسه إلى الفسطاط فى شعبان.

وخرج ابن الصوفى العلوى بالصعيد ـ وهو إبراهيم بن محمد بن يحيي بن عبدالله ابن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب ـ ودخل إسنا فى ذى القعدة سنة خمس وخمسين ونهبها وقتل أهلها. فبعث إليه ابن طولون بجيش فحاربوه، فهزمهم فى ربيع الأول سنة ست وخمسين بهو، فبعث ابن طولون إليه بجيش آخر، فالتقيا بأخميم فى ربيع الآخر، فانهزم ابن الصوفي، وترك جميع ما معه، وقتلت رجالته.

فأقام ابن الصوفى بالواح سنتين، ثم خرج إلى الأشمونين فى المحرم سنة تسع وخمسين، وسار إلى أسوان لمحاربة أبى عبدالرحمن العمري، فظفر به العمرى وبجميع

جيشه، وقتل منهم مقتلة عظيمة، ولحق ابن الصوفى بأسوان فقطع لأهلها ثلاثمائة ألف نخلة. فبعث إليه ابن طولون بعثا، فاضطرب أمره مع أصحابه فتركهم، ومضى إلى عيذاب فركب البحر إلى مكة، فقبض عليه بها، وحمل إلى ابن طولون فسجنه ثم أطلقه، فصار إلى المدينة ومات بها.

وفى إمارة هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون، أنكر رجل من أهل مصر أن يكون أحد خيراً من أهل البيت، فوثبت إليه العامة، فضرب بالسياط يوم الجمعة فى جمادى الأولى سنة خمس وثمانين ومائتين.

وفى إمارة ذكا الأعور على مصر، كتب على أبواب الجامع العتيق ذكر الصحابة والقرآن، فرضيه جمع من الناس، وكرهه آخرون. فاجتمع الناس فى رمضان سنة خمس وثلاثمائة إلى دار ذكا يتشكرون على ما أذن لهم فيه، فوثب الجند بالناس، فنهب قوم، وجرح آخرون، ومحى ما كتب على أبواب الجامع، ونهب الناس فى المسجد والأسواق، وأفطر الجند يومئذ.

ومازال أمر الشيعة يقوى بمصر، إلى أن دخلت سنة خمسين وثلاثمائة، ففى يوم عاشوراء كانت منازعة بين الجند وبين جماعة من الرعية، عند قبر كلثوم العلوية، بسبب ذكر السلف والنوح، قتل فيها جماعة من الفريقين. وتعصب السودان على الرعية، فكانوا إذا لقوا أحدا قالوا له: من خالك؟ فإن لم يقل معاوية وإلا بطشوا به وشلحوه. ثم كثر القول: معاوية خال علي.

وكان على باب الجامع العتيق شيخان من العامة يناديان فى كل يوم جمعة فى رجوة الناس من الخاص والعام معاوية خالى وخال المؤمنين، وكاتب الوحي، ورديف رسول الله ﷺ وكان هذا أحسن ما يقولونه. وإلا فقد كانوا يقولون: معاوية خال على من هاهنا - ويشيرون إلى أصل الأذن - ويلقون أبا جعفر مسلماً الحسيني، فيقولون له ذلك فى وجهه، وكان بمصر أسود يصبح دائماً: معاوية خال علي، فقتل بتنيس أيام القائد جوهر.

ولما ورد الخبر بقيام بنى حسن بمكة، ومحاربتهم الحاج ونهبهم، خرج خلق من المصريين فى شوال، فلقوا كافور الأخشيدى بالميدان ظاهر مدينة مصر، وضجوا وصاحوا: معاوية خال علي، وسألوه أن يبعث لنصرة الحاج على الطالبيين.

وفى شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، أخذ رجل - يعرف بابن أبى الليث الملطى - ينسب إلى التشيع، فضرب مائتى سوط ودرة، ثم ضرب فى شوال خمسمائة سوط ودرة، وجعل فى عنقه غل وحبس، وكان يتفقد فى كل يوم لئلا يخفف عنه، ويبصق فى وجهه، فمات فى محبسه. فحمل ليلاً ودفن. فمضت جماعة إلى قبرة لينبشوه، وبلغوا إلى القبر، فمنعهم جماعة من الإخشيدية والكافورية، فأبوا وقالوا: هذا قبر رافضي. فثارت فتنة، وضرب جماعة، ونهبوا كثيرا حتى تفرق الناس.

وفى سنة ست وخمسين، كتب فى صفر على المساجد ذكر الصحابة والتفضيل. فأمر الأستاذ كافور الأخشيدى بإزالته، فحدثه جماعة فى إعادة ذكر الصحابة على المساجد، فقال: ما أحدث فى أيامى مالم يكن، وما كان فى أيام غيرى فلا أزيله، وما كتب فى أيامى أزيلة، ثم أمر من طاف وأزالة من المساجد كلها.

ولما دخل جوهر القائد بعساكر المعز لدين الله إلى مصر، وبنى القاهرة، وأظهر مذهب الشيعة، وأذن فى جميع المساجد الجامعة وغيرها: «حى على خير العمل»، وأعلن بتفضيل على بن أبى طالب على غيره، وجهر بالصلاة عليه وعلى الحسن والحسين وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهم.

فشكا إليه جماعة من أهل المسجد الجامع أمر عجوز عمياء تنشد فى الطريق، فأمر بها فحبست. فسر الرعية بذلك، ونادوا بذكر الصحابة، ونادوا: معاوية خال على وخال المؤمنين. فأرسل جوهر حين بلغه ذلك رجلاً إلى الجامع، فنادى: أيها الناس أقلوا القول ودعوا الفضول، فإنما حبسنا العجوز صيانة لها، فلا ينطقن أحد إلا حلت به العقوبة الموجعة. ثم أطلق العجوز.

وفى ربيع الأول سنة اثنتين وستين، عزر سليمان بن عروة المحتبس جماعة من الصيارفة فشغبوا وصاحوا: معاوية خال على بن أبى طالب. فهم جوهر أن يحرق رحبة الصيارفة، لكن خشى على الجامع.

وأمر الإمام بجامع مصر أن يجهر بالبسملة فى الصلاة - وكانوا لايفعلون ذلك - وزيد فى صلاة الجمعة القنوت فى الركعة الثانية، وأمر فى المواريث بالرد على ذوى الأرحام، وألا

يرث مع البت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ولا ابن عم، ولايرث مع الولد الذكر أو الأنثى إلا الزوج أو الزوجة والأبوان والجدة، ولايرث مع الأم إلا من يرث مع الولد.

وخاطب أبو الطاهر محمد بن أحمد قاضى مصر القائد جوهراً فى بنت وأخ، وأنه كان حكم قديماً للبنت بالنصف، وللأخ بالباق. فقال: لا أفعل فلما ألح عليه، قال: ياقاضى هذا عداوة لفاطمة عليها السلام فأمسك. أبو الطاهر، ولم يراجعه بعد فى ذلك.

وصار صوم شهر رمضان والفطر على حساب لهم. فأشار الشهود على القاضى أبى الطاهر ألا يطلب الهلال، لأن الصوم والفطر على الرؤية قد زال. فانقطع طلب الهلال من مصر، وصام القاضى وغيره مع القائد جوهر كما يصوم، وأفطروا كما يفطر.

ولما دخل المعز لدين الله إلى مصر، ونزل بقصره من القاهرة المعزية، أمرفى رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، فكتب على سائر الأماكن بمدينة مصر «خير الناس بعد رسول الله ﷺ أمير المؤمنين على ابن أبى طالب عليه السلام».

وفى صفر سنة خمس وستين وثلاثمائة، جلس على بن النعمان القاضى بجامع القاهرة- المعروف بالجامع الأزهر- وأملى مختصر أبيه فى الفقه عن أهل البيت، ويعرف هذا المختصر بالاقتصار، وكان جمعاً عظيماً، وأثبت أسماء الحاضرين.

ولما تولى يعقوب بن كلس الوزارة للعزيز بالله نزار بن المعز، رتب فى داره العلماء من الأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين، وأجرى لجميعهم الأرزاق، وألف كتاباً فى القفه، ونصب له مجلساً- وهو يوم الثلاثاء- يجتمع فيه الفقهاء وجماعة من المتكلمين وأهل الجدل، وتجرى بينهم المناظرات.

وكان يجلس أيضاً فى يوم الجمعة، فيقرأ مصنفاته على الناس بنفسه، ويحضر عنده القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وأصحاب الحديث، ووجوه أهل العلم والشهود. فإذا انقضى المجلس من القراءة، قام الشعراء لإنشاد مدائحهم فيه، وجعل للفقهاء فى شهر رمضان الأطعمة.

وألف كتابا فى الفقه يتضمن ما سمعه من المعز لدين الله ومن ابنه العزيز بالله، وهو مبوب على أبواب الفقه، يكون قدره مثل نصف صحيح البخاري. . ملكته ووقفت عليه،

وهو يشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية. وكان يجلس لقراءأة هذا الكتاب على الناس بنفسه، وبين يديه حواص الناس وعوامهم، وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء وأفتى الناس به، ودرسوا فيه بالجامع العتيق.

وأجرى العزيز بالله لجماعة من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير ويلازمونه، أرزاقا تكفيهم فى كل شهر، وأمر لهم ببناء دار إلى جانب الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة تحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلى صلاة العصر. وكان لهم من مال الوزير أيضاً صلة فى كل سنة، وعدتهم خمسة وثلاثون رجلاً، وخلع عليهم العزيز بالله فى يوم عيد الفطر، وحملهم على بغال.

وفى سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة، أمر العزيز بن المعز بقطع التراويح من جميع البلاد المصرية. وفى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ضرب رجل بمصر، وطيف به المدينة، من أجل أنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس رحمه الله.

وفى شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وثلاثمائة جلس القاضى محمد بن النعمان على كرسى بالقصر فى القاهرة لقراءة علوم أهل البيت، على الرسم المتقدم له ولأخيه بمصر ولأبيه بالمغرب، فمات فى الزحمة أحد عشر رجلاً.

وفى جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، قبض على رجل من أهل الشام سئل عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فقال: لا أعرفه. فاعتقله قاضى القضاة الحسن بن النعمان، قاضى أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله على القاهرة المعزية ومصر والشامات والحرمين والمغرب، وبعث إليه وهو فى السجن أربعة من الشهود وسألوه، فأقر بالنبى ﷺ وأنه نبى مرسل، وسئل عن على بن أبى طالب فقال: لا أعرفه.

فأمر قائد القواد الحسين بن جوهر بإحضاره فخلا به ورفق فى القول له، فلم يرجع عن انكاره معرفة على بن أبى طالب. فطولع الحاكم بأمره، فأمر بضرب عنقه، فضرب عنقه وصلب.

وفى سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، قبض على ثلاثة عشر رجلاً، وضربوا وشهروا على الجمال، وحبسوا ثلاثة أيام من أجل أنهم صلوا صلاة الضحي.

وفى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، قرئ سجل فى الجوامع بمصر والقاهرة والجزيرة: بأن تلبس النصارى واليهود الغيار والزنار، وغيارهم السواد غير العاصين العباسين، وأن يشدوا الزنار، وفيه وقوع وفحش فى حق أبى بكر وعمر رضى الله عنهما.

وقرئ سجل آخر فيه منع الناس من أكل الملوخيا المحببة كانت لمعاوية بن أبى سفيان، ومنعهم من أكل البقلة المسماة بالجرجير المنسوبة لعائشة رضى الله عنها، ومن المتوكلية المنسوبة إلى المتوكل، والمنع من عجين الخبز بالرجل، والمنع من أكل الدلينس، ومن ذبح البقر إلا ذا عاهة - ما عدا أيام النحر فإنه يذبح فيها البقر فقط - والوعيد للنخاسين متى باعوا عبداً أو أمة لذمي.

وقرئ سجل آخر بأن يؤذن لصلاة الظهر فى أول الساعة السابعة، ويؤذن لصلاة العصر فى أول الساعة التاسعة.

وقرئ أيضاً سجل بالمنع من عمل الفقاع وبيعه فى الأسواق، لما يؤثر عن على بن أبى طالب رضى الله عنه من كراهية شرب الفقاع، وضرب فى الطرقات والأسواق بالحرس، ونودى ألا بدخل أحد الحمام إلا بمئزر، ولا تكشف أمرأة وجهها فى طريق ولا خلف جنازة ولاتتبرج، ولا يباع شئ من السمك بغير قشر، ولا يصطاده أحد من الصيادين. وقبض على جماعة وجدوا فى الحمام بغير مئزر، فضربوا وشهروا.

وكتب فى صفر من هذه السنة على سائر المساجد، وعلى الجامع العتيق بمصر من ظاهره وباطنه من جميع جوانبه، وعلى أبواب الحوانيت والحجر، وعلى المقابرِ والصحراء.. سب السلف ولعنهم، ونقش ذلك ولون بالأصباغ والذهب، وعمل ذلك على أبواب الدور والقياسر، وأكره الناس على ذلك.

وتسارع الناس إلى الدخول فى الدعوة. فجلس لهم قاضى القضاة عبدالعزيز بن محمد بن النعمان، فقدموا من سائر النواحى والضياع. فكان للرجال يوم الأحد، وللنساء يوم الأربعاء، وللأشراف وذوى الأقدار يوم الثلاثاء. وازدحم الناس على الدخول فى الدعوة، فمات عدة من الرجال والنساء.

ولما وصلت قافلة الحاج، مر بهم من سب العامة وبطشهم مالا يوصفم. فإنهم أرادوا حمل الحاج على سب السلف فأبوا، فحل بهم مكروه شديد.

وفى جمادى الآخرة من هذه السنة، فتحت دار الحكمة بالقاهرة، وجلس فيها القراء، وحملت الكتب إليها من خزائن القصور، ودخل الناس إليها، وجلس فيها القراء والفقهاء والمنجمون والنحاة وأصحاب اللغة والأطباء، وحصل فيها من الكتب فى سائر العلوم مالم ير مثله مجتمعاً، وأجرى على من فيها من الخدام والفقهاء الأرزاق السنية، وجعل فيها ما يحتاج إليه من الحبر والأقلام والمحابر والورق.

وفى يوم عاشوراء فى سنة ست وتسعين وثلاثمائة، كان من اجتماع الناس ما جرت به العادة، وأعلن بسب السلف فيه. فقبض على رجل نودى عليه: هذا جزاء من سب عائشة وزوجها ﷺ، ومعه من الرعاع مالا يقع عليه حصر، وهم يسبون السلف، فلما تم النداء عليه ضرب عنقه. واستهل شهر رجب من هذه السنة بيوم الأربعاء، فخرج أمر الحاكم بأمر الله أن يؤرخ بيوم الثلاثاء.

وفى سنة سبع وتسعين وثلاثمائة، قبض على جماعة ممن يعمل الفقاع، ومن السماكين ومن الطباخين. وكبست الحمامات فأخذ عدة ممن وجد بغير مئزر، فضرب الجميع لمخالفتهم الأمر، وشهروا.

وفى تاسع ربيع الآخر، أمر الحاكم بأمر الله بمحو ما كتب على المساجد وغيرها من سب السلف، وطاف متولى الشرطة، وألزم كل أحد بمحو ما كتب على المساجد من ذلك.

ثم قرئ سجل فى ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وثلاثمائة بألا يحمل شئ من النبيذ والمزر، ولا يتظاهر به، ولا بشئ من الفقاع والدلينس والسمك الذى لاقشر له والترمس العفن.

وقرئ سجل فى رمضان على سائر المنابر: بأنه يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون، ولايعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون. صلاة الخمس الدين فبما جاءهم فيها يصلون، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لامانع لهم منها، ولاهم عنها

يدفعون. يخمس فى التكبير على الجنائز المخمسون، ولايمنع من التربيع عليها المربعون. يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون، ولايؤذى من بها لا يؤذنون. ولا يسب أحد من السلف، ولايحتسب على الواصف فيهم بما وصف، والحالف منهم بما حلف. لكل مسلم مجتهد فى دينه واجتهاده، وإلى الله ربه معاده، عنده كتابه وعليه حسابه.

وفى صفر سنة أربعمائة، شهر جماعة بعدما ضربوا بسبب بيع الفقاع والملوخيا والدلينس والترمس.

وفى تاسع عشر شهر شوال، أمر الحاكم بأمر الله برفع ما كان يؤخذ من الخمس والزكاة والفطرة والنجوي، وأبطل قراءة مجالس الحكمة فى القصر، وأمر برد التثويب فى الأذان، وأذن للناس فى صلاة الضحى وصلاة التراويح، وأمر المؤذنين بأسرهم فى الأذان بألا يقولوا «حى على خير العمل» وأن يقولوا فى الأذان للفجر «الصلاة خير من النوم».

ثم أمر فى ثانى عشرى ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعمائة بإعادة قول «حى على خير العمل» فى الآذان، وقطع التثويب، وترك قولهم «الصلاة خير من النوم»، ومنع من صلاة الضحى وصلاة التراويح، وفتح باب الدعوة، وأعيدت قراءة المجالس بالقصر على ما كانت. وكان بين المنع من ذلك والأذن فيه خمسة أشهر.

وضرب فى جمادى من هذه السنة جماعة، وشهروا بسبب بيع الملوخيا والسمك الذى لاقشر له وشرب المسكرات، وتتبع السكارى فضيق عليهم.

وفى يوم الثلاثاء سابع عشرى شعبان سنة إحدى وأربعمائة، وقع قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى إلى سائر الشهود والأمناء، بخروج الأمر المعظم بأن يكون الصوم يوم الجمعة، والعيد يوم الأحد.

وفى شعبان سنة اثنتين وأربعمائة، قرئ سجل يشدد فيه النكير على بيع الملوخيا والفقاع والسمك الذى لاقشر له، ومنع النساء من الاجتماع فى المآتم ومن اتباع الجنائز، وأحرق الحاكم بأمر الله فى هذا الشهر الزبيب الذى فى مخازن التجار، وأحرق ما وجد من الشطرنج، وجمع صيادى السمك وحلفهم بالأيمان المؤكدة ألا يصطادوا سمكاً بغير قشر، ومن فعل ذلك ضربت عنقه.

وأحرق فى خمسة عشر يوماً ألفين وثمانمائة وأربعين قطعة زبيب : بلغ ثمن النفقة عليها خمسمائة دينار، ومنع من بيع العنب إلا أربعة أرطال فما دونها، ومنع من اعتصاره، وطرح عنباً كثيراً فى الطرقات وأمر بدوسه. فأمتنع الناس من التظاهر بشئ من العنب فى الأسواق، وأشتد الأمر فيه، وغرق منه ما حمل فى النيل.

وأحصى ما بالجيزة من الكروم، فقطف ما عليها من العنب، وطرح ما جمعه من ذلك تحت أرجل البقر لتدوسه، وفعل مثل ذلك فى جهات كثيرة. وختم على مخازن العسل، وغرق منه فى أربعة أيام خمسة آلاف جرة وإحدى وخمسين جرة فيها العسل، وغرق من عسل النحل قدر إحدى وخمسين زيراً.

وفى جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعمائة، أشتد الإنكار على الناس بسبب بيع الفقاع والزبيب والسمك الذى لاقشر له، وقبض على جماعة وجد عندهم زبيب فضربت أعناقهم، وسجنت عدة منهم وأطلقوا.

وفى شوال اعتقل رجل، ثم شهر ونودى عليه : هذا جزاء من سب أبا بكر وعمر، ويثير الفتن، فاجتمع خلق كثير بباب القصر، فاستغاثوا لا طاقة لنا بمخالفة المصريين، ولا بمخالفة الحشوية فى العوام، ولاصبر لنا على ما جري، وكتبوا قصصاً. فصرفوا، ووعدوا بالمجئ فى غد. فبات كثير منهم بباب القصر، واجتمعوا من الغد فصاحوا وضجوا.

فخرج إليهم قائد القواد غين فنهاهم، وأمرهم عن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أن يمضوا إلى معايشهم. فأنصرفوا إلى قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى وشكوا إليه، فتبرم من ذلك، فمضوا وفيهم من يسب السلف، ويعرض بالناس. فقرئ سجل فى القصر بالترحم على السلف من الصحابة، والنهى عن الخوض فى ذلك.

وركب مرة فرأى لوحاً على قيسارية فيه سب السلف، فأنكره، ومازال واقفاً حتى قلع. وضرب بالحرس فى سائر طرقات مصر والقاهرة، وقرئ سجل بتتبع الألواح المنصوبة على سائر أبواب القياسر والحوانيت والدور والخانات والأرباع، المشتملة على ذكر الصحابة والسلف الصالح رحمهم الله بالسب واللعن، وقلع ذلك وكسره وتعفية أثره، ومحو ما على الحيطان من هذه الكتابة، وإزالة جميعها من سائر الجهات حى لايرى لها أثر فى جدار

ولانقش فى لوح، وحذر فيه من المخالفة، وهدد بالعقوبة. ثم انتقض ذلك كله، وعاد الأمر إلى ما كان عليه.

إلى أن قتل الخليفة الآمر بأحكام الله أبو على منصور بن المستعلي بالله أبي القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبى تميم معد، وصار أبو على أحمد - الملقب كتيفات - بن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش، وأستولى على الوزارة فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وسجن الحافظ لدين الله أبا الميمون عبدالمجيد ابن الأمير أبى القاسم محمد ابن الخليفة المستنصر بالله، وأعلن بمذهب الإمامية، والدعوة للإمام المنتظر، وضرب دراهم نقشها «الله الصمد . الأمام محمد».

ورتب فى سنة خمس وعشرين أربعة قضاة: أثنان. أحدهما إمامى والآخر إسماعيلي، وأثنان أحدهما مالكى والآخر شافعي. فحكم كل منهما بمذهبه، وورث على مقتضاه، وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق، وأبطل من الأذان «حى على خير العمل» وقولهم «محمد وعلى خير البشر».

فلما قتل فى المحرم سنة ست وعشرين، عاد الأمر إلى ما كان عليه من مذهب الإسماعيلية. وما برح حتى قدمت عساكر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى من دمشق عليها أسد الدين شيركوه، وولى وزارة مصر للخليفة العاضد لدين الله أبى محمد عبدالله ابن الأمير يوسف بن الحافظ لدين الله، ومات.

فقام فى الوزارة بعده ابن أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فى جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة، وشرع فى تغيير الدولة وإزالتها، وحجر على العاضد، وأوقع بأمراء الدولة وعساكرها، وأنشأ بمدينة مصر مدرسة للفقهاء الشافعية، ومدرسة للفقهاء المالكية، وصرف قضاة مصر الشيعة كلهم، وفوض القضاء لصدر الدين عبدالملك بن درباس المارانى الشافعي، فلم يستنب عنه فى إقليم مصر إلا من كان شافعى المذهب. فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب مالك والشافعي، واختفى مذهب الشيعة والإسماعيلية والإمامية حتى فقد من أرض مصر كلها.

وكذلك كان السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى بن آق سنقر حنفياً، فيه تعصب. فنشر مذهب أبى حنيفه رحمه الله ببلاد الشام، ومنه كثرت الحنفية

بمصر، وقدم إليها أيضاً عدة من بلاد الشرق، وبنى لهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب المدرسة السيوفية بالقاهرة، ومازال مذهبهم ينتشر ويقوي، وفقاؤهم تكثر بمصر والشام من حينئذ.

وأما العقائد فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعري، تلميذ أبى على الجبائي، وشرط ذلك فى أوقافه التى بديار مصر: كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعى من القرافة، والمدرسة الناصرية التى عرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص بمصر، والمدرسة المعروفة بالقمحية بمصر، وخانكاه سعيد السعداء بالقاهرة.

فاستمر الحال على عقيدة الأشعرى بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن، وبلاد المغرب أيضاً لإدخال محمد بن تومرت رأى الأشعرى إليها. حتى إنه صار هذا الاعتقاد بسائر هذه البلاد، بحيث إنه من خالفه ضرب عنقه، والأمر على ذلك إلى اليوم. ولم يكن فى الدولة الأيوبية بمصر كثير ذكر لمذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل، ثم اشتهر مذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل فى آخرها.

فلما كانت سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ولى بمصر والقاهرة أربعة قضاة وهم شافعى ومالكى وحنفى وحنبلي. فاستمر ذلك من سنة خمس وستين وستمائة، حتى لم يبق فى مجموعة أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الإسلام سوى هذه المذاهب الأربعة وعقيدة الأشعري.

وعملت لأهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط فى سائر ممالك الإسلام، وعودى من تمذهب بغيرها وأنكر عليه. ولم يول قاض، ولا قبلت شهادة أحد، ولا قدم للخطابة والإمامة والتدريس أحد. . مالم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب. . وأفتى فقهاء هذه الأمصار فى طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب، وتحريم ما عداها. والعمل على هذا إلى اليوم.

وإذ قد بينا الحال فى سبب اختلاف الأمة منذ توفى رسول الله ﷺ، إلى أن استقر العمل على مذهب مالك، والشافعي، وأبى حنيفة، وأحمد بن حنبل، رحمة الله عليهم. . فلنذكر أختلاف عقائد أهل الإسلام منذ كان، إلى أن التزم الناس عقيدة الشيخ أبى الحسن الأشعري، رحمه الله ورضى عنه.

ذكر فرق الخليفة وإختلاف عقائدها وتباينها

أعلم أن الذين تكلموا فى أصول الديانات قسمان، هما : من خالف ملة الإسلام، ومن أقر بها. فأما المخالفون لملة الإسلام، فهم عشر طوائف :

الأولى : الدهرية.

والثانية : أصحاب العناصر.

والثالثة : الثنوية وهم المجوس، ويقولون بأصلين هما النور والظلمة، ويزعمون أن النور هو يزدان والظلمة هو أهرمن، ويقرون بنبوة إبراهيم عليه السلام.

وهم ثمانى فرق : الكيومرتية أصحاب كيومرت الذى يقال إنه آدم. والزروانية أصحاب زوران الكبير. والزرادشتية أصحاب زرادشت بن بيورشت الحكيم. والثنوية أصحاب الأثنين الأزليين. والمانوية أصحاب مانى الحكيم. والمزدكية أصحاب مزدك الخارجي. والبيصانية أصحاب بيصان القائل بالأصلين القديمين. والفرقونية القائلون بالأصلين، وأن الشر خرج على أبيه، وأنه تولد من فكرة فكرها فى نفسه، فلما خرج على أبيه ـ الذى هو الإله بزعمهم ـ عجز عنه، ثم وقع الصلح بينهما على يد الندمات وهم الملائكة. ومنهم من يقول بالتناسخ، ومنهم من ينكر الشرائع والأنبياء، ويحكمون العقول، ويزعمون أن النفوس العلوية تفبض عليهم الفضائل.

والطائفة الرابعة : الطبائعيون.

والطائفة الخامسة : الصابئة القائلون بالهياكل والأرباب السماوية والأصنام الأرضية وإنكار النبوات، و هم أصناف، وبينهم وبين الحنفاء مناظرات وحروب مهلكة، وتولدت من مذاهبهم الحكمة الملطية، ومنهم أصحاب الروحانيات، وهم عباد الكواكب وأصنامها التى عملت على تمثالها.

والحنفاء هم القائلون بأن الروحانيات منها ما وجودها بالقوة، ومنها ما وجودها بالفعل، فما هو بالقوة يحتاج إلى من يوجده بالفعل، ويقرون بنبوة إبراهيم وأنه منهم. وهم

طوائف: الكاظمة أصحاب كاظم بن تارح، ومن وقوله إن الحق فى الجمع بين شريعة إدريس وشريعة نوح وشريعة إبراهيم عليهم السلام. ومنهم البيدانية أصحاب بيدان الأصغر، ومن قوله اعتقاد نبوة من يفهم عالم الروح، وأن النبوة من أسرار الإلهية. ومنهم القنطارية أصحاب قنطار بن أرفخشد، ويقر بنبوة نوح.

ومن فرق الصابئة أصحاب الهياكل، ويرون أن الشمس إله كل إله. والحرانية ومن قولهم المعبود واحد بالذات، وكثير بالأشخاص فى رأى العين، وهى: المدبرات السبع من الكواكب، والأرضية الجزئية، والعالمة الفاضلة.

والطائفة السادسة: اليهود.

والسابعة: النصاري.

والثامنة: أهل الهند القائلون بعبادة الأصنام، ويزعمون أنها موضوعة قبل آدم.

ولهم حكم عقلية وأحكام وضعها الشلم أعظم حكامهم، والمهندم قبله، والبراهمة قبل ذلك... فالبراهمة أصحاب برهام أول من أنكر نبوة البشر.

ومنهم البردة: زهاد عباد رجال الرماد الذين يهجرون اللذات الطبيعية، وأصحاب الرياضة التامة، وأصحاب التناسخ. وهم أقسام: أصحاب الروحانية، والبهادرية، والناسوتية، والباهرية، والكابلية أهل الجبل، ومنهم الطبسيون، أصحاب الرياضة الفاعلة، حتى أن منهم من يجاهد نفسه حتى يسلطها على جسده، فيصعد فى الهواء على قدر قوته.

وفى اليهود: عباد النار، وعباد الشمس والقمر والنجوم، وعباد الأوثان.

والطائفة التاسعة: الزنادقة، وهم طوائف منهم القرامطة.

والعاشرة: الفلاسفة أصحاب الفلسفة. وكلمة فيلسوف معناها محب الحكمة، فإن فيلو محب، وسوفا حكمة، والحكمة قولية وفعلية، وعلم الحكماء انحصر فى أربعة أنواع:

الطبيعى، والمدنى، والرياضى، والإلهى. والمجموع ينصرف إلى : علم ما، وعلم كيف، وعلم كم. فالعلم الذى يطلب فيه ماهيات الأشياء هو الإلهى، والذى يطلب فيه كيفيات الأشياء هو الطبيعى، والذى يطلب فيه كميات الأشياء هو الرياضى.

ووضع بعد ذلك أرسطو صنعة المنطق، وكانت بالقوة فى كلام القدماء، فأظهرها ورتبها.

وأسم الفلاسفة يطلق على جماعة من الهند ـ وهم الطبسيون والبراهمة ـ ولهم رياضة شديدة، وينكرون النبوة أصلا. ويطلق أيضاً على العرب بوجه أنقص، وحكمتهم ترجع إلى أفكارهم وإلى ملاحظة طبيعية، ويقرون بالنبوات، وهم أضعف الناس فى العلوم.

ومن الفلاسفة حكماء الروم وهم طبقات: فمنهم أساطين الحكمة وهم أقدمهم، ومنهم المشاءون، وأصحاب الرواق، وأصحاب أرسطو. . . وفلاسفة الإسلام.

فمن فلاسفة الروم الحكماء السبعة. أساطين الحكمة ـ أهل ملطية وقونية ـ وهم: تاليس الملطى، وانكساغورس، وانكسمالس وابنادقيس، وفيثاغورس، وسقراط، وأفلاطون. ودون هؤلاء: فلوطس، وبقراط وديمقراطيس، وأسعر، والناس.

ومنهم حكماء الأصول من القدماء، ولهم القول بالسيمياء، ولهم أسرار الخواص والحيل والكيمياء والأسماء الفعالة والحروف، ولهم علوم توافق علوم الهند وعلوم اليونانين. وليس من موضوع كتابنا هذا ذكر تراجمهم، فلذلك تركناها.

القسم الثانى : فرق أهل الإسلام الذين عناهم النبى، ﷺ، **بقوله: «ستفترق أمتى ثلاثاً وسبعين فرقة: ثنتان وسبعون هالكة، وواحدة ناجية»**.

وهذا الحديث أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفترقت اليهود على إحدى وسبعين (أو اثنتين وسبعين) فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى وسبعين (أو اثنتين وسبعين) فرقة، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة**». قال البيهقى : حسن صحيح.

وأخرجه الحاكم وابن حبان فى صحيحه بنحوه. فأخرجه فى المستدرك من طريق الفضل بن موسى، عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة، عن أبى هريرة به، وقال: هذا حديث كثير فى الأصول.

وقد روى عن سعد بن أبى وقاص، وعبدالله بن عمر، وعوف بن مالك، عن رسول الله ﷺ، بمثله. وقد احتج مسلم بمحمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة، واتفقا جميعاً على الاحتجاج بالفضل أبن موسى، وهو ثقة.

وأعلم أن فرق المسلمين خمسة: أهل السنة والمرجئة، والمعتزلة، والشيعة، والخوارج. وقد أفترقت كل فرقة منها على فرق: فأكثر افتراق أهل السنة فى الفتيا، ونبذ يسيره من الاعتقادات. وبقية الفرق الأربع: منها من يخالف أهل السنة الخلاف البعيد، ومنهم من يخالف الخلاف القريب.

فأقرب فرق المرجئة من قال: الإيمان إنما هو التصديق بالقلب واللسان معاً فقط، وإن الأعمال إنما هى فرائض الإيمان وشرائعه فقط، وأبعدهم أصحاب جهم بن صفوان ومحمد بن كرام. وأقرب فرق المعتزلة أصحاب الحسين النجار وبشر بن غياث المريسى، وأبعدهم أصحاب أبى الهذيل العلاف.

وأقرب مذاهب الشيعة أصحاب الحسن بن صالح بن حى، وأبعدهم الإمامية. وأما الغالية فليسوا بمسلمين، ولكنهم أهل ردة وشرك. وأقرب فرق الخوارج أصحاب عبدالله بن يزيد الاباضى، وأبعدهم الأزارقة. وأما البطيخية ومن جحد شيئاً من القرآن، أو فارق الإجماع من العجاردة وغيرهم، فكفار بإجماع الأمة.

وقد أنحصرت الفرق الهالكة فى عشر طوائف:

«الفرقة الأولى المعتزلة»: الغلاة فى نفى الصفات الإلهية، القائلون بالعدل والتوحيد، وأن المعارف كلها عقلية حصولاً ووجوباً قبل الشرع وبعده، وأكثرهم على أن الإمامة بالاختيار. وهم عشرون فرقة:

إحداها الواصلية: أصحاب واصل بن عطاء أبى حذيفة الغزال ـ مولى بن ضبة، وقيل مولى بنى مخزوم ـ ولد بالمدينة سنة ثمانين، ونشأ بالبصرة، ولقى أبا هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية، ولازم مجلس الحسن بن الحسين البصرى، وأكثر من الجلوس بسوق الغزل ليعرف النساء المتعففات، فيصرف اليهن صدقته، فقيل له الغزال من أجل ذلك.

وكان طويل العنق جداً، حتى عابه عمرو بن عبيد بذلك، فقال : من هذه عنقه لاخير عنده . فلما برع واصل قال عمرو : ربما أخطأت الفراسة . وكان يلثغ بالراء، ومع ذلك كان فصيحاً لسنا مقتدراً على الكلام قد أخذ بجوامعه، فلذلك أمكنه أن أسقط حرف الراء من كلامه . واجتناب الحروف صعب جداً، لاسيما مثل الراء لكثرة استعمالها .

وله رسالة طويلة لم يذكر فيها حرف الراء، أحد بدائع الكلام، وكان لكثرة صمته يظن به الخرس، توفى سنة إحدى وثلاثين ومائة . وله كتاب المنزلة بين المنزلتين، وكتاب الفتيا، وكتاب التوحيد، وعنه أخذ جماعة، وأخباره كثيرة . ويقال لهم أيضاً الحسنية، نسبة إلى الحسن البصرى .

وأخذ واصل العلم عن أبى هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية، وخالفه فى الإمامة . واعتزاله يدور على أربع قواعد هي : نفى الصفات، والقول بالقدر، والقول بمنزلة بين المنزلتين، وأوجب الخلود فى النار على من ارتكب كبيرة .

فلما بلغ الحسن البصرى عنه هذا، قال : هؤلاء اعتزلوا . . . فسموا من حينئذ المعتزلة . وقيل إن تسميتهم بذلك حدثت بعد الحسن، وذلك أن عمرو بن عبيد لما مات الحسن، وجلس قتادة مجلسه، أعتزله فى نفر معه، فسماهم قتادة المعتزلة .

القاعدة الرابعة : القول بأن إحدى الطائفتين من أصحاب الجمل وصفين مخطئة لايعينها . وكان فى خلافه هشام بن عبدالملك .

والثانية العمروية : أصحاب عمرو، ومن قوله ترك قول على بن أبى طالب وطلحه والزبير رضى الله عنهم . وقال أبن منبه : أعتزل عمرو بن عبيد وأصحاب له الحسن فسموا المعتزلة .

والثالثة الهذلية : أتباع أبى الهذيل محمد ابن الهذيل العلاف شيخ المعتزلة . أخذ عن عثمان بن خالد الطويل، عن واصل بن عطاء، ونظر فى الفلسفة، ووافقهم فى كثير، وقال : جميع الطاعات من الفرائض والنوافل إيمان .

وانفرد بعشر مسائل وهى : أن علم الله وقدرته وحياته هى ذاته، وأثبت إرادات لا محل لها يكون البارى مريداً لها . وقال : بعض كلام الله لا فى محل وهو قوله كن، وبعضه فى محل كالأمر والنهي . وقال فى أمور الآخرة كمذهب الجبرية . وقال : تنتهى مقدورات الله

حتى لايقدر على إحداث شئ، ولاعلى إفناء شئ، ولا إحياء شئ، ولا إماتة شئ، وتنقطع حركات أهل الجنة والنار، ويصيرون إلى سكون دائم.

وقال: الاستطاعة عرض من الأعراض نحو السلامة والصحبة، وفرّق بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح. وقال: تجب معرفة الله قبل ورود السمع، وإن المرء المقتول أن لم يقتل مات فى ذلك الوقت، ولايزاد العلم ولاينقص بخلاف الرزق. وقال: إرادة الله عين المراد، والحجة لاتقوم فيما غاب إلا بخبر عشرين.

والرابعة النظامية: أتباع إبراهيم بن سيار النظام - بتشديد الظاء المعجمة - زعيم المعتزلة، وأحد السفهاء. انفرد بعدة مسائل، وهى قولة: إن الله تعالى لايوصف بالقدرة على الشرور والمعاصى، وإنها غير مقدورة لله. وقال: ليس لله إرادة، وأفعال العباد كلها حركات، والنفس والروح هو الإنسان، والبدن إنما هو آلة فقط، وإن كل ما جاوز القدرة من الفعل فهو من الله وهو فعله.

وأنكر الجوهر الفرد، وأحدث القول بالطفرة، وقال: الجوهر مؤلف من أعراض اجتمعت، وزعم أن الله خلق الموجودات دفعة على ما هى عليه، وأن الإعجاز فى القرآن من حيث الإخبار عن الغيب فقط، وأنكر أن يكون الإجماع حجة، وطعن فى الصحابة رضى الله تعالى عنهم، وقال قبحه الله: أبو هريرة أكذب الناس، وزعم أنه ضرب فاطمة ابنة رسول الله ﷺ.

ومنع ميراث العترة، وأوجب معرفة الله بالفكر قبل ورود الشرع، وحرم نكاح الموالى العربيات، وقال: لاتجوز صلاة التراويح، ونهى عن ميقات الحج، وكذب بانشقاق القمر، وأحال رؤية الجن، وزعم أن من سرق مائتى دينار فما دونها لم يفسق، وأن الطلاق بالكتابة لايقع وإن كان بنية، وأن من نام مضطجعاً لاينتقض وضوؤه مالم يخرج منه الحدث، وقال: لايلزم قضاء الصلوات إذا فاتت.

والخامسة الأسوارية: أتباع أبى على عمرو بن قائد الأسوارى، القائل أن الله تعالى لايقدر أن يفعل ما علم أنه لا يفعله.

والسادسة الإسكافية: أتباع أبى جعفر محمد بن عبدالله الأسكافى. ومن قوله: إن الله تعالى لايقدر على ظلم العقلاء، ويقدر على ظلم الأطفال والمجانين، وأنه لايقال إن الله خالق المعازف والطنابير، وإن كان هو الذى خلق أجسامهم.

والسابعة الجعفرية: أتباع جعفر بن حرب أبن ميسرة، ومن قوله: أن فى فساق هذه الأمة من هو شر من اليهود والنصارى والمجوس، وأسقط الحد عن شارب الخمر، وزعم أن الصغائر من الذنوب توجب تخليد فاعلها فى النار، وأن رجلا لو بعث رسولاً إلى أمرأة ليخطبها، فجاءته فوطئها من غير عقد لم يكن عليه حد، ويكون وطؤه أياها طلاقاً لها.

والثامنة البشرية: أتباع بشر بن المعتمر. ومن قوله: الطعم واللون والرائحة والإدراكات كلها من السمع يجوز أن تحصل متولدة، وصرف الاستطاعة إلى سلامة البنية والجوارح وقال: لو عذب الله الطفل الصغير لكان ظالماً وهو يقدر على ذلك، وقال: إرادة الله من جملة أفعاله، ثم هى تنقسم إلى صفة فعل وصفة ذات، وقال باللطف المخزون، وأن الله لم يخلقه لأن ذلك يوجب عليه الثواب، وأن التوبة الأولى متوقفة على الثانية، وأنها لاتنفع إلا بعدم الوقوع فى الذى وقع فيه، فإن وقع لم تنفع التوبة الأولى.

والتاسعة المزدارية: أتباع أبى موسى عيسى بن صبيح ـ المعروف بالمزدار ـ تلميذ بشر بن المعتمر. وكان زاهداً، وقيل له راهب المعتزلة، وانفرد بمسائل: منها قوله إن الله قادر على أن يظلم ويكذب، ولايطعن ذلك فى الربوبية، وجوز وقوع الفعل الواحد من فاعلين على سبيل التولد، وزعم أن القرآن مما يقدر عليه، وأن بلاغته وفصحاته لاتعجز الناس، بل يقدرون على الإتيان بمثلها وأحسن منها. وهو أصل المعتزلة فى القول بخلق القرآن، وقال: من أجاز رؤية الله بالأبصار بلا كيف فهو كافر، والشاك فى كفره كافر أيضاً.

والعاشرة الهشامية: أتباع هشام بن عمرو الفوطى الذى يبالغ فى القدر، ولاينسب إلى الله فعلاً من الأفعال. حتى أنه أنكر أن يكون الله هو الذى ألف بين قلوب المؤمنين، وأنه يحب الإيمان للمؤمنين، وأنه أضل الكافرين. وعاند ما فى القرآن من ذلك، وقال: لا تنعقد الأمامة فى زمن الفتنة واختلاف الناس، وإن الجنة والنار غير مخلوقتين، ومنع أن يقال حسبنا الله ونعم الوكيل، وقال: لأن الوكيل دون الموكل.

وقال: لو أسبغ أحد الوضوء، ودخل فى الصلاة بنية القربة لله تعالى والعزم على إتمامها، وركع وسجد مخلصاً فى ذلك كله، إلا أن الله علم أنه يقطعها فى آخرها، فإن أول صلاته معصية. ومنع أن يكون البحر انفلق لموسى، وأن عصاه انقلبت حية، وأن عيسى أحيا الموتى بإذن الله، وأن القمر أنشق للنبى ﷺ. وأنكر كثيراً من الأمور التى تواترت، كحصر عثمان بن عفان رضى الله عنه وقتله بالغلبة، وقال أنما جاءته شرذمة قليلة تشكو عماله، ودخلوا عليه وقتلوه فلا يدرى قتاله.

وقال: أن طلحة والزبير وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم ما جاءوا للقتال فى حرب الجمل، وإنما برزوا للمشاورة، وتقاتل أتباع الفريقين فى ناحية أخرى. وإن الأمة إذا اجتمعت كلها، وتركت الظلم والفساد، احتاجت إلى أمام يسوسها، فأما إذا عصت وفجرت وقتلت واليها فلا تنعقد الأمامة لأحد. وبنى على ذلك أن أمامة على رضى الله عنه لم تنعقد، لأنها كانت فى حال الفتنة بعد قتل عثمان ـ وهو أيضاً مذهب الأصم، وواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد ـ وأنكر افتضاض الأبكار فى الجنة، وأنكر أن الشيطان يدخل فى الإنسان، وإنما يوسوس له من خارج، والله يوصل وسوسته إلى قلب ابن آدم. وقال: لايقال خلق الله الكافر لأنه اسم العبد والكفر جميعاً، وأنكر أن يكون فى أسماء الله الضار النافع.

والحادية عشرة الحائطية: أتباع أحمد بن حائط، أحد أصحاب إبراهيم بن سيار النظام، وله بدع شنيعة: منها أن للخق إلهين: أحدهما خالق وهو الإلة القديم، والآخر مخلوق وهو عيسى بن مريم. وزعم أن المسيح ابن الله، وأنه هو الذى يحاسب الخلق فى الآخرة، وأنه هو المعنى بقول الله تعالى فى القرآن ﴿**هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام**﴾[1]. وزعم فى قول النبى ﷺ «**إن الله خلق آلم على صورته**» أن معناه خلقه إياه على صورة نفسه، وأن معنى قوله عليه السلام «**أنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر**» إنما إراد به عيسى.

---

(١) البقرة ـ آية ٢١٠ ـ م ٢.

وزعم أن فى الدواب والطيور والحشرات، حتى البق والبعوض والذباب، أنبياء لقول الله سبحانه ﴿**وإن من أمة إلا خلا فيها نذير**﴾[1]، وقوله تعالى ﴿**وما من دابة فى الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه، إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا فى الكتاب من شئ**﴾[2]، ولقول رسول الله ﷺ «**لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها**».

وذهب مع ذلك إلى القول بالتناسخ، وزعم أن الله ابتدأ الخلق فى الجنة، وإنما خرج من خرج منها بالمعصية. وطعن فى النبى ﷺ من أجل تعدد نكاحه، وقال: إن أبا ذر الغفارى أنسك وأزهد منه... قبحه الله. وزعم أن كل من نال خيراً فى الدنيا إنما هو بعمل كان منه، ومن ناله مرض أو آفة فبذنب كان منه. وزعم أن روح الله تناسخت فى الأئمة.

والثانية عشرة الحمارية: أتباع قوم من معتزلة عسكر مكرم. ومن مذهبهم أن الممسوخ إنسان كافر معتقد الكفر، وأن النظر أوجب المعرفة وهو لافاعل له، وكذلك الجماع أوجب الولد فشك فى خالق الولد، وأن الإنسان يخلق أنواعاً من الحيوانات بطريق التعفين. وزعموا أنه يجوز أن يقدر الله العبد على خلق الحياه والقدرة.

والثالثة عشرة المعمرية: أتباع معمر بن عباد السلمى، وهو أعظم القدرية غلوا، وبالغ فى رفع الصفات والقدرة بالجملة، وانفرد بمسائل: منها أن الإنسان يدبر الجسد وليس بحال فيه، والإنسان عنده ليس بطويل ولاعريض، ولا ذى لون وتأليف وحركة، ولا حال ولا متمكن، وأن الإنسان شئ غير هذا الجسد، وهو حى عالم قادر مختار، وليس هو بمتحرك، ولاساكن، ولامتلون، ولايرى، ولايلمس، ولايحل موضعاً، ولايحويه مكان. فوصف الإنسان بوصف الإلهية عنده، فإن مدبر العالم موصوف عنده كذلك.

وزعم أن الإنسان منعم فى الحياة، وموزر فى النار، وليس هو فى الجنة ولا فى النار حالاً ولا متمكناً. وقال: إن الله لم يخلق غير الأجسام، والأعراض تابعة لها متولدة منها، وأن الأعراض لا تتناهى فى كل نوع، وأن الإرادة من الله للشئ غير الله وغير خلقه، وأن الله ليس بقديم. لأن ذلك أخذ من قدم يقدم فهو قديم.

---

(١) فاطر - آية ٢٤ - ك ٣٥

(٢) الأنعام - آية ٣٨ - ك ٦.

والرابعة عشرة الثمامية: أتباع ثمامة بن أشرس النميرى. وجمع بين النقائض، وقال: العلوم كلها ضرورية، فكل من لم يضطر إلى معرفة الله فليس بمأمور بها، وهو كالبهائم ونحوها. وزعم أن اليهود والنصارى والزنادقة يصيرون يوم القيامة تراباً كالبهائم، لاثواب لهم، ولاعقاب عليهم ألبتة، لأنهم غير مأمورين، إذ هم غير مضطرين إلى معرفة الله تعالى. وزعم أن الأفعال كلها متولدة لافاعل لها، وأن الاستطاعة هى السلامة وصحة الجوارح، وأن العقل هو الذى يحسن ويقبح، فتجب معرفة الله قبل ورود الشرع، وأن لافعل للإنسان إلا الإرادة، وما عداها فهو حدث.

والخامسة عشرة الجاحظية: أتباع أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. وله مسائل تميز بها عن أصحابه: منها أن المعارف كلها ضرورية، وليس شئ من ذلك من أفعال العباد، وإنما هى طبيعية، وليس للعباد كسب سوى الإرادة، وأن العباد لايخلدون فى النار بل يصيرون من طبيعتها، وأن الله لايدخل أحداً النار، وإنما النار تجذب أهلها بنفسها وطبيعتها، وأن القرآن المنزل من قبيل الأجساد، ويمكن أن يصير مرة رجلاً ومرة حيواناً، وأن الله لايريد المعاصى، وأنه لايرى، وأن الله يريد بمعنى أنه لايغلط، ولايصح فى حقه السهو فقط، وأنه يستحيل العدم على الجواهر من الأجسام.

والسادسة عشرة الخياطية: أصحاب أبى الحسين بن أبى عمرو الخياط، وشيخ أبى القاسم الكعبى، من معتزلة بغداد. زعم أن المعدوم شئ، وأنه فى العدم جسم إن كان فى حدوثه جسماً، وعرض أن كان فى حدوثه عرضاً.

والسابعة عشرة الكعبية: أتباع أبى القاسم عبدالله بن أحمد بن محمود البلخى، المعروف بالكعبى، من معتزلة بغداد. انفرد بأشياء: منها أن إرادة الله ليست صفة قائمة بذاته، ولاهو مدبر لذاته، ولا أرادته حادثة فى محل، وإنما يرجع ذلك إلى العلم فقط، والسمع والبصر يرجع إلى ذلك أيضا. وأنكر الرؤية، وقال: إذا قلنا إنه يرى المرئيات، فإنما ذلك يرجع إلى علمه بها، وتمييزها قبل أن توجد.

والثامنة عشرة الجبائية: أتباع أبى على محمد بن عبدالوهاب الجبائى، من معتزلة البصرة، تفرد بمقالات: منها أن الله تعالى يسمى مطيعاً للعبد إذا فعل ما أراد العبد منه، وأن الله محبل للنساء بخلق الولد فيهن، وأن كلام الله عرض يوجد فى أمكنة كثيرة، وفى مكان بعد

مكان، من غير أن يعدم من مكانه الأول، ثم يحدث فى الثانى. وكان يقف فى فضل على على أبى بكر، وفضل أبى بكر على على، ومع ذلك يقول: أن أبا بكر خير من عمر وعثمان، ولايقول أن عليا خير من عمر وعثمان.

والتاسعة عشرة البهشمية: أتباع أبى هاشم عبدالسلام بن ابى على الجبائى. انفرد ببدع فى مقالاته: منها القول باستحقاق الذم من غير ذنب. وزعم أن القادر منا يجوز أن يخلو عن الفعل والترك، وأن القادر المأمور المنهى إذا لم يفعل فعلاً ولاترك، يكون عاصياً مستحق العقاب والذم لاعلى الفعل. لأنه لم يفعل ما أمر به، وأن الله يعذب الكافرين والعصاة لا على فعل مكتسب ولا على محدث منه.

وقال: التوبة لاتصح من قبيح، مع الإصرار على قبيح آخر يعلمه أو يعتقده قبيحاً وأن كان حسناً، وأن التوبة لاتصح مع الإصرار مع منع حسنة واجبة عليه، وأن توبة الزانى بعد ضعفه عن الجماع لاتصح. وزعم أن الطهارة غير واجبة، وإنما أمر العبد بالصلاة فى حال كونه متطهراً، وأن الطهارة تجزئ بالماء المغصوب، ولا تجزئ الصلاة فى الأرض المغصوبة. وزعم أن الزنج والترك والهنود قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن. وقال أبو على وابنه أبوهاشم: الإيمان هو الطاعات المفروضة.

والفرقة العشرون من المعتزلة الشيطانية: أتباع محمد بن نعمان ـ المعروف بشيطان الطاق ـ وهو من الروافض. شارك كلا من المعتزلة والروافض فى بدعهم، وقلما يوجد معتزلى إلا وهو رافضى إلا قليلاً منهم. انفرد بطامة وهى أن الله لايعمل الشئ إلا ما قدره وأراده، وأما قبل تقديره فيستحيل أن يعمله، ولو كان عالماً بأفعال عباده لاستحال أن يمتحنهم ويختبرهم.

وللمعتزلة أسام: منها الثنوية.. سموا بذلك لقولهم: الخير من الله، والشر من العبد. ومنع الكيسانية، والناكتية، والأحمدية، والوهمية، والبترية، والواسطية، والواردية.. سموا بذلك لقولهم: لايدخل المؤمنون النار وإنما يردون عليها، ومن أدخل النار لايخرج منها قط. ومنهم الحرقية لقولهم: الكفار لاتحرق إلا مرة، والمفنية القائلون بفناء الجنة والنار، والواقفية القائلون بالوقف فى خلق القرآن. ومنهم اللفظية القائلون ألفاظ القرآن غير مخلوقة، والملتزقة القائلون الله بكل مكان، والقبرية القائلون بإنكار عذاب القبر.

«**الفرقة الثانية المشبهة**»: وهم يغلون فى إثبات صفة الله تعالى ضد المعتزلة، وهم سبع فرق:

الهشامية: أتباع هشام بن الحكم، ويقال لهم أيضاً الحكمية، ومن قولهم: الإله تعالى كنور السبيكة الصافية يتلألأ من جوانبه. ويرمون مقاتل بن سليمان بأنه قال: هو لحم ودم على صورة الإنسان، وهو طويل عريض عميق، وأن طوله مثل عرضه، وعرضه مثل عمقه، وهو ذو لون وطعم ورائحة، وهو سبعة أشبار بشبر نفسه. ولم يصح هذا القول عن مقاتل.

والجولقية: أتباع هشام بن سالم الجولقى، وهو من الرافضة أيضاً. ومن شيع قوله أن الله تعالى على صورة الإنسان، نصفه الأعلى مجوف، ونصفه الأسفل مصمت، وله شعر أسود، وليس بلحم ودم، بل هو نور ساطع، وله خمس حواس كحواس الإنسان، ويد ورجل وفم وعين وأذن وشعر أسود، لا الفرج واللحية.

والبيانية: أتباع بيان بن سمعان، القائل: هو على صورة الإنسان، ويهلك كله إلا وجهه لظاهرة الآية ﴿**كل شئ هالك إلا وجهه**﴾ (١).

والمغيرية: أتباع مغيرة بن سعيد العجلى، وهو أيضاً من الروافض. ومن شنائعه قوله أن أعضاء معبودهم على صورة حروف الهجاء، فالألف على صورة قدمية. وزعم أنه رجل من نور على رأسه تاج من نور، وزعم أن الله كتب بأصبعه أعمال العباد من طاعة ومعصية، ونظر فيهما وغضب من معاصيهم فعرق، فاجتمع من عرقه بحران عذب ومالح، وزعم أنه بكل مكان لايخلو عنه مكان.

والمنهالية: أصحاب منهال بن سيمون.

والزرارية: أتباع زرارة بن أعين.

واليونسية: أتباع يونس بن عبدالرحمن القمى، وكلهم من الروافض. وسيأتى ذكرهم إن شاء الله تعالى.

ومنهم أيضاً: السابية، والشاكية، والعملية والمستثنية والبدعية، والعشرية، والأترية.

---

(١) القصص ـ آية ٨٨ ـ ك ٢٨.

ومنهم الكرامية: أتباع محمد بن كرام السجستانى، وهم طوائف: الهيضمية، والأسحاقية، والجندية وغير ذلك. إلا أنهم يعدون فرقة واحدة، لأن بعضهم لايكفر بعضاً وكلهم مجسمة. . إلا أن فيهم من قال: هو قائم بنفسه، ومنهم من قال: هو أجزاء مؤتلفة، وله جهات ونهايات.

ومن قول الكرامية أن الإيمان هو قول مفرد، وهو قول «لا إله إلا الله»، وسواء اعتقد أو لا. وزعموا أن الله جسم، وله حد ونهاية من جهة السفل، وتجوز عليه ملاقاة الأجسام التى تحته، وأنه على العرش والعرش مماس له، وأنه محل الحوادث من القول والإرادة والإدراكات والمرئيات والمسموعات، وأن الله لو علم أحداً من عباده لايؤمن به لكان خلقه أياهم عبثاً، وأنه يجوز أن يعزل نبياً من الأنبياء والرسل، ويجوز عندهم على الأنبياء كل ذنب لايوجب حداً ولايسقط عدالة، وأنه يجب على الله تعالى تواتراً الرسل، وأنه يجوز أن يكون إمامان فى وقت واحد، وإن عليا ومعاوية كانا أمامين فى وقت واحد، إلا أن عليا كان على السنة ومعاوية على خلافها.

وأنفرد أبن كرام فى الفقه بأشياء: منها أن المسافر يكفيه من صلاة الخوف تكبيرتان، وأجاز الصلاة فى ثوب مستغرق فى النجاسة. وزعم أن الصلاة والصوم والزكاة والحج وسائر العبادات تصح بغير نية، وتكفى نية الإسلام، وأن النية تجب فى النوافل، وأنه يجوز الخروج من الصلاة بالأكل والشرب والجماع عمداً ثم البناء عليها. وزعم بعض الكرامية أن لله علمين: أحدهما يعلم به جميع المعلومات، والآخر يعلم به العلم الأول.

«الفرقة الثالثة القدرية»: الغلاة فى إثبات القدرة للعبد فى إثبات الخلق والإيجاد، وأنه لايحتاج فى ذلك إلى معاونة من جهة الله تعالى.

«الفرقة الرابعة المجبرة»: الغلاة فى نفى استطاعة العبد قبل الفعل وبعده ومعه، ونفى الإختيار له، ونفى الكسب.

وهاتان الفرقتان متضادتان، ثم افترقت المجبرة على ثلاث فرق:

الجهمية: أتباع جهم بن صفوان الترمذى، مولى راسب، وقتل فى آخر دولة بنى أمية. وهو ينفى الصفات الآلهية كلها، ويقول: لايجوز أن يوصف البارى تعالى بصفة يوصف بها

خلقه، وإن الإنسان لايقدر على شئ، ولايوصف بالقدرة ولا الاستطاعة، وإن الجنة والنار يفنيان وتنقطع حركات أهلهما، وأن من عرف الله ولم ينطق بالإيمان لم يكفر. لأن العلم لايزول بالصمت، وهو مؤمن مع ذلك.

وقد كفره المعتزلة فى نفى الاستطاعة، وكفره أهل السنة بنفى الصفات وخلق القرآن ونفى الرؤية. وانفرد بجواز الخروج على السلطان الجائر، وزعم أن علم الله حادث لابصفة يوصف بها غيره.

والبكرية: أتباع بكر، ابن أخت عبدالواحد، وهو يوافق النظام فى أن الإنسان هو الروح، ويزعم أن البارى تعالى يرى فى القيامة فى صورة يخلقها ويكلم الناس منها، وأن صاحب الكبيرة منافق فى الدرك الأسفل من النار، وحاله أسوأ من حال الكافر. وحرم أكل الثوم والبصل، وأوجب الوضوء من قرقرة البطن.

والضرارية: أتباع ضرار بن عمر. وانفرد بأشياء: منها أن الله تعالى يرى فى القيامة بحاسة زائدة سادسة، وأنكر قراءة ابن مسعود، وشك فى دين عامة المسلمين، وقال لعلهم كفار، وزعم أن الجسم أعراض مجتمعة كما قالت النجارية.

ومن جملة المجبرة البطيخية أتباع إسماعيل البلطيخى، والصباحية أتباع أبى صباح بن معمر، والفكرية والخوفية.

«الفرقة الخامسة المرجئة»: الإرجاء أما مشتق من الرجاء، لأن المرجئة يرجون لأصحاب المعاصى الثواب من الله تعالى، فيقولون: لايضر مع الإيمان معصية، كما أنه لاينفع مع الكفر طاعة. أو يكون مشتقاً من الإرجاء، وهو التأخير، لأنهم أخروا حكم أصحاب الكبائر إلى الآخرة.

وحقيقة المرجئة أنهم الغلاة فى إثبات الوعد والرجاء، ونفى الوعيد والخوف عن المؤمنين. وهم ثلاثة أصناف: صنف جمعوا بين الرجاء والقدر، وهو غيلان وأبو شمر من بنى حنيفة. وصنف جمعوا بين الإرجاء والجبر، مثل جهم بن صفوان. وصنف قال بالإرجاء المحض.

وهم أربع فرق:

اليونسية: أتباع يونس بن عمرو، وهو غير يونس بن عبدالرحمن القمى الرافضى. زعم أن الإيمان معرفة الله والخضوع له، والمحبة، والإقرار بأنه واحد ليس كمثله شئ.

والغسانية: أتباع غسان بن أبان الكوفى، المنكر نبوة عيسى عليه السلام، وتتلمذ لمحمد أبن الحسن الشيبانى، ومذهبه فى الإيمان كمذهب يونس. إلا أنه يقول: كل خصله من خصال الإيمان تسمى بعض الإيمان، ويونس يقول: كل خصلة ليست بإيمان ولابعض إيمان.

وزعم غسان أن الإيمان لايزيد ولاينقص. وعند أبى حنيفة، رحمه الله، الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان، فلايزيد ولا ينقص كقرص الشمس.

والثوبانية: أتباع ثوبان المرجى، ثم الخارجى المعتزلى، وكان يقال له جامع النقائض، هاجر الخصائص. ومن قوله: الإيمان هو المعرفة والإقرار، والإيمان فعل ما يجب فى العقل فعله. فأوجب الإيمان بالعفل قبل ورود الشرع، وفارق الغسانية واليونسية فى ذلك.

والتؤمنية: أتباع أبى معاذ التؤمنى الفيلسوف. زعم أن من ترك فريضة لايقال له فاسق على الإطلاق، ولكن ترك الفريضة فسق. وزعم أن هذه الخصال التى تكون جملتها إيماناً، فواحدة ليست بإيمان ولابعض إيمان، وأن من قتل نبياً كفر لا لأجل القتل، بل لاستخفافه به وبغضه له.

ومن فرق المرجئة: **المريسية**: أتباع بشر بن غياث المريسى. كان عراقى المذهب فى الفقه، تلميذاً للقاضى أبى يوسف يعقوب الحضرمى، وقال بنفى الصفات وخلق القرآن، فأكفرته الصفاتية بذلك. وزعم أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، ولا استطاعة مع الفعل، فأكفرته المعتزلة ذلك. وزعم أن الإيمان هو التصديق بالقلب، وهو مذهب أبن الربوبدى.

ولما ناظره الشافعى فى مسألة خلق القرآن ونفى الصفات، وقال له: نصفك كافر لقولك بخلق القرآن ونفى الصفات، ونصفك مؤمن لقولك بالقضاء والقدر وخلق اكتساب العباد، وبشر معدود من المعتزلة لنفيه الصفات، وقوله بخلق القرآن.

ومن فرق المرجئة: **الصالحية**: أتباع صالح بن عمرو بن صالح، والجحدرية أتباع جحدر بن محمد التميمى، والزيادية أتباع محمد بن زياد الكوفى، والشبيبية أتباع محمد بن شبيب، والناقضية، والبهشمية.

ومن المرجئة جماعة من الأئمة : كسعيد بن جبير ، وطلق بن حبيب ، وعمرو بن مرة ، ومحارب بن دثار ، وعمرو بن ذر ، وحماد بن سليمان ، وأبى مقاتل . وخالفوا القدرية والخوارج والمرجئة فى أنهم لم يكفروا بالكبائر ولاحكموا بتخليد مرتكبها فى النار ، ولاسبوا أحدا من الصحابة ، ولا وقعوا فيهم .

وأول من وضع الإرجاء أبو محمد الحسن بن محمد ـ المعروف بابن الحنفية ـ بن على بن أبى طالب ، وتكلم فيه . وصارت المرجئة بعده أربعة أنواع : الأول . مرجئة الخوارج ، الثانى . مرجئة القدرية ، الثالث . مرجئة الجبرية ، الرابع . مرجئة الصالحية .

وكان الحسن بن محمد ابن الحنفية يكتب كتبه إلى الأمصار يدعو إلى الإرجاء . إلا أنه لم يؤخر العمل عن الإيمان كما قال بعضهم ، بل قال : أداء الطاعات ، وترك المعاصى ليس من الإيمان ، لايزول بزوالها .

وقال أبن قتيبة : أول من وضع الإرجاء بالبصرة حسن بن بلال بن الحارث المزنى . وذكر بعضهم أن أول من وضع الإرجاء أبو سلت السمان ، ومات سنة اثنتين وخمسين ومائة .

«**الفرقة السادسة الحرورية**» : الغلاة فى إثبات الوعيد والخوف على المؤمنين ، والتخليد فى النار مع وجود الإيمان . وهم قوم من النواصب الخوارج ، وهم مضادون المرجئة فى النفى والإثبات والوعد والوعيد .

ومن مفرداتهم أن من ارتكب كبيرة فهو مشرك . . . ومذهب عامة الخوارج أنه كافر وليس بمشرك ، وقال بعضهم هو منافق فى الدرك الأسفل من النار . فعند الحرورية أن الاسم يتغير بارتكاب الكبيرة الواحدة ، فلا يسمى مؤمناً بل كافراً مشركاً ، والحكم فيه أنه يخلد فى النار ، واتفقوا على أن الإيمان هو اجتناب كل معصية .

وقيل لهم الحرورية ، لأنهم خرجوا إلى حروراء لقتال على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وعدتهم اثنا عشر ألفاً ، ثم سار على رضى الله عنه إليهم وناظرهم ، ثم قاتلهم وهم أربعة آلاف ، فانضم إليهم جماعة حتى بلغوا اثنى عشر ألفاً .

«**الفرقة السابعة النجارية**» : أتباع الحسن بن محمد بن عبدالله النجار أبى عبدالله . كان حائكاً ، وقيل أنه كان يعمل الموازين ، وأنه كان من أهل قم . . كان من جملة المجبرة ومتكلميهم ، وله مع النظام عدة مناظرات : منها أنه ناظرة مرة ، فلما لم يلحن بحجته رفسه النظام ، وقال له : قم أخزى الله من ينسبك الى شئ من العلم والفهم . فانصرف محموماً ، واعتل حتى مات .

وهم أكثر معتزلة الرى وجهاتها . وهم يوافقون أهل السنة فى مسألة القضاء والقدر ، وأكتساب العباد ، وفى الوعد والوعيد ، وإمامة أبى بكر رضى الله عنه . ويوافقون المعتزلة فى نفى الصفات ، وخلق القرآن ، وفى الرؤية . وهم ثلاث فرق : البرغوثية ، والزعفرانية ، والمستدركة .

«**الفرقة الثامنة الجهمية**» : أتباع جهم بن صفوان . وهم يوافقون أهل السنة فى مسألة القضاء والقدر مع ميل إلى الجير ، وينفون الصفات والرؤية ، ويقولون بخلق القرآن . وهم فرقة عظيمة وعدادهم فى المعطلة المجبرة .

«**الفرقة التاسعة الروافض**» : الغلاة فى حب على بن أبى طالب ، وبغض أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية فى آخرين من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين . وسموا رافضة لأن زيد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب ، رضى الله عنهم ، امتنع من لعن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وقال : هما وزراء جدى محمد ، ﷺ ، فرفضوا رأيه . ومنهم من قال : لأنهم رفضوا رأى الصحابة رضى الله عنهم ، حيث بايعوا أبا بكر وعمر رضى الله عنهما .

وقد اختلفت الناس فى الإمام بعد رسول الله ﷺ : فذهب الجمهور إلى أنه أبو بكر الصديق رضى الله عنه . وقال العباسية والربويدية أتباع أبى هريرة الربوبدى - وقيل أتباع أبى العباس الربوبدى - هو العباس بن عبدالمطلب رضى الله عنه ، لأنه العم والوارث ، فهو أحق من أبن العم . وقال العثمانية وبنو أمية : هو عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه . وذهب آخرون إلى غير ذلك . وقال الرافضة : هو على بن أبى طالب .

ثم اختلفوا فى الإمامة اختلافاً كثيراً. حتى بلغت فرقهم ثلاثمائة فرقة، والمشهور منها عشرون فرقة.

الزيدية والصباحية: أقروا إمامة أبى بكر رضى الله عنه، ورأوا أنه لانص فى إمامة على رضى الله عنه، واختلفوا فى أمامه عثمان رضى الله عنه: فأنكرها بعضهم، وأقر بعضهم أنه الإمام بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، لكن قالوا: على أفضل من أبى بكر، وإمامة المفضول جائزة.

وقال الغلاة: هو على بالنص، ثم الحسن وبعده الحسين، وصار بعد الحسين الأمر شورى. وقال بعضهم: لم يرد النص إلا بإمامة على فقط، وقال آخرون: نص على على بالوصف لابالعين والأسم، وقال بعضهم: قد جاء النص على أمامة أثنى عشر آخرهم المهدى المنتظر.

وفرقهم العشرون هى :

الأمامية: وهم مختلفون فى الإمامة بعد رسول الله ﷺ. فزعم أكثرهم أن الإمامة فى على بن أبى طالب وأولاده بنص النبى ﷺ، وأن الصحابة كلهم قد ارتدوا إلا عليا وابنيه الحسن والحسين وأبا ذر الغفارى وسلمان الفارسى وطائفة يسيرة. وأول من تكلم فى مذهب الإمامية على بن اسماعيل بن هيثم التمار، وكان من أصحاب على بن أبى طالب.

وذهبت القطعية منهم إلى أن الإمامة فى على، ثم فى الحسن، ثم فى الحسين، ثم فى على بن الحسين، ثم فى محمد بن على، ثم فى جعفر بن محمد، ثم فى موسى بن جعفر، ثم فى على بن موسى. وقطعوا الإمامة عليه، فسموا القطعية لذلك، ولم يكتبوا إمامة محمد بن موسى ولا إمامة الحسين بن محمد بن على بن موسى.

وقالت **الناووسية**: جعفر بن محمد لم يمت، وهو حى ينتظر.

وقالت **المباركية**: أتباع مبارك: الإمام بعد جعفر بن محمد ابنه اسماعيل بن جعفر، ثم محمد بن إسماعيل.

وقالت **الشميطية**: أتباع يحيي بن شميط الأحمسي - كان مع المختار قائدا من قواده، فأنفذه أميرا على جيش البصرة يقاتل مصعب ابن الزبير فقتل بالمدار - الإمامة بعد جعفر في ابنه محمد وأولاده.

وقالت **المعمرية**: أتباع معمر: الإمامة بعد جعفر في ابنه عبد الله بن جعفر وأولاده. ويقال لهم الفطحية لأن عبد الله بن جعفر كان أفطح الرجلين.

وقال **الواقفية**: الإمام بعد جعفر ابنه موسى بن جعفر، وهو حي لم يمت، وهو الإمام المنتظر. وسموا الواقفية لوقوفهم على إمامة موسى.

وقالت **الزرارية**: أتباع زرارة بن أعين: الإمام بعد جعفر ابنه عبد الله، إلا أنه سأله عن مسائل فلم يمكنه الجواب عنها، فادعى إمامة موسى بن جعفر من بعد أبيه.

وقالت **المفضلية**: أتباع المفضل بن عمرو: الإمام بعد جعفر ابنه موسى، وأنه مات فانتقلت الإمامة إلى ابنه محمد بن موسى.

وقالت **المفوضة**: من الإمامية: إن الله تعالى خلق محمدا ﷺ، وفوض إليه خلق العالم وتدبيره. وقال بعضهم: بل فوض ذلك إلى على بن أبي طالب.

والفرقة الثانية من فرق الروافض: **الكيسانية**: أتباع كيسان مولى على بن أبي طالب، وأخذ عن محمد ابن الخليفة - وقيل بل كيسان اسم المختار بن عبيد الثقفي. الذى قام لأخذ ثأر الحسين رضى الله عنه - زعموا أن الإمام بعد على ابنه محمد ابن الحنفية، لأنه اعطاه الراية يوم الجمل، ولأن الحسين أوصى إليه عند خروجه إلى الكوفة.

ثم اختلفوا في الإمام بعد ابن الحنفية. فقال بعضهم: رجع الأمر بعده إلى أولاد الحسن والحسين، وقيل بل انتقل إلى أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية. وقالت **الكربية**: أتباع أبي كرب بأن ابن الحنفية حي لم يمت، وهو الإمام المنتظر. ومن قول الكيسانية أن البدء جائز على الله.. وهو كفر صريح.

والفرقة الثالثة : **الخطابية**: أتباع أبى الخطاب محمد بن أبى ثور - وقيل محمد بن أبى يزيد - الأجدع . ومذهبه الغلو فى جعفر بن محمد الصادق، وهو أيضا من المشبهة، وأتباعه خمسون فرقة، وكلهم متفقون على أن الأئمة - مثل على وأولاده - كلهم أنبياء، وأنه لابد من رسولين لكل أمة : أحدهما ناطق، والآخر صامت، فكان محمد ناطقا، وعلى صامتا، وأن جعفر بن محمد الصادق كان نبيا، ثم انتقلت النبوة إلى أبى الخطاب الأجدع، وجوزوا كلهم شهادة الزور لموافقيهم، وزعموا أنهم عالمون بما هو كائن إلى يوم القيامة .

وقالت **المعمرية**: منهم : الإمام بعد أبى الخطاب رجل اسمه معمر، وزعموا أن الدنيا لاتفنى، وأن الجنة هى ما يصيبه الإنسان من الخير فى الدنيا، والنار ضد ذلك، وأباحوا شرب الخمر والزنى وسائر المحرمات، ودانوا بترك الصلاة، وقالوا بالتناسخ، وأن الناس لايموتون، وانما ترفع أرواحهم إلى غيرهم .

وقال **البزيغية**: منهم : إن جعفر بن محمد إله، وليس هو الذى يراه الناس، وإنما تشبه على الناس، وزعموا أن كل مؤمن يوحى إليه، وأن منهم من هو خير من جبريل وميكائيل ومحمد ﷺ، وزعموا أنهم يرون أمواتهم بكرة وعشيا .

وقالت **العميرية**: منهم، أتباع عمير بن بيان العجلى، مثل ذلك كله، وخالفوهم فى أن الناس لايموتون .

وافترقت الخطابية بعد قتل أبى الخطاب فرقا : منهما فرقة زعمت أن الإمام بعد أبى الخطاب عمير بن بيان العجلى، ومقالتهم كمقالة البزيغية، إلا أن هؤلاء اعترفوا بموتهم، ونصبوا خيمة على كناسة الكوفة يجتمعون فيها على عبادة جعفر الصادق . فبلغ ذلك يزيد بن عمير، فصلب عمير بن بيان فى كناسة الكوفة .

ومن فرقهم **المفضلية**: أتباع مفضل الصيرفى، زعم أن جعفر بن محمد إله، فطرده ولعنه .

وزعمت الخطابية بأجمعها أن جعفر بن محمد الصادق أودعهم جلدا يقال له «جعفر» فيه كل ما يحتاجون إليه من علم الغيب وتفسير القرآن . وزعموا - لعنهم الله - أن قوله تعالى

﴿**ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة**﴾ [1] معناه عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، وأن الخمر والميسر أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، وأن الجبت والطاغوت معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص رضى الله عنهما.

والفرقة الرابعة: الزيدية أتباع زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم، القائلون بإمامته وإمامة من اجتمع فيه ست خصال: العلم، والزهد، والشجاعة، وأن يكون من أولاد فاطمة الزهراء رضى الله عنها حسنيا أو حسينيا، ومنهم من زاد صباحة الوجه، وألا يكون فيه آفة. وهم يوافقون المعتزلة فى أصولهم كلها إلا فى مسألة الإمامة.

وأخذ مذهب زيد بن على عن واصل بن عطاء، وكان يفضل عليا على أبى بكر وعمر مع القول بإمامتهما.

وهم أربع فرق: **الجارودية**: أتباع أبى الجارود، ويكنى أبا النجم، زياد بن المنذر العبدى. زعم أن النبى ﷺ نص على إمامة على بالوصف لا بالتسمية، وأن الناس كفروا بتركهم مبايعة على رضى الله عنه، والحسن والحسين وأولادهما.

الجريرية: أتباع سليم بن جرير. ومن قوله لم يكفر الناس بتركهم مبايعة على، بل أخطأوا بترك الأفضل وهو على، وكفروا الجارودية بتكفيرهم الصحابة، إلا أنهم كفروا عثمان بن عفان بالأحداث التى أحدثها، وقالوا لم ينص على على إمامة أحد، وصار الأمر من بعده شورى.

ومنهم **البترية**: أتباع الحسن بن صالح بن كثير الابتر. وقولهم إن عليا أفضل وأولى بالإمامة، غير أن أبا بكر كان إماما، ولم تكن امامته خطأ ولا كفرا، بل ترك على الإمامة له، وأما عثمان فيتوقف فيه.

ومنهم **اليعقوبية**: أتباع يعقوب. وهم يقولون بإمامة أبى بكر وعمر، ويتبرأون ممن تبرأ منهما، وينكرون رجعة الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة، ويتبرأوون ممن دان بها. . إلا أنهم متفقون على تفضيل على على أبى بكر وعمر، من غير تفسيقهما ولا تكفيرهما ولا لعنهما، ولا الطعن على أحد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

---

(١) البقرة - آية ٦٧ م ٢.

والفرقة الخامسة: السبائية: أتباع عبد الله بن سبأ الذى قال شفاها لعلى بن أبى طالب: انت الاله. وكان من اليهود، ويقول فى يوشع بن نون مثل قوله ذلك فى على، وزعم أن عليا لم يقتل، وأنه حى لم يمت، وأنه فى السحاب، وأن الرعد صوته والبرق سوطه، وأنه ينزل إلى الأرض بعد حين.. قبحه الله.

والفرقة السادسة: الكاملية: أتباع أبى كامل. أكفر جميع الصحابة بتركهم بيعة على، وكفر عليا بتركه قتالهم، وقال بتناسخ الأنوار الالهية فى الأئمة.

والفرقة السابعة: البيانية أتباع بيان بن سمعان. زعم أن روح الاله حل فى الأنبياء، ثم فى على، وبعده فى محمد ابن الحنفية، ثم فى ابنه أبى هاشم عبد الله بن محمد، ثم حل بعد أبى هاشم فى بيان بن سمعان... يعنى نفسه، لعنه الله.

والفرقة الثامنة: المغيرية: أتباع مغيرة بن سعيد العجلى، مولى خالد بن عبد الله، طلب الإمامة لنفسه بعد محمد بن عبد الله بن الحسن، فخرج على خالد بن عبد الله القسرى بالكوفة فى عشرين رجلا فعطعطوا به، فقال خالد: أطعمونى ماء، وهو على المنبر، فعير بذلك.

والمغيرة هذا قال بالتشبيه الفاحش، وادعى النبوة، وزعم أن معجزته علمه بالاسم الأعظم، وأنه يحيي الموتى، وزعم أن الله لما أراد أن يخلق العالم كتب بأصبعه أعمال عباده، فغضب من معاصيهم فعرق، فاجتمع من عرقه بحران: أحدهما مالح والآخر عذب، فخلق من البحر العذب الشيعة، وخلق الكفرة من البحر المالح. وزعم أن المهدى يخرج وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب.

والفرقة التاسعة: الهشامية: وهم صنفان: أحدهما أتباع هشام بن الحكم، والثانى أتباع هشام الجولقى. وهما يقولان لاتجوز المعصية على الإمام، وتجوز على الأنبياء، وأن محمدا عصى ربه فى أخذ الفداء من أسرى بدر.. كذبا لعنهما الله. وهما أيضا مع ذلك من المشبهة.

والفرقة الحادية عشرة: الجناحية: أتباع عبد الله بن معاوية ذى الجناحين ابن أبى طالب. وزعم أنه إله، وأن العلم ينبت فى قلبه كما تنبت الكمأة، وأن روح الاله دارت فى الأنبياء

كما كانت فى على وأولاده، ثم صارت فيه. ومذهبهم استحلال الخمر والميتة ونكاح المحاوم، وأنكروا القيامة، وتأولوا قوله تعالى ﴿**ليس على الذين أمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طمعوا اذا ما اتقوا وأمنوا وعملوا الصالحات**﴾(١) وزعموا أن كل ما فى القرآن من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، كناية عن قوم يلزم بغضهم، مثل أبى بكر وعمر وعثمان ومعاوية، وكل ما فى القرآن من الفرائض التى أمر الله بها كناية عمن يلزم موالاتهم، مثل على والحسن والحسين وأولادهم.

والثانية عشرة: المنصورية: أتباع أبى منصور العجلى، أحد الغلاة المشبهة، زعم أن الإمامة انتقلت إليه بعد محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، وأنه عرج به إلى السماء بعد انتقال الإمامة إليه، وأن معبودة مسح بيده على رأسه، وقال له: يا بنى بلغ عنى آية الكسف الساقط من السماء فى قوله تعالى ﴿**وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم..**﴾. (٢)

الآية. وزعم أن أهل الجنة قوم تجب موالاتهم مثل على بن أبى طالب وأولاده، وأن أهل النار قوم تجب معاداتهم مثل أبى بكر وعمر وعثمان ومعاوية، رضى الله عنهم.

والثالثة عشرة: الغرابية: زعموا - لعنهم الله - أن جبريل أخطأ، فإنه أرسل إلى على ابن أبى طالب فجاء إلى محمد ﷺ، وجعلوا شعارهم إذا اجتمعوا أن يقولوا: «العنوا صاحب الريش»، يعنون جبريل عليه السلام، وعليهم اللعنة.

والرابعة عشرة: الذمية: «بفتح الذال المعجمة» زعموا - أخزاهم الله - أن على بن ابى طالب بعثه الله نبيا، وأنه بعث محمدا ﷺ ليظهر أمره، فادعى النبوة لنفسه، وأرضى عليا بأن زوجه ابنته ومموله.

ومنهم **العليانية**: أتباع عليان بن ذراع السدوسى - وقيل الأسدى - كان يفضل عليا على النبى ﷺ، ويزعم أن عليا بعث محمدا. وكان - لعنة الله - يذم النبى ﷺ، لزعمه أن محمدا بعث ليدعو إلى على، فدعا إلى نفسه.

---

(١) المائدة - آية ٩٣ - م ٥.
(٢) الطور - آية ٤٤ - ك ٥٢.

ومن العليانية من يقول بإلهية محمد وعلى جميعا، ويقدمون محمدا فى الإلهية، ويقال لهم **الميمية**: ومنهم من قال بإلهية خمسة ـ وهم أصحاب الكساء: محمد، وعلى، وفاطمة، والحسن، والحسين ـ وقالوا: خمستهم شئ واحد، والروح حالة فيهم بالسوية. لافضل لواحد منهم على الآخر، وكرهوا أن يقولوا «فاطمة» بالهاء، فقالوا «فاطم» قال بعضهم.

توليت بعد الله فى الدين خمسة

نبيا، وسبطيه، وشيخا، وفاطما

والخامسة عشرة: اليونسية: أتباع يونس بن عبد الله القمى، أحد الغلاة المشبهة.

والسادسة عشرة: الرزامية: أتباع رزام بن سابق. زعم أن الإمامة انتقلت بعد على بن أبى طالب إلى ابنه محمد بن الحنفية، ثم إلى ابنه أبى هاشم، ثم إلى على بن عبد الله بن عباس بالوصية، ثم إلى ابنه محمد بن على، فأوصى بها محمد إلى أبى العباس عبد الله بن محمد السفاح، الظالم المتردد فى المذاهب، الجاهل بحقوق أهل البيت.

والسابعة عشرة: الشيطانية: أتباع محمد بن النعمان شيطان الطاق. وقد شارك المعتزلة والرافضة فى جميع مذهبهم، وانفرد بأعظم الكفر ـ قاتلة الله ـ وهو أنه زعم أن الله لايعلم الشئ حتى يقدره، وقبل ذلك يستحيل علمه.

والثامنة عشرة: البسلمية: وهم من الراوندية زعموا أن الإمامة، بعد رسول الله ﷺ، صارت فى على وأولاده الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية، ثم فى أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، وانتقلت منه إلى على بن عبد الله بن عباس بوصيته إليه، ثم إلى أبى العباس السفاح، ثم إلى أبى سلمة صاحب دولة بنى العباس.

وقام بناحية كش، فيما وراء النهر، رجل من أهل مرو أعور ـ يقال له هاشم ـ ادعى أن أبا سلمة كان إلها انتقل إليه روح الله، ثم انتقل إليه بعده. فانتشرت دعوته هناك، واحتجب عن أصحابه، واتخذ له وجها من ذهب، فعرف بالمصيغ.

ثم إن أصحابه طلبوا رؤيته. فوعدهم أن يريهم نفسه إن لم يحترقوا، وعمل تجاه مرآه مرآة محرقة تعكس شعاع الشمس. فلما دخلوا عليه احترق بعضهم، ورجع الباقون وقد فتنوا، واعتقدوا أنه إله لا تدركه الأبصار، ونادوا فى حروبهم بإلهيته.

والتاسعة عشرة: الجعفرية:

والعشرون :الصباحية: وهم والزيدية أمثل الشيعة، فانهم يقولون بإمامة أبى بكر، وأنه لانص فى إمامة على، مع أنه عندهم أفضل وأبوبكر مفضول.

ومن الفرق الروافض: الحلوية، والشاعية، والشريكية. يزعمون أن عليا شريك محمد ﷺ، والتناسخية القائلون أن الأرواح تتناسخ، واللاعنة، والمخطئة الذين يزعمون أن جبريل أخطأ، والإسحاقية، والخلفية الذين يقولون لاتجوز الصلاة خلف غير الإمام، والرجعية القائلون سيرجع على بن أبى طالب وينتقم من أعدائه، والمتربصية الذين يتربصون خروج المهدى والأمرية، والجبية، والجلالية، والكريبية أتباع أبى كريب الضرير، والحزنية أتباع عبد الله بن عمرو الحزنى.

«**الفرقة العاشرة الخوارج**»: ويقال لهم النواصب والحرورية ـ نسبة إلى حروراء: موضع خرج فيه أولهم على على رضى الله عنه ـ وهم الغلاة فى حب أبى بكر وعمر وبغض على بن أبى طالب، رضوان الله عليهم أجمعين، ولاأجهل منهم، فإنهم القاسطون المارقون. خرجوا على على رضى الله عنه، وانفصلوا عنه بالجملة وتبرأوا منه، ومنهم من صحبه، ومنهم من كان فى زمنه، وهم جماعة قد دون الناس أخبارهم، وهم عشرون فرقة.

الأولى: يقال لهم الحكمية، لأنهم خرجوا على على رضى الله عنه فى صفين، وقالوا: لاحكم إلا لله، ولا حكم للرجال، وانحازوا عنه إلى حروراء، ثم إلى النهروان. وسبب ذلك أنهم حملوه على التحاكم إلى من حكم بكتاب الله، فلما رضى ذلك ـ وكانت قضية الحكمين: أبى موسى الأشعرى وهو عبد الله ابن قيس، وعمرو بن العاص ـ غضبوا من ذلك، ونابذوا عليا، وقالوا فى شعارهم: لا حكم إلا لله ولرسوله. وكان إمامهم فى التحكيم عبد الله بن الكواء.

والثانية :الأزارقة: أتباع أبى راشد نافع بن الأزرق بن قيس بن نهار بن إنسان بن أسد بن صبرة بن ذهل بن الدول بن حنيفة، الخارج بالبصرة فى أيام عبد الله بن الزبير، وهم على

التبرى من عثمان وعلى والطعن عليهما، وأن دار مخالفيهم دار كفر، وأن من أقام بدار الكفر فهو كافر، وأن أطفال مخالفيهم فى النار ويحل قتلهم. وأنكروا رجم الزانى، وقالوا من قذف محصنة حد، ومن قذف محصنا لايحد، ويقطع السارق فى القليل والكثير.

والثالثة: النجدات ـ ولم يقل فيهم النجدية ليفرق بينهم وبين من انتسب إلى بلاد نجد ـ فإنهم أتباع نجد بن عويمر. وهو عامر الحنفى الخارج باليمامة، وكان رأسا ذا مقالة مفردة، وتسمى بأمير المؤمنين، وبعث عطية بن الأسود إلى سجستان، فأظهر مذهبه بمرو، فعرفت أتباعه بالعطوية.

ومذهبهم أن الدين أمران: أحدهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله، وتحريم دماء المسلمين وأموالهم. والثانى الإقرار بما جاء من عند الله تعالى جملة، وما سوى ذلك من التحريم والتحليل وسائر الشرائع. فإن الناس يعذرون بجهلها، وأنه لا يأثم المجتهد إذا أخطأ، وأن من خالف أن يعذب المجتهد فقد كفر. واستحلوا دماء أهل الذمة فى دار التقية، وقالوا من نظر نظرة محرمة، أو كذب كذبة، أو أصر على صغيرة ولم يتب منها، فهو كافر. ومن زنى أو سرق أو شرب خمرا من غير أن يصر على ذلك، فهو مؤمن غير كافر.

والرابعة: الصفرية: أتباع زياد بن الأصفر، ويقال أتباع النعمان بن صفر، وقيل بل نسبوا إلى عبد الله بن صفار، وهو أحد بنى مقاعس، وهو الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار، وقيل عبد الله الصفار من بنى صويمر بن مقاعس، وقيل سموا بذلك لصفرة علتهم، وزعم بعضهم أن الصفرية بكسر الصاد.

وقد وافق الصفرية الأزارقة فى جميع بدعهم، إلا فى قتل الأطفال. ويقال للصفرية أيضا الزيادية، ويقال لهم أيضا النكار من أجل أنهم ينقصون نصف على وثلث عثمان وسدس عائشة، رضى الله عنهم.

والخامسة: العجاردة: أتباع عبد الكريم بن عجرد.

والسادسة: الميمونية: أتباع ميمون بن عمران. وهم طائفة من العجاردة وافقوا الأزارقة إلا فى شيئين: أحدهما قولهم تجب البراءة من الأطفال حيت يبلغوا ويصفوا الاسلام،

والثانى استحلال أموال المخالفين لهم. فلم تستحل الميمونية مال أحد خالفهم ما لم يقتل المالك، فاذا قتل صار ماله فيئا... إلا أنهم ازدادوا كفرا على كفرهم، وأجازوا نكاح بنات البنات وبنات البنين، وبنات أولاد الأخوة وبنات أولاد الأخوات فقط.

والسابعة:الشعبية: وهم طائفة من العجاردة وافقوا الميمونية فى جميع بدعهم، الا فى الاستطاعة والمشيئة، فإن الميمونية مالت إلى القدرية.

والثامنة:الحمزية: أتباع حمزة بن أدرك الشامى، الخارج بخراسان فى خلافة هارون بن محمد الرشيد، وكثر عيثه وفساده، ثم فض جموع عيسى بن على عامل خراسان، وقتل منهم خلقا كثيرا، فانهزم منه عيسى إلى كابل، وآل أمر حمزه إلى أن غرق فى كرمان بواد هناك، فعرفت أصحابه بالحمزية.

وكان يقول بالقدر، فكفرته الأزارقة بذلك. وقال أطفال المشركين فى النار، فكفرته القدرية بذلك، وكان لايستحل غنائم أعدائه، بل يأمر بإحراق جميع ما يغنمه منهم.

والتاسعة:الحازمية: وهم فرقة من العجاردة قالوا فى القدر والمشيئة كقول أهل السنة، وخالفوا الخوارج فى الولاية والعداوة. فقالوا: لم يزل الله تعالى محبا لأوليائه ومبغضا لأعدائه.

والعاشرة:المعلومية: مع المجهولية تباينا فى مسألتين: إحداهما قالت المعلومية: من لم يعرف الله تعالى بجميع أسمائه فهو كافر، وقالت المجهولية: لايكون كافرا. والثانية وافقت المعلومية أهل السنة فى مسألة القدر والمشيئة، والمجهولية وافقت القدرية فى ذلك.

والحادية عشرة: الصلتية: أتباع عثمان بن أبى الصلت، وهم طائفة من العجاردة انفردوا بقولهم: من أسلم توليناه لكن تتبرأ من أطفاله، لأنه ليس للأطفال إسلام حتى يبلغوا.

والثانية عشرة والثالثة عشرة: الأحسنية والمعبدية: وهما فرقتان من الثعالبة. أتباع ثعلبه بن عامر. وكان ثعلبه هذا مع عبد الكريم ابن عجرد، ثم اختلفا فى الأطفال: فقال عبد الكريم: نتبرأ منهم قبل البلوغ، وقال ثعلبة: لا نتبرأ منهم بل نقول: نتولى الصغار. فلم تزل الثعالبة على هذا إلى أن خرج رجل، عرف بالأخنس، فقال: تتوقف عن جميع من دار التقية، إلا

من عرفنا منه ايمانا فإنا تتولاه، ومن عرفنا منه كفرا تبرأنا منه، ولا يجوز أن نبدأ أحدا بقتال. فتبرأت منه الثعالبة، وسموه بالأخنس، لأنه خنس منهم، أى رجع عنهم.

ثم خرجت فرقة من الثعالبة، قيل لها المعبدية أتباع معبد، فخالفت الثعالبة فى أخذ الزكاة من العبيد والبهائم، وكفرت كل فرقة منهما الأخرى.

والرابعة عشرة: الشيبانية: أتباع شيبان بن سلمة، الخارج فى أيام أبى مسلم الخراسانى القائم بدعوة الخلفاء العباسيين، وكان معه، فتبرأت منه الثعالبة لمعاونته لأبى مسلم. وهو أول من أظهر القول بالتشبيه... تعالى الله عن ذلك.

والخامسة عشرة: الشبيبية: أتباع شبيب بن يزيد بن أبى نعيم، الخارج فى خلافة عبد الملك بن مروان، وصاحب الحروب العظيمة مع الحجاج بن يوسف الثقفى. وهم على ما كانت عليه الحكمية الأولى، إلا أنهم انفردوا عن الخوارج بجواز إمامة المرأة وخلافتها. واستخلف شبيب هذا أمه غزالة: فدخلت الكوفة، وقامت خطيبة، وصلت الصبح بالمسجد الجامع، فقرأت فى الركعة الأولى بالبقرة، وفى الثانية بآل عمران... وأخبار شبيب طويلة.

والسادسة عشرة: الرشيدية: أتباع رشيد، ويقال لهم أيضا العشرية من أجل أنهم كانوا يأخذون نصف العشر مما سقت الأنهار. فقال لهم زياد بن عبد الرحمن: يجب فيه العشر، فتبرأت كل فرقة من الأخرى وكفرتها بذلك.

والسابعة عشرة: المكرمية: أتباع أبى المكرم، ومن قوله: تارك الصلاة كافر، وليس كفره لترك الصلاة لكن لجهله بالله. وكذا قوله فى سائر الكبائر.

والثامنة عشرة: الحفصية: أتباع حفص بن المقدام، أحد أصحاب عبد الله بن إباض. تفرد بقوله: من عرف الله تعالى، وكفر بما سواه من رسول وغيره، فهو كافر وليس بمشرك. فأنكر ذلك الإباضية وقالوا: بل هو مشرك.

والتاسعة عشرة: الإباضية أتباع عبد الله بن إباض من بنى مقاعس، واسمه الحارث بن عمرو ـ ويقال بل ينسبون إلى «أباض» «بضم الهمزة» وهى قرية بالعرض من اليمامة نزل بها نجد بن عامر ـ وخرج عبد الله بن أباض فى أيام مروان، وكان من غلاة الحكمة.

والفرقة العشرون: اليزيدية: أتباع يزيد بن أبى أنيسة، وكان إباضيا، فانفرد ببدعة قبيحة. وهى أن الله تعالى سيبعث رسولا من العجم، وينزل عليه كتابا جملة واحدة ينسخ به شريعة محمد ﷺ.

ومن فرق الخوارج أيضا: الحارثية، والأصومية أتباع يحيي بن أوم، والبيهسية أتباع أبى البيهس الهيصم بن خالد من بنى سعيد بن ضبعة: كان فى زمن الحجاج، وقتل بالمدينة وصلب، واليعقوبية أتباع يعقوب بن على الكوفى.

ومن فرقهم: الفضلية أتباع فضل بن عبد الله، والشمراخية أتباع عبد الله بن شمراخ، والضحاكية أتباع الضحاك.

والخوارج يقال لهم الشراة: وأحدهم شارى، مشتق من شرى الرجل إذا ألح، أو معناه يشترى بالشر، أو من قول الخوارج: شرينا أنفسنا لدين الله، فنحن لذلك شراة. وقيل إنه من قولهم: شاريته أى لاححته وماريته، وقيل شرى الرجل غضبا إذا استطار غضبا، وقيل لهم هذا لشده غضبهم على المسلمين.

ذكر الحال فى عقائد أهل الإسلام منذ ابتداء الملة الإسلامية إلى أن انتشر مذهب الأشعرية

اعلم أن الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمدا، ﷺ، رسولا إلى الناس جميعا، وصف لهم ربهم سبحانه وتعالى، بما وصف به نفسه الكريمة فى كتابه العزيز الذى نزل به على قلبه ﷺ الروح الأمين، وبما أوحى إليه ربه تعالى.

فلم يسأله ﷺ أحد من العرب بأسرهم - قرويهم وبدويهم - عن معنى شئ من ذلك، كما كانوا يسألونه ﷺ عن أمر الصلاة والزكاة والصيام والحج، وغير ذلك مما لله فيه سبحانه أمر ونهى، وكما سألوه ﷺ عن أحوال القيامة والجنة والنار. إذ لو سأله إنسان منهم عن شئ من

الصفات الإلهية، لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه ﷺ فى أحكام الحلال والحرام، وفى الترغيب والترهيب وأحوال القيامة والملاحم والفتن، ونحو ذلك مما تضمنته كتب الحديث معاجمها ومسانيدها وجوامعها.

ومن أمعن النظر فى دواوين الحديث النبوى، ووقف على الآثار السلفية، علم أنه لم يرد قط، من طريق صحيح ولا سقيم، عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم - على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم - أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شىء مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة فى القرآن الكريم، وعلى لسان نبيه محمد ﷺ، بل كلهم فهموا معنى ذلك، وسكتوا عن الكلام فى الصفات. . نعم، ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل.

وإنما اثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعز والعظمة، وساقوا الكلام سوقا واحداً. وهكذا أثبتوا، رضى الله عنهم، ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك، مع نفى مماثلة المخلوقين. فأثبتوا رضى الله عنهم بلا تشبيه، ونزهوا من غير تعطيل، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شىء من هذا، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت.

ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى، وعلى إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وسوى كتاب الله، ولا عرف أحد منهم شيئا من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة، فمضى عصر الصحابة رضى الله عنهم على هذا. . إلى أن حدث فى زمنهم القول بالقدر، وأن الأمر أنف: أى أن الله تعالى لم يقدر على خلقة شيئا مما هم عليه.

وكان أول من قال بالقدر فى الإسلام معبد ابن خالد الجهنى، وكان يجالس الحسن بن الحسين البصرى، فتكلم فى القدر بالبصرة، وسلك أهل البصرة مسلكه لما رأوا عمرو بن عبيد ينتحله. وأخذ معبد هذا الرأى عن رجل من الأساورة يقال له أبو يونس سنسويه، ويعرف بالأسوارى. فلما عظمت الفتنة به، عذبه الحجاج وصلبه بأمر عبد الملك بن مروان

سنة ثمانين. ولما بلغ عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما مقالة معبد فى القدر تبرأ من القدرية.

واقتدى بمعبد فى بدعته هذه جماعة. وأخذ السلف رحمهم الله فى ذم القدرية، وحذروا منهم. كما هو معروف فى كتب الحديث. وكان عطاء بن يسار قاضيا يرى القدر، وكان يأتى هو ومعبد الجهنى إلى الحسن البصرى، فيقولان له: إن هؤلاء يسفكون الدماء، ويقولون: إنما تجرى أعمالنا على قدر الله. فقال: كذب أعداء الله. فطعن عليه بهذا ومثله.

وحدث أيضاً فى زمن الصحابة رضى الله عنهم مذهب الخوارج، وصرحوا بالتكفير بالذنب، والخروج على الإمام وقتاله. فناظرهم عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، فلم يرجعوا إلى الحق، وقاتلهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، وقتل منهم جماعة. كما هو معروف فى كتب الأخبار.

ودخل فى دعوة الخوارج خلق كثير، ورمى جماعة من أئمة الإسلام بأنهم يذهبون إلى مذهبهم، وعد منهم غير واحد من رواة الحديث. كما هو معروف عند أهله.

وحدث أيضاً فى زمن الصحابة رضى الله عنهم مذهب التشيع لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه، والغلو فيه. فلما بلغه ذلك أنكره، وحرق بالنار جماعة ممن غلا فيه، وأنشد:

لما رأيت الأمر أمرا منكراً

أججت نارى ودعوت قنبرا

وقام فى زمنه رضى الله عنه عبد الله بن وهب بن سبأ ـ المعروف بابن السوداء السبأى، وأحدث القول بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بالإمامة من بعده، فهو وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخليفته على أمته من بعده بالنص. وأحدث القول برجعة على بعد موته إلى الدنيا، وبرجعة رسول الله صلى الله عليه وسلم. أيضاً.

وزعم أن عليا لم يقتل، وأنه حى، وأن فيه الجزء الألهى، وإنه هو الذى يجيء فى السحاب، وأن الرعد صوته والبرق سوطه، وأنه لابد أن ينزل إلى الأرض فيملأها عدلا كما ملئت جورا.

ومن ابن سبأ هذا تشعبت أصناف الغلاة من الرافضة، وصاروا يقولون بالوقف - يعنون أن الإمامة موقوفة على أناس معينين كقول الإمامية بأنها فى الأئمة الاثنى عشر، وقول الإسماعيلية بأنها فى ولد اسماعيل بن جعفر الصادق. وعنه أيضاً أخذوا القول بغيئة الإمام، والقول برجعته بعد الموت إلى الدنيا، كما تعتقده الإمامية إلى اليوم فى صاحب السرداب، وهو القول بتناسخ الأرواح. وعنه أخذوا أيضاً القول بأن الجزء الإلهى يحل فى الأئمة بعد على بن أبى طالب، وإنهم بذلك استحقوا الإمامة بطريق الوجوب، كما استحق آدم عليه السلام سجود الملائكة، وعلى هذا الرأى كان اعتقاد دعاة الخلفاء الفاطميين ببلاد مصر.

وابن سبأ هذا هو الذى أثار فتنة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه حتى قتل كما ذكر فى ترجمة ابن سبأ من كتاب «التاريخ الكبير المقفي» وكان له عدة أتباع فى عامة الأمصار، وأصحاب كثيرون فى معظم الأقطار. فكثرت لذلك الشيعة، وصاروا ضدا للخوارج، ومازال أمرهم يقوى وعددهم يكثر.

ثم حدث بعد عصر الصحابة رضى الله عنهم مذهب جهم بن صفوان ببلاد المشرق، فعظمت الفتنة به. فإنه نفى أن يكون لله تعالى صفة، وأورد على أهل الإسلام شكوكا أثرت فى الملة الإسلامية آثارا قبيحة تولد عنها بلاء كبير. وكان قبيل المائة من سنى الهجرة، فكثر أتباعه على أقواله التى تؤول إلى التعطيل.

فأكبر أهل الإسلام بدعته، وتمالئوا على إنكارها وتضليل أهلها، وحذروا من الجهمية وعادوهم فى الله، وذموا من جلس اليهم، وكتبوا فى الرد عليهم ماهو معروف عند أهله.

وفى أثناء ذلك حدث مذهب الاعتزال، منذ زمن الحسن بن الحسين البصرى رحم الله بعد المائتين من سنى الهجرة، وصنفوا فيه مسائل فى العدل والتوحيد، وإثبات أفعال العباد، وأن الله تعالى لا يخلق الشر، وجهروا بأن الله لايرى فى الآخرة، وأنكروا عذاب القبر على البدن، وأعلنوا بأ القرآن مخلوق محدث. . . إلى غير ذلك من مسائلهم.

فتبعهم خلائق فى بدعهم، وأكثروا من التصنيف فى نصرة مذهبهم بالطرق الجدلية، فنهى أئمة الإسلام عن مذهبهم، وذموا علم الكلام، وهجروا من ينتحله. ولم يزل أمر المعتزلة يقوى، وأتباعهم تكثر، ومذهبهم ينتشر فى الأرض.

ثم حدث مذهب التجسيم المضاد لمذهب الاعتزال. فظهر محمد بن كرام بن عراق بن حزابة أبو عبد الله السجستانى، زعيم الطائفة الكرامية، بعد المائتين من سنى الهجرة، وأثبت الصفات حتى انتهى فيها إلى التجسيم والتشبيه، وحج وقدم الشام، ومات بزغرة فى صفر سنة ست وخمسين ومائتين، فدفن بالمقدس.

وكان هناك من أصحابه زيادة على عشرين ألفا على التعبد والتقشف، سوى من كان منهم ببلاد المشرق، وهم لايحصون لكثرتهم، وكان إماما لطائفتى الشافعية والحنفية. وكانت بين الكرامية بالمشرق وبين المعتزلة مناظرات، ومناكرات، وفتن كثيرة متعددة أزماتها.

هذا وأر الشية يفشو فى الناس. حتى حدث مذهب القرامطة المنسويين إلى حمدان الأشعث، المعروف بقرمط من أجل قصر قامته وقصر رجليه وتقارب خطوه. وكان ابتداء أمر قرمط هذا فى سنة أربع وستين ومائتين، وكان ظهوره بسواد الكوفة، فاشتهر مذهبه بالعراق.

وقام من القرامطة ببلاد الشام صاحب الخال والمدثر والمطوق. وقام بالبحرين منهم أبو سعيد الجنابى من أهل جنابة، وعظمت دولته ودولة بنيه من بعده، حتى أوقعوا بعساكر بغداد، وأخافوا خلفاء بنى العباس، وفرضوا الأموال التى تحمل اليهم فى كل سنة على أهل بغداد وخراسان والشام ومصر واليمن، وغزوا بغداد والشام ومصر والحجاز، وانتشرت دعاتهم بأقطار الأرض.

فدخل جماعات من الناس فى دعوتهم، ومالوا إلى قولهم الذى سموه علم الباطن. وهو تأويل شرائع الإسلام، وصرفها عن ظواهرها إلى أمور زعموها من عند وأنفسهم، وتأويل آيات القرآن، ودعواهم فيها تأويلا بعيدا، انتحلوا القول به بدعا ابتدعوها بأهوائهم، فضلوا وأضلوا عالما كثيرا.

هذا وقد كا المأمون عبد الله بن هارون الرشيد، سابع خلفاء بنى العباس ببغداد، لما شغف بالعلوم القديمة، بعث إلى بلاد الروم من عرب له كتب الفلاسفة، وأتاه بها فى أعوام بضع عشرة سنة ومائتين من سنى الهجرة، فانتشرت مذاهب الفلاسفة فى الناس، واشتهرت كتبهم بعامة الأمصار، وأقبلت المعتزلة والقرامطة والجهمية وغيرهم عليها، وأكثروا من

النظر فيها والتصفح لها. فأنجر على الإسلام وأهله من علوم الفلاسفة ما لا يوصف من البلاء والمحنة فى الدين، وعظم بالفلسفة ضلال أهل البدع، وزادتهم كفرا إلى كفرهم.

فلما قامت دولة بنى بوية ببغداد فى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، واستمروا إلى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة، وأظهروا مذهب التشيع.. قويت بهم الشيعة، وكتبوا على أبواب المساجد فى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة: «لعن الله معاوية بن أبى سفيان، ولعن من أغضب فاطمة، ومن منع الحسن أن يدفن عند جده، ومن نفى أبا ذر الغفارى، ومن أخرج العباس من الشوري». فلما كان الليل حكه بعض الناس، فأشار الوزير المهلبى أن يكتب بإذن معز الدولة «لعن الله الظالمين لأهل البيت» ولا يذكر أحدا فى اللعن غير معاوية، ففعل ذلك.

وكثرت ببغداد الفتن بين الشيعة والسنية، وجهر الشيعة فى الأذان بحى على خير العمل فى الكرخ. وفشا مذهب الإعتزال بالعراق. وخراسان وما وراء النهر، وذهب إليه جماعة من مشاهير الفقهاء.

وقوى مع ذلك أمر الخلفاء الفاطميين بأفريقية وبلاد المغرب، وجهروا بمذهب الإسماعيلية، وبثوا دعاتهم بأرض مصر، فاستجاب لهم خلق كثير من أهلها، ثم ملكوها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وبعثوا بعساكرهم إلى الشام.

فانتشرت مذاهب الرافضة فى عامة بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والكوفة والبصرة وبغداد وجميع العراق وبلاد خراسان وما وراء النهر، مع بلاد الحجاز واليمن والبحرين، وكانت بينهم وبين أهل السنة من الفتن والحروب والمقاتل ما لا يمكن حصره لكثرته.

واشتهرت مذاهب الفرق من القدرية والجهمية والمعتزلة والكرامية والخوارج والروافض والقرامطة والباطنية حتى ملأت الأرض. وما منهم إلا من نظر فى الفلسفة، وسلك من طرقها ما وقع عليه اختياره، فلم تبق مصر من الأمصار، ولا قطر من الأقطار، إلا وفيه طوائف كثيرة ممن ذكرنا.

وكان أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى قد أخذ عن أبى على محمد بن عبد الوهاب الجبائى، ولازمه عدة أعوام. ثم بدأ له فترك مذهب الاعتزال، وسلك طريق أبى محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن كلاب، ونسج على قوانينه فى الصفات ولاقدر، وقال

بالفاعل المختار، وترك القول بالتحسين والتقبيح العقليين، وما قيل فى مسائل الصلاح والأصلح، وأثبت أن العقل لا يوجب المعارف قبل الشرع، وأن العلوم وإن حصلت بالعقل فلا تجب به ولا يجب البحث عنها إلا بالسمع، وأن الله تعالى لايجب عليه شىء، وأن النبوات من الجائزات العقلية والواجبات السمعية . . . إلى غير ذلك من مسائله التى هى موضوع أصول الدين.

وحقيقة مذهب الأشعرى، رحمه الله، أنه سلك طريقاً بين النفى الذى هو مذهب الاعتزال، وبين الإثبات الذى هو مذهب أهل التجسيم، وناظر على قوله هذا، واحتج لمذهبه.

فمال إليه جماعة، وعولوا على رأيه: منهم القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المالكى، وأبو بكر محمد بن الحسن بن فورك، والشيخ أبو اسحاق إبراهيم بن محمد بن مهران الأسفراينى، والشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن على بن يوسف الشيرازى، والشيخ أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى، وأبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستانى، والإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازى، وغيرهم ممن يطول ذكره. ونظروا مذهبه، وناظروا عليه، وجادلوا فيه، واستدلوا له فى مصنفات لاتكاد تحصر. فانتشر مذهب أبى الحسن الأشعرى فى العراق من نحو سنة ثمانين وثلاثمائة، وانتقل منه إلى الشام.

فلما ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر، كان هو وقاضيه صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس المارانى على هذا المذهب، قد نشآ عليه منذ كانا فى خدمة السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق، وحفظ صلاح الدين فى صباه عقيدة ألفها له قطب الدين أبو المعالى مسعود بن محمد بن مسعود النيسابورى، وصار يحفظها صغار أولاده، فلذلك عقدوا الخناصر، وشدوا البنان على مذهب الأشعرى، وحملوا فى أيام دولتهم كافة الناس على التزامه.

فتمادى الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بنى أيوب، ثم فى أيام مواليهم الملوك من الأتراك. واتفق مع ذلك توجه أبى عبد الله محمد بن تومرت، أحد رحالات المغرب، إلى العراق، وأخذ عن أبى حامد الغزالى مذهب الأشعرى. فلما عاد إلى بلاد المغرب، وقام فى المصامدة يفقههم ويعلمهم، وضع لهم عقيدة لقفها عنه عامتهم، ثم مات.

فخلفه بعد موته عبد المؤمن بن على القيسى ، وتلقب بأمير المؤمنين ، وغلب على ممالك المغرب هو وأولاده من بعده مدة سنين ، وتسموا بالموحدين . . . فلذلك صارت دولة الموحدين ببلاد المغرب تستبيح دماء من خالف عقيدة بن تومرت ، إذ هو عندهم الإمام المعلوم المهدى المعصوم ، فكم أراقوا بسبب ذلك من دماء خلائق لايحصيها إلا الله خالقها سبحانه وتعالى ، كما هو معروف فى كتب التاريخ .

فكان هذا هو السبب فى اشتهار مذهب الأشعرى ، وانتشاره فى أمصار الإسلام بحيث نسى غيره من المذاهب وجهل . حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه ، إلا أن يكون مذهب الحنابلة ، أتباع الإمام أبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رضى الله عنه ، فإنهم كانوا على ما كان عليه السلف . لايرون تأويل ماورد من الصفات . إلى أن كان بعد السبعمائة من سنى الهجرة ، اشتهر بدمشق وأعمالها تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحكم بن عبدالسلام بن تيمية الحرانى ، فتصدى للانتصار لمذهب السلف ، وبالغ فى الرد على مذهب الأشاعرة ، وصدع بالنكير عليهم وعلى الرافضة وعلى الصوفية .

فافترق الناس فيه فريقان : فريق يقتدى به ، ويعول على أقواله ، ويعمل برأيه ، ويرى أنه شيخ الإسلام ، وأجل حفاظ أهل الملة الإسلامية . وفريق يبدعه ويضلله ، ويزرى عليه بإثباته الصفات ، وينتقد عليه مسائل : منها ما له فيه سلف ، ومنها ما زعموا أنه خرق فيه الإجماع ، ولم يكن له فيه سلف ، وكانت له ولهم خطوب كثيرة ، وحسابه وحسابهم على الله . الذى لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وله إلى وقتنا هذا عدة أتباع بالشام وقليل بمصر .

هذا وبين الأشاعرة الماتريدية أتباع أبى منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدى ، وهم طائفة الفقهاء الحنفية . مقلدو الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت وصاحبيه : أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم الحضرمى ، ومحمد بن الحسن الشيبانى رضى الله عنهم ، من الخلاف فى العقائد ما هو مشهور فى موضعه . وهو إذا تتبع يبلغ بضع عشرة مسألة ، كان بسببها فى أول الأمر تباين وتنافر ، وقدح كل منهم فى عقيدة الآخر . . إلا أن الأمر آل آخرا إلى الإغضاء ، ولله الحمد .

فهذا ـ أعزك الله ـ بيان ما كانت هليه عقائد الأمة ـ من ابتداء الأمر إلى وقتنا هذا ـ قد فصلت فيه ما أجمله أهل الأخبار، وأجملت ما فصلوا. فدونك، طالب العلم، تناول ما قد بذلت فيه جهدى، وأطلت بسببه سهرى وكدى فى تصفح دواوين الإسلام وكتب الأخبار. فقد وصل إليك صفوا، ونلته عفوا. بلا تكلف مشقة ولا بذل مجهود، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده.

«أبو الحسن»

على بن إسماعيل بن أبى بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبى بردة عامر بن أبى موسى ـ واسمه عبد الله بن قيس ـ الأشعرى البصري: ولد سنة ست وستين ومائتين، وقيل سنة سبعين، وتوفى ببغداد سنة بضع وثلاثين وثلاثمائة، وقيل سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

سمع زكريا الساجى، وأبا خليفة الجمحى، وسهل بن نوح، ومحمد بن يعقوب المقرى، وعبد الرحمن بن خلف الضبى المصرى. وروى عنهم فى تفسيره كثيرا، وتلمذ لزوج أمه أبى على محمد بن عبد الوهاب الجبائى، واقتدى برأيه فى الاعتزال عدة سنين حتى صار من آئمة المعتزلة، ثم رجع عن القول بخلق القرآن وغيره من آراء المعتزلة.

وصعد يوم الجمعة بجامع البصرة كرسيا، ونادى بأعلى صوره: من عرفنى فقد عرفنى، ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى. أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لايرى بالأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها. وأنا تائب مقلع، معتقد الرد على المعتزلة، مبين لفضائحهم ومعايبهم.

وأخذ من حينئذ فى الرد عليهم، وسلك بعض طريق أبى محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن كلاب القطان، وبنى على قواعده، وصنف خمسة وخمسين تصنيفا: منها كتاب «اللمع»، وكتاب «الموجز»، وكتاب «إيضاح البرهان»، وكتاب «التبيين على أصول الدين»، وكتاب «الشرح والتفصيل فى الرد على أهل الأفك والتضليل»، وكتاب

«الإبانة»، وكتاب «تفسير القرآن» يقال أنه فى سبعين مجلدا. وكانت غلته من ضيعة وقفها بلال بن أبى بردة على عقبة، وكانت نفقته فى السنة سبعة عشر درهما، وكانت فيه دعابة ومزح كثير.

وقال مسعود بن شيبة فى كتاب التعليم: كان حنفى المذهب، معتزلى الكلام، لأنه كان ربيب أبى على الجبائى، وهو الذى رباه وعلمه الكلام. وذكر الخطيب أنه كان يجلس أيام الجمعات فى حلقة أبى إسحاق المروزى الفقيه فى جامع المنصور.

وعن أبى بكر بن الصيرفي: كان المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله تعالى الأشعرى، فحجزهم فى أقماع السماسم.

وجملة عقيدته: أن الله تعالى عالم بعلم، قادر بقدرة، حى بحياة، مريد بإرادة، متكلم بكلام، سميع بسمع، بصير ببصر، وأن صفاته أزلية قائمة بذاته تعالى، لا يقال هى هو ولا هى غيره، ولا لا هى هو ولا غيره، وعلمه واحد يتعلق بجميع المعلومات، وقدرته واحدة تتعلق بجميع مايصح وجوده، وإرادته واحدة تتعلق بجميع ما يقبل الاختصاص، وكلامه واحد: هو أمر ونهى، وخبر واستخبار، ووعد ووعيد.

وهذه الوجوه راجعة إلى اعتبارات فى كلامه لا إلى نفس الكلام، والألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء دلالات على الكلام الأزلى. فالمدلول - وهو القرآن المقروء - قديم أزلى، والدلالة - وهى العبارات، وهى القراءة - مخلوقة محدثة.

قال: وفرق بين القراءة والمقروء، والتلاوة والمتلو. كما فرق بين الذكر والمذكور. . قال: والكلام معنى قائم بالنفس، والعبارة دالة على ما فى النفس، وإنما تسمى العبارة كلاماً مجازا.

قال: وأراد الله تعالى جميع الكائنات: خيرها وشرها ونفعها وضرها. ومال فى كلامه إلى جواز تكليف مالا يطاق، لقوله: إن الاستطاعه مع الفعل، وهو مكلف بالفعل قبله، وهو غير مستطيع قبله، على مذهبه. . . قال: وجميع أفعال العباد مخلوقة مبدعة من الله تعالى، مكتسبة للعبد، والكسب عبارة عن الفعل القائم بمحل قدرة العبد.

قال: والخالق هو الله تعالى حقيقة، لا يشاركه فى الخلق غيره، فأخص وصفه هو القدرة والاختراع، وهذا تفسير اسمه البارىء.

قال: وكل موجود يصح أن يرى، والله تعالى موجود، فيصح أن يرى، وقد صح السمع بأن المؤمنين يرونه فى الدار الأخرى فى الكتاب والسنة، ولا يجوز أن يرى فى مكان ولا صورة مقابلة واتصال شعاع، فإن ذلك كله محال. وماهية الرؤية له فيها رأيان: أحدهما أنه علم مخصوص يتعلق بالوجود دون العدم، والثانى أنه إدراك وراء العلم. وأثبت السمع والبصر صفتين أزليتين، هما إدراكان وراء العلم. وأثبت اليدين والوجه صفات خبرية، ورد السمع بها فيجب الاعتراف به.

وخالف المعتزلة فى الوعد والوعيد، والسمع والعقل من كل وجه. وقال: الإيمان هو التصديق بالقلب، والقول باللسان. والعمل بالاركان فروع. الإيمان: فمن صدق بالقلب، أى أقر بوحدانية الله تعالى، واعترف بالرسل تصديقاً لهم فيما جاءوا به، فهو مؤمن. وصاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة، حكمه إلى الله: إما أن يغفر له برحمته أو يشفع له رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإما أن يعذبه بعدله، ثم يدخله الجنة برحمته، ولا يخلد فى النار مؤمن.

قال: ولا أقول أنه يجب على الله سبحانه قبول توبته بحكم العقل، لأنه هو الموجب لا يجب عليه شيء أصلا، بل قد ورد السمع بقبول توبة التائبين، وإجابة دعوة المضطرين. وهو المالك لخلقه يفعل ما يشاء، ويحكم مايريد، فلو أدخل الخلائق بأجمعهم النار لم يكن جورا، ولو أدخلهم الجنة لم يكن حيفا، ولا يتصور منه ظلم، ولا ينسب إليه جور، لأنه الملك المطلق.

والواجبات كلها سمعية، فلا يوجب العقل شيئاً ألبتة، ولا يقتضى تحسينا ولا تقبيحا. فمعرفة الله تعالى، وشكر المنعم، وإثابة الطائع، وعقاب العاصى... كل ذلك يحسب السمع دون العقل. ولا يجب على الله شيء: لا صلاح ولا أصلح ولا لطف، بل الثواب والصلاح والطف والنعم، كلها تفضل من الله تعالى. ولا يرجع إليه تعالى نفع ولا ضر، فلا ينتفع بشكر شاكر، ولا يتضرر بكفر كافر، بل يتعالى ويتقدس عن ذلك.

وبعث الرسل جائز لا واجب ولا مستحيل. فإذا بعث الله تعالى الرسول، وأيده بالمعجزة الخارقة للعادة، وتحدى ودعا الناس، وجب الإصغاء إليه، والاستماع منه،

والامتثال لأوامره، والانتهاء عن نواهيه. وكرامات الأولياء حق، والإيمان بما جاء فى القرآن والسنة من الأخبار عن الأمور الغائبة عنا - مثل اللوح والقلم، والعرش والكرسى، والجنة والنار - حق وصدق.

وكذلك الإخبار عن الأمور التى ستقع فى الآخرة: مثل سؤال القبر، والثواب والعقاب فيه، والحشروالمعاد، والميزان والصراط، وانقسام فريق فى الجنة وفريق فى السعير.. كل ذلك حق وصدق يجب الإيمان والاعتراف به. والإمامة تثبت بالاتفاق والاختيار دون النص والتعيين على واحد معين، والأئمة مترتبون فى الفضل ترتبهم فى الإمامة.

قال: ولا أقول فى عائشة وطلحة والزبير، رضى الله عنهم، إلا أنهم رجعوا عن الخطأ. وأقول: إن طلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة، وأقول فى معاوية وعمرو بن العاص: أنهما بغيا على الإمام الحق على بن أبى طالب رضى الله عنهم، فقاتلهم مقاتلة أهل البغى. وأقول: أن أهل النهروان الشراة هم المارقون عن الدين، وإن عليا رضى الله عنه كان على الحق فى جميع أحواله، والحق معه حيث دار.

فهذه جملة من أصول عقيدته التى عليها الآن جماهير آهل الأمصار الإسلاميه، والتى من جهر بخلافها أريق دمه.

والأشاعرة يسمون «الصفاتية» لأثباتهم صفات الله تعالى القديمة. ثم افترقوا فى الألفاظ الواردة فى الكتاب والسنة كالاستواء، والنزول، والأصبع واليد، والقدم، والصور، والجنب، والمجيء - على فرقتين: فرقة تؤول جميع ذلك على وجوه محتملة اللفظ. وفرقة لم يتعرضوا للتأويل، ولا صاروا إلى التشبيه، ويقال لهؤلاء الأشعرية والأسرية.

فصار للمسلمين فى ذلك خمسة أقول: أحدها اعتقاد مايفهم مثله من اللغة، وثانيها السكوت عنها مطلقاً، وثالثها السكوت عنها بعد نفى إرادة الظاهر، ورابعها حملها على المجاز، وخامسها حملها على الاشتراك. ولكل فريق أدلة وحجاج تضمنتها كتب أصول الدين ﴿**ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم**﴾[1]، ﴿**فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾[2].

---

(١) هود - آية ١١٨ - ١١٩ ك ١١.

(٢) البقرة - آية ١١٣ م ٢.

«فصل» : أعلم أن الله سبحانه طلب من الخلق معرفته بقوله تعالى **﴿وماخلقت الجن والأنس إلا ليعبدون﴾**(1) . . قال ابن عباس وغيره : يعرفون . فخلق تعالى الخلق ، وتعرف إليهم بألسنة الشرائع المنزلة ، فعرفه من عرفه سبحانه منهم على ما عرفهم فيما تعرف به إليهم .

وقد كان الناس ، قبل إنزال الشرائع ببعثة الرسل عليهم السلام ، علمهم بالله تعالى إنما هو بطريق التنزيه له عن سمات الحدوث ، وعن التركيب ، وعن الافتقار ، ويصفونه سبحانه بالاقتدار المطلق . وهذا التنزيه هو المشهور عقلا ، ولا يتعداه عقل أصلا .

فلما أنزل الله شريعته على رسوله محمد ﷺ ، وأكمل دينه ، كان سبيل العارف بالله أن يجمع فى معرفته بالله بين معرفتين : إحداهما المعرفة التى تقتضيها الأدلة العقلية ، والأخرى المعرفة التى جاءت بها الإخبارات الإلهية ، وأن يرد علم ذلك إلى الله تعالى ، ويؤمن به ، وبكل ما جاءت به الشريعة على الوجه الذى أراده الله تعالى ، من غير تأويل بفكره ، ولا تحكم فيه برأيه .

وذلك أن الشرائع إنما أنزلها الله تعالى لعدم استقلال العقول البشرية بإدراك حقائق الأشياء على ماهى عليه فى علم الله . وأنى لها ذلك ، وقد تقيدت بما عندها من إطلاق ما هنالك؟ فإن وهبها علما بمراده من الأوضاع الشرعية ، ومنحها الإطلاع على حكمه فى ذلك . . . كان من فضله تعالى .

افلا يضيف العارف هذه المنة إلى فكرة ، فإن تنزيهه لربه تعالى بفكرة يجب أن يكون مطابقاً لما أنزله سبحانه على لسان رسوله ، ﷺ ، من الكتاب والسنة . وإلا فهو تعالى منزه عن تنزيه عقول البشر بأفكارها ، فإنها مقيدة بأوطارها ، فتنزيهها كذلك مقيد بحسبها ، وبموجب أحكامها وآثارها . . . إلا إذا خلت عن الهوى ، فإنها حينئذ يكشف الله لها الغطاء عن بصائرها ، ويهديها إلى الحق . فتنزه الله تعالى عن التنزيهات العرفية بالأفكار العادية .

وقد أجمع المسلمون قاطبة على جواز رواية الأحاديث الواردة فى الصفات ونقلها وتبليغها ، من غير خلاف بينهم فى ذلك . ثم أجمع أهل الحق منهم على أن هذه الأحاديث

---

(١) الذاريات ـ آية ٥٦ ك ٥١ .

مصروفة عن احتمال مشابهة الخلق، لقول الله تعالى: ﴿**ليس كمثلة شيء، وهو السميع البصير**﴾[1]، ولقول الله تعالى: ﴿**قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد**﴾[2].

وهذه السورة يقال لها سورة الإخلاص. وقد عظم رسول الله ﷺ شأنها، ورغب أمته فى تلاوتها.. حتى جعلها تعدل ثلث القرآن من أجل أنها شهادة بتنزيه الله تعالى، وعدم الشبه والمثل له سبحانه. وسميت سورة الإخلاص، لاشتمالها على إخلاص التوحيد لله عن أن يشوبه ميل إلى تشبيه بالخلق. وإما الكاف التى فى قوله تعالى «ليس كمثله شىء» فإنها زائدة. وقد تقرر أن الكاف والمثل فى كلام العرب أتيا للتشبيه، فجمعهما الله تعالى، ثم نفى بهما عنه ذلك.

فإذا ثبت إجماع المسلمين على جواز رواية هذه الأحاديث ونقلها، مع إجماعهم على أنها مصروفة عن التشبية، لم يبق فى تعظيم الله تعالى بذكرها إلا نفى التعطيل.. لكون أعداء المرسلين سموا ربهم سبحانه أسماء نفوا فيها صفاته العلا. فقال قوم من الكفار: هو طبيعة، وقال آخرون منهم: هو علة، إلى غير ذلك من إلحادهم فى أسمائه سبحانه.

فقال رسول الله ﷺ هذه الأحاديث المشتملة على ذكر صفات الله العلا، ونقلها عن أصحابه البررة، ثم نقلها عنهم أئمة المسلمين. حتى انتهت إلينا، وكل منهم يرويها بصفتها من غير تأويل لشىء منها، مع علمنا أنهم كانوا يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى ﴿**ليس كمثله شئ وهو السميع البصير**﴾..

ففهمنا من ذلك أن الله تعالى أراد ـ بما نطق به رسوله، ﷺ، من هذه الأحاديث، وتناولها عنه الصحابة رضى الله عنهم وبلغوها لأمته ـ أن يغص بها فى حلوق الكافرين، وأن يكون ذكرها نكتا فى قلوب كل ضال معطل مبتدع يقفو أثر المبتدعة من أهل الطبائع وعباد العلل. فلذلك وصف الله تعالى نفسه الكريمة بها فى كتابه، ووصفه رسول الله ﷺ أيضاً بما صح عنه وثبت.

---

(١) الشورى ـ آية ١١ ـ ك ٤٢.
(٢) سورة الإخلاص ـ ك ١١٢.

فدل على أن المؤمن إذا اعتقد أن الله ﴿ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير﴾، وأنه أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.. كان ذكره لهذه الأحاديث تمكين الإثبات، وشجا في حلوق المعطلة.. وقد قال الشافعي رحمه الله: الإثبات أمكن.. نقله الخطابي. ولم يبلغنا عن أحد من الصحابة والتابعين وتابعيهم أنهم أولوا هذه الأحاديث.

والذي يمنع من تأويلها إجلال الله تعالى عن أن تضرب له الأمثال، وأنه إذا نزل القرآن بصفة من صفات الله تعالى، كقوله سبحانه ﴿يد الله فوق أيديهم﴾(١)، فإن نفس تلاوة هذا يفهم منها السامع المعنى المراد به، وكذا قوله تعالى ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ عند حكايته تعالى عن اليهود نسبتهم أياه إلى البخل، فقال تعالى: ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾(٢)، فإن نفس تلاوة هذا مبينه للمعنى المقصود.

وأيضاً فإن تأويل هذه الأحاديث يحتاج أن يضرب لله تعالى فيها المثل، نحو قولهم في قوله تعالى ﴿الرحمن على العرش استوى﴾(٣): الاستواء الإستيلاء، كقولك «استوى الأمير على البلد». وأنشدوا:

«قد أستوى بشر على العراق»،

فلزمهم تشبيه الباري تعالى ببشر.

وأهل الإثبات نزهوا جلال الله عن أن يشبهوه بالأجسام حقيقة ولا مجازاً، وعلموا ـ مع ذلك ـ أن هذا النطق يشتمل على كلمات متداولة بين الخالق وخلقه، وتحرجوا أن يقولوا مشتركة، لأن الله تعالى لاشريك له. ولذلك لم يتأول السلف شيئاً من أحاديث الصفات، مع علمنا قطعاً أنها عندهم مصروفة عما يسبق اليه ظنون الجهال من مشابهتها لصفات المخلوقين.

---

(١) الفتح ـ آية ١٠ م ٤٨.
(٢) المائدة ـ آية ٦٤ م ٥.
(٣) طه ـ آية ٥ ـ ك ٢٠.

وتأمل تجد الله تعالى لما ذكر المخلوقات المتولدة من الذكر والأنثى فى قوله سبحانه ﴿**خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه**﴾[1]، علم سبحانه ما يخطر بقلوب الخلق فقال عز من قائل: ﴿**ليس كمثله شئ، وهو السميع البصير**﴾.

وأعلم أن السبب فى خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام: أن الفرس كانت من سعة الملك، وعلو اليد على جميع الأمم، وجلالة الخطر فى أنفسها.. بحيث إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم. فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب - وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطراً - تعاظمهم الأمر، وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة فى أوقات شتى، وفى كل ذلك يظهر الله تعالى الحق.

وكان من قائميهم شنفاد وأشنيس والمقفع وبابك وغيرهم، وقبل هؤلاء رام ذلك عمار - الملقب خداشا - وأبو مسلم السروح، فرأوا أن كيده على الحيله أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله ﷺ واستبشاع ظلم على بن أبى طالب رضى الله عنه، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى.

فقوم أدخلوهم إلى القول بأن رجلا ينتظر، يدعى المهدى، عنده حقيقة الدين، إذ لا يجوز أن يؤخذ الدين عن كفار، إذ نسبوا أصحاب رسول الله ﷺ إلى الكفر. وقوم خرجوا إلى القول بادعاء النبوة لقوم سموهم به. وقم سلكوا بهم إلى القول بالحلول، وسقوط الشرائع. وآخرون تلاعبوا بهم، فأوجيوا عليهم خمسين صلاة فى كل يوم وليلة. وآخرون قالوا: بل هى سبع عشرة صلاة، فى كل صلاة خمسة عشرة ركعة. وهو قول عبدالله بن عمرو بن الحارث الكندى قبل أن يصير خارجياً صفرياً.

وقد أظهر عبدالله بن سبأ الحميرى اليهودى الإسلام ليكيد أهله، فكان هو أصل إثارة الناس على عثمان بن عفان رضى الله عنه. وأحرق على رضى الله عنه منهم طوائف أعلنوا بإلهيته. ومن هذه الأصول حدثت الإسماعيلية والقرامطة.

---

(١) الشورى - آية ١١ - ك ٤٢.

والحق الذى لاريب فيه أن دين الله تعالى ظاهر لاباطن فيه، وجوهر لاسر تحته، وهو كله لازم كل أحد لامسامحه فيه. ولم يكتم رسول الله ﷺ من الشريعة ولا كلمة، ولا أطلع أخص الناس به، من زوجة أو ولد عم، على شئ من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم. ولاكان عنده ﷺ سر، ولا رمز، ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم إليه. ولو كتم شيئاً لما بلغ كما أمر، ومن قال هذا فهو كافر بإجماع الأمة.

وأصل كل بدعة فى الدين البعد عن كلام السلف، والانحراب عن اعتقاد الصدر الأول. حتى بالغ القدرى فى القدر فجعل العبد خالقاً لأفعاله، وبالغ الجبرى فى مقابلته فسلب عنه الفعل والاختيار، وبالغ المعطل فى التنزيه. فسلب عن الله تعالى صفات الجلال، ونعوت الكمال، وبالغ المشبه فى مقابلته فجعله كواحد من البشر، وبالغ المرجئ فى سلب العقاب، وبالغ المعتزلى فى التخليد فى العذاب، وبالغ الناصبى فى دفع على رضى الله عنه عن الأمامة، وبالغت الغلاة حتى جعلوه إلها، وبالغ السنى فى تقديم أبى بكر رضى الله عنه، وبالغ الرافضى فى تأخيره حتى كفره.

وميدان الظن واسع، وحكم الوهم غالب. فتعارضت الظنون، وكثرت الأوهام، وبلغ كل فريق فى الشر والعناد والبغى والفساد إلى أقصى غاية وأبعد نهاية، وتباغضوا وتلاعنوا، واستحلوا الأموال، واستباحوا الدماء، وانتصروا بالدول، واستعانوا بالملوك. فلو كان أحدهم إذا بالغ فى أمر، نازع الآخر فى القرب منه ـ فإن الظن لايبعد عن الظن كثيراً، ولاينتهى فى المنازعة إلى الطرف الآخر من طرفى التقابل ـ والتقاطع. ﴿**ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك**﴾(١).

---

(١) هود ـ آية ١١٨ ـ ك ١١.

ذكر المدارس

قال بن سيده : درس الكتاب يدرسه درساً ودراسة ، ودارسة من ذلك كأنه عاوده حتى انقاد لحفظه ، وقد قرئ بهما «وليقولوا درست» ودارست ، ذاكرتهم ، وحكى درست أى قرئت ، وقرئ درست ودرست ، أى هذه أخبار قد عفت وامحت ، ودَّرست أشد مبالغة ، والدراس المدارسة .

وقال ابن جني : ودرسته إياه وأدرسته .

ومن الشاذ قراءة ابن حيوة «وبما كنتم تدرسون» . والمدرس : الموضع الذى يدرس فيه .

وقد ذكر الواقدى أن عبدالله ابن أم مكتوم قدم مهاجراً إلى المدينة مع مصعب بن عمير رضى الله عنهما - وقيل قدم بعد بدر بيسير - فنزل دار القراء .

ولما أراد الخليفة المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق بالله أبى أحمد طلحة بن المتوكل على الله جعفر ، بناء قصره فى الشماسية ببغداد ، استزاد فى الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد . فسئل عن ذلك ، فذكر أنه يريده ليبنى فيه دوراً ومساكن ومقاصير ، يرتب فى كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ، ويجرى عليهم الأرزاق السنية ، ليقصد كل من اختار علماً أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه .

والمدارس مما حدث فى الإسلام ، ولم تكن تعرف فى زمن الصحابة ولا التابعين ، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنى الهجرة . وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الإسلام أهل نيسابور ، فبنيت بها المدرسة البيهقية ، وبنى بها أيضاً الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة ، وبنى بها أخو السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة ، وبنى بها أيضاً المدرسة السعيدية ، وبنى بها أيضاً مدرسة رابعة .

وأشهر ما بنى فى القديم المدرسة النظامية ببغداد ، لأنها أول مدرسة قرر بها للفقهاء معاليم ، وهى منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبى على الحسن بن على بن إسحاق بن العباس الطوسى ، وزير ملك شاه بن ألب إرسلان ابن داود بن ميكال بن سلجوق فى مدينة بغداد .

وشرع فى بنائها فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة، وفرغت فى ذى القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة، ودرس فيها الشيخ أبو إسحاق الشيرازى الفيروزبادى، صاحب كتاب «التنبية فى الفقه» على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ورحمه. فاقتدى الناس به من حينئذ فى بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر، وفى بلاد الجزيرة وديار بكر.

وإما مصر فإنها كانت حينئذ بيد الخلفاء الفاطميين، ومذهبهم مخالف لهذه الطريقة، وإنما هم شيعة إسماعيلية كما تقدم.

وأول ما عرف إقامة درس من قبل السلطان، بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر، فى خلافة العزيز بالله نزار بن المعز، ووزارة يعقوب بن كلس. فعمل ذلك بالجامع الأزهر، كما تقدم ذكره، ثم عمل فى دار الوزير يعقوب بن كلس مجلس يحضره الفقهاء. فكان يقرأ فيه كتاب فقه على مذهبهم، وعمل أيضاً مجلس بجامع عمرو بن العاص من مدينة فسطاط مصر لقراءة كتاب الوزير. ثم بنى الحاكم بأمر الله أبو على منصور بن العزيز دار العلم بالقاهرة، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب.

فلما انقرضت الدولة الفاطمية، على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، أبطل مذاهب الشيعة من ديار مصر، وأقام بها مذهب الإمام الشافعى ومذهب الإمام مالك، واقتدى بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكى. فأنه بنى بدمشق وحلب وأعمالها عدة مدارس للشافعية والحنفية، وبنى لكل من الطائفتين مدرسة بمدينة مصر.

وأول مدرسة أحدثت بديار مصر المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر، ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضاً، ثم المدرسة السيوفية التى بالقاهرة. ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين، فى بناء المدارس بالقاهرة ومصر وغيرهما من أعمال مصر وبالبلاد الشامية والجزيرة، أولاده وأمراؤه. ثم حذا حذوهم من ملك مصر بعدهم من ملوك الترك وأمرائهم وأتباعهم إلى يومنا هذا.

وسأذكر ما بديار مصر من المدارس، وأعرف بحال من بناها، على ما اعتدته فى هذا الكتاب من التوسط دون الإسهاب، وبالله أستعين.

المدرسة الناصرية

بجوار الجامع العتيق من مدينة مصر من قبليه .

هذه المدرسة عرفت أولاً بالمدرسة الناصرية ، ثم عرفت بابن زين التجار ـ وهو أبو العباس أحمد بن المظفر بن الحسين الدمشقى ، المعروف بابن زين التجار ، أحد الأعيان الشافعية . . درس بهذه المدرسة مدة طويلة . ومات فى ذى القعدة سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ـ ثم عرفت بالمدرسة الشريفية ، وهى إلى الآن تعرف بذلك ، وكان موضعها يقال له الشرطة .

وذكر الكندى أنها خطة قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى ، وعرفت بدار الفلفل . وقال ابن عبدالحكم : كانت فضاء قبل ذلك .

وقيل كانت هى والدار التى إلى جانبها لنافع بن عبدالله بن قيس الفهرى ، فأخذها منه قيس بن سعد . وسميت دار الفلفل لأن أسامة ابن زيد التنوخى ، صاحب الخراج بمصر ، ابتاع من موسى بن وردان فلفلاً بعشرين ألف دينار ليهديه إلى صاحب الروم ، فخزنه فيها . ولما فرغ عيسى بن يزيد الجلودى من بناء زيادة الجامع ، بنى هذه الدار شرطة فى سنة ثلاث عشرة ومائتين ، ثم صارت سجناً تعرف بالمعونة .

فهدمها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فى أول المحرم سنة ست وستين وخمسمائة ، وأنشأها مدرسة برسم الفقهاء الشافعية ـ وكان حينئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العاضد ، وكان هذا من أعظم ما نزل بالدولة ـ وهى أول مدرسة عملت بديار مصر . ولما كملت وقف عليها الصاغة ـ وكانت بجوارها ـ وقد خربت ، وبقى منها شئ يسير قرأت عليها اسم الخليفة العزيز بالله ، ووقف عليها أيضاً قرية تعرف . . .

وأول من ولى التدريس بها ابن زين النجار فعرفت به ، ثم درس بها بعده ابن قطيفة بن الوزان ، ثم من بعده كمال الدين أحمد بن شيخ الشيوخ ، وبعده الشريف القاضى شمس الدين أبو عبدالله محمد بن الحسين بن محمد الحنفى ـ قاضى العسكر الأرموى ـ فعرفت به ،

وقيل لها المدرسة الشريفية من عهده إلى اليوم. ولولا ما يتناوله الفقهاء من المعلوم بها لخربت، فإن الكيمان ملاصقة لها بعدما كان حولها أعمر موضع فى الدنيا.

وقد ذكر حبس المعونة عند ذكر السجون من هذا الكتاب.

المدرسة القمحية

هذه المدرسة بجوار الجامع العتيق بمصر. كان موضعها يعرف بدار الغزل - وهو قيسارية يباع فيها الغزل - فهدمها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وأنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكية، وكان الشروع فيها للنصف من المحرم سنة ست وستين وخمسمائة، ووقف عليها قيسارية الوراقين وعلوها بمصر، وضيعة بالفيوم تعرف بالحنبوشية، ورتب فيها أربعة من المدرسين عند كل مدرس عدة من الطلبة.

وهذه المدرسة أجل مدرسة للفقهاء المالكية، ويتحصل لهم من ضيعتهم التى بالفيوم قمح يفرق فيهم، فلذلك صارت لاتعرف إلا بالمدرسة القمحية إلى اليوم. وقد أحاط بها الخراب، ولولا ما يتحصل منها للفقهاء لدثرت.

وفى شعبان سن خمس وعشرين وثمانمائة، أخرج السلطان الملك الأشرف برسباى الدقماقى ناحيتى الأعلام والحنبوشية - وكانتا من وقف السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على هذه المدرسة - وأنعم بهما على مملوكين من مماليكه ليكونا إقطاعاً لهما.

مدرسة يازكوج

هذه المدرسة بسوق الغزل فى مدينة مصر. وهى مدرسة معلقة بناها . . . . .

مدرسة ابن الأرسوفي

هذه المدرسة كانت بالبزازين التى تجاور خط النخالين بمصر . عرفت بابن الأرسوفى التاجر العسقلانى ، وكان بناؤها فى سنة سبعين وخمسمائة ، وهو عفيف الدين عبدالله بن محمد الأرسوفى ، مات بمصر فى يوم الأثنين حادى عشرى ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

مدرسة منازل العز

هذه المدرسة كانت من دور الخلفاء الفاطميين . بنتها أم الخليفة العزيز بالله بن المعز ، وعرفت بمنازل العز ، وكانت تشرف على النيل ، وصارت معدة لنزهة الخلفاء ، وممن سكنها ناصر الدولة حسين بن حمدان إلى أن قتل ، وكان بجانبها حمام يعرف بحمام الذهب من جملة حقوقها ، وهى باقية .

فلما زالت الدول الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف ، أنزل فى منازل العز الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب . فسكنها مدة ، ثم إنه أشتراها والحمام والاصطبل المجاور لها من بيت المال فى شهر شعبان سنة ست وستين وخمسمائة ، وأنشأ فندقين بمصر بخط الملاحين ، وأنشأ ربعاً بجوار أحد الفندقين ، واشترى جزيرة مصر التى تعرف اليوم بالروضة .

فلما أراد أن يخرج من مصر إلى الشام ، وقف منازل العز على فقهاء الشافعية ، ووقف عليها الحمام وما حولها ، وعمر الأصطبل فندقاً ، عرف بفندق النخلة ، ووقفة عليها ، ووقف عليها الروضة .

ودرس بها شهاب الدين الطوسى ، وقاضى القضاة عماد الدين أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالعلى السكرى ، وعدة من الأعيان . وهى الآن عامرة بعمارة ما حولها .

الملك المظفر تقى الدين أبو سعيد عمر بن نور الدين شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شادى بن مروان : هو ابن أخى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . قدم إلى القاهرة فى . . . . . . ، وأستنابه السلطان على دمشق فى المحرم سنة إحدى وسبعين . ثم نقله إلى نيابة حماة ، وسلم إليه سنجار لما أخذها فى ثانى رمضان سنة ثمان وسبعين فأقام بها .

ولحق السلطان على حلب ، فقدم عليه فى سابع صفر سنة تسع وسبعين ، فأقام إلى أن بعثة إلى القاهرة نائباً عنه بديار مصر - عوضاً عن الملك العادل أبى بكر بن أيوب - فقدمها فى شهر رمضان سنة تسع وسبعين ، وأنعم عليه بالفيوم وأعمالها مع القايات وبوش ، وأبقى عليه مدينة حماة .

ثم خرج بعساكر مصر إلى السلطان ، وهو بدمشق ، فى سنة ثمانين لأجل أخذ الكرك من الفرنج . فسار إليها وحصرها مدة ، ثم رجع مع السلطان إلى دمشق ، وعاد إلى القاهرة فى شعبان ، وقد أقام السلطان على مملكة مصر ابنه الملك العزيز عثمان ، وجعل الملك المظفر كافلاً له وقائماً بتدبير دولته . فلم يزل على ذلك إلى جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين ، فصرف السلطان أخاه الملك العادل عن حلب وأعطاه نيابة مصر .

فغضب الملك المظفر ، وعبر بأصحابة إلى الجيزة يريد المسير إلى بلاد المغرب واللحاق بغلامه بهاء الدين قراقوش التقوى . فبلغ السلطان بذلك ، فكتب اليه ، ولم يزل به حتى زال ما به . وسار إلى السلطان ، فقدم عليه دمشق فى ثالث عشرى شعبان ، فأقره على حماه والمعرة ومنبج وأضاف إليه ميافارقين ، فلحق به أصحابه ما خلا مملوكه زين الدين بوزيا ، فأنه سار إلى بلاد المغرب .

وكانت له فى أرض مصر وبلاد الشام أخبار وقصص ، وعرفت له مواقف عديدة فى الحرب مع الفرنج ، وآثار فى المصافات . وله فى أبواب البر أفعال حسنة ، وله بمدينة الفيوم مدرستان : إحداهما للشافعية ، والأخرى للمالكية . وبنى مدرسة بمدينة الرها ، وسمع الحديث من السلفى وابن عوف .

وكان عنده فضل وأدب ، وله شعر حسن ، وكان جواداً شجاعاً مقداماً ، شديد البأس ، عظيم الهمة ، كثير الإحسان . . ومات فى نواحى خلاط ليلة الجمعة تاسع شهر رمضان سنة

سبع وثمانين وخمسمائة، ونقل إلى حماة، فدفن بها فى تربة بناها على قبره ابنه الملك المنصور محمد.

مدرسة العادل

هذه المدرسة بخط الساحل، بجوار الربع العادلى من مدينة مصر الذى وقف على الشافعى. عمرها الملك العادل أبو بكر بن أيوب، أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، فدرس بها قاضى القضاة تقى الدين أبو على الحسين بن شرف الدين أبى الفضل عبدالرحيم أبن الفقيه جلال الدين أبى محمد عبدالله بن نجم بن شاس، فعرفت به، وقيل لها مدرسة ابن شاس إلى اليوم. وهى عامرة، وعرف خطها بالقشاشين، وهى للمالكية.

مدرسة ابن رشيق

هذه المدرسة للمالكية، وهى بخط حمام الريش فى مدينة مصر. كان الكانم من طوائف التكرور، لما وصلوا إلى مصر فى سنة بضع وأربعين وستمائة قاصدين الحج، دفعوا للقاضى علم الدين بن رشيق مالا بناها به، ودرس فها فعرفت به، وصار لها فى بلاد التكرور سمعة عظيمة، وكانوا يبعثون إليها فى غالب السنين المال.

المدرسة الفائزية

هذه المدرسة فى مصر بخط . . . . . . أنشأها الصاحب شرف الدين هبة الله بن صاعد بن وهيب الفائزى، قبل وزارته، فى سنة ست وثلاثين وستمائة. ودرس بها القاضى محيي الدين عبدالله ابن قاضى القضاة شرف الدين محمد بن عين الدولة، ثم قاضى القضاة صدر الدين موهوب الجزرى، وهى للشافعية.

المدرسة القطبية

هذه المدرسة بالقاهرة، فى خط سويقة الصاحب بداخل درب الحريرى، كانت هذه والمدرسة السيفية من حقوق دار الديباج التى تقدم ذكرها. وأنشأ هذه المدرسة الأمير قطب الدين خسرو بن بلبل بن شجاع الهدبانى، فى سنة سبعين وخمسمائة، وجعلها وقفاً على الفقهاء الشافعية. وهو أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب.

المدرسة السيوفية

هذه المدرسة بالقاهرة، وهى من جملة دار الوزير المأمون البطائحى. وقفها السلطان السيد الأجل الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب على الحنفية، وقرر فى تدريسها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتى، ورتب له فى كل شهر أحد عشر ديناراً، وباقى ريع الوقف يصرفه على ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده على قدر طبقاتهم، وجعل النظر للجبتى، ومن بعده إلى من له النظر فى أمور المسلمين.

وعرفت بالمدرسة السيوفية من أجل أن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها، وهى الآن تجاه سوق الصنادقيين. وقد وهم القاضى محيي الدين عبدالله بن عبدالظاهر، فإنه قال فى كتاب «الروضة الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة»: مدرسة السيوفية، وهى للحنفية، وقفها عز الدين فرحشاه قريب صلاح الدين.

وما أدرى كيف وقع له هذا الوهم؟ فإن كتاب وقفها موجود قد وقفت عليه، ولخصت منه ما ذكرته، وفيه أن واقفها السلطان صلاح الدين، وخطه على كتاب الوقف، ونصه «الحمد لله وبه توفيقى». وتاريخ هذا الكتاب تاسع عشرى شعبان سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة.

ووقف على مستحقيها اثنين وثلاثين حانوتاً، بخط سويقة أمير الجيوش وباب الفتوح وحارة برجوان، وذكر فى آخر كتاب وقفها: أن الواقف أذن لمن حضر مجلسه من العدول فى الشهادة والقضاء على لفظه بما تضمنه المسطور، فشهدوا بذلك، وأثبتوا شهادتهم آخره، وحكم حاكم المسلمين على صحة هذا الوقف بعدما خاصم رجل من أهل هذا الوقف فى ذلك، وأمضاه.

لكنه لم يذكر فى الكتاب إسجال القاضى بثبوته، بل ذكر رسم شهادة الشهود على الواقف، وهم: على بن إبراهيم بن نجا بن غنائم الأنصارى الدمشقى، والقاسم بن يحيى بن عبدالله بن قاسم الشهرزورى، وعبدالله بن عمر بن عبدالله الشافعى، وعبدالرحمن بن على بن عبدالعزيز بن قريش المخزومى، وموسى بن حكر بن موسك الهدبانى، فى آخرين.

وهذه المدرسة هى أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر، وهى باقية بأيديهم.

المدرسة الفاضلية

هذه المدرسة بدرب ملوخيا من القاهرة. بناها القاضى الفاضل عبدالرحيم بن على البيسانى بجوار داره، فى سنة ثمانين وخمسمائة، ووقفها على طائفتى الفقهاء الشافعية والمالكية، وجعل فيها قاعة للإقراء: أقرأ فيها الإمام أبو محمد الشاطبى ناظم الشاطبية، ثم تلميذه أبو عبدالله محمد بن عمر القرطبى، ثم الشيخ على بن موسى الدهان وغيرهم. ورتب لتدريس فقه المذهبين الفقيه أبا القاسم عبدالرحمن بن سلامة الإسكندرانى.

ووقف بهذه المدرسة جملة عظيمة من الكتب فى سائر العلوم، يقال إنها كانت مائة ألف مجلد، وذهبت كلها. وكان أصل ذهابها أن الطلبة التى كانت بها لما وقع الغلاء بمصر فى سنة أربع وتسعين وستمائة، والسلطان يومئذ الملك العادل كتبغا المنصورى، مسهم الضر، فصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبر، حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب، ثم تداولت أيدى الفقهاء عليها بالعارية فتفرقت.

وبهـا إلى الآن مـصـحف قـرآن كـبيـر القـدر جـداً، مكتـوب بالخط الأول الذى يعـرف بالكوفى، تسميه الناس مصحف عثمان بن عفان ـ ويقال إن القاضى الفاضل اشتراه بنيف وثلاثين ألف دينار على أنه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ـ وهو فى خزانة مفردة له بجانب المحراب من غربيه وعليه مهابة وجلالة.

وإلى جانب المدرسة كتاب برسم الأيتام. وكانت هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة وأجلها، وقد تلاشت لخراب ما حولها.

«عبدالرحيم»

بن على بن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد: القاضى الفاضل محيي الدين أبو على، بن القاضى الأشرف اللخمى العسقلانى البيسانى المصرى الشافعى، كان أبوه يتقلد قضاء مدينة بيسان، فلهذا نسبوا إليها.

وكانت ولادته بمدينة عسقلان فى خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة. ثم قدم القاهرة، وخدم الموفق يوسف بن محمد بن الجلال، صاحب ديوان الإنشاء فى أيام الحافظ لدين الله، وعنه أخذ صناعة الإنشاء، ثم خدم بالإسكندرية مدة.

فلما قام بوزارة مصر العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك، خرج أمره إلى والى الإسكندرية بتسييره إلى الباب، فلما حضر استخدمه بحضرته وبين يديه فى ديوان الجيش. فلما مات الموفق بن الجلال فى سنة ست وستين وخمسمائة ـ وكان القاضى الفاضل ينوب عنه فى ديوان الإنشاء ـ عينه الكامل بن شاور، وسعى له عند أبيه الوزير شاور بن مجير، فأقره عوضاً عن ابن الجلال فى ديوان الإنشاء.

فلما ملك أسد الدين شيركوه احتاج إلى كاتب، فأحضره وأعجبه إتقانه وسمته ونصحه فاستكتبه. إلى أن ملك صلاح الدين يوسف أبن أيوب، فاستخلصه وحسن اعتقاده فيه، فاستعان به على ما أراد من إزالة الدولة الفاطمية حتى تم مراده، فجعله وزيره ومشيره. .

بحيث كان لا يصدر أمراً إلا عن مشورته، ولا ينفذ شيئاً إلا عن رأيه، ولا يحكم فى قضية إلا بتدبيره. فلما مات صلاح الدين استمر على ما كان عليه، عند ولده الملك العزيز عثمان، فى المكانة والرفعة وتقلد الأمر.

فلما مات العزيز، وقام من بعده ابنه الملك المنصور بالملك، ودبر أمره عمه الأفضل.. كان معهما على حاله. إلى أن وصل الملك العادل أبو بكر بن أيوب من الشام لأخذ ديار مصر، وخرج الأفضل لقتاله، فمات منكوباً أحوج ما كان إلى الموت، عند تولى الإقبال وأقبال الأديار، فى سحر يوم الأربعاء سابع عشر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة ودفن بتربته من القرافة الصغرى.

قال ابن خلكان: وزر للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتمكن منه غايه التمكن، وبرز فى صناعة الإنشاء، وفاق المتقدمين، وله فيه الغرائب مع الإكثار... أخبرنى أحد الفضلاء الثقات، المطلعين على حقيقة أمره، أن مسودات رسائله فى المجلدات والتعليقات فى الأوراق إذا جمعت ما تقصر عن مائة، وهو مجيد فى أكثرها.

وقال عبداللطيف البغدادى: دخلنا عليه فرأيت شيخاً ضئيلاً كله رأس وقلب، وهو يكتب ويملى على اثنين، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات، لقوة حرصه فى إخراج الكلام، وكأنه يكتب بجملة أعضائه.

وكان له غرام فى الكتابة وتحصيل الكتب، وكان له الدين والعفاف والتقى، والمواظبة على أوراد الليل، والصيام وقراءة القرآن، وكان قليل اللذات، كثير الحسنات، دائم التهجد، ويشتغل بعلوم الأدب وتفسير القرآن. غير أنه كان خفيف البضاعة من النحو، ولكن قوة الدراية توجب له قلة اللحن. وكان لا يكاد يضيع من زمانه شيئاً إلا فى طاعة، وكتب فى الإنشاء مالم يكتبه غيره.

وحكى لى ابن القطان أحد كتابه قال: لما خطب صلاح الدين بمصر للإمام المستضيء بأمر الله، تقدم إلى القاضى الفاضل بأن يكاتب الديوان العزيز وملوك الشرق، ولم يكن يعرف خطابهم واصطلاحهم، فاوعز إلى العماد الكاتب أن يكتب فكتب واحتفل وجاء بها

مفضوضة ليقرأها الفاضل متبجحا بها، فقال: لا أحتاج أن أقف عليها. وأمر بختمها وتسليمها إلى النجاب، والعماد بمصر.

قال: ثم أمرنى أن ألحق النجاب ببلبيس، وأن أفض الكتب، وأكتب صدورها ونهايتها، ففعلت ورجعت بها إليه. فكتب على حذوها وعرضها على السلطان، فارتضاها، وأمر بإرسالها إلى أربابها مع النجاب.

وكان متقللاً فى مطعمه ومنكحه وملبسه، ولباسه البياض لايبلغ جميع ما عليه دينارين، ويركب معه غلام وركابى، ولا يمكن أحداً أن يصحبه، ويكثر زيارة القبور وتشييع الجنائز وعيادة المرضى، له معروف فى السر والعلانية، وأكثر أوقاته يفطر بعدما يتهور الليل.

وكان ضعيف البنية، رقيق الصورة، له حدبة يغطيها الطيلسان، وكان فيه سوء خلق يكمد به فى نفسه، ولا يضر أحداً به. ولأصحاب الأدب عنده نفاق، يحسن إليهم ولا يمن عليهم، ويؤثر أرباب البيوت والغرباء، ولم يكن له انتقام من أعدائه إلا بالإحسان إليهم، أو بالإعراض عنهم وكان دخله فى كل سنة، من إقطاع ورباع وضياع خمسين ألف دينار، سوى متاجره للهند والمغرب وغيرهما.

وكان يقتنى الكتب من كل فن، ويجتلبها من كل جهة، وله نساخ لايفترون ومجلدون لايبطلون. . قال لى بعض من يخدمه فى الكتب إن عددها قد بلغ مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً، وهذا قبل موته بعشرين سنة.

وحكى لى ابن صورة الكتبى أن ابنه القاضى الأشرف التمس منى أن أطلب له نسخة الحماسة ليقرأها، فأعلمت القاضى الفاضل. فاستحضر من الخادم الحماسات، فأحضر له خمساً وثلاثين نسخة، وصار ينفض نسخة نسخة ويقول: هذه بخط فلان، وهذه عليها خط فلان. . حتى أتى على الجميع وقال: ليس فيها ما يصلح للصبيان. وأمرنى أن أشترى له نسخة بدينار.

المدرسة الأزكشية

هذه المدرسة بالقاهرة على رأس السوق الذى كان يعرف بالخروفيين، ويعرف اليوم بسويقه أمير الجيوش. بناها الأمير سيف الدين أيازكوج الأسدى ـ مملوك أسد الدين شيركوه، وأحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ وجعلها وقفاً على الفقهاء من الحنفية فقط فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة.

وكان أيازكوج رأس الأمراء الأسدية بديار مصر فى أيام السلطان صلاح الدين وأيام ابنه الملك العزيز عثمان، وكان الأمير فخر الدين جهاركس رأس الصلاحية. ولم يزل على ذلك إلى أن مات فى يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة، ودفن بسفح المقطم، بالقرب من رباط الأمير فخر الدين بن قزل.

المدرسة الفخرية

هذه المدرسة بالقاهرة، فيما بين سويقة الصاحب ودرب العداس. عمرها الأمير الكبير فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومى، أستادار الملك الكامل محمد بن العادل، وكان الفراغ منها فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وكان موضعها أخيراً يعرف بدار الأمير حسام الدين ساروح بن أرتق شاد الدواوين.

ومولد الأمير فخر الدين فى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة بحلب، وتنقل فى الخدم حتى صار أحد الأمراء بديار مصر، وتقدم فى أيام الملك الكامل، وصار أستاداره، وإليه أمر المملكة وتدبيرها إلى أن سافر السلطان من القاهرة يريد بلاد المشرق. فمات بحران بعد مرض طويل فى ثامن عشر ذى الحجة سنة تسع وعشرين وستمائة.

وكان خيراً كثير الصدقة، يتفقد أرباب البيوت. وله من الآثار، سوى هذه المدرسة، المسجد الذى تجاهها، وله أيضاً رباط بالقرافة، وإلى جانبه كتاب سبيل، وبنى بمكة رباطاً.

المدرسة السيفية

هذه المدرسة بالقاهرة، فيما بين خط البندقانيين وخط الملحيين، وموضعها من جملة دار الديباج. قال ابن عبدالظاهر: كانت دارا، وهى من المدرسة القطبية، فسكنها شيخ الشيوخ (يعنى صدر الدين محمد بن حموية)، وبنيت فى وزارة صفى الدين عبدالله بن على بن شكران سيف الإسلام، ووقفها، وولى فيها عماد الدين، ولد القاضى صدر الدين (يعنى ابن درباس) وسيف الإسلام هذا أسمه طفتكين بن أيوب.

«طفتكين»

ظهير الدين سيف الإسلام الملك المعز بن نجم الدين أيوب بن شادى ابن مروان الأيوبى. سيره أخوه صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى بلاد اليمن فى سنة سبع وسبعين وخمسمائة، فملكها واستولى على كثير من بلادها. وكان شجاعاً كريماً، مشكور السيرة، حسن السياسة.

قصده الناس من البلاد الشاسعة يستمطرون إحسانه وبره. وسار إليه شرف الدين بن عنين، ومدحه بعدة قصائد بديعة، فأجزل صلاته، وأكثر من الإحسان إليه، واكتسب من جهته مالاً وافراً، وخرج من اليمن. فلما قدم إلى مصر - والسلطان إذ ذاك الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين - ألزمه أرباب ديوان الزكاة بدفع زكاه ما معه من المتجر، فعمل:

ما كل من يتمس بالعزيز لهـا
أهل، ولا كل برق سحبه غدقه
بين العزيزين فرق فى فعالهما
هذاك يعطى، وهذا يأخذ الصدقة

وتوفى سيف الإسلام فى شوال سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بالمنصورة، وهى مدينة باليمن اختطها - رحمه الله تعالى.

المدرسة العاشورية

هذه المدرسة بحارة زويلة من القاهرة، بالقرب من المدرسة القطبية الجديدة ورحبة كوكاى. قال ابن عبدالظاهر: كانت دار اليهودى ابن جميع الطبيب، وكان يكتب لقراقوش، فاشترتها منه الست عاشوراء بنت ساروح الأسدى - زوجة الأمير أيازكوج الأسدى - ووقفتها على الحنفية، وكانت من الدور الحسنة.

وقد تلاشت هذه المدرسة، وصارت طول الأيام مغلوقة لاتفتح إلا قليلاً، فإنها فى زقاق لايسكنه إلا اليهود، ومن يقرب منهم فى النسب.

المدرسة القطبية

هذه المدرسة فى أول حارة زويلة برحبة كوكاى. عرفت بالست الجليلة الكبرى عصمة الدين مؤنسة خاتون - المعروفة بدار إقبال العلائى - ابنه الملك العادل أبى بكر بن أيوب، وشقيقة الملك الأفضل قطب الدين أحمد، وإليه نسبت. وكانت ولادتها فى سنة ثلاث وستمائة، ووفاتها ليلة الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين وستمائة.

وكانت قد سمعت الحديث، وخرَّج لها الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد الظاهرى أحاديث ثمانيات حدثت بها. وكانت عاقلة دينة فصيحة، لها أدب وصدقات كثيرة، وتركت مالاً جزيلاً، وأوصت ببناء مدرسة يجعل فيها فقهاء وقراء، ويشترى لها وقف يغل. فبنيت هذه المدرسة، وجعل فيها درس للشافعية ودرس للحنفية، وقراء. وهى إلى اليوم عامرة.

المدرسة الخروبية

هذه المدرسة على شاطئ النيل من مدينة مصر . أنشأها تاج الدين محمد بن صلاح الدين أحمد بن محمد بن على الخروبى ، لما أنشأ بيتاً كبيراً مقابل بيت أخيه عز الدين قبليه على شاطئ النيل ، وجعل فيه هذه المدرسة . وهى ألطف من مدرسة أخيه ، وبجانبه مكتب سبيل ، ووقف عليها أوقافاً ، وجعل بها مدرس حديث فقط ، ومات بمكة فى آخر المحرم سنة خمس وثمانين وسبعمائة .

مدرسة المحلي

هذه المدرسة على شاطئ النيل ، داخل صناعة التمر ، ظاهر مدينة مصر . أنشأها رئيس التجار برهان الدين إبراهيم بن عمر بن على المحلى ابن بنت العلامة شمس الدين محمد بن اللبان ، وينتمى فى نسبه إلى طلحة بن عبيد الله ، أحد العشرة رضى الله عنهم ، وجعل هذه المدرسة بجواره داره التى عمرها فى مدة سبع سنين ، وأنفق فى بنائها زيادة على خمسين ألف دينار ، وجعل بجوارها مكتب سبيل ، لكن لم يجعل بها مدرساً ولا طلبة .

وتوفى ثانى عشرى ربيع الأول سنة ست وثمانمائة عن مال عظيم ، أخذ منه السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق مائة ألف دينار ، وكان مولده سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، ولم يكن مشكور السيرة فى الديانة ، وله من المآثر تجديد جامع عمرو بن العاص ، فإنه كان قد تداعى إلى السقوط ، فقام بعمارته حتى عاد قريباً مما كان عليه . . شكر الله له ذلك .

المدرسة الفارقانية

هذه المدرسة بابها شارع فى سويقة حارة الوزيرية من القاهرة. فتحت فى يوم الإثنين رابع جمادى الأولى سنة ست وسبعين وستمائة. وبها درس للطائفة الشافعية، ودرس للطائفة الحنفية.

أنشأها الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانى السلاحدار. كان مملوكاً للأمير نجم الدين أمير حاجب، ثم انتقل إلى الملك الظاهر بيبرس، فترقى عنده فى الخدم حتى صار أحد الأمراء الأكابر، وولاه الأستادارية، وناب عنه بديار مصر مدة غيبته، وقدمه على العساكر غير مرة، وفتح له بلاد النوبة، وكان وسيما جسيما، شجاعاً مقداماً حازماً، صاحب دراية بالأمور وخبرة بالأحوال والتصرفات، مدبراً للدول، كثير البر والصدقة.

ولما مات الملك الظاهر، وقام من بعده فى ملك مصر ابنه الملك السعيد بركة قان، ولاه نيابة السلطنة بديار مصر بعد موت الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار، فأظهر الحزم، وضم إليه طائفة: منهم شمس الدين أقوش، وقطليجا الرومى، وسيف الدين قليج البغدادى، وسيف الدين شعبان أمير شكار، وبكتمر السلاحدار.

وكانت الخاصكية تكرهه، فاتفقوا مع مماليك بيلبك الخازندار على القبض عليه، وتحدثوا مع الملك السعيد فى ذلك، ومازالوا به حتى قبضوا عليه بمساعدة الأمير سيف الدين كوندك الساقى لهم، وكان قد ربى مع السعيد فى المكتب، فلم يشعر وهو قاعد بباب القلة من القلعة، إلا وقد سحب وضرب ونتفت لحيته وجر - وقد ارتكب فى إهانته أمر شنيع - إلى البرج فسجن به ليالى قليلة، ثم أخرج منه ميتاً فى أثناء سنة ست وسبعين وستمائة، وجهل قبره.

المدرسة المهذبية

هذه المدرسة خارج باب زويلة، من خط حارة حلب، بجوار حمام قمارى. بناها الحكيم مهذب الدين أبو سعيد محمد بن علم الدين بن أبى الوحش بن أبى الخير بن أبى سليمان بن أبى حلقة، رئيس الأطباء.

كان جده الرشيد أبو الوحش نصرانيا متقدماً فى صناعة الطب، فأسلم ابنه علم الدين فى حياته، وكان لا يولد له ولد فيعيش، فرأت أمه، وهى حامل به، قائلاً يقول: هيئوا له حلقة فضة قد تصدق بوزنها، وساعة يوضع من بطن أمه تثقب أذنه وتوضع فيها الحلقة، ففعلت ذلك فعاش، فعاهدت أمه أباه ألا يقلعها من أذنه، فكبر وجاءنه أولاد وكلهم يموت، فولد له ابنه مهذب الدين أبو سعيد، فعمل له حلقة فعاش.

وكان سبب اشتهاره بأبى حليقة: أن الملك الكامل محمد بن العادل أمر بعض خدامه أن يستدعى بالرشيد الطبيب من الباب- وكان جماعة من الأطباء بالباب- فقال الخادم: من هو منهم؟

فقال السلطان: أبو حليقة.

فخرج فاستدعاه بذلك، فاشتهر بهذا الأسم. ومات الرشيد فى سنة ست وسبعين وستمائة.

المدرسة الخروبية

هذه المدرسة بظاهر مدينة مصر، تجاه المقياس بخط كرسى الجسر، أنشأها كبير الخرازبية بدر الدين محمد بن محمد بن على الخروبى- بفتح الخاء المعجمة، وتشديد الراء المهملة وضمها، ثم واو ساكنة بعدها باء موحدة، ثم ياء آخر الحروف- التاجر فى مطابخ السكر وفى غيرها بعد سنة خمسين وسبعمائة.

وجعل مدرس الفقه بها الشيخ بهاء الدين عبدالله بن عبدالرحمن بن عقيل، والمعيد الشيخ سراج الدين عمر البلقينى. ومات سنة اثنتين وستين وسبعمائة.

وأنشأ أيضاً ربعين بخط دار النحاس من مصر على شاطئ النيل، وربعين مقابل المقياس بالقرب من مدرسته.

ولبدر الدين هذا أخ من أبيه أسن منه، يقال له صلاح الدين أحمد بن محمد بن على الخروبى، عاش بعد أخيه، وأنجب فى أولاده، وأدركت لهم أولاداً نجباء، وكان أولاً قليل المال، ثم تمول، وأنشأ تربة كبيرة بالقرافة، فيما بين تربة الإمام الشافعى وتربة الليث بن سعد، مقابل السروتين وجددها حفيدة نور الدين على بن عز الدين محمد بن صلاح الدين وأضاف إليها مطهرة حسنة، ومات سنة تسع وستين وسبعمائة.

وشرط بدر الدين فى مدرسته ألا يلى بها أحد من العجم وظيفة من الوظائف، فقال فى كل وظيفة منها: ويكون من العرب دون العجم، وكانت له مكارم، جهز مرة ابن عقيل إلى الحج بنحو خمسمائة دينار.

المدرسة الخروبية

هذه المدرسة بخط الشون، قبلى دار النحاس من ظاهر مدينة مصر. أنشأها عز الدين محمد بن صلاح الدين أحمد بن محمد بن على الخروبى، وهى أكبر من مدرسة عمه بدر الدين. إلا أنه مات سنة ست وسبعين وسبعمائة، قبل استيفاء ما أراد أن يجعل فيها، فليس لها مدرس ولا طلبة، ومولده سنة ست عشرة وسبعمائة، ونشأ فى دنيا عريضة. رحمه الله تعالى.

المدرسة الصاحبية البهائية

هذه المدرسة كانت بزقاق القناديل من مدينة مصر ، قرب الجامع العتيق . أنشأها الوزير الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن حنا فى سنة أربع وخمسين وستمائة .

وكان إذ ذاك زقاق القناديل أعمر أخطاط مصر ، وإنما قيل له زقاق القناديل من أجل أنه كان سكن الأشراف ، وكانت أبواب الدور يعلق على كل باب منها قنديل . . قال القضاعى : ويقال إنه كان به مائة قنديل توقد كل ليلة على أبواب الأكابر .

وابن حنا هذا هو على بن محمد بن سليم - بفتح السين المهملة وكسر اللام ، ثم ياء آخر الحروف بعدها ميم - ابن حنا - بحاء مهملة مكسورة ، ثم نون مشددة مفتوحة بعدها ألف - الوزير الصاحب بهاء الدين . ولد بمصر فى سنة ثلاث وستمائة ، وتنتقلت به الأحوال فى كتابة الدواوين إلى أن ولى المناصب الجليلة ، واشتهرت كفايته ، وعرفت فى الدولة نهضته ودرايته .

فاستوزره السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، فى ثامن شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين وستمائة ، بعد القبض على الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير ، وفوض إليه تدبير المملكة وأمور الدولة كلها فنزل من قلعة الجبلل بخلع الوزارة - ومعه الأمير سيف الدين بلبان الرومى الدوادار ، وجميع الأعيان والأكابر - إلى داره .

وأستبد بجميع التصرفات ، وأظهر عن حزم وعزم وجودة رأى ، وقام بأعباء الدولة ، من ولايات العمال وعزلهم ، من غير مشاورة السلطان ، ولا اعتراض أحد عليه . فصار مرجع جميع الأمور ، ومصدرها عنه ، ومنشأ ولايات الخطط والأعمال من قلمه ، وزوالها عن أربابها لايصدر إلا من قبله . ومازال على ذلك طول الأيام الظاهرية .

فلما قام الملك السعيد بركة خان بأمر المملكة بعد موت أبيه الملك الظاهر ، أقره على ما كان عليه فى حياه والده ، فدبر الأمور ، وساس الأحوال ، وما تعرض له أحد بعداوة ولا سوء ، مع كثرة من كان يناويه من الأمراء وغيرهم ، إلا وصده الله عنه ، ولم يجد ما يتعلق به عليه ، ولا ما يبلغ به مقصوده منه .

وكان عطاؤه واسعاً، وصلاته وكلفه للأمراء والأعيان، ومن يلوذ به ويتعلق بخدمته، تخرج عن الحد فى الكثرة، وتتجاوز القدر فى السعة . . . مع حسن ظن الفقراء، وصدق العقيدة فى أهل الخير والصلاح، والقيام بمعونتهم، وتفقد أحوالهم، وقضاء أشغالهم، والمبادرة إلى امتثال أوامرهم، والعفة عن الأموال - حتى أنه لم يقبل من أحد فى وزارته هدية، إلا أن تكون هدية فقير أو شيخ معتقد يتبرك بما يصل من أثره - وكثرة الصدقات فى السر والعلانية.

وكان يستعين على ما ألتزمه من المبرات ولزمه من الكلف بالمتاجر، وقد مدحه عدة من الناس، فقبل مديحهم وأجزل جوائزهم. وما أحسن قول الرشيد الفارقى فيه :

وقائل قال لى نبه لنا عمرا

فقلت إن عليا قد تنبه لي

مالى إذا كنت محتاجاً إلى عمر

من حاجة فليم حسبى أنتباه علي

وقول سعد الدين بن مروان الفارقى فى كتاب «الدرج» المختص به أيضاً.

يمم عليا فهو بحر الندي

وناده فى المضلع المعضل

فرفده بحر على مجدب

ووفده مفض إلى مفصل

يسرع أن سيل نداه وهل

أسرع من سيل أتى من علي

إلا أنه أحدث فى وزارته حوادث عظيمة، وقاس أراضى الأملاك بمصر والقاهرة، وأخذ عليها مالاً، وصادر أرباب الأموال وعاقبهم حتى مات كثير منهم تحت العقوبة، واستخرج جوالى الذمة مضاعفة.

ورزئ بفقد ولديه : الصاحب فخر الدين محمد ، والصاحب زين الدين . فعوضه الله عنهما بأولادهما ، فما منهم إلا نجيب صدر رئيس فاضل مذكور . وما مات حتى صار جد جد ، وهو على المكانة وافر الحرمة ، فى ليلة الجمعة مستهل ذى الحجة سنة سبع وسبعين وستمائة ، ودفن بتربته من قرافه مصر .

ووزر من بعده الصاحب برهان الدين الخضر بن حسن بن على السنجارى ، وكان بينه وبين ابن حناء عداوة ظاهرة وباطنة ، وحقود بارزة وكامنة . فأوقع الحوطة على الصاحب تاج الدين محمد بن حنا بدمشق ، وكان مع الملك السعيد بها ، وأخذ خطه بمائة ألف دينار ، وجهزه على البريد إلى مصر ليستخرج منه ومن أحيه زين الدين أحمد ابن عمه عز الدين تكملة ثلاثمائة ألف دينار ، وأحيط بأسبابه ومن يلوذ به من أصحابه ومعارفه وغلمانه ، وطولبوا بالمال

وأول من درس بهذه المدرسة الصاحب فخر الدين محمد ، ابن بانيها الوزير الصاحب بهاء الدين ، إلى أن مات يوم الإثنين حادى عشرى شعبان سنة ثمان وستين وستمائة .

فوليها من بعده ابنه محيي الدين أحمد بن محمد إلى أن توفى يوم الأحد ثامن شعبان سنة أثنتين وسبعين وستمائة . فدرس فيها بعده الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين إلى أن مات فى يوم الأربعاء سابع صفر سنة أربع وسبعمائة . فدرس بها ولده الصاحب شرف الدين .

وتوارثها أبناء الصاحب ، يلون نظرها وتدريسها ، الصاحب بهاء الدين .

إلى أن كان آخرهم صاحبنا الرئيس شمس الدين محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن الصاحب بهاء الدين . . . وليها بعد أبيه عزالدين ، ووليها عزالدين بعد بدر الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الصاحب بهاء الدين .

فلما مات صاحبنا شمس الدين محمد بن الصاحب ، لليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ، وضع بعض نواب القضاة يده على ما بقى لها من وقف .

وأقامت هذه المدرسة مدة أعوام معطلة من ذكر الله وإقام الصلاة، لا يأويها أحد لخراب ما حولها، وبها شخص يبيت بها كى لايسرق ما بها من أبواب ورخام.

وكان لها خزانة كتب جليلة، فنقلها شمس الدين محمد بن الصاحب، وصارت تحت يده إلى أن مات، فتفرقت فى أيدى الناس، وكان قد عزم على نقلها إلى شاطئ النيل بمصر، فمات قبل ذلك.

ولما كان فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة، أخذ الملك الناصر فرج بن برقوق عمد الرخام التى كانت بهذه المدرسة - وكانت كثيرة العدد، جليلة القدر - وعمل بدلها دعائم تحمل السقوف. إلى أن كانت أيام الملك المؤيد شيخ، وولى الأمير تاج الدين الشوبكى الدمشقى ولاية القاهرة ومصر، وحسبة البلدين وشد العمائر السلطانية، فهدم هذه المدرسة فى أخريات سنة سبع عشرة وأوائل سنة ثمانى عشرة وثمانمائة.

وكانت من أجل مدارس الدنيا، وأعظم مدرسة بمصر يتنافس الناس من طلبة العلم فى النزول بها، ويتشاحنون فى سكنى بيوتها، حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الأثنان من طلبة العلم والثلاثة، ثم تلاشى أمرها حتى هدمت، وسيجهل عن قريب موضعها. ولله عاقبه الأمور.

المدرسة الصاحبية

هذه المدرسة بالقاهرة فى سويقة الصاحب. كان موضعها من جملة دار الوزير يعقوب بن كلس، ومن جملة دار الديباج. أنشأها الصاحب صفى الدين عبدالله بن على بن شكر، وجعلها وقفاً على المالكية، وبها درس نحوٍ وخزانة كتب، ومازالت بيد أولاده.

فلما كان فى شعبان سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، جدد عمارتها القاضى علم الدين إبراهيم بن عبداللطيف بن إبراهيم - المعروف بابن الزبير - ناظر الدولة فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، واستجد فيها منبرا، فصار يصلى بها الجمعة إلى يومنا هذا، ولم يكن قبل ذلك بها منبر، ولا تصلى فيها الجمعة.

عبدالله بن على بن الحسين

بن عبدالخالق بن الحسين بن الحسن بن منصور بن ابراهيم بن عمار بن منصور بن على ، صفى الدين أبو محمد الشيبى ، الدميرى المالكى - المعروف بأبن شكر - ولد بناحية دميرة ، إحدى قرى مصر البحرية ، فى تاسع صفر سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، ومات أبوه ، فتزوجت أمه بالقاضى الوزير الأعز فخر الدين مقدام ، ابن القاضى الأجل أبى العباس أحمد ابن شكر المالكى ، فرباه ، ونوه باسمه ، لأنه كان ابن عمه ، فعرف به ، وقيل له ابن شكر .

وسمع صفى الدين من الفقيه أبى الظاهر إسماعيل بن مكى بن عوف ، وأبى الطيب عبدالمنعم بن يحيي وغيره ، وحدث بالقاهرة ودمشق ، وتفقه على مذهب مالك ، وبرع فيه ، وصنف كتاباً فى الفقه . كان كل من حفظه نال منه حظاً وافراً ، وقصد بذلك أن يتشبه بالوزير عون الدين بن هبيرة .

كانت بداية أمره أنه لما سلم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أمر الأسطول لأخيه الملك العادل أبى بكر ين أيوب ، وأفرد له من الأبواب الديوانية الزكاة بمصر ، والحبس الجيوشى بالبرين ، والنطرون ، والخراج وما معه من ثمن القرظ ، وساحل السنط ، والمراكب الديوانية ، وإسنا وطنبدى - استخدم العادل فى مباشرة ديوان هذه المعاملة الصفى بن شكر هذا ، وكان ذلك فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

ومن حينئذ اشتهر ذكره ، وتخصص بالملك العادل . فلما استقل بمملكة مصر ، فى سنة ست وتسعين وخمسمائة ، عظم قدره ، ثم استوزه بعد الصبيعة بن النجار ، فحل عنده محل الوزراء الكبار والعلماء المشاورين ، وباشر الوزارة بسطوة وجبروت وتعاظم ، وصادر كتاب الدولة ، واستصفى أموالهم . ففر منه القاضى الأشرف ابن القاضى الفاضل إلى بغداد ، واستشفع بالخليفة الناصر ، وأحضر كتابه إلى الملك العادل يشفع فيه . وهرب منه القاضى علم الدين إسماعيل بن أبى الحجاج صاحب ديوان الجيش ، والقاضى الأسعد أسعد بن مماتى صاحب ديوان المال ، والتجأ إلى الملك الظاهر بحلب ، فأقاما عنده حتى ماتا .

وصادر بني حمدان، وبني الحباب، وبني الجليس، وأكابر الكتاب. . . والسلطان لايعارضه في شيء. ومع ذلك فكان يكثر التغضب على السلطان، ويتجنى عليه وهو يحتمله، إلى أن غضب فى سنة سبع وستمائة، وحلف أنه ما بقى يخدم. فلم يحتمله، وولى الوزارة عوضاً عنه القاضى الأعز فخر الدين مقدام بن شكر، وأخرجه من مصر بجميع أمواله، وحرمه وغلمانه، وكان نقله على ثلاثين جملاً، وأخذ أعداؤه فى إغراء السلطان به، وحسنوا له أن يأخذ ماله، فأبى عليهم، ولم يأخذ منه شيئاً.

وصار إلى آمد، فأقام بها عند ابن أرتق إلى أن مات الملك العادل فى سنة خمسين وستمائة فطلبه الملك الكامل محمد ابن الملك العادل لما استبد بسلطنة ديار مصر بعد أبيه، وهو فى نوبة قتال الفرنج على دمياط، حين رأى أن الضرورة داعية لحضورة بعدما كان يعاديه. فقدم عليه فى ذى القعدة منها، وهو بالمنزلة العادلية قريباً من دمياط.

فتلقاه وأكرمه، وحادثه فيما نزل به من موت أبيه، ومحاربه الفرنج، ومخالفه الأمير عماد الدين أحمد بن المشطوب، وأصطراب أرض مصر بثورة العريان وكثرة خلافهم. فشجعه، وتكفل له بتحصيل المال وتدبير الأمور وسار إلى القاهرة، فوضع يده فى مصادرات أرباب الأموال بمصر والقاهرة من الكتاب والتجار، وقرر على الأملاك مالاً، وأحدث حوادث كثيرة، وجمع مالاً عظيماً أمد به السلطان.

فكثر تمكنه منه، وقويت يده، وتوفرت مهابته. . . بحيث أنه لما انقضت نوبة دمياط، وعاد الملك الكامل إلى قلعة الجبل، كان ينزل إليه، ويجلس عنده بمنظرته التى كانت على الخليج، ويتحدث معه فى مهمات الدولة. ولم يزل على ذلك إلى أن مات بالقاهرة، وهو وزير، فى يوم الجمعة ثامن شعبان سنة اثنتين وعشرين وستمائة.

وكان بعيد العور، جماعاً للمال. ضابطاً له من الإنفاق فى غير واجب قد ملأب هيبته الصدور، وانقاد له على الرغم والرضا الجمهور، وأخمد جمرات الرجال وأضرم رماداً لم يخطر إيقاده على بال، وبلغ عند الملك الكامل بحيث إنه بعث إليه بابنيه الملك الصالح نجم الدين أيوب والملك العادل أبى بكر، ليزوراه فى يوم عيد، فقاما على رأسه قياماً، وأنشد زكى الدين أبو القاسم عبدالرحمن بن وهيب القوصى قصيدة، زاد فيها حين رأى الملكين قياماً على رأسه.

لو لم تقــم لله حــق قيامــه

ما كنت تقعـد والمــلوك قيــام

وقطع في وزارته الأرزاق، وكانت جملتها أربعمائة ألف دينار في السنة، وتسارع أرباب الحوائج والأطماع ومن كان يخافه إلى بابه، وملأوا طرقاته.. وهو يهينهم، ولا يحفل بشيخ منهم وهو عالم، وأوقع بالرؤساء وأرباب البيوت، حتى استأصل شأفتهم عن آخرهم، وقدم الآراذل في مناصبهم.

وكان جلداً قوياً. حل به مرة دوسنطاريا قوية وأزمنت، فيئس منه الأطباء، وعندما اشتد به الوجع، وأشرف على الهلاك، أستدعى بعشرة من وجوه الكتاب كانوا في حبسه، وقال: أنتم في راحة وأنا في الألم... لكا والله!! واستحضر المعاصير وآلات العذاب وعذبهم، فصاروا يصرخون من العذاب، وهو يصرخ من الألم طول الليل إلى الصبح، وبعد ثلاثة أيام ركب.

وكان يقول كثيراً: لم يبق في قلبي حسرة إلا كون البيساني لم تتمرغ شيبته على عتباتي - يعني القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني. فإنه مات قبل وزارته - وكان دري اللون تعلوه حمرة، ومع ذلك كان طلق المحيا، حلو اللسان، حسن الهيئة، صاحب دهاء، مع هوج وخبث، في طيش ورعونة مفرطة، وحقد لاتخبو نارة، ينتقم ويظن أنه لم ينتقم فيعود.

وكان لاينام عن عدوه، ولايقبل معذرة أحد، ويتخذ الرؤساء كلهم أعداءه، ولا يرضى لعدوه بدون الهلاك والاستئصال، ولايرحم أحداً إلا انتقم منه، ولايبالي بعاقبة، وكان له ولأهله كلمة يرونها، ويعملون بها كما يعمل بالأقوال الإلهية، وهي: «**إذا كنت دقماقاً فلا تكن وتداً**»، وكان الواحد منهم يعيدها في اليوم مرات، ويجعلها حجة عند انتقامة.

وكان قد استولى على الملك العادل ظاهراً وباطناً، ولايمكن أحداً من الوصول إليه... حتى الطبيب والحاجب والفراش عليهم عيون له، لايتكلم أحد منهم فضل كلمة خوفاً منه، وكان أكبر أغراضه أبادة أرباب البيوت، ومحو آثارهم، وهدم ديارهم، وتقريب الأسقاط، وشراء الفقهاء وكان لا يأخذ من مال السلطان فلسا ولا ألف دينار، ويظهر أمانه مفرطة، فإذا لاح له مال عظيم احتجبه. وبلغ إقطاعه في السنة مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار.

وكان قد عمى، فأخذ يظهر جلداً عظيماً وعدم استكانه، إذا حضر إليه الأمراء والأكابر، وجلسوا على خوانه، يقول قدموا اللون الفلانى للأمير فلان، والصدر فلان، والقاضى فلان، وهو يبنى أموره فى معرفة مكان المشار إليه برموز ومقدمات يكاثر فيها دوائر الزمان.

وكان يتشبه فى ترسله بالقاضى الفاضل، وفى محاضراته بالوزير عون الدين بن هبيرة حتى اشتهر عنه ذلك، ولم يكن فيه أهلية هذا، ولكنه كان من دهاة الرجال. وكان إذا لحظ شخصاً لايقع له إلا بكثرة الغنى ونهاية الرفعة، وإذا غضب على أحد لايقع فى شأنه إلا بمحو أثره من الوجود، وكان كثيراً ما ينشد:

إذا حقرت أمرأ فاحذر عدواته

من يزرع الشوك لم يحصد به عنبا

وينشد كثيراً:

تود عـدوى ثم تزعـــم أنني

صـديقك ان الرأى عنك لعازب

وأخذه مرة مرض من حمى قوية، وحدث به النافض وهو فى مجلس السلطان ينفذ الأشغال، فما تأثر، ولا ألقى جنبه إلى الأرض حتى ذهبت هو كذلك.،

كان يتعزز على الملوك الجبابرة، وتقف الرؤساء على أبوابه من نصف الليل ومعهم المشاعل والشمع، وعند الصباح يركب فلا يراهم ولا يرونه، لأنه إما أن رفع رأسه إلى السماء تيها، وأما أن يعرج إلى طريق غير التى هم بها، وإما أن يأمر الجنادرة التى فى ركابه بضرب الناس وطردهم من طريقه، ويكون الرجل قد وقف على بابه طول الليل، إما من أوله، أو من نصفه، بغلمانه ودوابه، فيطرد عنه ولا يراه.

وكان له بواب يأخذ من الناس مالاً كثيراً، ومع ذلك يهينهم إهانة مفرطة، وعليه للصاحب فى كل يوم خمسة دنانير. منها ديناران برسم الفقاع، ثلاثة دنانير برسم الحلوى وكسوة غلمانه، ونفقاته عليه أيضاً، ومع ذلك اقتنى عقاراً وقرى.

ولما كان بعد موت الصاحب ، قدم من بغداد رسول الخليفة الظاهر - وهو محيي الدين أبو المظفر بن الجوزى - ومعه خلعه الخليفة للملك الكامل ، وخلع لأولاده ، وخلعة للصاحب صفى الدين ، فلبسها فخر الدين سليمان كاتب الإنشاء .

وقبض الملك الكامل على أولاد تاج الدين يوسف ، وعز الدين محمد ، وحبسهم ، وأوقع الحوطة على سائر موجوده . رحمه الله وعفا عنه .

المدرسة الشريفية

هذه المدرسة بدرب كركامة ، على رأس حارة الجودرية ، من القاهرة . وقفها الأمير الكبير الشريف فخر الدين أبو نصر إسماعيل ابن حصن الدولة فخر العرب ثعلب بن يعقوب ابن مسلم ابن أبى جميل دحيه بن جعفر بن موسى بن إبراهيم بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن على بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، الجعفرى الزينبى ، أمير الحاج والزائرين ، وأحد أمراء مصر فى الدولة الأيوبية ، وتمت فى سنة اثنتى عشرة وستمائة ، وهى من مدارس الفقهاء الشافعية .

قال ابن عبدالظاهر : وجرى له فى وقفها حكاية مع الفقيه ضياء الدين بن الوراق . وذلك أن الملك العادل سيف الدين أبا بكر (يعنى ابن أيوب) لما ملك مصر - وكان قد دخلها على أنه نائب للملك المنصور محمد بن العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف ، فقوى عليه ، وقصد الاستبداد بالملك - فأحضر الناس للحلف ، وكان من جملتهم الفقيه ضياء الدين بن الوراق ، فلما شرع الناس فى الحلف ، قال الفقيه ضياء الدين : ما هذا الحلف؟ بالأمس حلفتهم للمنصور ، فإن كانت تلك الأيمان باطلة فهذه باطلة ، وإن كانت تلك صحيحة فهذه باطلة .

فقال الصاحب صفى الدين بن شكر للعادل : أفسد عليك الأمور هذا الفقيه - وكان الفقيه لم يحضر إلى ابن شكر ولا سلم عليه - فأمر العادل بالحوطة على جميع موجود الفقيه

وماله وأملاكه، واعتقاله بالرصد مرسماً عليه فيه، لأنه كان مسجده، فأقام مدة سنين على هذه الصورة.

فلما كان فى بعض الأيام وجد غرة من المترسمين، فحضر إلى دار الوزارة بالقاهرة. فبلغ العادل حضوره فخرج إليه، فقال له الفقيه: اعلم والله انى لا حاللتك ولا أبرأتك، أنت تتقدمنى إلى الله فى هذه المدة، وأنا بعدك أطالبك بين يدى الله تعالى. وتركه وعاد إلى مكانه.

فحضر الشريف فخسر الدين بن ثعلب إلى الملك العادل، فوجده متألماً حزيناً، فسأله، فعرفه، فقال: يا مولانا، ولم تجرد السم فى نفسك؟

فقال: خذ كل ما وقعت الحوطة عليه، وكل ما استخرج من أجرة أملاكه، وطيب خاطره.

وأما الفقيه ضياء الدين، فإنه أصبح، وحضرت إليه جماعة من الطلبة للقراءة عليه، فقال لهم: رأيت البارحة النبى ﷺ وهو يقول: يكون فرجك على يد رجل من أهل بيتى صحيح النسب.

فبينما هم فى الحديث، وإذا بغبرة ثارت من جهة القرافة، فانكشفت عن الشريف بن ثعلب، ومعه الموجود كله. فلما حضر عرفه الجماعة المنام، فقال: يا سيدى اشهد عليّ إن جميع ما أملكه وقف وصدقه، شكرا لهذه الرؤيا.

وخرج عن كل ما يملكه، وكان من جملة ذلك المدرسة الشريفية. لأنها كانت مسكنة، ووقف عليها أملاكه، وكذلك فعل فى غيرها. ولم يحالل الفقيه العادل، ومات الملك العادل بعد ذلك، ومات الفقيه بعده بمدة، ومات الشريف إسماعيل بن ثعلب بالقاهرة فى سابع عشر رجب سنة ثلاث وعشرة وستمائة.

المدرسة الصالحية

هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة. كان موضعها من جملة القصر الكبير الشرقى، فبنى فيه الملك الصالح نجم الدين أيوب هاتين المدرستين، فابتدأ بهدم موضع هذه المدارس فى قطعة من القصر، فى ثالث عشر ذى الحجة سنة تسع وثلاثين وستمائة، ودك أساس المدارس فى رابع عشر ربيع الآخر سنة أربعين، ورتب فيها دروساً أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة فى سنة إحدى وأربعين وستمائة. وهو أول من عمل بديار مصر دروساً أربعة فى مكان.

ودخل فى هذه المدارس باب القصر المعروف بباب الزهومة، وموضعه قاعة شيخ الحنابلة الآن، ثم اختط ما وراء هذه المدارس فى سنة بضع وخمسين وستمائة، وجعل حكر ذلك للمدرسة الصالحية.

وأول من درس بها من الحنابلة قاضى القضاة شمس الدين أبو بكر محمد بن العماد إبراهيم ابن عبدالواحد بن على بن سرور، المقدسى الحنبلى الصالحى.

وفى يوم السبت ثالث عشرى شوال سنة ثمان وأربعين وستمائة، أقام الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى، الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى الصالحى فى نيابة السلطنة بديار مصر فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية هذه مع نواب دار العدل، وانتصب لكشف المظالم، واستمر جلوسه بها مدة.

ثم إن الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس، وقف الصاغة التى تجاهها، وأماكن بالقاهرة وبمدينة المحلة الغربية، وقطع أراضى جزائر بالأعمال الجيزية والأطفيحية، على مدرسين أربعة، عند كل مدرس معيدان وعدة طلبة، وما يحتاج إليه من أئمة ومؤذنين وقومة وغير ذلك، وثبت وقف ذلك على يد قاضى القضاة تقى الدين محمد بن الحسين بن رزين الشافعى، ونفذه قاضى القضاة شمس الدين أبو البركات محمد بن هبة الله بن شكر المالكى، وذلك فى سنة سبع وسبعين وستمائة، وهى جارية فى وقفها إلى اليوم.

فلما كان فى يوم الجمعة حادى عشرى ربيع الأول سنة ثلاثين وسبعمائة، رتب الأمير جمال الدين أقوش - المعروف بنائب الكرك - جمال الدين الغزاوى خطيباً بإيوان الشافعية من هذه المدرسة، وجعل له فى كل شهر خمسين درهماً، ووقف عليه وعلى مؤذنين وقفاً جارياً، فاستمرت الخطبة هناك إلى يومنا هذا.

قبة الصالح

هذه القبة بجوار المدرسة الصالحية، كان موضعها قاعة شيخ المالكية. بنتها عصمة الدين، والدة خليل، شجرة الدر لأجل مولاها الملك الصالح نجم الدين أيوب عندما مات - وهو على مقاتلة الفرنج بناحية المنصورة - فى ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة. فكتمت زوجته شجرة الدر موته خوفاً من الفرنج، ولم تعلم بذلك أحداً سوى الأمير فخر الدين بن يوسف ابن شيخ الشيوخ، والطواشى جمال الدين محسن فقط، فكتما موته عن كل أحد.

وبقيت أمور الدولة على حالها، وشجرة الدر تخرج المناشير والتواقيع والكتب، وعليها علامة بخط خادم يقال له سهيل، فلا يشك أحد فى أنه خط السلطان. وأشاعت أن السلطان مستمر المرض، ولايمكن الوصول إليه، فلم يجسر أحد أن يتفوه بموت السلطان... إلى أن أنفذت إلى حصن كيفا، وأحضرت الملك المعظم توران شاه بن الصالح.

وأما الملك الصالح فإن شجرة الدر أحضرته فى حراقة من المنصورة إلى قلعة الروضة، تجاه مدينة مصر، من غير أن يشعر به أحد إلا من أئتمنته على ذلك. فوضع فى قاعه من قاعات قلعة الروضة إلى يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة، فنقل إلى هذه القبة بعدما كانت شجرة الدر قد عمرتها على ما هى عليه.

وخلعت نفسها من سلطنة مصر، ونزلت عنها لزوجها عز الدين أيبك قبل نقله، فنقله المعز أيبك، ونزل ومعه الملك الأشرف موسى ابن الملك المسعود، وسائر المماليك البحرية والجمدارية والأمراء، من قلعة الجبل إلى قلعة الروضة. وأخرج الملك الصالح فى تابوت،

وصلى عليه بعد صلاة الجمعة، وسائر الأمراء وأهل الدولة قد لبسوا البياض حزناً عليه، وقطع المماليك شعور رؤوسهم، وساروا به إلى هذه القبة، فدفن ليلة السبت.

فأصبح السلطانان، ونزلا إلى القبة، وحضر القضاة وسائر المماليك، وأهل الدولة وكافة الناس، وغلقت الأسواق بالقاهرة ومصر، وعمل عزاء للملك الصالح بين القصرين بالدفوف مدة ثلاثة أيام، آخرها يوم الإثنين، ووضع عند القبر سناجق السلطان وبقجته وتركاشه وقوسه، ورتب عنده القراء على ما شرطت شجرة الدر فى كتاب وقفها، وجعلت النظر فيها للصاحب بهاء الدين على بن حنا وذريته، وهى بيدهم إلى اليوم.

وما أحسن قول الأديب جمال الدين أبى المظفر عبدالرحمن بن أبى سعيد محمد بن محمد بن عمر بن أبى القاسم بن تخمش الواسطى - المعروف بابن السنيرة الشاعر - لما مر هو والأمير نور الدين تكريت بالقاهرة بين القصرين، ونظر إلى تربة الملك الصالح هذه وقد دفن بقاعة شيخ المالكية، فأنشد :

بنيت لأرباب العلوم مدارساً
لتنجو بها من هول يوم المهالك
وضاقت عليك الأرض لم تلق منزلاً
تحل به إلا إلى جنب مالك

وذلك أن هذه القبة التى فيها قبر الملك الصالح، مجاورة لإيوان الفقهاء المالكية المنتمين إلى الأمام مالك بن أنس رضى الله عنه، فقصد التورية بمالك الإمام المشهور، ومالك خازن النار. أعاذنا الله منها.

المدرسة الكاملية

هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة، وتعرف بدار الحديث الكاملية، أنشأها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى بن مروان، فى سمة أثنتين وعشرين وستمائة، وهى تانى دار عملت للحديث.

فإن أول من بنى دارا على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق. ثم بنى الكامل هذه الدار، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوى، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية، ووقف عليها الربع الذى بجوارها على باب الخرنشف، ويمتد إلى الدرب المقابل للجامع الأقمر.

وهذا الربع من انشاء الملك الكامل، وكان موضعه من جملة القصر الغربى، ثم صار موضعاً يسكنه القماحون. وكان موضع المدرسة سوقاً للرقيق، ودارا تعرف بأبن كستول.

وأول من ولى تدريس الكاملية: الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسن بن على بن دحية، ثم أخوه أبو عمرو عثمان بن الحسن بن على بن دحية، ثم الحافظ عبدالعظيم المنذرى، ثم الرشيد العطار.

وما برحت بيد أعيان الفقهاء، إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ست وثمانمائة فتلاشت كما تلاشى غيرها، وولى تدريسها صبى لايشارك الأناسى إلا بالصورة، ولا يمتاز عن البهيمة إلا بالنطق، واستمر فيها دهرا لايدرس بها، حتى نسيت أو كادت تنسى دروسها. ولاحول ولا قوة إلا بالله.

الملك العادل

ناصر الدين أبو المعالى محمد ابن الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن نجم الدين أيوب بن شادى بن مروان الكردى الأيوبى، خامس ملوك بنى أيوب الأكراد بديار مصر، ولد فى خامس عشرى ربيع الأول سنة ست وسبعين وخمسمائة، وخلف أباه الملك العادل على بلاد الشرق.

فلما استولى على مملكة مصر، قدم الملك الكامل إلى القاهرة فى سنة ست وتسعين وخمسمائة، ونصبه أبوه نائباً عنه بديار مصر، وأقطعه الشرقية، وجعله ولى عهده، وحلف له الأمراء، وأسكنه قلعة الجبل، وسكن العادل فى دار الوزارة بالقاهرة، وصار يحكم بديار مصر مدة غيبة الملك العادل ببلاد الشام وغيرها بمفرده.

فلما مات الملك العادل ببلاد الشام، استقل الملك الكامل بمملكة مصر فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة، وهو على محاربة الفرنج بالمنزلة العادلية قريباً من دمياط، وقد ملكوا البر الغربى، فثبت لقتالهم مع ما حدث من الوهن بموت السلطان.

وثارت العربان بنواحى أرض مصر، وكثر خلافهم، واشتد ضررهم. وقام الأمير عماد الدين أحمد بن الأمير سيف الدين أبى الحسين على بن أحمد الهكارى، المعروف بابن المشطوب - وكان أجل الأمراء الأكابر، وله لفيف من الأكراد الهكارية - يريد خلع الملك الكامل، وتمليك أخيه الملك الفائز إبراهيم بن العادل، ووافقه على ذلك كثير من الأمراء.

فلم يجد الكامل بدا من الرحيل فى الليل جريدة، وسار من العادلية إلى أشموم طناح ونزل بها، وأصبح العسكر بغير سلطان. فركب كل واحد هواه، ولم يعرج واحد منهم على آخر، وتركوا أثقالهم وسائر ما معهم. فاغتنم الفرنج الفرصة، وعبروا إلى بر دمياط، واستولوا على جميع ما تركه المسلمون، وكان شيئاً عظيماً.

وهم الملك الكامل بمفارقة أرض مصر، ثم أن الله تعالى ثبته، وتلاحقت به العساكر، وبعد يومين قدم عليه أخوه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بأشموم، فاشتد عضده بأخيه، وأخرج ابن المشطوب من العسكر إلى الشام، ثم أخرج الفائز إبراهيم إلى الملوك الأيوبية بالشام والشرق يستنفرهم لجهاد الفرنج.

وكتب الملك الكامل إلى أخيه الملك الأشرف موسى شاه يستحثه على الحضور، وصدر المكاتبه بهذه الأبيات

يامسعدى أن كنت حقاً مسعفي
فانهض بغير تلبث وتوقف
واحثث قلوصك مرقلا أو موجفا
بتجشم فى سيرها وتعسف
واطو المنازل ما استطعت ولا تنخ
إلا على باب المليك الأشرف
واقر السلام عليه من عبد له
متوقع لقدومه متشوف

وإذا وصلت إلى حماه فقل له :

عنى بحس توصل وتلطف

إن تأت عبدك عن قليل تلقه

ما بين كل مهند ومثقف

أو تبط عن نجاده فلقاؤه

بك فى القيامه فى عراص الموقف

وجدّ الكامل فى قتال الفرنج، وأمر بالنفير فى ديار مصر، وأتته الملوك من الأطراف. فقدر الله أخذ الفرنج لدمياط، بعدما حاصروها ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً، ووضعوا السيف فى أهلها. فرحل الكامل من أشموم، ونزل بالمنصورة، وبعث يستنفر الناس، وقوى الفرنج حتى بلغت حتى عدتهم نحو المائتى ألف راجل وعشرة آلاف فارس.

وقدم عامة أهل أرض مصر، وأتت النجدات من البلاد الشامية وغيرها. فصار المسلمون فى جمع عظيم إلى الغاية، بلغت عدة فرسانهم خاصة نحو الأربعين ألفاً. وكانت بين الفريقين خطوب آلت إلى وقوع الصلح، وتسلم المسلمون مدينة دمياط فى تاسع عشرى رجب سنة ثمان عشرة وستمائة، بعدما أقامت بيد الفرنج سنة وأحد عشر شهراً تنقص ستة أيام، وسار الفرنج إلى بلادهم.

وعاد السلطان إلى قلعة الجبل، وأخرج كثيراً من الأمراء الذين وافقوا ابن المشطوب من القاهرة إلى الشام، وفرق أخبازهم على مماليكه، ثم تخوف من أمرائه فى سنة إحدى وعشرين بميلهم إلى أخيه الملك المعظم، فقبض على جماعة منهم، وكاتب أخاه الملك الأشرف فى موافقته على المعظم. فقويت الوحشة بين الكامل والمعظم، واشتد خوف الكامل من عسكره، وهم أن يخرج من القاهرة لقتال المعظم، فلم يجسر على ذلك.

وقدم الأشرف إلى القاهرة، فسر بذلك سروراً كثيراً، وتحالفا على المعاضدة، وسافر من القاهرة فمال مع المعظم. فتحير الكامل فى أمره، وبعث إلى ملك الفرنج يستدعيه إلى عكا، ووعده بأن يمكنه من بلاد الساحل، وقصد بذلك أن يشغل سر أخيه المعظم. فلما بلغ ذلك المعظم خطب للسلطان جلال الدين الخوارزمى، وبعث يستنجد به على الكامل، وأبطل الخطبة للكامل.

فخرج الكامل من القاهرة يريد محاربته فى رمضان سنة أربع وعشرين، وسار إلى العباسة، ثم عاد إلى قلعة الجبل، وقبض على عدة من الأمراء ومماليك أبيه لمكاتبتهم المعظم، وأنفق فى العسكر. فاتفق موت الملك المعظم فى سلخ ذى القعدة، وقيام ابنه الملك الناصر داود بسلطنة دمشق، وطلبه من الكامل الموادعة، فبعث إليه خلعة سنية وسنجقا سلطانياً، وطلب منه أن ينزل له عن قلعة الشوبك، فامتنع الناصر من ذلك، فوقعت المنافرة بينهما.

وعهد الملك الكامل إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأركبه بشعار السلطنة، وأنزله بدار الوزارة، وخرج من القاهرة فى العساكر يريد دمشق، فأخذ نابلس والقدس. فخرج الناصر داود من دمشق ومعه عمه الأشرف، وسارا إلى الكامل يطلبان منه الصلح.

فلما بلغ ذلك الكامل رحل من نابلس يريد القاهرة، فقدمها الناصر والأشرف، وأقام بها الناصر، وسار الأشرف والمجاهد إلى الكامل، فأدركاه بتل العجوز، فأكرمهما وقرر مع الأشرف انتزاع دمشق من الناصر وأعطاءها للأشرف، على أن يكون للكامل ما بين عقبة أفيق إلى القاهرة، وللأشرف من دمشق إلى عقبة أفيق، وأن يعين بجماعة من ملوك بنى أيوب.

فاتفق قدوم الملك الأنبرطور إلى عكا باستدعاء الملك الكامل له، فتحير الكامل فى أمره لعجزه عن محاربته، أخذ يلاطفه. وشرع الفرنج فى عمارة صيدا. وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج وسورها خراب. فلما بلغ الناصر موافقة الأشرف للكامل، عاد من نابلس إلى دمشق، واستعد للحرب. فسار إليه الأشرف من تل العجوز، وحاصره بدمشق.

وأقام الكامل بتل العجوز، وقد تورط مع الفرنج، فلم يجد بدا من إعطائهم القدس، على ألا يجدد سوره، وأن تبقى الصخرة والأقصى مع المسلمين، ويكون حكم قرى القدس إلى المسلمين، وأن القرى التى فيما بين عكا ويافا وبين لد والقدس للفرنج. وانعقدت الهدنة على ذلك لمدة عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوماً، أولها ثامن ربيع الأول سنة ست وعشرين.

ونودى فى القدس بخروج المسلمين منه، وتسليمه إلى الفرنج، فكان أمراً مهولاً من شدة البكاء والصراخ، وخرجوا بأجمعهم فصاروا إلى مخيم الكامل، وأذنوا على بابه فى غير وقت الأذان. فشق عليه ذلك، وأخذ منهم الستور وقناديل الفضة والآلات وزجرهم، وقيل لهم امضوا حيث شئتم. فعظم على المسلمين هذا، وكثر الإنكار على الملك الكامل، وشنعت المقالة فيه.

وعاد الأنبرطور إلى بلاده بعدما دخل القدس، وكان مسيره فى آخر جمادى الآخرة سنة ست وعشرين. وسير الكامل إلى الآفاق بتسكين قلوب المسلمين وأنزعاجهم لأخذ الفرنج القدس، ورحل من تل العجوز يريد دمشق، والأشرف على محاصرتها، فجد فى القتال.

وأشتد الأمر على الناصر إلى أن ترامى فى الليل على الملك الكامل، فأكرمه وأعاده إلى قلعة دمشق، وبعث من تسلمها منه، وعوضه عن دمشق الكرك والشوبك والصلت والبقاء والأغوار ونابلس وأعمال القدس، ثم ترك الشوبك للكامل مع عدة مما ذكر.

وتسلم الكامل دمشق فى أول شعبان، وأعطاها للأشرف، وأخذ منه ما معه من بلاد الشرق، وهى حران والرها وسروج وغير ذلك. ثم سار الكامل، فأخذ حماه، توجه منها فقطع الفرات، ثم سار إلى جعبر والرقة، ودخل حران والرها، ورتب أمورها، وأتته الرسل من ماردين وآمد والموصل وأربل وغير ذلك، وأقيمت له الخطبة بماردين، وبعث يستدعى عساكر الشام لقتال الخوارزمى وهو بخلاط.

ثم رحل الكامل من حران لأمور حدثت، وسار إلى مصر. فدخلها فى شهر رجب سنة سبع وعشرين، وقد تغير على ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب، وخلعه من ولاية العهد، وعهد إلى أبنه الملك العادل أبى بكر، ثم سار إلى الإسكندرية فى سنة ثمان وعشرين، ثم عاد إلى مصر، وحفر بحر النيل فيما بين المقياس وبر مصر، وعمل فيه بنفسه، واستعمل فيه الملوك من أهله والأمراء والجند. فصار الماء دائماً فيما بين مصر والمقياس، وانكشف البر فيما بين المقياس والجيزة فى أيام احتراق النيل.

وخرج من القاهرة إلى بلاد الشام، فى آخر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين، واستخلف على ديار مصر ابنه العادل. فدخل دمشق من طريق الكرك، وخرج منها لقتال التتر، وجعل ابنه الصالح على مقدمته، فسار إلى حران، فرحل التتر عن خلاط. ثم رحل إلى الرها، وسار إلى آمد ونازلها حتى أخذها، وأنعم على ابنه الصالح بحصن كيفا وبعثه إليه، وعاد إلى مصر فى سنة ثلاثين، فقبض على عدة من الأمراء.

ثم خرج فى سنة إحدى وثلاثين إلى دمشق، وسار منها ودخل الدربند، وقد أعجبته كثرة عساكر، فإنه اجتمع معه ثمانية عشر طلباً لثمانية عشر ملكاً، وقال: هذه العساكر لم تجتمع لأحد من ملوك الإسلام، ونزل على النهر الأزرق بأول بلد الروم، قد نزلت عساكر الروم، وأخذت عليه رأس الدربند ومنعوه، فتحير لقلة الأقوات عنده، ولاختلاف ملوك بنى أيوب عليه، ورحل إلى مصر وقد فسد ما بينه وبين الأشرف وغيره.

وأخذ ملك الروم الرها وحران بالسيف. فتجهز الكامل وخرج بعساكره من القاهرة فى سنة ثلاث وثلاثين، وسار إلى الرها، ونازلها حتى أخذها وهدم قلعتها، وأخذ حران بعد قتال شديد، وبعث بمن كان فيها من الروم إلى القاهرة فى القيود - وكانوا زيادة على ثلاثة آلاف نفس - ثم خرج إلى مصر، وعاد إلى دمشق، وسار منها إلى القاهرة، فدخلها فى سنة أربع وثلاثين.

ثم خرج فى سنة خمس وثلاثين، ونزل على دمشق وقد امتنعت عليه، فضايقها حتى أخذها من أخيه الملك الصالح إسماعيل، وعوضه عنها بعلبك وبصرى وغيرهما فى تاسع عشرى جمادى الأولى، ونزل بالقلعة، وأخذ يتجهز لأخذ حلب.

وقد نزل به زكام، فدخل فى ابتدائه الحمام، فاندفعت المواد إلى معدته فتورم، وثارت فيه حمى، فنهاه الأطباء عن القيء، وحذروه منه، فلم يصبر وتقيأ، فمات لوقته فى آخر نهار الأربعاء حادى عشرى رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة عن ستين سنة. منها ملكه أرض مصر نحو أربعين سنة، أستبد فيها بعد موت أبيه مدة عشرين سنة وخمسة وأربعين يوماً.

وكان يحب العلم وأهله، ويؤثر مجالستهم، وشغف بسماع الحديث النبوى وحدث، وبنى دار الحديث الكاملية بالقاهرة، وكان يناظر العلماء، ويمتحنهم بمسائل غريبة من فقه

ونحو، فمن أجاب عنها حظى عنده، وكان يبيت عنده بقلعة الجبل عدة من أهل العلم، على أسرة بجانب سريره، ليسامروه. وكان للعلم والأدب عنده نفاق، فقصده الناس لذلك، وصار يطلق الأرزاق الدارة لمن يقصده لهذا.

وكان مهاباً حازماً، سديد الرأى، حسن التدبير، عفيفاً عن الدماء، وكان يباشر أمور مملكته بنفسه، من غير اعتماد على وزير ولا غيره، ولم يستوزر بعد الصاحب صفى الدين عبدالله بن على بن شكر أحداً، وإنما كان ينتدب من يختاره لتدبير الأشغال، ويحضر عنده الدواوين، ويحاسبهم بنفسه.

وإذا ابتدأت زيادة النيل خرج، وكشف الجسور، ورتب الأمراء لعملها. فإذا انتهى عمل الجسور خرج ثانياً وتفقدها بنفسه، فإن وقف فيها على خلل عاقب متوليه أشد العقوبة. فعمرت أرض مصر فى أيامة عمارة جيدة.

وكان يخرج من زكوات الأموال التى تجبى من الناس سهمى الفقراء والمساكين، ويعين مصرف ذلك لمستحقية شرعاً، ويفرز منه معاليم الفقهاء والصلحاء. وكان يجلس كل ليلة جمعة مجلساً لأهل العلم، فيجتمعون عنده للمناظرة. وكان كثير السياسة، حسن المداراة، وأقام على كل طريق خفراء لحفظ المسافرين. إلا أنه كان مغرماً بجمع المال، مجتهداً فى تحصيلة، وأحدث فى البلاد حوادث سماها «الحقوق» لم تعرف قبله.

ومن شعره قوله، رحمه الله تعالى:

إذا تحققتم ما عنـــد صاحبكم

من الـــغرام فذاك القدر يكفيه

أنتم سكنتم فؤادى وهو منزلكم

وصاحب البيت أدرى بالذى فيه

وقال له الطبيب علم الدين أبو النصر جرجس بن أبى حليقة، فى اليوم الذى مات فيه. كيف نوم السلطان فى ليلته؟ فأنشد:

يا خليلى خبرانى بصدق

كيف طعم الكرى فإنى نسيت

ودفن أولاً بقلعة دمشق، ثم نقل إلى جوار جامع بنى أمية، وقبره هناك. رحمه الله تعالى.

المدرسة الصيرمية

هذه المدرسة من داخل باب الجملون الصغير، بالقرب من رأس سويقة أمير الجيوش، فيما بينها وبين الجامع الحاكمى بجوار الزيادة. بناها الأمير جمال الدين شويخ ابن صيرم، أحد أمراء الملك الكامل محمد ابن أبى بكر بن أيوب، وتوفى فى تاسع عشر صفر سنة ست وثلاثين وستمائة.

المدرسة المسرورية

هذه المدرسة بالقاهرة داخل درب شمس الدولة. كانت دار شمس الخواص مسرور، أحد خدام القصر، فجعلت مدرسة بعد وفاته بوصيته، وأن يوقف الفندق الصغير عليها. وكان بناؤها من ثمن ضيعة بالشام كانت بيده بيعت بعد موته، وتولى ذلك القاضى كمال الدين خضر، ودرس فيها.

وكان مسرور ممن اختص بالسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، فقدمه على حلقته، ولم يزل مقدماً إلى الأيام الكاملية، فانقطع إلى الله تعالى، ولزم داره إلى أن مات، ودفن بالقرافة إلى جانب مسجده. وكان له بر وإحسان ومعروف، ومن آثاره بالقاهرة فندق يعرف اليوم بخان مسرور الصفدى، وله ربع بالشارع.

المدرسة القوصية

هذه المدرسة بالقاهرة، فى درب سيف الدولة، بالقرب من درب ملوخيا. أنشأها الأمير الكردى والى قوص.

مدرسة بحارة الديلم

المدرسة الظاهرية

هذه المدرسة بالقاهرة من جملة خط بين القصرين. كان موضعها من القصر الكبير يعرف بقاعة الخيم، وقد تقدم ذكرها فى أخبار القصر. ومما دخل فى هذه المدرسة باب الذهب المذكور فى أبواب القصر.

فلما أوقع الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الحوطة على القصور والمناظر ـ كما تقدم ذكره ـ نزل القاضى كمال الدين طاهر ابن الفقيه نصر وكيل بيت المال، وقوم قاعة الخيم هذه، وابتاعها الشيخ شمس الدين محمد بن العماد إبراهيم المقدسى، شيخ الحنابلة ومدرس المدرسة الصالحية النجمية، ثم باعها المذكور للسلطان، فأمر بهدمها وبناء موضعها مدرسة.

فابتدئ بعمارتها فى ثانى ربيع الآخر سنة ستين وستمائة، وفرغ منها فى سنة اثنتين وستين وستمائة. ولم يقع الشروع فى بنائها حتى رتب السلطان وقفها ـ وكان بالشام ـ فكتب بما رتبه إلى الأمير جمال الدين بن يغمور به، والا يستعمل فيه أحداً بغير أجره، ولاينقص من أجرته شيئاً.

فلما كان يوم الأحد خامس صفر سنة اثنتين وستين وستمائة، اجتمع أهل العلم بها ـ وقد فرغ منها ـ وحضر القراء، وجلس أهل الدروس كل طائفة فى إيوان. منها الشافعية بالإيوان القبلى، ومدرسهم الشيخ تقى الدين محمد بن الحسن بن رزين الحموى. والحنفية بالإيوان البحرى، ومدرسهم الصدر مجد الدين عبدالرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم الحلبى، وأهل الحديث بالإيوان الشرقى، ومدرسهم الشيخ شرف الدين عبدالمؤمن بن خلف الدمياطى، والقراء بالقراءات السبع بالإيوان الغربى، وشيخهم الفقيه كمال الدين المحلى، وقرروا كلهم الدروس، وتناظروا فى علومهم، ثم مدت الأسمطة لهم فأكلوا، وقام الأديب أبو الحسين الجزار فأنشد :

ألا هكذا يبنى المدارس من بني
ومن يتعالى فى الثواب وفى الثنا
لقد ظهرت للظاهر الملك همة
بها اليوم فى الدارين قد بلغ المنا
تجمع فيها كل حسن مفـــرق
فراقت قلـوباً للأنـــام وأعينا
ومذ جاورت قبر الشهيد فنفسه الـذ
نفيسة منها فى سرور وفى هنا
وما هى إلا جنة الخلد أزلفت
له فى غـد فاختار تعجيلها هنا

وقال السراج الوراق أيضاً قصيدة منها :

مليك له فى العلم حب وأهله
فلله حــــب لســن فيه ملام

فشيدها للعلم مدرسة غــداً

عـــراق إليها شيق وشآم

ولا تذكرن يوماً نظامية لهـــا

فلس بضاهى ذا النظام نظام

ولا تذكرن ملكاً فبيبرس مالك

وكل مليـك فى يديه غلام

ولما بناها زعزعت كل بيعـــة

متى لاح صبح فاستقر ظلام

وقد برزت كالروض فى الحسن أنبأت

بأن يديه فى النـــوال غمام

ألم تر محراباً كأن أزاهـــراً

تفتح عنهن الغـــداة كمام

وقال الشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب :

قصد الملوك حماك والخلفاء

فافخـر فإن محلك الجوزاء

أنت الذى أمراؤه يبن الوري

مثـــل الملوك وجنده أمراء

ملك تزينت الممالك باســـمه

وتجملت بمديحه الفصحاء

وترفعت لعلاه خـير مدارس

حلت بها العلماء والفضلاء

يبقى كما يبقى الزمان وملكه
باق له ولحـــــاسديه فناء
كم للفرنج وللتتار ببـــــابه
رسل مناها العفو والإعفاء
وطريقه لبلادهم موطــوءة
وطريقهم لبــــــلاد عذراء
دامت له الدنيا ودام مخلداً
ما أقبل الإصباح والإمساء

فلما فرغ هؤلاء الثلاثة من إنشادهم، أفيضت عليهم الخلع. وكان يوماً مشهوداً.

وجعل بها خزانة كتب تشمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم، وبنى بجانبها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى. وأجرى لهم الجرايات والكسوة، وأوقف عليها ربع السلطان خارج باب زويلة، فيما بين باب زويلة وباب الفرج، ويعرف ذلك الخط اليوم به، فيقال خط تحت الربع.

وكان ربعاً كبيراً. لكنه خرب منه عدة دور فلم تعمر. وتحت هذا الربع عدة حوانيت هى الآن من أجل الأسواق، وللناس فى سكناها رغبة عظيمة، ويتنافسون فيها تنافساً يرتفعون فيه إلى الحكام.

وهذه المدرسة من أجل مدارس القاهرة، إلا أنها قد تقادم عهدها فرثت، وبها إلى الآن بقية صالحة، ونظرها تارة يكون بيد الحنفية، وأحياناً بيد الشافعية، ويسارع فى نظرها أولاد الظاهر فيدفعون عنه، ولله عاقبة الأمور.

المدرسة المنصورية

هذه المدرسة من داخل باب المارستان الكبير المنصورى بخط بين القصرين بالقاهرة. أنشأها هى والقبة التى تجاهها والمارستان الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى، على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعى، ورتب بها دروساً أربعة، لطوائف الفقهاء الأربعة، ودرساً للطب، ورتب بالقبة درساً للحديث النبوى، ودرساً لتفسير القرآن الكريم، وميعاداً وكانت هذه التداريس لا يليها إلا أجل الفقهاء المعتبرين، ثم هى اليوم كما قيل.

تصدر للتدريس كل مهوس

ليد يسمى بالفقيه المدرس

فحق لأهل العلم أن يتمثلوا

بيت قديم شاع فى كل مجلس

لقد هزلت حتى بدا من هزالها

كلاها وحى سامها كل مفلس

القبة المنصورية

هذه القبة تجاه المدرسة المنصورية، وهما جميعاً من داخل باب المارستان المنصورى، وهى من أعظم المبانى الملوكية وأجلها قدراً وبها قبر تضمن الملك المنصور سيف الدير قلاوون، وابنه الملك الناصر محمد بن قلاوون، والملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون.

وبها قاعة جليلة فى وسطها فسقية يصل إليها الماء من فوارة بديعة الزى، وسائر هذه القاعة مفروش بالرخام الملون. وهذه القاعة معدة لإقامة الخدام الملوكية، الذين يعرفون

اليوم فى الدولة التركية بالطواشية: واحدهم «طواشي»، وهذه لفظة تركية أصلها بلغتهم «طابوشي»، فتلاعبت بها العامة وقالت: طواشى، وهو الخصى.

ولهؤلاء الخدام فى كل يوم ما يكفيهم من الخبز النقى واللحم المطبوخ، وفى كل شهر من المعاليم الوافرة ما فيه غنية لهم. وأدركتهم ولهم حرمة وافرة، وكلمة نافذة، وجانب مرعى، ويعد شيخهم من أعيان الناس. يجلس على مرتبة، وبقية الخدام فى مجالسهم لايبرحون فى عبادة.

وكان يستقر فى وظائف هذه الخدمة أكابر خدام السلطان، ويقيمون عنهم نوابا يواظبون الإقامة بالقبة، ويرون - مع سعة أحوالهم، وكثرة أموالهم - من تمام فخرهم وكمال سيادتهم، انتماءهم إلى خدمة القبة المنصورية، ثم تلاشى الحال بالنسبة إلى ما كان، والخدام بهذه القاعة إلى اليوم.

وقصد الملوك بإقامة الخدام فى هذه القاعة، التى يتوصل إلى القبة منها، إقامة ناموس الملك بعد الموت كما كان فى مدة الحياة، وهم إلى اليوم لايمكنون أحداً من الدخول إلى القبة إلا من كان من أهلها.

ولله در يحيي بن حكم البكرى الجيانى المغربى - الملقب بالغزال لجماله - حيث يقول:

أرى أهل الثراء إذا توفوا
بنوا تلك المقـــابر بالصخور
أبوا إلا مباهاة وتيهـــا
على الفقراء حتى فى القبور

وفى هذه القبة دروس للفقهاء على المذاهب الأربعة، وتعرف بدروس وقف الصالح. وذلك أن الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون، قصد عمارة مدرسة، فاخترمته المنية دون بلوغ غرضه. فقام الأمير أرغون العلائى، زوج أمه، فى وقف قرية، تعرف بدهمشا الحمام من الأعمال الشرقية، عن أم الملك الصالح. فأثبته بطريق الوكالة عنها، ورتب ما كان الملك الصالح إسماعيل قرره فى حياته لو أنشأ مدرسة، وجعل ذلك

الأمير أرغون مرتباً لمن يقوم به فى القبة المنصورية . وهو وقف جليل يتحصل منه فى كل سنة نحو الأربعة آلاف دينار ذهباً .

ثم لما كانت الحوادث ، وخربت الناحية المذكورة ، تلاشى أمر وقف الصالح ، وفيه إلى اليوم بقية . وكان لا يلى تدريس دروسه إلا قضاة القضاة ، فوليه الآن الصبيان ، ومن لا يؤهل - لو كان الإنصاف - له .

وفى هذه القبة أيضاً قراء يتناوبون القراءة بالشبابيك المطلة على الشارع طول الليل والنهار ، وهم من جهة ثلاثة أوقاف : فطائفة من جهة وقف الملك الصالح إسماعيل ، وطائفة من جهة الوقف السيفى ، وهو منسوب إلى الملك المنصور سيف الدين أبى بكر ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وبهذه القبة إمام راتب يصلى بالخدام والقراء وغيرهم الصوات الخمس ، ويفتح له باب فيما بين القبة والمحرب يدخل منه من يصلى من الناس ، ثم يغلق بعد انقضاء الصلاة .

وبهذه القبة خزانة جليلة . كان فيها عدة أحمال من الكتب فى أنواع العلوم ، مما وقفه الملك المنصور وغيره ، وقد ذهب معظم هذه الكتب ، وتفرق فى أيدى الناس .

وفى هذه القبة خزانة بها ثياب المقبورين بها ، ولهم فراش معلوم بمعلوم لتعهدهم ، ويوضع ما يتحصل من مال أوقاف المارستان بهذه القبة تحت أيدى الخدام .

وكانت العادة أنه إذا أمَّر السلطان أحداً من أمراء مصر والشام ، فإنه ينزل من قلعة الجبل وعليه التشريف والشربوش ، وتوقد له القاهرة ، فيمر إلى المدرسة الصالحية بين القصرين ، وعمل ذلك من عهد سلطنة المعز أيبك ومن بعده . فنقل ذلك إلى القبة المنصورية ، وصار الأمير يحلف عند القبر المذكور ، ويحضر تحليفه صاحب الحجاب ، وتمد أسمطة جليلة بهذه القبة ، ثم ينصرف الأمير ، ويجلس له فى طول شارع القاهرة إلى القلعة أهل الأغانى لتزفه فى نزوله وصعوده . وكان هذا من جملة متنزهات القاهرة ، وقد بطل ذلك منذ انقرضت دولة بنى قلاوون .

ومن جملة أخبار هذه القبة أنه لما كان فى يوم الخميس مستهل المحرم سنة تسعين وستمائة ، بعث الملك الأشرف صلاح الدين بن قلاوون بجملة مال تصدق به فى هذه القبة ، ثم أمر بنقل أبيه من القلعة .

فخرج سائر الأمراء، ونائب السلطنة الأمير بيدرا بدر الدين، والوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس التنوخي، وحضروا بعد صلاة العشاء الآخرة، ومشوا بأجمعهم قدام تابوت الملك المنصور إلى الجامع الأزهر، وحضر فيه القضاة ومشايخ الصوفية. فتقدم قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد، وصلى على الجنازة، وخرج الجميع أمامها إلى القبة المنصورية حتى دفن فيها، وذلك في ليلة الجمعة ثاني المحرم، وقيل عاشره.

ثم عاد الوزير والنائب من الدهليز خارج القاهرة إلى القبة المنصورية، لعمل مجتمع بسبب قراءة ختمة كريمة، في ليلة الجمعة ثامن عشرى صفر منها، وحضر المشايخ والقراء والقضاة في جمع موفور، وفرق في الفقراء صدقات جزيلة، ومدت أسمطة كثيرة، وتفرقت الناس أطعمتها حتى امتلأت الأيدى بها، وكانت إحدى الليالي الغر، كثر الدعاء فيها للسلطان وعساكر الإسلام بالنصر على أعداء الملة، وحضر الملك الأشرف بكرة يوم الجمعة إلى القبة المنصورية، وفرق مالاً كثيراً.

وكان الملك الأشرف قد برز يريد المسير لجهاد الفرنج، وأخذ مدينة عكا، فسار لذلك، وعاد في العشرين من شعبان ـ وقد فتح الله له مدينة عكا عنوة بالسيف، وخرب أسوارها ـ وكان عبوره إلى القاهرة من باب النصر، وقد زينت القاهرة زينة عظيمة.

فعندما حاذى باب المارستان، نزل إلى القبة المنصورية، وقد غصت بالقضاة والأعيان والقراء والمشايخ والفقهاء، فتلقوه كلهم بالدعاء حتى جلس. فأخذ القراء في القراءة، وقام نجم الدين محمد بن فتح الدين محمد بن عبدلله بن مهلهل بن غياث بن نصر ـ المعروف بابن العنبرى الواعظ ـ وصعد منبراً نصب له، فجلس عليه، وافتتح ينشد قصيدة تشمل على ذكر الجهاد وما فيه من الأجر، فلم يسعد فيها بحظ، وذلك أنه أفتتحها بقوله :

زر والديك وقف على قبريهما

فكأنني بك قد نقلت إليهما

فعندما سمع الأشرف هذا البيت تطير منه، ونهض قائماً وهو يسبب الأمير بيدرا نائب السلطنة لشدة حنقه، وقال : ما وجد هذا شيئاً يقول سوى هذا البيت !!

فأخذ بيدرا فى تسكين حنقه، والاعتذار له عن ابن العنبرى بأنه قد انفرد فى هذا الوقت بحسن الوعظ، ولا نظير له فيه، إلا أنه لم يرزق سعادة فى هذا الوقت. فلم يصغ السلطان إلى قوله وسار، فانفض المجلس على غير شئ، وصعد السلطان إلى قلعة الجبل.

ثم بعد أيام سأل السلطان عن وقف المارستان، وأحب أن يجدد له وقفاً من بلاد عكا التى افتتحها بسيفه، فاستدعى القضاة، وشاورهم فيما هم به من ذلك. فرغبوه فيه، وحثوه على المبادرة إليه.

فعين أربع ضياع من ضياع عكا وصور ليقفها على مصالح المدرسة والقبه المنصورية، ما تحتاج إليه من ثمن زيت وشمع ومصابيح وبسط وكلفة الساقية، وعلى خمسين مقرئا يرتبون لقراءه القرآن الكريم بالقبة، وإمام راتب يصلى بالناس الصلوات الخمس فى محراب القبة، وستة خدام يقيمون بالقبة - وهى الكابرة، وتل الشيوخ، وكردانة وضواحيها من عكا، ومن ساحل صور معركة وصدفين - وكتب بذلك كتاب وقف، وجعل النظر فى ذلك لوزيره الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس.

فلما تم ذلك، تقدم بعمل مجتمع بالقبة لقراءة ختمة كريمة، وذلك ليلة الإثنين رابع ذى القعدة سنة تسعين وستمائة. فاجتمع القراء والوعاظ والمشايخ والفقراء والقضاة لذلك، وخلع على عامة أرباب الوظائف والوعاظ، وفرقت فى الناس صدقات جمة.

وعمل مهم عظيم احتفل فيه الوزير احتفالاً زائداً، وبات الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة والأمير الوزير شمس الدين محمد بن السلعوس بالقبة. وحضر السلطان، ومعه الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد، وعليه سواده، فخطب الخليفة خطبة بليغة حرض فيها على أخذ العراق من التتار. فلما فرغ من المهم، أفاض السلطان على الوزير تشريفاً سنياً.

وفى يوم الخميس حادى عشر ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وستمائة، اجتمع القراء والوعاظ والفقهاء والأعيان بالتبة المنصورية لقراءة ختمة شريفة، ونزل السلطان الملك الأشرف، وتصدق بمال كثير.

وآخر من نزل إلى القبة المنصورية من ملوك بنى قلاوون، السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى سنة إحدى وستين وسبعمائة، وحضر عنده بالقبة مشايخ العلم، وبحثوا فى العلم، وزار قبر أبيه وجده، ثم خرج فنظر فى أمر المرضى بالمارستان، وتوجه إلى قلعة الجبل.

المدرسة الناصرية

هذه المدرسة بجوار القبة المنصورية من شرقيها. كان موضعها حماماً، فأمر السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى بإنشاء مدرسة موضعها. فابتدئ فى عملها، ووضع أساسها، وارتفع بناؤها عن الأرض إلى نحو الطراز المذهب الذى بظاهرها. فكان من خلعه ما كان.

فلما عاد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى مملكة مصر فى سنة ثمان وتسعين وستمائة، أمر بإتمامها، فكملت فى سنة ثلاث وسبعمائة. وهى من أجل مبانى القاهرة، وبابها من أعجب ما عملته أيدى بنى آدم. فإنه من الرخام الأبيض البديع الزى الفائق الصناعة، ونقل إلى القاهرة من مدينة عكا.

وذلك أن الملك الأشرف خليل بن قلاوون، لما فتح عكا عنوة فى سابع عشر جمادى الأولى سنة تسعين وستمائة، أقام الأمير علم الدين سنجر الشجاعى لهدم أسوارها وتخريب كنائسها. فوجد هذه البوابة على باب كنيسة من كنائس عكا، وهى من رخام، قواعدها وأعضادها وعمدها كل ذلك متصل بعضه ببعض، فحمل الجميع إلى القاهرة، وأقام عنده إلى أن قتل الملك الأشرف.

وتمادى الحال على هذا أيام سلطنة الملك الناصر محمد الأولى فلما خلع، وتملك كتبغا، أخذ دار الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ليعملها مدرسة، فدل على هذه البوابة، فأخذها من ورثة الأمير بيدرا - فإنها كانت قد انتقلت إليه - وعملها كتبغا على باب هذه المدرسة.

فلما خلع من الملك، وأقيم الناصر محمد، اشترى هذه المدرسة قبل إتمامها والإشهاد بوقفها، وولى شراءها وصية قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى، وأنشأ بجوار هذه المدرسة من داخل بابها قبة جليلة، لكنها دون قبة أبيه، ولما كملت نقل إليها أمه بنت سكباى بن قراجين.

ووقف على هذه المدرسة قيسارية أمير على بخط الشرابشيين من القاهرة، والربع الذى يعلوها - وكان يعرف بالدهيشة - ووقف عليها أيضاً حوانيت بخط باب الزهومة من القاهرة، ودار الطعم خارج مدينة دمشق.

فلما مات أبنه أنوك من الخاتون طغاى، فى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وعمره ثمانى عشرة سنة، دفنه بهذه القبة، وعمل عليها وقفاً يختص بها. وهو باق إلى اليوم يصرف للقراء وغير ذلك.

وأول من رتب فى تدريس المدرسة الناصرية من المدرسين. قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى ليدرس فقه المالكية بالإيوان الكبير القبلى، وقاضى القضاة شرف الدين عبدالغنى الحرانى ليدرس فقه الحنابلة بالإيوان الغربى، وقاضى القضاة أحمد بن السروجى الحنفى ليدرس فقه الحنفية بالإيوان الشرقى، والشيخ صدر الدين محمد بن المرحل - المعروف بابن الوكيل - الشافعى ليدرس فقه الشافعية بالإيوان البحرى. وقرر عند كل مدرس منهم عدة من الطلبة. وأجرى عليهم المعاليم، ورتب بها إماما يؤم بالناس فى الصلوات الخمس، وجعل بها خزانة كتب جليلة.

وأدركت هذه المدرسة وهى محترمة إلى الغاية. يجلس بدهليزها عدة من الطواشية، ولايمكن غريب أن يصعد إليها. وكان يفرق بها على الطلبة والقراء وسائر أرباب الوظائف بها السكر فى كل شهر، لكل أحد منهم نصيب، ويفرق عليهم لحوم الأضاحى فى كل سنة. وقد بطل ذلك، وذهب ما كان لها من الناموس. وهى اليوم عامرة من أجل المدارس.

المدرسة الحجازية

هذه المدرسة برحبة باب العيد من القاهرة، بجوار قصر الحجازية، كان موضعها بابا من أبواب القصر يعرف بباب الزمرذ. أنشأها الست الجليلة الكبرى خوندتتر الحجازية. ابنه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، زوجة الأمير بكتمر الحجازى، وبه عرفت.

وجعلت بهذه المدرسة درساً للفقهاء الشافعية. قررت فيه شيخنا شيخ الأسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينى، ودرساً للفقهاء المالكية، وجعلت بها منبراً يخطب عليه يوم الجمعة، ورتبت لها إماما راتباً يقيم بالناس الصلوات الخمس، وجعلت بها خزانة كتب.

وأنشأت بجوارها قبة من داخلها لتدفن تحتها، ورتبت بشباك هذه القبة عدة قراء يتناوبون قراءة القرآن الكريم ليلاً ونهاراً، وأنشأت بها مناراً عالياً من حجارة ليؤذن عليه. وجعلت بجوار المدرسة مكتباً للسبيل، فيه عدة من أيتام المسلمين، ولهم مؤدب يعلمهم القرآن الكريم، ويجرى عليهم فى كل يوم كل منهم من الخبز النقى خمسة أرغفة ومبلغ من الفلوس، ويقام لكل منهم بكسوتى الشتاء والصيف.

وجعلت على هذه الجهات عدة أوقاف جليلة. يصرف منها لأرباب الوظائف المعاليم السنية. وكان يفرق فيهم كل سنة، أيام عيد الفطر، الكعك والخشكنانك، وفى عيد الأضحى اللحم، وفى شهر رمضان يطبخ لهم الطعام. وقد بطل ذلك، ولم يبق غير المعلوم فى كل شهر.

وهى من المدارس الكبسة، وعهدى بها محترمة إلى الغاية، يجلس بها عدة من الطواشية، ولا يمكنون أحداً من عبور القبة التى فيها قبر خوند الحجازية إلا القراء فقط وقت قراءتهم خاصة.

واتفق مرة أن شخصاً من القراء كان فى نفسه شئ من أحد رفقائه، فأتى إلى كبير الطواشيه بهذه القبة، وقال له: إن فلاناً دخل اليوم إلى القبة وهو بغير سراويل. فغضب الطواشى من هذا القول، وعد ذلك ذنباً عظيماً وفعلاً محذوراً، وطلب ذلك المقرئ، وأمر

به فضرب بين يديه ، وصار يقول له : تدخل على خوند بغير سراويل ! وهم بإخراجه من وظيفة القراءة لولا ما حصل من شفاعة الناس فيه .

وكان لايلى نظر هذه المدرسة إلا الأمراء الأكابر ، ثم صار يليها الخدام وغيرهم ، وكان انشاؤها فى سنة إحدى وستين وسبعمائة .

ولما ولى الأمير جمال الدين يوسف البحاسى وظيفة أستادارية السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق ، وعمر بجانب هذه المدرسة داره ثم مدرسته ، صار يحبس فى المدرسة الحجازية من يصادره أو يعاقبه ، حتى امتلأت بالمسجونين والأعوان المرسمين عليهم ، فزالت تلك الأبهة وذهب ذلك الناموس . واقتدى بجمال الدين من سكن بعده من الأستادارية فى داره ، وجعلوا هذه المدرسة سجناً ، ومع ذلك فهى من أبهج مدارس القاهرة إلى الآن .

المدرسة الطيبرسية

هذه المدرسة بجوار الجامع الأزهر من القاهرة ، وهى غربية مما يلى الجهة البحرية . أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارى نقيب الجيوش ، وجعلها مسجداً لله تعالى زيادة فى الجامع الأزهر ، وقرر بها درساً للفقهاء الشافعية ، وأنشأ بجوارها ميضأة وحوض ماء سبيل ترده الدواب .

وتألق فى رخامها وتذهيب سقوفها ، حتى جاءت فى أبدع زى ، وأحسن قالب ، وأبهج ترتيب ، لما فيها من إتقان العمل وجودة الصناعة ، بحيث إنه لم يقدر أحد على محاكاة ما فيها من صناعة الرخام ، فإن جميعه أشكال المحاريب ، وبلغت النفقة عليها جملة كثيرة ، وانتهت عمارتها فى سنة تسع وسبعمائة . ولها بسط تفرش فى يوم الجمعة كلها منقوشة بأشكال المحاريب أيضاً ، وفيها خزانة كتب ، ولها إمام راتب .

طيبرس

بن عبدالله الوزيرى . كان فى ملك الأمير بدر الدين بيلبك مملوك الخازندار الظاهرى نائب السلطنة ، ثم انتقل إلى الأمير بدر الدين بيدرا ، وتنقل فى خدمته حتى صار نائب الصبيبة ، ورأى مناماً للمنصور لاجين يدل على أنه يصير سلطان مصر ، وذلك قبل أن يتقلد السلطنة وهو نائب الشام ، فوعده إن صارت إليه السلطنة أن يقدمه وينوه به .

فلما تملك لاجين استدعاه ، وولاه نقابة الجيش بديار مصر ـ عوضاً عن بلبان الفاخرى ـ فى سنة سبع وتسعين وستمائة . فباشر النقابة مباشرة مشكورة إلى الغاية ، من إقامة الحرمة ، وأداء الأمانة ، والعفة المفرطة ، بحيث إنه ما عرف عنه أنه قبل من أحد هدية ألبته ، مع التزام الديانة والمواظبة على فعل الخير والغنى الواسع .

وله من الآثار الجميلة الجامع والخانقاه بأراضى بستان الخشاب ، المطلة على النيل خارج القاهرة ، فيما بينها وبين مصر بجوار المنشأة . وهو أول من عمر فى أراضى بستان الخشاب ، وقد تقدم ذكر ذلك ، ومن آثاره أيضاً هذه المدرسة البديعة الزى ، وله على كل من هذه الأماكن أوقاف جليلة .

ولم يزل فى نقابة الجيش إلى أن مات فى العشرين من شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة وسبعمائة ، ودفن فى مكان بمدرسته هذه ، وقبره بها إلى وقتنا هذا . ووجد له من بعده مال كثير جداً ، وأوصى إلى الأمير علاء الدين على الكورانى ، وجعل الناظر على وصيته الأمير أرغون نائب السلطنة .

واتفق أنه لما فرغ من بناء هذه المدرسة ، أحضر إليه مباشروه حساب مصروفها . فلما قدم إليه استدعى بطشت فيه ماء ، وغسل أوراق الحساب بأسرها من غير أن يقف على شئ منها ، وقال : شئ خرجنا عنه لله تعالى لا نحاسب عليه .

ولهذه المدرسة شبابيك فى جدار الجامع تشرف عليه، ويتوصل من بعضها إليه، وما عمل ذلك حتى استفتى الفقهاء فيه، فأفنوه بجواز فعله، وقد تداولت أيدى نظار السوء على أوقاف طيبرس هذا، فخرب أكثرها، وخرب الجامع والخانقاه، وبقيت هذه المدرسة . . . عمرها الله بذكره.

المدرسة الأقبغاوية

هذه المدرسة بجوار الجامع الأزهر، على يسره من يدخل إليه من بابه الكبير البحرى، وهى تشرف بشابيك على الجامع مركبة فى جداره، فصارت تجاه المدرسة الطيبرسية. كان موضعها دار الأمير الكبير عزالدين أيدمر الحلى، نائب السلطنة فى أيام الملك الظاهر بيبرس، وميضأة للجامع، فأنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبدالواحد، أستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون، وجعل بجوارها قبة ومنارة من حجارة منحوتة.

وهى أول مئذنة عملت بديار مصر من الحجر بعد المنصورية، وإنما كانت قبل ذلك تبنى بالآجر . . . بناها هى والمدرسة المعلم ابن السيوفى، رئيس المهندسين فى الأيام الناصرية، وهو الذى تولى بناء جامع الماردينى خارج باب زويلة، وبنى مئذنته أيضاً.

وهى مدرسة مظلمة، ليس عليها من بهجة المساجد، ولا أنس بيوت العبادات، شئ ألبته. وذلك أن أقبغا عبدالواحد اغتصب أرض هذه المدرسة، بأن أقرض ورثة أيدمر الحلى مالا، وأمهل حتى تصرفوا فيه، ثم أعسفهم فى الطلب، وألجأهم إلى أن أعطوه دراهم، فهدمها وبنى موضعها هذه المدرسة.

وأضاف إلى اغتصاب البقعة أمثال ذلك من الظلم، فبناها بأنواع من الغصب والعسف، وأخذ قطعة من سور الجامع حتى ساوى بها المدرسة الطيبرسية، وحشر لعملها الصناع من البنائين والنجارين والحجارين والمرحمين والفعلة، وقرر مع الجميع أن يعمل كل منهم فيها يوماً فى كل أسبوع بغير أجرة.

فكان يجتمع فيها فى كل أسبوع سائر الصناع الموجودين بالقاهرة ومصر، فيجدون فى العمل نهارهم كله بغير أجرة، وعليهم مملوك من مماليكه، ولاه شد العمارة، لم ير الناس أظلم منه، ولا أعتى ولا أشد بأساً، ولا أقسى قلباً ولا أكثر عنتاً. فلقى العمال منه مشقات لاتوصف، وجاء مناسباً لمولاه.

وحمل مع هذا إلى هذه العمارة سائر ما يحتاج إليه، من الأمتعة وأصناف الآلات، وأنواع الاحتياجات من الحجر والخشب والرخام والدهان وغيره، من غير أن يدفع فى شئ منه ثمناً ألبته، وإنما كان يأخذ ذلك إما بطريق الغصب من الناس، أو على سبيل الخيانة من عمائر السلطان، فإنه كان من جملة مابيده شد العمائر السلطانية.

وناسب هذه الأفعال أنه ما عرف عنه قط أنه نزل إلى هذه العمارة إلا وضرب فيها من الصناع عدة ضرباً مؤلماً، فيصير ذلك الضرب زيادة على عملة بغير أجرة، فيقال فيه كملت خصالك هذه بعمارى فلما فرغ من بنائها، جمع فيها سائر الفقهاء وجميع القضاة.

وكان الشريف شرف الدين على بن شهاب الدين الحسين بن محمد بن الحسين - نقيب الأشراف ومحتسب القاهرة حينئذ - يؤمل أن يكون مدرسها، وسعى عنده فى ذلك، فعمل بسطاً على قياسها بلغ ثمنها ستة آلاف درهم فضة، ورشاه بها، ففرشت هناك.

ولما تكامل حضور الناس بالمدرسة - وفى الذهن أن الشريف يلى التدريس، وعرف أنه هو الذى أحضر البسط التى قد فرشت - قال الأمير أقبغا لمن حضر لا أولى فى هذه الأيام أحداً. وقام . . فتفرق الناس.

وقرر فيها درساً للشافعية ولى تدريسه . . . ودرساً للحنفية ولى تدريسه . . . وجعل فيها عدة من الصوفية ولهم شيخ، وقرر بها طائفة من القراء يقرأون القرآن بشباكها، وجعل لها إماماً راتباً ومؤذناً وفراشين وقومة ومباشرين، وجعل النظر للقاضى الشافعى بديار مصر، وشرط فى كتاب وقفه ألا يلى النظر أحد من ذريته، ووقف على هذه الجهات حوانيت خارج باب زويلة بخط تحت الربع، وقرية بالوجه القبلى.

وهذه المدرسة عامرة إلى يومنا هذا. إلا أنه تعطل منها الميضأة، وأضيفت إلى ميضأة الجامع لتغلب بعض الأمراء - بمواطأة بعض النظار - على بند الساقية التى كانت برسمها.

أقبغا عبدالواحد

الأمير علاء الدين : أحضره إلى القاهرة التاجر عبدالواحد بن بدال ، فاشتراه منه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ولقبه باسم التاجر الذى أحضره ، فحظى عنده ، وعمله شاد العمائر ، فنهض فيها نهضة أعجب منه السلطان وعظمه ، حتى عمله أستادار السلطان بعد الأمير مغلطاى الجمالى ، فى المحرم سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، وولاه مقدم المماليك فقويت حرمته وعظمت مهابته ، حتى صار سائر من فى بيت السلطان يخافه ويخشاه .

وما برح على ذلك إلى أن مات الملك الناصر ، وقام من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر ، فقبض عليه فى يوم الأثنين سلخ المحرم سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، وأمسك أيضاً ولديه ، وأحيط بماله وسائر أملاكه ، ورسم عليه الأمير طيبغا المجدى ، وبيع موجوده من الخيل والجمال والجوارى والقماش والأسلحة والأوانى . . . فظهر له شئ عظيم إلى الغاية : من ذلك أنه بيع بقلعة الجبل ـ وبها كانت تعمل حلقات مبيعه ـ سراويل امرأته بمبلغ مائتى ألف درهم فضة : عنها نحو عشرة آلاف دينار ذهب ، وبيع له أيضاً قبقاب وشرموزة وخف نسائى بمبلغ خمسة وسبعين ألف درهم فضة : عنها زيادة على ثلاث آلاف دينار ، وبيعت بدلة مقانع بمائة ألف درهم .

وكثرت المرافعات عليه من التجار وغيرهم . فبعث السلطان إليه شاد الدواوين يعرفه أنه أقسم بتربة الشهيد (يعنى أباه) أنه متى لم يعط هؤلاء حقهم ، وإلا سمرتك على جمل ، وطفت بك المدينة . فتسرع أقبغا فى استرضائهم ، وأعطاهم نحو المائتى ألف درهم فضة . ثم نزل إليه الوزير نجم الدين محمود بن سرور ـ المعروف برزه بغداد ـ ومعه الحاج إبراهيم بن صابر . مقدم الدولة ، لمطالبته بالمال ، فأخذا منه لؤلؤا وجواهر نفيسة ، وصعدا بها إلى السلطان .

وكان سبب هذه النكبة أنه كان قد تحكم فى أمور الدولة السلطانية وأرباب الأشغال ، أعلاهم وأدناهم ، مما اجتمع له من الوظائف ، وكان عنده فراش غضب عليه وأوجعه ضربا ، فانصرف من عنده وخدم فى دار الأمير أبى بكر ولد السلطان ، فبعث أقبغا يستدعى بالفراش

إليـه، فـمنعـه عنه أبو بكر، وأرسل إليـه مع أحـد مماليكه يقـول له: أنى أريد أن تهـبنى هذا الغلام، ولا تشوش عليه فلما بلغه المملوك الرسالة، اشتد حنقه وسبه سبا فاحشاً، وقال له: قل لأستاذك يسير الفراش وهو جيد له.

وكان قبل ذلك اتفق أن الأمير أبا بكر خرج من خدمة السلطان إلى بيته، فإذا الأمير أقبغا قد بطح مملوكاً وضربه، فوقف أبو بكر بنفسه، وسأل أقبغا فى العفو عن المملوك، وشفع فيه، فلم يلتفت أقبغا إليه، ولا نظر إلى وجهه، فخجل أبو بكر من الناس ـ لكونه وقف قائماً بين يدى أقبغا وشفع عنده، فلم يقم من مجلسه لوقوفه، بل استمر قاعداً وأبو بكر واقف على رجليه، ولا قبل مع ذلك شفاعته ـ ومضى وفى نفسه منه حنق كبير.

فلما عاد إليه مملوكه، وبلغه كلام أقبغا بسبب هذا الفراش، أكد ذلك عنده ما كان من الإحنة، وأخذ فى نفسه إلى أن مات أبوه الملك الناصر، وعهد إليه من بعده. وكان قد التزم أنه إن ملكه الله ليصادرن أقبغا، وليضربنه بالمقارع، وقال للفراش: أقعد فى بيتى، وإذا حضر أحد لأخذك عرفت ما أعمل معه. وأذ. أقبغا يترقب الفراش، وأقام أناساً للقبض عليه، فلم يتهيأ له مسكه.

فلما أفضى الأمر إلى أبى بكر، استدعى الأمير قوصون ـ وكان هو القائم حينئذ بتدبير أمور الدولة ـ وعرفه ما التزمه من القبض على أقبغا، وأخذ ماله وضربه بالمقارع، وذكر له ولعدة من الأمراء ما جرى له منه. وكان لقوصون بأقبغا عناية، فقال للسلطان: السمع والطاعة، يرسم السلطان بالقبض عليه ومطالبته بالمال، فإذا فرغ ماله يفعل السلطان ما يختاره.

وأراد بذلك تطاول المدة فى أمر أقبغا. فقبض عليه، ووكل به رسل ابن صابر، حتى أنه بات ليلة قبض عليه من غير أن يأكل شيئاً. وفى صبيحة تلك الليلة تحدث الأمراء مع السلطان فى نزوله إلى داره محتفظاً به، حتى يتصرف فى ماله، ويحمله شيئاً بعد شئ. فنزل مع المجدى، وباع ما يملكه، وأورد المال.

فلما قبض على الحاج إبراهيم بن صابر، وأقيم ابن شمس موضعه، أرسله السلطان إلى بيت أقبغا ليعصره ويضربه بالمقارع ويعذبه. فبلغ ذلك الأمير قوصون، فمنع منه، وشنع

على السلطان كونه أمر بضربه بالمقارع، وأمر بمراجعته. فحنق من ذلك، وأطلق لسانه على الأمير قوصون، فلم يزل به من حضره من الأمراء حتى سكت على مضض.

وكان قوصون يدبر فى انتقاض دولة أبى بكر إلى أن خلعه، وأقام بعده أخاه الملك الأشرف كجك بن محمد بن قلاوون، وعمره نحو السبع سنين، وتحكم فى الدولة. فأخرج أقبغا هو وولده من القاهرة، وجعله من جملة أمراء الدولة بالشام. فسار من القاهرة فى تاسع ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة، على حيز الأمير مسعود بن خطير بدمشق، ومعه عياله فأقام بها.

إلى أن كانت فتنة الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون، وعصيانه بالكرك على أخيه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون، فاتهم أقبغا بأنه بعث مملوكاً من مماليكه إلى الكرك، وأن الناصر أحمد خلع عليه، وضربت البشائر بقلعة الكرك، وأشاع أن أمراء الشام قد دخلوا فى طاعته وحلفوا له، وأن أقبغا قد بعث إليه مع مملوكه يبشره بذلك.

فلما وصل إلى الملك الصالح كتاب عساف أخى شطى بذلك، وصل فى وقت وروده كتاب نائب الشام الأمير طقزدمر، يخبر فيه بأن جماعة من أمراء الشام قد كاتبوا أحمد بالكرك وكاتبهم، وقد قبض عليهم، ومن جملتهم أقبغا عبدالواحد. فرسم بحمله مقيداً، فحمل من دمشق إلى الإسكندرية، وقتل بها فى آخر سنة أربع وأربعين وسبعمائة.

وكان من الظلم والطمع والتعاظم على جانب كبير، وجمع من الأموال شئ كثيراً، وأقام جماعة من أهل الشر لتتبع أولاد الأمراء، وتعرف أحوال من افتقر منهم أو احتاج إلى شئ، فلايزالون به حتى يعطوه مالا على سبيل القرض بفائدة جزيلة إلى أجل، فإذا استحق المال أعسفه فى الطلب، وألجأه إلى بيع ما له من الأملاك، وحلها إن كانت وقفاً بعنايته به، وعين لعمل هذه الحيل شخصاً يعرف بابن القاهرى، وكان إذا دخل لأحد من القضاة فى شراء ملك أو حل وقف، لا يقدر على مخالفته، ولا يجد بدا من موافقته.

ومن غريب ما يحكى عن طمع أقبغا أن مشد الحاشية دخل عليه، وفى أصبعه خاتم بفص أحمر من زجاج له بريق، فقال له أقبغا : أيش هو هذا الخاتم ؟

فأخذ يعظمه، وذكر أنه من تركة أبيه.

فقال : بكم حسبوه عليك ؟

فقال : بأربعمائة درهم.

فقال : أرنيه.

فناوله إياه، فأخذه وتشاغل عنه ساعة، ثم قال له : والله فضيحة أن نأخذ خاتمك، ولكن خذه أنت وهات ثمنة !!

ودفعه إليه، وألزمه بإحضار الأربعمائة درهم. فما وسعه إلا أن أحضرها إليه. فعاقبه الله بذهاب ماله وغيره، وموته غريباً.

المدرسة الحسامية

هذه المدرسة بخط المسطاح من القاهرة، قريباً من حارة الوزيرية. بناها الأمير حسام الدين طرنطاى المنصورى، نائب السلطنة بديار مصر، إلى جانب مصر، وجعلها برسم الفقهاء الشافعية، وهى فى وقتنا هذا تجاه سوق الرقيق، ويسلك منها إلى درب العداس، وإلى حارة الوزيرية وإلى سويقة الصاحب وباب الخوخة وغير ذلك.

وكان بجانبها طبقة لخياط، فطلبت منه بثلاثة أمثال ثمنها فلم يبعها، وقيل لطرنطاي : لو طلبته لاستحيي منك. فلم يطلبه، وتركه وطبقته، وقال : لا أشوش عليه.

طرنطاي

بن عبدالله : الأمير حسام الدين المنصورى. رباه الملك المنصور قلاوون صغيراً، ورقاه فى خدمه. إلى أن تقلد سلطنة مصر، فجعله نائب السلطنة بديار مصر، عوضاً عن الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى، وخلع عليه فى يوم الخميس رابع عشر رمضان سنة ثمان وسبعين وستمائة. فباشر ذلك مباشرة حسنة.

إلى أن كانت سنة خمس وثمانين، فخرج من القاهرة بالعساكر إلى الكرك - وفيها الملك المسعود نجم الدين خضر، وأخوه بدر الدين سلامش، ابنا الملك الظاهر بيبرس - فى رابع المحرم، وسار إليها. فوافاه الأمير بدر الدين الصوانى بعساكر دمشق فى ألفى فارس، ونازلا الكرك، وقطعا الميرة عنها، واستفسدا رجال الكرك حتى أخذا خضرا وسلامش بالأمان فى خامس صفر، وتسلم الأمير عزالدين أيبك الموصلى، نائب الشوبك مدينة الكرك، واستقر فى نيابة السلطنة بها، وبعث الأمير طرنطاى بالبشارة إلى قلعة الجبل فوصل البريد بذلك فى ثامن صفر.

ثم قدم بابنى الظاهر، فخرج السلطان إلى لقائه فى ثانى عشر ربيع الأول، وأكرم الأمير طرنطاى، ورفع قدره، ثم بعثه إلى أخذ صهيون - وبها سنقر الأشقر - فسار بالعساكر من القاهرة فى سنة ست وثمانين، ونازلها وحصرها حتى نزل إليه سنقر بالأمان، وسلم إليه قلعة صهيون، وسار به إلى القاهرة. فخرج السلطان إلى لقائه وأكرمه.

ولم يزل على مكانته إلى أن مات الملك المنصور، وقام فى السلطنة بعده ابنه الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، فقبض عليه فى يوم السبت ثالث عشر ذى القعدة سنة تسع وثمانين، وعوقب حتى مات يوم الإثنين خامس عشرة بقلعة الجبل، وبقى ثمانية أيام بعد قتله مطروحاً بحبس القلعة.

ثم أخرج فى ليلة الجمعة سادس عشرى ذى القعدة، وقد لف فى حصير، وحمل على جنوية إلى زاوية الشيخ أبى السعود بالقرافة. فغسله الشيخ عمر السعودى شيخ الزاوية، وكفنه من ماله، ودفنه خارج الزاوية ليلاً، وبقى هناك إلى سلطنة العادل كتبغا، فأمر بنقل جثته إلى تربته التى أنشأها بمدرسته هذه.

وكان سبب القبض عليه وقتله أن الملك الأشرف كان يكرهه كراهة شديد. فإنه كان يطرح جانبه فى أيام أبيه، ويغض منه، ويهين نوابه، ويؤذى من يخدمه، لأنه كان يميل إلى أخيه الملك الصالح على، وانتقلت ولاية العهد إلى الأشرف خليل بن قلاوون، مال إليه من كان ينحرف عنه فى حياه أخيه . . . إلا طرنطاى، فإنه أزداد تمادياً فى الإعراض عنه، وجرى على عادته فى أذى من ينسب إليه، وأغرى الملك المنصور بشمس الدين محمد بن السلعوس - ناظر ديوان الأشرف - حتى ضربه، وصرفه عن مباشرة ديوانة.

والأشرف مع ذلك يتأكد حنقه عليه، ولا يجد بدا من الصبر إلى أن صار له الأمر بعد أبيه، ووقف الأمير طرنطاى بين يديه فى نيابة السلطنة على عادته، وهو منحرف عنه لما أسلفه من الإساءة عليه. وأخذ الأشرف فى التدبير عليه . . . إلى أن نقل له عنه أنه يتحدث سراً فى إفساد نظام المملكة، وإخراج الملك عنه، وأنه قصد أن يقتل السلطان وهو راكب فى الميدان الأسود الذى تحت قلعة الجبل عند ما يقرب من باب الاصطبل، فلم يحتمل ذلك.

وعندها سير أربعة ميادين - والأمير طرنطاى ومن وافقه عند باب سارية - حتى انتهى إلى رأس الميدان، وقرب من باب الأصطبل، وفى الظن أنه يعطف إلى باب سارية ليكمل التسيير على العادة، فعطف إلى جهة القلعة، وأسرع ودخل من باب الاصطبل فبادر الأمير طرنطاى عندما عطف السلطان، وساق فيمن معه ليدركوه، ففاتهم وصار بالاصطبل فيمن خف معه من خواصه.

وما هو إلا أن نزل الأشرف من الركوب، فاستدعى بالأمير طرنطاى، فمنعه الأمير زين الدين كتبغا المنصورى من الدخول إليه، وحذره منه وقال له: والله إنى أخاف عليك منه، فلا تدخل عليه إلا فى عصبة تعلم أنهم يمنعونك منه إن وقع أمر تكرهه.

فلم يرجع إليه، وغره أن أحداً لا يجسر عليه لمهابته فى القلوب ومكانته من الدولة، وأن الأشرف لا يبادره بالقبض عليه، وقال لكتبغا: والله لو كنت نائماً ما جسر خليل ينبهنى.

وقام ومشى إلى السلطان، ودخل ومعه كتبغا. فلما وقف على عادته، بادر إليه جماعة قد أعدهم السلطان وقبضوا عليه، فأخذه اللكم من كل جانب. . . والسلطان يعدد ذنوبه، ويذكر له إساءته ويسبه. فقال له : يا خوند، هذا جميعه قد عملته معك، وقدمت الموت بين يدى، ولكن والله لتندمن من بعدى.

هذا والأيدى تتناوب عليه، حتى أن بعض الخاصكية قلع عينه، وسحب إلى السجن. فخرج كتبغا وهو يقول. إيش أعمل؟ ويكررها. فأدركه الطلب، وقبض عليه أيضاً، ثم آل أمر كتبغا بعد ذلك إلى أن ولى سلطنة مصر.

وأوقع الأشرف الحوطة على أموال طرنطاى، وبعث إلى داره الأمير علم الدين سنجر الشجاعى. فوجد له من العين ستمائة ألف دينار، ومن الفضة سبعة عشر ألف رطل ومائة

رطل مصرى. عنها زيادة على مائدة وسبعين قنطاراً فضة سوى الأوانى، ومن العدد والأسلحة والأقمشة والآلات والخيول والمماليك ما يتعذر إحصاء قيمته، ومن الغلات والأملاك شئ كثير جداً، ووجد له من البضائع والأموال المسفرة على اسمه، والودائع والمقارضاب، والقيود والأعمال، والأبقار والأغنام، والرقيق وغير ذلك. شئ يجل وصفه. هذا سوى ما أخفاه مباشروه بمصر والشام.

فلما حملت أمواله إلى الأشرف، جعل يقلبها ويقول:

من عاش بعد عدوه

يوماً فقد بلغ المني

واتفق بعد موت طرنطاى أن أبنه سأل الدخول على السلطان الأشرف، فأذن له. فلما وقف بين يديه، جعل المنديل على وجهه - وكان أعمى - ثم مد يده وبكى، وقال: شئ لله!! وذكر أن لأهله أياماً ما عندهم ما يأكلونه. فرق له وأفرج عن أملاك طرنطاى، وقال: تبلغوا بريعها. . فسبحان من بيده القبض والبسط.

المدرسة المنكوتمرية

هذه المدرسة بحارة بهاء الدين من القاهرة. بناها بجوار داره الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامى، نائب السلطنة بديار مصر، فكملت فى صفر سنة ثمان وتسعين وستمائة، وعمل بها درساً للمالكية. قرر فيه الشيخ شمس الدين محمد بن أبى القاسم بن عبدالسلام بن جميل التونسى المالكى، ودرساً للحنفية درّس فيه. . . . . . ، وجعل فيها خزانة كتب، وجعل عليها وقفاً ببلاد الشام. وهى اليوم بيد قضاة الحنفية يتولون نظرها، وأمرها متلاش، وهى من المدارس الحسنة.

منكوتمر

هو أحد مماليك الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى ترقى فى خدمته، واختص به اختصاصاً زائداً إلى أن ولى مملكة مصر بعد كتبغا فى سنة ست وتسعين وستمائة، فجعله أحد الأمراء بديار مصر، ثم خلع عليه خلع نيابة السلطنة ـ عوضاً عن الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى ـ يوم الأربعاء النصف من ذى القعدة.

فخرج سائر الأمراء فى خدمته إلى دار النيابة، وباشر النيابة بتعاظم كثير، وأعطى المنصب حقه من الحرمة الوافرة والمهابة التى تخرج عن الحد، وتصرف فى سائر أمور الدولة من غير أن يعارضه السلطان فى شئ ألبته، وبلغت عبرة إقطاعه فى السنة زيادة على مائة ألف دينار.

ولما عمل الملك المنصور الروك، المعروف بالروك الحسامى، فوض تفرقة منالات إقطاعات الأجناد له، فجلس فى شباك دار النيابة بقلعة الجبل، ووقف الحجاب بين يديه، وأعطى لكل تقدمة منالات، فلم يجسر أحد أن يتحدث فى زيادة ولا نقصان، خوفاً من سوء خلقه وشده حمقة.

وبقى أياما فى تفرقة المنالات، والناس على خوف شديد. فإن أقل الإقطاعات كان فى أيام الملك المنصور قلاوون عشرة آلاف درهم فى السنة، وأكثره ثلاثين ألف درهم، فرجع فى الروك الحسامى أكثر إقطاعات الحلقة إلى مبلغ عشرين ألف درهم وما دونها.

فشق ذلك على الأجناد، وتقدم طائفة منهم ورموا منالاتهم التى فرقت عليهم، لأن الواحد منهم وجد مناله بحق النصف مما كان له قبل الروك، وقالوا لمنكوتمر: إما أن تعطونا ما يقوم بكلفنا، وإلا فخدوا أخباركم، ونحن نخدم الأمراء أو نصير بطالين.

فغضب منكوتمر، وأخرق بهم، وتقدم إلى الحجاب فضربوهم وأخذوا سيوفهم، وأودعوهم السجون. أخذ يحاطب الأمراء بفحش، ويقول: أيما قائد شكا من خبزه، ويقول نقول للسلطان، فعلت به. فعلت. . إيش يقول للسلطان؟ إنى رضى يخدم وإلا إلى لعنة الله. فشق ذلك على الأمراء، وأسروا له الشر.

ثم أنه لم يزل بالسلطان حتى قبض على الأمير بدر الدين بيسرى ، وحسن له إخراج أكابر الأمراء من مصر ، فجردهم إلى سيس ، وأصبح وقد خلا له الجو . فلم يرض بذلك حتى تحدث مع خوشداشيته بأنه لابد أن ينشئ له دولة جديدة ، ويخرج طفجي وكرجي من مصر .

ثم إنه جهز حمدان بن صلغاى إلى حلب فى صورة أنه يستعجل العساكر من سيس ، وقرر معه القبض على عدة من الأمراء ، وأمَّر عدة أمراء جعلهم له عدة وذخرا ، ثم نقدم إلى الصاحب فخر الدين الخليلى بأن يعمل أوراقاً تتضمن أسماء أرباب الرواتب ليقطع أكثرها .

فلم تدخل سنة ثمان وتسعين ، حتى استوحشت خواطر الناس بمصر والشام من منكوتمر ، وزاد حتى أراد السلطان أن يبعث بالأمير طغا إلى نيابة طرابلس ، فتنصل طغا من ذلك . فلم يعفه السلطان منه وألح منكوتمر فى إخراجه ، وأغلظ للأمير كرجي فى القول ، وحط على سلار وبيبرس الجاشنكير وأنظارهم وغض منهم ، وكان كرجي شرس الأخلاق ، ضيق العطن ، سريع الغضب ، فهم غير مرة بالفتك بمنكوتمر ، وطفجي يسكن غضبه .

فبلغ السلطان فساد قلوب الأمراء والعسكر . فبعث قاضى القضاة حسام الدين الحسن بن أحمد بن الحسن الرومى الحنفى إلى منكوتمر يحدثه فى ذلك ويرجعه عما هو فيه . فلم يلتفت إلى قوله وقال : أنا ما لى حاجة بالنيابة ، أريد أخرج مع الفقراء .

فلما بلغ السلطان عنه ذلك استدعاه ، وطيب خاطره ، وعده بسفر طفجي بعد أيام ، ثم القبض على كرجي بعده فنقل هذا للأمراء ، فتحالفوا وقتلوا السلطان ، كما قد ذكر فى خبره ، وأول من بلغه خبر مقبل السلطان الأمير منكوتمر ، فقام إلى شباك النيابة بالقلعة ، فرأى باب القلة وقد انفتح ، وخرج الأمراء ، والشموع تقد ، والضجة قد ارتفعت ، فقال : والله قد فعلوها . وأمر فغلقت أبواب دار النيابة ، وألبس مماليكه آلة الحرب .

فبعث الأمراء إليه بالأمير الحسام أستادار ، فعرفه بمقتل السلطان ، وتلطف به حتى نزل وهو مشدود الوسط بمنديل ، وسار به إلى باب القلة . . . والأمير طفجي قد جلس فى مرتبة النيابة . فتقدم إلى طفجي ، وقبل يده ، فقام إليه ، وأجلسه بجانبه . وقام الأمراء فى أمر منكوتمر يشفعون فيه ، فأمر به إلى الجب وأنزلوه فيه .

وعندما استقر به أدليت له القفة التى نزل فيها، وتصابحوا عليه بالصعود، فطلع عليهم. وأذا كرجى قد وقف على رأس الجب فى عدة من المماليك السلطانية، فأخذ يسب منكوتمر ويهينه، وضربه بلت ألقاه، وذبحه بيده على الجب، وتركه وانصرف. فكان بين قتل أستاذه وقتله ساعة من الليل، وذلك فى ليلة الجمعة عاشر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين.

المدرسة القراسنقرية

هذه المدرسة تجاه خانقاه الصلاح سعيد السعداء، فيما بين رحبة باب العيد وباب النصر، كان موضعها، وموضع الربع الذى بجانبها الغربى، مع خانقاه بيبرس وما فى صفها، إلى حمام الأعسر وباب الجوانية... كل ذلك من دار الوزارة الكبرى التى تقدم ذكرها. أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى، نائب السلطنة، سنة سبعمائة. وبنى بجوار بابها مسجداً معلقاً، ومكتباً لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز، وجعل بهذه المدرسة درساً للفقهاء، ووقف على ذلك داره التى بحاره بهاء الدين وغيرها. ولم يزل نظر هذه المدرسة بيد ذرية الواقف إلى سنة خمس عشرة وثمانمائة، ثم انقرضوا.

وهى من المدارس المليحة. وكنا نعهد البريدية إذا قدموا من الشام وغيرها لاينزلون إلا فى هذه المدرسة حتى يتهيأ سفرهم، وقد بطل ذلك من سنة تسعين وسبعمائة.

قراسنقر بن عبدالله

الأمير شمس الدين الجوكندار المنصورى. صار إلى الملك المنصور قلاوون، وترقى فى خدمته إلى أن ولاه نيابة السلطنة بحلب، فى شعبان سنة اثنتين وثمانين وستمائة، عوضاً عن الأمير علم الدين سنجر الباشقردى، فلم يزل فيها إلى أن مات الملك المنصور، وقام من بعده ابنه الملك الأشرف خليل بن قلاوون.

فلما توجه الأشرف إلى فتح قلعة الروم، عاد بعد فتحها إلى حلب، وعزل قرانسقر عن نيابتها، وولى عوضه الأمير سيف الدين بلبان الطناحى، وذلك فى أوائل شعبان سنة إحدى وتسعين، وكانت ولايته على حلب تسع سنين.

فلما حرج السلطان من مدينة حلب، خرج فى خدمته، وتوجه مع الأمير بدر الدين بيدرا - نائب السلطنة بديار مصر - فى عدة من الأمراء لقتال أهل جبال كسروان. فلما عاد سار مع السلطان من دمشق إلى القاهرة، ولم يزل بها إلى أن ثار الأمير بيدرا على الأشرف، فتوجه معه وأعان على قتله. فلما قتل بيدرا فر قرانسقر ولاجين فى نصف المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة، واختفيا بالقاهرة.

إلى أن استقر الأمر للملك الناصر محمد ابن قلاوون، وقام فى نيابة السلطنة وتدبير الدولة الأمير زين الدين كتبغا، فظهرا فى يوم عيد الفطر. وكانا عند فرارهما، يوم قتل بيدرا، أطلعا الأمير بيحاص الزينى - مملوك الأمير كتبغا نائب السلطنة - على حالهما، فأعلم أستاذه بأمرهما، وتلطف به حتى تحدث فى شأنهما مع السلطان، فعفا عنهما.

ثم تحدث مع الأمير بكتاش الفخرى إلى أن ضمن له التحدث مع الأمراء، وسعى فى الصلح بينهما وبين الأمراء والمماليك حتى زالت الوحشة، وظهرا من بيت الأمير كتبغا. فأحضرهما بين يدى السلطان، وقبلا الأرض، وأفيضت عليهما التشاريف، وجعلهما أمراء على عادتهما، ونزلا إلى دورهما، فحمل إليهما الأمراء ما جرت العادة به من التقادم.

فلم يزل قرانسقر على إمرته إلى أن خلع الملك الناصر محمد بن قلاوون من السلطنة، وقام من بعده الملك العادل زين الدين كتبغا، فاستمر على حاله... إلى أن ثار الأمير حسام الدين لاجين، نائب السلطنة بديار مصر، على الملك العادل كتبغا بمنزلة العوجاء من طريق دمشق. فركب معه قراسنقر وغيره من الأمراء إلى أن فر كتبغا، واستمر الأمر لحسام الدين لاجين، وتلقب بالملك المنصور.

فلما استقر بقلعة الجبل، خلع على الأمير قرانسقر، وجعله نائب السلطنة بديار مصر فى صفر سنة ست وتسعين وستمائة. فباشر النيابة إلى يوم الثلاثاء للنصف من ذى القعدة

فقبض عليه، وأحيط بموجوده وحواصله ونوابه ودواوينه بديار مصر والشام، وضيق عليه، واستقر فى نيابة السلطنة بعده الأمير منكوتمر.

وعد السلطان من أسباب القبض عليه إسرافه فى الطمع، وكثرة الحمايات، وتحصيل الأموال على سائر الوجوه، مع كثرة ما وقع من شكاية الناس من مماليكه، ومن كاتبه شرف الدين يعقوب. فإنه كان قد تحكم فى بيته تحكماً زائداً، وعظمت نعمته، وكثرت سعادته، وأسرف فى اتخاذ المماليك والخدم، وانهمك فى اللعب الكثير، وتعدى طوره. . . وقراسنقر لايسمع فيه كلاماً. وحدثه السلطان بسببه، وأغلظ فى القول، وألزمه بضربه وتأديبه أو إخراجه من عنده، فلم يعبأ بذلك.

وما زال قراسنقر فى الاعتقال إلى أن قتل الملك المنصور لاجين، وأعيد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة، فأفرج عنه وعن غيره من الأمراء، ورسم له بنيابة الصبيبة. فخرج إليها، ثم نقل منها إلى نيابة حماه بعد موت صاحبها الملك المظفر تقى الدين محمود، بسفارة الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير سلار.

ثم نقل من نيابة حماة بعد ملاقاة التتر إلى نيابة حلب. واستقر عوضه فى نيابة حماه الأمير زين الدين كتبغا، الذى تولى سلطنة مصر والشام، وذلك فى سنة تسع وتسعين وستمائة، وشهد وقعة شقحب مع الملك الناصر محمد بن قلاوون.

ولم يزل على نيابة حلب إلى أن خلع الملك الناصر، وتسلطن الملك المظفر بيبرس الجاشنكخير، وصاحب الناصر فى الكرك. فلما تحرك لطلب الملك، واستدعى نواب الممالك، أجابه قراسنقر، وأعانه برأيه وتدبيره، ثم حضر إليه وهو بدمشق، وقدم له شيئاً كثيراً، وسار معه إلى مصر حتى جلس على تخت ملكه بقلعة الجبل، فولاه نيابة دمشق، عوضاً عن الأمير عزالدين الأفرم، فى شوال سنة تسع وسبعمائة.

وخرج إليها، فسار إلى غزة فى عدة من النواب، وقبضوا على المظفر بيبرس الجاشنكير، وسار به هو والأمير سيف الدين الحاج بهادر إلى الخطارة، فتلقاهم الأمير أسندمر كرجى،

فتسلم منهم بيبرس، وقيده وأركبه بغلا، وأمر قراسنقر والحاج بهادر بالسير إلى مصر. فشق على قراسنقر تقييد بيبرس، وتوهم الشر من الناصر، وانزعج لذلك انزعاجاً كثيراً، وألقى كلوتته عن رأسه إلى الأرض، وقال لفراشه: الدنيا فانيه، ياليتنا متنا ولا رأينا هذا اليوم. فترجل من حضر من الأمراء، ورفعوا كلوتته ووضعوها على رأسه.

ورجع من فوره، ومعه الحاج بهادر، إلى ناحية الشام، وقد ندم على تشييع المظفر بيبرس، فجد فى سيره إلى أن عبر دمشق. وفى نفس السلطان منه كونه لم يحضر مع بيبرس، وكان قد أراد القبض عليه، فبعث الأمير نوغاى القبجاقى أميراً بالشام ليكون له عيناً على الأمير قراسنقر، ففطن قراسنقر لذلك، وشرع نوغاى يتحدث فى حق قراسنقر بما لايليق، حتى ثقل عليه مقامه، فقبض عليه بأمر السلطنة، وسجن بقلعة دمشق.

ثم إن السلطان صرفه عن نيابة دمشق، وولاه نيابة حلب بسؤاله، وذلك فى المحرم سنة إحدى عشرة وسبعمائة، وكتب السلطان إلى عدة من الأمراء بالقبض عليه مع الأمير أرغون الدوادار، فلم يتمكن من التحدث فى ذلك لكثرة ما ضبط قراسنقر أموره، ولازمه عند قدومه عليه بتقليد نيابة حلب، بحيث لم يتمكن أرغون من الحركة إلى مكان إلا وقراسنقر معه.

فكثر الحديث بدمشق أن أرغون إنما حضر لمسك قراسنقر، حتى بلغ ذلك الأمراء، وسمعه قراسنقر فاستدعى بالأمراء، وحضر الأمير أرغون، فقال قراسنقر بلغنى كذا، وها أنا أقول إن كان حضر معك مرسوم بالقبض على فلا حاجة إلى فتنة، أنا طائع السلطان، وهذا سيفى خذه، ومد يده وحل سيفه من وسطه.

فقال أرغون، وقد علم أن هذا الكلام مكيدة، وان قراسنقر لايمكن من نفسه: إنى لم أحضر إلا بتقليد الأمير نيابة حلب بمرسوم السلطان، وسؤال الأمير وحاشا لله أن السلطان يذكر فى حق الأمير شيئاً من هذا.

فقال قراسنقر: غدا نركب ونسافر.

وانفض المجلس. فبعث إلى الأمراء: ألا يركب أحد منهم لوداعه، ولايخرج حراسة، وفرق ما عنده من الحوائص ومن الدراهم على مماليكه ليتحملوا به على أوساطهم، وأمرهم بالاحتراس، وقدم غلمانه وحواشيه فى الليل، وركب وقت الصباح فى طلب عظيم - وكانت عدة مماليكه ستمائة مملوك قد جعلهم حوله ثلاث حلقات - وأركب أرغون إلى جانبه.

وسار على غير الجادة حتى قارب حلب، ثم عبرها فى العشرين من المحرم، وأعاد أرغون بعدما أنعم عليه بألف دينار وخلعة وخيل وتحف، وأقام بمدينة حلب خائفاً يترقب، وشرع يعمل الحيلة فى الخلاص، وصادق العربان، واختص بالأمير حسام الدين مهنا أمير العرب وبابنه موسى، وأقدمه إلى حلب، وأوقفه على كتب السلطان إليه بالقبض عليه، وأنه لم يفعل ذلك، ولم يزل به حتى أفسد ما بينه وبين السلطان.

ثم إنه بعث يستأذن السلطان فى الحج. فأعجب السلطان ذلك، وظن أنه بسفره يتم له التدبير عليه لما كان فيه من الاحتراز الكبير، وأذن له فى السفر، وبعث إليه ألفى دينار مصرية. فخرج من حلب ومعه أربعمائة مملوك معدة بالفرس والجنيب والهجن، وسار حتى قارب الكرك، فبلغه أن السلطان كتب إلى النواب، وأخرج عسكراً من مصر إليه.

فرجع من طريق السماوة إلى حلب، وبها الأمير سيف الدين قرطامى نائب الغيبة، فمنعه من العبور إلى المدينة، ولم يمكن أحداً من مماليك قراسنقر أن يخرج إليه - وكانت مكاتبة السلطان قد قدمت عليه بذلك - فرحل حينئذ إلى «مهنا» أمير العرب، واستجاربه، فأكرمه، وبعث للسلطان يتشفع له فلم يجد السلطان بدا من قبول شفاعة منها، وخير قراسنقر فيما يريد، ثم أخرج عسكراً من مصر والشام لقتال مهنا وأخذ قراسنقر.

فبلغه ذلك فاحترس على نفسه، وكتب إلى السلطان يسأله فى صرخد، وقصد بذلك المطاولة فأجابه إلى ذلك، ومكنه من أخذ حواصله التى بحلب، وأعطى مملوكه ألف دينار. فلما قدم عليه لم يطمئن، وعبر إلى بلاد الشرق فى سنة ثنتى عشرة وسبعمائة فى عدة من

الأمراء بريد خربندا فلما وصل إلى الرحبة، بعث بابنه فرج ـ ومعه شئ من أثقاله وخيوله وأمواله ـ إلى السلطان بمصر ليعتذر من قصده خربندا، ورحل بمن معه إلى مادرين.

فتلقاه المغل، وقام له نواب خربندا بالإقامات إلى أن قرب الأردوا. فركب خربندا إليه، وتلقاه وأكرمه ومن معه، وأنزلهم منزلاً يليق بهم، وأعطى قراسنقر المراغة من عمل أذربيجان، وأعطى الأمير جمال الدين أقوش الأفرم همدان. . وذلك فى أوائل سنة ثنتى عشرة وسبعمائة. . فلم يزل هناك إلى أن مات خربندا، وقام من بعده أبو سعيد بركة بن خربندا.

فشسق ذلك على السلطان، وأعمل الحيلة فى قتل قراسنقر والأفرم، وسير إليهما الفداوية. فجرت بينهم خطوب كثيرة، ومات قراسنقر بالإسهال ببلد المراغة فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، يوم السبت سابع عشرى شوال، قبل موت السلطان بيسير.

فلما بلغ السلطان موته فى حادى عشر ذى القعدة عند ورود الخبر إليه، قال: ما كنت أشتهى يموت إلا من تحتى سيفى، وأكون قد قدرت عليه، وبلغت مقصودى منه. وذلك أنه كان قد جهز إليه عدداً كثيراً من الفداوية، قتل منهم بسببه مائة وعشرون فداوياً بالسيف سوى من فقد، ولم يوقف له على خبر.

وكان قراسنقر جسيماً جليلاً، صاحب رأى وتدبير ومعرفة، وبشاشة وجه، وسماحة نفس، وكرم زائد، بحيث لايستكثر على أحد شيئاً، مع حسن الشاكلة، وعظم المهابة، والسعادة الطائلة، وبلغت عدة مماليكه ستمائة مملوك، ما منهم إلا من له نعمة ظاهرة وسعادة وافرة. وله من الآثار بالقاهرة هذه المدرسة، ودار جليلة بحارة بهاء الدين فيها كان سكنه.

المدرسة الغزنوية

هذه المدرسة برأس الموضع المعروف بسويقة أمير الجيوش، تجاه المدرسة اليازكوجية. بناها الأمير حسام الدين قايماز النجمى، مملوك نجم الدين أيوب والد الملوك، وأقام بها الشيخ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن يوسف بن على بن محمد الغزنوى البغدادى المقرئ الفقيه الحنفى، ودرس بها، فعرفت به.

وكان إماماً فى الفقه، وسمع على الحافظ السلفى وغيره، وقرأ بنفسه، وسكن مصر آخر عمره. وكان فاضلاً، حسن الطريقة متديناً، وحدث بالقاهرة بكتاب الجامع لعبدالرزاق بن همام، فرواه عنه جماعه، وجمع كتاباً فى الشيب والعمر. وقرأ عليه أبو الحسن السخاوى، وأبو عمرو بن الحاجب.

ومولده ببغداد فى ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، وتوفى بالقاهرة يوم الأثنين النصف من ربيع الأول سنة تسع وتسعين وخمسمائة.

وهى من مدارس الحنفية.

المدرسة البوبكرية

هذه المدرسة بجوار درب العباسى، قريباً من حارة الوزيرية، بالقاهرة.. بناها الأمير سيف الدين أسنبغا أبن الأمير سيف الدين بكتمر البوبكرى الناصرى، ووقفها على الفقهاء الحنفية، وبنى بجانبها حوض ماء للسبيل وسقاية ومكتباً للأيتام، وذلك فى سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة، وبنى قبالتها جامعاً فمات قبل إتمامه.

وكان يسكن دار بدر الدين الأمير طرنطاى المجاورة للمدرسة الحسامية، تجاه سوق الجوارى، فلذلك أنشأ هذه المدرسة بهذا المكان لقربه منه. ثم لما كانت سنة خمس عشرة وثمانمائة جدد بهذه المدرسة منبراً، وصار يقام بها الجمعة.

« أسنبغا » بن بكتمر الأمير . . . . . .

المدرسة البقرية

هذه المدرسة فى الزقاق الذى تجاه باب الجامع الحاكمى المجاور للمنبر، ويتوصل من هذا الزقاق إلى ناحية العطوف. بناها الرئيس شمس الدين شاكر بن غزيل (تصغير غزال)- المعروف بابن البقرى- أحد مسالمة القبط، وناظر الذخيرة أيام الملك الناصر الحسن بن محمد بن قلاوون. وهو خال الوزير الصاحب سعد الدين نصر الله بن البقرى.

وأصله من قرية تعرف بدار البقر، إحدى قرى الغربية، نشأ على دين النصارى، وعرف الحساب، وباشر الخراج. . . إلى أن أقدمه الأمير شرف الدين بن الأزكشى- أستادار السلطان، ومشير الدولة فى أيام الناصر حسن- فأسلم على يديه، وخاطبه بالقاضى شمس الدين، وخلع عليه، واستقر به فى نظر الذخيرة السلطانية- وكان نظرها حينئذ من الرتب الجليلة- وأضاف إليه نظر الأوقاف والأملاك السلطانية، ورتبة مستوفياً بمدرسة الناصر حسن.

فشكرت طريقته، وحمدت سيرته، وأظهر سيادة وحشمة، وقرب أهل العلم من الفقهاء، وتفضل بأنواع من البر. وأنشأ هذه المدرسة فى أبدع قالب وأبهج ترتيب، وجعل بها درساً للفقهاء الشافعية، وقرر فى تدريسها شيخنا سراج الدين عمر بن على الأنصارى- المعروف بأبن الملقن- الشافعى، ورتب فيها ميعاداً وجعل شيخه صاحبنا الشيخ كما الدين بن موسى الدميرى الشافعى، وجعل إمام الصلوات بها المقرئ الفاضل زين الدين أبا بكر بن الشهاب أحمد النحوى. وكان الناس يرحلون إليه فى شهر رمضان لسماع قراءته فى صلاة التراويح، لشجا صوته، وطيب نغمته، وحسن أدائه، ومعرفته بالقراءات السبع والعشر والشواذ.

ولم يزل ابن البقرى على حال السيادة والكرامة إلى أن مرض مرض موته، فأبعد عنه من يلوذ به من النصارى، وأحضر الكمال الدميرى وغيره من أهل الخير. فما زالوا عنده حتى

مات ـ وهو يشهد شهادة الإسلام ـ فى سنة ست وسبعين وسبعمائة ، ودفن بمدرسته هذه ، وقبره بها تحت قبة فى غاية الحسن ، وولى نظر الذخيرة بعده أبو غالب .

ثم استجد فى هذه المدرسة منبر ، وأقيمت بها الجمعة فى تاسع جمادى الأولى سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، بإشارة علم الدين داود الكويز كاتب السر .

المدرسة القبطية

هذه المدرسة بأول حارة زويلة ، مما يلى الخرنشف ، فى رحبة كوكاى . عرفت بالست الجليلة عصمة الدين خاتون مؤنسة القطبية ـ المعروفة بدار إقبال العلائى ـ ابنه السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب بن شادى . وكان وقفها فى سنة خمس وستمائة ، وبها درس للفقهاء الشافعية ، وتصدير قراءات وفقهاء يقرأون .

مدرسة أبن المغربى

هذه المدرسة آخر درب الصقالية ، فيما بين سويقة المسعودى وحارة زويلة . بناها صلاح الدين يوسف بن . . . . . ابن المغربى رئيس الأطباء تجاه داره ، ومات قبل إكمالها ، فدفن بعد موته فى قبة تجاه جامعه المطل على الخليج الناصرى بقرب بركة قرموط ، وصارت هذه المدرسة قائمةبغير إكمال . إلى أن هدمها بعض ذريته فى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، وباع أنقاضها ، فصار موضعها طاحونة .

المدرسة البيدرية

هذه المدرسة برحبة الأيدمرى، بالقرب من باب قصر الشوك، فيما بينه وبين المشهد الحسينى. بناها الأمير بيدر الأيدمرى.

المدرسة البديرية

هذه المدرسة بجوار باب سر المدرسة الصالحية النجمية. كان موضعها من جملة تربة القصر التى تقدم ذكرها، فنبش شخص من الناس - يعرف بناصر الدين محمد بن محمد بن بدير العباسى - ما هنالك من قبور الخلفاء، وأنشأ هذه المدرسة فى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، وعمل فيها درس فقه للفقهاء الشافعية، درس فيه شيخنا شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن نصير بن رسلان البلقينى، وهى مدرسة صغيرة لايكاد يصعد إليها أحد.

والعباسى هذا من قرية بطرف الرمل يقال لها العباسية. وله فى مدينة بلبيس مدرسة، وقد تلاشت بعدما كانت عامرة مليحة.

المدرسة الملكية

هذه المدرسة بخط المشهد الحسينى من القاهرة. بناها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار تجاه داره، وعمل فيها درساً للفقهاء الشافعية وخزانة كتب معتبرة، وجعل لها عدة أوقاف. وهى إلى الآن من المدارس المشهورة، وموضعها من جملة رحبة قصر الشوك، وقد تقدم ذكرها عند ذكر الرحاب من هذا الكتاب. ثم صار موضع هذه المدرسة دار تعرف بدار ابن كرمون، صهر الملك الصالح.

المدرسة الجمالية

هذه المدرسة بجوار درب راشد من القاهرة، على باب الزقاق المعروف قديماً بدرب سيف الدولة نادر. بناها الأمير الوزير علاء الدين مغلطاى الجمالى، وجعلها مدرسة للحنفية وخانقاه للصوفية.

وولى تدريسها ومشيخة التصرف بها: الشيخ علاء الدين على بن عثمان التركمانى الحنفى، وتداولها ابنه قاضى القضاة جمال الدين عبدالله التركمانى الحنفى، وابنه قاضى القضاة صدر الدين محمد بن عبدالله بن على التركمانى الحنفى، ثم قريبهم حميد الدين حماد، وهى الآن بيد ابن حميد الدين المذكور.

وكان شأن هذه المدرسة كبيراً. يسكنها أكابر فقهاء الحنفية، وتعد من أجل مدارس القاهرة، ولها عدة أوقاف بالقاهرة وظواهرها وفى البلاد الشامية. وقد تلاشى أمر هذه المدرسة لسوء ولاة أمرها وتخريبهم أوقافها، وتعطل منها حضور الدرس والتصوف، وصارت منزلاً يسكنه أخلاط ممن ينسب إلى اسم الفقه، وقرب الخراب منها، وكان بناؤها فى سنة ثلاثين وسبعمائة.

مغلطاى

بن عبدالله الجمالى: الأمير علاء الدين - عرف بخرز، وهى بالتركية عبارة عن الدين بالعربية - اشتراه الملك الناصر محمد بن قلاوون، ونقله وهو شاب من الجامكية إلى الامرة، على إقطاع الأمير صارم الدين إبراهيم الإبراهيمى، نقيب المماليك السلطانية - المعروف بزير الأمرة - فى صفر سنة ثمان عشرة وسبعمائة، وصار السلطان ينتدبه فى التوجه إلى المهمات الخاصة به، ويطلعه على سره.

ثم بعثه أمير الركب إلى الحجاز فى هذه السنة. فقبض على الشريف أسد الدين رميته ابن أبى نمى صاحب مكة، وأحضره إلى قلعة الجبل فى ثامن عشر المحرم سنة تسع عشرة وسبعمائة مع الركب. فأنكر عليه السلطان سرعة دخوله، لما أصاب الحاج من المشقة فى الإسراع بهم.

ثم أنه جعل أستادار السلطان، لما قبض على القاضى كريم الدين عبدالكريم أبن المعلم هبة الله ناظر الخواص، عند وصوله من دمشق بعد سفره إليها لإحضار شمس الدين غبريال. فيوم حضر خلع عليه، وجعل أستادارا عوضاً عن الأمير سيف الدين بكتمر العلائى، وذلك فى جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة.

ثم أضاف إليه الوزارة، وخلع عليه فى يوم الخميس ثامن رمضان سنة أربع وعشرين، عوضاً عن الصاحب أمين الملك عبدالله بن الغنام، بعدما استعفى من الوزارة واعتذر بأنه رجل غتمى، فلم يعفه السلطان، وقال: أنا أخلى من يباشر معك، ويعرفك ما تعمل. وطلب شمس الدين غبريال ناظر دمشق منها، وجعله ناظر الدولة رفيقاً للوزير الجمالى.

فرفعت قصة إلى السلطان، وهو فى القصر من القلعة، فيها الحط على السلطان بسبب تولية الجمالى الوزارة وألماس حاجباً، وأنه بسبب ذلك أضاع أوضاع المملكة وأهانها، وفرط فى أموال المسلمين والجيش، وأن هذا لم يفعله أحد من الملوك. . فقد وليت الحجابة لمن لايعرف يحكم، ولا يتكلم بالعربى، ولايعرف الأحكام الشرعية. ووليت الوزارة والأستادارية لشاب لايعرف يكتب اسمه، ولايعرف ما يقال له، ولايتصرف فى أمور المملكة، ولا فى الأموال الديوانية، إلا أرباب الأقلام، فإنهم يأكلون المال ويحيلون على الوزير.

فلما وقف السلطان عليها، أوقف عليها القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله - المعروف بالفخر ناظر الجيش - فقال: هذه ورقة الكتاب البطالين ممن انقطع رزقه وكثر حسده. وقرر مع السلطان أن يلزم الوزير ناظر الدولة وناظر الخواص بإحضار أوراق فى كل يوم تشتمل على أصل الحاصل، وما حمل فى ذلك اليوم من البلاد والجهات وما صرف، وأنه لايصرف لأحد شئ ألبته إلا بأمر السلطان وعلمه.

فلما حضر الوزير المالى، أنكر عليه السلطان، وقال له: إن الدواوين تلعب بك. وأمر فأحضر التاج إسحاق وغبريال ومجد الدين بن لعيبه، وقرر معهم أن يحضروا آخر كل يوم أوراقاً بالحاصل والمصروف، وقد فصلت بأسماء ما يحتاج إلى صرفه وإلى شرائه وبيعه. فصاروا يحضرون كل يوم الأوراق إلى السطان، وتقرأ عليه، فيصرف ما يختار، ويوقف ما يريد. ورسم أيضاً أن مال الجيزة كله يحمل إلى السلطان، ولايصرف منه شئ.

ثم لما كانت الفتنة بثغر الإسكندرية بين أهلها وبين الفرنج، وغضب السلطان على أهل الإسكندرية، بعث بالجمالى إليها. فسار من القاهرة فى أثناء رجب سنة سبع وعشرين وسبعمائة، ودخل إليها، فجلس بالخمس، وأستدعى بوجوه أهل البلد، وقبض على كثير من العامة، ووسط بعضهم، وقطع أيدى جماعة وأرجلهم، وصادر أرباب الأموال حتى لم يدع أحداً له ثروة حتى ألزمه بمال كثير. فباع الناس حتى ثياب نسائهم فى هذه المصادرة. وأخذ من التجار شيئاً كثيراً، مع ترفقه بالناس فيما يرد عليه من الكتب بسفك الدماء، وأخذ الأموال.

ثم أحضر العدد التى كانت بالثغر مرصدة برسم الجهاد، فبلغت ستة آلاف عدة، ووضعها فى حاصل، وختم عليه. وخرج من الإسكندرية بعد عشرين يوماً، وقد سفك دماء كثيرة، وأخذ منها مائتى ألف دينار للسلطان، وعاد إلى القاهرة، فلم يزل على حاله إلى أن صرف عن الوزارة فى يوم الأحد ثانى شوال سنة ثمان وعشرين. ورسم أن توفر وظيفة الوزارة من ولاية وزير، فلم يستقر أحد فى الوزارة، وبقى الجمالى على وظيفة الإستادارية.

وكان سبب عزله عن الوزارة توقف حال الدولة، وقلة الواصل إليها. فعمل عليه الفخر ناظر الجيش والتاج إسحاق، بسبب تقديمه لمحمد بن لعيبة، فإنه كان قد أستقر فى نظر الدولة والصحبة والبيوت، وتحكم فى الوزير وتسلم قياده. فكتبت مرافعات فى الوزير، وأنه أخذ مالاً كثيراً من مال الجيزة، فخرج الأمير أيتمش المجدى بالكشف عليه، وهم السلطان بإيقاع الحوطة به. فقام فى حقه الأمير بكتمر الساقى حتى عفى عنه، وقبض على كثير من الدواوين.

ثم إنه سافر إلى الحجاز، فلما عاد توفى بسطح عقبة آيلة، فى يوم الأحد سابع عشر المحرم سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، فصبر وحمل إلى القاهرة، ودفن بهذه الخانقاه فى يوم الخميس حادى عشرى المحرم المذكور، بعدما صلى عليه بالجامع الحاكمى. وولى السلطان بعده الأستادارية الأمير أقبغا عبدالواحد. وكان ينوب عن الجمالى فى الأستادارية ألطنقش مملوك الأفرم. . نقله إليها من ولاية الشرقية.

وكان الجمالى حسن الطباع، يميل إلى الخير مع كثرة الحشمة، ومما شكر عليه فى وزارته أنه لم يبخل على أحد بولاية مباشرة، وأنشأ ناساً كثيراً، وقصد من سائر الأعمال. وكان يقبل الهدايا ويحب التقادم، فحلت له الدنيا، وجمع منها شيئاً كثيراً. وكان إذا أخذ من أحد شيئاً على ولاية، لايعزله حتى يعرف أنه قد اكتسب قدر ما وزنه له ولو أكثر عليه فى السعى، فإذا عرف أنه أخذ ما غرمه، عزله وولى غيره، ولايعرف عنه أنه صادر أحداً، ولا اختلس مالاً. وكانت أيامه قليلة الشر، إلا أنه كان يعزل ويولى بالمال، فتزايد الناس فى المناصب، وكان له عقب بالقاهرة غير صالحين ولا مصلحين.

المدرسة الفارسية

هذه المدرسة بخط الفهادين، من أول العطوفية بالقاهرة، كان موضعها كنيسة تعرف بكنيسة الفهادين. فلما كانت واقعة النصارى فى سنة ست وخمسين وسبعمائة، هدمها الأمير فارس الدين البكى - قريب الأمير سيف الدين آل ملك الجوكندار - وبنى هذه المدرسة، ووقف عليها وقفاً يقوم بما تحتاج إليه.

المدرسة السابقية

هذه المدرسة داخل قصر الخلفاء الفاطميين، من جملة القصر الكبير الشرقى الذى كان داخل دار الخلافة، ويتوصل إلى هذه المدرسة الآن من تجاه حمام البيسرى بخط بين القصرين، وكان يتوصل إليها أيضاً من باب القصر - المعروف بباب الريح - من خط الركن المخلق، وموضعه الآن قيسارية الأمير جمال الدين يوسف الأستادار.

بنى هذه المدرسة الطواشى الأمير سابق الدين مثقال الأنوكى، مقدم المماليك السلطانية الأشرفية، وجعل بها درساً للفقهاء الشافعية . . . قرر فى تدريسه شيخنا شيخ الشيوخ سراج الدين عمر بن على الأنصارى، المعروف بابن الملقن الشافعى، وجعل فيها تصدير قراءات وخزانة كتب وكتابا يقرأ فيه أيتام المسلمين، وبنى بينها وبين داره - التى تعرف بقصر سابق الدين - حوض ماء للسبيل. هدمه الأمير جمال الدين يوسف الأستادار لما بنى داره المجاورة لهذه المدرسة.

وولى سابق الدين تقدمة المماليك، بعد الطواشى شرف الدين مختص الطغتمرى، فى صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة. ثم تنكر عليه الأمير يلبغا الخاصكى، القائم بدولة الملك الأشرف شعبان بن حسين، وضربه ستمائة عصا وسجنه، ونفاه إلى أسوان فى آخر شهر ربيع الأول سنة ثمان وستين. فلم يكن غير قليل حتى قتل الأمير يلبغا، فاستدعى الأشرف سابق الدين بن قوص، وصرف ظهير الدين مختاراً - المعروف بشاذروان - عن التقدمة، وأعادة إليها. فاستمر إلى أن مات سنة ست وسبعين وسبعمائة.

المدرسة القيسرانية

هذه المدرسة بجوار المدرسة الصاحبية، بسويقة الصاحب، فيما بينها وبين باب الخوخة. كانت دارا يسكنها القاضى الرئيس شمس الدين محمد بن إبراهيم القيسرانى، أحد موقعى

الدست بالقاهرة، فوقفها قبل موته مدرسة، وذلك فى ربيع سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، وتوفى سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة.

وكان حشماً كبير الهمة. سعى بالأمير سيف الدين بهادر الدمرداشى فى كتابة السر بالقاهرة، مكان علاء الدين على بن فضل الله العمرى، فلم يتم ذلك، ومات الأمير بهادر، فانحط جانبه. وكانت دنياه واسعة جداً، وله عدة مماليك يتوصل بهم إلى السعى فى أغراضه عند أمراء الدولة، وكان ينسب إلى شح كبير.

المدرسة الزمامية

هذه المدرسة بخط رأس البندقانيين من القاهرة، فيما بين البندقانيين وسويقة الصاحب. بناها الأمير الطواشى زين الدين مقبل الرومى، زمام الآدر الشريفة للسلطان الظاهر برقوق، فى سنة سبع وتسعين وسبعمائة، وجعل بها درساً وصوفية ومنبراً يخطب عليه فى كل جمعة.

وبينها وبين المدرسة الصاحبية دون مدى الصوت، فيسمع كل من صلى بالموضعين تكبير الآخر. وهذا وأنظاره بالقاهرة من شنيع ماحدث فى غير موضع، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم على إزالة هذه المبتدعات.

المدرسة الصغيرة

هذه المدرسة فيما بين البندقانيين وطواحين الملحيين، ويعرف خطها ببيت محب الدين ناظر الجيوش، ويعرف أيضاً بخط بين العواميد. بنتها الست أيدكين، زوجة الأمير سيف الدين بكجا الناصرى، فى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة.

مدرسة تربة أم الصالح

هذه المدرسة بجوار المدرسة الأشرفية، بالقرب من المشهد النفيسى فيما بين القاهرة ومصر، موضعها من جملة ما كان بستاناً. أنشأها الملك المنصور قلاوون على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعى، فى سنة اثنتين وثمانين وستمائة، برسم أم الملك الصالح علاء الدين على بن الملك المنصور قلاوون.

فلما كمل بناؤها، نزل إليها الملك المنصور ومعه ابنه الصالح على، وتصدق عند قبرها بمال جزيل، ورتب لها وقفاً حسناً على قراء وفقهاء وغير ذلك. وكانت وفاتها فى سادس عشر شوال سنة ثلاث وثمانين وستمائة.

مدرسة ابن عرام

هذه المدرسة بجوار جامع الأمير حسين، بحكر جوهر النوبى من بر الخليج الغربى، خارج القاهرة. أنشأها الأمير صلاح الدين خليل بن عرام، وكان من فضلاء الناس، تولى نيابة الإسكندرية، وكتب تاريخاً، وشارك فى علوم.

فلما قتل الأمير بركة بسجن الإسكندرية، ثارت مماليكه على الأمير الكبير برقوق حنقا لقتله. فأنكر الأمير برقوق قتله، وبعث الأمير يونس النوروزى دواداره لكشف ذلك، فنبش عنه قبره، فإذا فيه ضربات عدة إحداهن فى رأسه، فاتهم ابن عرام بقتله من غير إذن له فى ذلك. فأخرج بركة من قبره - وكان بثيابة من غير غسل ولا كفن - وغسله وكفنه.

وأحضر ابن عرام معه، فسجن بخزانة شمائل داخل باب زويلة من القاهرة، ثم عصر، وأخرج يوم الخميس خامس عشر رجب سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة من خزانة شمائل، وأمر به فسمر عريانا بعد ما ضرب عند باب القلة بالمقارع ستة وثمانين بحضرة الأمير قطلودمر الخازندار والأمير مامور حاجب الحجاب.

فلما أنزل من القلعة، وهو مسمر على الجمل، أنشد :

لك قلـــبى تحــله
فدمـــــى لـــم تحـله
لك من قلبـــى المكا
ن فلـــم لا تحـــــله
قال أن كنـــت مالكاً
فلـــى الأمـــر كـــله

وما هو إلا أن وقف بسوق الخيل تحت القلعة. وإذا بمماليك بركة قد أكبت عليه تضربه بسيوفها حتى تقطع قطعاً، وحز رأسه وعلق على باب زويلة، وتلاعبت أيديهم: فأخذ واحد أذنه، وأخذ واحد رجله، واشترى آخر قطعة من لحمة ولاكها. ثم جمع ما وجد منه، ودفن بمدرسته هذه.

فقال فى ذلك صاحبنا الأديب شهاب الدين أحمد بن العطار :

بدت أجزاء عرام خليـــل
مقطعة من الضرب الثقيل
وأبدت أبحر الشعر المراثى
محــــررة بتقطيع الخليل

المدرسة المحمودية

هذه المدرسة بخط الموازنيين، خارج باب زويلة تجاه دار القردمية، يشبه أن موضعها كان فى القديم من جملة الحارة التى كانت تعرف بالمنصورية. أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن على الأستادار فى سنة سبع وتسعين وسبعمائة، ورتب بها درساً، وعمل فيها خزانة كتب لايعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها، وهى باقية إلى اليوم، لايخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون فى المدرسة، وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كل فن. وهذه المدرسة من أحسن مدارس مصر.

ابن على بن أصفر عينه : الأمير جمال الدين الأستادار . ولى شد باب رشيد بالإسكندرية مدة ، وكانت وقعة الفرنج بها فى سنة سبع وستين وسبعمائة وهو مشد ، فيقال إن ماله الذى وجد له حصله يومئذ ، ثم إنه سار إلى القاهرة .

فلما كانت أيام الظاهر برقوق ، خدم أستادارا عند الأمير سودون باق ، ثم استقر شاد الدواوين إلى أن مات الأمير بهادر المنجكى أستادار السلطان ، فاستقر عوضاً عنه فى وظيفة الأستادارية يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة سنة تسعين وسبعمائة ، ثم خلع عليه فى يوم الخميس خامسه ، واستقر مشير الدولة . فصار يتحدث فى دواوين السلطنة الثلاثة ، وهى : الديوان المفرد . الذى يتحدث فيه الأستادار ، وديوان الوزارة ويعرف بالدولة ، وديوان الخاص المتعلق بنظر الخواص . وعظم أمره ، ونفذت كلمته لتصرفه فى سائر أمور المملكة .

فلما زالت دولة الملك الظاهر برقوق بحضور الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب ، فى يوم الإثنين خامس جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، بعساكر الشام إلى القاهرة واختفى الظاهر ، ثم أمسكه . . . هرب هو وولده ، فنهبت دوره .

ثم إنه ظهر من الاستتار فى يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة ، وقدم للأمير يلبغا الناصرى مالاً كثيراً ، فقبض عليه ، وقيده ، وسجنه بقلعة الجبل . وأقيم بدله فى الأستادارية الأمير علاء الدين أقبغا الجوهرى .

فلما زالت دولة يلبغا الناصرى بقيام الأمير منطاش عليه ، قبض على أقبغا الجوهرى فيمن قبض عليه من الأمراء ، وأفرج عن الأمير محمود فى يوم الأثنين ثامن شهر رمضان ، وألبسه قباء مطرزاً بذهب ، وأنزله إلى داره . ثم قبض عليه ، وسجن بخزانة الخاص فى يوم الأحد سادس عشر ذى الحجة ، فى عدة من الأمراء والمماليك ، عند عزم منطاش على السفر لحرب برقوق عند خروجه من الكرك ، ومسيره إلى دمشق . فكانت جملة ما حمله الأمير محمود من الذهب العين ، للأمير يلبغا الناصرى وللأمير منطاش ، ثمانية وخمسين قنطاراً من الذهب المصرى ، منها ثمانية عشر قنطاراً فى ليلة واحدة .

فلم يزل في الاعتقال إلى أن خرج المماليك مع الأمير بوطا، في ليلة الخميس ثاني صفر سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة، فخرج معهم، وأقام بمنزلة . . . إلى أن عاد الملك الظاهر برقوق إلى المملكة في رابع عشر صفر، فخلع عليه، واستقر أستادار السلطان على عادته، في يوم الإثنين تاسع عشري جمادى الأولى من السنة المذكورة، عوضاً عن الأمير قرقماش الطشتمري بعد وفاته. ثم خلع على ولده الأمير ناصر الدين محمد بن محمود في يوم الخميس ثاني عشري صفر سنة أربع وتسعين وسبعمائة، واستقر نائب السلطنة بثغر الإسكندرية عوضاً عن الأمير ألطنبغا المعلم.

فقويت حرمة الأمير محمود، ونفذت كلمته . . . إلى يوم الإثنين حادي عشر رجب من السنة المذكورة. فثار عليه المماليك السلطانية بسبب تأخر كسوتهم، ورموه من أعلى القلعة بالحجارة، وأحاطوا به وضربوه يريدون قتله. لولا أن الله أغاثه بوصول الخبر إلى الأمير الكبير أيتمش - وكان يسكن قريباً من القلعة - فركب بنفسه، وساق حتى أدركه، وفرق عنه المماليك، وسار به إلى منزلة حتى سكنت الفتنة، ثم شيعه إلى داره.

فكانت هذه الواقعة مبدأ انحلال أمره. فإن السلطان صرفه عن الأستادارية، وولى الأمير الوزير ركن الدين عمر بن قايماز في يوم الخميس رابع عشره، وخلع على الأمير محمود قباء بطرز ذهب، واستقر على إمرته. ثم صرف ابن قايماز عن الأستادارية، وأعيد محمود في يوم الإثنين خامس عشر رمضان، وأنعم على أبن قايماز بأمره طبلخاناة، فجدد بثغر الإسكندرية دار ضرب عمل فيها فلوس ناقصة الوزن، ومن حينئذ اختل حال الفلوس بديار مصر.

ثم لما خرج الملك الظاهر إلى البلاد الشامية في سنة ست وتسعين، سار في ركابه، ثم حضر إلى القاهرة في يوم الأربعاء سابع صفر سنة سبع وتسعين وسبعمائة، قبل حضور السلطان، وكان دخوله يوماً مشهوداً. فلما عاد السلطان إلى قلعة الجبل، حدث منه تغير على الأمير محمود في يوم السبت ثالث عشري ربيع الأول، وهم بالإيقاع به.

فلما صار إلى داره، بعث إليه الأمير علاء الدين على بن الطبلاوي يطلب منه خمسمائة ألف دينار، وإن توقف يحيط به ويضربه بالمقارع، فنزل إليه، وقرر الحال على مائة وخمسين

ألف دينار . فطلع على العادة إلى القلعة فى يوم الإثنين خامس عشرية ، فسبه المماليك السلطانية ورجموه ، ثم إن السلطان غضب عليه ، وضربه فى يوم الإثنين ثالث ربيع الآخر بسبب تأخر النفقة ، وأخذ أمره ينحل .

فولى السلطان الأمير صلاح الدين محمد ابن الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير تنكز أستادارية الأملاك السلطانية فى يوم الإثنين خامس رجب ، وولى علاء الدين على بن الطبلاوى فى رمضان التحدث فى دار الضرب بالقاهرة والإسكندرية ، والتحدث فى المتجر السلطانى . فوقع بينه وبين الأمير محمود كلام كثير ، ورافعه ابن الطبلاوى بحضرة السلطان ، وخرج عليه من دار الضرب ستة آلاف درهم فضة .

فألزم السلطان محموداً بحمل مائة وخمسين ألف دينار فحملها ، وخلع عليه عند تكميله حملها فى يوم الأحد تاسع عشرى رمضان ، وخلع أيضاً على ولده الأمير ناصر الدين ، وعلى كاتبه سعد الدين إبراهيم بن غراب الإسكندرانى ، وعلى الأمير علاء الدين على ابن الطبلاوى . ثم أن محموداً وعك بدنه ، فنزل إليه السلطان فى يوم الإثنين ثالث عشرى ذى القعدة يعوده ، فقدم له عدة تقادم ، قبل بعضها ورد بعضها ، وتحدث الناس أنه استقلها .

فلما كان يوم السبت سادس صفر سنة ثمان وتسعين ، بعث السلطان إلى الأمير محمود الطواشى شاهين الحسنى ، فأخذ زوجتيه وكاتبه سعد الدين إبراهيم بن غراب ، وأخذ مالاً وقماشاً على حمالين وصار بهما إلى القلعة . . . هذا ومحمود مريض لازم الفراش . ثم عاد من يومه وأخذ الأمير ناصر الدين محمد بن محمود ، وحمله إلى القلعة .

ثم نزل أبن غراب ومعه الأمير إلى باى الخازندار فى يوم الأحد سابعة ، وأخذا من ذخيرة بدار محمود خمسين ألف دينار . وفى يوم الخميس حادى عشره ، صرف محمود عن الأستادارية ، واستقر عوضه الأمير سيف الدين قطلوبك العلائى أستادار الأمير الكبير أيتمش ، وقرر سعد الدين بن غراب ناظر الديوان المفرد ، فاجتمع مع ابن الطبلاوى على عداوة محمود والسعى فى إهلاكه ، وسلم ابن محمود إلى ابن الطبلاوى فى تاسع عشر ربيع الأول ليستخلص منه مائة ألف دينار .

ونزل الطواشي صندل المنجكي والطواشي شاهين الحسني في ثالث عشريه ومعهما ابن الطبلاوي، فأخذا من خربة خلف مدرسة محمود زيرين كبيرين وخمسة أزيار صغاراً وجد فيها ألف ألف درهم فضة، فحملت إلى القلعة، ووجد أيضاً بهذه الخربة جرتان: في أحداهما ستة آلاف دينار، وفي الأخرى أربعة آلاف درهم فضة وخمسمائة درهم. وقبض على مباشري محمود ومباشري ولده، وعوقب محمود.

ثم أوقعت الحوطة على موجود محمود في يوم الخميس سابع جمادى الأولى، ورسم عليه ابن الطبلاوي في داره، وأخذ مماليكه وأتباعه، ولم يدع عنده غير ثلاثة مماليك صغيار، وظهرت أموال محمود شيئاً بعد شيء. ثم سلم إلى الأمير فرج شاد الدواوين في خامس جمادى الآخرة، فنقله إلى داره وعاقبه وعصره في ليلته، ثم نقل في شعبان إلى دار ابن الطبلاوي، فضربه وسعطه وعصره، فلم يعترف بشيء.

وحكى عنه أنه قال: لو عرفت أني أعاقب ما اعترفت بشيء من المال، وظهر منه في هذه المحنة ثبات وجلد وصبر، مع قوة نفس وعدم خضوع، حتى إنه كان يسب ابن الطبلاوي إذا دخل إليه، ولايرفع له قدراً. ثم إن السلطان استدعاه إلى ما بين يديه يوم السبت أول صفر سنة تسع وتسعين، وحضر سعد الدين بن غراب، فشافهه بكل سوء، ورافعه في وجهه حتى استغضب السلطان على محمود وأمر بمعاقبته حتى يموت.

فأنزل إلى بيت الأمير حسام الدين حسين، ابن أخت ألفرس شاد الدواوين - وكان أستادار محمود - فلم يزل عنده في العقوبة. إلى أن نقل من داره إلى خزانة شمائل في ليلة الجمعة ثالث جمادى الأولى، وهو مريض، فمات بها في ليلة تاسع رجب سنة تسع وتسعين وسبعمائة، ودفن من الغد بمدرسته، وقد أناف على الستين سنة.

وكان كثير الصلاة والعبادة، مواظباً على قيام الليل. إلا أنه كان شحيحاً مسيكاً، شرها في الأموال، رمى الناس منه في رماية البضائع بدواه، إذا نسبت إلى ما حدث من بعده كانت عاقبة ونعمة، وأكثر من ضرب الفلوس بديار مصر حتى فسد بكثرتها حال إقليم مصر.

وكان جملة ما حمل من ماله، بعد نكبته هذه، مائة قنطار ذهباً وأربعين قنطاراً: عنها ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار عيناً، وألف ألف درهم فضة. وأخذ له من البضائع والغلال والقنود والأعسال ما قيمته ألف ألف درهم وأكثر.

المدرسة المهذبية

هذه المدرسة بحارة حلب، خارج القاهرة، عند حمام قمارى. بناها الحكيم مهذب الدين محمد بن أبى الوحش - المعروف بابن أبى حليقة (تصغير حلقة) - رئيس الأطباء بديار مصر. ولى رياسة الأطباء فى حادى عشر رمضان سنة أربع وثمانين وستمائة، واستقر مدرس الطب بالمارستان المنصورى.

المدرسة السعدية

هذه المدرسة خارج القاهرة بقرب حدرة البقر، على الشارع المسلوك فيه من حوض ابن هنس إلى الصليبية، وهى فيما بين قلعة الجبل وبركة الفيل. كان موضعها يعرف بخط بستان سيف الإسلام، وهى الآن فى ظهر بيت قوصون المقابل لباب السلسلة من قلعة الجبل. بناها الأمير شمس الدين سنقر السعدى، نقيب المماليك السلطانية، فى سنة خمس عشرة وسبعمائة، وبنى بها أيضاً رباطاً للنساء.

وكان شديد الرغبة فى العمائر، محباً للزراعة، كثير المال، ظاهر الغنى. وهو الذى عمر القرية، التى تعرف اليوم بالنحريرية، من أعمال الغربية - وكانت إقطاعه - ثم إنه أخرج من مصر بسبب نزاع وقع بينه وبين الأمير قوصون فى أرض أخذها منه، فسار إلى طرابلس، وبها مات فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

المدرسة الطفجية

هذه المدرسة بخط حدرة البقر أيضاً. أنشأها الأمير سيف الدين طفجى الأشرفى، ولها وقف جيد.

طفجى

الأمير سيف الدين: كان من جملة مماليك الملك الأشرف خليل بن قلاوون. ترقى فى خدمته حتى صار من جملة أمراء ديار مصر. فلما قتل الملك الأشرف، قام طفجى فى المماليك الأشرفية، وحارب الأمير بيدرا، المتولى لقتل الأشرف، حتى أخذه وقتله.

فلما أقيم الملك الناصر محمد بن قلاوون فى المملكة، بعد قتل بيدرا، صار طفجى من أكابر الأمراء، واستمر على ذلك بعد خلع الملك الناصر بكتبغا مدة أيامة. إلى أن خلع الملك العادل كتبغا، وقام فى سلطنة مصر الملك المنصور لاجين، وولى مملوكة الأمير سيف الدين منكوتمر نيابة السلطنة بديار مصر، فأخذ يواحش أمراء الدولة بسوء تصرفه.

وأتفق أن طفجى حج فى سنة سبع وتسعين وستمائة، فقرر منكوتمر مع المنصور أنه إذا قدم من الحج يخرجه إلى طرابلس، ويقبض على أخيه الأمير سيف الدين كرجى. فعندما قدم طفجى من الحجاز، فى صفر سنة ثمان وتسعين وستمائة، رسم له بنيابة طرابلس، فثقل عليه ذلك، وسعى بإخوته الأشرفية حتى أعفاه السلطان من السفر.

فسخط منكوتمر، وأبى ألا سفر طفجى، وبعث إليه يلزمه بالسفر. وكان لاجين منقاداً لمنكوتمر لايخالفه فى شئ. فتواعد طفجى وكرجى مع جماعة من المماليك، وقتلوا لاجين. وتولى قتله كرجى وخرج، فإذا طفجى فى انتظاره على باب القلة من قلعة الجبل، فسر بذلك، وأمر بإحضار من بالقلعة من الأمراء. وكانوا حينئذ يبيتون بالقلعة دائماً. وقتل منكوتمر فى تلك الليلة، وعزم على أنه يتسلطن، ويقيم كرجى فى نيابة السلطنة، فخذله الأمــراء.

وكان الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح قد خرج فى غزاة وقرب حضوره، فاستمهلوه بما يريد إلى أن يحضر، فأخر سلطنته، وبقى الأمراء فى كل يوم يحضرون معه فى باب القلة، ويجلس فى مجلس النيابة والأمراء عن يمينه وشماله، ويمد سماط السلطان بين يديه. فلما حضر أمير سلاح بمن معه من الأمراء، نزل طفجى والأمراء إلى لقائهم بعدما امتنع امتناعاً كثيراً، وترك كرجى يحفظ القلعة بمن معه من المماليك الأشرفية، وقد نوى طفجى الشر للأمراء الذين قد خرج إلى لقائهم، وعرف ذلك الأمراء المقيمون عنده فى القلعة، فاستعدوا له، وسار هو والأمراء إلى أن لقوا الأمير بكتاش، ومعه من الأشرفية أربعمائة فارس تحفظه حتى يعود من اللقاء إلى القلعة.

فعندما وافاة بقية النصر وتعانقا، أعلمه بقتل السلطان، فشق عليه. وللوقت جرد الأمراء سيوفهم، وارتفعت الضجة، فساق طفجى من الحلقة والأمراء وراءه إلى أن أدركه قراقوش الظاهرى، وضربه بسيف ألقاه عن فرسه إلى الأرض ميتا، ففر كرجى، ثم أخذ وقتل، وحمل طفجى فى مزبلة من مزابل الحمامات على حمار إلى مدرسته هذه، فدفن بها، وقبره هناك إلى اليوم.

وكان قتله فى يوم الخميس سادس عشر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وستمائة، بعد خمسة أيام من قتل لاجين ومنكوتمر.

المدرسة الجاولية

هذه المدرسة بجوار الكبش، فيما بين القاهرة ومصر. أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى، فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، وعمل بها درساً وصوفية، ولها إلى هذه الأيام عدة أوقاف.

ســـــنجر

ابن عبدالله : الأمير علم الدين الجاولى . كان مملوك جاولى ، أحد أمراء الملك الظاهر بيبرس ، وانتقل بعد موت الأمير جاولى إلى بيت قلاوون ، وخرج فى أيام الأشرف خليل بن قلاوون إلى الكرك ، واستقر فى جملة البحرية بها إلى أيام العادل كتبغا ، فحضر من عند نائب الكرك ، ومعه حوائجخاناه فرفعه كتبغا ، وأقامه على الخوشخاناه السلطانية . وصحب الأمير سلار وواخاه ، فتقدم فى الخدمة ، وبقى إستادارا صغيراً فى أيام بيبرس وسلار ، فصار يدخل على السلطان الملك الناصر ويخرج ، ويراعى مصالحه فى أمر الطعام ، ويتقرب إليه ،

فلما حضر من الكرك ، جهزه إلى غزه نائباً فى جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وسبعمائة ، عوضاً عن الأمير سيف الدين قطلو أقتمر عبدالخالق بعد إمساكه ، وأضاف إليه مع غزة الساحل والقدس وبلد الخليل وجبل نابلس ، وأعطاه إقطاعاً كبيراً ، بحيث كان للواحد من مماليكه إقطاع يعمل عشرين ألفاً وخمسة وعشرين ألفاً .

وعمل نيابة غزة على القالب الجائر . . . إلى أن وقعت بينه وبين الأمير تنكز ، نائب الشام ، بسبب دار كانت له تجاه جامع تنكز خارج دمشق من شمالها ، أراد تنكز أن يبتاعها منه ، فأبى عليه . فكتب فيه إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فأمسكه فى ثامن عشرى شعبان سنة عشرين وسبعمائة ، واعتقله نحوا من ثمان سنين ، ثم أفرج عنه فى سنة تسع وعشرين ، وأعطاه إمرة أربعين . ثم بعد مدة أعطاه إمرة مائة ، وقدمه على ألف ، وجعله من أمراء المشورة .

فلم يزل على هذا إلى أن مات الملك الناصر ، فتولى غسله ودفنه . فلما ولى الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون سلطنة مصر ، أخرجه إلى نيابة حماة ، فأقام بها مدة ثلاثة أشهر . ثم نقله إلى نيابة غزة ، فحضر إليها ، وأقام بها نحو ثلاثة أشهر أيضاً . ثم أحضره إلى القاهرة ، وقرره على ما كان عليه ، وولى نظر المارستان بعد نائب الكرك عندما أخرج إلى نيابة طرابلس . ثم توجه لحصار الناصر احمد بن محمد بن قلاوون ، وهو ممتنع فى الكرك ، فأشرف عليه فى بعض الأيام الناصر أحمد من قلعة الكرك ، وسبه وشيخه .

فقال له الجاولى : نعم أنا شيخ نحس، ولكن الساعة ترى حالك مع الشيخ النحس. ونقل المنجنيق إلى مكان يعرفه، ورمى به، فلم يخطئ القلعة، وهدم منها جانباً، وطلع بالعسكر وأمسك أحمد، وذبحة صبراً، وبعث برأسه إلى الصالح إسماعيل، وعاد إلى مصر. فلم يزل على حاله إلى أن مات فى منزله بالكبش، يوم الخميس تاسع رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة، ودفن بمدرسته. وكانت جنازته حافلة إلى الغاية.

قد سمع الحديث وروى، وصنف شرحاً كبيراً على مسند الشافعى رحمه الله، وأفتى فى آخر عمره على مذهب الشافعى، وكتب خطه على فتاوى عديدة.

وكان خبيراً بالأمور، عارفاً بسياسة الملك، كفواً لما وليه من النيابات وغيرها.. لايزال يذكر أصحابه فى غيبتهم عنه، ويكرمهم إذا حضروا عنده، وانتفع به جماعة من الكتاب والعلماء والأكابر. وله من الآثار الجميلة الفاضلة جامع بمدينة غزة فى غاية الحسن، وله بها أيضاً حمام مليح، ومدرسة للفقهاء الشافعية، وخان للسبيل.

وهو الذى مدن غزة، وبنى بها أيضاً مارستانا، ووقف عليه عن الملك الناصر أوقافاً جليلة، وجعل نظره لنواب غزة، وعمر بها أيضاً الميدان والقصر، وبنى ببلد الخليل عليه السلام جامعاً سقفه منه حجر نقر، وعمل الخان العظيم بقاقون، والخان بقرية الكثيب، والقناطر بغابة أرسوف، وخان رسلان فى حمراء بيسان، ودارا بالقرب من باب النصر داخل القاهرة، ودارا بجوار مدرسته على الكبش. وسائر عمائره ظريفة أنيقة، محكمة متقنة مليحة. وكان ينتمى إلى الأمير سلار ويجل ذكره.

المدرسة الفارقانية

هذه المدرسة خارج باب زويلة من القاهرة، فيما بين حدرة البقر وصليبة جامع ابن طولون، وهى الآن بجوار حمام الفارقانى تجاه البندقدارية. بناها والحمام المجاور لها الأمير ركن الدين بيبرس الفارقانى. وهو غير الفارقانى المنسوب إليه المدرسة الفارقانية بحارة الوزيرية من القاهرة.

المدرسة البشيرية

هذه المدرسة خارج القاهرة، بحكر الخازن المطل على بركة الفيل، كان موضعها مسجداً يعرف بمسجد سنقر السعدى الذى بنى المدرسة السعدية. فهدمه الأمير الطواشى سعد الدين بشير الجمدار الناصرى، وبنى موضعه هذه المدرسة فى سنة إحدى وستين وسبعمائة، وجعل بها خزانة كتب، وهى من المدارس اللطيفة.

المدرسة المهمندارية

هذه المدرسة خارج باب زويلة، فيما بين جامع الصالح وقلعة الجبل، يعرف خطها اليوم بخط جامع الماردانى خارج الدرب الأحمر. وهى تجاه مصلى الأموات، على يمنه من سلك من الدرب الأحمر طالباً جامع الماردانى، ولها باب آخر فى حارة اليانسية.

بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزى، المهمندار ونقيب الجيوش، فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة، وجعلها مدرسة وخانقاه، وجعل طلبة درسها من الفقهاء الحنفية، وبنى إلى جانبها القيسارية والربع الموجودين الآن.

مدرسة الجاى

هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل. كان موضعها وما حولها مقبرة، ويعرف الآن خطها بخط سويقة العزى. أنشأها الأمير الكبير سيف الدين الجاى فى سنة ثمان وستين وسبعمائة، وجعل بها درساً للفقهاء الشافعية، ودرساً للفقهاء الحنفية وخزانة كتب، وأقام بها منبراً يخطب عليه يوم الجمعة. وهى من المدارس المعتبرة الجليلة، ودرس بها شيخنا جلال الدين البنانى الحنفى، وكانت سكنه.

الجـــاى

ابن عبدالله اليوسفى : الأمير سيف الدين . تنقل فى الخدم حتى صار من جملة الأمراء بديار مصر . فلما أقام الأمير الأستدمر الناصرى بأمر الدولة ، بعد قتل الأمير يلبغا الخاصكى العمرى ، فى شوال سنة ثمان وستين وسبعمائة ، قبض على الجاى فى عدة من الأمراء ، وقيدهم ، وبعث بهم إلى الإسكندرية ، فسجنوا إلى عاشر صفر سنة تسع وستين .

فأفرج الملك الأشرف شعبان بن حسين عنه ، وأعطاه إمرة مائة وتقدمة ألف ، وجعله أمير سلاح برانى . ثم جعله أمير سلاح أتابك العساكر ، وناظر المارستان المنصورى ، عوضاً عن الأمير منكلى بغا الشمسى ، فى سنة أربع وسبعين وسبعمائة . وتزوج بخوند بركة أم السلطان الملك الأشرف ، فعظم قدره ، واشتهر ذكره ، وتحكم فى الدولة تحكماً زائداً إلى يوم الثلاثاء سادس المحرم سنة خمس وسبعين وسبعمائة . فركب يريد محاربة السلطان بسبب طلبه ميراث أم السلطان بعد موتها ، فركب السلطان وأمراؤه .

وبات الفريقان ليلة الأربعاء على الاستعداد للقتال إلى بكرة نهار الأربعاء ، فواقع الجاى مع أمراء السلطان إحدى عشرة وقعه ، انكسر فى آخرها الجاى ، وفر إلى جهة بركة الحبش ، وصعد من الجبل من عند الجبل الأحمر إلى قبة النصر ، ووقف هناك . فاشتد على السطان ، فبعث إليه خلعه بنيابة حماه ، فقال : لا أتوجه إلا ومعى مماليكى كلهم ، وجميع أموالى ، فلم يوافقه السلطان على ذلك ، وبات الفريقان على الحرب ، فانسَّل أكثر مماليك الجاى فى الليل إلى السلطان .

وعندما طلع النهار يوم الخميس ، بعث السلطان عساكره لمحاربة الجاى بقبة النصر ، فلم يقاتلهم ، وولى منهزماً ـ والطلب وراءه ـ إلى ناحية الخرقانية بشاطئ النيل قريباً من قليوب . فتحير وقد أدركه العسكر ، فألقى نفسه بفرسه فى البحر يريد النجاة إلى البر الغربى ، فغرق بفرسه ، ثم خلص الفرس وهلك الجاى ، فوقع النداء بالقاهرة وظواهرها على إحضار مماليكه ، فأمسك منهم جماعة .

وبعث السلطان الغطاسين إلى البحر تتطلبه، فتبعوه حتى أخرجوه إلى البر فى يوم الجمعة تاسع المحرم سنة خمس وسبعين وسبعمائة. فحمل فى تابوت على لباد أحمر إلى مدرسته هذه، وغسل وكفن ودفن بها. وكان مهاباً جباراً عسوفاً عتياً، تحدث فى الأوقاف، فشدد على الفقهاء، وأهان جماعة منهم. وكان معروفاً بالإقدام والشجاعة.

مدرسة أم السلطان

هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل، يعرف خطها الآن بالتبانة، وموضعها كان قديماً مقبرة لأهل القاهرة. أنشأتها الست الجليلة الكبرى بركة، أم السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين، فى سنة إحدى وسبعين وسبعمائة، وعملت بها درساً للشافعية ودرساً للحنفية، وعلى بابها حوض ماء للسبيل. وهى من المدارس الجليلة، وفيها دفن ابنها الملك الأشرف بعد قتله.

بركـــــة

الست الجليلة خوند، أم الملك الأشرف شعبان بن حسين، كانت أمة مولدة. فلما أقيم ابنها فى مملكة مصر، عظم شأنها، وحجت فى سنة سبعين وسبعمائة بتجمل كثير وبرج زائد، وعلى محفتها العصائب السلطانية والكئوسات تدق معها. وسار فى خدمتها من الأمراء المقدمين: بشتاك العمرى رأس نوبة، وبهادر الجمالى، ومائة مملوك من المماليك السلطانية أرباب الوظائف. ومن جملة ما كان معها قطار جمال محملة محائر، قد زرع فيها البقل والخضروات إلى غير ذلك مما يجلّ وصفه.

فلما عادت فى سنة إحدى وسبعين وسبعمائة، خرج السلطان بعساكره إلى لقائها، وسار إلى البويب فى سادس عشر المحرم، وتزوجت بالأمير الكبير الجاى اليوسفى، وبها طال واستطال. وماتت فى ثامن عشرى ذى القعدة سنة أربع وسبعين وسبعمائة.

وكانت خيرة عفيفة، لها بر كثير ومعروف معروف، تحدث الناس بحجتها عدة سنين، لما كان لها من الأفعال الجميلة فى تلك المشاهد الكريمة، وكان لها اعتقاد فى أهل الخير، ومحبة فى الصالحين، وقبرها موجود بقبة هذه المدرسة. وأسف السلطان على فقدها، ووجد وجدا كبيراً لكثرة حبه لها.

واتفق أنها لما ماتت أنشد الأديب شهاب الدين أحمد بن يحيى الأعرج السعدى:

فى ثامن العشرين من ذى قعدة

كانت صبيحة مـــوت أم الأشرف

فالله يرحمها ويعظم أجـــــره

ويكون فى عاشور موت اليوسفى

فكان كما قال. وغرق الجاى اليوسفى، كما تقدم ذكره، فى يوم عاشوراء.

المدرسة الأيتمشية

هذه المدرسة خارج القاهرة، داخل باب الوزير، تحت قلعة الجبل برأس التبانة. أنشأها الأمير الكبير سيف الدين أيتمش البجاسى، ثم الظاهرى، فى سنة خمس وثمانين وسبعمائة، وجعل بها درس فقه للحنفية، وبنى بجانبها فندقاً كبيراً يعلوه ربع، ومن ورائها خارج باب الوزير حوض ماء للسبيل وربعاً، وهى مدرسة ظريفة.

أيتمش

ابن عبدالله : الأمير الكبير سيف الدين البجاسى ، ثم الظاهرى ، كان أحد المماليك البلبغارية .

المدرسة المجدية الخليلية

هذه المدرسة بمصر يعرف موضعها بدرب البلاد . عمرها الشيخ الإمام مجد الدين أبو محمد عبدالعزيز ابن الشيخ الإمام أمين الدين أبى على الحسين بن الحسن بن إبراهيم الخليلى الدارى ، فتمت فى شهر ذى الحجة سنة ثلاث وستين وستمائة ، وقرر فيها مدرساً شافعياً ومعيدين وعشرين نفراً طلبة ، وإماماً راتباً ومؤدنا ، وقيماً لكنسها وفرشها ووقود مصابيحها وإدارة ساقيتها ، وأجرى الماء إلى فسقيتها .

ووقف عليها غيطاً بناحية بارنبار من أعمال المزاحميتين ، وبستاناً بمحلة الأمير من المزاحميتين بالغربية ، وغيطا بناحية نطوبس ، وربع غيط بظاهر ثغر رشيد ، وبستاناً ونصف بستان بناحية بلقس ، ورباعاً بمدينة مصر .

ومجد الدين هدا هو والد الصاحب الوزير فخر الدين عمر بن الخليلى . ودرس بهذه المدرسة الصاحب فخر الدين إلى حين وفاته ، وتوفى مجد الدين بدمشق فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة ثمانين وستمائة ، وكان مشهوراً بالصلاح .

المدرسة الناصرية بالقرافة

هذه المدرسة بجوار قبة الإمام محمد بن إدريس الشافعى، رضى الله عنه، من قرافة مصر. أنشأها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ورتب بها مدرساً يدرس الفقه على مذهب الشافعى، وجعل له فى كل شهر من المعلوم عن التدريس أربعين ديناراً معاملة صرف: كل دينار ثلاثة عشر درهماً وثلث درهم، وعن معلوم النظر فى أوقاف المدرسة عشرة دنانير، ورتب له من الخبز فى كل يوم ستين رطلاً بالمصرى، وراويتين من ماء النيل، وجعل فيها معيدين وعدة من الطلبة.

ووقف عليها حماماً بجوارها، وفرنا تجاهها، وحوانيت بظاهرها، والجزيرة التى يقال لها جزيرة الفيل ببحر النيل خارج القاهرة.

وولى تدريسها جماعة من الأكابر والأعيان ثم خلت من مدرس ثلاثين سنة، وأكتفى فيها بالمعيدين وهم عشرة أنفس. فلما كانت سنة ثمان وسبعين وستمائة، ولى تدريسها قاضى القضاة تقى الدين محمد بن رزين الحموى بعد عزله من وظيفة القضاء، وقرر له نصف المعلوم. فلما مات وليها الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد بربع المعلوم. فلما ولى الصاحب برهان الدين الخضر السنجارى التدريس، قرر له المعلوم الشاهد به كتاب الوقف.

المدرسة المسلمية

هذه المدرسة بمدينة مصر فى خلط السيوريين. أنشأها كبير التجار ناصر الدين محمد بن مسلم - بضم الميم وفتح السين المهملة وتشديد اللام - البالسى الأصل، أبن بنت كبير التجار شمس الدين محمد بن بسير - بفتح الباء أول الحروف وكسر السين المهملة، ثم ياء آخر الحروف بعدها راء - ومات فى سنة ست وسبعين وسبعمائة قبل أن تتم.

فوصى بتكملتها، وأفرد لها مالاً، ووقف عليها دوراً وأرضا بناحية قليوب، وشرط أن يكون فيها مدرس مالكى ومدرس شافعى ومؤدب أطفال وغير ذلك. فكملها مولاه ووصيه الكبير كافور الخصى الرومى بعد وفاة أستاذه. وهى الآن عامرة.

وبلغ أبن مسلم هذا من وفور المال وعظم السعادة، ما لم يبلغه أحد ممن أدركناه، بحيث إنه جاء نصيب أحد أولاده نحو مائتى ألف دينار مصرية، وكان كثير الصدقات على الفقراء، مقترا على نفسه إلى الغاية، وله أيضاً مطهره عظيمة بالقرب من جامع عمرو بن العاص ونفعها كبير، وله أيضاً دار جليلة على ساحل النيل بمصر. وكان أبوه تاجراً سفاراً بعدما كان حمالاً، فصاهر ابن بسير، ورزق محمداً هذا من أبنته.

فنشأ على صيانة، ورزق الحظ الوافر فى التجارة وفى العبيد. فكان يبعث أحدهم بمال عظيم إلى الهند، ويبعث آخر بمثل ذلك إلى بلاد التكرور، ويبعث آخر إلى بلاد الحبشة، ويبعث عدة آخرين إلى عدة جهات من الأرض، فما منهم من يعود إلا وقد تضاعفت فوائد ماله أضعافاً مضاعفة.

مدرسة إينال

هذه المدرسة خارج باب زويلة، بالقرب من باب حارة الهلالية، بخط القماحين. كان موضعها فى القديم من حقوق حارة المنصورة، أوصى بعمارتها الأمير الكبير سيف الدين إينال اليوسفى، أحد المماليك اليلبغاوية، فابتدأ بعملها فى سنة أربع وتسعين، وفرغت فى سنة خمس وتسعى وسبعمائة.

ولم يعمل فيها سوى قراء يتناوبون قراءة القرآن على قبره. فإنه لما مات فى يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الآخرة سنة أربع وتسعين وسبعمائة، دفن خارج باب النصر حتى انتهت عمارة هذه المدرسة، فنقل إليها ودفن فيها.

هذا ولى نيابة حلب ، وصار فى آخر عمره أتابك العساكر بديار مصر حتى مات وكانت جنازته كثيرة الجمع . مشى فيها السلطان الملك الظاهر برقوق والعساكر .

مدرسة الأمير جمال الدين الأستادار

هذه المدرسة برحبة باب العيد من القاهرة . كان موضعها قيسارية يعلوها طباق كلها وقف فأخذها وهدمها ، وابتدأ بشق الأساس فى يوم السبت خامس جمادى الأولى سنة عشر وثمانمائة ، وجمع لها الآلات من الأحجار والأخشاب والرخام وغير ذلك .

وكان بمدرسة الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، التى كانت بالصوة تجاه الطلخاناه من قلعة الجبل ، بقيه من داخلها فيها شبابيك من نحاس مكفت بالذهب والفضة ، وأبواب مصفحة بالنحاس البديع الصنعة المكفت ، ومن المصاحف والكتب فى الحديث والفقه وغيره من أنواع العلوم جملة .

فاشترى ذلك من الملك الصالح المنصور حاجى بن الأشرف بمبلغ ستمائة دينار ـ وكانت قيمتها عشرات أمثال ذلك ـ ونقلها إلى داره . وكان مما فيها عشرة مصاحف ، طول كل مصحف منها أربعة أشبار إلى خمسة ، فى عرض يفرب من ذلك ، أحدهما بخط ياقوت ، وآخر بخط ابن البواب ، وباقيها بخطوط منسوبة ، ولها جلود فى غاية الحسن ، معمولة فى أكياس الأطلس . ومن الكتب النفيسة عشرة أحمال ، جميعها مكتوب فى أوله الإشهاد على الملك الأشرف بوقف ذلك ، ومقره فى مدرسته .

فلما كان يوم الخميس ثالث شهر رجب سنة إحدى عشرة وثمانمائة ، وقد انتهت عمارتها ، جمع بها الأمير جمال الدين القضاة والأعيان ، وأجلس الشيخ همام الدين محمد بن أحمد

الخوارزمى الشافعى على سجادة المشيخة، وعمله شيخ التصوف ومدرس الشافعية، ومد سماطاً جليلاً أكل عليه كل من حضر، وملأ البركة التى بوسط المدرسة ماء قد أذيب فيه سكر مزج بماء الليمون، وكان يوماً مشهوداً.

وقرر فى تدريس الحنفية بدر الدين محمود بن محمد المعروف بالشيخ زاده الخرزيانى، وفى تدريس المالكية شمس الدين محمد بن البساطى، وفى تدريس الحنابلة فتح الدين أبا الفتح محمد بن نجم الدين محمد بن الباهلى، وفى تدريس الحديث النبوى شهاب الدين أحمد بن على بن حجر، وفى تدريس التفسير شيخ الإسلام قاضى القضاة جلال الدين عبدالرحمن بن البلقينى. فكان يجلس من ذكرنا واحداً بعد واحد فى كل يوم . . . إلى أن كان آخرهم شيخ التفسير، وكان مسك الختام، وما منهم إلا من يحضر معه، ويلبسه ما يليق به من الملابس الفاخرة.

وقرر عند كل من المدرسين الستة طائفة من الطلبة، وأجرى لكل واحد ثلاثة أرطال من الخبز فى كل يوم، وثلاثين درهماً فلوساً فى كل شهر، وجعل لكل مدرس ثلاثمائة درهم فى كل شهر، ورتب بها إماماً وقومة ومؤذنين وفراشين ومباشرين، وأكثر من وقف الدور عليها، وجعل فائق وقفها مصروفاً لذريته. فجاءت فى أحسن هندام، وأتم قالب، وأفخر زى، وأبدع نظام. إلا أنها وما فيها من الآلات، وما وقف عليها، أخذ من الناس غصباً، وعمل فيها الصناع بأبخس أجره مع العسف الشديد.

فلما قبض عليه السلطان، وقتله فى جمادى الأولى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة، واستولى على أمواله . . . حسن جماعة للسلطان أن يهدم هذه المدرسة، ورغبوه فى رخامها فإنه غاية فى الحسن، وأن يسترجع أوقافها فإن متحصلها كثير، فمال إلى ذلك، وعزم عليه.

فكرَّه ذلك للسلطان الرئيس فتح الدين فتح الله كاتب السر، واستشنع أن يهدم بيت بنى على اسم الله. يعلن فيه بالأذان خمس مرات فى اليوم والليلة، وتقام به الصلوات الخمس فى جماعة عديدة، ويحضره فى عصر كل يوم مائة وبضعة عشر رجلاً يقرأون القرآن فى وقت التصوف، ويذكرون الله ويدعونه، وتتحلق به الفقهاء لدرس تفسير القرآن الكريم

وتفسير حديث رسول الله ﷺ وفقه الأئمة الأربعة، ويعلّم فيه أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل، ويجرى على هؤلاء المذكورين الأرزاق فى كل يوم ومن المال فى كل شهر.

ورأى أن إزالة مثل هذا وصمة فى الدين، فتجرد له، وما زال بالسلطان يرغبه فى إبقائها - على أن يزال منها اسم جمال الدين وتنسب إليه، فإنه من الفتن هدم مثلها ونحو ذلك - حتى رجع إلى قوله، وفوض أمرها إليه فدبر ذلك أحسن تدبير.

وهو أن موضع هذه المدرسة كان وقفاً على بعض الترب، فاستبدل به جمال الدين أرضا من جملة أراضى الخراج بالجيزة، وحكم له قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم بصحة الاستبدال، وهدم البناء، وبنى موضعه هذه المدرسة، وتسلم متولى موضعها الأرض المستبدل لها. إلى أن قتل جمال الدين، وأحيط بأمواله، فدخل فيما أحيط به هذه الأرض المستبدل بها.

وأدعى السلطان أن جمال الدين افتأت عليه فى أخذ هذه الأرض، وأنه لم يأذن فى بيعها من بيت المال. فأفتى حينئذ محمد شمس الدين المدنى المالكى بأن بناء هذه المدرسة - الذى وقفه جمال الدين على الأرض التى لم يملكها بوجه صحيح - لا يصح، وأنه باق على ملكه إلى حين موته.

فندب عند ذلك شهود القيمة إلى تقويم بناء المدرسة، فقوموها باثنى عشر ألف دينار ذهباً، وأثبتوا محضر القيمة على بعض القضاة. فحمل المبلغ إلى أولاد جمال الدين حتى تسلموه، وباعوا بناء المدرسة للسلطان، ثم استرد السلطان منهم المبلغ المذكور، وأشهد عليه أنه وقف أرض هذه المدرسة بعدما استبدل بها، وحكم حاكم حنفى بصحة الاستبدال.

ثم وقف البناء الذى أشتراه، وحكم بصحته أيضاً، ثم أستدعى بكتاب وقف جمال الدين ولخصه ثم مزقه، وجدد كتاب وقف يتضمن جميع ما قرره جمال الدين فى كتاب وقفه من أرباب الوظائف، ومالهم من الخبز. فى كل يوم، ومن المعلوم فى كل شهر، وأبطل ما كان لأولاد جمال الدين من فائض الوقف.

وأفرد لهذه المدرسة مما كان جمال الدين جعله وقفاً عليها عدة مواضع تقوم بكفاية مصروفها، وزاد فى أوقافها أرضاً بالجيزة، وجعل ما بقى من أوقاف جمال الدين على هذه المدرسة : بعضه وقفا على أولاده، وبعضه وقفا على التربة التى أنشأها فى قبة أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر. وحكم القضاة الأربعة بصحة هذا الكتاب، بعدما حكموا بصحة كتاب وقف جمال الدين، ثم حكموا ببطلانه.

ثم لما تم ذلك محى من هذه المدرسة اسم جمال الدين ورنكه، وكتب اسم السلسطان الملك الناصر فرج بدائر صحنها من أعلاه، وعلى قناديلها وبسطها وسقوفها. ثم نظر السلطان فى كتبها العلمية الموقوفة بها، فأقر منها جملة كتب بظاهر كل سفر منها فصل يتضمن وقف السلطان له، وحمل كثير من كتبها إلى قلعة الجبل، وصارت هذه المدرسة تعرف بالناصرية بعدما كان يقال لها الجمالية.

ولم تزل على ذلك حتى قتل الناصر، وقدم الأمير شيخ إلى القاهرة واستولى على أمور الدولة. فتوصل شمس الدين محمد، أخو جمال الدين، وزوَّج أبنته لشرف الدين أبى بكر بن العجمى، موقع الأستادار الأمير شيخ، حتى أحضر قضاة القضاة، وحكم الصدر على ابن الآدمى قاضى القضاة الحنفى برد أوقاف جمال الدين إلى ورثته، من غير استيفاء الشروط فى الحكم، بل تهور فيه وجازف.

ولذلك أسباب : منها عناية الأمير شيخ بجمال الدين الأستادار. فإنه لما انتقل إليه إقطاع الأمير بحاس بعد موت الملك الظاهر برقوق، استقر جمال الدين أستاداره كما كان أستادار بحاس، فخدمه خدمة بالغة، وخرج الأمير شيخ إلى بلاد الشام، واستقر فى نيابة طرابلس، ثم فى نيابة الشام، وخدمة جمال الدين له ولحاشيته ومن يلوذ به مستمرة.

وأرسل مرة الأمير شيخ من دمشق بصدر الدين بن الآدمى المذكور فى الرسالة إلى الملك الناصر، وجمال الدين حينئذ عزيز مصر، فأنزله وأكرمه وأنعم عليه، وولاه قضاء الحنفية وكتابة السر بدمشق، وأعاده إليه. ومازال معتنياً بأمور الأمير شيخ، حتى أنه اتهم بأنه قد مالأه على السلطان، فقبض عليه السلطان الملك الناصر بسبب ذلك ونكبه.

فلما قتل الناصر، واستولى الأمير شيخ على الأمور بديار مصر، ولى قضاء الحنفية بديار مصر لصدر الدين على بن الآدمى المذكور، وولى أستاداره بدر الدين حسن بن محب الدين الطرابلسى أستادار السلطان. فخدم شرف الدين أبو بكر بن العجمى - زوج ابنه أخى جمال الدين - عنده موقعاً وتمكن منه، فأغراه بفتح الدين فتح الله كاتب السر، حتى أثخن جراحه عند الملك المؤيد شيخ، ونكبه بعدما تسلطن. واستعان أيضاً بقاضى القضاة صدر الدين بن الآدمى، فإنه كان عشيره وصديقه من أيام جمال الدين، ثم استمال ناصر الدين محمد بن البارزى، موقع الأمير الكبير شيخ.

فقام الثلاثة مع شمس الدين، أخى جمال الدين، حتى أعيد إلى مشيخة خانكاه بيبرس وغيرها من الوظائف التى أخذت منه عندما قبض عليه الملك الناصر وعاقبه، وتحدثوا مع الأمير الكبير فى رد أوقاف جمال الدين إلى أخيه وأولاده، فإن الناصر غصبها منهم، وأخذ أموالهم، ديارهم بظلمه إلى أن فقدوا القوت، ونحو هذا من القول. . . حتى حركوا منه حقداً كامنا على الناصر، وعلموا منه عصبته لجمال الدين هذا، وغرض القوم فى الباطن تأخير فتح الدين والإيقاع به، فإنه ثقل عليهم وجوده معهم.

فأمر عند ذلك الأمير الكبير بعقد مجلس حضره قضاة القضاة والأمراء وأهل الدوار، عنده بالحراقة من باب السلسلة، فى يوم السبت تاسع عشرى شهر رجب سنة خمس عشرة، وتقدم أخو جمال الدين ليدعى على فتح الدين فتح الله كاتب السر. . . وكان قد علم بذلك، ووكل بدر الدين حسنا البردينى - أحد نواب الشافعية - فى سماع الدعوى ورد الأجوبة.

فعندما جلس البردينى للمحاكمة مع أخى جمال الدين، نهره الأمير الكبير وأقامه، وأمر بأن يكون فتح الله هو الذى يدعى عليه، فلم يجد بدا من جلوسه. وما هو إلا أن ادعى عليه أخو جمال الدين بأنه وضع يده على مدرسة أخيه جمال الدين وأوقافه بغير طريق فبادر قاضى القضاة صدر الدين على بن الآدمى الحنفى، وحكم برفع يده وعود أوقاف جمال الدين ومدرسته إلى ما نص عليه جمال الدين، ونفذ بقية القضاة حكمه، وأنفضوا على ذلك.

فاستولى أخو جمال الدين وصهره شرف الدين على حاصل كبير كان قد اجتمع بالمدرسة من فاضل ريعها، ومن مال بعنه الملك الناصر اليها، وفرقوه حتى كتبوا كتاباً اخترعوه من عند أنفسهم، جعلوه كتاب وقف المدرسة، زاد فيه أن جمال الدين اشترط النظر على المدرسة لأخيه شمس الدين المذكور وذريته إلى غير ذلك مما لفقوه بشهادة قوم استمالوهم فمالوا. ثم أثبت هذا الكتاب على قاضي القضاة صدر الدين بن الآدمى، ونفذه بقبة القضاة.

فاستمر الأمر على هذا البهتان المختلف، والأفك المفترى مدة، ثم ثار بعض صوفيه هذه المدرسة، وأثبت محضراً أن النظر لكاتب السر. فلما ثبت ذلك، نزعت يد أخى جمال الدين عن التصرف في المدرسة، وتولى نظرها ناصر الدين محمد بن البارزى كاتب السر، واستمر الأمر على هذا.

فكانت قصة هذه المدرسة من أعجب ما سمع به في تناقض القضاة، وحكمهم بإبطال ما صححوه، ثم حكمهم بتصحيح ما أبطلوه.. كل ذلك ميلاً مع الجاه، وحرصاً على بقاء رياستهم. ﴿**ستكتب شهادتهم ويسألون**﴾(١).

المدرسة الصرغتمشية

هذه المدرسة خارج القاهرة، بجوار جامع الأمير أبى العباس أحمد بن طولون، فيما بينه وبين قلعة الجبل. كان موضعها قديماً من جملة قطائع ابن طولون، ثم صار عدة مساكن فأخذها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصرى رأس نوبة النوب وهدمها، وابتدأ في بناء المدرسة يوم الخميس من شهر رمضان سنة ست وخمسين وسبعمائة، وانتهت في جمادى الأولى سنة سبع وخمسين.

وقد جاءت من أبدع المباني وأجلها، وأحسنها قالباً، وأبهجها منظراً،. فركب الأمير صرغتمش في يوم الثلاثاء تاسعه، وحضر إليه الأمير سيف الدين شيخو العمرى مدبر الدولة، والأمير طاشتمر القاسمى حاجب الحجاب، والأمير توقتاى الدوادار، وعامة أمراء الدولة، وقضاة القضاة الأربعة، ومشايخ العلم.

(١) الزخرف - آية ١٩ - ك٤٣.

ورتب مدرس الفقة بها قوام الدين أمير كاتب ابن أمير عمر العميد بن العميد أمير غازى الأتقانى ، فألقى القوام الدرس ، ثم مد سماط جليل بالهمة الملوكية ، وملئت البركة التى بها سكراً قد أذيب بالماء ، فأكل الناس وشربوا ، وأبيح ما بقى من ذلك للعامة فانتهبوه . وجعل الأمير صرغتمش هذه المدرسة وقفاً على الفقهاء الحنفية الآفاقية ، ورتب بها درساً للحديث النبوى ، وأجرى لهم جميعاً المعاليم من وقف رتبه لهم . وقال أدباء العصر فيها شعراً كثيراً، فقال العلامة شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن الصائغ الحنفى :

ليهنك يا صرغتمش ما بنيتـــه
لأخراك فى دنياك من حسن بنيان
به يزدهى الترخيم كالزهر بهجة
فلله من زهـــــــر ولله من بانى

وخلع فى هذا اليوم على القوام خلعه سنية ، وأركبه بغلة رائعة ، وأجازة بعشرة آلاف درهم على أبيات مدحه بها فى غاية السماجة وهى :

أرأيتم من حـــاز الرتبـــا
وأتى قربا ونفى ريبـــــا
فبدا علمـــاً وســـما كرما
ونما قـــــدما ولقد غلبا
بتقى وهدى وندى وجدى
فعدا وسدى وجبى وحبا
أبدى سننا أحيـــــا سننا
حلى زمنـــا عند الأدبا
هذا صرغتمش قد سكبت
أيام إمـــــارته السحبا
وأزال الجدب إلى خصب
والضـنك إلى رغد قلبا

باعانة جبـــــار ربى

ذى العرش وقد بذل النشبا

ملك فطن ركن لســـن

حســـن بسن ربى الأدبا

ملك الكبرا ملك الأمرا

ملك العلمـا ملك الأدبا

بحر طام غيث هـــام

قدر ســـام حامى الغربا

بشاشته وســــماحته

وحمـاسته جلى الكربا

وديانتـــه وصـــيانته

وأمانتـــه حـــاز الرتبا

أبهى أصلا أسنى نسلا

أعطى فصلا مأوى العربا

نعم المـأوى مصر لمـا

شـــملت قوما نبلا نجبا

فنمت نوراً وسمت نورا

وعلب دوراً دارت طربا

نسقت درراً وسقت دوراً

ودعت غررا وحوت أدبا

وخطـابته افتخرت علت

وسمت وزرت وحوت أدبا

جدد درسا ثم أجن جنى

منهـــا ومنى سعى طلبا

منى نازعنى نسبى علنــا

فأراب لنـــا نعمت نسبا

يكنون أبا لحنيفــــة ثـ

ـم قـــوام الدين بدا لقبا

عش فى رحب لترى عجبا

من منتجب عجب عجبا

صرغتمش

الناصرى . الأمير سيف الدين رأس نوبة جلبه الخواجا الصواف فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، فاشتراه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بمائتى ألف درهم فضة عنها يومئذ نحو أربعة آلاف مثقال ذهباً ، وخلع على الخواجا تشريفاً كاملاً بحياصة ذهب ، وكتب له توقيعاً بمسامحة مائة ألف درهم من متجره ، فلم يعبأ به السلطان ، وصار فى أيامه من جملة الجمدارية .

وحكى عن القاضى شرف الدين عبدالوهاب ناظر الخاص ، أن السلطان أنعم على صرغتمش هذا بعشر طاقات أديم طائفى ، فلما جاء إلى النشو ، تردد إليه مراراً حتى دفعها إليه ، ولم يزل خامل الذكر ، إلى أن كانت أيام المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون ، فبعثه

مسفراً مع الأمير فخر الدين إياز السلاح دار، ثم أستقر فى نيابة حلب، فلما عاد من حلب ترقى فى الخدمة، وتمكن عند المظفر، وتوجه فى خدمة الصالح بن محمد بن قلاوون إلى دمشق فى نوبة بلبغا روس، وصار السلطان يرجع إلى رأيه.

فلما عاد من دمشق، أمسك الوزير علم الدين عبدالله بن زنبور بغير أمر السلطان وأخذ أمواله، وعارض فى أمره الأمير شيخو والأمير طاز. و من حينئذ عظم، ولم يزل حتى خلع السلطان الملك الصالح، وأعيد الناصر حسن بن محمد بن قلاوون. فلما أخرج الأمير شيخو، انفرد صرغتمش بتدبير أمور المملكة، وفخم قدره، ونفذت كلمته، فعزل قضاة مصر والشام، وغير النواب بالمماليك.

والسلطان يحقد عليه، إلى أن أمسكه فى العشرين من شهر رمضان سنة تسع وخمسين، وقبض معه على الأمير طشتمر القاسمى حاجب الحجاب، والأمير ملكتمر المحمدى وجماعة، وحملهم إلى الإسكندرية، فسجنوا بها، وبها مات صرغتمش بعد شهرين واثنى عشر يوماً من سجنه فى ذى الحجة سنة تسع وخمسين وسبعمائة.

وكان مليح الصورة، جميل الهيئة. يقرأ القرآن الكريم، ويشارك فى الفقه على مذهب الحنفية، ويبالغ فى التعصب لمذهبه، ويقرب العجم ويكرمهم، ويجلهم أجلالاً زائداً، ويشدو طرفاً من النحو. وكانت أخلاقه شرسة، ونفسه قوية، فإذا بحث فى الفقه أو اللغة اشتط.

ولما تحدث فى الأوقاف وفى البريد، خاف الناس منه، فلم يكن أحد يركب خيل البريد إلا بمرسومه. ومنع كل من يركب البريد أن يحمل معه قماشاً ودراهم على خيل البريد، واشتد فى أمر الأوقاف، فعمرت فى مباشرته. ولما قبض عليه أخذ السلطان أمواله، وكانت شيئاً كثيراً يكل عنه الوصف.

قال الجوهرى فى الصحاح: والمارستان بيت المرضى، معرب عن ابن السكيت.

وذكر الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه فى كتاب «أخبار مصر»: أن الملك مناقيوش بن أشمون، أحد ملوك القبط الأول بأرض مصر، أول من عمل البيمارستانات لعلاج المرضى، وأودعها العقاقير، ورتب فيها الأطباء، وأجرى عليهم ما يسعهم. ومناقيوش هذا هو الذى بنى مدينة أخميم، وبنى مدينة سنتريه.

وقال زاهد العلماء أبو سعيد منصور بن عيسى: أول من اخترع المارستان وأوجده بقراط بن أيوقليدس، وذلك أنه عمل بالقرب من داره - فى موضع من بستان كان له - موضعاً مفرداً للمرضى، وجعل فيه خدماً يقومون بمداواتهم، وسماه «أصدولين» أى مجمع المرضى.

وأول من بنى المارستان فى الإسلام ودار المرضى الوليد بن عبدالملك، وهو أيضاً أول من عمل دار الضيافة، وذلك فى سنة ثمان وثمانين. وجعل فى المارستان الأطباء، وأجرى لهم الأرزاق، وأمر بحبس المجذمين لئلا يخرجوا، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق.

وقال جامع السيرة الطولونية - وقد ذكر بناء جامع أبن طولون - وعمل فى مؤخره ميضأة وخزانة شراب فيها جميع الشرابات والأدوية، وعليها خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة.

مارستان ابن طولون

هذا المارستان موضعه الآن فى أرض العسكر - وهى الكيمان والصحراء التى فيما بين جامع أبن طولون وكوم الجارح، وفيما بين قنطرة السد التى على الخليج ظاهر مدينة مصر وبين السور الذى يفصل بين القرافة وبين مصر - وقد دثر هذا المارستان فى جملة ما دثر ولم يبق له أثر.

وقال أبو عمر الكندى فى «كتاب الأمراء» : وأمر أحمد بن طولون أيضاً ببناء المارستان للمرضى، فبنى لهم فى سنة تسع وخمسين ومائتين.

وقال جامع السيرة الطولونية : وفى سنة إحدى وستين ومائتين، بنى أحمد بن طولون المارستان، ولم يكن قبل ذلك بمصر مارستان. ولما فرغ منه حبس عليه دار الديوان، ودوره فى الأساكفة، والقيسارية، وسوق الرقيق. وشرط فى المارستان ألا يعالج فيه جندى ولا مملوك، وعمل حمامين للمارستان: إحداهما للرجال، والأخرى للنساء، حبسهما على المارستان وغيره.

وشرط أنه إذا جئ بالعليل تنزع ثيابة ونفقته، وتحفظ عند أمين المارستان، ثم يلبس ثياباً ويفرش له، ويغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ، فإذا أكل فروجاً ورغيفاً، أمر بالانصراف، وأعطى ماله وثيابة.

وفى سنة اثنتين وستين ومائتين، كان ما حبسه على المارستان والعين والمسجد فى الجبل - الذى يسمى بتنور فرعون - وكان الذى أنفق على المارستان ومستغله: ستين ألف دينار. وكان يركب بنفسه فى كل يوم جمعه، ويتفقد خزائن المارستان وما فيها، والأطباء، وينظر إلى المرضى وسائر الأعلاء والمحبوسين من المجانين.

فدخل مرة حتى وقف بالمجانين. فناداه واحد منهم مغلول: أيها الأمير، اسمع كلامى، ما أنا بمجنون، وإنما عملت على حيلة، وفى نفسى شهوة رمانة عريشية أكبر ما يكون، فأمر له بها من سعاته، ففرح بها وهزها فى يده ورازها، ثم غافل أحمد بن طولون، ورمى بها فى صدره، فنضحت على ثيابة، ولو تمكنت منه لأتت على صدره. فأمرهم أن يحتفظوا به، ثم لم يعاود بعد ذلك النظر فى المارستان.

مارستان كافور

هذا المارستان بناه كافور الإخشيدى، وهو قائم بتدبير دولة الأمير أبى القاسم أنوجور بن محمد الأخشيدى، بمدينة مصر فى سنة ست وأربعين وثلاثمائة.

مارستان المغافر

هذا المارستان كان فى خطة المغافر التى موضعها ما بين العامر من مدينة مصر وبين مصلى خولان التى بالقرافة . بناه الفتح بن خاقان فى أيام أمير المؤمنين المتوكل على الله ، وقد باد أثره .

المارستان الكبير المنصورى

هذا المارستان بخط بين القصرين من القاهرة . كان قاعة ست الملك ابنة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد ، ثم عرف بدار الأمير فخر الدين جهاركس ، بعد زوال الدولة الفاطمية ، وبدار موسك ، ثم عرف بالملك المفضل قطب الدين أحمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وصار يقال لها الدار القطبية .

ولم تزل بيد ذريته إلى أن أخذها الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى ، من مؤنسة خاتون ، ابنة الملك العادل - المعروفة بالقطبية - وعوضت عن ذلك قصر الزمرد برحبة باب العيد ، فى ثامن عشرى ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، بسفارة الأمير علم الدين سنجر الشجاعى مدبر الممالك ، ورسم بعمارتها مارستانا وقبة ومدرسة .

فتولى الشجاعى أمر العمارة ، وأظهر من الاهتمام والاحتفال ما لم يسمع بمثله ، حتى تم الغرض فى أسرع مدة ، وهى أحد عشر شهراً وأيام . وكان ذرع هذه الدار عشرة آلاف وستمائة ذراع ، وخلفت ست الملك بها ثمانية آلاف جارية ، وذخائر جليلة منها قطعة ياقوت أحمر زنتها عشرة مثاقيل ، وكان الشروع فى بنائها مارستانا أول ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

وكان سبب بنائه أن الملك المنصور لما توجه وهو أمير إلى غزاه الروم ، فى أيام الظاهر بيبرس سنة خمس وسبعين وستمائة ، أصابه بدمشق قولنج عظيم ، فعالجه الأطباء بأدوية

أخذت له من مارستان نور الدين الشهيد فبرأ، وركب حتى شاهد المارستان فأعجب به، ونذر إن آتاه الله الملك أن يبنى مارستانا.

فلما تسلطن، أخذ فى عمل ذلك، فوقع الاختيار على الدار القطبية، وعوض أهلها عنها قصر الزمرد، وولى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى أمر عمارته، فأبقى القاعة على حالها، وعملها مارستانا، وهى ذات إيوانات أربعة، بكل إيوان شاذروان، وبدور قاعتها فسقية يصير إليها من الشاذروانات الماء.

واتفق أن بعض الفعلة كان يحفر فى أساس المدرسة المنصورية، فوجد حق أشنان من نحاس، ووجد رفيقة قمقماً نحاساً مختوماً برصاص، فأحضرا ذلك إلى الشجاعى، فإذا فى الحق فصوص ماس وياقوت وبلخش ولؤلؤ ناصع يدهش الأبصار، ووجد فى القمقم ذهباً - كان جملة ذلك نظير ما غرم على العمارة - فحمله إلى أسعد الدين كوهيا الناصرى العدل، فرفعه إلى السلطان.

ولما أنجزت العمارة، وقف عليها الملك المنصور من الأملاك - بديار مصر وغيرها - ما يقارب ألف ألف درهم فى كل سنة. ورتب مصارف المارستان، والقبة، والمدرسة، ومكتب الأيتام. ثم أستدعى قدحاً من شراب المارستان، وشربه وقال: قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى، وجعلته وقفا على الملك والمملوك والجندى والأمير والكبير والصغير والحر والعبد. الذكور والإناث. ورتب فيه العقاقير والأطباء وسائر ما يحتاج إليه من به مرض من الأمراض.

وجعل السلطان فيه فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى، وقرر لهم المعاليم، ونصب الأسرة للمرضى، وفرشها بجميع الفرش المحتاج إليها فى المرض، وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعاً: فجعل أواوين المارستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها، وأفرد قاعة للرمدى، وقاعة للجرحى، وقاعة لمن به إسهال، وقاعة للنساء، ومكاناً للمبرودين ينقسم بقسمين: قسم للرجال، وقسم للنساء.

وجعل الماء يجرى فى جميع هذه الأماكن، وأفرد مكاناً لطبخ الطعام والأدوية والأشربة ومكاناً لتركيب المعاجين والأكحال والشيافات ونحوها، ومواضع يخزن فيها الحواصل،

وجعل مكاناً يفرق فيه الأشربة والأدوية، ومكاناً يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس طب، ولم يحص عدة المرضى، بل جعله سبيلاً لكل من يرد عليه من غنى وفقير، ولا حدد مدة لإقامة المريض به، بل يرتب منه لمن هومريض بداره سائر ما يحتاج إليه.

ووكل الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى، أمير جندار، فى وقف ما عينه من المواضع وترتيب أرباب الوظائف وغيرهم. وجعل النظر لنفسه أيام حياته، ثم من بعده لأولاده، ثم من بعدهم لحاكم المسلمين الشافعى. فضمن وقفه كتاباً تاريخه يوم الثلاثاء ثالث عشرى صفر سنة ثمانين وستمائة.

ولما قرئ عليه كتاب الوقف، قال للشجاعى: ما رأيت خط الأسعد كاتبى مع خطوط القضاة، أبصر ايش فيه زغل حتى ما كتب عليه. فما زال يقرب لذهنه أن هذا مما لايكتب عليه إلا قضاة الإسلام حتى فهم ذلك.

فبلغ مصروف الشراب منه فى كل يوم خمسمائة رطل سوى السكر. ورتب فيه عدة ما بين أمين ومباشر، وجعل مباشرين للإدارة ـ وهم الذين يضبطون ما يشترى من الأصناف، وما يحضر منها إلى المارستان ـ ومباشرين لاستخراج مال الوقف، ومباشرين فى المطبخ، ومباشرين فى عمارة الأوقاف التى تتعلق به.

وقرر فى القبة خمسين مقرئاً يتناوبون قراءة القرآن ليلاً ونهاراً، ورتب بها إماماً راتباً، وجعل بها رئيساً للمؤذنين عندما يؤذنون فوق منارة ليس فى إقليم مصر أجل منها، ورتب بهذه القبة درساً لتفسير القرآن فيه مدرس ومعيدان وثلاثون طالباً، ودرس حديث نبوى، وجعل بها خزانة كتب وستة خدام طواشيه لايزالون بها. ورتب بالمدرسة إماماً راتباً، ومتصدراً لإقراء القرآن، ودروساً أربعة للفقه على المذاهب الأربعة. ورتب بمكتب السبيل معلمين يقرئان الأيتام، ورتب للأيتام رطلين من الخبز فى كل يوم لكل يتيم، مع كسوة الشتاء والصيف.

فلما ولى الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك نظر المارستان، أنشأ به قاعة للمرضى، ونحت الحجارة المبنى بها الجدر كلها حتى صارت كأنها جديدة، وجدد تذهيب الطراز بظاهر المدرسة والقبة، وعمل خيمة تظل الأقفاص طولها مائة ذراع. . قام بذلك من ماله دون مال

الوقف. ونقل أيضاً حوض ماء كان برسم شرب البهائم من جانب باب المارستان، وأبطله لتأذى الناس بنتن رائحة ما يجتمع قدامه من الأوساخ، وأنشأ سبيل ماء يشرب منه الناس عوض الحوض المذكور.

وقد تورع طائفة من أهل الديانة عن الصلاة فى المدرسة المنصورية والقبة، وعابوا المارستان لكثرة عسف الناس فى عمله. وذلك أنه لما وقع اختيار السلطان على عمل الدار القطبية مارستانا، ندب الطواشى حسام الدين بلالا المغيثى للكلام فى شرائها. فساس الأمر فى ذلك حتى أنعمت مؤنسة خاتون ببيعها، على أن تعوض عنها بديار تلمها وعيالها، فعوضت قصر الزمرذ برحبة باب العيد مع مبلغ مال حمل إليها، ووقع البيع على هذا.

فندب السلطان الأمير سنجر الشجاعى للعمارة. فأخرج النساء من القطبية من غير مهملة، وأخذ ثلاثمائة أسير، وجمع صناع القاهرة ومصر، وتقدم إليهم بأن يعملوا بأجمعهم فى الدار القطبية، ومنعهم أن يعملوا لأحد فى المدينتين شغلاً، وشدد عليهم فى ذلك - وكان مهاباً - فلازموا العمل عنده، ونقل من قلعة الروضة ما احتاج إليه من العمد الصوان والعمد الرخام والقواعد والأعتاب والرخام البديع وغير ذلك.

وصار يركب إليها كل يوم، وينقل الأنقاض المذكورة على العجل إلى المارستان، ويعود إلى المارستان، فيقف مع الصناع على الأساقيل حتى لا يتوانوا فى عملهم. وأوقف مماليكه بين القصرين، فكان إذا مر أحد - ولو جل - ألزموه أن يرفع حجراً ويلقيه فى موضع العمارة، فينزل الجندى والرئيس عن فرسه حتى يفعل ذلك.

فترك أكثر الناس المرور من هناك، ورتبوا - بعد الفراغ من العمارة وترتيب الوقف - فتيا صورتها «ما يقول أئمة الدين فى موضع أخرج أهله منه كرها، وعمر بمستحثين يعسفون الصناع، وأخرب ما عمره الغير، ونقل إليه ما كان فيه فعمر به . . . هل تجوز الصلاة فيه أم لا؟؟». فكتب جماعة من الفقهاء «لاتجوز فيه الصلاة».

فما زال المجد عيسى بن الخشاب حتى أوقف الشجاعى على ذلك. فشق عليه، وجمع القضاة ومشايخ العلم بالمدرسة المنصورية، وأعلمهم بالفتيا. فلم يجبه أحد منهم بشئ . . . سوى الشيخ محمد المرجانى، فإنه قال: أنا أفتيت بمنع الصلاة فيها، وأقول الآن أنه يكره الدخول من بابها. ونهض قائماً، فانفض الناس.

وأتفق أيضاً أن الشجاعى مازال بالشيخ محمد المرجانى يلح فى سؤاله أن يعمل ميعاد وعظ بالمدرسة المنصورية، حتى أجاب بعد تمنع شديد. فحضر الشجاعى والقضاة، وأخذ المرجانى فى ذكر ولاة الأمور من الملوك والأمراء والقضاة، وذم من يأخذ الأراضى غصبا ويستحث العمال فى عمائره، وينقص من أجورهم، وختم بقوله تعالى: **﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى أتخذت مع الرسول سبيلا. يا ويلتى ليتنى ألم أتخذ فلاناً خليلاً﴾**[1]. وقام.

فسأله الشجاعى الدعاء له، فقال: ياعلم الدين قد دعا لك ودعا عليك من هو خير منى، وذكر قول النبى ﷺ: « **اللهم من ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه** ». وانصرف.

فصار الشجاعى من ذلك فى قلق، وطلب الشيخ تقى الدين محمد بن دقيق العيد ـ وكان له فيه اعتقاد حسن ـ وفاوضه فى حديث الناس فى منع الصلاة فى المدرسة، وذكر له أن السلطان إنما أراد محاكاة نور الدين الشهيد والاقتداء به، لرغبته فى عمل الخير، فوقع الناس فى القدح فيه، ولم يقدحوا فى نور الدين.

فقال له: إن نور الدين أسر بعض ملوك الفرنج وقصد قتله، ففدى نفسه بتسليم خمسة قلاع، وخمسمائة ألف دينار حتى أطلقه، فمات فى طريقه قبل وصوله مملكته، وعمر نور الدين بذلك المال مارستانه بدمشق من غير مستحث فمن أين ياعلم الدين تجد مالا مثل هذا المال، وسلطاناً مثل نور الدين؟ غير أن السلطان له نيته، وأرجو له الخير بعمارة هذا الموضع. وأنت إن كان وقوفك فى عمله بنية نفع الناس فلك الأجر، وإن كان لأجل أن يعلم أستاذك علو همتك فما حصلت على شئ.

فقال الشجاعى: الله المطلع على النيا.

وقرر ابن دقيق العيد فى تدريس القبه.

---

(١) الفرقان ـ آيتا ٢٧، ٢٨ ـ ك٢٥.

قال مؤلفه : إن كان التحرج من الصلاة لأجل أخذ الدار القطبية من أهلها بغير رضاهم، وأخراجهم منها بعسف، واستعمال أنقاض القلعة بالروضة. فلعمرى ما تملك بنى أيوب الدار القطبية، وبناؤهم قلعة الروضة، وإخراجهم أهل القصور من قصورهم التى كانت بالقاهرة، وإخراج سكان الروضة من مساكنهم. . . إلا كأخذ قلاوون الدار المذكورة وبنائها بما هدمه من القلعة المذكورة، وإخراج مؤنسة وعيالها من الدار القطبية. وأنت إن أمعنت النظر، وعرفت ما جرى، تبين لك أن ما القوم إلا سارق من سارق، وغاصب من غاصب.

وإن كان التحرج من الصلاة لأجل عسف العمال، وتسخير الرجال. . فشيء آخر. بالله عرفني - فإني غير عارف - من منهم لم يسلك فى أعماله هذا السبيل؟؟ غير أن بعضهم أظلم من بعض.

وقد مدح غير واحد من الشعراء هذه العمارة، منهم شرف الدين البوصيرى فقال :

ومدرسة ود الخورنق أنه
لديها حظير والسدير غدير
مدينة علم والمدارس حولها
قرى أو نجوم بدرهن منير
تبدت فأخفى الظاهرية نورها
وليس بظهر للنجوم ظهور
بناء كأن النحل هندس شكله
ولانت له كالشمع فيه صخور
بناها سعيد فى بقاع سعيدة
بها سعدت قبل المدارس نور
ومن حيثما وجهت وجهك نحوها
تلقتك منها نضرة وسرور
إذا قام يدعو الله فيها مؤذن
فما هو إلا للنجوم سمير

المارستان المؤيدى

هذا المارستان فوق الصوة، تجاه طبلخاناه قلعة الجبل - حيث كانت مدرسة الأشرف شعبان بن حسين التى هدمها الناصر فرج بن برقوق - وبابه هو حيث كان باب المدرسة، إلا أنه ضيق عما كان. أنشأه المؤيد شيخ فى مدة أولها جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، وآخرها رجب سنة ثلاث وعشرين، ونزل فيه المرضى فى نصف شعبان، وعملت مصارفه من جملة أوقاف الجامع المؤيدى المجاور لباب زويلة.

فلما مات الملك المؤيد، فى ثامن المحرم سنة أربع وعشرين، تعطل قليلاً. ثم سكنه طائفة من العجم المستجدين فى ربيع الأول منها، وصار منزلاً للرسل الواردين من البلاد إلى السلطان. ثم عمل فيه منبر، ورتب له خطيب وإمام ومؤذنون وبواب وقومه، وأقيمت به الجمعة فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة. فاستمر جامعاً تصرف معاليم أرباب وظائفة المذكورين من وقف الجامع المؤيدى.

ذكر المساجد

قال أبن سيده: المسجد الموضع الذى يسجد فيه. وقال الزجاج: كل موضع يتعبد فيه فهو مسجد، ألا ترى أن النبى ﷺ قال: « **جعلت لى الأرض مسجداً وطهورا** »، وقوله عز وجل: ﴿**ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه**﴾[1]. المعنى على هذا المذهب أنه من أظلم ممن خالف قبلة الإسلام.

وقد كان حكمه ألا يجئ على مفعل، لأن حق اسم المكان والمصدر من فعل يفعل أن يجئ على مفعل، ولكنه أحد الحروف التى شذت فجاءت على مفعل.

---

(١) البقرة - آية ١١٤ - م٢.

قال سيبويه : وأما المسجد فإنهم جعلوه اسماً للبيت، ولم يأت على فعل يفعل. كما قال في المدق: أنه اسم للجلود . . . يعني أنه ليس على الفعل، ولو كان على الفعل لقيل مدق لأنه آلة، والآلات تجيء على مفعل كمخزن ومكنس ومكسح.

والمسجدة الجمرة المسجود عليها، وقوله تعالى: ﴿**وأن المساجد لله**﴾(١) قيل هي مواضع السجود من الإنسان: الجبهة، واليدان، والركبتان، والرجلان.

وقال الشريف محمد بن أسعد الجواني في كتاب «النقط على الخطط» عن القاضي أبي عبدالله القضاعي: أنه كان في مصر الفسطاط من المساجد ستة وثلاثون ألف مسجد.

وقال المسبحي في حوادث سنة ثلاث وأربعمائة: وأحصى أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله المساجد التي لاغلة لها، فكانت ثمانمائة مسجد. فأطلق لها في كل شهر من بيت المال تسعة آلاف ومائتين عشرين درهماً. وفي سنة خمس وأربعمائة حبس الحاكم بأمر الله سبع ضياع، منها أطفيح وطوخ، على القراء والمؤذنين بالجوامع، وعلى ملء المصانع والمارستان، وفي ثمن الأكفان.

وذكر ابن المتوج أن عدة المساجد بمصر في زمنه أربعمائة وثمانون مسجداً. . . ذكرها.

المسجد بجوار دير البعل

قد تقدم في أخبار الكنائس والديارات من هذا الكتاب خبر دير البعل، وأنه يعرف بدير الفطير.

ولما كان في سنة خمس وسبعين وستمائة، خرج جماعة من المسلمين إلى دير البعل، فرأوا آثار محاريب بجوار الدير، فعرفوا الصاحب بهاء الدين بن حنا ذلك، فسير المهندسين لكشف ما ذكر، فعادوا إليه وأخبروه أنه آثار مسجد. فشاور الملك الظاهر بيبرس، وعمره

---

(١) الجن - آية ١٨ - ك ٧٢.

مسجداً بجانب الدير . . وهو عامر إلى الآن وبت به، وهو من أحسن مشترفات مصر، وله وقف جيد ومرتب يقوم به نصارى الدير.

مسجد ابن الجباس

هذا المسجد خارج باب زويلة، بالقرب من مصلى الأموات، دون باب اليانسية. عرف بالشيخ أبى عبدالله محمد بن على بن أحمد ابن محمد بن جوشن، المعروف بابن الجباس - بجيم وباء موحدة بعدها ألف وسين مهملة - القرشى العقيلى، الفقيه الشافعى المقرئ. كان فاضلاً صالحاً، زاهداً عابداً مقرئاً. كتب بخطه كثيراً، وسمع الحديث النبوى. ومولده يوم السبت سابع عشر ذى القعدة سنة اثنتين وثلاثين وستمائة بالقاهرة، ووفاته . . . . . .

مسجد ابن البناء

هذا المسجد داخل باب زويلة، وتسميه العوام سام بن نوح النبى عليه السلام، وهو من مختلقاتهم التى لا أصل لها، وإنما يعرف بمسجد ابن البناء.

وسام بن نوح لعله لم يدخل أرض مصر ألبته. فإن الله سبحانه وتعالى لما نجى نبيه نوحاً من الطوفان، خرج معه من السفينة أولاده الثلاثة، وهم: سام، وحام، ويافث. ومن هذه الثلاثة ذرأ الله سائر بنى آدم، كما قال تعالى: ﴿**وجعلنا ذريته هم الباقين**﴾[1].

فقسم نوح الأرض بين أولاده الثلاثة :

---

(١) الصافات - آية ٧٧ - ك ٣٧.

فصار لسام بن نوح العراق وفارس إلى الهند، ثم إلى حضر موت وعمان والبحرين وعالج ويبرين والدو ووبار والدهنا، وسائر أرض اليمن والحجاز. ومن نسله الفرس والسريانيون والعبرانيون والعرب والنبط والعماليق.

وصار لحام بن نوح الجنوب مما يلى أرض مصر مغرباً إلى المغرب الأقصى. ومن نسله الحبشة والزنج، والقبط سكان مصر وأهل النوبة، والأفارقة وأهل أفريقية، وأجناس البربر.

وصارت ليافث بن نوح بحر الخزر مشرقاً إلى الصين. ومن نسله الصقالبة والفرنج والروم والغوط وأهل الصين واليونانيون والترك.

وقد بلغنى أن هذا المسجد كان كنيسة لليهود القرايين، تعرف بسام بن نوح، وأن الحاكم بأمر الله أخذ هذه الكنيسة لما هدم الكنائس، وجعلها مسجداً. وتزعم اليهود القرايون الآن بمصر أن سام بن نوح مدفون هنا، وهم إلى الآن يحلفون من أسلم منهم بهذا المسجد. . . أخبرنى به قاضى اليهود إبراهيم بن فرج الله بن عبدالكافى الداوى العانانى. وليس هذا بأول شئ اختلقته العامة.

وابن البناء

هذا: هو محمد بن عمر بن أحمد بن جامع بن البناء أبو عبدالله الشافعى المقرئ. سمع من القاضى مجلى وأبى عبدالله الكيزانى وغيره، وحدث وأقرأ القرآن، وانتفع به جماعة وهو منقطع بهذا المسجد.

وكان يعرف خطه بخط بين البابين، ثم عرف بخط الأقفاليين، ثم هو الآن يعرف بخط الضببيين وباب القوس.

ومات ابن البناء هذا فى العشر الأوسط من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وتسعين وخمسمائة.

واتفق لى عند هذا المسجد أمر عجيب. وهو أنى مررت من هناك يوماً أعوام بضع وثمانين وسبعمائة - والقاهرة يومئذ لا يمر الإنسان بشارعها حتى يلقى عناء من شدة ازدحام الناس، لكثرة مرورهم ركبانا ومشاة - فعندما حاذيت أول هذا المسجد إذا برجل يمشى أمامى، وهو يقول لرفيقه: والله يا أخى ما مررت بهذا المكان قط إلا وانقطع نعلى. فوالله ما فرغ من كلامه حتى وطئ شخص، من كثرة الزحام على مؤخر نعله - وقد مد رجله ليخطو - فانقطع تجاه باب المسجد. فكان هذا من عجائب الأمور وغرائب الاتفاق.

مسجد الحلبيين

هذا المسجد فيما بين الزهومة ودرب شمس الدولة، على يسرة من سلك من حمام خشيبة طالباً البندقانيين. بنى على المكان الذى قتل فيه الخليفة الظاهر نصر بن عباس الوزير، ودفنه تحت الأرض.

فلما قدم طلائع بن رزيك من الأشمونين إلى القاهرة، باستدعاء أهل القصر له ليأخذ بثأر الخليفة، وغلب على الوزارة . . . استخرج الظافر من هذا الموضع، ونقلة إلى تربة القصر، وبنى موضعه هذا المسجد، وسماه المشهد، وعمل له بابين: أحدهما هذا الباب الموجود، والباب الثانى كان يتوصل منه إلى دار المأمون البطائحى - التى هى اليوم مدرسة تعرف بالسيوفية - وقد سد هذا الباب.

وما برح هذا المسجد يعرف بالمشهد. إلى ان أنقطع فيه محمد ابن أبى الفضل بن سلطان أبن عمار بن تمام، أبو عبدالله الحلبى الجعبرى، المعروف بالخطيب. وكان صالحاً كثير العبادة، زاهداً منقطعاً عن الناس ورعا، وسمع الحديث وحدث. وكان مولده فى شهر رجب سنة أربع وعشرين وستمائة بقلعة جعبر، ووفاته بهذا المسجد - وقد طالت إقامته فيه - يوم الإثنين سادس عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة، ودفن بمقابر باب النصر رحمه الله.

وهذا المسجد من أحسن مساجد القاهرة وأبهجها.

مسجد الكافورى

هذا المسجد كان فى البستان الكافورى من القاهرة . بناه الوزير المأمون أبو عبدالله محمد بن فاتك البطائحى فى سنة ست عشرة وخمسمائة وتولى عمارته وكيله أبو البركات محمد بن عثمان ، وكتب اسمه عليه . وهو باق إلى اليوم بخط الكافورى ، ويعرف هناك بمسجد الخلفاء ، وفيه نخل وشجر ، وهو مرخم برخام حسن .

مسجد رشيد

هذا المسجد خارج باب زويلة ، بخط تحت الربع ، على يسرة من سلك من دار التفاح يريد قنطرة الخرق . بناه رشيد الدين البهائى .

المسجد المعروف بزرع النوى

هذا المسجد خارج باب زويلة ، بخط سوق الطيور على يسره من سلك من رأس المنجبية طالباً جامع قوصون والصليبية . وتزعم العامة أنه بنى على قبر رجل يعرف بزرع النوى ، وهو من أصحاب رسول الله ﷺ .

وهذا أيضاً من افتراء العامة الكذب . فإن الذين أفردوا أسماء الصحابة رضى الله عنهم - كالإمام أبى عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى فى تاريخه الكبير ، وابن أبى خيثمة ، والحافظ أبى عبدالله بن منذر ، والحافظ أبى نعيم الأصفهانى ، والحافظ أبى عمر بن عبدالبر ، والفقيه الحافظ أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم - لم يذكر أحد منهم صحابيا يعرف بزرع النوى .

وقد ذكر فى أخبار القرافة من هذا الكتاب من قبر بمصر من الصحابة، وذكر فى أخبار مدينة فسطاط مصر أيضاً من دخل مصر من الصحابة، وليس هذا منهم. وهذا إن كان هناك قبر، فهو لأمين الأمناء أبى عبدالله الحسين بن طاهر الوزان.

وكان من أمره أن الخليفة الحاكم بأمر الله أبا على منصور بن العزيز بالله، خلع عليه للوساطة بينه وبين الناس، والتوقيع عن الحضرة، فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعمائة. وكان قبل ذلك يتولى بيت المال، فاستخدم فيه أخاه أبا الفتح مسعوداً. وكان قد ظفر بمال يكون عشرات . . . . . وصياغات وأمتعة وطرائف وفرش وغير ذلك، فى عدة آدر بمصر، وجميعه مما خلفه قائد القواد الحسين بن جوهر القائد. فباع المتاع، وأضاف ثمنه إلى العين، فحصل منه مال كثير، وطالع الحاكم بأمر الله به أجمع لورثة قائد القواد، ولم يتعرض منه لشئ.

وكثرت صلات الحاكم وعطاؤه وتوقيعاته، فانطلق فى ذلك. فاتصل به عن أمين الأمناء بعض التوقف، فخرجت إليه رقعة بخطه فى الثامن والعشرين من شهر رجب سنة ثلاثة وأربعمائة نسختها: «بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله كما هو أهله:

أصبحت لا أرجو ولا أتقى
إلا إلهى وله الفضل
جدى نبيى وإمامى أبى
ودينى الإخلاص والعدل

ما عندكم ينفذ، وما عند الله باق، المال مال الله عز وجل، والخلق عيال الله، ونحن أمناؤه فى الأرض، أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها، والسلام».

ولم يزل على ذلك إلى أن بطل أمره فى جمادى الآخرة من سنة خمس وأربعمائة. . . وذلك أنه ركب مع الحاكم على عادته. فلما حصل بحارة كتامة خارج القاهرة، ضرب رقبته هناك، ودفن فى هذا الموضع تخميناً. واستحضر الحاكم جماعة الكتاب بعد قتله، وسأل رؤساء الدواوين عما يتولاه كل واحد منهم، وأمرهم بلزوم دواوينهم وتوفرهم على الخدمة.

وكانت مدة نظر ابن الوزان فى الوساطة والتوقيع عن الحضرة - وهى رتبة الوزارة - سنتين وشهرين وعشرين يوماً. وكان توقيعه عن الحضرة الإمامية «الحمد لله وعليه توكلى».

مسجد الذخيرة

هذا المسجد تحت قلعة الجبل، بأول الرميلة، تجاه شبابيك مدرسة السلطان حسن ابن محمد بن قلاوون التى تلى بابها الكبير الذى سده الملك الظاهر برقوق. أنشأه ذخيره الملك جعفر متولى الشرطة.

قال ابن المأمون فى تاريخه: وفى هذه السنة (يعنى سنة ست عشرة وخمسمائة) استخدم ذخيرة الملك جعفر فى ولاية القاهرة والحسبة بسجل أنشأه ابن الصيرفى، وجرى من عسفه وظلمه ما هو مشهور، وبنى المسجد الذى ما بين الباب الجديد إلى الجبل الذى هو به معروف.

وسمى «مسجد لا بالله» بحكم أنه كان يقبض الناس من الطريق ويعسفهم، فيحلفونه ويقولون له: «لا بالله»، فيقيدهم ويستعملهم فيه بغير أجرة، ولم يعمل فيه منذ أنشأه إلا صانع مكره أو فاعل مقيد. وكتبت عليه هذه الأبيات المشهورة:

بنى مسجداً لله من غير حله

وكان بحمد الله غير موفق

كمطعمة الأيتام من كد فرجها

لك الويل لاتزنى ولاتتصدقى

وكان قد أبدع فى عذاب الجناة وأهل الفساد، وخرج عن حكم الكتاب. فابتلى بالأمراض الخارجة عن المعتاد، ومات بعدما عجل الله له ما قدمه، وتجنب الناس تشييعه والصلاة عليه، وذكر عنه فى حالتى غسله وحلوله بقبره ما يعيذ الله كل مسلم من مثله.

وقال أبن عبدالظاهر: مسجد الذخيرة تحت قلعة الجبل. وذكر ما تقدم عن ابن المأمون.

مسجد رسلان

هذا المسجد بحارة اليانسية. عرف بالشيخ الصالح رسلان لإقامته به، وقد حكيت عنه كرامات، ومات به فى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، وكان يتقوت من أجره خياطته للثياب. وابنه عبدالرحمن بن محمد بن رسلان أبو القاسم كان فقيهاً محدثاً مقرئاً. مات فى سنة سبع وعشرين وستمائة.

مسجد ابن الشيخى

هذا المسجد بخط الكافورى، مما يلى باب القنطرة وجهة الخليج، مجاور لدار ابن الشيخ. أنشأة المهتار ناصر الدين محمد بن علاء الدين على الشيخى، مهتار السلطان بالإصطبلات السلطانية، وقرر فيه شيخنا تقى الدين محمد بن حاتم، فكان يعمل فيه ميعادا يجتمع الناس فيه لسماع وعظه.

وكان ابن الشيخى هذا حشماً فخوراً خيراً، يحب أهل العلم والصلاح ويكرمهم، ولم نر بعده فى رتبته مثله، ومات ليلة الثلاثاء أول يوم من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة.

مسجد يانس

هذا المسجد كان تجاه باب سعادة خارج القاهرة.

قال ابن المأمون فى تاريخه: وكان الأجل المأمون (يعنى الوزير محمد بن فاتك البطائحى) قد ضم إليه عدة من مماليك الأفضل بن أمير الجيوش من جملتهم يانس، وجعله مقدماً على صبيان مجلسه، وسلم إليه بيت ماله، وميزه فى رسومه.

فلما رأى المذكور فى ليلة النصف من شهر رجب (يعنى سنة ست عشرة وخمسمائة) ما عمل فى المسجد المستجد قبالة باب الخوخة من الهمة ووفور الصدقات وملازمات الصلوات وما حصل فيه من المثوبات، كتب رقعة يسأل فيها أن يفسح له فى بناء مسجد بظاهر باب سعادة.

فلم يجبه المأمون إلى ذلك، وقال له: ما ثم مانع من عمارة المساجد، وأرض الله واسعة. وإنما هذا الساحل فيه معونة للمسلمين وموردة للسقائين، وهو مرسى مراكب الغلة، والمضرة فى مضايقة المسلمين فيه منه، ولو لم يكن المسجد المستجد قبالة باب الخوخة محرساً لما استجد، حتى أنا لم نخرج بساحته الأولى، فإن أردت أن تبنى قبلى مسجد الريفى، أو على شاطئ الخليج، فالطريق ثم سهلة. فقبل الأرض وامتثل الأمر.

فلما قبض على المأمون، وأمَّر الخليفة يانس المذكور، ولم يزل ينقله إلىٰ أن استخدمه فى حجبه بابه. . سأله فى مثل ذلك، فلم يجبه. إلى أن أخذ الوزارة، فبناه فى المكان المذكور، وكانت مدته يسيرة، فتوفى قبل إتمامه واكماله، فكمله أولاد بعد وفاته. انتهى.

وقد تقدم خبر وزارة أبى الفتح ناظر الجيوش يانس الأرمنى هذا عند ذكر الحارة اليانسية من هذا الكتاب.

مسجد باب الخوخة

هذا المسجد تجاه باب الخوخة بجوار مدرسة أبى غالب.

قال أبن المأمون فى تاريخه من حوادث سنة ست عشرة وخمسمائة: ولما سكن المأمون الأجل دار الذهب وما معها (يعنى فى أيام النيل للنزهة عند سكن الخليفة الآمر بأحكام الله بقصر اللؤلؤة المطل على الخليج) رأى قبالة باب الخوخة محرساً. فاستدعى وكيله، وأمره بأن يزيل المحرس المذكور، ويبنى موضعه مسجداً. وكان الصناع يعملون فيه ليلاً ونهاراً، حتى أنه تفطر بعد ذلك واحتيج إلى تجديده.

المسجد المعروف بمعبد موسى

هذا المسجد بخط الركن المخلق من القاهرة، تجاه باب الجامع الأقمر المجاور لحوض السبيل، وعلى يمنة من سلك من بين القصرين طالباً رحبة باب العيد. أول من اختطه القائد جوهر عندما وضع القاهرة.

قال ابن عبدالظاهر: ولما بنى القائد جوهر القصر، دخل فيه دير العظام ـ وهو المكان المعروف الآن بالركن المخلق، قبالة حوض الجامع الأقمر وقريب دير العظام، والمصريون يقولون بئر العظمة ـ فكره أن يكون فى القصر دير. فنقل العظام التى كانت به والرم إلى دير بناه فى الخندق، لأنه كان يقال إنها كانت عظام جماعة من الحوارين، وبنى مكانها مسجداً من داخل السور (يعنى سور القصر).

وقال جامع سيرة الظاهر بيبرس: وفى ذى الحجة سنة ستين وستمائة، ظهر بالمسجد الذى بالركن المخلق من القاهرة حجر مكتوب عليه «هذا معبد موسى بن عمران عليه السلام». فجددت عمارته، وصار يعرف بمعبد موسى من حينئذ، ووقف عليه ربع بجانبه، وهو باق إلى وقتنا هذا.

مسجد نجم الدين

هذا المسجد ظاهر باب النصر. أنشأة الملك الأفضل نجم الدين أبو سعيد أيوب بن شادى يعقوب بن مروان الكردى، والد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وجعل إلى جانبه حوض ماء للسبيل ترده الدواب فى سنة ست وستين وخمسمائة.

ونجم الدين هذا قدم هو وأخوه أسد الدين شيركوه من بلاد الأكراد إلىٰ بغداد، وخدم بها، وترقى فى الخدم حتى صار دزدارا بقلعة تكريت ومعه أخوه. ثم إنه انتقل عنها إلى خدمة الملك المنصور عماد الدين أتابك زنكى بالموصل، فخدمه حتى مات، فتعلق بخدمة

ابنه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى، فرقاه وأعطاه بعلبك، وحج من دمشق سنة خمس وخمسمائة.

فلما قدم ابنه صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عمه أسد الدين شيركوه، من عند نور الدين محمود إلى القاهرة، وصار إلى وزارة العاضد بعد موت شيركوه، قدم عليه أبوه نجم الدين فى جمادى الآخرة سنة خمس وستين وخمسمائة، وخرج العاضد إلى لقائه، وأنزله بمناظر اللؤلؤة.

فلما استبد صلاح الدين بسلطنة مصر بعد موت الخليفة العاضد، أقطع أباه نجم الدين الإسكندرية والبحيرة، إلى أن مات بالقاهرة فى يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثمان وستين وخمسمائة - وقيل فى ثامن عشره - من سقطة عن ظهر فرسه خارج باب النصر، فحمل إلى داره، فمات بعد أيام.

وكان خيراً جواداً، متديناً، محباً لأهل العلم والخير، وما مات حتى رأى من أولاده عدة ملوك، وصار يقال له أبو الملوك. ومدحه العماد الأصبهانى بعدة قصائد، ورثاه الفقيه عمارة بقصيدته التى أولها :

هى الصدمة الأولى فمن بان صبره

على هول ملقاه تعاظم أمره

مسجد صواب

هذا المسجد خارج القاهرة بخط الصليبة. عرف بالطواشى شمس الدين صواب، مقدم المماليك السلطانية، ومات فى ثامن رجب سنة اثنتين وأربعين وستمائة، ودفن به. وكان خيراً، دينا، فيه صلاح.

مسجد تبر

هذا المسجد خارج القاهرة مما يلى الخندق. عرف قديماً بالبئر والجميزة، وعرف بمسجد تبر، وتسميه العامة مسجد التبن وهو خطأ. وموضعه خارج القاهرة قريباً من المطرية.

قال القضاعى: مسجد تبر بنى على رأس إبراهيم بن عبدالله بن حسن بن الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنه. أنفذه المنصور فسرقه أهل مصر، ودفنوه هناك وذلك فى سنة خمس وأربعين ومائة، ويعرف بمسجد البئر والجميزة.

وقال الكندى فى كتاب «الأمراء»: ثم قدمت الخطباء إلى مصر برأس إبراهيم بن عبدالله بن حسن بن الحسين بن على بن أبى طالب، فى ذى الحجة سنة خمس وأربعين ومائة، لينصبوه فى المسجد الجامع، وقامت الخطباء فذكروا أمره.

وتبر هذا أحد الأمراء الأكابر فى أيام الأستاذ كافور الأخشيدى. فلما قدم جوهر القائد من المغرب بالعساكر، ثار تبر الأخشيدى هذا فى جماعة من الكافورية والإخشيدية وحاربه، فانهزم بمن معه إلى أسفل الأرض. فبعث جوهر يستعطفه، فلم يجب، وأقام على الخلاف، فسير إليه عسكراً حاربه بناحية صهرجت فانكسر، وصار إلى مدينة صور التى كانت على الساحل فى البحر.

فقبض عليه بها، أدخل إلى القاهرة على فيل، فسجن إلى صفر سنة ستين وثلاثمائة. فاشتدت المطالبة عليه، وضرب بالسياط، وقبضت أمواله، وحبس عدة من أصحابه بالمطبق فى القيود إلى ربيع الآخر منها. فجرح نفسه، وأقام أياماً مريضاً ومات، فسلخ بعد موته، وصلب عند كرسى الجبل.

وقال ابن عبدالظاهر: أنه حشى جلده تبنا وصلب، فربما سمت العامة مسجده بذلك لما ذكرناه. وقيل أن تبرا هذا خادم الدولة المصرية، وقبره بالمسجد المذكور. . . . قال مؤلفه: هذا وهم، وإنما هو تبر الإخشيدى.

مسجد القطبية

هذا المسجد كان حيث المدرسة المنصورية بين القصرين، والله أعلم.

ذكر الخوانك

الخوانك جمع خانكاه، وهي كلمة فارسية معناها بيت. وقيل أصلها خونقاه، أي الموضع الذي يأكل فيه الملك. والخوانك حدثت في الإسلام في حدود الأربعمائة من سني الهجرة، وجعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى.

قال الأستاذ أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري رحمه الله: اعلموا أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ، لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى «صحبة رسول الله ﷺ»، إذ لا فضيلة فوقها، فقيل لهم «الصحابة». ولما أدرك أهل العصر الثاني، سمي من صحب الصحابة «التابعين»، ورأوا ذلك أشرف سمة، ثم قيل لمن بعدهم «أتباع التابعين».

ثم اختلف الناس، وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين «الزهاد» و «العبّاد». ثم ظهرت البدع، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق أدعوا أن فيهم زهاداً. فانفرد خواص أهل السنة ـ المراعون أنفسهم مع الله، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة ـ باسم «التصوف»، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة.

قال: وهذه التسمية غلبت على هذه الطائفة. فيقال: رجل صوفي، وللجماعة: الصوفية، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له: متصوف، وللجماعة: المتصوفة. وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق، والأظهر فيه أنه كاللقب. فأما قول من قال إنه من الصوف، وتصوف إذا لبس الصوف ـ كما يقال تقمص إذا لبس القميص ـ فذلك وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف.

ومن قال إنهم ينسبون إلى صُفَّة مسجد رسول الله ﷺ ، فالنسبة إلى الصفة لاتجئ على نحو الصوفى . ومن قال إنه من الصفاء ، فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة . وقول من قال إنه مشتق من الصف ، فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة مع الله تعالى ، فالمعنى صحيح لكن اللغة لاتقتضى هذه النسبة من الصف . ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج فى تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق ، والله أعلم .

وقال الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردى رحمه الله : والصوفى يضع الأشياء فى مواضعها ، ويدير الأوقات والأحوال كلها . بالعلم يقيم الخلق مقامهم ، ويقيم أمر الحق مقامة ، ويستر ما ينبغى أن يستر ، ويظهر ما ينبغى أن يظهر ، ويأتى بالأمور من مواضعها . . . بحضور عقل ، وصحة توحيد ، وكمال معرفة ، ورعاية صدق وإخلاص .

فقوم من المفتونين لبسوا ألبسة الصوفية لينسبوا إليهم ، وما هم منهم بشئ ، بل هم فى غرور وغلط يتسترون بلبسة الصوفية توقيا تارة ودعوة أخرى ، وينتهجون مناهج أهل الإباحة ، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى ، وأن هذا هو الظفر بالمراد ، والارتسام بمراسم الشريعة . . . رتبة العوام والقاصرين الأفهام ، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبعاد . ولله در القائل :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا
فيه ، وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى
صافى وصوفى حتى سمى الصوفى

قال مؤلفه : ذهب والله ما هنالك ، وصارت الصوفية كما قال الشيخ فتح الدين محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمرى :

ما شروط الصوفى فى عصرنا اليـــو

م ســـــوى ستة بغير زيادة

وهى (. . .) العلوق والسكر والسط

له والرقص والغنا والقياده

وإذا ما هـــذى وأبـدى اتحـــاداً

وحـلولاً من جهله أو إعاده

وأتى المنكرات عقـــلاً وشـرعاً

فهو شيخ الشيوخ ذو السجادة

ثم تلاشى الآن حال الصوفية ومشايخها حتى صاروا من سقط المتاع، لاينسبون إلى علم ولا ديانة، وإلى الله المشتكى.

وأول من اتخذ بيتاً للعبادة زيد بن صوحان بن صبرة. وذلك أنه عمد إلى رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة - وليس لهم تجارات ولا غلات - فبنى لهم دوراً، وأسكنهم فيها، وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس وغيره.

فجاء يوما ليزورهم، فسأل عنهم. فإذا عبدالله بن عامر، عامل البصرة لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه، قد دعاهم، فأتاه، فقال له: يا ابن عامر، ما تريد من هؤلاء القـوم؟

قال: أريد أن أقربهم فيشفعوا فأشفعهم، ويسألوا فأعطيهم، ويشيروا على فأقبل منهم.

فقال: لا، ولا كرامة! فتأتى إلى قوم قد انقطعوا إلى الله تعالى، فتدنسهم بدنياك، وتشركهم فى أمرك. حتى إذا ذهبت أديانهم، أعرضت عنهم، فطاحوا لا إلى الدنيا ولا إلى الآخرة.. قوموا فارجعوا إلى مواضعكم. فقاموا. فأمسك ابن عامر، فما نطق بلفظة... ذكره أبو نعيم.

الخانكاه الصلاحية
دار سعيد السعداء دويرة الصوفية

هذه الخانكاه بخط رحبه باب العيد من القاهرة . كانت أولاً داراً تعرف فى الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء - وهو الأستاذ قنبر ، ويقال عنبر ، وذكر ابن ميسر أن اسمه بيان ، ولقبه سعيد السعداء - أحد الأستاذين المحنكين خدام القصر ، عتيق الخليفة المستنصر . قتل فى سابع شعبان سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، ورمى برأسه من القصر ، ثم صلبت جثته بباب زويلة من ناحية الخرق .

وكانت هذه الدار مقابل دار الوزارة . ، فلما كانت وزارة العادل رزيك بن الصالح طلائع ابن رزيك سكنها ، وفتح من دار الوزارة إليها سرداباً تحت الأرض ليمر فيه . ثم سكنها الوزير شاور بن مجير فى أيام وزارته ، ثم ابنه الكامل .

فلما استبد الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد ، وغير رسوم الدولة الفاطمية ، ووضع من قصر الخلافة ، وأسكن فيه أمراء دولته الأكراد . . . عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفيه الواردين من البلاد الشاسعة ، ووقفها عليهم فى سنة تسع وستين وخمسمائة ، وولى عليهم شيخاً ، ووقف عليهم بستان الحبانية بجوار بركة الفيل خارج القاهرة ، وقيسارية الشراب بالقاهرة ، وناحية دهمرو من البهنساوية .

وشرط أن من مات من الصوفية ، وترك عشرين ديناراً فما دونها كانت للفقراء ، ولا يتعرض لها الديوان السلطانى ، ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره . ورتب للصوفية فى كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً ، وبنى لهم حماماً بجوارهم .

فكانت أول خانكاه عملت بديار مصر ، وعرفت بدويره الصوفية ، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ . واستمر ذلك بعده إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ست وثمانمائة ، واتضعت الأحوال ، وتلاشت الرتب ، فلقب كل شيخ خانكاه بشيخ الشيوخ .

وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح، وترجى بركتهم. وولى مشيختها الأكابر والأعيان ـ كأولاد شيخ الشيوخ بن حمويه ـ مع ما كان لهم من الوزارة والإمارة، وتدبير الدولة، وقيادة الجيوش، وتقدمة العساكر. ووليها ذو الرياستين، والوزير الصاحب، قاضى القضاة تقى الدين عبدالرحمن، ابن ذى الرياستين الوزير الصاحب قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز، وجماعة من الأعيان. ونزل بها الأكابر من الصوفية.

وأخبرنى الشيخ أحمد بن على القصار، رحمه الله، أنه أدرك الناس فى يوم الجمعة يأتون من مصر إلى القاهرة، ليشاهدوا صوفية خانقاه سعيد السعداء، عندما يتوجهون منها إلى صلاة الجمعة بالجامع الحاكمى، كى تحصل لهم البركة والخير بمشاهدتهم.

وكان لهم فى يوم الجمعة هيئة فاضلة. وذلك أنه يخرج شيخ الخانقاه منها، وبين يديه خدام الربعة الشريفة ـ قد حملت على رأس أكبرهم ـ والصوفية مشاة بسكون وخفر إلى باب الجامع الحاكمى الذى يلى المنبر، فيدخلون إلى مقصورة كانت هناك على يسرة الداخل من الباب المذكور ـ تعرف بمقصورة البسملة، فإنه بها إلى اليوم بسملة قد كتبت بحروف كبار ـ فيصلى الشيخ تحية المسجد تحت سحابة منصوبة له دائماً، وتصلى الجماعة. ثم يجلسون، وتفرق عليهم أجزاء الربعة، فيقرأون القرآن حتى يؤذن المؤذنون، فتؤخذ الأجزاء منهم، ويشتغلون بالتركع واستماع الخطبة وهم منصتون خاشعون.

فإذا قضيت الصلاة والدعاء بعدها، قام قارئ من قراء الخانقاه، ورفع صوته بقراءه ما تيسر من القرآن، ودعا للسلطان صلاح الدين ولواقف الجامع ولسائر المسلمين. فإذا فرغ قام الشيخ من مصلاه، وسار من الجامع إلى الخانقاه والصوفية معه كما كان توجههم إلى الجامع. فيكون هذا من أجمل عوايد القاهرة.

وما برح الأمر على ذلك. إلى أن ولى الأمير يلبغا السالمى نظر الخانقاه المذكورة، فى يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة سنة سبع وتسعين وسبعمائة، فنزل إليها وأخرج كتاب الوقف، وأراد العمل بما فيه من شرط الواقف. فقطع من الصوفية المنزلين بها عشرات ممن له منصب، ومن هو مشهور بالمال، وزاد الفقراء المجردين ـ وهم المقيمون بها ـ فى كل يوم

رغيفاً من الخبز، فصار لكل مجرد أربعة أرغفة بعدما كانت ثلاثة، ورتب بالخانقاه وظيفتى ذكر بعد صلاة العشاء الآخرة، وبعد صلاة الصبح.

فكثر النكير على السالمى ممن أخرجهم، وزاد الأشلاء، فقال بعض أدباء العصر فى ذلك:

يا أهل خانقة الصلاح أراكم
ما بين شـــاك للزمان وشاتم
يكفيكم ما قد أكلتم باطـــلاً
من وقفها وخرجتم بالسالم

وكان سبب ولاية السالمى نظر الخانقاه المذكورة، أن العادة كانت قديماً أن الشيخ هو الذى يتحدث فى نظرها. فلما كانت أيام الظاهر برقوق ولى مشيختها شخص، يعرف بالشيخ محمد البلالى، قدم من البلاد الشامية، وصار للأمير سودون الشيخونى - نائب السلطنة بديار مصر - فيه اعتقاد. فلما سعى له فى المشيخة، واستقر فيها بتعيينة، سأله أن يتحدث فى النظر إعانة له، فتحدث.

وكانت عدة الصوفية بها نحو الثلاثمائة رجل: لكل منهم فى اليوم ثلاثة أرغفة زنتها ثلاثة أرطال خبز، وقطعة لحم زنتها ثلث رطل فى مرق، ويعمل لهم الحلوى فى كل شهر، ويفرق فيهم الصابون، ويعطى كل منهم فى السنة عن ثمن كسوة قدر أربعين درهماً. فنزل الأمير سودون عندهم جماعة كثيرة عجز ريع الوقف عن القيام لهم بجميع ما ذكر، فقطعت الحلوى والصابون والكسوة.

ثم إن ناحية دهمرو شرقت فى سنة تسع وتسعين لقصور ماء النيل، فوقع العزم على غلق مطبخ الخانقاه وإبطال الطعام، فلم تحتمل الصوفية ذلك، وتكررت شكواهم للملك الظاهر برقوق. فولى الأمير يلبغا السالمى النظر، وأمره أن يعمل بشرط الواقف.

فلما نزل إلى الخانقاه وتحدث فيها، اجتمع بشيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينى، وأوقفه على كتاب الوقف. فأفتاه بالعمل بشرط الواقف، وهو أن الخانقاه تكون وقفاً على الطائفة الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة والقاطنين بالقاهرة ومصر، فإن لم يوجدوا كانت على الفقراء من الفقهاء الشافعية والمالكية الأشعرية الاعتقاد.

ثم أنه جمع القضاة وشيخ الإسلام وسائر صوفية الخانقاه بها، وقرأ عليهم كتاب الوقف وسأل القضاة عن حكم الله فيه. فانتدب للكلام رجلان من الصوفية هما زين الدين أبو بكر القمنى وشهاب الدين أحمد العبادى الحنفى، وارتفعت الأصوات، وكثر اللغط. فأشار القضاة على السالمى أن يعمل بشرط الواقف، وانصرفوا. فقطع منهم نحو الستين رجلاً منهم المذكوران.

فامتعض العبادى، وغضب من ذلك، وشنع بأن السالمى قد كفر، وبسط لسانه بالقول فيه، وبدت منه سماجات، فقبض عليه السالمى وهو ماش بالقاهرة، فاجتمع عدة من الأعيان وفرقوا بينهما، فبلغ ذلك السلطان، فأحضر القضاة والفقهاء، وطلب العبادى فى يوم الخميس ثامن شهر رجب، وادعى عليه السالمى. فاقتضى الحال تعزيره، فعزر وكشف رأسه، وأخرج من القلعة ماشياً بين يدى القضاة ووالى القاهرة إلى باب زويلة، فسجن بحبس الديلم، ثم نقل منه إلى حبس الرحبة.

فلما كان يوم السبت حادى عشره، استدعى إلى دار قاضى القضاة جمال الدين محمود القيصرى الحنفى، وضرب بحضرة الأمير علاء الدين على بن الطبلاوى، والى القاهرة، نحو الأربعين ضربة بالعصا تحت رجليه. ثم أعيد إلى الحبس، وأفرج عنه فى ثامن عشره بشفاعة شيخ الإسلام فيه.

ولما جدد الأمير يلبغا السالمى الجامع الأقمر، وعمل له منبراً، وأقيمت به الجمعة فى شهر ربيع الأول سنة إحدى وثمانمائة. . ألزم الشيخ بالخانقاه والصوفية أن يصلوا الجمعة به. فصاروا يصلون الجمعة فيه إلى أن زالت أيام السالمى، فتركوا الاجتماع بالجماع الأقمر، ولم يعودوا إلى ما كانوا عليه من الاجتماع بالجامع الحاكمى، ونسى ذلك.

ولم يكن بهذه الخانقاه مئذنة، والذى بنى هذه المئذنة شيخ ولى مشيختها، فى سنة بضع وثمانين وسبعمائة، يعرف بشهاب الدين أحمد الأنصارى. وكان الناس يمرون فى صحن الخانقاه بنعالهم، فجدد شخص من الصوفية بها - يعرف بشهاب الدين أحمد العثمانى - هذا الدرابزين، وغرس فيه هذه الأشجار، وجعل عليها وقفاً لمن يتعاهدها بالخدمة.

خانقاه ركن الدين بيبرس

هذه الخانقاه من جملة دار الوزارة الكبرى، التى تقدم ذكرها عند ذكر القصر من هذا الكتاب، وهى أجل خانقاه بالقاهرة بنيانا وأوسعها مقداراً وأتقنها صنعة. بناها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورى، قبل أن يلى السلطنة وهو أمير، فبدأ فى بنائها فى سنة ست وسبعمائة، وبنى بجانبها رباطاً كبيراً يتوصل إليه من داخلها، وجعل بجانب الخانقاه قبة بها قبره.

ولهذه القبة شبابيك تشرف على الشارع المسلوك فيه من رحبة باب العيد إلى باب النصر. من جملتها الشباك الكبير الذى حمله الأمير أبو الحارث البساسيرى من بغداد لما غلب الخليفة القائم العباسى، وأرسل بعمامته وشباكه الذى كان بدار الخلافة فى بغداد وتجلس الخلفاء فيه، وهو هذا الشباك كما ذكر فى أخبار دار الوزارة من هذا الكتاب.

فلما ورد هذا الشباك من بغداد، عمل بدار الوزارة، واستمر فيها. إلى أن عمر الأمير بيبرس الخانقاه المذكورة، فجعل هذا الشباك بقبة الخانقاه، وهو بها إلى يومنا هذا. وإنه لشباك جليل القدر حشم، يكاد يتبين عليه أبهة الخلافة.

ولما شرع فى بنائها رفق بالناس ولاطفهم، ولم يعسف فيها أحداً فى بنائها، ولا أكره صانعاً، ولا غصب من آلاتها شيئاً، وإنما اشترى دار الأمير عز الدين الأفرم التى كانت بمدينة مصر، واشترى دار الوزير هبة الله بن صاعد الفائزى، وأخذ ما كان فيهما من الأنقاض، واشترى أيضاً دار الأنماط التى كانت برأس حارة الجودرية من القاهرة ونقضها وما حولها، واشترى أملاكاً كانت قد بنيت فى أرض دار الوزارة من ملاكها بغير إكراه وهدمها. فكان قياس أرض الخانقاه والرباط والقبة نحو فدان وثلث.

وعندما شرع فى بنائها حضر إليه الأمير ناصر الدين محمد، ابن الأمير بكتاش الفخرى أمير سلاح، وأراد التقرب لخاطره، وعرفه أن بالقصر الذى فيه سكن أبيه مغارة تحت الأرض كبيرة، يذكر أن فيها ذخيرة من ذخائر الخلفاء الفاطميين، وأنهم لما فتحوها لم يجدوا

بهـا سوى رخـام كثير، فسدوها ولم يتعرضـوا لشئ مما فيـهـا. فسـر بذلك، وبعث عـدة من الأمراء فتحوا المكان، فإذا فيه رخـام جليل القدر عظيـم الهيئة، فيه ما لايوجد مثله لعظمه، فنقله من المغارة، ورخم منه الخانقاه والقبة وداره التى بالقرب من البندقـانيين وحارة زويلة، وفضل منه شئ كثير عهدى أنه مختزن بالخانقاه، وأظنه باق هناك.

ولما كـملت فى سنة تسع وسبعـمائة، قـرر بالخـانقـاه أربعـمـائة صـوفى، وبالرباط مـائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت، وجعل بها مطبخاً يفرق على كل منهم فى كل يوم اللحم والطعام وثلاثة أرغفة من خبر البر، وجعل لهم الحلوى، ورتب بالقبة درساً للحديث النبوى له مدرس وعنده عدة من المحدثين، ورتب القراء بالشباك الكبير يتناوبون القراءة فيه ليـلاً ونهـاراً، ووقف عليـهـا عـدة ضـيـاع بدمشق وحمـاة، ومنية المخلص بالجيـزة من أرض مصر، وبالصعيد والوجه البحرى، والربع والقيسارية بالقاهرة.

فلمـا خلع من السلطنة، وقبض عليه الملك الناصر محمد بن قلاوون وقتله، أمر بغلقها فـغلقت، وأخـذ سـائر مـا كـان موقـوفـاً عليـهـا، ومـحـا اسـمـه من الطراز الذى بظاهرها فـوق الشبابيك، وأقامت نحو عشرين سنة معطلة ثم إنه أمر بفتحهـا فى أول سنة ست وعشرين وسبعمائة ففتحت، وأعاد إليها ما كان موقوفاً عليها.

واستمرت إلى أن شرقت أراضى مصر لقصور مد النيل، أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين فى سنة ست وسبعين وسبعمائة، فبطل طعامها، وتعطل مطبخها، واستمر الخبر ومبلغ سبعة دراهم لكل واحد فى الشهر بدل الطعام، ن ثم صار لكل واحد منهم فى الشهر عشرة دراهم. فلما قصر مد النيل فى سنة ست وتسعين وسبعمائة بطل الخبز أيضاً، وغلق المخبز من الخانقاه، وصار الصوفية يأخذون فى كل شهر مبلغاً من الفلوس معاملة القاهرة، وهم على ذلك إلى اليوم.

وقد أدركنها ولا يمكّن بوابها غير أهلها من العبور إليها والصلاة فيها لما لها فى النفوس من المهـابة، ويمنع الناس من دخـولهـا حتى الفقـهـاء والأجناد، وكـان لا ينزل بهـا أمرد، وفـيهـا جمـاعة من أهل العلم والخيـر. وقد ذهب مـا هنالك، فنزل بهـا اليوم عـدة من الصغـار ومن الأساكفة وغيرهم من العامة. إلا أن أوقافها عامرة، وأرزاقها دارة بحسب نقود مصر.

ومن حسن بناء هذه الخانقاه أنه لم يحتج فيها إلى مرمة منذ بنيت إلى وقتنا هذا . وهى مبنية بالحجر ، وكلها عقود محكمة بدل السقوف الخشب ، وقد سمعت غير واحد يقول : إنه لم تبن خانقاه أحسن من بنائها .

الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورى

اشتراه الملك المنصورى قلاوون صغيراً ، ورقاه فى الخدم السلطانية إلى أن جعله أحد الأمراء ، وإقامة جاشنكير ، وعرف بالشجاعة .

فلما مات الملك المنصور ، خدم ابنه الملك الأشرف خليلاً . . إلى أن قتله الأمير بيدرا بناحية تروجة . فكان أول من ركب على بيدرا فى طلب ثأر الملك الأشرف ، وكان مهاباً بين خشداشيته ، فركبوا معه ، وكان من نصرتهم على بيدرا وقتله ما قد ذكر فى موضعه .

فاشتهر ذكره ، وصار أستادار السلطان فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية ، رفيقاً للأمير سلار نائب السلطنة ، وبه قويت الطائفة البرجية من المماليك ، واشتد بأسهم ، وصار الملك الناصر تحت حجر بيبرس وسلار إلى أن أنف من ذلك ، وصار إلى الكرك .

فأقيم بيبرس فى السلطنة يوم السبت ثالث عشرى شوال سنة ثمان وسبعمائة ، فاستضعف جانبه ، وانحط قدره ، ونقصت مهابته ، وتغلب عليه الأمراء والمماليك ، واضطربت أمور المملكة لمكان الأمير سلار ، وكثرة حاشيته ، وميل القلوب إلى الملك الناصر .

وفى أيامه عمل الجسر من قليوب إلى مدينة دمياط ، وهو مسيرة يومين طولاً فى عرض أربع قصبات من أعلاه وست قصبات من أسفله ، حتى أنه كان يسير عليه ستة من الفرسان معاً بحذاء بعضهم . وأبطل سائر الخمارات من السواحل وغيرها من بلاد الشام ، وسامح بما كان من المقرر عليها للسلطان ، وعوض الأجناد بدله ، وكبست أماكن الريب والفواحش

بالقـاهرة ومـصر ، وأريقت الخـمور ، وضـرب أناس كـثيـر فى ذلك بالمقـارع ، وتتبع أمـاكن الفـسـاد ، وبالـغ فى إزالتـه ، ولـم يراع فى ذلك أحـداً من الكتـاب ولا من الأمـراء . فـخف المنكر . وخفى الفساد .

إلا أن الله أراد زوال دولته ، فسولت له نفسه أن بعث إلى الملك الناصر بالكرك يطلب منه مـا خرج به معه من الخيل والمماليك ، وحمل الرسول إليه بذلك مشافهة أغلظ عليه فيها . فـحنق من ذلك ، وكـاتب نواب الشـام وأمراء مـصـر فى السر يشكو مـا حل به ، وترفق بهم وتلطف بهم فرقوا له ، وامتعضوا لما به .

ونزل الناصر من الكرم ، وبرز عنها . فاضـطرب الأمر بمصر ، واختل الحال من بيبرس ، وأخذ العسكر يسير من مصر إلى الناصر شيئاً بعد شئ . . وسار الناصر من ظاهر الكرك يريد دمشق فى غرة شعبان سنة تسع وسبعـمائة . فعندما نزل الكسوة ، خرج الأمراء وعامة أهل دمشق إلى لقائه ومعهم شعار السلطنة ، ودخلوا به إلى المدينة ـ وقد فرحوا به فرحاً كثيراً ـ فى ثانى عشر شعبان ، ونزل بالقلعة ، وكاتب النواب . فقدموا عليه ، وصارت ممالك الشام كلها تحت طاعته ، يخطب له بها ، ويجبى إليه مالها .

ثم خرج من دمشق بالعساكر يريد مصر ، وأمر بيبرس كل يوم فى نقص . . إلى أن كان يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان . فترك بيبرس المملكة ، ونزل من قلعة الجبل ومعه خواصه إلى جـهة باب القـرافة ، والعـامـة تصيح عليه وتسبه ، وترجـمه بالحـجارة ـ عـصبية للملك الناصر ، وحبا له ـ حتى صسار عن القرافة . ودعا الحرس بالقلعة ، فى يوم الأربعاء للملك الناصر ، فكانت مدة سلطنة بيبرس عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً .

وقـدم الملك الناصـر إلى قلعـة الجـبل أول يوم من شـوال ، وجلس علـى تخت المملكة ، واستولى على السلطنة مرة ثالثة . ونزل بيبرس بأطفيح ، ثم صار منها إلى أخميم ، فلما صار بها تفرق عنه من كـان معه من الأمراء والمماليك ، فصاروا إلى الملك الناصر ، فتوجه فى نفر يسير على طريق السويس يريد بلاد الشام ، فقبض عليه شرقى غزه ، وحمل مقيداً إلى الملك الناصر .

فوصل قلعة الجبل يوم الأربعاء ثالث عشر ذى القعدة، وأوقف بين يدى السلطان، وقبل الأرض، فعنفه، وعدد عليه ذنوباً، ووبخه، ثم أمر به فسجن فى موضع إلى ليلة الجمعة خامس عشره، وفيها لحق بربه تعالى. فحمل إلى القرافة، ودفن فى تربة الفارس أقطاى، ثم نقل منها بعد مدة إلى تربته بسفح المقطم فقبر بها زماناً طويلاً، ثم نقل منها ثالث مرة إلى خانقاهه، ودفن بقبتها، وقبره هناك إلى يومنا هذا. وأدركت بالخانقاه المذكورة شيخاً من صوفيتها أخبرنى أنه حضر نقله من تربته بالقرافة إلى قبة الخانقاه، وأنه تولى وضعه فى مدفنه بنفسه.

وكان رحمه الله خيراً عفيفاً، كثير الحياء، وافر الحرمة، جليل القدر، عظيماً فى النفوس، مهاب السطوة فى أيام إمرته. فلما تلقب بالسلطنة، ووسم باسم الملك، اتضع قدره، واستضعف جانبه، وطمع فيه، وتغلب عليه الأمراء والمماليك، ولم تنجح مقاصده، ولا سعد فى شئ من تدبيره إلى أن انقضت أيامه، وأناخ به حمامه، رحمه الله.

الخانقاه الجمالية

هذه الخانقاه بالقرب من درب راشد، يسلك إليها من رحبة باب العيد. بناها الأمير الوزير مغلطاى الجمالى فى سنة ثمانين وسبعمائة. وقد تقدم ذكرها عند ذكر المدارس من هذا الكتاب.

الخانقاه الظاهرية

هذه الخانقاه بخط بين القصرين، فيما بين المدرسة الناصرية ودار الحديث الكاملية. أنشأها الملك الظاهر برقوق فى سنة ست وثمانين وسبعمائة. وقد ذكرت عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب.

الخانقاه الشرابيشية

هذه الخانقاه فيما بين الجامع الأقمر وحارة برجوان، فى آخر المنحر الذى كان للخلفاء، وهو يعرف اليوم بالدرب الأصفر، ويتوصل منها إلى الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس، وبابها الأصلى من زقاق ضيق بوسط سوق حارة برجوان. أنشأها الصدر الأجل نور الدين على بن محمد بن محاسن الشرابيشى، وكان من ذوى الغنى واليسار، صاحب ثراء متسع، وله عدة أوقاف على جهات البر والقربات، ومات فى . . . . . .

الخانقاه المهمندارية

هذه الخانقاه خارج باب زويلة، فيما بين رأس حارة اليانسية وجامع الماردينى. بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزى، المهمندار ونقيب الجيوش، فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة. وقد ذكرت فى المدارس من هذا الكتاب.

خانقاه بشتاك

هذه الخانقاه خارج القاهرة، على جانب الخليج من البر الشرقى، تجاه جامع بشتاك. أنشأها الأمير سيف الدين بشتاك الناصرى، وكان فتحها أول يوم من ذى الحجة سنة ست وثلاثين وسبعمائة، واستقر فى مشيختها شهاب الدين القدسى، وتقرر عنده عدة من الصوفية، وأجرى لهم الخبز والطعام فى كل يوم.

فاستمر ذلك مدة، ثم بطل وصار يصرف لأربابها عوضاً عن ذلك فى كل شهر مبلغ، وهى عامرة إلى وقتنا هذا. وقد نسب إليها جماعة، منهم الشيخ الأديب البارع بدر الدين محمد بن إبراهيم، المعروف بالبدر البشتكى.

خانقاه ابن غراب

هذه الخانقاه خارج القاهرة، على الخليج الكبير من بره الشرقى، بجوار جامع بشتاك من غربيه. أنشأها القاضى الأمير سعد الدين إبراهيم بن عبدالرزاق بن غراب الإسكندرانى ناظر الخاص، وناظر الجيوش، وأستادار السلطان، وكاتب السر، وأحد أمراء الألوف الأكابر. أسلم جده غراب، وباشر بالإسكندرية حتى ولى نظر الثغر، ونشأ أبنه عبدالرزاق هناك، فولى أيضاً نظر الإسكندرية، وولد له ماجد وإبراهيم.

فلما تحكم الأمير جمال الدين محمود بن على فى الأموال أيام الملك الظاهر برقوق، اختص بإبراهيم، وحمله إلى القاهرة وهو صبى، واعتنى به، واستكتبه فى خاص أموال حتى عرفها.

فتنكر محمود عليه لأمر بدا منه فى ماله، وهم به، فبادر إلى الأمير علاء الدين على بن الطبلاوى، وترامى عليه - وهو يومئذ قد نافس محموداً - فأوصله بالسلطان، وأمكنه من سماع كلامه، فملأ أذنه بذكر أموال محمود، ووغر صدره عليه حتى نكبه، واستصفى أمواله كما ذكر فى خبره عند ذكر مدرسة محمود من هذا الكتاب.

وولى ابن غراب نظر الديوان المفرد فى حادى عشر صفر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وعمره عشرون سنة أو نحوها - وهى أول وظيفة وليها - فاختص بابن الطبلاوى ولازمة وملأ عينه بكثرة المال. فتحدث له فى وظيفة نظر الخاص، عوضاً عن سعد الدين أبى الفرج ابن تاج الدين موسى، فوليها فى تاسع عشر ذى القعدة، وغص بمكان ابن الطبلاوى، فعمل عليه عند السلطان حتى غيره عليه، وولاه أمره، فقبض عليه فى داره وعلى سائر أسبابه فى شعبان فى سنة ثمانمائة.

ثم أضيف إليه نظر الجيوش، عوضاً عن شرف الدين محمد الدمامينى، فى تاسع ذى القعدة سنة ثمانمائة، فعف عن تناول الرسوم وأظهر من الفخر والحشمة والمكارم أمراً كبيراً. وقدر الله موت السلطان فى شوال سنة إحدى وثمانمائة، بعدما جعله من جملة أوصيائه،

فباطن الأمير يشبك الخازندار على إزالة الأمير الكبير أيتمش القائم بدولة الناصر فرج بن برقوق، وعمل لذلك أعمالاً، حتى كانت الحرب - بعد موت السلطان الملك الظاهر - بين الأمير أيتمش وبين الأمير يشبك، في ربيع الأول سنة اثنتين وثمانمائة، التي انهزم فيها أيتمش وعدة من الأمراء إلى الشام.

وتحكم الأمير يشبك. فاستدعى عند ذلك ابن غراب أخاه فخر الدين ماجداً من الإسكندرية، وهو يلي نظرها، إلى قلعة الجبل، وفوضت إليه وزارة الملك الناصر فرج ابن برقوق، فقاما بسائر أمور الدولة. . . إلى أن ولى الأمير يلبغا السالمي الأستادارية. فسلك معه عادته من المنافسة، وسعى به عند الأمير يشبك حتى قبض عليه، وتقلد وظيفة الأستادارية عوضاً عن السالمي، في رابع عشر رجب سنة ثلاث وثمانمائة، مضافاً إلى نظر الخاص ونظر الجيوش. فلم يغير زي الكتاب، وصار له ديوان كدواوين الأمراء، ودقت الطبول على بابه، وخاطبه الناس وكاتبوه بالأمير، وسار في ذلك سيرة ملوكية من كثرة العطاء، وزيادة الأسمطة، والاتساع في الأمور، والأزدياد من المماليك والخيول، والاستكثار من الخول والحواشي. . حتى لم يكن أحد يضاهيه في شيء من أحواله. إلى أن تنازع الأميران حكم وسودون طاز مع الأمير يشبك، فكان هو المتولي كبر تلك الحروب.

ثم أنه خرج من القاهرة مغاضباً لأمراء الدولة، وصار إلى ناحية تروجة يريد جمع العربان ومحاربة الدولة، فلم يتم له ذلك وعاد، فدخل القاهرة على حين غفلة، فنزل عند جمال الدين يوسف الأستادار، فقام بإصلاح أمره مع الأمراء حتى حصل له الغرض، فظهر واستولى على ما كان عليه.

إلى أن تنكرت رجال الدولة على الملك الناصر، فقام مع الأمير يشبك بحرب السلطان إلى أن انهزم الأمير يشبك بأصحابه إلى الشام، فخرج معه في سنة تسع وثمانمائة، وأمده ومن معه بالأموال العظيمة حتى صاروا عند الأمير شيخ نائب الشام، واستفز العساكر لقتال الملك الناصر، وحرضهم على المسير إلى حربه، وخرج من دمشق مع العساكر يريد القاهرة.

وكان من وقعة السعيدية ما كان، على ما هو مذكور فى خبر الملك الناصر، عند ذكر الخانقاه الناصرية من هذا الكتاب. فاختفى الأمير يشبك وطائفه من الأمراء بالقاهرة، ولحق ابن غراب بالأمير إينال باى ابن قجماس - وهو يومئذ كبير الأمراء الناصرية - وملأ عينه بالمال. فتوسط له مع الملك الناصر حتى أمنة، وأصبح فى داره وجميع الناس على بابه.

ثم تقلد وظيفة نظر الجيوش، واختص بالسلطان، ومازال به حتى استرضاه على الأمير يشبك ومن معه من الأمراء، وظهروا من الاستتار، وصاروا بقلعة الجبل، فخلع عليهم السلطان وأمَّرهم، وصاروا إلى دورهم. فثقل على ابن غراب مكان فتح الدين فتح الله كاتب السر، فسعى به حتى قبض عليه، وولى مكانه كتابه السر ليتمكن من أغراضه.

فلما استقر فى كتابة السر، أخذ فى نقض دولة الناصر، إلى أن تم له مراده، فصارت الدولة كلها على الناصر، خلا به، وخيل له، وحسن له الفرار، فانقاد له، وترامى عليه فأعد له رجلين أحدهما من مماليكه، ومعهما فرسان، ووقفا بهما وراء القلعة، وخرج الناصر وقت القائلة، ومعه مملوك من مماليكه يقال له بيعوت، وركبا الفرسين، وسارا إلى ناحية طرا، ثم عادا مع قاصدى ابن غراب فى مركب من المراكب النيلية ليلاً إلى دار ابن غراب، ونزلاً عنده، وقد خفى ذلك على جميع أهل الدولة.

وقام ابن غراب بتوليه عبدالعزيز بن برقوق، وأجلسه على تخت الملك عشاء، ولقبه بالملك المنصور، ودبر الدولة كما أحب مدة سبعين يوماً. إلى أن أحس من الأمراء بتغير، فأخرج الناصر ليلاً، وجمع عليه عدة من الأمراء والمماليك، وركب معه بلامة الحرب إلى القلعة. فلم يلبث أصحاب المنصور وانهزموا، ودخل الناصر إلى القلعة، وأستولى على المملكة ثانياً، فألقى مقاليد الدولة إلى ابن غراب، وفوض إليه ما وراء سريره، ونظمه فى خاصته، وجعله من أكابر الأمراء، وناط به جميع الأمور.

فأصبح مولى نعمة كل من السلطان والأمراء: يمن عليهم بأنه أبقى لهم مهجهم، وأعاد إليهم سائر ما كانوا قد سلبوه من ملكهم، وأمدهم بماله وقت حاجتهم وفاقتهم إليه، ويفخر ويتكثر بأنه أقام دولة وأزال دولة، ثم أزال ما أقام وأقام ما أزال، من غير حاجة ولا ضرورة ألجأته إلى شئ من ذلك، وأنه لو شاء أخذ الملك لنفسه.

وترك كتابة السر لغلامه وأحد كتابه فخر الدين بن المزوق، ترفعاً عنها واحتقاراً بها، ولبس هيئة الأمراء - وهى الكلوتة والقباء - وشد السيف فى وسطه، وتحول من داره التى على بركة الفيل إلى دار بعض الأمراء بحدرة البقر. فغاضبه القضاة، وكان عند الانتهاء الانحطاط.

ونزل به مرض الموت، فنال فى مرضه من السعادة مالم يسمع بمثله لأحد من أبناء جنسه، وصار الأمير يشبك ومن دونه من الأمراء يترددون إليه، وأكثرهم إذا دخل عليه وقف قائماً على قدميه حتى ينصرف، إلى أن مات يوم الخميس تاسع عشر شهر رمضان سنة ثمان وثمانمائة، ولم يبلغ ثلاثين سنة.

وكانت جنازته أحد الأمور العجيبة بمصر، لكثرة من شهدها من الأمراء والأعيان وسائر أرباب الوظائف، بحيث استأجر الناس السقائف والحوانيت لمشاهدتها، ونزل السلطان للصلاة عليه وصعد إلى القلعة، فدفن خارج باب المحروق.

وكان من أحسن الناس شكلاً، وأحلاهم منظراً، وأكرمهم يدا، مع تدين وتعفف عن القاذورات، وبسط يد بالصدقات. إلا أنه كان غداراً، لا يتوانى عن طلب عدوه، ولا يرضى من نكبته بدون أتلاف النفس. فكم ناطح كبشاً، وثل عرشاً، وعالج جبالاً شامخة، واقتلع دولا من أصولها الراسخة.

وهو أحد من قام بتخريب أقليم مصر. فإنه مازال يرفع سعر الذهب حتى بلغ كل دينار إلى مائتى درهم وخمسين درهماً من الفلوس، بعدما كان بنحو خمسة وعشرين درهماً، ففسدت بذلك معاملة الإقليم، وقلت أمواله، وغلت أسعار المبيعات، وساءت أحوال الناس. إلى أن زالت البهجة، وانطوى بساط الرقة، وكاد الإقليم يدمر - كما ذكر ذلك عند ذكر الأسباب التى نشأ عنها خراب مصر من هذا الكتاب - عفا الله عنه وسامحه. فلقد قام بمواراة آلاف من الناس الذين هلكوا فى زمان المحنة سنة ست وسنة سبع وثمانمائة وتكفينهم، فلم ينس الله ذلك، وستره كما ستر المسلمين **﴿وما كان ربك نسيا﴾**[1].

---

(١) مريم - آية ٦٤ - ك ١٩.

الخانقاه البندقدارية

هذه الخانقاه بالقرب من الصليبية . كان موضعها يعرف قديماً بدويره مسعود ، وهى الآن تجاه المدرسة الفارقانية وحمام الفارقانى . أنشأها الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى الصالحى النجمى ، وجعلها مسجداً لله تعالى وخانقاه ، ورتب فيها صوفيه وقراء فى سنة ثلاث وثمانين وستمائة . وفى سنة ثمان وأربعين وستمائة ، استنابه الملك المعز أيبك ، فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية مع نواب دار العدل .

وإلى أيدكين هذا ينسب الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، لأنه كان أولاً مملوكه ، ثم انتقل منه إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فعرف بين المماليك البحرية بيبرس البندقدارى .

وعاش أيدكين إلى أن صار بيبرس سلطان مصر ، وولاه نيابة السلطنة بحلب فى سنة تسع وخمسين وستمائة ـ وكان الغلاء بها شديداً ـ فلم تطل أيامه ، وفارقها بدمشق ، بعد محاربة سنقر الأشقر والقبض عليه ، فى حادى عشر صفر سنة تسع وخمسين وستمائة فأقام فى النيابة نحو شهر ، وصرفه الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى .

فلما خرج السلطان إلى الشام فى سنة إحدى وستين وستمائة ، وأقام بالطور ، أعطاه أمرة بمصر وطبلخاناه فى ربيع الآخر منها . ومات فى ربيع الآخر سنة أربع وثمانين وستمائة ، ودفن بقية هذه الخانقاه .

خانقاه شيخو

هذه الخانقاه فى خط الصليبة ، خارج القاهرة ، تجاه جامع شيخو . أنشأها الأمير الكبير سيف الدين شيخو العمرى فى سنة ست وخمسين وسبعمائة . كان موضعها من جملة قطائع أحمد بن طولون ، وآخر ما عرف من خبره أنه كان مساكن للناس ، فاشتراها الأمير شيخو من أربابها ، وهدمها فى المحرم من هذه السنة .

فكانت مساحة أرضها زيادة على فدان. فاختط فيها الخانقاه وحمامين وعدة حوانيت يعلوها بيوت لسكنى العامة، ورتب بها دروساً عدة: منها أربعة دروس لطوائف الفقهاء الأربعة - وهم الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة - ودرساً للحديث النبوى، ودرساً لإقراء القرآن بالروايات السبع، وجعل لكل درس مدرساً وعنده جماعة من الطلبة، وشرط عليهم حضور الدرس وحضور وظيفة التصوف.

وأقام شيخنا أكمل الدين محمد بن محمود فى مشيخة الخانقاه ومدرس الحنفية، وجعل إليه النظر فى أوقاف الخانقاه، وقرر فى تدريس الشافعية الشيخ بهاء الدين أحمد بن على السبكى، وفى تدريس المالكية الشيخ خليلاً - وهو متجند الشكل وله أقطاع فى الحلقة - وفى تدريس الحنابلة قاضى القضاة موفق الدين الحنبلى، ورتب لكل من الطلبة فى اليوم الطعام واللحم والخبز، وفى الشهر الحلوى والزيت والصابون، ووقف عليهم الأوقاف الجليلة.

فعظم قدرها، واشتهر فى الأقطار ذكرها، تخرج بها كثير من أهل العلم، وأربت فى العمارة على كل وقف بديار مصر. إلى أن مات الشيخ أكمل الدين فى شهر رمضان سنة ست وثمانين وسبعمائة، فوليها من بعده جماعة.

ولما حدثت المحن كان بها مبلغ كبير من المال الذى فاض عن مصروفها، فأخذه الملك الناصر فرج، وأخذت أحوالها تتناقص حتى صار المعلوم يتأخر صرفه لأرباب الوظائف بها عدة أشهر، وهى إلى اليوم على ذلك.

الخانقاه الجاولية

هذه الخانقاه على جبل يشكر، بجوار الكبش، فيما بين القاهرة ومصر. أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، وقد تقدم ذكرها فى المدارس.

خانقاه الجيبغا المظفرى

هذه الخانقاه خارج باب النصر، فيما بين قبه النصر وتربة عثمان بن جوشن السعودى. أنشأها الأمير سيف الدين الجيبغا المظفرى، وكان بها عدة من الفقراء يقيمون بها، ولهم فيها شيخ، ويحضرون فى كل يوم وظيفة التصوف، ولهم الطعام والخبز.

وكان بجانبها حوض ماء لشرب الدواب، وسقاية بها الماء العذب لشرب الناس، وكتّاب يقرأ فيه أطفال المسلمين الأيتام كتاب الله تعالى ويتعلمون الخط، ولهم فى كل يوم الخبز وغيره. وما برحت على ذلك إلى أن أخرج الأمير برقوق أوقافها فتعطلت، وأقام بها جماعة من الناس مدة، ثم تلاشى أمرها. وهى الآن باقية من غير أن يكون فيها سكان، وقد تعطل حوضها، وبطل مكتب السبيل.

الجيبغا المظفرى

الخاصكى : تقدم فى أيام الملك المظفر حاجى ابن الملك الناصر محمد ابن قلاوون تقدماً كثيراً، بحيث لم يشاركه أحد فى رتبته. فلما قام الملك الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون فى السلطنة، أقره على رتبته، وصار أحد أمراء المشورة الذين يصدر عنهم الأمر والنهى.

فلما اختلف أمراء الدولة، أخرج إلى دمشق فى ربيع الأول سنة تسع وأربعين وسبعمائة، وأقام بدمشق إلى شعبان، وسار إلى نيابة طرابلس - عوضاً عن الأمير بدر الدين مسعود بن الخطيرى - فلم يزل على نيابتها إلى شهر ربيع الأول سنة خمسين وسبعمائة. فكتب إلى الأمير أرغون شاه نائب دمشق يستأذنه فى التصيد إلى الناعم، فأذن له، وسار من طرابلس، وأقام على بحيرة حمص أياماً يتصيد.

ثم ركب ليلاً بمن معه، وساق إلى خان لاجين ظاهر دمشق، فوصله أول النهار، وأقام به يومه. ثم ركب منه بمن معه ليلاً، وطرق أرغون شاه وهو بالقصر الأبلق، وقبض عليه وقيده فى ليلة الخميس ثالث عشرى شهر ربيع الأول، وأصبح وهو بسوق الخيل، فاستدعى الأمراء، وأخرج لهم كتاب السلطان بإمساك أرغون شاه، فأذعنوا له، واستولى على أموال أرغون شاه.

فلما كان يوم الجمعة رابع عشريه، أصبح أرغون شاه مذبوحاً، فأشاع الجيبغا أن أرغون شاه ذبح نفسه. وفى يوم الثلاثاء أنكر الأمراء أمره، وثاروا لحربه، فركب وقاتلهم، وانتصر عليهم، وقتل جماعة منهم، وأخذ الأموال، وخرج من دمشق، وسار إلى طرابلس فأقام بها.

وورد الخبر من مصر إلى دمشق بإنكار كل ما وقع، والاجتهاد فى مسك الجيبغا. فخرجت عساكر الشام إليه، ففر من طرابلس، فأدركه عسكر طرابلس عند بيروت، وحاربوه حتى قبضوا عليه، وحمل إلى عسكر دمشق، فقيد وسجن بقلعة دمشق فى ليلة السبت سادس عشر ربيع الآخر، هو وفخر الدين إياس، ثم وسط بمرسوم السلطان تحت قلعة دمشق بحضور عساكر دمشق، ووسط معه الأمير فخر الدين إياس، وعلقا على الخشب فى ثامن عشر ربيع الآخر سنة خمسين وسبعمائة، وعمره دون العشرين سنة، فما طر شاربه، وكأنه البدر حسناً والغصن اعتدالاً.

خانقاه سرياقوس

هذه الخانقاه خارج القاهرة من شماليها، على نحو بريد منها، بأول تيه بنى إسرائيل بسماسم سرياقوس. أنشأها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وذلك أنه لما بنى الميدان والأحواش فى بركة الجب - كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر بركة الجب - اتفق أنه ركب على عادته للصيد هناك، فأخذه ألم عظيم فى جوفه كاد يأتى عليه، وهو يتجلد ويكتم ما به حتى عجز.

فنزل عن الفرس والألم يتزايد به، فنذر لله إن عافاه الله ليبنين فى هذا الموضع موضعاً يعبد الله تعالى فيه، فخف عنه ما يجده، وركب فقضى نهمته من الصيد، وعاد إلى قلعة الجبل، فلزم الفراش مدة أيام، ثم عوفى.

فركب بنفسه، ومعه عدة من المهندسين، واختط على قدر ميل من ناحية سرياقوس هذه الخانقاه، وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفى، وبنى بجانبها مسجداً تقام به الجمعة، وبنى بها حماماً ومطبخاً. وكان ذلك فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة.

فلما كانت سنة خمس وعشرين وسبعمائة، كمل ما أراد من بنائها، خرج إليها بنفسه ومعه الأمراء والقضاة ومشايخ الخوانك، ومدت هناك أسمطة عظيمة بداخل الخانقاه فى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة. وتصدر قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعى لإسماع الحديث النبوى، وقرأ عليه ابنه عزالدين عبدالعزيز عشرين حديثاً تساعياً، وسمع السلطان ذلك، وكان جمعاً موفوراً، وأجاز قاضى القضاة الملك الناصر ومن حضر برواية ذلك، وجميع ما يجوز له روايته.

وعندما انقضى مجلس السماع، قرر السلطان فى مشيخه هذه الخانكاه الشيخ مجد الدين موسى بن أحمد بن محمود الأقصراى، ولقبه بشيخ الشيوخ. فصار يقال له ذلك ولكل من ولى بعده، وكان قبل ذلك لايلقب بشيخ الشيوخ إلا شيخ خانقاه سعيد السعداء.

وأحضرت التشاريف السلطانية، فخلع على قاضى القضاة بدر الدين، وعلى ولده عزالدين وعلى قاضى القضاة المالكية، وعلى الشيخ مجد الدين أبى حامد موسى بن أحمد بن محمود الأقصراى شيخ الشيوخ، وعلى الشيخ علاء الدين القونوى شيخ خانقاه سعيد السعداء، وعلى الشيخ قوام الدين أبى محمد عبدالمجيد بن أسعد بن محمد الشيرازى شيخ الصوفية بالجامع الجديد الناصرى خارج مدينة مصر، وعلى جماعة كثيرة، وخلع على سائر الأمراء وأرباب الوظائف، وفرق بها ستين ألف درهم فضة، وعاد إلى قلعة الجبل.

فرغب الناس فى السكنى حول هذه الخانقاه وبنوا الدور والحوانيت والخانات، حتى صارت بلدة كبيرة تعرف بخانقاه سرياقوس، وتزايد الناس بها حتى أنشئ فيها سوى حمام الخانقاه عدة حمامات، . وهى إلى اليوم بلدة عامرة، ولا يؤخذ بها مكس ألبته مما يباع من سائر الأصناف احتراماً لمكان الخانقاه، ويعمل هناك فى يوم الجمعة سوق عظيم، ترد فيه الخيل والجمال والحمير والبقر والغنم والدجاج والأوز وأصناف الغلات وأنواع الثياب وغير ذلك.

وكانت معاليم هذه الخانكاه من أسنى معلوم بديار مصر : يصرف لكل صوفى فى اليوم من لحم الضأن السليخ رطل قد طبخ فى طعم شهى، ومن الخبر النقى أربعة أرطال. ويصرف له فى كل شهر مبلغ أربعين درهماً فضة : عنها ديناران، ورطل حلوى، ورطلان

زيتا من زيت الزيتون، ومثل ذلك من الصابون. ويصرف له ثمن كسوة فى كل سنة، وتوسعة فى كل شهر رمضان وفى العيدين وفى مواسم رجب وشعبان وعاشوراء وكلما قدمت فاكهة يصرف له مبلغ لشرائها.

وبالخانقاه خزانة بها السكر والأشربة والأدوية، وبها الطبائعى والجرائحى والكحال ومصلح الشعر. وفى كل رمضان يفرق على الصوفية كيزان لشرب الماء، وتبيض لهم قدورهم النحاس، ويعطون حتى الأشنان لغسل الأيدى من وضر اللحم. . يصرف ذلك من الوقف لكل منهم. . وبالحمام الحلاق لتدليك أبدانهم وحلق رؤوسهم. فكان المنقطع بها لايحتاج إلى شئ غيرها، ويتفرغ للعبادة. ثم استجد بعد سنة تسعين وسبعمائة بها حمام أخرى برسم النساء.

وما برحت على ما ذكرنا. إلى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة، فبطل الطعام، وصار يصرف لهم فى ثمنة مبلغ من نقد مصر، وهى الآن على ذلك. وأدركت من صوفيتها شخصاً شيخاً، يعرف بأبى ظاهر، ينام أربعين يوماً بلياليها لايستيقظ فيها ألبته، ثم يستيقظ أربعين يوماً لاينام فى ليلها ولا نهارها. . . أقام على ذلك عدة أعوام، وخبره مشهور عند أهل الخانقاه، وأخبرنى أنه لم يكن فى النوم إلا كغيره من الناس، ثم كثر نومه حتى بلغ ما تقدم ذكره، ومات بهذه الخانقاه فى نحو سنة ثمانمائة.

ومما قيل فى الخانقاه وما أنشأه السلطان بها :

سر نحو سرياقوس وانزل بفنا
أرجائها ياذا النهى والرشد
تلق محلا للسرور والهنا
فيه مقام للتقى والزهد
نسيمه يقول فى مسيره
تنبهى ياعذبات الرند
وروضه الريان من خليجه
يقول دع ذكر أراضى نجد

خانقاه أرسلان

هذه الخانقاه فيما بين القاهرة ومصر ، من جملة أراضى منشأة المهرانى . أنشأها الأمير بهاء الدين أرسلان الدوادار .

أرسلان

الأمير بهاء الدين الدوادار الناصرى . كان أولاً عند الأمير سلار ، أيام نيابته مصر ، خصيصاً به حظياً عنده . فلما قدم الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك بعساكر الشام ، ونزل بالريدانية ظاهر القاهرة فى شهر رمضان سنة تسع وسبعمائة ، اطلع أرسلان على أن جماعة قد اتفقوا على أن يهجموا على السلطان ، ويفتكوا به يوم العيد أول شوال ، فجاء إليه وعرفه الحال ، وقال له : اخرج الساعة ، واطلع القلعة واملكها .

فقام السلطان ، وفتح باب سر الدهليز ، وخرج من غير الباب ، وصعد قلعة الجبل ، وجلس على سرير الملك . . فرعى السلطان له هذه المناصحة . ولما أخرج الأمير عزالدين أيدمر الدوادار من وظيفته ، رتب أرسلان فى الدوادارية .

وكان يكتب خطاً مليحاً ، ودربه القاضى علاء الدين بن عبدالظاهر وخرجه وهذبه ، فصار يكتب بخطه إلى كتاب السر عن السلطان فى المهمات بعبارة مسددة وافية بالمقصود ، واستولى على السلطان بحيث لم يكن لغيره فى أيامه ذكر ، ولم يشتهر فخر الدين وكريم الدين بعظمة إلا بعده ، واجتهدا فى إبعاده فما قدرا على ذلك .

وفى أيام توليته الدوادارية السلطانية ، أنشأ هذه الخانكاه على شاطئ النيل . وكان ينزل فى كل ليلة ثلاثاء إليها من القلعة ويبيت بها ، ويحتفل الناس للحضور إليها ، ويرسل عن السلطان إلى مهنا أمير العرب ، ونفع الناس نفعاً كبيراً ، وقلدهم مننا جسيمة ، ومات فى ثالث عشرى شهر رمضان سنة سبع عشرة وسبعمائة ، فوجد فى تركته ألف ثوب أطلس ،

ونفائس كثيرة، وعدة تواقيع ومناشير معلمة. فأنكر السلطان معرفتها، ونسب إليه اختلاسها.

وأول من ولى مشيختها تقى الدين أبو البقاء محمد بن جعفر بن محمد بن عبدالرحيم الشريف الحسينى القنائى الشافعى، جد الشيخ عبدالرحيم القنائى الصالح المشهور، وأبوه ضياء الدين جعفر كان فقيهاً شافعياً. وكان أبو البقاء هذا عالماً عارفاً زاهداً، قليل التكلف، متقللاً من الدنيا، سمع الحديث وأسمعه. وولد فى سنة خمس وأربعين وستمائة، ومات ليلة الإثنين رابع عشر جمادى الأولى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، ودفن بالقرافة.

فتداول مشيختها القضاة الأخنائية. . . إلى أن كانت آخراً بيد شيخنا قاضى القضاة صدر الدين عبدالوهاب بن أحمد الأخنائى. فلما مات فى سنة تسع وثمانين وسبعمائة، تلقاها عنه عزالدين بن الصاحب، ثم وليها من بعده ابنه شمس الدين محمد بن الصاحب، رحمه الله.

خانقاه بكتمر

هذه الخانقاه بطرف القرافة فى سفح الجبل مما يلى بركة الحبش. أنشأها الأمير بكتمر الساقى، وابتدأ الحضور بها فى يوم الثلاثاء ثامن شهر رجب سنة ست وعشرين وسبعمائة. وأول من استقر فى مشيختها الشمسى شمس الدين الرومى، ورتب له عن معلوم المشيخة فى كل شهر مائة درهم، وعن معلوم الإمامة مبلغ خمسين درهماً، ورتب معه عشرين صوفياً: لكل منهم فى الشهر مبلغ ثلاثين درهماً. . . فجاءت من أجل مابنى بمصر، ورتب بها صوفيه وقراء، وقرر لهم الطعام والخبر فى كل يوم، والدراهم والحلوى والزيت والصابون فى كل شهر، وبنى بجانبها حماماً، وأنشأ هناك بستاناً.

فعمرت تلك الخطة، وسار بها سوق كبير وعدة سكان، وتنافس الناس فى مشيختها. إلى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة، فبطل الطعام والخبر منها، وانتقل السكان منها

إلى القاهرة وغيرها، وخربت الحمام والبستان، وصار يصرف لأرباب وظائفها مبلغ من نقد مصر، وأقام فيها رجل يحرسها، وتمزق ما كان فيها من الفرش والآلات النحاس والكتب والربعات والقناديل النحاس المكفت والقناديل الزجاج المذهب، وغير ذلك من الأمتعة والنفائس الملوكية، وخرب ما حولها لخلوه من السكان.

بكتمر الساقى

الأمير سيف الدين، كان أحد مماليك الملك المظفر بيبرس الجاشنكير. فلما استقر الملك الناصر محمد بن قلاوون فى المملكة بعد بيبرس، أخذه فى جملة من أخذ من مماليك بيبرس، ورقاه حتى صار أحد الأمراء الأكابر، وكتب إلى الأمير تنكز، نائب السلطنة بدمشق، بعد أن قبض على الأمير سيف الدين طغاى الكبير يقول له: هذا بكتمر الساقى يكون لك بدلاً من طغاى، أكتب إليه بما تريد من حوائجك.

فعظم بكتمر، وعلا محله، وطار ذكره. وكان السلطان لايفارقه ليلاً ولا نهاراً إلا إذا كان فى الدور السلطانية، ثم زوجه بجاريته وحظيته، فولدت لبكتمر ابنه أحمد وصار السلطان لا يأكل إلا مما تطبخه له أم أحمد فى قدر من فضة، وينام عندهم، ويقوم، واعتقد الناس أن أحمد ولد السلطان لكثرة ما يطيل حمله وتقبيله.

ولما شاع ذكر بكتمر، وتسامع الناس به، قدموا إليه غرائب كل شئ، وأهدوا إليه كل نفيس، وكان السلطان إذا حمل إليه أحد من النواب تقدمة لابد أن يقدم لبكتمر مثلها أو قريباً منها، والذى يصل إلى السلطان يهب له غالبه. فكثرت أمواله، وصارت إشارته لاترد، وهو عبارة عن الدولة، وإذا ركب كان بين يديه مائتا عصا نقيب، وعمر له السلطان القصر على بركة الفيل.

ولما مات بطريق الحجاز فى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة، خلف من الأموال والقماش والأمتعة والأصناف والزردخاناه ما يزيد على العادة والحد، ويستحى العاقل من ذكره.

فأخذ السلطان من خيله أربعين فرسا، وقال: هذه لى ما وهبته أياها. وبيع الباقى من الخيل على ما أخذه الخاصكية بثمن بخس بمبلغ ألف ألف درهم فضة ومائتى ألف درهم وثمانين ألف درهم فضة، خارجاً عماً فى الجشارات.

وأنعم السلطان بالزردخاناه والسلاحخاناه التى له على الأمير قوصون بعدما أخذ منها سرجاً واحداً وسيفاً: القيمة عن ذلك ستمائة ألف دينار. وأخذ له السلطان ثلاثة صناديق جوهراً مثمناً لاتعلم قيمة ذلك.

وبيع له من الصينى، والكتب والختم والربعات ونسخ البخارى، والدوايات الفولاذ والمطعمة، والبصم بسقط الذهب وغير ذلك، ومن الوبر والأطلس، وأنواع القماش السكندرى والبغدادى وغير ذلك... شئ كثير إلى الغاية المفرطة. ودام البيع ذلك مدة شهور.

وامتنع القاضى شرف الدين النشو، ناظر الخاص، من حضور البيع، واستعفى من ذلك، فقيل له: لأى شئ فعلت ذلك؟ قال: ما أقدر أصبر على غبن ذلك، لأن المائة درهم تباع بدرهم.

ولما خرج مع السلطان إلى الحجاز، خرج بتجمل زائد وحشمة عظيمة، وهو ساقة الناس كلهم، وكان ثقله وجماله نظير ما للسلطان، ولكن يزيد عليه بالزركش وآلات الذهب. ووجد فى خزانته بطريق الحجاز بعد موته خمسمائة تشريف: منها ما هو أطلس بطرز زركش، وما دون ذلك من خلع أرباب السيوف وأباب الأقلام، ووجد معه قيود وجنازير.

وتنكر السلطان له فى طريق الحجاز، واستوحش كل منهما من صاحبه. فاتفق أنهم فى العودة مرض ولده أحمد، ومرض من بعده، فمات ابنه قبله بثلاة أيام، فحمل فى تابوت مغشى بجلد جمل، ولما مات بكتمر دفن مع ولده بنخل، وحث السلطان فى المسير. وكان لاينام فى تلك السفرة إلا فى برج خشب، وبكتمر عنده وقوصون على الباب، والأمراء المشايخ كلهم حول البرج بسيوفهم، فلما مات بكتمر، ترك السلطان ذلك، فعلم الناس أن احترازه كان خوفاً من بكتمر.

ويقال أن السلطان دخل عليه، وهو مريض في درب الحجاز، فقال له: بيني وبينك الله.

فقال له: كل ما فعل شيئاً يلتقيه.

ولما مات صرخت زوجته أم ابنه أحمد، وبكت وأعولت... إلى أن سمعها الناس تتكلم بالقبيح في حق السلطان، من جملته: أن تقتل مملوكك، أنا ابني إيش كان؟ فقال لها: بس، تفشرين، هاتي مفاتيح صناديقه، فأنا أعرف كل شئ أعطيته من الجواهر، فرمت بالمفاتيح إليه، فأخذها.

ولما وصل السلطان إلى قلعة الجبل أظهر الحزن والندامة عليه، وأعطى أخاه قماري أمره مائة وتقدمة ألف، وكان يقول: ما بقي يجيئنا مثل بكتمر. وأمر فحملت جثته وجثة ابنه إلى خانقاهه هذه، ودفنتا بقبتها.

وبدت من السلطان أمور منكرة بعد موت بكتمر. فإنه كان يحجر على السلطان، ويمنعه من مظالم كثيرة، وكان يتلطف بالناس، ويقضي حوائجهم، ويسوسهم أحسن سياسة، ولا يخالفه السلطان في شئ، ومع ذلك فلم يكن له حماية ولا رعاية، ولا لغمانه ذكر، ومن المغرب يغلق باب أصطبله.

وكان مما له على السلطان من المرتب في كل يوم مخفيتان، يأخذ عنهما من بيت المال كل يوم سبعمائة درهم: عن كل مخفية ثلاثمائة وخمسين درهماً. وكان السلطان إذا أنعم على أحد بشئ أو ولاه وظيفة، قال له: روح إلى الأمير بكتمر، وبوس يده. وكان جيد الطباع، حسن الأخلاق، لين الجانب، سهل الانقياد، رحمه الله....

خانقاه قوصون

هذه الخانقاه في شمالي القرافة، مما يلي قلعة الجبل، تجاه جامع قوصون. أنشأها الأمير سيف الدين قوصون، وكملت عمارتها في سنة ست وثلاثين وسبعمائة، وقرر في مشيختها

الشيخ شمس الدين أبا الثناء محمود ابن أبى القاسم أحمد الأصفهانى ، ورتب له معلوماً سنياً من الدراهم والخبر واللحم والصابون والزيت ، وسائر ما يحتاج إليه حتى جامكيه غلام بغلته ، واستقر ذلك فى الوقف من بعده لكل من ولى المشيخة بها .

وقرر بها جماعة كثيرة من الصوفية ، ورتب لهم الطعام واللحم والخبز فى كل يوم ، وفى الشهر المعلوم من الدراهم ومن الحلوى والزيت والصابون . ومازالت على ذلك إلى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة ، فبطل الطعام والخبز منها وصار يصرف لمستحقيها مال من نقد مصر ، وتلاشى أمرها من بعد ما كانت من أعظم جهات البر ، وأكثرها نفعاً وخيراً . وقد تقدم ذكر قوصون عند ذكر جامعه من هذا الكتاب .

خانقاه طغاى النجمى

هذه الخانقاه بالصحراء خارج باب البرقية ، فيما بين قلعة الجبل وقبه النصر . أنشأها الأمير طغاى تمر النجمى ، فجاءت من المبانى الجليلة ، ورتب بها عدة من الصوفية ، وجعل شيخهم الشيخ برهان الدين الرشيدى ، وبنى بجانبها حماماً ، وغرس فى قبليها بستاناً ، وعمل بجاتب الحمام حوض ماء للسبيل ترده الدواب ، ووقف على ذلك عدة أوقاف .

ثم إن الحمام والحوض تعطلا مدة . فلما ماتت أرزباى ، زوجة القاضى فتح الدين فتح الله كاتب السر ، فى سنة ثمان وثمانمائة ، دفنها خارج باب النصر ، وأحب أن يبنى على قبرها ويوقف عليها أوقافاً ، ثم بدا له فنقلها إلى هذه الخانقاه ، ودفنها بالقبة التى فيها ، وأدار الساقية ، وملأ الحوض ، ورتب لقراء هذه الخانقات معلوماً ، وعزم على تجديد ما تشعث من بنائها وإدارة حمامها . ثم بدا له فأنشأ بجانب هذه الخانقه تربة ، ونقل زوجته مرة ثالثة إليها ، وجعل أملاكه وقفاً على تربته .

طغاى تمر النجمى

كان دوادار الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون. فلما مات الصالح، استقر على حاله فى أيام أخويه الملك الكامل شعبان والملك المظفر حاجى. وكان من أحسن الأشكال، وأبدع الوجوه. تقدم فى الدول، وصارت له وجاهة عظيمة، وخدمه الناس.

ولم يزل على حاله إلى أن لعب به أعزلو فيمن لعب، وأخرجه إلى الشام، ألحقه بمن أخذه من غزة، وذلك فى أوائل جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

وطغاى هذا أول دوادار أخذ إمرة مائة وتقدمة ألف، وذلك فى أول دولة المظفر حاجى. ولما كانت واقعة الأمير ملكتمر الحجازى والأمير آق سنقر وعدة من الأمراء، فى تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، رمى طغاى تمر سيفه، وبقى بغير سيف بعض يوم، ثم أن المظفر أعطاه سيفه. واستمر فى الدوادارية نحو شهر، وأخرج هو والأمير نجم الدين محمود الوزير، والأمير سيف الدين بيدمر البدرى على الهجن إلى الشام، فأدركهم الأمير سيف الدين منجك، وقتلهم فى الطريق.

خانقاه أم أنوك

هذه الخانقاه خارج باب البرقية بالصحراء. التى أنشأتها الخاتون طغاى، تجاه تربة الأمير طاشتمر الساقى، فجاءت من أجل المبانى، وجعلت بها صوفية وقراء، ووقفت عليها الأوقاف الكثيرة، وقررت لكل جارية من جواريها مرتباً يقوم بها.

طغاى الخوندة الكبرى

زوجة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأم ابنة الأمير أنوك، كانت من جملة إمائه فاعتقها وتزوجها، ويقال إنها أخت الأمير أقبغا عبدالواحد، وكانت بديعة الحسن، باهرة الجمال. رأت من السعادة ما لم يره غيرها من نساء الملوك الترك بمصر، وتنعمت فى ملاذ ما وصل سواها لمثلها، ولم يدم السلطان على محبة امرأة سواها، وصارت خوندة بعد ابنه توكاى، وأكبر نسائه حتى من ابنه الأمين تنكز.

وحج بها القاضى كريم الدين الكبير، واحتفل بأمرها، وحمل لها البقول فى محاير طين على ظهور الجمال، وأخذ لها الأبقار الحلابة، فسارت معها طول الطريق لأجل اللبن الطرى وعمل الجبن، وكان يقلى لها الجبن فى الغداء والعشاء. وناهيك بمن وصل إلى مداومة البقل والجبن فى كل يوم - وهما أخس ما يؤكل - فما عساه يكون بعد ذلك! وكان القاضى كريم الدين، والأمير مجلس وعدة من الأمراء، يترجلون عند النزول، ويمشون بين يدى محفتها، ويقبلون الأرض لها كما يفعلون بالسلطان.

ثم حج بها الأمير بشتاك فى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة، وكان الأمير تنكز إذا جهز من دمشق تقدمة إلى السلطان، لابد أن يكون لخوند طغاى منها جزء وافر. فلما مات السلطان الملك الناصر، استمرت عظمتها من بعده إلى أن ماتت، فى شهر شوال سنة تسع وأربعين وسبعمائة أيام الوباء، عن ألف جارية وثمانين خادماً خصياً وأموال كثيرة جداً.

وكانت عفيفة طاهرة، كثيرة الخير والصدقات والمعروف. جهزت سائر جواريها، وجعلت على قبر ابنها - بقبة المدرسة الناصرية بين القصرين - قراء، ووقفت على ذلك وقفاً، وجعلت من جملته خبزا يفرق على الفقراء، ودفنت بهذه الخانقاه، وهى من أعمر الأماكن إلى يومنا هذا.

خانقاه يونس

هذه الخانقاه من جملة ميدان القبق ، بالقرب من قبة النصر ، خارج باب النصر . أدركت موضعا وبه عواميد تعرف بعواميد السباق ، وهى أول مكان بنى هناك .

أنشأها الأمير يونس النوروزى الدوادار . كان من مماليك الأمير سيف الدين جرجى الإدريسى ، أحد الأمراء الناصرية ، وأحد عتقائه ، فترقى فى الخدم من آخر أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى أن صار من جملة الطائفة اليلبغاوية . . فلما قتل الأمير يلبغا الخاصكى ، خدم بعده الأمير أستدمر الناصرى الأتابك ، وصار من جملة دواداريته .

ومازال ينتقل فى الخدم إلى أن قام الأمير برقوق - بعد قتل الملك الأشرف شعبان - فكان ممن أعانه ، وقاتل معه ، فرعى له ذلك ، ورقاه إلى أن جعله أمير مائة مقدم ألف ، وجعله دواداره لما تسلطن . فسلك فى رياسته طريقة جليلة ، ولزم حالة جميلة : من كثرة الصيام والصلاة ، وإقامة الناموس الملوكى ، وشدة المهابة ، والإعراض عن اللعب ، ومداومة العبوس ، وطول الجلوس ، وقوة البطش لسرعة غضبه ، ومحبة الفقراء ، وحضور السماع والشغف به ، وإكرام الفقهاء وأهل العلم .

وأنشأ بالقاهرة ربعاً وقيسارية بخط البندقانيين ، وتربة خارج باب الوزير تحت القلعة ، وأنشأ بظاهر دمشق مدرسة بالشرف الأعلى ، وأنشأ خانا عظيماً خارج مدينة غزة ، وجعل بجانب هذه الخانقاه مكتباً يقرأ فيه أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ، وبنى بها صهريجاً ينقل إليه ماء النيل .

وما زال على وفور حرمته ونفوذ كلمته . إلى أن خرج الأمير يلبغا الناصرى ، نائب حلب ، على الملك الظاهر برقوق فى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة . وجهز السلطان الأمير أيتمش ، والأمير يونس هذا ، والأمير جهاركس الخليلى ، وعدة من الأمراء والمماليك . . . لقتاله . فلقوه بدمشق وقاتلوه فهزمهم ، وقتل الخليلى ، وفر أيتمش إلى دمشق .

ونجا يونس بنفسه يريد مصر . فأخذه الأمير عيفا بن شطى ، أمير الأمراء ، وقتله يوم الثلاثاء ثانى عشرى شهر ربيع الآخر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، ولم يعرف له قبر بعدما أعد لنفسه عدة مدافن فى غير ما مدينة من مصر والشام .

خانقاه طيبرس

هذه الخانقاه من جملة أراضى بستان الخشاب، فيما بين القاهرة ومصر، على شاطئ النيل. أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار، نقيب الجيوش، فى سنة سبع وسبعمائة، بجوار جامعه، المقدم ذكره عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب، وقرر بها عدة من الصوفية، وجعل لهم شيخاً وأجرى لهم المعاليم.

ولم تزل عامرة إلى أن حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة.. فابتاع شخص الوكالة والربعين ـ المعروفين بربع بكتمر ـ والحمامين، ونقض ذلك... فخرب الخط، وصار مخوفاً. فلما كان فى سنة أربع عشرة وثمانمائة، نقل الحصور من هذه الخانقاه إلى المدرسة الطيبرسية بجوار الجامع الأزهر، وهى الآن بصدد أن تدثر، وتمحى آثارها.

خانقاه أقبغا

هذه الخانقاه هى موضع من المدرسة الأقبغاوية، بجوار الجامع الأزهر، أفرده الأمير أقبغا عبدالواحد، وجعل فيه طائفة يحضرون وظيفة التصوف، وأقام لهم شيخاً، وأفرد لهم وقفاً يختص بهم، وهى باقية إلى يومنا هذا. وله أيضاً خانقاه بالقرافة.

الخانقاه الخروبية

هذه الخانقاه بساحل الجيزة، تجاه المقياس، كانت منظرة من أعظم الدور وأحسنها. أنشأها زكى الدين أبو بكر بن على الخروبى كبير التجار، ثم توارثها من بعده أولاد الخروبى التجار بمصر، فلم تزل بأيديهم إلى أن نزلها السلطان المؤيد شيخ، فى يوم الإثنين ثانى عشر

شهر رجب الفرد سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة، وأقام بها. فاقتضى رأيه أن يجعلها خانقاه، فاستدعى بأبن الخروبى ليشتريها منه، فتبرع بما يخصه منها، وصار إليه باقيها.

فتقدم إلى الأمير سيف الدين أبى بكر بن المسروق الأستادار بعملها خانقاه، وسار منها فى يوم الأربعاء سادس عشره، فأخذ الأمير أبو بكر فى عملها حتى كملت فى آخر السنة. واستقر فى مشيختها شمس الدين محمد بن الحمتى الدمشقى الحنبلى، وخلع عليه يوم السبت سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة، ورتب له فى كل يوم عشرة مؤيدية: عنها مبلغ سبعين درهماً فلوساً، سوى الخبز والسكن، وقرر عنده عشرة من الفقراء، لكل منهم مع الخبز مؤيدى فى كل يوم. فجاءت من أحس شئ.

ذكر الربط

الربط: جمع رباط، وهو دار يسكنها أهل طريق الله. قال ابن سيده: الرباط من الخيل الخمس فما فوقها، والرباط والمرابطة ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً، وربما سميت الخيل نفسها رباطاً، والرباط المواظبة على الأمر.

قال الفارسى: هو ثان من لزوم الثغر، ولزوم الثغر ثان من رباط الخيل. وقوله تعالى ﴿**وصابروا ورابطوا**﴾(1)، قيل معناه جاهدوا، وقيل واظبوا على مواقيت الصلاة.

وقال أبو حفص السهروردى فى كتاب «عوارف المعارف»: وأصل الرباط ما تربط فيه الخيول، ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه، والمقيم فى الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد.

وروى داود بن صالح قال: قال لى أبو سلمة بن عبدالرحمن: يا ابن أخى، هل تدرى فى أى شئ نزلت هذه الآية ﴿**أصبروا وصابروا ورابطوا**﴾ ؟

---

(1) آل عمران - آية ٢٠٠ - م٣.

قلت : لا .

قال : يا أبنى أخى ، لم يكن فى زمن رسول الله ﷺ ، غزو تربط فيه الخيل ، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة .

فالرباط جهاد النفس ، والمقيم فى الرباط مرابط مجاهد نفسه . واجتماع أهل الربط إذا صح على الوجه الموضوع له الربط ، وتحقق أهل الربط بحسن المعاملة ورعاية الأوقاف وتوقى ما يفسد الأعمال ويصحح الأحوال ، عادت البركة على البلاد والعتاد .

وشرائط الرباط قطع المعاملة مع الخلق ، وفتح المعاملة مع الحق ، وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب ، وحبس النفس عن المخالطات ، واجتناب التبعات ، ومواصلة الليل والنهار بالعبادة متعوضاً بها عن كل عادة ، والاشتغال بحفظ الأوقاف ، وملازمة الأوراد ، وانتظار الصلوات ، واجتناب الغفلات . . . ليكون بذلك مرابطاً مجاهداً .

والرباط هو بيت الصوفية ومنزلهم ، ولكل قوم دار ، والرباط دارهم ، وقد شابهوا أهل الصفة فى ذلك ، فالقوم فى الرباط مرابطون متفقون على قصد واحد وعزم واحد وأحوال متناسبة ، ووضع الرباط لهذا المعنى .

قال مؤلفه رحمه الله : ولاتخاذ الربط والزوايا أصل من السنة . وهو أن رسول الله ﷺ أتخذ لفقراء الصحابة الذين لا يأوون إلى أهل ولا مال ، مكاناً من مسجده كانوا يقيمون فيه ، عرفوا بأهل الصفة .

رباط الصاحب

هذا الرباط مطل على بركة الحبش . أنشأه الصاحب فخر الدين أبو عبدالله محمد بن الوزير الصاحب بهاء الدين أبى الحسن على بن محمد بن سليم بن حنا ، ووقف عليه أبوه الصاحب بهاء الدين بعد موته عقاراً بمدينة مصر ، وشرط أن يسكنه عشرة من الفقراء المجردين غير المتأهلين ، وذلك فى ذى الحجة سنة ثمان وستين وستمائة . وهو باق إلى يومنا هذا ، وليس فيه أحد ، ويستأدى ربع وقفه من لايقوم بمصالحه .

رباط الفخرى

هذا الرباط خارج باب الفتوح، فيما بينه وبين باب النصر. بناه الأمير عزالدين أيبك الفخرى، أحد أمراء الملك الظاهر بيبرس.

رباط البغدادية

هذا الرباط بداخل الدرب الأصفر، تجاه خانقاه بيبرس، حيث كان المنحر الذى ذكر عند ذكر القصر من هذا الكتاب، ومن الناس من يقول رواق البغدادية. وهذا الرباط بنته الست الجليلة تذكار باى خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس، فى سنة أربع وثمانين وستمائة، للشيخة الصالحة زينب ابنه أبى البركات، المعروفة ببنت البغدادية، فأنزلتها به ومعها النساء الخيرات. وما برح إلى وقتنا هذا يعرف سكانه من النساء بالخير، وله دائماً شيخه تعظ النساء وتذكرهن وتفقههن.

وآخر من أدركنا فيه الشيخة الصالحة، سيدة نساء زمانها، أم زينب فاطمة بنت عباس البغدادية، توفيت فى ذى الحجة سنة أربع عشرة وسبعمائة، وقد أنافت على الثمانين. وكانت فقيهة وافرة العلم، زاهدة قانعة باليسير، عابدة واعظة، حريصة على النفع والتذكير، ذات إخلاص وخشية وأمر بالمعروف، انتفع بها كثير من نساء دمشق ومصر، وكان لها قبول زائد، ووقع فى النفوس.

وصار بعدها كل من قام بمشيخة هذا الرباط من النساء يقال لها البغدادية. وأدركنا الشيخة الصالحة البغدادية أقامت به عدة سنين على أحسن طريقة، إلى أن ماتت يوم السبت لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وسبعمائة.

وأدركنا هذا الرباط ، وتودع فيه النساء اللاتى طلقن أو هجرن ، حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن ، صيانة لهن . . لما كان فيه من شدة الضبط ، وغاية الاحتراز ، والمواظبة على وظائف العبادات . حتى أن خادمة الفقيرات به كانت لاتمكن أحداً من استعمال إبريق ببزبوز ، وتؤدب من خرج عن الطريق بما تراه .

ثم لما فسدت الأحوال من عهد حدوث المحن بعد سنة ست وثمانمائة ، تلاشت أمور هذا الرباط ، ومنع مجاوروه مهن سجن النساء المعتدات به ، وفيه إلى الآن بقايا من خير ، ويلى النظر عليه قاضى القضاة الحنفى .

رباط الست كليلة

هذا الرباط خارج درب بطوط ، من جملة حكر سنجر اليمنى ، ملاصق للسور الحجر بخط سوق الغنم وجامع أصلم . وقفه الأمير علاء الدين البراباه على الست كليلة ، المدعوة دولاى ، أبنه عبدالله التتارية ، زوج الأمير سيف الدين البرلى السلاحدار الظاهرى ، وجعله مسجداً ورباطاً ، ورتب فيه إماما ومؤذناً ، وذلك فى ثالث عشرى شوال أربع وتسعين وستمائة .

رباط الخازن

هذا الرباط بقرب قبة الإمام الشافعى رحمه الله عليه من قرافة مصر . بناه الأمير علم الدين سنجر بن عبدالله الخازن ، والى القاهرة ، وفيه دفن . وهذا الخازن هو الذى ينسب إليه حكر الخازن خارج القاهرة .

الرباط المعروف برواق ابن سليمان

هذا الرواق بحارة الهلالية، خارج باب زويلة، عرف بأحمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن إبراهيم بن أبى المعالى بن العباس، الرحبى البطائحى الرفاعى، شيخ الفقراء الأحمدية الرفاعية بديار مصر.

كان عبداً صالحاً، له قبول عظيم من أمراء الدولة وغيرهم، وينتمى إليه كثير من الفقراء الأحمدية، وروى الحديث عن سبط السلفى وحدث، وكانت وفاته ليلة الإثنين سادس ذى الحجة سنة إحدى وتسعين وستمائة بهذا الرواق.

رباط داود بن إبراهيم

هذا الرباط بخط بركة الفيل. بنى فى سنة ثلاث وستين وستمائة.

رباط ابن أبى المنصور

هذا الرباط بقرافة مصر. عرف بالشيخ صفى الدين الحسين بن على بن أبى المنصور الصوفى المالكى.. كان من بيت وزارة، فتجرد وسلك طريق أهل الله، على يد الشيخ أبى العباس أحمد بن أبى بكر الجزار التجيبى المغربى، وتزوج ابنته، وعرف بالبركة، وحكيت عنه كرامات، وصنف كتاب «الرسالة» ذكر فيها عدة من المشايخ، وروى الحديث وحدث، وشارك فى الفقه وغيره.

وكانت ولادته فى ذى القعدة سنة خمس وتسعين وخمسمائة، ووفاته برباطه هذا يوم الجمعة ثانى عشر ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانين وستمائة.

رباط المشتهى

هذا الرباط بروضة مصر يطل على النيل، وكان به الشيخ المسلك . . . .

ولله در شيخنا العارف الأديب شهاب الدين أحمد بن أبى العباس الشاطر الدمنهورى، حيث يقول :

بروضة المقياس صوفية
هم منية الخاطر والمشتهى
لهم على البحر أياد علت
وشيخهم ذاك له المنتهى

وقال الإمام العلامة شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن الصائغ الحنفى :

يا ليلة مرت بنا حلوة
إن رمت تشبيها لها عبتها
لايبلغ الواصف فى وصفها
حدا ولا يلقى له منتهى
بت مع المعشوق فى روضة
ونلت من خرطومه المشتهى

رباط الآثار

هذا الرباط خارج مصر، بالقرب من بركة الحبش، مطل على النيل، ومجاور للبستان المعروف بالمعشوق .

قال ابن المتوج : هذا الرباط عمره الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين محمد، ولد الصاحب بهاء الدين على بن حنا، بجوار بستان المعشوق، ومات رحمه الله قبل تكملته، ووصى أن يكمل من ريع بستان المعشوق، فإذا كملت عمارته يوقف عليه، ووصى الفقيه عزالدين بن مسكين، فعمر فيه شيئاً يسيرا وأدركه الموت إلى رحمة الله تعالى، وشرع الصاحب ناصر الدين محمد، ولد الصاحب تاج الدين، فى تكملته، فعمر فيه شيئاً جيداً. انتهى.

وإنما قيل له رباط الآثار، لأن فيه قطعة خشب وحديد ـ يقال إن ذلك من آثار رسول الله ﷺ ـ اشتراها الصاحب تاج الدين المذكور، بمبلغ ستين ألف درهم فضة، من بنى إبراهيم أهل ينبع، وذكروا أنها لم تزل عندهم موروثه من واحد إلى آخر إلى رسول الله ﷺ، وحملها إلى هذا الرباط، وهى به إلى اليوم يتبرك الناس بها، ويعتقدون النفع بها.

وأدركنا لهذا الرباط بهجة، وللناس فيه اجتماعات، لسكانها عدة منافع ممن يتردد إليه أيام كان ماء النيل تحته دائماً. فلما انحسر الماء من تجاهه، وحدثت المحن من سنة ست وثمانمائة، قل تردد الناس اليه، وفيه إلى اليوم بقية.

ولما كانت أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، قرر فيه درساً للفقهاء الشافعية، وجعل له مدرساً وعنده عدة من الطلبة، ولهم جار فى كل شهر من وقف وقفه عليهم، وهو باق أيضاً. وفى أيام الملك الظاهر برقوق، وقف قطعة أرض لعمل الجسر المتصل بالرباط، وبهذا الرباط خزانة كتب، وهو عامر بأهله.

الوزير الصاحب

تاج الدين محمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الوزير الصاحب بهاء الدين على بن سليم بن حنا. ولد فى سابع شعبان سنة أربعين وستمائة، وسمع من سبط السلفى وحدث، وانتهت إليه رياسة عصره، وكان صاحب صيانة وسؤدد ومكارم، وشاكله حسنة وبزه فاخزة إلى الغاية.

وكان يتناهى فى المطاعم والملابس والمناكح والمساكن، ويجود بالصدقات الكثيرة، مع التواضع ومحبة الفقراء وأهل الصلاح، والمبالغة فى اعتقادهم. ونال فى الدنيا من العز والجاه مالم يره جده الصاحب الكبير بهاء الدين، بحيث إنه لما تقلد الوزير الصاحب فخر الدين بن الخليلى الوزارة، سار من قلعة الجبل - وعليه تشريف الوزارة - إلى بيت الصاحب تاج الدين، وقبل يده وجلس بين يديه، ثم انصرف إلى داره.

ومازال على هذا القدر من وفور العز إلى أن تقلد الوزارة فى يوم الخميس رابع عشرى صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة، بعد قتل الوزير الأمير سنجر الشجاعى، فلم ينجب، وتوقفت الأحوال فى أيامه، حتى احتاج إلى إحضار تقاوى النواحى المرصدة بها للتخضير واستهلكها. ثم صرف فى يوم الثلاثاء خامس عشرى جمادى الأولى، سنة أربع وتسعين وستمائة، بفخر الدين عثمان ابن الخليلى.

وأعيد إلى الوزارة مرة ثانية فلم ينجح، وعزل وسلم مرة للشجاعى، فجرده من ثيابه، وضربه شيباً واحداً بالمقارع فوق قميصه، ثم أفرج عنه على مال، ومات فى رابع جمادى الآخرة سنة سبع وسبعمائة، ودفن فى تربتهم بالقرافة، وكان له شعر جيد.

ولله در شيخنا الأديب جلال الدين محمد ابن خطيب داريا، الدمشقى البيسانى، حيث يقول فى الآثار :

ياعين إن بعـــد الحبيب وداره
ونأت مرابـــعـــه وشط مزاره
فلقد ظفرت من الزمان بطائل
إن لـــــم تريه فهـــــذه آثاره

وقد سبقه لذلك الصلاح خليل بن أيبك الصفدى فقال :

أكـــرم بآثـــار النبى محمـــد
من زاره استوفى السرور مزاره

ياعين دونك فانظـــرى وتمتعى

إن لم تريه فهـــــــذه آثاره

وأقتدى بهما فى ذلك أبو الحزم المدنى فقال :

ياعين كم ذا تسفحين مدامعا

شوقا لقرب المصطفى ودياره

ان كان صرف الدهر عاقك عنهما

فتمتعى ياعـــــين فى آثاره

رباط الأفرم

هذا الرباط بسفح الجرف الذى عليه الرصد، وهو يشرف على بركة الحبش، وكان من أحسن متنزهات أهل مصر. أنشأه الأمير عز الدين أيبك الأفرم، أمير خازندار، الصالحى النجمى، ورتب فيه صوفية وشيخاً وإماماً، وجعل فيه منبراً يخطب عليه للجمعة والعيدين، وقرر لهم معاليم من أوقاف أرصدها لهم، وذلك فى سنة ثلاث وستين وستمائة. وهو باق، إلا أنه لم يبق به ساكن لخراب ما حوله، وله إلى اليوم متحصل من وقفه.

والأفرم هذا هو الذى ينسب إليه جسر الأفرم خارج مصر، وقد ذكر عند ذكر الجسور من هذا الكتاب.

الربط العلائى

هذا الرباط خارج مصر، بخط بين الزقاقين شرقى الخليج الكبير - يعرف اليوم بخانقاه المواصلة - وهو آيل إلى دثور لخراب ما حوله. أنشأه الملك علاء الدين أبو الحسن على، ابن الملك المجاهد سيف الدين إسحاق صاحب الجزيرة، ابن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ

صاحب الموصل، بجوار داره وحمامه وطاحونه، وجعل له فيه مدفناً، ووقف عليه بستان الجرف، وبستاناً بناحية شبرا، وعدة حصص من قرى فلسطين والساحل، وأحكاراً ودوراً بجانب الرباط.

ومات يوم الجمعة ثامن ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، ومولده يوم الجمعة ثامن عشرى المحرم سنة سبع وخمسين وستمائة بجزيرة ابن عمر، وكان من الحلقة، وسمع الحديث من النجيب الحرانى وأبن عرنين وأبن علاف، ودفن فيه.

وبه إلى الآن بقية، ويحضره الفقهاء يوماً فى الأسبوع، وهم عشرة شيخهم منهم، ومنهم قارئ ميعاد وقراء. وكان أولاً معموراً بسكنى أهله دائماً فيه، وفى هذا الوقت لايمكن سكناه لكثرة الخوف من السراق.

ذكر الزوايا

زاوية الدمياطى

هذه الزاوية فيما بين خط السبع سقايات وقنطرة السد، خارج مصر، إلى جانب حوض السبيل المعد لشرب الدواب. أنشأها الأمير عزالدين أيبك الدمياطى الصالحى النجمى، أحد الأمراء المقدمين الأكابر فى أيام الملك الظاهر بيبرس، وبها دفن لما مات بالقاهرة ليلة الأربعاء تاسع شعبان سنة ست وتسعين وستمائة. وإلى الآن يعرف الحوض المجاور لها بحوض الدمياطى.

زاوية الشيخ خضر

هذه الزاوية خارج باب الفتوح من القاهرة بخط زقاق الكحل، تشرف على الخليج الكبير، عرفت بالشيخ خضر بن أبى بكر بن موسى المهرانى العدوى، شيخ السلطان الملك الظاهر بيبرس.

كان أولاً قد انقطع بجبل المزة خارج دمشق، فعرفه الأمير سيف الدين قشتمر العجمى، وتردد إليه، فقال له: لابد أن يتسلطن الأمير بيبرس البندقدارى. فأخبر بيبرس بذلك.

فلما صارت المملكة إليه بعد قتل الملك المظفر قطز، اشتمل على اعتقاده، وقربه، وبنى له زاوية بجبل المزة، وزاوية بظاهر بعلبك، وزاوية بحماه، وزاوية بحمص، وهذه الزاوية خارج القاهرة، ووقف عليها أحكاراً تغل فى السنة نحو الثلاثين ألف درهم، وأنزله بها.

وصار ينزل إليه فى الأسبوع مرة أو مرتين، ويطلعه على غوامض أسراره، ويستشيره فى أموره، ولا يخرج عما يشير به، ويأخذه معه فى أسفاره، وأطلق يده، وصرفه فى مملكته.

فهدم كنيسة اليهود بدمشق، وهدم كنيسة للنصارى بالقدس، كانت تعرف بالمصلبة، وعملها زاوية، وقتل قسيسها بيده، وهدم كنيسة للروم بالإسكندرية - كانت من كراسى النصارى، ويزعمون أن بها رأس يحيى بن زكريا - وعملها مسجداً سماه الخضر. فاتقى جانبه الخاص والعام حتى الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار نائب السلطنة، والصاحب بهاء الدين على بن حنا، وملوك الأطراف.

وكان يكتب إلى صاحب حماه، وجميع الأمراء إذا طلب حاجة، ما مثاله: «الشيخ خضر . . . الحمارة». وكان ربع القامة كث اللحية، يتعمم عسراوى، وفى لسانه عجمه، مع سعة صدر، وكرم شمائل، وكثرة عطاء من تفرقة الذهب والفضة، وعمل الأسمطة الفاخرة. وكانت أحواله عجيبة لاتتكيف، وأقوال الناس فيه مختلفة: منهم من يثبت صلاحه ويعتقده، ومنهم من يرميه بالعظائم.

وكان يخبر السلطان بأمور تقع، منها أنه لما حاصر أرسوف - وهى أول فتوحاته - قال له: متى نأخذ هذه المدينة؟ فعين له يوماً يأخذها فيه، فأخذها فى ذلك اليوم بعينه، واتفق له مثل ذلك فى فتح قيسارية، فلذلك كثر اعتقاده فيه.

وما أحسن قول الشريف محمد بن رضوان الناسخ فى ملازمة السلطان له فى أسفاره:

ما الظاهر السلطان إلا مالك الـ

ـدنيا بذلك لنا الملاحم تخبر

ولنا دليل واضح كالشمس فى
وسط السماء لكل عين تنظر
لما رأينا الخضر يقـــدم جيشه
أبـــدا علمنا أنه الإســكندر

وما برح على رتبته إلى ثامن عشر شوال سنة إحدى وسبعين وستمائة، فقبض عليه، واعتقل بقلعة الجبل، ومنع الناس من الإجتماع به. ويقال أن ذلك بسبب أن السلطان كان أعطاه تحفاً قدمت من اليمن، منها كر يمنى مليح إلى الغاية، فأعطاه خضر لبعض المردان.

فبلغ ذلك الأمير بدر الدين الخازندار النائب - وكان قد ثقل عليه بكثرة تسلطة، حتى لقد قال له مرة بحضرة السلطان: كأنك تشفق على السلطان وعلى أولاده مثل ما فعل قطز بأولاد المعز - فأسرها فى نفسه، وبلغ خبر الكر اليمنى إلى السلطان. فاستدعاه، وحضر جماعة حاققوه على أمور كثيرة منكرة - كاللواط والزنا ونحوه - فاعتقله، ورتب له ما يكفيه من مأكول وفاكهة وحلوى.

ولما سافر السلطان إلى بلاد الروم، قال خضر لبعض أصحابه: إن السلطان يظهر على الروم، ويرجع إلى دمشق فيموت بها بعد أن أموت أنا بعشرين يوماً.

فكان كذلك، ومات خضر فى محبسه بقلعة الجبل فى سادس المحرم، أو سابعه، من سنة ست وسبعين وستمائة، وقد أناف على الخمسين، فسلم إلى أهله، وحملوه إلى زاويته هذه، ودفنوه فيها.

وكان السلطان قد كتب بالإفراج عنه، فقدم البريد بعد موته، ومات السلطان بدمشق، فى سابع عشرى المحرم المذكور، بعد خضر بعشرين يوماً.

وهذه الزاوية باقية إلى اليوم.

زاوية ابن منظور

هذه الزاوية خارج القاهرة، بخط الدكة بجوار المقس، عرفت بالشيخ جمال الدين محمد بن أحمد بن منظور بن يس بن خليفة ابن عبدالرحمن، أبو عبدالله، الكتانى العسقلانى الشافعى الصوفى، الإمام الزهد.

كانت له معارف وأتباع ومريدون ومعرفة بالحديث. حدث عن أبى الفتوح الجلالى، وروى عنه الدمياطى والدواداری وعدة من الناس، ونظر فى الفقه، واشتهر بالفضيلة، وكانت له ثروة وصدقات. ومولدة فى ذى القعدة سنة سبع وتسعين وخمسمائة، ووفاته بزاويته فى ليلة الثانى والعشرين من شهر رجب الفرد سنة ست وتسعين وستمائة.

وكانت هذه الزاوية أولاً تعرف بزاوية شمس الدين بن كرا البغدادى.

زاوية الظاهرى

هذه الزاوية خارج باب البحر، ظاهر القاهرة عند حمام طرغاى، على الخليج الناصرى. كانت أولاً تشرف طاقاتها على بحر النيل الأعظم، فلما انحسر الماء عن ساحل المقس، وحفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى، صارت تشرف على الخليج المذكور من بره الشرقى، واتصلت المناظر هناك. . إلى أن كانت الحوادث من سنة ست وثمانمائة. فخربت حمام طرغاى، وبيعت أنقاضها وأنقاض كثير مما كان هناك من المناظر، وأنشئ هناك بستان عرف أولاً بعبدالرحمن، صيرفى الأمير جمال الدين الأستادار، لأنه أولاً أنشأه، ثم انتقل عنه.

و الظاهرى

هذا : هو أحمد بن محمد بن عبدالله أبو العباس جمال الدين الظاهرى . كان أبوه محمد بن عبدالله عتيق الملك الظاهر شهاب الدين غازى ، وبرع حتى صار إماماً حافظاً ، وتوفى ليلة الثلاثاء لأربع بقين من ربيع الأول سنة ست وتسعين وستمائة بالقاهرة ، ودفن بتربته خارج باب النصر .

وابنه عثمان بن أحمد بن محمد بن عبدالله فخر الدين بن جمال الدين الظاهرى الحلبى ، الإمام العلامة المحدث الصالح ، ولد فى سنة سبعين وستمائة ، وأسمعه أبوه بديار مصر والشام ، وكان مكثرا ، ومات بزاويته هذه فى سنة ثلاثين وسبعمائة .

زاوية الجميزة

هذه الزاوية موضعها من جملة أراضى الزهرى ، وهى الآن خارج باب زويلة بالقرب من معدية فريج . أنشأها الأمير سيف الدين جيرك السلاحدار المنصورى ، أحد أمراء الملك المنصور قلاوون ، فى سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، وجعل فيها عدة من الفقراء الصوفية .

زاوية الحلاوى

هذه الزاوية بخط الأبارين من القاهرة ، بالقرب من الجامع الأزهر . أنشأها الشيخ مبارك الهندى السعودى الحلاوى ، أحد الفقراء من أصحاب الشيخ أبى السعود بن أبى العشائر البارينى الواسطى ، فى سنة ثمان وثمانين وستمائة ، وأقام بها إلى أن مات ، ودفن فيها .

فقام من بعده ابنه الشيخ عمر بن على بن مبارك، وكانت له سماعات ومرويات، ثم قام من بعده ابنه شيخنا جمال الدين عبدالله ابن الشيخ عمر بن على ابن الشيخ مبارك الهندى، وحدث، فسمعنا عليه بها إلى أن مات فى صفر سنة ثمان وثمانمائة، وبها الآن ولده وهى من الزوايا المشهورة بالقاهرة.

زاوية نصر

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة. أنشأها الشيخ نصر بن سليمان أبو الفتح المنجبى، الناسك القدوة، وحدث بها عن إبراهيم بن خليل وغيره. وكان فقيها معتزلاً عن الناس، متخلياً للعبادة، يتردد إليه أكابر الناس وأعيان الدولة.

وكان للأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فيه اعتقاد كبير. فلما ولى سلطنة مصر، أجل قدرة وأكرم محله، فهرع الناس إليه، وتوسلوا به فى حوائجهم.

وكان يتغالى فى محبة العارف محيى الدين محمد بن عربى الصوفى، ولذلك كانت بينه وبين شيخ الإسلام أحمد بن تيمية مناكرة كبيرة، ومات رحمة الله عن بضع وثمانين سنة فى ليلة السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وسبعمائة، ودفن بها.

زاوية الخدام

هذه الزاوية خارج باب النصر، فيما بين شقة باب الفتوح من الحسينية وبين شقة الحسينية خارج باب النصر، أنشأها الطواشى بلال الفراجى، وجعلها وقفاً عن الخدام الحبش الأجناد فى سنة سبع وأربعين وستمائة.

زاوية تقى الدين

هذه الزاوية تحت قلعة الجبل. أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون، بعد سنة عشرين وسبعمائة، لسكنى الشيخ تقى الدين رجب بن أشيرك العجمى. وكان وجيهاً محترماً عند أمراء الدولة، ولم يزل بها إلى أن مات يوم السبت ثامن شهر رجب سنة أربع عشرة وسبعمائة. وما زالت منزلاً لفقراء العجم إلى وقتنا هذا.

زاوية الشريف مهدى

هذه الزاوية بجوار زاوية الشيخ تقى الدين المذكور. بناها الأمير صرغتمش فى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة.

زاوية الطراطرية

هذه الزاوية بالقرب من موردة البلاط. بناها الملك الناصر محمد بن قلاوون، بوساطة القاضى شرف الدين النشو ناظر الخاص، برسم الشيخين الأخوين محمد وأحمد ـ المعروفين بالطراطرية ـ فى سنة أربعين وسبعمائة.

وكانا من أهل الخير والصلاح، ونزلا أولاً فى مقصورة بالجامع الأزهر، فعرفت بهما. ثم عرفت بعدهما بمقصورة الحسام الصفدى، والد الأمير الوزير ناصر الدين محمد بن الحسام، وهذه المقصورة بآخر الرواق الأول مما يلى الركن الغربى.

ولم تزل هذه الزاوية عامرة... إلى أن كانت المحن فى سنة ست وثمانمائة، وخرب خط زربية قوصون وما فى قبليه إلى منشأة المهرانى، وما فى بحرية إلى قرب بولاق.

زاوية القلندرية

القلندرية طائفة تنتمى إلى الصوفية، وتارة تسمى أنفسها ملامتية. وحقيقة القلندرية أنهم قوم طرحوا التقيد بآداب المجالسات والمخاطبات، وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض، ولم يبالوا بتناول شئ من اللذات المباحة، واقتصروا على رعاية الرخصة، ولم يطلبوا حقائق العزيمة، والتزموا ألا يدخروا شيئاً، وتركوا الجمع والاستكثار من الدنيا، ولم يتقشفوا، ولا زهدوا ولا تعبدوا، وزعموا أنهم قد قنعوا بطيب قلوبهم مع الله تعالى، وأقتصروا على ذلك، وليس عندهم تطلع إلى طلب مزيد سوى ما هم عليه من طيب القلوب.

والفرق بن الملامتى والقلندرى: أن الملامتى يعمل فى كتم العبادات، والقلندرى يعمل فى تخريب العادات. والملامتى يتمسك بكل أبواب البر والخير، ويرى الفضل فيه، إلا أنه يخفى أحواله وأعماله، ويوقف نفسه موقف العوام فى هيئته وملبوسه، تسترا للحال حتى لا يفطن له، وهو مع ذلك متطلع إلى المزيد من العبادات. والقلندرى لايتقيد بهيئة، ولا يبالى بما يعرف من حاله وما لا يعرف، ولا ينعطف إلا على طيب القلوب وهو رأس ماله ....

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة، من الجهة التى فيها الترب والمقابر التى تلى المساكن. أنشأها الشيخ حسن الجوالقى القلندرى، أحد فقراء العجم القلندرية على رأى الجوالقة. ولما قدم إلى ديار مصر، تقدم عند أمراء الدولة التركية، وأقبلوا عليه واعتقدوه، فأثرى ثراء زائداً فى سلطنة الملك العادل كتبغا، وسافر معه من مصر إلى الشام.

فاتفق أن السلطان أصطاد غزالاً، ودفعه إليه ليحمله إلى صاحب حماه. فلما أحضره إليه، ألبسه تشريفاً من حرير طرز وخش وكلوته زركش، فقدم بذلك على السلطان، فأخذ الأمراء فى مداعبته، وقالوا له على سبيل الإنكار: كيف تلبس الحرير والذهب وهما حرام على الرجال؟ فأين التزهد وسلوك طريق الفقراء؟ ونحو ذلك.

فعندما حضر صاحب حماه إلى مجلس السلطان على العادة، فقال له: يا خوند، إيش عملت معى؟ الأمراء أنكروا على، والفقراء تطالبنى. فأنعم عليه بألف دينار. فجمع الفقراء والناس، وعمل وقتاً عظيماً بزاوية الشيخ على الحريرى خارج دمشق.

وكان سمح النفس، جميل العشرة، لطيف الروح، يحلق لحيته ولايعتم، ثم إنه ترك الحلق، وصارت له لحية، وتعمم عمامة صوفية، وكانت له عصبة، وفيه مروءة وعصبية، ومات بدمشق فى سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة. ومازالت هذه الزاوية منزلاً لطائفة القلندرية، ولهم بها شيخ، وفيها منهم عدد موفور.

وفى شهر ذى القعدة سنة إحدى وستين وسبعمائة، حضر السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون بخانقاه أبيه الملك الناصر، فى ناحية سرياقوس خارج القاهرة، ومد له شيخ الشيوخ سماطا. كان من جملة من وقف عليه بين يدى السلطان الشريف على، شيخ زاوية القلندرية هذه، فاستدعاه السلطان، وأنكر عليه حلق لحيته واستتابه، وكتب له توقيعاً سلطانياً، منع فيه هذه الطائفة من تحليق لحاهم، وأن من تظاهر بهذه البدعة قوبل على فعله المحرم، وأن يكون شيخاً على طائفته كما كان ما دام وداموا متمسكين بالسنة النبوية.

وهذه البدعة لها منذ ظهرت ما يزيد على أربعمائة سنة، وأول ما ظهرت بدمشق فى سنة بضع عشرة وستمائة، وكتب إلى بلاد الشام بالزام القلندرية بترك زى الأعاجم والمجوس، ولا يمكن أحد من الدخول إلى بلاد الشام حتى يترك هذا الزى المبتدع واللباس المستبشع، ومن لايلتزم بذلك يعزر شرعاً، ويقلع من قراره قلعاً. فنودى بذلك فى دمشق وأرجائها يوم الأربعاء سادس عشر ذى الحجة.

قبة النصر

هذه القبة زاوية يسكنها فقراء العجم، وهى خارج القاهرة بالصحراء، تحت الجبل الأحمر، بآخر ميدان القبق من بحريه. جددها الملك الناصر محمد بن قلاوون، على يد الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك.

زاوية الركراكى

هذه الزاوية خارج القاهرة فى أرض المقس. عرفت بالشيخ المعتقد أبى عبدالله محمد الركراكى، المغربى المالكى، لإقامته بها. وكان فقيها مالكياً، متصدياً لأشغال المغاربة، يتبرك الناس به، إلى أن مات بها يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الأولى سنة أربع وتسعين وسبعمائة، ودفن بها.

و «الركراكى» نسبة إلى ركراكة، بلدة بالمغرب، هى أحد مراسى سواحل المغرب بقرب البحر المحيط، تنزل فيه السفن، فلا تخرج إلا بالرياح العاصفة فى زمن الشتاء عند تكدر الهـــواء.

زاوية إبراهيم الصائغ

هذه الزاوية بوسط الجسر الأعظم، تطل على بركة الفيل، عمرها الأمير سيف الدين طغاى بعد سنة عشرين وسبعمائة، وأنزل فيها فقيراً عجمياً من فقراء الشيخ تقى الدين رجب، يعرف بالشيخ عز الدين العجمى، وكان يعرف صناعة الموسيقى، وله نغمة لذيذة وصوت مطرب وغناء جيد، فأقام بها إلى أن مات فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة. فغلب عليها الشيخ إبراهيم الصائغ إلى أن مات يوم الإثنين رابع عشر شهر رجب سنة أربع وخمسين وسبعمائة، فعرفت به.

زاوية الجعبرى

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة. تنسب إلى الشيخ برهان الدين إبراهيم بن معضاد بن شداد بن ماجد الجعبرى، المعتقد الواعظ، كان يجلس للوعظ، فتجتمع إليه

الناس، ويذكرهم ويروى الحديث، ويشارك فى علم الطب وغيره من العلوم، وله شعر حسن، وروى عن السخاوى، وحدث عن البزراكى.

وكان له أصحاب يبالغون فى اعتقاده، ويغلون فى أمره، وكان لايراه أحد إلا أعظم قدره وأجله وأثنى عليه، وحفظت عنه كلمات طعن عليه بسببها، وعمر حتى جاوز الثمانين سنة.

فلما مرض أمر أن يخرج به إلى مكان قبره، فلما وقف عليه قال: قبير وحال دبير. ومات بعد ذلك بيوم فى يوم السبت رابع عشرى المحرم سنة سبع وثمانين وستمائة.

والجعابرة عدة، منهم . . . . . .

زاوية أبى السعود

هذه الزاوية خارج باب القنطرة من القاهرة، على حافة الخليج، عرفت بالشيخ المبارك أيوب السعودى. كان يذكر أنه رأى الشيخ أبا السعود بن أبى العشائر، وسلك على يديه، وانقطع بهذه الزاوية، وتبرك الناس به، واعتقدوا إجابة دعائه، وعمر وصار يحمل لعجزه عن الحركة. حتى مات، عن مائة سنة، أول صفر سنة أربع وعشرين وسبعمائة.

زاوية الحمصى

هذه الزاوية خارج القاهرة، بخط حكر خزائن السلاح والأوسية، على شاطئ خليج الذكر من أرض المقس بجوار الدكة. أنشأها الأمير ناصر الدين محمد ـ ويدعى طيقوش ـ ابن الأمير فخر الدين ألطنبغا الحمصى، أحد الأمراء فى الأيام الناصرية. كان أبوه من أمراء الظاهر بيبرس.

ورتب بهذه الزاوية عشرة من الفقراء شيخهم منهم ، ووقف عليها عدة أماكن فى جوارها وحصة من قرية بورين من قرى ساحل الشام ، وغير ذلك فى سنة تسع وسبعمائة . فلما خرب ما حولها ، وارتدم خليج الذكر ، تعطلت .

وهى الآن قد عزم مستحقو ريعها على هدمها ، لكثرة ما أحاط بها من الخراب من سائر جهاتها ، وصار السلوك إليها مخوفاً بعد ما كانت تلك الخطة فى غاية العمارة ، وفى جمادى سنة عشرين وسبعمائة هدمت .

زاوية المغربل

هذه الزاوية خارج القاهر ، بدرب الزراق من الحكر ، عرفت بالشيخ المعتقد على المغربل ، ومات فى يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة . ولما كانت الحوادث من سنة ست وثمانمائة ، خربت الحكورة ، وهدم درب الزراق وغيره .

زاوية القصرى

هذه الزاوية بخط المقس خارج القاهرة . عرفت بالشيخ أبى عبدالله محمد بن موسى عبدالله ابن حسن القصرى ، الرجل الصالح الفقيه المالكى المغربى ، قدم من قصر كتامة بالمغرب إلى القاهرة ، وانقطع بهذه الزاوية ، على طريقة جميلة من العبادة وطلب العلم ، إلى أن مات بها فى التاسع من شهر رجب سنة ثلاث وثلاثين وستمائة .

زاوية الجاكى

هذه الزاوية فى سويقة الريش، من الحكورة خارج القاهرة، بجانب الخليج الغربى. عرفت بالشيخ المعتقد حسين بن إبراهيم بن على الجاكى، ومات بها فى يوم الخميس العشرين من شوال سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، ودفن خارج باب النصر، وكانت جنازته عظيمة جداً.

وأقام الناس يتبركون بزيارة قبره. إلى أن كانت سنة سبع عشرة وثمانمائة، فأقبل الناس إلى زيارة قبره، وكان لهم هناك مجتمع عظيم فى كل يوم، ويحملون النذور إلى قبره، ويزعمون أن الدعاء عنده لايرد. . . فتنة أضل الشيطان بها كثير من الناس، وهم على ذلك إلى يومنا هذا.

زاوية الأبناسى

هذه الزاوية بخط المقس. عرفت بالشيخ الفقيه برهان الدين إبراهيم بن حسين بن موسى بن أيوب الأبناسى الشافعى. قدم من الريف، وبرع فى الفقه، واشتهر بسلامة الباطن، وعرف بالخير والصلاح، وكتب على الفتوى، ودرس بالجامع الأزهر وغيره، وتصدى لأشغال الطلبة عدة سنين، وولى مشيخة الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء.

وطلبه الأمير سيف الدين برقوق ـ وهو يومئذ أتابك العساكر ـ حتى يقلده قضاء القضاة بديار مصر. فغيب فراراً من ذلك، وتنزهاً عنه، إلى أن ولى غيره. وكانت ولادته قبيل سنة خمس وعشرين وسبعمائة، ووفاته بمنزلة المويلح من طريق الحجاز ـ بعد عوده من الحج ـ فى ثامن المحرم سنة اثنتين وثمانمائة، ودفن بعيون القصب.

زاوية اليونسية

هذه الزاوية خارج القاهرة، بالقرب من باب اللوق، تنزلها الطائفة اليونسية: وأحدهم يونسى - بضم الياء المعجمة باثنتين من تحتها، وبعد الياء واو، ثم نون بعدها سين مهملة، فى آخرها ياء آخر الحروف - نسبة إلى يونس.

ويونس

المنسوب إليه الطائفة اليونسية غير واحد: فمنهم يونس بن عبدالرحمن القمى، مولى آل يقطين، وهو الذى يزغم أن معبوده على عرشه، تحمله ملائكته وإن كان هو أقوى منها، كالكركى تحمله رجلاه وهو أقوى منهما . . . وقد كفر من زعم ذلك، فإن الله تعالى هو الذى يحمل العرش وحملته. وهذه الطائفة اليونسية من غلاة الشيعة.

واليونسية أيضاً فرقة من المرجئة ينتمون إلى يونس السموى. وكان يزعم أن الإيمان هو المعرفة بالله والخضوع له، وهو ترك الاستكبار عليه والمحبة له، فمن اجتمعت فيه هذه الخلال فهو مؤمن. وزعم أن إبليس كان عارفاً بالله، غير أنه كفر باستكباره عليه.

ولهم يونس بن يونس بن مساعد الشيبانى ثم المخارقى، شيخ الفقراء اليونسية، شيخ صالح له كرامات مشهورة، ولم يكن له شيخ، بل كان مجذوباً، جذب إلى طريق الخير. توفى بأعمال دارا، فى سنة تسع عشرة وسبعمائة، وقد ناهز تسعين سنة، وقبره مشهور يزار ويتبرك به، وإليه تنسب هذه الطائفة اليونسية.

زاوية الخلاطى

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة، بالقرب من زاوية الشيخ نصر المنجبى عرفت . . . وكانت لهم وجاهة: منهم ناصر الدين محمد بن علاء الدين على بن محمد بن حسين الخلاطى، مات فى نصف جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، ودفن بها.

الزاوية العدوية

هذه الزاوية بالقرافة. تنسب إلى الشيخ عدى بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان، الهكارى القرشى الأموى، وكان قد صحب عدة من المشايخ - كعقيل المنبجى، وحماد الدباس، وعبد القادر السهروردى، وعبدالقادر الجيلى - ثم انقطع فى جبل الهكارية من أعمال الموصل، وبنى له زاوية، فمال إليه أهل تلك النواحى كلها ميلاً لم يسمع أرباب الزوايا مثله، حتى مات سنة سبع - وقيل سنة خمس - وخمسين وخمسمائة، ودفن فى زاويته.

وقدم ابن أخيه إلى هذه البلاد - وهو زين الدين - فأكرم وأنعم عليه بإمرة، ثم تركها وانقطع فى قرية بالشام - تعرف ببيت فار - على هيئة الملوك: من اقتناء الخيول المسومة والمماليك والجوارى والملابس، وعمل الأسمطة الملوكية.

فافتتنت به بعض نساء الطائفة القيمرية، وبالغت فى تعظيمه، وبذلت له أموالاً عظيمة، وحاشيتها تلومها فيه، فلا تصغى إلى قولهم. فاحتالوا حتى أوقفوها عليه، وهو عاكف على المنكرات، فما زادها ذلك إلا ضلالاً، وقالت: أنتم تنكرون هذا عليه، إنما الشيخ يتدلل على ربه.

وأتاه الأمير الكبير علم الدين سنجر الدوادار ومعه الشهاب محمود لتحليفه، فى أول دولة الأشرف خليل بن قلاوون، إلى قريته. فإذا هو كالملك فى قلعته: للتجمل الظاهر

والحشمة الزائدة، والفرش الأطلس، وآنية الذهب والفضة، والنضار الصينى وأشياء تفوت العد . . . إلى غير ذلك من الأشربة المختلفة الألوان، والأطعمة المنوعة .

فلما دخلا عليه لم يحتفل لهما، وقبل الأمير سنجر يده وهو جالس لم يقم، وبقى قائماً قدامه يحدث، وزين الدين يسأله ساعة، ثم أمره أن يجلس، فجلس على ركبتيه متأدباً بين يديه، فلما حلفاه، أنعم عليهما بما يقارب خمسة عشر ألف درهم .

وتخلف من طائفته الشيخ عزالدين أميران، وأنعم عليه بإمرة دمشق، ثم نقل إلى إمرة بصفد، ثم أعيد إلى دمشق، وترك الإمرة وانقطع بالمرة، وتردد إليه الأكراد من كل قطر، وحملوا إليه الأموال . ثم إنه أراد أن يخرج على السلطان بمن معه من الأكراد فى كل بلد، فباعوا أموالهم، واشتروا الخيل والسلاح، ووعد رجال بنيابات البلاد، ونزل بأرض اللجون .

فبلغ ذلك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، فكتب إلى الأمير تنكز نائب لشام بكشف أخبارهم، وأمسك السلطان من كان بهذه الزاوية العدوية، ودرك على أمير طبر، واختلفت الأخبار : فقيل إنهم يريدون سلطنة مصر، وقيل يريدون ملك اليمن . فقلق السلطان لأمرهم، وأهمه . . . إلى أن أمسك الأمير تنكز عزالدين المذكور، وسجنه فى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة حتى مات، وفرق الأكراد، ولو لم يتدارك لأوشك أن يكون لهم نوبة .

زاوية السدار

هذه الزاوية برأس حارة الديلم . بناها الفقير المعتقد على بن السَّدار فى سنة سبعين وسبعمائة، وتوفى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة .

ذكر المشاهد التى يتبرك الناس بزيارتها

مشهد زين العابدين

هذا المشهد فيما بين الجامع الطولونى ومدينة مصر . تسميه العامة مشهد زين العابدين، وهو خطأ. وإنما هو مشهد رأس زيد بن على - المعروف بزين العابدين - ابن الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام، ويعرف فى القديم بمسجد محرس الخصى.

قال القضاعى : مسجد محرس الخصى بنى على رأس زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، حين أنفذه هشام بن عبدالملك إلى مصر، ونصب على المنبر بالجامع، فسرقه أهل مصر، ودفنوه فى هذا الموضع.

وقال الكندى فى كتاب «الأمراء» : وقدم إلى مصر، فى سنة اثنتين وعشرين ومائة، أبو الحكم بن أبى الأبيض القيسى خطيباً برأس زيد بن على، رضوان الله عليه، يوم الأحد لعشر خلون من جمادى الآخرة، واجتمع الناس إليه فى المسجد.

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب «الجوهر المكنون فى ذكر القبائل والبطون» : وبنو زيد بن على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام، الشهيد بالكوفة، ولم يبق له عليه السلام غير رأسه التى بالمشهد، الذى بين الكومين بمصر، بطريق جامع ابن طولون وبركة الفيل، وهو من الخطط يعرف بمسجد محرس الخصى.

ولما صلب، كشفوا عورته، فنسج العنكبوت فسترها، ثم إنه بعد ذلك أحرق، وذرى فى الريح، ولم يبق منه إلا رأسه التى بمصر. وهو مشهد صحيح لأنه طيف بها بمصر، ثم نصبت على المنبر بالجامع بمصر فى سنة اثنتين وعشرين ومائة، فسرقت ودفنت فى هذا الموضع إلى أن ظهرت، وبنى عليها مشهد.

وذكر ابن عبدالظاهر أن الأفضل بن أمير الجيوش، لما بلغته حكاية رأس زيد، أمر بكشف المسجد - وكان وسط الأكوام، ولم يبق من معالمه إلا محراب - فوجد هذا العضو الشريف.

قال محمد بن منجب بن الصيرفى : حدثنى الشريف فخر الدين أبو الفتوح ناصر الزيدى خطيب مصر ـ وكان من جملة من حضر الكشف ـ قال : لما خرج هذا العضو رأيته ، وهو هامة وافرة ، وفى الجبهة أثر فى سعة الدرهم ، فضمخ وعطر ، وحمل إلى دار حتى عمر هذا المشهد .

وكان وجدانه يوم الأحد تاسع عشرى ربيع الأول سنة خمس وعشرين وخمسمائة . وكان الوصول به فى يوم الأحد ، ووجدانه فى يوم الأحد .

زيد بن على

بن الحسين بن على بن أبى طالب ـ كنيته أبو الحسن ـ الإمام الذى تنسب إليه الزيدية ، إحدى طوائف الشيعة ، سكن المدينة ، وروى عن أبيه على بن الحسين ـ الملقب زين العابدين ـ وعن أبان عن عثمان ، وعبيد الله بن أبى رافع ، وعروة بن الزبير . وروى عنه محمد بن شهاب الزهرى ، وزكريا بن أبى زائدة ، وخلق . . ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : رأى جماعة من الصحابة .

وقيل لجعفر بن محمد الصادق عن الرافضة : أنهم يتبرأون من عمك زيد .

فقال : برئ الله ممن تبرأ من عمى . كان والله أقرأنا لكتاب الله ، وأفقهنا فى دين الله ، وأوصلنا للرحم ، والله ما ترك فينا لدنيا ولا لآخره مثله .

وقال أبو اسحاق السبيعى : رأيت زيد بن على ، فلم أر فى أهله مثله ، ولا أعلم منه ولا أفضل ، وكان أفصحهم لساناً ، وأكثرهم زهداً وبياناً .

وقال الشعبى : والله ما ولد النساء أفضل من زيد بن على ، ولا أفقه ولا أشجع ولا أزهد .

وقال أبو حنيفة : شاهدت زيد بن على كما شاهدت أهله ، فما رأيت فى زمانه أفقه منه ولا أعلم ، ولا أسرع جواباً ولا أبين قولاً ، لقد كان منقطع القرين .

وقال الأعمش: ما كان فى أهل زيد بن على مثل زيد، ولا رأيت فيهم أفضل منه، ولا أفصح ولا أعلم ولا أشجع، ولقد وفى له من تابعه لإقامتهم على المنهج الواضح.

وسئل جعفر بن محمد الصادق عن خروجه، فقال: خرج على ما خرج على آباؤه.

وكان يقال لزيد حليف القرآن، وقال: خلوت بالقرآن ثلاث عشرة سنة أقرأه وأتدبره، فما وجدت فى طلب الرزق رخصة، وما وجدت **﴿أبتغوا من فضل الله﴾**[1] إلا العبادة والفقه.

وقال عاصم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب: لقد أصيب عندكم رجل ما كان فى زمانكم مثله، ولا أراه يكون بعده مثله.. زيد بن على. لقد رأيته وهو غلام حدث، وأنه ليسمع الشئ من ذكر الله فيغشى عليه، حتى يقول القائل: ما هو بعائد إلى الدنيا!!

وكان نقش خاتم زيد «أصبر تؤجر، أصدق تنج». وقرأ مرة قوله تعالى **﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم﴾**[2]. فقال: أن هذا لوعيد وتهديد من الله. ثم قال: اللهم لا تجعلنا ممن تولى عنك فاستبدلت به بدلا.

وكان إذا كلمة إنسان، وخاف أن يهجم على أمر يخاف منه مأثما، قال له: يا عبدالله، أمسك أمسك، كف كف، إليك إليك، عليك بالنظر لنفسك. ثم يكف عنه ولا يكلمه.

وقد اختلف فى سبب قيام زيد، وطلبه الأمر لنفسه. فقيل إن زيد بن على، وداود بن على بن عبدالله بن عباس، ومحمد بن عمر بن على بن أبى طالب، قدموا على خالد بن عبدالله القسرى بالعراق، فأجازهم ورجعوا إلى المدينة. فلما ولى يوسف بن عمر العراق، بعد عزل خالد، كتب إلى هشام بن عبدالملك، وذكر له أن خالداً ابتاع أرضا بالمدينة من زيد بعشرة آلاف دينار، ثم رد الأرض عليه.

فكتب هشام إلى عامل المدينة أن يسيرهم إليه، ففعل، فسألهم هشام عن ذلك، فأقروا بالجائزة، وأنكروا ما سوى ذلك، وحلفوا. فصدقهم وأمرهم بالمسير إلى العراق ليقابلوا

---

(١) الجمعة - آية ١٠ - م٦٢.
(٢) محمد - آية ٣٨ - م٤٧.

خالداً، فساروا على كره، وقابلوا خالداً، فصدقهم، وعادوا نحو المدينة. فلما نزلوا القادسية، راسل أهل الكوفة زيداً، فعاد إليهم.

وقيل بل ادعى خالد القسرى أنه أودع زيداً وداود بن على ونفرا من قريش مالاً، فكتب يوسف بن عمر بذلك إلى الخليفة هشام بن عبدالملك، فأحضرهم هشام من المدينة، وسيرهم إلى يوسف ليجمعهم وخالداً، فقدموا عليه، فقال يوسف لزيد: إن خالداً زعم أنه أودع عندك مالاً.

فقال زيد: كيف يودعنى وهو يشتم آبائى على منبره؟

فأرسل إلى خالد، فأحضره فى عباءة، وقال له: هذا زيد قد أنكر أنك أودعته شيئاً.

فنظر خالد إليه والى داود، وقال ليوسف: أتريد أن تجمع أثمك مع أثمنا فى هذا؟ كيف أودعه وأنا أشتم آباءه وأشتمه على المنبر؟

فقال زيد لخالد: ما دعاك إلى ما صنعت؟

فقال: شُدِّد على العذاب، فادعيت ذلك، وأملت أن يأتى الله بفرج قبل قدومك.

فرجعوا، وأقام زيد وداود بالكوفة.

وقيل إن يزيد بن خالد القسرى هو الذى ادعى أن المال وديعة عند زيد. فلما أمرهم هشام بالمسير إلى العراق إلى يوسف، أستقالوه خوفاً من شر يوسف وظلمه، فقال: أنا أكتب إليه بالكف عنكم. وألزمهم بذلك.

فساروا على كره، فجمع يوسف بينهم وبين يزيد، فقال يزيد: ليس لى عندهم قليل ولا كثير.

فقال له يوسف: أتهزأ بأمير المؤمنين؟

فعذبه يومئذ عذاباً كاد يهلكه، ثم أمر بالقرشيين فضربوا، وترك زيداً، ثم استحلفهم وأطلقهم، فلحقوا بالمدينة، وأقام زيد بالكوفة.

وكان زيد قال لهشام لما أمره بالمسير إلى يوسف: والله ما آمن أن بعثتنى إليه ألا نجتمع أنا وأنت حيين أبداً.

قال : لابد من المسير إليه . . فسار إليه .

وقيل كان السبب فى ذلك أن زيداً كان يخاصم ابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسين بن على فى وقوف على رضى الله عنه : فزيد يخاصم عن بنى حسين ، وجعفر يخاصم عن بنى حسن ، فكانا يبلغان كل غاية ، ويقومان فلا يعيدان مما كان بينهما حرفاً .

فلما مات جعفر ، نازعه عبدالله بن الحسن بن الحسن . فتنازعا يوماً بين يدى خالد بن عبدالملك بن الحارث بالمدينة ، فأغلظ عبدالله لزيد ، وقال : يا ابن السندية . فضحك زيد ، وقال : قد كان إسماعيل عليه السلام ابن أمة ، ومع ذلك فقد صبرت أمى بعد وفاة سيدها ، ولم يصبر غيرها . . . . يعنى فاطمة بنت الحسين أم عبدالله ، فإنها تزوجت بعد أبيه الحسن بن الحسن .

ثم إن زيدا ندم ، واستحيى من فاطمة فإنها عمته ، ولم يدخل إليها زماناً . فأرسلت إليه : يا ابن أخى ، إنى لأعلم أن أمك عندك ، كأم عبدالله عنده . وقالت لعبدالله : بئسما قلت لأم زيد ، أما والله لنعم دخيلة القوم كانت .

وذكر أن خالداً قال لهما : اغدوا علينا غدا فلست ابن عبدالملك إن لم أفصل بينكما .

فباتت المدينة تغلى كالمرجل : يقول قائل قال زيد كذا ، ويقول قائل قال عبدالله كذا . فلما كان من الغد ، جلس خالد فى المسجد ، واجتمع الناس ، فمن بين شامت ومهموم .

فدعا بهما خالد وهو يحب أن يتشاتما . فذهب عبدالله يتكلم ، فقال زيد : لاتعجل يا أبا محمد ، أعتق زيد كل ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبدا . ثم أقبل إلى خالد ، فقال له : لقد جمعت ذرية رسول الله ﷺ ، لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر .

فقال خالد : أما لهذا السفيه أحد ؟

فتكلم رجل من الأنصار من آل عمرو بن حزم ، فقال : يا ابن أبى تراب وابن حسين السفيه ، أما ترى لوال عليك حقاً ولا طاعة ؟!!

فقال زيد : أسكت أيها القحطانى ، فانا لا نجيب مثلك .

قال : ولم ترغب عنى ؟ فوالله إنى لخير منك وخير من أبيك ، وأمى خير من أمك .

فتضاحك زيد، وقال : يا معشر قريش، هذا الدين قد ذهب، أفتذهب الأحساب؟ فوالله ليذهب دين القوم وما تذهب أحسابهم.

فقام عبدالله بن واقد بن عبدالله بن عمر ابن الخطاب، فقال : كذبت والله أيها القحطانى، فوالله لهو خير منك نفساً وأباً وأماً ومحتداً. وتناوله بكلام كثير، وأخذ كفاً من حصباً وضرب بها الأرض، وقال: والله إنه ما لنا على هذا من صبر، وقام.

ثم شخص زيد إلى هشام بن عبدالملك، فجعل هشام لايأذن له، وهو يرفع إليه القصص. فكلما يرفع قصة، يكتب هشام فى أسفلها «ارجع إلى منزلك»، فيقول زيد: والله لا أرجع إلى خالد أبداً.

ثم إنه أذن له يوماً بعد طول حبس، فصعد زيد ـ وكان بادنا ـ فوقف فى بعض الدرج وهو يقول : والله لايحب الدنيا أحد إلا ذل. ثم صعد ـ وقد جمع له هشام أهل الشام ـ فسلم، ثم جلس. فرمى عليه هشام طويلة، فحلف لهشام على شئ، فقال هشام: لا أصدقك.

فقال : يا أمير المؤمنين، إن الله لم يرفع أحداً عن أن يرضى بالله، ولم يضع أحداً عن ألا يرضى بذلك منه.

فقال هشام: أنت زيد المؤمل للخلافة وما أنت والخلافة ـ لا أم لك ـ وأنت ابن أمة ؟

فقال زيد : لاأعلم أحداً عند الله أفضل من نبى بعثه، لقد بعث الله نبياً وهو ابن أمة، ولو كان به تقصير عن منتهى غاية لم يبعث، وهو إسماعيل بن إبراهيم، والنبوة أعظم منزلة من الخلافة عند الله، ثم لم يمنعه الله من أن جعله أبا للعرب، وأبا لخير البشر محمد ﷺ، وما يقصر برجل أبوه رسول الله ﷺ، وبعد أمى فاطمة لا أفخر بأم.

فوثب هشام من مجلسه، وتفرق الشاميون عنه، وقال لحاجبه: لايبيت هذا فى عسكرى أبداً.

فخرج زيد وهو يقول : ما كره قوم قط جر السيوف إلا ذلوا. وسار إلى الكوفة، فقال له محمد بن عمر بن على بن أبى طالب : أذكرك الله يازيد لما لحقت بأهلك، ولا تأت أهل الكوفة، فإنهم لايفون لك.

فلم يقبل، وقال: خرج بنا هشام أسراء على غير ذنب من الحجاز إلى الشام، ثم إلى الجزيرة، ثم إلى العراق، ثم إلى تيس ثقيف يلعب بنا. وأنشد:

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى
أصبحت عن عرض الحياه بمعزل
فأجبتها أن المنية منزل
لابد أن أسقى بكاس المنهل
إن المنية لو تمثل مثلث
مثلى إذا نزلوا بضيق المنزل
فاثنى حبالك لا أبا لك وأعلمى
أنى أمرؤ سأموت أن لم أقتل

أستودعك الله، وأنى أعطى الله عهداً إن دخلت يدى فى طاعة هؤلاء ما عشت.

وفارقه، وأقبل إلى الكوفه، فأقام بها مستخفياً يتنقل فى المنازل. ، فأقبلت الشيعة تختلف إليه تبايعه، فبايعه جماعة من وجوه أهل الكوفة.

وكانت بيعته: إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسم هذا الفئ بين أهله بالسواء، ورد المظالم، وأفعال الخير، ونصرة أهل البيت. أتبايعون على ذلك؟

فإذا قالوا: نعم، وضع يده على أيديهم ويقول: عليك عهد الله وميثاقة وذمته وذمة رسول الله ﷺ: لتؤمنن بيعتى، ولتقاتلن عدوى، ولتنصحن لى فى السر والعلانية. فإذا قال: نعم، مسح يده على يده، ثم قال: اللهم فاشهد.

فبايعه خمسة عشر ألفاً - وقيل أربعون ألفاً - وأمر أصحابه بالاستعداد. فأقبل من يريد أن يفى، ويخرج معه يستعد ويتهيأ. فشاع أمره فى الناس. هذا على قول من زعم أنه أتى الكوفة من الشام، واختفى بها يبايع الناس.

وأما على قول من زعم أنه أتى إلى يوسف بن عمر، لمرافعة خالد بن عبدالله القسرى، أو ابنه يزيد بن خالد، فإنه قال : أقام زيد بالكوفة ظاهراً، ومعه داود بن على بن عبدالله بن عباس، وأقبلت الشيعة تختلف إليه، وتأمره بالخروج ويقولون : إنا لنرجو أن تكون أنت المنصور، وأن هذا الزمان الذى يهلك فيه بنو أمية .

فأقام بالكوفة، ويوسف بن عمر يسأل عنه، فيقال هو هاهنا، ويبعث إليه ليسير، فيقول: نعم، ويعتل بالوجع . فمكث ما شاء الله . ثم أرسل إليه يوسف بالمسير عن الكوفة، فاحتج بأنه يحاكم آل طلحة بن عبيدالله بملك بينهما بالمدينة . فأرسل إليه ليوكل وكيلاً ويرحل عنها .

فلما رأى الجد من يوسف فى أمره، سار حتى أتى القدسية ـ وقيل الثعلبية ـ فتبعه أهل الكوفة، وقالوا له : نحن أربعون ألفاً، لم يتخلف عنك أحد، نضرب عنك بأسيافنا، وليس هاهنا من أهل الشام إلا عدة يسيرة، وبعض قبائلنا يكفيهم بإذن الله، وحلفوا له بالإيمان المغلظة .

فجعل يقول : إنى أخاف أن تخذلونى وتسلمونى، كفعلكم بأبى وجدى . فيحلفون له .

فقال له داود بن على : لا يغرك يا ابن عمى هؤلاء، أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منك : جدك على بن أبى طالب حتى قتل، والحسن من بعده بايعوه، ثم وثبوا عليه وانتزعوا رداءه وجرحوه؟ أو ليس قد أخرجوا جدك الحسين، وحلفوا له، ثم خذلوه وأسلموه، ولم يرضوا بذلك حتى قتلوه؟ فلا ترجع معهم .

فقالوا : يا زيد، أن هذا لا يريد أن تظهر أنت، ويزعم أنه وأهل بيته أولى بهذا الأمر منكم .

فقال زيد لداود : أن عليا كان يقاتله معاوية بذهبه، وأن الحسين قاتله يزيد والأمر مقبل عليهم .

فقال له داود : إنى أخاف إن رجعت معهم ألا يكون أحد أشد عليك منهم، وأنت أعلم .

ومضى داول إلى المدينة، ورجع زيد إلى الكوفة فأتاه سلمة بن كهيل، فذكر له قرابته من رسول الله ﷺ وحقه، فأحسن، ثم قال له : نشدتك الله، كم بايعك ؟

قال : أربعون ألفاً .

قال : فكم بايع جدك ؟

قال : ثمانون ألفاً .

قال : فكم حصل معه ؟

قال : ثلاثمائة .

قال : نشدتك الله ، أنت خير أم جدك ؟

قال : جدى .

قال : فهذا القرن خير أم ذلك القرن ؟

قال : ذلك القرن .

قال : أفتطمع أن يفى لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدك ؟

قال : قد بايعونى ، ووجبت البيعة فى عنقى وعنقهم .

قال : أفتأذن لى أن أخرج من هذا البلد ، فلا آمن أن يحدث حدث فأهلك نفسى ؟

فأذن له ، فخرج إلى اليمامة .

وكتب عبدالله بن الحسن بن الحسن إلى زيد : «أما بعد . فإن أهل الكوفة نفج العلانية ، حور السريرة ، هوج فى الرد ، أجزع فى اللقاء ، تقدمهم ألسنتهم ، ولا تتابعهم قلوبهم ، ولقد تواترت كتبهم إلى بدعوتهم ، فصممت عن ندائهم ، وألبست قلبى عشاء من ذكرهم ، يأساً منهم ، واطراحاً لهم . وما لهم مثل إلا ما قال على بن أبى طالب صلوات الله عليه : أن أهملتهم خضتم ، وأن خورتم خرتم ، وإن اجتمع الناس على امام طعنتم ، وإن أجبتم إلى مشاقة نكصتم» .

فلم يصغ زيد إلى شئ من ذلك ، وأقام على حاله يبايع الناس ، ويتجهز للخروج ، وتزوج بالكوفة امرأتين ، وكان ينتقل تارة عند هذه فى بنى سلمة قومها ، وتارة عند هذه فى الأزد قومها ، وتارة فى بنى عبس ، وتارة فى بنى تغلب وغيرهم . إلى أن ظهر فى سنة اثنتين وعشرين ومائة ، فأمر أصحابه بالاستعداد ، وأخذ من كان يريد الوفاء بالبيعة يتجهز .

فبلغ يوسف بن عمر، فبعث فى طلب زيد، فلم يوجد. وخاف زيد أن يؤخذ، فتعجل قبل الأجل الذى جعله بينه وبين أهل الكوفة، وعلى الكوفة يومئذ الحكم بن الصلت فى ناس من أهل الشام، ويوسف بن عمر بالحيرة.

فلما علم أصحاب زيد أن يوسف بن عمر قد بلغه الخبر، وأنه يبحث عن زيد، اجتمع إلى زيد جماعة من رؤوسهم، فقالوا: رحمك الله، ما قولك فى أبى بكر وعمر؟

فقال زيد: رحمهما الله وغفر لهما، ما سمعت أحداً من أهل بيتى يقول فيهما إلا خيراً، وإن أشد ما أقول فيما ذكرتم: أنا كنا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين، فدفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً، وقد ولوا فعدلوا فى الناس، وعملوا بالكتاب والسنة.

قالوا: فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموا؟ وإذا كان هؤلاء لم يظلموا فلم تدعو إلى قتالهم؟

فقال: إن هؤلاء ليسوا كأولئك، هؤلاء ظالمون لى ولأنفسهم ولكم، وإنما ندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ، وإلى السنن أن تحيى، وإلى البدع أن تطفأ، فإن أجبتمونا سعدتم، وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل.

ففارقوه ونكثوا بيعته، وقالوا: قد سبق الإمام (يعنون محمداً الباقر، وكان قد مات)، وقالوا: جعفر ابنه إمامنا اليوم بعد أبيه. فسماهم زيد الرافضة، وهم يزعمون أن المغيرة سماهم الرافضة حين فارقوه.

وكانت طائفة قد أتت جعفر بن محمد الصادق قبل قيام زيد، وأخبروه ببيعته.

فقال: بايعوه لهو والله أفضلنا وسيدنا. فعادوا وكتموا ذلك.

وكان زيد قد واعد أصحابه أول ليلة من صفر. فبلغ ذلك يوسف بن عمر، فبعث إلى الحكم عاملة على الكوفة يأمره بأن يجمع الناس بالمسجد الأعظم يحصرهم فيه، فجمعهم وطلبوا زيداً، فخرج ليلاً من دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصارى، وكان بها، ورفعوا النيران، ونادوا: يا منصور، حتى طلع الفجر.

فلما أصبحوا نادى أصحاب زيد بشعارهم وثاروا، فأغلق الحكم دروب السوق وأبواب المسجد على الناس، وبعث إلى يوسف بن عمر وهو بالحيرة، فأخبره الخبر، فأرسل إليه خمسين فارساً ليعرفوا الخبر، فساروا حتى عرفوا الخبر، وعادوا إليه.

فسارت الحيرة بأشراف الناس، وبعث ألفين من الفرسان وثلاثمائة رجالة معهم النشاب. وأصبح زيد، فكان جميع من وافاه تلك الليلة مائتى رجل وثمانية عشر رجلاً، فقال: سبحانه الله! أين الناس؟ فقيل: إنهم فى المسجد الأعظم محصورون، فقال: والله ما هذا بعذر لمن بايعنا.

وأقبل فلقيه على جبانه الصايديين خمسمائة من أهل الشام، فحمل عليهم فيمن معه حتى هزمهم، وأنتهى إلى دار أنس بن عمر الأزدى - وكان فيمن بايعه وهو فى الدار - فنودى فلم يجب، فناداه زيد فلم يخرج إليه، فقال زيد: ما أخلفكم؟ قد فعلتموها، الله حسيبكم.

ثم سار ويوسف بن عمر ينظر إليه، وهو فى مائتى رجل، فلو قصده زيد لقتله. والريان يتبع آثار زيد بالكوفة فى أهل الشام، فأخذ زيد فى المسير، حتى دخل الكوفة، فسار بعض أصحابه إلى الجبانة، وواقعوا أهل الشام، فأسر أهل الشام منهم رجلاً، ومضوا به إلى يوسف بن عمر فقتله.

فلما رأى زيد خذلان الناس أياه، قال: قد فعلوها حسبى الله، وسار، وهو يهزم من لقيه، حتى انتهى إلى باب المسجد، فجعل أصحابه يدخلون راياتهم من فوق الباب، ويقولون: يا أهل المسجد أخرجوا من الذل إلى العز، أخرجوا إلى الدين والدنيا، فإنكم لستم فى دين ولا دنيا.

وزيد يقول: والله ما خرجت، ولا قمت مقامى هذا، حتى قرأت القرآن، وأتقنت الفرائض، وأحكمت السنن والآداب، وعرفت التأويل كما عرفت التنزيل، وفهمت الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والخاص والعام، وما تحتاج إليه الأمة فى دينها مما لابد لها منه ولا غنى لها عنه، وإنى لعلى بينه من ربى.

فرماهم أهل المسجد بالحجارة من فوق المسجد، فانصرف زيد فيمن معه، وخرج إليه ناس من أهل الكوفة، فنزل دار الرزق، فأتاه الريان وقاتله، وخرج أهل الشام مساء يوم الأربعاء أسوأ شئ ظناً.

فلما كان من الغد، أرسل يوسف بن عمر عدة عليهم العباس بن سعد المزنى، فلقيهم زيد، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم أصحاب العباس، وقتل منهم نحو من سبعين. فلما كان العشى، عبى يوسف بن عمر الجيوش وسرحهم، فالتقاهم زيد بمن معه، وحصل عليهم حتى هزمهم وهو يتبعهم.

فبعث يوسف طائفة من الماشية، فرموا أصحاب زيد، وهو يقاتل حتى دخل الليل، فرمى بسهم فى جبهته اليسرى ثبت فى دماغه. فرجع أصحابه، ولا يظن أهل الشام أنهم رجعوا للمساء والليل، فأنزلوا زيداً فى دار، وأتوه بطبيب فانتزع النصل، فضج زيد ومات رحمه الله، لليلتين خلتا من صفر سنة اثنتين وعشرين ومائة، وعمره اثنتان وأربعون سنة.

ولما مات اختلف أصحابه فى أمره، فقال بعضهم: نطرحه فى الماء، وقال بعضهم: بل نحز رأسه ونلقيه فى القتلى، فقال ابنه يحيى بن زيد: والله لا يأكل لحم أبى الكلاب، وقال بعضهم: ندفنه فى الحفرة التى يؤخذ منها الطين، ونجعل عليه الماء، ففعلوا ذلك، وأجروا عليه الماء. وكان معه مولى سندى فدل عليه، وقيل رآهم قصار فدل عليه.

وتفرق الناس من أصحاب زيد، وسار ابنه يحيى نحو كربلاء، وتتبع يوسف بن عمر الجرحى فى الدور حتى دل على زيد فى يوم جمعة، فأخرجه، وقطع رأسه وبعث به إلى هشام بن عبدالملك، فدفع لمن وصل به عشرة آلاف درهم، ونصبه على باب دمشق، ثم أرسله إلى المدينة، وسار منها إلى مصر.

وأما جسده فإن يوسف بن عمر صلبه بالكناسة، ومعه ثلاثة ممن كانوا معه، وأقام الحرس عليه. فمكث زيد مصلوباً أكثر من سنتين حتى مات هشام، وولى الوليد من بعده، وبعث إلى يوسف بن عمر أن أنزل زيداً وأحرقه بالنار، فأنزله وأحرقه، وذرى رماده فى الريح.

وكان زيد لما صلب وهو عريان، استرخى بطنه على عورته حتى ما يرى من سوءته شئ.

ومر زيد مرة بمحمد بن الحنفية، فنظر اليه وقال: أعيذك بالله أن تكون زيد بن على المصلوب بالعراق.

وقال عبدالله بن حسين بن على بن الحسين بن على سمعت أبى يقول: اللهم إن هشاماً رضى بصلب زيد فاسلبه ملكه، وإن يوسف ابن عمر أحرق زيداً، اللهم فسلط عليه من لا يرحمه، اللهم وأحرق هشاماً فى حياته إن شئت، وألا فأحرقه بعد موته.

قال: فرأيت والله هشاماً محرقاً لما أخذ بنو العباس دمشق، ورأيت يوسف بن عمر بدمشق مقطعاً على كل باب من أبواب دمشق منه عضو، فقلت: يا أبتاه وافقت دعوتك ليلة القدر.

فقال: لا يابنى، بل صمت ثلاثة أيام من شهر رجب، وثلاثة أيام من شعبان، وثلاثة أيام من شهر رمضان... كنت أصوم الأربعاء والخيس والجمعة، ثم أدعو الله عليهما من صلاة العصر يوم الجمعة حتى أصلى المغرب.

وبعد قتل زيد، انتفض ملك بنى أمية وتلاشى، إلى أن أزالهم الله تعالى ببنى العباس.

وهذا المشهد باق بين كيمان مدينة مصر، يتبرك الناس بزيارته ويقصدونه، لاسيما فى يوم عاشوراء، والعامة تسميه «زين العابدين»، وهو وهم، وإنما زين العابدين أبوه، وليس قبره بمصر، بل قبره بالبقيع.

ولما قتل الإمام زيد سودت الشيعة، أى لبست السواد، وكان أول من سود على زيد شيخ بنى هاشم فى وقته الفضل بن عبدالرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم، ورثاه بقصيده طويلة، وشعره حجة احتج به سيبويه، توفى سنة تسع وعشرين ومائة.

مشهد السيدة نفيسة

قال الشريف النقيب النسابة، شرف الدين أبو على، محمد بن أسعد بن على بن معمر بن عمر الحسينى، الجوانى المالكى، فى كتاب «الروضة الأنيسة بفضل مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها»: نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب عليهم السلام، أمها أم ولد، وإخوتها القاسم ومحمد وعلى وإبراهيم وزيد وعبيد الله ويحيى

وإسماعيل وإسحاق وأم كثلوم، أولاد الحسن بن زيد بن الحسن بن على، فأمهم أم سلمة، واسمها زينب ابنه الحسن بن الحسن بن على، وأمها أم ولد.

تزوج أم كثلوم، أخت نفيسه، عبدالله بن على بن عبدالله بن عباس رضى الله عنهم، ثم خلف عليه الحسن بن زيد بن على بن الحسن بن على.

وأما على وإبراهيم وزيد، إخوة نفيسة من أبيها، فأمهم أم ولد تدعى أم عبدالحميد.

وأما عبيدالله بن الحسن بن زيد، فأمه الزائدة بنت بسطام بن عمير بن قيس الشيبانى.

وأما إسماعيل وإسحاق فهما لأمى ولد. وكان إسماعيل من أهل الفضل والخير، صاحب صوم ونسك، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً. وأما يحيى بن زيد فله مشهد معروف بالمشاهد، يأتى ذكره أن شاء الله تعالى.

وتزوج بنفيسه رضى الله عنها، إسحاق ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام، وكان يقال له إسحاق المؤتمن، وكان من أهل الصلاح والخير والفضل والدين. . . روى عنه الحديث، وكان ابن كاسب إذا حدث عنه يقول: حدثنى الثقة الرضى إسحاق بن جعفر. وكان له عقب بمصر منهم بنو الرقى، وبحلب بنو زهرة. وولدت نفيسة من اسحاق ولدين، هما القاسم وأم كلثوم، لم يعقبا.

وأما جد نفيسة، وهو زيد بن الحسن بن على، فروى عن أبيه وعن جابر وابن عباس، وروى عنه ابنه. وكانت بينه وبين عبدالله بن محمد بن الحنفية خصومة، وفد لأجلها على الوليد بن عبدالملك، وكان يأتى الجمعة من ثمانية أميال، وكان إذا ركب نظر الناس إليه، وعجبوا من عظم خلقه، وقالوا: جده رسول الله ﷺ.

وكتب إليه الوليد بن عبدالملك يسأله أن يبايع لابنه عبدالعزيز، ويخلع سليمان بن عبدالملك، ففرق منه وأجابه. فلما استخلف سليمان، وجد كتاب زيد بذلك إلى الوليد، فكتب إلى أبى بكر بن حزم أمير المدينة: «أدع زيد بن الحسن فأقره الكتاب، فإن عرفه فاكتب إلى، وإن هو نكل فقدمه، فأصب يمينه عند منبر رسول الله ﷺ أنه ما كتبه، ولا أمر به».

فخاف زيد الله واعترف، فكتب بذلك أبو بكر، فكتب سليمان أن يضربه مائة سوط، وأن يدرعه عباءة ويمشيه حافياً. فحبس عمر بن عبدالعزيز الرسول، وقال حتى أكلم أمير المؤمنين فيما كتب به فى حق زيد. فقال للرسول لاتخرج فإن أمير المؤمنين مريض. فمات سليمان، وأحرق عمر الكتاب.

وأما والد نفيسة، وهو الحسن بن زيد، فهو الذى كان والى المدينة النبوية من قبل أبى جعفر عبدالله بن محمد المنصور، وكان فاضلاً أديباً عالماً، وأمه أم ولد، توفى أبوه وهو غلام، وترك عليه ديناً أربعة آلاف دينار، فحلف الحسن ولده ألا يظل رأسه سقف ألا سقف مسجد رسول الله ﷺ، أو بيت رجل يكلمه فى حاجة، حتى يقضى دين أبيه. فوفاه، وقضاه بعد ذلك.

من كرمه أنه أتى بشاب شارب متأدب، وهو عامل على المدينة، فقال: يا ابن رسول الله لا أعود، وقد قال رسول الله ﷺ: « **أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم** »، وأنا ابن أبى أمامه بن سهل بن حنيف، وقد كان أبى مع أبيك كما قد علمت.

قال: صدقت، فهل أنت عائد؟

قال: لا والله.

فأقاله، وأمر له بخمسين ديناراً، وقال له: تزوج بها وعد إلى. فتاب الشاب، وكان الحسن بن زيد يجرى عليه النفقة.

وكانت نفيسة من الصلاح والزهد على الحد الذى لامزيد عليه، فيقال إنها حجت ثلاثين حجة. وكانت كثيرة البكاء، تديم قيام الليل وصيام النهار، فقيل لها: ألا ترفقين بنفسك؟

فقالت: كيف أرفق بنفسى وأمامى عقبة لا يقطعها ألا الفائزون.

وكانت تحفظ القرآن وتفسيره. وكانت لا تأكل إلا فى كل ثلاث ليال أكلة واحدة، ولا تأكل من غير زوجها شيئاً.

وقد ذكر أن الإمام الشافعى محمد بن إدريس كان زارها، وهى من وراء الحجاب، وقال لها: أدعى لى، وكان صحبته عبدالله بن عبدالحكم. وماتت رضى الله عنها بعد موت

الإمام الشافعى رحمه الله عليه بأربع سنين ، لأن الشافعى توفى سلخ شهر رجب سنة أربع ومائتين ، وقيل أنها كانت فيمن صلى على الإمام الشافعى .

وتوفيت السيدة نفيسة فى شهر رمضان سنة ثمان ومائتين ، ودفنت فى منزلها ، وهو الموضع الذى به قبرها الآن ، ويعرف بخط درب السباع ودرب يزرب . وأراد إسحاق بن الصادق ـ وهو زوجها ـ أن يحملها ليدفنها بالمدينة ، فسأله أهل مصر أن يتركها ، ويدفنها عندهم لأجل البركة .

وقبر السيدة نفيسة أحد المواضع المعروفة بإجابة الدعاء بمصر ، وهى أربعة مواضع : سجن نبى الله يوسف الصديق عليه السلام ، ومسجد موسى صلوات الله عليه وهو الذى بطرا ، ومشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، والمخدع الذى على يسار المصلى فى قبلة مسجد الأقدام بالقرافة . فهذه المواضع لم يزل المصريون ، ممن أصابته مصيبة أو لحقته فاقة أو جائحة ، يمضون إلى أحدها ، فيدعون الله تعالى ، فيستجيب لهم . . . مجرب ذلك . انتهى .

ويقال أنها حفرت قبرها هذا ، وقرأت فيه تسعين ومائة ختمة ، وإنها لما أحتضرت خرجت من الدنيا ، وقد انتهت فى حزبها إلى قوله تعالى : **﴿قل لمن ما فى السموات والأرض قل لله، كتب على نفسه الرحمه﴾**(١) . ففاضت نفسها رحمها الله تعالى مع قوله «الرحمة» .

ويقال إن الحسن بن زيد ـ والد السيدة نفيسة ـ كان مجاب الدعوة ممدوحاً ، وإن شخصاً وشئ ، به إلى أبى جعفر المنصور أنه يريد الخلافة لنفسه ، فإنه كان قد انتهت اليه رياسة بنى حسن ، فأحضره من المدينة ، وسلبه ماله ، ثم إنه ظهر له كذب الناقل عنه ، فمن عليه ورده إلى المدينة مكرماً . فلما قدمها بعث إلى الذى وشى به بهدية ، ولم يعتبه على ما كان منه .

ويقال إنه كان مجاب الدعوة . فمرت به امرأة ، وهو فى الأبطح ، ومعها ابن لها على يدها ، فاختطفه عقاب ، فسألت الحسن بن زيد أن يدعو الله لها برده ، فرفع يديه إلى السماء ودعا ربه ، فإذا بالعقاب قد ألقى الصغير من غير أن يضره بشئ ، فأخذته أمه . وكان يعد بألف من الكرام .

---

(١) الأنعام ـ آية ١٢ ـ ك ٦ .

ولما قدمت السيدة نفيسة إلى مصر، مع زوجها إسحاق بن جعفر، نزلت بالمنصوصة، وكان بجوارها دار فيها قوم من أهل الذمة، ولهم ابنه مقعدة لم تمش قط. فلما كان فى يوم من الأيام، ذهب أهلها فى حاجة من حوائجهم، وتركوا المقعدة عند السيدة نفيسة، فتوضأت وصبت من فضل وضوئها على الصبية المقعدة، وسمت الله تعالى، فقامت تسعى على قدميها ليس بها بأس ألبته.

فلما قدم أهلها وعاينوها تمشى، أتوا إلى السيدة نفيسة - وقد تيقنوا أن مشى ابنتهم كان ببركة دعائها - وأسلموا بأجمعهم على يديها، فاشتهر ذلك بمصر، وعرف أنه من بركاتها.

وتوقف النيل عن الزيادة فى زمنها، فحضر الناس إليها، وشكوا إليها ما حصل من توقف النيل، فدفعت قناعها إليهم، وقالت لهم: ألقوه فى النيل، فألقوه فيه، فزاد حتى بلغ الله به المنافع.

وأسر ابن لامرأة ذمية فى بلاد الروم، فأتت إلى السيدة نفيسة، وسألتها الدعاء أن يرد الله ابنها عليها. فلما كان الليل لم تشعر الذمية إلا بابنها وقد هجم عليها دارها، فسألته عن خبره، فقال: يا أماه لم أشعر إلا ويد قد وقعت على القيد الذى كان فى رجلى، وقائل يقول: أطلقوه قد شفعت فيه نفيسة بنت الحسن. فوالذى يحلف به يا أماه، لقد كسر قيدى، وما شعرت بنفسى إلا وأنا واقف بباب هذه الدار. فلما أصبحت الذمية، أتت إلى السيدة نفيسة، وقصت عليها الخبر، وأسلمت هى وابنها، وحسن إسلامهما.

وذكر غير واحد من علماء الأخبار بمصر أن هذا قبر السيدة نفيسة بلا خلاف، وقد زار قبرها من العلماء والصالحين خلق لا يحصى عددهم. ويقال إن أول من بنى على قبر السيدة نفيسة عبيد الله بن السرى بن الحكم أمير مصر، ومكتوب فى اللوح الرخام الذى على باب ضريحها - وهو الذى كان مصفحاً بالحديد - بعد البسملة ما نصه «نصر من الله وفتح قريب لعبدالله ووليه، معد أبى تميم الإمام المستنصر بالله، أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المكرمين. أمر بعمارة هذا الباب السيد الأجل أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الأنام، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، وشد عضده بولده الأجل

الأفضل، سيف الإمام، جلال الإسلام، شرف الأنام، ناصر الدين خليل أمير المؤمنين، زاد الله فى علائه، وأمتع المؤمنين بطول بقائه، فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة».

والقبة التى على الضريح جددها الخليفة الحافظ لدين الله فى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وأمر بعمل الرخام الذى بالمحراب.

مشهد السيدة كلثوم

هى كلثوم بنت القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الحسن بن على بن أبى طالب. موضعه بمقابر قريش بمصر بجوار الخندق. وهى أم جعفر بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق. كانت من الزاهدات العابدات.

سنا وثنا

يقال إنهما من أولاد جعفر بن محمد الصادق. كانتا تتلوان القرآن الكريم فى كل ليلة، فماتت إحداهما، فصارت الأخرى تتلو، وتهدى ثواب قراءتها لأختها حتى ماتت.

ذكر مقابر مصر والقاهرة المشهورة

القبر مدفن الإنسان، وجمعه قبور. والمقبرة موضع القبر. قال سيبويه: المقبرة ليس على الفعل، ولكنه اسم، وقبره يقبره: دفنه، وأقبره جعل له قبراً.

وأعلم أن لأهل مدينة مصر ولأهل القاهرة عدة مقابر، وهى القرافة: فما كان منها فى سفح الجبل يقال له القرافة الصغرى، وما كان منها فى شرق مصر بجوار المساكن يقال له القرافة الكبرى. وفى القرافة الكبرى كانت مدافن أموات المسلمين منذ افتتحت أرض مصر، واختط العرب مدينة الفسطاط، ولم يكن لهم مقبرة سواها.

فلما قدم القائد جوهر، من قبل المعز لدين الله، وبنى القاهرة، وسكنها الخلفاء، اتخذوا بها تربة، عرفت بتربة الزعفران، قبروا فيها أمواتهم، ودفن رعيتهم من مات منهم فى القرافة. إلى أن اختطت الحارات خارج باب زويلة، فقبر سكانها موتاهم خارج باب زويلة مما يلى الجامع، فيما بين جامع الصالح وقلعة الجبل، وكثرت المقابر بها عند حدوث الشدة العظمى أيام الخليفة المستنصر.

ثم لما مات أمير الجيوش بدر الجمالى، دفن خارج باب النصر، فاتخذ الناس هنالك مقابر موتاهم، وكثرت مقابر أهل الحسينية فى هذه الجهة. ثم دفن الناس الأموات خارج القاهرة، فى الموضع الذى عرف بميدان القبق، فيما بين قلعة الجبل وقبة النصر، وبنوا هناك الترب الجليلة، ودفن الناس أيضاً خارج القاهرة فيما بين باب الفتوح والخندق.

ولكل مقبرة من هذه المقابر أخبار، سوف أقص عليك من أنبائها ما انتهت إلى معرفته قدرتى إن شاء الله تعالى.

ويذكر أهل العناية بالأمور المتقادمة أن الناس فى الدهر الأول لم يكونوا يدفنون موتاهم. إلى أن كان زمن دوناى - الذى يدعى سيد البشر، لكثرة ما علم الناس من المنافع - فشكا إليه أهل زمانه ما يتأذون به من خبث موتاهم، فأمرهم أن يدفنوهم فى خوابى، ويسدوا رؤوسها، ففعلوا ذلك. فكان دوناى أول من دفن الموتى.

وذكر أن دوناى هذا كان قبل آدم بدهر طويل، مبلغه عشرون ألف سنة، وهى دعوى لاتصح. وفى القرآن الكريم ما يقتضى أن قابيل بن آدم أول من دفن الموتى، الله أصدق القائلين. وقد قال الشافعى رحمه الله: وأكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجداً، مخافه الفتن عليه وعلى من بعده.

ذكر القرافة

روى الترمذى من حديث أبى طيبة عبدالله بن مسلم، عن عبدالله بن بريدة، عن أبيه رفعه: «**من مات من أصحابي بأرض، بعث قائداً ونورا لهم يوم القيامة**». قال: وهذا حديث غريب، وقد روى عن أبى طيبة عن ابن بريدة مرسلاً، وهذا أصح.

قال أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم فى كتاب «فتوح مصر»: حدثنا عبدالله بن صالح، حدثنا الليث بن سعد، قال: سأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار. فعجب عمرو من ذلك. وقال: أكتب فى ذلك إلى أمير المؤمنين. فكتب بذلك إلى عمر رضى الله عنه. فكتب إليه عمر: «سله لم أعطاك به ما أعطاك، وهى لاتزدرع، ولا يستنبط بها ماء، ولا ينتفع بها؟». .

فسأله فقال: أنا لنجد صفتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة. فكتب بذلك إلى عمر رضى الله عنه. فكتب إليه عمر: «إنا لا نعلم غراس الجنة إلا المؤمنين، فاقبر فيها من مات قبلك من المسلمين، ولا تبعه بشئ».

فكان أول من دفن فيها رجل من المغافر، يقال له عامر، فقيل عمرت.

فقال المقوقس لعمرو: ما ذلك، ولا على هذا عاهدتنا. فقطع لهم الحد الذى بين المقبرة وبينهم.

وعن ابن لهيعة: أن المقوقس قال لعمرو: أنا لنجد فى كتابنا أن ما بين هذا الجبل وحيث نزلتم، نبت فيه شجر الجنة. فكتب بقوله إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه. فقال: صدق، فاجعلها مقبرة للمسلمين.

فقبر فيها ممن عرف من أصحاب رسول الله ﷺ خمسة من عمرو بن العاص السهمى، وعبدالله بن حذافة السهمى، وعبدالله بن جزء الزبيدى، وأبو بصيرة الغفارى، وعقبة بن عامر الجهنى، ويقال ومسلمة بن مخلد الأنصارى. انتهى.

ويقال إن عامراً هو الذى كان أول من دفن بالقرافة، قبره الآن تحت حائط مسجد الفتح الشرقى، وقالت فيه امرأه من العرب.

قامت بواكيه على قبره

من لى من بعدك يا عامر

تركتنى فى الدار ذا غربه

قد ذل من ليس له ناصر

وروى أبو سعيد عبدالرحمن بن أحمد بن يونس فى «تاريخ مصر»، من حديث حرملة بن عمران، قال: حدثنى عمير بن أبى مدرك الخولانى، عن سفيان بن وهب الخولانى، قال: بينا نحن نسير مع عمرو بن العاص فى سفح هذا الجبل، ومعنا المقوقس، فقال له عمرو: يا مقوقس، ما بال جبلكم هذا أقرع، ليس عليه نبات ولا شجر على نحو بلاد الشام؟

فقال: لا أدرى، ولكن الله أغنى أهله بهذا النيل عن ذلك، ولكنه نجد تحته ما هو خير من ذلك.

قال: وما هو ؟

قال: ليدفنن تحته (أو ليقبرن تحته) قوم يبعثهم الله يوم العقيامة لاحساب عليهم.

قال عمرو: اللهم اجعلنى منهم.

قال حرملة بن عمران: فرأيت قبر عمرو بن العاص، وقبر أبى بصيرة، وقبر عقبة بن عامر فيه.

وخرج أبو عيسى الترمذى، من حديث أبى طيبة عبدالله بن مسلم، عند عبدالله بن بريدة، عن أبيه رفعه: « **من مات من أصحابي بأرض بعث قائداً لهم ونورا يوم القيامة** ».

وقال القاضى أبو عبدالله محمد بن سلامة القضاعى: القرافة هم بنو غض بن سيف بن وائل بن المغافر، وفى نسخة بنو غصن.

وقال أبو عمرو الكندى : بنو جحض بن سيف بن وائل بن الجيزى بن شراحيل بن المغافر بن يغفر ، وقيل إن قرافة اسم أم عزافر وجحض ابنى سيف بن وائل بن الجيزى ، قد صحف القضاعى فى قوله «غصن» بالغين المعجمة ، والأقرب ما قاله الكندى ، لأنه أقعد بذلك .

وقال ياقوت : والقرافة ـ بفتح القاف وراء مخففة وألف خفيفة وفاء ـ الأول : مقبرة بمصر مشهورة ، مسماه بقبيلة من المغافر يقال لهم بنو قرافة . الثانى : القرافة محلة بالإسكندرية ، منسوبة إلى القبيلة أيضاً .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب «النقط» ـ وقد ذكر جامع القرافة ، الذى يقال له اليوم جامع الأولياء ـ : وكان جماعة من الرؤساء يلزمون النوم بهذا الجامع ، ويجلسون فى ليالى الصيف يتحدثون فى القمر فى صحنه ، وفى الشتاء ينامون عند المنبر ، وكان يحصل لقيمه الأشربة والحلوى والجرايات .

وكان الناس يحبون هذا الموضع ، ويلزمونه لأجل من يحضر من الرؤساء ، وكانت الطفيلية يلزمون المبيت فى ليالى الجمع ، وكذلك أكثر المساجد التى بالقرافة والجبل والمشاهد ، لأجل ما يحمل إليها ، ويعمل فيها من الحلاوات واللحومات والأطعمة .

وقال موسى بن محمد بن سعيد فى كتاب «المعرب عن أخبار المغرب» : وبت ليالى كثيرة بقرافة الفسطاط ، وهى فى شرقيها ، بها منازل الأعيان بالفسطاط والقاهرة ، وقبور عليها مبان معتنى بها ، وفيها القبة العالية العظيمة المزخرفة ـ التى فيها قبر الإمام الشافعى رضى الله عنه ـ وبها مسجد جامع ، وترب كثيرة عليها أوقاف للقراء ، ومدرسة كبيرة للشافعية .

ولا تكاد تخلو من طرب ، ولا سيما فى الليالى المقمرة ، وهى معظم مجتمعات أهل مصر ، وأشهر متنزهاتهم ، وفيها أقول :

إن القرافة قد حوت ضدين من
دنيا وأخرى فهى نعم المنزل
يغشى الخليع بها السماع مواصلاً
ويطوف حول قبورها المتبتل

كم ليلة بتنا بهـــا ونديمنـــــا
لحن يكاد يذوب منه الجندل
والبدر قد ملأ البســيطة نــوره
فكـأنما قد فاض منه جدول
وبدا يضــاحك أوجهــاً حاكينه
لمـا تكامل وجهــه المتهلل

وفوق القرافة من شرقيها جبل المقطم، وليس له علو ولا عليه اخضرار، وإنما يقصد للبركة، وهو نبيه الذكر فى الكتب، وفى سفحه مقابر أهل الفسطاط والقاهرة.

والإجماع على أنه ليس فى الدنيا مقبرة أعجب منها، ولا أبهى ولا أعظم ولا أنظف من أبنيتها وقبابها وحجرها، ولا أعجب تربة منها كأنها الكافور والزعفران، مقدسة فى جميع الكتب، وحيث تشرف عليها تراها مدينة بيضاء، والمقطم عال عليها كأنه حائط من ورائها.

وقال شافع بن على :

تعجبت من أمر القرافة إذ غدت
على وحشــة الموتى لهـا قلبنا يصبو
فألفيتهـــا مأوى الأحبـة كلهم
ومستوطن الأحباب يصبو له القلب

وقال الأديب أبو سعيد محمد بن أحمد العميدى :

إذا ما ضاق صدرى لم أجد لى
مقـــر عبادة إلا القــــــرافة
لئن لم يرحم المولى اجتهادى
وقــلة ناصرى لم ألــــق رافـه

واعلم أن الناس فى القديم إنما كانوا يقبرون موتاهم فيما بين مسجد الفتح وسفح المقطم، واتخذوا الترب الجليلة أيضاً فيما بين مصلى خولان وخط المغافر ـ التى موضعها الآن كيمان تراب ـ وتعرف الآن بالقرافة الكبرى.

فلما دفن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ابنه ، فى سنة ثمان وستمائة ، بجوار قبر الإمام محمد بن إدريس الشافعى ، وبنى القبة العظيمة على قبر الشافعى ، وأجرى لها الماء من بركة الحبش بقناطر متصلة منها . . . نقل الناس الأبنية من القرافة الكبرى إلى ما حول الشافعى ، وأنشأوا هناك الترب . فعرفت بالقرافة الصغرى ، وأخذت عمائرها فى الزيادة ، وتلاشى أمر تلك . وأما القطعة التى تلى قطعة الجبل فتجددت بعد السبعمائة من سنى الهجرة .

وكان ما بين قبة الإمام الشافعى ، رحمة الله عليه ، وباب القرافة ميداناً واحداً تتسابق فيه الأمراء والأجناد ، ويجتمع الناس هنالك للتفرج على السابق ، فتصير الأمراء تسابق على حدة ، والأجناد تسابق فى جهة وهم منفردون عن الأمراء ، والشرط فى السباق من تربة الأمير بيدرا إلى باب القرافة .

ثم أستجد أمراء دولة الناصر محمد بن قلاوون فى هذه الجهة الترب . فبنى الأمير يلبغا التركمانى ، والأمير طقتمر الدمشقى ، والأمير قوصون وغيرهم من الأمراء . وتبعهم الجند وسائر الناس ، فبنوا الترب والخوانك والأسواق والطواحين والحمامات ، حتى صارت العمارة من بركة الحبش إلى باب القرافة ، ومن حد مساكن مصر إلى الجبل .

وانقسمت الطرق فى القرافة ، وتعددت بها الشوارع ورغب كثير من الناس فى سكناها ، لعظم القصور التى أنشئت بها ، وسميت بالترب ، ولكثرة تعاهد أصحاب الترب لها ، وتواتر صدقاتهم ومبراتهم لأهل القرافة .

وقد صنف الناس فيمن قبر بالقرافة ، وأكثروا من التأليف فى ذلك ، ولست بصدد شئ مما صنفوا فى ذلك ، وإنما غرضى أن أذكر ما تشتمل عليه القرافة .

وفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ظهر بالقرافة شئ ، يقال له القطربة ، تنزل من جبل المقطم ، فاختطفت جماعة من أولاد سكانها ، حتى رحل أكثرهم خوفاً منها .

وكان شخص من أهل كبارة مصر - يعرف بحميد الفوال - خرج من أطفيح على حمارة ، فلما وصل إلى حلوان عشاء ، رأى امرأة جالسة على الطريق ، فشكت إليه ضعفاً وعجزاً

فحملها خلفه، فلم يشعر بالحمار إلا وقد سقط، فنظر إلى المرأة، فإذا بها قد أخرجت جوف الحمار بمخاليبها، ففر وهو يعدو إلى والى مصر، وذكر له الخبر، فخرج بجماعته إلى الموضع، فوجد الدابة قد أكل جوفها.

ثم صارت بعد ذلك تتبع الموتى بالقرافة، وتنبش قبورهم، وتأكل أجوافهم، وتتركهم مطروحين، فامتنع الناس من الدفن فى القرافة زمناً حتى انقطعت تلك الصورة.

ذكر المساجد الشهيرة بالقرافة الكبيرة

اعلم أن القرافة بمصر اسم لموضعين: القرافة الكبيرة، حيث الجامع الذى يقال له جامع الأولياء، والقرافة الصغيرة، وبها قبر الإمام الشافعى. وكانتا فى أول الأمر خطتين لقبيلة من اليمن، هم من المغافر بن يغفر، يقال لهم بنو قرافة.

ثم صارت القرافة الكبيرة جبانة، وهى حيث مصلى خولان والبقعة، وما هو حول جامع الأولياء، فإنه كان يشتمل على مساجد وربط وسوق وعدة مساكن: منها ما خرب، ومنها ما هو باق، وسترى من ذلك ما يتيسر ذكره.

مسجد الأقدام

هذا المسجد بالقرافة بخط المغافر. قال القضاعى: ذكر الكندى أن الجند بنوه، وليس من الخطط.

وسمى الأقدام لأن مروان بن الحكم لما دخل مصر، وصالح أهلها وبايعوه، امتنع من بيعته ثمانون رجلاً من المغافر سوى غيرهم، وقالوا: لا ننكث بيعة ابن الزبير. فأمر مروان بقطع أيديهم وأرجلهم، وقتلهم على بئر بالمغافر فى هذا الموضع، فسمى المسجد بهم لأنه بنى على آثارهم. والآثار الأقدام، يقال جئت على قدم فلان، أى على أثره. وقيل بل أمرهم بالبراءة من على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فلم يتبرأوا منه، فقتلهم هناك.

وقيل إنما سمى مسجد الأقدام لأن قبيلتين اختلفتا فيه : كل تدعى أنه من خطتها . فقيس ما بينه وبين كل قبيلة بالأقدام، وجعل لأقربهما منه .

والقديم من هذا المسجد هو محرابة، والأروقة المحيطة به، وأما خارجه فزيادة الإخشيد، والزيادة الجديدة التى فى بحريه لسمعون - الملقب بسهم الدولة - متولى الستارة، وكان من أهل السنة والخير .

ويقال إنما سمى مسجد الأقدام . لأنه كان يتداوله العباد، وكانت حجارته كذاناً، فأثر فيها موضع أقدامهم، فسمى لذلك مسجد الأقدام .

مسجد الرصد

هذا المسجد بناه الأفضل أبو القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى، بعد بنائه للجامع المعروف بجامع الفيلة، لأجل رصد الكواكب بالآلة التى يقال لها ذات الحلق، كما ذكر فيما تقدم .

مسجد شفيق الملك

هذا المسجد بجوار مسجد الرصد . بناه شقيق الملك خسروان صاحب بيت المال، أحد خدام القصر فى أيام الخليفة الحافظ لدين الله فى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وعمل فيه للحافظ ضيافة عظيمة حضر فيها بنفسه ومعه الأمراء والأستاذون وكافة الرؤساء .

وكان فيه كرم وسمو همة، وكان لمساجد القرافة والجبل عنده رونامج بأسماء أربابها، فينفذ إليهم فى أيام العنب والتين لكل مسجد قفص رطب، ويرسل فى كل ليلة من ليالى الوقود لكل مسجد خروف شواء وسطل جوذ آب وجام حلوى، ولاسيما إذا كان بائتا فى هذا المسجد، فإنه لا يأكل حتى يسير ذلك لمن اسمه عنده .

وكان يعمل جفاف القطائف المحشوة باللوز والسكر والكافور والمسك، وفيها ما فيه بدل اللوز الفستق، ويستدعى من لايقدر على ذلك من أهل الجبل والقرافة وذوى البيوت المنقطعين، ويأمر إذا حضروا بسكب الحلو والشيرج عليه بالجرار، ويأمرهم بالأكل منه والحمل معهم. وكان أحبهم إليه من يأكل طعامه، ويستدعى بره وأنعامه، رحمه الله.

مسجد الأنطاكى

هذا المسجد كان أيضاً بالرصد.

وما برحت هذه المساجد الثلاثة بالرصد يسكنها الناس إلى ما بعد سنة ثمانين وسبعمائة. ثم خربت، وصار الرصد من الأماكن المخوفة بعد ما أدركته متنزهاً للعامة.

مسجد النارنج

هذا المسجد عامر إلى يومنا هذا، فيما بين الرصد والقرافة الكبرى، بجانب سقاية ابن طولون - المعروفة بعفصة الكبرى - غربيها إلى البحرى قليلاً، وهو المطل على بركة الحبش شرقى الكتفى وقبلى القرافة. بنته الجهة الآمرية، المعروفة بجهة الدار الجديدة، فى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة. . أخرجت له اثنى عشر ألف دينار على يد الأستاذين افتخار الدولة يمن، ومعز الدولة الطويل المعروف بالوحش.

وتولى العمارة والإنفاق عليه الشريف أبو طالب موسى بن عبدالله بن هاشم بن مشرف بن جعفر بن المسلم بن عبيدالله بن جعفر بن محمد بن إبراهيم بن محمد اليمانى بن عبيدالله بن موسى الكاظم، الحسينى الموسوى، المعروف بابن أخى الطيب بن أبى طالب الوراق، وسمى مسجد النارنج لأن نارنجه لاينقطع أبداً.

مسجد الأندلس

هذا المسجد فى شرقى القرافة الصغرى بجانب مسجد الفتح، فى الموضع الذى يعرف عند الزوار بالبقعة، وهو مصلى المغافر على الجنائز. ويقال إنه بنى عند فتح مصر، وقيل بنى فى خلافة معاوية بن أبى سفيان. ثم بنته جهة مكنون ـ واسمها علم الآمرية ـ أم ابنه الآمر، التى يقال لها ست القصور، فى سنة ست وعشرين وخمسمائة، على يد المعروف بالشيخ أبى تراب.

و جهة مكنون

هذه كان الخليفة الآمر بأحكام الله كتب صداقها، وجعل المقدم منه أربعة عشر ألف دينار، وكان لها صدقات وبر وخير وفضل، وعندها خوف من الله، وكانت تبعث إلى الأشراف بصلات جزيلة، وترسل إلى أرباب البيوت والمستورين أموالاً كثيرة.

ولما وهب الآمر لهزار الملوك ولبرغش، فى كل يوم، مائتى ألف دينار عيناً. لكل منهما مائة ألف دينار . . . حضر إليها عشاء على عادته، فأغلقت باب مقصورتها قبل دخوله، وقال له: والله ما تدخل إلى، أو تهب لى مثل ما وهبت لواحد من غلاميك.

فقال: الساعة.

ثم استدعى بالفراشين فحضروا، فقال: هاتوا مائة ألف دينار الساعة.

ولم يزل واقفاً إلى أن حضرت عشرة كيسة، فى كل كيس عشرة آلاف دينار، ويحمله عشرة من الفراشين، ففتحت له الباب، ودخل إليها.

ومكنون هذا هو الأستاذ الذى كان برسم خدمتها. ويقال له مكنون القاضى لسكونه وهدوئه. وكان فيه خير وبر كبير .

وبجانب مسجد الأندلس هذا رباط من غربية . بنته جهة مكنون هذه، فى سنة ست وعشرين وخمسمائة ، برسم العجائز الأرامل . فلما كان فى سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، بنى الحاجب لؤلؤ العادلى ، برحبة الأندلس والرباط ، بستاناً وأحواضاً ومقعداً، وجمع بين مصلى الأندلس وبين الرباط بحائط بينهما ، وعمل ذلك لحلول العفيف حاتم بن مسلم المقدسى الشافعى به .

ولما مات السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى بدمشق ، فى المحرم سنة ست وسبعين وستمائة ، وقام من بعده فى السلطنة أبنه الملك السعيد محمد بركة خان ، عمل لأبيه عزاء بالأندلس هذا . فاجتمع هناك القراء والفقهاء ، وأقيمت المطابخ ، وهيئت المطاعم الكثيرة ، وفرقت على الزوايا ، ومدت أسمطة عظيمة بالخيام التى ضربت حول الأندلس . فأكل الناس على اختلاف طبقاتهم ، وقرأ القراء ختمة شريفة ، وعد هذا الوقت من المهمات العظيمة المشهورة بديار مصر .

وكان ذلك فى المحرم سنة سبع وسبعين وستمائة ، على رأس سنة من موت الملك الظاهر ، فقال فى ذلك القاضى محيى الدين عبدالله بن عبدالظاهر :

يا أيها النـاس اسمعوا
قولا بصـدق قد كسى
إن عزا السـلطان فى
غرب وشـرق ما نسى
أليـس ذا مأتمـه
يعمـل فى الأندلـس

ثم عمل بعد ذلك مجتمع فى المدرسة الناصرية بجوار قبة الشافعى من القرافة، ومجتمع بجامع ابن طولون، ومجتمع بجامع الظاهر من الحسينية خارج القاهرة، ومجتمع بالمدرسة الظاهرية بين القصرين، ومجتمع بالمدرسة الصالحية، ومجتمع بدار الحديث الكاملية، ومجتمع بالخانقاه الصلاحية لسعيد السعداء، ومجتمع بالجامع الحاكمى.

وأقيم فى كل واحد من هذه المجتمعات الأطعمة الكثيرة، وعمل للتكاررة خوان، وللفقراء خوان حضره كثير من أهل الخير والصلاح، فقيل فى ذلك :

فشكراً لهـا أوقـاف بر تقبلت
لقد كان فيها الخير والبر أجمعا
لقـد عمت النعمى بها كل موطن
سقتها العوادى مربعاً ثم مربعاً
ولما مضى السلطان لم يمض جوده
وخلّف فينـا بـره متنوعاً
فتى عيش فى معروفه بعـد موته
كما كان بعد السيل مجراه مرتعاً
فـدام له منـا الدعاء مـكرراً
مدى دهرنا والله يسمع من دعا

مسجد البقعة

هذا المسجد مجاور لمسجد الفتح من غربيه. بناه الأمير أبو منصور صافى الأفضلى.

مسجد الفتح

هذا المسجد مشهور بجوار قبر الناطف. بناه شرف الإسلام سيف الإمام يانس الرومى وزير مصر. وسمى بالفتح لأن منه كان انهزام الروم إلى قصر الشمع، حين قدم الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود فيمن سواهما، مددا لعمرو بن العاص، وكان الفتح.

ويقال إن محرابه اللطيف الذى بجانبه الشرقى قديم، وإن تحت حائطه الشرقى قبر عامر الذى كان أول من دفن بالقرافة. ومحراب مسجد الفتح منحرف عن خط سمت القبلة إلى جهة الجنوب إنحرافاً كثيراً - كما ذكر عند ذكر محاريب مصر من هذا الكتاب، واستشهد يومئذ جماعة دفنوا فى مجرى الحصا، فكان يرى على قبورهم فى الليل نور.

مسجد أم عباس جهة العادل بن سلار

هذا المسجد كان بجوار مصلى خولان بالمغافر غربى المقابر. بنته بلاوة زوج العادل بن السلار، سلطان مصر فى خلافه الظافر، سنة سبع وأربعين وخمسمائة، على يد المعروف بالشريف عز الدولة الرضوى بن القفاص، وكانت بلاوة مغربية، وهى أم الوزير عباس الصنهاجى الباديسى. وقد دثر هذا المسجد.

مسجد الصالح

هذا المسجد كان بخط جامع القرافة، المعروف بجامع الأولياء، عرف بمسجد بنى عبيدالله، وبمسجد القبة، وبمسجد العزاء. والذى بناه الصالح طلائع بن رزيك وزير مصر، وكان فى أعلاه مناظر، وعمارته متقنة الزى، وأدركته عامراً إلى ما بعد سنة ثمانمائة.

مسجد ولى عهد أمير المؤمنين

هو الأمير أبو هاشم العباس بن شعيب بن داود المهدى، أحد الأقارب فى الأيام الحاكمية كان إلى جانب مسجد الصالح، وبجانبه تربته. وكان المسجد من حجر، وبابه محمول على أربع حنايا، وتحت الحنايا باب المسجد، وفى شرقيه أيضاً أربع حنايا.

وكانت دار أبى هاشم هذا بمصر دار الأفراح. ومن ولده الشريف الأمير الكبير أبو الحسن على ابن الأمير عباس بن شعيب بن أبى هاشم المذكور، ويعرف بالشريف الطويل وبالنباش.

مسجد الرحمة

هذا المسجد كان فى صدر القرافة الكبرى، بالقرب من تربة ركن الإسلام محمود ابن أخت الملك الصالح طلائع بن رزيك.

قال الكندى: ومنها مسجد القرافة، وهم بنو محصن بن سيف بن وائل بن الجيزى، قبلى القرافة على يمينك إذا أممت مسجد الأقدام، مقابلة فسقية صغيرة، وله منارة، يعرف بمسجد الرحمة. وعرف هذا المسجد بأبى تراب الصواف، وكيل الجهة التى بنت مسجد الأندلس ورباطه ومسجد رقية، وأبو تراب هذا تولى بناءه، وكان يقوم بخدمته الشيخ نسيم.

وأبو تراب هو الذى أخرج إليه ولد الآمر فى قفه من خوص فيها حوائج طبيخ من كراث وبصل وجزر، وهو طفل فى القماط، فى أسفل القفة والحوائج فوقه، ووصل به إلى القرافة، وأرضعته المرضعة بهذا المسجد، وخفى أمره عن الحافظ حتى كبر وصار يسمى قفيفه. فلما حان نقعه، نم عليه أبو عبدالله الحسين بن أبى الفضل عبدالله بن الحسين الجوهرى الواعظ، بعدما مات الشيخ أبو تراب، عند الحافظ. فأخذ الصبى وفصده فمات،

وخلع على ابن الجوهرى ، ثم نفى إلى دمياط ، فمات بها فى جمادى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة .

مسجد مكنون

هو بجانب مسجد الرحمة . بناه الأستاذ مكنون القاضى ، الذى تقدم ذكره فى مسجد الأندلس .

مسجد جهة ريحان

هذا المسجد كان فى وجه مسجد أبى تراب ، قباله دار البقر ، من القرافة الكبرى . وجدده أستاذ الجهة الحافظية ، وأسمه ريحان فى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة .

مسجد جهة بيان

هذا المسجد كان فى بطحاء مسجد الأقدام بجوار ترب المادرانيين . بنته الجهة الحافظية ، المعروفة بجهة بيان الحسامى ، على يد أبى الفضل الصعيدى المعروف بابن الموفق .

وحكى الخليفة عن هذه الجهة خبراً عجيباً . . قال القاضى المكين أبو الطاهر إسماعيل بن سلامة : قال لى أمير المؤمنين الحافظ يوماً : يا قضى أبا الطاهر .

قلت : لبيك يا أمير المؤمنين .

قال : أحدثك بحديث عجيب .

قلت : نعم .

قال : لما جرى من أبى على بن الأفضل ما جرى، بينا أنا فى الموضع الذى كنت معتقلاً فيه، رأيت كأنى قد جلست فى مجلس من مجالس القصر أعرفه، وكأن الخلافة قد أعيدت إلى، وكأن المغنيات قد دخلن يهنيننى ويغنين بين يدى، وفى جملتهن جارية معها عود (يعنى هذه الجارية المذكورة) فأنشأت تغنى قول أبى العتاهية :

أتته الخلافة منقادة
إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له
ولم يك يصلح إلا لها
ولو نالها أحد غيره
لزلزت الأرض زلزالها

وكأنى قمت إلى خزانة بالمجلس أخذت منها حقة فيها جوهر فملأت فمها منه . . ثم أستيقظت . فوالله يا قاضى ما كان إلا يومان حتى كسر على الحبس، لما قتل أبو على بن الأفضل، وقيل لى : السلام على أمير المؤمنين .

فلما خرجت، وأقمت أياماً، جلست فى ذلك المجلس الذى رأيته فى النوم، ودخل الجوارى يهنيننى، فغنت أحداهن - وهى ذات عود - ذلك الصوت بعينه، فقلت لها : على رسلك حتى نقضى نحن أيضاً من حقك ما يجب علينا، وقمت إلى الخزانة، وأخذت الحق الذى فيه الجوهر، ثم جئت إليها وقلت لها : أفتحى فاك، ففتحته وحشوته جوهراً، وقلت لها : إن لك علينا فى كل سنة فى مثل هذا اليوم مثل ذلك .

مسجد نوبة

هو ابن ميسرة الكتامى مغنى المستنصر . كان فى شرقى الأقهوب، وقبالته تربة تنسب إلى الطبالة صاحبة أرض الطبالة، وكلاهما فى القرافة الكبرى .

مسجد درى

هذا المسجد كان فى القرافة الكبرى فى رحبة الأقهوب. بناه شهاب الدولة درى، غلام المظفر أخى الأفضل بن أمير الجيوش، فى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، وكان أرمنياً فأسلم، وصار من المتشددين فى مذهب الإمامية، وقرأ الجمل للزجاجى فى النحو، واللمع لأبن جنى.

وكانت له خرائط من القطن الأبيض يلبسها فى يديه ورجليه، وكان يتولى خزائن الكسوات، ولا يدخل على بسط السلاطين، ولا على بسط الحليف الخليفة لدين الله، ولا يدخل مجلسه إلا بالخرائط فى رجليه، ولا يأخذ من أحد رقعه إلا، وفى يده خريطة، يظن أن من لمسه نجسه، وسوسة منه.

فإن اتفق أنه صافح أحداً، أو أمسك رفعة بيده من غير خريطة، لايمس ثوبه ولا بدنه حتى يغسلها، فإن مس ثوبه غسل الثوب. وكان الأستاذون يعبثون به، ويرمون فى بساط الخليفة الحافظ العنب، فإذا مشى عليه وانفجر، ووصل ماؤه إلى رجليه، سبهم وحرد، فيضحك الخليفة، ولا يؤاخذه.

وعمل مرة الوزير رضوان بن ولخشى دواة حليتها ألف دينار مرصعة، فدخل عليه شهاب الدولة درى الصغير هذا، وقد أحضرت الدواة المكورة، فقال له: يا مولانا أحسن من مداد هذه الدواة، ووقع على هذه، فيكون ذلك زكاتها، إذ لله فيها رضا ولنبيه.

وناوله رقعة الشريف القاضى، سنا الملك أسعد الجوانى النحوى، يطلب فيها راتباً لابنه الشريف أبى عبدالله محمد فى الشهر ثلاثة دنانير، فوقع عليها. فلما كان فى الليل رأى فى نومه أمير المؤمنين على بن أبى طالب، رضى الله عنه، وهو يقول: جزاك الله خيراً على فعلك اليوم.

مسجد ست غزال

هذا المسجد كان فى القرافة الكبرى بجوار تربة النعمان. بنته ست غزال فى سنة ست وثلاثين وخمسمائة، وكانت غزال هذه صاحبة دواة الخليفة، لاتعرف شيئاً إلا أحكام الدوى والليق ومسح الأقلام والدواة، وكان برسم خدمتها الأستاذ مأمون الدولة الطويل.

مسجد رياض

هو لوقافة الحافظ لدين الله، كانت تقف بين يديه بالقصر. وكان بجوار المصنعة الصغرى الطولونية التى يجئ الماء إليها من عفصة الكبرى، وكان فيه حوش به عدة بيوت للنساء المنقطعات.

مسجد عظيم الدولة

هذا المسجد كان معلقاً بخط سوق القرافة الكبرى، وكان عظيم الدولة هذا صقلبياً، صاحب الستر وحامل المظلة. وكان بجوار هذا المسجد مسجد التمساح، ومسجد السدرة، ومسجد جهة مراد.

وكان القاضى أبو عبدالله محمد بن أبى الفرج هبة الله بن الميسر له عمل قدامة منارة النحاس الرومية ذات السواعد، وإجتاز بها من تحت سدرة المسجد فى ليلة الوقود، نصف شهر رجب سنة ثلاثين وخمسمائة، عاقتها السدرة، فأمر بقطع بعضها، فقيل له: لا تفعل فإن قطع السدر محذور، وقد روى أبو داود فى كتاب «السنن» له أن رسول الله ﷺ قال: «**من قطع سدره صوب الله رأسه فى النار**»، فقطعها على ركوب نصف شعبان، فما أسنى، وصرف فى المحرم، ونفى إلى تنيس وقتل.

مسجد أبى صادق

هذا المسجد كان غربى مسجد الأقدام. بناه ابن سعدون، أبو الحسن على بن محمد البغدادى، بعد سنة عشرين وأربعمائة، وجدده أخوه أبو عبدالله الحسين بن محمد بن الحسين بن سعدون البغدادى سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة.

وهو مسجد أبى صادق مرشد المدينى المالكى المحدث، وكان قارئ المصحف بالجامع ومصلياً به، ومصدراً فيه لإقراء السبع، وكان فيه حنة على الحيوانات، لاسيما على القطط والكلاب، وكان مشارف الجامع، وجعل عليه جارياً من الغدد كل يوم لأجل القطط. وكان عند داره، بزقاق الأقفال من مصر، كلاب يطعمها ويسقيها، وربما تبع دابته منها شئ معه فى الأسواق.

قال الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة فى كتاب «النقط على الخطط» : حدثنى الشيخ منجب، غلام أبى صادق، قال : كان لمولاى الشيخ أبى صادق كلب لايفارقه أبداً: إذا كان راكباً يمشى خلفه، فإذا وقفت بغلته قام تحت يديها، فإذا رآه الناس قالوا: هذا أبو صادق وكلبه.

وحدثنى قال: ولدت كلبة فى مستوقد حمام، وكان المؤذن يأتى خلف مولاى سحراً كل يوم لقراءة المصحف، وكان مولاى يأخذ فى كمه كل يوم رغيفاً. فإذا حاذى موضع الكلبة، قلع طيلسانه، وقطع الخبز للكلبة، ويرمى لها بنفسه إلى أن تأكل، ثم يستعدى الوقاد ويعطيه قيراطاً، ويقول له: أغسل قدحاً وأملأه ماء حلواً، ويستحلفه على ذلك. فلما كبر أولادها، صار يأخذ بعد رغيفين إلى أن كبروا وتفرقوا.

وحدثنى قال: كان قد جعل كراء حانوت، برسم القطاط بالجامع العتيق، من الأحباس. وكان يؤتى بالغدد مقطعة، فيجلس ويقسم عليها، وإن قطة كانت تحمل شيئاً من ذلك وتمضى به، وفعلت ذلك مراراً. فقال مولاى للشيخ أبى الحسن بن فرج: أمض خلف هذه القطة، وانظر إلى أين تؤدى ذلك. فمضى ابن فرج فإذا بها تؤديه إلى أولادها، فعاد إليه وأخبره. فكان بعد ذلك يقطع غدداً صغاراً على قدر مساغ القطط الصغار، وغدداً كباراً للكبار، ويرسل بجزء الصغار إلى أن كبروا.

مسجد الفراش

هذا المسجد كان بالقرافة الكبرى. بناه أحمد فراش الأفضل بن أمير الجيوش. وبجواره مسجد بناء زيد بن حسام، ومسجد الأجابة القديمة، وتربة العطار، ودار البقر، وقناطر الأطفيحى. . . كل ذلك بالقرب من جامع القرافة.

مسجد تاج الملوك

هذا المسجد قدام دار النعمان وتربته من القرافة الكبرى. بناه تاج الملوك بدران بن أبى الهيجاء الكردى الماردانى، وهو أخو سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء، صهر بنى رزيك، وكان مجتمع أهل مصر عنده فى الأعياد والمواسم وليالى الوقود.

مسجد الثمار

هذا المسجد كان ملاصقاً للزيادة التى فى بحرى مسجد الأقدام. وفيه قبور بنى الثمار.

مسجد الحجر

هذا المسجد كان بحرى مسجد عمار بن يونس مولى المغافر، وشرقى قصر الزجاج من القرافة الكبرى. بنته مولاة على بن يحيى بن طاهر - المعروف بابن أبى الخارجى الموصلى - فى ربيع الأول سنة ثلاثين وأربعمائة.

مسجد القاضى يونس

هذا المسجد كان غربى مسجد الحجر المذكور. بناه الشيخ عدى الملك بن عثمان، صاحب دار الضيافة، ثم صار بيد قاضى القضاة بمصر: الموفق كمال الدين أبى الفضائل يونس بن محمد بن الحسن - المعروف بجوامرد - خطيب القدس القرشى. وكان من الأعيان، ولم يشرب قط من ماء النيل بل من ماء الآبار، ولم يأكل قط للسلطان خبزا، وكان يروى الحديث عن جده.

مسجد الوزيرية

هذا المسجد كان بالقرافة الكبرى، وله منارة بجوار باب رباط الحجازية. وكانت الحجازية واعظة زمانها، وكانت من الخيرات لها القبول التام، وتدعى أم الخير، وكان لها من الصيت كما كان لابن الجوهرى، وكانت على غاية من الكرم وحسن الأخلاق والشيم.

ومن مكارم أخلاقها، وحسن طباعها وكياسة انطباعها، ما حكاه الجوانى النسابة فى كتاب «النقط على الخطط»، قال: حدثنى الشيخ أبو الحسن بن السراج، المؤذن بالجامع بمصر، قال: كان قدام الباب الأول من أبواب جامع مصر بياع رطب يقعد على الأرض وبين يديه أقفاص رطب من أحسن الأرطاب.

فبينا الحجازية الواعظة هذه ذات يوم قد قاربت الخروج من باب الجامع، وهى فى حفدتها وجواريها، وإذا ذلك الرطاب ينادى على قفص رطب قدامه: معاشر الناس، اشتروا الطيبة الحجازية على أربعة، على أربعة. يزيد على أربعة أرطال رطب بدرهم.

فلما سمعته الحجارية، وقفت قبل أن تخرج من باب الجامع، وأنفذت إليه بعض الجوارى فصاحت به فلما أتاها قالت له: يا أخى، قولك «الحجازية على أربعة» مشكل، لاترجع تنادى كذا، وهذا رباعى هدية منى لك ربح هذا القفص، ولا تناد كذا. فأخذه وقبل يدها، وقال: السمع والطاعة.

مسجد ابن العكر

هذا المسجد غربى مسجد أبى صادق ، بحضره مسجد الأقدام قبالة قصر الكتفى ، وبحذاء مسجد النارنج ، بناه القاضى العادل ابن العكر .

مسجد ابن كباس

هذا المسجد كان مجاوراً للقناطر الأطفيحية ، على يسار من أم طريق الجامع . بناه القاضى ابن كباس .

مسجد الشهمية

هذا المسجد كان شرقى مسجد الأقدام ، وغربى قناطر ابن طولون ، مجاوراً لتربة القاضى ابن قابوس . كان يعرف بمسجد الفقاعة من الكلاع ، ويعرف أيضاً بمسجد شادن الفضلى ، غلام الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات .

مسجد زنكادة

هذا المسجد كان غربى مسجد عمار بن يونس . بناه زنكادة المخنث ، بعدما تاب ، فى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة .

جامع القرافة

هذا الجامع يعرف اليوم بجامع الأولياء، وهو مسجد بنى عبدالله بن مانع بن مزروع، ويعرف بمسجد القبة، وقد ذكر عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب.

مسجد الأطفيحى

هذا المسجد كان فى البطحاء، بحرى مجرى جامع الفيلة إلى الشرق، مخالطاً لخطط الكلاع ورعين والأكنوع والأكحول. ويقال له مسجد وحاطة بن سعد الأطفيحى، من أهل أطفيح، شيخ له سمت، وكتب الحديث فى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة وما قبلها، وسمع من الحباك، وهو فى طبقته، وهو رفيق الفراء، وابن مشرف، وابن الحظية، وأبى صادق، وسلك طريق أهل القناعة والزهد والعزلة كأبى العباس بن الحظية.

وكان الأفضل الكبير شاهنشاه، صاحب مصر، قد لزمه، واتخذ السعى إليه مفترضاً، والحديث معه شهوة وغرضاً لاينقطع عنه. وكان فكه الحديث، قد وقف من أخبار الناس والدول على القديم والحديث، وقصده الناس لأجل حلول السلطان عنده لقضاء حوائجهم، فقضاها. وصار مسجده موئلا للحاضر والبادى، وصدى لإجابة صوت النادى.

وشكا الشيخ إلى الأفضل تعذر الماء ووصوله إليه، فأمر ببناء القناطر، التى كانت فى عرض القرافة من المجرى الكبيرة الطولونية. فبنيت إلى المسجد الذى به الأطفيحى، ومضى عليها من النفقة خمسة آلاف دينار، وعمل الأطفيحى صهريج ماء شرقى المسجد عظيماً محكم الصنعة، وحماماً وبستاناً كان به نخلة سقطت بعد سنة خمسين وخمسمائة.

وعمل الأفضل له مقعداً بحذاء المسجد إلى الشرق، علو زيادته فى المسجد شرقيه، وقاعة صغيرة مرخمة. إذا جاء عنده جلس فيها، وخلا بنفسه، واجتمع معه وحادثه، وكان هذا المقعد على هيئة المنظرة بغير ستائر، كل من قصد الأطفيحى من الكتفى يراه.

وكان الأفضل لا يأخذ عنه القرار. يخرج فى أكثر الأوقاف من دار الملك - باكراً أو ظهراً أو عصراً - بغته، فيترجل، ويدق الباب وقاراً للشيخ - كما كان الصحابة رضى الله عنهم يقرعون أبوب النبى ﷺ - بظفر الإبهام والمسبحة، كما يحصب بهما الحاصب.

فإن كان الشيخ يصلى، لايزال واقفاً حتى يخرج من الصلاة ويقول من ؟ فيقول: ولدك شاهنشاه، فيقول: نعم. ثم يفتح فيصافحه الأفضل، ويمر بيده التى لمس بها يد الشيخ على وجهه، ويدخل. فيقول الشيخ: نصرك الله، أيدك الله، سددك الله، هذه الدعوات الثلاث لا غير أبدا. فيقول الأفضل: آمين.

وبنى له الأفضل المصلى ذات المحاريب الثلاثة، شرقى المسجد إلى القبلى قليلاً، ويعرف بمصلى الأطفيحى. كان يصلى فيه على جنائز موتى القرافة.

وكان سبب اختصاص الأفضل بهذا الشيخ أنه لما كان محاصراً نزار بن المستنصر بالإسكندرية، ناصر الدولة أفتكين الأرمنى، أحد مماليك أمير الجيوش بدر، وكانت أم الأفضل إذ ذاك - وهى عجوز لها سمت ووقار - تطوف كل يوم وفى الجمعة الجوامع والمساجد والرباطات والأسواق، وتستقص الأخبار، وتعلم محب ولدها الأفضل من مبعضه.

وكان الأطفيحى قد سمع بخبرها فجاءت يوم جمعه إلى مسجده، وقالت له: يا سيدى ولدى فى العسكر مع الأفضل، الله يأخذ لى الحق منه، فإنى خائفة على ولدى، فأدع الله لى أن يسلمه.

فقال لها الشيخ: يا أمة الله، أما تستحيين تدعين على سلطان الله فى أرضه، المجاهد عن دينه؟ الله تعالى ينصره ويظفره ويسلمه ويسلم ولدك، ما هو إن شاء الله إلا منصور

مؤيد مظفر كأنك به وقد فتح الإسكندرية ، وأسر أعداءه ، وأتى على أحسن قضية وأجمل طوبة ، فلا تشغلى لك سراً ، فما تكون إلا خيراً إن شاء الله تعالى .

ثم إنها اجتازت بعد ذلك بالفار الصيرفى بالقاهرة بالسراحين ، وهو والد الأمير عبدالكريم الآمرى صاحب السيف ، وكان عبدالكريم قد ولى مصر بعد ذلك فى الأيام الحافظية ، وكان عبدالكريم هذا له فى أيام الآمر وجاهة عظيمة وصوله ثم افتقر .

فوقفت أم الأفضل على الصيرفى تصرف ديناراً ، وتسمع ما يقول لأنه كان إسماعيلياً متغالياً ، فقالت له : ولدى مع الأفضل ، وما أدرى ما خبره ؟

فقال لها الفار المذكور لعن الله المذكور الأرمنى الكلب ، العبد السوء ابن العبد السوء ، مضى يقاتل مولاه ومولى الخلق . كأنك والله يا عجوز برأسه جائزاً من هاهنا على رمح ، قدام مولاه نزار ومولاى ناصر الدولة ، إن شاء الله تعالى ، والله يلطف بولدك ، من قال لك تخليه بمضى مع هذا الكلب المنافق؟ وهو لايعرف من هى .

ثم وقفت على ابن بابان الحلبى ـ وكان بزازا بسوق القاهرة ـ فقالت له مثل ما قالت للفار الصيرفى وقال لها مثل ما قال لها .

فلما أخذ الأفضل نزارا وناصر الدولة ، وفتح الإسكندرية حدثته والدته الحديث ، وقالت : إن كان لك أب بعد أمير الجيوش ، فهذا الشيخ الأطفيحى . فلما خلع عليه المستعلى بالقصر ، وعاد إلى دار الملك بمصر ، اجتاز بالبزازين يوماً ، فلما نظر إلى ابن بابان الحلبى ، قال : انزلوا بهذا ، فنزلوا به ، فقال : رأسه ، فضربت عنقه تحت دكانه ثم قال لعبد على أحد مقدمى ركابه : قف هاهنا لايضيع له شئ إلى أن يأتى أهله ، فيتسلموا قماشه .

ثم وصل إلى دكان الفار الصيرفى ، فقال : انزلوا بهذا ، فنزلوا به ، فقال رأسه ، فضربت عنقه تحت دكانه . وقال ليوسف الأصغر ، أحد مقدمى الركاب . أجلس على حانوته إلى أن يأتى أهله ويتسلموا موجوده ، وإياك وماله وصندوقه ، وإن ضاع منه درهم ضربت عنقك مكانه ، كان لنا خصم أخذناه ، وقد فعلنا به ما يردع غيره عن فعله ، وما لنا ماله ولا فقر أهله .

ثم أتى الأفضل إلى الشيخ أبى طاهر الأطفيحى ، وقربه وخصصه ، إلى أن كان من أمره ما شرحناه .

مسجد الزيات

هذا المسجد مجاور بيت الخواص عربيه، ومسجد ابن أبى الرداد يعرف بمسجد الأنطاكى، ومسجد الفاخورى يعرف بمسجد البطحاء، ومسجد ابن أبى الصغير، قبلى مسجد بن مانع، وهو جامع القرافة. ومسجد الشريفة بنى فى سنة إحدى وخمسمائة، ومسجد ابن أبى كامل الطرابلسى كان بحارة الفرن، بناه الأعز بن أبى كامل. والمعبد الذى كان على رأس العقبة التى يتوصل منها إلى الرصد، بناه أبو محمد عبدالله الطباخ، ويقال إنه كان بالقرافة الكبرى اثنا عشر ألف مسجد.

القصر المعروف بباب ليون بالشرف

هذا القصر كان على طرف الجبل، بالشرف الذى يعرف اليوم. . . . وجاء الفتح وهو مبنى بالحجارة، ثم صار فى موضعه مسجد عرف بمسجد المقس.

والمقس ضيعة كانت تعرف بأم دنين، سميت المقس لأن العاشر كان يقعد بها وصاحب المكس، فقلب فقيل «المقس»، وليون اسم بلد بمصر، بلغة السودان والروم، وقد ذكر المقس عند ذكر ظواهر القاهرة من هذا الكتاب، والله تعالى أعلم.

ذكر الجواسق التى بالقرافة

قال ابن سيده : الجوسق : الحصن، وقيل : هو شبيه بالحصن. . . . معرب.

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة فى «كتاب النقط على الخطط» : الجواسق بالقرافة والجبانة كانت تسمى القصور، وكان بالقرافة قصر الكتفى، وقصر بنى كعب، وقصر بنى عقبة، وقصر أبى قبيل، وقصر العزيز، وقصر البغدادى، وقصر يشب، وقصر ابن كرامة.

جوسق بنى عبدالحكم

كان جوسقاً كبيراً له حوش، وكان فى وسط القرافة، بحضرة مسجد بنى سريع، الذى يقال له الجامع العتيق، وهو أحد الجواسق الثلاثة، وهو جوسق عبدالله بن عبدالحكم الفقيه الأمام، وجدد هذا الجوسق ابن اللهيب المغربى.

جوسق بنى غالب، ويعرف ببنى بايشاد

كان بالمغافر، بنى فى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، وإلى جانبه قبر الشيخ أبى الحسن طاهر بن بايشاد.

جوسق ابن ميسر

كان بجوار جوسق بنى غالب. بناه أبو عبدالله محمد ابن القاضى أبى الفرج هبة الله.

وكان أبو الفرج هو الخطيب بجامع مصر ويوم الغدير، وهو شافعى المذهب، وهو هبة الله بن هبة الله بن الميسر، وذلك فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وخمسمائة.

وأبو عبدالله هذا هو الذى كان بعد ذلك قاضى القضاة بمصر، وهو الذى حبس القياسر التى كانت فى القشاشين بمصر، وكان يحمل قدامه المنارة الرومية النحاس ذات السواعد التى عليها الشمع ليالى الوقودات.

وكان فيه كرم. سمع بأن المادرانى عمل فى أيامه الكعك الصغير، المحشو بالسكر - المسمى «افطن له» - فأمر هو بعمل لب الفستق الملبس بالسكر الأبيض الفانيذ المطيب

بالمسك، وعمل منه فى أول الحال شيئاً عوض لبه لب ذهب فى صحن واحد، فمضى فيه جملة، وخطف قدامه، وتخاطفه الحاضرون، ولم يعد لعمله. بل الفستق الملبس، وهو أول من أخرجه بمصر.

وكان قد سمع فى سيرة أبى بكر المادرانى أنه عمل هذا الأفطن له، وجعل فى كل واحد خمسة دنانير، ووقف أستاذ على السماط، فقال لأحد الجلساء: «افطن له»، وكان على السماط عدة صحون من ذلك الجنس، لكن ما فيها ما فيه دنانير إلا صحن واحد. فلما رمز الأستاذ لأحد الجلساء على سماط المادرانى بقوله «افطن له»- وأشار إلى الصحن- تناول الرجل منه، فأصاب ذلك فاعتمد له، فحصل له جملة. ورآه الناس وهو إذا أكل يخرج شيئاً من فمه ويجمع بيده، ويحط فى حجره، فتنبهوا وتزاحموا عليه، فقيل لذلك المعمول من ذلك الوقت: «افطن له».

وقتل هذا القاضى فى تنيس، فى أيام بهرام الوزير النصرانى الأرمنى، سنة ست وعشرين وخمسمائة.

جوسق ابن مقشر

كان جوسقاً طويلاً ذا تربة إلى جانبة.

جوسق الشيخ أبى محمد

عامل ديوان الأشراف الطالبيين. وجوسق ابن عبدالمحسن بخط الأكحول. وجوسق البغدادى الجراجراى- كان قبره إلى جانبه- خرب فى سنة عشرين وخمسمائة، وجوسق الشريف أبى إسماعيل إبراهيم بن نسيب الدولة الكلتمى الموسوى نقيب مصر.

جوسق المادرانى

هذا الجوسق لم يبق من جواسق القرافة غيره. وهو جوسق كبير جداً على هيئة الكعبة، بالقرب من مصلى خولاق فى بحريه، على جانبيه الممر من مقطع الحجارة. بناه أبو بكر محمد بن على المادرانى فى وسط قبورهم من الجبانة.

وكان الناس يجتمعون عند هذا الجوسق فى الأعياد، ويوقد جميعه فى ليلة النصف من شعبان كل سنة وقوداً عظيماً، ويتحلق القراء حوله لقراءة القرآن، فيمر للناس هنالك أوقات، فى تلك الليلة وفى الأعياد، بديعة حسنة.

جوسق حب الورقة

كان هذا الجوسق بحضرة تربة ابن طباطبا. أدركته عامراً، قد خرب فيما خربه السفهاء من ترب القرافة وجواسقها، زعما منهم أن فيها خبايا.

وكان أكابر أمراء المغافر، ومن بعدهم ومن يجرى مجراهم، لكل منهم جوسق بالقرافة يتنزه فيه، ويعبد الله تعالى هناك، وكان من هذه الجواسق ما تحته حوض ماء لشرب الدواب وفسقية وبستان.

وكان بالقرافة عدة قصور وهى التى تسمى بالجواسق، لها مناظر وبساتين، إلا أن الجواسق أكثرها بغير بساتين ولا بئر، بل مناظر مرتفعة، ويقال لها كلها قصور.

قصر القرافة

بنته السيدة تفريد، أم العزيز بالله، فى سنة ست وستين وثلاثمائة، على يد الحسن بن عبدالعزيز الفارسى المحتسب، هو والحمام الذى كان فى غربية، وبنت البئر والبستان المعروف بالتاح، المعروف بحصن أبى المعلوم، وبنت جامع القرافة.

ثم جدده الآمر بأحكام الله، وبيضه فى سنة عشرين وخمسمائه، وعمل شرقى بابه مصطبة للصوفية، وكان مقدمهم الشيخ أبو إسحاق إبراهيم، المعروف بالمادج، وكان الآمر يجلس فى الطاق الذى بناه بأعلى القصر، ويرقص أهل الطريقة قدامه.

وقد ذكر هذا القصر عند ذكر مناظر الخلفاء من هذا الكتاب ولم يزل هذا القصر إلى ربيع الآخر سنة سبع وستين وخمسمائة.

ذكر الرباطات التى كانت بالقرافة

كان بالقرافة الكبيرة عدة دور، يقال للدار منها رباط، على هيئة ما كانت عليه بيوت أزواج النبى ﷺ، يكون فيها العجائز والأرامل العابدات، وكانت لها الجرايات والفتوحات، وكان لها المقامات المشهورة من مجالس الوعظ.

(**رباط بنت الخواص**) كان تجاه مسجد بيد الفقيه مجلى بن جميع بن نجا الشافعى، مؤلف كتاب «الذخائر»، وقاضى القضاة بمصر.

(**رباط الأشراف**) كان برحبه جامع القرافة . . . يعرف بالقراء، وبنى عبدالله، وبمسجد القبة، وهو شرقى بستان ابن نصر. بناه أبو بكر محمد بن على المادرانى، ووقفه على نساء الأشراف.

(**رباط الأندلس**) بنته الجهة المعروفة بجهة مكنون الآمرية كما تقدم.

(**رباط ابن العكارى**) كان بحضرة مسجد بنى سريع، المعروف بالجامع العتيق.

(**رباط الحجازية**) بنته، وحبسته على الحجازية، فوز جارية على بن أحمد الجرجراى الوزير، هو والمسجد الذى تقدم ذكره.

(**رباط رياض** كان بجوار مسجد الحاجة رياض.

ذكر المصليات والمحاريب التى بالقرافة

وكان فى القرافة عدة مصليات وعدة محاريب، منها :

«**مصلى الشريفة**» : كان بدرب القرافة بحدرة الجباسين وخطة الصدف . . بناه أبو محمد عبدالله بن الأرسوفى الشامى التاجر سنة سبع وسبعين وخمسمائة.

«**مصلى المغافر**» : وهو الأندلس. جدده ابن برك الأخشيدى، ثم بنته جهة مكنون الآمرية فى سنة ست وعشرين وخمسمائة.

«**مصلى عقبة القرافة، يعرف بمصلى الأندلسى**» :كان ذا مصطبة مربعة على يسرة الطالع إلى القرافة. بناه يوسف بن أحمد الأندلسى الأنصارى فى شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة.

«**مصلى القرافة**» :جدده الفقيه ابن الصباغ المالكى فى سنة عشرين وخمسمائة، وكان بحضرة مسجد أبى تراب تجاه دار التبر.

«**مصلى الفتح**» :كان ملاصقاً لمسجد الفتح. بناه أبو محمد القلعى المغربى المنجم الحافظى.

«**مصلى جهة العادل**» : أبى الحسن بن السلار وزير مصر .

«**مصلى الأطفيحى**» : بجوار مسجد الأطفيحى الذى تقدم ذكره .

«**مصلى الجرجانى**» : بناه الوزير على بن أحمد الجرجانى . . وكانت بالقرافة الكبرى والجبانة عدة محاريب خربت كلها .

«**مصلى خولان**» : هذه المصلى عرفت بطائفة من العرب الذين شهدوا فتح مصر ، يقال لهم خولان ، وهم من قبائل اليمن ، واسمه نكل بن عمرو بن مالك بن زيد بن عريب . وفى هذه المصلى مشهد الأعياد ، ويؤم الناس ويخطب لهم بها فى يوم العيد ، خطيب جامع عمرو بن العاص . وليست هذه المصلى هى التى أنشأها المسلمون عند فتح أرض مصر ، وإنما كانت مصلى العيد فى أول الإسلام غير هذه .

قال القضاعى : مصلى العيد كان مصلى عمرو بن العاص مقابل اليحموم ، وهو الجبل المطل على القاهرة ، فلما ولى عبدالله بن سعد بن أبى سرح مصر ، أمر بتحويلة ، فحول إلى موضعه ، المعروف اليوم بالمصلى القديم ، عند درب السباع ، ثم زاد فيه عبدالله بن طاهر سنة عشر ومائتين ، ثم بناه أحمد بن طولون فى سنة ست وخمسين ومائتين ، واسمه باق عليه إلى اليوم .

قال الكندى : ولما قدم شفى الأصبحى إلى مصر ، وأهل مصر قد اتخذوا مصلى بحذاء ساقية أبى عون عند العسكر ، قال : ما لهم وضعوا مصلاهم فى الجبل المعلون ، وتركوا الجبل المقدس (يعنى المقطم) ؟

قال : فقدموا مصلاهم إلى موضعه الذى هو به اليوم (يعنى المصلى القديم المذكور) .

وقال الكندى : ثم ضاق المصلى بالناس فى إمارة عنبسة بن إسحاق الضبى على مصر ، فى أيام المتوكل على الله ، فأمر عنبسة بإبتناء المصلى الجديد . فابتدئ ببنائه فى العشر الأخير من شهر رمضان سنة أربعين ومائين ، وصلى فيه يوم النحر من هذه السنة .

وعنبسة هو آخر عربى ولى مصر ، وآخر أمير صلى بالناس فى المسجد ، وهو المصلى الذى بالصحراء عند الجارودى . ثم جدده الحاكم ، وزاد فيه ، وجعل له قبة وذلك فى سنة ثلاث وأربعمائة .

وكان أمراء مصر إذا خرجوا إلى صلاة العيد بالمصلى، أوقفوا جيشاً فى سفح الجبل - مما يلى بركة الحبش - ليراعى الناس حتى ينصرفوا من الصلاة، خوفاً من البجة. فإنهم قدموا غير مرة، ركباناً على النجب، حتى كبسوا الناس فى مصلاهم، وقتلوا ونهبوا، ثم رجعوا من حيث أتوا.

فخرج عبدالحميد بن عبدالله بن عبدالعزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، غضباً لله وللمسلمين مما أصابهم من البجة، فكمن لهم بالصعيد فى طريقهم، حتى أقبلوا، كعادتهم فى أخذ الناس فى مصلى العيد، فكبسهم، وقتل الأعور رئيسهم. بعدما أقبلوا إلى المصلى فى العيد فى سنة ست وخمسين ومائتين - وأمير مصر أحمد بن طولون - على النجب، وكبسوا الناس فى مصلاهم، وقتلوا ونهبوا منهم، وعادوا سالمين.

ثم دخل العمرى إلى بلاد البجة غازياً، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وضايقهم فى بلادهم إلى أن أعطوه الجزية - ولم يكونوا أعطوا أحداً قبلة الجزية - وسار فى المسلمين وأهل الذمة سيرة حسنة، وسالم النوبة. . إلى أن بدأ النوبة بالغدر فى الموضع المعروف بالمريس. فمال عليهم وحاربهم، وخرب ديارهم، وسبى منهم عالماً كبيراً، حتى كان الرجل من أصحابه يبتاع الحاجة من الزيات والبقال بنوبى أو نوبية لكثرتهم معهم.

فجاءوا إلى أحمد بن طولون، وشكوا له من العمرى. فبعث إليه جيشاً ليحاربه، فأوقع بالجيش وهزمهم، وكانت لهم أنباء وقصص. إلى أن قتله غلامان من أصحابه، وأحضرا رأسه إلى أحمد بن طولون، فأنكر فعلهما، وضرب أعناقهما، وغسل الرأس ودفنه.

ذكر المساجد والمعابد التى بالجبل والصحراء

وكان بجبل المقطم وبالصحراء - التى تعرف اليوم بالقرافة الصغرى - عدة مساجد وعدة مغاير ينقطع العباد بها، منها ما قد دثر، ومنه شئ قد بقى أثره.

«مسجد التنور»: هذا المسجد فى أعلى جبل المقطم من وراء قلعة الجبل فى شرقيها، أدركته عامراً، وفيه من يقيم به.

قال القضاعي : المسجد المعروف بالتنور بالجبل، هو موضع تنور فرعون. كان يوقد له عليه، فإذا رأوا النار علموا بركوبه، فاتخذوا له ما يريد، وكذلك إذا ركب منصرفاً من عين شمس، ثم بناه أحمد بن طولون مسجداً في صفر سنة تسع وخمسين ومائتين ووجدت في كتاب قديم أن يهوذاً بن يعقوب، أخا يوسف عليه السلام، لما دخل مع إخوته على يوسف، وجرى من أمر الصواع ما جرى، تأخر عن إخوته، وأقام في ذروة الجبل المقطم في هذا المكان، وكان مقابلاً لتنور فرعون الذي كان يوقد له فيه النار.

ثم خلا ذلك الموضع إلى زمن أحمد بن طولون، فأخبر بفضل الموضع، وبمقام يهوذا فيه. فابتنى فيه هذا المسجد والمنارة التي فيه، وجعل فيه صهريجاً فيه الماء، وجعل الإنفاق عليه مما وقفه على البيمارستان بمصر والعين التي بالمعافر وغير ذلك.

ويقال إن تنور فرعون لم يزل في هذا الموضع بحاله. إلى أن خرج إليه قائد من قواد أحمد بن طولون، يقال إنه وصيف قاطرميز، فهدمه وحفر تحته، وقدر أن تحته مالاً، فلم يجد فيه شيئاً، وزال رسم التنور وذهب.

وأنشد أبو عمرو الكندي في كتاب «أمراء مصر» من أبيات لسعيد القاص :

وتنور فرعون الذي فوق قلة

على جبل عال على شاهق وعر

بنى مسجداً فيه يروق بناؤه

ويهدى به في الليل أن ضل من يسرى

تخال سنا قنديله وضياءه

سهيلاً إذا ما لاح في الليل للسفر

«القرقوبي» : قال القضاعي : المسجد المعروف بالقرقوبي هو على قرنة الجبل المطل على كهف السودان. بناه أبو الحسن القرقوبي الشاهد، وكيل التجار بمصر، في سنة خمس عشرة وأربعمائة. وكان في موضعه محراب حجارة يعرف بمحراب ابن الفقاعي، الرجل الصالح، وهو على مسار المحراب.

«**مسجد أمير الأمراء**» : رفق المستنصرى : على قرنه الجبل البحرية ، المطلة على وادى مسجد موسى عليه السلام .

« **كهف السودان**» : مغار فى الجبل لايعلم من أحدثه ، ويقال إن قوماً من السودان نقروه فنسب إليهم ، كان صغيراً مظلماً ، فبناه الأحدب الأندلسى ، القزاز ، وزاد فى سفله مواضع نقرها ، وبنى علوه ، ويقال إنه أنفق فيه أكثر من ألف دينار ، ووسع المجاز الذى يسلك منه إليه ، وعمل الدرج النقر التى يصعد عليها إليه ، وبدأ فى بنيانه مستهل سنة إحدى وعشرين وأربعمائة ، وفرغ منه فى شعبان من هذه السنة .

«**العارض**» : هذا المكان مغارة فى الجبل عرفت بأبى بكر محمد جد مسلم القارئ لأنه نقرها ، ثم عمرت بأمر الحاكم بأمر الله ، وأنشئت فيها منارة هى باقية إلى اليوم . وتحت العارض قبر الشيخ العارف عمر بن الفارض رحمه الله ، ولله در القائل :

جز بالقرافة تحت ذيل العارض

وقل السلام عليك يا ابن الفارض

وقد ذكر القضاعى أربع عشرة مغارة فى الجبل ، منها ما هو باق ، وليس فى ذكرها فائدة .

«**اللؤلؤة**» : هذا المكان مسجد فى سفح الجبل باق إلى يومنا هذا . كان مسجداً خرابا ، فبناه الحاكم بأمر الله ، وسماه اللؤلؤة . قيل كان بناؤه فى سنة ست وأربعمائة ، وهو بناء حسن .

«**مسجد الهرعاء**» : فيما بين اللؤلؤة ومسجد محمود ، وهو مسجد قديم يتبرك بالصلاة فيه ، وقد ذكر مسجد محمد عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب لأنه تقام فيه الجمعة .

«**دكة القضاة**» قال القضاعى : هى دكة مرتفعة عن المساجد فى الجبل ، كان القضاة بمصر يخرجون إليها لنظر الأهلة كل سنة ، ثم بنى عليها مسجد .

«**مسجد فائق**» مولى خماروية بن أحمد بن طولون : كان فى سفح الجبل مما يلى طريق مسجد موسى عليه السلام .

«**مسجد موسى**» : بناه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات .

«**مسجد زهرون بالصحراء**» : هو مسجد أبى محمد الحسن بن عمر الخولانى، ثم عرف بابن المبيض. وكان زهرون قيمه، فنسب إليه.

«**مسجد الفقاعى**» : هو أبو الحسن على بن الحسن بن عبدالله، كان أبوه فقاعياً بمصر، وهو مسجد كبير، بناه كافور الإخشيدى، ثم جدده وزاد فيه مسعود بن محمد صاحب الوزير أبى القاسم على بن أحمد الجرجراى.

وكان فى وسط هذا المسجد محراب مبنى بطوب. يقال إنه من بناء حاطب بن أبى بلتعه رسول رسول الله ﷺ إلى المقوقس، ويقال إنه أول محراب اخنط فى مصر، وكان أبو الحسن التميمى قد زاد فيه بناء قبل ذلك.

«**مسجد الكنز**» : هذا المسجد كان شرقى الخندق، وبحرى قبر ذى النون المصرى. وكان مسجداً صغيراً يعرف بالزمام، ومات قبل تمامه، فهدمه أبو طاهر محمد بن على القرشى القرقوبى، ووسعه وبناه.

وحكى أنه لما هدمه رأى قائلاً يقول فى المنام: على أذرع من هذا المسجد كنز. فاستيقظ وقال: هذا من الشيطان، ورأى هذا القائل ثلاث مرات. فلما أصبح أمر بحفر الموضع فإذا فيه قبر، وظهر له لوح كبير تحته ميت فى لحد، كأعظم ما يكون من الناس جثة ورأساً، وأكفانه طرية لم يبل منها إلا ما يلى جمجمة الرأس، فإنه رأى شعر رأسه قد خرج من الكفن، وإذا له جمة. فراعه ما رأى، وقال: هذا هو الكنز بلا شك، وأمر بإعادة اللوح والتراب كما كان، وأخرج القبر عن سائر الحيطان، وأبرزه للناس، فصار يزار ويترك به.

«**مسجد فى غربى الخندق**» : أنشأه أبو الحسن بن النجار الزيات فى سنة إحدى وأربعين وأربعمائة.

«**مسجد لؤلؤ الحاجب**» بالقرافة الصغرى: بنى بجانبه مقبرة، وحفر عندها بئراً حتى انتهى الحفار إلى قرب الماء، فقال الحفار إنى أجد فى البئر شيئاً كأنه حجر.

فقال له لؤلؤ: تسبب فى قلعة. فلما قلعة فار الماء وأخرجه، وإذا هو أسطام مركب، وهو الخشبة التى تبنى عليها السفينة.

وهذا يصدق ما قاله أرسطاطاليس فى كتاب «الآثار العلوية» قال : أن أهل مصر يسكنون فيما انحسر عنه البحر الأحمر «يعنى بحر الشام» .

وقد ذكر خبر لؤلؤ هذا عند ذكر حمام لؤلؤ .

«مقام المؤمن» : قيل إنه مؤمن آل فرعون لأنه أقام فيه . وهذا يعيد من الصحة .

«قناطر ابن طولون وبئره» : هذه القناطر قائمة إلى اليوم من بئر أحمد بن طولون التى عند بركة الحبش ، وتعرف هذه البئر عندنا بئر عفصة ، ولا تزال هذه القناطر إلى أثناء القرافة الكبرى ، ومن هناك خفيت لتهدمها ، وهى من أعظم المبانى .

قال القضاعى : «قناطر أحمد بن طولون وبئره بظاهر المغافر» : كان السبب فى بناء هذه القناطر أن أحمد بن طولون ركب قمر بمسجد الأقدام وحده ، وتقدم عسكره وقد كده العطش ، وكان فى المسجد خياط ، فقال : يا خياط ، أعندك ماء ؟

قال : نعم . فأخرج له كوزاً فيه ماء وقال : اشرب ولا تمد (يعنى لاتشرب كثيراً) .

فتبسم أحمد بن طولون ، وشرب فمد فيه حتى شرب أكثره ، ثم ناوله إياه ، وقال : يافتى سقيتنا وقلت لا تمد ! !

فقال : نعم ، أعزك الله ، موضعنا ههنا منقطع ، وإنما أخيط جمعتى حتى أجمع ثمن راوية .

فقال له : والماء عندكم هاهنا معوز ؟

فقال : نعم .

فمضى أحمد بن طولون . فلما حصل فى داره قال : جيئونى بخياط من مسجد الأقدام ، فما كان بأسرع من أن جاءوا به . فلما رآه قال : سر مع المهندسين حتى يخطوا عندك موضع سقاية ويجروا الماء ، وهذه ألف دينار خذها .

وابتدأ فى الإنفاق ، وأجرى على الخياط فى كل شهر عشرة دنانير ، وقال له : بشرنى ساعة يجرى الماء فيها . فجدوا فى العمل ، فلما جرى الماء أتاه مبشراً ، فخلع عليه وحمله ، واشترى له داراً يسكنها ، وأجرى عليه الرزق السنى الدارّ .

وكان قد أشير عليه بأن يجرى الماء من عين أبى خالد المعروفة بالنعش. فقال: هذه العين لاتعرف أبداً إلا بأبى خليد، وإنى أريد أن أستنبط بئراً. فعدل عن العين إلى الشرق، فاستنبط بئره هذه، وبنى عليها القناطر، وأجرى الماء إلى الفسقية التى بقرب درب سالم.

وقال جامع السيرة الطولونية: وأما رغبته فى أبواب الخير فكانت ظاهرة بينة واضحة. فمن ذلك بناء الجامع والبيمارستان، ثم العين التى بناها بالمغافر، وبناها بنية صحيحة ورغبة قوية، حتى أنها ليس لها نظير، ولهذا اجتهد المادرانيون، وأنفقوا الأموال الخطيرة ليحكوها، فأعجزهم ذلك، لأنها وقعت فى موضع جيرانه كلهم محتاجون إليها.

وهى مفتوحة طول النهار لمن كشف وجهه للأخذ منها، ولمن كان له غلام أو جارية، والليل للفقراء والمساكين.. فهى حياة ومعونة.. واتخذ لها مستغلاً فيه فضل وكفاية لمصالحها.

والذى تولى لأحمد بن طولون بناء هذه العين رجل نصرانى، حسن الهندسة حاذق بها، وإنه دخل إلى أحمد بن طولون فى عشية من العشايا، فقال له: إذا فرغت مما تحتاج إليه، فأعلمنى لنركب إليها لنراها.

فقال: يركب الأمير اليها فى غد فقد فرغت.

وتقدم النصرانى فرأى موضعاً بها يحتاج إلى قصرية جير وأربع طوبات، فبادر إلى عمل ذلك. وأقبل أحمد بن طولون يتأمل العين، فاستحسن جميع ما شاهده فيها، ثم أقبل إلى الموضع الذى فيه قصرية الجير، فوقف بالإتفاق عليها، فلرطوبة الجير غاصت يد الفرس فيه فكبا بأحمد، ولسوء ظنه قدر أن ذلك لمكروه أراد به النصرانى، فأمر به فشق عنه ما عليه من الثياب، وضربه خمسمائة سوط، وأمر به إلى المطبق، وكان المسكين يتوقع من الجائزة مثل ذلك دنانير، فاتفق له اتفاق سوء.

وانصرف أحمد بن طولون وأقام النصرانى. إلى أن أراد أحمد بن طولون بناء الجامع، فقدر له ثلاثمائة عمود، فقيل له ما تجدها، أو تنفذ إلى الكنائس فى الأرياف والضياع الخراب فتحمل ذلك، فأنكره ولم يختره، وتعذب قلبه بالفكر فى أمره.

وبلغ النصرانى وهو فى المطبق الخبر ، فكتب إليه : أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمداً إلا عمودى القبلة ، فأحضره ـ وقد طال شعره حتى تدلى على وجهه ـ فبناه .

قال : ولما بنى أحمد بن طولون هذه السقاية ، بلغه أن قوماً لايستحقون شرب مائها .

قال محمد بن عبدالله بن عبدالحكم الفقيه : كنت ليلة فى دارى ، إذ طرقت بخادم من خدام أحمد بن طولون ، فقال لى : الأمير يدعوك . فركبت مذعوراً مرعوباً ، فعدل بى عن الطريق ، فقلت : أين تذهب بى ؟

فقال : إلى الصحراء والأمير فيها .

فأيقنت بالهلاك ، وقلت للخادم : الله الله فىَّ ، فإنى شيخ كبير ضعيف مسن ، فتدرى ما يراد منى فأرحمنى .

فقال لى : أحذر أن يكون لك فى السقاية قول .

وسرت معه وإذا بالمشاعل فى الصحراء ، وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية وبين يديه الشمع ، فنزلت وسلمت عليه ، فلم يرد على ، فقلت : أيها الأمير أن الرسول اعنتنى وكدنى وقد عطشت ، فيأذن لى الأمير فى الشرب ، فأراد الغلمان أن يسقونى ، فقلت : أنا آخد لنفسى .

فاستقيت وهو يرانى ، وشربت وازددت فى الشرب حتى كدت أنشق ، ثم قلت أيها الأمير ، سقاك الله من أنهار الحنة فلقد ارويت وأغنيت ، لا أدرى ما أصف . أطيب الماء فى حلاوته وبرده ، أم صفائه ، أم طيب ريح السقاية ؟

قال : فنظر إلى وقال : أريدك لأمر وليس هذا وقته ، فاصرفوه . فصرفت .

فقال لى الخادم : أصمت .

فقلت : أحسن الله جزاءك ، فلولاك لهلكت .

وكان مبلغ النفقة على هذه العين فى بنائها ومستغلها أربعين ألف دينار .

وأنشد أبو عمرو الكندى فى كتاب «الأمراء» لسعيد القاص أبياتاً فى رثاء دولة بنى طولون ، منها فى العين والسقاية :

وعين معين الشرب عين زكية
وعـين أجـــاج للرواة وللطـهر
كأن وفود النيل فى جنباتهـا
تروح وتغـــــدو بين مد إلى جزر
فأرك بهــا مســتنبطاً لمعينها
من الأرض من بطن عميق إلى ظهر
بناء لو أن الجن جاءت بمثـله
لقيــــل لقد جاءت بمستفظع نكر
يمر على أرض المغافر كلهـا
وشعبان والأحمور والحى من بشر
قبائل لا نوء السحاب يمدها
ولا النيل يرويها ولا جدول يجرى

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة فى كتاب «الجوهر المكنون فى ذكر القبائل والبطون» : سريع فخذ من الأشعريين وهم ولد سريع بن مانع ، من بنى الأشعر بن أدد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب عن يعرب بن قحطان ، وهم رهط أبى قبيل التابعى الذى خطته اليوم الكوم ، شرقى قناطر سقاية أحمد بن طولون - المعروفة بعفصة الكبيرة - بالقرافة .

«**الخندق**» : الخندق كان بقرافة مصر قد دثر ، وعلى شفيرة الغربى قبر الأمام الشافعى رضى الله عنه ، وكان من النيل إلى الجبل . حفر مرتين . مرة فى زمن مروان بن الحكم ، ومرة فى خلافة الأمين محمد بن هارون الرشيد ، ثم حفرة أيضاً القائدة جوهر .

قال القضاعى : الخندق هو الخندق الذى فى شرقى الفسطاط فى المقابر . كان الذى أثار حفره مسير مروان بن الحكم إلى مصر ، وذلك فى سنة خمس وستين ، وعلى مصر يومئذ عبدالرحمن بن عقبة بن جحدم الفهرى ، من قبل عبدالله بن الزبير رضى الله عنه .

فلما بلغه مسير مروان إلى مصر، أعد واستعد وشاور الجند فى أمره. فأشاروا عليه بحفر الخندق، والذى أشار به عليه ربيعة بن حبيش الصدفى. فأمر ابن جحدم بإحضار المحاريث من الكور لحفر الخندق على الفسطاط، فلم تبق قرية من قرى مصر إلا حضر من أهلها النفر.

وكان ابتداء حفره غرة المحرم سنة خمس وستين، فما كان شئ أسرع من فراغهم منه.. حفروه فى شهر واحد. وكانت الحرب من ورائه يغدون إليها ويروحون، فسميت تلك الأيام أيام الخندق والتراويح لرواحهم إلى القتال. وكانت المغافر أكثر قبائل أهل مصر عدداً... كانوا عشرين ألفاً.

ونزل مروان عين شمس، لعشر حلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين، فى اثنى عشر ألفاً، وقيل عشرين ألفاً، فخرج أهل مصر إلى مروان، فحاربوه يوماً واحداً بعين شمس، ثم تحاجزوا، ورجع أهل مصر إلى خندقهم فتحصنوا به، وصحبتهم جيوش مروان على باب الخندق.

فاصطف أهل مصر على الخندق، فكانوا يخرجون إلى أصحاب مروان فيقاتلونهم نوباً نوباً، وأقاموا على ذلك عشرة أيام، ومروان مقيم بعين شمس.

وكتب مروان إلى شيعته من أهل مصر - كريب بن أبرهة بن الصباح الحميرى، وزياد بن حناطة التجيبى، وعابس بن سعيد المرادى - يقول: إنكم ضمنتم لى ضماناً لم تقوموا به، وقد طالت الأيام والممانعة.

فقام كريب وزياد وعابس إلى ابن جحدم، فقالوا له: أيها الأمير، إنه لا قوام لنا بما ترى، وقد رأينا أن نسعى فى الصلح بينك وبين مروان، وقد مل الناس الحرب وكرهوها، وقد خفنا أن يسلمك الناس إلى مروان فيكون محكماً فيك.

فقال: ومن لى بذلك؟

فقال كريب: أنا لك به.

فسعى كريب وصاحباه فى الصلح على أمان كتبه مروان لأهل مصر وغيرهم ممن شرب ماء النيل، وعلى أن يسلم لابن جحدم من بيت المال عشرة آلاف دينار، وثلاثمائة

ثوب بقطرية، ومائة ريطة، وعشرة أفراس، وعشرين بغلاً، وخمسين بعيراً. فتم الصلح على ذلك.

ودخل مروان الفسطاط مستهل جمادى الأولى سنة خمس وستين، فنزل دار الفلفل، ودفع إلى ابن جحدم جميع ما صالحه عليه، وسار ابن جحدم إلى الحجاز، ولم يلق كل واحد منهما الآخر.

وتفرق المصريون، وأخذوا فى دفن قتلاهم والبكاء عليهم، فسمع البكاء، فقال: ما هذه النوادب؟ فقيل على القتلى، قال: لا أسمع نائحة تنوح إلا أحللت بمن هى فى داره العقوبة. فسكتن عند ذلك.

ودفن أهل مصر قتلاهم فيما بين الخندق والمقطم، وهى المقابر التى يسميها المصربون مقابر الشهداء، ودفن أهل الشام قتلاهم فيما بين الخندق ومنية الأصبغ. وكان قتلى أهل مصر ما بين الستمائة إلى السبعمائة، وقتلى أهل الشام نحو الثلاثمائة.

ولما برز مروان من الفسطاط سائراً إلى الشام، سمع وجبه النساء يندبن قتلاهن، قال: ويحهن، ما هذا؟ قالوا: النساء على مقابرهن يندبن قتلاهن، فعرج عليهن، فأمر بالانصراف. قالوا: كذا هن كل يوم.

قال: فامنعوهن إلا من سبب.

وخرج مروان من مصر إلى الشام لهلال رجب سنة خمس وستين، وكان مقامه بالفسطاط شهرين، واستخلف ابنه عبدالعزيز على مصر، وضم إليه بشر بن مروان ـ وكان حدثاً ـ ثم ولى عبدالملك بشراً بعد ذلك البصرة.

قال: ثم دثر هذا الخندق . . . إلى أيام خلع الأمين بمصر، وبيعة المأمون، وولى البلد عباد بن محمد بن حبان ـ مولى كندة ـ من قبل المأمون. فكتب الأمين بمصر إلى أهل الحوفين فى القيام ببيعته، وقتال عباد وأهل مصر، فتجمع أهل الحوف لذلك واستعدوا.

وبلغ أهل مصر، فأشاروا على عباد بحفر الخندق، فحفروا خندقاً من النيل إلى الجبل، واحتفروا هذا الخندق العتيق. فكان القتال عليه أياماً متفرقة إلى أن قتل الأمين، وتمت بيعة المأمون. ثم لم يحفر بعد ذلك إلى يومنا هذا.

وذكر ابن زولاق أن القائد جوهراً لما اختط القاهرة، وكثر الإرجاف بمسير القرامطة إلى مصر، حفر خندق السرى بن الحكم بباب مدينة مصر، وعمل عليه بابا فى ذى القعدة سنة ستين وثلاثمائة، وحفر خندقاً فى وسط مقبرة مصر، وهو الخندق الذى حفره ابن جحدم.

ابتدأ حفره من بركة الحبش حتى وصله بخندق عبدالرحمن بن جحدم، حتى بلغ به قبر محمد بن إدريس الشافعى، ثم حفر من الجبل إلى أن وصل لخندق ابن جحدم وسط المقابر، وبدأ به يوم السبت التاسع من شوال سنة إحدى وستين وثلاثمائة، وفرغ منه فى مدة يسيرة.

«**القباب السبع**»: هذه القبات بآخر القرافة الكبرى مما يلى مدينة مصر. قال ابن سعيد فى كتاب «المعرب». والقباب السبع، المشهورة بظاهر الفسطاط، هى مشاهد على سبعة من بنى المغربى، قتلهم الخليفة الحاكم بعد فرار الوزير أبى القاسم الحسين بن على ابن المغربى إلى أبى الفتوح حسن بن جعفر بمكة.

وفى ذلك يقول أبو القاسم بن المغربى:

إذا شئت أن ترنو إلى الطف باكياً
فدونك فانظر نحو أرض المقطم
تجد من رجال المغربى عصابة
مضمخة الأجسام من حلل الدم
فكم تركوا محراب آى معطل
وكم تركوا من سورة لم تختم

وقد ذكرت أخبار بنى المغربى عند ذكر بساتين الوزير من بركة الجيش. ويتعلق بهذا الموضع من خبرهم أن أبا الحسن، على بن الحسين بن على بن محمد بن المغربى، لما خرج من بغداد، وصار إلى مصر، وفى أيام العزيز بالله بن المعز لدين الله، فى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، رتب له فى كل سنة ستة آلاف دينار، وصار من شيوخ الدولة.

فقال يوماً لمؤدب ولده أبى القاسم حسين - وهو على بن منصور بن طالب، المعروف بأبى الحسن دوخلة بن القادح - سراً: أنا أخاف همة ابنى أبى القاسم أن تنزو به إلى أن يوردنا مورداً لاصدر عنه، فإن كانت الأنفاس مما تحفظ وتكتب، فاكتبها واحفظها وطالعنى بها.

فقال أبو القاسم فى بعض الأيام لمؤدبه هذا : إلى متى نرضى بالخمول الذى نحن فيه ؟

فقال له : وأى خمول هذا؟ تأخذون من مولانا فى كل سنة ستة آلاف دينار، وأبوكم من شيوخ الدولة.

فقال : أريد أن تصار إلى أبوابنا الكتائب والمواكب والمقانب، ولا أرضى بأن يجرى علينا كالولدان والنسوان.

فأعاد ذلك على أبيه، فقال: ما أخوفنى أن يخضب أبو القاسم هذه من هذه. وقبض على لحيته وهامته وعلم ذلك أبو القاسم، فصارت بينه وبين مؤديه وحشة.

وكان ذلك فى خلافة الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز، وتحدث القائد أبى عبدالله الحسين بن جوهر، وكان الحاكم قد أكثر من قتل رؤساء دولته، وصار يبعث إلى القائد كلما قتل رئيساً برأسه، ويقول: هذا عدوى وعدوك.

فقبض على أبى الحسن على بن الحسين المغربى، والد الوزير أبى القاسم الحسين، وعلى أخيه أبى عبدالله محمد بن الحسين، وعلى محسن ومحمد أخوى الوزير المذكور لثلاث خلون من ذى القعدة سنة أربعمائة، وفر الوزير أبو القاسم الحسين بن المغربى من مصر، فى زى حمال، لليال من ذى القعدة، ولحق بحسان بن الجراح، وكان من أمره ما كان.

ذكر الأحواض والآبار التى بالقرافة

«**حوض القرافة**» : أمر ببنائه السيدة ست الملك، عمة الحاكم بأمر الله ابنه المعز لدين الله، فى شعبان سنة ست وستين وثلاثمائة، واختل فى أيام العادل أبى الحسن ابن السلار، وزير مصر فى سنة ست وأربعين وخمسمائة، فأمر بعمارته.

ثم انشق فى سنة ثمانين وخمسمائة. فجدده القاضى السعيد، ثقة الثقات ذو الرياستين : أبو الحسن على بن عثمان بن يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن أحمد بن يعقوب بن مسلم بن منبه، أحد بنى عبدالله بن عبدالرحمن بن أبى ربيعة بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم المخزومى، صاحب النظر فى ديوان مصر، ومصنف كتاب «المنهاج فى أحكام الخراج»، وهو كتاب جليل الفائدة.

ولم تزل آثار هذا القاضى حميدة، ومقاصدة سديدة، وعنده نخوة قرشية ومروءة وعصبية. وهو وأن طاب أصولاً فقد زكا فروعاً، وإن تفرقت فى سواه فضائل فقد جمعها الله فيه جميعاً، ولم يزل مذ كان يسعى فى الأمانة على صراط مستقيم، آخذاً بقوله تعالى أخباراً عن الكريم بن الكريم ﴿**أجعلنى على خزائن الأرض أنى حفيظ عليم**﴾[1].

«**الحوض بجوار قصر القرافة**» : فى ظهر الحمام العزيزى، بحضرة فرن القرافة، أمرت ببنائه أم الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله - واسمها السيدة رصد - على يد وكيلها الشريف المحدث أبى إبراهيم أحمد بن القاسم بن الميمون بن حمزة الحسينى العبدلى، شيخ القرّاء وابن الخطاب والفكى.

«**حوض حضرة الأشعوب**» : وهو قصر بنى عقيب.

«**حوض فى داخل قصر أبى المعلوم**» : مجاور للبئر الكبيرة ذات الدواليت. بناه المحتسب الفارسى، مع عمارة البئر والميضأة، فى أيام السيدة أم العزيز. ويقال إن الحوض والبئر من بناء المادرانى، وإنما جددته عمة الحاكم.

---

(١) يوسف - آية ٥٥ - ك ١٢.

«**حوض**» بقصر بنى كعب وبجانبه بئر، أنشأه الحاجب لؤلؤ، وهو من حقوق قصر بنى كعب. وقد خربت هذه الأحواض ودثرت.

ذكر الآبار التى ببركة الحبش والقرافة

«**بئر أبى سلامة**»: وتعرف ببئر الغنم، وهى قبلى النوبية، وموضعها أحسن موضع فى البركة، وهى التى عنى أبو الصلت أمية ابن عبدالعزيز بقوله:

لله يـــومى بـــبركة الحبش
والأفق بين الضياء والغبش
والنيل تحت الرياح مضطرب
كصــــارم فى يمـين مرتعش
ونحن فى روضـــة مفـــوفة
دبج بالنـــور عطفهـــا ووشى
قد نسجتها يد الغمام لنا
فنحن من نسجها على فرش
وأثقل الناس كلهم رجل
دعاه داعى الهوى فلم يطش
فعاطنى الراح إن تاركهـا
من ســورة الهم غير منتعش
واسقنى بالكبـــار مترعة
فهن أشـــفى لشدة العطش

«بئر غربى دير مرحنا وبستان العبيدى» : ودير مرحناً يعرف اليوم فى زماننا بدير الطين، وهو عامر بالنصارى.

«بئر الدرج» : شرقى بساتين الوزير، لها درج ينزل به إليها، عملها الحاكم بأمر الله، وشرقيها قبور النصارى، وبعهدهم إلى جهة الجبل قبور اليهود، البستان المجاور لعفصة الصغرى - أول بركة الحبش - على لسان الجبل الخارج إلى البركة، مجاورة لبئر النعش وبئر السقايين، وهى المعروفة ببئر أبى موسى خليد، وقد صار هذا البستان إلى المهذب بن الوزير.

«بئر الزقاق» : شرقى بئر عفصة الصغرى، والزقاق معروف إذ ذاك فى الجبل، وفى أوله بئر مربعة كان يسقى منها البقر والغنم.

ذكر السبعة التى تزار بالقرافة

أعلم أن زيارة القرافة كانت أولاً يوم الأربعاء، ثم صارت ليلة الجمعة، وأما زيارة يوم السبت فقيل إنها قديمة، وقيل متأخرة.

وأول من زار يوم الأربعاء، وابتدأ بالزيارة من مشهد السيدة نفيسة، الشيخ الصالح أبو محمد عبدالله بن رافع بن يرحم بن رافع، السارعى الشافعى المغافرى، الزرار المعروف بعابد. ومولده سنة إحدى وستين وخمسمائة، ووفاته بالهلالية خارج باب زويلة فى ليلة الثانى والعشرين من شعبان سنة ثمان وثلاثين وستمائة، ودفن بسفح المقطم على تربة بنى نهار بحرى تربة الردينى.

وأول من زار ليلة الجمعة الشيخ الصالح المقرئ أبو الحسن على بن أحمد بن جوشن - المعروف بابن الجباس - والد شرف الدين محمد بن على بن أحمد بن الحماس، فجمع الناس وزار بهم فى ليلة الجمعة فى كل أسبوع، وزار معه فى بعض الليالى السلطان الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالى محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب، ومشى معه أكابر العلماء.

وكان سبب تجرد أبى الحسن بن الجباس وانقطاعه إلى الله تعالى، أنه دولب مطبخ سكر شركة رجل، فوقف عليهما مال للديوان فسجنا بالقصر، فقرأ ابن الحباس فى بعض الليالى سورة الرعد، فسمعه السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب، فقام حتى وقف عليه وسأله عن خبره، فأعلمه بأنه سجن على مبلغ كذا، فأمر بالإفراج عنه، فأبى إلا أن يفرج عن رفيقه أيضاً، فأفرج عنهما جميعاً.

واتفق أنه مر فى بعض ليالى الزيارة بزاوية الفخر الفارسى، فخرج وقال: ما هذه البدعة؟ فى غد أبطلها ثم دخل الزاوية وخرج بعد ساعة، وأمر برد ابن الجباس، فلما جاءه قال: دم على ما أنت عليه، فإنى رأيت الساعة قوماً، فقالوا: هل تعطينا ما يعطينا ابن الجباس فى ليالى الجمع؟ فعملت أن ذلك هو الدعاء والقراءة.

وأما زيارة يوم السبت، فقد تقدم أنه اختلف فيها، وحكى الموفق بن عثمان، عن القضاعى، أنه كان يحث على زيارة سبعة قبور، وأن رجلا شكا إليه ضيق حاله والدين، فقال له: عليك بزيارة سبعة قبور.

«أولهم»: الشيخ أبو الحسن على بن محمد بن سهل بن الصائغ الدينورى، و وتوفى ليلة الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من شهر رجب سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة.

«والثانى»: عبدالصمد بن محمد بن أحمد بن إسحاق بن إبراهيم البغدادى، صاحب الخلفاء، وتوفى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة.

«والثالث»: أبو إبراهيم اسماعيل ابن . . . . . . المزنى. وتوفى سنة أربع وستين ومائتين.

«والرابع»: القاضى بكار بن قتيبة. وتوفى سنة سبعين ومائتين.

«والخامس»: القاضى المفضل بن فضالة، وتوفى سنة اثنتين وخمسين ومائتين.

«والسادس»: القاضى أبو بكر عبدالملك بن الحسن القمنى. وتوفى فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة.

«والسابع»: أبو الفيض ذو النون ثوبان بن إبراهيم المصرى. وتوفى سنة خمس وأربعين ومائتين.

وكانوا أولاً يزورون بعد صلاة الصبح، وهم مشاة على أقدامهم. إلى أن كانت أيام شيخ الزوار محمد العجمى السعودى، فزار راكباً فى يوم السبت بعد طلوع الشمس، لأن رجليه كانتا معوجتين لايستطيع المشى عليهما، وذلك فى أواخر سنة ثمانمائة. وتوفى فى عاشر شهر رمضان سنة تسع وثمانمائة.

فجاء بعده الزائر شمس الدين محمد بن عيسى المرجوشى السعودى، ومحيى الدين عبدالقادر بن علاء الدين محمد بن علم الدين بن عبدالرحمن - الشهير بابن عثمان - ففعلاً ذلك، ومات ابن عثمان فى سابع شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وثمانمائة. فاستمرت الزيارة على ذلك.

وقد حكى صاحب كتاب «محاسن الأبرار ومجالس الأخيار» سبعة غير من ذكرنا، وسماهم المحققين، وهم: صلة بن مؤمل، وأبو محمد عبدالعزيز بن أحمد بن على بن جعفر الخوارزمى، وسالم العفيف، وأبو الفضل بن الجوهرى، وأبو عبدالله محمد بن عبدالله بن الحسين - عرف بالبزاز - وأبو الحسن على - عرف بطير الوحش - وأبو الحسن على بن صالح الأندلسى الكحال.

وذكر أيضاً سبعة أخر، وهم عقبة بن عامر الجهنى، والأمام أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعى، وأبو بكر الدقاق، وأبو إبراهيم إسماعيل المزنى، وأبو العباس أحمد الجزار، والفقيه ابن دحية، والفقيه ابن فارس اللخمى.

وزيارتهم يوم الجمعة بعد صلاة الصبح، والعمل عليها فى الزيارة الآن. إلا أنهم يجتمعون طوائف، لكل طائفة شيخ، ويقيمون مناور كباراً وصغاراً، ويخرجون فى ليالى الجمع، وفى كل سبت بكرة النهار، وفى كل يوم أربعاء بعد الظهر، وهم يذكرون الله، فيزورون، ويجتمع معهم من الرجال والنساء خلائق لاتحصى، ومنهم من يعمل ميعاد وعظ، ويقال لشيخ كل طائفة الشيخ الزائر. فتمر لهم فى الزيارة أمور منها ما يستحسن، ومنها ما ينكر، ولكل عبد ما نوى.

فمن أشهر مزارات القرافة «**قبر الأمام أبى عبدالله محمد بن أدريس الشافعى**» رحمه الله ورضوانه عليه. وتوفى يوم الجمعة آخر يوم من شهر رجب سنة أربع ومائتين بفسطاط

مصر ، وحمل على الأعناق حتى دفن فى مقبرة بنى زهرة ، أولاد عبدالله بن عبدالرحمن بن عوف الزهرى رضى الله عنه ، وعرفت أيضاً بتربة أولاد ابن عبدالحكم .

قال القضاعى : وقد جرب الناس خير هذه التربة المباركة والقبر المبارك . وينقل عن المزنى أنه قال فيه :

سقى الله هذا القبر من وبل مزنه
من العفو ما يغنيه عن طلل المزن
لقد كان كفؤا للعداة ومعقـــــلا
وركنـا لهـذا الدين بل أيما ركن

هكذا وقفت عليه ، ثم رأيت بعد ذلك أن المزنى رحمه الله لما دفن ، مر رجل على قبره ، وإذا بهاتف يقول . . . فذكر البيتين .

وقال آخر :

لله درُّ الثرى كم ضـم من كــرم
بالشـافعى حليف العلم والأثر
يا جوهر الجوهر المكنون من مصر
ومن قريش ومن ساداتها الأخر
لمـــا توليت ولى العـــلم مكتئباً
وضر موتك أهل البدو والحضر

ولآخر :

أكرم به رجلاً ما مثله رجل
مشارك لرسول الله فى نسبه
أضحى بمصردفينا فى مقطمها
نعم المقطم والمدفون فى تربه

ومناقب الشافعى رحمه الله كثيرة ، قد صنف الأئمة فيها عدة مصنفات ، وله فى تاريخى الكبير المقفى ترجمة كبيرة . ومن أبدع ما حكى من مناقبه : أن الوزير نظام الملك ، أبا على

الحسن بن على بن إسحاق، لما بنى المدرسة النظامية ببغدا، فى سنة أربع وسبعين وأربعمائة، أحب أن ينقل الإمام الشافعى من مقبرته بمصر إلى مدرسته، وكتب إلى أمير الجيوش بدر الجمالى - وزير الإمام المستنصر بالله معد - يسأله فى ذلك، وجهز له هدية جليلة.

فركب أمير الجيوش فى موكبه، ومعه أعيان الدولة ووجوه المصريين من العلماء وغيرهم، وقد اجتمع الناس لرؤيته. فلما نبش القبر، شق ذلك على الناس وماجو، وكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، وهموا برجم أمير الجيوش والثورة به، فسكتهم، وبعث يعلم الخليفة أمير المؤمنين المستنصر بصورة الحال.

فأعاد جوابه بإمضاء ما أراد نظام الملك، فقرئ كتابه بذلك على الناس عند القبر، وطردت العامة والغوغاء من حوله، ووقع الحفر حتى انتهوا إلى اللحد. فعندما أرادوا قلع ما عليه من اللبن، خرج من اللحد رائحة عطرة أسكرت من حضر فوق القبر حتى وقعوا صرعى، فما أفاقوا إلا بعد ساعة، فاستغفروا مما كان منهم، وأعادوا ردم القبر كما كان، وانصرفوا.

وكان يوماً من الأيام المذكورة، وتزاحم الناس على قبر الشافعى يزورونه مدة أربعين يوماً بلياليها، حتى كان من شدة الازدحام لايتوصل إليه إلا بعناء ومشقة زائدة. وكتب أمير الجيوش محضراً بما وقع، وبعث به وبهدية عظيمة مع كتابه إلى نظام الملك، فقرئ هذا المحضر والكتاب بالنظامية ببغداد وقد اجتمع العالم على اختلاف طبقاتهم لسماع ذلك، فكان يوماً مشهوداً ببغداد.

وكتب نظام الملك إلى عامة بلدان المشرق - من حدود الفرات إلى ما وراء النهر - بذلك، وبعث مع كتبه بالمحضر وكتاب أمير الجيوش، فقرئت فى تلك الممالك بأسرها، فزاد قدر الإمام الشافعى عند كافة أهل الأقطار وعامة جميع أهل الأمصار بذلك.

وقد أوردت فى كتاب «إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأحوال والحفدة والمتاع ﷺ» نظير هذه الوقعة، وقع لضريح رسول الله ﷺ.

ولم يزل قبر الشافعي يزار، ويتبرك به. إلى أن كان يوم الأحد، لسبع خلت من جمادى الأولى سنة ثمان وستمائة، فانتهى بناء هذه القبة التي على ضريحه، وقد أنشأها الملك الكامل المظفر المنصور أبو المعالي ناصر الدين محمد، ظهير أمير المؤمنين، ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وبلغت النفقة عليها خمسين ألف دينار مصرية، وأخرج في وقت بنائها بعظام كثيرة من مقابر كانت هناك، ودفنت في موضع من القرافة.

وبهذه القبة أيضاً قبر السلطان الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقبر أمة شمسة. وقيل فيها عدة أشعار، منها قول الأديب الكاتب ضياء الدين أبي الفتح موسى بن ملهم:

مررت على قبة الشافعي
فعاين طرفي عليها العشاري
فقلت لصحبي لا تعجبوا
فإن المراكب فوق البحار

وقال علاء الدين أبو علي عثمان بن إبراهيم النابلسي:

لقد أصبح الشافعي الإما
م فينا له مذهب مذهب
ولو لم يكن بحر علم لما
غدا وعلى قبره مركب

وقال آخر:

أتيت لقبر الشافعي أزوره
تعرضنا فلك وما عنده بحر
فقلت تعالى الله تلك إشارة
تشير بأن البحر قد ضمه القبر

وقال شرف الدين أبو عبدالله محمد بن سعيد بن حماد البوصيرى صاحب البردة :

بقبة قبر الشـــــافعى ســـفينة

رست فى بنـــاء محــــكم فوق جلمود

ومذ غاض طوفان العلوم بقبره أسـ

ـتوى الفلك من ذاك الضريح على الجودى

ومنها «**قبر الأمام الليث بن سعد**» رحمه الله . قد اشتهر قبره عند المتأخرين .

وأول ما عرفته من خبر هذا القبر : أنه وجدت مصطبه فى آخر قباب الصدف. وكانت قباب الصدف أربعمائة قبة فيما يقال. عليها مكتوب «الإمام الفقيه الزاهد العالم الليث بن سعد بن عبدالرحمن أبو الحارث المصرى، مفتى أهل مصر» .

كما ذكر فى كتاب «هادى الراغبين فى زيارة قبور الصالحين» لأبى محمد عبدالكريم بن عبدالله بن عبدالكريم بن على بن محمد بن على بن طلحة، وفى كتاب «مرشد الزوار» للموفق ابن عثمان، وذكر الشيخ محمد الأزهرى فى كتابه «فى الزيارة» أن أول من بنى عليه وحيز كبير التجار أبو زيد المصرى، بعد سنة أربعين وستمائة .

ولم يزل البناء يتزايد إلى أن جدد الحاج سيف الدين المقدم عليه قبته، فى أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، قبيل سنة ثمانين وسبعمائة، ثم جددت فى أيام الناصر فرج بن الظاهر برقوق، على يد الشيخ أبى الخير محمد ابن الشيخ سليمان المادح، فى محرم سنة إحدى عشرة وثمانمائة .

ثم جددت فى سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة على يد أمرأة قدمت من دمشق، فى أيام المؤيد شيخ، عرفت بمرحباً بنت إبراهيم بن عبدالرحمن أخت عبدالباسط، وكان لها معروف وبر، توفيت فى تاسع عشرى ذى القعدة سنة أربعين وثمانمائة .

ويجتمع بهذه القبة، فى ليلة كل سبت، جماعة من القراء، فيتلون القرآن الكريم تلاوة حسنة حتى يختموا ختمة كاملة عند السحر، ويقصد المبيت عندهم، للتبرك بقراءة القرآن،

عدة من الناس. ثم تفاحش الجمع، وأقبل النساء والأحداث والغوغاء، فصار أمراً منكراً، لا ينصتون لقراءة، ولا يتعظون بمواعظ، بل يحدث منهم على القبور ما لا يجوز. ثم زادوا فى التعدى حتى حفروا ما هنالك خارج القمة من القبور، وبنوا مبانى اتخذوها مراحيض وسقايات ماء.

ويزعم من لا علم عنده أن هذه القراءة، فى كل ليلة سبت عند قبر الليث بزعمهم، قديمة من عهد الإمام الشافعى. وليس ذلك بصحيح، وإنما حدثت بعد السبعمائة من سنى الهجرة بمنام ذكر بعضهم أنه رآه، وكانوا إذ ذاك يجتمعون للقراءة عند قبر أبى بكر الأدفوى.

ذكر المقابر خارج باب النصر

أعلم أن المقابر، التى هى الآن خارج باب النصر، إنما حدثت بعد سنة ثمانين وأربعمائة. وأول تربة بنيت هناك تربة أمير الجيوش بدر الجمالى لما مات ودفن فيها، وكان خطها يعرف برأس الطابية.

قال الشريف أمين الدولة، أبو جعفر محمد بن هبه الله العلوى الأفطسى، وقد مر بتربة الأفضل:

أجـــرى دماً أجفـــانيه
جــــدث برأس الطـــابية
صدع الزمان صفاتيه . . . . . .
بال ومـــا بليـــت أيـــا
ديــــه عـــــلى الباقـية

وبخارج باب النصر، فى أوائل القبر، قبر زينب بنت أحمد بن محمد بن عبدالله بن جعفر ابن الحنفية يزار، وتسمية العامة مشهد الست زينب.

ثم تتابع دفن الناس موتاهم فى الجهة، التى هى اليوم من بحرى مصلى الأموات إلى نحو الريدانية، وكان ما فى شرقى هذه المقبرة إلى الجبل براحاً واسعاً. يعرف بميدان القبق، وميدان العيد، والميدان الأسود. وهو ما بين قلعة الجبل إلى قبة النصر تحت الجبل الأحمر.

فلما كان بعد سنة عشرين وسبعمائة، ترك الملك الناصر محمد بن قلاوون النزول إلى هذا الميدان وهجره. فأول من ابتدأ فيه بالعمارة الأمير شمس الدين قراسنقر، فاختط تربته التى تجاور اليوم تربة الصوفية، وبنى حوض ماء للسبيل، وجعل فوقه مسجداً وهذا الحوض بجوار باب تربة الصوفية، أدركته عامراً هو وما فوقه، وقد تهدم وبقيت منه بقية.

ثم عمر بعده نظام الدين آدم، أخو الأمير سيف الدين سلار، تجاه تربة قراسنقر مدفناً وحوض ماء للسبيل ومسجداً معلقاً، وتتابع الأمراء والأجناد وسكان الحسينية فى عمارة الترب هناك، حتى انسدت طريق الميدان، وعمروا الجوانية أيضاً. وأخذ صوفيه الخانقاه الصلاحية لسعيد السعداء قطعة قدر فدانين وأداروا عليها سوراً من حجر، وجعلوها مقبرة لمن يموت منهم، وهى باقية إلى يومنا هذا، وقد وسعوا فيها بعد سنة تسعين وسبعمائة بقطعة من تربة قراسنقر.

وما برح الناس يقصدون تربة الصوفية هذه لزيارة من فيها من الأموات، ويرغبون فى الدفن بها. إلى أن تولى مشيخة الخانقاه الشيخ شمس الدين محمد البلالى، فسمح لكل أحد أن يقبر ميته بها على مال يأخذ منه، فقبر بها كثير من أعوان الظلمة ومن لم تشكر طريقته، فصارت مجمع نسوان ومجلس لعب.

وعمر أيضاً بجوار تربة الصوفية الأمير مسعود بن خطير تربة، وعمل لها منارة من حجارة لانظير لها فى هيئتها، وهى باقية. وعمر أيضاً مجد الدين السلامى تربة، وعمر الأمير سيف الدين كوكاى تربة، وعمر الأمير طاجاى الدوادار، على رأس القبق مقابل قبة النصر، تربة وعمر الأمير سيف الدين طشتمر الساقى على الطريق تربة. وبنى الأمراء إلى جانبه عدة ترب، وبنى الطواشى محسن البهاء تربة عظيمة، وبنت خوند طغاى تربة تجاه تربة طشتمر الساقى، وجعلت لها وقفاً. وبنى الأمير طغاى تمر النجمى الدوادار تربة،

وجعلها خانقاه، وأنشأ بجوارها حماماً وحوانيت، وأسكنها للصوفية والقراء. وبنى الأمير منكلى بغا الفخرى تربة، والأمير طشتمر طللية تربة، والأمير أرنان تربة. وبنى كثير من الأمراء وغيرهم الترب، حتى اتصلت العمارة من ميدان القبق إلى تربة الروضة خارج باب البرقية.

وما مات الملك الناصر حتى بطل من الميدان السباق بالخيل، ومنعت طريقه من كثرة العمائر. وأدركت بعد سنة ثمانين وسبعمائة عدة عواميد من رخام منصوبة - يقال لها عواميد السباق - فيما بين قبة النصر وقريب من القلعة.

وأول من عمر فى البراح الذى كان فيه عواميد السباق الأمير يونس الدوادار، فى أيام الملك الظاهر، تربته الموجودة هناك. ثم عمر الأمير قجماس، ابن عم الملك الظاهر برقوق، تربة بجانب تربة يونس. وأحيط على قطعة كبيرة حائط، وقبر فيها من مات من مماليك السلطان، وقبر فيها الشيخ علاء الدين السيرامى شيخ الخانقاه الظاهرية، والشيخ المعتقد طلحة، والشيخ المعتقد أبوبكر البجائى.

فلما مرض الملك الظاهر برقوق، أوصى أن يدفن تحت أرجل هؤلاء الفقراء، وأن يبنى على قبره تربة، فدفن حيث أوصى، وأخذت قطعة مساحتها عشرة آلاف ذراع، وجعلت خانقاه، وجعل فيها قبة على قبر السلطان وقبور الفقراء المذكورين، وتجدد من حينئذ هناك عدة ترب جليلة، حتى صار الميدان شوارع وأزقة.

ونقل الملك الناصر فرج بن برقوق سوق الجمال وسوق الحمير من تحت القلعة إلى تجاه التربة التى عمرها على قبر أبيه، فاستمر ذلك أياماً فى سنة أربع عشرة وثمانمائة، ثم أعيدت الأسواق إلى مكانها. وكان قصده أن يبنى هناك خاناً كبيراً ينزل فيه المسافرون، ويجعل بجانبه سوقاً، وبنى طاحوناً وحماماً وفرنا لتعمر تلك الجهة بالناس، فمات قبل بناء الخان، وخلت الحمام والطاحون والفرن بعد قتله.

ذكر كنائس اليهود

قال الله عز وجل : ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً**﴾(١)، وقال المفسرون : الصوامع للصابئين، والبيع للنصارى، والصلوات كنائس اليهود، والمساجد للمسلمين؛ قال ابن قتيبه . والكنيس كلمة عبرانية معناها بالعربية الموضع الذى يجتمع فيه للصلاة .

ولهم بديار مصر عدة كنائس : منها كنيسة دموه بالجيزة، وكنيسة جوجر من القرى الغربية، وبمصر الفسطاط كنيسة بخط المصاصة فى درب الكرمة، وكنيستان بخط قصر الشمع، وبالقاهرة كنيسة بالجودرية، وفى حارة زويلة خمس كنائس .

«**كنيسة دموه**» : هذه الكنيسة أعظم معبد للهيود بأرض مصر . فإنهم لايختلفون فى أنها الموضع الذى كان يأوى إليه موسى بن عمران، صلوات الله عليه، حين كان يبلغ رسالات الله عز وجل إلى فرعون، مدة مقامه بمصر، منذ قدم من مدين إلى أن خرج ببنى إسرائيل من مصر . ويزعم يهود أنها بنيت هذا البناء الموجود، بعد خراب بيت المقدس الخراب الثانى على يد طيطش ببضع وأربعين سنة، وذلك قبل ظهور الملة الإسلامية بما ينيف على خمسمائة سنة .

وبهذه الكنيسة شجرة زيزلخت فى غاية الكبر، لايشكون فى أنها من زمن موسى عليه السلام، ويقولون : إن موسى عليه السلام غرس عصاه فى موضعها، فأنبت الله هناك هذه الشجرة، وأنها لم تزل ذات أغصان نضرة، وساق صاعد فى السماء، مع حسن استواء وثخن فى استقامة .

إلى أن أنشأ الملك الأشرف شعبان بن حسين مدرسته تحت القلعة، فذكر له حسن هذه الشجرة، فتقدم بقطعها لينتفع بها فى العمارة، فمضوا إلى ما أمروا به من ذلك، فأصبحت وقد تكورت وتعقفت، وصارت شنيعة المنظر، فتركوها، واستمرت كذلك مدة . فاتفق أن

---

(١) الحج ـ آية ٤٠ ـ م٢٢ .

زنى يهودى بيهودية تحتها، فتهدلت أغصانها، وتحات ورقها، وجفت حتى لم يبق بها ورقة خضراء، وهى باقية كذلك إلى يومنا هذا.

ولهذه الكنيسة عيد يرحل اليهود بأهاليهم إليها فى عيد الخطاب، وهو فى شهر سيوان، ويجعلون ذلك بدل حجهم إلى القدس.

وقد كان لموسى عليه السلام أنباء قد قصها الله تعالى فى القرآن الكريم وفى التوراه، وروى أهل الكتاب وعلماء الأخبار من المسلمين كثيراً منها. وسأقص عليك فى هذا الموضع منها ما فيه كفاية، إذ كان ذلك من شرط هذا الكتاب.

موسى بن عمران

وفى التوراة: عمرام بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن أسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن، صلوات الله وسلامه عليهم، أمة يوحانذ بنت لاوى، فهى عمة عمران والد موسى. ولد بمصر فى اليوم السابع من شهر أذار سنة ثلاثين ومائة لدخول يعقوب على يوسف عليهما السلام بمصر.

وكان بنو إسرائيل - منذ مات لاوى بن يعقوب فى سنة أربع وتسعين لدخول يعقوب مصر - فى البلاء مع القبط وذلك أن يوسف عليه السلام لما مات فى سنة ثمانين من قدوم يعقوب مصر، كان الملك إذ ذاك بمصر دارم بن الريان - وهو الفرعون الرابع عندهم، وتسمية القبط دريموس - فاستوزر بعده رجلاً من الكهنة يقال له بلاطس، فحمله على أذى الناس، وخالف ما كان عليه يوسف.

وساءت سيرة الملك حتى اغتصب كل امرأة جميلة بمدينة منف وغيرها من النواحى. فشق ذلك من فعله على الناس، وهموا بخلعه من الملك. فقام الوزير بلاطس فى الوساطة بينه وبين الناس، وأسقط عنهم الخراج لثلاث سنين، وفرق فيهم مالاً حتى سكنوا.

واتفق أن رجلاً من الإسرائيلين ضرب بعض سدنه الهياكل فأدماه ، وعاب دين الكهنة ، فغضب القبط ، وسألوا الوزير أن يخرج بنى إسرائيل من مصر ، فأبى .

وكان دارم الملك قد خرج إلى الصعيد ، فبعث إليه يخبره بأمر الإسرائيلى ، وما كان من القبط فى طلبهم إخراج بنى إسرايل من مصر ، فأرسل إليه ألا يحدث فى القوم حدثاً دون موافاته .

فشغب القبط ، وأجمعوا على خلع الملك وإقامة غيره . فسار إليهم الملك ؛ وكانت بينه وبينهم حروب قتل فيها خلق كثير ، ظفر فيها الملك ، وصلب ممن خالفه بحافتى النيل طوائف لا تحصى ، وعاد إلى أكثر مما كان عليه من ابتزاز النساء ، وأخذ الأموال ، واستخدام الأشراف والوجوه من القبط ومن بنى إسرائيل . فأجمع الكل على ذمه .

واتفق أنه ركب فى النيل ، فهاجت به الريح ، وأغرقه الله ومن معه ، ولم توجد جثته إلا عند شطنوف . فأقام الوزير من بعده فى الملك ابنه معاديوش ، وكان صبياً - ويسميه بعضهم معدان - فاستقام الأمر له ، ورد النساء اللاتى اغتصبهن أبوه ، وهو خامس الفراعنة . فكثر بنو إسرائيل فى زمنة ، ولهجوا بثلب الأصنام وذمها .

وهلك بلاطس الوزير ، وقام من بعده فى الوزارة كاهن يقال له أملاده ، فأمر بإفراد بنى إسرائيل ناحية فى البلد ، بحيث لايختلط بهم غيرهم ، فأقطعوا موضعاً فى قبلى مدينة منف صاروا إليه ، وبنوا فيه معبداً كانوا يتلون به صحف إبراهيم عليه السلام .

فخطب رجل من القبط بعض نسائهم ، فأبوا أن ينكحوه - وقد كان هَوِيها - فأكبر القبط فعلهم ، وصاروا إلى الوزير ، وشكوا من بنى إسرائيل ، وقالوا : هؤلاء قوم يعيبوننا ، ويرغبون عن مناكحتنا ، ولا نحب أن يجاورونا ما لم يدينوا بديناً .

فقال لهم الوزير : قد علمتم إكرام طوطيس الملك لجدهم ، ونراهوش من بعده ، وقد علمتم بركة يوسف ، حتى جعلتم قبره وسط النيل ، فأخصب جانبا مصر بمكانه . وأمرهم بالكف عن بنى إسرائيل ؛ فأمسكوا .

إلى أن احتجب معدان، وقام من بعده فى الملك ابنه إكسامس - الذى يسميه بعضهم كاسم - بن معدان بن الريان بن الوليد بن دومع العمليقى، وهو السادس من فراعنة مصر، وكان أولهم يقال له فرعان، فصار ذلك اسماً لكل من تجبر وعلا أمره.

وطالت أيام كاسم، ومات وزير أبيه، فأقام من بعده رجلاً من بيت المملكة يقال له ظلما بن قومس. وكان شجاعاً ساحراً، كاهناً كاتباً حكيماً، دهياً متصرفاً فى كل فن، وكانت نفسه تنازعه الملك - ويقال إنه من ولد أشمون الملك، وقيل من ولد صا - فأحبه الناس، وعمر الخراب، وبنى مدناً من الجانبين، ورأى فى نجومه أنه سيكون حدث وشده.

وشكا القبط إليه من الإسرائيليين، فقال: هم عبيدكم. فكان القبطى إذا أراد حاجة، سخر الإسرائيلى وضربه، فلا يغير عليه أحد ولا ينكر عليه ذلك، فإن ضرب الإسرائيلى أحداً من القبط قتل ألبته، وكذلك كانت تفعل نساء القبط بالنساء الإسرائيليات. فكانت أول شدة وذل أصاب بنى إسرائيل، وكثر ظلمهم وأذاهم من القبط.

وأستبد الوزير ظلماً بأمر البلد، كما كان العزيز مع نهراوش، وتوفى إكسامس الملك، فاتهم ظلماً بأنه سمه، فركب فى سلاحه، وأقام لاطس الملك مكان أبيه. وكان ابنه جريئاً معجباً، فصرف ظلماً بن قومس عما كان عليه من خلافته، واستخلف رجلاً يقال له «لاهوق» من ولد صا، وأنفذ ظلماً عاملاً على الصعيد، وسير معه جماعة من الإسرائيليين، وزاد تجبره وعتوه، وأمر الناس جميعاً أن يقوموا على أرجلهم فى مجلسه، ومد يده إلى الأموال، ومنع الناس من فضول ما بأيديهم، وقصرهم على القوت، وابتز كثيراً من النساء، وفعل أكثر مما فعله ملك تقدمه، واستعبد بنى إسرائيل، فأبغضه الخاص والعام.

وكان ظلماً لما صرف عن الوزارة، وخرج إلى الصعيد، أراد إزالة الملك، والخروج عن طاعته. فجبى المال، وامتنع من حمله، وأخذ المعادن لنفسه، وهم أن يقيم ملكاً من ولد قبطرين، ويدعو الناس إلى طاعته، ثم انصرف عن ذلك، ودعا لنفسه، وكاتب الوجوه والأعيان، فافترق الناس، وتطاول كل واحد من أبناء الملوك إلى الملك، وطمع فيه. ويقال إن روحانياً ظهر لظلما، وقال له: إن أطعتنى قلدتك مصر زماناً طويلاً، فأجابه وقرب إليه أشياء، منها غلام من بنى إسرائيل، فصار عوناً له.

وبلغ الملك خبر خروج ظلماً عن طاعته، فوجه إليه قائداً قلده مكانه، وأمره أن يقبض على ظلما، ويبعث به إليه موثقاً، فصار إليه، وخرج ظلماً للقائه، وحاربه فظفر به، واستولى على ما معه، فجهز إليه الملك قائداً آخر فهزمه، وسار في أثره - وقد كثف جمعه - فبرز إليه الملك، واحتربا، فكانت لظلما على الملك فقتله، واستولى على مدينة منف، ونزل قصر المملكة.

وهذا هو فرعون موسى عليه السلام، وبعضهم يسميه الوليد بن مصعب، وقيل هو من العمالقة، وهو سابع الفراعنة. ويقال إنه كان قصيراً، طويل اللحية، أشهل العينين، صغير العين اليسرى، في جبينه شامة، وكان أعرج. وقيل إنه كان يكنى بأبي مرة، وأن اسمه الوليد بن مصعب، وأنه أول من خضب بالسواد لما شاب؛ دله عليه إبليس».

وقيل أنه كان من القبط، وقيل إنه دخل منف على أتان يحمل النطرون ليبيعه، وكان الناس قد اضطربوا في تولية الملك، فحكموه ورضوا بتولية من يوله عليهم. وذلك أنهم خرجوا إلى ظاهر مدينة منف ينتظرون أول من يظهر عليهم ليحكموه، فكان هو أول من أقبل بحماره، فلما حكموه ورضوا بحكمه، أقام نفسه ملكاً عليهم. وأنكر قوم هذا، وقالوا: كان القوم أدهى من أن يقلدوا ملكهم من هذه سبيله.

فلما جلس في الملك اختلف الناس عليه، فبذل لهم الأموال، وقتل من خالفه بمن أطاعه حتى اعتدل أمره، ورتب المراتب، وشيد الأعمال، وبنى المدن، وخندق الخنادق، وبنى بناحية العريش حصناً، وكذلك على جميع حدود مصر، واستخلف هامان - وكان يقرب منه في نسبه - وأثار الكنوز، وصرفها في بناء المدائن والعمارات، وحفر خليج سردوس وغيره، وبلغ الخراج بمصر في زمنه سبعة وتسعين ألف ألف دينار، بالدينار الفرعوني، وهو ثلاثة مثاقيل.

وفرعون هو أول من عرف العرفاء على الناس. وكان ممن صحبه من بني إسرائيل رجل يقال له إمرى - وهو الذي يقال له بالعبرانية عمرام وبالعربية عمران - بن قاهث ابن لاوى، وكان قدم مصر مع يعقوب عليه السلام، فجعله حرساً لقصره يتولى حفظه وعنده مفاتيحه وأغلاقه بالليل.

وكان فرعون قد رأى فى كهانته ونجومه أنه يجرى هلاكه على يد مولود من الإسرائيليين، فمنعهم من المناكحة ثلاث سنين التى رأى أن ذلك المولود يولد فيها. فأتت امرأة إمرى إليه فى بعض الليالى بشىء قد أصلحته له، فواقعها، فاشتملت منه على هارون، وولدته لثلاث وسبعين من عمره، فى سنة سبع وعشرين ومائة لقدوم يعقوب إلى مصر، ثم أتته مرة أخرى، فحملت بموسى لثمانين سنة من عمره.

ورأى فرعون فى نجومه أنه قد حمل بذلك المولود، فأمر بذبح الذكران من بنى إسرائيل، وتقدم إلى القوابل بذلك. فولد موسى عليه السلام فى سنة ثلاثين ومائة لقدوم يعقوب إلى مصر، وفى سنة أربع وعشرين وأربعمائة لولادة إبراهيم الخليل عليه السلام، ولمضى ألف وخمسمائة وست سنين من الطوفان.

وكان من أمره ما قصة الله سبحانه من قذف أمه له فى التابوت، فألقاه النيل إلى تحت قصر الملك، وقد أرصدت أمه أخته على بعد لتنظر من يلتقطه، فجاءت ابنة فرعون إلى البحر مع جواريها، فرأته واستخرجته من التابوت، فرحمته وقالت: هذا من العبرانيين من لنا بظئر ترضعه؟

فقالت لها أخته: أنا آتيك بها.

وجاءت بأمه، فاسترضعتها له ابنه فرعون إلى أن فصل، فاتت به إلى ابنة فرعون، وسمته موسى، وتبنته ونشأ عندها.

وقيل بل أخذته امرأة فرعون، واسترضعت أمه، ومنعت فرعون من قتله. إلى أن كبر وعظم شأنه، فرد إليه فرعون كثيراً من أمره، وجعله من قواده. وكانت له سطوة. ثم وجهه لغزو اليونانيين، وقد عاثوا فى أطراف مصر، فخرج فى جيش كثيف وأوقع بهم، فأظفره الله، وقتل منهم كثيراً وأسر كثيراً، وعاد غانماً، فسر ذلك فرعون، وأعجب به هو وامرأته. واستولى موسى، وهو غلام، على كثير من أمر فرعون، فأراد فرعون أن يستخلفه؛ حتى قتل رجلاً من أشراف القبط له قرابة من فرعون، فطلبه.

وذلك أنه خرج يوماً يمشى فى الناس. وله صولة بما كان له فى بيت فرعون من المربى والرضاع. فرأى عبرانياً يضرب، فقتل المصرى الذى ضربه ودفنه، وخرج يوماً آخر فإذا

برجلين من بنى إسرائيل، وقد سطا أحدهما على الآخر، فزجره، فقال له : ومن جعل لك هذا؟ أتريد أن تقتلنى كما قتلت المصرى بالأمس ؟

ونما الخبر إلى فرعون فطلبه، وألقى الله فى نفسه الخوف لما يريد من كرامته، فخرج من منف، ولحق بمدين عند عقبة أيلة - وبنو مدين أمة عظيمة، من بنى إبراهيم عليه السلام، كانوا ساكنين هناك - وكان فراره وله من العمر أربعون سنة، فنزل عند شعيب عليه السلام، ومن ولد مدين بن إبراهيم، وكان من تزويجه ابنته، ورعايته غنمه، ما كان، فأقام هنالك تسعاً وثلاثين سنة، نكح فيها صفوراء ابنه شعيب. وبنو إسرائيل مع فرعون وأهل مصر - كما قال الله تعالى - يسومونهم سوء العذاب ويستعبدونهم.

فلما مضى من سنة الثمانين لموسى شهر وأسبوع، كلمة الله جل اسمه - وكان ذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر نيسان - وأمره أن يذهب إلى فرعون، وشد عضده بأخيه هارون، وأيده بآيات : منها قلب العصا حية، وبياض يده من غير سوء، وغير ذلك من الآيات العشر التى أحلها الله بفرعون وقومه، وكان مجئ الوحى من الله تعالى إليه وهو ابن ثمانين سنة.

ثم قدم مصر فى شهر أيار، ولقى أخاه هارون، فسر به، وأطعمه جلباناً فيه ثريد، وتنبأ هارون وهو ابن ثلاث وثمانين سنة، وغدا به إلى فرعون، وقد أوحى إليهما أن يأتيا إلى فرعون ليبعث معهما بنى إسرائيل، فيستنقذانهم من هلكة القبط وجور الفراعنة، ويخرجون إلى الأرض المقدسة التى وعدهم الله بملكها على لسان إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فأبلغا ذلك بنى إسرائيل عن الله، فآمنوا بموسى واتبعوه.

ثم حضرا إلى فرعون، فأقاما ببابه أياماً - وعلى كل منهما جبة صوف، ومع موسى عصاه - وهما لا يصلان إلى فرعون لشدة حجابه. حتى دخل عليه مضحك كان يلهو به، فعرفه أن بالباب رجلين يطلبان الأذن عليك، يزعمان أن إلههما قد أرسلهما إليك، فأمر بإدخالهما. فلما دخلا عليه خاطبه موسى بما قصه الله فى كتابه، وأراه آيه العصا وآيته فى بياض اليد.

فغاظ فرعون ما قاله موسى، وهم بقتله، فمنعه الله سبحانه بأن رأى صورة قد أقبلت، ومسحت على أعينهم فعموا. ثم أنه لما فتح عن عينيه، أمر قوماً آخرين بقتل موسى، فأتتهم

نار أحرقتهم فأزداد غيظه، وقال لموسى : من أين لك هذه النواميس العظام؟ أسحرة بلدى علموك هذا، أم تعلمته بعد خروجك من عندنا ؟

فقال : هذا ناموس السماء، وليس من نواميس الأرض.

قال فرعون : ومن صاحبه ؟

قال : صاحب البنية العليا.

قال : بل تعلمتها من بلدى.

وأمر بجمع السحرة والكهنة وأصحاب النواميس، وقال : اعرضوا عليّ أرفع أعمالكم، فإنى أرى نواميس هذا الساحر رفيعة جداً. فعرضوا عليه أعمالهم، فسره ذلك، وأحضر موسى، وقال له : لقد وقفت على سحرك، وعندى من يفوق عليك.

فواعدهم يوم الزينة. وكان جماعة من البلد قد اتبعوا موسى فقتلهم فرعون.

ثم إنه جمع بين موسى وبين سحرته، وكانوا مائتى ألف وأربعين ألفاً، يعملون من الأعمال ما يحير العقول، ويأخذ القلوب، من دخن ملونات ترى الوجوه مقلوبة مشوهة : منها الطويل والعريض، والمقلوب جبهته إلى أسفل ولحيته إلى فوق، ومنها ما له قرون، ومنها ما له خرطوم وأنياب ظاهرة كأنياب الفيلة، ومنها ما هو عظيم فى قدر الترس الكبير، ومنها ما له آذان عظام، وشبه وجوه القرود، بأجساد عظيمة تبلغ السحاب، وأجنحة مركبة على حيات عظيمة تطير فى الهواء، ويرجع بعضها على بعض فيبتلعه، وحيات يخرج من أفواهها نار تنتشر فى الناس، وحيات تطير وترجع فى الهواء، وتنحدر على كل من حضر لتبتلعه، فيتهارب الناس منها، وعصى تحلق فى الهواء، فتصير حيات برؤوس وشعور وأذناب تهم بالناس أن تنهشهم، ومنها ما له قوائم، ومنها تماثيل مهولة.

وعملوا له دخناً تغشى أبصار الناس عن النظر فلا يرى بعضهم بعضا، ودخنا تظهر صوراً كهيئة الثيران فى الجو على دواب يصدم بعضها بعضا، ويسمع لها ضجيج، وصورا خضرا على دواب خضر، وصورا سودا على دواب سود هائلة.

فلما رأى فرعون ذلك، سره ما رأى هو ومن حضره، واغتم موسى ومن آمن به، حتى أوحى الله إليه **﴿لاتخف إنك أنت الأعلى. وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا﴾**[1].

وكان للسحره ثلاثة رؤساء ـ ويقال بل كانوا سبعين رئيساً ـ فأسر إليهم موسى: قد رأيت ما صنعتم، فإن قهرتكم أتؤمنون بالله؟ قالوا: غاظ فرعون مسارة موسى لرؤساء السحرة؛ هذا والناس يسخرون من موسى وأخيه، ويهزأون بهما وعليهما دراعتان من صوف، وقد احتزما بليف.

فلوح موسى بعصاه حتى غابت عن الأعين، وأقبلت فى هيئة تنين عظيم له عينان يتوقدان، والنار تخرج من فيه ومنخريه، فلا يقع على أحد إلا برص، ووقع من ذلك على ابنة فرعون فبرصت. وصار التنين فاغراً فاه، فالتقط جميع ما عملته السحره، ومائتى مركب كانت مملوءه حبالاً وعصياً وسائر من فيها من الملاحين ـ وكانت فى النهر الذى يتصل بدار فرعون ـ وابتلع عمداً كثيرة وحجارة قد كانت حملت إلى هناك ليبنى بها.

ومر التنين إلى قصر فرعون ليبتلعه ـ وكان فرعون جالساً فى قبة على جانب القصر ليشرف على عمل السحرة ـ فوضع نابه تحت القصر، ورفع نابه الآخر إلى أعلاه، ولهب النهار يخرج من فيه حتى أحرق مواضع من القصر، فصاح فرعون مستغيثاً بموسى عليه السلام، فزجر موسى التنين، فانعطف ليبتلع الناس، ففروا كلهم من بين يديه، وانساب يريدهم، فأمسكه موسى، وعاد فى يده عصا كما كان.

ولم ير الناس من تلك المراكب، وما كان فيها من الحبال والعصى والناس، ولا من العمد والحجارة، وما شربه من ماء النهر حتى بانت أرضه أثراً. فعند ذلك قالت السحرة: ما هذا من عمل الآدميين، وإنما هو من فعل جبار قدير على الأشياء!! فقال لهم موسى: أوفوا بعهدكم، وإلا سلطته عليكم يبتعلكم كما ابتلع غيركم.

فآمنوا بموسى، وجاهروا فرعون، وقالوا: هذا من فعل إله السماء، وليس هذا من فعل أهل الأرض. فقال: قد عرفت أنكم قد واطأتموه على وعلى ملكى حسداً منكم لى. وأمر

---

(١) طــه ـ آيتا ٦٨ ـ ٦٩ ـ ك ٢٠.

فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلبوا، وجاهرته امرأته، والمؤمن الذى كان يكتم إيمانه.

وانصرف موسى، فأقام بمصر يدعو فرعون أحد عشر شهراً، من شهر أيار إلى شهر نيسان المستقبل، وفرعون لا يجيبه، بل اشتد جوره على بنى اسرائيل واستعبادهم، واتخاذهم سخرياً فى مهنة الأعمال. فأصابت فرعون وقومه الجوائح العشر، واحدة بعد أخرى، وهو يتثبت لهم عند وقوعها، ويفزع إلى موسى فى الدعاء بانجلائها، ثم يلح عند انكشافها، فإنها كانت عذاباً من الله عز وجل عذب الله بها فرعون وقومه.

فمنها أن ماء مصر صار دماً حتى هلك أكثر أهل مصر عطشاً، وكثرت عليهم الضفادع حتى وسخت جميع مواضعهم، وقذرت عليهم عيشهم وجميع مآكلهم، وكثر البعوض حتى حبس الهواء ومنع النسيم، وكثر عليهم ذباب الكلاب حتى جرَّح أبدانهم ونغص عليهم حياتهم، وماتت دوابهم وأغنامهم فجأة، وعم الناس الجرب والجدرى حتى زاد منظرهم قبحاً على مناظر الجذمى.

ونزل من السماء برد مخلوط بصواعق أهلك كل ما أدركه من الناس والحيوانات وذهب بجميع الثمار، وكثر الجراد والجنادب التى أكلت الأشجار، واستقصت أصول النبات، وأظلمت الدنيا ظلمة سوداء غليظة حتى كانت من غلظها تحس بالأجسام. وبعد ذلك كله نزل الموت فجأة على بكور أولادهم، بحيث لم يبق لأحد منهم ولد بكر إلا فجع به فى تلك الليلة، ليكون لهم فى ذلك شغل عن بنى إسرائيل.

وكانت الليلة الخامسة عشرة، من شهر بيسان سنة إحدى وثمانين لموسى، فعند ذلك سارع فرعون إلى ترك بنى إسرائيل، فخرج موسى عليه السلام من ليلته هذه، ومعه بنو إسرائيل، من عين شمس.

وفى التوراة أنهم أمروا عند خروجهم أن يذبح أهل كل بيت حملاً من الغنم إن كان كفايتهم، أو يشتركوا مع جيرانهم أن كان أكثر، وأن ينضحوا من دمه على أبوابهم ليكون علامة، وأن يأكلوا شواه رأسه وأطرافه ومعاه، ولا يكسروا منه عظماً، ولا يدعوا منه شيئاً خارج البيوت، وليكن خبزهم فطيراً، وذلك فى اليوم الرابع عشر من فصل الربيع،

وليأكلوا بسرعة، وأوساطهم مشدودة وخفافهم فى أرجلهم وعصيهم فى أيديهم، ويخرجوا ليلاً، وما فضل من عشائهم ذلك أحرقوه بالنار. وشرع هذا عيداً لهم ولأعقابهم، ويسمى هذا عيد الفصح.

وفيها أنهم أمروا أن يستعيروا منهم حلياً كثيراً يخرجون به، فاستعاروه وخرجوا فى تلك الليلة بما معهم من الدواب والأنعام، وأخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام؛ استخرجه موسى من المدفن الذى كان فيه بإلهام من الله تعالى. وكانت عدتهم ستمائة ألف رجل محارب، سوى النساء والصبيان والغرباء، وشغل القبط عنهم بالمآتم التى كانوا فيها على موتاهم، فساروا ثلاث مراحل ليلاً ونهاراً، حتى وافوا إلى فوهة الجبروت ـ وتسمى نار موسى ـ وهو ساحل البحر بجانب الطور.

فانتهى خبرهم إلى فرعون فى يومين وليلة، فندم بعد خروجهم، وجمع قومه، وخرج فى كثرة، كفاك عن مقدارها قول الله عز وجل، إخباراً عن فرعون، أنه قال عن بنى إسرائيل ـ وعدتهم ما قد ذكر، على ما جاء فى التوراه ـ: ﴿**إن هؤلاء لشرذمة قليلون. وإنهم لنا لغائظون**﴾[1]. ولحق بهم فى اليوم الحادى والعشرين من نيسان، فأقام العسكران ليلة الواحد والعشرين على شاطئ البحر.

وفى صبيحة ذلك اليوم، أمر موسى أن يضرب البحر بعصاه ويقتحمه، ففلق الله لبنى إسرائيل البحر اثنى عشر طريقاً، عبر كل سبط من طريق، وصارت المياه قائمة عن جانبهم كأمثال الجبال، وصير قاع البحر طريقاً مسلوكاً لموسى ومن معه، وتبعهم فرعون وجنوده. فلما خاض بنو إسرائيل إلى عدوة الطور، انطبق البحر على فرعون وقومه، فأغرقهم الله جميعاً، ونجا موسى وقومه.

ونزل بنو إسرائيل جميعاً فى الطور، وسبحوا مع موسى تسبيح طويل قد ذكر فى التوراة. وكانت مريم، أخت موسى وهارون، تأخذ الدف بيديها، ونساء بنى إسرائيل فى أثرها بالدفوف والطبول، وهى ترتل التسبيح لهن، ثم ساروا فى البر ثلاثة أيام، وأقفرت

---

(١) الشعراء ـ آيتا ٥٤ ـ ٥٥ ـ ك ٢٦.

مصر من أهلها، ومر موسى بقومه، ففنى زادهم فى اليوم الخامس من إيار، فضجوا إلى موسى، فدعا ربه، فنزل لهم المن من السماء، فلما كان اليوم الثالث والعشرون من أيار عطشوا وضجوا إلى موسى، فدعا ربه، ففجر له عيناً من الصخرة.

ولم يزل يسير بهم حتى وافوا طور سينين غرة الشهر الثالث لخروجهم من مصر، فأمر الله موسى بتطهير قومه، واستعدادهم لسماع كلام الله سبحانه، فطهرهم ثلاثة أيام. فلما كان فى اليوم الثالث ـ وهو السادس من الشهر ـ رفع الله الطور، وأسكنه نوره، وظلل حواليه بالغمام، وأظهر فى الآفاق الرعود والبروق والصواعق، وأسمع القوم من كلامه عشر كلمات، وهى: «أنا الله ربكم واحد، لايكن لكم معبود من دونى، لاتحلف باسم ربك كاذباً، أذكر يوم السبت واحفظه، بر والديك واكرمهما، لاتقتل النفس، لاتزن، لاتسرق، لاتشهد بشهادة زور، لاتحسد أخاك فيما رزقه».

فصاح القوم وارتعدوا، وقالوا لموسى: لا طاقة لنا باستماع هذا الصوت العظيم، كن السفير بيننا وبين ربنا، وجميع ما يأمرنا به سمعنا وأطعنا.

فأمرهم بالانصراف، وصعد موسى إلى الجبل فى اليوم الثانى عشر، فأقام فيه أربعين يوماً، ودفع الله إليه اللوحين الجوهر المكتوب عليهما العشر كلمات، ونزل فى اليوم الثانى والعشرين من شهر تموز، فرأى العجل، فارتفع الكتاب وثقلا على يديه، فألقاهما وكسرهما، ثم برد العجل وذراه على الماء، وقتل من القوم من استحق القتل.

وصعد إلى الجبل فى اليوم الثالث والعشرين من تموز، ليشفع فى الباقين من القوم، ونزل فى اليوم الثانى من أيلول بعد الوعد من الله له بتعويضه لوحين آخرين مكتوباً عليهما ما كان فى اللوحين الأولين. فصعد إلى الجبل، وأقام أربعين ليلة أخرى، وذلك من ثالث أيلول إلى اليوم الثانى عشر من تشرين.

ثم أمره الله بإصلاح القبة، وكان طولها ثلاثين ذراعاً فى عرض عشرة أذرع، وأرتفاع عشرة أذرع، ولها سرادق مضروب حواليها مائة ذراع فى خمسين ذراعاً، وارتفاع خمسة أذرع فأخذ القوم فى إصلاحها، وما تزين به من السور من الذهب والفضة والجواهر، ستة أشهر الشتاء كله، ولما فرغ منها نصبت فى اليوم الأول من نيسان فى أول السنة الثانية.

ويقال إن موسى عليه السلام حارب هنالك العرب، مثل طسم وجديس والعماليق وجرهم وأهل مدين، حتى أفناهم جميعاً، وأنه وصل إلى جبل فاران، وهو مكة، فلم ينج منهم إلا من اعتصم بملك اليمن، أو انتمى إلى بنى إسماعيل عليه السلام. ١

وفى ثلثى الشهر الباقى من هذه السنة، طعن القوم فى برية الطور بعد أن نزلت عليهم التوراة، وجملة شرائعها ستمائة وثلاث عشرة شريعة.

وفى آخر الشهر الثالث حرمت عليهم أرض الشام أن يدخلوها، وحكم الله تعالى عليهم أن يتيهوا فى البرية أربعين سنة لقولهم نخاف أهلها لأنهم جبارون. فأقاموا تسع عشرة سنة فى رقيم، وتسع عشرة سنة فى أحد وأربعين موضعاً مشروحة فى التوراة.

وفى اليوم السابع من شهر أيلول من السنة الثانية، خسف الله بقارون وبأوليائه - بدعاء موسى عليه السلام عليهم - لما كذبوا. وفى شهر نيسان من السنة الأربعين، توفيت مريم ابنه عمران، أخت موسى عليه السلام، ولها مائة وست وعشرون سنة، وفى شهر آب منها مات هارون عليه السلام، وله مائة وثلاث وعشرون سنة.

ثم كان حرب الكنعانيين وسيحون، والعوج صاحب البثنية من أرض حوران، فى الشهور التى بعد ذلك إلى شهر شباط. فلما أهل شباط أخذ موسى فى إعادة التوراة على القوم، وأمر بكتب نسختها وقراءتها، وحفظ ما شاهدوه من آثاره، وما أخذوه عنه من الفقه، وكان نهاية ذلك فى اليوم السادس من آذار.

وقال لهم فى اليوم السابع منه: إنى فى يومى هذا استوفيت عشرين ومائة سنة، وأن الله قد عرفنى أنه يقبضنى فيه، وقد أمرنى أن أستخلف عليكم يوشع بن نون، ومعه السبعون رجلاً الذين اخترتهم قبل هذا الوقت، ومعهم العازر بن هارون أخى، فاسمعوا له وأطيعوا، وأنا أشهد عليكم الله الذى لا إله إلا هو والأرض والسموات أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، ولا تبدلوا شرائع التوراه بغيرها.

ثم فارقهم، وصعد الجبل، فقبضه الله تعالى هناك، وأخفاه، ولم يعلم أحد منهم قبره، ولا شاهده. وكان بين وفاة موسى وبين الطوفان ألف وستمائة وست وعشرون سنة، وذلك فى أيام منوجهر ملك الفرس.

وزعم قوم أن موسى كان ألثغ. فمنهم من جعل ذلك خلقه، ومنهم من زعم أنه إنما اعتراه حين قالت أمرأه فرعون لفرعون: لاتقتل طفلاً لايعرف الجمر من التمر. فلما دعا له فرعون بهما جميعاً، تناول جمرة فأهوى بها إلى فيه، فاعتراه من ذلك ما اعتراه. وذكر محمد بن عمر الواقدى أن لسان موسى كانت عليه شامة فيها شعرات، ولايدل القرآن على شيء من ذلك، فليس فى قوله تعالى ﴿**واحلل عقدة من لسانى**﴾[1] دليل على شيء من ذلك دون شيء.

فأقاموا بعده ثلاثين يوماً يبكون عليه إلى أن أوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون بترحليهم، فقادهم وعبر بهم الأردن فى اليوم العاشر من نيسان، فوافوا أريحاً، فكان منهم ما هو مذكور فى مواضعه. فهذه جملة خبر موسى عليه السلام.

«**كنيسة جوجر**»: هذه الكنيسة من أجل كنائس اليهود. ويزعمون أنها تنسب لنبى الله إلياس عليه السلام، وأنه ولد بها، وكان يتعاهدها فى طول إقامته بالأرض إلى أن رفعه الله إليه.

إلياس

هو فينحاس بن إلعازر بن هارون عليه السلام، ويقال إلياسين بن ياسين عيزار بن هارون، ويقال هو إلياهو - وهى عبرانية معناها قادر أزلى - وعرب فقيل الياس.

ويذكر أهل العلم من بنى إسرائيل أنه ولد بمصر، وخرج به أبوه إلعازر من مصر مع موسى عليه السلام وعمره نحو الثلاث سنين، وأنه لما خرج بلعام بن باعورا ليدعوا على موسى صرف الله لسانه حتى يدعو على نفسه وقومه.

وكان من زنى بنى إسرائيل بنساء الأمورانيين وأهل مواب ما كان، فغضب الله تعالى عليهم، وأوقع فيهم الوباء، فمات منهم أربعة وعشرون ألفاً... إلى أن هجم فينحاس هذا

---

(١) طـه - آية ٢٧ - ك ٢٠.

على خباء فيه رجل على امرأة يزنى بها، فنظمهما جميعاً برمحه، وخرج وهو رافعهما، وشهرهما غضباً لله، فرحمهم الله سبحانه، ورفع عنهم الوباء، وكانت له أيضاً آثار مع نبى الله يوشع بن نون، ولما مات يوشع قام من بعده فينحاس هذا هو وكالاب بن يوفنا، فصار فينحاس إماماً، وكالاب يحكم بينهم.

وكانت الأحداث فى بنى إسرائيل، فساح إلياس، ولبس المسموح، ولزم القفار، وقد وعده الله عز وجل فى التوراة بدوام السلامة، فأول ذلك بعضهم بأنه لايموت فامتد عمره إلى أن ملك يهوشافاط بن أسا بن أفيا بن رحبعم بن سليمان بن داود، عليهما السلام، على سبط يهودا فى بيت المقدس، وملك أحؤب بن عمرى على الأسباط من بنى إسرائيل بمدينة شمرون المعروفة اليوم بنابلس.

وساءت سيرة أحؤب حتى زادت فى القبح على جميع من مضى قبله من ملوك بنى إسرائيل، وكان أشدهم كفراً، وأكثرهم ركوناً للمنكر، بحيث أربى فى الشر على أبيه وعلى سائر من تقدمه، وكانت له امرأة يقال لها سيصيال ابنه أشاعل ملك صيدا، أكفر منه بالله وأشد عتوا واستكباراً، فعبدا وثن بعل الذى قال له فيه جل ذكره: ﴿**أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين. الله ربكم ورب آبائكم الأولين**﴾[1]، وأقاما له مذبحاً بمدينة شمرون.

فأرسل الله عز وجل إلى أحؤب عبده الياس رسولاً لينهاه عن عبادة وثن بعل، ويأمره بعبادة الله تعالى وحده، وذلك قول الله عز وجل من قائل: ﴿**وإن إلياس لمن المرسلين. إذ قال لقومه ألا تتقون. أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين. الله بركم ورب آبائكم الأولين. فكذبوه....**﴾[2]، ولما أيس من إيمانهم بالله وتركهم عبادة الوثن، أقسم فى مخاطبته أحؤب ألا يكون مطر ولا ندى، ثم تركه.

فأمره الله سبحانه أن يذهب ناحية الأردن. فمكث هناك مختفياً ـ وقد منع الله قطر السماء حتى هلكت البهائم وغيرها ـ فلم يزل إلياس مقيماً فى استتارة إلى أن جف ما كان عنده من الماء. وفى طول إقامته كان الله جل جلاله يبعث إليه بغربان تحمل له الخبر

(١) الصافات ـ آيتا ١٢٥ ـ ١٢٦ ـ ك ٣٧.
(٢) الصافات ـ آيات ١٢٣ ـ ١٢٧ ـ ك ٣٧.

واللحم، فلما جف ماؤه الذى كان يشرب منه لامتناع المطر، أمره الله أن يسير إلى بعض مدائن صيدا.

فخرج حتى وافى باب المدينة، فإذا امرأة تحتطب، فسألها ماء يشربه وخبزاً يأكله، فأقسمت له أن ما عندها إلا مثل غرفة دقيق فى إناء وشئ من زيت فى جرة، وأنها تجمع الحطب لتقتات منه هى وإبنها. فبشرها إلياس عليه السلام، وقال لها: لا تجزعى وافعلى ما قلت لك، واعملى لى خبزاً قليلاً قبل أن تعملى لنفسك ولولدك، فإن الدقيق لا يعجز من الإناء ولا الزيت من الجرة حتى ينزل المطر، ففعلت ما أمرها به، وأقام عندها، فلم ينقص الدقيق ولا الزيت بعد ذلك. إلى أن مات ولدها، وجزعت عليه، فسأل إلياس ربه تعالى فأحيا الولد.

وأمره الله أن يسير إلى أحؤب ملك بنى إسرائيل لينزل المطر عند إخباره له بذلك، فسار إليه، وقال له: اجمع بنى إسرائيل وأبناء بعال. فلما اجتمعوا قال لهم إلياس: إلى متى هذا الضلال؟ إن كان الرب الله فاعبدوه، وان كان بعال هو الله، فارجعوا بنا إليه. وقال: ليقرب كل منا قربانا، فأقرب أنا لله، وقربوا أنتم لبعال، فمن تقبل منه قربانه، ونزلت نار من السماء فأكلته، فإلهه الذى يعبد.

فلما رضوا بذلك، أحضروا ثورين، واختاروا أحدهما وذبحوه، وصاروا ينادون عليه: يال بعال، يال بعال، وإلياس يسخر بهم ويقول: لو رفعتم أصواتكم قليلاً فلعل إلهكم نائم أو مشغول. وهم يصرخون ويجرحون أيديهم بالسكاكين ودماؤهم تسيل، فلما أيسوا من أن تنزل النار وتأكل قربانهم، دعا إلياس القوم إلى نفسه، وأقام مذبحاً، وذبح ثورة وجعله على المذبح، وصب الماء فوقه ثلاث مرات، وجعل حول المذبح خندقاً محفوراً. فلم يزل يصب الماء فوق اللحم حتى امتلأ الخندق من الماء، وقام يدعو الله عز وجل اسمه، وقال فى دعائه: اللهم أظهر لهذه الجماعة أنك الرب، وأنى عبدك عامل بأمرك. فأنزل الله سبحانه ناراً من السماء أكلت القربان، وحجارة المذبح التى كان فوقها اللحم، وجميع الماء الذى صب حوله.

فسجد القوم أجمعون، وقالوا: نشهد أن الرب الله، فقال إلياس: خذوا أبناء بعال، فأخذوا وجئ بهم، فذبحهم كلهم ذبحاً، وقال لأحؤب: انزل وكل واشرب، فإن المطر نازل، فنزل المطر على ما قال. ١

وكان الجهد قد اشتد، لانقطاع المطر مدة ثلاث سنين وأشهر، وغزر المطر حتى لم يستطع أحؤب أن ينصرف لكثرته، فغضبت سيصيال، أمرأة أحؤب، لقتل أبناء بعال، وحلفت بآلهتها لتجعلن روح الياس عوضهم.

ففزغ إلياس، وخرج إلى المفاوز وقد اغتم غماً شديداً، فأرسل الله إليه ملكاً معه خبز ولحم وماء، فأكل وشرب، وقواه الله حتى مكث بعد هذه الأكلة أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب. ثم جاءه الوحى بأن يمضى إلى دمشق، فسار إليها، وصحب اليسع بن شابات - ويقال بن حظور - فصار تلميذه. فخرج من أريحا ومعه اليسع حتى وقف على الأردن، فنزع رداءه ولفه، وضرب به ماء الأردن، فافترق الماء عن جانبيه وصار طريقاً.

فقال إلياس حينئذ لليسع: أسأل ما شئت قبل أن يحال بينى وبينك، فقال اليسع: أسأل أن يكون روحك فىّ مضاعفاً، فقال: لقد سألت جسيماً، ولكن أن أبصرتنى إذا رفعت عنك يكون ما سألت، وإن لم تبصرنى لم يكن. وبينما هما يتحدثان إذ ظهر لهما كالنار فرق بينهما، ورفع الياس إلى السماء واليسع ينظره، فانصرف وقام فى النبوة مقام إلياس.

وكان رفع الياس فى زمن يهورام بن يهوشافاط، وبين وفاة موسى عليه السلام وبين آخر أيام يهورام خمسمائة وسبعون سنة، ومدة نبوة موسى عليه السلام أربعون سنة. فعلى هذا يكون مدة عمر إلياس، من حين ولد بمصر إلى أن رفع بالأردن إلى السماء، ستمائة سنة وبضع سنين.

والذى عليه علماء أهل الكتاب، وجماعة من علماء المسلمين، أن إلياس حى لم يمت. إلا أنهم اختلفوا فيه، فقال: بعضهم أنه هو فينحاس كما تقدم ذكره، ومنع هذا جماعة وقالوا: هما اثنان، والله أعلم.

«كنيسة المصاصة»: هذه الكنيسة يجلها اليهود، وهى بخط المصاصة من مدينة مصر، ويزعمون أنها رممت فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وموضعها يعرف بدرب الكرمة، وبنيت فى سنة خمس عشرة وثلاثمائة للأسكندر، وذلك قبل الملة

الإسلامية بنحو ستمائة وإحدى وعشرين سنة، ويزعم اليهود أن هذه الكنيسة كانت مجلساً لنبى الله إلياس.

«**كنيسة الشاميين**»: هذه الكنيسة بخط قصر الشمع من مدينة مصر. وهى قديمة مكتوب على بابها بالخط العبراني - حفراً في الخشب - إنها بنيت في سنة ست وثلاثين وثلاثمائة للإسكندر، وذلك قبل خراب بيت المقدس الخراب الثانى - الذى خربه طيطش - بنحو خمس وأربعين سنة، وقبل الهجرة بنحو ستمائة سنة، وبهذه الكنيسة نسخة من التوراة لايختلفون فى أنها كلها بخط عزرا النبى، الذى يقال له بالعربية العزير.

«**كنيسة العراقيين**»: هذه الكنيسة أيضاً بخط قصر الشمع.

«**كنيسة بالجودرية**»: هذه الكنيسة بحارة الجودرية من القاهرة. وهى خراب منذ أحرق الخليفة الحاكم بأمر الله حارة الجودرية على اليهود، كما تقدم ذكر ذلك فى الحارات، فانظره.

«**كنيسة القرائين**»: هذه الكنيسة كان يسلك إليها من تجاه باب سر المارستان المنصورى فى حدره ينتهى إليها بحارة زويلة، وقد سدت الخوخة التى كانت هناك، فصار لايتوصل إليها إلا من حارة زويلة. وهى كنيسة تختص بطائفة اليهود القرائين.

«**كنيسة دار الحدرة**»: هذه الكنيسة بحارة زويلة، فى درب يعرف الآن بدرب الرايض، وهى من كنائس . . . . . .

«**كنيسة الربانيين**»: هذه الكنيسة بحارة زويلة، بدرب يعرف الآن بدرب البنادين، ويسلك منه إلى تجاه السبع قاعات والى سويقة المسعودى وغيرها، وهى كنيسة تختص بالربانيين من اليهود.

«**كنيسة ابن شميخ**»: هذه الكنيسة بجوار المدرسة العاشورية من حارة زويلة. وهى مما يختص به طائفة القرائين.

«**كنيسة السمرة**»: هذه الكنيسة بحارة زويلة، فى خط درب ابن الكورانى، تختص بالسمرة.

وجميع كنائس القاهرة المذكورة محدثة فى الإسلام بلا خلاف.

ذكر تاريخ اليهود وأعيادهم

قد كانت اليهود أولاً تؤرخ بوفاة موسى عليه السلام، ثم صارت تؤرخ بتاريخ الإسكندر ١
بن فيلبش. وشهور سنتهم اثنا عشر شهراً، وأيام السنة ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً. فأما الشهور فإنها: تشرى، مرحشوان، كسليو، طبيث، شفط، آذر، نيسن، أيار، سيوان، تموز، آب، أيلول.

وأيام سنتهم أيام سنة القمر، ولو كانوا يستعلمونها على حالها لكانت أيام سنتهم وعدد شهورهم شيئاً واحداً، ولكنه لما خرج بنو إسرائيل من مصر مع موسى عليه السلام إلى التيه، وتخلصوا من عذاب فرعون وما كانوا فيه من العبودية، وائتمروا بما أمروا به - كما وصف فى السفر الثانى من التوراه - اتفق ذلك ليلة اليوم الخامس عشر من نيسن، والقمر تام الضوء، والزمان ربيع.

فأمروا بحفظ هذا اليوم، كما قال فى السفر الثانى من التوراة: احفظوا هذا اليوم سنة، لخلوفكم إلى الدهر فى أربعة عشر من الشهر الأول، وليس معنى الشهر الأول هذا شهر تشرى، ولكنه عنى به شهر نيسن، من أجل أنهم أمروا أن يكون شهر الناسخ رأس شهورهم، ويكون أول السنة.

فقال موسى عليه السلام للشعب: اذكروا اليوم الذى خرجتم فيه من التعبد، فلا تأكلوا خميراً فى هذا اليوم، فى الشهر الذى ينضر فيه الشجر. فلذلك أضطروا إلى استعمال سنة الشمس، ليقع اليوم الرابع عشر من شهر نيسن فى أوان الربيع حين تورق الأشجار وتزهو الثمار، وإلى استعمال سنة القمر ليكون جرمه فيه بدراً تام الضوء فى برج الميزان.

وأحوجهم ذلك إلى إلحاق الأيام التى يتقدم بها عن الوقت المطلوب بالشهور إذا استوفيت أيام شهر واحد، فألحقوها بها شهراً تاماً سموه آذار الأول سموا آذار الأصل آذار الثانى لأنه ردف سمياً له وتلاه، وسموا السنة الكبيسة «عيوراً» اشتقاقاً من معيار، وهى المرأة الحبلى بالعبرانية، لأنهم شبهوا دخول الشهر الزائد فى السنة بحمل المرأة ما ليس من جملتها، ولهم فى استخراج ذلك حسابات كثيرة مذكورة فى الأزياج.

وهم فى عمل الأشهر متفرقون فرقتين :

إحداهما الربانية : واستعمالهم إياها على وجه الحساب بمسير الشمس والقمر الوسط، سواء رؤى الهلال أو لم ير، فإن الشهر عندهم هو مدة مفروضة تمضى من لدن الاجتماع الكائن بين الشمس والقمر فى كل شهر. وذلك أنهم كانوا - وقت عودهم من الجالية ببابل الى بيت المقدس - ينصبون على رؤوس الجبال دبادب، ويقيمون رقباء للفحص عن الهلال، وألزمومهم بإيقاد النار، وتدخين دخان يكون علامة لحصول الرؤية.

وكانت بينهم وبين السامرة العداوة المعروفة فذهبت السامرة، ورفعوا الدخان فوق الجبل قبل الرؤية بيوم، ووالوا بين ذلك شهوراً اتفق فى أوائلها أن السماء كانت متغيمة. . حتى فطن لذلك من فى بيت المقدس، ورأوا الهلال غداة اليوم الرابع أو الثالث من الشهر مرتفعاً عن الأفق من جهة المشرق، فعرفوا أن السامرة فتنتهم، فالتجأوا إلى أصحاب التعاليم فى ذلك الزمان ليأمنوا بما يتلقونه من حسابهم مكايد الأعداء، واعتلوا لجواز العمل بالحساب، ونيابته عن العمل بالرؤية، بعلل ذكروها. فعمل أصحاب الحساب لهم الأدوار، وعلموهم استخراج الاجتماعات ورؤية الهلال.

وأنكر بعض الربابنة حديث الرقباء ورفعهم الدخان، وزعموا أن سبب استخراج هذا الحساب هو أن علماءهم علموا أن آخر أمرهم إلى الشتات، فخافوا إذا تفرقوا فى الأقطار، وعولوا على الرؤية، أن تختلف عليهم فى البلدان المختلفة، فيتشاجروا، فلذلك استخرجوا هذه الحسبانات، واعتنى بها إليعازر بن فروح، وأمروهم بالتزامها والرجوع إليها حيث كانوا.

والفرقة الثانية هم المبادية الذين يعلمون مبادئ الشهور من الاجتماع، ويسمون القراء والأسمعية، لأنهم يراعون العمل بالنصوص دون الالتفاف إلى النظر والقياس، ولم يزالوا على ذلك إلى أن قدم عانان رأس الجالوت من بلاد المشرق، فى نحو الأربعين ومائة من الهجرة، إلى دار السلام بالعراق، فاستعمل الشهور برؤية الأهلة، على مثل ما شرع فى الإسلام، ولم يبال أى يوم وقع من الأسبوع، وترك حساب الربانيين، وكبس الشهور بأن

نظر كل سنة إلى زرع الشعير بنواحى العراق والشام، فيما بين أول شهر نيسن إلى أن يمضى منه أربعة عشر يوماً، فإن وجد باكورة تصلح للفريك والحصاد ترك السنة بسيطة، وإن وجدها لم تصلح لذلك كبسها حينئذ.

وتقدمت المعرفة بهذه الحالة أن من أخذ برأيه يخرج لسبعة تبقى من شفط، فينظر بالشام والبقاع المشابهة له فى المزاج إلى زرع الشعير، فإن وجد السفا - وهو شوك السنبل - قد طلع عد منه إلى الفاسح خمسين يوماً، وإن لم يره طالعاً كبسها بشهر: فبعضهم يردف الكبس بشفط، فيكون فى السنة شفط وشفط مرتين، وبعضهم يردفه بآذر، فيكون آذر وآذر فى السنة مرتين. وأكثر استعمال العانانية لشفط دون آذر، كما أن الربابنية تستعمل آذر دون غيره، فمن يعتمد من الربانية عمل الشهور بالحساب، يقول إن شهر تشرى لايكون أوله يوم الأحد والأربعاء، وعدته عندهم ثلاثون يوماً أبداً، وفيه عيد رأس السنة، وهو عيد البشارة بعتق الأرقاء، وهذا العيد فى أول يوم منه.

ولهم أيضاً فى اليوم العاشر منه صوم الكبور، ومعناه الاستغفار. وعند الربانيين أن هذا الصوم لايكون أبداً يوم الأحد ولا الثلاثاء ولا الجمعة، وعند من يعتمد فى الشهور الرؤية أن ابتداء هذا الصوم من غروب الشمس فى ليلة العاشر إلى غروبها من ليلة الحادى عشر، وذلك أربع وعشرون ساعة. والربانيون يجعلون مدة الصوم خمساً وعشرين ساعة إلى أن تشتبك النجوم، ومن لم يصم منهم هذا الصوم قتل شرعاً، وهم يعتقدون أن الله يغفر لهم فيه جميع الذنوب، ما خلا الزنا بالمحصنات، وظلم الرجل أخاه، وجحد الربوبية.

وفيه أيضاً عيد المظلة، وهو سبعة أيام، يعيدون فى أولها، ولا يخرجون من بيوتهم كما هو العمل يوم السبت. وعدة أيام المظلة إلى آخر اليوم الثانى والعشرين تمام سبعة أيام، واليوم الثامن يقال له عيد الاعتكاف، وهو يجلسون فى هذه الأيام السبعة - التى أولها خامس عشر تشرى - تحت ظلال سعف النخل الأخضر وأغصان الزيتون، ونحوها من الأشجار التى لا يتناثر ورقها على الأرض، ويرون أن ذلك تذكار منهم لإظلال الله آباءهم فى التية بالغمام. وفيه أيضاً، عند القرائين خاصة، صوم فى اليوم الرابع والعشرين منه، يعرف بصوم كدليا، وعند الربانيين يكون هذا الصوم فى ثالثة.

وشهر مرحشوان ربما كان ثلاثين يوماً، وربما كان تسعة وعشرين يوماً، وليس فيه عيد.

وكسليو ربما كان ثلاثين يوماً، وربما كان تسعة وعشرين يوماً، وليس فيه عيد، إلا أن الربانيين يسرجون على أبوابهم ليلة الخامس والعشرين منه، وهو مدة أيام يسمونها الحنكة، وهو أمر محدث عندهم.

وذلك أن بعض الجبابرة تغلب على بيت المقدس، وقتل من كان فيه من بنى اسرائيل، وفتض أبكارهم. فوثب عليه أولاد كاهنهم - وكانوا ثمانية - فقتله أصغرهم، وطلب اليهود زيتا لوقود الهيكل، فلم يجدوا إلا يسيرا وزعوه على عدد ما يوقدونه من السرج فى كل ليلة إلى ثمان ليال، فاتخذوا هذه الأيام عيداً، وسموها أيام الحنكة، وهى كلمة مأخوذة من التنظيف، لأنهم نظفوا فيها الهيكل من أقذار أشياع ذلك الجبار. والقراء لايعملون ذلك، لأنهم لايعولون على شئ من أمر البيت الثانى.

وشهر طبيث عدد أيامه تسعة وعشرون يوماً. وفى عاشره صوم، سببه أنه فى ذلك اليوم كان ابتداء محاصرة بخت نصر لمدينة بيت المقدس، ومحاصره طيطش لها أيضاً فى الخراب الثانى.

وشفط أيامه أبدا ثلاثون يوماً، وليس فيه عيد.

وشهر آذر عند الربانيين - كما تقدم - يكون مرتين فى كل سنة: فآذر الأول عدد أيامه ثلاثون يوماً إن كانت السنة كبيسة، وإن كانت بسيطة فأيامه تسعة وعشرون يوماً، وليس فيه عيد عندهم. وآذر الثانى أيامه تسعة وعشرون يوماً أبداً، وفيه عند الربانيين صوم الفوز فى اليوم الثالث عشر منه، والفوز فى اليوم الرابع عشر واليوم الخامس عشر.

وأما القراءون فليس عندهم فى السنة شهر آذر سوى مرة واحدة، ويجعلون صوم الفوز فى ثالث عشره، وبعده إلى خامس عشره.

وهذا أيضاً محدث. وذلك أن بخت نصر لما أجلى بنى إسرائيل من بيت المقدس وخربه، ساقهم جلايه إلى بلاد العراق، وأسكنهم فى مدينة خى التى يقال لها أصبهان. فلما ملك

أزدشير بن بابك ملك الفرس ـ وتسميه اليهود أحشوارش ـ كان له وزير يسمى هيمون ، وكان لليهود حينئذ حبر يقال له مردوخاى ، فبلغ أزدشير أن له أبنه عم جميلة الصورة ، فتزوجها وحظيت عنده ، واستدنى مردوخاى ابن عمها وقربه .

فحسده الوزير هيمون ، وعمل على هلاكه وهلاك اليهود الذين فى مملكه أزدشير ، ورتب مع نواب أزدشير فى سائر أعماله أن يقتلوا كل يهودى عندهم فى يوم عينه لهم ، وهو الثالث عشر من آذر ، فبلغ ذلك مردوخاى ، فأعلم ابنه عمه بما دبره الوزير ، وحثها على إعمال الحيلة فى تخليص قومها من الهلكة . فأعلمت أزدشير بحسد الوزير لمردوخاى على قربة من الملك وإكرامه ، وما كتبه به إلى العمال من قتل اليهود ، وما زالت به تغريه على الوزير إلى أن أمر بقتله وقتل أهله ، وكتب لليهود أماناً .

فاتخذ اليهود هذا اليوم من كل سنة عيداً ، وصاموه شكراً لله تعالى ، وجعلوا من بعده يومين اتخذوهما أيام فرح وسرور ولهو ومهاداة من بعضهم لبعض ، وهم على ذلك إلى اليوم . وربما صور بعضهم فى هذا اليوم صورة هيمون الوزير ، وهم يسمونه هامان ، فإذا صوروه ألقوه بعد العبث به فى النار حتى يحترق .

وشهر نيسان عدد أيامه ثلاثون يوماً أبداً . وفيه عيد الفاسح ، الذى يعرف اليوم عند النصارى بالفسح ، ويكون فى الخامس عشر منه ، وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير ، وينظفون بيوتهم ، من أجل أن الله سبحانه خلص بنى إسرائيل من أسر فرعون فى هذه الأيام ، حتى خرجوا من مصر مع نبى الله موسى بن عمران عليه السلام ، وتبعهم فرعون فأغرقه الله ومن معه ، وسار موسى ببنى إسرائيل إلى التيه .

ولما خرجوا من مصر مع موسى ، كانوا يأكلون اللحم والخبز والفطير ، وهم فرحون بخلاصهم من يد فرعون ، فأمروا باتخاذ الفطير وأكله فى هذه الأيام ، ليذكروا ما من الله عليهم به من إنقاذهم من العبودية ، وفى آخر هذه الأيام السبعة كان غرق فرعون ، وهو عندهم يوم كبير ولا يكون أول هذا الشهر عند الربانيين أبداً يوم الإثنين ، ولا يوم الأربعاء ولا يوم الجمعة ، ويكون أول الخمسينيات من نصفه .

وشهر أيار عدد أيامه تسعة وعشرون يوماً. وفيه عيد الموقف، وهو حج الأسابيع، وهى الأسابيع التى فرضت على بنى إسرائيل فيها الفرائض. ويقال لهذا العيد فى زمننا عيد العنصرة، وعيد الخطاب، ويكون بعد عيد الفطير، وفيه خوطب بنو إسرائيل فى طور سيناء، ويكون هذا العيد فى السادس منه، وفيه أيضاً يوم الخميس، وهو آخر الخمسينيات، ولا يكون عيد العنصرة عند الربانيين أبداً يوم الثلاثاء، ولا يوم الخميس ولا يوم السبت.

وشهر تموز أيامه تسعة وعشرون يوماً. وليس فيه عيد، لكنهم يصومون فى تاسعه لأن فيه هدم سور بيت المقدس عند محاصرة بخت نصر له. والربانيون خاصة يصومون يوم السابع عشر منه، لأن فيه هدم طيطش سور بيت المقدس، وخرب البيت الخراب الثانى.

وشهر آب ثلاثون يوماً، وفيه عند القرائين صوم فى اليوم السابع واليوم العاشر، لأن بيت المقدس خرب فيهما على يد بخت نصر. وفيه أيضاً كان إطلاق بخت نصر النار فى مدينة القدس وفى الهيكل - يصوم الربانيون اليوم التاسع منه، لأن فيه خرب البيت على يد طيطش الخراب الثانى.

وشهر أيلول تسعة وعشرون يوماً أبداً، وليس فيه عيد. والله تعالى أعلم.

ذكر معنى قولهم يهودى

اعلم أن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، صلوات الله عليهم أجمعين، سماه الله إسرائيل، ومعنى ذلك الذى رأسه القادر، وكان له من الولد اثنا عشر ذكراً، يقال لكل واحد منهم سبط ويقال لمجموعهم الأسباط، وهذه أسماؤهم. روبيل، وشمعون، ولاوى، ويهوذا، ويساخر، وزبولون - والستة أشقاء: أمهم ليا بنت لابان بن بتويل ابن ناحور، أخى إبراهيم الخليل - وكان، وأشار، ودان، ونفتال، ويوسف، وبنيامين.

فلما كبر هؤلاء الأسباط الأثنا عشر، قدم عليهم أبوهم يعقوب - وهو إسرائيل - ابنه يهوذا، وجعله حاكماً على إخوته الأحد عشر سبطاً، فاستمر رئيساً وحاكماً على إخوته إلى

أن مات، فورثت أولاد يهوذا رياسة الأسباط من بعده. إلى أن أرسل الله تعالى موسى بن عمران بن قاهاث بن لاوى بن يعقوب إلى فرعون، بعد وفاة يوسف بن يعقوب عليهما السلام بمائة وأربع وأربعين سنة، وهم رؤساء الأسباط.

فلما نجى الله موسى وقومه بعد غرق فرعون ومن معه، رتب عليه السلام بنى إسرائيل الاثنى عشر سبطاً أربع فرق، وقدم على جميعهم سبط يهوذا. فلم يزل سبط يهوذا مقدماً على سائر الأسباط أيام حياه موسى عليه السلام وأيام حياة يوشع بن نون.

فلما مات يوشع سأل بنو اسرائيل الله تعالى، وابتهلوا إليه فى قبة الشمشار أن يقدم عليهم واحداً منهم، فجاء الوحى من الله بتقديم عثنيآل بن قناز من سبط يهوذا، فتقدم على سائر الأسباط، وصار بنو يهوذا مقدمين على سائر الأسباط من حينئذ.

إلى أن ملك الله على بنى اسرائيل نبيه داود - وهو من سبط يهوذا - فورث ملك بنى إسرائيل من بعده ابنه سليمان بن داود عليهما السلام. فلما مات سليمان افترق ملك بنى إسرائيل من بعده، وصار لمدينة شمرون - التى يقال لها اليوم نابلس - عشرة أسباط، وبقى بمدينة القدس سبطان: هما سبط يهوذا، وسبط بنيامين.

وكان يقال لسكان شمرون بنو إسرائيل، ويقال لسكان القدس بنو يهوذا. إلى أن انقرضت دولة بنى إسرائيل من مدينة شمرون بعد مائتين وإحدى وخمسين سنة، فصاروا كلهم بالقدس تحت طاعة الملوك من بنى يهوذا إلى أن قدم بخت نصر وخرب القدس، وجلا جميع بنى إسرائيل إلى بابل، فعرفوا هناك بين الأمم ببنى يهوذا.

واستمر هذا سمة لهم بين الأمم بعد ذلك إلى أن جاء الله بالإسلام، فكان يقال للواحد منهم «يهوذى» بذال معجمة نسبة إلى سبط يهوذا، وتلاعب العرب بذلك على عادتهم فى التلاعب بالأسماء المعجمة، وقالوها بدال مهملة، وسموا طائفة بنى إسرائيل اليهود، وبهذه اللغة نزل القرآن. ويقال إن أول من سمى بنى إسرائيل اليهود بخت نصر، والله يعلم وأنتم لاتعلمون.

ذكر معتقد اليهود
وكيف وقع عندهم التبديل

أعلم أن الله سبحانه لما أنزل التوراة على نبيه موسى عليه السلام، ضمنها شرائع الملة الموسوية، وأمر فيها أن يكتب لكل من يلى أمر بنى إسرائيل كتاب يتضمن أحكام الشريعة لينظر فيه، ويعمل به، وسمى هذا الكتاب بالعبرانية «مشنا»، ومعناه استخراج الأحكام من النص الآلهى، وكتب موسى عليه السلام بخط يده «مشنا» كأنه تفسير لما فى التوراة من الكلام الإلهى.

فلما مات موسى عليه السلام، وقام من بعده بأمر بنى إسرائيل يوشع بن نون ومن بعده. إلى أن كانت أيام يهوياقيم ملك القدس، غزاهم بخت نصر الغزوة الأولى وهم يكتبون لكل من ملكهم «مشنا»، ينقلونها من المشنا التى بخط موسى، ويجعلونها باسمه. فلما جلا بخت نصر يهوياقيم الملك، ومعه أعيان بنى إسرائيل وكبراء بيت المقدس - وهم فى زياد على عشرة آلاف نفس - ساروا، ومعهم نسخ المشنا التى كتبت لسائر ملوك بنى إسرائيل بأجمعها، إلى بلاد المشرق.

فلما سار بخت نصر من بابل الكرة الثانية لغزو القدس، وخربه، وجلا جميع من فيه وفى بلاد بنى إسرائيل من الأسباط الاثنى عشر، إلى بابل، أقاموا بها، وبقى القدس خراباً لا ساكن فيه مدة سبعين سنة، ثم عادوا من بابل بعد سبعين سنة، وعمروا القدس، وجددوا بناء البيت ثانياً، ومعهم جميع نسخ المشنا التى خرجوا بها أولاً.

فلما مضت من عمارة البيت الثانى بعد الجلاية ثلاثمائة ونيف من السنين، اختلف بنو إسرائيل فى دينهم اختلافاً كثيراً، فخرج طائفة من آل داود عليه السلام من بيت المقدس، وساروا إلى المشرق كما فعل آباؤهم أولاً، وأخذوا معهم نسخاً من المشنا التى كتبت للملوك من مشنا موسى التى بخطه، وعملوا بما فيها ببلاد الشرق من حين خرجوا من القدس إلى أن جاء الله بدين الإسلام، وقدم عانان رأس الجالوت من المشرق إلى العراق، فى خلافه أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور، سنة ست وثلاثين ومائة من سنى الهجرة المحمدية.

وأما الدين أقاموا بالقدس من بنى إسرائيل بعد خروج من ذكرنا إلى الشرق من آل داود فإنهم لم يزالوا فى افتراق واختلاف فى دينهم إلى أن غزاهم طيطش، وخرب القدس الخراب الثانى - بعد قتل يحيى بن زكريا، ورفع المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام - وسبى جميع من فيه وفى بلاد بنى إسرائيل بأسرهم، وغيب نسخ المشنا التى كانت عندهم، بحيث لم يبق معهم من كتب الشريعة سوى التوراة وكتب الأنبياء.

وتفرق بنو إسرائيل من وقت تخريب طيطش بيت المقدس فى أقطار الأرض، وصاروا ذمة إلى يومنا هذا. ثم إن رجلين ممن تأخر إلى قبيل تخريب القدس - يقال لهما شماى وهلال - نزلا مدينة طبرية، وكتبا كتاباً سمياه مشنا باسم مشنا موسى عليه السلام، وضمنا هذا المشنا الذى وضعاه أحكام الشريعة، ووافقهما على وضع ذلك عدة من اليهود.

وكان شماى وهلال فى زمن واحد، وكانا فى أواخر مدة تخريب البيت الثانى، وكان لهلال ثمانون تلميذاً أصغرهم يوحانان بن زكاى، وأدرك يوحانان بن زكاى خراب البيت الثانى على يد طيطش. وهلال وشماى أقوالهما مذكورة فى المشنا، وهى فى ستة أسفار تشتمل على فقه التوراة، وإنما رتبها النوسى، من ولد داول النبى، بعد تخريب طيطش للقدس بمائه وخمسين سنة.

ومات شماى وهلال ولم يكملا المشنا، فأكمله رجل منهم يعرف بيهودا من دريه هلال، وحمل اليهود على العمل بما فى هذا المشنا، وحقيقته أنه يتضمن كثيراً مما كان فى مشنا النبى موسى عليه السلام، وكثيراً من آراء أكابرهم. فلما كان بعد وضع هذا المشنا بنحو خمسين سنة، قام طائفة من اليهود يقال لهم السنهدوين - ومعنى ذلك الأكابر - وتصرفوا فى تفسير هذا المشنا برأيهم، وعملوا عليه كتاباً اسمه «التلمود» أخفوا فيه كثيراً مما كان فى ذلك المشنا، وزادوا فيه أحكاماً من رأيهم.

وصاروا منذ وضع هذا التلمود الذى كتبوه بأيديهم، وضمنوه ما هو من رأيهم، ينسبون ما فيه إلى الله تعالى، ولذلك ذمهم الله فى القرآن الكريم بقوله تعالى: **﴿فويل للذين**

يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتب أيديهم، وويل لهم مما يكسبون﴾[1] .

وهذا التلمود نسختان مختلفتان فى الأحكام . والعمل إلى اليوم على هذا التلمود عند فرقة الربانيين ، بخلاف القرائن فإنهم لا يعتقدون العمل بما فى هذا التلمود .

فلما قدم عانان رأس الجالوت إلى العراق ، أنكر على اليهود عملهم بهذا التلمود ، وزعم أن الذى بيده هو الحق لأنه كتب من النسخ التى كتبت من مشنا موسى عليه السلام الذى بخطه . والطائفة الربانيون ومن وافقهم لايعولون من التوراة التى بأيديهم إلا على ما فى هذا التلمود، وما خالف ما فى التلمود لايعبأون به ولا يعولون عليه ، كما أخبر تعالى إذ يقول حكاية عنهم : **﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون﴾**[2] .

ومن أطلع على ما بأيديهم وما عندهم من التوراه ، تبين له أنهم ليسوا على شئ ، وأنهم إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس . ولذلك لما نبغ فيهم موسى بن ميمون القرطبى عولوا على رأيه ، وعملوا بما فى كتاب الدلالة وغيره من كتبه ، وهم على رأيه إلى زمننا .

ذكر فرق اليهود الآن

اعلم أن اليهود الذين قطعهم الله فى الأرض أمما أربع فرق ، كل فرقة تخطئ الطوائف الأخر ، وهى : طائفة الربانيين ، وطائفة القرائين ، وطائفة العانانية ، وطائفة السمرة . وهذا الاختلاف حدث لهم بعد تخريب بخت نصر بيت المقدس ، وعودهم من أرض بابل بعد الجلاية إلى القدس ، وعمارة البيت ثانياً . وذلك أنهم فى إقامتهم بالقدس أيام العمارة الثانية ، افترقوا فى دينهم ، وساروا شيعاً .

---

(١) البقـرة ـ آية ٧٩ ـ م٢ .
(٢) الزخرف ـ آية ٢٣ ـ ك٤٣ .

فلما ملكهم اليونان بعد الإسكندر بن فيلبش، وقام بأمرهم فى القدس هورقانوس ابن شمعون بن مشيثا، واستقام أمره فسمى ملكاً - وكان قبل ذلك هو وجميع من تقدمه، ممن ١ ولى أمر اليهود فى القدس بعد عودهم من الجلاية، إنما يقال له الكوهن الأكبر - فاجتمع لهورقانوس منزلة الملك ومنزلة الكهونية، واطمأن اليهود فى أيامة، وأمنوا سائر أعدائهم من الأمم، فبطروا معيشتهم، واختلفوا فى دينهم، وتعادوا بسبب الإختلاف.

وكان من جملة فرقهم إذ ذاك طائفة يقال لها الفروشيم - ومعناه المعتزلة - ومن مذهبهم القول بما فى التوراة على معنى ما فسره الحكماء من أسلافهم. وطائفة يقال لهم الصدوفية - بفاء - نسبوا إلى كبير لهم يقال له صدوف، ومذهبهم القول بنص التوراة، وما دل عليه القول الإلهى فيها دون ما عداه من الأقوال. وطائفة يقال لهم الجسديم - ومعناه الصلحاء - ومذبهم الاشتغال بالنسك وعبادة الله سبحانه، والأخذ بالأفضل والأسلم فى الدين.

وكانت الصدوفية تعادى المعتزلة عداوة شديدة، وكان الملك هورقانوس أولاً على رأى المعتزلة - وهو مذهب آبائه - ثم إنه رجع إلى مذهب الصدوفية، وباين المعتزلة وعاداهم، ونادى فى سائر مملكته بمنع الناس جملة من تعلم رأى المعتزلة والأخذ عن أحد منهم، وتتبعهم وقتل منهم كثيراً.

وكانت العامة بأسرها مع المعتزلة، فثارت الشرور بين اليهود، واتصلت الحروب بينهم، وقتل بعضهم بعضا. . إلى أن خرب البيت على يد طيطش الخراب الثانى، بعد رفع عيسى صلوات الله عليه، وتفرق اليهود من حينئذ فى أقطار الدنيا، وصاروا ذمة، والنصارى تقتلهم حيثما ظفرت بهم. إلى أن جاء الله بالملة الإسلامية، وهم فى تفرقهم ثلاث فرق: الربانيون، والقراء، والسمرة.

فأما «الربانية» فيقال لهم بنو مشنو - ومعنى مشنو الثانى - وقيل لهم ذلك لأنهم يعتبرون أمر البيت الذى بنى ثانياً، بعد عودهم من الجلاية وخربه طيطش، وينزلونه فى الاحترام والإكرام والتعظيم منزله البيت الأول الذى ابتدأ عمارته داود، وأتمه ابنه سليمان عليهما السلام، وخربه بحت نصر. . فصار كأنه يقال لهم أصحاب الدعوة الثانية. وهذه الفرقة هى التى كانت تعمل بما فى المشنا الذى كتب بطبرية بعد تخريب طيد'' ''القدس، وتعول فى

أحكام الشريعة عيل ما فى التلمود إلى هذا الوقت الذى نحن فيه، وهى بعيدة عن العمل بالنصوص الإلهية، متبعة لآراء من تقدمها من الأحبار.

ومن اطلع على حقيقة دينها، تبين له أن الذى ذمهم الله به فى القرآن الكريم حق لا مرية فيه، وأنه لايصح لهم من اسم اليهودية إلا مجرد الانتماء فقط، لا أنهم فى الاتباع على الملة الموسوية . . . لاسيما منذ ظهر فيهم موسى بن ميمون القرطبى، بعد الخمسمائة من سنى الهجرة المحمدية، فإنه ردهم مع ذلك معطلة، فصاروا فى أصول دينهم وفروعه أبعد الناس عما جاء به أنبياء الله تعالى من الشرائع الإلهية.

وأما «القراء» فإنهم بنو مقرأ - ومعنى مقرأ الدعوة - وهم لايعولون على البيت الثانى جملة. ودعوتهم إنما هى لما كان عليه العمل مدة البيت الأول، وكان يقال لهم أصحاب الدعوة الأولى، وهم يحكمون نصوص التوراة، ولا يلتفتون إلى قول من خالفها، ويقفون مع النص دون تقليد من سلف. وهم مع الربانيين من العداوة بحيث لا يتناكحون، ولا يتجاورون، ولايدخل بعضهم كنيسة بعض.

ويقال للقرائين أيضاً المبادية، لأنهم كانوا يعملون مبادئ الشهور من الاجتماع الكائن بين الشمس والقمر، ويقال لهم أيضاً الأسمعية، لأنهم يراعون العمل بنصوص التوراة دون العمل بالقياس والتقليد.

وأما «العانانية» فإنهم ينسبون إلى عانان رأس الجالوت الذى قدم من المشرق، فى أيام الخليفة أبى جعفر المنصور، ومعه نسخ المشنا الذى كتب من الخط الذى كتب من خط النبى موسى. وأنه رأى ما عليه اليهود من الربانيين والقرائين يخالف ما معه، فتجرد لخلافهم، وطعن عليهم فى دينهم، وازدرى بهم :

وكان عظيماً عندهم يرون أنه من ولد داود عليه السلام، وعلى طريق فاضلة من النسك على مقتضى ملتهم، بحيث يرون أنه لو ظهر فى أيام عمارة البيت لكان نبياً، فلم يقدروا على مناظرته لما أوتى مع ما ذكرنا من تقريب الخليفة له وإكرامه.

وكان مما خالف فيه اليهود استعمال الشهور برؤية الأهلة على مثل ما شرع فى الملة الإسلامية، ولم يبال فى أى يوم وقع من الأسبوع، وترك حساب الربانيين، وكبس

الشهور، وخطأهم فى العمل بذلك، واعتمد على كشف زرع الشعير، وأجمل القول فى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وأثبت نبوة نبينا محمد ﷺ، وقال: هو نبى أرسل إلى العرب، إلا أن التوراة لم تنسخ. والحق أنه أرسل إلى الناس كافة ﷺ.

ذكرة السمرة

اعلم أن طائفة السمرة ليسوا من بنى إسرائيل ألبته، وإنما هم قوم قدموا من بلاد المشرق، وسكنوا بلاد الشام وتهودوا. ويقال إنهم من بنى سامرك بن كفركا بن رمى - وهو شعب من شعوب الفرس - خرجوا إلى الشام ومعهم الخيل والغنم والأبل والقسى والنشاب والسيوف والمواشى، ومنهم السمرة الذين تفرقوا فى البلاد.

ويقال إن سليمان بن داود لما مات، افترق ملك بنى إسرائيل من بعده، فصار رحبعم بن سليمان على سبط يهودا بالقدس، وملك يربعم بن نياط على عشرة أسباط من بنى إسرائيل، وسكن خارجاً عن القدس، واتخذ عجلين دعا الأسباط العشرة إلى عبادتهما من دون الله إلى أن مات. فولى ملك بنى إسرائيل من بعده عدة ملوك، على مثل طريقته فى الكفر بالله وعبادة الأوثان.

إلى أن ملكهم عمرى بن نوذب، من سبط منشا بن يوسف، فاشترى مكاناً من رجل اسمه شامر بقنطار فضه، وبنى فيه قصراً، وسماه باسم اشتقه من اسم شامر الذى اشترى منه المكان، وصير حول هذا القصر مدينة، وسماها مدينة شمرون، وجعلها كرسى ملكه إلى أن مات فاتخذها ملوك بنى إسرائيل من بعده مدينة للملك، ومازالوا فيها إلى أن ولى هوشاع بن أيلا، وهم على الكفر بالله، وعبادة وثن بعل وغيره من الأوثان، مع قتل الأنبياء.

إلى أن سلط الله عليهم سنجاريب ملك الموصل، فحاصرهم بمدينة شمرون ثلاث سنين، وأخذ هوشاع أسيراً، وجلاه ومعه جميع من فى شمرون من بنى اسرائيل، وأنزلهم

بهراة وبلخ ونهاوند وحلوان. فانقطع من حينئذ ملك بنى إسرائيل من مدينة شمرون، بعدما ملكوا من بعد سليمان عليه السلام مدة مائتى سنة وإحدى وخمسين سنة.

ثم إن سنجاريب ملك الموصل نقل إلى شمرون كثيراً من أهل كوشا وبابل وحماه، وأنزلهم فيها ليعمروها، فبعثوا إليه يشكون من كثرة هجوم الوحش عليهم بشمرون. فسير إليهم من علمهم التوراة، فتعلموها على غير ما يجب، وصاروا يقرأونها ناقصة أربعة أحرف، الألف والهاء والخاء والعين، فلا ينطقون بشئ من هذه الأحرف فى قراءتهم التوراة، وعرفوا بين الأمم بالسامرة لسكناهم بمدينة شمرون.

وشمرون هذه هى مدينة نابلس، وقيل لها سمرون - بسين مهملة - ولسكانها سامرة، ويقال معنى السمرة حفظة ونواطير. فلم تزل السمرة بنابلس إلى أن غزا بخت نصر القدس، وأجلى اليهود منه إلى بابل، ثم عادوا بعد سبعين سنة، وعمروا البيت ثانياً.

إلى أن قام الإسكندر من بلاد اليونان، وخرج يريد غزو الفرس، فمر على القدس، وخرج منه يريد عمان، فاجتاز على نابلس، وخرج إليه كبير السمرة بها - وهو سنبلاط السامرى - فأنزله، وصنع له ولقواده وعظماء أصحابه صنيعاً عظيماً، وحمل إليه أموالاً جمة وهدايا جليلة، واستأذنه فى بناء هيكل لله على الجبل، الذى سمى عندهم «طور بريك»، فأذن له وسار عنه إلى محاربة دارا ملك الفرس. فبنى سنبلاط هيكلا شبيهاً بهكيل القدس ليستميل به اليهود، وموه عليهم بأن «طور بريك» هو الموضع الذى اختاره الله تعالى، وذكره فى التوراة بقوله فيها «اجعل البركة على طور بريك.

وكان سنبلاط قد زوج ابنته بكاهن من كهان بيت المقدس يقال له منشا، فمقت اليهود منشا على ذلك، وأبعدوه وحطوه عن مرتبته عقوبة له على مصاهرة سنبلاط. فأقام سنبلاط منشا زوج ابنته كاهناً فى هيكل طور بريك، وأتته طوائف من اليهود وضلوا به، وصاروا يحجون إلى هيكله فى الأعياد، ويقربون قرابينهم إليه، ويحملون إليه نذورهم وأعشارهم، وتركوا قدس الله وعدلوا عنه. فكثرت الأموال فى هذا الهيكل، وصار ضد البيت المقدس، وأستغنى كهنته وخدامه، وعظم أمر منشا، وكبرت حالته.

فلم تزل هذه الطائفة تحج إلى «طور بريك» حتى كان زمن هورقانوس بن شمعون الكوهن، من بنى حشمتاى، فى بيت المقدس. فسار إلى بلاد السمرة، ونزل على مدينة نابلس، وحصرها مدة وأخذها عنوة، وخرب هيكل طور بريك إلى أساسه - وكانت مدة عمارته مائتى سنة - وقتل من كان هناك من الكهنة فلم تزل السمرة بعد ذلك إلى يومنا هذا تستقبل فى صلاتها - حيثما كانت من الأرض - طور بريك بجبل نابلس، ولهم عبادات تخالف ما عليه اليهود، ولهم كنائس فى كل بلد تخصهم.

والسمرة ينكرون نبوة داود ومن تلاه من الأنبياء، وأبوا أن يكون بعد موسى عليه السلام نبى. وجعلوا رؤساءهم من ولد هارون عليه السلام، وأكثرهم يسكن فى مدينة نابلس، وهم كثير فى مدائن الشام، ويذكر أنهم الذين يقولون «لامساس»، ويزعمون أن نابلس هى بيت المقدس، وهى مدينة يعقوب عليه السلام، وهناك مراعيه.

وذكر المسعودى أن السمرة صنفان متباينان: أحدهما يقال له الكوشان، والآخر الروشان، أحد الصنفين يقول بقدم العالم. والسامرة تزعم أن التوراة التى أوردها موسى عليه السلام، ويقولون توراة موسى حرفت وغيرت وبدلت، وأن التوراة هى ما بأيديهم دون غيرهم.

وذكر أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى أن السامرة تعرفت بالأمساسية. . . قال: وهم الأبدال الذين بدلهم بخت نصر بالشام حين أسر اليهود وأجلاها. وكانت السامرة أعانوه ودلوه على عورات بنى إسرائيل، فلم يحاربهم ولم يقتلهم ولم يسبهم، وأنزلهم فلسطين من تحت يده، ومذاهبهم ممتزجة من اليهودية والمجوسية.

وعامتهم يكونون بموضع من فلسطين يسمى نابلس، وبها كنائسهم، ولا يدخلون حد بيت المقدس منذ أيام داود النبى عليه السلام. . لأنهم يدعون أنه ظلم واعتدى، وحول الهيكل المقدس من نابلس إلى إيليا، وهو بيت المقدس، ولا يمسون الناس، وإذا مسوهم اغتسلوا، ولا يقرون بنبوة من كان بعد موسى عليه السلام من أنبياء بنى إسرائيل.

وفى شرح الإنجيل أن اليهود انقسمت بعد أيام داود إلى سبع فرق :

«الكتاب» : وكانوا يحافظون على العادات التى أجمع عليها المشايخ مما ليس فى التوراة .

و «المعتزلة» : وهم الفريسيون، وكانوا يظهرون الزهد، ويصومون يومين فى الأسبوع، ويخرجون العشر من أموالهم، ويجعلون خيوط القرمز فى رؤوس ثيابهم، ويغسلون جميع أوانيهم، ويبالغون فى إظهار النظافة .

و «الزنادقة» : وهم من جنس السامرة وهم من الصدوقية، فيكفرون بالملائكة والبعث بعد الموت وبجميع الأنبياء، ما خلا موسى فقط فإنهم يقرون بنبوته .

و «المتطهرون» : وكانوا يغتسلون كل يوم، ويقولون لا يستحق حياه الأبد إلا من يتطهر كل يوم .

و «الأسابيون» : ومعناه الغلاظ الطباع، وكانوا يوجبون جميع الأوامر الإلهية، وينكرون جميع الأنبياء سوى موسى عليه السلام، ويتعبدون بكتب غير الأنبياء .

و «المتقشنفون» : وكانوا يمنعون أكثر المآكل وخاصة اللحم، ويمنعون من التزوج بحسب الطاقة، ويقولون بأن التوراة ليست كلها لموسى، ويتمسكون بصحف منسوبة إلى أخنوخ وإبراهيم عليه السلام، وينظرون فى علم النجوم ويعملون بها .

و «الهيرذوسيون» : سموا أنفسهم بذلك لموالاتهم هيرذوس ملكهم، وكانوا يتبعون التوراة ويعملون بما فيها . إنتهى .

وذكر يوسف بن كريون فى تاريخه أن اليهود كانوا فى زمن ملكهم هورقانوس - يعنى فى زمن بناء البيت بعد عودهم من الجلاية - ثلاث فرق : الفروشيم، ومعناه المعتزلة، ومذهبهم القول بما فى التوراة وما فسره الحكماء من سلفهم . والصدوفية، أصحاب رجل من العلماء يقال له صدوف، ومذهبه القول بنص التوراة وما دلت عليه دون غيره . . والجسديم، ومعناه الصلحاء، وهم المشتغلون بالعبادة والنسك، الآخذون فى كل أمر بالأفضل والأسلم فى الدين انتهى . وهذه الفرقة هى أصل فرقتى الربانيين والقراء .

«**فصل**» : زعم بعضهم أن اليهود عانانية، وشمعونية ـ نسبة إلى شمعون الصديق، ولى القدس عند قدوم أبى الإسكندر ـ وجالوتيه، وفيوميه، وسامرية، وعكبرية، وأصبهانية، وعراقية، ومغاربة، وشرشتانية، وفلسطينية، ومالكية، وربانية.

فالعانانية تقول بالتوحيد والعدل ونفى التشبيه، والشمعونية تشبه، وتبالغ الجالوتية فى التشبيه. وأما الفيومية فإنها تنسب إلى أبى سعيد الفيومى، وهم يفسرون التوراة على الحروف المقطعة. والسامرية ينكرون كثيراً من شرائعهم، ولا يقرون بنبوة من جاء بعد يوشع. والعكبرية، أصحاب أبى موسى البغدادى العكبرى وإسماعيل العكبرى، يخالفون أشياء من السبت وتفسير التوراة.

والأصبهانية أصحاب أبى عيسى الأصبهانى، وادعى النبوة، وأنه عرج به إلى السماء فمسح الرب على رأسه، وأنه رأى محمداً ﷺ فآمن به. ويزعم يهود أصبهان أنه الدجال، وأنه يخرج من ناحيتهم.

والعراقية تخالف الخراسانية فى أوقات أعيادهم، ومدد أيامهم.

والشرشتانية، أصحاب شرشتان، زعم أنه ذهب من التوراة ثمانون سوقة (أى آية) وادعى أن للتوراة تأويلاً باطناً مخالفاً للظاهر.

وأما يهود فلسطين فزعموا أن العزير ابن الله تعالى، وأنكر أكثر اليهود هذا القول.

والمالكية تزعم أن الله تعالى لايحيى يوم القيامة من الموتى إلا من احتج عليه بالرسل والكتب. ومالك هذا هو تلميذ عانان.

والربانية تزعم أن الحائض إذا مست ثوباً بين ثياب وجب غسل جميعها.

والعراقية تعمل رؤوس الشهور بالأهلة، وآخرون بالحساب يعملون. والله أعلم.

«**فصل**» : وهم يوجبون الإيمان بالله وحده، وبموسى عليه السلام وبالتوراة، ولابد لهم من درسها وتعلمها، ويغتسلون ويتوضأون، ولا يمسحون رؤوسهم فى وضوئهم، ويبدأون بالرجل اليسرى، وفى شئ منه خلاف بينهم، وعانان يرى أن الاستنجاء قبل الوضوء، ويرى أشمعث أن الاستنجاء بعد الوضوء، ولا يتوضأون بما تغير لونه أو طعمه أو

ريحه، ولا يجيزون الطهارة من غدير ما لم يكن عشرة أذرع فى مثلها، والنوم قاعداً لا ينقض الوضوء عندهم مالم يضع جنبه الأرض . . إلا العانانية فإن مطلق النوم عندهم ينقض.

ومن أحدث فى صلاته من قئ أو رعاف أو ريح، انصرف وتوضأ، وبنى على صلاته، ولا تجوز صلاة الرجل فى أقل من ثلاثة أثواب: قميص، وسراويل، وملاءة يتردى بها، فإن لم يجد الملاءة صلى جالساً، فإن لم يجد القميص والسراويل صلى بقلبه، ولا تجوز صلاة المرأة فى أقل من أربعة أثواب. وعليهم فريضة ثلاث صلوات فى اليوم والليلة: عند الصبح وبعد الزوال إلى غروب الشمس، ووقت العتمة إلى ثلث الليل، ويسجدون فى دبر كل صلاة سجدة طويلة، وفى يوم السبت وأيام الأعياد يزيدون خمس صلوات على تلك الثلاث.

ولهم خمسة أعياد:

«عيد الفطير»: وهو الخامس عشر من نيسن، يقيمون سبعة أيام لا يأكلون سوى الفطير، وهى الأيام التى تخلصوا فيها من فرعون وأغرقه الله.

و **«عيد الأسابيع»**: بعد الفطير بسبعة أسابيع، وهو اليوم الذى كلم الله تعالى فيه بنى إسرائيل من طور سيناء.

و **«عيد رأس الشهر»**: وهو أول تشرى، وهو الذى فدى فيه إسحاق عليه السلام من الذبح، ويسمونه عيد رأس هشايا، أى رأس الشهر.

و **«عيد صوماريا»**: يعنى الصوم العظيم.

و **«عيد المظلة»**: يستظلون سبعة أيام بقضبان الآس والخلاف.

ويجب عليهم الحج فى كل سنة ثلاث مرات لما كان الهيكل عامراً، ويوجبون صوم أربعة أيام: أولها سابع عشر تموز من الغروب إلى الغروب - وعند العانانية هو اليوم الذى أخذ فيه بخت نصر البيت - والثانى عاشر آب، والثالث عاشر كانون الأول، والرابع ثالث عشر آذار.

ويتشددون فى أمر الحائض بحيث يعتزلونها وثيابها وأوانيها، وما مسته من شئ فإنه ينجس ويجب غسله، فإن مست لحم القربان أحرق بالنار، ومن مسها أو شيئاً من ثيابها وجب عليه الغسل، وما عجنته أو خبزته أو طبخته أو غسلته فكله نحس حرام على

الطاهرين حل للحيض، ومن غسل ميتا نجس سبعة أيام لايصلى فيها، وهم يغلسون موتاهم ولا يصلون عليهم.

ويوجبون إخراج العشر من جميع ما يملك، ولايجب حتى يبلغ وزنه أو عدده مائة، ولا يخرج العشر إلا مرة واحدة، ثم لايعاد إخراجه.

ولا يصح النكاح عندهم إلا بولى وخطبة وثلاثة شهود، ومهر مائتى درهم للبكر ومائة للثيب.. لا أقل من ذلك، ويحضر عند عقد النكاح كأس خمر رباقة مرسين، فيأخذ الإمام الكأس، ويبارك عليه، ويخطب خطبة النكاح، ثم يدفعه إلى الختن ويقول... قد تزوجت فلانة بهذه الفضة أو بهذا الذهب - وهو خاتم فى يده - وبهذا الكأس من الخمر وبمهر كذا، ويشرب جرعة من الخمر، ثم ينهضون إلى المرأة، ويأمرونها أن تأخذ الخاتم والمرسين والكأس من يد الختن، فإذا أخذت وشربت جرعة، وجب عقد النكاح، ويضمن أولياء المرأة البكارة، فإذا زفت إليه، وكل الولى من يقف بباب الخلوة - وقد فرشت بثياب بيض - حتى يشاهد الوكيل الدم، فإن لم توجد بكراً رجمت.

ولا يجور عندهم نكاح الإماء حتى يعتقن، ثم ينكحن، والعبد يعتق بعد خدمته لسنين معلومة، وهى ست سنين، ومنهم من يجوز بيع صغار أولاده إذا احتاج. ولا يجوزون الطلاق إلا بفاحشة أو سحر، أو رجوع عن الدين، وعلى من طلق خمسة وعشرون درهماً للبكر، ونصف ذلك للثيب، وينزل فى كتابها طلاقها بعد أن يقول الزوج: أنت طالق منى مائة مرة ومختلعة منى، وفى سعة أن تتزوجى من شئت، ولا يقطع طلاق الحامل أبداً، نعم إلا أن يجوزوه، ويراجع الرجل امرأته ما لم تتزوج، فإن تزوجت حرمت عليه إلى الأبد.

والخيار بين المتبايعين ما لم ينقل المبيع إلى البائع.

والحدود عندهم على خمسة أوجه: حرق، ورجم، وقتل، وتعزيز، وتغريم. فالحرق على من زنى بأم امرأته أو ربيبته أو بامرأة أبيه أو امرأة أبنه، والقتل على من قتل والرجم على المحصن إذا زنى أو لاط، وعلى المرأة إذا مكنت من نفسها بهيمة، والتعزيز على من قذف، والتغريم على من سرق، ويرون أن البينة على المدعى، واليمين على من أنكر.

وعندهم أن من أتى بشئ من سبعة وثلاثين عملاً فى يوم السبت أو ليلته، استحق القتل، وهى : كرب الأرض، وزرعها، وحصاد الزرع، وسياقه الماء إلى الزرع، وحلب اللبن، وكسر الحطب، وإشعال النار، وعجن العجين، وخبزه، وخياطه الثوب، وغسله، ونسج سلكين، وكتابة حرفين أو نحوهما، وأخذ الصيد، وذبح الحيوان، والخروج من القرية، والانتقال من بيت إلى آخر، والبيع، والشراء، والدق، والطحن، والاحتطاب، وقطع الخبز، ودق اللحم، وإصلاح النعل إذا انقطعت، وخلط علف الدابة، ولا يجوز للكاتب أن يخرج يوم السبت من منزله ومعه قلمه، ولا الخياط ومعه إبرته. وكل من عمل شيئاً استحق به القتل، فلم يسلم نفسه، فهو معلون.

ذكر قبط مصر ودياناتهم القديمة
وكيف تنصروا ثم صاروا ذمة للمسلمين
وما كان لهم فى ذلك من القصص والأنباء
وذكر الخبر عن كنائسهم ودياراتهم
وكيف كان ابتداؤها ومصير أمرها

أعلم أن جميع أهل الشرائع، أتباع الأنبياء - عليهم السلام - من المسلمين واليهود والنصارى، قد أجمعوا على أن نوحا عليه السلام هو الأب الثانى للبشر، وأن العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه، ومنه ذرأ الله تعالى جميع أولاد آدم، فليس أحد من بنى آدم إلا وهو من أولاد نوح.

وخالفت القبط والمجوس وأهل الهند والصين ذلك، فأنكروا الطوفان، وزعم بعضهم أن الطوفان إنما حدث فى إقليم بابل وما وراءه من البلاد الغربية فقط، وأن أولاد كيومرت -

الذى هو عندهم الإنسان الأول ـ كانوا بالبلاد الشرقية من بابل، فلم يصل الطوفان إليهم ولا إلى الهند والصين.

والحق ما عليه أهل الشرائع، وأن نوحاً عليه السلام، لما أنجاه الله ومن معه بالسفينة نزل بهم ـ وهم ثمانون رجلاً سوى أولاده ـ فماتوا بعد ذلك ولم يعقبوا، وصار العقب من نوح فى أولاده الثلاثة، ويؤيد هذا قول الله تعالى عن نوح: ﴿**وجعلنا ذريته هم الباقين**﴾[1].

وكان من خبر ذلك أن أولاد نوح الثلاثة ـ وهم سام، وحام، ويافث ـ اقتسموا الأرض. فصار لبنى سام بن نوح أرض العراق وفارس إلى الهند، ثم إلى حضرموت وعمان والبحرين وعالج ويبرين ووبار والدو والدهنا، وجميع أرض اليمن وأرض الحجاز. وصار لبنى حام بن نوح جنوب الأرض مما يلى أرض مصر، مغرباً إلى بلاد المغرب الأقصى. وصار لبنى يافث بن نوح بحر الخزر، مشرقاً إلى الصين.

فكان من ذرية سام نواح: القضاعيون، والفرس، والسريانيون، والعبرانيون، والعرب المستعربة، والنبط، وعاد وثمود، والآمورانيون، والعماليق، وأمم الهند وأهل السند، وعدة أمم قد بادت.

وكانت ذرية حام بن نوح من أربعة أولاده. الذين هم كوش ومصرايم وقفط وكنعان فمن كوش الحبشة والزنج، ومن مصرايم قبط مصر والنوبة، ومن قفط الأفارقة أهل أفريقية ومن جاورهم إلى المغرب الأقصى، ومن كنعان أمم كانت بالشام حاربهم موسى بن عمران عليه السلام وقومه من بنى إسرائيل، ومنهم أجناس عديدة من البربر درجوا.

وكانت مساكن بنى حام من صيدا إلى أرض مصر، ثم إلى آخر أفريقية نحو البحر المحيط، وانتشروا فيما بين ذلك إلى الجنوب، وهم ثلاثون جنساً.

وكان من ذريه يافث بن نوح: الصقلب، والفرنجة، والغالليون من قبائل الروم، والغوط، وأهل الصين، وقوم عرفوا بالمادنيين، واليونانيون، والروم والفريقيون، وقبائل

---

(١) الصافات ـ آية ٧٧ ـ ك ٣٧.

الأتراك، ويأجوج ومأجوج، وأهل قبرس ورودس. وعدة بنى يافث خمسة عشر جنساً، سكنوا القطر الشمالى إلى البحر المحيط، فضاقت بهم بلادهم، ولم تسعهم لكثرتهم فخرجوا منها، وتغلبوا على كثير من بلاد بنى سام بن نوح.

وذكر الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه الكاتب : أن القبط تنسب إلى قبطيم بن مصرايم ابن مصر بن حام بن نوح، وأن قبطيم أول من عمل العجائب بمصر وأثار بها المعادن وشق الأنهار، لما ولى أرض مصر بعد أبيه مصرايم، وأنه لحق بلبلة الألسن، وخرج منها يعرف اللغة القبطية، وأنه ملك مدة ثمانين سنة ومات، فاغتم لموته بنوه وأهله، ودفنوه فى الجانب الشرقى من النيل بسرب تحت الجبل الكبير، فقام من بعده فى ملك مصر ابنه قفطيم ابن قبطيم.

وزعم بعض النسابه أن مصر بن حام بن نوح - ويقال له مصرايم، ويقال بل مصريم بن هرمس بن هردوس جد الإسكندر، وقيل بل قفط بن حام بن نوح - نكح بخت بنت يتاويل بن ترسل بن يافث بن نوح. فولدت له بوقير وقبط أبا قبط مصر. قال ابن إسحاق : ومن هاهنا قالوا إن مصر بن حام بن نوح، وإنما هو مصر بن هرمس بن هردوس بن ميطون بن رومى بن ليطى بن يونان، وبه سميت مصر، فهى مقدونية. وقيل القبط من ولد قبط بن مصر بن قفط ابن حام بن نوح، وبمصر هذا سميت مصر.

ذكر ديانة القبط قبل تنصرهم

اعلم أن قبط مصر كانوا فى غابر الدهر أهل شرك بالله يعبدون الكواكب، ويقربون لها قرابينهم، ويقيمون على أسمائها التماثيل كما هى أفعال الصابئة.

وذكر ابن وصيف شاه، أن عبادة الأصنام أول ما عرفت بمصر، أيام قفطريم بن قبطيم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح، وذلك أن أبليس أثار الأصنام التى غرقها الطوفان، وزين للقبط عبادتها، وأن البودشير بن قبطيم أول من تكهن وعمل بالسحر، وأن مناوش ابن منقاوش أول من عبد البقر من أهل مصر.

وذكر الموفق أحمد بن أبى القاسم بن خليفة - المعروف بابن أبى أصيبعة - أنه كان اللقبط مذهب مشهور من مذاهب الصابئة ولهم هياكل على أسماء الكواكب يحج إليها الناس من أقطار الأرض، وكانت الحكماء والفلاسفة ممن سواهم تتهافت عليهم، وتريد التقرب إليهم لما كان عندهم من علوم السحر والطلسمات والهندسة والنجوم والطب والحساب والكيمياء، ولهم فى ذلك أخبار كثيرة، وكانت لهم لغة يختصون بها، وكانت خطوطهم ثلاثة أصناف خط العامة، وخط الخاصة - وهو خط الكهنة المختصر - وخط الملوك.

وقال ابن وصيف شاه: كانت كهنة مصر أعظم الكهان قدراً، وأجلها علماً بالكهانة، وكانت حكماء اليونانيين تصفهم بذلك، وتشهد لهم به، فيقولون: اختبرنا حكماء مصر بكذا وكذا، وكانوا ينحون بكهانتهم نحو الكواكب، ويزعمون أنها هى التى تفيض عليهم العلوم وتخبرهم بالغيوب، وهى التى تعلمهم أسرار الطوالع وصفة الطلاسم، وتدلهم على العلوم المكتومة والأسماء الجليلة المخزونة.

فعملوا الطلسمات المشهورة، والنواميس الجليلة، وولدوا الأشكال الناطقة، وصوروا الصور المتحركة، وبنوا العالى من البنيان، وزبروا علومهم فى الحجارة، وعملوا من الطلسمات ما دفعوا به الأعداء عن بلادهم، فحكمهم باهرة، وعجائبهم ظاهرة.

وكانت أرض مصر خمساً وثمانين كورة: منها أسفل الأرض خمس وأربعون كورة، ومنها بالصعيد أربعون كورة، وكان فى كل كورة رئيس من الكهنة وهم السحرة، وكان الذى يتعبد منهم للكواكب السبعة السيارة سبع سنين يسمونه باهر، والذى يتعبد منهم لها تسعاً وأربعين سنة - لكل كوكب سبع ستين - يسمونه قاطر، وهذا يقوم له الملك إجلالاً، ويجلسه معه إلى جانبه، ولا يتصرف إلا برأيه، وتدخل الكهنة ومعهم أصحاب الصنائع فيقفون حذاء القاطر.

وكان كل كاهن منهم ينفرد بخدمة كوكب من الكواكب السبعة السيارة لايتعداه إلى سواه، ويدعى بعبد ذلك الكوكب، فيقال: عبدالقمر، عبد عطارد، عبد الزهرة، عبد زحل. فإذا وقفوا جميعاً قال القاطر لأحدهم: أين صاحبك اليوم؟ فيقول: فى برج كذا،

ودرجة كذا، ودقيقة كذا، . ثم يقول للآخر كذلك، فيجيبه، حتى يأتى على جميعهم، ويعرف أماكن الكواكب من فلك البروج.

ثم يقول للملك : ينبغى أن تعمل اليوم كذا، أو تأكل كذا، أو تجامع فى وقت كذا، أو تركب وقت كذا، إلى آخر ما يحتاج إليه، والكاتب قائم بين يديه يكتب ما يقول، ثم يلتفت القاطر إلى أهل الصناعات ويخرجهم إلى دار الحكمة، فيضعون أيديهم فى الأعمال التى يصلح عملها فى ذلك اليوم، ثم يؤرخ ما جرى فى ذلك اليوم فى صحيفة، وتخزن فى خزائن الملك.

وكان الملك إذا همه أمر، جمع الكهان خارج مدينة منف - وقد اصطف الناس لهم بشارع المدينة - ثم يدخل الكهان ركباناً على قدر مراتبهم والطبل بين أيديهم، وما منهم إلا من أظهر أعجوبة قد عملها : فمنهم من يعلو وجهه نور كهيئة نور الشمس لايقدر أحد على النظر إليه، ومنهم من على بدنه جواهر مختلفة الألوان قد نسجت على ثوب، ومنهم من يتوشح بحيات عظيمة، ومنهم من يعقد فوقه قبه من نور، إلى غير ذلك من بديع أعمالهم. ويصيرون كذلك إلى حضرة الملك، فيخبرهم بما نزل به، فيجيلون رأيهم فيه حتى يتفقوا على ما يصرفونه به.

وهذا - أعزك الله - من خبرهم لما كان الملك فيهم. فلما استولت العماليق على ملك مصر، وملكتها الفراعنة، ثم تداولتها من بعدهم أجناس أخر، تناقصت علوم القبط شيئاً بعد شئ إلى أن تنصروا، فغادروا عوايد أهل الشرك، واتبعوا ما أمروا به من دين النصرانية، كما ستقف عليه تلو هذا إن شاء الله تعالى.

ذكر دخول قبط مصر فى دين النصرانية

أعلم أن النصارى، أتباع عيسى نبى الله بن مريم عليه السلام، سموا نصارى لأنهم ينتسبون إلى قرية الناصرة من جبل الجليل - بالجيم - ويعرف هذا الجبل بجبل كنعان، وهو الآن فى زمننا من جملة معاملة صفد.

والأصل فى تسميتهم نصارى أن عيسى بن مريم، عليه السلام، لما ولدته أمه مريم ابنه عمران ببيت لحم، خارج مدينة بيت المقدس، ثم سارت به إلى أرض مصر وسكنتها زماناً، ثم عادت به إلى أرض بنى إسرائيل قومها، نزلت قرية الناصرة. فنشأ عيسى بها، وقيل له يسوع الناصرى.

فلما بعثه الله تعالى رسولاً إلى بنى اسرائيل، وكان من شأنه ما ستراه إلى أن رفعه الله إليه، تفرق الحواريون - وهم الذين آمنوا به - فى أقطار الأرض يدعون الناس إلى دينه، فنسبوا إلى ما نسب إليه نبيهم عيسى بن مريم، وقيل لهم الناصرية، ثم تلاعب العرب بهذه الكلمة وقالوا: نصارى.

قال ابن سيده: ونصرى وناصرة ونصورية قرية بالشام، والنصارى منسوبون إليها. هذا قول أهل اللغة، وهو ضعيف إلا أن نادر النسب يسيغه.

وأما سيبويه فقال: أما النصارى فذهب الخليل إلى أنه جمع نصرى ونصران، كما قالوا ندمان وندامى، ولكنهم حذفوا إحدى الياءين كما حذفوا من أثفية، وأبدلوا مكانها ألفاً. قال: وأما الذى نوجهه نحن عليه فإنه جاء على نصوان، لأنه قد تكلم به، فكأنك جمعت وقلت نصارى كما قلت ندامى، فهذا أقيس، والأول مذهب، وإنما كان أقيس لأنا لم نسمعهم قالوا نصرى.

والتنصر الدخول فى دين النصرانية، ونصَّره جعله كذلك، والأنصر الأقلف، وهو من ذلك لأن النصارى قلف. وفى شرح الإنجيل أن معنى قرية ناصرة الجديدة، والنصرانية التجدد، والنصرانى المجدد. وقيل نسبوا إلى نصران، وهو من أبنية المبالغة، ومعناه أن هذا الدين فى غير عصابة صاحبه، فهو دين من ينصره من أتباعه.

وإذا تقرر هذا، فأعلم أن المسيح - روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم - هو «عيسى». وأصل اسمه بالعبرانية، التى هى لغة أمة وآبائها، إنما هو «ياشوع»، وسمته النصارى «يسوع»، وسماه الله تعالى - وهو أصدق القائلين - «عيسى»، ومعنى يسوع فى اللغة السريانية المخلص، قاله فى شرح الإنجيل.

ونعته بالمسيح، وهو الصديق، وقيل لأنه كان لايمسح بيده صاحب عاهة إلا برأ، وقيل لأنه كان يمسح رؤوس اليتامى، وقيل لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، وقيل لأن جبريل عليه السلام مسحه بجناحه عند ولادته صوناً له من مس الشيطان.

وقيل المسيح اسم مشتق من المسح، أى الدهن، لأن روح القدس قام بجسد عيسى مقام الدهن الذى كان عند بنى اسرائيل يمسح به الملك ويمسح به الكهنوت، وقيل لأنه مسح بالبركة، وقيل لأنه أمسح الرجلين ليس لرجليه أخمص، وقيل لأنه يمسح الأرض بسياحته لايستوطن مكاناً، وقيل هى كلمة عبرانية أصلها «ماسيح»، فتلاعبت بها العرب وقالت: مسيح.

وكان من خبره، عليه السلام، أن مريم ابنه عمران، بينا هى فى محرابها، إذ بشرها الله تعالى بعيسى، فخرجت من بيت المقدس وقد اغتسلت من المحيض، فتمثل لها الملك بشرا فى صورة يوسف بن يعقوب النجار - أحد خدام القدس - فنفخ فى جيبها، فسرت النفحة إلى جوفها، فحملت بعيسى كما تحمل النساء بغير ذكر، بل حلت نفخة الملك منها محل اللقاح، ثم وضعت بعد تسعة أشهر - وقيل بل وضعت فى يوم حملها - بقرية بيت لحم، من عمل مدينة القدس، فى يوم الأربعاء خامس عشرى كانون الأول، وتاسع عشرى كيهك، سنة تسع عشرة وثلاثمائة للإسكندر.

فقدمت رسل ملك فارس فى طلبه، ومعهم هدية لها فيها ذهب ومر ولبان، فطلبه هيرودس - ملك اليهود بالقدس - ليقتله وقد أنذر به. فسارت أمه مريم به، وعمره سنتان، على حمار ومعها يوسف النجار، حتى قدموا إلى أرض مصر، فسكنوها مدة أربع سنين، ثم عادوا وعمر عيسى ست سنين، فنزلت به مريم قرية الناصرة من جبل الجليل فاستوطنتها.

فنشأ بها عيسى حتى بلغ ثلاثين سنة، فسار هو وابن خالته يحيى بن زكريا عليهما السلام إلى نهر الأردن، فاغتسل عيسى فيه، فحلت عليه النبوة، فمضى إلى البرية، وأقام بها أربعين يوماً لايتناول طعاماً ولا شراباً، فأوحى الله إليه بأن يدعو بنى إسرائيل إلى عبادة الله تعالى، فطاف القرى، ودعا الناس إلى الله تعالى، وأبرأ الأكمة والأبرص، وأحيا الموتى بإذن الله، وبكّت اليهود، وأمرهم بالزهد فى الدنيا والتوبة من المعاصى.

فآمن به الحواريون ـ وكانوا قوماً صيادين ـ وقيل قصارين ، وقيل ملاحين ـ وعددهم اثنا عشر رجلاً ، وصدقوا بالإنجيل الذى أنزله الله تعالى عليه ، وكذبه عامة اليهود وضللوه ، واتهموه بما هو برئ منه . فكانت له ولهم عدة مناظرات آلت بهم إلى أن اتفق أحبارهم على قتله ، وطرقوه ليلة الجمعة ، فقيل إنه رفع عند ذلك ، وقيل بل أخذوه وأتوا به إلى بلاطس النبطى ـ شحنة القدس من قبل الملك طيباريوس قيصر ـ وراودوه على قتله وهو يدفعهم عنه ، حتى غلبوه على رأيه بأن دينهم اقتضى قتله ، فأمكنهم منه .

وعندما أدنوه من الخشبية ليصلبوه ، رفعه الله إليه ـ وذلك فى الساعة السادسة من يوم الجمعة خامس عشر شهر نيسن ، وتاسع عشرى شهر برمهات ، وخامس عشر شهر آذار ، وسابع عشر شهر ذى القعدة ـ وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة وثلاثة أشهر . فصلبوا الذى شبه لهم ، وصلبوا معه لصين ، وسمروهم بمسامير الحديد ، واقتسم الجند ثياب المصلوب . فغشيت الأرض ظلمة دامت ثلاث ساعات حتى صار النهار شبه الليل ، ورؤيت النجوم ، وكان مع ذلك هزة وزلزلة .

ثم أنزل المصلوب عن الخشبية بكرة يوم السبت ، ودفن تحت صخرة فى قبر جديد ، ووكل بالقبر من يحرسه لئلا يأخذ المقبور أصحابه . فزعم النصارى أن المقبور قام من قبره ليلة الأحد سحراً ، ودخل عشيه ذلك اليوم على الحواريين وحادثهم ووصاهم ، ثم بعد الأربعين يوماً من قيامه صعد إلى السماء والحواريون يشاهدونه ، فاجتمعوا بعد رفعه بعشرة أيام فى علية صيون ـ التى يقال لها اليوم صهيون ـ خارج القدس ، وظهرت لهم خوارق ، فتكلموا بجميع الألسن ، فآمن بهم فيما يذكر زيادة على ثلاث آلاف إنسان ، فأخذهم اليهود وحبسوهم ، فظهرت كرامتهم ، وفتح الله لهل باب السجن ليلاً ، فخرجوا إلى الهيكل ، وطفقوا يدعون الناس ، فهم اليهود بقتلهم وقد آمن بهم نحو الخمسة آلاف إنسان ، فلم يتمكنوا من قتلهم .

فتفرق الحواريون فى أقطار الأرض يدعون إلى دين المسيح .

فسار بطرس رأس الحواريين ومعه شمعون الصفا إلى أنطاكية وورمية ، فاستجاب لهم بشر كثير ، وقتل فى خامس أبيب وهو عيد القصرية .

وسار أندراوس أخوه إلى نيقية وما حولها، فآمن به كثير، ومات فى بزنطية فى رابع كيهك.

وسار يعقوب بن زبدى، أخو يوحنا الإنجيلى، إلى بلد أبدينية، فتبعه جماعه، وقتل فى سابع عشر برمودة.

وسار يوحنا الإنجيلى إلى آسيا وأفسيس، وكتب إنجيله باليونانى، بعدما كتب متى ومرقص ولوقا أناجيلهم، فوجدهم قد قصروا فى أمور فتكلم عليها. وكان ذلك بعد رفع المسيح بثلاثين سنة. وكتب ثلاث رسائل، ومات وقد أناف على مائة سنة.

وسار فيلبس إلى قيسارية وما حولها، وقتل بها فى ثامن هاتور، وقد اتبعه جماعات من الناس.

وسار برتولوماوس إلى أرمينية وبلاد البربر وواحات مصر، فآمن به كثير، وقتل.

وسار توما إلى الهند، فقتل هناك.

وسار متى العشار إلى فلسطين وصور وصيدا ومدينة بصرى، وكتب إنجيله بالعبرانى بعد رفع المسيح بتسع سنين، ونقله يوحنا إلى اللغة الرومية، وقتل متى بقرطاجنة فى ثامن عشر بابه بعدما استجاب له بشر كثير.

وسار يعقوب بن حلفا إلى بلاد الهند، ورجع إلى القدس، وقتل فى عاشر أمشير.

وسار يهوذا بن يعقوب من أنطاكية إلى الجزيرة، فآمن به كثير من الناس، ومات فى ثانى أبيب.

وسار شمعون إلى سميساط وحلب ومنبج وبزنطية، وقتل فى سابع أبيب.

وسار ميتاس إلى بلاد الشرق، وقتل فى ثامن عشر برمهات.

وسار بولص الطرسوسى إلى دمشق وبلاد الروم وروميه، فقتل فى خامس أبيب.

وتفرق أيضاً سبعون رسولاً آخر فى البلاد، فآمن بهم الخلائق.

ومن هولاء السبعين مرقص الإنجيلي، وكان اسمه أولاً يوحنا، فعرف ثلاثة ألسن: الفرنجي، العبراني، واليوناني. ومضى إلى بطرس برومية وصحبة، وكتب الإنجيل عنده بالفرنجية بعد رفع المسيح باثنتي عشرة سنة، ودعا الناس برومية ومصر والحبشة- والنوبة، وأقام حنانيا أسقفا على الإسكندرية، وخرج إلى برقة، فكثرت النصارى في أيامه، وقتل في ثاني عيد الفسح بالإسكندرية.

ومن السبعين أيضاً: لوقا الإنجيلي الطبيب تلميذ بولص. كتب الإنجيل باليونانية، عن بولص بالإسكندرية، بعد رفع المسيح بعشرين سنة، وقيل باثنتين وعشرين سنة.

ولما فر بطرس رأس الحواريين من حبس رومية، ونزل بأنطاكية، أقام بها داريوس بطركا. وأنطاكية أحد الكراسي الأربعة التي للنصارى، وهي: رومية، والأسكندرية، والقدس، وأنطاكية - فأقام داريوس بطرك أنطاكية سبعاً وعشرين سنة، وهو أول بطاركتها، وتوارث من بعده البطاركة بها البطركية واحداً بعد واحد.

ودعا شمعون الصفا برومية خمساً وعشرين سنة، فآمنت به بطركية وسارت إلى القدس، وكشفت عن خشبات الصليب، وسلمتها إلى يعقوب بن يوسف الأسقف، وبنت هناك كنيسة، وعادت إلى رومية - وقد اشتدت على دين النصرانية - فآمن معها عدة من أهلها.

واجتمع الرسل بمدينة رومية، ووضعوا القوانين، وأرسلوها على يد قليموس، تلميذ بطرس، فكتبوا فيها عدد الكتب التي يجب قبولها من العتيقة والجديدة.

فأما العتيقة: فالتوراة، وكتاب يوشع بن نون، وكتاب القضاة، وكتاب راغون، وكتاب يهوديت، وسير الملوك، وسفر بنيامين، وكتب المقانين، وكتاب عزره، وكتاب أستير، وقصة هامان، وكتاب أيوب، وكتاب مزامير داود، وكتب سليمان بن داود، وكتب الأنبياء - وهي ستة عشر كتاباً - وكتاب يوشع بن شيراخ.

وأما الكتب الحديثة: فالأناجيل الأربعة، وكتاب القليتليقون، وكتاب بولص، وكتاب الأبركسيس - وهو قصص الحواريين - وكتاب قليموس، وفيه ما أمر به الحواريون وما نهوا عنه.

ولما قتل الملك نيرون قيصر ، بطرس رأس الحواريين بروميه ، أقيم من بعده أريوس بطرك رومية ـ وهو أول بطرك صار على رومية ـ فأقام فى البطركية اثنتى عشرة سنة ، وقام من بعده البطاركة بها واحداً بعد واحد إلى يومنا هذا الذى نحن فيه .

ولما قتل يعقوب ، أسقف القدس ، على يد اليهود ، هدموا بعده البيعة ، وأخذوا خشبة الصليب والخشبتين معها ودفنوها ، وألقوا على موضعها تراباً كثيراً ، فصار كوماً عظيماً ، حتى أخرجتها هيلانة أم قسطنطين ، كما ستراه قريباً إن شاء الله تعالى .

وأقيم بعد قتل يعقوب سمعان ابن عمه ، أسقف القدس ، فمكث اثنتين وأربعين سنة أسقفاً ومات ، فتداول الأساقفة بعده الأسقفية بالقدس واحداً بعد آخر .

ولما أقام مرقص حنانيا ـ ويقال أنانيو ـ بطرك الإسكندرية ، جعل معه اثنى عشر قسا ، وأمرهم إذا مات البطرك أن يجعلوا عوضه واحداً منهم ، ويقيموا بدل ذلك القس واحداً من النصارى حتى لايزالوا أبدا اثنى عشر قسا ، فلم تزل البطاركة تعلم من القسوس . . . إلى أن اجتمع ثلاثمائة وثمانية عشر ، كما ستراه إن شاء الله تعالى .

وكان بطرك الإسكندرية يقال له البابا من عهد حنانيا هذا ، أول بطاركة الإسكندرية ، إلى أن أقيم ديمتريوس ، وهو الحادى عشر من بطاركة الإسكندرية ، ولم يكن بأرض مصر أساقفة ، فنصب الأساقفة بها ، وكثروا . فغزاها فى بطركيته هرقل ، وصار الأساقفة يسمون البطرك الأب ، والقسوس وسائر النصارى يسمون الأسقف الأب ، ويجعلون لفظة البابا تختص ببطرك الإسكندرية ، ومعناها أبو الآباء .

ثم انتقل هذا الأسم عن كرسى الإسكندرية إلى كرسى رومية ، من أجل أنه كرسى بطرس رأس الحواريين ، فصار بطرك رومية يقال له البابا ، واستمر على ذلك إلى زمننا الذى نحن فيه . وأقام أنانيو ، وهو حنانيا ، فى بطركية الإسكندرية اثنتين وعشرين سنة ، ومات فى عشرى هاتور سنة سبع وثمانين لظهور المسيح . فأقيم بعده مينيو ، فأقام ثنتى عشرة سنة وتسعة أشهر ، ومات .

وفى أثناء ذلك ثار اليهود على النصارى ، وأخرجوهم من القدس ، فعبروا الأردن ، وسكنوا تلك الأماكن . فكان بعد هذا بقليل خراب القدس ، وجلاية اليهود ، وقتلهم على يد طيطش ـ ويقال طيطوس ـ بعد رفع المسيح بنحو أربع وأربعين سنة . فكثرت النصارى فى

أيام بطركية مينيو، وعاد كثير منهم إلى مدينة القدس بعد تخريب طيطش لها، وبنوا بها كنيسة وأقاموا عليها سمعان أسقفا، ثم أقيم بعد مينيو فى الإسكندرية فى البطركية كرتيانو.

وفى أيام الملك اندیانوس قيصر، أصاب النصارى منه بلاء كثير، وقتل منهم جماعة كثيرة، واستعبد باقيهم. فنزل بهم بلاء لا يوصف فى العبودية، حتى رحمهم الوزراء وأكابر الروم، وشفعوا فيهم، فمن عليهم قيصر وأعتقهم. ومات كرتيانو بطرك الإسكندرية، فى حادى عشر برمودة، بعدما دبر الكرسى إحدى عشرة سنة، وكان حميد السيرة. فقدم بعده إيريمو، فأقام اثنتى عشرة سنة، ومات فى ثالث مسرى.

وأشتد الأمر على النصارى فى أيام الملك أريدويانوس، وقتل منهم خلائق لا يحصى عددهم، وقدم مصر، فأفنى من بها من النصارى، وخرب ما بنى فى مدنية القدس من كنيسة النصارى، ومنعهم من التردد إليها، وأنزل عوضهم بالقدس اليونانيين، وسمى القدس إيليا، فلم يتجاسر نصرانى أن يدنو من القدس.

وأقيم بعد موت إيريمو بطرك الإسكندرية بسطس، فأقام إحدى عشرة سنة، ومات فى ثانى عشر بؤونة. فخلف بعده أرمانيون، فأقام عشر سنين وأربعة أشهر، ومات فى عاشر بابة. فأقيم بعده موقيانو، بطرك الإسكندرية، تسع سنين وستة أشهر، ومات فى سادس طوبة. فقدم بعده على الإسكندرية كلوتيانو، فأقام أربع عشرة سنة، ومات فى تاسع أبيب وفى أيامه اشتد الملك أوليانوس قيصر على النصارى، وقتل منهم خلقاً كثيراً.

وقدم على كرسى الإسكندرية بعد كلوتيانو غرنبو بطركا، فأقام اثنتى عشرة سنة، ومات فى خامس أمشير. وفى أيام بطركيته اتفق رأى البطاركة، بجميع الأمصار، على حساب فصح النصارى وصومهم، ورتبوا كيف يستخرج، ووضعوا حساب الأبقطى، وبه يستخرجون معرفة وقت صومهم وفصحهم، واستمر الأمر على ما رتبوه فيما بعد.

وكانوا قبل ذلك يصومون بعد الغطاس أربعين يوماً. كما صام المسيح عليه السلام. ويفطرون، وفى عيد الفسح يعملون الفسح مع اليهود. فنقل هؤلاء البطاركة الصوم، وأوصلوه بعيد الفسح، لأن عيد الفسح كانت فيه قيامة المسيح من الأموات بزعمهم، وكان الحواريون قد أمروا ألا يغير عن وقته، وأن يعملوه كل سنة فى ذلك الوقت.

ثم أقيم بكرسى الإسكندرية بعد غرنبو فى البطركية بوليانوس، فأقام عشر سنين، ومات فى ثامن برمهات فاستخلف بعده ديمتريوس فأقام بعده فى البطركية ثلاثاً وثلاثين سنة، ومات، وكان فلاحاً أمياً، وله زوجه ذكر عنه أنه لم يجامعها قط. وفى أيامه أثار الملك سوريانوس قيصر على النصارى بلاء كبيراً فى جميع مملكته، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وقدم مصر وقتل جميع من فيها من النصارى، وهدم كنائسهم، وبنى بالإسكندرية هيكلاً لأصنامه.

ثم أقيم بعده فى بطركية الإسكندرية باركلاً، فأقام ست عشرة سنة، ومات فى ثامن كيهك. فلقى النصارى من الملك مكسيموس قيصر شدة عظيمة، وقتل منهم خلقاً كثيراً، فلما ملك فيلبش قيصر أكرم النصارى.

وقدم على بطركية الأسكندرية ديوسيوس، فأقام تسع عشرة سنة، ومات فى ثالث توت، وفى أيامة كان الراهب أنطونيوس المصرى، وهو أول من ابتدأ بلبس الصوف، وابتدأ بعمارة الديارات فى البرارى، وأنزل بها الرهبان.

ولقى النصارى من الملك داقيوس قيصر شدة. فإنه أمرهم أن يسجدوا لأصنامه، فأبوا من السجود لها، فقتلهم أبرح قتلة، وفر منه الفتية أصحاب الكهف من مينة أفسس، واختفوا فى مغارة فى جبل شرقى المدينة وناموا، فضرب الله على آذانهم، فلم يزالوا نائمين ثلاثمائة سنين وأزدادوا تسعاً. فقام من بعده بالإسكندرية مكسيموس، وأقام بطركا اثنتى عشرة سنة، ومات فى رابع عشر برمودة.

فأقيم بعده تؤوبا بطركا مدة سبع سنين وتسعة أشهر، ومات. وكات النصارى قبله تصلى بالإسكندرية خفية من الروم خوفاً من القتل، فلاطف تؤوبا الروم، وأهدى إليهم تحفاً جليلة حتى بنى كنيسة مريم بالإسكندرية فصلى بها النصارى جهراً. واشتد الأمر على النصارى فى أيام الملك طيباريوس قيصر، وقتل منهم خلقاً كثيراً.

فلما كانت أيام دقلطيانوس قيصر، خالف عليه أهل مصر والإسكندرية، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وكتب بغلق كنائس النصارى، وأمر بعبادة الأصنام، وقتل من امتنع منها، فارتد خلائق كثيرة جداً. وأقام فى البطركية بعد تؤوبا بطرس، فأقام إحدى عشرة سنة، وقتل فى الإسكندرية بالسيف، وقتل معه امرأته وابنتاه لامتناعهم من السجود للأصنام. فقام بعده تلميذه أرشلاوش، فأقام ستة أشهر ومات.

وبدقلطيانوس هذا، وقتله لنصارى مصر، يؤرخ قبط مصر إلى يومنا هذا - كما قد ذكرناه فى تاريخ القبط عند ذكر التواريخ من هذا الكتاب - فراجعه. ثم قام من بعده مكسيمانوس قيصر، فاشتد على النصارى، وقتل منهم خلقاً كثيراً، حتى كانت القتلى منهم تحمل على العجل، وترمى فى البحر.

ثم قام بعد أرشلاوش فى بطركية الإسكندرية اسكندروس، تلميذ بطرس الشهيد، فأقام ثلاثاً وعشرين سنة، ومات فى ثانى عشرى برمودة. وفى بطركيته كان مجمع النصارى بمدينة نيقية، وفى أيامه كتب النصارى وغيرهم من أهل رومية إلى قسطنطين - وكان على مدينة بزنطية - يحثونه على أن ينقذهم من جور مكسيمانوس، وشكوا إليه عتوه، فاجمع على المسير لذلك.

وكانت أمه هيلانى، من أهل قرى مدينة الرها، قد تنصرت على يد أسقف الرها، وتعلمت الكتب. فلما مر بقريتها قسطس - صاحب شرطة دقلطيانوس - رآها فأعجبته، فتزوجها، وحملها إلى بزنطية مدينته، فولدت له قسطنطين، وكان جميلاً، فأنذر دقلطيانوس منجموه بأن هذا الغلام قسطنطين سيملك الروم، ويبدل دينهم، فأراد قتله، ففر منه إلى الرها، وتعلم بها الحكمة اليونانية حتى مات دقلطيانوس فعاد إلى بزنطية، فسلمها له أبوه قسطس ومات.

فقام بأمرها، بعد أبيه، إلى أن استدعاه أهل رومية، فأخذ يدبر فى مسيره، فرأى فى منامه كواكب فى السماء على هيئة الصليب، وصوت من السماء يقول له: احمل هذه العلامة تنتصر على عدوك. فقص رؤياه على أعوانه، وعمل شكل الصليب على أعلامه وبنوده، وسار لحرب مكسيمانوس برومية، فبرز إليه وحاربه، فانتصر قسطنطين عليه، وملك رومية، وتحول منها فجعل دار ملكه قسطنطينية. فكان هذا ابتداء رفع الصليب وظهوره فى الناس، فاتخذه النصارى من حينئذ وعظموه حتى عبدوه.

وأكرم قسطنطين النصارى، ودخل فى دينهم بمدينة نيقوميديا فى السنة الثانية عشرة من ملكة على الروم، وأمر ببناء الكنائس فى جميع ممالكه، وكسر الأصنام، وهدم بيوتها، وعمل المجمع بمدينة نيقية.

وسببه : أن الأسكندروس، بطرك الإسكندرية، منع أريوس من دخول الكنيسة وحرمه لمقاتلته، ونقل عن بطرس الشهيد بطرك إسكندرية أنه قال عن أريوس : أن إيمانه فاسد، وكتب بذلك إلى جميع البطاركة.

فمضى أريوس إلى الملك قسطنطين ومعه أسقفان فاستغاثوا به وشكوا الإسكندروس، فأمر بإحضاره من الإسكندرية، فحضر هو وأريوس، وجمع له الأعيان من النصارى ليناظروه.

فقال أريوس : كان الأب إذ لم يكن الابن، ثم أحدث الأبن فصار كلمة له، فهو محدث مخلوق فوض إليه الأب كل شئ، فخلق الابن - المسمى بالكلمة - كل شئ من السموات والأرض وما فيها، فكان هو الخالق بما أعطاه الأب ثم ان تلك الكلمة تجسدت من مريم وروح القدس، فصار ذلك مسيحاً، فإذا المسيح معنيان. كلمة، وجسد، وهما جميعاً مخلوقان.

فقال الاسكندروس : أيما أوجب عبادة من خلقنا، أو عبادة من لم يخلقنا ؟

فقال أريوس : بل عبادة من خلقنا أوجب.

فقال الأسكندروس : فإن كان الابن خلقنا كما وصفت، وهو ملخوق، فعبادته أوجب من عبادة الأب الذى ليس بمخلوق، بل تكون عبادة الخالق كفراً، وعبادة المخلوق إيماناً، وهذا أقبح القبيح.

فاستحسن الملك قسطنطين كلام اسكندروس، وأمره أن يحرم أريوس فحرمه، وسأل اسكندروس الملك أن يحضر الأساقفة، فأمر بهم، فأتوه من جميع ممالكه، واجتمعوا بعد ستة أشهر بمدينة نيقية، وعدتهم ألفان وثلثمائة وأربعون أسقفا، مختلفون فى المسيح.

فمنهم من يقول : الابن من الأب بمنزلة شعلة نار تعقلت من شعلة أخرى، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية عنها. وهذه مقالة سيليوس الصيدى ومن تبعه.

ومنهم من قال : إن مريم لم تحمل بالمسيح تسعة أشهر، بل مر باحشائها كمرور الماء بالميزاب. وهذا قول إليان ومن تبعه.

ومنهم من قال : المسيح بشر مخلوق، وإن ابتداء الابن من مريم، ثم إنه اصطفى فصحبته النعمة الإلهية بالمحبة والمشيئة، ولذلك سمى ابن الله تعالى عن ذلك، ومع ذلك

فالله واحد قيوم، وأنكر هؤلاء الكلمة والروح فلم يؤمنوا بهما. وهذا قول بولس السيمساطى بطرك أنطاكية وأصحابه.

ومنهم من قال: الآلهة ثلاثة: صالح، وطالح، وعدل بينهما. وهذا قول مرقيون وأتباعه.

ومنهم من قال: المسيح وأمه إلهان من دون الله. وهذا قول المرايمة من فرق النصارى.

ومنهم من قال: بل الله خلق الإبن - وهو الكلمة فى الأزل - كما خلق الملائكة روحاً طاهرة مقدسة بسيطة مجردة عن المادة، ثم خلق المسيح فى آخر الزمان من أحشاء مريم البتول الطاهرة، فاتحد الابن المخلوق فى الأزل بإنسان المسيح، فصاراً واحداً.

ومنهم من قال: الابن مولود من الأب قبل كل الدهور، غير مخلوق، وهو جوهر من جوهره، ونور من نوره، وإن الابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم، فصارا واحداً وهو المسيح. وهذا قول الثلاثمائة وثمانية عشر.

فتحير قسطنطين فى اختلافهم، وكثر تعجبه من ذلك، وأمر بهم فأنزلوا فى أماكن، وأجرى لهم الأرزاق، وأمرهم أن يتناظروا حتى يتبين له صوابهم من خطئهم. فثبت الثلاثمائة وثمانية عشر على قولهم المذكور، واختلف باقيهم.

فمال قسطنطين إلى قول الأكثر، وأعرض عما سواه، وأقبل على الثلاثمائة وثمانية عشر، وأمر لهم بكراسى، وأجلسهم عليها، ودفع إليهم سيفه وخاتمه، وبسط أيديهم فى جميع مملكته. فباركوا عليه، ووضعوا له كتاب «قوانين الملوك وقوانين الكنيسة»، وفيه ما يتعلق بالمحاكمات والمعاملات والمناكحات، وكتبوا بذلك إلى سائر الممالك.

وكان رئيس هذا المجمع الإسكندروس بطرك الإسكندرية، وأسطارس بطرك إنطاكية، ومقاريوس أسقف القدس، ووجه سلطوس بطرك رومية بقسيسين اتفقا معهم على حرمان أريوس، فحرموه ونفوه.

ووضع الثلاثمائة وثمانية عشر الأمانة المشهورة عندهم، وأوجبوا أن يكون الصوم متصلاً بعيد الفسح على ما رتبه البطاركة فى أيام الملك أورليانوس قيصر، كما تقدم، ومنعوا

أن يكون للأسقف زوجة ـ وكان الأساقفة قبل ذلك إذا كان مع أحدهم زوجة لا يمنع منها إذا عمل أسقفاً، بخلاف البطرك فإنه لايكون له امرأة ألبته ـ وانصرفوا من مجلس قسطنطين بكرامة جليلة.

والإسكندروس هذا هو الذى كسر الصنم النحاس الذى كان فى هيكل زحل بالإسكندرية، وكانوا يعبدونه، ويجعلون له عيداً فى ثانى عشر هتور، ويذبحون له الذبائح الكثيرة. فأراد الأسكندروس كسر هذا الصنم، فمنعه أهل الإسكندرية، فاحتال عليهم، وتلطف فى حيلته إلى أن قرب العيد، فجمع الناس، ووعظهم، وقبح عندهم عبادة الصنم، وحثهم على تركه، وأن يعمل هذا العيد لميكائيل، رئيس الملائكة الذى يشفع فيهم عند الإله، فإن ذلك خير من عمل العيد للصنم، فلا يتغير عمل العيد الذى جرت عادة أهل البلد بعمله، ولا تبطل ذبائحهم فيه.

فرضى الناس بهذا، ووافقوه على كسر الصنم، فكسره وأحرقه، وعمل بيته كنيسة على اسم ميكائيل. فلم تزل هذه الكنيسة بالإسكندرية إلى أن حرقتها جيوش الإمام المعز لدين الله أبى تميم معد، لما قدموا فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، واستمر عيد ميكائيل عند النصارى، بديار مصر باقياً يعمل فى كل سنة.

وفى السنة الثانية والعشرين من ملك قسطنطين، سارت أمه هيلانى إلى القدس، وبنت به كنائس للنصارى، فدلها مقاريوس الأسقف على الصليب، وعرفها ما عملته اليهود، فعاقبت كهنة اليهود حتى دلوها على الموضع، فحفرته فإذا قبر وثلاث خشبات، زعموا أنهم لم يعرفوا الصليب المطلوب من الثلاث خشبات، إلا بأن وضعت كل واحدة منها على ميت قد بلى فقام حياً عندما وضعت عليه خشبة منها. فعملوا لذلك عيداً، مدة ثلاثة أيام، عرف عندهم بعيد الصليب.

ومن حينئذ عبد النصارى الصليب، وعملت له هيلانى غلافاً من ذهب، وبنت كنيسة القيامة ـ التى تعرف بكنيسة قمامة، وأقامت مقاريوس الأسقف على بناء بقية الكنائس، وعادت إلى بلادها. فكانت مدة ما بين ولادة المسيح وظهور الصليب ثلاثمائة وثمان وعشرين سنة.

ثم قام فى بطركية الإسكندرية، بعده أسكندروس، تلميذه أيناسيوس الرسولى، فأقام ستاً وأربعين سنة، ومات بعد ما أبتلى بشدائد، وغاب عن كرسيه ثلاث مرات.

وفى أيامه جرت مناظرات طويلة مع أوسانيوس للأسقف آلت إلى ضربه وفراره. فإنه تعصب لأريوس، وقال: إنه لم يقل إن المسيح خلق الأشياء، وإنما قال به خلق كل شئ، لأنه كلمة الله التى بها خلق السموات والأرض، وإنما خلق الله تعالى جميع الأشياء بكلمته، فالأشياء به كونت لا أنه كونها، وإنما الثلاثمائة وثمانية عشر تعدوا عليه.

وفى أيامه تنصر جماعة من اليهود، وطعن بعضهم فى التوراة التى بأيدى اليهود، وأنهم نقصوا منها، وأن الصحيحة هى التى فسرها السبعون. فأمر قسطنطين اليهود بإحضارها، وعاقبهم على ذلك حتى دلوه على موضعها بمصر، فكتب بإحضارها فحملت إليه، فإذا بينها وبين توراة اليهود نقص ألف وثلاثمائة وتسع وستين سنة، زعموا أنهم نقصوها من مواليد من ذكر فيها لأجل المسيح.

وفى أيامه بعثت هيلانى بمال عظيم إلى مدينة الرها، فبنى به كنائسها العظيمة، أمر قسطنطين بإخراج اليهود من القدس، وألزمهم بالدخول فى دين النصرانية، ومن امتنع منهم قتل فتنصر كثير منهم، وامتنع أكثرهم فقتلوا، ثم امتحن من تنصر منهم بأن جمعهم يوم الفسح فى الكنيسة وأمرهم بأكل لحم الخنزير، فأبى أكثرهم أن يأكل منه، فقتل منهم فى ذلك اليوم خلائق كثيرة جداً.

ولما قام قسطنطين بن قسطنطين فى الملك بعد أبيه، غلبت مقالة أرنوس على القسطنطينية وأنطاكية والإسكندرية، وصار أكثر أهل الإسكندرية وأرض مصر أريوسيين وميانيين، واستولوا على ما بها من الكنائس، ومال الملك إلى رأيهم، وحمل الناس عليه، ثم رجع عنه.

وزعم أبريس، أسقف القدس، أنه ظهر من السماء، على القبر الذى بكنيسه القمامة، شبه صليب من نور فى يوم عيد العنصرة، لعشرة أيام من شهر أيار، فى الساعة الثالثة من النهار، حتى غلب نوره على نور الشمس، ورآه جميع أهل القدس عياناً، فأقام فوق القبر عدة ساعات والناس تشاهده. فآمن يومئذ من اليهود وغيرهم عدة آلاف كثيرة.

ثم لما ملك مولهيانوس ابن عم قسطنطين، اشتدت نكايته للنصارى، وقتل منهم خلقاً كثيراً، ومنعهم من النظر فى شئ فى الكتب وأخذ أوانى الكنائس والديارات، ونصب مائدة

كبيرة عليها أطعمة مما ذبحه لأصنامه، ونادى من أراد المال فليضع البخور على النار، وليأكل من ذبائح الحنفاء وبأحد ما يريد من المال، فامتنع كثير من الروم، وقالوا: نحن نصارى، فقتل منهم خلائق، ومحا الصليب من أعلامه وبنوده.

وفي أيامه سكن القديس أيارنوس برية الأردن، وبنى بها الديارات، وهو أول من سكن برية الأردن من النصارى.

فلما ملك يرسيانوس على الروم - كان متنصراً - عاد كل من كان نفى من الأساقفة إلى كرسيه، وكتب إلى أيناسيوس بطرك الإسكندرية، أن يشرح الأماد المستقيمة. فجمع الأساقفة. بعدما كتبوا له أن يلزم أمانة الثلاثمائة وثمانية عشرة.

فثار أهل الإسكندرية على ايناسيوس ليقتلوه ففر، وأقاموا بدله لوقيوس - وكان أريوسياً - فاجمع مجمع الأساقفة بعد خمسة أشهر، وحرموه ونفوه، وأعادوا إيناسيوس إلى كرسيه، فأقام بطركا إلى أن مات فخلفه بطرس، ثم وثب الأريسيون عليه بعد سنتين ففر منهم، وأعادوا لوقيوس، فأقام بطركا ثلاث سنين، ووثب عليه أعداؤه ففر منهم، فردوا بطرس في العشرين من أمشير، فأقام سنة.

وقدم في أيام واليس ملك الروم أريوس أسقف أنطاكية إلى الإسكندرية بإذن الملك، وأخرج منها جماعة من الروم، وحبس بطرس بطركها، ونصب بدله أريوس السيمساطي. ففر بطرس من الحبس إلى رومية، واستجار ببطركها.

وكان واليس أريوسيا، فسار إلى زيارة كنيسة مار توما بمدينة الرها، ونفى أسقفها وجماعة معه إلى جزيرة رودس، ونفى سائر الأساقفة لمخالفتهم لرأيه ما عدا اثنين، وأقام في بطركية الإسكندرية طيماتاوس، فأقام سبع سنين ومات.

وفي أيامه كان المجمع الثاني من مجامع النصارى بقسطنطينية، في سنة اثنتي عشرة ومائة لدقلطيانوس، فاجتمع مائة وخمسون أسقفاً، وحرموا مقدينون، عدو روح القدس، وكل من قال بقوله، وسبب ذلك أنه قال: إن روح القدس مخلوق، وحرموا معه غير واحد لعقائد شنيعة تظاهروا بها في المسيح.

وزاد الأساقفة فى الأمانة التى رتبها الثلاثمائة وثمانية عشرة . ونؤمن بالروح القدس ، الرب المحيى المنبثق من الأب ـ قلت : تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ وحرموا أن يزاد فيها بعد ذلك شيء ، أو ينقص بها شيء . وكان هذا المجمع بعد مجمع نيقيه بثمان وخمسين سنة .

وفى أيامه بنيت عدة كنائس بالإسكندرية ، واستتيب جماعة كثيرة من مقالة أريوس . وفى أيامه أطلق للأساقفة والرهبان أكل اللحم يوم الفسح ليخالفوا الطائفة المنانية ، فإنهم كانوا يحرمون أكل اللحم مطلقاً ، ورد الملك اغراديانوس كل من نفاه واليس من الأساقفة ، وأمر أن يلزم كل واحد دينه ما خلا المنانية .

ثم أقيم بكرسى الإسكندرية تاوفيلا ، فأقام سبعاً وعشرين سنة ، ومات فى ثامن عشر بابة . وفى أيامه ظهر الفتية أهل الكهف ـ وكان تاوداسيوس إذ ذاك ملكاً على الروم ـ فبنى عليهم كنيسة ، وجعل لهم عيداً فى كل سنة .

واشتد الملك تاوداسيوس على الأريسيين ، وضيق عليهم ، وأمر فأخذت منهم كنائس النصارى بعدما حكموها نحو أربعين سنة ، وأسقط من جيشه من كان أريوسيا ، وطرد من كان فى ديوانه وخدمه منهم ، وقتل من الحنفاء كثيراً ، وهدم بيوت الأصنام بكل موضع ، وفى أيامه بنيت كنيسة مريم بالقدس .

وفى أيام الملك أرغاديوس بنى دير القصر ـ المعروف الآن بدير البغل ـ فى جبل المقطم شرقى طرا خارج مدينة فسطاط مصر .

ثم أقيم فى بطركية الإسكندرية كرلص ، فأقام اثنتين وثلاثين سنة ، ومات فى ثالث أبيب . وهو أول من أقام القومة فى كنائس الإسكندرية وأرض مصر .

وفى أيامه كان المجمع الثالث من مجامع النصارى ، بسبب نسطورس بطرك قسطنطين ، فإنه منع أن تكون مريم أم عيسى ، وقال : إنما ولدت مريم إنساناً اتحد بمشيئة الإلة (يعنى عيسى) فصار الاتحاد بالمشيئة خاصة لا بالذات ، وإن إطلاق الإلة على عيسى ليس هو بالحقيقة . بل بالموهبة والكرامة .

وقال : إن المسيح حل فيه الابن الأزلى ، وإنى أعبده لأن الإله حل فيه ، وإنه جوهران

وأقنومان ومشيئة واحدة. وقال فى خطبته يوم الميلاد: أن مريم ولدت إنساناً، وأنا لا أعتقد فى ابن شهرين وثلاثة الإلهية، ولا أسجد له سجودى للآله.

وكان هذا هو اعتقاد تادروس وديوادارس الأسقفين، وكان من قولهما: أن المولود من مريم هو المسيح، والمولود من الأب هو الأبن الأزلى، وأنه حل فى المسيح. فسمى ابن الله بالموهبة والكرامة، وإن الاتحاد بالمشيئة والإرادة، وأثبتوا لله ـ تعالى عن قولهم ـ ولدين: أحدهما بالجوهر، والآخر بالنعمة.

فلما بلغ كرلص بطرك الإسكندرية مقالة نسطورس، كتب إليه يرجعه عنها، فلم يرجع. فكتب إلى إكليمس بطرك رومية، وإلى يوحنا بطرك أنطاكية، وإلى يوناليوس أسقف القدس، يعرفهم بذلك. فكتبوا بأجمعهم إلى نسطورس ليرجع عن مقالته، فلم يرجع.

فتواعد البطاركة على الاجتماع بمدينة أفسس. فاجتمع بها مائتا أسقف، ولم يحضر يوحنا بطرك أنطاكية، وأمتنع نسطورس من المجئ إليهم بعدما كرروا الإرسال فى طلبه غير مرة، فنظروا فى مقالته، وحرموه ونفوه. فحضر بعد ذلك يوحنا، فعز عليه فصل الأمر قبل قدومه، وانتصر لنسطورس، وقال: قد حرموه بغير حق.

وتفرقوا من أفسس على شر، ثم اصطلحوا، وكتب المشرقيون صحيفة بأمانتهم وبحرمان نسطورس، وبعثوا بها إلى كرلص. فقبلها، وكتب إليهم بأن أمانته على ما كتبوا. فكان بين المجمع الثانى وبين هذا المجمع خمسون ـ وقيل خمس وخمسون سنة.

وأما نسطورس فإنه نفس إلى صعيد مصر، فنزل مدينة أخميم، وأقام بها سبع سنين، ومات فدفن بها. وظهرت مقالته، فقبلها برصوما أسقف نصيبين، ودان بها نصارى أرض فارس والعراق والموصل والجزيرة إلى الفرات، وعرفوا إلى اليوم بالنسطورية.

ثم قدم تاوداسيوس ملك الروم، فى الثانية من ملكه، ديسفورس بطركا بالإسكندرية، فظهر فى أيامه مذهب أوطاخى، أحد القنوميين بالقسطنطينية، وزعم أن جسد المسيح لطيف غير مساو لأجسادنا، وأن الابن لم يأخذ من مريم شيئاً. فاجتمع عليه مائة وثلاثين أسقفاً، وحرموه

واجتمع بالإسكندرية كثير من اليهود فى يوم الفسح، وصلبوا صنماً على مثال المسيح وعبثوا به، فثار بينهم وبين النصارى شر قتل فيه بين الفريقين خلق كثير، فبعث إليهم ملك الروم جيشاً قتل أكثر يهود الإسكندرية.

وكان المجمع الرابع من مجامع النصارى بمدينة خلقدونية. وسببه أن ديسقورس بطرك الإسكندرية، قال: أن المسيح جوهر من جوهرين، وقنوم من قنومين، وطبيعة من طبيعتين، ومشيئة إلى مشيئتين. وكان رأى مرقيانوس ملك الروم أنه جسد، وأهل مملكته أنه جوهران وطبيعتان ومشيئتان وقنوم واحد. فلما رأى الأساقفة أن هذا رأى الملك خافوه، فوافقوه على رأيه، ما خلا ديسقورس وستة أساقفة، فإنهم لم يوافقوا الملك، وكتب من عداهم من الأساقفة خطوطهم بما اتفقوا عليه.

فبعث ديسقورس يطلب منهم الكتاب ليكتب فيه. فلما وصل إليه كتابهم، كتب فيه أمانته هو، وحرمهم وكل من يخرج عنها. فغضب الملك مرقيانوس، وهم بقتله، فأشير عليه بإحضاره ومناظرته، فأمر به فحضر، وحضر ستمائة وأربعة وثلاثون أسقفا. فأشار الأساقفة والبطاركة على ديسقورس بموافقة رأى الملك، واستمراره على رياسته.

فدعا للملك وقال لهم: الملك لايلزمه البحث فى هذه الأمور الدقيقة، بل ينبغى له أن يشتغل بأمور مملكته وتدبيرها، ويدع الكهنة يبحثون عن الأمانة المستقيمة فإنهم يعرفون الكتب، ولا يكون له هوى مع أحد ويتبع الحق.

فقال لبخارية زوجة الملك مرقيانوس، وكانت جالسة بازائه: يا ديسقورس قد كان فى زمان أمى إنسان قوى الرأس مثلك، وحرموه ونفوه عن كرسيه، تعنى يوحنا فم الذهب بطرك قسطنطينية.

فقال لها: قد علمت ما جرى لأمك، وكيف ابتليت بالمرض الذى تعرفيه، إلى أن مضت إلى جسد يوحنا فم الذهب، واستغفرت فعوفيت.

فحنقت من قوله، ولكمته، فانقلع له ضرسان، وتناولته أيدى الرجال، فتنفوا أكثر لحيته، وأمر الملك بحرمانه ونفيه عن كرسيه. فاجتمعوا عليه وحرموه ونفوه، وأقيم عوضه برطاوس.

ومن هذا المجمع افترق النصارى، وصاروا ملكية على مذهب مرقيانوس الملك، ويعقوبية على رأى ديسقورس، وذلك فى سنة ثلاث وتسعين ومائة لدقلطيانوس، وكتب مرقيانوس إلى جميع مملكته أن كل من لا يقول بقوله يقتل. فكان بين المجمع الثالث وبين هذا المجمع إحدى وعشرون سنة.

وأما ديسقورس فإنه أخذ ضرسيه وشعر لحيته، وأرسلها إلى الإسكندرية، وقال: هذه ثمرة تعبى على الأمانة. فتبعه أهل إسكندرية ومصر، وتوجه فى نفيه فعبر على القدس وفلسطين، وعرفهم مقالته، فتبعوه وقالوا بقوله، وقدم عدة أساقفه يعقوبيه، ومات وهو منفى فى رابع توت، فكانت مدة بطركيته أربع عشرة سنة. وبقى كرسى المملكة بغير بطرك مدة مملكة مرقيانوس، وقيل بل قدم برطاوس.

وقد اختلف فى تسمية اليعقوبية بهذا: فقيل إن ديسقورس كان يسمى قبل بطركيته يعقوب، وإنه كان يكتب وهو منفى إلى أصحابه بأن يثبتوا على أمانه المسكين المنفى يعقوب.

وقيل بل كان له تلميذ اسمه يعقوب. وكان يرسله وهو منفى إلى أصحابه، فنسبوا إليه.

وقيل بل كان يعقوب تلميذ ساويرس بطرك أنطاكية، وكان على رأى ديسقورس، فكان ساويرس يبعث يعقوب إلى النصارى، ويثبتهم على أمانة ديسقورس، فنسبوا إليه.

وقيل بل كان يعقوب كثير العبادة والزهد، يلبس خرق البراذع، فسمى يعقوب البراذعى من أجل ذلك، وأنه كان يطوف البلاد، ويرد الناس إلى مقالة ديسقورس، فنسب من اتبع رأيه إليه، وسموا يعقوبية، ويقال ليعقوب أيضاً يعقوب السروجى.

وفى أيام مرقيانوس كان سمعان الحبيس، صاحب العمود، وهو أول راهب سكن صومعة، وكان مقامة بمغارة فى جبل أنطاكية.

ولما مات مرقيانوس، وثب أهل الإسكندرية على برطاوس البطرك، وقتلوه فى الكنيسة، وحملوا جسده إلى الملعب الذى بناه بطليموس، وأحرقوه بالنار من أجل أنه ملكى الاعتقاد، فكانت مدة بطركيته ست سنين.

وأقاموا عوضه طيماتاوس - وكان يعقوبياً - فأقام ثلاث سنين، وقدم قائد من قسطنطينية فنفاه، وأقام عوضه ساويرس - وكان ملكياً - فأقام اثنتين وعشرين سنة، ومات في سابع مسرى.

فلما ملك زنبون بن لاون الروم، أكرم اليعقوبية، وأعزهم لأنه كان يعقوبياً، وكان يحمل إلى دير يوقنا كل سنة ما يحتاج إليه من القمح والزيت. وهرب ساويرس من كرسي الإسكندرية إلى وادي هبيب، ورجع طيماتاوس من نفيه، فأقام بطركا سنتين ومات. فأقيم بعده بطرس، فأقام ثمان سنين وسبعة أشهر وستة أيام، ومات في رابع هتور.

فأقيم بعده أثناسيوس، فأقام سبع سنين، ومات في العشرين من توت، وفي أيامه احترق الملعب الذي بناه بطليموس. وأقيم يوحنا في بطركيه الإسكندرية - وكان يعقوبياً - فأقام تسع سنين، ومات في رابع بشنس، فخلا الكرسي بعده سنة. ثم أقيم يوحنا الحبيس، فأقام إحدى وعشرين سنة، ومات في سابع عشري بشنس. فأقيم بعده ديسقورس الجديد، فأقام سنتين وخمسة أشهر، ومات في سابع عشر بابه.

وكتب إيليا بطرك القدس، إلى نسطاس ملك الروم، بأن يرجع عن مقالة اليعقوبية إلى مقالة الملكية، وبعث إليه جماعة من الرهبان بهدية سنية. فقبل هديته، وأجاز الرهبان بجوائز جليلة، وجهز له مالاً جزيلاً لعمارة الكنائس والديارات والصدقات.

فتوجه ساويرس إلى نسطاس، وعرفه أن الحق هو اعتقاد اليعقوبية، فأمر أن يكتب إلى جميع مملكته بقبول قول ديسقورس، وترك المجمع الخلقدوني. فبعث إليه بطرك أنطاكية بأن هذا الذي فعلته غير واجب، وأن المجمع الخلقدوني هو الحق. فغضب الملك ونفاه، وأقام بدله.

فأمر إيليا، بطرك القدس، بجمع الرهبان ورؤساء الديارات. فاجتمع له منهم عشرة آلاف نفس، وحرموا نسطاس الملك ومن يقول بقوله. فأمر نسطاس بنفي إيليا إلى مدينة أيلة، فاجتمع بطاركة الملكية وأساقفتهم وحرموا الملك نسطاس ومن يقول بقوله.

وفي أيام نسطايوس الملك، ألزم الحنفاء أهل حران - وهم الصابئة - بالتنصر. فتنصر كثير منهم، وقتل أكثرهم على امتناعهم من دين النصرانية، ورد جميع من نفاه نسطاس من

الملكية ، فإنه كان ملكياً . وأقيم طيماتاوس فى بطركية الإسكندرية - وكان يعقوبياً - فأقام ثلاث سنين ونفى .

وأقيم بدله أبوليناريوس ، وكان ملكياً ، فجد فى رجوع النصارى بأجمعهم إلى رأى الملكية ، وبذل جهده فى ذلك ، وألزم نصارى مصر بقبول الأمانة المحدثة ، فوافقوه ووافقه رهبان ديارات بومقار بوادى هبيب .

هذا ويعقوب البراذعى يدور فى كل موضع ، ويثبت أصحابه على الأمانة التى زعم أنها مستقيمة . وأمر الملك جميع الأساقفة بعمل الميلاد فى خامس عشرى كانون الأول ، وبعمل الغطاس لست تخلو من كانون الثانى ، وكان كثير منهم يعمل الميلاد والغطاس فى يوم واحد ، وهو سادس كانون الثانى ، وعلى هذا الرأى الأرمن إلى يومنا هذا .

وفى هذه الأيام ظهر يوحنا النحوى بالإسكندرية ، وزعم أن الأب والأبن وروح القدس ثلاثة آلهة ، وثلاث طبائع وجوهر واحد . وظهر يوليان ، وزعم أن جسد المسيح نزل من السماء ، وأنه لطيف روحانى لايقبل الآلام إلا عند مقارفة الخطيئة ، والمسيح لم يقارف خطيئة ، فلذلك لم يصلب حقيقة ولم يتألم ولم يمت ، وإنما ذلك كله خيال .

فأمر الملك البطرك طيماوتاوس أن يرجع إلى مذهب الملكية فلم يفعل ، فأمر بقتله ، ثم شفع فيه ، ونفى . وأقيم بدله بولص - وكان ملكياً - فأقام سنتين ، فلم يرضه اليعاقبه ، وقيل إنهم قتلوه ، وصيروا عوضه بطركا ديلوس - وكان ملكياً - فأقام خمس سنين فى شدة من التعب ، وأرادوا قتله ، فهرب وأقام فى هربه خمس سنين ومات .

فبلغ ملك الروم بوسطيانوس أن اليعقوبية قد غلبوا على الإسكندرية ومصر ، وأنهم لايقبلون بطاركته . فبعث أثوليناريوس أحد قواده ، وضم إليه عسكراً كبيراً ، إلى الإسكندرية . فلما قدمها ، ودخل الكنيسة نزع عنه ثياب الجند ، ولبس ثياب البطاركة وقدس . فهم ذلك الجمع برجمة ، فانصرف وجمع عسكره ، وأظهر أنه قد أتاه كتاب الملك ليقرأه على الناس ، وضرب الجرس فى الإسكندرية يوم الأحد .

فاجتمع الناس إلى الكنيسة حتى لم يبق أحد ، فطلع المنبر وقال : يا أهل الإسكندرية إن تركتم مقالة اليعقوبية ، وإلا أخاف أن يرسل الملك فيقتلكم ، ويستبيح أموالكم وحريمكم .

فهموا برجمه، فأشار إلى الجند، فوضعوا السيف فيهم، فقتل من الناس ما لا يحصى عدده حتى خاض الجند فى الدماء، وقيل أن الذى قتل يومئذ مائتا ألف إنسان وفر منهم خلق إلى الديارات بوادى هبيب، وأخذ الملكية كنائس اليعاقبة. ومن يومئذ صار كرسى اليعقوبية فى دير بومقار بوادى هبيب.

وفى أيامه ثارت السامرة على أرض فلسطين، وهدموا كنائس النصارى، وأحرقوا ما فيها، وقتلوا جماعة من النصارى. فبعث الملك جيشاً قتلوا من السامرة خلقاً كثيراً، ووضع من خراج فلسطين جملة، وجدد بناء الكنائس، وأنشأ مارستان ببيت المقدس للمرضى، ووسع فى بناء كنيسة بيت لحم، وبنى ديرا بطور سيناء، وعمل عليه حصناً حوله عدة قلالى، ورتب فيها حرساً لحفظ الرهبان.

وفى أيامه كان المجمع الخامس من مجامع النصارى. وسببه أن أريحانس، أسقف مدينة منبج، قال بتناسخ الأرواح، وقال كل من أسقف أنقره وأسقف المصيصة وأسقف الرها: أن جسد المسيح خيال لا حقيقى. فحملوا إلى القسطنطينية، وجمع بينهم وبين بطركها أوطس، وناظرهم وأوقع عليهم الحرمان.

فأمر الملك أن يجمع لهم مجمع، وأمر بإحضار البطاركة والأساقفة، فاجتمع مائة وأربعون أسقفاً، وحرموا هؤلاء الأساقفة ومن يقول بقولهم. فكان بين المجمع الرابع الخلقدونى وبين هذا المجمع مائة وثلاث وستون سنة.

ولما مات القائد الذى عمل بطرك الإسكندرية، بعد سبع عشرة سنة، أقيم بعده يوحنا ـ وكان منانياً ـ فأقام ثلاث سنين ومات.

وقدم اليعاقبة بطركا اسمه تاوداسيوس، أقام مدة اثنتين وثلاثين سنة، وقدم الملكية بطركا اسمه داقيوس. فكتب الملك إلى متولى الإسكندرية أن يعرض على بطرك اليعاقبة أمانة المجمع الخلقدونى، فإن فلم يقبلها أخرجه، فعرض عليه ذلك فلم يقبله، فأخرجه وأقام بعده بولص التنيسى، فلم يقبله أهل الإسكندرية ومات، فغلقت كنائس القبط اليعاقبة، وأصابهم من الملكية شدائد كثيرة، واستجد اليعاقبة بالإسكندرية كنيستين فى سنة ثمان وأربعين ومائتين لدقلطيانوس.

ومات تاوداسيوس ثامن عشرى بؤونه بعد اثنتين وثلاثين سنة من بطركيته، منها مدة أربع سنين مدة نفيه فى صعيد مصر، وأقيم بعده بطرس - وكان يعقوبياً - فى خفية بدير الزجاج بالإسكندرية، ومات فى خامس عشرى بؤونه . . . . من اليعاقبة سنة واحدة.

وفى سنة إحدى وثمانين وثمانمائة، أقيم داميانو بطركا بالإسكندرية - وكان يعقوبياً - فأقام ستا وثلاثين سنة، ومات فى ثامن عشرى بؤونة. وفى أيامه خربت الديارات، وأقام الملكية لهم بالإسكندرية بطركا منافنيا اسمه أتناس، فأقام خمس سنين ومات. فأقيم بعده يوحنا - وكان منانياً - ولقب بالقائم بالحق، فأقام خمسة أشهر ومات. فأقيم بعده يوحنا القائم بالأمر - وكان ملكياً - فأقام إحدى عشرة سنة، ومات.

وفى أيام الملك طيباريوس ملك الروم، بنى النصارى بالمدائن - مدائن كسرى - هيكلا وبنوا أيضاً بمدينة واسط هيكلاً آخر.

وفى أيام الملك موريق قيصر، زعم راهب اسمه مارون أن المسيح، عليه السلام، طبيعتان ومشيئة واحدة وأقنوم واحد. فتبعه على رأيه أهل حماه وقنسرين والعواصم وجماعة من الروم، ودانوا بقوله، فعرفوا بين النصارى بالمارونية، فلما مات مارون، بنوا على اسمه دير مارون بحماة.

وفى أيام فوقا ملك الروم، بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر، فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام، وقتلوا النصارى بأجمعهم، وأتوا إلى مصر فى طلبهم، فقتلوا منهم أمة كبيرة، وسبوا منهم سبيا لايدخل تحت حصر.

وساعدهم اليهود فى محاربة النصارى وتخريب كنائسهم، وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل وقرية الناصرة ومدينة صور وبلاد المقدس، فنالوا من النصارى كل منال، وأعظموا النكاية فيهم، وخربوا لهم كنيستين بالقدس، وحرقوا أماكنهم، وأخذوا قطعة من عود الصليب، وأسروا بطرك القدس وكثيراً من أصحابه. ثم مضى كسرى بنفسه من العراق لغزو قسطنطينية، تخت ملك الروم، فحاصرها أربع عشرة سنة.

وفى أيام فوقا أقيم يوحنا الرحوم، بطرك الإسكندر، على الملكية. فدبر أرض مصر كلها عشر سنين، ومات بقبرس وهو فار من الفرس. فخلا كرسى اسكندرية من البطركية سبع سنين، لخلو أرض مصر والشام من الروم، واختفى من بقى بها من النصارى خوفاً من الفرس.

وقدم اليعاقبة نسطاسيوس بطركاً، فأقام ثنتى عشرة سنة، ومات فى ثانى عشرى كيهك سنة ثلاثين وثلاثمائة لدقلطيانوس، فاسترد ما كانت الملكية قد استولت عليه من كنائس اليعاقبة، ورم ما شعثه الفرس منها. وكانت إقامته بمدينة الإسكندرية، فأرسل إليه أنباسيوس بطرك أنطاكية هدية صحبة عدة كثيرة من الأساقفة، ثم قدم عليه زائراً، فتلقاه وسر بقدومه، وصارت أرض مصر فى أيامه جميعها يعاقبه لخلوها من الروم.

فثارت اليهود فى أثناء ذلك بمدينة صور، وراسلوا بقيتهم فى بلاهم، وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم. فكانت بينهم حرب اجتمع فيها من اليهود نحو عشرين ألفاً، وهدموا كنائس النصارى خارج صور فقوى النصارى عليهم وكاثروهم، فانهزم اليهود هزيمة قبيحة، وقتل منهم خلق كثير.

وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية، وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنهم، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر، ويجدد ما خربه الفرس منها. فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها، وقدموا له الهدايا الجليلة، وطلبوا منه أن يؤمنهم، ويحلف لهم على ذلك، فأمنهم وحلف لهم.

ثم دخل القدس - وقد تلقاه النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة - فوجد المدينة وكنائسها وقمامتها خرابا، فساءه ذلك وتوجع له. وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس، وإيقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس، وإنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس، وقاموا قياماً كبيراً فى قتلهم عن آخرهم، وحثوا هرقل على الوقيعة بهم، وحسنوا له ذلك.

فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه، فأفتاه رهبانهم وبطاركتهم وقسيسوهم بأنه لاحرج عليه في قتلهم، فإنه عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه: بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة فى كل سنة عنه على ممر الزمان والدهور.

فمال إلى قولهم، وأوقع باليهو وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها، حتى لم يبق فى ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من فر واحتفى. فكتب البطارقة والأساقفة إلى جميع البلاد بالزام النصارى بصوم أسبوع فى السنة، فالتزموا صومه إلى اليوم، وعرفت عندهم بجمعة هرقل، وتقدم هرقل بعمارة الكنائس والديارات، وأنفق فيها مالاً كبيراً.

وفي أيامه أقيم أدراسلون، بطرك اليعاقبة بالإسكندرية، فأقام ست سنين، ومات فى ثامن طوبة، فخربت الديارات فى مدة بطركيته. وأقيم بعده على اليعاقبه بنيامين، فعمر الدير الذى يقال له دير أبو بشاى ودير سيدة أبو بشاى، وهما فى وادى هبيب، فأقام تسعا وثلاثين سنة، ملك الفرس منها مصر عشر سنين.

ثم قدم هرقل فقتل الفرس بمصر، وأقام فيرش بطرك الإسكندرية ـ وكان منانيا ـ وطلب بنيامين ليقتله فلم يقدر عليه لفراره منه. وكان هرقل مارونيا، فظفر بمينا أخى بنيامين، فأحرقه بالنار عدواة لليعاقبة، وعاد إلى القسطنطينية. فأظهر الله دين الإسلام فى أيامه، وخرج ملك مصر والشام من يد النصارى، وصار النصارى ذمة للمسلمين.

فكانت مدة النصارى منذ رفع المسيح إلى أن فتحت مصر، وصار النصارى من القبط ذمة للمسلمين. . . . . منها مدة كونهم تحت أيدى الروم يقتلونهم أبرح قتل بالصلب والتحريق بالنار والرجم بالحجارة وتقطيع الأعضاء، ومنها مدة استيلائهم بتنصر الملوك.

ذكر دخول النصارى من قبط مصر فى طاعة المسلمين وأدائهم الجزية واتخاذهم ذمة لهم وما كان فى ذلك من الحوادث والأنباء

أعلم أن أرض مصر، لما دخلها المسلمون، كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى. وهم على قسمين متباينين فى أجناسهم وعقائدهم: أحدهما أهل الدولة، وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم، ورأيهم وديانتهم بأجمعهم ديانة الملكية، وكانت عدتهم تزيد على ثلاثمائة ألف رومى.

والقسم الآخر عامة أهل مصر - ويقال لهم القبط - وألسانهم مختلطة، لايكاد يتميز منهم القبطى من الحبشى من النوبى من الإسرائيلى الأصل من غيره وكلهم يعاقبه: فمنهم كتاب المملكة، ومنهم التجار والباعة، ومنهم الأساقفة القسوس ونحوهم، ومنهم أهل الفلاحة والزرع، ومنهم أهل الخدمة والمهنة. وبينهم وبين الملكية أهل الدولة من العداوة ما يمنع مناكحتهم، ويوجب قتل بعضهم بعضاً، ويبلغ عددهم عشرات آلاف كثيرة جداً، فإنهم فى الحقيقة أهل أرض مصر أعلاها وأسفلها.

فلما قدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين معه إلى مصر، قاتلهم الروم حماية لملكهم ودفعا لهم عن بلادهم. فقاتلهم المسلمون، وغلبوهم على الحصن كما تقدم ذكره. فطلب القبط من عمرو المصالحة على الجزية، فصالحهم عليها، وأقرهم على ما بأيديهم من الأراضى وغيرها، وصاروا معه عوناً للمسلمين على الروم حتى هزمهم الله تعالى، وأخرجهم من أرض مصر.

وكتب عمرو لبنيامين بطرك اليعاقبة أمانا، فى سنة عشرين من الهجرة، فسره ذلك وقدم على عمرو، وجلس على كرسى بطركيته بعدما غاب عنه ثلاث عشرة سنة. منها فى ملك فارس لمصر عشر سنين، وباقيها بعد قدوم هرقل إلى مصر. فغلبت اليعاقبة على كنائس مصر وديارتها كلها، وانفردوا بها دون الملكية.

ويذكر علماء الأخبار من النصارى: أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، لما فتح مدينة القدس، كتب للنصارى أماناً على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم،

وجميع كنائسهم لاتهدم ولاتسكن ، وأنه جلس فى وسط صحن كنيسة القمامة ، فلما حان وقت الصلاة خرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التى على بابها بمفرده ، ثم جلس وقال للبطرك : لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى ، وقالوا : ههنا صلى عمر .

وكتب كتاباً يتضمن أنه لا يصلى أحد من المسلمين على الدرجة إلا واحد واحد ، ولا يجتمع المسلمون بها للصلاة فيها ، ولا يؤذنون عليها ، وأنه أشار عليه البطرك باتخاذ موضع الصخرة مسجداً ـ وكان فوقها تراب كثير ـ فتناول عمر رضى الله عنه من التراب فى ثوبه ، فبادر المسلمون لرفعه حتى لم يبق منه شئ ، وعمر المسجد الأقصى أمام الصخرة . فلما كانت أيام عبدالملك بن مروان ، أدخل الصخرة فى حرم الأقصى ، وذلك سنة خمس وستين من الهجرة .

ثم إن عمر رضى الله عنه أتى بيت لحم ، وصلى فى كنيسته عند الخشبة التى ولد فيها المسيح ، وكتب سجلاً بأيدى النصارى : ألا يصلى فى هذا الموضع أحد من المسلمين إلا رجل بعد رجل ، ولا يجتمعوا فيه للصلاة ، ولا يؤذنوا عليه .

ولما مات البطرك بنيامين فى سنة تسع وثلاثين من الهجرة بالإسكندرية ، فى إمارة عمرو الثانية ، قدم اليعاقبة بعده أغانو ، فأقام سبع عشرة سنة ، ومات سنة ست وخمسين . وهو الذى بنى كنيسه مرقص بالإسكندرية ، فلم تزل إلى أن هدمت فى سلطنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب .

وكان فى أيامه الغلاء مدة ثلاث سنين ، وكان يهتم بالضعفاء .

فأقيم بعده إيساك ـ وكان يعقوبياً ـ فأقام سنتين وأحد عشر شهراً ومات . فقدم اليعاقبه بعده سيمون السريانى ، فأقام سبع سنين ونصفا ومات . وفى أيامه قدم رسول أهل الهند فى طلب أسقف يقيمه لهم ، فامتنع من ذلك حتى يأذن له السلطان ، وأقام غيره ، وخلا بعد موته كرسى الإسكندرية ثلاث سنين بغير بطرك .

ثم قدم اليعاقبة فى سنة إحدى وثمانين الأسكندروس ، فأقام أربعاً وعشرين سنة ونصفاً ـ وقيل خمساً وعشرين سنة ـ ومات سنة ست ومائة . ومرت به شدائد صودر فيها مرتين ، أخذ منه فيهما ستة آلاف دينار . وفى أيامه أمَّر عبدالعزيز بن مروان ، فأمر بإحصاء الرهبان فأحصوا ، وأخذت منهم الجزية عن كل راهب دينار . وهى أول جزية أخذت من الرهبان .

ولما ولى مصر عبدالله بن عبدالملك بن مروان، اشتد على النصارى، وأقتدى به قرة بن شريك أيضاً فى ولايته على مصر، وأنزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها. وكان عبدالله بن الحبحاب، متولى الخراج، قد زاد على القبط قيراطاً فى كل دينار. فانتقض عليه عامة الحوف الشرقى من القبط، فحاربهم المسلمون، وقتلوا منهم عدة وافرة فى سنة سبع ومائة.

واشتد أيضاً أسامة بن زيد التنوخى متولى الخراج على النصارى، وأوقع بهم، وأخذ أموالهم، ووسم أيدى الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب واسم ديره وتاريخه. فكل من وجده بغير وسم قطع يده، وكتب إلى الأعمال بأن من وجد من النصارى، وليس معه منشور، أن يؤخذ منه عشرة دنانير.

ثم كبس الديارات، وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم، فضرب أعناق بعضهم، وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضر، ب ثم هدمت الكنائس، وكسرت الأصنام بأجمعها ـ وكانت كثيرة ـ فى سنة أربع ومائة، والخليفة يومئذ يزيد بن عبدالملك.

فلما قام هشام بن عبدالملك فى الخلافة، كتب إلى مصر بأن يجرى النصارى على عوايدهم وما بأيديهم من العهد. فقدم حنظلة بن صفوان أميراً على مصر فى ولايته الثانية، فتشدد على النصارى، وزاد فى الخراج، وأحصى الناس والبهائم، وجعل على كل نصرانى وسماً صورة أسد، وتتبعهم فمن وجده بغير وسم قطع يده.

ثم أقام اليعاقبة بعد موت الأسكندروس بطركا اسمه قسيما، فأقام خمسة عشر شهراً ومات فقدموا بعده تدارس فى سنة تسع ومائة، ومات بعد إحدى عشرة سنة، وفى أيامه أحدثت كنيسة يوقنا بخط الحمراء، ظاهر مدينة مصر، فى سنة سبع عشرة ومائة، فقام جماعة من المسلمين على الوليد بن رفاعة أمير مصر بسببها.

وفى سنة عشرين ومائة، قدم اليعاقبة ميخائيل بطركا، فأقام ثلاثاً وعشرين سنة ومات. وفى أيامة انتقض القبط بالصعيد، وحاربوا العمال فى سنة إحدى وعشرين، فحوربوا، وقتل كثير منهم. ثم خرج بحنس بسمنود وحارب، وقتل فى الحرب، وقتل معه قبط كثير فى سنة اثنتين وثلاثين ومات. ثم خالفت القبط برشيد، فبعث إليهم مروان بن محمد، لما قدم مصر، وهزمهم.

وقبض عبدالملك بن موسى بن نصير أمير مصر على البطرك ميخائيل، فاعتقله وألزمه

بمال، فسار بأساقفه فى أعمال مصر يسأل أهلها، فوجدهم فى شدائد، فعاد إلى الفسطاط ودفع إلى عبدالملك ما حصل له، فأفرج عنه. فنزل به بلاء كبير من مروان، وبطش به وبالنصارى، وأحرق مصر وغلاتها.

وأسر عدة من النساء المترهبات ببعض الديارات، وراود واحدة منهم عن نفسها، فاحتالت عليه، ودفعته عنها بأن رغبته فى دهن معها إذا أدّهن به الإنسان لايعمل فيه السلاح، وأوثقته بأن مكنته من التجربة فى نفسها، فتمت حيلتها عليه، أخرجت زيتا أدهنت به، ثم مدت عنقها، فضربها بسيفه أطار رأسها. فعلم أنها اختارات الموت على الزنا.

وما زال البطرك والنصارى فى الحديد مع مروان، إلى أن قتل ببوصير، فأفرج عنهم.

وأما الملكية فإن ملك الروم لاون، أقام قسيما بطرك الملكية بالإسكندرية فى سنة سبع ومائة، فمضى ومعه هدية إلى هشام بن عبدالملك فكتب له برد كنائس الملكية إليهم، فأخذ من اليعاقبة كنيسة البشارة.

وكان الملكية أقاموا سبعاً وسبعين سنة بغير بطرك فى مصر، من عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى خلافة هشام بن عبدالملك، فغلب اليعاقبة فى هذه المدة على جميع كنائس مصر، وأقاموا بها منهم أساقفة. وبعث إليهم أهل بلاد النوبة فى طلب اساقفه، فبعثوا إليهم من أساقفة اليعاقبة، فصارت النوبة من ذلك العهد يعاقبه.

ثم لما مات ميخائيل، قدم اليعاقبة فى سنة ست وأربعين ومائة أنبا مسنا، فأقام سبع سنين ومات. وفى أيامه خرج القبط بناحية سخا، وأخرجوا العمال فى سنة خمسين ومائة، وصاروا فى جمع. فبعث إليهم يزيد ابن حاتم بن قبيصة أمير مصر عسكرا، فأتاهم القبط ليلاً، وقتلوا عدة من المسلمين، وهزموا باقيهم.

فاشتد البلاء على النصارى، واحتاجوا إلى أكل الجيف، وهدمت الكنائس المحدثة بمصر، فهدمت كنيسة مريم المجاورة لأبى شنودة بمصر، وهدمت كنائس محارس قسطنطين. فبذل النصارى لسليمان بن على أمير مصر فى تركها خمسين ألف دينار. فأبى.

فلما ولى بعده موسى بن عسى، أذن لهم فى بنائها، فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعه قاضى مصر، واحتجا بأن بناءها من عمارة البلاد، وبأن الكنائس التى بمصر لم تبن إلا فى الإسلام فى زمن الصحابة والتابعين.

فلمـا مـات أنبا مســنا ، قدم اليعاقبة بعده يوحنا ، فأقام ثلاثاً وعشرين سنة ومات . وفى أيامـة خرج القبط بتلهيت سنة ست وخمسين ، فبعث إليهم موسى بن على أمير مصر ، وهزمهم .

وقدم بعده اليعاقبة مرقص الجديد ، فأقام عشرين سنة وسبعين يوماً ومات . وفى أيامه كانت الفتنة بين الأمين والمأمون فانتهت النصارى بالإسكندرية ، وأحرقت لهم مواضع عديدة ، وأحرقت ديارات وادى هبيب ونهبت ، فلم يبق بها من رهبانها إلا نفر قليل .

وفى أيامه مضى بطرك الملكية إلى بغداد ، وعالج بعض حظايا أهل الخليفة ، فإنه كان حاذقاً بالطب ، فلما عوفيت كتب له برد كنائس الملكية التى تغلب عليها اليعاقبة بمصر ، فاستردها منهم ، وأقام فى بطركية الملكية أربعين سنة ومات .

ثم قدم اليعاقبة بعد مرقص يعقوب ، فى سنة إحدى عشرة ومائتين ، فأقام عشرة سنين وثمانية أشهر ومات . وفى أيامه عمرت الديارات ، وعاد الرهبان إليها ، وعمرت كنيسة بالقدس لمن يرد من نصارى مصر ، وقدم عليه ديونوسيس بطرك أنطاكية ، فأكرمه حتى عاد إلى كرسيه .

وفى أيامه انتقص القبط فى سنة ست عشرة ومائتين . فأوقع بهم الأفشين حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين عبدالله المأمون ، فحكم فيهم بقتل الرجال ، وبيع النساء والذرية ، فبيعوا وسبى أكثرهم .

ومن حينئذ ذلت القبط فى جميع أرض مصر ، ولم يقدر أحد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان ، وغلبهم المسلمون على عامة القرى فرجعوا من المحاربة إلى المكايدة ، واستعمال المكر والحيلة ومكايدة المسلمين ، وعملوا كتاب الخراج فكانت لهم وللمسلمين أخبار كثيرة يأتى ذكرها أن شاء الله تعالى .

ثم قدم اليعاقبة سيماون بطركا فى سنة اثنتين وعشرين ومائتين ، فأقام سنة ومات ـ وقيل بل أقام سبعة أشهر وستة عشر يوماً ـ فخلا كرسى البطاركة بعده سنة وسبعة وعشرين يوماً .

وقدم البعافيه يوساب فى دير بومقار بوادى هبيب ، فى سنة سبع وعشرين ومائتين ، فأقام ثمانى عشرة سنة ومات . وفى أيامه قدم مصر يعقوب مطران الحبشة ، وقد نفته زوجة ملكهم وأقامت عوضه أسقفا ، فبعث ملك الحبشة يطلب إعادته من البطرك ، فبعث به إليه ،

وبعث أيضاً عدة أساقفة إلى أفريقية. وفى أيامه مات بطرك أنطاكية الوارد إلى مصر فى السنة الخامسة عشرة من بطركيته.

وفى أيامه أمر المتوكل على الله، فى سنة خمس وثلاثين ومائتين، أهل الذمة بلبس الطيالسة العسلية وشد الزنانير، وركوب السروج بالركب الخشب، وعمل كرتين فى مؤخر السرج، وعمل رفعتين على لباس رجالهم تخالفان لون الثوب. قدر كل واحدة منها أربع أصابع، ولون كل واحدة منهما غير لون الأخرى، ومن خرج من نسائهم تلبس أزاراً عسلياً، ومنعهم من لباس المناطق، وأمر بهدم بيعهم المحدثة، وبأخذ العشر من منازلهم، وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب.

ونهى أن يستعان بهم فى أعمال السلطان، ولا يعلمهم مسلم، ونهى أن يظهروا فى شعانينهم صليباً، وألا يشعلوا فى الطريق ناراً، وأمر بتسوية قبورهم على الأرض، وكتب بذلك إلى الآفاق، ثم أمر فى سنة تسع وثلاثين أهل الذمة بلبس دراعنين عسليتين على الذراريع والأقبية، وبالإقتصار فى مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين.

فلما مات يوساب، فى سنة اثنتين وأربعين ومائين، خلا الكرسى بعده ثلاثين يوماً. وقدم اليعاقبة قسيسا بدير بحنس، يدعى بميكائيل، فى البطركية. فأقام سنة وخمسة أشهر، ومات فدفن بدير بومقار، وهو أول بطرك دفن فيه، فخلا الكرسى بعده أحداً وثمانين يوماً.

ثم قدم اليعاقبة فى سنة أربع وأربعين ومائتين شماساً بدير بومقار، اسمه قسيما، فأقام فى البطركية سبع سنين وخمسة أشهر ومات. فخلا الكرسى بعده أحداً وخمسين يوماً.

وفى أيامه أمر نوفيل بن ميخائيل، ملك الروم، بمحو الصور من الكنائس، وألا تبقى صورة فى كنيسة. وكان سبب ذلك أنه بلغه عن قيِّم كنيسة أنه عمل فى صورة مريم، عليها السلام، شبه ثدى يخرج منه لبن ينقط فى يوم عيدها. فكشف عن ذلك، فإذا هو مصنوع ليأخذ به القيم المال، فضرب عنقه، وأبطل الصور من الكنائس، فبعث إليه قسيماً، بطرك اليعاقبة، وناظره حتى سمح بإعادة الصور على ما كانت عليه.

ثم قدم اليعاقبة ساتير بطركا، فأقام تسع عشرة سنة ومات.

فأقيم يوسانيوس فى أول خلافه المعتز، فأقام إحدى عشرة سنة ومات، وعمل فى بطركيته مجارى تحت الأرض بالإسكندرية يجرى بها الماء من الخليج إلى البيوت. وفى أيامه قدم أحمد بن طولون مصر أميراً عليها.

ثم قدم اليعاقبة ميخائيل، فأقام خمساً وعشرين سنة، ومات بعدما ألزمه أحمد بن طولون بحمل عشرين ألف دينار، باع فيها رباع الكنائس الموقوفة عليها، وأرض الحبش ظاهر فسطاط مصر، وباع الكنيسة بجوار المعلقة من قصر الشمع لليهود، وقرر الديارية على كل نصرانى قيراطاً فى السنة، فقام بنصف المقرر عليه. وفى أيامه قتل الأمير أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون.

فلما مات شغر كرسى الإسكندرية بعده من البطاركة أربع عشرة سنة. وفى يوم الإثنين ثالث شوال سنة ثلاثمائة أحرقت الكنيسة الكبرى، المعروفة بالقيامة، فى الإسكندرية، وهى التى كانت هياكل زحل، وكانت من بناء كلابطرة.

وفى سنة إحدى وثلاثمائة قدم اليعاقبة غبريال بطركاً، فأقام إحدى عشرة سنة ومات، وأخذت فى أيامه اسباريه على الرجال والنساء. وقدم بعده المعاقبة فى سنة إحدى عشرة وثلاثمائة قسيماً، فأقام ثنتى عشرة سنة ومات.

وفى يوم السبت النصف من شهر رجب سنة ثنتى عشرة وثلاثمائة، أحرق المسلمون كنيسة مريم بدمشق، ونهبوا ما فيها من الآلات والأوانى، وقيمتها كثيرة جداً، ونهبوا ديراً للنساء بجوارها، وشعثوا كنائس النسطورية واليعقوبية.

وفى سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة، قدم الوزير على بن عيسى بن الجراح إلى مصر. فكشف البلد، وألزم الأساقفة والرهبان وضعفاء النصارى بأداء الجزية، فأدوها، ومضى طائفة منهم إلى بغداد، وأستغاثوا بالمقتدر بالله. فكتب إلى مصر بألا يؤخذ من الأساقفة والرهبان والضعفاء جزية، وأن يجروا على العهد الذى بأيديهم.

وفى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، قدم اليعاقبه بطركا اسمه . . . . . . فأقام عشرين سنة ومات. وفى أيامه ثار المسلمون بالقدس سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، وحرقوا كنيسة القيامة ونهبوها، وخربوا منها ما قدروا عليه.

وفى يوم الإثنين آخر شهر رجب سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة مات سعيد بن بطريق، بطرك الأسكندرية على الملكية، بعدما أقام فى البطركية سبع سنين ونصفا، فى شرور متصلة مع طائفته. فبعث الأمير أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد أبا الحسين من قواده فى طائفة من الجند، إلى مدينة تنيس حتى خم على كنائس الملكية، وأحضر آلاتها إلى الفسطاط - وكانت كثيرة جداً - فافتكها الأسقف بخمسة آلاف دينار، باعوا فيها من وقف الكنائس، ثم صالح طائفته، وكان فاضلاً وله تاريخ مفيد.

وثار المسلمون أيضاً بمدينة عسقلان، وهدموا كنيسة مريم الخضراء، ونهبوا ما فيها، وأعانهم اليهود حتى أحرقوها. ففر أسقف عسقلان إلى الرملة، وأقام بها حتى مات.

وقدم اليعاقبة فى سنة خمس وأربعين وثلاثمائة تاوفاتيوس بطركا، فأقام أربع سنين وستة أشهر ومات. فأقيم بعده مينا، فأقام إحدى عشرة سنة ومات. فخلا الكرسى بعده سنة.

ثم قدم اليعاقبة أفراهام بن زرعة فى سنة ست وستين وثلاثمائة، فأقام ثلاث سنين وستة أشهر، ومات مسموماً من بعض كتاب النصارى، وسببه أنه منعه من التسرى.

فخلا الكرسى بعده ستة أشهر. وأقيم فيلاياوس فى سنة تسع وستين، فأقام أربعا وعشرين سنة ومات، وكان مترفاً، وفى أيامه أخذت الملكية كنيسة السيدة - المعروفة بكنيسة البطرك - تسلمها منهم بطرك الملكية أرسانيوس فى أيام العزيز بالله نزار بن المعز.

وفى سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، قدم اليعاقبة زخريس بطركا، فأقام ثمانى وعشرين سنة: منها فى البلايا مع الحاكم بأمر الله أبى على منصور بن العزيز بالله تسع سنين، اعتقله فيها ثلاثة أشهر، وأمر به فألقى للسباع هو وسونه النوبى، فلم تضره فيما زعم النصارى. ولما مات خلا الكرسى بعده أربعة وسبعين يوماً.

وفى بطركيته نزل بالنصارى شدائد لم يعهدوا مثلها، وذلك أن كثيراً منهم كان قد تمكن فى أعمال الدول حتى صاروا كالوزراء، وتعاظموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم، فاشتد بأسهم، وتزايد ضررهم ومكايدتهم للمسلمين.

فأغضب الحاكم بأمر الله ذلك - وكان لايملك نفسه إذا غضب - فقبض على عيسى بن نسطورس المصرانى، وهو إذ ذاك فى رتبه تضاهى الوزراء، وضرب عنقه، ثم قبض على فهد إبراهيم المصرانى، كاتب الأستاذ برجوان، وضرب عنقه.

وتشدد على النصارى، وألزمهم بلبس ثياب الغيار، وشد الزنار فى أوساطهم، ومنعهم من عمل الشعانين وعيد الصليب، والتظاهر بما كانت عادتهم فعله فى أعيادهم من الاجتماع واللهو، وقبض على جميع ما هو محبس على الكنائس والديارات، وأدخله فى الديوان، وكتب إلى أعماله كلها بذلك، وأحرق عدة صلبان كثيرة، ومنع النصارى من شراء العبيد والإماء.

وهدم الكنائس التى بخط راشدة ظاهر مدينة مصر، وأخرب كنائس المقس خارج القاهرة، وأباح ما فيها للناس، فانتهبوا منها ما يجل وصفه، وهدم دير القصير، وأنهب العامة ما فيه، ومنع النصارى من عمل الغطاس على شاطئ النيل بمصر، وأبطل ما كان يعمل فيه من الاجتماع للهو.

وألزم رجال النصارى بتعليق الصلبان الخشب ـ التى زنه كل صليب منها خمسة أرطال ـ فى أعناقهم، ومنعهم من ركوب الخيل، وجعل لهم أن يركبوا البغال والحمير بسروج ولجم غير محلاه بالذهب والفضة، بل تكون من جلود سود.

وضرب بالجرس فى القاهرة ومصر ألا يركب أحد من المكارية ذمياً، ولا يحمل نوتى مسلم أحداً من أهل الذمة، وأن تكون ثياب النصارى وعمائمهم شديدة السواد، وركب سروجهم من خشب الجميز، وأن يعلق اليهود فى أعناقهم خشباً مدوراً زنه الخشبة منها خمسة أرطال، وهى ظاهرة فوق ثيابهم.

وأخذ فى هدم الكنائس كلها، وأباح ما فيها وما هو محبس عليها للناس نهباً وإقطاعاً. فهدمت بأسرها، ونهب جميع أمتعتها، وأقطع أحباسها، وبنى فى مواضعها المساجد، وأذن بالصلاة فى كنيسة شنودة بمصر، وأحيط بكنيسة المعلقة فى قصر الشمع.

وأكثر الناس من رفع القصص بطلب كنائس أعمال مصر ودياراتها. فلم يرد قصة منها إلا وقد وقع عليها بإجابة رافعها لما سأل. فأخذوا أمتعة الكنائس والديارات، وباعوا بأسواق مصر ما وجدوا من أوانى الذهب والفضة وغير ذلك، وتصرفوا فى أحباسها، ووجد بكنيسة شنودة مال جليل، ووجد فى المعلقة فى المصاغ وثياب الديباج أمر كثير جداً إلى العامة.

وكتب إلى ولاة الأعمال بتمكين المسلمين من هدم الكنائس والديارات، فعم الهدم فيها من سنة ثلاث وأربعمائة، حتى ذكر من يوثق به فى ذلك أن الذى هدم إلى آخر سنة خمس وأربعمائة، لمصر الشام وأعمالهما، من الهياكل التى بناها الروم نيف وثلاثون ألف بيعة، ونهب ما فيها من آلات الذهب والفضة وقبض على أوقافها، وكانت أوقافاً جليلة على مبان عجيبة.

وألزم النصارى أن تكون الصلبان فى أعناقهم إذا دخلوا الحمام، وألزم اليهود أن يكون فى أعناقهم الأجراس إذا دخلوا الحمام، ثم ألزم اليهود والنصارى بخروجهم كلهم من أرض مصر إلى بلاد الروم. فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر من القاهرة، واستغاثوا ولاذوا بعفو أمير المؤمنين حتى أعفوا من النفى، وفى هذه الحوادث أسلم كثير من النصارى.

وفى سنة سبع وأربعمائة، وثب بعض أكابر البلغر على ملكهم «قمطورس» فقتله، وملك عوضه، وكتب إلى باسيل ملك قسطنطينية بطاعته فأقره، ثم قتل بعد سنة فسار الملك باسيل إليهم، فى شوال سنة ثمان وأربعمائة، وأستولى على مملكة البلغر، وأقام فى قلاعها عدة من الروم، وعاد إلى قسطنطينية. فاختلط الروم بالبلغر، ونكحوا منهم، وساروا يداً واحدة بعد شدة العداوة.

وقدم اليعاقبة عليهم سابونين بطركا بالإسكندرية، فى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة، فى يوم الأحد ثالث عشرى برمهات فأقام خمس عشرة سنة ونصفا، ومات فى طوبة، وكان محباً للمال وأخذ الشرطونية. فخلا الكرسى بعده سنة وخمسة أشهر.

ثم قدم اليعاقبة أخرسطوديس بطركا، فى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، فأقام ثلاثين سنة، ومات بالمعلقة من مصر، وهو الذى جعل كنيسة بومرقورة بمصر، وكنيسة السيدة بحارة الروم من القاهرة فى أيام بطركيته. فلم يقم بعده بطرك اثنين وسبعين يوماً.

ثم أقام اليعاقبه كيرلص، فأقام أربع عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصفاً، ومات بكنيسة المختار من جزيرة مصر - المعروفة بالروضة - فى سلخ ربيع الآخر سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وعمل بدلة للبطاركة من ديباج أزرق ولادية ديباج أحمر بتصاوير ذهب، وقطع الشرطونية. فلم يول بعده بطرك مدة مائة وأربعة وعشرين يوماً.

ثم أقيم ميخائيل الحبيس بسنجار فى سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ، فأقام تسع سنين وثمانية أشهر ، ومات فى المعلقة بمصر .

وكان المستنصر بالله ، لما نقص نيل مصر ، بعثه إلى بلاد الحبشة بهدية سنية . فتلقاه ملكها ، وسأله عن سبب قدومه ، فعرفه نقص النيل ، وضرر أهل مصر بسبب ذلك . فأمر بفتح سد يجرى رويت منه الماء إلى أرض مصر ففتح ، وزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع ، واستمرت الزيادة حتى البلاد وزرعت . ثم عاد البطرك فخلع عليه المستنصر وأحسن إليه .

وفى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، قدم اليعاقبة مقارى بطركا بدير مقار وكمل بالإسكندرية وعاد إلى مصر ، ثم مضى إلى دير بومقار فقدس به ، ثم جاء إلى مصر فقدس بالمعلقة ، فأقام ستا وعشرين سنة وأحداً وأربعين يوماً ومات فخلت مصر من بطرك اليعاقبه سنتين وشهرين .

وفى أيامه حدثت زلزلة عظيمة بمصر هدم فيها كنيسة المختار بالروضة ، وأتهم الأفضل ابن أمير الجيوش بهدمها فإنها كانت فى بستانه ، وفى أيامه أبطل عوايد كثيرة للنصارى ، فبطلت بعده .

ثم قدم اليعاقبه غبريال ، المكنى بأبى العلا صاعد بن تربك ، الشماس بكنيسة مرفوريوس فى سنة خمس وعشرين وخمسمائة بالمعلقة ، وكمل بالإسكندرية ، وقدس بالأديرة بوادى هبيب ، وأقام أربع عشرة سنة ومات . فخلا بعده كرسى اليعاقبة ثلاثة أشهر .

ثم قدم اليعاقبه ميخائيل بن التقدوسى ، الراهب بقلاية دمشرى ، بطركا ، فأقام مدة سنة وسبعين يوماً . ثم أقيم يونس أبو الفتوح بطركا بالمعلقة ، وكمل بالإسكندرية ، فأقام تسع عشرة سنة ، ومات فى سابع عشرى جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين وخمسمائة . فخلا الكرسى بعد ثلاثة وأربعين يوماً .

وقدم مرقص بن زرعه والمكنى بأبى الفرج ، بطرك اليعاقبة بمصر ، وكمل بالإسكندرية ، فأقام اثنتين وعشرين سنة وسنة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ومات .

وفى أيامه انتقل مرقص بن قنبر، وجماعة من القنابرة، إلى رأى الملكية، ثم عاد إلى اليعقوبية فقبل، ثم عاد إلى الملكية ورجع فلم يقبل. وكان هذا البطرك له همة ومروءه، وفى أيامه كان حريق شاور الوزير لمصر فى ثامن عشر هنور، فاحترقت كنيسة بومرقورة، وخلا بعده كرسى البطاركة سبعة وعشرين يوماً.

ثم قدم اليعاقبة يونس بن أبى غالب بطركا، فى يوم الأحد عاشر ذى الحجة سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وكمل بالإسكندرية. فأقام ستاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً، ومات يوم الخميس رابع عشر شهر رمضان سنة ثنتى عشرة وستمائة بالمعلقة بمصر، ودفن بالحبش.

وكان فى ابتداء أمره تاجراً يتردد إلى اليمن فى البحر حتى كثر ماله، وكان معه مال لأولاد الخباب، فاتفق أنه غرق فى بحر الملح وذهب ماله، ونجا بنفسه إلى القاهرة، وقد أيس أولاد الخباب من مالهم. فلما لقيهم أعلمهم أن مالهم قد سلم، فإنه كان قد عمله فى نقاثر مسمرة فى المركب، فصار لهم به عناية.

فلما مات مرقص بن زرعة، سعى يونس هذا للقس أبى ياسر، فقال له أولاد الخباب: خذ أنت البطركية ونحن نزكيك، فوافقهم، وأقيم بطركا، فشق ذلك على أبى ياسر، وهجره بعد صحبة طويلة. وكان معه لما استقر فى البطركية سبعة عشر ألف دينار مصرية أنفقها على الفقراء، وأبطل الديارية، ومنع الشرطونية، ولم يأكل لأحد من النصارى خبزاً، ولا قبل من أحد هدية.

فلما مات قام أبو الفتوح نشو الخليفة ابن الميقاط، كاتب الجيش مع السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب، فى ولاية القس داود بن يوحنا بن لقلق الفيومى، فإنه كان خصيصاً به. فأجابه، وكتب توقيعه من غير أن يعلم الملك الكامل محمد ابن السلطان.

فشق ذلك على النصارى، وقام منهم الأسعد بن صدقة، كاتب دار التفاح بمصر، ومعه جماعة، وتوجهوا سحراً ومعهم الشموع إلى تحت قلعة الجبل -حيث كان سكن الملك الكامل- واستغاثوا به، ووقعوا فى القس، وقالوا: لا يصلح، وفى شرعيتنا أنه لايقدم البطرك إلا باتفاق الجمهور عليه. فبعث الملك الكامل يطيب خواطرهم.

وكان القس قد ركب بكرة، ومعه الأساقفة وعالم كثير من النصارى، ليقدموه بالمعلقة بمصر وذلك يوم الأحد. فركب الملك الكامل بشجو كبيرة من القلعة إلى أبيه بدار الوزارة من القاهرة حيث سكنه، وأوقف ولاية القس.

فبعث السلطان فى طلب الأساقفة ليتحقق الأمر منهم، فوافقهم الرسل مع القس فى الطريق، فأخذوهم ودخل القس إلى كنيسة بوجرج التى بالحمراء، وبطلت بطركيته، وأقامت مصر بغير بطرك تسع عشرة سنة ومائة وستين يوماً.

ثم قدم هذا القس بطركاً، فى يوم الأحد تاسع عشرى شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين تاسع عشرى شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، فأقام سبع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام، ومات يوم الثلاثاء سابع عشر شهر رمضان سنة أربعين وستمائة، ودفن بدير الشمع بالجيزة.

وكان عالماً بدينه، محباً للرياسة، وأخذ الشرطونية فى بطركيته، وكانت الديارات بأرض مصر قد خلت من الأساقفة، فقدم جماعة أساقفة كثيرة بمال كثير أخذه منهم، وقاسى شدائد، ورافعه الراهب عماد المرشال، ووكل عليه وعلى أقاربه وألزامه، وساعده الراهب السنى ابن الثعبان، وأشاع مثالبه، وقال: لايصح له كهونية لأنه يقدم بالرشوة، وأخذ الشرطونية.

وجمع عليه طائفة كبيرة، وعقد مجلساً عند الصاحب معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ، فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأثبت على البطرك قوادح. فقام الكتاب النصارى فى أمره مع الصاحب، بمال يحمله إلى السلطان، حتى استمر على بطركيته وخلا كرسى البطاركة بعده سبع سنين وسته أشهر وستة وعشرين يوماً.

ثم قدم اليعاقبة أنباسيوس ابن القس أبى المكارم بن كليل بالمعلقة، فى يوم الأحد رابع شهر رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة، وكمل بالإسكندرية فأقام إحدى عشرة سنة وخمسة وخمسين يوماً، ومات يوم الأحد ثالث المحرم سنة ستين وستمائة، فخلت مصر من البطركية خمسة وثمانين يوماً.

وفى أيامة أخذ الوزير الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى الجوالى من النصارى مضاعفة .

وفى أسمه ثارت عوام دمشق ، وخربت كنيسة مريم بدمشق بعد إحراقها ونهب ما فيها ، وقتل جماعة من النصارى بدمشق ، ونهب دورهم وخرابها فى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، بعد وقعه عين جالوت وهزيمة المغل . فلما دخل السلطان الملك المظفر قطز إلى دمشق ، قرر على النصارى بها مائة ألف وخمسين ألف درهم ؛ جمعوها من بينهم ، وحملوها إليها بسفارة الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب أتابك العسكر .

وفى سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، كانت واقعة النصارى . ومن خبرها أن الأمير سنجر الشجاعى كانت حرمته وافرة فى أيام الملك المنصور قلاوون ، فكان النصارى يركبون الحمير بزنانير فى أوساطهم ، ولا يجسر نصرانى يحدث مسلماً وهو راكب ، وإذا مشى فبذله ، ولا يقدر أحد منهم يلبس ثوباً مصقولاً . فلما مات الملك المنصور ، وتسلطن من بعده أبنه الملك الأشرف خليل ، خدم الكتاب النصارى عند الأمراء الخاصكية ، وقووا نفوسهم على المسلمين ، وترفعوا فى ملابسهم وهيئاتهم .

وكان منهم كاتب عند خاصكى يعرف بعين العزال ، فصدف يوماً فى طريق مصر سمسار شونة مخدومه ، فنزل السمسار عن دابته ، وقبل رجل الكاتب فأخذ يسبه ، ويهدده على مال قد تأخر عليه من ثمن غلة الأمير ، وهو يترفق له ويعتذر ، فلا يزيده ذلك عليه إلا غلظه .

وأمر غلامه فنزل ، وكتف السمسار ، ومضى به ـ والناس تجتمع عليه ـ حتى صار إلى صليبة جامع أحمد بن طولون ، ومعه عالم كبير وما منهم إلا من يسأنه أن يخلى عن السمسار ، وهو يمتنع عليهم ، فتكاثروا عليه ، وألقوه عن حماره ، وأطلقوا السمسار .

وكان قد قرب من بيت أستاذه ، فبعث غلامه لينجذه بمن فيه ، فأتاه بطائفه من غلمان الأمير وأوجاقيته ، فخلصوه من الناس ، وشرعوا فى القبض عليهم ليفتكوا بهم . فصاحوا عليهم ما يحل ، ومروا مسرعين إلى أن وقفوا تحت القلعة ، واستغاثوا : نصر الله السلطان ، فأرسل يكشف الخبر . فعرفوه ما كان من استطاله الكاتب النصرانى على السمسار ، وما جرى لهم .

فطلب عين الغزال، ورسم العامة باحضار النصارى إليه، وطلب الأمير بدر الدين بيدرا النائب والأمير سنجر الشجاعى، وتقدم إليهما بإحضار جميع النصارى بين يديه ليقتلهم. فما زالا به حتى استقر الحال على أن ينادى فى القاهرة ومصر ألا يخدم أحد من النصارى واليهود عند أمير، وأمر الأمراء بأجمعهم أن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الإسلام، فمن امتنع من الإسلام ضربت عنقه، ومن أسلم استخدموه عندهم، ورسم للنائب بعرض جميع مباشرى ديوان السلطان ويفعل فيهم ذلك.

فنزل الطلب لهم وقد اختفوا فصارت العامة تسبق إلى بيوتهم وتنهبها، حتى عم النهب بيوت النصارى واليهود بأجمعهم، وأخرجوا نساءهم مسبيات، وقتلوا جماعة بأيديهم. فقام الأمير بيدرا النائب مع السلطان فى أمر العامة، وتلطف به حتى ركب والى القاهرة ونادى من نهب بيت نصرانى شنق، وقبض على طائفة من العامة، وشهرهم بعدما ضربهم فانكفوا عن النهب بعدما نهبوا كنيسة المعلقة بمصر، وقتلوا منها جماعة.

ثم جمع النائب كثيراً من النصارى، كتاب السلطان والأمراء، وأوقفهم بين يدى السلطان عن بعد منه. فرسم للشجاعى وأمير جاندار أن يأخذ عدة معهما، وينزلوا إلى سوق الخيل تحت القلعة، ويحفروا حفيرة كبيرة، ويلقوا فيها الكتاب الحاضرين، ويضرموا عليهم الحطب ناراً.

فتقدم الأمير بيدرا، وشفع فيهم. فأبى أن يقبل شفاعته، وقال: ما أريد فى دولتى ديواناً نصرانياً فلم يزل به حتى سمح بأن من أسلم منهم يستقر فى خدمته، ومن امتنع ضربت عنق. فأخرجهم إلى دار النيابة، وقال لهم: يا جماعة ما وصلت قدرتى مع السلطان فى أمركم إلا على شرط، وهو أن من أختار دينه قتل، ومن أختار الإسلام خلع عليه وباشر.

فابتدره المكين بن السقاعى، أحد المستوفين، وقال: يا خوند وأيا قواد يحتار القتل على هذا الدين الخراء؟ والله دين نقتل ونموت عليه يروح. لا كتب الله عليه سلامة، قولوا لنا الذى تختاروه حتى نروح إليه.

فغلب بيدرا الضحك، وقال له: ويلك أنحن نختار غير دين الإسلام ؟

فقال: يا خوند ما نعرف، قولوا ونحن نتبعكم.

فأحضر العدول واستسلمهم، وكتب بذلك شهادات عليهم، ودخل بها على السلطان. فألبسهم تشاريف، وخرجوا إلى مجلس الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس.

فبدأ بعض الحاضرين بالمكين بن السقاعى وناوله ورقة ليكتب عليها، وقال: يا مولانا القاضى اكتب على هذه الورقة، فقال: يا بنى ما كان لنا هذا القضاء فى خلد. فلم يزالوا فى مجلس الوزير إلى العصر، فجاءهم الحاجب وأخذهم إلى مجلس النائب، وقد جمع به القضاة، فجددوا إسلامهم بحضرتهم.

فصار الذليل منهم بإظهار الإسلام عزيزاً، يبدى من اذلال المسلمين، والتسلط عليهم بالظلم، ما كان يمنعه نصرانيته من إظهاره. وما هو إلا كما كتب به بعضهم إلى الأمير بيدرا النائب :

أسلم الكافرون بالسيف قهراً

وإذا ما خلوا فهم مجرمونا

سلموا من رواح مال وروح

فهم سالمون لا مسلمونا

وفى أخريات شهر رجب سنة سبعمائة، قدم وزير متملك المغرب إلى القاهرة حاجاً، وصار يركب إلى الموكب السلطانى وبيوت الأمراء. فبينا هو ذات يوم بسوق الخيل تحت القلعة، إذا هو برجل راكب على فرس، وعليه عمامة بيضاء وفرجيه مصقولة، وجماعة يمشون فى ركابه، وهم يسألونه ويتضرعون إليه ويقبلون رجليه، وهو معرض عنهم وينهرهم، ويصبح بغلمانه أن يطردوهم عنه. فقال له بعضهم: يا مولاى الشيخ بحياه ولدك النشو تنظر فى حالنا. فلم يزده ذلك إلا عتوا وتحامقا.

فرق المغربى لهم، وهم بمخاطبته فى أمرهم، فقيل له: وإنه مع ذلك نصرانى. فغضب لذلك، وكاد أن يبطش به، ثم كف عنه وطلع إلى القلعة، وجلس مع الأمير سلار نائب السلطان والأمير بيبرس الجاشنكير، وأخذ يحادثهم بما رآه وهو يبكى رحمه للمسلمين بما نالهم من قسوة النصارى.

ثم وعظ الأمراء، وحذرهم نقمة الله، وتسليط عدوهم عليهم من تمكين النصارى من ركوب الخيل، وتسلطهم على المسلمين وأذلالهم إياهم، وأن الواجب الزامهم الصغار وحملهم على العهد الذى كتبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه. فمالوا إلى قوله، وطلبوا بطرك النصارى وكبراءهم وديان اليهود.

فجمعت نصارى كنيسة المعلقة، ونصارى دير البغل ونحوهم، وحضر كبراء اليهود والنصارى، وقد حضر القضاة الأربعة، وناظروا النصارى واليهود. فأذعنوا إلى التزام العهد العمرى، وألزم بطرك النصارى طائفته النصارى بلبس العمائم الزرق، وشد الزنار فى أوساطهم، ومنعهم من ركب الخيل والبغال، وألتزام الصغار، وحرم عليهم مخالفة ذلك أو شئ منه، وأنه برئ من النصرانية إن خالف. ثم أتبعه ديان اليهود بأن أوقع الكلمة على من خالف من اليهود ما شرط عليه من لبس العمائم الصفر والتزام العهد العمرى، وكتب بذلك عدة نسخ سيرت إلى الأعمال.

فقام المغربى فى هدم الكنائس. فلم يمكنه قاضى القضاة تقى الدين محمد بن دقيق العيد من ذلك، وكتب خطه بأنه لايجوز أن يهدم من الكنائس إلا ما استجد بناؤه. فغلقت عدة كنائس بالقاهرة ومصر مدة أيام، فسعى بعض أعيان النصارى فى فتح كنيسة حتى فتحها.

فثارت العامة، ووقفوا للنائب والأمراء، واستغاثوا بأن النصارى قد فتحوا الكنائس بغير أذن، وفيهم جماعة تكبروا عن لبس العمائم الزرق، واحتمى كثير منهم بالأمراء، فنودى فى القاهرة ومصر: أن يلبس النصارى بأجمعهم العمائم الزرق، يلبس اليهود بأسرهم العمائم الصفر، ومن لم يفعل ذلك نهب ماله وحل دمه. . ومنعوا جميعاً من الخدمة فى ديوان السلطان ودواوين الأمراء حتى يسلموا.

فتسلطت الغوغاء عليهم وتتبعوهم، فمن رأوه بغير الزى الذى رسم به ضربوه بالنعال وصفعوا عنقه حتى يكاد يهلك، ومن مر بهم وقد ركب ولا يثنى رجله ألقوه عن دابته، وأوجعوه ضرباً. فاختفى كثير منهم، وألجأت الضرورة عدة من أعيانهم إلى إظهار الإسلام أنفه من ليس الأزرق وركوب الحمير.

وقد أكثر شعراء العصر فى ذكر تغيير زى أهل الذمة. فقال علاء الدين على بن مظفر الوداعى :

لقد ألزم الكفار شاشات ذلة
تزيدهم من لعنة الله تشويشاً
فقلت لهم ما ألبسوكم عمائماً
ولكنهم قد ألزموكم براطيشاً

وقال شمس الدين الطيبى :

تعجبوا للنصارى واليهود معاً
والسامريين لما عمموا الخرقا
كأنما بات بالأصباغ منسهلاً
نسر السماء فأضحى فوقهم زرقا

فبعث ملك برشلونة، فى سنة ثلاث وسبعمائة، هدية جليلة زائدة عن عادته، عم بها جميع أرباب الوظائف من الأمراء مع ما خص به السلطان، وكتب يسأل فى فتح الكنائس. فاتفق الرأى على فتح كنيسة حارة زويلة لليعاقبة، وفتح كنيسة البندقانيين من القاهرة.

ثم لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، هدمت كنائس أرض مصر فى ساعة واحدة، كما ذكر فى أخبار كنيسة الزهرى. وفى سنة خمس وخمسين وسبعمائة، رسم بتحرير ماهو موقوف على الكنائس من أراضى مصر، فأناف على خمسة وعشرين ألف فدان.

وسبب الفحص عن ذلك كثرة تعاظم النصارى، وتعديهم فى الشر والإضرار بالمسلمين، لتمكنهم من أمراء الدولة، وتفاخرهم بالملابس الجليلة والمغالاة فى أثمانها، والتبسط فى المآكل والمشارب، وخروجهم عن الحد فى الجراءة والسلاطة. إلى أن أتفق مرور بعض كتاب النصارى على الجامع الأزهر من القاهرة، وهو راكب بخف ومهماز، وبقباء إسكندرى طرح على رأسه، وقدامه طرادون يمنعون الناس من مزاحمته، وخلفه عدة عبيد بثياب سرية على أكاديس فارهة.

فشق ذلك على جماعة من المسلمين، وثاروا به وأنزلوه عن فرسه، وقصدوا قتله وقد اجتمع عالم كبير، ثم خلوا عنه. وتحدث جماعة مع الأمير طاز فى أمر النصارى وما هم عليه، فوعدهم بالإنصاف منهم، فرفعوا قصة على لسان المسلمين - قرئت على السلطان الملك الصالح صالح بحضرة الأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة - تتضمن الشكوى من النصارى، وأن يعقد لهم مجلس ليلتزموا بما عليهم من الشروط.

فرسم بطلب بطرك النصارى وأعيان أهل ملتهم، وبطلب رئيس اليهود وأعيانهم، وحضر القضاة والأمراء بين يدى السلطان، وقرأ القاضى علاء الدين على بن فضل الله، كاتب السر، العهد الذى كتب بين المسلمين وبين أهل الذمة - وقد أحضروه معهم - حتى فرغ منه. فالتزم من حضر منهم بما فيه، وأقروا به، فعددت لم أفعالهم التى جاهروا بها وهم عليها، وأنهم لا يرجعون عنها غير قليل، ثم يعودون إليها كما فعلوه غير مرة فيما سلف.

فاستقر الحال على أن يمنعوا من المباشرة بشئ من ديوان السلطان ودواوين الأمراء، ولو أظهروا الإسلام، وألا يكره أحد منهم على إظهار الإسلام، ويكتب بذلك إلى الأعمال.

فتسلطت العامة عليهم، وتتبعوا آثارهم، وأخذوهم فى الطرقات، وقطعوا ما عليهم من الثياب، وأوجعوهم ضرباً، ولم يتركوهم حتى يسلموا، وصاروا يضرمون لهم النار ليلقوهم فيها. فاختفوا فى بيوتهم، ولم يتجاسروا على المشى بين الناس، فنودى المنع من التعرض لأذاهم.

فأخذت العامة فى تتبع عوراتهم، وما علوه من دورهم على بناء المسلمين فهدموه، واشتد الأمر على النصارى باختفائهم. حتى إنهم فقدوا من الطرقات مدة، فلم ير منهم، ولا من اليهود أحد. فرفع المسملون قصة، قرئت فى دار العدل فى يوم الأثنين رابع عشر شهر رجل، تتضمن أن النصارى قد استجدوا عمارات فى كنائسهم، ووسعوها.

هذا وقد اجتمع بالقلعة عالم عظيم، واستغاثوا بالسلطان من النصارى، فرسم بركوب والى القاهرة وكشفه على ذلك. فلم تتمهل العامة ومرت بسرعة، فخربت كنيسة بجوار قناطر السباع، وكنيسة بطريق مصر للأسرى، وكنيسة الفهادين بالجوانية من القاهرة، ودير نهيا من الجيزة، وكنيسة بناحية بولاق التكرورى، ونهبوا حواصل ما خربوه من ذلك -

وكانت كثيرة ـ وأخذوا أخشابها ورخامها، وهجموا كنائس مصر والقاهرة، ولم يبق إلا أن يخربوا كنيسة البندقانيين بالقاهرة، فركب الوالى ومنعهم منها، واشتدت العامة، وعجز الحكام عن كفهم.

وكان قد كتب إلى جميع أعمال مصر وبلاد الشام ألا يستخدم يهودى ولا نصرانى ولو أسلم، وأنه من أسلم منهم لايمكن من العبور إلى بيته، ولا من معاشرة أهله إلا أن يسلموا، وأن يلزم من أسلم منهم بملازمة المساجد والجوامع لشهود الصلوات الخمس والجمع، وأن من مات من أهل الذمة يتولى المسلمون قسمة تركته على ورثته إن كان له وارث، وإلا فهى لبيت المال، وكان يلى ذلك البطرك. وكتب بذلك مرسوم قرئ على الأمراء، ثم نزل به الحاجب فقرأه فى يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الآخرة بجوامع القاهرة ومصر، فكان يوماً مشهوداً.

ثم أحضر فى أخريات شهر رجب، من كنيسة شبرا بعدما هدمت، أصبع الشهيد ـ الذى كان يلقى فى النيل حتى يزيد بزعمهم ـ وهو فى صندوق. فأحرق بين يدى السلطان بالميدان من قلعة الجبل، وذرى رماده فى البحر خشية من أخذ النصارى له.

فقدمت الأخبار بكثرة دخول النصارى، من أهل الصعيد والوجه البحرى، فى الإسلام وتعلمهم القرآن، وأن أكثر كنائس الصعيد هدمت وبنيت مساجد، وأنه أسلم بمدينة قليوب فى يوم واحد أربعمائة وخمسون نصرانياً، وكذلك بعامة الأرياف، مكراً منهم وخديعة حتى يستخدموا فى المباشرات، وينكحوا المسلمات. فتم لهم مرادهم، واختلطت بذلك الأنساب حتى صار أكثر الناس من أولادهم.

ولا يخفى أمرهم على من نور الله قلبه. فإنه يظهر من آثارهم القبيحة، إذا تمكنوا من الإسلام وأهله، ما يعرف به الفطن سوء أصلهم وقديم معاداة أسلافهم للدين وحملته.

«**فصل**» : النصارى فرق كثيرة: الملكانية، والنسطورية، واليعقوبية، والبوذعانية، والمرقولية ـ وهم الرهاويون الذين كانوا بنواحى حران ـ وغير هؤلاء: فمنهم من مذهبه مذهب الحرانية، ومنهم من يقول بالنور والظلمة والثنوية، كلهم يقرون بنبوة المسيح عليه السلام، ومنهم من يعتقد مذهب أرسطاطاليس.

والملكانية واليعقوبية والنسطورية متفقون على أن معبودهم ثلاثة أقانيم، وهذه الأقانيم الثلاثة شيء واحد، وهو جوهر قديم، ومعناه أب وابن وروح القدس اله واحد، وأن الابن نزل من السماء، فتدرع جسداً من مريم، وظهر للناس يحيى ويبرئ وينبئ، ثم قتل وصلب، وخرج من القبر لثلاث، فظهر لقوم من أصحابه، فعرفوه حق معرفته، ثم صعد إلى السماء فجلس عن يمين أبيه؛ هذا الذى يجمعهم اعتقاده.

ثم إنهم يختلفون فى العبارة عنه : فمنهم من يزعم أن القديم جوهر واحد يجمعه ثلاثة أقانيم - كل أقنوم منها على جوهر خاص - فأحد هذه الأقانيم أب، وأحد غير مولود، والثالث روح فائضة منبثقة بين الأب والابن، وأن الابن لم يزل مولوداً من الأب، وأن الأب لم يزل والداً للابن، لا على جهة النكاح والتناسل، لكن من جهة تولد ضياء الشمس من ذات الشمس، وتولد حر النار من ذات النار.

ومنهم من يزعم أن معنى قولهم أن الإله ثلاثة أقانيم، أنها ذات لها حياة ونطق: فالحياه هى روح القدس، والنطق هو العلم والحكمة. . . . والنطق والعلم والحكمة والكلمة عبارة عن الابن، كما يقال الشمس وضياؤها والنار وحرها، فهو عبارة عن ثلاثة أشياء ترجع إلى أصل واحد.

ومنهم من يزعم أنه لايصح له أن يثبت الإله فاعلاً حكيماً، إلا أنه يثبته حياً ناطقاً. ومعنى الناطق عندهم العالم المميز، لا الذى يخرج الصوت بالحروف المركبة، ومعنى الحى عندهم من له حياة بها يكون حياً، ومعنى العالم من له علم به يكون عاماً؛ قالوا: فذاته وعلمه وحياته ثلاثة أشياء والأصل واحد. فالذات هى العلة للإثنين اللذين هما العلم والحياه، والاثنان هما المعلولان للعلة.

ومنهم من يتنزه عن لفظ العلة والمعلول فى صفة القديم، ويقول: أب وابن، ووالدة وروح، وحياة وعلم، وحكمة ونطق.

قالوا: والابن اتحد بإنسان مخلوق، صار هو وما اتحد به مسيحاً واحداً، وأن المسيح هو إله العباد وربهم.

ثم اختلفوا فى صفة الاتحاد. فزعم بعضهم أنه وقع بين جوهر لاهوتى وجوهر ناسوتى

اتحاد فصارا مسيحاً واحداً، ولم يخرج الاتحاد كل واحد منهما عن جوهريته وعنصره، وأن المسيح إله معبود، وأنه ابن مريم الذى حملته وولدته، وأنه قتل وصلب.

وزعم قوم أن المسيح بعد الاتحاد جوهران أحدهما لاهوتى، والآخر ناسوتى، وأن القتل والصلب وقعا به من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته، وأن مريم حملت المسيح وولدته من جهة ناسوته، وهذا قول النسطورية. ثم يقولون: إن المسيح بكامله إله معبود، وأنه ابن الله؛ تعالى الله عن قولهم.

وزعم قوم أن الاتحاد وقع بين جوهرين: لاهوتى، وناسوتى، فالجوهر اللاهوتى بسيط غير منقسم ولا متجزئ. وزعم قوم أن الاتحاد على جهة حلول الابن فى الجسد ومخالطته إياه. ومنهم من زعم أن الاتحاد على جهة الظهور، كظهور كتابة الخاتم والنقش إذا وقع على طين أو شمع، وكظهور صورة الإنسان فى المرآة، إلى غير ذلك من الاختلاف الذى لا يوجد مثله فى غيرهم، حتى لا تكاد تجد أثنين منهم على قول واحد.

والملكانية تنسب إلى ملك الروم، وهم يقولون: إن الله اسم لثلاثة معان، فهو واحد ثلاثة، وثلاثة واحد. واليعقوبية تقول: إنه واحد قديم، وإنه كان لا جسم ولا إنسان، ثم تجسم وتأنس. والمرقولية قالوا: الله واحد، وعلمه غيره قديم معه، والمسيح ابنه على جهة الرحمة، كما يقال إبراهيم خليل الله. والمرقولية تزعم أن المسيح يطوف عليهم كل يوم وليلة. والبوزغانية تزعم أن المسيح هو الذى يحشر الموتى من قبورهم ويحاسبهم.

«**فصل**»: وعندهم لابد من تنصير أولادهم، وذلك أنهم يغسلون المولود فى ماء قد أغلى بالرياحين وألوان الطيب فى إجانة جديدة، ويقرأون عليه من كتابهم، فيزعمون أنه حينئذ ينزل عليه روح القدس، ويسمون هذا الفعل المعمودية.

وطهارتهم إنما هى غسل الوجه واليدين فقط، ولا يختتن منهم إلا اليعقوبية، ولهم سبع صلوات يستقبلون فيها المشرق، ويحجون إلى بيت المقدس، وزكاتهم العشر من أموالهم، وصيامهم خمسون يوماً.

فالثانى والأربعون منه عيد الشعانين، وهو اليوم الذى نزل فيه المسيح من الجبل ودخل بيت المقدس. وبعده بأربعة أيام عيد الفصح، وهو اليوم الذى خرج فيه موسى وقومه من

مصر. وبعده بثلاثة أيام عيد القيامة، وهو اليوم الذى خرج فيه المسيح من القبر يزعمهم. وبعده بثمانية أيام عيد الجديد، وهو اليوم الذى ظهر فيه المسيح لتلامذته بعد خروجه من القبر. وبعده بثمانية وثلاثين يوماً عيد السلاق، وهو اليوم الذى صعد فيه المسيح إلى السماء.

ولهم عيد الصليب، وهو اليوم الذى وجدوا فيه خشبة الصليب، وزعموا أنها وضعت على ميت فعاش. ولهم أيضاً عيد الميلاد وعيد الذبح، ولهم قرابين وكهنة: فالشماس فوقه القس، وفوق القس الأسقف، وفوق الأسقف المطران، وفوق المطران البطريق.

والسكر عندهم حرام، ولا يحل لهم أكل اللحم ولا الجماع فى الصوم، وكل ما يباع فى السوق ولم تعفه أنفسهم يباح أكله، ولا يصح النكاح إلا بحضور شماس وقس وعدول ومهر، ويحرمون من النساء ما يحرمه المسلمون، ولا يحل الجمع بين امرأتين، ولا التسرى بالإماء إلا أن يعتقهن ويتزوج بهن، وإذا خدم العبد سبع سنين عتق.

ولا يحل طلاق المرأة، إلا أن تأتى بفاحشة مبينة فتطلق، ولا تحل للزوج أبداً، وحد المحصن إذا زنى الرجم، فإن زنى غير محصن وحملت منه المرأة تزوج بها، ومن قتل عمداً قتل، ومن قتل خطأ يهرب ولا يحل طلبه، وأكثر أحكامهم من التوراة، وقد لعن منهم من لاط أو شهد بالزور أو قامر أو زنى أو سكر.

ذكر ديارات النصارى

قال ابن سيده: الدين خان النصارى، والجمع أديار، وصاحبه ديار وديرانى. قلت: الدير عند النصارى يختص بالنساك المقيمين به، والكنيسة مجتمع عامتهم للصلاة.

«**القلاية بمصر**»: هذه القلاية بجانب المعلقة، التى تعرف بقصر الشمع، فى مدينة مصر. وهى مجمع أكابر الرهبان وعلماء النصارى، وحكمها عندهم حكم الأديرة.

«**دير طرا**»: ويعرف بدير أبى جرج، وهو على شاطئ النيل.

وأبو جرح هذا هو جرجس. وكان ممن عذبه الملك دقلطيانوس ليرجع عن دينه النصرانية، ونوع له العقوبات من الضرب والتحريق بالنار فلم يرجع، فضرب عنقه بالسيف في ثالث تشرين وسابع بابه.

«**دير شعران**»: هذا الدير في حدود ناحية طرا، وهو مبني بالحجر واللبن، وبه نخل، وبه عدة رهبان. ويقال إنما هو دير شهران بالهاء، وإن شهران كان من حكماء النصارى، وقيل بل كان ملكاً.

وكان هذا الدير يعرف قديماً بمرقوريوس - الذي يقال له مرقورة وأبو مرقورة - ثم لما سكنه برصوما بن التبان، عرف بدير برصوما. وله عيد يعمل في الجمعة الخامسة من الصوم الكبير، فيحضره البطرك وأكابر النصارى، وينفقون فيه مالاً كبيراً. ومرقوريوس هذا كان ممن قتله دقلطيانوس، في تاسع عشر تموز وخامس عشري أبيب، وكان جندياً.

«**دير الرسل**»: هذا الدير خارج ناحية الصف والودى، وهو دير قديم لطيف.

«**دير بطرس وبولص**»: هذا الدير خارج أطفيح من قبليها، وهو دير لطيف، وله عيد في خامس أبيب يعرف بعيد القصرية.

وبطرس هذا هو أكبر الرسل الحواريين، وكان دباغاً - وقيل صياداً - قتله الملك نيرون في تاسع عشري حزيران وخامس أبيب. وبولص هذا كان يهودياً، فتنصر بعد رفع المسيح عليه السلام، ودعا إلى دينه، فقتله الملك نيرون بعد قتله بطرس بسنة.

«**دير الجميزة**»: ويعرف بدير الجود، ويسمى موضعه البحارة جزائر الدير، وهو قبالة الميمون، وهو عزبة لدير العزبة. بني على أسم أنطونيوس - ويقال أنطونة - وكان من أهل قمن، فلما انقضت أيام الملك دقلطيانوس وفاتته الشهادة، أحب أن يتعوض عنها بعبادة توصل ثوابها أو قريباً من ذلك، فترهب.

وكان أول من أحدث الرهبانية للنصارى عوضاً عن الشهادة، وواصل أربعين يوماً ليلاً ونهاراً طاوياً لايتناول طعاماً ولا شراباً مع قيام الليل، وكان هكذا يفعل في الصيام الكبير كل سنة.

«**دير العزبة**» : هذا الدير يسار إليه فى الجبل الشرقى ثلاثة أيام بسير الأبل ، وبينه وبين بحر القلزم مسافة يوم كامل ، وفيه غالب الفواكه مزدرعة ، وبه ثلاثة أعين تجرى ، وبناه أنطونيوس المقدم ذكره .

ورهبان هذا الدير لايزالون دهرهم صائمين ، لكن صومهم إلى العصر فقط ، ثم يفطرون ، ما خلا الصوم الكبير والبرمولات ، فإن صومهم فى ذلك إلى طلوع النجم . والبرمولات هى الصوم كذلك بلغتهم .

«**دير أنبا بولا**» : وكان يقال له أولاً دير بولص ، ثم قيل له دير بولا ، ويعرف بدير النمورة أيضاً . وهذا الدير فى البر الغربى من الطور ، على عين ماء يردها المسافرون . وعندهم أن هذه العين تطهرت منها مريم ، أخت موسى عليهما السلام ، عند نزول موسى ببنى إسرائيل فى برية القلزم . ،

وأنبا بولا هذا كان من أهل الإسكندرية ، فلما مات أبوه ترك له ولأخيه مالاً جما ، فخاصمه أخوه فى ذلك وخرج مغاضباً له ، فرأى ميتاً يقبر فاعتبر به ، ومر على وجهه سائحاً حتى نزل على هذه العين ، فأقام هناك والله تعالى يرزقه ، فمر به أنطونيوس ، وصحبه حتى مات ، فبنى هذا الدير على قبره . وبين هذا الدير والبحر ثلاث ساعات ، وفيه بستان فيه نخل وعنب ، وبه عين ماء تجرى أيضاً .

«**دير القصير**» : قال أبو الحسن على بن محمد الشابشتى فى كتاب «الديارات» : وهذا الدير فى أعلى الجبل ، على سطح فى قلته ، وهو دير حسن البناء محكم الصنعة ، نزه البقعة ، وفيه رهبان مقيمون به ، وله بئر منقورة فى الحجر يستقى له منها الماء ، وفى هيكله صورة مريم عليها السلام فى لوح ، والناس يقصدون الموضع للنظر إلى هذه الصورة .

وفى أعلاه غرفه بناها أبو الجيش خمارويه ابن أحمد بن طولون ، لها أربع طاقات إلى أربع جهات ، وكان كثير الغشيان لهذا الدير ، معجباً بالصورة التى فيه ، يستحسنها ويشرب على النظر إليها . وفى الطريق إلى هذا الدير من جهة مصر صعوبة ، وأما من قبليه فسهل الصعود والنزول ، وإلى جانبه صومعه لا تخلو من حبيس يكون فيها .

وهو مطل على القرية المعروفة بشهران ، وعلى الصحراء والبحر ، وهى قرية كبيرة عامرة على شاطئ البحر ، ويذكرون أن موسى صلوات الله عليه ولد فيها ، ومنها ألقته أمه إلى البحر فى التابوت . وبه أيضاً دير يعرف بدير شهران .

ودير القصر هذا أحد الديارات المقصودة والمتنزهات المطروقة ، لحسن موضعه وإشرافه على مصر وأعمالها ، وقد قال فيه شعراء مصر ووصفوه ، فذكروا طيبه ونزهته ، ولأبى هريرة ابن أبى عاصم فيه من المنسرح .

كم لى بدير القصير من قصف
مع كل ذى صبوة وذى ظرف
لهـوت فيه بشـادن غنـج
تقصر عنه بدائع الوصـف

وقال ابن عبدالحكم فى كتاب «فتوح مصر» : وقد اختلف فى القصير : فعن ابن لهيعة قال : ليس بقصير موسى النبى ›، ولكنه موسى الساحر . وعن المفضل بن فضالة عن أبيه قال : دخلنا على كعب الأحبار ، فقال لنا : ممن أنتم؟ قلنا : فتيان من أهل مصر ، فقال : ما تقولون فى القصير؟ قلنا : قصير موسى؟ فقال : ليس بقصير موسى ، ولكنه قصير عزيز مصر ، كان إذا جرى النيل يترفع فيه ، وعلى ذلك إنه لمقدس من الجبل إلى البحر .

قال : ويقال بل كان موقداً يوقد فيه لفرعون إذا هو ركب من منف إلى عين شمس . وكان على المقطم موقد آخر ، فإذا رأوا النار علموا بركوبه فأعدوا له ما يريد ، وكذلك إذا ركب منصرفاً من عين شمس . والله أعلم .

وما أحسن قول كشاجم :

سلام على دير القصير وسفحه
بجنات حلوان إلى النخلات
منـازل كانت لى بهـن مـآرب
وكن مواخـيرى ومنتزهاتى

إذا جئتها كان الجيـــاد مــراكبى

ومنصرفى فى السفن منحدرات

فأقبض بالأسحار وحشى عينها

وأقتنص الإنسى فى الظلمـــات

معى كل بســـام أغــر مهــذب

على كل ما يهوى النديم مواتى

ولحمـــان ممــا أمســكته كلابنا

علينا وممــا صيد فى الشبكات

وكأس وإبريق ونـاى ومزهـــر

وســـاق غرير فاتر اللحظات

كان قضيب البان عند اهـتزازه

تعـــلم من إعطافه الحركات

هنالك تصفو لى مشارب لدنى

وتصحب أيام السرور حياتى

وقال علماء الأخبار من النصارى : أن أرقاديوس، ملك الروم، طلب أرسانبرس ليعلم ولده، فظن أنه يقتله، ففــر إلى مصـر وترهب، فـبعث إليـه أمـاناً، أعلمـه أن الطـلب من أجـل تعليم ولده، فـأستعفى وتحول إلى الجبل المقطم شـرقى طرا، وأقـام فى مغـارة ثلاث سنين ومات .

فبعث إليه أرقادنوس، فإذا هو قد مات، فأمر أن يبنى على قبره كنيسة، وهو المكان المعروف بدير القصير، ويعرف الآن بدير البغل، من أجل أنه كان به بغل يستقى عليه الماء، فإذا خرج من الدير أتى الموردة وهناك من يملأ عليه، فإذا فرغ من الماء تركه فعاد إلى الدير . وفى رمضـان سنة أربعمـائة أمر الحاكم بأمر الله بهدم دير القصير، فأقام الهـدم والنهب فيه مـدة أيـــام .

«**دير مرحنا**» : قال الشابشتى دير مرحنا على شاطئ بركة الحبش، وهو قريب من النيل، وإلى جانبه بساتين. أنشأ بعضها الأمير تميم بن المعز، ومجلس على عمد حسن البناء مليح الصنعة مسور. أنشأه الأمير تميم أيضاً وبقرب الدير بئر، تعرف ببئر مماتى، عليها جميزة كبيرة يجمع الناس إليها، ويشربون تحتها.

وهذا الموضع من مغانى اللعب، ومواطن القصف والطرب، وهو نزه فى أيام النيل وزيادة البحر وامتلاء البركة، حسن المنظر فى أيام الزرع والنواوير، لايكاد حينئذ يخلو من المتنزهين والمتطربين، قد ذكرت الشعراء حسنه وطيبه، وهذا الدير يعرف اليوم بدير الطين (بالنون).

«**دير أبى النعناع**» : هذا الدير خارج أنصنا، وهو من جملة عماراتها القديمة، وكنيسته فى قصره لا فى أرضه، وهو على اسم أبى بخنس القصير، عبده فى العشرين من بابه، وسأتى ذكر أبى يخنس هذا.

«**دير مغارة شقلقيل**» : هو دير لطيف معلق فى الجبل، وهو نقر فى الحجر على صخرة تحتها عقبة، لا يتوصل إليه من أعلاه ولا من أسفله ولا سلم له، وإنما جعلت له نقور فى الجبل، فإذا أراد أحد أن يصعد إليه أرخيت له سلبه فأمسكها بيده، وجعل رجليه فى تلك النقور وصعد، وبه طاحونه يديرها حمار واحد.

ويطل هذا الدير على تجاه منفلوط وتجاه أم القصور، وتجاهه جزيرة يحيط بها الماء - وهى التى يقال لها شقلقيل - وبها قريتان: إحداهما شقلقيل، والأخرى بنى شقير. ولهذا الدير عيد يجتمع فيه النصارى، وهو على اسم يومينا، وهو من الأجناد الذين عاقبهم ديقلطيانوس ليرجع عن النصرانية ويسجد للأصنام، فثبت على دينه، فقتله فى عاشر حزيران وسادس عشر بابه.

«**دير بقطر**» : بحاجر أبنوب، من شرقى بنى مر، تحت الجبل على مائتى قصبة منه. وهو دير كبير جداً، وله عيد يجتمع فيه نصارى البلاد شرقاً وغرباً، ويحضره الأسقف.

وبقطر هذا هو ابن رومانوس كان أبوه من وزراء ديقلطيانوس، وكان هو جميلاً شجاعاً له منزلة من الملك، فلما تنصر وعده الملك، ومناه ليرجع إلى عبادة الأصنام فلم يفعل، فقتله في ثاني عشري نيسان وسابع عشري برمودة.

«**دير بقطر شق**»: في بحري أبنوت وهو دير لطيف خال، وإنما تأتيه النصارى مرة في كل سنة.

وبقطر شق ممن عذبه ديقلطيانوس ليرجع عن النصرانية فلم يرجع، فقتله في العشرين من هتور، وكان جندياً.

«**دير بوجرج**»: بني على اسم بوحرج. وهو خارج المعيصرة بناحية شرق بني مر، وتارة يخلو من الرهبان، وتارة يعمر بهم، وله وقت يعمل العيد فيه.

«**دير حماس**»: وحماس اسم بلد هو بحريها، وله عيدان في كل سنة، وجموعات متعددة.

«**دير الطير**»: هذا الدير قديم، وهو مطل على النيل، وله سلالم منحوته في الجبل، وهو قباله سملوط.

وقال الشابشتي: وبنواحي أخميم دير كبير عامر يقصد من كل موضع، وهو بقرب الجبل المعروف بجبل الكهف، وفي موضع من الجبل شق، فإذا كان يوم عيد هذا الدير لم يبق في البلد بوقير حتى يجئ إلى هذا الموضع، فيكون أمراً عظيماً بكثرتها واجتماعها وصياحها عند الشق، ولا يزال الواحد بعد الواحد يدخل رأسه في ذلك الشق ويصيح، ويخرج ويجئ غيره؛ إلى أن تعلق رأس أحدها، وينشب في الموضع، فيضطرب حتى يموت، وتتفرق حينئذ الباقية فلا يبقى منها طائر.

وقال القاضي أبو جعفر القضاعي: ومن عجائبها (يعني مصر) شعب البوقيرات بناحية أشموم من أرض الصعيد، وهو شعب في جبل فيه صدع تأتيه البوقيرات في يوم من السنة كان معروفاً، فتعرض أنفسها على الصدع، فكلما أدخل بوقير منها منقاره في الصدع مضى

لطيته، فلا تزال تفعل ذلك حتى يلتقي الصدع على بوقير منها فيحبسه، وتمضي كلها، ولا يزال ذلك الذي تحبسه معلقاً حتى يتساقط.

قال مؤلفه رحمه الله تعالى: وقد بطل هذا في جملة ما يظل.

«**دير أبي هرمينة**»: بحرى فاو الخراب، وبحريه بربا فاو وهى مملوءة كتباً وحكماً، وبين دير الطين، وهذا الدير نحو يومين ونصف. وأبو هرمينة هذا من قدماء الرهبان المشهورين عند النصارى.

«**دير السبعة جبال بأخميم**»: هذا الدير داخل سبعة أودية، وهو دير عال بين جبال شامخة، ولا تشرق عليه الشمس إلا بعد ساعتين من الشروق لعلو الجبل الذى هو فى لحفه، وإذا بقي للغروب نحو ساعتين، خيل لمن فيه أن الشمس قد غابت وأقبل الليل، فيشعلون حينئذ الضوء فيه. وعلى هذا الدير من خارجه عين ماء تظلها صفصافة، ويعرف هذا الموضع الذى فيه دير الصفصافة بوادى الملوك، لأن فيه نباتاً يقال له الملوكة، وهو شبه الفجل، وماؤه أحمر قان يدخل فى صناعة علم أهل الكيمياء.

ومن داخل هذا الدير «دير القرقس»، وهو فى أعلى جبل قد نقر فيه، ولا يعلم له طريق، بل يصعد إليه فى نقور فى الجبل، ولا يتوصل إليه إلا كذلك. وبين دير الصفصافة ودير القرقس ثلاث ساعات، وتحت دير القرقس عين ماء عذب وأشجار بان.

«**دير صبرة**»: فى شرقى أخميم، عرف بعرب يقال لهم بنى صبرة، وهو على اسم ميخائيل الملك، وليس به غير راهب واحد.

«**دير أبي بشادة الأسقف**»: قريب من ناحية أنقة، وهو بالحاجر، وتجاهه فى الغرب منشأة أخميم. وكان أبو بشادة هذا من علماء النصارى.

«**دير بوهور الرهب**»: ويعرف بدير سواده، وسوادة عرب تنزل هناك، وهو قبالة منية بنى خصيب؛ خربته العرب.

وهذه الأديرة كلها فى الشرق من النيل، وجميعها لليعاقبة، وليس فى الجانب الشرقى الآن سواها، وأما الجانب الغربى من النيل فإنه كثير الديارات لكثرة عمارته.

«دير دموة بالجيزة» : ويعرف بدموة السباع، وهو على أسم قزمان وديمان، وهو دير لطيف، وتزعم النصارى أن بعض الحكماء ـ كان يقال له سبع ـ أقام بدموه، وأن كنيسة دموة التى بأيدى اليهود الآن كانت ديرا من ديارات النصارى، فابتاعته منهم اليهود فى ضائقة نزلت بهم، وقد تقدم ذكر كنيسة دموة. وقزمان ودميان من حكماء النصارى ورهبانهم العباد، ولهما أخبار عندهم.

«دير نهيا» : قال الشابشتى : ونهيا بالجيزة، وديرها هذا من أحسن ديارات مصر وأنزهها، وأطيبها موضعاً، وأجلها موقعاً، عامرة برهبانه وسكانه، وله فى أيام النيل منظر عجيب، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته، فإذا انصرف الماء، وزرعت الأرض، أظهرت أراضيه غرائب النواوير وأصناف الزهر. وهو من المتنزهات الموصوفة، والبقاع المستحسنة، وله خليج يجتمع فيه سائر الطير، فهو أيضاً متصيد ممتع، وقد وصفته الشعراء وذكرت حسنه وطيبه؛ قلت : وقد خرب هذا الدير.

«دير طمويه» : قال ياقوت : طمويه ـ بفتح الطاء وسكون الميم وفتح الواو وياء ساكنة ـ قريتان بمصر : إحداهما فى كورة المرتاحية، والأخرى بالجيزة.

قال الشابشتى : وطمويه فى الغرب بإزاء حلوان، والدير راكب البحر، حوله الكروم والبساتين والنخل والشجر، وهو نزه عامر آهل، وله فى النيل منظر حسن، وحين تخضر الأرض يكون فى بساطين من البحر والزرع. وهو أحد متنزهات أهل مصر المذكورة، ومواضع لهوها المشهورة.

ولابن أبى عاصم المصرى فيه من البسيط :

وأشرب بطمويه من صهباء صافية
تزرى بخمر قرى هيت وعانات
على رياض من النوار زاهرة
تجرى الجداول فيها بين جنات
كأن نبت الشقيق العصفرى بها
كاسات خمر بدت فى أثر كاسات

كأن نرجسها من حسنه حدق

في خفية يتناجى بالإشارات

كأنما النيـل في مر النسـيـم به

مستلئم في درع سابريات

منازل كنت مفتوناً بها شـغفاً

كن قدماً مواخيري وحاناتي

إذ لا أزال ملماً بالصبوح على

ضرب النواقيس صبا بالديارات

قلت : هذا الدير عند النصارى على اسم بوجرج ، ويجتمع فيه النصارى من النواحي .

«دير أقفاص» : وصوابها أقفهس . وقد خرب .

«دير خارج ناحية منهري» : حامل الذكر لأنهم لايطعمون فيه أحدا .

«دير الخادم» : على جانب المنهى بأعمال البهنسا ، على اسم غبريال الملك ، به بستان فيه نخل وزيتون .

«دير أشنين» : عرف بناحية أشنين فإنه في بحريها ، وهو لطيف على اسم السيدة مريم ، وليس به سوى راهب واحد .

«دير أيسوس» : ومعنى أيسوس يسوع ، ويقال له دير أرجنوس ، وله عيد في خامس عشري بشنس فإذا كان ليلة هذا اليوم سدت بئر فيه تعرف ببئر أيسوس ، وقد اجتمع الناس إلى الساعة السادسة من النهار ، ثم كشفوا الطابق عن البئر ، فإذا بها قد فاض ماؤها ثم ينزل ، فحيث وصل الماء قاسوا منه إلى موضع استقر فيه الماء ، فما بلغ كانت زيادة النيل في تلك السنة من الأذرع .

«دير سدمنت» : على جانب المنهى ، بالحاجر بين الفيوم والريف ، على اسم بوجرج . وقد ضعفت أحواله عما كان عليه ، وقل ساكنه .

«**دير النقلون**» : ويقال له دير الخشبة ودير غبريال الملك، وهو تحت مغارة فى الجبل الذى يقال له طارف الفيوم، وهذه المغارة تعرف عندهم بمظلة يعقوب، يزعمون أن يعقوب عليه السلام لما قدم مصر كان يستظل بها، وهذا الجبل مطل على بلدين يقال لهما أطفيح شيلا وشلا.

ويملأ الماء لهذا الدير من بحر المنهى، ومن تحت دير سدمنت، ولهذا الدير عيد يجتمع فيه نصارى الفيوم وغيرهم، وهو على السكة التى تنزل إلى الفيوم، ولا يسلكها إلا القليل من المسافرين.

«**دير القلمون**» : هذا الدير فى برية، تحت عقبة القلمون، يتوصل المسافرون منها إلى الفيوم، يقال لها عقبة الغريق. وبنى هذا الدير على اسم صمويل الراهب، وكان فى زمن الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ، ومات فى ثامن كهيك. وفى هذا الدير نخل كثير يعمل من تمرة العجوة، وفيه أيضاً شجر اللبخ ولا يوجد إلا فيه، وثمره بقدر الليمون طعمه حلو فى مثل طعم الرامخ، ولنواه عدة منافع.

وقال أبو حنيفة فى كتاب «النبات» : ولا ينبت اللبخ إلا بأنصنا، وهو عود تنشر منه ألواح السفن، وربما أرعف ناشرها، ويباع اللوح منها بخمسين ديناراً ونحوها، وإذا شد لوح منها بلوح، وطرحاً فى الماء سنة، التأما وصارا لوحاً واحداً.

وفى هذا الدير قصران مبنيان بالحجارة، وهما عاليان كبيران لبياضهما إشراق. وفيه أيضاً عين ماء تجرى، وفى خارجه عين أخرى. وبهذا الوادى عدة معابد قديمة، وثم واد يقال له الأمليح فيه عين ماء تجرى، وتخيل مثمرة تأخذ العرب ثمرها. وخارج هذا الدير ملاحة يبيع رهبان الدير ملحها، فيعم تلك الجهات.

«**دير السيدة مريم**» : خارج طنبدى، ليس فيه سوى راهب واحد، وهو على غير الطريق المسلوك. وكان بأعمال البهنسا عدة ديارات خربت.

«**دير برقانا**» : بحرى بن خالد، وهو مبنى بالحجر، وعمارته حسنة، وهو من أعمال المنية، وكان به فى القديم ألف راهب، وليس به الآن سوى راهبين، وهو فى الحاجز تحت الجبل.

«دير بالوجه» : على جنب المنهى، وهو لأهل دلجة، وهو من الأديرة الكبار، وقد خرب حتى لم يبق به سوى راهب أو راهبين، وهو بإزاء دلجة بينه وبينها نحو ساعتين.

«دير مرقورة» : ويقال أبو مرقورة. هذا الدير تحت دلجة من شرقيها، وليس به أحد.

«دير صنبو» : فى خارجها من بحريها، على اسم السيدة مريم، وليس به أحد.

«دير تادرس» : قبلى صنبو، وقد تلاشى أمره لاتضاع حال النصارى.

«دير الريرمون» : فى شرقى ناحية الريرمون، وهو شرقى ملوى وغربى أنصنا وهو على أسم الملك غبريال.

«دير المحرق» : تزعم النصارى أن المسيح عليه السلام أقام فى موضعه ستة أشهر وأياما. وله عيد عظيم - يعرف بعيد الزيتونة وعيد العنصرة - يجتمع فيه عالم كثير.

«دير بني كلب» : عرف بذلك لنزول بنى كلب حوله، وهو على اسم غبريال، وليس فيه أحد من الرهبان، وإنما هو كنيسة لنصارى منفلوط، وهو غربيها.

«دير الجاولية» : هذا الدير ناحية الجاولية من قبليها، وهو على اسم الشهيد مرقورس - الذى يقال له مرقورة - وعليه رزق حبسه، وتأتية النذورات والعوايد، وله عيدان فى كل سنة.

«دير السبعة جبال» : هذا الدير على رأس الجبل الذى غربى سيوط على شاطئ النيل، ويعرف بدير بخنس القصير، وله عدة أعياد، وخرب فى سنة إحدى وعشرين وثمانمائة من منسر طرقه ليلاً.

«بخنس» : ويقال أبو بخنس القصير. كان راهباً قمصاً له أخبار كثيرة، منها أنه غرس خشبة يابسه فى الأرض بأمر شيخه له، وسقاها الماء مدة، فصارت شجرة متمرة تأكل منها الرهبان، وسميت شجرة الطاعة ودفن فى ديره.

«دير المطل» : هذا الدير على اسم السيدة مريم، وهو على طرف الجبل تحت دير السبعة جبال رقبالة سيوط، وله عيد يحضره أهل النواحى، وليس به أحد من الرهبان.

أديرة أدرنكة

أعلم أن ناحية أدرنكة هى من قرى النصارى الصعايدة، ونصاراها أهل علم فى دينهم وتفاسيرهم فى اللسان القبطى، له أديرة كثيرة فى خارج البلد من قبليها مع الجبل، وقد خرب أكثرها، وبقى منها :

«**دير بوجرج**» : وهو عامر البناء، وليس به أحد من الرهبان، ويعمل فيه عيد فى أوانه.

«**دير أرض الحاجر ودير ميكائيل ودير كرفونه**» : على اسم السيدة مريم، وكان يقال له «أرافونة وأغرافونا»، ومعناه النساخ، فإن نساخ علوى النصارى كانت فى القديم تقيم به. وهو على طرف الجبل، وفيه مغاير كثيرة، منها ما يسير الماشى بجنبه نحو يومين.

«**دير أبي بغام**» : تحت دير كرفونة بالحاجر. وقد كان أبو بغام جندياً فى أيام ديقلطيانوس فتنصر، وغذب ليرجع عن دينه، ثم قتل فى ثامن عشرى كانون الأول وثانى كيهك.

«**دير بوساويرس**» : بحاجر أدرنكة، كان على اسم السيدة مريم. وكان ساويرس من عظماء الرهبان، فعمل بطركا وظهرت آية عند موته؛ وذلك أنه أنذرهم لما سار إلى الصعيد بأنه إذا مات ينشق الجبل، وتقع منه قطعة عظيمة على الكنيسة فلا تضرها. فلما كان فى بعض الأيام سقطت قطعة عظيمة من الجبل كما قال، فعلم رهبان هذا الدير بأن ساويرس قد مات، فأرخوا ذلك فوجدوا وقت موته، فسموا الدير حينئذ باسمه.

«**دير تادرس**» : تحت دير بوساويرس. وتادرس أثنان كانا من أجناد ديقلطيانوس : أحدهما يقال له قاتل التنين، والآخر الأسفسهلار، وقتلا كما قتل غيرهما.

«دير منسى آك» : ويقال منساك وبنى ساك وآيسا آك، ومعنى ذلك إسحاق، وكان على اسم السيدة ماريهام - يعنى مار مريم - ثم عرف بمنساك، وكان راهباً قديماً له عندهم شهرة. وبهذا الدير بئر تحته فى الحاجر منها شرب الرهبان، فإذا زاد النيل شربوا من مائة.

«**دير الرسل**» : تحت دير منساك، ويعرف بدير الأثل، وهو لأعمال بوتيج، ودير منساك لأهل ربقة هو ودير ساويرس، ودير كرافونة لأهل سيوط، ودير بوجرج لأهل أدرنكة.

ودير الأثل كان فى خراب ، فعمر بجانبه كفر لطيف عرف بمنشأة الشيخ ، لأن الشيخ أبا بكر الشاذلى أنشأه ، وأنشأ بستاناً كبيراً ، وقد وجد موضعه بئراً كبيرة ، وجد بها كنزاً . أخبرنى من شاهد من ذهبه دنانير مربعة بأحد وجهيها صليب ، وزنه الدينار مثقال ونصف .

وأديرة أدرنكة المذكورة قريب بعضها من بعض ، وبينها مغاير عديدة منقوش على ألواح فيها نقوشات من كتابة القدماء ، كما على البرابى ، وهى مزخرفة بعده أصباغ ملونة تشتمل على علوم شتى .

ودير السبعة جبال ، ودير المطل ، ودير النساخ ، خارج سيوط فى المقابر . ويقال إنه كان فى الحاجرين ثلثمائة وستون ديراً ، وإن المسافر كان لايزال من البدرشين إلى أصفون فى ظل البساتين ، وقد خرب ذلك وباد أهله .

«**دير موشة**» : وموشة خارج سيوط من قبليها . بنى على اسم توما الرسول الهندى ، وهو بين الغيطان قريب من ربقة ، وفى أيام النيل لايوصل إليه إلا فى مركب ، وله أعياد .

والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطى الصعيدى ، وهو أصل اللغة القبطية ، وبعدها اللغة القبطية البحرية . ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لايكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية ، ولهم أيضاً معرفة تامة باللغة الرومية .

«**دير أبى مقروفة**» : وأبو مقروفة أسم للبلدة التى بها هذا الدير . وهو منقور فى لحف الجبل ، وفيه عدة مغاير ، وهو على اسم السيدة مريم . وبمقروفة نصارى كثيرة غنامة ، ورعاة أكثرهم همج ، وفيهم قليل من يقرأ ويكتب . وهو دير معطش .

«**دير بومغام**» : خارج طما ، وأهلها نصارى ، وكانوا قديماً أهل علم .

«**دير بوشنودة**» : ويعرف بالدير الأبيض وهو غربى ناحية سوهاى ، وبناؤه بالحجر ، وقد خرب ولم يبق منه إلا كنيسته . ويقال إن مساحته أربعة فدادين ونصف وربع ، والباقى منه نحو فدان ، وهو دير قديم .

«**الدير الأحمر**» : ويعرف بدير أبى بشاى ، وهو بحرى الدير الأبيض بينهما نحو ثلاث ساعات ، وهو دير لطيف مبنى بالطوب الأحمر . وأبو بشاى هذا من الرهبان

المعاصرين لشنودة، وهو تلميذه، وصار من تحت يده ثلاثة آلاف راهب، وله دير آخر فى برية شيهات.

«**دير أبي ميساس**»: ويقال أبو ميسيس، واسمه موسى. وهذا الدير تحت البلينا، وهو دير كبير.

وأبو ميسيس هذا كان راهباً من أهل البلينا، وله عندهم شهرة، وهم ينذرونه، ويزعمون فيه مزاعم.

ولم يبق بعد هذا الدير إلا أديرة بحاجر إسنا ونقادة قليلة العمارة. وكان بأصفون دير كبير، وكانت أصفون من أحسن بلاد مصر، وأكثر نواحى الصعيد فواكه، وكان رهبان ديرها معروفين بالعلم والمهارة، فخربت أصفون، وخرب ديرها.

وهذا آخر أديرة الصعيد، وهى كلها متلاشية آئلة إلى الدثور، بعد كثرة عمارتها، ووفور أعداد رهبانها وسعة أرزاقهم، وكثرة ما كان يحمل إليهم.

وأما «**الوجه البحري**»: فكان فيه أديرة كثيرة خربت، وبقى منها بقية. فكان بالمقس - خارج القاهرة من بحريها - عدة كنائس هدمها الحاكم بأمر الله أبو على منصور، فى تاسع عشر ذى الحجة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وأباح ما كان فيها، فنهب منها شئ كثير جداً بعدما أمر، فى شهر ربيع الأول منها، بهدم كنائس راشدة خارج مدينة مصر من شرقيها، وجعل موضعها الجامع المعروف براشدة.

وهدم أيضاً فى سنة أربع وتسعين كنيستين هناك، وألزم النصارى بلبس السواد وشد الزنار، وقبض على الأملاك التى كانت محبسة على الكنائس والأديرة، وجعلها فى ديوان السلطان، وأحرق عدة كثيرة من الصلبان، ومنع النصارى من إظهار زينة الكنائس فى عيد الشعانين، وتشدد عليهم، وضرب جماعة منهم.

وكانت بالروضة كنيسة بجوار المقياس، فهدمها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة ثمان وثلاثين وستمائة.

وكـان فى ناحيـة أبى النمرس من الجيزة كنيسـة ، قـام فى هدمـهـا رجل من الزيالعـة ، لأنه سمع أصوات النواقيس يجهر بها فى ليلة الجمعة بهذه الكنيسة . فلم يتمكن من ذلك فى أيام الأشـرف شعبان بن حسين ، لـتمكن الأقـباط فى الدولة ، فقـام فى ذلك مع الأمـير الكبير برقوق ـ وهو يومئذ القائم بتدبير الدولة ـ حتى هدمها على يد القاضى جمال الدين محمود العـجمى ، مـحتسب القاهرة ، فى ثامن عشرى رمـضـان سنة ثمانين وسبعـمائة ، وعـملت مسجداً .

«دير الخندق» : ظاهر القـاهرة من بحريهـا عـمـره القـائد جـوهر عـوضـاً عن دير هدمـه فى القاهرة كان بالقرب من الجامع الأقمر ، حيث البئر التى تعرف الآن بئر العظمة ، وكانت إذ ذاك تعرف ببئر العظام ، من أجل أنه نقل عظاماً كانت بالدير ، وجعلها لدير الخندق . ثم هدم دير الخندق فى رابع عشرى شوال سنة ثمان وسبعين وستمائة فى أيام المنصور قلاوون ، ثم جدد هذا الدير الذى هناك بعد ذلك ، وعمل كنيستين يأتى ذكرهما فى الكنائس .

«دير سرياقوس» : كان يعـرف بأبى هور ، وله عـيد يجـتمع فيـه الناس ، وكان فـيه أعـجوبة ذكرها الشابشتى .

وهو أن من كـان به خنازير ، أخـذه رئيس هـذا الدير وأضـجـعـه ، وجـاءه بخنزير فلحس موضع الوجع ، ثم أكل الخنازير التى فيه ، فلا يتعدى ذلك إلى الموضع الصـحيح ، فإذا نظف الموضع ، ذر عليه رئيس الدير من رماد خنزير فـعل مـثل هذا العـمل من قـبل ، ودهنه بزيت قنديل البيعة ، فإنه يبرأ ، ثم يؤخذ ذلك الخنزير الذى أكل خنازير العليل ، فيـذبح ويحرق ، ويعد رماده لمثل هذه الحالة . فكان لهذا الدير دخل عظيم ممن يبرأ من هـذه العلة ، وفيه خلق من النصارى .

«دير أتريب» : ويعـرف بمارى مريم ، وعيده فى حـادى عشرى بؤونه ، وذكـر الشـابشتى أن حمامة بيضاء تأتى فى ذلك العيد فتدخل المذبح ، لا يدرون من أين جاءت ، ولا يرونها إلى يوم مثله . وقد تلاشى أمر هذا الدير حتى لم يبق به إلا ثلاثة من الرهبان ، لكنهم يجتمعون فى عيده ، وهو على شاطئ النيل قريب من بنها العسل .

«**دير المغطس**» : عند الملاحات، قريب من بحيرة البرلس، وتحج إليه النصارى من قبلى أرض مصر ومن بحريها - مثل حجهم إلى كنيسة القمامة - وذلك يوم عيده، وهو فى بشنس، ويسمونه عيد الظهور من أجل أنهم يزعمون أن السيدة مريم تظهر لهم فيه، ولهم فيه مزاعم كلها من أكاذيبهم المختلفة.

وليس بحذاء هذا الدير عمارة، سوى منشأة صغيرة فى قبليه بشرق، وبقربه الملاحة التى يؤخذ منها الملح الرشيدى. وقد هدم هذا الدير فى شهر رمضان سنة إحدى وأربعين وثمانمائة بقيام بعض الفقراء المعتقدين.

«**دير العسكر**» : فى أرض السباخ على يوم من دير المغطس، على اسم الرسل، وبقربه ملاحة الملح الرشيدى، ولم يبق به سوى راهب واحد.

«**دير جميانة**» : على اسم بوجرج، قريب من دير العسكر، على ثلاث ساعات منه، وعيده عقب عيد دير المغطس، وليس به الآن أحد.

«**دير الميمنة**» : بالقرب من دير العسكر. كانت له حالات جليلة، ولم يكن فى القديم دير بالوجه البحرى أكثر رهباناً منه، إلا أنه تلاشى أمره وخرب، فنزله الحبش وعمروه. وليس فى السباخ سوى هذه الأربعة الأديرة.

وأما وادى هبيب، وهو وادى النطرون - ويعرف ببرية شيهات، وببرية الأسقط، وبميزان القلوب - فإنه كان بها فى القديم مائة دير، ثم صارت سبعة ممتدة غرباً على جانب البرية القاطعة بين بلاد البحيرة والفيوم. وهى فى رمال منقطعة، وسباخ مالحة، وبرار منقطعة معطشة، وقفار مهلكة، وشراب أهلها من حفائر، وتحمل النصارى إليهم النذور والقرابين. وقد تلاشت فى هذا الوقت، بعدما ذكر مؤرخو النصارى أنه خرج إلى عمرو بن العاص من هذه الأديرة سبعون ألف راهب، بيد كل واحد عكاز، فسلموا عليه، وأنه كتب لهم كتاباً هو عندهم.

فمنها «**دير أبى مقار الكبير**» : وهو دير جليل عندهم، وبخارجه أديرة كثيرة خربت، وكان دير النساك فى القديم، ولا يصح عندهم بطركية البطرك حتى يجلسوه فى هذا الدير بعد

جلوسه بكرسي إسكندرية. ويذكر إنه كان فيه من الرهبان ألف وخمسمائة لاتزال مقيمة به، وليس به الآن إلا قليل منهم.

والمقارات ثلاثة: أكبرهم صاحب هذا الدير، ثم أبو مقار الإسكندراني، ثم أبو مقار الأسقف. وهؤلاء الثلاثة قد وضعت رممهم في ثلاث أنابيب من خشب، وتزورها النصارى بهذا الدير، وبه أيضاً الكتاب الذي كتبه عمرو بن العاص لرهبان وادي هبيب، بجرانة نواحي الوجه البحري، على ما أخبرني من أخبر برؤيته فيه.

«**أبو مقار الأكبر**»: هو مقاريوس. أخذ الرهبانية عن أنطونيوس، وهو أول من لبس عندهم القلنسوة والأشكيم - وهو سير من جلد فيه صليب يتوسح به الرهبان فقط - ولقى أنطونيوس بالجبل الشرقي من حيث دير العزبة، وأقام عنده مدة، ثم ألبسه لباس الرهبانية، وأمره بالمسير إلى وادي النطرون ليقيم هناك، ففعل ذلك.

واجتمع عنده الرهبان الكثيرة العدد، وله عندهم فضائل عديدة. منها: أنه كان لايصوم الأربعين إلا طاوياً في جميعها، لا يتناول غذاء ولا شراباً ألبته، مع قيام ليلها، وكان يعمل الخوص ويتقوت منه، وما أكل خبزاً طرياً قط، بل يأخذ القراقيش فيبلها في نقاعة الخوص، ويتناول منها هو ورهبان الدير ما يمسك الرمق من غير زيادة، هذا قوتهم مدة حياتهم حتى مضوا لسبيلهم.

وأما **أبو مقار الإسكندراني**، فإنه ساح من الإسكندرية إلى مقاريوس المذكور، وترهب على يديه. ثم كان أبو مقار الثالث، وصار أسقفا.

«**دير أبي بخنس القصير**»: يقال أنه عمر في أيام قسطنطين بن هيلانة. ولأبي بخنس هذا فضائل مذكورة، وهو من أجل الرهبان. وكان لهذا الدير حالات شهيرة، وبه طوائف من الرهبان، ولم يبق به الآن إلا ثلاثة رهبان.

«**دير إلياس**» عليه السلام: وهو دير للحبشة. وقد خرب دير بخنس، كما خرب دير إلياس، أكلت الأرض أخشابهما فسقطا، وصار الحبشة إلى دير سيدة بوبخنس القصير، وهو دير لطيف بجوار دير بونخنس القصير.

وبالقرب من هذه الأديرة :

«**دير أبانوب**» : وقد خرب هذا الدير أيضاً.

و «**أنبا نوب**» : هذا من أهل سمنود قتل فى الأسلام، ووضع جسده فى بيت بسمنود.

«**دير الأرمن**» : قريب من هذه الأديرة، وقد خرب.

وبجوارها أيضاً :

«**دير بوبشاى**» : وهو دير عظيم عندهم، من أجل أن بوبشاى هذا كان من الرهبان الذين فى طبقة مقاريوس وبخنس القصير، وهو دير كبير جداً.

«**دير بازاء دير بوبشاى**» : كان بيد اليعاقبة، ثم ملكته رهبان السريان من نحو ثلاثمائة سنة، وهو بيدهم الآن. ومواضع هذه الأديرة يقال لها بركة الأديرة.

«**دير سيدة برموس**» : على اسم السيدة مريم. فيه بعض رهبان، وبازائه :

«**دير موسى**» : ويقال أبو موسى الأسود ويقال برمؤس، وهذا الدير لسيدة برمؤس، فبرموس اسم الدير.

وله قصة حاصلها أن مكسيموس ودوماديوس كانا ولدى ملك الروم، وكان لهما معلم يقال له أرسانيوس، فسار المعلم من بلاد الروم إلى أرض مصر، وعبر بريه شيهان هذه، وترهب وأقام بها حتى مات، وكان فاضلاً، وأتاه فى حياته ابنا الملك المذكوران، وترهبا على يديه، فلما ماتا، بعث أبوهما فبنى على أسمهما كنيسة برموس.

وأبو موسى الأسود كان لصاً فاتكاً قتل مائة نفس، ثم إنه تنصر وترهب، وصنف عدة كتب، وكان ممن يطوى الأربعين فى صومه، وهو بربرى.

«**دير الزجاج**» : هذا الدير خارج مدينة الإسكندرية، ويقال له الهايطون، وهو على اسم بوجرج الكبير. ومن شرط البطرك أنه لابد أن يتوجه من المعلقة بمصر إلى دير الزجاج هذا، ثم أنهم فى هذا الزمان تركوا ذلك. فهذه أديرة اليعاقبة.

وللنساء ديارات تختص بهن، فمنها :

«**دير الراهبات**» : بحارة زويلة من القاهرة، وهو دير عامر بالأبكار المترهبات وغيرهن من نساء النصارى .

«**دير البنات**» : بحارة الروم بالقاهرة عامر بالنساء المترهبات .

«**دير المعلقة**» : بمدينة مصر . وهو أشهر ديارات النساء، عامر بهن .

«**دير بربارة**» : بمصر بجوار كنيسة بربارة . عامر بالبنات المترهبات .

«**بربارة**» : كانت قديسة في زمان دقلطيانوس، فعذبها لترجع عن ديانتها وتسجد للأصنام، فثبتت على دينها، وصبرت على عذاب شديد - وهي بكر لم يمسها رجل - فلما يئس منها ضرب عنقها وعنق عدة من النساء معها .

«**وللنصارى الملكية**» : قلاية بطركهم بجوار كنيسة ميكائيل، بالقرب من جسر الأفرم خارج مصر، وهي مجمع الرهبان الواردين من بلاد الروم .

«**دير بخنس القصير**» : المعروف بالقصير، وصوابه عندهم دير القصير، على وزن شهيد، وحرف فقيل دير القصير - بضم القاف وفتح الصاد وتشديد الياء - فسماه المسلمون دير القصير - بضم القاف وفتح الصاد وإسكان الياء آخر الحروف - كأنه تصغير قصير .

وأصله - كما عرفتك - دير القصير الذى هو ضد الطويل، وسمى أيضاً دير هرقل، ودير البغل، وقد تقدم ذكره . وكان من أعظم ديارات النصارى، وليس به الآن سوى واحد يحرسه، وهو بيد الملكية .

«**دير الطور**» : قال ابن سيده : الطور الجبل، وقد غلب على طور سيناء - جبل بالشام - وهو بالسريانية طورى، والنسب إليه طورى وطوارى .

وقال ياقوت : طور سبعة مواضع .

الأول : طور زيتا، بلفظ الزيت من الأدهان مقصور، علم لجبل بقرب رأس عين .

الثانى : طور زيت أيضاً جبل بالبيت المقدس، وهو شرقى سلوان .

الثالث : الطور علم لجبل بعينه مطل على مدينة طبرية بالأردن .

الرابع : الطور علم لجبل كورة تشتمل على عدة قرى بأرض مصر ، من الجهة القبلية بين مصر وجبل فاران .

الخامس : طور سيناء . اختلفوا فيه : فقيل هو جبل بقرب أيلة ، وقيل جبل بالشام ، وقيل سيناء حجازية ، وقيل سحرتية .

السادس : طور عبدين ـ بفتح العين وسكون الباء الموحدة وكسر الدال المهملة وياء آخر الحروف ونون ـ اسم لبلدة من نواحي نصيبين ، في بطن الجبل المشرف عليها المتصل بجبل جودي .

السابع : طور هارون أخي موسى عليهما السلام .

وقال الواحدي في تفسيرة : وقال الكلبي وغيره : والجبل في قوله تعالى ﴿**ولكن انظر إلى الجبل**﴾[1] أعظم جبل بمدين يقال له زبير ، وذكر الكلبي أن الطور سمى بيطور ابن إسماعيل . قال السهيلي : فلعله محذوف الياء إن كان صح ما قاله .

وقال عمر بن شيبة : أخبرني عبدالعزيز ، عن أبي معشر ، عن سعيد بن أبي سعيد ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أربعة أنهار في الجنة، وأربعة أجبل وأربع ملاحم في الجنة، فأما الأنهار فسيحان وجيحان والنيل والفرات، وأما الأجبل فالطور ولبنان وأحد وورقان** » وسكت عن الملاحم .

وعن كعب الأحبار : معاقل المسلمين ثلاثة : فمعقلهم من الروم دمشق ، ومعقلهم من الدجال الأردن ، ومعقلهم من يأجوج ومأجوج الطور .

وقال شعبة عن أرطاه بن المنذر : إذا خرج يأجوج ومأجوج ، أوحى الله تعالى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام : أنى قد أخرجت خلقاً من خلقي لا يطيقهم أحد غيري ، فمر بمن معك إلى جبل الطور ؛ فيمر ومعه من الذراري اثنا عشر ألفاً .

وقال طلق بن حبيب عن زرعة : أردت الخروج إلى الطور ، فأتيت عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فقلت له ، فقال : إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد : إلى مسجد رسول الله ﷺ ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، فدع عنك الطور فلا تأته .

---

(١) الأعراف ـ آية ١٤٣ ـ ك ٧ .

وقال القاضى أبو عبدالله محمد بن سلامة القضاعى، وقد ذكر كور أرض مصر: ومن كور القبلة قرى الحجاز، وهى كور الطور وفاران، وكورة راية والقلزم، وكورة أيلة وحيزها، ومدين وحيزها، والعويبد والحوراء وحيزهما، ثم كورة بدا وشعيب.

قلت: لا خلاف بين علماء الأخبار، من أهل الكتاب، أن جبل الطور هذا هو الذى كلم الله تعالى نبيه موسى عليه السلام عليه أو عنده، وبه إلى الآن دير بيد الملكية، وهو عامر، وفيه بستان كبير به نخل وعنب وغير ذلك من الفواكه.

وقال الشابشتى: وطور سيناء هو الجبل الذى تجلى فيه النور لموسى بن عمران عليه السلام، وفيه صعق، والدير فى أعلى الجبل مبنى بحجر أسود، عرض حصنه سبع أذرع، وله ثلاثة أبواب حديد، وفى غربيه باب لطيف، وقدامه حجر أقيم: إذا أرادوا رفعه رفعوه، وأذا قصدهم أحد أرسلوه، فأنطبق على الموضع، فلم يعرف مكان الباب.

وداخل الدير عين ماء، وخارجه عين أخرى.

وزعم النصارى أن به ناراً من أنواع النار التى كانت بيت المقدس، يقدون منها فى كل عشية، وهى بيضاء لطيفة ضعيفة الحر لاتحرق، ثم تقوى إذا أوقد منها السراج. وهو عامر بالرهبان، والناس يقصدونه، وهو من الديارات الموصوفة. قال ابن عامر فيه:

ياراهب الدير ماذا الضوء والنور

فقد أضاء بما فى ديرك الطور

هل حلت الشمس فيه دون أبرجها

أو غيب البدر فيه وهو مستور

فقال ما حله شمس ولا قمر

لكن تقرب فيه اليوم قورير

قلت: ذكر مؤرخو النصارى أن هذا الدير أمر بعمارته يوسطيانوس، ملك الروم بقسطنطينية، فعمل عليه حصن فوقه عدة قلالى، وأقيم فيه الحرس لحفظ رهبانه من قوم

يقال لهم بنو صالح من العرب . وفى أيام هذا الملك كان المجمع الخامس من مجامع النصارى .

وبينه وبين القلزم ـ وكانت مدينة ـ طريقان : إحداهما فى البر والأخرى فى البحر ، وهما جميعاً يؤديان إلى مدينة فاران ، وهى من مدائن العمالقة ، ثم منها إلى الطور مسيرة يومين ، ومن مدينة مصر إلى القلزم ثلاثة أيام ، ويصعد إلى جبل الطور بستة آلاف وستمائة وست وستين مرقاة .

وفى نصف الجبل كنيسة لإيلياء النبى ، وفى قتله كنيسة ، على اسم موسى عليه السلام ، بأساطين من رخام وأبواب من صفر ، وهو الموضع الذى كلم الله تعالى فيه موسى ، وقطع منه الألواح ، ولايكون فيها إلا راهب واحد للخدمة ، ويزعمون أنه لايقدر أحد أن يبيت فيها ، بل يهيأ له موضع من خارج يبيت فيه . ولم يبق لهاتين الكنيستين وجود .

«دير البنات بقصر الشمع بمصر» : وهو على اسم بوجرج ، وكان مقياس النيل قبل الإسلام ، وبه آثار ذلك إلى اليوم .

فهذا ما للنصارى اليعاقبة والملكية ، رجالهم ونسائهم ، من الديارات بأرض مصر . قبليها وبحريها ، وعدتها ستة وثمانون ديراً منها لليعاقبة . . . . دير ، وللملكية . . . .

ذكر كنائس النصارى

قال الأزهرى : كنيسة اليهود جمعها كنائس ، وهى معربة أصلها كنشت . إنتهى .

وقد نطقت العرب بذكر الكنيسة . قال العباس بن مرداس السلمى :

يدورون بى فى ظل كل كنيسة
وما كان قومى يبتنون الكنائسا

وقال ابن قيس الرقيات :

كأنهـــا دميـــة مصـــورة
فى بيعــة من كنـــائس الروم

«**كنيستا الخندق**» : ظاهر القاهرة. إحداهما على اسم غبريال الملاك، والأخرى على اسم مرقوريوس، وعرفت برويس، وكان راهباً مشهوراً بعد سنة ثمانمأة. وعند هاتين الكنيستين يقبر النصارى موتاهم، وتعرف بمقبرة الخندق. وعمرت هاتان الكنيستان عوضاً عن كنائس المقس فى الأيام الإسلامية.

«**كنيسة حارة زويلة بالقاهرة**» : كنيسة عظيمة عند النصارى اليعاقبه، وهى على اسم السيدة، وزعموا أنها قديمة تعرف بالحكيم زايلون، وكان قبل الملة الإسلامية بنحو ماتئين وسبعين سنة، وأنه صاحب علوم شتى، وأن له كنزاً يتوصل إليه من بئر هناك.

«**كنيسة تعرف بالمغيثة**» : بحارة الروم من القاهرة، على اسم السيدة مريم، وليس لليعاقبة بالقاهرة سوى هاتين الكنيستين.

وكان بحارة الروم أيضاً كنيسة أخرى، يقال لها كنيسة بربارة، هدمت فى سنة ثمان عشرة وسبعمائة. وسبب ذلك أن النصارى رفعوا قصة للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون يسألون الأذن فى إعادة ما تهدم منها، فأذن لهم فى ذلك، فعمروها أحسن ما كانت. فغضبت طائفة من المسلمين، ورفعوا قصة للسلطان بأن النصارى أحدثوا بجانب هذه الكنيسة بناء لم يكن فيها، فرسم للأمير علم الدين سنجر الخازن والي القاهرة بهدم ما جدوده.

فركب، وقد اجتمع الخلائق، فبادروا وهدموا الكنيسة كلها فى أسرع وقت، وأقاموا فى موضعها محراباً، وأذنوا وصلوا وقرأوا القرآن، كل ذلك بأيديهم، فلم تمكن معارضتهم خشية الفتنة. فاشتد الأمر على النصارى، وشكوا أمرهم للقاضى كريم الدين ناظر الخاص، فقام وقعد غضباً لدين أسلافه، ومازال بالسلطان حتى رسم بهدم المحراب، فهدم وصار موضعه كوم تراب، ومضى الحال على ذلك.

«**كنيسة بومنا**» : هذه الكنيسة قريبة من السد، فيما بين الكيمان بطريق مصر، وهى ثلاث كنائس متجاورة : إحداها لليعاقبة، والأخرى للسريان، وأخرى للأرمن. ولها عيد فى كل سنة تجتمع إليه النصارى.

«**كنيسة المعلقة**» : بمدينة مصر، في خط قصر الشمع، على اسم السيدة. وهي جليلة القدر عندهم، وهي غير القلاية التي تقدم ذكرها.

«**كنيسة شنودة**» بمصر : نسبت لأبي شنودة الراهب القديم، وله أخبار : منها أنه كان ممن يطوي في الأربعين إذا صام، وكان تحت يده ستة آلاف راهب يتقوت هو وإياهم من عمل الخوص، وله عدة مصنفات.

«**كنيسة مريم**» : بجوار كنيسة شنودة. هدمها علي بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس، أمير مصر، لما ولي من قبل أمير المؤمنين الهادي موسى في سنة تسع وستين ومائة، وهدم كنائس محرس قسطنطين، وبذل له النصارى في تركها خمسين ألف دينار فامتنع.

فلما عزل بموسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس، في خلافه هارون الرشيد، أذن موسى بن عيسى للنصارى في بنيان الكنائس التي هدمها علي ابن سليمان، فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة، وقالا : هو من عمارة البلاد، واحتجا بأن الكنائس التي بمصر لم تبن إلا في الإسلام في زمن الصحابة والتابعين.

«**كنيسة بوجرج الثقة**» : هذه الكنيسة في درب، بخط قصر الشمع بمصر، يقال له درب الثقة، ويجاورها كنيسة سيدة بوجرج.

«**كنيسة باربارة**» بمصر : كبيرة جليلة عندهم، وهي تنسب إلى القديسة بربارة الراهبة، وكان في زمانها راهبتان بكران، وهما أيسى وتكله، ويعمل لهن عيد عظيم بهذه الكنيسة يحضره البطريق.

«**كنيسة بوسرحة**» : بالقرب من بربارة، بجوار زاوية ابن النعمان، فيها مغارة يقال إن المسيح وأمه مريم عليهما السلام جلسا بها.

«**كنيسة بابليون**» : في قبلي قصر الشمع بطريق جسر الأفرم. وهذه الكنيسة قديمة جداً، وهي لطيفة، ويذكر أن تحتها كنز بابليون، وقد خرب ما حولها.

«**كنيسة تاودورس الشهيد**» : بجوار بابليون. نسبت للشهيد تاودورس الأسفهسلار.

«**كنيسة بومنا**» :بجوار بابليون أيضاً. وهاتان الكنيستان مغلوقتان لخراب ما حولهما.

«**كنيسة بومنا**» :بالحمراء، وتعرف الحمراء اليوم بخط قناطر السباع، فيما بين القاهرة ومصر. وأحدثت هذه الكنيسة، فى سنة سبع عشرة ومائة من سنى الهجرة، بإذن الوليد بن رفاعة أمير مصر. فغضب وهيب اليحصبى، وخرج على السلطان، وجاء إلى ابن رفاعة ليفتك به، فأخذ وقتل، وكان وهيب مدرباً من اليمن قدم إلى مصر.

فخرج القراء على الوليد بن رفاعة غضباً لوهيب وقاتلوه. وصارت معونة، أمرأة وهيب، تطوف ليلاً على منازل القراء تحرضهم على الطلب بدمه، وقد حلقت رأسها، وكانت امرأة جزلة. فأخذ ابن رفاعه أبا عيسى مروان بن عبدالرحمن اليحصبى بالقراء، فاعتذر وخلى ابن رفاعة عنهم، فسكنت الفتنة بعدما قتل جماعة.

ولم تزل هذه الكنيسة بالحمراء إلى أن كانت واقعة هدم الكنائس، فى أيام الناصر محمد بن قلاوون، على ما يأتى ذكر ذلك والخبر عن هدم جميع كنائس أرض مصر وديارات النصارى فى وقت واحد.

«**كنيسة الزهرى**» :كانت فى الموضع الذى فيه اليوم البركة الناصرية، بالقرب من قناطر السباع، فى بر الخليج الغربى غربى اللوق.

واتفق فى أمرها عدة حوادث. وذلك أن الملك الناصر محمد بن قلاوون لما أنشأ ميدان المهارى، المجاور لقناطر السباع، فى سنة عشرين وسبعمائة، قصد بناء زربية على النيل الأعظم بجوار الجامع الطيبرسى. فأمر بنقل كوم تراب كان هناك، وحفر ما تحته من الطين لأجل بناء الزربية، وأجرى الماء إلى مكان الحفر، فصار يعرف إلى اليوم بالبركة الناصرية.

وكان الشروع فى حفر هذه البركة من آخر شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وسبعمائة. فلما انتهى الحفر إلى جانب كنيسة الزهرى - وكان بها كثير من النصارى لايزالون فيها، وبجانبها أيضاً عدة كنائس فى الموضع الذى يعرف اليوم بحكر أقبغا ما بين السبع سقايات وبين قنطرة السد خارج مدينة مصر - أخذ الفعلة فى الحفر حول كنيسة الزهرى، حتى بقيت قائمة فى وسط الموضع الذى عينه السلطان ليحفر، وهو اليوم بركة الناصرية، وزاد الحفر حتى تعلقت الكنيسة.

وكان القصد من ذلك أن تسقط من غير قصد لخرابها، وصارت العامة، من غلمان الأمراء العمالين فى الحفر، وغيرهم فى كل وقت يصرخون على الأمراء فى طلب هدمها، وهم يتغافلون عنهم. إلى أن كان يوم الجمعة التاسع فى شهر ربيع الآخر من هذه السنة، وقت اشتغال الناس بصلاة الجمعة، والعمل من الحفر بطال، فتجمع عدة من غوغاء العامة بغير مرسوم السلطان، وقالوا بصوت عال مرتفع: الله أكبر، ووضعوا أيديهم بالمساحى ونحوها فى كنيسة الزهرى، وهدموها حتى بقيت كوماً، وقتلوا من كان فيها من النصارى، وأخذوا جميع ما كان فيها.

وهدموا كنيسة بومنا التى كانت بالحمراء، وكانت معظمة عند النصارى من قديم الزمان، وبها عدة من النصارى قد انقطعوا فيها، ويحمل إليهم نصارى مصر سائر ما يحتاج اليه، ويبعث إليها بالنذور الجليلة والصدقات الكثيرة. فوجد فيها مال كثير ما بين نقد ومصاغ وغيره، وتسلق العامة إلى أعلاها، وفتحوا أبوابها، وأخذوا منها مالا وقماشاً وجرار خمر، فكان أمراً مهولاً.

ثم مضوا من كنيسة الحمراء، بعدما هدموها، إلى كنيستين بجوار السبع سقايات ـ تعرف إحداهما بكنيسة البنات، كان يسكنها بنات النصارى وعدة من الرهبان ـ فكسروا أبواب الكنيستين، وسبوا البنات ـ وكن زيادة على ستين بنتا ـ وأخذوا ما عليهن من الثياب، ونهبوا سائر ما ظفروا به، وحرقوا وهدموا تلك الكنائس كلها، هذا والناس فى صلاة الجمعة.

فعندما خرج الناس من الجوامع، شاهدوا هولا كبيراً من كثرة الغبار ودخان الحريق، ومرج الناس وشدة حركاتهم ومعهم ما نهبوه، فما شبه الناس الحال لهوله إلا بيوم القيامة، وانتشر الخبر، وطار إلى الرميلة تحت قلعة الجبل. فسمع السلطان ضجة عظيمة ورجة منكرة أفزعته، فبعث لكشف الخبر، فلما بلغه ما وقع انزعج انزعاجاً عظيماً، وغضب من تجرى العامة وأقدامهم على ذلك بغير أمره، وأمر الأمير أيدغمش أميراخور أن يركب بجماعة الأوشاقية، ويتدارك هذا الخلل، ويقبض على من فعله.

فأخذ أيدغمش يتهيأ للركوب، وإذا بخير قد ورد من القاهرة أن العامة ثارت فى القاهرة، وخربت كنيسة بحارة الروم وكنيسة بحارة زويلة. وجاء الخبر من مدينة مصر أيضاً بأن العامة

قامت بمصر فى جمع كثير جداً، وزحفت إلى كنيسة المعلقة بقصر الشمع، فأغلقها النصارى وهم محصورون بها، وهى على أن تؤخذ.

فتزايد غضب السلطان، وهم أن يركب بنفسه ويبطش بالعامة، ثم تأخر لما راجعه الأمير أيدغمش، ونزل من القلعة فى أربعة من الأمراء إلى مصر، وركب الأمير بيبرس الحاجب والأمير ألماس الحاجب إلى موضع الحفر، وركب الأمير طينال إلى القاهرة، وكل منهم فى عدة وافرة، وقد أمر السلطان بقتل من قدروا عليه من العامة بحيث لايعفو عن أحد.

فقامت القاهرة ومصر على ساق، وفرت النهابة، فلم يظفر الأمراء منهم إلا بمن عجز عن الحركة بما غلبه من السكر بالخمر الذى نهبه من الكنائس، ولحق الأمير أيدغمش بمصر، وقد ركب الوالى إلى المعلقة قبل وصوله ليخرج من زقاق المعلقة من حضر للنهب، فأخذه الرجم حتى فر منهم، ولم يبق إلا أن يحرق باب الكنيسة.

فجرد أيدغمش ومن معه السيوف يريدون الفتك بالعامة، فوجدوا عالماً لما يقع عليه حصر، وخاف سوء العاقبة فأمسك عن القتل، وأمر أصحابه بإرجاف العامة من غير أهراق دم، ونادى مناديه: من وقف حل دمه. ففر سائر من اجتمع من العامة وتفرقوا، وصار أيدغمش واقفاً إلى أن أذن العصر خوفاً من عودة العامة، ثم مضى وألزم والى مصر أن يبيت بأعوانه هناك، وترك معه خمسين من الأوشاقية.

وأما الأمير ألماس فإنه وصل إلى كنائس الحمراء وكنائس الزهرى ليتداركها، فإذا بها قد بقيت كيماناً ليس بها جدار قائم، فعاد وعاد الأمراء، فردوا الخبر على السلطان، وهو لايزداد إلا حنقاً، فما زالوا به حتى سكن غضبه.

وكان الأمر فى هدم هذه الكنائس عجباً من العجب. وهو أن الناس لما كانوا فى صلاة الجمعة من هذا اليوم بجامع قلعة الجبل، فعندما فرغوا من الصلاة، قام رجل موله وهو يصيح من وسط الجامع: أهدموا الكنيسة التى فى القلعة أهدموها، وأكثر من الصياح المزعج حتى خرج عن الحد، ثم اضطرب.

فتعجب السلطان والأمراء من قوله، ورسم لنقيب الجيوش والحاجب بالفحص عن ذلك، فمضياً من الجامع إلى خرائب التتر من القلعة، فإذا فيها كنيسة قد بنيت فهدموها ولم يفرغوا من هدمها حتى وصل الخبر بواقعة كنائس الحمراء والقاهرة، فكثر تعجب السلطان من شأن ذلك الفقير، وطلب فلم يوقف له على خبر.

وأتفق أيضاً بالجامع الأزهر أن الناس لما اجتمعوا فى هذا اليوم لصلاة الجمعة، أخذ شخصاً من الفقراء مثل الرعدة، ثم قام بعدما أذن قبل أن يخرج الخطيب، وقال: أهدموا كنائس الطغيان والكفرة، نعم الله أكبر فتح الله ونصر، وصار يزعج نفسه، ويصرخ من الأساس إلى الأساس. فحدق الناس بالنظر إليه، ولم يدروا ما خبره، وافترقوا فى أمره، فقائل: هذا مجنون، وقائل: هذه إشارة لشئ. فلما خرج الخطيب أمسك عن الصياح، وطلب بعد انقضاء الصلاة فلم يوجد، وخرج الناس إلى باب الجامع، فرأوا النهابة ومعهم أخشاب الكنائس وثياب النصارى وغير ذلك من النهوب، فسألوا عن الخبر، فقيل قد نادى السلطان بخراب الكنائس، فظن الناس الأمر كما قيل، حتى تبين بعد قليل أن هذا الأمر إنما كان من غير أمر السلطان. وكان الذى هدم فى هذا اليوم من الكنائس بالقاهرة: كنيسة بحارة الروم، وكنيسة بالبندقانيين، وكنيستين بحارة زويلة.

وفى يوم الأحد الثالث من يوم الجمعة - الكائن فيه هدم كنائس القاهرة ومصر - ورد الخبر من الأمير بدر الدين بيلبك المحسنى، والى الإسكندرية، بأنه لما كان يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر بعد صلاة الجمعة، وقع فى الناس هرج، وخرجوا من الجامع وقد وقع الصياح: هدمت الكنائس. فركب المملوك من فوره، فوجد الكنائس قد صارت كوماً، وعدتها أربع كنائس، وأن بطاقة وقعت من والى البحيرة: بأن كنيستين فى مدينة دمنهور هدمتا والناس فى صلاة الجمعة من هذا اليوم، فكثر التعجب من ذلك.

إلى أن ورد فى يوم الجمعة سادس عشره الخبر، من مدينة قوص، بأن الناس عندما فرغوا من صلاة الجمعة فى اليوم التاسع من شهر ربيع الآخر، قام رجل من الفقراء وقال: يا فقراء اخرجوا إلى هدم الكنائس. وخرج فى جمع من الناس، فوجدوا الهدم قد وقع فى الكنائس، فهدمت ست كنائس كانت بقوص وما حولها فى ساعة واحدة.

وتواتر الخبر من الوجه القبلى والوجه البحرى بكثرة ما هدم فى هذا اليوم، وقت صلاة الجمعة وما بعدها، ومن الكنائس والأديرة فى جميع إقليم مصر كله ما بين قوص والإسكندرية ودمياط. فاشتد حنق السلطان على العامة خوفاً من فساد الحال، وأخذ الأمراء فى تسكين غضبه، وقالوا: هذا الأمر ليس من قدرة البشر فعله، ولو أراد السلطان وقوع ذلك على هذه الصور لما قدر عليه، وما هذا إلا بأمر الله سبحانه وبقدره لما علم من كثرة فساد النصارى وزيادة طغيانهم، ليكون ما وقع نقمة وعذاباً لهم.

هذا والعامة بالقاهرة ومصر قد اشتد خوفهم من السلطان، لما كان يبلغهم عنه من التهديد لهم بالقتل، ففر عدة من الأوباش والغوغاء، وأخذ القاضى فخر الدين، ناظر الجيش، فى ترجيع السلطان عن الفتك بالعامة وسياسة الحال معه، وأخذ كريم الدين الكبير - ناظر الخاص - يغريه بهم إلى أن أخرجه السلطان إلى الإسكندرية بسبب تحصيل المال، وكشف الكنائس التى خربت بها.

فلم يمض سوى شهر من يوم هدم الكنائس حتى وقع الحريق بالقاهرة ومصر فى عدة مواضع، وحصل فيها من الشناعة أضعاف ما كان من هدم الكنائس. فوقع الحريق فى ربع بخط الشوايين من القاهرة فى يوم السبت عاشر جمادى الأولى، وسرت النار إلى ما حوله، واستمرت إلى آخر يوم الأحد. فتلف فى هذا الحريق شئ كثير.

وعندما أطفئ وقع الحريق بحارة الديلم، فى زقاق العريسة، بالقرب من دور كريم الدين ناظر الخاص فى خامس عشرى جمادى الأولى، وكانت ليلة شديدة الريح، فسرت النار من كل ناحية حتى وصلت إلى بيت كريم الدين. وبلغ ذلك السلطان، فانزعج انزعاجاً عظيماً لما كان هناك من الحواصل السلطانية، وسير طائفة من الأمراء لإطفائه، فجمعوا الناس لإطفائه، وتكاثروا عليه.

وقد عظم الخطب من ليلة الإثنين إلى ليلة الثلاثاء، فتزايد الحال فى اشتعال النار، وعجز الأمراء والناس عن إطفائها لكثرة انتشارها فى الأماكن وقوة الريح التى ألقت باسقات

النخل، وغرقت المراكب، فلم يشك الناس فى حريق القاهرة كلها، وصعدوا المآذن، وبرز الفقراء وأهل الخير والصلاح، وضجوا بالتكبير والدعاء وجأروا، وكثر صراخ الناس وبكاؤهم، وصعد السلطان إلى أعلى القصر فلم يتمالك الوقوف من شدة الريح.

واستمر الحريق والاستحثاث يرد على الأمراء من السلطان فى إطفائه إلى يوم الثلاثاء. فنزل نائب السلطان ومعه جميع الأمراء وسائر السقائين، ونزل الأمير بكتمر الساقى، فكان يوماً عظيماً لم ير الناس أعظم فيه ولا أشد هولاً.

ووكل بأبواب القاهرة من يرد السقائين إذا خرجوا من القاهرة لأجل إطفاء النار، فلم يبق أحد من سقائى الأمراء وسقائى البلد إلا وعمل، وصاروا ينقلون الماء من المدارس والحمامات، وأخذ جميع النجارين وسائر البنائين لهدم الدور. فهدم فى هذه النوبة ما شاء الله من الدور العظيمة والرباع الكبيرة.

وعمل فى هذا الحريق أربعة وعشرون أميراً من الأمراء المقدمين، سوى من عداهم من أمراء الطبلخانات والعشراوات والمماليك، وعمل الأمراء بأنفسهم فيه، وصار الماء من باب زويلة إلى حارة الديلم فى الشارع بحراً من كثرة الرجال والجمال التى تحمل الماء.

ووقف الأمير بكتمر الساقى والأمير أرغون النائب، على نقل الحواصل السلطانية من بيت كريم الدين إلى بيت ولده بدرب الرصاصى، وخربوا ستة عشر دارا من جوار الدار وقبالتها حتى تمكنا من نقل الحواصل.

فما هو إلا أن كمل إطفاء الحريق ونقل الحواصل، وإذا بالحريق قد وقع فى ربع الظاهر، خارج باب زويلة، وكان يشتمل على مائة وعشرين بيتاً، وتحته قيسارية تعرف بقيسارية الفقراء، وهب مع الحريق ريح قوية فركب الحاجب والوالى لإطفائه، وهدموا عدة دور من حوله حتى أنطفأ.

فوقع فى ثانى يوم حريق بدار الأمير سلار، فى خط بين القصرين، ابتدأ من الباذهنج

- وكان ارتفاعه عن الأرض مائة ذراع بالعمل - فوقع الاجتهاد فيه حتى أطفئ. فأمر السلطان الأمير علم الدين سنجر الخازن والى القاهرة، والأمير ركن الدين بيبرس الحاجب، بالاحتراز واليقظة.

ونودى بأن يعمل عند كل حانوت دن فيه ماء أو زير مملوء بالماء، وأن يقام مثل ذلك فى جميع الحارات والأزقة والدروب. فبلغ ثمن كل دن خمسة دراهم بعد درهم، وثمن الزير ثمانية دراهم. ووقع حريق بحارة الروم وعدة مواضع حتى أنه لم يخل يوم من وقوع الحريق فى موضع.

فتنبه الناس لما نزل بهم، وظنوا أنه من أفعال النصارى - وذلك أن النار كانت ترى فى منابر الجوامع وحيطان المساجد والمدارس - فاستعدوا للحريق، وتتبعوا الأحوال حتى وجدوا هذا الحريق من نفط قد لف عليه خرق مبلولة بزيت وقطران.

فلما كان ليلة الجمعة النصف من جمادى، قبض على راهبين عندما خرجا من المدرسة الكهارية بعد العشاء الآخرة، وقد أشتعلت النار فى المدرسة ورائحة الكبريت فى أيديهما فحملا إلى الأمير علم الدين الخازن والى القاهرة، فأعلم السلطان بذلك، فأمر بعقوبتهما.

فما هو إلا أن نزل من القلعة، وإذا بالعامة قد أمسكوا نصرانياً، وجد فى جامع الظاهر ومعه خرق على هيئة الكعكه فى داخلها قطران ونفط، وقد ألقى منها واحدة بجانب المنبر، ومازال واقفاً إلى أن خرج الدخان، فمشى يريد الخروج من الجامع.

وكان قد فطن به شخص، وتأمله من حيث لم يشعر به النصرانى، فقبض عليه، وتكاثر الناس فجروه إلى بيت الوالى، وهو بهيئة المسلمين، فعوقت عند الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب. فاعترف بأن جماعة من النصارى قد اجتمعوا على عمل نفط وتفريقه مع جماعة من أتباعهم، وأنه ممن أعطى ذلك، وأمر بوضعه عند منبر جامع الظاهر.

ثم أمر بالراهبين فعوقبا، فاعترفا أنهما من سكان دير البغل، وأنهما هما اللذان أحرقا المواضع التى تقدم ذكرها بالقاهرة، غيرة وحنقاً من المسلمين لما كان من هدمهم الكنائس، وأن طائفة النصارى تجمعوا، وأخرجوا من بينهم مالا جزيلاً لعمل هذا النفط.

واتفق وصول كريم الدين ناظر الخاص من الإسكندرية، فعرفه السلطان ما وقع من القبض على النصارى، فقال: النصارى لهم بطرك يرجعون إليه، ويعرف أحوالهم. فرسم السلطان بطلب البطرك عند كريم الدين، ليتحدث معه فى أمر الحريق، وما ذكره النصارى من قيامهم فى ذلك، فجاء فى حماية والى القاهرة، فى الليل خوفاً من العامة. فلما أن دخل بيت كريم الدين بحارة الديلم، وأحضر إليه الثلاثة النصارى من عند الوالى، قالوا لكريم الدين - بحضرة البطرك والوالى - جميع ما اعترفوا به قبل ذلك. فبكى البطرك عندما سمع كلامهم، وقال: هؤلاء سفهاء النصارى قصدوا مقابلة سفهاء المسلمين على تخريبهم الكنائس. وانصرف من عند كريم الدين مبجلاً مكرماً، فوجد كريم الدين قد أقام له بغلة على بابة ليركبها، فركبها وسار.

فعظم ذلك على الناس، وقاموا عليه يداً واحدة، فلولا أن الوالى كان يسايره وإلا هلك. وأصبح كريم الدين يريد الركوب إلى القلعة على العادة، فلما خرج إلى الشارع، صاحت به العامة: ما يحل لك يا قاضى تحامى للنصارى وقد أحرقوا بيوت المسلمين، وتركبهم بعد هذا البغال، فشق عليه ما سمع، وعظمت نكايته.

واجتمع بالسلطان، فأخذ يهون أمر النصارى الممسوكين، ويذكر أنهم سفهاء وجهال. فرسم السلطان للوالى بتشديد عقوبتهم، فنزل وعاقبهم عقوبة مؤلمة، فاعترفوا بأن أربعة عشر راهباً بدير البغل قد تحالفوا على احراق ديار المسلمين كلها، وفيهم راهب يصنع النفط، وأنهم اقتسموا القاهرة ومصر: فجعل للقاهرة ثمانية، ولمصر ستة.

فكبس دير البغل، وقبض على من فيه، وأحرق من جماعته أربعة بشارع صليبة جامع ابن طولون فى يوم الجمعة، وقد اجتمع لمشاهدتهم عالم عظيم. فضرى من حينئذ جمهور الناس على النصارى، وفتكوا بهم، وصاروا يسلبون ما عليهم من الثياب، حتى فحش الأمر، وتجاوزوا فيهم المقدار، فغضب السلطان من ذلك، وهم أن يوقع بالعامة.

وأتفق أنه ركب من القلعة يريد الميدان الكبير فى يوم السبت، فرأى من الناس أمماً عظيمة قد ملأت الطرقات، وهم يصيحون: نصر الله الإسلام، انصر دين محمد بن عبدالله،

فخرج من ذلك. وعندما نزل الميدان، أحضر إليه الخازن نصرانيين قد قبض عليهما وهما يحرقان الدور، و فأمر بتحريقهما، فأخرجا وعمل لها حفرة، وأحرقا بمرأى من الناس.

وبينا هم فى إحراق النصرانيين إذا بديوان الأمير بكتمر الساقى قد مر يريد بيت الأمير بكتمر، وكان نصرانياً، فعندما عاينه العامة، ألقوه عن دابته إلى الأرض، وجردوه من جميع ما عليه من الثياب، وحملوه ليقلوه فى النار، فصاح بالشهادتين، وأظهر الإسلام، فأطلق.

واتفق مع هذا مرور كريم الدين، وقد لبس التشريف من الميدان، فرجمه من هنالك رجماً متتابعاً، وصاحوا به: كم تحامى للنصارى وتشد معهم؟ ولعنوه وسبوه. فلم يجد بدا من العود إلى السلطان وهو بالميدان وقد اشتد ضجيج العامة وصياحهم حتى سمعهم السلطان.

فلما دخل عليه، وأعلمه الخبر، امتلأ غضباً، واستشار الأمراء-وكان بحضرته منهم الأمير جمال الدين نائب الكرك، والأمير سيف الدين البوبكرى، والخطيرى، وبكتمر الحاجب فى عدة أخرى-فقال الأبوبكرى: العامة عمى، والمصلحة أن يخرج إليهم الحاجب، ويسألهم عن اختيارهم حتى يعلم. فكره هذا من قوله السلطان، وأعرض عنه.

فقال نائب الكرك: كل هذا من أجل الكتاب النصارى، فإن الناس أبغضوهم، والرأى أن السلطان لايعمل فى العامة شيئاً، وإنما يعزل النصارى من الديوان. فلم يعجبه هذا الرأى أيضاً، وقال للأمير ألماس الحاجب: أمض ومعك أربعة من الأمراء، وضع السيف فى العامة، من حين تخرج من باب الميدان إلى أن تصل إلى باب زويلة، وأضرب فيهم بالسيف من باب زويلة إلى باب النصر بحيث لاترفع السيف عن أحد ألبتة.

وقال لوالى القاهرة: أركب إلى باب اللوق وإلى باب البحر، ولا تدع أحداً حتى تقبض عليه وتطلع به إلى القلعة، ومتى لم تحضر الذين رجموا وكيلى (يعنى كريم الدين) وإلا وحياه رأسى شنقتك عوضاً عنهم، وعين معه عدة من المماليك السلطانية.

فخرج الأمراء بعدما تلكأوا فى المسير حتى اشتهر الخبر، فلم يجدوا أحداً من الناس حتى ولا غلمان الأمراء وحواشيهم. ووقع القول بذلك فى القاهرة، فغلقت الأسواق جميعها، وحل بالناس أمر لم يسمع بأشد منه، وسار الأمراء فلم يجدوا فى طول طريقهم أحداً إلى أن بلغوا باب النصر، وقبض الوالى من باب اللوق وناحية بولاق وباب البحر كثيراً من الكلابزية والنواتية وأسقاط الناس.

فاشتد الخوف، وعدى كثير من الناس إلى البر الغربى بالجيزة، وخرج السلطان من الميدان، فلم يجد فى طريقة إلى أن صعد قلعة الجبل أحداً من العامة. وعندما استقر بالقلعة، سير إلى الوالى يستعجل حضوره، فما غربت الشمس حتى أحضر ممن أمسك من العامة نحو مائتى رجل. فعزل منهم طائفة أمر بشنقهم، وجماعة رسم بتوسيطهم، وجماعة رسم بقطع أيديهم.

فصاحوا باجمعهم: ياخوند، ما يحل لك ما نحن الذين رجمنا. فبكى الأمير بكتمر الساقى، ومن حضر من الأمراء رحمه لهم، ومازالوا بالسلطان إلى أن قال للوالى: أعزل منهم جماعة، وأنصب الخشب من باب زويلة إلى تحت القلعة بسوق الخيل وعلق هؤلاء بأيديهم. فلما أصبح يوم الأحد، علق الجميع من باب زويلة إلى سوق الخيل، وكان فيهم من له بزة وهيئة، ومر الأمراء بهم، فتوجعوا لهم وبكوا عليهم. ولم يفتح أحد من أرباب الحوانيت بالقاهرة ومصر فى هذا اليوم حانوتاً، وخرج كريم الدين من داره يريد القلعة على العادة، فلم يستطع المرور على المصلوبين، وعدل عن طريق باب زويلة.

وجلس السلطان فى الشباك، وقد أحضر بين يديه جماعة ممن قبض عليهم الوالى، فقطع أيدى وأرجل ثلاثة منهم، والأمراء لا يقدرون على الكلام معه فى أمرهم لشدة حنقه. فتقدم كريم الدين، وكشف رأسه، وقبل الأرض وهو يسأل العفو، فقبل سؤاله وأمر بهم أن يعملوا فى حفير الجيزة، فأخرجوا وقد مات ممن قطع أيديهم اثنان، وأنزل المعلقون من على الخشب.

وعندما قام السلطان من الشباك، وقع الصوت بالحريق فى جهة جامع ابن طولون، وفى قلعة الجبل، وفى بيت الأمير ركن الدين الأحمدى بحارة بهاء الدين، وبالفندق خارج باب

البحر من المقس، وما فوقه من الربع. وفى صبيحة يوم هذا الحريق، قبض على ثلاثة من النصارى وجد معهم فتائل النفط، فأحضروا إلى السلطان، واعترفوا بأن الحريق كان منهم، وأستمرالحريق فى الأماكن إلى يوم السبت.

فلما ركب السلطان إلى الميدان على عادته، وجد نحو عشرين ألف نفس من العامة قد صبغوا خرقاً بلون أزرق، وعملوا فيها صلباناً بيضا، وعندما رأوا السلطان صاحوا بصوت عال واحد: لا دين إلا دين الإسلام. نصر الله دين محمد بن عبدالله. يا ملك الناصر يا سلطان الإسلام انصرنا على أهل الكفر، ولا تنصر النصارى.

فارتجت الدنيا من هول أصواتهم، وأوقع الله الرعب فى قلب السلطان وقلوب الأمراء، وسار وهو فى فكر زائد حتى نزل بالميدان، وصراخ العامة لايبطل. فرأى أن الرأى فى استعمال المدارة، وأمر الحاجب أن يخرج وينادى بين يديه: من وجد نصرانياً فله ماله ودمه، فخرج ونادى بذلك، فصاحت العامة وصرخت: نصرك الله، وضجوا بالدعاء.

وكان النصارى يلبسون العمائم البيض، فنودى فى القاهرة ومصر: من وجد نصرانياً بعمامة بيضاء حل له دمة وماله. وخرج مرسوم بلبس النصارى العمامة الزرقاء، وألا يركب أحد منهم فرساً ولا بغلاً، ومن ركب حماراً فليركبه مقلوباً، ولا يدخل نصرانى الحمام إلا وفى عنقة جرس، ولا يتزيا أحد منهم بزى المسلمين.

ومنع الأمراء من استخدام النصارى، وأخرجوا من ديوان السلطان، وكتب لسائر الأعمال بصرف جميع المباشرين من النصارى، وكثر إيقاع المسلمين بالنصارى حتى تركوا السعى فى الطرقات، وأسلم منهم جماعة كثيرة. وكان اليهود قد سكت عنهم فى هذه المدة، فكان النصرانى إذا أراد أن يخرج من منزله، يستعير عمامة صفراء من أحد من اليهود، ويلبسها حتى يسلم من العامة.

واتفق أن بعض دواوين النصارى كان له عند يهودى مبلغ أربعة آلاف درهم نقرة، فصار إلى بيت اليهودى وهو متنكر فى الليل ليطالبه، فأمسكه اليهودى وقال: أنا بالله وبالمسلمين، وصاح. فاجتمع الناس لأخذ النصرانى، ففر إلى داخل بيت اليهودى،

واستجار بامرأته، وأشهد عليه بإبراء اليهودى حتى خلص منه. وعثر على طائفة من النصارى بدير الخندق يعملون النفط لإحراق الأماكن، فقبض عليهم وسمروا.

ونودى فى الناس بالأمان، وأنهم يتفرجون على عادتهم عند ركوب السلطان إلى الميدان. وذلك أنهم كانوا قد تخوفوا على أنفسهم لكثرة ما أوقعوا بالنصارى، وزادوا فى الخروج عن الحد، فأطمأنوا، وخرجوا على العادة إلى جهة الميدان، ودعوا للسلطان، وصاروا يقولون: نصرك الله يا سلطان الأرض، أصطلحنا اصطلحنا،، وأعجب السلطان ذلك، وتبسم من قولهم. وفى تلك الليلة وقع حريق فى بيت الأمير ألماس الحاجب من القلعة، وكان الريح شديداً، فقويت النار وسرت إلى بيت الأمير أيتمش، فانزعج أهل القلعة وأهل القاهرة، وحسبوا أن القلعة جميعها احترقت.

ولم يسمع بأشنع من هذه الكائنة. فإنه احترق على يد النصارى بالقاهرة ربع فى سوق الشوابين، وزقاق العريسة بحارة الديلم، وستة عشر بيتاً بجوار بيت كريم الدين، وعدة أماكن بحارة الروم، ودار بهادر بجوار المشهد الحسينى، وأماكن باصطبل الطارمة وبدرب العسل، وقصر أمير سلاح، وقصر سلار بخط بين القصرين، وقصر بيسرى، وخان الحجر والجملون، وقيسارية الأدم، ودار بيبرس بحارة الصالحية، ودار ابن المغربى بحارة زويلة، وعدة أماكن بخط بئر الوطاويط وبالحكر وفى قلعة الجبل، وفى كثير من الجوامع والمساجد إلى غير ذلك من الأماكن بمصر والقاهرة يطول عددها.

وخرب من الكنائس كنيسة بخرائب التتر من قلعة الجبل، وكنيسة الزهرى فى الموضع الذى فيه الآن البركة الناصرية، وكنيسة الحمراء، وكنيسة بجوار السبع سقايات، تعرف بكنيسة البنات، وكنيسة أبى المنيا، وكنيسة الفهادين بالقاهرة، وكنيسة بحارة الروم، وكنيسة بالبندقانيين، وكنيستان بحارة زويلة، وكنيسة بخزانة البنود، وكنيسة بالخندق، وأربع كنائس بثغر الإسكندرية، وكنيستان بمدينة دمنهور الوحش، وأربع كنائس بالغربية، وثلاث كنائس بالشرقية، وست كنائس بالبهنساوية، وبسيوط ومنفلوط ومنية الخصيب ثمان، وبقوص وأسوان إحدى عشرة كنيسة، وبالأطفيحية كنيسة، وبسوق وردان من مدينة مصر، وبالمصاصة وقصر الشمع من مصر ثمان كنائس، وخرب من الديارات شئ كثير، وأقام دير البغل ودير شهران مدة ليس فيهما أحد.

وكانت هذه الخطوب الجليلة فى مدة يسيرة، قلما يقع مثلها فى الأزمان المتطاولة، هلك فيها من الأنفس، وتلف فيها من الأموال وخرب من الأماكن، ما لا يمكن وصفه لكثرته، ولله عاقبة الأمور.

«**كنيسة ميكائيل**» . . هذه الكنيسة كانت عند خليج بنى وائل خارج مدينة مصر، قبلى عقبة يحصب، وهى الآن قريبة من جسر الأفرم، أحدثت فى الإسلام، وهى مليحة البناء.

«**كنيسة مريم**» : فى بساتين الوزير قبلى بركة الحبش، خالية ليس بها أحد.

«**كنيسة مريم**» : بناحية العدوية من قبليها قديمة، وقد تلاشت.

«**كنيسة أنطونيوس**» : بناحية بياض قبلى أطفيح، وهى محدثة.

وكان بناحية شرنوب عدة كنائس خربت، وبقى بناحية أهربت الجبل قبلى بياض بيومين.

«**كنيسة السيدة**» : بناحية أشكر، وعلى بابها برج مبنى بلبن كبار. يذكر أنه موضع ولد موسى بن عمران عليه السلام.

«**كنيسة مريم**» : بناحية الخصوص، وهى بيت فعملوه كنيسه لا يعبأ بها.

«**كنيسة مريم، وكنيسة بخنس القصير، وكنيسة غبريال**» : هذه الكنائس الثلاث بناحية أبنوب.

«**كنيسة أسبوطير**» ومعناه المخلص : هذه الكنيسة بمدينة أخميم، وهى كنيسة معظمة عندهم، وهى على اسم الشهداء، وفيما بئر إذا جعل ماؤها فى القنديل صار أحمر قانياً كأنه الدم.

«**كنيسة ميكائيل**» . . بمدينة أخميم أيضاً.

ومن عادة النصارى بهاتين الكنيستين إذا عملوا عيد الزيتونة ـ المعروف بعيد الشعانين ـ أن يخرج القسوس والشمامسة بالمجامر والبخور والصلبان والأناجيل والشموع المشعلة، ويقفوا على باب القاضى، ثم أبواب الأعيان من المسلمين، فيبخروا ويقرأوا فصلاً من الأنجيل، ويطرحوا له طرحاً؛ يعنى يمدحونة.

«**كنيسة بوبخوم**» :بناحية أتفه، وهى آخر كنائس الجانب الشرقى. ويخوم ـ ويقال بخوميوس ـ كان راهباً فى زمن بوشنودة، ويقال له أبو الشركة من أجل أنه كان يربى الرهبان، فيجعل لكل راهبين معلماً، وكان لايمكن من دخول الخمر ولا اللحم إلى ديره، ويأمر بالصوم إلى آخر التاسعة من النهار، ويطعم رهبانه الحمص المصلوق ـ ويقال له عندهم حمص القلة ـ وقد خرب ديره، وبقيت كنيسته هذه بأتفه قبلى أخميم.

«**كنيسة مرقص الأنجيلى**» بالجيزة: خربت بعد سنة ثمانمائة، ثم عمرت. ومرقص هذا أحد الحواريين، وهو صاحب كرسى مصر والحبشة.

«**كنيسة بوجرج**» :بناحية أبى النمرس من الجيزة. هدمت فى سنة ثمانين وسبعمائة ـ كما تقدم ذكره ـ ثم أعيدت بعد ذلك.

«**كنيسة بوفار**» :آخر أعمال الجيزة.

«**كنيسة شنودة**» :بناحية هربشت.

«**كنيسةبوجرج**» بناحية ببا : وهى جليلة عندهم يأتونها بالنذور، ويحلفون بها، ويحكون لها فضائل متعددة.

«**كنيسة ماروطا القديس**» بناحية سمسطا: وهم يبالغون فى ماروطا هذا، وكان من عظماء رهبانهم، وجسده فى أنبوبة بدير بوبشاى من برية شيهات يزورونه إلى اليوم.

«**كنيسة مريم بالهنسا**» :ويقال إنه كان بالبهنسا ثلاثمائة وستون كنيسة خربت كلها، ولم يبق بها إلا هذه الكنيسة لاغير.

«**كنيسة صمويل**» :الراهب بناحية شبرى.

«**كنيسة مريم**» :بناحية طنبدى، وهى قديمة.

«**كنيسة ميخائيل**» :بناحية طنبدى، وهى كبيرة قديمة، وكان هناك كنائس كبيرة خربت. وأكثر أهل طنبدى نصارى أصحاب صنائع.

«**كنيسة الأيصطولى**» :أعنى الرسل بناحية أشنين، وهى كبيرة جداً.

«كنيسة مريم» : بناحية أشنين أيضاً وهى قديمة .

«كنيسة ميخائيل وكنيسة غبريال» : بناحية أشنين أيضاً . وكان بهذه الناحية مائة وستون كنيسة ، خربت كلها إلا هذه الكنائس الأربع ، وأكثر أهل أشنين نصارى ، وعليهم الدرك فى الحقارة . وبظاهرها آثار كنائس يعملون فيها أعيادهم : منها كنيسة بوجرج ، وكنيسة مريم ، وكنيسة ماروطا ، وكنيسة بربارة ، وكنيسة كفريل ، وهو جبريل عليه السلام .

وفى منية ابن خصيب ست كنائس : كنيسة المعلقة ، وهى كنيسة السيدة ، وكنسية بطرس وبولص ، وكنيسة ميكائيل ، وكنيسة بوجرج ، وكنيسة أنبا بولا الطمويهى ، وكنيسة الثلاث فتية ـ وهم حنانيا ، وعزارياً ، وميصائيل ـ وكانوا أجناداً فى أيام بخت نصر ، فعبدوا الله تعالى خفية .

فلما عثروا عليهم ، راودهم بخت نصر أن يرجعوا إلى عبادة الأصنام ، فامتنعوا من ذلك فسجنهم مدة ليرجعوا ، فلم يرجعوا ، فأخرجهم ، وألقاهم فى النار ، فلم تحرقهم . والنصارى تعظمهم ، وإن كانوا قبل المسيح بدهر .

«كنيسة بناحية طحا» : على اسم الحواريين الذين يقال لهم عندهم الرسل .

«كنيسة مريم» : بناحية طحا أيضاً .

«كنيسة الحكيمين» بناحية منهرى : لها عيد عظيم فى بشنس يحضره الأسقف ، ويقام هناك سوق كبير فى العيد . وهذان الحكيمان هما قزمان ودميان الراهبان .

«كنيسة السيدة» بناحية بقرقاس : قديمة كبيرة .

وبناحية ملوى **«كنيسة الرسل»** ، وكنيستان خراب : إحداهما على اسم بوجرج ، والأخرى على أسم الملك ميخائيل .

وبناحية دلجة كنائس كثيرة لم يبق منها إلا ثلاث كنائس : كنيسة السيدة وهى كبيرة ، وكنيسة شنودة ، وكنيسة مرقورة . وقد تلاشت كلها .

وبناحية صنبو كنيسة أنبا بولا ، وكنيسة بوجرج . وصنبو كثيرة النصارى .

وبناحية ببلاو - وهى بحرى صنبو - كنيسة قديمة، بجانبها الغربى، على اسم جرجس وبها نصارى كثيرون فلاحون.

وبناحية دروط كنيسة، وفى خارجها شبه الدير على اسم الراهب ساراماتون، وكان فى زمان شنوده، وعمل أسقفا، وله أخبار كثيرة.

وبناحية بوق بنى زيد كنيسة كبيرة على اسم الرسل، ولها عيد.

وبالقوصية كنيسة مريم، وكنيسة غبريال.

وبناحية دمشير كنيسة الشهيد مرقوريوس وهى قديمة، وبها عدة نصارى.

وبناحية أم القصور كنيسة بويخنس القصير، وهى قديمة.

وبناحية بلوط، من ضواحى منفلوط، كنيسة ميخائيل، وهى صغيرة.

وبناحية البلاعزة، من ضواحى منفلوط كنيسة صغيرة يقيم بها القسيس بأولاده.

وبناحية شقلقيل ثلاث كنائس كبار قديمة: إحداهما على اسم الرسل، وأخرى باسم ميخائيل، وأخرى باسم بومنا.

وبناحية منشأة النصارى كنيسة ميخائيل، وبمدينة سيوط كنيسة بوسدرة، وكنيسة الرسل، وبخارجها كنيسة بومينا.

وبناحية درنكة كنيسة قديمة جداً على اسم الثلاثة فتية: حنانيا، وعزاريا، وميصائيل، وهى مورد لفقراء النصارى. ودرنكة أهلها من النصارى يعرفون اللغة القبطية، فيتحدث صغيرهم وكبيرهم بها، ويفسرونها بالعربية.

وبناحية ريفة كنيسة بوقلته، الطبيب الراهب، صاحب الأحوال العجيبة فى مداواة الرمدى من الناس، وله عيد يعمل بهذه الكنيسة، وبها كنيسة ميخائيل أيضاً، وقد أكلت الأرضة جانب ريفة الغربى.

وبناحية موشة كنيسة مركبة على حمام، على اسم الشهيد بقطر، وبنيت فى أيام قسطنطين ابن هيلانة، ولها رصيف عرضه عشرة أذرع، ولها ثلاث قباب، ارتفاع كل منها

نحو الثمانين ذراعاً، مبنية بالحجر الأبيض كلها، وقد سقط نصفها الغربى، ويقال إن هذه الكنيسة على كنز تحتها، وذكر أنه كان من سيوط إلى موشة هذه ممشاه تحت الأرض.

وبناحية بقور، من ضواحى بوتيج، كنيسة قديمة للشهيد اكلوديس. وهو يعدل عندهم مرقوريوس وجا أرجيوس، وهو أبو جرح، والأسفسهلار تادروس وميناس، وكان أكلوديوس أبوه من قواد دقلطيانوس، وقد عرف هو بالشجاعة فتنصر، فأخذه الملك وعذبه ليرجع إلى عبادة الأصنام، فثبت حتى قتل، وله أخبار كثيرة.

وبناحية القطيعة كنيسة على أسم السيدة. وكان بها أسقف، يقال له ألدوس، بينه وبينهم منافرة، فدفنوه حياً وهم من شرار النصارى معروفون الشر، كان منهم نصرانى، يقال له جرجس بن الراهبة تعدى طوره، فضرب وقته الأمير جمال الدين يوسف الأستادار بالقاهرة فى أيام الناصر فرج بن برقوق.

وبناحية بوتيج كنائس كثيرة قد خربت. وصار النصارى يصلون فى بيت لهم سراً، فإذا طلع النهار خرجوا إلى آثار كنيسة، وعملوا لها سياجاً من جريد شبه القفص، وأقاموا هناك عباداتهم.

وبناحية بومقروفة كنيسة قديمة لميخائيل، ولها عيد فى كل سنة. وأهل هذه الناحية نصارى أكثرهم رعاة غنم، وهم همج رعاع.

وبناحية دوينة كنيسة على اسم بوبخس القصير، وهى قبة عظيمة، وكان بها رجل، يقال له يونس، عمل أسقفا، واشتهر بمعرفة علوم عديدة. فتعصبوا عليه حسداً منهم له على علمه، ودفنوه حياً، وقد توعك جسمه.

وبالمراغة التى بين طهطا وطما كنيسة.

وبناحية قلفاو كنيسة كبيرة، وتعرف نصارى هذه البلدة بمعرفة السحر ونحوه، وكان بها فى أيام الظاهر برقوق شماس، يقال له أبصاطيس، له فى ذلك يد طولى، ويحكى عنه ما لا أحب حكايته لغرابته.

وبناحية فرشوط كنيسة ميخائيل، وكنيسة السيدة مارت مريم، وبمدينة هو كنيسة السيدة وكنيسة بومنا.

وبناحية بهجورة كنيسة الرسل. وبإسنا كنيسة مريم وكنيسة ميخائيل، وكنيسة يوحنا المعمدانى، وهو يحيى بن زكريا عليهما السلام. وبنقادة كنيسة السيدة وكنيسة يوحنا المعمدانى، وكنيسة عبريال، وكنيسة يوحنا المرحوم، وهو من أهل أنطاكية ذوى الأموال، فزهد وفرق ماله كله فى الفقراء، وساح - وهو على دين النصرانية - فى البلاد، فعمل أبواه عزاءه، وظنوا أنه قد مات، ثم قدم أنطاكية فى حالة لا يعرف فيها، وأقام فى كوخ على مزبلة، وأقام رمقه بما يلقى على تلك المزيلة حتى مات، فلما عملت جنازته كان ممن حضرها أبوه فعرف غلاف إنجيله، ففحص عنه حتى عرف أنه ابنه فدفنه، وبنى عليه كنيسة أنطاكية.

وبمدينة قفط كنيسة السيدة، وكان باصفون عدة كنائس خربت بخرابها. وبمدينة قوص عدة أديرة، وعدة كنائس خربت بخرابها، وبقى بها كنيسة السيدة، ولم يبق بالوجه القبلى من الكنائس سوى ما تقدم ذكرنا له.

وأما الوجه البحرى

ففى منيه صرد، من ضواحى القاهرة، كنيسة السيدة مريم، وهى جليلة عندهم.

وبناحية سندوة كنيسة محدثة، على اسم بوجرج.

وبمرصفا كنيسة مستجدة، على اسم بوجرج أيضاً.

ويسمنود كنيسة على اسم الرسل، عملت فى بيت.

وبسنباط كنيسة جليلة عندهم، على اسم الرسل.

وبصندفة كنيسة معتبرة عندهم، على اسم بوجرج.

وبالريدانية كنيسة السيدة، ولها قدر جليل عندهم.

وفى دمياط أربع كنائس للسيدة، ولميخائيل، وليوحنا المعمدانى، ولمارى جرجس، ولها مجد عندهم.

وبناحية سبك العبيد كنيسة محدثة، فى بيت مخفى، على اسم السيدة.

وبالنحراوية كنيسة محدثة، فى بيت مخفى، وفى لقانه كنيسة بوبخنس القصير، وبدمنهور كنيسة محدثة، فى بيت مخفى، على اسم ميخائيل، وبالإسكندرية المعلقة على أسم السيدة، وكنيسة بوجرج، وكنيسة يوحنا المعمدانى، وكنيسة الرسل.

فهذه كنائس اليعاقبة بأرض مصر.

ولهم بغزة كنيسة مريم، ولهم بالقدس القمامة، وكنيسة صهيون.

وأما الملكية فلهم بالقاهرة كنيسة مارى نقولا بالبندقانيين، وبمصر كنيسة غبريال الملاك بخط قصر الشمع، وبها قلاية لبطركهم وكنيسة السيدة بقصر الشمع أيضاً، وكنيسة الملاك ميخائيل بجوار بريارة بمصر، وكنيسة ماريوحنا بخط دير الطين. والله أعلم.

وهذا آخر الجزء الثالث، وبتمامه تم الكتاب، والحمد لله وحده، وصلى الله على من لانبى بعده، ورضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا عدوان إلا على الظالمين.

* * *

فهرس الجزء الثالث

من كتاب «الخطط» للمقريزى

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــــــــوع	الصفحة

هذه السلسلة تضم

١ - فتح العرب لمصر

٢ - تاريخ مصر إلى الفتح العثماني

٣ - الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي

٤ - تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي

٥ - تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل

٦ - تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر

٧ - [illegible]

٨ - تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد أول)

٩ - تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد ثاني)

١٠ - [illegible]

١١ - تاريخ مصر الحديث مع [illegible] في تاريخ مصر القديم

١٢ - [illegible]

١٣ - تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث

١٤ - الحكم المصري في الشام

١٥ - [illegible]

١٦ - [illegible]

١٧ - [illegible]

١٨ - الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم

١٩ - وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر تاريخ البطاركة

٢٠ - [illegible]

٢١ - [illegible]

٢٢ - [illegible]

٢٣ - [illegible]

٢٤ - المماليك في مصر

٢٥ - تاريخ دولة المماليك في مصر

٢٦ - [illegible]

٢٧ - محمود فهمي النقراشي

٢٨ - [illegible]

٢٩ - [illegible]

٣٠ - [illegible]

٣١ - [illegible]

٣٢ - [illegible]

٣٣ - [illegible]

٣٤ - [illegible]

٣٥ - [illegible]

٣٦ - [illegible]

٣٧ - [illegible]

٣٨ - [illegible]

٣٩ - [illegible]